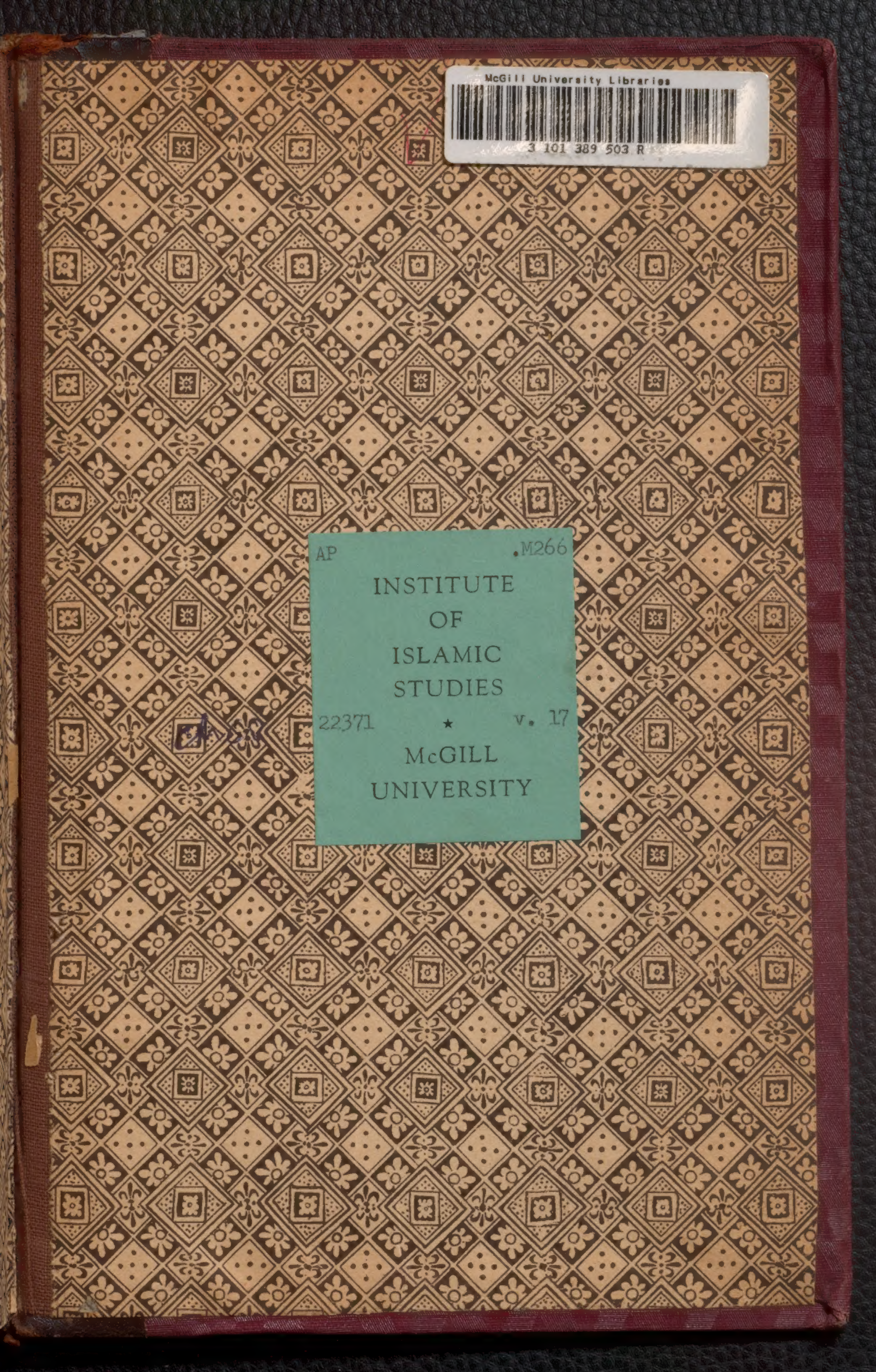
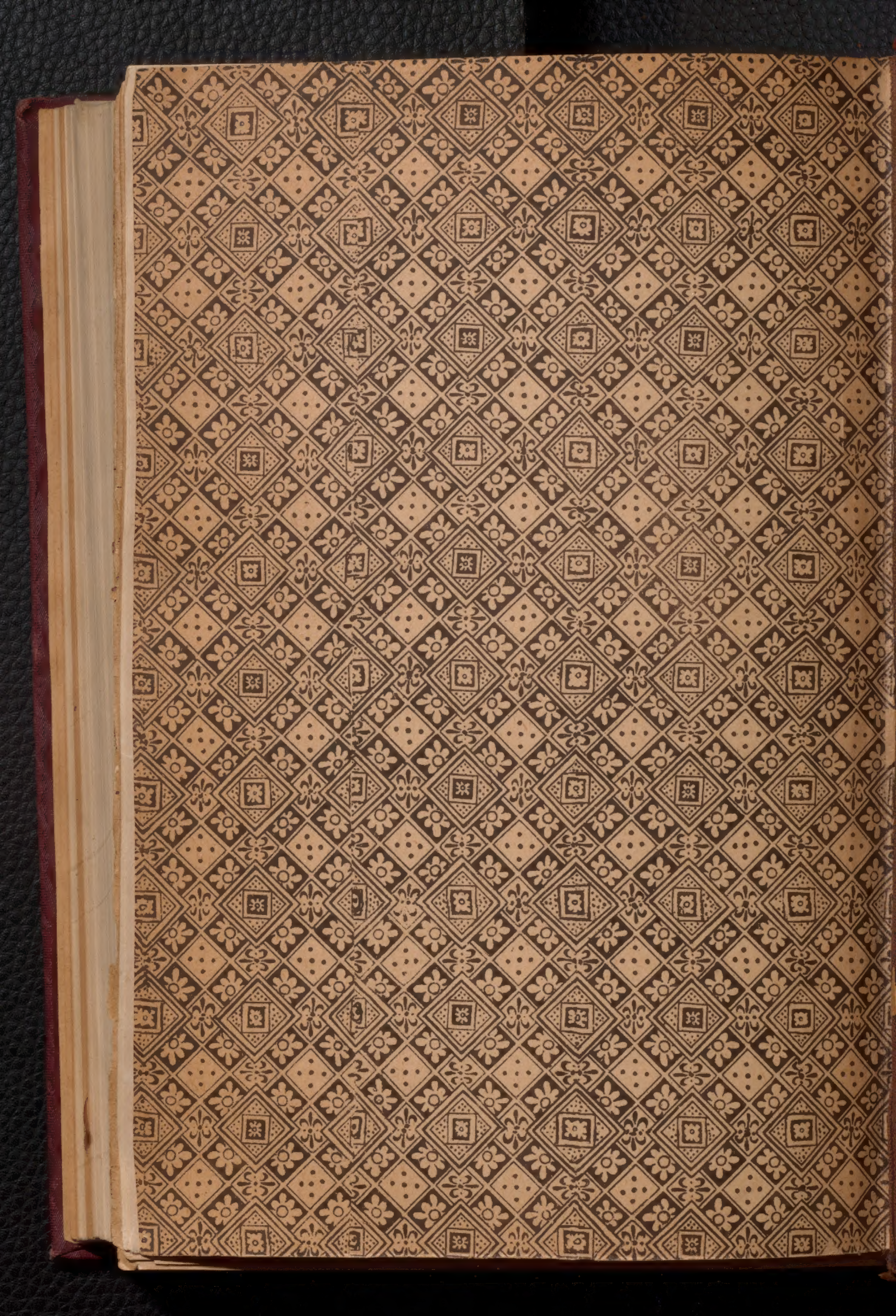

McGill University Libraries
3101389503R


McGill University Libraries
3 101 389 503 R
AP .M266
INSTITUTE
OF
ISLAMIC
STUDIES
22371 ★ v. 17
McGILL
UNIVERSITY





مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

ناظر مدرسة دار الدعوة والارشاد

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد السابع عشر

سنة ١٣٣٢ هـ ق ١٢٩٢ هـ ش

قيمة الاشتراك عن سنة ثمانون قرشاً صحيحاً في مصر والسودان
وفي المملكة العثمانية أربعة ريالات وفي الخارج ٢٣ فرنكا و٥٩ سانتيما
و ١٤ روبية في الهند و٩ روابل في روسية والدفع سلفاً

الطبعة الاولى

مطبعة المنار بمصر

﴿ فهرس عام لجميع المواد التي وردت في المجلد السابع عشر ﴾

هذا الفهرس يشمل أكثر المسائل المهمة في هذا المجلد . والاصفار التي عن يسار الارقام فيه تشير الى أن المسألة مكررة في ذلك السياق . ويليه فهرس لابواب المجلة وفهرس للمطبوعات وآخر لاسماء الكتاب، وقد راعينا الترتيب الهجائي في الكلمة الثانية اذا كانت الكلمة التي قبلها تماثلها وأهملنا الترتيب في حروف العطف والجر وقدمنا المعرف

أ

ت

صفحة

صفحة

ح

خ

س

ش

ص ـ ض

ط ـ ظ

ك

﴿ الفهرس الثاني لابواب المجلة ﴾

الاخبار والآراء

﴿ الفهرس الثالث ﴾

المطبوعات

الكتب والرسائل فالمجلات فالجرائد



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر ٣٠ المحرم ١٣٣٢ هـ ق ٨ الشتاء الاول ١٢٩٢ هـ ش ٢٨ ديسمبر ١٩١٣

فاتحة السنة السابعة عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢٧ : ٥٩) قُلِ الحمدُ للهِ وَسلامٌ على عِبادِهِ الَّذينَ اصْطَفَى ، آللهُ خيرٌ أمّا يُشرِكون (٢٧ : ٩٣) وَقُلِ الحمدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فتَعْرِفُونَها ، وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٤٥ : ٣٥) فللهِ الحمدُ ربِّ السمواتِ وربِّ الأرض ربِّ العالمين ٣٦ وله الكبرياء في السمواتِ والارض وهو العزيز الحكيم) فنحمده بما حمد به نفسه ، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه ورسله ، وصفوته من بني آدم الذين فضلهم على كثير من خلقه ، محمد

النبي الامي ، العربي الحجازي ، الذي أرسله رحمة للعالمين ، وأتم به نعمته في الدنيا والدين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الهادين المهديين ، والتابعين لهم في هدايتهم وهديهم الى يوم الدين .

وبعد فاننا نذكّر قراء المنار على رأس سنته السابعة عشرة بنحو ما ذكرناهم به في السنين الخالية ، من سوء عاقبة الإفراط والتفريط اللذين رزئت بهما أمتهم الجاهلة الغافلة ، — الافراط في عبادة الهوى واتباع الشهوات ، والانهماك في الفواحش والمنكرات ، والمحافظة على البدع وسيئ العادات ، - والتفريط في حقوق الله وحقوق الامة ، وما يجب من التزام هدي الكتاب والسنة ، ومجاراة الامم بما يستطاع من حول وقوة ، ولا سيما قوة الاعتصام والوحدة ، وقوة العلم والمعرفة ، وقوة الكسب والثروة . ثم نذكرهم بتلك الآيات والعبر ، وهاتيك المواعظ والنذر ، وبما يفتنون به في كل عام ، وما تسلب من ملكهم الامم والاقوام ، وبيان سنن الله تعالى في الظالمين والمسرفين ، (٦:٤) وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين (١٠:١٠١) قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون[1] ١٠٢ - فهل ينظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين)

سبحان الله ! ان من العقلاء من يتعظ بالعبارة ، ومنهم من يكتفي بما توحيه اليه الاشارة ، وانهم ليستنبطون من وقائع الاحوال ، ما يستعدون به لما ينتظر في الاستقبال ، ولو على سبيل الفرض والاحتمال

(١) أي لا يصدقون بما تدل عليه الآيات وما تخوفهم به النذر والمواعظ لجهلهم وعدم تدبرهم

وان الامم أشد من الافراد احتياطا ، وأخفى حيلة وأدق استنباطا ، وأوسع في المستقبل آمالا ، وأكثر استعدادا له وأعمالا ، لانها أطول أعمارا ، وأشد قوة واقتدارا ، وأكثر أعوانا وأنصارا ، فما بال أمتنا لاتتعظ بكلام الله ولا بكلام البشر ، ولا تعتبر بما تشاهده من الأحداث والعبر ، وكلما أنذرها الله بطشته تمارى بالنُّذُر ؟ ! (٥٤ : ٤ ولقد جاءهم من الانباء مافيه مُزْدَجَر ٥ حكمة بالغة فما تغني النُّذُر * ـ ٢١ : ٤٥ قل إنما أُنذركم بالوحي ولا يسمعُ الصمُّ الدعاءَ إذا مايُنذَرُونَ)

تركت هذه الامة هداية القرآن ، ففاتها ما كانت نالت به من الملك والسلطان ، والعلم والعرفان ، والبسطة في العمران ، وأمست غافلة عن سبب ذلك التوفيق وهذا الخذلان ، بل أتى عليها أحقاب من الزمان ، لاتشعر بكنه هذا الخسران ، وقد استيقظ فيها الشعور بما فسد من أمر دنياها ، قبل الشعور بما كان سببا له من فساد أمر دينها ، وبما خسرت من سلطانها وأملاكها ، قبل الشعور بما خسرت من أخلاقها وملكاتها ، ولما شعرت بالخطر على حياتها المادية والسياسية ، غافلة عن عللها الروحية وأسبابها المعنوية ، شرعت في شيء من الاصلاح الصوري ، بدون أن تؤيده بروح الاصلاح المعنوي ، فعُد السلطان محمود مصلحا بتغيير الزي الرسمي ونظام الجندية ، والسلطان عبد المجيد مصلحا باعلان التنظيمات الخيرية ، والسلطان عبد الحميد مصلحا بانشاء نظارة العدلية ، ومصطفى رشيد باشا مصلحا بادخال الدولة العثمانية في سلك الدول الاوربية ، ومدحت باشا وأعوانه مصلحين باقتباس القوانين الغريبة الغربية ، ومحمد علي باشا وأحفاده مصلحين بفَرْنَجَةِ البلاد المصرية ، والامير عبد الرحمن

خان مصلحا بالتأليف بين القبائل الافغانية. ولم تتوجه همة أحد الى إصلاح الاخلاق والعادات ، وازالة البدع والمنكرات ، وجمع الكلمة التي فرقتها المذاهب واللغات ، فما زاد الأمة ذلك الاصلاح الصوري الا ضروبا من الفساد ، ولا أفاد الدولة الا إضعاف الاستقلال وإضاعة البلاد ، (٢١ . ٤٤ بل متَّعنا هؤلاءِ وآباءَهم حتى طال عليهم العُمُر ، أفلا يَرَون أنَّا نأتي الارضَ نَنْقُصها من أطرافها ؟ أفَهُمُ الغالبون ؟)

لا أقول ان جميع ماقام به أولئك الرجال لم يكن مطلوبا ، ولا أقول ان ضرره وما ترتب عليه من الفساد كان ذاتيا ، بل أقول ان أكثره كان ضروريا ، ولكنه لم يكن علاجاً لهذه الامة من طبيب اجتماعي ، عرف من أمراضها الظاهري والباطني ، فوصف لها من الدواء ما يزيل العلة ، ويحفظ البنية ويقوي المنة ، لذلك رأيناها بعد هذه المعالجات لم تزدد الا مرضاً ، حتى كادت تكون حرضا ، ازدادت ذلا وفقرا ، وتفرقاً وضعفا ، وفساداً في الاخلاق ، واسرافا في النفاق ، وكان ما أدخل فيها من علوم الامم القوية وقوانينها وآدابها ، كالجسم الغريب الذي يدخل في البنية فيفسد مزاجها ، لانه لم يكن على حسب استعدادها وحاجها ، بل كان تقليداً صوريا ، أو عارضا وقتيا ، فمنه ما كان ضارا ومنه ما كان نافعا ، فأما الضار فأكبر ضرره التقاليد والقوانين الافرنجية ، التي قطعت كثيرا من روابط الامة الملية ، وأزالت ما أزالت من مقوّماتها ومشخصاتها الاجتماعية والادبية ، ولم تستبدل بها ما يحل محلها من مقوّمات الامم الأوربية ، بل صارت عيالاً عليهم في جميع الشؤون ، حتى انتهى ذلك الى هذا الفتون ، بأن فقدت الاستقلال ، باسم النفوذ أو الحماية أو

الاحتلال ، (٦: ١٢٩ وكذلك نولّي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ١٣١ ذلك أن لم يكن ربك مُهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ١٣٢ ولكلّ درجاتٌ مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون)

وأما ما كان نافعا من تلك الاعمال ، التي وسمت بسمة الاصلاح ، فانما كان نفعه موضعيا ، وعارضا لا دائما ، فكان كمداواة بعض أعراض الزهري (الداء الافرنجي) الظاهرة بما يزيلها ، مع بقاء العلة في الباطن (كتسمم الدم) تصدر عنها آثارها ، فما زال منه بالمعالجة الموضعية اليوم ، يظهر ماهو شر منه وأعصى على العلاج في الغد * كلما داويت جرحاً سال جرح * ذلك مثل ما كان في الدولة العثمانية ، وهي أكبر مظاهر السلطة في الامة الاسلامية ، وخير منه ما قام به الامير عبد الرحمن ، من جمع كلمة قبائل الافغان ، وتدريبها على القتال ، الذي يحفظ به الاستقلال ، وكذا ما قام به الامير محمد علي في مصر ، فانه بنى ركني الثروة والقوة على أساس العلم ، ولو أتم أحفاده ما بدأ به ببناء ركني الاخلاق والآداب ، على أساس الدين وسنن الاجتماع ، لتم لهم تكوين الأمة ، ولاستقام لهم بالامة أمر الدولة ، فهذا العصر عصر الامم والشعوب ، لا عصر الامراء والملوك ، ولكن جميع أقيال المسلمين ، كانوا ولا يزالون عن هذا غافلين ، (٣٥ : ٤٤ أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؟ ٤٠: ٢١ * - أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الارض فأخذهم الله بذنوبهم * - ٣٠ : ٩ أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذينِ من قبلهم ؟ كانوا أشد منهم قوة وأثارُوا الارضَ

وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)

نعم انهم لم يسيروا في الارض، لاجل الاعتبار بسنن الله في الكون، فينظروا في سوء عاقبة الامم الجاهلة النائمة ، ومصير الدول المستبدة الظالمة ، وحسن عاقبة الامم العالمة العاملة ، وسيادة الدول المنظمة العادلة ، وكيف ان اصلاح الارض وعمران الدور، لا يغني عن إصلاح الاخلاق وارتقاء الجمهور ،ولو ساروا لما نظروا، ولو نظروا لما أبصروا، ولو أبصروا لما اعتبروا ، (٢٢: ٤٦ أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ؟ فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وأي عمى أشد من عمى الاستبداد ؟ وهو مصدر كل فساد وافساد، حتى انه يفسد الطباع ، ويغير الاوضاع ، ويقطع رابطة الزوجية ، ويزيل عاطفة الابوة والبنوة ، فيغري الولد بقتل والده ، والوالد بقتل ولده ، وكيف يؤمن على حياة أمته ، من لا يكبر عليه قتل والده أو ولده ، اذا هو نازعه في سلطته ، أو عارضه في ارادته ؟ فانتظار الأمم ان يكون صلاحها ورشادها ، ممن لا حظ لهم من حياتهم الا استذلالها واستعبادها ، اتباعا لترفهم ونعيمهم ، وافتتانا باطرائهم وتعظيمهم ، يشبه طلب العلم من الجاهلين، والتماس الهدى من الضالين، (١١ : ١١٧ فلولا كان من القرون من قبلكم اولو بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ١١٨ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)

ألا انه لا بقاء مع ظلم وفساد ، ولا عدل مع استبداد ، ولا هلاك

مع اصلاح، ولا إصلاح للدولة، الا بصلاح الأمة، ولا صلاح لأمة الا اذا كان فيها بقية من أولي الرأي والعزم، يأمرون بالصلاح وينهون عن الفساد في الأرض، ولا تأثير للأمر والنهي، الا بإجماع الأمر وإحكام الرأي، ولا يفيد الإحكام والإجماع، الا مع مراعاة سنن الاجتماع؛ لاختلاف استعداد الأقوام، باختلاف احوال الزمان والمكان، وزماننا هذا هو زمان الجماعات العلمية والأدبية والسياسية، والشركات الزراعية والصناعية والتجارية، فحظ الافراد الكثيرين من معنى الامة، على قدر حظهم من إقامة هذه الاركان الستة، ولا ينبغي أن يطلق هذا اللفظ؛ على من لا نصيب لهم منها ولا حظ، الا على سبيل التجوز في القول، كما يطلق اسم الشيء على صورة الشيء، ومتى ملكت الامة بالجمعيات أمورها المعنوية، وبالشركات أمورها المادية، كانت جديرة بأن تقوّم أمر حكومتها، وتقيمها على صراط شريعتها، لهذا كان همنا منذ سنة المنار الاولى، أن نذكر أهل العلم والرأي من المسلمين بهذه الطريقة المثلى، اهتداء بقوله تعالى (٨٧: ٩ فذَكِّرْ ان نفعتِ الذِكرى ١٠ سيذَّكرُ من يَخشى) وليس بعد اقامة حجة الله في الورى، الا فلاح من اتبع الهدى، وهلاك من آثر الهوى (٤٥: ٢٢ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله اللهُ على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يَهديه مِن بَعد الله ؟ أفلا تَذكَّرُون !)

ألا وان أمر التربية والتعليم هو أهم مايجب أن يوكل الى الجماعات، ولا يجوز أن يترك الى الافراد ولا الى الحكومات، لان المدارس للافراد دكاكين لكسب المال، وللحكومات معامل لسبك العُمَّال، فكل

من الفريقين يتوخى في التعليم منفعته الخاصة ، وان باينت مصلحة الأمة العامة ، وانما تطلب الحكومة عمالا لها كالآلات ، لا ارادة لهم ولا رأي ولا استقلال ، والافراد يتبعون سننها ويسيرون على طريقها ، وانما ربح تجارتهم برواج بضاعتهم في سوقها ، وشر من ذلك ما ابتلي به جماهير المسلمين ، من ترك تربيتهم النفسية والعقلية الى خصومهم في السياسة والدين !!! فكانوا بهذا الخزي من الاخسرين ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فأنَّى تصلح أمة تركت تجديدها وتكوينها ، الى من لاهم لهم الا ازالة ملكها ودينها ؟؟؟ كلا! انها كرّة خاسرة ، يخسرون بها الدنيا والآخرة ، (٧:١٧٨ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لايفقهونَ بها ولهم أعينٌ لايُبصرون بها ، ولهم آذانٌ لا يَسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ ، أولئك هم الغافلون)

الامم تصلح بالتربية ونحن قد افسدنا المربون ـ الافرنج والمتفرنجون ـ وترتقي بالعلم ونحن قد دلأّنا العلماء المقلدون المفتونون ، وتقوى وتعتز بجمع المدارس لكلمتها ، ونحن قد أوهنتنا وشقت عصانا المدارس ، لانها إما معاهد سياسية وإلحاد ، وإما أديار وكنائس ، قد قطعت روابط الامة الدينية والمدنيـة ، وفتنتها بالاهواء والشهوات الحيوانيـة ، وسرى سم تقليدها الى المدارس الاميرية والاهلية ، فالمتخرجون فيها أقلهم الذين يسلمون ، ومنهم الملحدون وأكثرهم الفاسقون ، يجرفون ثروة الامة الى الاجانب ، ويقذفونها بالفجور والنفوذ الاجنبي من كل جانب ، ويتغلبون فيها على المناصب ، فينالون منها جميع المآرب ، يحقرون لها سلفها ، ويعظمون

في نفسها كل ما هو أجنبي عنها ، فيقطعون جميع روابطها الملية ، ويزينون لها ذلك باسم المدنية ، فهم المنافذ والكوى التي يدخل منها الفساد ، وهم الآلات التي يستعين بها الاجانب على ادارة امر البلاد ، لأنهم تربية مدارسهم ، بل صنع معاملهم ، اوالجيش السلمي لثكناتهم ، ولا يتم لهم مايسمونه الفتح السلمي بدونهم ، ولأجل هذا ربوهم هذه التربية المذبذبة ، وحشوا مخيلاتهم بمسائل العلوم المضطربة ، فلاهم صاروا بها اوربيين ، ولا ظلوا مسلمين او شرقيين ، ولكنهم لغرورهم باسم المدنية الافرنجية يفسدون على الأمة أمرها ، ويزعمون انهم هم المصلحون لشأنها ، (٢ : ١٠ واذا قيل لهم لاتُفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مُصلِحون ١١ الا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)

هكذا ذفف على جرح هذه الامة من جعلوا انفسهم أساة لها وأطباء ، فكان اقتل أدوائها ما عالجوها به من الدواء ، ومن كان له عقل وبصيرة ، فليتدبر ما تقوله فيهم كتب الافرنج وصحفهم الشهيرة[1] ومن اهمه ما نقلته مجلة العالم الاسلامي الفرنسية ، عن مجلة العالم الاسلامي الانكليزية ، في سياق الكلام على فتح العالم الاسلامي (الذي نشرناه في ص ٥١٦ م ١٥) وهذا نصه : « اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي اسسها الاوربيون كان لها تأثير في حل المسألة الشرقية يرجح على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوربة كلها » !!! فاذا لم يكن للمسلمين مدارس ملية ، تديرها حكومة أو جماعات اسلامية ، فتربيهم على مايجمعون به مصالحهم الدينية والدنيوية ، واذا

(١) ومنها ما كتبه لورد كرومر في كتابه مصر الحديثة في سوء حال المتفرنجين

كانوا لا يعرفون للتعليم غاية الا المنفعة الشخصية ، وما يتخيلون من المنافع الخسيسة المادية ، فان اوربة تعرف كيف تنشئهم في مدارسها ومدارسهم خلقا جديدا ، يكونون بها على توهم الحرية خدما لها وعبيدا، فهم مقادون من امامهم ، ومسوقون من ورائهم، ولكن لا يدرون كيف بدءوا ولا اين ينتهون ، (١٦: ٢١ أمواتٌ غير أحياءٍ وما يَشعرون أيَّانَ يُبعثون* ٣ : ١١٧ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عنِتُّمْ قد بدتِ البغضاءُ من أفواهِهم وما تُخفي صدورهم اكبرُ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون)

ألا اننا في اشد الحاجة الى الصناعات الافرنجية ، وما تتوقف عليه من العلوم والفنون العملية ، والى الاعتبار بتاريخهم ، وأطوار حكوماتهم وجماعاتهم ، ولكن يجب ان يقوم باقتباس ذلك جماعات منا ، يجمعون بينه وبين حفظ مقوماتنا ومشخصاتنا ، وأركانها اللغة والدين والشريعة والآداب[1] فمن فقد شيئا من هذه الاشياء فقدْ فقدَ جزءا من نفسه ، لا يمكن ان يستغني عنه بمثله من غيره ، كما انه لا يستغني بعقل غيره عن عقله ، ولا بجسم سواه عن جسمه ، وانما نستفيد من العبرة بحالهم ، كيف نرقي لغتنا كما رقوا لغاتهم ، وكيف ننشر ديننا كما ينشرون دينهم، وكيف نسهل طرق العمل بشريعتنا وآدابنا كما سهلوا طرق شرائعهم وآدابهم ، ولنا ان نستعين على ما نستمده منهم ، بأهل الفضيلة والاستقلال من

(١) هذا التقسيم بحسب عرف العصر . والشريعة عند المسلمين بمعنى الدين والمراد بها هنا احكام المعاملات من السياسة والقضاء والادارة والحرب . وهي موضع اجتهاد أولي الامر في الدين الاسلامي . والآداب الاسلامية منبعها الدين وهي اعلى من آداب الافرنج وأكمل

رجالهم ، الذين ليس لهم فينا اهواء دينية ، ولا مطامع سياسية استعمارية ، وبهذا نكون مهتدين بما امرنا الله به من السير في الأرض ، والاعتبار بأحوال الامم ، وبسنة سلفنا ، في جعل الحكمة ضالتنا ، واعتقاد انها حيث وجدت فنحن أحق بها ، (٨: ٢٤ يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون ٢٥ واتقوا فتنةً لا تُصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة ، واعلموا أنّ الله شديد العقاب ٢٦ واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعَفون في الأرض تخافونَ ان يتخطّفكُمُ الناسُ فآواكم وأيّدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ٢٧ يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم وانتم تعلمون *

الدعوة الى انتقاد المنار

أمر الله تعالى بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، و بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونهى عن الغيبة وتوعد المغتاب ومن يحب شيوع الفاحشة ، وأوعد الهمزة اللمزة ، بالويل الشديد والحطمة ، فنحن نذكر كل من يطلع على منارنا هذا بأمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ، وندعو من رأى فيه خطأً ان يذكرنا به قولا أو كتابة ، مبينا ذلك بالدليل والبرهان ، لا بقول فلان ورأي فلان ، مع أدب العبارة ، والاكتفاء منها بقدر الحاجة ، ونحن ننشر ان شاء الله تعالى كل ما يكتب الينا ، سواء كان لنا أو علينا ، اذا التزم الكاتب ماشرطنا ، ثم نبين ماعندنا فيه من قبول وإذعان ، أو رد أدبي مؤيد بالبرهان ، وليعلم كل عاقل منصف أن من يخطئنا ولا يكتب الينا ، فهو لا ثقة بعلمه ولا بدينه ولا بما يقوله فينا ، وانه حاسد مغتاب ، أو مدّع كذّاب ، والى الله المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب

منشئ المنار ومحرره

محمد رشيد رضا الحسيني

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٢٢*٢٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَـٰكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا
مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٢٣،٢٤) يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ
ٱللَّهُ لَكُمْ، وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَـٰسِرِينَ (٢٤*٢٥) قَالُوا
يَـٰمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ، وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا،
فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٥*٢٦) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ
أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا: ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ
(٢٦*) وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧) قَالُوا: يَـٰمُوسَى
إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَا إِنَّا
هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ (٢٨) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي
فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ (٢٩) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ
أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ

لما أقام الله تعالى الحجج القيمة على بني اسرائيل، وأثبت لهم رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم حتى فيما أوحاه اليه بشأنهم وشأن كتبهم وأنبيائهم من البشارات وأخبار الغيب وتحريف الكتب ونسيان حظ منها، ونحو ذلك من الآيات الدالة على صدقه وكون ماجاء به من عند الله تعالى هو من جنس ماجاء به أنبياؤهم، الا انه أكمل منه على سنة الترقي في البشر، وأيد ذلك بدحض شبهاتهم وإبطال دعاويهم

ومناشئ غرورهم ، ثم لما لم يزدهم ذلك كله الا كفرا وعنادا - بين الله تعالى في هذه الآيات واقعة من وقائعهم مع موسى عليه الصلاة والسلام الذي أخرجهم الله على يديه من الرق والعبودية واضطهاد المصر بين لهم، الى الحرية والاستقلال وملك أمرهم، وكونهم على هذا كله كانوا يخالفونه و يعادونه حتى فيما يدعوهم اليه من العمل الذي تتم به النعمة عليهم في دنياهم التي هي أكبر همهم ، ليعلم الرسول بهذا ان مكابرة الحق ومعاندة الرسل خلق من أخلاقهم الموروثة عن سلفهم ، فيكون ذلك تسلية له (ص) ومزيد عرفان بطبائع الامم وسنن الاجتماع البشري . وبهذا يظهر حسن نظم الكلام ووجه اتصال لاحقه بسابقه . قال عز وجل :

﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين ﴾ أي واذكر أيها الرسول لبني اسرائيل وسائر الناس الذين تبلغهم دعوة القرآن إذ قال موسى لقومه بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون وقومه وأخرجهم من أرض العبودية :اذكروا نعمة الله عليكم بالشكر له والطاعة لأن ذلك يوجب المزيد ، وتركه يوجب المؤاخذة والعذاب الشديد ؛ ولفظ نعمة يفيد العموم بإضافته الى اسم الله تعالى ، وقد بين لهم موسى مراده بهذا العموم بذكر ثلاثة أشياء كانت حاصلة بالفعل ، بعد نعمة انقاذهم من المصريين التي هي بمعنى الدفع والسلب ، وهذه الاشياء الحاصلة المشهودة هي أعظم أركان النعم ومجامعها التي يندرج فيها مالايحصى من الجزئيات الدينية والدنيوية ، وهي

(الاول) جعل كثير من الانبياء فيهم. وهذا يصدق بوجود المبلغ لذلك ووجود أخيه هرون عليهما السلام ، وتشعر مع ذلك بأن النعمة أوسع ، وان عدد هؤلاء الانبياء أكثر ، وانه غير محصور في الحاضرين ، وقيل كان عدد الانبياء فيهم كثيرا في عهد موسى ، حتى حكى ابن جرير ان السبعين الذي اختارهم موسى ليصعدوا معه الجبل اذ يصعده لمناجاة الله تعالى صاروا كلهم أنبياء . ومن المشهور ان يوشع فتى موسى (خادمه) كان نبيا، ولا ندري أصار نبيا في زمنه أم بعده؟ وأهل الكتاب لا يسمونه نبيا. والمشهور من معنى النبوة عندهم الإخبار ببعض الامور الغيبية التي تقع في المستقبل بوحي أو إلهام من الله عز وجل . وكان جميع أنبياء بني اسرائيل من بعد موسى

مؤيدين للتوراة عاملين وحاكمين بها حتى المسيح عليهم السلام . وللنصارى تحكم في اثبات النبوة ونفيها عمن شاؤا من أنبياء بني اسرائيل حتى انهم لا يعدون سليمان ابن داود نبيا !! بل حكيما أي فيلسوفا ، على ان كتبه هي أعلى كتبهم المقدسة علما وحكمة ، فهي أعلى من حكم الاناجيل التي عندهم ، وقد كان هذا مما ينتقده عامتهم على رؤساء كنيستهم ، حتى قال أحد الاذكياء اللبنانيين : ان الكنيسة لم تعترف بنبوة سليمان ليكون منتهى مبالغة المعجبين بحكمه وأمثاله من أهل الفهم ان يرفعوه الى مرتبة النبوة فيبقى دون المسيح ، وان رؤساء الكنيسة كانوا يخشون ان يقول الناس : انه أحق من المسيح بالالوهية ، اذا هم اعترفوا له بالنبوة . أما علماء المسلمين الذين تكلموا في المفاضلة بين الانبياء فقد فضلوا المسيح على سليمان فهو عندهم في المرتبة الرابعة بعد محمد وابراهيم وموسى صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، وقد تقدم القول في المفاضلة في أواخر تفسير سورة النساء

(الثاني) جعلهم ملوكا . لولا ما ورد في التفسير المأثور عن النبي (ص) والصحابة والتابعين ، لكانت هذه النعمة موضع اشتباه عند المتأخرين الضعفاء في فهم العربية ، لان بني اسرائيل لم يكن فيهم ملوك على عهد موسى وانما كان أول ملوكهم — بالمعنى العرفي لكلمة ملك وملوك — شاول بن قيس ثم داود الذي جمع بين النبوة والملك . وان من يفهم العربية حق الفهم يجزم بأنه ليس المراد من الملوك هنا رؤساء الامم والشعوب الذين يسوسونها ويحكمون فيها ، لانه قال « وجعلكم ملوكا » ولم يقل : وجعل فيكم ملوكا . كما قال : جعل فيكم انبياء ، فظاهر هذه العبارة انهم كلهم صاروا ملوكا ، وان أريد بكل المجموع لا الجميع ، أي ان معظم رجال الشعب صاروا ملوكا بعد ان كانوا كلهم عبيداً للقبط . فمعنى الملك هنا الحر المالك لأمر نفسه ، وتدبير أمر أهله ، فهو تعظيم لنعمة الحرية والاستقلال ، بعد ذلك الرق والاستعباد . يدل على ذلك التفسير المأثور ففي حديث ابي سعيد الخدري مرفوعا عند أبي حاتم « كانت بنو اسرائيل اذا كان لاحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا » وفي حديث زيد بن أسلم « من كان له بيت وخادم فهو ملك » ورواه أبو داود في مراسيله تفسيرا للآية بلفظ « زوجة ومسكن وخادم » وروى

ابن جرير مثله عن ابن عباس وعن مجاهد . وعن ابن عباس رواية أخرى سنأتي بنصها وقد صححوا سندها . والمرفوع ضعيف السند . والمعنى الجامع لهذه الاقوال ، ان المراد بالملك هنا الاستقلال الذاتي والتمتع بنحو مايتمتع به الملوك من الراحة والحرية في البيوت ، وهو مجاز تستعمله العرب الى اليوم في جميع ماعرفنا من بلادهم . يقولون لمن كان مهنئا في معيشته ، مالكا لمسكنه ، مخدوما مع أهله ، : فلان ملك . اوملك زمانه ، أي يعيش عيشة الملوك . وترى مثل هذا الاستعمال المجازي في رؤيا يوحنا قال (١: ٦ وجعلنا ملوكا وكهنة)

وذهب بعض المفسرين الى ان المعنى انه جعلهم ملوكا بالقوة والاستعداد ، بما آتاهم من الحرية والاستقلال ، وشريعة التوراة العادلة التي يرتقون بها في مراقي الاجتماع ، وهو بشارة بأنه سيكون منهم ملوك بالفعل ، لأن ما استعدت له الامة من ذلك في مجموعها ، لابد ان يظهر أثره بعد ذلك في بعض افرادها . وهذا المعنى لايعارض ماقبله ، بل يجامعه ويتفق معه ، فان تلك المعيشة المنزلية الراضية ، هي الاصل في الاستعداد لهذه المعيشة الثانية ، ـ عيشة الملك والسلطة ـ . فان الشعوب التي يفسد فيها نظام المعيشة المنزلية ، لاتكون أمة عزيزة قوية ، فهي اذا كان لها ملك تضيعه فكيف تكون أهلا لتأسيس ملك جديد ؟ فليعتبر المسلمون بهذا ، ولينظروا أين هم من العيشة الاهلية التي وصفناها .

(الامر الثالث) إيتاؤهم ما لم يؤت أحد من العالمين ، أي عالمي زمانهم وشعوبه التي كانت مستعبدة للملوك العتاة الطغاة كالقبط والبابليين روى الفريابي وابنا جرير والمنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس في قوله « اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا » قال : المرأة والخادم ، وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين » قال : الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ • وروى ابن جرير من طريق مجاهد عنه في الاخير أنه المن والسلوى • وروى هو وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد هذا المعنى مع زيادة الغمام الذي ظللهم في التيه ، وزاد بعضهم الحجر الذي انبجست منه العيون بعدد اسباطهم ، رواه ابن جريره وقد تقدم تفسير هذه الخصائص في سورة البقرة فيراجع في الجزء الاول من التفسير

﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ فسر مجاهد المقدسة بالمباركة . وروى ابن عساكر عن معاذ بن جبل ان الارض المقدسة ما بين العريش الى الفرات • وروى عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة انها الشام • والمعنى واحد فالمراد بالقولين القطر السوري في عرفنا . وهذا يدل على ان هذا التحديد لسورية قديم ، وحسبنا انه من عرف سلفنا الصالح وقالوا انه هو مراد الله تعالى ، ولا أحق ولا أعدل من قسمة الله تعالى وتحديده • وفي اصطلاح بعض المتأخرين ان سورية هي القسم الشمالي الشرقي من هذا القطر والباقي يسمونه فلسطين ، أو بلاد المقدس ، والمشهور عند الناس انها هي الأرض المقدسة. والقول الاول هو الصحيح فان بني اسرائيل ملكوا سورية ، فسورية وفلسطين شيء واحد في هذا المقام • ويسمون البلاد المقدسة أرض الميعاد فان الله تعالى وعد بها ذرية ابراهيم • ويدخل فيما وعد الله به ابراهيم الحجاز وما جاوره من بلاد العرب ، وقد خرج موسى ببني اسرائيل من مصر ليسكنهم الارض المقدسة التي وعدوا بها من عهد ابيهم ابراهيم صلى الله عليه وعلى آله وسلم • وإنما كان يريد موسى عليه السلام بأرض الموعد والبلاد المقدسة ماعدا بلاد الحجاز التي هي أرض أولاد عمهم العرب •

قال الدكتور بوست في قاموس الكتاب المقدس : اختص اسم فلسطين أولا بأرض الفلسطينيين ، ثم اطلق على كل أرض الاسرائيليين غربي الاردن فكان يطلق عليها في الاصل اسم كنعان . وكانت فلسطين معروفة أيضا بالارض المقدسة وأرض اسرائيل وأرض الموعد واليهودية • وهي واقعة على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط بين سهول النهرين (الدجلة والفرات) والبحر المذكور ، وبين ملتقى قارتي آسيا وافريقية ، وهي متوسطة بين اشور ومصر وبلاد اليونان والفرس - الى ان قال - ويعسر علينا معرفة حدود فلسطين ، فانه مع دقة الشرح عن التخوم التي تفصل بين سبط وآخر لم يشرح لنا في الكتاب المقدس شرحا مستوفى تتميز به تخوم فلسطين عن تخوم الامم المجاورة لها • ويظهر ان هذه التخوم كانت تتغير من جيل الى جيل • أما الارض الموعود بها لابراهيم والموصوفة في كتابات موسى فكانت تمتد من جبل هور الى مدخل حماه ومن نهر مصر العريش » الى النهر الكبير

نهر الفرات » (تك ١٥ : ١٨ وعد ٣٤ : ٢ - ١٢ وتث ١ : ١٧) وأ كثر هذه الاراضي كانت تحت سلطة سليمان • فكان التخم الشمالي حينئذ سورية ، والشرقي الفرات والبرية السورية ، والجنوبي برية التيه وأدوم ، والغربي البحر المتوسط • ه بنصه مع اختصار حذف به أكثر الشواهد • ولا حاجة لنا بغير الاخيرة منها وهي التي ذكرناها

فقوله تعالى « كتب الله لكم » يريد به موسى ماوعد الله به ابراهيم ، يعني كتب لهم الحق في سكنى تلك البلاد المقدسة بحسب ذلك الوعد ، أو في علمه. وليس معناه انها كلها تكون ملكا لهم دائما ، أو لا يزاحمهم فيها أحد. لان هذا مخالف للواقع وان يخلف الله وعده . فاستنباط اليهود من ذلك الوعد انه لابد أن يعود لهم الملك في البلاد المقدسة غير صحيح . ويحسن هنا أن نذكر نص التوراة العربية الموجودة الآن في هذا الوعد : جاء في سفر التكوين انه لما مر ابراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب (١٢: ٧ وقال لنسلك أعطي هذه الارض) وجاء فيه أيضا ما نصه (١٥: ١٨ في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات) وهذا الوعد ذكر في سفر التكوين قبل ذكر ولادة اسماعيل . وجاء فيه بعد ذكر ولادة اسماعيل له ووعد الله بتكثير نسله وبكونهم يسكنون أمام جميع اخوتهم (١٧: ٨ وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم) فهذا وذاك يدلان على ان العرب أولى أولاد ابراهيم بأن يكونوا أول من تناولهم العهد والميثاق ، والوفاء الابدي لا يتحقق الا به . والامر كذلك فقد أصبحت تلك البلاد كلها عربية محضة . وليس فيه بعد ذكر ولادة اسحق وعد لابراهيم مثل هذا ببلاد ولا بأرض. ولكن فيه أنه يقيم معه عهدا أبديا لنسله ، وان هذا العهد لاسحق دون اسماعيل . فما هذا العهد ؟ ان كان عهد النبوة فالواقع انها ليست أبدية في نسل اسحق لانها انقطعت بالفعل منهم من زهاء ألفي سنة . وكان خاتم النبيين من ولد اسماعيل . وان كان عهد امتلاك الارض المقدسة فهو لم يكن أبديا فيهم لانها نزعت منهم قبل العرب ثم أخذها

العرب وصارت لهم بالامتلاك السياسي ثم بالامتلاك الطبيعي، اذ غلبوا على سائر العناصر التي كانت فيها وأدغموها في جنسهم المبارك الذي وعد الله ابراهيم بأن يباركه ويثمره ويكثره جدا جدا ويجعله أمة كبيرة (راجع ١٧:١٨ من سفر التكوين)

ثم ان الفصل الرابع والثلاثين من سفر العدد صريح في أمر بني اسرائيل بدخول أرض كنعان واقتسامها بين أسباط بني اسرائيل . وهذا حق قد وقع فلا مراء فيه ، وهو يوافق ما قلناه قبل من أن بني اسرائيل يكون لهم حظ في تلك البلاد في وقت ما ، وان وعد الله لابراهيم (ص) يشمل ذلك ولكنه ليس خاصا بهم ، ولاهم أولى به من أولاد عمهم العرب، بل هؤلاء هم الاولى كما حصل بالفعل وكان وعد الله مفعولا

يوضح هذا ما نقله كاتب سفر تثنية الاشتراع عن موسى (ص) وهو (١: ٦ الرب إلهنا كلمنا في حوريب قائلاً : كفاكم قعود في هذا الجبل ٧ تحوّلوا وارتحلوا وادخلوا جبل الاموريين وكل ما يليه من العربة (وفي الترجمة اليسوعية القفر) والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعاني ولبنان الى النهر الكبير نهر الفرات ٨ أنظروا قد جعلت امامكم الارض . ادخلوا وتملكوا الارض التي أقسم الرب لآبائكم ابراهيم واسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم) وأعاد التذكير بهذا الوعد في الفصل الثالث من هذا السفر ، وهذا النص هو المراد من الآية التي نفسرها ، وليس في العبارة شيء يدل على الاختصاص ولا التأبيد . ويدخل في عموم نسل ابراهيم نسل ولده اسماعيل

وأما ذكر اسحق ويعقوب هنا فلان الرب ذكرهما بوعده لابراهيم أبيهما وأكده لهما ولنسلهما . ولكن ليس فيه ذكر للتأبيد (تك ٢٦ و ٢٨) كما سبق في وعده لابراهيم وحده ، فالوعد المؤكد المؤبد انما كان لابراهيم، ولم يصدق الا بمجموع نسله وهم العرب والاسرائيليون .

ومما يجب التنبيه اليه ان ذكر الرب لاسحق ما وعد به أباه ابراهيم من اعطاء نسله تلك البلاد معلل بحفظ أوامره وفرائضه وشرائعه (تك ٢٦: ٥ وخر ١٣) وهو عين الوعد الذي ذكره ليعقوب في المنام في الفصل ٢٨ وان لم يذكر هنالك التعليل:

وهو يدل على انتفاء المعلول بانتفاء علته . وتحرير هذا المعنى هو الذي أوحاه الله تعالى إلى خاتم رسله محمد النبي الامي (ص) بقوله في سورة الاسراء التي تسمى أيضا سورة بني اسرائيل. وملخصه انهم يفسدون في الارض مرتين قبل الاسلام ، فيسلط عليهم كل مرة من يذلهم ويستولي على مدينتهم ومسجدهم ويتبروا ما استولوا عليه منهما تتبيرا ، وقد كان ذلك . ثم قال (عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا) قال المفسرون وقد عادوا وعاد انتقام العدل الإلهي منهم . فسلط الله عليهم الروم قبل المسيحية وبعدها ثم المسلمين ، ومزقوا في الارض كل ممزق ، وتدل بعض الآيات على ان الملك لا يعود اليهم ، ولولا ذلك لكانت آية (عسى ربكم) أرجى الآيات لهم ، لأنها تدل على ان الامر يدور من العلة وجودا وعدما ، وانهم ان عادوا الى الايمان الصحيح والاصلاح يعود اليهم ما فقد منهم . ولا يتحقق هذا الا بالاسلام ، فان أسلموا واتحدوا ببني عمهم العرب يملكون كل هذه البلاد وغيرها ، ولكن الرجاء في هذا بعيد في هذا العصر ، لأن الاسرائيليين شديدو التقليد والجمود في جنسيتهم النسبية والدينية ، وهذا العصر عصر العصبية الجنسية للأقوام ، حتى ان كثيرا من شعوب المسلمين يحاولون رابطتهم الدينية ، لأجل شد عروة الرابطة اللغوية ، وان لم تكن لهم لغات ذات آثار يحرص عليها ، بل منهم من يتكلفون تدوين لغاتهم وتأسيسها لانها لم تكن لغات علم وكتاب. ثم ان أمر الدنيا غالب فيه على أمر الدين . واليهود يريدون ان يعيدوا ملكهم لهذه البلاد بتكوين وتأسيس جديد ، ويستعينون عليه بالمال وطرق العمران الحديثة

فيا دارها بالخيف ان مزارها   قريب، ولكن دون ذلك اهوال

فان الشعوب النصرانية ودولها القوية تعارضهم في التغلب على بيت المقدس . والعرب أصحاب الارض كلها لا يتركونها لهم غنيمة باردة ، ولا تغني عنهم الوسائل الرسمية والمكايدة . وانما الذي يغني ويقني هو الاتفاق مع العرب على العمران ، فان البلاد تسع من السكان أضعاف من فيها الآن .

ويؤيد التعليل الذي بيناه أخيرا هذا النهي الذي عطف على الأمر بدخول

الارض المقدسة وهو ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ على أحد

الوجهين في تفسيره ، وهو لاترجعوا عما جئتكم به من التوحيد والعدل والهدى ، الى الوثنية أو الفساد في الارض بالظلم والبغي واتباع الهوى، فيكون هذا الرجوع الى الوراء انقلاب خسران تخسرون فيه هذه النعم، ومنها الارض المقدسة التي ستعطونها جزاء على شكر النعم التي تقدمتها ، فتعود الدولة فيها لأعدائكم ، وذلك ان شكر النعم مدعاة المزيد منها ، وكفرها مدعاة سلبها وزوالها . والوجه الآخر في الارتداد على الأدبار ، النكوص عن دخولها والجبن عن قتال من فيها من الوثنيين ، وقد فرض الله عليهم قتالهم، والخسران على هذا قيل هو خسران ثواب الجهاد ،وخيبة الامل في امتلاك البلاد ، والذي أجزم به ان المراد بالخسران تحريم الارض المقدسة على المخاطبين وحرمانهم من خيراتها وبركاتها التي ورد في بعض أوصافها انها « تفيض لبنا وعسلا » وعقابهم بالتيه أربعين سنة ينقرض فيها المرتدون على أدبارهم كما سيأتي . فان هذا الخسران هو الذي وقع بالفعل وبينه الله في الكتاب ، فلا معدل عنه . ولا يعارضه كون الله تعالى كتبها لهم ، فان هذه الكتابة ليست لأولئك الافراد بأعيانهم وانما هي لشعبهم وأمتهم . ومثل هذا الخطاب الذي يوجه الى الامم والأقوام معهود في عرف الناس ولغاتهم : يسند الى الحاضرين المخاطبين ، ما كان من أعمال سلفهم الغابرين ، ويبشرون أو يوعدون بما لايكون الا لخلفهم الآتين، كبشارة النبي (ص) لقومه بأنهم سيفتحون القسطنطينية قبيل قيام الساعة. على ان الله حرمها على جمهور الذين خالفوا وعصوا أمر موسى بدخولها ، ولما دخلوها بعد التيه كان قد بقي من الذين خوطبوا بأنها كتبت لهم بقية ، فقال بعض المفسرين ان كونها كتبت لأولئك المخاطبين بأعيانهم يصدق بهؤلاء ، من باب إطلاق العام وارادة الخاص . ولكن الاسلوب الفصيح يأبى هذا التوجيه اللفظي كل الإباء . وقال السدي ان المراد بالكتابة هنا الامر فمعنى « كتب الله لكم » أمركم بدخولها . وهو بعيد أيضا . والمتبادر أنه كتب لهم ذلك في الكتاب وما أوحاه الى آبائهم ، ويؤيده الواقع، ولولاه لكان المعنى كتب لكم ذلك في علمه، أي أثبته بقضائه وقدره

﴿ قالوا : ياموسى إن فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فانا داخلون ﴾ كان استعباد المصريين لبني اسرائيل قد أذلهم

وأفسد عليهم باسهم، وكان بنو عناق الذين يسكنون أمامهم في أدنى الارض المقدسة اولي قوة واولي بأس شديد، وكانوا كبار الاجسام، طوال القامات، وهو المراد من كلمة جبارين.

فالجبار يطلق في اللغة على الطويل القوي والمتكبر والقتّال بغير حق والعاتي المتمرد والذي يجبر غيره على ما يريد والقاهر المتسلط والملك العاتي. وكله مأخوذ من قولهم: نخلة جبّارة، أي طويلة لا ينال ثمرها بالأيدي، وان عد الزمخشري هذا من المجاز في أساسه، لان الصيغة صيغة المبالغة لاسم الفاعل من جبره على الشيء كأجبره. والصواب أن الأصل في الألفاظ ان تكون موضوعة لما يدرك بالحواس، ويتفرع عنها ما وضع لما يدرك بالعقل والاستنباط. وقد رجعت بعد جزمي بما ذكرت الى لسان العرب فاذا هو ينقل مثل هذا او ما يؤيده. ذكر الآية وقال: قال اللحياني أراد الطول والقوة والعظم، قال الازهري كأنه ذهب به الى الجبار من النخيل، وهو الطويل الذي فات يد المتناول. ويقال جبار اذا كان طويلا عظيما قويا، تشبيها بالجبار من النخل اه وقال الراغب: أصل الجبر اصلاح الشيء بضرب من القهر، يقال جبرته فانجبر واجتبر وقد جبرته فجبر كقول الشاعر * قد جبر الدينَ الاله فجبر * هذا قول اكثر أهل اللغة - الى ان قال - والجبار في صفة الانسان يقال لمن يجبر نقيصته بشيء من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال الا على طريقة الذم. وذكر عدة آيات فيها الآية التي نفسرها، ثم قال: ولتصور القهر بالعلوّ على الاقران قيل نخلة جبارة وناقة جبارة اه وكأنه اراد ان يجمع بين المعنيين لمادة الجبر - معنى العلو والقوة ومعنى جبر الكسر وجبر الجرح، وما اخذ منه كجبر المصيبة بالتعويض عما فقد، وجبر الفقير باغنائه -. وكل هذه المعاني تدخل في معنى جبار النخل الذي هو القوة والنماء والطول

والجبار من اسماء الله تعالى فيه معنى العظمة والقوة والعلوّ على خلقه وكونه لا يمكن ان يناله أحد بتأثير ما، ومعنى جبر القلب الكسير، وإغناء البائس الفقير، ومعنى جبر الخلق بما وضعه من السنن الحكيمة والمقادير المنتظمة على ما اراده من التدبير، وهو العليم الخبير. وهو مثل اسم المتكبر مدح للخالق وذم للمخلوق، اذ ليس

لمخلوق ان يبالغ في معنى الجبر وهو العظمة والعلوّ والامتناع ، كما انه ليس له ان يتكبر بأن يظهر للناس المرة بعد المرة انه كبير الشأن ، ولو بالحق ، فكيف اذا كان ذلك بالباطل كما هو شأن البشر ، فان الكبير بالفعل لا يتعمد و يتكلف أن يظهر للناس انه كبير وإنما يتعمد ذلك ويتوخاه من يشعر بصغار نفسه في باطن سره ، فيحمله حب العلوّ على تكلف إخفاء هذا الصغار بما يتكلفه من اظهار كبره ، فيكون من خُلقه ان لا يخضع للحق ولا يقدر الناس قدرهم ، لأن جعله نفسه اكبر من الحق ومن الناس فلا يرضى ان يكونا فوقه . ولذلك فسر النبي (ص) الكبر بهذا المعنى الذي هو موضع النقص وسبب المؤاخذة فقال « الكبر من بطر الحق وغمط الناس» رواه ابو داود والحاكم من حديث أبي هريرة بسند صحيح . واما تكبر الخالق عز وجل وهو اظهار كبريائه وعظمته لعباده المرة بعد المرة فهو - على كونه لا يكون الا حقا لانه تعالى أكبر من كل شيء وأعظم - تربية لهم وتغذية لإيمانهم ، يوجه قلوبهم الى الكمال الأعلى فيقوى استعدادهم لتكميل انفسهم وعرفانهم بها ، فيكونون أحقاء بألاّ يرفعوها عن مكانها بالباطل ، ولا يسفهوها فيرضوا لها بالخسائس. وانما أطلنا في تفسير كلمة جبارين واستطردنا الى اسم الجبار والمتكبر من اسماء الله تعالى لما نعلمه من ضلال بعض الناس في فهم الاسمين الكريمين .

أما ماروي في التفسير المأثور من وصف هؤلاء الجبارين فأكثره من الاسرائليات الخرافية التي كان يبثها اليهود في المسلمين، فرووها من غير عزو اليهم ، كقولهم ان العيون الاثنى عشر الذين بعثهم موسى الى ما وراء الأردن ليتجسسوا ويخبروه بحال تلك الارض ومن فيها قبل ان يدخلها قومه، رآهم أحد الجبارين فوضعهم كلهم في كسائه أو في حجزته ، وفي رواية كان أحدهم يجني الفاكهة فكان كلما أصاب واحدا من هؤلاء العيون وضعه في كمه مع الفاكهة . وفي رواية ان سبعين رجلا من قوم موسى استظلوا في ظل خف رجل من هؤلاء العماليق . وامثل ماروى في ذلك وأصدقه قول قتادة عند عبد الرزاق وعبد بن حميد في قوله تعالى « ان فيها قوما جبارين » قال : هم أطول منا أجساما وأشد قوة . وأفرطوا في وصف فاكهتهم كما أفرطوا في وصفهم، فروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى « اثنى عشر نقيبا »

الذي مر تفسيره : أرسلهم موسى الى الجبارين فوجدوهم يدخل في كم أحدهم ثنان منكم ، ولا يحمل عنقود عنبهم الا خمسة أنفس بينهم في خشبة ، ويدخل في شطر الرمانة اذا نزع حبها خمسة أنفس أو أربعة .

وهذه القصة مبسوطة في الفصل الثالث عشر والرابع عشر من سفر العدد الذى هو السفر الرابع من اسفار التوراة . وفي أولهما ان الجواسيس تجسسوا ارض كنعان كما امروا ، وانهم قطعوا في عودتهم زرجونة فيها عنقود عنب واحد حملوه بعتلة بين اثنين منهم مع شيء من الرمان والتين ، وقالوا لموسى وهو في ملأ بني اسرائيل : ١٢ : ٢٩ قد صرنا الى الارض التي بعثتنا اليها فاذا هي بالحقيقة تدرّ لبنا وعسلا (* وهذا ثمرها ٢٩ غير ان الشعب الساكنين فيها اقوياء والمدن حصينة عظيمة جدا . ورأينا ثم ايضا بني عناق - الى ان قال الكاتب— ٣١ وكان كالب يسكت الشعب عن موسى قائلا : نصعد ونرث الارض فانا قادرون عليها ٣٢ واما القوم الذين صعدوا معه (أي للتجسس) فقالوا : لانقدر ان نصعد الى الشعب لأنهم أشد منا ٣٣ وشنعوا عند بني اسرائيل على الأرض التي تجسسوها وقالوا . . . هي أرض تأكل أهلها وجميع الشعب الذين رأيناهم فيها طوال القامات ٣٤ وقد رأينا ثم من الجبابرة جبابرة بني عناق فصرنا في عيوننا كالجراد وكذلك كنا في عيونهم » هذا آخر الفصل وذكر في الفصل الذي بعده تذمر بني اسرائيل من أمر موسى لهم بدخول تلك الأرض وأنهم بكوا وتمنوا لو انهم ماتوا في أرض مصر أو في البرية وقالوا (١٤:٣ لماذا أتى الرب بنا الى هذه الأرض حتى نسقط تحت السيف وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة ؟ أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر) الخ

فأنت ترى انه ليس في الرواية المعتمدة عند بني اسرائيل تلك الخرافات التي بثوها بين المسلمين في العصر الاول وانما فيها من المبالغة انهم لخوفهم ورعبهم من الجبارين احتقروا أنفسهم حتى رأوها كالجراد واعتقدوا أن الجبارين رأوهم كذلك، واما حمل زرجون العنب والفاكهة بين رجلين فلا يدل على مبالغة كبيرة في عظمها وقد يكون سبب ذلك حفظها لطول المسافة

(*) يشير بهذا الى ما في « ٨:٣ » من سفر الخروج وهو وعدالله لموسى بان ينقذقومه من ظلم المصريين الى أرض تفيض لبنا وعسلا

والعبرة في هذه الروايات الاسرائيلية التي راجت عند كثير من علماء التفسير والتاريخ وقل من صرح ببطلانها ، أو الرجوع الى كتب اليهود المعتمدة ليقفوا على المعتمد عليه عندهم فيها ، اذ لم يقفوا عند ما بينه القرآن ، من أخبار الانبياء والاقوام ، هي انه لو كان النبي (ص) أخذ ماجاء به عن بعض أهل الكتاب كما يزعم بعضهم وبعض الملاحدة ! لكان ماجاء به نحو مايذكره هؤلاء الرواة الذين غشهم اليهود ، مع انه كان يسهل عليهم الاطلاع من كتبهم ، والتمييز بين حكاياتهم عن اعتقادهم وبين كذبهم ، فالا يسهل على الرجل الامي في مثل مكة التي لم يكن فيها يهود ولا كتب ، وأكثر أخبار الانبياء والامم في السور المكية

وملخص معنى الآية ان موسى لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة العامرة الآهلة أمرهم بدخولها ، مستعدين لقتال من يقاتلهم من أهلها ، وأنهم لما غلب عليهم من الضعف والذل باضطهاد المصريين لهم وظلمهم اياهم ، أبوا وتمردوا واعتذروا بضعفهم وقوة أهل تلك البلاد ، وحاولوا الرجوع الى مصر، كما كان بعض العبيد يرجعون باختيارهم الى خدمة سادتهم في أمريكة بعد تحريرهم كلهم ومنع الاسترقاق بقوة الحكومة ، لأنهم ألفوا تلك الخدمة والعبودية وصارت العيشة الاستقلالية شاقة عليهم ، وقالوا لموسى انا لن ندخل هذه الارض مادام هؤلاء الجبارون فيها ، كأنهم يريدون ان يخرجهم منها بقوة الخوارق والآيات لتكون غنيمة باردة لهم ، وجهلوا ان هذا يستلزم ان يبقوا دائما على ضعفهم وجبنهم ، وان يعيشوا بالخوارق والعجائب ماداموا في الدنيا ، لايستعملون قواهم البدنية ولا العقلية في دفع الشر عن أنفسهم ، ولا في جلب الخير لها ، وحينئذ يكونون أكفر الخلق بنعم الله ، فكيف يؤيدهم بآياته طول الحياة ! والحكمة ان مثل هذا التأييد انما يكون لبعض أصفياء الله تعالى موقتا بقدر الضرورة ، فهو خلاف السنة العامة كالدواء بالنسبة الى الغذاء . وقولهم « فان يخرجوا منها فانا داخلون » تأكيد لمفهوم ماقبله مؤذن بأنه لاعلة لامتناعهم الا ماذكروه

﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾ اتفق رواة التفسير على ان الرجلان هما يوشع (١) بن نون وكالب بن يفُنّة ، وفاقا لرواية التوراة عند أهل

(١) هكذا نطقت به العرب واهل الكتاب يقولون يشوع

الكتاب . فهما اللذان كانا يحثان القوم على الطاعة ودخول أول بلد للجبارين ثقة بوعد الله وتأييده . والظاهر ان قوله « يخافون » معناه يخافون الله تعالى ، وقيل يخافون الجبارين ، ومعنى النعمة هنا نعمة الطاعة والتوفيق حتى في حال الخوف على القول بأنهما كانا من جملة الخائفين طبعا . ﴿ ادخلوا عليهم الباب ﴾ أي باب المدينة

﴿ فاذا دخلتموه فانكم غالبون ﴾ بنصر الله وتأييده لكم اذا طعتم أمره ، وصدقتم وعده ، ﴿ وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ﴾ أي وعليكم بعد ان تعملوا مايدخل في طاقتكم من طاعة ربكم ، ان تكلوا أمركم اليه وتثقوا به فيما لا يصل اليه كسبكم ، فان التوكل إنما يكون بعد بذل الوسع ، في مراعاة السنة وامتثال الامر ، ان كنتم مؤمنين بأن ما وعدكم ربكم على لسان نبيكم حق ، وانه قادر على الوفاء لكم بوعده ، اذا أنتم قمتم بما يجب عليكم من طاعته وشكره ، والوفاء بميثاقه وعهده ،

﴿ قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ أي لم تنفع بني اسرائيل موعظة الرجلين بل أصروا على التمرد والعصيان ، وأكدوا لموسى القول بأنهم لايدخلون تلك الارض التي فيها الجبارون أبدا أي مدة الزمن المستقبل ماداموا فيها ، لأن دخولها يستلزم القتال والحرب ، وليسوا لذلك بأهل ، وقالوا لموسى ما معناه : إن كنت أخرجتنا من أرض مصر بأمر ربك لنسكن هذه الارض التي وعد بها آباءنا وقد علمت ان هذا يتوقف على القتال واننا لا نقاتل - فاذهب أنت وربك الذي أمرك بذلك فقاتلا الجبارين واستأصلا شأفتهم او اهزماهم واخرجاهم منها ، إنا ههنا قاعدون منتظرون ومتوقعون ، أو قاعدون عن القتال أي غير مقاتلين ، فقد استعمل هذا اللفظ في هذا المعنى كقوله تعالى (وقيل اقعدوا مع القاعدين) وقوله (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون) الآية . وقد حاول بعض المفسرين حمل هذا القول السمج الخارج من حدود الآداب ، على معنى مجازي يليق بأهل الايمان ، ككون المراد بذهاب الرب إعانته ونصره ، وقال بعضهم لاحاجة الى مثل هذا مع أمثال هؤلاء القوم الذين عبدوا العجل ، وكان من فساد فطرتهم وجفاء طباعهم مابينه

الله تعالى في كتابه ، والتوراة التي في أيديهم تؤيد ذلك أشد التأييد ، تارة بالاجمال وتارة بأوسع التفصيل . والقرآن يبين صفوة الوقائع ومحل العبرة فيها ، لا ترجمة جميع الاقوال بحروفها ، وشرح الاعمال ببيان جزئياتها ، فما يقصه من أمور بني اسرائيل هو الواقع وروح ما صح من كتبهم او تصحيح ما حرف منها ، وهذه العبارة منه تدل على منتهى التمرد والمبالغة في العصيان والاصرار عليه ، والجفاء والبعد عن الادب ، فلا وجه لتأويلها بما ينافي ذلك

﴿ قال ربِّ اني لا أملك إلا نفسي وأخي ﴾ هذا القول من موسى عليه السلام، صورته خبر ومعناه انشاء ، فهو من بث الحزن والشكوى الى الله ، والاعتذار اليه والتنصل من فسق قومه عن أمره ، الذي يبلغه عن ربه ، ومعنى العبارة إنني لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلا أمر نفسي وأمر أخي ، ولا أثق بغيرنا ان يطيعك في اليسر والعسر والمنشط والمكره . وهذا يدل على انه لم يكن يوقن بثبات يوشع وكالب على ما كانا عليه من الرغبة والترغيب في الطاعة ، اذا أمره الله بأن يدخل أرض الجبارين ويتصدى لقتالهم هو ومن يتبعه ، فان الذي يجرأ على القتال مع الجيش الكثير ، يجوز ألا يجرأ عليه مع النفر القليل ، واما ثقته بأخيه فلعلمه اليقيني بأن الله تعالى أيده بمثل ما أيده به ، ولو لم يعلم هذا باعلام الله ووحيه ، وما يجده من الوجدان الضروري في نفسه ، لكان بلاؤه معه في مقاومة فرعون وقومه ، ثم في سياسة بني اسرائيل معه وفي حال انصرافه لمناجاة ربه ، ما يكفي للثقة التامة . فلفظ « أخي » معطوف على « نفسي » وجعله بعضهم معطوفا على الضمير في « إني » أي وأخي كذلك لا يملك الا نفسه .

﴿ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ الفرق الفلق والفصل بين الشيئين أو الاشياء ، ومنه فرق الشعر ، ويطلق على القضاء وفصل الخصومات ، وذلك قسمان حسي ومعنوي ، ومعنى الجملة هنا : فافصل بيننا - يعني نفسه وأخاه - وبين القوم الفاسقين عن الطاعة وهم جماعة بني اسرائيل ، بقضاء تقضيه بيننا ، اذ صرنا خصما لهم وصاروا خصما لنا . وقيل معناها : اذا أخذتهم بالعقاب على فسوقهم فلا تعاقبنا معهم في الدنيا ، وقيل في الآخرة . والاول هو المختار الموافق لقوله :

﴿ قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض ﴾ أي قال الله لموسى مجيبا لدعائه، اجابة متصلة به : فانها أي الارض المقدسة محرمة على بني اسرائيل تحريما فعليا - لا تكليفيا شرعيا - مدة أربعين سنة يتيهون في الارض، أي يسيرون في برية من الارض تائهين متحيرين لايدرون أين يذهبون في سيرهم . فالتيه الحيرة ، يقال تاه يتيه - ويتوه لغة - ويقال مفازة تيهاء اذا كان سالكوها يتحيرون فيها لعدم الأعلام التي يهتدى بها . والتحريم المنع ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ أي فلا تحزن عليهم لانهم فاسقون مستحقون لهذا التأديب الإلهي . وسنبين هذا وحكمة الله تعالى فيه . وقال الراغب :الاسى الحزن، وحقيقته إتباع الفائت الغم، يقال اسيت عليه اسى واسيت له .

ذكرنا قبل أن هذه القصة مفصلة في الفصلين الثالث عشر والرابع عشر من سفر العدد ، وذكرنا شيئا منهما . وفي الفصل الرابع عشر ان بني اسرائيل لما تمردوا وعصوا امر ربهم سقط موسى وهرون على وجوههما امامهم ، وان يوشع وكالب مزقا ثيابهما ونهيا الشعب عن التمرد وعن الخوف من الجبارين ليطيعا، فهم الشعب برجمهما ، وظهر مجد الرب لموسى في خيمة الاجتماع (١١ وقال الرب لموسى: حتى متى يهينني هذا الشعب ؟ وحتى متى لا يصدقونني بجميع الآيات التي عملت في وسطهم ؟ ١٢ اني أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر وأعظم منهم) فشفع موسى فيهم لئلا يشمت بهم المصريون وبه ، فقبل الرب شفاعته ثم قال (٢٢ ان جميع الرجال الذين رأوا مجدي وآياتي التي عملتها في مصر وفي البرية وجربوني الآن عشر مرات ولم يسمعوا قولي ٢٣ لن يروا الارض التي حلفت لآبائهم ، وجميع الذين أهانوني لايرونها) واستثنى الرب كالبا فقط . ثم قال لموسى وهرون (٢٧ حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة علي ؟ قد سمعت تذمر بني اسرائيل الذي يتذمرونه علي ٢٨ قل لهم « حي أنا » يقول الرب ، لأفعلن بكم كما تكلمتم في أذني ٢٩ في هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدا الذين تذمروا علي ٣٠ لن تدخلوا الارض التي رفعت يدي لاسكننكم فيها ماعدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون ٣١ وأما

أطفالكم الذين قلتم انهم يكونون غنيمة فأني سأدخلهم فيعرفون الارض التي احتقرتموها ٣٢ فجثثكم أنتم تسقط في هذا القفر ٣٣ و بنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة ، ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم في القفر ٣٤ كعدد الايام التي تجسستم فيها الارض أربعين يوما للسنة يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادي ٣٥ أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة عليّ ، في هذا القفر يفنون ، وفيه يموتون)

لا نبحث هنا في هذه العبارات التي أثبتناها ، ولا في ترك ما تركناه من الفصل في موضوعها ، لا من حيث التكرار ، ولا من حيث الاختلاف والتعارض ، ولا من حيث تنزيه الرب وتعالى ، ولا نبحث عن كاتب هذه الاسفار بعد سبي بني سرائيل . وانما نكتفي بما ذكرناه شاهدا ، ونقول كلمة في حكمة هذا العقاب ، تبصرة وذكرى لأولي الالباب ، وهي :

ان الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد ، وتساس بالظلم والاضطهاد ، تفسد أخلاقها ، وتذل نفوسها ، ويذهب بأسها ، وتضرب عليها الذلة والمسكنة ، وتألف الخضوع ، وتأنس بالمهانة والخنوع ، واذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الاخلاق موروثة ومكتسبة ، حتى تكون كالغرائز الفطرية ، والطبائع الخلقية ، اذا أخرجت صاحبها من بيئتها ، ورفعت عن رقبته نيرها ، ألفيته ينزع بطبعه اليها ، ويتفلت منك ليتقحم فيها ، وهذا شأن البشر في كل ما يألفونه ويجرون عليه من خير وشر ، وايمان وكفر ، وقد ضرب النبي (ص) مثلا لهدايته وضلال الراسخين في الكفر من أمة الدعوة فقال « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، ويجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها » رواه الشيخان

أفسد ظلم الفراعنة فطرة بني اسرائيل في مصر ، وطبع عليها بطابع المهانة والذل ، وقد أراهم الله تعالى مالم ير أحدا من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله موسى عليه السلام ، وبين لهم انه أخرجهم من مصر لينقذهم من الذل والعبودية والعذاب ، الى الحرية والاستقلال والعز والنعيم ، وكانوا على هذا كله اذا أصابهم

نصب أو جوع، أو كلفوا أمرا يشق عليهم، يتطيرون بموسى ويتململون منه، ويذكرون مصر ويحنون الى العودة اليها ، ولما غاب عنهم أياما لمناجاة ربه اتخذوا لهم عجلا من حليهم الذي هو أحب شيء اليهم وعبدوه ! لما رسخ في نفوسهم من إكبار سادتهم المصريين واعظام معبودهم العجل (أبيس) وكان الله تعالى يعلم انهم لا تطيعهم نفوسهم المهينة على دخول أرض الجبارين، وان وعده تعالى لاجدادهم انما يتم على وفق سنته في طبيعة الاجتماع البشري اذا هلك ذلك الجيل الذي نشأ في الوثنية والعبودية للبشر وفساد الاخلاق ، ونشأ بعده جيل جديد في حرية البداوة ، وعدل الشريعة ونور الآيات الإلهية ، وما كان الله ليهلك قوما بذنوبهم ، حتى يبين لهم حجته عليهم ، ليعلموا انه لم يظلمهم وانما يظلمون أنفسهم ، وعلى هذه السنة العادلة أمر الله تعالى بني اسرائيل بدخول الارض المقدسة ، بعد ان أراهم عجائب تأييده لرسوله اليهم ، فأبوا واستكبروا فأخذهم الله تعالى بذنوبهم ، وانشأ من بعدهم قوما آخرين ، جعلهم هم الأئمة الوارثين ، جعلهم كذلك بهممهم وأعمالهم ، الموافقة لسنته وشريعته المنزلة عليهم . — فهذا بيان حكمة عصيانهم لموسى بعد ما جاءهم بالبينات ، وحكمة حرمان الله تعالى لذلك الجيل منهم من الارض المقدسة

فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التي بينها الله تعالى لنا ، ونعلم ان اصلاح الامم بعد فسادها بالظلم والاستبداد ، إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزتها ، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها ، وقد كان يقوم بهذا في العصور السالفة الانبياء ، وإنما يقوم بها بعد ختم النبوة ورثة الانبياء ، الجامعون بين العلم بسنن الله في الاجتماع، وبين البصيرة والصدق والاخلاص في حب الاصلاح ، وإيثاره على جميع الأهواء والشهوات ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

﴿ كتاب مدارج السالكين . بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ﴾

هذا الكتاب للامام الحافظ المحقق ابن قيم الجوزية ، شرح فيه كتاب (منازل السائرين) في التصوف لشيخ الاسلام ابي اسماعيل الهروي شرحا بين فيه غوامضه ، وفصل بين مايوافق الكتاب والسنة وما يخالفهما منه ، فهو أفضل كتب التصوف وأنفعها ، وهو يطبع الآن في مطبعة المنار ، وقد أوشك ان يتم طبع الجزء الاول منه ، وقد رأينا أن ننشر هذا الفصل منه تعجيلا بالفائدة لقراء المنار ، ولشدة الحاجة اليه . قال المصنف رحمه الله تعالى في سياق بيان انواع الكفر :

﴿ فصل ﴾

وأما الشرك فهو نوعان : أكبر وأصغر . فالاكبر لا يغفره الله الا بالتوبة منه ، وهو ان يتخذ من دون الله ندا يحبه كما يحب الله . وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين . ولهذا قالوا لآلهتهم في النار (تالله ان كنا لفي ضلال مبين * اذ نسويكم برب العالمين) مع اقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه ، وان آلهتهم لاتخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت . وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركي العالم ، بل كلهم يحبون معبوديهم و يعظمونها و يوالونها من دون الله . وكثير منهم بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله ، و يستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم اذا ذكر الله وحده ، و يغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم من المشايخ أعظم مما يغضبون اذا انتقص أحد رب العالمين ، واذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوديهم غضبوا غضب الليث اذا حرد ، واذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها ، بل اذا قام المنتهك لها باطعامهم شيئا رضوا عنه ولم تتنكر له قلوبهم . وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة ، وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ان أقام وان قعد وان عثر وان مرض وان استوحى (١) فذكر إلهه ومعبوده من دون الله

(١) كتب في هامش نسختنا « لعله وان استوحش » وفي النسخة الثالثة . « وان استوى » أي جالسا أو راكبا أو قائما

هو الغالب على قلبه ولسانه، وهو لا ينكر ذلك، ويزعم انه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه — وهكذا كان عباد الاصنام سواء — وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم ، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم ، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم اتخذوها (١) من البشر. قال الله تعالى حاكيا عن اسلاف هؤلاء المشركين (والذين اتخذوا من دونه أولياء : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى، ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) ثم شهد عليهم بالكفر والكذب وأخبر انه لا يهديهم فقال (٢) (ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار) فهذه حال من اتخذ من دون الله وليا يزعم انه يقربه الى الله، وما أعز من يخلص من هذا ؟ بل ما أعز من لا يعادي من انكره !

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم ان آلهتهم تشفع لهم عند الله . وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله ، وأخبر أن الشفاعة كلها له ، وأنه لا يشفع عنده أحد الا لمن أذن الله أن يشفع فيه ورضي قوله وعمله ، وهم أهل التوحيد الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء ، فانه يأذن سبحانه لمن شاء في الشفاعة لهم حيث لم يتخذوهم شفعاء من دونه ، فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعا من دون الله

والشفاعة التي أثبتها الله ورسوله هي الشفاعة الصادرة عن أذنه لمن وحده ، والتي نفاها الله (٣) الشفاعة الشركية التي في قلوب المشركين المتخذين من دون الله شفعاء ، فيعاملون بنقيض قصدهم من شفاعتهم ويفوز بها الموحدون . فتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة - وقد سأله : من أسعد الناس بشفاعتك يارسول الله ؟ قال - « أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله الا الله خالصا من قلبه » كيف جعل أعظم الاسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد عكس ما عند المشركين ان الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم من دون الله ، فقلب النبي

(١) وفي نسخة « اتخذها » (٢) هذه الجملة بين طرفي الآية ساقطة من نسختنا

(٣) المنار : نفى الله الشفاعة نفيا مطلقا ومقيدا ، فالمطلق كقوله { انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} والمقيد كقوله { ما للظالمين من شفيع ولا حميم يطاع } ومنها ما أشار اليه المصنف

صلى الله عليه وسلم مافي زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد ، فحينئذ يأذن الله للشافع ان يشفع .

ومن جهل المشرك اعتقاده ان من اتخذه وليا أو شفيعا انه يشفع له وينفعه عند الله كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم ، ولم يعلموا ان الله لايشفع عنده احد لا باذنه ، ولا يأذن في الشفاعة الا لمن رضي قوله وعمله كما قال تعالى في الفصل الأول (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟) وفي الفصل الثاني (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) وبقي فصل ثالث ، وهو انه لا يرضى من القول والعمل الا التوحيد واتباع الرسول ، وعن هاتين الكلمتين يسأل الاولين والآخرين كما قال أبو العالية : كلمتان يسئل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون ؟(١) وماذا أجبتم المرسلين ؟ فهذه ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها : لاشفاعة الا باذنه ، ولا يأذن الا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى من القول والعمل الا توحيده واتباع رسوله (٢) فالله تعالى : لا يغفر شرك العادلين به غيره كما قال تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وأصح القولين انهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة كما في الآية الاخرى (تالله ان كنا لفي ضلال مبين * اذ نسويكم برب العالمين) وكما في آية البقرة (يحبونهم كحب الله)

وترى المشرك يكذب حالُه وعملُه لقوله فانه يقول : لا نحبهم كحب الله ولا نسوّيهم بالله . ثم يغضب لهم ولحرماتهم اذا انتهكت أعظم ممـا يغضبه لله ، ويستبشر بذكرهم ويتبشبش به (٣) سيما اذا ذكر عنهم ماليس فيهم من اغاثة اللهفات، وكشف الكربات ، وقضاء الحاجات، وانهم باب بين الله وبين عباده . ترى المشرك يفرح ويسر ويحن قلبه ويهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة ، واذا ذكرت له الله وحده وجردت توحيده، لحقته وحشة وضيق وحرج (٤)

(١) كتب في هامش نسختنا هنا « تعملون» (٢) وفي نسخة « رسله » (٣) يقال تبشبش به اذا آنسه وواصله وفي نسخة « ويستأنس » بدل « ويتبشبش » (٤) فات المصنف ان يستشهد هنا بقوله تعالى (واذا ذُكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة، واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون) ولا فرق بين المشرك الذي لا يؤمن بالآخرة البتة، والمشرك الذي يؤمن بها على غير الوجه الذي بينه الرسول (ص)

ورماك بتنقص الإلـهية (١) التي له ور بما عاداك . رأينا والله منهم هذا عيانا، ورمونا بعدوتهم و بغوا لنا الغوائل (٢) والله مخزيهم (٣) في الدنيا والآخرة، ولم تكن حجتهم الا ان قالوا كما قال اخوانهم : عاب آلهتنا . فقال هؤلاء تنقصتم مشايخنا وأبواب حوائجنا الى الله . وهكذا قال النصارى للنبي صلى الله عليه وسلم لما قال لهم : ان المسيح عبد (٤) ، قالوا : تنقصت المسيح وعبته . وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانا تعبد ومساجد، وأمر بزيارتها على الوجه الذي اذن الله فيه ورسوله، قالوا : تنقصت أصحابها . فانظر الى هذا التشابه بين قلوبهم حتى كأنهم قد تواصوا به و (من يهدي الله فهو المهتدِ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)

وقد قطع تعالى الاسباب التي تعلق بها المشركون جميعها قطعا يعلم من تأمله وعرفه ان من اتخذ من دون الله وليا او شفيعا فهو (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت) فقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له) فالمشرك انما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع . والنفع لا يكون الا ممن فيه خصلة من هذه الاربع : إما مالك لما يريده عابده منه، فان لم يكن مالكا كان شريكا للمالك، فان لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا، فان لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده . فنفى سبحانه المراتب الاربع نفيا مترتبا متنقلا (٥) من الاعلى الى مادونه (٦) فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يظنها المشرك، واثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة باذنه، فكفى بهذه الآية نورا و برهانا ونجاة وتجريدا للتوحيد وقطعا لاصول الشرك ومواده لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها

(١) وفي نسخة « ورماك بانتقاص الآلهة » الخ (٢) يقول مصحح الكتاب : نحمد الله ان كان لنا في المصنف وأمثاله من الدعاة الى توحيد الله أسوة، فقد رأينا ما رأى وابتلينا بما ابتلي (٣) وفي نسخة « يجزيهم (٤) وفي نسخة « عبد الله » (٥) وفي نسخة مرتباً متنقلا (٦) وفي نسخة الادنى

ونظائرها ولكن اكثر الناس لا يشعر (١) بدخول الواقع تحته وتضمنه له ، ويظنه في نوع ، وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثا ، وهذا هو الذي يحول بين القلب و بين فهم القرآن . ولعمر الله ان كان اولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم . وتناوُل القرآن لهم كتناوله لاولئك ، ولكن الامر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « انما تُنقض عرى الاسلام عروة عروة اذا نشأ في الاسلام من لا يعرف الجاهلية » (٢) وهذا لانه اذا لم يعرف الجاهلية والشرك • وما عابه القرآن وذمه، وقع فيه واقره ، ودعا اليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف انه هو الذي كان عليه اهل الجاهلية أو نظيره ، أو شر منه (٣) أو دونه، فينتقض(٤) بذلك عرى الاسلام و يعود المعروف منكرًا والمنكر معروفا ، والبدعة سنة والسنة بدعة ، و يكفَّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد ، و يبدَّع بتجريد متابعة الرسول ومفارقة الاهواء والبدع ، ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عيانا والله المستعان اه

اسلام اللورد هدلي

وما قاله وكتبه في سببه

خاضت جرائد العالم في اسلام « اللورد هدلي » الانكليزي فكتب بعضها ما وقف عليه كما هو على سبيل الخبر ، وزعم بعضهم إن اسلامه اسلام سياسي ليمثل المسلمين في مجلس اللوردات ! وابى بعض المتعصبين من النصارى الا ان يشوب الخبر بشوائب التلبيس وايهام القارئ ان اللورد لا يزال نصرانيا يؤمن بالثالوث ويجمع بين الضدين أو النقيضين : التوحيد والتثليث . وكأن هذا التلبيس والايهام قد استنبط من كلمة عزيت الى اللورد . واننا ننشر ما نقلته جريدة مسيحية انكليزية عن اللورد وما كتبه هو عن اسلامه فنقول :

جاء في جريدة الديلي ميل الصادرة في ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٣ تحت عنوان (اسلام اللورد هدلي) ما يأتي :

اللورد هدلي هو البارون الخامس في بيته (عائلته) وقد ارتقى الى هذه الرتبة

(١) وفي نسخة لا يشعرون (٢) وفي نسخة من لم يعرف الجاهلية (٣) وفي نسخة أو أسوأ (٤) وفي نسخة فينقض . ولعله الاصل الصحيح

في يناير الماضي بعد وفاة ابن عمه . وقد اسلم هذا اللورد الآن وأُعلن اسلامه في حفلة للجمعية الاسلامية بلندن ، وكان هو نفسه حاضرا في وليمة الجمعية السنوية

قال في اجتماع البارحة « انني باعلان اسلامي الآن لم أحد مطلقا عما اعتقدته منذ عشرين سنة ، ولما دعتني الجمعية الاسلامية لوليمتها سررت جدا لأ تمكن من الذهاب اليوم واخبارهم بالتصاقي الشديد بدينهم . وأنا لم أهتم بعمل أي شيء لاظهار نبذي لعلاقتي بالكنيسة الانكليزية التي نشأت في حجرها ، كما أني لم أحفل بالرسميات في إعلان إسلامي ، وان كان هو الدين الذي اتمسك به الآن

إن عدم تسامح المتمسكين بالنصرانية كان أكبر سبب في خروجي عن جامعتهم ، فانك لا تسمع أحداً من المسلمين يذم أحداً من أتباع الاديان الأخرى كما تسمع ذلك من النصارى بعضهم في بعض ، فإن المسلمين وإن كان يحزنهم عدم اهتداء الناس إلى دينهم إلا أنهم لايحكمون على كل من خالفهم بالهلاك الابدي

إن طهارة الاسلام وسهولته وبعده عن الاهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته كانت كل هذه الاشياء أكبر ما أثر في نفسي . وقد رأيت في المسلمين من الاهتمام بدينهم والاخلاص ما لم أر مثله بين النصارى ، فان النصراني يحترم دينه عادة يوم الاحد حتى إذا ما مضى الاحد نسي دينه طول الاسبوع : وأما المسلم فبعكس ذلك ، يحب دينه دائما ، وسواء عنده أكان اليوم يوم الجمعة أو غيره ، ولا يفتر لحظة عن التفكر في كل عمل يكون فيه عبادة الله

وإني وإن كنت اعتنقت الاسلام الا أني لازلت نصرانيا ، بمعنى أني لازلت مؤمنا بالمسيح ومتبعا تعاليم المسيح ، فان الاسلام يصدق بتعاليم جميع الانبياء على حد سواء فلا يفرق بين موسى والمسيح ومحمد «ولكن أكثر الناس لايعلمون» اه كلام هدلي

ثم قالت الجريدة المذكورة : إن اللورد (هدلي) هو مهندس . وفي المسابقة الرياضية التي جرت في كمبردج حاز قصب السبق في الملاكمة مثل المستر النسون وين (Allanson Winn)

﴿ لماذا أسلمت ﴾

وجاء في جريدة الأبزيرفر الأسبوعية (The Observer) في عددها الصادر في ٢٣ نوفمبر الماضي تحت عنوان (لماذا أسلمت) بقلم اللورد هدلي (Headley) ما ترجمته حرفيا : —

عقيدة الاسلام

أخذت صحف عديدة تخوض في معتقدي الديني ، ويسرني أن أرى أن جميع الانتقادات التي وجهت إليّ للآن كانت بلهجة لطيفة ، وما كان ينتظر أن الخروج عما الفه الناس واعتادوه لايلفتُ الأنظار اليه ، وذلك مما يسرني . إني أحب مهنتي ومولع بالألعاب الرياضية ، ولم يكن لي في ذلك غرض لطلب الشهرة وبعد الصيت ، ولكن لو كان عملي في هذه الحالة سببا في جعل الناس كبيري المدارك سمحاء فأنا في غاية الاستعداد لأن أتحمل بكل صبر أي نوع من الاساءة والاستهزاء

أتاني في يوم كتاب من نصرانيّ متمسك بدينه يقول لي فيه : إن الاسلام هو دين شهوات، وإنه كان لنبيه عدة زوجات . فما أعجبها من فكرة عن الاسلام ! ! ولكنها هي الفكرة السائدة على عقول تسعة وتسعين من كل مائة بريطاني ، فانهم لايتعبون أنفسهم في البحث عن حقائق دين يدين به مائة مليون من اخوانهم الخاضعين لهم . نبيّ العرب المقدس كان على الأخص حصورا عن الشهوات طاهراً ، فكان مخلصاً لزوجته الوحيدة خديجة التي كانت أكبر منه بخمس عشرة سنة ، وكانت أول من آمنت ببعثته . وبعد موتها تزوج عائشة ثم تزوج أيضا عدة أرامل لاصحابه الذين قتلوا في الحرب لا لأنه كان له أدنى رغبة فيهن بل ليعولهن ويقوم بكفالتهن ويرفع مقامهن إلى منزلة ما كن يصلن اليها بغير ذلك . وكان عمله هذا ملتئما مع بعده عن الأنانيـة ومع حياته الشريفة العالية . وكان من شدة زهده في هذه الحياة أنه ما كان يملك ما يكفيه من العيش

نحن البريطانيين تعودنا أن نفخر بحبنا للانصاف والعدل ، ولكن أي ظلم أعظم من أن نحكم - كما يفعل أكثرنا - بفساد الاسلام قبل أن نلم بشيء من عقائده ، بل قبل أن نفهم معنى كلمة إسلام ؟

القرآن والدعوة

من المحتمل أن بعض أصدقائي يتوهم أن المسلمين هم الذين أثروا فيّ ، ولكن هذا الوهم لاحقيقة له ، فان اعتقاداتي الحاضرة ليست إلا نتيجة تفكير قضيت فيـه عدة سنين . أما مذاكراتي الفعلية مع المتعلمين من المسلمين في موضوع الدين فلم تبدأ الا منذ أسابيع قليلة ، ولا حاجة بي إلى القول بأني ملئت سرورا حينما وجدت نظرياتي ونتائجي متفقة تمام الاتفاق مع الدين الاسلامي . وأما صديقي الخوجة كمال الدين فلم

يحاول قط أن يكون له في أقل تأثير ، ولكنه كان حقيقة كقاموس حي يفسر ويترجم لي - مع الصبر - ما لم يتضح لي من آيات القرآن . وكان سلوكه هذا مسلك المبشر الاسلامي الحقيقي الذي لا يحاول إرغام سامعيه أو التأثير فيهم . فان الدخول في الاسلام يجب - كما يقول القرآن - أن يكون بارادة الانسان الحرة وبرأيه الذاتي بدون أي وسيلة من وسائل الاكراه . وكذلك أراد عيسى أيضا حينما قال (مر ٦: ١١ وكل من لا يقبلكم ولا يسمع لكم فاخرجوه من هناك ٠٠٠٠)

إني أعرف حوادث عديدة جدا لبعض البروتستانت المتحمسين الذين يظنون أنه يجب عليهم أن يزوروا بيوت الكاثوليك ليحولوهم إلى مذهبهم ، ومثل هذا التعدي الجارح قبيح طبعا . وقد أدى في الاكثر الى إثارة الاحقاد التي نشأت عنها مشاحنات وجعلت الدين يزدرى . وإني ليحزنني أن أرى أن دعاة النصرانية قد سلكوا هذا الطريق عينه مع اخوانهم المسلمين ، ولا يمكنني أن أفهم كيف يريدون أن يدعوا الى النصرانية من هم في الحقيقة أفضل منهم نصرانية (أو قال نصارى أفضل منهم) لم أقل « نصارى أفضل منهم » جزافا فان ما في الاسلام من الخير والتسامح وسعة المدارك أقرب إلى ما دعا اليه المسيح من تلك العقائد الضيقة التي أخذت بها فرق النصارى المختلفة

عقيدة اثناسيوس (١)

أذكر مثلا واحدا وهو عقيدة أثناسيوس التي تشرح الثالوث شرحا في غاية التعقيد . في هذه العقيدة - وهي كبيرة الاهمية جدا وتنص على احدى العقائد الاساسية للكنائس المسيحية - ترى جليا أنها عقيدة الجمهور وأننا إذا لم نأخذ بها نهلك هلاكا أبديا . ثم يقال لنا إنه « يجب علينا أن لا نفكر في الثالوث بغير ذلك » وبعبارة أخرى إن الاله الذي نصفه في لحظة بالرحمة والقدرة ، نصفه في اللحظة الثانية بالظلم والقسوة ، وهو ما نتحامى أن نصف بها أقسى البشر السفاكين ، فكأن الله تعالى القديم الذي فوق كل شيء يكون خاضعا لما يذهب اليه الهالك المسكين (يريد الانسان) في أمر الثالوث.

وهاك مثلا آخر من أمثلة بعدهم عن الخير : أتاني كتاب بمناسبة ميلي للاسلام يقول لي فيه كاتبه : إنني إن لم أومن بلاهوت المسيح فلا سبيل لي إلى الخلاص . أما مسألة ألوهية المسيح هذه فلم يظهر لي أنها تقرب في أهميتها من تلك المسألة الاخرى وهي : هل بلغ رسالة ربه للبشر ؟ فلو كان عندي الآن أي شك في هذه المسألة

(١) حاشية للمترجم : عاش هذا الرجل بين سنة ٢٩٦ - ٣٧٣ م

الاخيرة لضايقني كثيرا ، ولـكنني - ولله الحمد - لا أشك فيها ، وأرجو أن يكون إيماني بالمسيح وبما أوحاه الله اليه ثابتا كايمان أي مسلم أو أي نصراني به . وكما قلت من قبل مرارا إن الاسلام والنصرانية - التي أتي بها المسيح نفسه - هما توأمان لم يفرق بينهما الا الأهواء والاصطلاحات التي يحسن أن تنبذ ظهريا في هذه الأيام. يميل الناس الى الالحاد حينما يطالبون بالأخذ بعقائد جامدة لاتحمل التسامح، وان كانوا - ولا شك - لفي شوق الى دين يذعن لحـكم العقل كما يذعن الوجدان. من سمع بمسلم انقلب ملحدا ؟ يجوز أن يوجد أحوال قلائل كهذه ولـكنني مع ذلك أشك في وجودها كل الشك

خوف الانتقاد

إني أعتقد أنه يوجد ألوف من الرجال والنساء الذين يدينون بالاسلام في قلوبهم، ولـكن مخالفة الاجماع وخوف الانتقاد العدائي والرغبة في اجتناب كل ضيق أو تعيير يحملهم على عدم الجهر بما في قلوبهم . قد سلـكت الآن نفس هذا المسلك . على أني أعلم أن كثيرا من أصدقائي وأقربائي ينظرون الي كأني روح ضالة تستحق الدعاء لها، مع أن عقيدتي الآن هي عين عقيدتي منذ عشرين سنة، ولـكن جهري بها هو الذي أفقدني حسن ظنهم بي . إن الخوف هو السبب في وجود أحوال لاتحصى من الشقاء والشر في هذا العالم ، ولو اتبع الناس الصراحة في القول لقل سوء التفاهم بينهم، ولزاد احترامهم ، ولنقتبس هنا كلمة المستر (بلفور) الحـكيمة وهي قوله « لاناصح أضر من الفزع إلا اليأس » ولـكن أفضل أن أقول في هذه الحالة « هناك ناصح أضر وأشد خطراً من الشك أو الـكفر ألا وهو الخوف »

وحيث اني قد أتيت هنا بملخص بعض الاسباب التي حملتني على اعتناق الاسلام وقد بينت أني أعتبر نفسي بهذا العمل نصرانيا أكمل بكثير مما كنت من قبل، فلذا أرجو أن يقتدي بي غيري في ذلك ، فانه خير لاشك فيه . وفيه السعادة لـكل من يرى أن عملي هذا ارتقاء لايراد به أي عداء للنصرانية الصحيحة . اه

(المنار) في كلام أخينا اللورد هدلي كلمتان جديرتان بالاعتبار (احداهما) قوله : ان الاسلام هو النصرانية التي كان عليها ودعا اليها المسيح عليه السلام . وهذا حق فان دين جميع رسل الله (عليهم السلام) واحد في اصوله وجوهره ، وانما كان بيان خاتمهم (محمد صلى الله عليه وسلم) أتم وأكمل على سنة الارتقاء في الحياة ، وقد حفظه

الله من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان . وقد سبق لحكيمنا الكبير السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى كلمة مثل كلمة اخينا اللورد هدلي . ذلك ان سائلا سأله عن سبب الدعوة الى المذهب (النيشري) المادي في الهند فقال : ان الذين أرادوا حل رابطة المسلمين في الهند دعوهم أولا الى النصرانية فلم تجح دعوتهم لان الاسلام مسيحية وزيادة ، فانه يقرر الايمان بالمسيح وبما جاء به من التوحيد والفضائل ويبطل ما زاده النصارى في دينه من الخرافات ؛ - أي مع زيادة في المعارف الالهية والآداب والفضائل والهدي الكامل - فلما خابت هذه الدعوة رأوا ان يشككوهم في الدين المطلق الخ ما قاله وقد ذكرناه بالمعنى . ولولا العصبيات المذهبية ، والاحقاد السياسية ، وسوء حال مسامي هذه الازمنة وبعدهم عن حقيقة الديانة الاسلامية ، وجهل الافرنج بها وبلغتها العربية ، ثم هذا الحجاب الذي اسدلته العلوم والاعمال المادية ، ومقت الدين الذي أثارته الخرافات الكنيسية ، وما كان قبل من قسوة السلطة البابوية ، لكان هؤلاء الافرنج أجدر الناس في هذا العصر بالاسلام ، دين العقل والعلم والحضارة والسلام ، الذي كشف ماغشي كتب الانبياء من الخرافات والأوهام ، ورفع امتيازات الاجناس والاصناف والاقوام . ودعا الناس كافة الى الإخاء والوحدة والاعتصام . ولا بد أن يجلى حقه لهم بعد احقاب ان لم يكن بعد اعوام ، وقد ظهرت بوادر ذلك بما يكتشفون في هذه الايام، من غرائب آياته تعالى في الانفس والعقول والقوى والاجسام ، وقد قال في كتابه المجيد (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ، ألا انه بكل شيء محيط)

وأما الكلمة الثانية من كلمتي (اللورد هدلي) فهي إخباره بأن كثيرا من قومه مسلمون ، أي قد ظهر لهم نور الاسلام ، فانقشعت به ظلمات الاوهام ، وتلك الظلمة الوثنية ، التي غشيت تعليم المسيح النورانية ، فعلموا أن دين محمد هو دين المسيح عليهما السلام ، ولكنه غير أديان الكنائس المنسوبة الى المسيح بين انهم مسلمون في باطنهم ولكنهم يخافون ان يظهروا اسلامهم كما كان يخاف هو مدة عشرين سنة ، وانما يخافون ان يحتقرهم قومهم ، ويمتعض منهم أهلهم ، لأن تعصبهم للدين وللمذهب شديد جدا ، وان خفي هذا عن سفهاء المتفرنجين منا الذين يزعمون ان جميع الافرنج مارقون من الدين . لانهم لميلهم الى الالحاد لايجذبون الا الى أهله ، وقد يحملون من الكلام عليه مالايراد به منه ، كما انهم لافتتانهم بالفسق يظنون ان جميع نساء الافرنج بغايا ، وانهم لاهمّ لهم من حياتهم

ولا اشتغال لهم الا بالشهوات البهيمية ، وسبب ذلك انهم لا يبحثون الا عن ذلك . ولو كان همّ الذين يذهبون الى أوربة منهم موجها الى علم من العلوم أو فن من الفنون أو صناعة من الصناعات ، لبدا لهم من اهتمام الافرنج به مايحملهم على الظن بأنه لا همّ لهم في غيره. على ان في الافرنج من يهتم بافساد دين الشرقي لافساد جامعته التي يعتصم بها

هذا وانّا كنا منذ ميزنا وعقلنا نسمع من أهلنا وأصحابنا أن كثيرا من نصارى بلادنا يوقنون بحقية الاسلام ولا يجرؤون على اظهار ذلك لقومهم ، ومنهم من يدخل في الاسلام ويؤدي فرائضه كلها أو بعضها في الخفاء ، حتى اتفق ذلك لبعض رؤساء الاديار ، وأخبرنا والدي رحمه الله تعالى أنه عاد فلانا القائمقام في أحد أقضية جبل لبنان في مرض موته — وكان صديقا له — فخلا به فأشهده على نفسه انه مسلم يشهد أن لا إله الا الله وان محمد رسول الله . وأذكر أنني رأيت ذلك الرجل وكنت طالب علم فسألني عن بعض الاحاديث النبوية وكان يذكر النبي (ص) بتعظيم فوق المعتاد في مجاملة أدباء النصارى للمسلمين، فحملت ذلك على المبالغة في المجاملة

وانني أعرف افراداً من فضلاء النصارى المستقلين يودون لو كان في البلاد حرية دينية يعذرهم بها أهلهم اذا هم أسلموا ، منهم من يود لو كان مسلما اعتقادا منه بأفضلية الاسلام ورجحانه على جميع الاديان ، ومنهم من يود ذلك لغرض سياسي اجتماعي وهو التمكن من التأثير في اصلاح بلاده التي يجزم بأنها لا تصلح الا اذا صلح المسلمون وجاروا الامم القوية في أسباب العزة والحضارة . وهذا الصنف كثير جدا . ولو كان للاسلام حكومة تقيم بنيانه ، وتنفذ أحكامه ، وتحمل الامة على فضائله ، وتظهر للناس حقيقة عدله وسماحته ، لرأيت الناس يدخلون فيه أفواجا ، ولكن رؤساء المسلمين هم أشد تنفيرا عن الاسلام من دعاة الاديان الاخرى ورؤسائها ، ومن كل أحد . وما هذه الاعوارض لا تدوم ، اذ وعد الله تعالى بان يظهره على الدين كله وكان الله قويا عزيزا

تاريخ الجهمية والمعتزلة [*]

(١٢) ما نتج من تعصب الجهمية والاثرية وبيان آفة الغلو في التعصب

(قال الامام الغزالي) في احياء علوم الدين : واما الكلام — اي علم الكلام — فمقصوده حماية المعتقدات التي نقلها اهل السنة من السلف الصالح لا غير

(ثم قال) ويحتاج اليه لمناظرة مبتدع ، ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي ،وذلك لا ينفع الامع العوام قبل اشتداد تعصبهم. واما المبتدع بعد ان يعلم من الجدل ولو شيئا يسيراً ، فقلما ينفع معه الكلام، فانك ان افحمته لم يترك مذهبه ، واحال بالقصور على نفسه ، وقدر ان عند غيره جوابا ما ، وهو عاجز عنه ، وانما انت ملبس عليه بقوة المجادلة. واما العامي اذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن ان يرد اليه بمثله قبل ان يشتد التعصب للاهواء ، فاذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم ،اذ التعصب سبب يرسخ العقائد في النفوس ، وهو من آفات علماء السوء ، فانهم يبالغون في التعصب للحق،وينظرون الى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، فتنبعث منهم الدعوى بالمكافأة والمقابلة والمعاملة ، وتتوفر دواعيهم على طلب نصرة الباطل ، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا اليه ،ولو جاؤا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة لا في معرض التعصب والتحقير، لانجحوا فيه ، ولكن لما كان الجاه لا يقوم الا بالاستتباع ، ولا يستميل الاتباع مثل التعصب واللعن والشتم للخصوم ، اتخذوا التعصب

*) تابع لما نشر في ج ١٢ م ١٦ ص ٩١٣

عادتهم وآلتهم ، وسموه ذبا عن الدين ، ونضالا عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ، ورسوخ البدعة في النفوس اه

(وقال الغزالي) رحمه الله ايضا - في الجدل المذموم ومضراته : وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة ، وتثبيتها في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ، ويشتد حرصهم على الاصرار عليه (قال) ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل . ولذلك ترى المبتدع العامي يمكن ان يزول اعتقاده باللطف في اسرع زمان . الا اذا كان نشوءه في بلد يظهر فيها الجدل والتعصب . فانه لو اجتمع عليه الاولون والآخرون لم يقدروا على نزع البدعة من صدره ، بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولي على قلبه . ويمنعه من ادراك الحق ، حتى لو قيل له: هل تريد ان يكشف الله تعالى لك الغطاء ، ويعرفك بالعيان ان الحق مع خصمك ؟ لكره ذلك خيفة ان يفرح به خصمه (قال) وهذا هو الداء العظيم الذي استطار في البلاد والعباد ، وهو نوع فساد اثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره اه

وقال العلامة المقبلي في العلم الشامخ : واعلم ان الخلاف والتعصب والتحزب هو الذي حمل سيوف بعض المسلمين على بعض . وحال دماءهم واموالهم واعراضهم ، وحرف الكتاب والسنة . ثم صيرهما كالعدم بسد باب الاجتهاد اه

(وقال ايضا) ثم ترتب على الافتراق تقويم كل لعمود الشقاق ، وصار كل منهم انما يعتز بمن مال اليه من الملوك على خصمه اه

وبالجملة فمن اعظم آفات التعصب ما نشأ عنه من التفرق والتعادي ،

بحيث صار يرثه المتأخر عن المتقدم ، حتى اصبح يبغض القريب قريبه اذا وجده يخالف رأيه، ويلصق به كل تهمة شنعاء ولو اقام على صحة رأيه مئين من البراهين ، بل بلغ احتقار بعضهم لبعض مبلغا دفـع به ان يحنق على مخالفه ، ويتحين الفرص للايقاع به ، حتى اذا بدرت منه هفوة ، أو ظهرت زلة – ولا معصوم الا المعصوم – رفع مخالفـه عقيرته بتأنيبه ، وملأ الأرض والسماء صراخا بتشهيره ، غير مبال بما حظره الشرع مما يولد البغضاء والشحناء ، ويفكك عرى الاخاء، ولا ملام على الدهماء من ترويج مثل هذه الخطة الشائنة لغرقهم في بحار الجهل ، وانما يلام قادة الافكار على احتذائهم هـذا الحذو ، ونسجهم على هذا المنوال ، اذ لولا صخب هؤلاء الرهط ، وبثهم هذه الالقاب في النفوس ، لكانت الامة متماسكة الاجزاء ، متينة عرى المحبة بين الافراد .

نعم لا بأس ان تنتقد الاقوال ، وتُضَعَّف بالبرهان ، ويوضح كل خطإ ينجم عنها ، ولكن الذي يجب التوقي منه هو ان يتشاحن قادة العقول ويتطاحنوا ويتبـاغضوا لما لا يصح ان يكون سببا معقولا ، وان يثب كلٌّ على مخالفه وثبة الغادر المنتقم ، فيود ان ينكل به أو يمزقـه شر ممزق ، فيقتفي إثرهم مقلدهم ، فتصبح الامة اعداء متشاكسة ، واحزابا متنافرة ، بشؤم التعصب الذميم ، الذي لم يتمكن من امة الا وذهب بها مذهب التفرق والانحطاط ، واضعف قواها ، واحاق بهـا الخطوب والارزاء ، فمن الواجب العمل على ملاشاة الشحناء والشقاق ، والقيام بالتحاب والاتفاق ، وبالله التوفيق

(١٣) حظر الائمة للمحققين ، رمي فرق المسلمين بالكفر والفسق

من اعظم ما بليت به الفرق الاسلامية ، رمي بعضها بعضا بالفسق والكفر ، مع ان قصد كل الوصول الى الحق ، بما بذلوا جهدهم لتأييده واعتقاده ، والدعوة اليه ، فالمجتهد منهم وإن اخطأ مأجور (وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية) في كتابه موافقة صريح المعقول ، لصحيح المنقول[1] عن الامام الرازي (في نهاية العقول) فى مسألة التكفير ما مثاله:

«قال الشيخ ابو الحسن الاشعري في اول كتاب (مقالات الاسلاميين): اختلف المسلمون بعد نبيهم في اشياء ضلل فيها بعضهم بعضا وتبرأ بعضهم من بعض فصاروا فرقا متباينين ، الا ان الاسلام يجمعهم فيعمهم . فهذا مذهبه ، وعليه اكثر الاصحاب ، ومن الاصحاب من كفر المخالفين

« واما الفقهاء ، فقد نقل عن الشافعي رضي الله عنه قال : لا أرد شهادة اهل الاهواء الا الخطابية ،[2] فانهم يعتقدون حل الكذب . واما ابو حنيفة رضي الله عنه ، فقد حكى الحاكم صاحب المختصر في كتاب المنتقى عن ابي حنيفة انه لم يكفر احدا من اهل القبلة . وحكى ابو بكر الرازي عن الكرخي وغيره مثل ذلك .

« واما المعتزلة ، فالذين كانوا قبل ابي الحسين تحامقوا وكفروا

{١} جزء ١ صفحة ٤٩ وما بعدها من الطبعة الاميرية على حاشية منهاج السنة (٢) فرقة من غلاة الشيعة منسوبة الى ابي الخطاب محمد بن مقلاص كان قبحه الله من الغلاة في جعفر الصادق عليه السلام ادعى له علم الغيب وغير ذلك حتى لعنه الصادق مرارا لفساد عقيدته وخبثه وكذبه عليه وقد تبرأ الصادق عليه السلام منه ، ومن اراد الوقوف على اخبار ابي الخطاب فليرجع الى كتاب رجال الشيعة للكشي فقد اسهب في شأنه في عدة اوراق اه

اصحابنا في اثبات الصفات وخلق الاعمال . واما المشبهة فقد كفرهم مخالفوهم من اصحابنا ومن المعتزلة، وكان الاستاذ ابو اسحق يقول : اكفر من يكفرني ، وكل مخالف يكفرنا فنحن نكفره والا فلا »

ثم قال الرازي : « والذي نختاره ان لا نكفر احدا من اهل القبلة والدليل عليه ان نقول المسائل التي اختلف اهل القبلة فيها مثل ان الله تعالى هل هو موجد لافعال العباد أم لا ؟ وانه هل هو متحيز ، وهل هو في مكان وجهة ، وهل هو مرئي ام لا ؟ لايخلو اما ان تتوقف صحة الدين على معرفة الحق فيها اولا تتوقف ، والاول باطل ، اذ لو كانت معرفة هذه الاصول من الدين ، لكان الواجب على النبي صلى الله عليه وسلم ان يطالبهم بهذه المسائل ، ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها ، فلما لم يطالبهم بهذه المسائل ، بل ماجرى حديث من هذه المسائل في زمانه عليه السلام ، ولا في زمان الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ؛ علمنا انه لايتوقف صحة الاسلام على معرفة هذه الاصول ، واذا كان كذلك لم يكن الخطأ في هذه المسائل قادحا في حقيقة الاسلام ، وذلك يقتضي الامتناع من تكفير اهل القبلة » اه

ثم قال الامام ابن تيمية بعد ذلك : «والاصل في هذا الباب ان الالفاظ نوعان مذكور في كتاب الله وسنة رسوله وكلام اهل الاجماع، فهذا يجب باعتبار معناه وتعليق الحكم به ، فان كان المذكور به مدحا استحق صاحبه المدح ، وان كان ذما استحق الذم ، وان اثبت شيئا وجب اثباته وان نفى شيئا وجب نفيه ، لأن كلام الله حق وكلام رسوله حق ، وكلام اهل الاجماع حق . ومن دخل في اسم مذموم في الشرع

كان مذموما كاسم الكافر والمنافق والملحد ونحو ذلك ، ومن دخل في اسم محمود في الشرع كان محمودا كاسم المؤمن والتقي والصدّيق ونحو ذلك »

«واما الالفاظ التي ليس لها اصل في الشرع ، فتلك لايجوز تعليق المدح والذم والاثبات والنفي على معناها ، الا ان يبين انه يوافق الشرع ، والالفاظ التي تعارض بها النصوص هي من هذا الضرب كلفظ الجسم والحيز والجهة والجوهر والعرض ، فمن كانت معارضته بمثل هذه الالفاظ لم يجز له ان يكفر مخالفه ان لم يكن قوله مما يبين الشرع انه كفر ، لأن الكفر حكم شرعي متلقى عن صاحب الشريعة ، والعقل قد يعلم به صواب القول وخطؤه ، وليس كل ما كان خطأ في العقل يكون كفرا في الشرع ، كما انه ليس كل ما كان صوابا في العقل يجب في الشرع معرفته . ومن العجب قول من يقول من اهل الكلام : ان اصول الدين التي يكفر مخالفها هي علم الكلام الذي يعرف بمجرد العقل ، واما مالا يعرف بمجرد العقل فهي الشرعيات عندهم ، وهذه هي طريقة المعتزلة والجهمية ومن سلك سبيلهم كاتباع صاحب الارشاد وأمثالهم فيقال لهم : هذا الكلام يتضمن شيئين : احدهما ان اصول الدين هي التي تعرف بالعقل المحض دون الشرع. والثاني ان المخالف لها كافر ، وكل من المقدمتين وان كانت باطلة ، فالجمع بينهما متناقض ، وذلك ان مالا يعرف الا بالعقل لا يعلم ان مخالفه كافر الكفر الشرعي ، فانه ليس في الشرع ان من خالف ما لا يعلم الا بالعقل يكفر ، وانما الكفر يكون بتكذيب الرسول فيما اخبر به ، او الامتناع عن متابعته ، مع العلم بصدقه ، مثل كفر فرعون واليهود

ونحوهم ، وفي الجملة فالكفر متعلق بما جاء به الرسول لا بمجرد مايعلم بالعقل، فكيف يجوز ان يكون الكفر بامور لا تعلم الا بالعقل ؟ الا ان يدل الشرع على ان تلك الامور التي لا تعلم الا بالعقل كفر ، فيكون حكم الشرع مقبولا، لكن معلوم ان هذا لا يوجد في الشرع بل الموجود في الشرع تعليق الكفر بما يتعلق به الايمان ، وكلاهما متعلق بالكتاب والرسالة، فلا ايمان مع تكذيب الرسول ومعاداته ، ولا كفر مع تصديقه وطاعته

ومن تدبر هذا رأى اهل البدع من النفاة يعتمدون على مثل هذا فيبتدعون بدعا بآرائهم ، وليس فيها كتاب ولا سنة ، ثم يكفرون من خالفهم فيما ابتدعوه ، وهذا حال من كفر الناس بما أثبتوه من الاسماء والصفات التي يسميها هو تركيبا وتجسيما واثباتا لحلول الصفات والاعراض به ونحو ذلك من الاقوال التي ابتدعها الجهمية والمعتزلة ثم كفروا من خالفهم فيها » اه كلام الامام ابن تيمية رحمه الله

ولب هذا كله قوله « فلا ايمان مع تكذيب الرسول ومعاداته ، ولا كفر مع تصديقه وطاعته » وما ذكره ونقله قبل هو الفيصل في هذا الباب

وقال رحمه الله في شرح الاصفهانية : « خاصة اهل السنة المتبعين للرسول صلى الله عليه وسلم هي انهم يتبعون الحق ويرحمون من خالفهم باجتهاد ، حيث عذره الله ورسوله » اه وانما رحموه لانهم تجمعهم معه اخوة الايمان ، وقد قال تعالى « رحماء بينهم » فالمؤمنون مهما اختلف اجتهادهم، وتباينت مداركهم ، فهم اخوة يتراحمون ، يتآلفون ولا يتباغضون، ولا يلزم من اختلاف الرأي اختلاف القلوب ، وبالله التوفيق

(١٤) بيان انه لا تضليل ، لمن اصاره اجتهاده الى التأويل

قدمنا أولا انا لم نرد في هذه الورقات ذكر عقائد الجهمية والمعتزلة، ولا مناقشتهم ، لان لذلك مواضع معروفة ، لاسيما وهذا المقام طويل الذيل ، متشعب المناحي ، ويكفي انه لأجله صنف ودوّن علم الكلام ، وانما اردنا تعرف شأن هاتين الفرقتين من الوجهة التاريخية ، وقد اتينا على جمل منها

بقي التنبيه على النصفة مع مجتهدي فرق الاسلام ، ومجافاة التضليل عن كل من التزم قانون التأويل ، فنقول : قد وقر في قلوب كثير من الناس رمي أمثال المعتزلة بالمروق والضلال والزيغ ، تقليداً لمن ينبزهم بذلك من حشوية المتفيهقين ، وهذا من اغرب الغريب ، اذ كيف يصح هذا وكان القائمون بمذهب المعتزلة خلفاء الاسلام في العهد العباسي ،وقضاتهم وعدة من علمائهم ؟ وهم يحتجون لما يدعون ، ويبرهنون على مايذهبون ، لاجرم انهم ـ وان اخطأوا ـ لمجتهدون

ومما يدل على ان هذا العقد بلغ تمكن صحته من نفوسهم منتهاه من اليقين حملهم الخلفاء على اكراه الناس عليه ابتغاء نجاتهم — بزعمهم — بتصحيح عقيدتهم على ما يرون ، وجليّ ان كل من استدل على ما يراه ، واحتج على دعواه ، فقد آذن في اجتهاده فيه ، وتحرى الحق فيما يقصده ويبغيه ، فقصارى امره اذا نقض برهانه ودحضت حجته ، ان يكون مجتهداً مخطئاً ، وهو معذور بل مأجور ،اذ لم يرد الا الحق ، فمن اين يسوغ بعد ذلك قرض الاعراض بالتضليل والتفسيق ، وتثوير المنبوز على المقابلة بالمثل بل الامثال ، والخروج بالاقذاع عن آداب المناظرة والجدال

ان نبز الفرق المتجادلة بتلك الألقاب اوجب ان تصرف الالباب عن النظر في ادلة كل منها ، لتزن المقبول منها بمعياره ، والمردود بمقداره ، لأنها حاولت الضغط على الافكار ، وحرمانها من حرية البحث والنظر والتأمل ، لتحملها على رأي واحد ، ومذهب منفرد ، وذلك ما كان ولن يكون

ان اختلاف الآراء لا يدعو بطبيعته الى الحفائظ والاضغان ، وغرس الاحقاد والشنآن ، ولكن اكثر الفرق استولت على مناظريها الضغائن ، فذهبت بهم مذهب التشفي والانتقام ، هذه بالنبز بالالقاب السوءى ، وتلك بها او بسلطتها الجائرة ، واضطهادها لمخالفيها بضروب العذاب

من عجيب امر التنابز ، ان الاغراق فيه قد يغري خلي الذهن بالبحث عن المنبوز والتنقيب عنه ، فيحمله على التأمل في مداركه ، والتبصر في مآخذه ، فربما انضم اليه وشايعه تقليدا أو نظرا واستدلالا

فالمتحاملون على فئة قد يحببون فيها من حيث يريدون التنفير منها ، ويجذبون اليها مما يأملون به الإبعاد عنها ، ويصدق فيهم قول القائل :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء

هؤلاء المتحاملون يرون اعظم منفر عن خصومهم هو التكفير ، وفاتهم ان هذا لا يغني من البرهان ، ولا يجزئ من الحق شيئا ، بل قد يكون من اعظم امانيّ الخصوم ، فان الفكر الذي يحارب بهذا الاسم ربما يكون قد بلغ اشده واستوي ، ووصل الى اعماق الرسوخ ورسا .

ولما حاول اعداء حجة الاسلام الغزالي عليه الرحمة والرضوان رميه بالكفر (وما أسهل رميهم به لامثاله) لمخالفته الاشعري ، انتدب لتأليف

كتاب يهدي الى حقيقة الكفر والزندقة ، سماه « فيصل التفرقة ، بين الاسلام والزندقة » قال في خطبته : فهوّن ايها الاخ المشفق على نفسك ، لا يضيق به صدرك ، وقلّ من غربك قليلا ، واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جملا ، واستحقر من لا يُحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضلال لا يعرف[1] »

ونقل الامام الغزالي ايضا في المستصفى ان عليا كرم الله وجهه استأذنه قضاته في البصرة في القضاء بشهادة أهل البصرة من الخوارج وغيرهم اوردها ، فامرهم بقبولها كما كان قبل الحرب ، لانهم حاربوا على تأويل ، وفي رد شهادتهم تعصب وتجديد خلاف اه فانظر كيف تسامح مع أهل التأويل من المبدعين وقبل شهادتهم وزكاهم وعدلهم ، فهل يصح بعد هذا النبز بالتفسيق أو التضليل ؟ حاشا وكلا ! وهذا لمن عرف الرجال بالحق ، لا الحق بالرجال ، والله المستعان

***

(١٥) ماوصى به الائمة من اطراح اقوال العلماء بعضهم في بعض ، ومن التماس الحكمة اينما وجدت

روى الامام حافظ المغرب يوسف بن عبد البر في كتابه (جامع العلم وفضله) في باب حكم قول العلماء بعضهم في بعض عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : استمعوا علم العلماء ، ولا تصدقوا بعضهم على بعض. وعنه رضي الله عنه قال : خذوا العلم حيث وجدتم ، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض

(١) يشير رحمه الله الى ان ذلك صار وقفا على اخيار العلماء واعلام الجهابذة الحكماء ، ولقد صدق رحمه الله وشاهده الاستقراء من لدن عصره وقبله الى الآن

وعن مالك بن دينار قال : يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء الا قول بعضهم في بعض

وعن عبد العزيز بن ابي حازم قال سمعت ابي يقول : العلماء كانوا فيما مضى من الزمان اذا لقي العالم من هو فوقه في العلم كان ذلك يوم الغنيمة ، واذا لقي من هو مثله ذاكره ، واذا لقي من هو دونه لم يَزْهُ عليه ، حتى كان هذا الزمان ، فصار الرجل يعيب من هو فوقه ابتغاء ان ينقطع منه ، حتى يرى الناس انه ليس به حاجة اليه ، ولا يذاكر من هو مثله ، ويزهى على من هو دونه ، فهلك الناس

(قال الامام ابن عبد البر) : لقد تجاوز الناس الحدّ في الغيبة والذم فلم يقنعوا بذم العامة دون الخاصة ولا بذم الجهال دون العلماء ، وهذا كله يحمل عليه الجهل والحسد . ثم قال رحمه الله : ومن صحت عدالته ، وعُلمت بالعلم عنايته ، وسلم من الكبائر ولزم المروءة ، وكان خيره غالبا ، وشره اقل عمله ، فهذا لا يقبل فيه قول قائل لا برهان له به ، فهذا هو الحق الذي لا يصح غيره ان شاء الله .

(وقال الذهبي) في ميزان الاعتدال — في ترجمة ابي نعيم احمد الاعلام : صدوق تكلم فيه ابن منده بلا حجة كما تكلم هو في ابن منده (قال الذهبي) ولا اقبل قول كل منهما في الآخر ، بل هما عندي مقبولان . ثم قال : وكلام الاقران بعضهم في بعض لا يعبأ به ، ولا سيما اذا لاح لك انه لعداوة أو لمذهب أو لحسد ما ينجو منه الا من عصم الله (قال) وما علمت ان عصراً من الاعصار سلم اهله من ذلك سوى الانبياء والصديقين ، فلو شئت لسردت من ذلك كراريس . اه

قال العلامة المقبلي : واشدها عداوة ما كان من قبل المذهب لانه يزعمه دينا ، ويمرن عليه فيغر نفسه انه دين ، وحظ الهوى في ذلك أوفى واوفر ، نسأل الله العافية وان يجعلنا ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .

وروى الامام ابن عبد البر في كتاب (جامع العلم) في باب الحال التي ينال بها العلم ، عن علي كرم الله وجهه قال : العلم ضالة المؤمن فخذوه ولو من ايدي المشركين ، ولا يأنف احدكم ان يأخذ الحكمة ممن سمعها منه . وعنه كرم الله وجهه قال : الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في ايدي الشرط

وروى ابن عبد البر قبل هذا الباب عن ايوب قال : انك لا تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره ، وعن علي رضي الله عنه قال : ان الناس ابناء ما يحسنون وقدر كل امرء ما يحسن ، فتكلموا في العلم تتبين اقداركم .

(قال ابن عبد البر) : ان قول علي بن ابي طالب « قيمة كل امرئ ما يحسنه » لم يسبقه اليه احد (قال) وقالوا : ليس كلمة احض على طلب العلم منها (وقالوا) ولا كلمة اضر بالعلم والعلماء والمتعلمين من قول القائل (ماترك الاول للآخر شيئا) قال ابن عبد البر : قول علي رضي الله عنه « قيمة كل امرء مايحسن » من الكلام المعجب الخطير ، وقد طار له الناس كل مطير ، ونظمه جماعة من الشعراء اعجابا به ، وكلفا بحسنه ، فمن ذلك مايعزى الى الخليل بن احمد وهو قوله :

لايكون السَّرِيّ مثلَ الدَّنِيّ * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبيّ
لا يكون الألدُّ ذو المِقْوَل المر (م) هَف عند القياس مثل العَيِيّ
قيمة المرء كل مايحسن المر (م) ء قضاء من الامام عليّ

وقال غيره :

يلوم على أن رحت للعلم طالبا   اجمع من عند الرواة فنونه
فيا لائمي دعني اغالي بقيمتي   فقيمة كل الناس مايحسنونه

وقال ابو العباس الناشئ :

تأمل بعينيك هـذا الانا   م فـكن بعض من صانه عقله
فحلية كل فتى فضله   وقيمـة كل امرئ نبله
فلا تتكل في طلاب العلا   على نسب ثابت أصله
فما من فتى زانه قوله   بشيء يخالفـه فعـله

ومما ينسب لعلي رضي عنه :

الناس من جهة التمثال أكفاء   ابوهم آدم والأم حواء
وانما امهات الناس اوعيـة   مستودَعات وللاحساب آباء
فان يكن لهمُ من اصلهم شرف   يفاخرون به فالطين والماء
وان اتيت بفخر من ذوي نسب   فان نسبتنا جود وعلياء
ماالفضل إلا لأهل العلم انهم   على الهدى لمن استهدي ادلاء
وقيمة المرء ماقد كان يحسنه   والجاهلون لاهل العلم اعداء
فقم بعلم ولاتبغ به بدلا   فالناس موتى واهل العلم احياء

وقد ورد في هذا الباب مارواه الامام مسلم في مقدمة صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ننزل الناس منازلهم : نسأله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان، ولاتجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنا انك رؤف رحيم)   في جمادى الاولى سنة ١٣٣٠

الباب الاول من كتاب الاعتصام (*)

﴿ في تعريف البدع وبيان معناها وما اشتق منه لفظا ﴾

وأصل مادة « بدع » للاختراع على غير مثال سابق، ومنه قول الله تعالى « بديع السموات والارض » أي مخترعهما من غير مثال سابق متقدم ، وقوله تعالى « قل ما كنت بدعاً من الرسل » أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله الى العباد بل تقدمني كثير من الرسل ، ويقال : ابتدع فلان بدعة يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه اليها سابق . و : هذا امر بديع، يقال في الشيء المستحسن الذي لامثال له في الحسن فكانه لم يتقدمه ماهو مثله ولا ما يشبهه

ومن هذا المعنى سميت البدعة بدعة، فاستخراجها للسلوك عليها هو الابتداع وهيئتها هي البدعة ، وقد يسمى العمل المعمول على ذلك الوجه بدعة . فمن هذا المعنى سمي العمل الذي لادليل عليه في الشرع بدعة ، وهو إطلاق أخص منه في اللغة حسبما يذكر بحول الله

ثبت في علم الاصول ان الاحكام المتعلقة بأفعال العباد وأقوالهم ثلاثة : حكم يقتضيه معنى الامر كان للايجاب أو الندب ، وحكم يقتضيه معنى النهي كان للكراهة أو التحريم ؛ وحكم يقتضيه معنى التخيير وهو الاباحة . فأفعال العباد وأقوالهم لاتعدو هذه الاقسام الثلاثة : مطلوب فعله ، ومطلوب تركه ، ومأذون في فعله وتركه . والمطلوب تركه لم يطلب

---

*) الكتاب للامام ابي اسحاق الشاطبي الاندلسي صاحب كتاب (الموافقات) في أصول الشريعة وحكمها وهو يطبع الآن بمطبعة المنار على نفقة دار الكتب الخديوية التابعة لنظارة المعارف المصرية ، فنبشر علماء الاسلام بذلك ، وننشر لهم هذا النموذج منه

الا لكونه مخالفاً للقسمين الاخيرين ، لكنه على ضربين (أحدهما) أن يطلب تركه وينهى عنه لكونه مخالفة خاصة مع تجرد النظر عن غير ذلك ، وهو ان كان محرماً سُمي فعله معصية وإثما ، وسمي فاعله عاصياً وآثما ، وإلا لم يسم بذلك ، ودخل في حكم العفو حسبما هو مبين في غير هذا الموضع . ولا يسمي بحسب الفعل جائزاً ولا مباحا لان الجمع بين الجواز والنهي جمع بين متنافيين (والثاني) أن يطلب تركه وينهى عنه لكونه مخالفة لظاهر التشريع من جهة ضرب الحدود وتعيين الكيفيات والتزام الهيئات المعينة أو الازمنة المعينة مع الدوام ونحو ذلك .

وهذا هو الابتداع والبدعة ويسمى فاعله مبتدعا — فالبدعة إذن عبارة عن « طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه » وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معني البدعة وانما يخصها بالعبادات . وأما على رأي من أدخل الاعمال العادية في معني البدعة فيقول : « البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة ، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية » . ولا بدمن بيان ألفاظ هذا الحد: فالطريقة والطريق والسبيل والسنن هي بمعنى واحد ، وهو مارسم للسلوك عليه . وانما قيدت بالدين لانها فيه تخترع واليه يضيفها صاحبها ، وأيضا فلو كانت طريقة مخترعة في الدنيا على الخصوص لم تسم بدعة كاحداث الصنائع والبلدان التي لاعهد بها فيما تقدم .

ولما كانت الطرائق في الدين تنقسم - فمنها ماله أصل في الشريعة . ومنها ما ليس له أصل فيها . - خص منها ما هو المقصود بالحد وهو القسم المخترع ، أي طريقة ابتدعت على غير مثال تقدمها من الشارع ، اذ

البدعة انما خاصتها انها خارجة عما رسمه الشارع . وبهذا القيد انفصلت عن كل ما ظهر لبادي الرأي أنه مخترع مما هو متعلق بالدين ، كعلم النحو والتصريف ومفردات اللغة وأصول الدين ، وسائر العلوم الخادمة للشريعة. فانها وان لم توجد في الزمان الاول فأصولها موجودة في الشرع ، اذ الامر باعراب القرآن منقول وعلوم اللسان هادية للصواب في الكتاب والسنة فحقيقتها اذاً انها فقه التعبد بالالفاظ الشرعية الدالة على معانيها كيف تؤخذ وتؤدى

وأصول الفقه انما معناها استقراء كليات الادلة حتى تكون عند المجتهد نصب عين وعند الطالب سهلة الملتمس .

وكذلك أصول الدين وهو علم الكلام انما حاصله تقرير لادلة القرآن والسنة أوما ينشأ عنها في التوحيد وما يتعلق به، كما كان الفقه تقريراً لادلتها في الفروع العبادية . (فان قيل) . فان تصنيفها على ذلك الوجه مخترع.

(فالجواب) : ان له أصلا في الشرع ، ففي الحديث ما يدل عليه ، ولو سلم انه ليس في ذلك دليل على الخصوص فالشرع بجملته يدل على اعتباره ، وهو مستمد من قاعدة المصالح المرسلة ، وسيأتي بسطها بحول الله

فعلى القول باثباتها أصلا شرعيا لا إشكال في أن كل علم خادم للشريعة داخل تحت أدلته التي ليست بمأخوذة من جزئي واحد . فليست ببدعة البتة

وعلى القول بنفيها لا بد أن تكون تلك العلوم مبتدعات . واذا دخلت في علم البدع كانت قبيحة لان كل بدعة ضلالة من غير إشكال ، كما يأتي بيانه ان شاء الله

ويلزم من ذلك ان يكون كتب المصحف وجمع القرآن قبيحا ، وهو

باطل باجماع ، فليس اذاً بدعة . ويلزم أن يكون له دليل شرعي ، وليس الا هذا النوع من الاستدلال ، وهو المأخوذ من جملة الشريعة

واذا ثبت جزئيٌّ في المصالح المرسلة ، ثبت مطلق المصالح المرسلة .

فعلى هذا لا ينبغي أن يسمى علم النحو أو غيره من علوم اللسان أو علم الاصول أو ما أشبه ذلك من العلوم الخادمة للشريعة بدعة أصلا .

ومن سماه بدعة فإما على المجاز كما سمى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيام الناس في ليالي رمضان بدعة ، وإما جهلا بمواقع السنة والبدعة . فلا يكون قول من قال ذلك معتدا به ولا معتمداً عليه .

وقوله في الحد « تضاهي الشرعية » يعني انها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادة لها من أوجه متعددة .

منها وضع الحدود كالناذر للصيام قائما لا يقعد ، ضاحياً لا يستظل . والاختصاص في الانقطاع للعبادة ، والاقتصار من المأكل والملبس على صنف دون صنف من غير علة .

ومنها التزام الكيفيات والهيآت المعينة ،كالذكر بهيئة الاجتماع على صوت واحد، واتخاذ يوم ولادة النبي صلى الله عليه وسلم عيداً ،وما أشبه ذلك.

ومنها التزام العبادات المعينة في أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة ، كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليلته (١)

(١) هذا هو الصواب ولا يغترن أحد بترغيب الخطباء الجاهلين في ذلك ، ولا بالحديث الذي يذكرونه على منابرهم وهو « اذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها ، فان الله ينزل فيها لغروب الشمس الى سماء الدنيا فيقول: ألا من مستغفر فأغفر له! ألا مسترزق فأرزقه ! ألا مبتلى فأعافيه! ألا كذا =

وثم أوجه تضاهي بها البدعة الأمور المشروعة فلو كانت لاتضاهي الامور المشروعة لم تكن بدعة لانها تصير من باب الافعال العادية

وأيضاً فان صاحب البدعة انما يخترعها ليضاهي بها السنة حتى يكون ملبسا بها على الغير، أو تكون هي مما تلتبس عليه بالسنة، اذ الانسان لا يقصد الاستتباع بأمر لا يشابه المشروع، لانه اذ ذاك لا يستجلب به في ذلك الابتداع نفعا، ولا يدفع به ضررا، ولا يجيبه غيره اليه. ولذلك تجد المبتدع ينتصر لبدعته بامور تخيل التشريع ولو بدعوى الاقتداء بفلان المعروف منصبه في أهل الخير

فأنت ترى العرب الجاهلية في تغيير ملة ابراهيم عليه السلام كيف تأولوا فيما أحدثوه احتجاجا منهم، كقولهم في أصل الإشراك (ما نعبدُهم إلا لِيُقرّبونا إلى الله زُلْفَى) وكترك الحُمْس الوقوف بعرفة لقولهم: لا نخرج من الحرم اعتدادا بحرمته. وطواف من طاف منهم بالبيت عرياناً قائلين: لا نطوف بثياب عصينا الله فيها. وما أشبه ذلك مما وجهوه ليصيروه بالتوجيه كالمشروع، فما ظنك بمن عُدّ أو عدّ نفسه من خواص أهل الملة؟ فهم أحرى بذلك، وهم المخطئون وظنهم الاصابة. واذا تبين هذا ظهر أن مضاهاة الامور المشروعة ضرورية الاخذ في أجزاء الحد

وقوله «يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى» هو تمام معنى البدعة اذ هو المقصود بتشريعها

= ألا كذا، حتى يطلع الفجر» فان هذا حديث واه أو موضوع رواه ابن ماجه وعبد الرزاق عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة وقد قال فيه ابن معين والامام أحمد انه يضع الحديث. نقل ذلك محشي سنن ابن ماجه عن الزوائد. ووافقه الذهبي في الميزان في الامام أحمد، وذكر عن ابن معين انه قال فيه: ليس حديثه بشيء. وقال النسائي «متروك»

وذلك ان أصل الدخول فيها يحث على الانقطاع الى العبادة والترغيب في ذلك، لان الله تعالى يقول:(وما خلقتُ الجنّ والانس إلا ليَعبدونِ) فكأن المبتدع رأى ان المقصود هذا المعنى ، ولم يتبين له ان ما وضعه الشارع فيه من القوانين والحدود كافٍ ،فرأى من نفسه انه لا بدّ لما أطلق الامر فيه من قوانين منضبطة ، وأحوال مرتبطة ، مع ما يداخل النفوس من حب الظهور أو عدم مظنته ، فدخلت في هذا الضبط شائبة البدعة .

وأيضا فان النفوس قد تملّ وتسأم من الدوام على العبادات المرتبة ، فاذا جُدّد لها أمر لا تعهده حصل لها نشاط آخر لا يكون لها مع البقاء على الامر الاول . ولذلك قالوا « لكل جديد لذة » بحكم هذا المعنى ، كمن قال : « كما تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور ، فكذلك تحدث لهم مرغبات في الخير بقدر ما حدث لهم من الفتور »

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: فيوشك قائل أن يقول ماهم بمتبعيّ فيتبعوني وقد قرأتك القرآن فلا يتبعني حتى أبتدع لهم غيره فإياكم وما ابتدع فان ما ابتدع ضلالة (١)

وقد تبين بهذا القيد أن البدع لا تدخل في العادات. فكل ما اخترع من الطرق في الدين مما يضاهي المشروع ولم يقصد به التعبد فقد خرج عن هذه التسمية ، كالمغارم الملزمة على الاموال وغيرها على نسبة مخصوصة وقدر مخصوص مما يشبه فرض الزكوات ولم يكن اليها ضرورة .

وكذلك اتخاذ المناخل وغسل اليد بالأُشنان وما أشبه ذلك من الامور التي لم تكن قبل ، فانها لا تسمى بدعاً على احدى الطريقتين

(١) كذا في الاصل فليراجع الحديث وليضبط

وأما الحد على الطريقة الاخرى فقد تبين معناه الا قوله: يقصد بها ما يقصد بالطريقة الشرعية. ومعناه ان الشريعة انما جاءت لمصالح العباد في عاجلتهم وآجلتهم لتأتيهم في الدارين على أكمل وجوهها، فهو الذي يقصده المبتدع ببدعته. لان البدعة إما أن تتعلق بالعادات أو العبادات، فان تعلقت بالعبادات فانما أراد بها أن يأتي تعبده على أبلغ ما يكون في زعمه ليفوز بأتم المراتب في الآخرة في ظنه. وان تعلقت بالعادات فكذلك لانه انما وضعها لتأتي أمور دنياه على تمام المصلحة فيها. فمن يجعل المناخل في قسم البدع فظاهر ان التمتع عنده بلذة الدقيق المنخول أتم منه بغير المنخول

وكذلك البناآت المشيدة المحتفلة، التمتع بها أبلغ منه بالحشوش والخرب. ومثله المصادرات في الاموال بالنسبة الى أولي الامر، وقد أباحت الشريعة التوسع في التصرفات، فيعد المبتدع هذا من ذلك.

وقد ظهر معنى البدعة وما هي في الشرع والحمد لله

فصل

وفي الحد أيضا معنى آخر مما ينظر فيه. وهو أن البدعة من حيث قيل فيها: انها طريقة في الدين مخترعة — الى آخره — يدخل في عموم لفظها البدعة التَّركية، كما يدخل فيه البدعة غير التَّركية، فقد يقع الابتداع بنفس التَّرك تحريما للمتروك أو غير تحريم، فان الفعل مثلا قد يكون حلالا بالشرع فيحرمه الانسان على نفسه أو يقصد تركه قصدا

فهذا الترك اما أن يكون لأمر يعتبر مثله شرعا أو لا، فان كان لأمر يعتبر فلا حرج فيه، اذ معناه انه ترك ما يجوز تركه أو ما

يطلب بتركه [1] كالذي يحرم على نفسه الطعام الفلاني من جهة انه يضره في جسمه أو عقله أو دينه وما أشبه ذلك ، فلا مانع هنا من الترك . بل ان قلنا بطلب التداوي للمريض فان الترك هنا مطلوب ، وان قلنا بإباحة التداوي فالترك مباح .فهذا راجع الى العزم على الحمية من المضرات. وأصله قوله عليه السلام « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج — إلى ان قال — ومن لم يستطع فعليه بالصوم » [2] الذي يكسر من شهوة الشباب حتى لا تطغى عليه الشهوة فيصير الى العنت .

وكذلك اذا ترك ما لا بأس به حذراً مما به البأس فذلك من أوصاف المتقين، وكتارك المتشابه حذرا من الوقوع في الحرام واستبراء للدين والعرض

وان كان الترك لغير ذلك، فاما أن يكون تدينا أو لا .فان لم يكن تديناً فالتارك عابث بتحريمه الفعل أو بعزيمته على الترك . ولا يسمى هذا الترك بدعة اذ لا يدخل تحت لفظ الحد إلاّ على الطريقة الثانية القائلة :

---

(١) لم يظهر لنا معنى الباء فالظاهر انها زائدة من الناسخ

(٢) تتمة الحديث بعد كلمة الصوم « فانه له وجاء » فقوله « الذي يكسر من شهوة الشباب » الخ من كلام المصنف يبين به علة كون الصوم وجاء . وهو إضعاف الشهوة على رأي الجمهور. وهو لا يظهر الا في الصوم الكثير مع التقشف والاكتفاء عند الفطر بقليل الطعام ، والا فان الصوم من اسباب الصحة وزيادة القوة ، حتى في المعيشة المعتدلة . وحينئذ يكون وجه الشبه بين الوجاء الذي هو دق عروق خصتي الفحل المضعف أو المزيل لشهوته وبين الصوم هو كون الصوم سبب التقوى كما قال الله تعالى في تعليل فرضيته « لعلكم تتقون » فمن اكثر من الصوم وترك مايشتهي من الطعام والشراب المباحين لوجه الله تعالى يستفيد فائدتين احداها ملكة مراقبة الله تعالى الذي يترك طعامه وشرابه لأجله، والثانية ملكة ترك الشهوات التي يحتاج اليها كل يوم فتقوى ارادته وعزيمته، فيسهل عليه ترك سائر الشهوات ومنه غض بصره واحصان فرجه

ان البدعة تدخل في العادات. واما على الطريقة الأولى فلا يدخل. لكن هذا التارك يصير عاصيا بتركه أو باعتقاده التحريم فيما أحل الله

وأما ان كان الترك تدينا فهو الابتداع في الدين على كلتا الطريقتين، اذ قد فرضنا الفعل جائزا شرعا فصار الترك المقصود معارضة للشارع في شرع التحليل.(١) وفي مثله نزل قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) فنهى أولا عن تحريم الحلال. ثم جاءت الآية تشعر بأن ذلك اعتداء، وأن من اعتدى لا يحبه الله

وسيأتي للآية تقرير ان شاء الله. لأن بعض الصحابة همّ ان يحرم على نفسه النوم بالليل، وآخر الاكل بالنهار، وآخر إتيان النساء، وبعضهم همّ بالاختصاء، مبالغة في ترك شأن النساء. وفي امثال ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «من رغب عن سنتي فليس مني»

فاذاً كل من منع نفسه من تناول ما احل الله من غير عذر شرعي فهو خارج عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم. والعامل بغير السنة تدينا هو المبتدع بعينه

(فان قيل) فتارك المطلوبات الشرعية ندبا أو وجوبا هل يسمى مبتدعا أم لا؟ (فالجواب) أن التارك للمطلوبات على ضربين: (أحدهما) ان يتركها لغير التدين إما كسلا أو تضييعا أو ما أشبه ذلك من الدواعي

(١) ان اهل الاستانة لا يأكلون لحم الحمام، فهو يعشش ويفرخ في مساجدهم وبيوتهم ولا يأكل احد منه شيئا، بل يتحرجون من ذلك وينكرونه. والظاهر ان عامتهم يعتقدون ان أكله حرام، أفلا يجب في هذه الحال على العلماء مقاومة هذه البدعة التركية بالقول والفعل

النفسية . فهذا الضرب راجع الى المخالفة للامر . فان كان في واجب فمعصية ، وان كان في ندب فليس بمعصية اذا كان الترك جزئيا ، وان كان كليا فمعصية حسبما تبيّن في الأصول (والثاني) أن يتركها تدينا . فهذا الضرب من قبيل البدع حيث تديّن بضد ما شرع الله . ومثاله اهل الإباحة القائلين بإسقاط التكليف اذا بلغ السالك عندهم المبلغ الذي حدّوه :

فاذاً قوله في الحد « طريقة مخترعة تضاهي الشرعية » يشمل البدعة التركية كما يشمل غيرها، لان الطريقة الشرعية ايضا تنقسم الى ترك وغيره وسواء علينا قلنا إن الترك فعل أم قلنا انه نفي الفعل ـ على الطريقتين المذكورتين في أُصول الفقه .

وكما يشمل الحدُّ التركَ يشمل أيضا ضد ذلك ، وهو ثلاثة أقسام : قسم الاعتقاد ، وقسم القول ، وقسم الفعل . فالجميع اربعة اقسام . وبالجملة فكل ما يتعلق به الخطاب الشرعي يتعلق به الابتداع . اه

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

كتاب الهدى الى دين المصطفى

الجزء الاول منه لمؤلفه ... النجفي في مدينة (سر من رأى) بالعراق طبع بمطبعة العرفان طبعا نظيفا على ورق متوسط ص ٣٩٢ بقطع المنار ثمنه ٢٠ قرشا ويباع في مكتبة المنار بمصر

كثر دعاة النصرانية في هذه البلاد كما كثروا في كل بلد دخله النفوذ الغربي ، دخلوا القرى بدون اذن اهلها، وجاسوا خلال الديار رائدين الفتنة والتفريق، وقد كان المسلمون عامتهم وعلماؤهم لايحفلون بما يبثه هؤلاء الدعاة بين المسلمين لسخافته وبداهة بطلانه ، وليس في هـذه البلاد من اثقله وزر آدم فيأتي هؤلاء الذئاب يحتمي منه في حظيرتهم ، ولا من ضاق صدره بتوحيد الله عز وجل فيجيء هؤلاء

(*) كتب تقاريظ هذا الجزء شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

المعددين ليجد له عندهم متسعاً في ثالوثهم ، ولا من حصر صدره بعصمة الانبياء الهداة حتى يتحكك بهؤلاء الكتبة ليثلجوا صدره ويجرؤه على المعاصي بقصة نوح مع ولديه أو ابراهيم مع امرأته او يهوذا مع كنته أو داود مع امرأة قائده أو سليمان مع اصنام نسائه أو ابن يعقوب مع امرأة ابيه أو يعقوب مع ملاك ربه أو لوط مع بنتيه الخ بل ان المسلمين ليسوا بمحتاجين مسيحهم الخيالي (وهو غير مسيح الله عليه السلام) الذي يدعي هؤلاء الصدوقيون انهم يعبدونه وينكرون سيرته الانجيلية ويرون عصمته عن السكر وعن غسل ارجل التلاميذ وعن طرد امه واخوته وإنكاره لهـا وعن البخل بهداية الكنعانية الى غير ذلك مما نراه في اناجيلهم .

لا خوف من هذه التعاليم على عامة المسلمين فضلا عن علمائهم، ولـكن السكوت على باطلهم خيل اليهم انهم على حق فتفننوا في طرق دعوتهم حتى انهم ليصدرون بعض كراريسهم بالآيات القرآنية أو بخطب تضارع الخطب التي اصطلح بعض الخطباء الرسميين على تلاوتها يوم العيد وأيام الجمع الخ،كل ذلك ليدخلوا الى قلوب المسلمين فيفسدوا عليهم ما بقي لهم من دينهم ، ويحلوا الروابط التي تربطهم بأمتهم . ولذلك قام العلماء في جميع الاقطار يرسلون شهب ردودهم فتخمد انفاس شياطين التفريق. واول من كتب في الرد عليهم في هذا العصر بعقل وبحث وروية الشيخ رحمة الله الهندي ثم تبعه قوم آخرون هم عيال عليه في هذا الباب . ثم رأينا مثالا له في هذه الآونة من رسائل الدكتور صدقي وكتاب النجفي ، وهو هذا المؤلف الذي هو نتيجة بحث علمي وتمحيص المسائل وتحقيقها

فحيا الله العلامة النجفي فقد دحض مزاعم دعاة النصرانية بكتابه هذا وقذف بحقه على باطلهم فاذا هو زاهق ولهم الويل مما يصفون . وضع كتابه هذا رداً على كتاب « مقالة في الاسلام » لسايل الانكليزي المترجم بالعربية وعلى الـكتاب البذيء المسمى بالهداية الموضوع للرد على كتاب « اظهار الحق » وكتاب « السيف الحميدي » فهدم أركانها وقوض بنيانها بالادلة العقلية والنقلية ، بعبارة طلية جلية ، فيجدر بمن يعنى بالرد على هؤلاء المشاغبين ان يطلع على هذا الكتاب

(كشف الاستار عما لحقوق الدول من الاسرار)

الجزء الاول بقلم صبحي اباظه طبع بمطبعة العرفان بصيدا سنة ١٣٣١ ص ١٢٥ بقطع المنار ثمنه ٢٠ قرشا يطلب من مكتبة المنار بمصر

اسم الـكتاب يدل على موضوعه وفيه فوائد جمة جاءت من طريق الاستطراد

﴿ في التربية والتعليم ﴾

تأليف محمد امين . طبع بمطبعة التقدم بمصر على ورق جيد . ص ١١٤ بالقطع الصغير . ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

مواضيع الكتاب : بعد مقدمة بقلم أحمد بك لطفي السيد مدير الجريدة ، (١) الشكوى ٢ تشخيص العلة ٣ وصف الدواء ثم الاطوار الثلاثة ، في البيت والمدرسة والمجتمع ٤ التربية الحسية والعملية والاخلاقية ثم الخاتمة . والكتاب مجموعة مقالات نشرت في الجريدة ثم طبعت على حدتها غير مصدرة بالبسملة ولا الحمدلة ، على سنة من يتفصون من كل ما يربطهم بالامة الاسلامية من الشعائر والمقومات والمشخصات

مرشد المترجم الصغير (لطلبة الشهادة الابتدائية)

تأليف محمد السيد بك وكيل مدرسة المعلمين الناصرية وعوض ابراهيم بك وكيل المدرسة السعيدية . طبع بمطبعة المعارف طبعاً نظيفاً ص ١٤٠ بالقطع الوسط . ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المعارف ومكتبة المنار بمصر

وضعه مؤلفاه لطلبة الشهادة الابتدائية وتوخيا فيه تذليل عقبات الترجمة من العربية الى الانكليزية وبالعكس وتسهيلها على التلميذ بشرح المفردات التي يهتدي اليها بسهولة ، وقد اطلع عليه المستر استيفنز معلم الانكليزية بمدرسة المعلمين الناصرية . والكتاب يفيد التلميذ علما بالشئون الاجتماعية بمواضيعه المفيدة

الاجوبة المسكتة

تأليف أحمد أفندي صابر من مستخدمي (نظارة الاوقاف) وقد طبع الطبعة الثانية بمطبعة الجمالية بمصر مع زيادات وتحسينات . ص ٢٥٢ بقطع رسالة التوحيد . ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر وهو غني عن التعريف

غاية الانسان

كتاب في الفلسفة الادبية مفيد . وضعه الفيلسوف جافينون وترجمته وسيلة محمد مترجمة « روح الاعتدال » وناهيك بها سلاسة وجودة . ص ١٦٠ بقطع سابقه . طبع بمطبعة المعارف طبعاً نظيفاً . ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المعارف ومكتبة المنار بمصر

﴿ ارجوزة ابن المعتز ﴾

طبعت في المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٠ على نفقة ابن منصور في ٢٤ ص بقطع رسالة التوحيد على ورق جيد ثمنها قرش صحيح واحد وتطلب من المكاتب المصرية وموضوع الارجوزة تاريخ المعتضد بالله العباسي ، وما هو بالتاريخ الذي يعتد به

نشوء الاجتماع (الجزء الاول منه)

تأليف بنيامين كد وتعريب محمد زكي صالح في طنطا · طبع بمطبعة الاخبار بمصر سنة ١٩١٣ على ورق جيد · ص ١٣٥ بقطع «الاسلام والنصرانية» ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

مواضيعه بعد مقدمة المترجم التي المت بموضوع الكتاب وآراء العلماء والجرائد فيه هي: (١) الحاضر (٢) اسباب الارتقاء (٣) العقل لا يؤيد اسباب الارتقاء (٤) اجلى طبيعة في التاريخ الانساني {٥} وظيفة العقائد الدينية في نشوء الاجتماع .

والكتاب مفيد في موضوعه منبه للعقل موقظ للقوة المفكرة · وارى ان استعير لتقريظه كلمة الاستاذ «ويسمن» الالماني التي كتبها في مقدمة الترجمة الالمانية وهي : «لا ارمي الى تحليل هذا الكتاب الفذ بل اقول انه جدير بالنظر والاعتبار ··· الخ » والمرجو ان يظهر المعرب الجزء الثاني منه وان يعتني بترجمته وبتصحيحه ليسلم من مثل الاغلاط التي في الجزء الاول

(كتاب آداب العرب)

تأليف ابراهيم بك العرب · طبعته نظارة المعارف على نفقتها في المطبعة الاميرية سنة ١٩١١ وقررت تدريسه في مدارسها الابتدائية وفي مدارس المعلمين والمعلمات ويطلب من مخزن المعارف

الكتاب مجموعة مواعظ منظومة على ألسن الحيوان والطير على نمط كتاب الصادح والباغم

(المطالعة الفصيحة لامهات اليوم والغد)

الجزء الاول منه تأليف الشيخ مهدي احمد خليل المدرس بمدرسة المعلمات في بولاق . الطبعة الاولى منه سنة ١٣٣١ ص ٢٠٥ بقطع رسالة التوحيد . ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

الكتاب ادبي اجتماعي لغوي كبير الفائدة ولذلك قررت نظارة المعارف تدريسه لجميع تلميذات مدارس البنات العالية والابتدائية والخصوصية

محاسن الطبيعة وعجائب الكون

تأليف اللورد (افرى) ترجمة وديع البستاني . ص ٢٦٤ بالوسط . طبع مطبعة المعارف وثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار ومكتبة المعارف

ابحاث الكتاب : تمهيد ، عالم الحيوان ، والنبات ، والحقول والحراج ، والماء ، والبحر ، ثم القبة الزرقاء . وهو يجول في هذه الابحاث جولة المفكر المتعقل المعتبر . واذا كان هذا الكتاب أسمى معاني واكثر دقة من سائر ما قرأنا من مؤلفات لورد افرى التي عربها وديع البستاني فان ترجمته أصح وأسلم وأقل غلطاً من جميعها أيضا

رواية جزيرة الذهب

مترجمة عن الالمانية بقلم ماري ابراهيم نجار ، طبع الجزآن الاول والثاني منها بمطبعة جريدة الهدي في نيويورك على نفقتها فكانت ص ٢٥٤ بالقطع الوسط وموضوعها تحويل الافكار عن عبادة الذهب وتضحية كل شيء في سبيل الحصول عليه الى فكرة الانسانية الراقية . وما أجدر هذه المترجمة العاقلة الفاضلة ، باختيار هذه القصص المفيدة النافعة .

مجلة العلوم الاجتماعية

مجلة تصدر في بيروت تبحث في الحقوق والاقتصاد والاجتماع . سنتها عشرة شهور شمسية تبتدئ من ايلول (سبتمبر) من كل سنة . الجزء منها ٣٢ ص. منشئها المحامي توفيق افندي الناطور المتخرج في مدرسة الحقوق في باريس ، ومدير تحريرها الشيخ محمد منيب افندي الناطور من تلاميذ الازهر ومدرسة القضاء الشرعي

قيمة اشتراكها في البلاد العثمانية ريالان مجيديان وفي البلاد الاجنبية عشرة فرنكات

وان في سعة منشئها ومديرها وتوخيهما النفع لها ما يوجب الاقبال عليها لما يختاران نشره فيها من العلوم والفوائد التي أصبحت في هذا العصر حاجة من حاجات الامة ، فنحن نرجو لها الرواج والنجاح ، ونعده عنواناً لاستعداد الامة للارتقاء . وقد فتحت باباً لادبيات اللغة العربية فضمت الى فوائدها العلمية هذه الفائدة اللغوية ويمكن الاشتراك فيها بواسطة مجلة المنار ومكتبته

الشيخ علي يوسف

٣

{ فصل في بقية الكلام على سياسته المصرية }

بينا ان سياسة الشيخ في المؤيد كانت تدور في أول العهد على ثلاثة أقطاب (١) تأييد سلطة الامير ونفوذه (٢) مقاومة نفوذ الاحتلال الانكليزي (٣) الاعتماد في هذه المقاومة على نفوذ الدولة العثمانية وحقوقها الرسمية في مصر . وكذا على نفوذ فرنسة ومصالحها السياسية فيها ، وانها بعد طول الاختبار وتغير الحوادث طرأ عليها بعض التغيير . ونزيد ذلك بياناً فنقول وان كررنا بعض المعاني :

انه بعد حادثة فشودة علم المترجم أن الاتكال أو الاعتماد على وعود أو عهود دولة أوربية لا يكون الا دون الاتكال على المواعيد العرقوبية ، وانه بعد اختبار السياسة العثمانية بالغوص في اعماق الحوادث التي بينها وبين أوربة ، وبلقاء كبار رجالها في الاستانة ومصر وأوربة ، علم انه لا يتكل عليها في شيء ، وان الذي يبني عمله على الرجاء فيها فانما يبني على شفا جرف ، اذ لا يؤمن خذلانها له في كل عمل ، فاكتفى من خدمة الدولة فيما يسمونه المسألة المصرية بالمحافظة على حقوقها الرسمية في مصر ، وجعل فرماناتها الرسمية لامراء مصر ركن استقلالها الركين ، الذي يصد به بعض ما يخشى من هجمات الاحتلال عليه . وأما فرنسة وسائر دول أوربة فقد علم كما يعلم كل خبير بصير انها دول تجارية تتجر بالامم والشعوب والدول ، وأنها لا تراعي في تجارتها حقا ولا عدلا ، ولا رحمة ولا فضلا ، وانما رأس مالها القوة والحيلة والأثرة ، فلا يقدر أن يستفيد منها ، الامن جعل منفعته وسيلة الى منفعتها ، وهيهات أن يتسنى للأدنى ، أن يستخدم لمنافعه من هو أعلى منه قوة وعلما . وما كل من تنفعه تقدر أن تستخدمه ، وناهيك بدول أوربة ومعارضة بعضها لبعض في سياستها أو مطامعها في بلادنا ، فاذا أراد بعضها أن ينفعنا قليلا لينتفع منا كثيرا ، عارضه في ذلك من يكره لنا هذه المنفعة ويراها عقبة في طريق مطامعه فينا

وكان الفقيد يعلم أيضاً ان شعوب أوربة خير من حكوماتها ، وان فيهم كثيرا من الاحرار ومحبي الحق والخير لكل البشر ، وان رأي الشعب العام له السلطان الاعلى على الحكومات ، فلهذا كان يرى أخيرا أنه ينبغي أن يكون للمصريين صلة

بعض أهل الفضيلة" من أحرار الانكليز لعلهم يستعينون بهم على مقاصدهم، وايصال ما يشكون منه بحق من إنكليز مصر الى انكليز لندرة . حتى لا تكون الشؤون المصرية محجوبة عن محبي الانصاف، لا يعرفون منها الا ما يكتبه عميد انكلترة في مصر الى ناظر الخارجية في لندرة وبعض مراسلي الجرائد . والعمل بهذا الرأي إما أن ينفع وإما أن لا يضر . ولكن عارضه فيه أحداث الوطنية في جريدة اللواء وما أحدثوه بعد مصطفى كامل من الجرائد كدأبهم وعادتهم ، وقد بينا وجه ذلك عندهم في هذه الترجمة

(الجرائد والاحزاب بمصر)

ونقول ههنا إن السياسة في مصر لا مظهر لها الا الجرائد ، وقد تألفت الاحزاب لأجل الجرائد ومديري سياسة الجرائد ، ولم يستطع حزب من الأحزاب أن يجعل جريدة أكثر رواجا وقبولا من جريدة أخرى عند الرأي العام بمصر . وقد سبق القول بأن الجرائد العربية المؤثرة في الجمهور المصري كانت ثلاثة : الاهرام والمقطم والمؤيد ، وأن التنازع انما كان أولا بين الاهرام والمقطم . ثم كانت الاهرام تشايع المؤيد بعد ظهوره لاتفاقه معها في الميل الى السياسة الفرنسية التي تعد الاهرام هي الركن الأول لها ، ولأن مشايعته على المقطم كانت تعد من آيات صدق الخدمة الوطنية لمصر. ولما انقطع أمل المصريين من فرنسة صارت جريدة الاهرام في المرتبة الثانية بين الجرائد اليومية، بل كادت تموت من شدة ضعفها، لولا أن تداركها همة بشارة باشا تقلا القوية ومن ساعده على تحريرها من أذكياء الكتاب ، وأعانه على ذلك ثقة جمهور التجار والزراع بأخبارها التجارية . بذلك انتعشت بعد ان سقطت ، وارتفعت بعد ان انخفضت . وحفظت مكانتها بين الجرائد اليومية الكبرى ، فان لم تعد رأسا في سياسة خاصة، فهي رأس في الثروة والمباحث العامة . ولا يضاهيها في هذين الامرين الا المقطم. فهما الآن في مقدمة الجرائد المصرية في الثروة ، وسعة الاخبار العامة ، والقدرة على التصرف في الكلام عن الشؤون المصرية. على انهما لم تتألف لهما أحزاب ، وانما تلك كفاءة أصحابهما ومحرريهما ، والجمع بين حسن الادارة ، والبراعة في الكتابة

وقد تألف في مصر ثلاثة أحزاب سياسية حول ثلاث جرائد يومية ، هن أكبر جرائد مسلمي هذا القطر وأوسعها انتشارا - المؤيد واللواء والجريدة - ولم يكن لواحدة منهن دخل يوازي دخل المقطم والاهرام الا للمؤيد، فقد كان أوسع منهما انتشاراً وعلى مقربة منهما في المال، ولو أتيح للمؤيد مدير مالي يسير بادارته سيرة أصحاب تينك الجريدتين لكان أوسع الجرائد ثروة ، على أن الشيخ رحمه الله عاش به في سعة ورخاء ، كما

يعيش الامراء والكبراء ، حتى تورط في شراء الدور وأراضي البناء ، في ابان اسراف الناس في التغالي بها ، فركبته الديون وجاءت سنو العسرة المالية فأتت على جميع ما في يده ، وكادت تذهب بالمؤيد نفسه ، لولا أن تداركه بتأسيس شركة مساهمة له، فحالت دون موته ، لادون مرضه ، فقد مرض المؤيد امراضاً أشرفت به على الموت عدة مرار ، وصارت حركة ظهوره كحركة المذبوح أو حركة الاستمرار ، وهو لا يزال محتاجا الى تجديد الحياة ، وانما يكون ذلك بحسن الادارة والنظام ، وجعل التحرير على الوجه الذي بيناه من قبل ، وهو ما به يظل المؤيد صاحب التأثير الاول في كل ما يتعلق بمصالح المسلمين في مصر ، ـ وكذا في غيرها ـ ثم بالمصالح المصرية والعثمانية. فاذا قصر المؤيد في هذا الامر الذي لم يكن لولاه أمرا ذا بال ، يحكم عليه الرأي العام الاسلامي بالعدم والزوال ، ويطلب بلسان حاله جريدة تحل محله حتى ينهض بها من يؤهله الاستعداد ، من الشركات أو الافراد

وجملة ما يريد الاعتبار به أن المؤيد قد جعله مشربه الاسلامي والمصري فوق جرائد القطر كلها ، بل جعله حاجة طبيعية ، من حاج البلاد المصرية فالاسلامية ، ولقي من المساعدة والاقبال ما لم يلق غيره ، ومع هذا كله لم يستطع أن يكون في ثبات الاهرام والمقطم وفي مثل ثروتهما ، ولا في المحافظة على إشعار الجماهير بحاجتهم اليه ، وبانه لابد لهم في الحوادث الطارئة من رأيه ، وقد ألف صاحبه له حزبا سياسيا سماه (حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية) فلم يفده قوة تذكر ، ولا رد عنه غارة تشن ، وانما كانت قوته المعنوية في هجومه ودفاعه سنان قلم الشيخ علي ، وحسن استعماله لأسنة الاقلام التي كانت تساعده ، ومنها ما كان أنفذ من سنانه في بعض الشؤون وأقتل . فلما مرض الشيخ مرض المؤيد ، ولما مات خشي الناس أن يموت كما مات حزبه ، ولكن الشركة المالية تداركت حياته المادية ، وعسى أن توفق لتدارك حياته المعنوية ، فان لم يتم هذا يفقد مسلمو مصر الانتفاع بقوتهم المعنوية ، ولا يبقى لهم قائد منهم في حياتهم السياسية والادبية ، ولا مدافع يؤثر صوته في مصالحهم الدينية ، فالشعب جريدة احداث جهال ، والجريدة ليست اسلامية المشرب ، والاهالي كذلك ، على انها ولدت سقطا كما قال أحد الأدباء . فالجريدة الاسلامية المصرية هي المؤيد ، فاذا مات يعسر وجود خلف له . وانني بهذه الحرية في النصيحة ، ربما أثير على نفسي حقدا قديما وعداوة جديدة ، ولا أبالي ذلك في سبيل مصلحة المسلمين ، على أنني است على ثقة من قبولها والله الموفق

وأما اللواء فقد بينا أن منشئه تربى في مدرسة المؤيد السياسية ، فكان تلميذا له ، الا أنه عقه وكفره ، وكان يحسب أنه يبذه أو يكون ناسخاً له ، لانه يبالغ ويغلو في كل المقاصد التي صار المؤيد يسلك سبل الاعتدال فيها ، كمدح السياسة الحميدية ، وذم الحكومة المصرية ، ومقاومة الاحتلال ، بالذم والاحتجاج ، وذلك ان الناس كانوا قد ألفوا بعض المبالغة من المؤيد ، فاذا أرجعته عنها الحكمة والخبرة ، يعد عوامهم وشبانهم ذلك من تغيير الخطة ، ومن دأب الاحداث والعوام ، حب الاغراق والغلو في الكلام ، وناهيك بما يتعلق منه بالسياسة والحكام . وقد بذّ اللواء المؤيد في المبالغة بهذه المقاصد ، وانفرد دونه بدعوة مسلمي مصر الى تكوين رابطة جنسية وطنية ، لكنها رابطة تنافي إخاء الاسلام ولا ترضي القبط وسائر طوائف النصرانية

صادف اللواء من مساعدة الاستانة ومساعدة بعض أمراء مصر وأغنيائها مالم تصادفه جريدة أخرى . حتى كان يبذل له الذهب بالالوف ، وهو على هذا كله لم يتسع انتشاره الا بعد سنين من انشائه ، ثم إنه غلب المؤيد على استمالة أكثر تلاميذ المدارس وكثير من العوام ، وصار المؤيد باعتداله ـ على رضاء أكثر العوام عنه ـ جريدة الخواص .

لم يستطع اللواء ان يصل بكل ذلك الى أن يكون كجريدة الاهرام أو المقطم في ثباتهما وثروتهما ، وقد ألف صاحبه له الحزب الوطني الحديث (١) وألف شركة رأس مالها عشرون ألف جنيه لاجل إصدار لواء أو لوائين آخرين باللغتين الفرنسية والانكليزية . وانما كانت هذه الشركة صورية لاغرض منها الا بذل ذلك المال لمصطفى كامل يتصرف فيه كما يشاء ـ كما يفهم من قانونها ـ وقد فعل . أضاع هذا المال كما أضاع ما سبقه من الاعانات مع كل غلة اللواء ومطبعته في السرف والخيلاء والمضاربات ، وطفق ينشد في اللواء شركاء يشترون سهاما أخرى من الشركة فلم يستجب لرقيته أحد ، ولم يلبث مصطفى باشا كامل ان مرض وضاعف ثقل المرض عليه همّ الدين والعوز ، وفي أثناء مرضه ألف الحزب الوطني الحديث (١) وكل ذلك لم يغن شيئا . ومات (كما مات صاحب المؤيد بعده) مثقلا بالديون ، فقد تبين ان عليه عشرات الألوف من الجنيهات . وقد حجز الدائنون مطبعة اللواء ، وبيع أثاث زعيم الوطنية في محل رجل رومي يبيع الاثاث بالمزاد ، ثم مات اللواء بعد ان اضطر أصحابه الى استخدام بعض الكتاب من نصارى السوريين لتحريره وقد كان أعدى أعدائهم ، وبعد ان انشق الحزب

(١) أول من ألف حزبا سياسياً بمصر باسم الحزب الوطني حكيمنا السيد جمال الدين الافغاني ، والحزب الذي كان يذكره مصطفى كامل في حال صحته لم يكن حزبا مكونا بالعمل

وأنشأ بسعي محمد بك فريد رئيسه جريدة لتكون لسان حاله سماها العلم (بالتحريك) ناط رياسة تحريرها بالشيخ عبد العزيز شاويش ، فكانت دون اللواء واحط منه في كل شيء الا الغلو والاسراف ، في الكذب والارجاف ، والطعن في الشعوب والافراد. لذلك اضطرت الحكومة الى إلغائها بعد ان حوكم رئيس تحريرها (شاويش) غير مرة ، وحكم عليه بالسجن وسجن .

في أثناء هذه الحوادث كان المتحمسون من رجال الحزب الوطني وآخرون ممن يودون استمالة محبي الرجل من التلاميذ يجمعون المال لنصب تمثال له ، يخلدون به ذكره، ولو راعوا الآداب الاسلامية لحافظوا بهذا المال على جريدة اللواء ، واتفقوا لها محررين من العقلاء الادباء ، فان هذا هو الذي يحفظ ذكره كما حفظ الاهرام اسمي سليم تقلا وبشاره تقلا . فما من يوم الا ويقرأ الاهرام ألوف من الناس يرون هذين الاسمين ويتذكرون مؤسسي هذه الجريدة المرتقية . وفي مصر عدة تماثيل لا يخطر اصحابها لاحد على بال حتى عند رؤيتها ماثلة بالشوارع .

وأما (الجريدة) فالعبرة بها أعظم فقد أنشأها جماعة من سروات البلاد أصحاب الثروة والمكانة الاجتماعية ، وحصلوا لها رأس مال عظيم ، ووضعوا لها قبل انشائها قانونا من أدق القوانين ، وأسسوا لها مطبعة من أرقى المطابع ، وجعلوا ادارتها ومطبعتها في قصر من أحسن القصور ، واختاروا لها مديرا من أذكى الكتاب واعلمهم بالسياسة والقوانين واختار هو من المحررين من سبق لهم التمرن على الكتابة حتى في إدارة الأهرام وادارة المقتطف والمقطم . وألف اولئك السروات المؤسسون لها حزبا سياسيا يكفلها سموه (حزب الامة) فهي قد ولدت بالغة راشدة فلم تكن كالمؤيد واللواء طفلا ينمو في إدارته رويدا رويدا- ولكنها على كل هذه المزايا لم تستطع ان تجد لها مقعدا ولا موقفا من المكان الفسيح الذي وجده قبلها المؤيد أو اللواء من قلب الرأي العام المصري ، ولم تستطع ان تنال من جيبه بعض ماينال المقطم أو الاهرام، بل كانت تحتاج كل سنة الى إمداد اولئك السروات لها بمالهم ، على انها ليست في الحقيقة لسان حالهم ، وسبب ذلك كله ان الروح الذي نفخ في هذه الجريدة لتحيا به ليس إسلاميا ، وانما هو فلسفة خاصة لاتكاد تجاوز دماغ مدير الجريدة وأدمغة بعض أصدقائه من المحامين وغيرهم (الذين هم حزب الجريدة المعنوي لا المالي) الا بتدرج بطيء جدا ، ثم انه لايرجى أن يعم ، وليس من الحكمة ولا مما يبيح الاقتصاد ان يكون له جريدة توقف عليه في مثل هذه البلاد التي لم تستعد لأن تعيش فيها

جريدة أو مجلة خاصة بشيء واحد مما تمم الحاجة اليه كالاقتصاد والزراعة أو الادب، دع الفلسفة بجملتها ، دون مذاهب الافراد فيها فقط

وجملة القول ان الجريدة لا ترمي عن قوس عقيدة مسلمي مصر ، ولا تصلح للتأثير بالرأي العام المصري ولا فيه ، فهي لا تستطيع أن تخدمه كما يجب ، ولا أن تستخدمه كما تحب ، لان روحها غير اسلامي ، فلا هي لسان حال المسلمين ، ولا لسان الذين أسست بأموالهم منهم، وهم لم يستمروا على الانفاق عليها الا لما يشعرون به من الفضاضة عليهم اذا ألغوها وأبطلوها ، ولا يرجى لها بهذا المشرب أن تبلغ شأو المقطم أو الاهرام من نفوس الناس ولا من الرواج والربح

فظهر بما شرحناه ان الاحزاب في مصر لا عمل لها ولا تأثير الا بالجرائد ، وان الجرائد بالرجال الذين يتولون سياستها وادارتها ، وانه لم توجد بمصر جريدة للمسلمين حسنة الادارة والنظام- اللهم الا الجريدة في الجملة أو في ضبط الاعمال المالية- وان جريدة المؤيد هي الجريدة الاسلامية السياسية التي أوجدتها الحوادث وكفاءة الشيخ علي يوسف في مكانة من الرأي العام الاسلامي يعرفها لها أهل الساسية في أوربة ، ويعدونها لسان حال مسلمي مصر وغير مصر أيضاً . وحذت جريدة اللواء حذوها ، ولم تبلغ شأوها ، لأن صاحب المؤيد كان في السياسة الاسلامية مستقلا ، وصاحب جريدة اللواء كان فيها مقلدا ، وانما كان حظه منها بقدر ما اقتبس من سياسة المؤيد . وكل ما خالف فيه المؤيد كان خطأ في جملته ، ان لم يكن خطأ في كل فروعه وجزئياته ، ولكن الغيرية لا تكون الا بالمخالفة في بعض الشؤون ، فصاحبا المؤيد واللواء هما أوجدا المؤيد واللواء ، وقد كان أسوء تصرفهما المالي دخل عظيم في اضعاف جريدتيهما ، حتى ماتت احداهما بعد موت صاحبها بعد ما اشرفت على الموت المالي في عهده ، ويخشى أن تموت الاخرى مثلها ، ان لم يمن بها أهل الغيرة والبصيرة عناية يراعى فيها ما بيناه في هذه الترجمة مرارا .

فيجب على مسلمي مصر أن يتدبروا هذا النقص العظيم، وأن يتذكروا ان شعبهم المستعد للعلم والادب والتربية السياسية والاقتصادية ، هو الذي جعل الاهرام والمقطم أغنى الجرائد في بلاده ، لان اصحابهما عرفوا كيف يخاطبونه بحسب استعداده، وهو قد ساعد المؤيد واللواء ما لم يساعدهما ، فيجب على من يخدمه أن يخاطبه بلسان استعداده . وأن يتذكروا ان (مصر) و(الوطن) الجريدتين القبطيتين، تليان في الثروة

والثبات الأهرام والمقطم السوريتين . ولولا عصبيتهما القبطية لما كانتا دونهما تأثيرا في نفوس المسلمين . فمن النقص بل من العار على المسلمين أن لا يكون لهم جريدة أو جرائد مثل هذه أو أرقى منها في النظام والثروة ، بله التأثير والحظوة

ان لي أن أفخر بكفاءة أصحاب المقطم والاهرام ومحرريهما و براعتهم، لانهم من أبناء وطني الاول الذي هو وطن المولد والمنشأ . وأود ـ والله ـ أن أفخر بمثل عملهم من أبناء ديني ووطني الثاني الذي هو وطن العمل . ولا يسرني من مثل المقطم والاهرام في مصر الا ما ينفع المصريين، لان أبناء وطني السوريين ليس لهم مصالح في مصر تنافي مصالح المصريين، فهم غير محتاجين الى جرائد خالصة لهم من دون المصريين، لاجل هذا يهمني أمر المؤيد، ويسرني أن يكون أرقى الجرائد المصرية تحريرا ونظاما وافادة واستفادة ، لان المسلم أجدر بمعرفة حاجة الجمهور المسلم وبيانها والدفاع عنها ، من مثله في علمه وبيانه من غير المسلمين ، وأقدر على التأثير فيه بحمله على الخير أو صرفه عن الشر ، وعلى التأثير به بجعله مجنا يدفع به عنه ما يراه ضارًّا به . وقد رأيت غير واحد من المشتغلين بالعلم وبالسياسة من النصارى يتمنون لو ولدوا مسلمين ، لأجل أن يكونوا أقدر على خدمة وطنهم أو الشرق الاسلامي كله .

وما أطلت الكلام على الجرائد في ترجمة الشيخ علي يوسف الا لأذكر إخواني مسلمي مصر بما أراهم غافلين عنه ، وهو أنه لم توجد لهم جريدة تصح ان تكون لسان حالهم بحق الا المؤيد ، وان الروح الذي كان به المؤيد هو المؤيد يجب ان يبقى له ، ويجب ان يكفل ، وان يكون لهيئة التحرير فيه مع الرئيس الكفؤ ، مراقب موثوق به ، مثل سعد باشا زغلول الذي كان ركنا من أركان تأسيس المؤيد . والا خسر مسلمو مصر خسارة يصعب عليهم الاستعاضة عنها في سنة أو سنين قليلة ، وربما حرموها الاجيال طويلة ، وقد ذكرناهم بما يوجب العبرة من تاريخ أعظم جرائدهم

هذا وان أية جريدة من جرائد المسلمين في مصر يتولى رياسة تحريرها كاتب خبير بمصالح المسلمين غيور عليها، قادر على الدفاع عنها، يمكن ان تحل محل المؤيد الاول وأن تكون أكمل منه فيه وأثبت، ولكن لا يكون ذلك الا بعد ثقة الجمهور المسلم بها ، وهذه الثقة اذا استعادها المؤيد في سنة واحدة ، لا تنالها جريدة جديدة الا بعد سنين كثيرة أو قليلة ، ومن ذا الذي ينفق على جريدة جديدة عدة سنين، منتظرا طروء الحوادث التي تقنع الرأي العام بانها هي حاجته التي يطلبها لسان حاله واستعداده ؟

(للترجمة بقية)

الجامعة الاسلامية والسياسة

(جمعية إسلامية . مدرسة جامعة بالمدينة المنورة . استغلال الحجرة النبوية)

تجدد الخوض في ذكر الجامعة الاسلامية بما ظهر أخيرا من عناية جمعية الاتحاد والترقي بالاستفادة من نفوذ الدولة الديني لما ظهر لها من تأثير الدين في السياسة ، وضرر ما كان من اعراضها عنه ، ومن اهتمام مسلمي الارض كافة بحرب طرابلس وحرب البلقان ، وبذلهم المال لاعانة الدولة على الحرب بقدر الامكان ، ومطالبة مسلمي الهند لدولتهم البريطانية بمساعدتها ، واستيائهم من ميلها للبلقانيين . ففي أثناء الحرب ألفوا في الآستانة جمعية اسلامية خيرية تحت رياسة أو رعاية ولي عهد السلطنة . وكان أول من بذل المال لتأسيسها بعض وجهاء المصريين ، ويرجون أن يجمعوا لها مالا جمّا ، وان لم يعرف العالم الاسلامي اين يذهب هذا المال وكيف ينفق ؟

المدرسة الجامعة بالمدينة

واذاعوا في الاقطار خبر تأسيس مدرسة جامعة في المدينة المنورة - ويعبر عنها الترك باسم « دار فنون » - ثم أرسلوا وفدا اليها في أثناء زيارة الحجاج لها للاحتفال بالشروع في تأسيس هذه المدرسة المسوّغ لفتح باب الاعانات لها . ونحن ننتظر ان نرى نظام هذه المدرسة لنعلم هل موضوعها دار فنون جامعة لكل الفنون والعلوم العالية كما يفهم من هذه التسمية أم لا ، ولنعلم أي اللغات تكون لغة التعليم فيها ؟ هل هي العربية أم التركية ؟ ومن أين يأتون بالتلاميذ الذين تلقوا التعليم الابتدائي والثانوي ليدرسوا فيها الفنون والعلوم العالية ؟ وليس في المدينة ولا في الحجاز شيء من هذا التعليم! ولا نبحث عن المعلمين والكتب قبل أن نعرف لغة التعليم ، فان نظارة المعارف العثمانية تعتذر عما نطلبه من جعل التعليم في ولايات الدولة العربية بلغة اهلها ، وأظهر أعذارها عدم وجود الكتب والمعلمين . وقد أذاعت الجرائد من بضعة أشهر أن النظارة ألفت لجنة فيها لأجل اختيار الكتب العربية الصالحة . وعلمنا انها طلبت نموذجا من كتب التعليم التي تقرأ في المدارس المصرية الأميرية فأرسل اليها . والى الآن لم نر لعمل اللجنة أثرا يذكر . واذا كانوا يريدون التعليم في المدينة باللغة التركية فان لنا في ذلك كلاما آخر .

نقول هذا ونحن لا نعقل فلا نصدق أن حكومتنا توجد في المدينة المنورة مدرسة جامعة ، ونرى ذلك غير مستطاع ان كان مرادا ، ولا نظن أنه مراد . ولكنها قد

تبني بناء فخما تسميه مدرسة جامعة، وتجلب اليه بعض الطلاب من بلاد مختلفة، فيعطون دروسا ابتدائية أو فوق الابتدائية، حسب استعداد من يحضر. ثم تستندي أكف أغنياء الحجاج وغيرهم لأجل ترقية المدرسة كما تستنديها الآن لاجل تأسيسها باعاناتهم

وأما كون المراد من هذه المدرسة بث فكرة الجامعة الاسلامية في نفوس المسلمين - كما قالت الجرائد في هذه الاقطار وفي غيرها - فالظاهر ان السياسة الاتحادية الاخيرة تود إذاعة هذا المعنى عنها، وتحض الذين يتولون إنشاء المدرسة الآن على اقناع زوّار المدينة المنورة وغيرهم بأن جمعية الاتحاد والترقي تخدم الدولة والاسلام، وانه يجب ان تساعد على ذلك بما يستطاع من النفوذ والمال، وقد علم هذا من حال من اختارتهم الجمعية للشروع في العمل، ومن الاحتفال الذي كان في المدينة المنورة، ومن حال المندوب الذي بقي هنالك بعد الاحتفال (وهو الأمير شكيب أرسلان أحد أدباء طائفة الدروز في جبل لبنان) الذي كتب العشرات بل المئات من المقالات في إطراء الجمعية والطعن في طلاب الاصلاح من العرب للبلاد العربية. أما الشيخ عبد العزيز شاويش رئيس لجنة ذلك الاحتفال في المدينة المنورة ورفيقه عبد القادر أفندي المغربي فهما من غلاة أنصارها الذين ثبتوا على خدمتها في الاقبال والإدبار، على اختلاف المظاهر والاطوار، ومن كان هذا شأنه معها فيما رجعت عنه من سياستها القديمة، فكيف لا يكون كذلك في سياستها الجديدة؟

أما أنا فأتمنى لو توجد مدرسة جامعة في المدينة المنورة، أو مدرسة ما مهما كانت درجتها، ومهما كان الغرض من انشائها، فاذا لم تكن كما نحب اليوم، فاننا نرجو أن تكون كما نحب غدا. ولهذا لم أكتب كلمة تحذير منها في المقالات التي أنحيت بها على أعمال الجمعية، أيام كان الخلاف بينها وبين قومنا العرب على أشده، حتى انني عدت -كما كنت في عهد عبد الحميد- لا آمن على نفسي ان أحج بيت الله الحرام، أو أزور حرم رسوله عليه الصلاة والسلام، وكانت تمثل لي هذه المدرسة - عند سماع خبر العزم عليها - كمسجد الضرار. وقد دخل قومنا معها الآن في طور جديد تمنينا فيه بكل ما نطلب من الاصلاح، والله المسؤل ان تصدق الأماني وتحصل الآمال

وأما رأيي الذي أنصح به للدولة، فهو ان تصدي رجالها السياسيين لتحريك أوتار الجامعة الاسلامية يضر الدولة كثيرا ولا ينفعها الا قليلا، ويوشك ان تكون هذه الاقوال التي قيلت في هذه المسألة - على قلة تأثيرها - من أسباب ما نراه من شدة

تحامل أوربة عليها ، وأكتفي في هذا المقام بالمثل الذي يكرره الامام الغزالي في الاحياء : « كن يهوديا صرفا والا فلا تلعب بالتوراة »

ومرادي من هذا انه يجب عليها أحد امرين : (الاول) ان تؤسس حكومة اسلامية ، خالية من التقاليد والقوانين الافرنجية ، الا ما كان من النظام ، الذي يتفق مع الشرع ولا يختلف باختلاف الاقوام ، وتعطي مقام الخلافة حقه من إحياء دعوة الاسلام ، وإقامة الحدود وحرية أهل الاديان ، ولا يعجزها حينئذ ان ترضي غير المسلمين من رعاياها الذين ليس لهم أهواء سياسية ، ولا ضلع مع الدول الاجنبية ، بل يكون ارضاؤهم أسهل عليها منه الآن ان شاء الله . ولو كان لي رجاء في إصغائها الى هذا الرأي ، أو جعله محل النظر والبحث ، لبينت ذلك بالتفصيل ، ولأوردت ما أعلمه من المشكلات والعقبات التي تعترض في طريق تنفيذه من داخلية وخارجية مع بيان المخرج منها ، ثم ما يترتب عليه من تجديد حياة الدولة وكونه هو المنجي لها من الخطر ، وان تراءى لكثير من الناس انه هو المسرع بالخطر ، ظنا منهم أن أوربة تعجل بالاجهاز على الدولة اذا علمت بانها شرعت بنهضة إسلامية ، لعلمها بانها هذه هي حياتها الحقيقية ، وكون حياتها بهذا هو مايصرح به بعض أحرار الأوربيين (١) وان خوف منه بالتمويه والايهام اكثر السياسيين

{ الثاني } ان تدع كل ما عدا الامور الرسمية المعهودة لديها من أمور الدين الى الجمعيات الدينية الحرة ، والافراد الذين يدفعهم استعدادهم الى هذه الخدمة ، ولها ان تساعد مايستحق المساعدة من هذه الاعمال بالحماية ، وكذا بالاعانات المالية من أوقاف المسلمين الخيرية ، (اذا كانت تريد بقاء الاوقاف العامة في يدها ولم تجب طلاب الاصلاح الى جعل أوقاف كل ولاية في أيدي أهلها) مع ابقائهم بمعزل عن السياسة وأهلها . ولولا ان هذا هو رأيي لما اشترطت على رجال الدولة وجمعية الاتحاد ، إذ عرضت عليهم مشروع الدعوة والارشاد ، ان يكون في يد جماعة حرة لا علاقة لها بالسياسة ، وان لا تخصص لها اعانة من خزينة الدولة ، بل تكون نفقاتها مما تجمعه هي من الاعانات بأنواعها ، ومما تعطاه من أوقاف المسلمين الخيرية . (فستذكرون

---

(١) قال لورد كتشنر لبعض من لقيه من العثمانيين المشتغلين بالسياسة : ان الدولة العثمانية لاتصلح بالقوانين التي تقتبسها منا (أي الأوربيين) ونحن ماصلحت لنا هذه القوانين الابعد تربية تدريجية في عدة قرون كنا نغير فيها ونبدل بحسب اختلاف الاحوال ، وان عندكم شريعة عادلة موافقة لعقائدكم ولاحوالكم الاجتماعية فالواجب على الدولة ان تعمل بها وتترك قوانين أوربة فتقيم العدل وتحفظ الأمن وتستغل بلادها الخصبة . وعندي انها لاتصلح بغير هذا

ما أقول لكم وأفوّض أمري الى الله ، إن الله بصير بالعباد)

استغلال الحجرة النبوية

بلغنا والعهدة على الرواة أن بعض المنافقين الذين يتقربون الى (جمية الاتحاد والترقي) باسم الدين ، واستنباط الوسائل منه الى استخراج المال من جيوب المسلمين ، قد زينوا لها أن تتخذ دفترا تضعه في حجرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام . وتذيع في العالم الاسلامي كله أن من أراد أن يكتب اسمه في هذا الدفتر ، الذي وضع لدى قبر الرسول الاعظم ، صلى الله عليه وآله وسلم ، فليبذل قطعة من النقود الذهبية ، (كالجنيه الانكليزي أو الليرة العثمانية) ونحن ننصح للدولة أو الجمعية بأن ترد هذا الاقتراح ولا تنفذه ، مهما زينه المنافقون ووسعوا دائرة الاماني فيه ، وأوهموها ان السواد الاعظم من المسلمين يقبلونه ، ظانين أنه يجعلهم معروفين عند نبيهم (ص) محبوبين لديه ، مقبولين عنده ، وانه يمكن لمن يدعوهم الى البذل أن يقول لهم : انه (ص) ينظر في هذا الدفتر كل يوم ، ويقرأ هذه الاسماء ويدعو لأصحابها بخير

هذه بدعة قبيحة لا نظن ان رجال الاتحاد يقبلون فيها قول المنافقين ، أو يحتاجون الى نصح الناصحين ، وهي على كونها حدثا وبدعة في مسجد الرسول (ص) وعبثا بالدين ، تخل بتعظيمه وتكريم مقامه (ص) وقد لعن من أحدث حدثا في مسجده (وسيأتي الحديث فيه) وكذا في مدينته وما حولها : روى الشيخان في صحيحيهما وغيرهما عن علي كرم الله وجهه أنه قال : ما كتبنا عن رسول الله (ص) الا القرآن وما في هذه الصحيفة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة حرم ما بين عَيْر الى ثور (١) فمن احدث فيها حدثاً او آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل » الحديث

لا يعجز اصحاب الجرأة من المنافقين ان يقولوا ان استغلال حجرة المصطفى وقبره (ص) بمثل هذا الدفتر لا يعد حدثاً ولا بدعة ، لانه وسيلة الى مساعدة الدولة على خدمة الدين (مثلا) ويمكن ان يتقى فيه الكذب في الدين وايهام الباطل والكذب على الرسول (ص) حتى لا يكون توسلا باسمه (ص) الى أكل أموال الناس بالباطل . ولكن أنصار السنة أنهض حجة وأقوم قيلا ، فلا يعجزهم أن يظهروا الدلائل

(١) عير وثور جبلان جعلهما «ص» حدين للمدينة . وثور جبل بمكة أيضا وقد اشتبه بعض شراح الحديث في هذا الذي في المدينة ، ورجح بعضهم رواية «ما بين عير وأحد» وان كانت الاولى أصح سندا . وقال بعضهم ثور الذي يحد المدينة وراء احد الى الشمال وهو مدور ولونه الى الحمرة . فالظاهر انه جبل صغير ظنه بعض الناس جزءا من احد

وآثار السلف التي تدحض هذه الشبهات ، وأن يبينوا للناس ان كل بدعة حدثت في الاسلام قد موهت بمثل هذا التمويه ، وادعى محدثوها أنهم يخدمون بها الدين ، كما بينه الامام الشاطبي في كتاب الاعتصام

وانني انقل هنا أثرا واحدا من آثار السلف الصالح في التوقي من احداث شيء في مسجد الرسول (ص) او مدينته حذرا من لعنته . نقل الشاطبي في بيان كون المبتدع ملعونا ما يأتي :

« قال ابو مصعب صاحب مالك : قدم علينا ابن مهدي ـ يعني المدينة ـ فصلى ووضع رداءه بين يدي الصف ، فلما سلم الامام رمقه الناس بأبصارهم ورمقوا مالكا ـ وكان قد صلى خلف الامام ـ فلما سلم قال : من هاهنا من الحرس ؟ فجاءه نفسان ، فقال : خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه . فحبس . فقيل له : انه ابن مهدي (١) فوجه اليه وقال له : أما خفت الله واتقيته أن وضعت ثوبك بين يديك في الصف وشغلت المصلين بالنظر اليه ، وأحدثت في مسجدنا شيئا ما كنا نعرفه ؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من أحدث في مسجدنا حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » فبكى ابن مهدي ، وآلى على نفسه أن لا يفعل ذلك أبدا في مسجد النبي (ص) ولا في غيره .

(قال الشاطبي) وهذا غاية في التوقي والتحفظ في ترك احداث مالم يكن خوفا من تلك اللعنة ، فما ظنك بما سوى وضع الثوب؟ اه (ونقول) فما ظنك ببدعة وحدث في حجرة الرسول (ص) يتبعها الكذب عليه ، وأكل أموال الناس باسمه ، والزيادة في الدين الذي جاء به ، ولو لم يكن في ذلك من الزيادة في الدين إلا إحداث قربة جديدة وعبادة مخترعة هي التقرب الى الله تعالى والى رسوله (ص) بكتابة اسماء الناس في دفتر هنالك لكفى ، فان قالوا انا لا نعده قربة ولا سببا للثواب . قلنا اذا هو غش واحتيال، لأجل سلب الاموال، فان من يعلم ان كتابة اسمه لا تقربه الى الله ورسوله، لا يدفع المال لأجلها . . . هذا ولولا الاخلاص في النصيحة لله ولرسوله وللدولة لما كتبت هذا قبل إحداث هذا الحدث المقترح ، والله عليم خبير

---

(١) هو عبد الرحمن بن مهدي الشهير بالصلاح والعلم والعمل ، كان يختم القرآن كل ليلة ويتهجد بنصفه . لهذا كان قولهم للامام مالك « هذا ابن مهدي » سببا لمبادرته الى اخراجه من الحبس لعلمه أن كلمة حق واحدة تؤثر في نفسه ، ما لا يؤثر الحبس الطويل في نفس غيره .

﴿ انتقاد أجوبة المنار لمن سأل عن حكم الحج ﴾

كتب الينا غير واحد من البحرين أن الذي سألنا عن حكم الحج واسرار المناسك لم يكن يريد الحج هو وأصحابه ، وما أسئلتهم تلك الا مظهر مافي نفوسهم من الاعتراض على الدين وعدم الاذعان لأحكامه ، وانه ما كان ينبغي ان يجابوا الا أن يقال لهم: هذا ديننا فان كنتم من أهله فأقيموا أركانه وأدوا فرائضه ، والا فالزموا شأنكم .

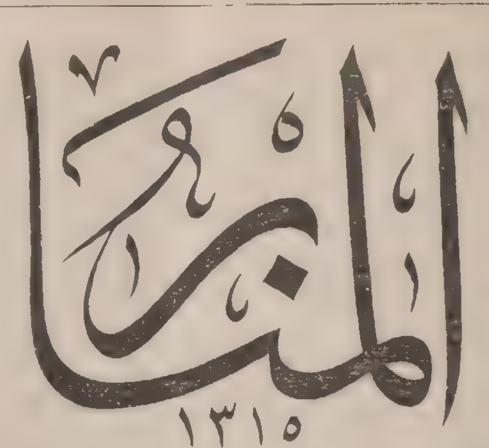
هذا معنى ما كتب الينا ، وصرحوا بأن سبب سوء اعتقادهم في السائل ومن على شاكلته أنهم قد تعلموا في مدرسة دعاة النصرانية { المبشرين } فأزاغوا عقائدهم

أما نحن فنقول ان الاسئلة التي أرسلت الينا تدل على أن السائل قد عرضت له شبهات في هذه العبادة (الحج) فهو إما حريص على دينه يسأل العلماء ليأخذ عنهم ما يدفعها بها ليكون على بصيرة من دينه ، وإما معجز أوشاك يختبر علماء المسلمين ليرى ماعندهم ، حتى اذا عجزوا عن بيان حكم هذه المناسك عذر نفسه ، واطمأن بما عنده . والواجب علينا ان نغلب حسن الظن ما وجدنا له منفذا ، وان نجيب طالب العلم مهما كان قصده، فان كان مؤمنا ازداد ببيان حكمة الدين ايمانا ، وان كان شاكا أو زائغا يوشك ان يعود الى الرشد، ويطمئن بما ظهر له من الحق . ولا ينبغي لنا ان نتهم أحدا في دينه بالشبهة ، ولا أن ندع من يشككهم دعاة النصرانية في الحق وشأنهم ، بل ينبغي لنا ان نجذبهم الينا ، اذا هم أعرضوا عنا وتركوا سؤالنا . فاذا ترك الحق الباطل يصول بشبهاته على احداث المسلمين، يمرقون كلهم من الدين .

واذا كان بعض أهل البحرين يعلمون مبلغ افساد دعاة النصرانية في بلدهم ، فلماذا لايحذرون الغافلين من ارسال أولادهم الى مدارسهم ، ويغنونهم عنها بمدرسة اسلامية ينشئونها لهم، يعلمونهم فيها من علوم المعاش مايعلمهم هؤلاء المفسدون، ويزيدون عليهم تعليم عقائد الاسلام وأحكامه وحكمه وآدابه وتاريخه بدلا من النصرانيـة وشؤون أهلها ؟ الا يعلمون أنهم بترك معارضة هؤلاء المحاربين لدينهم آثمون كلهم ؟ وان هذا الاثم لايزول الا بانشاء مدرسة ينقذون فيها أولادهم من مدرسة دعاة النصرانية التي ستلقي العداوة بينهم وبين أولادهم وتقطع صلتهم بهم في الدنيا والآخرة؟؟

وعسى أن يعتبر بهذا من يدعون في حضرموت وغيرها من أطراف جزيرة العرب الى جعل بلادهم للانكليز أو تحت حمايتهم ، ويفطنوا لما في ذلك من الخطر على دينهم

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب

قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ صفر ١٣٣٢ هـ ق ٧ الشتاء الثاني ١٢٩٢ هـ ش ٢٦ يناير ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٣٠) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ، قَالَ: لَأَقْتُلَنَّكَ. قَالَ:
إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٣١) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي
مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ
(٣٢) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٣٣) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ
فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٤) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي
الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ: يَا وَيْلَتَى! أَعَجَزْتُ أَنْ

أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ، فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي، فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ (٣٥) مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا. وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ

جاءت هذه القصة في سياق الكلام على أهل الكتاب، وشأنهم مع النبي (ص) والقرآن، بين قصة بني اسرائيل الذين عصوا ربهم فيما كلفهم من قتال الجبارين، وبين ماشرعه الله من جزاء الذين يخرجون على أئمة العدل، ويهددون الأمن، ويفسدون في الأرض، وما يتلوه من عقاب السرقة.

فمناسبة هذه الآيات للسياق في جملته، أنها بيان لكون الحسد الذي صرف اليهود عن الإيمان بالنبي (ص) وحملهم على عداوته عريق في الآدميين وأثر من آثار من سلفهم، كان لهؤلاء القوم منه النصيب الوافر، ويتضمن تسلية النبي (ص) والمؤمنين، وازالة استغرابهم اعراض هذا الشعب عن الاسلام، على وضوح برهانه، وكثرة آياته. وأما مناسبتها لما قبلها وما بعدها مباشرة فهو بيان حكمة الله في شرع القتال والقود، على ماشدد فيه من تحريم قتل النفس. ذلك انه لما كان القتال بين الأمم، وقتل الحكومات للأفراد، أو تعذيبهم بقطع الأطراف — كل ذلك قبيحا في نفسه، كان من مقتضى رحمة الله تعالى وحكمته، انه لا يباح الا لدرء ما هو أقبح منه وأضر. وكان من كمال الدين أن يبين لنا حكمة ذلك، فجاءت هذه القصة في هذا المقام تبين لنا ان اعتداء بعض البشر على بعض حتى بالقتل هو أصيل فيهم، وقع بين أبناء أبيهم آدم في أول العهد بتعددهم، لأنه أثر من آثار ماجبلوا عليه من كون أعمالهم باختيارهم، حسب ارادتهم التابعة لعلمهم أو ظنهم، وكون علومهم وظنونهم من كسبهم، وكونها لاتبلغ درجة الإحاطة بمصالحهم ومنافعهم، وكذا ماجبلوا عليه من حب الكمال، وما يتبعه من حسد الناقص لمن يفوقه في الفضائل والأعمال،

وكون الحاسد يبغي ان قدر ، مالم يزعه الدين أو يمنعه القدر ، وهو لايبغي ولا يقتل الا وهو يظن ان ذلك خير له وأنفع ، وأنوه بقدره وأرفع ، ومثل هذا الظن لايزول من الناس ، الا اذ أحاط كل فرد من أفرادهم علما بكل شؤون المعاش والمعاد ، وارتباط المنافع الشخصية بمنافع الاجتماع ، وأقاموا الدين القيم كلهم على الوجه الذي أراده الله ، وكل ذلك محال لأن طبيعة البشر تأباه . فهم يخلقون متفاوتين في الاستعداد للعلم ، وما يرد على أنفسهم من صور المعلومات بأنواعها يختلف ، وما يتحد منه يختلف تأثيره الذي يترتب عليه العمل . فالاختلاف في العلم والرأي والشعور والوجدان طبيعي فيهم ، ومن لوازمه النافعة اشتغال كل فريق منهم بنوع من أنواع الاعمال ، وبذلك يظهرون اسرار الله وحكمه في الكائنات ، وينتفعون بما سخره لهم من أنواع المخلوقات ، ومن لوازمه الضارة التخاصم والتقاتل . لاجل هذا صاروا محتاجين الى الحكام والشرائع . وكان من عدل الشريعة ان تبنى أحكام قتل الافراد وقتال الشعوب على قواعد درء المفاسد واقامة المصالح . (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) - فهذه الآيات في هذا الموضع مبينة لحكم ماقبلها ، وما بعدها من الاخبار والاحكام . وقال ابن جرير وقال وتبعه بعض المفسرين ان هذه الآيات متعلقة بقوله تعالى (١٢ ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هَمّ قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم) الآية . وقال بعضهم انها متعلقة بقوله تعالى (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله) الآية . وما قلناه أكمل، وأعم وأشمل . قال تعالى

﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ الاصل لمعنى مادة (ت ل و) التبع . فالتلو (بالكسر) ولد الناقة والشاة اذا فطم وصار يتبعها ، وكل ما يتبع غيره في شيء يقال هو تلوه . ويقال : مازلت أتلوه حتى أتليته . أي غلبته فسبقته وجعلته تلوي . وتلا فلان . اشترى تلوا . أي بغلا صغيرا أو جحشا . والتلاوة (بالضم) والتلية (بالفتح) بقية الشيء لانه يتلو ماقبله . يقال ذهبت تلية الشباب . والتلاوة بالكسر القراءة ، ولم تكد تستعمل الا في قراءة كلام الله تعالى . وذكر في لسان العرب تلاوة القرآن ، وقال أن بعضهم عمّ به كل كلام . ولعل قراءة القرآن سميت تلاوة

لانه مثاني كلما قرئ منه شيء يتبع بقراءة غيره أو باعادته، أو لأن شأنه ان يقرأ ليتبع بالاهتداء والعمل به. وعبر القرآن بالتلاوة عن قراءة كتاب الله وآياته للانبياء السابقين لهذا المعنى أيضا. وفسروا قوله تعالى « يتلونه حق تلاوته » بيتبعونه حق اتباعه. والنبأ الخبر الصحيح الذي له شأن من الفائدة والجدارة بالاهتمام.

ومعنى الجملة واتل أيها الرسول على أهل الكتاب وسائر النـاس ذلك النبأ العظيم — نبأ ابني آدم — تلاوة متلبسة بالحق مظهرة له ، بأن تذكره كما وقع ، مبينا ما فيـه من الحكمة والكشف عن غريزة البشر · وهو ما جبلوا عليـه من التباين والاختلاف الذي يفضي الى التحاسد والبغي والقتل ، ليعلموا حكمة الله فيما شرعه في الدنيا من عقاب الباغين من الافراد والجماعات والشعوب والقبائل ، وكون هذا البغي من اليهود على رسول الله والمؤمنين ليس من أمر دينهم، وإنما هو من حسدهم و بغيهم، فهم في هذا كابني آدم اذا حسد شرهما خيرهما فبغى عليه فقتله، وكانت عاقبة ذلك ما بينته هذه الآيات •

والجمهور على ان هذين الابنين هما ابنا آدم من صلبه، وعن الحسن انهما من بني اسرائيل• وفي سفر التكوين أنهما أول أولاد آدم، اسم أحدهما قاين أو قايين وهو البكر ، ويقول علماء التفسير والتاريخ منا قابيل . وهو القاتل · واسم الثاني هابيل بالاتفاق · وقد ذكروا في ذلك روايات غريبة لا يمكن ان يعرف مثلها الا بوحي من الله ، وهي لم ترو عن أحد من رسل الله . ومنها ان آدم رثى هابيل بشعر عربي. فنعرض عن هذه الروايات التي لا تصح ولا تفيد • ووصف ماقصه الله تعالى بالحق يشعر بأن ما ياوكه الناس في ذلك مما سواه باطل · ﴿ اذ قربا قربانا ﴾ أي اتل عليهم نبأهما أي وقت تقربيهما القربان ، وما تبعه من البغي والعدوان . و القربان ما يتقرب به الى الله تعالى من الذبائح وغيرها . وغلب عندنا في ذبائح النسك كالأضاحي. وكانت القرابين عند اليهود أنواعا (منها) المحرقات للتكفير عن الخطايا وهي ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب. والذبائح عن الخطايا قسمان: عن الخطايا العامة والخطايا الخاصة. (ومنها) ذبائح السلامة لشكر الرب تعالى (ومنهـا) التقدمات من الدقيق والزيت واللبان• (ومنها) تقدمة الترديد من باكورة الارض · واما القربان عند النصارى

فهو مايقدسه الكاهن من الخبز والخمر فيتحول في اعتقادهم الى لحم المسيح ودمه حقيقة لامجازا . والقربان في الاصل مصدر قرب منه واليه قربا وقربانا ، فلهذا يستوي فيه المفرد وغيره . والأقرب ان كل واحد منهما قرب قربانا ، ويجوز ان يكونا قد قربا قربانا واحدا كانا شريكين فيه ، ﴿ فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر ﴾ أي فتقبل الله من احدهما قربانه أو تقريبه القربان لتقواه وإخلاصه فيه وطيب نفسه به ، ولم يتقبل من الآخر لعدم التقوى والاخلاص . والتقبل أخص من القبول لانه ترق فيه الى الاثابة عليه والعناية بالمقبول . ولم يبين لنا الله تعالى كيف علما انه تقبل من احدهما دون الآخر ، ويحتمل أن يكون ذلك بوحي من الله لأبيهما آدم عليه السلام ، بناء على قول الجمهور انهما ابنا آدم لصلبه وفاقا لسفر التكوين ، أو لنبي زمانهما على قول الحسن انهما كانا من بني اسرائيل ، وهو قول ضعيف خلاف الظاهر المتبادر . وروي عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما ان احدهما كان صاحب حرث وزرع والآخر صاحب غنم ، وان هذا قرب اكرم غنمه واسمنها واحسنها طيبة به نفسه ، وصاحب الزرع قرب شرما عنده وارداه غير طيبة به نفسه . وروي عن بعضهم أن القربان المقبول كانت تجيء النار فتأكله ، ولا تأكل غير المقبول ، وهذه أخبار اسرائيلية اختلفت الروايات فيها عن مفسري السلف ، بعضها يوافق ماعند اليهود في سفر التكوين وبعضها يخالفه . وليس فيها شيء مرفوع الى النبي (ص) يعول عليه

﴿ قال لأقتلنك ﴾ أي ان من لم يتقبل منه توعد أخاه وأقسم ليقتلنه فأجابه أحسن جواب وأنفعه : ﴿ قال إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ أي لا يقبل الله الصدقات وغيرها من الاعمال القبول المقرون بالرضا والاثابة الا من المتصفين بالتقوى ، فهذا الجواب يتضمن بيان سبب القبول وعدمه مع الاعتذار ، كأنه قال اني لم أذنب اليك ذنبا تقتلني به ، فان كان الله تعالى لم يتقبل منك ، فارجع الى نفسك فحاسبها على السبب ، فانما يتقبل الله من المتقين ، أي الذين يتقون الشرك الاكبر والاصغر وهو الرياء ، والشح واتباع الاهواء ، فاحمل نفسك على تقوى الله والاخلاص له في العمل ، ثم تقرب اليه بالطيبات يتقبل منك ، فالله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فليتعظ بهذا أهل الغرور بأعمالهم ، ولا سيما النفقات التي يراءون بها الناس ، و يبتغون بها الصيت والثناء .

ثم انه بعد بيان هذه الحقيقة من حق الله والتقرب اليه، بين له حقيقة أخرى وهي ما يجب للناس ولا سيما الاخوة بعضهم على بعض من احترام الدماء وحفظ الانفس فقال:

﴿ لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك ﴾ أي بين له حاله وما تقتضيه من عدم مقابلته على جنايته بمثلها، وأكد ذلك بالقسم وبجملة النفي الاسمية المقرون خبرها بالباء، وهو انه إن بسط يده أي مدها ليقتله بها، لا يجزيه بالسيئة سيئة مثلها ، وان هذه الجناية لا تأتي منه ولا تتفق مع صفاته وشمائله ذلك بأنه لم يعبر عن نفسه بصيغة الفعل المضارع المنفي كما عبر بالماضي المثبت عن عمل أخيه ، - وهو المتبادر في مقابلة الشيء بضده - بل قال « ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك » أي لست بالذي يتصف بهذه الصفة المنكرة المنافية لتقوى الله تعالى ، ولا شك ان نفي الصفة أبلغ من نفي الفعل ، الذي هو عبارة عن الوعد بالترك ، لأنه عبارة عن وعد مؤكد ببيان سببه . ثم أكده تأكيدا آخر ببيان علته وهو قوله ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ أن يراني باسطا يدي الى الإجرام وسفك الدم بغير حق ، فان ذلك يسخطه ويكون سبب عقابه ، لأنه رب العالمين الذي يغذيهم بنعمه ، و يربيهم بفضله و إحسانه ، فالاعتداء على أرواحهم أعظم مفسد لهذه التربية ومعارض لها في بلوغ غاية استعدادها ، ومن يخاف الله لا يعتدي هذا الاعتداء . وهذا الجواب من الأخ التقي يتضمن أبلغ الموعظة وألطف الاستعطاف لأخيه العازم على الجناية، ولا يقال :انه كان يجوز له الدفاع عن نفسه ولو بقتل الصائل عليه-حتى يحتاج الى الجواب بأن شرع آدم لم يكن يبيح ذلك ، فان هذا من الرجم بالغيب ، لأن الدفاع قد يكون بما دون القتل ، وليس في الكلام تصريح بعدم الدفاع البتة ، وانما فيه التصريح بعدم الاقدام على القتل ، وقد قال نبينا (ص) « اذا التقى المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار - قيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال - انه كان حريصا على قتل صاحبه » رواه احمد والشيخان وغيرهم.

ولما كان مثل هذا التأمين والوعظ البليغ لا يؤثر في كل نفس ، تفنّى عليه هذا

الأخ البارّ بالتذكير بعذاب الآخرة ، فقال ﴿ إني أريد ان تبوء بإثمي وإثمك ﴾ أي اني أريد بما ذكرت من اتقاء مقابلة الجناية بمثلها ان ترجع أنت ان فعلتها متلبسا باثمي واثمك . أي إثم قتلك إياي ، وإثمك الخاص بك الذي كان من شؤمه عدم قبول قربانك ، وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس (رض) وفيه وجه آخر وهو انه مبني على كون القاتل يحمل في الآخرة إثم من قتله إن كان له آثام ، لأن الذنوب والآثام التي فيها حقوق للعباد لا يغفر الله تعالى منها شيئا حتى يأخذ لكل ذي حق حقه ، وانما القصاص في الآخرة بالحسنات والسيئات ، فيعطى المظلوم من حسنات الظالم مايساوي حقه إن كان له حسنات توازي ذلك ، أو يحمل الظالم من آثام المظلوم وأوزاره مايوازي ذلك ان كان له آثام وأوزار ، وما نقص من هذا أو ذاك ، يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنة أو النار . وفي ذكر المتكلم اثمه واثم أخيه تواضع وهضم لنفسه باضافة الاثم اليها على الوجه الثاني ، وتذكير للمخاطب بأنه ليس له حسنات توازي هذا الظلم الذي عزم عليه ، ولذلك رتب عليه قوله :

﴿ فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ﴾ أي تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار في الآخرة لأنك تكون ظالما ، والنار جزاء كل ظالم ، فتكون من أهلها حتما - ترقى في صرفه عن عزمه به من التبرؤ اليه من سبب حرمانه من قبول قربانه ببيان سبب التقبل عند الله تعالى وهو التقوى - الى تنزيه نفسه من جزائه على جنايته بمثلها - الى تذكيره بما يجب من خوف الله تعالى رب العالمين الذي لا يرضيه ممن وهبهم العقل والاختيار الا ان يتحروا إقامة سننه في تربية العالم وابلاغ كل حي يقبل الكمال الى كماله - الى تذكيره بأن المعتدي يحمل اثم نفسه وإثم من اعتدى عليه بعدل الله تعالى في القصاص والجزاء - الى تذكيره بعذاب النار ، وكونها مثوى الظالمين الفجار . فماذا كان من تأثير هذه المواعظ ، في نفس ذلك الحاسد الظالم ؟ بين الله ذلك بقوله :

﴿ فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله ﴾ فسروا طوعت بشجعت وهو مأثور عن ابن عباس ومجاهد ، وبوسعت وسهلت وزينت ، ونحو ذلك من الالفاظ التي رويت عن مفسري السلف وعلماء اللغة ، وكل منها يشير الى حاصل المعنى في الجملة ،

ولم أر أحدا شرح بلاغة هذه الكلمة في هذا الموضع ببعض ما أجدها من التأثير في نفسي . وانها لبمكان من البلاغة يحيط بالقلب ويضغط عليه من كل جانب «ق، والقرآن المجيد» ، إنني أكتب الآن، وقلبي يشغلني عن الكتابة بما أجد لها فيه من الأثر والانفعال . ان هذه الكلمة تدل على تدريج وتكرار في حمل الفطرة على طاعة الحسد الداعي الى القتل كتذليل الفرس والبعير الصعب ، فهي تمثل لمن يفهمها ولد آدم الذي زين له حسده لأخيه قتله ، وهو بين إقدام وإحجام ، يفكر في كل كلمة من كلمات أخيه الحكيمة ، فيجد في كل منها صارفا له عن الجريمة ، يدعم ويؤيد ما في الفطرة من صوارف العقل والقرابة والهيبة فيكر الحسد من نفسه الأمّارة ، على كل صارف في نفسه اللوّامة ، فلا يزالان يتنازعان ويتجاذبان حتى يغلب الحسد كلا منها ويجذبه الى الطاعة ، فإطاعة صوارف الفطرة وصوارف الموعظة ، هو التطويع الذي عناه الله تعالى، فلما تم كل ذلك قتله . وهذا المعنى يدل عليه اللفظ ، ويؤيده ما يعرف من حال البشر في كل عصر ، الغرض من هذه بيان شؤون الناس بمقتضى استعدادهم فنحن نرى من أحوال الناس واختبار القضاة للجناة ، ان كل من تحدثه نفسه بقتل أخ له من ابيه القريب أو البعيد (آدم) يجد من نفسه صارفا أو عدة صوارف تنهاه عن ذلك ، فيتعارض المانع والمقتضى في نفسه زمنا طويلا أو قصيرا حتى تطوّع له نفسه القتل بترجيح المقتضي على المانع، فعند ذلك يقتل ان قدر . فالتطويع لابد فيه من التكرار كتذليل الحيوان الصعب ، وتعلم الصناعة أو العلم . وقد يكون التكرار لاجل اطاعة مانع أو صارف واحد ، وقد يكون لاطاعة عدة صوارف وموانع . وأقرب الالفاظ التي قيلت الى هذا المعنى كلمة التشجيع المأثورة ، فهي تدل على أنه كان يهاب قتل أخيه وتجبن فطرته دونه ، فما زالت نفسه الأمارة بالسوء تشجعه عليه حتى تجرأ وقتل عقب التطويع بلا تفكر ولا تدبر للعاقبة ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ أي من جنس الذين خسروا أنفسهم بافساد فطرتها ، وخسروا أقرب الناس اليهم وأبرهم بهم في الدنيا وهو الأخ الصالح التقي، وخسروا نعيم الآخرة اذ لم يعودوا أهلا لها لأنها دار المتقين .

﴿ فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ﴾ لما

كان هذا القتل أول قتل وقع من بني آدم ، ولما كان هـذا النوع من الخلق (أي الانسان) موكولا الى كسبه واختياره في عامة أعماله ، لم يعرف القاتل الاول كيف يواري جثة أخيه المقتول التي يسوءه ان يراها بارزة . ـ فالسوءة ما يسوء ظهوره ، ورؤية جسد الميت ولاسيما المقتول يسوء كل من ينظر اليها ويوحشه . ـ وأما سائر أنواع الحيوان فتلهم عمل ما تحتاج اليه إلهاما في الاكثر ، وقلما يتعلم بعضها من بعض شيئا . وقد علمنا الله تعالى ان القاتل الاول تعلم دفن أخيه من الغراب ، ويدلنا ذلك على أن الانسان في نشأته الأولى كان في منتهى السذاجة ، وانه لاستعداده الذي يفضل به سائر أنواع الحيوان كان يستفيد من كل شيء علما واختبارا ويرتقي بالتدريج .

ذلك بأن الله تعالى بعث غرابا الى المكان الذي هو فيه فبحث في الارض ، أي حفر برجليه فيها يفتش عن شيء ، والمعهود ان الطير تفعل ذلك لطلب الطعام . والمتبادر من العبارة أن الغراب أطال البحث في الارض لأنه قال « يبحث » ولم يقل بحث . والمضارع يفيد الاستمرار . فلما أطال البحث أحدث حفرة في الارض ، فلما رأى القاتل الحفرة — وهو متحير في أمر مواراة سوءة أخيه — زالت الحيرة واهتدى الى مايطلب . وهو دفن أخيه في حفرة من الارض . ـ هذا هو المتبادر من الآية . وقال أبو مسلم : ان من عادة الغراب دفن الاشياء ، فجاء غراب فدفن شيئا فتعلم منه ذلك . وهذا قريب أيضا . ولكن جمهور المفسرين قالوا ان الله بعث غرابين لا واحدا ، وانهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر بمنقاره ورجليه حفرة ألقاه فيها . وما جاء هذا الا من الروايات ، التي مصدرها الاسرائيليات ، على ان مسألة الغراب والدفن لا ذكر لها في التوراة . وفي هذه الروايات زيادات كثيرة لا فائدة لها ولا صحة . واللام في قوله تعالى « ليريه » للتعليل اذا كان الضمير راجعا الى الله تعالى ، أي انه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن . وللصيرورة والعاقبة اذا كان الضمير عائدا الى الغراب .

ولما رأى القاتل الغراب يبحث في الارض ، وتعلم منه سنة الدفن ، وظهر له من ضعفه وجهله ما كان غافلا عنه ، ﴿ قال ياويلتا : أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي ؟ فأصبح من النادمين ﴾ قال جمهور المفسرين : ان « ياويلتا » كلمة

تحسر وتلهف ، وانها تقال عند حلول الدواهي والعظائم . وقال في لسان العرب : والويل حلول الشر ، والويلة الفضيحة والبلية . وقيل هو تفجع . واذا قال القائل: ياويلتاه ! فانما يعني وافضيحتاه ! وكذلك تفسير (ياويلتنا مالهذا الكتاب) اه وهذا هو المعنى الصحيح . والألف في الكلمة بدل ياء المتكلم اذ الأصل : ياويلتي. والنداء للويلة لافادة حلول سببها الذي تحل لأجله حتى كأنه دعاها اليه وقال: أقبلي فقد آن أوان مجيئك ، فهل بلغ من عجزي أن كنت دون الغراب علما وتصرفا ؟ والاستفهام للاقرار والتحسر . وأما الندم الذي ندمه فهو ما يعرض لكل إنسان عقب ما يصدر عنه من الخطإ في فعل فعله اذا ظهر له ان فعله كان شرا له لا خيرا . وقد يكون الندم توبة ، اذا كان سببه الخوف من الله تعالى والتألم من تعدي حدوده ، وقصد به الرجوع اليه . وهذا هو المراد بحديث «الندم توبة» رواه احمد والبخاري في تاريخه والحاكم والبيهقي ، وعلم عليه في الجامع الصغير بالصحة . وأما الندم الطبيعي الذي أشرنا اليه فلا يعد وحده توبة ، والتوبة من احداث البدعة لا تنجي مبتدعها من سوء أثرها . وفي حديث ابن مسعود في الصحيحين مرفوعا « لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم كفل (نصيب) من دمها لانه أول من سن القتل »

﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل ﴾ قال في اللسان - وقد ذكر الآية: وقول العرب فعلت ذلك من أجل كذا ، وأجَل كذا (بفتح اللام) ومن أجلاك (وتكسر الهمزة فيهما) - قال الازهري : « والاصل في قولهم فعلته من أجلاك : أجل عليهم أجلا ، أي جنى وجرّ » ثم قال : وأَجل عليهم شرا يأجله (بضم الجيم وكسرها) أجلا ، جناه وهيجه - وأورد شواهد من الشعر ، ثم قال - أبو زيد : أجلت عليهم آجل أجلا ، أي جررت جريرة ، قال أبو عمر ويقال : جلبت عليهم وجررت وأجلت بمعنى واحد ، أي جنيت . واجل لاهله يأجل ، كسب وجمع واحتال اه وزاد الراغب في مفرداته قيدا في تعريف الاجل فقال : الأجل الجناية التي يخاف منها آجلا ، فكل أجل جناية وليس كل جناية أجلا ، يقال : فعلت كذا من أجله. قال تعالى « من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل » أي من جرّائه . اه وأقول : لاحاجة الى القيد لأن من شأن كل جناية أن يخاف آجلها وتحذر عاقبتها . ومن

تتبع الشواهد والاقوال يرجح معي أن الاجل هو جلب الشيء الذي له عاقبة أو ثمرة وكسبه أو تهييجه . ويعدى باللام . وقد تكون العاقبة حسنة كقولهم : أجل لأهله . وغلب الفعل في الرديء والشر وان عدي باللام ، كقول توبة بن مضرس العبسي :

فان تك أم ابني زميلة أثكلت فيارب أخرى قد أجلت لها ثكلا

ثم استعمل في التعليل مطلقا كما قال عدي بن زيد * أجل أن الله قد فضلكم * - البيت وهو بغير من . ومعنى العبارة انه بسبب ذلك الجرم والقتل الذي أجله أحد هذين الاخوين ظلما وعدوانا لا بسبب آخر كتبنا وفرضنا على بني اسرائيل كيت وكيت . فتقديم الجار والمجرور على « كتبنا » يفيد ان هذا التشديد في تشنيع القتل ، كان بسبب هذه الجناية الدالة على أن البشر عرضة للبغي الشديد الذي يفضي الى القتل بغير حق ، اذا لم يردعهم الوعيد الشديد ، أو خوف العقاب العتيد . ولعل تخصيص بني اسرائيل بالذكر هو الذي أخذ منه الحسن قوله : ان ولدي آدم هذين كانا من بني اسرائيل . والجمهور يقولون : ان هذا التخصيص للتعريض بما كان من شدة حسد اليهود للنبي (ص) وللعرب لانه بعث فيهم ، كما بين الله ذلك في كتابه من قبل ، وبما كان من إسرافهم في البغي ، ومنه قتلهم للانبياء عليهم السلام بغير حق .

وأما هذا الذي كتبه الله عليهم فهو ﴿ انه من قتل نفسا بغير نفس ﴾ أي بغير سبب القصاص الذي شرعه الله تعالى في قوله الآتي في هذه السورة (وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس) أي من قتل نفسا يقتل بها جزاء وفاقا ﴿ أو فساد في الارض ﴾ أو بغير سبب فساد في الارض ، بسلب الأمن ، والخروج على أئمة العدل ، وإهلاك الحرث والنسل ، كما تفعله العصابات المسلحة لقتل الانفس ونهب الأموال ، أو إفساد الأمر على ذي السلطان المقيم لحدود الله . وهو ماسيأتي حكمه قريبا في قوله تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا) الآية ﴿ فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ لان الواحد يمثل النوع في جملته ، فمن استحل دمه بغير حق ، يستحل دم كل واحد كذلك لأنه مثله ، فتكون نفسه ضارية بالبغي ، لاوازع لها من ذاتها ولا من الدين . ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ أي ومن

كان سببا لحياة نفس واحدة بانقاذها من موت كانت مشرفة عليه ، فكأنما أحيا الناس جميعا ، لان الباعث له على انقاذ الواحدة ـ وهو الرحمة والشفقة ، ومعرفة قيمة الحياة الانسانية واحترامها ، والوقوف عند حدود الشريعة في حقوقها ، تندغم فيه جميع حقوق الناس عليه ، فهو دليل على أنه اذا استطاع أن ينقذهم كلهم من هلكة يراهم مشرفين على الوقوع فيها لا يني في ذلك ولا يدخر وسعا . ومن كان كذلك لا يقصر في حق من حقوق البشر عليه . ويلزم من ذلك أنه لو كان جميع الناس أو أكثرهم مثل ذلك الذي قتل نفسا واحدة بغير حق ، لكانوا عرضة للهلاك بالقتل في كل وقت ، ولو كانوا مثل ذلك الذي أحيا نفسا واحدة احتراما لها ، وقياما بحقوقها ، لامتنع القتل بغير الحق من الأرض ، وعاش الناس متعاونين ، بل اخوانا متحابين متوادين . فالآية تعلمنا ما يجب من وحدة البشر وحرص كل منهم على حياة الجميع ، واتقائه ضرر كل فرد ، لأن انتهاك حرمة الفرد ، انتهاك لحرمة الجميع ، والقيام بحق الفرد من حيث أنه عضو من النوع ، وما قرر له من حقوق المساواة في الشرع ، قيام بحق الجميع . وقد غفل عن هذا المعنى العالي من جعل التشبيه في الآية مشكلا يحتاج الى التخريج والتأويل .

وقد بينا من قبل أن القرآن كثيرا ما يهدينا الى وحدة الأمة ووجوب تكافلها بمثل اسناد عمل المتقدمين منها الى المتأخرين ، ووضع اسم الأمة أو ضميرها ، في مقام الحكاية أو الخطاب لبعض افرادها . ومن ذلك ما تقدم في تفسير (٤ : ٢٨ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم . ولا تقتلوا أنفسكم) فقد قلنا هنالك ـ بعد ايراد عدة آيات في هذا المعنى بمثل هذا التعبير ، وبيان كونه يدل على وحدة الامة وتكافلها ـ ما نصه : بل علمنا القرآن ان جناية الانسان على غيره تعد جناية على البشر كلهم ، لا على المتصلين معه برابطة الامة الدينية أو الجنسية أو السياسية فقط بقوله عز وجل «من قتل نفسا بغير نفس» الآية

وروي ان وجه التشبيه هو القصاص ، فمن قتل نفسا واحدة كمن قتل كل الناس في كونه يقتل قصاصا بالواحدة وبالكثير ، اذ لا عقوبة فوق القتل . رواه ابن جرير عن ابن زيد عن أبيه . ولا يظهر هذا المعنى في الاحياء . والمروي عن ابن

زيد فيه أن ولي الدم اذا عفا عن القاتل كان له من الاجر مثل اجر من احيا الناس جميعا . وقيل مثل هذا في القتل ،وهو ان اثم قتل النفس الواحدة مثل اثم قتل جميع الناس وجزاؤهما واحد. وقد بين في سورة النساء . وعن ابن عباس ان المراد بالنفس في الموضعين نفس النبي او الامام العادل، وإحياؤها نصره وشد عضده . وهو صحيح المعنى لان قتل المصلح او انقاذه ونصره يؤثر في الأمة كلها. ولكن اللفظ يأباه وما اراه يصح عن ابن عباس . وروي عنه غيره ، ومنه ان من حرم قتل نفس بدون حق حيي الناس جميعا منه. وقيل ان المعني ان من قتل نفسا كان قتلها كقتل الناس جميعا عند المقتول و بالنسبة اليه ، ومن انقذها من القتل كان عند المنقذ كاحياء الناس جميعا . روى هذه الاقوال ابن جرير واختار منها ان وجه التشبيه في القتل هو عقاب الآخرة ، وفي الإحياء انه سلامة الناس ممن يحرّم على نفسه قتل النفس التي حرمها الله . وما قلناه أولا اوضح واجمع للمعاني .

ومن الغرائب ان هذه الحكمة العالية من جملة ما نسي بنو اسرائيل من أحكام دينهم ، اذ فقدت التوراة ثم كتبوا مابقي في حفظهم من أحكامها . فاما قصة ابني آدم فهي في الفصل الرابع من سفر التكوين ، وملخصها ان قايين لما قدم قربانا للرب من ثمرات الأرض ، وقدم هابيل قربانا من أبكار غنمه، ونظر الرب الى هابيل وقربانه دون اخيه ، اغتاظ قايين وقتل هابيل، فسأله الرب عنه: اين هو؟ فأجاب : لاأعلم وهل أنا حارس لأخي ؟ فلعنه الرب ؟ وطرده عن وجه الأرض! فندم واسترحم الرب وخاف ان يقتله كل من وجده !! (١٥- فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقايين علامة لكي لايقتله كل من وجده (!!) فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن !!) وفي الفصل التاسع منه أن نوحا قال لابنيه (٦ سافك دم الانسان بالانسان يسفك دمه ، لأن الله على صورته عمل الانسان) وفي الفصل الحادي والعشرين من سفر الخروج ان من قتل انسانا عمدا يقتل ، ومن بغي على صاحبه ليقتله بغدر « فمن عند مذبحي تأخذه الموت » ومن ضرب أباه أو أمه أو شتمهما أو سرق إنسانا و باعه أو وجد في يده يقتل. فأسباب القتل عندهم كثيرة ،ولم تكن

هذه الشدة رادعة لهم عن القتل بغير حق حتى قتل الانبياء، فهل يكثر عليهم ما كانوا عزموا عليه من قتل النبي المصطفى غدرا ؟ لا ، لا . ولهذا قال تعالى فيهم :

﴿ واقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الارض لمسرفون ﴾ أي لم تغن عنهم بينات الرسل ولاهذبت نفوسهم، بل كان كثير منهم بعد ذلك الذي ذكر من التشديد عليهم في أمر القتل ومن مجيء الرسل بالبينات يسرفون في الأرض بالقتل وسائر ضروب البغي. أكد إثبات وصف الاسراف لكثير منهم تأكيدا بعد تأكيد ، لأن تشديد الشريعة وتكرار بينات الرسل كانت تقتضي عدم ذلك أو ندوره . والحكم على الكثير دون جميع الامة من دقة القرآن في الصدق وتحديد الحقائق. وهذا الرسوخ في الاسراف لايمكن ان يعم افراد الامة ، والناس يطلقون وصف الكثير على الجميع في الغالب. والاسراف مجاوزة الحد في العمل، أي حد الحق والمصلحة ، ويعرف ذلك بالشرع في الامور الشرعية ، و بالعقل والعرف في غير ذلك وفي القوم الذين ليس لهم شرع ، وكل مايتجاوز فيه الحد يفسد . والاصل في معنى الاسراف الافساد ، فهو من السرفة وهي (بالضم) الدودة التي تأكل الشجر والخشب . واذا كان الاسراف في فعل الخير يجعله شرا ، كالنفقة الواجبة والمستحبة التي تذهب بالمال كله ، فتفسد على صاحبها أمر معاشه. فما بالك بالاسراف في الشر ، وهو المبالغة وتجاوز ما اعتاده الاشرار فيه ؟ واما قوله تعالى في سورة بني اسرائيل (فلا يسرف في القتل) فهو نهي لولي المقتول أن يتجاوز حد القصاص الى قتل غير القاتل ، أو تعذيب القاتل والتمثيل به .

وا كبر العبر في الآية ان قصة ابني آدم اقدم قصة تدلنا على أن الحسد كان مثار اول جناية في البشر ، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس امر اجتماعهم ، من اجتماع العشيرة في الدار - الى اجتماع القبيلة ، الى اجتماع الدولة فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه في النسب أو الجنس أو الدين وهو لم يتعرض لمثلها ليناها ، فيبغي على أخيه ولو بما فيه شقاؤه هو . وأ كبر الموانع لارتقاء المسلمين الآن هو الحسد والعياذ بالله تعالى من اهله لعنة الله عليهم ، لان الامم لا ترتقي الا بنهوض المصلحين بها ، وكلما قام فينا مصلح تصدى الحاسدون لاحباط عمله .

من قرأ الآية وفهم مافيها من تعليل تحريم القتل بغير حق ، وكون هذا الحق لايعدو القصاص ومنع الافساد في الارض ، يتوجه ذهنه لاستبانة العقاب الذي يؤخذ به المفسدون حتى لايتجرأ غيرهم على مثل فعلهم ، فبين الله ذلك العقاب بقوله:

(٣٦) إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ . ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٧) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ، فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

اختلف نقلة التفسير المأثور فيمن نزل فيهم هاتان الآيتان ، على ماهو ظاهر من اتصالهما بما قبلهما اتم الاتصال . روى أحمد والبخاري ومسلم واصحاب السنن عن أنس ان ناسا من عكل وعرينة قدموا على النبي (ص) وتكلموا بالاسلام ، فاستوخموا (١) المدينة فأمرهم النبي (ص) بذود (٢) وراع ، وأمرهم ان يخرجوا فليشربوا من أبوالها وألبانها . فانطلقوا حتى اذا كانوا بناحية الحرة كفروا بعد اسلامهم ، وقتلوا راعي النبي (ص) واستاقوا الذود . فبلغ ذلك النبي (ص) فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم (٣) وقطعوا أيديهم ، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم . زاد البخاري ان قتادة الراوي للحديث عن أنس قال : بلغنا ان النبي (ص) بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة .

(١) استوخموا المدينة معناه وجدوها وخمة ، أي رديئة المناخ ، والوخم بالتحريك حصول التخمة ، وهي سوء الهضم وفساد الطعام في الجوف . وأصل هذه المادة قولهم : أرض وخمة (بفتح الاول وسكون الثاني وكسره) أي لاينجع كلأها . وفي رواية اجتووها بدل استوخموها . أي كرهوا الاقامة فيها ولعله لما لهم من سوء النية ، فانه يقال اجتوى البلدة اذا كره الاقامة فيها وان كان في نعمة ، ويحتمل انهم احتالوا بدعوى الوخم وسوء الهضم اذ عللوا ذلك بأنهم أهل ضرع لا أهل ريف ولكن روي انهم كانوا مرضى (٢) الذود من الابل كالبضع وهو من ٢ الى ٩ واستعمل في الجمع مطلقا . وقيل هو خاص بالاناث (٣) سمرها كحلها بمسامير الحديد المحماة . وفي رواية فسملوا وهي بمعنى الاولى

وفي رواية لاحمد والبخارى وأبي داود قال قتادة فحدثني ابن سيرين أن ذلك كان قبل ان تنزل الحدود (أي في الآية التي نحن بصدد تفسيرها) وروى أبو داود والنسائي عن أبي الزناد أن رسول الله (ص) لما قطع الذين سرقوا لقاحه وسمل أعينهم بالنار، عاتبه الله في ذلك فانزل « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا » الآية . وفي القصة روايات أخرى مفصلة . ومنها انه أباح لهم إبل الصدقة كلها في غدوها ورواحها

وروى ابو داود والنسائي عن ابن عباس في الآية قال: نزلت في المشركين منهم، من تاب قبل أن يقدر عليه لم يكن عليه سبيل، وليست تحرر هذه الآية الرجل المسلم من الحد ان قتل أو أفسد في الارض، أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدروا عليه، لم يمنعه ذلك ان يقام فيه الحد الذي أصابه. (ومثله عند ابن جرير عن الحسن) وروى ابن جرير والطبراني في الكبير عن ابن عباس أيضا انه قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين رسول الله (ص) عهد وميثاق، فنقضوا العهد، وأفسدوا في الارض، فخير الله نبيه فيهم، ان شاء ان يقتل وان شاء ان يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وفي بعض الروايات زيادة الا من أسلم قبل أن يؤخذ . وروى ابن جرير أيضا ما تقدم من كون الآية نزلت عتابا للنبي (ص) على سمل أعين العرنيين وقطع أيديهم وتركها بدون حسم فكانت الآية تحريما للمثلة عند هؤلاء . على انه ثبت انه كان (ص) ينهى عن المثلة قبل نزول المائدة . وروى عن آخرين انه (ص) كان أمر بسمل أعينهم وقطعهم كما فعلوا بالراعي المسلم - وفي بعض الروايات الرعاة بالجمع - فنزلت الآية فترك ذلك ولم يفعله.

وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال بعضهم انه خاص بمثل من نزلت فيهم من الكفار مطلقا ؟ اوالذين غدروا من اليهود، أو الذين خدعوا النبي والمسلمين بإظهار الاسلام حتى اذا تمكنوا من الافساد بالقتل والسلب عادوا الى قومهم وأظهروا شركهم معهم . وذهب أكثر الفقهاء الى انها خاصة بمن يفعلون هذه الافعال من المسلمين، وكأنهم اعتدوا بما أظهره العرنيون من الاسلام . ورووا عدة روايات

في تطبيق الآية على الخوارج ، بل قالوا انها نزلت فيهم .

والظاهر المتبادر بصرف النظر عن الروايات المتعارضة انها عامة لكل من يفعل هذه الافعال في دار الاسلام اذا قدرنا عليهم وهم متلبسون بها بالفعل او الاستعداد. وقد قال الذين جعلوها خاصة بالمسلمين : ان أحكام الكفار في الحرب معروفة بالنصوص والعمل ، وليس فيها هذه الدرجات في العقاب . وجوابه ان هذا العقاب خاص بمن فعل تلك الافعال ، فلا يقتضي ذلك ان يتبع في حرب كل من حاربنا من الكفار . وقال بعضهم: ان استثناء من تابوا قبل القدرة عليهم دليل على ارادة المسلمين ، لان الكفار لا يشترط في توبتهم ان تكون قبل القدرة عليهم . ويجاب عن هذا أن التوبة من هذا الافساد هي التي يشترط فيها ان تكون قبل القدرة عليهم ، لا التوبة من الكفر .

ومجموع الروايات في قصة العرنيين تفيد انهم جعلوا الاسلام خديعة للسلب والنهب ، وانهم سملوا أعين الرعاة ثم قتلوهم ومثلوا بهم ، وفي بعضها أنهم اعتدوا على الاعراض أيضا وان النبي (ص) عاقبهم بمثل عقوبتهم عملا بقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله) ان صح أن الآية نزلت بعد عقابهم . ولم يعف عنهم كعادته لئلا يتجرأ على مثل فعلتهم امثالهم من اعراب المشركين وغيرهم ، فأراد بذلك القصاص وسدّ الذريعة ، وان الله تعالى انزل الآية بهذا التشديد في العقاب على مثل هذا الافساد ، لهذه الحكمة ، وهي سد ذريعة هذه المفسدة ، ولكنه حرم مع ذلك كله المثلة ، وهي تشويه الاعضاء . ولا مفسدة اشد وأقبح من سلب الامن على الانفس والاعراض والاموال الناطقة والصامتة . فرب عصبة من المفسدين تسلب الامان والاطمئنان من اهل ولاية كبيرة . ورب عصبة مفسدة تعاقب بهذه العقوبات المنصوصة في الآية تطهر الارض من أمثالها زمنا طويلا .

والتشديد في سدّ الذرائع ركن من اركان السياسة لا تزال جميع الدول تحافظ عليه ، حتى ان بعضهم يحكم الوهم فيه . ومن الأمر الإدّ ، ما اجترحته

انكلترة في مصر بهذا القصد ، اذ مر بقرية (دنشواي) منذ سنين قليلة افراد من جند الانكليز كانوا يصيدون الحمام عند بيدرها (١) فتخاصموا مع أصحاب الحمام وتضاربوا ، فعظم على الانكليز تجرؤ الفلاح المصري ، على ضرب الجندي الانكليزي ، فعقدوا المحكمة العرفية لمحاكمة أولئك الفلاحين برياسة بطرس باشا غالي ، فحكمت على بعض أولئك الفلاحين بأن يصلبوا و يعذبوا بالضرب بالسياط (الكرابيج) ذات العقد حتى تتناثر لحومهم ، وأن يبقوا مصلوبين بعد موتهم مدة طويلة ،وأن يكون ذلك على أعين أهليهم وأعين الناس . وقد أنكر هذه القسوة واستفظعها بعض أحرار الانكليز في بلادهم وشنعوا عليها في الجرائد وفي مجلس النواب . ومثل هذه الحادثة لا تعد من الخروج على ذي السلطان ، ولا من الفساد في الأرض . ولكن قصد الانكليز بالقسوة فيها أن لا يتجرأ أحد على مقاومة جندي انكليزي وان اعتدى . فاين هذا من عدل الاسلام . الذي ساوى خليفته عمر بن الخطاب بين ابن فاتح مصر وقائد جيشها وحاكمها العام (عمرو بن العاص) وبين غلام قبطي ، اذ تسابقا فسبق القبطي ابن الحاكم فصفعه هذا وقال أتسبقني وانا ابن الاكرمين ؟ فلما رفع الأمر الى عمر (رض) لم يرض الا ان يصفع القبطي ابن الفاتح الحاكم كما صفعه . وقال لعمرو كلمته الذهبية المشهورة : ياعمرو ! منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ ولكن المسلمين لما تركوا حكم الاسلام صاروا يطلبون من الانكليز وممن دون الانكليز ان يعلموهم العدل وقوانينه ! !

أما تفسير الآية فهو ما ترى :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله و يسعون في الارض فسادا ﴾ أي ان جزاء الذين يفعلون ماذكر محصور فيما يذكر بعده من العقوبات على سبيل الترتيب والتوزيع على جناياتهم ومفاسدهم ، لكل منها ما يليق بها من العقوبة

والمحاربة مفاعلة من الحرب وهي ضد السلم. والسلم السلام أي السلامة من الأذى والضرر والآفات، والامن على النفس والمال . والاصل في معنى كلمة الحرب التعدي

(١) دنشواي قرية من المنوفية . والبيدر محل دوس الحصيد واستخراج الحب منه . ويسمى جرنا .

وسلب المال . لسان العرب : الحرب بالتحريك ان يسلب الرجل ماله ، حربه يحربه (بوزن طلب . وكذا بوزن تعب) اذا أخذ ماله، فهو محروب وحريب ، من قوم حربى وحرباء . ثم قال حريبة الرجل ماله الذي يعيش به . والحرب (بالتحريك) أخذ الحريبة، فهو ان يأخذ ماله ويتركه بلا شيء يعيش به، اه فأنت ترى ان الحرب والمحاربة ليس مرادفا للقتل والمقاتلة . وانما الاصل فيها الاعتداء والسلب وازالة الأمن . وقد يكون ذلك بقتل وقتال وبدونهما . وقد ذكر القتل والقتال في القرآن في أكثر من مئة آية . وأما المحاربة فلم تذكر الا في هذه وفي قوله تعالى في بيان علة بناء المنافقين لمسجد الضرار (وارصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل) قال رواة التفسير المأثور أي وترقبا وانتظارا للذي حارب الله ورسوله من قبل بناء هذا المسجد ، وهو أبو عامر الراهب ، فانه كان شديد العداوة للاسلام ووعد المنافقين بأن يذهب ويأتيهم بجنود من عند قيصر للايقاع بالنبي (ص) والمؤمنين . فمحاربة هذا الراهب من قبل كانت باثارة الفتن لا بالقتال والنزل . وأما لفظ « الحرب » فقد ذكر في أربعة مواضع من أربع سور . منها إعلام المصرّين على الربا بأنهم في حرب لله ورسوله بأكلهم أموال الناس بالباطل . والباقي بالمعنى المشهور ، وهو ضد السلم . وكان أهل البوادي ــ ولا يزالون ــ يغزو بعضهم بعضا لاجل السلب والنهب . وقد جعل الفقهاء كتاب المحاربة ــ ويقولون الحرابة أيضا ــ غير كتاب الجهاد والقتال . وجعلوا الاصل فيها هاتين الآيتين . وعرفوها بأنها اشهار السلاح وقطع السبيل ، واشترط بعضهم كالشافعي ان يكون ذلك من أهل الشوكة . (كالذين يؤلفون العصابات المسلحة للسلب والنهب وقتل من يعارضهم، أو لمقاومة السلطة ابتغاء الفتنة والفساد) واشترطوا فيها شروطا سنشير الى المهم منها .

أما كون هذا النوع من العدوان محاربة لله ولرسوله فلأنه اعتداء على شريعة السلم والأمان ، والحق والعدل الذي أنزله الله على رسوله ، فمحاربة الله ورسوله هي عدم الاذعان لدينه وشرعه في حفظ الحقوق، كما قال تعالى في المصرّين على أكل الربا (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) وليس معناه محاربة المسلمين ، كما قال بعض

المفسرين. فمن لم يذعنوا للشرع فيما يخاطبهم به في دار الاسلام (١) يعدون محاربين لله ورسوله عليه السلام، فيجب على الامام، الذي يقيم العدل ويحفظ النظام، ان يقاتلهم على ذلك (كما فعل الصديق رضي الله عنه بمانعي الزكاة) حتى يفيئوا ويرجعوا الى أمر الله، ومن رجع منهم في أي وقت يقبل منه ويكف عنه. ولكن اذا امتنعوا على امام العدل المقيم للشرع، وعثوا إفسادا في الارض، كان جزاؤهم ما بينه الله في هذه الآية. فقوله تعالى « ويسعون في الارض فسادا » متمم لما قبله، أي يسعون فيها سعي فساد، أو مفسدين في سعيهم لما صلح من أمور الناس، في نظام الاجتماع وأسباب المعاش.

والفساد ضد الصلاح، فكل مايخرج عن كيانه الذي يكون به صالحا نافعا يقال انه قد فسد. ومن عمل عملا كان سببا لفساد شيء من الاشياء يقال انه أفسده، فإزالة الامن على الانفس او الاموال او الاعراض، ومعارضة تنفيذ الشريعة العادلة واقامتها — كل ذلك افساد في الارض. روى عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ان الفساد هنا الزنا والسرقة وقتل الناس واهلاك الحرث والنسل. وكل هذه الاعمال من الفساد في الارض، واستشكل بعض الفقهاء قول مجاهد بأن هذه الذنوب والمفاسد لها عقوبات في الشرع غير ما في الآية، فللزنا والسرقة والقتل حدود، واهلاك الحرث والنسل يقدر بقدره ويضمنه الفاعل، ويعزره الحاكم بما يؤديه اليه اجتهاده. وفات هؤلاء المعترضين ان العقاب المنصوص في الآية خاص بالمحاربين من المفسدين الذين يكاثرون اولي الامر، ولا يذعنون لحكم الشرع، وتلك الحدود انما هي للسارقين والزناة افرادا، الخاضعين لحكم الشرع فعلا، وقد ذكر حكمهم في الكتاب العزيز بصيغة اسم الفاعل المفرد كقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما * الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) وهم يستخفون بأفعالهم، ولا يجهرون بالفساد حتى ينتشر بسوء القدوة بهم، ولا يؤلفون له العصائب ليمنعوا انفسهم من الشرع بالقوة. فلهذا لا يصدق عليهم أنهم محاربون الله ورسوله ومفسدون، والحكم هنا منوط بالوصفين معا. واذا

(١) الشرع يخاطب المسلم بحقوق الله والناس، والذمي والمعاهد بحقوق الناس فقط،

اطلق الفقهاء لفظ المحاربين فانما يعنون به المحاربين المفسدين . لان الوصفين متلازمان.

ولا تتحقق محاربة الله ورسوله بمحاربة الشرع ومقاومة تنفيذه ، وافساد النظام على اهله، الا في دار الاسلام ، وللكفار في دار الحرب احكام أخرى كما قال الفقهاء ، واحكامهم تذكر في كتاب الجهاد لا في كتاب المحاربة او الحرابة كما تقدم . وقد فطن لهذا المعنى بعضهم ولم يتضح له تمام الاتضاح فاشترط ان يكون المحاربون المفسدون من المسلمين كما تقدم . والصواب ان يكون إفسادهم في دار الاسلام، ولا فصل حينئذ فيهم بين ان يكونوا مسلمين او ذميين او معاهدين او حربيين ، كل من قدرنا عليه منهم نحكم بينهم بهذه الآية .

وقد اختلف الفقهاء في تعريف المحاربين فروى ابن جرير وغيره عن مالك ابن أنس انه قال : المحارب عندنا من حمل السلاح على المسلمين في مصر او خلاء ، فكان ذلك منه على غير ثائرة كانت بينهم ولا دخل ولا عداوة ، قاطعا للسبيل والطريق والديار ، مخيفا لهم بسلاحه . وذكر ان من قتل منهم قتله الامام ، ليس لولي المقتول فيه عفو ولا قود

وقال ابن المنذر : اختلفت الرواية في مسألة اثبات المحاربة في المصر عن مالك فأثبتها مرة ونفاها أخرى نقول: والصواب الإثبات لأنه المعروف في كتب مذهبه . وانما اشترط انتفاء العداوة وغيرها من الاسباب ليتحقق كون ذلك محاربة للشرع ومقاومة للسلطة التي تنفذه . وفي حاشية المقنع من كتب الحنابلة تلخيص لمذاهب الفقهاء في ذلك هذا نصه :

« يشترط في المحاربين ثلاثة شروط (١) أن يكون معهم سلاح ، فان لم يكن معهم سلاح فليسوا محاربين لأنهم لا يمنعون من يقصدهم . ولا نعلم في هذا خلافا . فان عرضوا بالعصي والحجارة فهم محاربون وهو المذهب وبه قال الشافعي وابو ثور . وقال ابو حنيفة ليسوا محاربين (٢) ان يكون ذلك في الصحراء ، فان فعلوا ذلك في البنيان لم يكونوا محاربين في قول الخرقي ، وجزم به في الوجيز ، وبه قال ابو حنيفة والثوري واسحق ، لان الواجب يسمى حد قطاع الطريق ، وقطع الطريق انما هو في الصحراء ، ولان في المصر يلحق الغوث غالبا فتذهب شوكة المعتدين ويكونون

مختلسين . والمختلس ليس بقاطع ولا حد عليه. وقال ابو بكر : حكمهم في المصر والصحراء واحد .وهو المذهب . وبه قال الاوزعي والليث والشافعي وأبو ثور : لتناول الآية بعمومها كل محارب، ولانه في المصر اعظم ضررا فكان اولى (٣) ان يأتوا مجاهرة ويأخذوا المال قهرا ، فاما ان اخذوه مختفين فهم سراق، وان اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذلك ان خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئا ، لانهم لا يرجعون الى منعة وقوة . وان خرجوا على عدد يسير فقهروهم فهم قطاع طريق » اه

قال بعض المفسرين المستقلين بالفهم: ان اكثر الشروط التي اشترطها الفقهاء في هذا الباب لا يوجد لها أصل في الكتاب ولا في السنة . ونحن نقول : ان الآية تدل دلالة صريحة على ان هذا العقاب خاص بمن يفسدون في الأرض ، بالسلب والنهب أوالقتل،أو اهلاك الحرث والنسل، ومثل ذلك أومنه الاعتداء على الاعراض، اذا كانوا محاربين لله ورسوله ، بقوة يمتنعون بها من الإذعان والخضوع لشرعه، ولا يتأتى ذلك الا حيث يقام شرعه العادل من دار الاسلام . فمن اشترط حملهم السلاح أخذ شرطه من كون القوة التي يتم بها ذانك الامران انما هي قوة السلاح . وهو لو قيل له انه يوجد أو سيوجد موادّ تفعل في الافساد والاعدام وتخريب الدور ، وكذا في الحماية والمقاومة اشد مما يفعل السلاح (كالديناميت المعروف الآن) ألا تراه في حكم السلاح ؟ يقول بلى : ومن اشترط خارج المصر ، راعى الاغلب ، أو اخذ من حال زمنه ان المصر لا يكون فيه ذلك . وما اشترط احد شرطا غير صحيح ، أو غير مطرد الا وله وجه انتزعه منه .

أما ذلك الجزاء الذي يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين بالقوة فهو ﴿ أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ التقتيل هو التكثير أو التكرار أو المبالغة في القتل ، فأما معنى التكرار او التكثير فلا يظهر الا باعتبار الافراد ، كأنه يقول : كلما ظفرتم بمن يستحق القتل منهم فاقتلوه . واما المبالغة فتظهر بكون القتل حتما لا هوادة فيه ولا عفو من ولي الدم ، وقد صرح بعض الفقهاء بأن المحاربين المفسدين اذا قدرنا على القاتل منهم نقتله وان

عفا عنه ولي الدم أو رضي بالدية . والتصليب التكرار أو المبالغة في الصلب ، فيقال فيه ما قيل في التقتيل. ويمكن تكرار صلب الواحد على قول من قال : ان الصلب يكون بعد القتل لأجل العبرة ، فيصلب المجرم في النهار وتحفظ جثته ليلا ، ثم يصلب في النهار. قال الشافعي يصلب بعد القتل ثلاثة أيام . والظاهر انهم يصلبون أحياء ليموتوا بالصلب كما قال الجمهور ، والا لم يكن الصلب عقوبة ثانية • وأصل معنى الصلب (بالتحريك) والصليب في اللغة الودك (الدهن) أو ودك العظام التي بعد صلب الظهر جذع شجرتها والصديد الذي يخرج من بدن الميت • قال في اللسان : والصلب مصدر صلبه يصلبه (بكسر اللام) صلبا ، واصله من الصليب وهو الودك أو الصديد ... والصلب هذه القتلة المعروفة مشتق من ذلك ، وقد صلبه يصلبه صلبا ، وصلّبه ، شدد للتكثير ... والصليب المصلوب اه ولهذا سمي الشكل الذي يشبه المصلوب صليبا .

واما تقطيع الأيدي ولأرجل من خلاف ، فمعناه اذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى • وفي هذا نوع ما من التكرار فصيغة التفعيل فيه أظهر مما قبله . وما قطع من يد أو رجل يحسم في الحال كما جرى عليه العمل. والحسم كي العضو المقطوع بالنار أو بالزيت وهو يغلي لكيلا يستنزف الدم ويموت صاحبه . وفي معنى الحسم كل علاج يحصل به المراد ، وربما كان الافضل ما كان اسرع تأثيرا وأقل إيلاما وأسلم عاقبة ، عملا بحديث « ان الله كتب الاحسان على كل شيء . فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » رواه احمد ومسلم واصحاب السنن الاربعة عن شداد بن أوس

واما النفي من الأرض فيحتمل لفظ الآية فيه ان يكون عقوبة معطوفة على ما قبلها .وان يكون « أو » بمعنى « الا ان» أي جزاؤهم ماذكر قبل الا ان ينفوا من الأرض ، بالمطاردة ويخرجوا من دار الاسلام الى دار الحرب التي لا حكم ولا سلطان للاسلام فيها . وهذا قول ابن عباس رواه ابن جرير عنه وعن السدي • وعن الليث بن سعد ومالك بن أنس أنهم يطلبون حتى يؤخذوا أو يضطرهم الطلب الى دار الكفر والحرب اذا كانوا مرتدين • وأن المسلم لا يضطر الى الدخول في

دار الكفر . والمعنى على القول الاول المختار أن ينفى المحاربون من بلدهم أو قطرهم الذي أفسدوا فيه الى غيره من بلاد الاسلام – أي اذا كانوا مسلمين ، فاذا كانوا كفارا جاز نفيهم الى بعض بلاد الاسلام والى بلاد الكفر، لأن لفظ الأرض في الآية يحتمل ان يكون التعريف فيها لبلاد الاسلام، وان يكون لما وقع فيه الفساد منها . وحكمة نفيهم الى غير تلك الأرض فيها فوائد وراء كون النفي عقابا ، وهي ان بقاءهم في الأرض التي أفسدوا فيها يذكرهم ويذكر أهلها دائما بما كان منهم، وهي ذكرى سيئة قد تعقب ما لاخير فيه . وروى ابن جرير هذا التفسير للنفي عن سعيد بن جبير وعمر بن عبد العزيز . وقيل: ينفى الى بلد آخر فيسجن فيه الى ان تظهر توبته ، وهو رواية ابن القاسم عن مالك . وقيل : ان النفي هو السجن وهو مذهب أبي حنيفة ، وهو اغرب الاقوال . والحبس عقوبة غير عقوبة النفي والاخراج من الأرض تحتاج الى دليل . والمقام مقام بيان حدود الله لا التعزير المفوض الى أولي الامر . وقد ورد ذكر العقوبتين في بيان الله لنبيه ما كان يكيد له المشركون بمكة، وذلك قوله تعالى في سورة الانفال ٨: ٣٠ (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) روى أصحاب التفسير المأثور ان عمه أبا طالب سأله : هل تدري ما ائتمروا بك ؟ قال (ص) «يريدون ان يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني»

هذه أربع عقوبات للمحاربين المفسدين في الأرض ، اختلف علماء السلف في كيفية تنفيذها فقال بعضهم: هي للتخيير ، فللامام ان يحكم على من شاء من المحاربين المفسدين عند التمكن منهم بما شاء منها ، وقال الجمهور : انها للتفصيل لا للتخيير ، جعل الله لهذا الافساد درجات من العقاب لأن افسادهم متفاوت ، منه القتل ومنه السلب ومنه هتك الاعراض ، ومنه اهلاك الحرث والنسل - أي قطع الشجر وقلع الزرع وقتل المواشي والدواب - ومنهم من يجمع بين جريمتين أو أكثر من هذه المفاسد. فليس الإمام مخيرا في معاقبة من شاء منهم بما شاء منها ، بل عليه ان يعاقب كلا بقدر جرمه ودرجة إفساده ، ثم اختلفوا في تقدير هذه العقوبات بقدر الجرائم اختلافا كثيرا ، وجاؤا فيه بفروع كثيرة ترجع الى الرأي والاجتهاد في التقدير ومراعاة ماورد من الحدود على بعض هذه الاعمال، كقتل القاتل، وقطع آخذ المال

لأنه كالسارق ، والجمع بين القتل والصلب ، لمن جمع بين القتل والسلب ، والنفي لمن أخاف السبيل ولم يقتل ولا أخذ مالا . وقد روي هذا عن ابن عباس و بعض علماء التابعين . وأنت ترى أن الآية لاتدل عليه ولاتنفيه ، فهو اجتهاد حسن في كيفية العمل بها، ولكنه غير كاف لأن المفسدين في الأرض بالقوة أعمالا أخرى اشرنا الى أمهاتها آنفا . فاذا قامت عصبة مسلحة من الاشقياء بخطف العذارى أو المحصنات لأجل الفجور بهن ، أو بخطف الأولاد لأجل بيعهم أو فديتهم ، فلا شك أنها تعد من المحار بين المفسدين، فما حكم الله فيهم ؟

ان الآية حددت لعقاب المفسدين بقوة العصبية أربعة انواع من العقوبة وتركت لأولي الأمر الاجتهاد في تقديرها بقدر جرائمهم، فلاهي خيرت الامام بأن يحكم بما شاء منها على من شاء بحسب هواه ، ولاهي فصلت وجعلت لكل مفسدة عقوبة معينة منها . والحكمة في عدم تعيين الآية وتفصيلها لذلك هي ان هذه المفاسد كثيرة وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، وضررها يختلف كذلك . والفروع تكثر فيها حتى ان تفصيلها لايمكن الا في صحف كثيرة . ومن خصائص القرآن أنه كتاب هداية روحية ، ليس لأحكام المعاملات الدنيوية منه الا الحظ القليل ، اذ وكل أكثرها الى أولي الامر من المؤمنين ، و بين - بايجازه المعجز - الضروري منها بعبارة يؤخذ من كل آية منها ما يملأ عدة صحف ، كهذه الآية وآيات المواريث . والقاعدة في الاسلام أن مالا نص فيه بخصوصه يستنبط أولو الأمر حكمه من النصوص والقواعد العامة في دفع المفاسد وحفظ المصالح . والعلماء المستقلون من أولي الامر ، فلهذا بينوا ما وصل اليه اجتهادهم ، ليسهلوا على الحكام من أولي الامر فهم النصوص ، ويمهدوا لهم طرق الاجتهاد . ولهذا اختلفت الاقوال . ولو كان مسلمو هذا العصر كمسلمي السلف لفعل أئمتهم كما كان يفعل عمر بن الخطاب في خلافته من جمع أولي الامر (أهل الحل والعقد من العلماء وكبراء الصحابة) للتشاور في كل مالا نص فيه ولا سنة متبعة . ولاستشاروهم في تقدير هذه العقوبات بقدر تأثير المفاسد وضررها . وانفذوا ما يتقرر بعد الشورى في كل ما حدث من فروع هذه المفاسد . (راجع تفسير « ٤ : ٥٨ اطيعوا الله

وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم » ص١٨١ — ٢٢١ ج ٥)

وعلم بهذا الذي قررناه ان كل قول قاله علماء السلف له وجه ، وان رد بعضهم قول بعض . فمن قال ان الامام مخير فوجهه ما يدل عليه العطف بأو ، لا يعني بالتخيير ان له الحكم بالهوى والشهوة ، بل بالاجتهاد ومراعاة ماتدرأ به المفسدة ، وتقوم المصلحة ، ولا ينافي ذلك المشاورة في الامر ، كيف وهي القاعدة الاساسية للحكم ؟ ومن وضع كل عقوبة بازاء عمل من اعمال المفسدين فانما بين رأيه واجتهاده في الحكم الذي يدرأ المفسدة وتقوم به المصلحة، كما يبينون فهمهم واجتهادهم في غير ذلك من المسائل ، ولا يوجبون بل لا يجيزون لاحد من حاكم أو غيره ان يتخذ فهمهم أو رأيهم دينا يتبع ، وانما هو إعانة للباحث والناظر على العلم ، فان المستقل في طلب العلم اذا نظر في مسألة لم يعرف لغيره رأيا فيها ، يكون مجال نظره أضيق من مجال من عرف أقوال الناس وآراءهم ، وكم من عالم مجتهد قال في مسألة قولا ثم رجع عنه بعد وقوفه على قول غيره من العلماء ، إما الى رأيهم وإما الى رأي جديد ؟ وعلى هذه القاعدة كان للشافعي مذهب قديم ومذهب جديد . فلا يغرنك قول بعض العلماء المستقلين إن أكثر ماقالوه ليس له أصل من كتاب ولا سنة (١)

اذا علمت هذا فهاك اشهر أقوال الفقهاء في المسألة . قال صاحب (المقنع) من كتب الحنابلة في باب قطاع الطريق : واذا قدر عليهم فمن كان منهم قد قتل من يكافئه واخذ المال قتل حتما وصلب حتى يشتهر ، وقال أبو بكر (من فقهائهم) يصلب قدر مايقع عليه اسم الصلب . وعن أحمد انه يقطع مع ذلك . وان قتل من يكافئه فهل يقتل؟ على روايتين » الخ ماذكره وهو كالتفصيل الذي عزوناه الى ابن عباس مع تفصيل وذكر روايات مختلفة في المذهب . وقال محشيه مانصه :

« قوله واذا قدر عليهم الخ هذا هو المذهب وروي نحوه عن ابن عباس . وبه قال قتادة وابو مجلز وحماد والليث والشافعي . وذهبت طائفة الى ان الامام مخير فيهم بين القتل والصلب والقطع والنفي ، لأن « أو » تقتضي التخيير . و به قال سعيد ابن المسيب وعطاء والحسن والضحاك والنخعي وابو الزناد وأبو ثور وداود . وقال

(١) هو صديق حسن خان رحمه الله تعالى قال هذا في تفسيره فتح البيان

مالك اذا قطع الطريق فرآه الامام جلدا ذا رأي قتله ، وان كان جلدا لارأي له قطعه . ولم يعتبر فعله ١ه أي ان مالكا يعتبر حال قاطع الطريق في العقاب لا عمله وحده • والجلد القوي صاحب الثبات ، فاذا اجتمعت القوة مع الرأي والتدبير كان الفساد أقوى والعاقبة شراء وذكر الشوكاني في نيل الاوطار اقوالا كثيرة للعلماء في ذلك منها اقوال ائمة الزيدية فليراجعها من شاء

قال تعالى ﴿ ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم الآخرة عذاب عظيم ﴾ أي ذلك الذي ذكر من العقاب خزي لاولئك المحاربين المفسدين، أي ذل وفضيحة لهم في الدنيا ، ليكونوا عبرة لغيرهم من المفسدين • وقال «لهم خزي» ولم يقل «خزي لهم» ليفيد انه خاص بهم دون الافراد الذين يعملون مثل عملهم من غيران يكونوا محاربين ومعتزين بالقوة والعصبية • ثم ان عذابهم في الآخرة يكون عظيما بقدر تأثير افسادهم في تدنيس أرواحهم وتدسية أنفسهم ، ويا له من تأثير !

﴿ الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم ﴾ استثنى الله تعالى من المحاربين المفسدين في الأرض - الذين حكم عليهم بأشد الجزاء في الدنيا وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة - من يتوبون منهم قبل القدرة عليهم ، وتمكن أولي الأمر من عقابهم ، فان توبتهم وهم في قوتهم ومنعتهم ، جديرة بأن تكون توبة نصوحا منشؤها العلم بقبح عملهم والعزم على عدم العودة اليه ، لا الخوف من عقاب الدنيا . وهب انه الخوف من عقاب الدنيا : أليسوا قد تركوا الافساد ومحاربة شرع الله ورسوله، وصاروا كسائر الناس ؟ بلى ! واذا لا يجمع لهم بين أشد عقاب الشرع في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة ، ولذلك بين الله تعالى انهم يصيرون بهذه التوبة أهلا لمغفرة الله ورحمته فقال ﴿ فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ أي فاعلموا انه تعالى يغفر لهم ماسلف ، ويرحمهم برفع العقاب عنهم . وهل الذي يرتفع عنهم عقاب الآخرة فقط، كما قالوا في توبة السارق؟ (وسيأتي حده وحكمه بعد ثلاث آيات) أم يرتفع عنهم حق الله كله من عقاب الدنيا والآخرة ولا يبقى عليهم الا حقوق العباد ؟ فلمن سلب التائب أموالهم أيام افساده ان يطالبوه بها ، ولمن قتل منهم أحدا ان يطالبوه بدمه ، ولهم الخيار كغيرهم بين القصاص والدية والعفو . أم

تسقط عنهم حقوق الله كلها وحقوق العباد كلها أيضا ؟ احتمالات آخرها أضعفها ، وأوسطها اقواها ، وقد ثبت عن الصحابة اسقاط الحد عمن تاب ولكن لم يرد أن أحدا تقاضى التائب حقا ولم يسمح له الامام . واذا جاز اسقاط الحد مطلقا عن التائب فلا يجوز اسقاط المال عنه بحال . بل يتجه ان يقال. ان توبته لا تصح الا اذا أعاد الاموال المسلوبة الى أربابها . فاذا رأي أولو الامر اسقاط حق مالي عن المفسدين للمصلحة العامة وجب ان يضمنوه من بيت المال .

وقد اختلف علماء السلف . في هؤلاء التائبين . فقيل انهم المحاربون المفسدون من الكفار ، اذا تابوا عن الكفر والحرب والفساد ودخلوا في الاسلام قبل القدرة عليهم . فهم الذين يسقط عنهم كل حق كان قبل الاسلام ، لانه يجبُّ ما قبله مطلقا . رواه ابن جرير عن ابن عباس وعكرمة والحسن البصري ومجاهد وقتادة .

وقيل انها في المحاربين من المسلمين. وروى ابن جرير ان حارثة بن بدر كان محاربا في عهد امير المؤمنين علي كرم الله وجهه فطلب من الحسن بن علي ثم من ابن جعفر (عليهم الرضوان) ان يستأمن له عليا فأبيا عليه . فأتى سعيد بن قيس فقبله (قال الراوي) فلما صلى علي الغداة أتاه سعيد بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين ماجزاء الذين يحاربون الله ورسوله ؟ فقرأ علي الآيتين ، فقال سعيد : وان كان حارثة بن بدر ؟ قال : وان كان حارثة بن بدر . قال فهذا حارثة بن بدر جاء تائبا فهو آمن ؟ قال نعم . قال فجاء به فبايعه وقبل ذلك منه وكتب له أمانا . ولكن ليس في الرواية مايدل على اسقاط حقوق الناس . وقد اشترط بعضهم في التائب أن يستأمن الامام فيؤمنه ، كما فعل حارثة . وقال بعضهم لا يشترط ذلك بل يجب على الامام أن يقبل كل تائب . ورووا في ذلك واقعة محارب جاء ابا موسى تائبا ، وكان عامل عثمان على الكوفة فقبل منه - وواقعة علي الاسدي الذي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم ثم سمع رجلا يقرأ (ياعبادي الذي اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية . فاستعادها فاعادها القارئ ، فغمد سيفه وجاء المدينة تائبا بعد أن عجزت الحكومة والناس عنه ، فأخذ بيده أبو هريرة وجاء به والي المدينة مروان بن الحكم وقال له : لا سبيل لكم عليه ولا قتل . فترك من ذلك كله

﴿ خلاصة الآيتين وقتال البغاة وطاعة الأئمة ﴾

قد علم من التفصيل السابق أن هاتين الآيتين خاصتان بعقاب المحاربين المفسدين في الارض، أي الذين يعملون في بلاد الاسلام أعمالا مخلة بالامن على الانفس والاموال والاعراض، معتصمين في ذلك بقوتهم ، غير مذعنين للشريعة باختيارهم. فيجب على الائمة (الحكام) ان يطاردوهم و يتتبعوهم، فاذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات ، بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ، ومراعاة المصلحة العامة وسد ذريعة الفساد . ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما في هذه الآية وانما حكمه حكم سائر الناس

وقد قلنا ان بعض العلماء قال: ان الآية نزلت في الخوارج. وأوردوا في هذا المقام ماورد من الاحاديث المنبئة بصفات الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في عهد خلافته ، ولا يصح ذلك القول بحال من الاحوال ، وقد قاتل أمير المؤمنين الخوارج برأي من معه من علماء الصحابة ، ولم يعاملوهم بعقوبات آية المحاربين المفسدين ، اذ لم يكن غرضهم الافساد في الارض ، ولا تخريب العمران وإزالة الامن . وانما هم قوم خرجوا على الامام العادل بعد البيعة ، زاعمين انه زل عن صراط الحق، وتجاوز تحكيم الشرع الى الرأي •

وقد اختلف علماء المسلمين في مسألة الخروج على أئمة الجور وحكم من يخرج، لاختلاف ظواهر النصوص التي وردت في الطاعة والجماعة والصبر وتغيير المنكر ومقاومة الظلم والبغي . ولم أر قولا لاحد جمع به بين كل ماورد من الآيات والاحاديث في هذا الباب ، ووضع كلا منها في الموضع الذي يقتضيه سبب وروده مراعيا اختلاف الحالات في ذلك ، مبينا مفهومات الالفاظ بحسب ما كانت تستعمل به في زمن التنزيل دون ما بعده . مثال هذا لفظ « الجماعة » انما كان يراد به جماعة المسلمين التي تقيم أمر الاسلام باقامة كتابه وسنة نبيه (ص) ولكن صارت كل دولة أو امارة من دول المسلمين تحمل كلمة الجماعة على نفسها ، وان هدمت السنة ، وأقامت البدعة ، وعطلت الحدود ، وأباحت الفجور . ومثال اختلاف الاحوال تعدد الدول،

فأيها تجب طاعته والوفاء ببيعته ؟ واذا قاتل أحدهما الآخر فأيها يعد الباغي الذي يجب على سائر المسلمين قتاله حتى يفيء الى أمر الله ؟ كل قوم يطبقون النصوص على أهوائهم مهما كانت ظاهرة .

ومن المسائل المجمع عليها قولا واعتقادا : أنه لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق، « وانما الطاعة في المعروف » وأن الخروج على الحاكم المسلم اذا ارتد عن الاسلام واجب . وأن إباحة المجمع على تحريمه كالزنا والسكر واستباحة إبطال الحدود وشرع مالم يأذن به الله كفر وردة . وانه اذا وجد في الدنيا حكومة عادلة تقيم الشرع وحكومة جائرة تعطله وجب على كل مسلم نصر الاولى ما استطاع . وانه اذا بغت طائفة من المسلمين على أخرى وجردت عليها السيف وتعذر الصلح بينهما فالواجب على المسلمين قتال الباغية المعتدية حتى تفيء الى أمر الله . وما ورد في الصبر على أئمة الجور الا اذا كفروا معارض بنصوص أخرى، والمراد به اتقاء الفتنة ، وتفريق الكلمة المجتمعة، وأقواها حديث « وأن لاننازع الامر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحا » قال النووي المراد بالكفر هنا المعصية ـ ومثله كثير ـ وظاهر الحديث ان منازعة الامام الحق في إمامته لنزعها منه لايجب الا اذا كفر كفرا ظاهرا وكذا عماله وولاته. وأما الظلم والمعاصي فيجب إرجاعه عنها مع بقاء امامته وطاعته في المعروف دون المنكر. ومن هذا الباب خروج الامام الحسين سبط الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على امام الجور والبغي، الذي ولي أمر المسلمين بالقوة والمكر، يزيد بن معاوية خذله الله وخذل من انتصر له من الكرامية والنواصب . الذين لايزالون يستحبون عبادة الملوك الظالمين ، على مجاهدتهم لإقامة العدل والدين . وقد صار رأي الامم الغالب في هذا العصر وجوب الخروج على الملوك المستبدين المفسدين . وقد خرجت الامة العثمانية على سلطانها عبد الحميد خان فسلبت السلطة منه وخلعته بفتوى من شيخ الاسلام . وتحرير هذه المسائل لايمكن الا بمصنف خاص . والسلام على من اتبع الهدى . ورجح الحق على الهوى .

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ الموالد بدعة أم سنة ﴾

(س ١) من صاحب الامضاء في فليمبغ (سومطرة)

من فليمبغ الى القاهرة في ٢٥ المحرم عام ١٣٣٢

جناب الاستاذ مرشد الامة ورشيدها سيدي محمد رشيد رضا ادام المولى وجوده • السلام عليكم ورحمة الله وبركاته • وبعد ارجو من فضلكم اجابة السؤال الآتي على صفحات المنار • ما قول سيدي في قراءة القصص المسماة بالموالد هل هي سنة ام بدعة ؟ ومن اول من فعل ذلك ؟ واي الموالد المتداولة بين ايدينا احرى بالقراءة واحسن ؟ فان كثيرين من رجال المناصب يزعمون ان مولد الديبعي هو امثل الموالد وافضلها وان روح النبي صلى الله عليه وسلم تحضر عند قراءته خلافا للموالد الاخرى . ارجو ان تتفضل بازالة الاشكال والجواب على هذا السؤال ولكم الفضل اولا وآخرا ودمتم والسلام　　(طالب الدعا منكم السيد عقيل بن عبدالله بن عقيل الحبشي)

{ ج } هذه الموالد بدعة بلا نزاع ، وأول من ابتدع الاجتماع لقراءة قصة المولد النبوي احد ملوك الشراكسة بمصر . وقد شرحنا ما في هذه الاحتفالات التي يسمونها الموالد بمصر في مجلد السنة الاولى من المنار ثم في غيره من المجلدات • ولم نطلع على قصة من قصص المولد النبوي الشريف الا ورأينا فيها كثيرا من الاخبار الموضوعة • حتى جمع صديقنا عالم الشام الشيخ جمال الدين القاسمي من كتب الصحاح والسنن اصح وامثل ما ورد في ذلك و(شذرة من السيرة النبوية) وقد طبع في مطبعتنا وصار محبو السنة ومبغضو البدعة يستغنون به عن تلك القصص المشحونة بالموضوعات والاكاذيب التي يؤثرها الجهال زعما منهم انها اكبر تعظيما للنبي (ص) وقد اغناه الله تعالى بفضله العظيم عليه عن تعظيم غيره له بالكذب في سيرته • ولم نطلع على مولد الديبعي • فان كان هو المحدث المشهور فالمرجو ان يكون ما كتبه خاليا من الموضوعات ، وان لم يخل من الضعاف التي يتسامحون بها في ذكر المناقب .

﴿ قراءة البخاري لطلب النصر في الحرب ﴾

(س٢) من علي أفندي مهيب (بديوان عموم التلغرافات) بمصر (تاخر)

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ رشيد رضا المحترم

السلام عليكم ورحمة الله و بركاته. و بعد فقد قرأت في الجرائد في الايام الاولى للحرب الحاضرة بين الدولة العلية ودول البلقان ان صاحب الفضيلة شيخ الجامع الازهر كلف حضرات العلماء بقراءة البخاري امام القبلة طلباً للنصر من الله سبحانه. فهل و رد شيء عن قراءة حديث الرسول صلى الله عليه وسلم اثناء الحرب طلبا للنصر ؟ ولماذا لم يقرأ كلام الله سبحانه بالاولى اذا كانت التلاوة تغني عن العمل ؟ أرجو الافادة على صفحات المنار الاغر ولحضرتكم جزيل الشكر ؟

(ج) جاءنا هذا السؤال في أثناء الحرب الاخيرة فوضعناه بين الاسئلة الكثيرة ولم يتفق وقوعه بيدنا الا الآن . وموضوعه يتكرر عند الحرب وغير الحرب من المصائب كالوباء والقحط. والجواب إنه لا يعقل أن يكون قد ورد في الكتاب أو السنة أمر أو ترغيب بقراءة أحاديث الرسول (ص) لطلب النصر أو رفع المصائب ولا أن يكون ذلك معروفاً في الصدر الاول . فان الاحاديث لم تكن مدونة في زمن الخلفاء الراشدين (رض) وانما دونت في زمن التابعين ، وأول من أمر بجمعها ونشرها عمر بن عبد العزيز (رض) ولم يكن التابعون ولا تابعو التابعين يقرءونها لتكون قراءتها سبباً للنصر . وانما فعل ذلك المتأخرون ولا أدري في أي زمن أحدثوا ذلك ، وما أظن ان أحداً من أهل العلم يقول ان هذا سنة أو مأمور به شرعاً، ولعل أقوى ما يمكن أن يقولوه في سببه: اننا نجتمع للدعاء ونقرأ قبل الدعاء طائفة من أحاديث الرسول (ص) لما يرجى من تأثيرها في حضور القلب، والخشوع للرب ، الذي يرجى أن يكون سببا لاستجابة الدعاء . وعلى هذا يتجه السؤال الثاني وهو « لماذا لا يقرأ كلام الله سبحانه »

وما أظن ان احدا من أهل العلم يقول ان قراءة الحديث أو القرآن في المساجد بنية نصر المحاربين سبب لنصر المحاربين في ميدان القتال ، وقد بين الله تعالى أسباب النصر في كتابه وأمر بها وأهمها اعداد ما يستطاع من القوة في كل زمن والثبات وذكر المحاربين لله تعالى في قلوبهم عند لقاء العدو ، كذكر وعده باحدى الحسنيين وثوابه للشهداء ، و بألسنتهم كالتكبير فانه يعلي الهمة و يقوي الامل والرجاء . وقد بينا ذلك بالتفصيل غير مرة . وقد ظهر المشركون على المسلمين في أحد وحنين والنبي (ص) معهم وأنزل الله تعالى في أحد (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) فراجع تفسيرها في المنار أو في الجزء الخامس من التفسير، ان شئت زيادة الايضاح والتفصيل.

التصوف الاسلامي الصحيح

(فصل من كتاب مدارج السالكين ، بين منازل « إياك نعبد وإياك نستعين »)

للامام العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى

في مشاهد الخلق في المعصية وهي ثلاثة عشر مشهداً (١) : مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة ـ ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة ـ ومشهد الجبر ـ ومشهد القدر ـ ومشهد الحكمة ـ ومشهد التوفيق والخذلان ـ ومشهد التوحيد ـ ومشهد الاسماء والصفات ـ ومشهد الايمان وتعدد شواهده ـ ومشهد الرحمة ـ ومشهد العجز والضعف ـ ومشهد الذل والافتقار ـ ومشهد المحبة والعبودية . فالاربعة الاول للمنحرفين ، والثمانية البواقي لاهل الاستقامة . واعلاها المشهد العاشر . وهذا الفصل من أجل فصول الكتاب وأنفعها لكل أحد ، وهو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر ، ولعلك لا تظفر به في كتاب سواه ، الا ما ذكرناه في كتابنا المسمى بسفر الهجرتين ، في طريق السعادتين

﴿ فصل ﴾

فأما (مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة) فمشهد الجهال، الذين لا فرق بينهم و بين سائر الحيوان الا في اعتدال القامة ونطق اللسان ، ليس همهم الا مجرد نيل الشهوة بأي طريق أفضت اليها . فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية ، لم تترق عنها الى درجة الانسانية ، فضلا عن درجة الملائكة. فهؤلاء حالهم اخس من أن تذكر ، وهم في

(١) المعنى المراد من لفظ المشهد هو ما يغلب على اعتقاد الانسان أو وجدانه وشعوره في معصيته أو معصية غيره ، ومثله كل عامل في عمله ، ويعبر بعض الناس الآن عن مثل هذا المعنى بالملاحظة . فيقال على عرفهم : إن العامي الجاهل لا يلاحظ في المعصية الا إرضاء شهوته . ولكن الطبيب الجاهل يلاحظ معنى آخر مع قصد الشهوة وهو ان هذا العمل من الوظائف الطبيعية لبعض اعضاء الجسم . وعلى ذلك فقس

أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التي هم على اخلاقها وطباعها

(فمنهم) من نفسه كلبية لو صادف جيفة تشبع ألف كلب اوقع عليها وحماها من سائر الكلاب ، ونبح كل كلب يدنو منها ، فلا تقربها الكلاب الا على كره منه وغلبة ، ولا يسمح لكلب بشيء منها ، وهمه شبع بطنه من أي طعام اتفق : ميتة اومذكى ، خبيث او طيب . ولا يستحي من قبيح ، ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ان اطعمته بصبص بذنبه ودار حولك ، وان منعته هرّك ونبحك .

(ومنهم) من نفسه حمارية لم تخلق الا للكد والعلف ، كلما زيد في علفه زيد في كده ، ابكم الحيوان واقله بصيرة . ولهذا مثل الله سبحانه وتعالى به من حمله كتابه فلم يعرفه معرفة ولا فقها ولا عملا ، ومثل بالكلب عالم السوء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها وأخلد الى الارض واتبع هواه . وفي هذين المثلين اسرار عظيمة ليس هذا موضع ذكرها .

(ومنهم) من نفسه سبعية غضبية همته العدوان على الناس وقهرهم بما وصلت اليه قدرته ، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضي طبيعة السبع لما يصدر منه .

(ومنهم)من نفسه فاريّة ، فاسق بطبعه ، مفسد لما جاوره ، تسبيحه بلسان الحال: سبحان من خلقه للفساد .

(ومنهم) من نفسه على نفوس ذوات السموم والحمات ، كالحية والعقرب وغيرهما ، وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه فيدخل الرجل القبر ، والجمل القدر ، والعين وحدها لم تفعل شيئا وانما النفس الخبيثة السمية تكيفت بكيفية غضبية مع شدة حسد واعجاب ، وقابلت المعين على غرة منه وغفلة ، وهو اعزل من سلاحه فلدغته ، كالحية التي تنظر الى موضع مكشوف من بدن الانسان فتنهشه ، فإما عطب وإما اذى . ولهذا لا يتوقف اذى العائن على الرؤية والمشاهدة ، بل اذا وصف له الشيء الغائب عنه وصل اليه اذاه . والذنب لجهل المعين وغفلته وغرته عن حمل سلاحه كل وقت . فالعائن لا يؤثر في شاكي السلاح ، كالحية اذا قابلت درعا سابغا على جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف ، فحق على من أراد حفظ نفسه وحمايتها أن لا يزال متدرعا متحصنا ، لابسا اداة الحرب ، مواظبا على أوراد التعوذات

والتحصينات النبوية التي في السنة والتي في القرآن (١) .

وعلى هذا الشبه اعتماد أهل التعبير للرؤيا في رؤية هذه الحيوانات في المنام عند الانسان وفي داره أو أنها تحاربه . وهو كما اعتمدوه . وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك في المنام وقائع كثيرة . فكان تأويلها مطابقا لاقوام على طباع تلك الحيوانات. وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في قصة أحد بقرا تنحر ، فكان ما اصيب من المؤمنين بنحر الكفار ، فان البقر أنفع الحيوان للارض وبها صلاحها وفلاحها مع ما فيها من السكينة والمنافع والذل (بكسر الذال) فانها ذلول مذللة منقادة غير أبية ، والجواميس كبارهم ورؤساؤهم (٢) ورأى عمر بن الخطاب كأن ديكا نقره ثلاث نقرات ، فكان طعنَ أبي لؤلؤة له . والديك رجل أعجمي شرير .

ومن الناس من طبعه طبع خنزير يمر بالطيبات فلايلوي عليها ، فاذا قام الانسان عن رجيعه قمه . وهكذا كثير من الناس يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوي ، فلايحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه ، فاذا رأى سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها فجعلها فاكهته ونقله

(ومنهم) من هو على طبيعة الطاوس ليس له الا التطوس والتزين بالريش وما وراء ذلك شيء (ومنهم) من هو على طبيعة الجمل أحقد الحيوان وأغلظه كبدا

(ومنهم) من هو على طبيعة الدب أبكم خبيث ، وعلى طبيعة القرد (٣)

وأحمد طبائع الحيوانات طبائع الخيل التي هي أشرف الحيوانات نفوسا وأكرمها طبعا ، وكذلك الغنم ، وكل من ألف ضربا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه ، فان تغذى بلحمه كان الشبه أقوى . فان الغاذي شبيه بالمتغذي (٤) . ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير لما يورث آكله (٥) من شبه

---

(١) حذفنا من هذا الموضع بحثا وجيزا في عقاب من ثبت انه يؤذي بعينه ، وانه ان قتل بالعين لا يُقتل بالسيف لان الجزاء من جنس العمل

(٢) أي كبار الناس النافعين ورؤساؤهم . أي تعتبر رؤيتها في المنام بذلك

(٣) أي في إفساد كل ما تصل اليه يده (٤) وفي نسخة « المغتذي »

(٥) وفي نسخة « أكلها »

نفوسها بها والله أعلم . والمقصود أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتة

﴿ فصل ﴾

(المشهد الثاني مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة)

كشهد زنادقة الفلاسفة والأطباء الذين يشهدون ان ذلك من لوازم الخلقة والطبيعة الانسانية ، وان تركيب الانسان من الطبائع الاربع وامتزاجها واختلاطها كما يقتضي بغي بعضها على بعض وخروجه عن الاعتدال بحسب اختلاف هذه الاخلاط ، فكذلك تركيبه من البدن والنفس والطبيعة والاخلاط الحيوانية يقتضيه اثر هذه الخلقة ورسوم تلك الطبيعة ، ولا تقهر لا بقاهر إما من نفسه وإما من خارج عنه . وأكثر النوع الانساني ليس له قاهر من نفسه ، فحتياجه الى قاهر فوقه يدخله تحت سياسة وايالة ينتظم بها أمره ضرورية (١) كحاجته الى مصالحه من الطعام والشراب واللباس . وعند هؤلاء ان العاقل متى كان له وازع من نفسه قاهر لم يحتج الى أمر غيره ونهيه وضبطه (٢) . فمشهد هؤلاء من حركات النفس الاختيارية الموجبة للجنايات ، كمشهدهم من حركات الطبيعة الاضطرارية الموجبة للتغيرات (٣) وليس لهم مشهد وراء ذلك .

﴿ فصل ﴾

(المشهد الثالث مشهد أصحاب الجبر)

وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم ، وانها واقعة بغير قدرتهم ، بل لا يشهدون أنها أفعالهم البتة . ويقولون : ان أحدهم غير فاعل في الحقيقة ولا قادر ، وان الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه ، وانه آلة محضة ، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح وحركات الاشجار . وهؤلاء اذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر وحملوا ذنوبهم عليه ، وقد يغلون في ذلك حتى يروا أفعالهم كلها طاعات خيرها وشرها ،

(١) كان الظاهر أن يقال « ضروري » لانه خبر قوله فاحتياجه
(٢) كذا (٣) وفي نسخة التغيرات

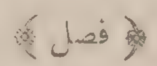
لموافقتها المشيئة والقدر . ويقولون : كما أن موافقة الأمر طاعة ، فموافقة المشيئة طاعة . كما حكى الله تعالى عن المشركين إخوانهم أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلا على أمره بها ورضاه .

وهؤلاء شر من القدرية النفاة ، وأشد عداوة لله ، ومناقضة لكتبه ورسله ودينه ، حتى ان من هؤلاء من يعتذر عن ابليس ويتوجع له ويقيم عذره بجهده ، وينسب ربه تعالى الى ظلمه بلسان الحال والمقال ، ويقول : ما ذنبه وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه ؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وارادته منه ؟ ثم كيف يمكنه السجود وهو الذي منعه منه وحال بينه وبينه ؟ وهل كان في ترك السجود لغير الله الا محسنا ؟ ولكن :

اذا كان المحب قليل حظ   فما حسناته الا ذنوب

وهؤلاء أعداء الله حقا ، وأولياء ابليس وأحباؤه واخوانه . واذا ناح منهم نائح على ابليس رأيت من البكاء والحنين أمرا عجيبا ، ورأيت من تظلم الأقدار واتهام الجبار ، ما يبدو على فلتات ألسنتهم وصفحات وجوههم ، وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه . فهؤلاء هم الذين قال فيهم شيخ الاسلام ابن تيمية في تائيته :

ويدعى خصوم الله يوم معادهم   الى النار طرا فرقة القدرية


﴿ فصل ﴾

(المشهد الرابع مشهد القدرية النفاة)

ويشهدون أن هذه الجنايات والذنوب هم الذين أحدثوها ، وأنها واقعة بمشيئتهم دون مشيئة الله تعالى ، وأن الله لم يقدر ذلك عليهم ولم يكتبه ولا شاءه ولا خلق افعالهم ، وأنه لا يقدر أن يهدي احدا ولا يضله الا بمجرد البيان ، لا أنه يلهمه الهدى والضلال ، والفجور والتقوى ، فيجعل ذلك في قلبه . ويشهدون انه يكون في ملك الله ما لا يشاؤه ، وأنه يشاء ما لا يكون ، وان العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله . فالمعاصي والذنوب خلقهم وموجب مشيئتهم ، لا أنها خلق الله

ولا تتعلق بمشيئته . وهم لذلك مبخوسو الحظ جدا من الاستعانة بالله والتوكل عليه والاعتصام به ، وسؤاله ان يهديهم ، وان يثبت قلوبهم وان لا يزيغها ، وأن يوفقهم لمرضاته ويجنبهم معصيته . اذ هذا كله واقع بهم وعين أفعالهم لا يدخل تحت مشيئة الرب.

والشيطان قد رضي منهم بهذا القدر ، فلا يؤزهم إلى المعاصي ذلك الأز ، ولا يزعجهم اليها ذلك الإزعاج . وله في ذلك غرضان مهمان (أحدهما) ان يقرر في قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة ، وأنكم تاركون الذنوب (١) والكبائر التي يقع فيها أهل السنة. فدل على أن الامر مفوض اليكم واقع بكم ، وأنكم العاصمون لانفسكم المانعون لها من المعصية (الغرض الثاني) أنه يصطاد على أيديهم الجهال ، فاذا رأوهم أهل عبادة وزهادة وتورع عن المعاصي وتعظيم لها قالوا : هؤلاء هم اهل الحق . والبدعة آثر عنده واحب اليه من المعصية، فاذا ظفر بها منهم، واصطاد الجهال على ايديهم ، كيف يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها ويقبحها في اعينهم وقلوبهم، ولا يكشف هذه الحقائق الا ارباب البصائر .

﴿ فصل ﴾

(المشهد الخامس وهو احد مشاهد اهل الاستقامة : مشهد الحكمة)

وهو مشهد حكمة الله في تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه ويكرهه، ويلوم ويعاقب عليه ، وانه لو شاء لعصمه منه ، ولحال بينه وبينه ، وانه سبحانه لا يعصى قسرا ، وانه لا يكون في العالم شيء الا بمشيئته (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

وهؤلاء يشهدون ان الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سدى ، وانه له الحكمة البالغة في كل ما قدره وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية ، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الاحاطة بكنهها ، وتكل الالسن عن التعبير عنها ، فمصدر قضائه وقدره لما يبغضه ويسخطه اسمه الحكيم الذي بهرت حكمته الالباب ؛ وقد قال تعالى للملائكته لما قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فاجابهم سبحانه بقوله (اني اعلم ما لا تعلمون) فلله سبحانه في ظهور المعاصي

(١) وفي نسخة «تاركو الذنوب»

والذنوب والجرائم وترتب آثارها من الآيات والحكم ، وانواع التعرفات الى خلقه ، وتنويع آياته ، ودلائل ربوبيته ووحدانيته ، وإلهيته وحكمته وعزته ، وتمام ملكه وكمال قدرته ، واحاطة علمه ، ما يشهده أولو البصائر عيانا ببصائر قلوبهم ، فيقولون (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك !) ان هي الا حكمتك الباهرة وآياتك الظاهرة ؟

وللّه في كل تحريكة   وتسكينة ابدا شاهد
وفي كل شيء له آية   تدلّ على انه واحد

فكم من آية في الارض بينة دالة على الله وعلى صدق رسله وعلى ان لقاءه حق ، كان سببها معاصي بني آدم وذنوبهم ، كآيته في اغراق قوم نوح ، وعلو الماء على رءوس الجبال ، حتى اغرق جميع اهل الارض ، ونجى اولياءه واهل معرفته وتوحيده . فكم في ذلك من آية وعبرة ، ودلالة باقية على ممر الدهور ؟ وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود . وكم له من آية في فرعون وقومه من حين بعث موسى اليهم ؟ بل قبل مبعثه الى حين إغراقهم ، لولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر تلك الآيات والعجائب . وفي التوراة ان الله تعالى قال لموسى : اذهب الى فرعون فاني سأقسي قلبه وامنعه عن(١) الايمان لاظهر آياتي وعجائبي بمصر . وكذلك فعل سبحانه فاظهر من آياته وعجائبه بسبب ذنوب فرعون وقومه ما اظهر . وكذلك اظهاره سبحانه ما اظهر من جعل النار بردا وسلاما على ابراهيم ، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم ، والقائهم له في النار ، حتى صارت تلك آية ، وحتى نال ابراهيم ما نال من كمال الخلة .

وكذلك ما حصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزلفى عند الله والوجاهة عنده بسبب صبرهم على اذى قومهم وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم . وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والاولياء والاصفياء من بني آدم ، بسبب صبرهم على أذى بني آدم من أهل المعاصي والظلم ومجاهدتهم في الله ، وتحملهم لأجله من اعدائه ما هو بعينه وعلمه ، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات . ـ الى غير ذلك من المصالح والحكم التي وجدت بسبب ظهور المعاصي والجرائم ، وكان من سببها تقدير ما يبغضه الله ويسخطه ، وكان ذلك محض الحكمة ، لما يترتب عليه مما هو أحب اليه وآثر عنده

(١) وفي نسخة « من »

من فوته بتقدير عدم المعصية . فحصول هذا المحبوب العظيم ، احب اليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط ، فان فواته وعدمه وان كان محبوبا له لكن حصول هذا المحبوب الذي لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض احب اليه ، وفوات هذا المحبوب ، اكره اليه من فوت ذلك المكروه المسخوط ، وكمال حكمته تقتضي حصول أحب الامرين اليه بفوات ادنى المحبوبين ، وان لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه . وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا ، كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها ، والملزومات بدون لوازمها ، مما تمنعه حكمة الله وكمال قدرته وربوبيته .

ويكفي من هذا مثل واحد وهو أنه لولا المعصية من أبي البشر بأكله من الشجرة لما ترتب على ذلك ما ترتب من وجود هذه المحبوبات العظام للرب تعالى ، من امتحان خلقه وتكليفهم ، وارسال رسله ، وانزال كتبه ، واظهار آياته وعجائبه ، وتنويعها وتصريفها ، واكرام أوليائه ، واهانة أعدائه ، وظهور عدله وفضله وعزته وانتقامه ، وعفوه ومغفرته ، وصفحه وحلمه ، وظهور من يعبده ويحبه ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان . فلو قدر أن آدم لم يأكل من الشجرة ولم يخرج من الجنة هو وأولاده ، لم يكن شيء من ذلك ، ولا ظهر من القوة الى الفعل ما كان كامنا في قلب ابليس يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة ، ولم يتميز خبيث الخلق من طيبه ، ولم تتم المملكة حيث لم يكن هناك إكرام وثواب ، وعقوبة واهانة ، ودار سعادة وفضل ، ودار شقوة وعدل .

وكم في تسليط أوليائه على اعدائه ، وتسليط اعدائه على أوليائه ، والجمع بينهما في دار واحدة ، وابتلاء بعضهم ببعض ، من حكمة بالغة ، ونعمة سابغة ؟ وكم في طيها من حصول محبوب للرب ، وحمد له من أهل سمواته وارضه ، وخضوع له وتذلل ، وتعبد وخشية وافتقار اليه ، وانكسار بين يديه ؟ أن لا يجعلهم من أعدائه ، إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم ، واعراضه عنهم ، ومقته لهم ، وما أعد لهم من العذاب . وكل ذلك بمشيئته وإرادته ، وتصرفه في مملكته ، فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون ، على أشد وجل وأعظم مخافة وأتم انكسار . فاذا رأت

الملائكة إبليس وماجرى له ، وهاروت وماروت ، وضعت رءوسها بين يدي الرب خضوعا لعظمته ، واستكانة لعزته ، وخشية من ابعاده وطرده ، وتذللا لهيبته ، وافتقارا الى عصمته ورحمته ، وعلمت بذلك منته عليهم ، واحسانه اليهم ، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته .

وكذلك أولياؤه المتقون ، اذا شاهدوا أحوال اعدائه ومقته لهم ، وغضبه عليهم ، وخذلانه لهم ، ازدادوا له خضوعا وذلاً ، وافتقارا وانكسارا ، وبه استعانة ، واليه إنابة ، وعليه توكلا ، وفيه رغبة ، ومنه رهبة ، وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه الا اليه ، وأنهم لا يعيذهم من بأسه الا هو ، ولا ينجيهم من سخطه الا مرضاته ، فالفضل بيده أولا وآخرا

وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه . والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه فيطلعه على عجائب من حكمته لاتبلغها العبارة ، ولا تنالها الصفة . وأما حظ العبد في نفسه ومايخصه من شهود هذه الحكمة فبحسب استعداده وقوة بصيرته ، وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته ، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية ، وكل مؤمن له من ذلك شرب معلوم ، ومقام لايتعداه ولايتخطاه (١)

(١) بقي من بيان حكمة الله تعالى في تقدير الكفر والمعاصي كلمة ضرورية لايتم بدونها . وهي معنى ذلك التقدير ، وكونه لا دلالة فيه ولا اقتضاء للجبر والاكراه على الفعل . وذلك انه تعالى خلق الناس مختارين في أفعالهم ، يعملونها بارادتهم ، حسب علمهم أو ظنهم بأن فعل كذا أو تركه خير لهم . فكل عمل من أعمالهم حلقة من سلسلة الاسباب والمسببات قبله حلقة الاختيار ، وهذا الترتيب هو التقدير ، فالقدر جعلُ المسببات على قدر الاسباب ، وانتظام الجميع في سلسلة واحدة . وضده الخلق الأنف الذي هو مذهب القدرية . ومعناه ان الله تعالى يخلق كل شيء يقع في الكون ابتداء واستئنافا لا يكون شيء من الحوادث مبنيا على تقدير ونظام سابق ، تكون فيه الاسباب على قدر المسببات ، والنتائج أثراً لترتيب المقدمات . فكل مخلوق له علم وارادة واختيار يطيع او يعصي باختياره الذي هو من قدر الله ، ولا يخلق الله كل عمل يصدر منه خلقا مستأنفا كما يزعم منكرو القدر العميان . وله في هذا التقدير حكم كثيرة أشار المصنف الى طائفة منها ، والله عليم حكيم

﴿ فصل ﴾

(المشهد السادس مشهد التوحيد)

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا تتحرك ذرة الا بإذنه ، وأن الخلق مقهورن تحت قبضته ، وانه ما من قلب الا وهو بين أصابعه ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء ان يزيغه ازاغه . فالقلوب بيده وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف اراده وأنه هوالذي آتى نفوس المؤمنين تقواها ، وهوالذي هداها وزكاها ، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له » يهدي من يشاء بفضله ورحمته ، و يضل من يشاء بعدله وحكمته . هذا فضله وعطاؤه وما فضل الكريم بممنون (١) وهذا عدله وقضاؤه (لا يسئل عمّا يفعل وهم يسئلون)

قال ابن عباس : الايمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده . وفي هذا المشهد يتحقق للعبد مقام (إياك نعبد و إياك نستعين) علما وحالا ، فيثبت قدم العبد في توحيده(٢) الربوبية ، ثم يرقى منه صاعدا الى توحيد الالهية ، فانه اذا تيقن أن الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقاء ، كل ذلك بيد الله لا بيد غيره ، وأنه الذي يقلب القلوب و يصرفها كيف يشاء ، وانه لا موفّق الا من وفقه وأعانه ، ولا مخذول الا من خذله وأهانه وتخلى عنه ، وان اصح القلوب وأسلمها وأقومها ، وأرقها وأصفاها ، وأشدها وألينها ، من اتخذه وحده إلها ومعبودا ، فكان أحب اليه من كل ماسواه ، واخوف عنده من كل ماسواه ، وأرجى له من كل ماسواه ، فتتقدم محبتُه في قلبه جميع المحاب ، فتنساق المحابُّ تبعا لها كما ينساق الجيش تبعا للسلطان ، ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات ، فتنساق المخاوف كلها تبعا لخوفه ، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء ، فينساق كل رجاء تبعا لرجائه ،

---

(١) وفي نسخة بزيادة « اي مقطوع » وهو تفسير لممنون (٢) وفي نسخة « توحيد » بدون هاء

فهذا علامة توحيد الآلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل اليه منه توحيد الربوبية، أي باب توحيد الالهية توحيدُ الربوبية (١) فان أول مايتعلق القلب(٢) بتوحيد الربوبية ثم يرتقي الى توحيد الالهية، كما يدعو سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد الى النوع الآخر، و يحتج عليهم به، و يقررهم به، ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام (إياك نعبد) قال الله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن: الله. فأنى يؤفكون؟) أي فمن أين يصرفون عن شهادة ان لا اله الا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون انه لارب غيره ولا خالق سواه(٣) وكذلك قوله تعالى (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون؟ سيقولون: لله. قل أفلا تذكرون؟) فتعلمون أنه اذا كان وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم وربهم ومليكهم، فهو وحده الههم ومعبودهم، فكما لارب لهم غيره، فهكذا لا إلـه لهم سواه (قل: من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون: لله. قل: أفلا تتقون؟ * قل: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؟) — الآيات. وهكذا قوله في سورة النمل (قل: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خير أمّا يشركون؟ أمّن خلق السموات والأرضَ وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم ان تنبتوا شجرها؟ أإله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون) الى آخر الآيات. يحتج عليهم بأن من فعل هذا وحده، فهو الالـه وحده، فان كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وان لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه الـها آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية «أءِله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم الدليل، فلابد من الجواب بلا. فاذا لم يكن معه الـه فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلهية ماسواه باطلة، كما أن ربوبية ماسواه باطلة باقراركم وشهادتكم. ومن قال: المعنى هل مع الله الـه آخر؟ من غير أن

(١) وبعبارة اخرى توحيد الربوبية، باب يدخل منه الى توحيد الالهية.
(٢) وفي نسخة «العبد» (٣) وفي نسخة «وانه لاخالق سواه»

يكون المعنى « فعل » فقوله ضعيف لوجهين (أحدهما) أنهم كانوا يقولون : مع الله آلهة أخرى، ولا ينكرون ذلك (الثاني) أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل افحامهم واقامة الحجة عليهم الا بهذا التقدير، أي فاذا كنتم تقولون : انه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله ، فكيف تجعلون معه إلها آخر لا يخلق شيئا وهو عاجز ؟ وهذا كقوله (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) وقوله (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟) وقوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق؟) وقوله (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون) وقوله (واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون) وهو كثير في القرآن وبه تتم الحجة كما تبين .

والمقصود أن العبد يحصل له هذا المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم، وأنه لا عاصم من غضبه وأسباب سخطه الا هو، ولا سبيل الى طاعته إلا بمعونته، ولا وصول الى مرضاته الا بتوفيقه، فموارد الامور كلها منه ومصادرها اليه، وازمة التوفيق جميعها بيديه ، فلا مستعان للعباد الا به ، ولا متكل الا عليه(١) كما قال شعيب خطيب الانبياء (وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)

﴿ فصل ﴾

(المشهد السابع مشهد التوفيق والخذلان)

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه ، ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد الى شهوده وانتفاعه به . وقد أجمع العارفون بالله ان التوفيق هو ان لا يكلك الله الى نفسك(٢)

(١) أي ان الذي يدرك حقيقة معنى القدر يعلم ان ما آتاه الله تعالى إياه من هدايات الحواس والعقل والوجدان ، وما يصل اليه علمه المكتسب بها والضروري الذي هو أقوى منه ، كل ذلك لا يكفي لتصريف ارادته واختياره دائما فيما هو خير له ، فانه مهما اتسع علمه واختياره يختار لنفسه أحيانا كثيرة ما هو شر له في دينه ودنياه وعاجل امره وآجله، فاذا فقه هذا علم علم شهود انه لا يستغني طرفة عين عن توفيق الله وعنايته . (٢) هذا تفسير باللازم وأما الملزوم فكون الاسباب المكسوبة وغير المكسوبة موافقة للمصلحة الصحيحة

والخذلان هو أن يخلي بينك و بين نفسك . فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه ، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له • فهو دائر بين توفيقه وخذلانه ، فان وفقه فبفضله ورحمته ، وإن خذله فبعدله وحكمته ، وهو المحمود على هذا وهذا ، له أتم حمد وأكمله ، ولم يمنع العبد شيئا هو له ، وانما منعه ماهو مجرد فضله وعطائه ، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله . فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه ، علم ضرورته وحاجته الى التوفيق كلّ نفسٍ وكل لحظة وطرفة عين ، وان ايمانه وتوحيده بيده تعالى (١) ، لو تخلى عنه طرفة عين لثُلَّ عرش توحيده ، ولخرّت سماء ايمانه على الارض ، وان الممسك له من يمسك السماء ان تقع على الأرض الا بإذنه • فهجّيرى قلبه (٢) ودأب لسانه « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، يامصرّف القلوب صرّف قلبي الى طاعتك » ودعواه « ياحي ياقيومُ يا بديع السموات والارض ياذا الجلال والاكرام ، لا إلـه الا أنت برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني الى نفسي طرفة عين ولا إلى احد من خلقك » ففي هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه ، كما يشهد ربوبيته وخلقه، فيسأله توفيقه مسألة المضطر ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف ويلقي نفسه بين يديه ، طريحا ببابه مستسلما له ، ناكس الرأس بين يديه خاضعا ذليلا مستكينا ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

والتوفيق ارادة الله من نفسه ان يفعل بعبده مايصلح به العبد، بأن يجعله قادرا على فعل مايرضيه ، مريدا له ، محبا له ، مؤثرا له على غيره ، ويبغض اليه مايسخطه ويكرّهه اليه . وهذا مجرد فعله ، والعبد محل له ، قال تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم ، وكرّه اليكم الكفر والفسوقَ والعصيان . أولئك

{ ١ } وفي النسخة الثانية « وتوحيده يمسك بيد غيره بيده تعالى » {٢} هجيرى الانسان (بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة والقصر) دأبه الذي يلازمه ولا يتركه . ويسميها الناس في بعض البلاد في هذا العصر « لازمة » فالذي يكثر في كلامه من كلمة « مثلا » يقولون : لازمته مثلا

هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له ، حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله ، لا يمنعه أهله ، ولا يضعه عند غير أهله . وذكر هذا عقيب قوله (واعلموا أن فيكم رسولَ اللهِ لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم) ثم جاء به (١) بحرف الاستدراك فقال (ولكن اللهَ حبب اليكم الإيمان) يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للايمان وارادته وتزيينه في قلوبكم منكم ، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي ، ولا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر ، فالذي حبب اليكم الايمان أعلم بمصالح عباده منكم ، وأنتم فلولا توفيقه لكم (٢) لما أذعنت نفوسكم للايمان ، فلم يكن الايمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم ، ولا تقدمتم به اليها ، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه ، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك ، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وانتم لا تشعرون ، ولا تظنوا ان نفوسكم تريد بكم الرشد والصلاح ، كما اردتم الايمان ، فلولا أني حببته اليكم وزينته في قلوبكم ، وكرهت اليكم ضده ، لما وقع منكم ولا سمحت به أنفسكم ،

وقد ضرب للتوفيق والخذلان مثل ملك أرسل الى أهل بلد من بلاده رسولا وكتب معه (٣) كتابا يعلمهم أن العدو مصبحهم عن قريب، ومجتاحهم ومخرب البلد ومهلك من فيها ، وأرسل اليهم اموالا ومراكب وزادًا وعدة وأدلة ، وقال . ارحلوا اليَّ مع هؤلاء الادلة، وقد ارسلت اليكم جميع ما تحتاجون اليه . ثم قال لجماعة من مماليكه : اذهبوا الى فلان فخذوا بيده واحملوه (٤) ولا تذروه يقعد ، واذهبوا الى فلان كذلك والى فلان ، وذروا من عداهم فانهم لا يصلحون ان يساكنوني في بلدي . فذهب خواص مماليكه الى من أمروا بحملهم فلم يتركوهم يقرون ، بل حملوهم حملا وساقوهم سوقا الى الملك ، فاجتاح العدوّ من بقي في المدينة وقتلهم ، واسر من أسر . فهل يعد الملك ظالما لهؤلاء أم عادلا فيهم ؟ نعم خص أولئك باحسانه وعنايته وحرمها من عداهم ، اذ لا يجب عليه التسوية بينهم في فضله واكرامه ، بل ذلك فضله

---

(١) سقط من النسخة الثانية لفظ « به » (٢) سقط من النسخة الثانية لفظ «لكم»
(٣) وفي نسخة « له » (٤) وفي نسخة « فاحملوه »

يؤتيه من يشاء ٠

وقد فسرت القدرية الجبرية التوفيق بانه خلق الطاعة ، والخذلان (بأنه) خلق المعصية . ولكن بنوا ذلك على اصولهم الفاسدة من انكار الأسباب والحكم ، وردوا الامر الى محض المشيئة من غير سبب ولاحكمة . وقابلهم القدرية النفاة ، ففسروا التوفيق بالبيان العام ، والهدي العام ، والتمكن من الطاعة والإقبال عليها وتهيئة أسبابها . وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة وتمكن من الايمان . فالتوفيق عندهم أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين ، إذ الاقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين (١) ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم ، والكفار بخذلان امتنع به الايمان منهم ، ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلما . والتزموا لهذا الاصل لوازم قامت بها عليهم سوق الشناعة بين العقلاء ولم يجدوا بدا من التزامها ، فظهر فساد مذهبهم ، وتناقض أقوالهم (٢) ، لمن أحاط به علما وتصوره حق تصوره ، وعلم أنه من أبطل مذهب (؟) في العالم وارداه ٠

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . فلم يرضوا بطريق هؤلاء ولا طريق هؤلاء ، وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم ، فأثبتوا القضاء والقدر وعموم مشيئة الله للكائنات وأثبتوا الاسباب والحكم والغايات والمصالح ، ونزهوا الله عز وجل أن يكون في ملكه ما لا يشاء ، أو أن يقدر خلقه على مالا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته ، أو أن يكون شيء من أفعالهم واقعا بغير اختياره و بدون مشيئته . ومن قال ذلك فلم يعرف ربه ، ولم يثبت له كمال الربوبية . ونزهوه مع ذلك عن العبث وفعل القبيح وأن يخلق شيئا سدى ، وان تخلو أفعاله عن حكم بالغة لأجلها أوجدها ، واسباب بها سببها ، وغايات جعلت طرقا ووسائل اليها . وان له في كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة . وتلك الحكمة صفة له قائمة به ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة في الحقيقة ٠

فأهل الصراط المستقيم بريئون من الطائفتين ، الا من حق تتضمنه مقالاتهم ،

---

(١) وفي نسخة « بين الفريقين » (٢) وفي نسخة « قولهم »

فانهم يوافقونهم عليه ويجمعون حق كل منهما الى حق الاخرى ، ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل ، فهم شهداء الله على الطوائف أمناء عليهم ، حكام بينهم ، حاكمون عليهم ، ولا يحكم عليهم احد منهم ، يكشفون أحوال الطوائف ، ولا يكشفهم الامن كشف اله عن معرفة ماجاء به الرسول (١) وعرف الفرق بينه وبين غيره ولم يلتبس عليه ، وهؤلاء افراد العالم ونخبته وخلاصته ، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبرا ، بل ممن هو على بينة من ربه وبصيرة في إيمانه ، ومعرفة بما عند الناس ، والله الموفق .

﴿ فصل ﴾

المشهد الثامن مشهد الاسماء والصفات

وهو من أجل المشاهد وهو أعلى مما قبله وأوسع . والمطلع (٢) على هذا المشهد معرفة تعلق الوجود خلقا وامرا بالاسماء الحسنى ، والصفات العلى ، وارتباطه بها ، وان كان العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها . وهذا من أجل المعارف وأشرفها ، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة ، فان أسماءه أوصاف مدح وكمال ، وكل صفة لها مقتضى وفعل : إما لازم وإما متعد ، ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه وهذا . في خلقه وأمره وثوابه وعقابه ، كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها . ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها ، وتعطيل الاوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الافعال ، وتعطيل الافعال عن المفعولات ، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله ، وأفعاله عن صفاته ، وصفاته عن أسمائه ، وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته .

واذا كانت أوصافه صفات كمال ، وأفعاله حكما ومصالح ، واسماؤه حسنى ، ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه . ولهذا ينكر سبحانه على من عطله عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وانه نسبه الى ما لايليق به ، ويتنزه عنه (٣) وان

---

(١) وفي نسخة الرسل (٢) المطلع بفتح اللام . وخبره معرفة تعلق الوجود
(٣) وفي نسخة: بل يتنزه عنه

ذلك حكم سيئ ممن حكم به عليه ، وان من نسبه الى ذلك فما قدره حق قدره ، ولا عظمه حق تعظيمه ، كما قال تعالى في حق منكري النبوة وارسال الرسل وانزال الكتب (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب (وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين كالأبرار والفجار ، والمؤمنين والكفار (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) فأخبر ان هذا حكم سيئ لايليق به ، تأباه أسماؤه وصفاته ، وقال سبحانه (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون ؟ * فتعالى الله الملك الحق لا إله الا هو رب العرش الكريم) عن هذا الظن والحسبان، الذي تأباه اسماؤه وصفاته .

ونظائر هذا في القرآن كثير، ينفي عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته، اذ ذلك (١) مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها، فاسمه الحميد المجيد يمنع ترك الانسان سدى مهملا معطلا، لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب ، وكذلك اسمه الحكيم، يأبى ذلك ، وكذلك اسمه الملك ، واسمه الحيّ يمنع أن يكون معطلا من الفعل بل حقيقة الحياة الفعل، فكل حي فعال، وكونه سبحانه خالقا قيوما من موجبات حياته ومقتضياتها ، واسمه السميع البصير يوجب مسموعا ومرئيا ، واسمه الخالق يقتضي مخلوقا . وكذلك الرزاق . واسمه الملك يقتضي مملكة وتصرفا وتدبيرا وعطاء ومنعا وإحسانا وعدلا وثوابا وعقابا . واسم البر المحسن المعطي المنان ونحوها تقتضي آثارها وموجباتها .

اذا عرف هذا فمن اسمائه سبحانه الغفار التواب العفوّ (٢) فلابد لهذه الاسماء من متعلقات ، ولابد من جناية تغفر ، وتوبة تقبل ، وجرائم يعفى عنها . ولا بد لاسمه الحكيم من متعلق يظهر فيه حكمه (٣) اذ اقتضاء هذه الاسماء لآثارها

(١) ونسخة « ذاك » (٢) وفي نسخة بواو العطف في هذه الاسماء الثلاثة الاخيرة. وهنا محل الشاهد (٣) وفي نسخة « حكمة »

كاقتضاء اسم الخالق الرازق المعطي المانع المخلوق والمرزوق والمعطى والممنوع . وهذه الاسماء كلها حسنى ، والرب تعالى يحب ذاته واوصافه واسماءه . فهو عفو يحب العفو ، ويحب المغفرة ويحب التوبة ، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب اليه أعظم فرح يخطر بالبال . وكان تقديرما يغفره و يعفو عن فاعله ويحلم عنه ويتوب عليه ويسامحه من موجب اسمائه وصفاته . وحصول مايحبه ويرضاه من ذلك ، ومايحمدُ به نفسه ويحمده به أهل سموته وأهل أرضه ، ماهو من موجبات كماله ومقتضى حمده . وهو سبحانه الحميد المجيد ، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما ومن آثارهما مغفرة الزلات ، واقالة العثرات ، والعفو عن السيئات ، والمسامحة على الجنايات ، هذا (١) مع كمال القدرة على استيفاء الحق ،والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها ، فحلمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته ، كما قال المسيح صلى الله عليه وسلم (إن تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم) أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك ، لست كمن يغفر عجزا ، ويسامح جهلا بقدر الحق ، بل أنت عليم بحقك ، قادر على استيفائه ، حكيم في الأخذ به .

فمن تأمل سريان آثار الاسماء والصفات في العالم وفي الامر تبين له انمصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها هو من كمال الاسماء والصفات والافعال ، وغاياتها أيضا مقتضى حمده ومجده ، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته ، فله في كل ماقضاه وقدره الحكمة البالغة ، والآيات الباهرة ، والتعرفات الى عباده باسمائه وصفاته ، واستدعاء محبتهم له وذكرهم له وشكرهم له ، وتعبدهم له باسمائه الحسنى ، اذ كل اسم فله تعبد مختص به علما ومعرفة وحالا ، وا كمل الناس عبودية المتعبد بجميع الاسماء والصفات التي يطلع عليها البشر ، فلا يحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر ، كمن يحجبه التعبد باسمه القدير ، عن التعبد باسمه الحكيم الرحيم ، أو يحجبه عبودية اسمه المعطي من عبودية اسمه المانع ، أو عبودية اسمه الرحيم والعفوّ والغفور عن اسمه المنتقم ، أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والاحسان

(١) سقط لفظ «هذا» من النسخة الثانية

عن اسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء ونحو ذلك .

وهذه طريقة الكمل من السائرين الى الله ، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) والدعاء بها يتناول دعاء المسئلة ودعاء الثناء ودعاء التعبد . وهو سبحانه يدعو عباده الى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، ويثنوا عليه بها ، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها ، وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته . فهو عليم يحب كل عليم ، وجوادٌ يحب كل جواد ، وتر يحب الوتر ، جميل يحب الجمال ، عفو يحب العفو وأهله ، حيي يحب الحياء وأهله ، بَرٌّ يحب الأبرار ، شكور يحب الشاكرين ، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحلم ، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو والصفح خلق من يغفرله ويتوب عليه ويعفو عنه ، وقدر عليه مايقتضي وقوع المكروه والمبغوض له ، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له ، فتوسطه كتوسط الاسباب المكروهة المفضية الى المحبوب .

فربما كان مكروه النفوس الى محبوبهـا سببا ما مثله سبب

والاسباب مع مسبباتها أربعة أنواع : محبوب يفضي الى محبوب ، ومكروه يفضي الى محبوب . وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره سبحانه بالنسبة الى مايحبه ويكرهه . والثالث مكروه يفضي الى مكروه . والرابع محبوب يفضي الى مكروه . وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه ، اذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره - الذي خلق ماخلق وقضى ماقضى لأجل حصولها - لاتكون الا محبوبة للرب مرضية له ، والاسباب الموصلة اليهـا منقسمة الى محبوب له ومكروه له . فالطاعات والتوحيد أسباب محبوبة له موصلة الى الاحسان والثواب المحبوب له أيضا ، والشرك والمعاصي أسباب مسخوطة له ، موصلة الى العدل المحبوب له ، وان كان الفضل أحب اليه من العدل . فاجتماع العدل والفضل أحب اليه من انفراد أحدهما ، لما فيهما من كمال الملك والحمد ، وتنوع الثناء وكمال القدرة .

فان قيل : كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه . قيل هذا سؤال باطل لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، والذي يقدّر الذهن وجوده شيء آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب ، وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم

بلا علم ، بل قد يكون مبغوضا للرب تعالى لمنافاته حكمته ، فاذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له كان نسبة له الى ما لا يليق به ويتعالى عنه . فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التأمل فانه مزلة أقدام ، ومضلة افهام ؛ ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف . وهذا المشهد أجل من ان يحيط به كتاب ، أو يستوعبه خطاب ، وانما أشرنا منه الى أدنى اشارة تطلع على ماوراءها والله الموفق (١) .

﴿ فصل ﴾

المشهد التاسع مشهد زيادة الايمان وتعدد شواهده

وهذا من ألطف المشاهد وأخصها بأهل المعرفة . ولعل سامعه يبادر الى انكاره ويقول : كيف يشهد زيادة الايمان من الذنوب والمعاصي ؟ ولا سيما ذنوب (٢) العبد ومعاصيه ، وهل ذلك إلا منقص للايمان ؟ فانه باجماع السلف يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . فاعلم ان هذا حاصل من التفات العارف الى الذنوب والمعاصي منه ومن غيره ، والى ترتب آثارها عليها ؛ وترتب هذه الآثار عليها عَلم من أعلام النبوة ، وبرهان من براهين صدق الرسل وصحة ما جاءوا به . فان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم في معاشهم ومعادهم ، ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد ، وأخبروهم عن الله عز وجل انه يحب كذا وكذا (٣) وانه يبغض كيت وكيت ، ويعاقب عليه بكيت وكيت ، وانه اذا أطيع بما أمر به شكر عليه بالإمداد ، والزيادة والنعم في القلوب والابدان والاموال ، وَوَجدَ العبد زيادته وقوته في حاله كلها ، وانه اذا خولف أمره ونهيه ترتب عليه من النقص والفساد والضعف والذل والمهانة والحقارة وضيق العيش وتنكد الحياة ماترتب ، كما قال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال (قل : ياعبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير) وقال تعالى (وأن استغفروا ربكم

(١) وفي نسخة زيادة «المعين» (٢) وفي نسخة «من ذنوب» (٣) وفي نسخة زيادة «فيثيب عليه»

ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله) وقال تعالى (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، والصحيح انها في الدنيا وفي البرزخ فان من أعرض عن ذكره الذي أنزله فله من ضيق الصدر ونكد العيش وكثرة الخوف وشدة الحرص والتعب على الدنيا والتحسر على فوتها قبل حصولها و بعد حصولها ، والآلام التي في خلال ذلك ـ ما لا يشعر به القلب لسكرته وانغماسه في السكر . فهو لا يصحو ساعة الا أحس وشعر بهذا الألم فبادر الى ازالته بسكر ثان، فهو هكذا مدة حياته . وأي عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟ فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن وأهل الغفلة عن الله وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الكبرى ، وقلوب الابرار في نعيم قبل النعيم الاكبر (ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم) هذا في دورهم الثلاث ليس مختصا بالدار الآخرة ، وان كان تمامه وكماله وظهوره انما هو في الدار الآخرة (١) وفي البرزخ دون ذلك، كما قال تعالى (وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك) وقال تعالى (ويقولون : متى هذا الوعد ان كنتم صادقين؟ * قل: عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون) وفي هذه الدار دون ما في البرزخ ،ولكن يمنع من (٢) الإحساس به لاستغراق في سكرة الشهوات ، وطرح ذلك عن القلب وعدم التفكر فيه . والعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه و يقطع التفاته عنه، و يجعل اقباله على غيره لئلا يشعر به جملة ، فلو زال عنه ذلك الالتفات لصاح من شدة الألم فما الظن بعذاب القلوب وآلامها ؟

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثارا محبوبة لذيذة طيبة لذتها فوق لذة المعصية باضعاف مضاعفة لا نسبة لها اليها، وجعل للسيئات والمعاصي آلاما وآثارا مكروهة، وحزازات تربي على لذة تناولها باضعاف مضاعفة .قال ابن عباس : ان للحسنة نورا في القلب ، وضياء في الوجه ، وقوة في البدن ،وزيادة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق . وان للسيئة سوادا في الوجه وظلمة في القلب ، ووهنا في البدن ،

(١) مارأيت أحدا سبقني الى تقرير هذا المعنى والاستدلال عليه بالقرآن مثل المصنف

(٢) وفي نسخة بسقوط «من»

ونقصا في الرزق ، و بغضة في قلوب الخلق . وهذا يعرفه صاحب البصيرة و يشهده من نفسه ومن غيره، فما حصل للعبد حال مكروهة قط الا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر . قال الله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير) وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه (أوَلَمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنّى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) وقال (ما أصابكَ من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) والمراد بالحسنة والسيئة هنا النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله . ولهذا قال « ما اصابك » ولم يقل : ما أصبت. فكل نقص و بلاء وشر في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب ومخالفة أوامر الرب ، فليس في العالم شر قط الا الذنوب وموجباتها

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والابدان والاموال امر مشهود في العالم، لاينكره ذو عقل سليم، بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره وتأمله ومطالعته مما يقوي ايمانه بما جاءت به الرسل ، و بالثواب والعقاب، فان هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة دالة على ماهو اعظم منها لمن كانت له بصيرة ، كما قال بعض الناس : اذا صدر مني ذنب ولم ابادره ولم اتداركه بالتوبة انتظرت أثره السيء ، فاذا اصابني اوفوقه اودونه كما حسبت ،يكون هجيراي «اشهد ان لا إله إلا الله، واشهد ان محمدا رسول الله» و يكون ذلك من شواهد الايمان وادلته، فان الصادق متى اخبرك انك اذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا، فجعلت كلما فعلت شيئا من ذلك حصل لك ماقال من المكروه، لم تزدد الاعلما بصدقه و بصيرة فيه، وليس هذا لكل احد ، بل اكثر الناس يرين الذنوب على قلبه فلايشهد شيئا من ذلك ولا يشعر به البتة . وانما يكون هذا لقلب فيه نور الايمان ،واهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه، فهو يشاهد هذا وهذا، ويرى حال مصباح ايمانه مع قوة تلك الاهوية والرياح، فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح وتقلب السفينة وتكفئها، ولاسيما اذا انكسرت به و بقي على لوح تلعب به الرياح ، فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب ، اذا أريد به الخير ،وان أريد به غير ذلك فقلبه في واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد انتفع بمطالعة تاريخ العالم واحوال الامم، وماجريات الخلق، بل انتفع بما جريات اهل زمانه وما يشاهده من احوال الناس، وفهم حينئذ معنى قوله تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وقوله (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا اله الا هو العزيز الحكيم) فكلما تراه في الوجود من شر وألم وعقوبة وجدب ونقص في نفسك وفي غيرك فهو من قيام الرب تعالى بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وان اجراه على يد ظالم فالمسلط له اعدل العادلين، كما قال تعالى لمن افسد في الارض (بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار) الآية. فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات، فان تداركها من سقي بالادوية المقاومة لها ... والا قهرت القوة الايمانية وكان الهلاك، كما قال بعض السلف: المعاصي بريد الكفر، كما ان الحمى بريد الموت فشهود العبد نقص حاله اذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه وجفولها منه، وانسداد الابواب في وجهه، وتوعر المسالك عليه وهوانه على اهل بيته واولاده وزوجته واخوانه (١) وتطلبه ذلك حتى يعلم من اين أتي، ووقوعه على السبب الموجب لذلك مما يقوي ايمانه . فان اقلع و باشر الاسباب التي تفضي به الى ضد هذه الحال، ورأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والامن بعد الخوف، والقوة في قلبه، بعد ضعفه ووهنه ـ ازداد ايمانا مع ايمانه، فتقوى شواهد الايمان في قلبه، و براهينه وادلته في حال معصيته وطاعته، فهذا من الذين (يكفر الله عنهم اسوأ الذي عملوا ويجزيهم اجرهم باحسن الذي كانوا يعملون) وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه واعطاه حقه صار من اطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها، فنفعه الله في نفسه

(١) هذه الآثار التي تترتب على الذنب لا يشهدها كلها الا المؤمن الذي يعيش بين المؤمنين الصادقين. واما الجاحدون والمنافقون والفاسقون المصرون، فلا تتغير قلوب بعضهم على بعض لاجل المعصية، ولا يشعرون بهوانهم على اهل بيوتهم، الا قليلا وفي بعض المعاصي دون بعض . فالذين اعتادوا شرب الخمر في بيوتهم، وغير بيوتهم يعدونها هم واهلوهم كشرب الماء . وللمعاصي آثار أخرى في الاخلاق وفي الصحة لا يغفل عن قبحها وشؤمها الا من هو اجهل من الانعام

ونفع به من شاء من خلقه ، والله اعلم .

﴿ فصل ﴾

المشهد العاشر مشهد الرحمة

فان العبد اذا وقع في الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة ، والكيفية الغضبية التي كانت عنده لمن صدر منه ذنب ، حتى لو قدر عليه لاهلكه ، وربما دعا الله عليه ان يهلكه ويأخذه غضبا منه لله وحرصا على ان لا يعصي ، ولا يجد في قلبه رحمة المذنبين الخاطئين ولا يراهم الا بعين الاحتقار والازدراء ، ولا يذكرهم الا بلسان الطعن فيهم والعيب لهم والذم ، فاذا جرت عليه المقادير وخلي ونفسه استغاث بالله والتجأ اليه ، وتملق بين يديه تملق السليم ، ودعاه دعاء المضطر ، فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة ، وتلك القساوة على الخاطئين رحمة ولينا ، مع قيامه بحدود الله ، وتبدل دعاؤه عليهم دعاءً لهم ، وجعل لهم وظيفة من عمره ـ يسأل الله فيه ان يغفر لهم ، فما انفعه له من مشهد ! وما اعظم جدواه عليه ! والله اعلم .

﴿ فصل ﴾

فيورثه ذلك (المشهد الحادي عشر)

وهو مشهد العجز والضعف ، وانه اعجز شيء عن حفظ نفسه واضعفه ، وانه لا قوة له ولا قدرة ولا حول الا بربه ، فيشهد قلبه كريشة ملقاة بارض فلاة تقلبها الرياح يمينا وشمالا ، ويشهد نفسه كراكب سفينة في البحر تهيج بها الرياح ، وتتلاعب بها الامواج ، ترفعها تارة وتخفضها تارة أخرى . تجري عليه احكام القدر وهو كالآلة طريحا بين يدي وليه ملقى ببابه ، واضعا خده على ثرى اعتابه ، لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ليس له من نفسه الا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما ، فالهلاك ادنى اليه من شراك نعله ، كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع لا يردهم عنها الا الراعي ، فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها اعضاءً . هكذا حال العبد ملقى بين الله وبين اعدائه من شياطين الانس والجن ، فان حماه منهم وكفهم عنه لم يجدوا اليه سبيلا ، إن تخلى عنه ووكله الى نفسه طرفة عين لم ينقسم

عليهم بل هو نصيب من ظفر به منهم .

وفي هذا المشهد يعرف نفسه حقا ، ويعرف ربه ، وهذا احد التأويلات للكلام المشهور « من عرف نفسه عرف ربه » وليس هذا حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انما هو اثر اسرائيلي بغير هذا اللفظ ايضا « يا انسان اعرف نفسك تعرف ربك » وفيه ثلاث تأويلات (احدها) ان من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة ، ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة ، ومن عرفها بالذل عرف ربه بالعز ، ومن عرفها بالجهل ، عرف ربه بالعلم ، فان الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق والحمد والثناء والمجد والغنى ، والعبد فقير ناقص محتاج ، وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ، ازدادت معرفته لربه باوصاف كماله .

(التأويل الثاني) ان من نظر الى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والارادة والكلام والمشيئة والحياة ، عرف ان من اعطاه ذلك وخلقه فيه اولى به ، فمعطي الكمال أحق بالكمال ، فكيف يكون العبد حيا متكلما سميعا بصيرا مريدا عالما يفعل باختياره ، ومن خلقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه ؟ . فهذا من أعظم المحال ، بل من جعل العبد متكلما أولى أن يكون هو متكلما ، ومن جعله حيا عليما سميعا بصيرا فاعلا قادرا ، أولى أن يكون كذلك . فالتأويل الاول من باب الضد . وهذا من باب الاولوية .

(والتأويل الثالث) ان هذا من باب النفي . أي كما انك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الاشياء اليك ، فلا تعرف حقيقتها ولا ماهيتها ولا كيفيتها ، فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته ؟ . والمقصود أن في هذا المشهد يعرف العبد أنه عاجز ضعيف ، فيزول عنه رعونات الدعاوي والاضافات الى نفسه ، ويعلم انه ليس له من الامر شيء وليس بيده شيء ، ان هو الا محض الفقر والعجز والضعف .

(للبحث بقية)

الرد المتين

على مفتريات المبشرين (*)

لقد اطلعنا على المجلة المدعوة « الشرق والغرب » التي يطبعها المبشرون بمصر وقرأنا العدد الاول الذي صدر في ١ كانون الثاني سنة ١٩١٤ والعدد الثاني الذي صدر في ١٥ من الشهر المذكور واذا فيهما على زعم أولئك المبشرين تفنيد لما كتبناه في كتابنا الذي سميناه « العقائد الوثنية في الديانة النصرانية » وجميع ماقالوه ينحصر في خمسة امور

(الاول منها) تطاولهم واستباحتهم لكلام البذاء والتطاول وهذا ليس له عندنا جواب فليفرحوا وليتنعموا به

(الامر الثاني) ادعاؤهم أننا اعتمدنا في كتابنا على اقوال علماء نصارى اوروبيين ملحدين . وهذا نجاوبهم عليه بان لهم الخيار بما يصفونهم به . أما نحن فنقول بحقهم انهم علماء مستقلون قالوا الحق الذي وصل اليه علمهم بشأن ديانة المبشرين غير مبالين بمن لا يرضاه منهم

(الامر الثالث) عدم تصديقهم باطلاعنا على الكتب التي ذكرناها في أول الكتاب . وهذا ايضا لهم الخيار فيه صدقوا أم لم يصدقوا . ونقول لهم ولمن هم على شاكلتهم: ها هي ذى مكتبتنا حاضرة لكل من يروم الاطلاع عليها ، ونزيدهم - وربنا شهيد - انه عندنا عدة كتب غير التي ذكرناها لم تنقل منها كلمة واحدة ، لشدة اعتراضاتها على الديانة النصرانية . وجميعها تأليف علماء مسيحيين أوروبيين . وان احبوا فاننا مستعدون لذكر اسمائها ، واسماء المدن التي طبعت فيها مع اسماء الطابعين

(الامر الرابع) قولهم مانصه بالحرف « فاذا استزادنا حضرته من نقد بقية مافي كتابه فربما عدنا اليه في فرصة اخرى . ولكن ليسمح لنا الآن بهذه النصيحة وهي ان لا يحشر نفسه بين العلماء الباحثين ، بل ليدع ذلك لرجال العلم وليبحث له عن شغل يرتزق منه والله يهدي سواء السبيل »

اما من جهة نقدهم لبقية مافي كتابنا فاننا نشكره لهم سلفا ، فانهم لن يأتوا بكلمة واحدة من عندنا ، ولا بكلمة واحدة من كلام علماء المسلمين رضي الله عنهم ، بل جميع ماذكرناه مأخوذ من كتب علماء الغرب المسيحيين خاصة ، واما امرهم ايانا بان لا نحشر نفسنا بين العلماء الباحثين بل ندع ذلك لرجال العلم ، وأن نبحث عن

(*) لصاحب الامضاء من متخرجي الكلية الامريكانية ببيروت

شغل يرتزق منه ! فأجيبهم عنه بأسف عظيم : ان والدي منذ نعومة اظفاري وضعني بمدارس المبشرين، ولم يعلم ان الدارس فيها يخرج محبا للكسل والبطالة واللهو والسباحة والتسول ، واكره شيء عليه السعي وراء شغل يرتزق منه : ويفضل الخمول على السعي ، والفاقة على الغنى ، لرسوخ ما علموه اياه في عقله كتعاليمهم لتلاميذهم الصغار «فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه» وكذلك «لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون» وكذلك «انظروا الى طيور السماء انها لاتزرع ولا تحصد ولاتجمع الى مخازن ، وأبوكم السماوي يقوتها» وكذلك فقال يسوع لتلاميذه : الحق أقول لكم انه يعسر ان يدخل غني الى ملكوت السموات ؟ واقول لكم ايضا ان مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت السموات ... فاجاب بطرس حينئذ وقال له هانحن تركنا كل شيء وتبعناك ، فاذا يكون لنا ... وكل من ترك بيوتاً أواخوة أو اخوات أو أبا أو أما أو امراة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمي ياخذ مئة ضعف ويرث الحيوة الابدية» وغير ذلك كثير مما هو على هذا النمط

أما لو وضعني بمدارس المسلمين ، لكنت لكم من الشاكرين ، لان نصحكم يكون تذكيرا لي بما درسته فيها من آيات القرآن المجيد ، والحديث الشريف، كقوله تعالى {فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله} وكقوله تعالى (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) وكقوله تعالى (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا) وقول النبي صلى الله عليه وسلم «كاد الفقر أن يكون كفرا» وقوله صلى الله عليه وسلم «اعمل عمل امرئ يظن انه لن يموت أبدا ، واحذر حذر امرئ يخشى ان يموت غدا» (١) وقوله صلى الله عليه وسلم «ما اكل احد قط خيرا من ان يأكل من عمل يده» (٢) وكذلك أيضا «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا مع اصحابه ذات يوم فنظروا الى شاب ذي جلد وقوة وقد بكر يسعى فقالوا : ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله. فقال صلى الله عليه وسلم «لاتقولوا هذا فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسئلة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم و يكفيهم فهو في سبيل الله» (٣) واحسرتاه ! ليته وضعني بمدارس تعلم القرآن المجيد، والحديث الشريف، أي تعلم الحكمة ، والهمة

(١) المنار : رواه البيهقي عن عبد الله بن عمرو (٢) رواه البخاري عن المقدام
(٣) رواه الطبراني عن كعب بن عجرة

والرحمة، ولا كان وضعني بمدارس تعلم الكسل والخمول والبلادة وحب التسول والفاقة وبغض الجد وكره الغنى

(الأمر الخامس) اعتراضهم على بعض علماء المسلمين الكرام وتصريحهم باسم الامير صاحب التآليف المشهورة المبنية على آيات القرآن المجيد والحديث الشريف ، ويكفيهم رداً على اعتراضهم وتحاملهم ماأبدوه من العداوة والبغضاء للحق وأهله

أما اعتراضهم على آيات القرآن المجيد كقولهم مانصه بالحرف «ولا نحن نطلب من إخواننا المسلمين ان يبينوا لنا كيف يصح القول بأن هامان كان وزير فرعون ، وان مريم العذراء كانت أخت موسى وهرون ، على مايستفاد من القرآن ، ولا غير ذلك من المشاكل التي يستحيل التوفيق بينها وبين التاريخ »

على رسلكم يا أيها المبشرون الزاعمون انكم لاتقولون الا الحق المبين : فما معنى ذكر مثل هذه المسائل وما مدخلها مع تفنيدكم لكتابنا ؟ اما آن لكم ان تتركوا المغالطات والسفسطات والتمويهات وتعقتوها ؟ اما آن لكم أن تتركوا التشدق عما يعود عليكم بالخيبة والخذلان ؟ والله لو كان قصدكم الاستفهام حقيقة لما كنا نتأثر باعتراضاتكم وتشدقاتكم ، ولكن نعلم أن قصدكم بها اغواء عباد الله تعالى وتشكيك عوام المسلمين في دينهم . ومع ذلك نقول لكم يامرحبا! سلوا عما تشاؤن من المشاكل التي تظنون استحالة التوفيق بينها وبين التاريخ الذي كتبته أيدي الصادقين .

ونقول لكم مع اننا نعلم أنكم قصدتم بالتجاهل الاغواء وتشكيك عباد الله تعالى: ان المقصود من أخوية مريم العذراء هو أخوية تشبيه لا أخوية ولادة من أب وأم . وهذا التشبيه كثير ومشهور في اللغات الشرقية . ولقد جاء مثله في انجيل متى ففي الفصل الثاني عشر من عدد ٤٦ الى ٥٠ « وفيما يكلم الجموع اذا أمه واخوته قد وقفوا خارجا طالبين ان يكلموه فأجاب وقال للقائل له : مَن هي امي و مَن هم إخوتي؟ ثم مد يده نحو التلاميذ وقال ها امي واخوتي ، لأن من يصنع مشيئة ابي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي» وجاء مثله في انجيل مرقص { راجع الفصل الثالث من عدد ٣٢ الى ٣٤ }

وهكذا أخوة مريم لهرون عليهما السلام أي كاخوة المسيح عليه السلام لمن أشار اليهم بيده . وكما يشبهون الصالح بأحد المشهورين بالتقوى والعفاف في الايام الخالية كذلك يشبهون الشرير المشهور بالخيانة في القرون الماضية كقولهم « أخو الحارث بن ظالم » وهكذا

ولنا على الاعداد التي ذكرناها من الانجيل سؤالات عديدة نود الاستفسار عنها من حضرة المبشرين الذين انتقدوا اطلاق لقب « أخت هارون » على مريم ولكن خوفا من ان يتوهم أحد المسيحيين الشرقيين بأننا نقصد الحط من المعتقدات النصرانية كما توهموه لما قلنا عن البلغاريين وحلفائهم أنهم كفار ظالمون لاستباحتهم سفك دماء نساء وبنات وأولاد المسلمين ودفنهم جرحى العساكر العثمانية تحت التراب وهم احياء يقاسون ألم الجراح وألم الموت خنقا ، واحراقهم النساء المسلمات ، وغير ذلك من الاعمال الوحشية التي لم يرو التاريخ صدور مثلها حتى ولا من القبائل المتوحشة في افريقية . لذلك نكتفي بهذين السؤالين مؤملين من حضرتهم افادتنا عنهما وهما :

(١) انهم يقولون عن مريم العذراء عليها السلام انها لم تلد أحدا غير المسيح عليه السلام ، والأناجيل تقول انه كان لها اولاد ، فهل نصدق كلامهم ونضرب بكلام الانجيل عرض الحائط ام نصدق كلام الانجيل ونكذب كلامهم .

(٢) يظهر من كلام الانجيل انها اي أمه لم تكن مؤمنة به ولا صائنة ارادة مرسله كتلاميذه . ولولا ذلك لما تبرأ منها هي ومن معها من اخوته واشار نحو الحاضرين بانهم هم اخوته واخواته وأمه . فلو كانت مؤمنة به لما فعل هذا لان فيه اهانة عظيمة لها ، كما هو المتبادر من عبارة الانجيل لكل من يقرؤه . ومعلوم اننا نحن لا نؤمن بهذه القصة التي سموها انجيلا ، بل نؤمن بان امه كانت مؤمنة تقية ، وانه كان برا بها كما حكى الله عنه في قوله (وبرا بوالدتي)

وقد أرسلنا اليهم كتاب تاريخ الفحشاء هدية كي يتسلوا به الى ان نختصر بعض فصول كتابنا الذي سميناه « مقام عيسى المسيح عليه السلام في النصرانية والاسلام » لتنشر في المنار الاغر أدام الله شمس صدقه منيرة سماء العدل والمدنية

واما اعتراضهم على مسئلة تحديد تعدد الزوجات ، واقوال الصوفي المتنصر وغير ذلك مما ذكروه بمجلتهم فسنرد عليه في الفصول الآتية ان شاء الله تعالى

(محمد طاهر التنير)

(المنار) نشرنا هذه النبذة ويتلوها الفصل الاول من الكتاب الذي أشار اليه الكاتب ، وقد تصرفنا في العبارة بعض التصرف فان في الاصل شدة في العبارة لاحاجة اليها . وسنعلق على الفصل الآتي كلاما نبين فيه الغرض من نشر أمثال هذه المقالات

مقام

﴿ عيسى (يسوع) المسيح عليه السلام ﴾

« في النصرانية والاسلام »

الفصل الاول في نسبه

﴿ تنبيه مهم ﴾

ان اهانة الناس واحتقار أديانهم لمن أقبح الاعمال واعظمها كرها ومقتا عند المسلمين كافة ، ولا يتأتى عنها الا العداوة والبغضاء ، على مخالفتها للشريعة الغراء ، قال الله تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ) وكل من يتدبر الحقائق بعين الصدق والانصاف يرى ان جميع ما كتبه علماء المسلمين (رض) قديما وحديثا بشأن النصرانية لم يكن سوى ردّ على المفتريات التي رمى الظالمون بها دين الاسلام المبين، بغيا وعدوانا حيناً بعد حين ، وهذا الافتراء الذي اتخذه المبشرون وغيرهم من قسيسي الفرق النصرانية مهنة لهم في هذه الايام هو الذي اضطرنا الى كتابة هذه الكتب وهي (العقائد الوثنية ، في الديانة النصرانية . ومقام عيسى عليه السلام، في النصرانية والاسلام) و (آداب الاسلام وتعليم التوراة والانجيل) و (اخلاق عيسى المسيح عليه السلام في الاناجيل وفي القرآن المجيد) ولم يطبع منها سوى (كتاب العقائد الوثنية) وان شاء الله تعالى سنطبع البقية باقرب وقت بعد ما ننشر اكثر نصوصها باختصار في المنار الاغر .

وقد بينا الحقائق ولله الحمد بطريقة ترضي حتى أشد الناس عداوة لدين الاسلام المبين ، اذ لا خير يُرجى من كتابة ما يغضب الناس ولا سيما في الامور الدينية التي هي أعز شيء عند الانسان ، مهما كان دينه . قال الله تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن) فالحمد لله على نعم تعليم القرآن المجيد ، الذي لولاه لكنا مثل أولئك المبشرين ومن نحو نحوهم ، الذين ألفوا تلك الكتب السافلة المشحونة بالباطل والتطاول والافتراء وغير ذلك مما هو من اخلاقهم وخصالهم .

وانا نلفت نظار القارئ الفاضل الى امر ذي بال وهو اقتصارنا على ما جاء

في التوراة والانجيل كي لا يقدر احد منهم على نسبة الكلام الينا كما فعلوا بنسبة كلام العلماء الا وروبيين الذين استشهدنا بكلامهم في كتابنا (العقائد الوثنية) الينا ، مع اننا ذكرنا اسماءهم بالعربية والافرنجية ، ولننظر الآن ما ذا يقول أولئك القوم الذين ألفوا تلك الكتب السافلة ضد دين الاسلام المبين .

(الحد الاول من حدود الزنا)

عقد الفصل الـ٣٨ من سفر التكوين من اوله الى آخره لبيان زنا القديس (يهوذا) بكنته (ثامار) وحملها منه . وانها وضعت ولدين ذكرين سماهما (فارص) و (زارح) والمبشرون المؤلفون لتلك الكتب والرسائل يقولون : ان فاديهم ومخلصهم وخالقهم « يسوع المسيح » من سلالة (فارص) المباركة وبما ان هذه القصة الشريفة لها علاقة مهمة مع هذا الرب المختار الولادة من الزنا نأتي عليها باختصار ، ومن يحب الزيادة فليقرأ الفصل المذكور ير فيه ما ملخصه أن يهوذا نزل عند رجل عدلامي اسمه (حيرة) فرأى ابنة رجل كنعاني اسمه (شوع) فأخذها ودخل عليها وولدت له ثلاثة اولاد ذكور اسم الكبير (عير) والثاني (اوثان) والثالث (شيلة) ولما كبر عير اخذ له زوجة من بنات الكنعانيين اسمها {ثامار} فعمل الشر بعيني الرب فأهلكه فأمر يهوذا ابنه { اوثان} بأن يأخذ زوجة اخيه ويقيم له نسلا فزوجها اوثان . وبما ان النسل الذي يأتيه منها يعد نسل اخيه لا نسله صار اذا ضاجعها يفسد على الارض { أي يعزل ماءه} لئلا تحمل منه فأماته رب التوراة وأبقى اباه القديس لانه لما زنى بها لم يفسد على الارض ولما مات أمرها يهوذا بأن تقعد أرملة ببيت ابيها وانه متى كبر ابنه شيلة يعطيها اياه زوج لها وقال في نفسه ربما يعمل كما عمل اخواه فيميته الرب مثلهما . فذهبت الى بيت ابيها ومضت الايام وكبر { شيلة } ولم يعطه لها . وبلغها ان حماها المذكور (القديس يهوذا) ذاهب الى{تمنة} مع صاحبه العدلامي ليقص صوف غنمه فخلعت ثياب ترملها وغطت وجهها وجلست على طريق (تمنة) فلما رآها ظنها هذا القديس زانية وراودها عن نفسها فقالت له : ماذا تعطيني ؟ فقال لها اعطيك جدي معز أبعثه لك . فقالت له أعطني رهنا فأعطاها عصابته وخاتمه وعصاه وزنى بها . ولما وصل الى تمنة ارسل لها الجدي مع صديقه العدلامي ليفتك الرهن . فلم يجدها فرجع واخبر يهوذا . فقال له لتذهب بما معها كي لا يلحقنا عار . فحبلت منه ووضعت ولدين ذكرين سمتهما «فارص» و «زارح» ويسوع المسيح من نسل فارص المبارك

ولنا على هذه القصة عدة أسئلة وملاحظات مهمة ذكرناها في كتابنا «مقام عيسى المسيح عليه السلام في النصرانية والاسلام» نذكر منها هنا مسألتين فقط لأن قصدنا الاختصار كي لا نضيع كثيرا من صفحات المنار الأغر لأن عليه أداء خدمات اسلامية مهمة ٠

(أولاهما) تقول التوراة انه ظنها زانية لأنها كانت مغطية وجهها. وهذا باطل عقلا ويكفي لرده واظهار بطلانه ماجاء في التوراة والانجيل (منها) في قول سفر التكوين (٢٤ : ٦٤ و٦٥ ورفعت رفقة عينيها فرأت اسحق فنزلت عن الجمل وقالت للعبد من هذا الرجل الماشي في الحقل للقائنا ؟ فقال العبد هو سيدي. فأخذت البرقع وتغطت) وجاء في الرسالة الاولى الى أهل كورنثوس (١١ : ١٦ « لان المرأة ان لم تتغط فليقص شعرها أو يحلق وان كان عيبا على المرأة ان يقص شعرها أو يحلق فلتتغط) فالحجاب علم المخدرات الطاهرات ، وسمة الخيرات الطيبات، كما ان التبرج والابتذال من علامات الفواجر الزانيات

(ثانيتهما) تخبرنا التوراة عن ذهاب يهوذا مع صاحبه العدلامي ، وانه كان معه لما راودها عن نفسها ، وانه أرسل الجدي الوديع معه، وأنه لم يجدها وغير ذلك ، لكنها لم تذكر هل زنى بها هذا العدلامي أيضا أم لا ؟ ويدل العقل والعادة بين الفساق في هذه الامور التي يشتركون فيها وارسال الاجرة أي الجدي اليها معه على أنه زنى بها مع يهوذا . واذا صح هذا فمن المحال معرفة ممن كان الحمل وربما حملت من كل واحد بولد ، ولا يبعد حينئذ ان يكون زارح ابن يهوذا ، وفارص ابن العدلامي . وكيفما كان فان هذا الجد الاعلى للمسيح قد خلق من ماء الزنا

(الجد الثاني)

جاء في سفر يشوع بن نون مانصه (٢ : ١) «فأرسل يشوع بن نون رجلين من شطين جاسوسين تحت الخفاء قائلا امضيا انظرا الارض واريحا ٠ فانطلقا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب وباتا عندها » وجاء في هذا السفر ذاته (٦ : ١٧) ولتكن المدينة بكل مافيها مبسلة للرب ، ولكن راحاب الزانية تحيا هي وجميع من معها في بيتها » انتهى

وهذه راحاب الزانية زنى بها سلمون وهو من سلالة فارص الذي هو الاصل الاول من اصول الزنا المقدس. فحبلت ووضعت (بوعز) الذي من سلالته جاء «حمل الله الوديع »وما قلناه بخصوص عدم معرفة الحمل ممن كان عند ذكرنا الجد الاول ،

هل كان من يهوذا او من العدلامي ؟ نقوله هنا أيضا . لان كلا الجاسوسين باتا عند هذه الزانية فكيف يعرف ممن علقت ؟

{ الشاهدالثالث} في سفر الملوك الثاني {١١ : ٢-٥} نقلنا هذه الاعداد عن التوراة المطبوعة بمطبعة اليسوعيين بمدينة بيروت. واسم هذا السفر في توراة الابروسطانت(سفر صموئيل الثاني) : « وكان عند المساء ان داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى عن السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة جدا ، فارسل داود وسأل عن المرأة فقيل له هذه بتشابع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي ، فارسل داود رسلا وأخذها فدخلت عليه فدخل بها ، وتطهرت من نجاستها ورجعت الى بيتها ، وحملت المرأة فارسلت واخبرت داود وقالت انني حامل» انتهى فوضعت ولدا ومات ثم زنى بها ثانية (على زعمهم) فحبلت ووضعت سليمان وهو الاصل الثالث من الثالوث الزاني

و بما اننا قصدنا الاختصار بقدر الامكان لذلك لم نكتب ماجاء في تفاسيرهم على التوراة والانجيل وان كان موجودا في كتابنا ، لان على المنار الاغر خدمات عظيمة فلا نضيع من صفحاته اكثر من هذا القدر

فهذا ماعندهم وهذامايدعون الناس الى الايمان والاهتداءبه ، واما ماعندنا وندعو اليه أهل الفضل والعقل بعد تبرئة انبياء الله من الفسق والفجور فهو :

اعتقاد المسلمين

طهارة نسب عيسى المسيح عليه السلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابرهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * اذ قالت امرأة عمران رب اني نذرت لك مافي بطني محرّرا فتقبل مني انك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها انثى ، والله اعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالانثى ، وإني سميتها مريم وإني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا)

وقال الله تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر ابراهيم عليه وعلى آله الصلاة والسلام

{ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب، وآتيناه أجره في الدنيا وإنه الآخرة لمن الصالحين}

الله أكبر ! فلينظر المبشرون والاب لويس شيخو ـ الذي الف رسالة منذ بضع سنين وسماها (خرافات القرآن) وقد ترجمها المبشر المدعو « زويمر » (١) ونشرها في مجلته « العالم الاسلامي » ـ الى اعتقاد المسلمين بطهارة نسب عيسى المسيح عليه السلام . فانهم اذا نظروه من جهة القرآن المجيد يرونه من سلالة طيبة زكية حماها الحي القيوم من التلطخ بأقذار وادران الزنا والسفاح · فلينظروا أي الوصفين أحب اليهم بحق هذه الذات الشريفة وليتمسكوا به · وايم الله اننا ما كنا نحب كتابة ما ذكرناه على هذا الموضوع غير أن ضرورة الحال تدعنا

اعتقاد المبشرين

أن المسيح إلههم صار لعنة

والعياذ بالله تعالى

قال مقدسهم بولس في رسالته الى أهل غلاطية الاصحاح الثالث العدد (٣ : ١٣) «المسيح افتدانا من لعنة الناموس اذ صار لعنة لاجلنا لانه مكتوب : ملعون كل من علق على خشبة »

يعلم الناس ان النصارى يعتقدون أن المسيح هو إلههم وربهم وخالقهم ومخلصهم، وكتابهم المقدس يلقنهم أنه « صار لعنة » واللعنة غاية المبالغة في الشتم والازدراء وليس بعدها زيادة لمستزيد ، واي شيء يمكن ان يؤتى به ويكون اشد قبحا من قول مقدسهم إنه « صار لعنة » اي انه نفس اللعنة ؟ فما هذا الحب الذي قادهم الى القول بألوهيته من جهة ثم قادهم الى القول بأنه « صار لعنة » من جهة أخرى؟ ! · دع اعتقادهم بأنه من سلالة زناء مثلث كما بيناه سابقا ، فهم والحالة هذه اسوأ حالا من اشد اعدائه ، لأن مقام العداوة لايطلب الا اقبح الاوصاف ، ومقام المحبة لا يطلب الا احسنها واكملها ، فهم يدعون محبته عليه السلام ويعتقدون انه خالقهم ورازقهم وفاديهم ومخلصهم ، ثم يصفونه بهذا الوصف · · · فما بالهم لايتدبرون ما يعتقدون! ·

(١) هو زويمر الذي حرأ دعاة النصرانية في مصر وبلاد العرب على الغلو في الطعن في الاسلام واهانة المسلمين وتهييج العداوة بينهم وبين النصارى

وبما انه إله على حسب اعتقادهم - والعياذ بالله تعالى - فمن ذا الذي صيره لعنة ؟ هذا ما نود ايضاحه منهم ! وأغرب من ذلك اعتقادهم أن الإله ذو ثلاثة أقانيم (اي اشخاص) وهي الآب والابن والروح القدس ، وان هذه الاقانيم الثلاثة هي إله واحد . فكيف صار الابن الذي هو ثلث إلهم « لعنة » دون الثلثين الآخرين ، اي الآب والروح القدس ؟ وما داموا يقولون بأن الثلاثة واحد حقيقة فلا بد من دخولهم جميعا تحت اللعن بهذا الاتحاد ! ! فتدبر هذا وسلهم : من اللاعن ؟ ومن هو يا ترى ؟

(ستأتي البقية) عبد الوهاب وولده محمد طاهر

(المنار) قد غلا دعاة النصرانية في العام الماضي وفي هذا العام في الطعن بالاسلام قولا وكتابة ، فلم يكتفوا بصحفهم الدورية ، ولا بالكتب التي نشروها من قبل ، بل هم يلفقون رسائل جديدة بمعنى ما تقدمها في الطعن والقدح والتمويه ولكن تختلف اسماؤها واساليبها . وأكثروا المحافل والمجتمعات في القاهرة وسائر البلاد والقرى لاجل الدعوة الى النصرانية . ومن العجائب انهم كانوا من قبل أصحاب صبر واناة فخانهم الصبر في هذه السنة حتى صاروا يهينون من يرد عليهم في المجتمعات إهانة شديدة . وقد خدعوا افرادا من فقراء العامة بالمال وادرار الرزق فأظهروا التنصر ، ثم بدا لهم وندموا ، فصار من يريد الرجوع الى حظيرة الاسلام يهدد بالايذاء ، حتى اخبرنا بعضهم انه لا يمكنه الا ان يفر من القاهرة الى بلد آخر يظهر اسلامه فيه

لاجل هذا العدوان وجب علينا ان لا نقف عند حد رد مطاعنهم التي يكررونها كما كنا نفعل من قبل ، وان نبين لاخواننا المسلمين حقيقة دينهم والمقابلة بينها وبين ديننا ، وبيان أننا نحن نعظم المسيح ونكرمه بالحق ، فلا نحتاج الى من يدعونا الى الايمان به إيمانا يجمع النقائض ككونه واحدا وثلاثة ، ومقدسا ولعنة ، برأه الله مما قالوا . وهذا مما يجب علينا شرعا كالصلاة وغيرها من الفرائض . ولهذا نشرنا هذه الرسالة بعد تصحيحها . نعم انهم هددونا بالسلطة الانكليزية ، واغروا المعتمد الانكليزي بنا عسى ان يأمر الحكومة المصرية باقفال المنار ومقاومة (مدرسة دار الدعوة والارشاد) ومنع نظارة الاوقاف أن تساعدها بشيء من أوقاف المسلمين بعد أن صارت الاوقاف تحت سيطرته ، ليتسنى لهم ان يقولوا : ان جميع المسلمين في مصر عجزوا عن الرد عليهم ، وليكتفوا مؤنة من يرد عليهم في المستقبل اذا نجحت مدرسة دار الدعوة والارشاد (فاعتبروا يا أولى الابصار)

مطامع الدول فينا (*)

« وضعت الحرب أوزارها، واخمدت المدافع انفاسها، واعيدت السيوف الى اغمادها، وعادت الدول المتناجزة بالامس عن ميادين القتال الى ردهات المجالس فعقدت بعضها مع بعض معاهدات تضمن صيانة السلام الى حين . ثم خلت كل واحدة الى نفسها تناقشها الحساب، وتبحث في مآلها من الغنم . فكانت الهمة الاولى منصرفة الى اقتسام الاراضي المكتسبة . ثم الى النظر في ما اثرته النفقات الحربية في ميزانياتها، وما يقتضيه سد تلك الثغور من الاموال الطائلة ، وهي لا سبيل اليها الا بعقد القروض

« ولو انحصر الامر في الدول الخارجة من ميدان القتال لهان الخطب، ولكن ثمت دولاً أخرى أبت الا أن يكون لها من الغنيمة نصيب

« تنازلت تركيا لايطاليا عن ولاياتها الافريقية . ثم تخلت لحكومات البلقان عن ولاياتها الاوربية غير ولاية أدرنه . ثم تقاسمت الدول مابقي بشكل مناطق نفوذ كل واحدة بحسب ما توحيه اليها مطامعها في العلانية والجهر

« ورضيت انكلترا نصيباً لها سواحل خليج العجم من الاوقيانس الهندي الى البحر الاحمر . فأصبحت سلطتها مبسوطة على البلاد العربية من البصرة الى السويس ومن الخليج العجمي الى ترعة السويس . وأصبحت في يدها الطريقان البحريتان الموصلتان من املاكها الشرقية الى املاكها الغربية . واتصلت امبراطوريتها الاسيوية (الهند) بملكها الافريقي (مصر)

***

« أما ايطاليا ولية أمر طرابلس الغرب والواضعة يدها على جزيرة رودس وما جاورها من جزر البحر المتوسط فانها فازت بهذه البقعة الآهلة باليونانيين والاروام، والقائمة بين خط بغداد والارخبيل، ومعها ميناء اضاليا وخط حديدي يمتد الى الداخلية، ويتصل بالخطوط الالمانية ، - خط بغداد وخط أزمير

« وأما ألمانيا فكان نصيبها هذا الخط البغدادي الكبير بجملته لامسيطر عليها فيه ولا مهيمن ، وهو الذي طمحت اليه ، ومن ورائه مابين النهرين وكل البلاد الواقعة بين اسكودار والبصرة من البوسفور الى الخليج العجمي

« وان اتفاق بوتسدام مهد للالمانيين السبيل الى بلاد ايران اذ خولهم حق تمديد

(*) بقلم الموسيو فلورنش وزير خارجية فرنسا سابقا وترجمة جريدة الاهرام

خط حديدي من بغداد الى طهران . وفي مقابل ذلك جعلت حصة روسيا ارمينيا الكبرى . وهي تتناول الاراضي الواقعة الى شمال الخط البغدادي والى جنوبه بجملتها بين انقره وبغداد .

« على أن ثمت عقبة كان لا مندوحة عن تذليلها . فان الاستئثار بتلك البقاع الواسعة كان لا بد من تمويهه بحجة من الحجج ووسيلة من الوسائل فكانت هذه الوسيلة الاشغال العمومية والمشروعات النافعة الواجب اجراؤها . بيد أن روسيا لم يخطر لها أن تبذل أموالها الخاصة في هذا السبيل بل لجأت الى فرنسا . افليست هي على الدوام مستعدة لبذل أموالها استعداد تركيا للتخلي عن أراضيها ؟ وعلى هذه الصورة تم الاتفاق على أن فرنسا تتولى انشاء ميناءي ينبي بولي وهركله (على البحر الاسود) والخطوط الحديدية (سمسون ـ سيواس ـ ديار بكر ، وديار بكر ـ ارضروم ـ طرابزون) مع العلم بقلة ايراداتها المتوقعة ، لانها لازمة لروسيا تأييدا لموقفها السياسي والاقتصادي والحربي أيضاً ، وإن كان لا فائدة لنا نحن منه على الاطلاق . وانما اعطينا في مقابل ذلك البقعة السورية في جنوبي غربي خط بغداد ، مع حق انشاء ميناءي حيفا ويافا وتمديد خط رياق الحديدي الى القدس ، ثم الاتفاق على اقتسام النقل بين خط دمشق ـ حماه والخط الحجازي ، وكلاهما متصل بالسواحل السورية : الاول في بيروت والثاني في حيفا . وكلها امتيازات لا نفع لنا منها مادمت حكومتنا متغاضية عن معاهدنا الكاثوليكية في الشرق ، ضاربة بما لنا من الحق في حماية الاراضي المقدسة وحماية المارونيين عرض الحائط ، ومهدت للايطاليين قطع السبيل علينا بما ينشئونه لانفسهم في رودس واضاليا وطبرق وسراقوسه

« لا يتوهمن متوهم ان الدولة العثمانية بذلت كل ماتملك للآخذين على أنفسهم صيانة كيانها . كلا ! فهي لا تزال باقية لها الاراضي الواقعة على ضفتي المضايق . وما زالت في عهدتها حماية البوسفور والدردنيل (!!) وانه لشرف عظيم (!!) وفخر باق وإن كان يلقي على كاهل صاحبه مسؤوليات عظمى . ثم انهم لا يزالون مالكين ادرنه والاستانة وبروسه وأزمير واعقاعا مترامية الاطراف خصبة التربة تكفي ايراداتها ـ في مايقولون ـ لدفع فوائد ديونها المتراكمة (!!)

« بهذا التمزيق نجت الدولة العثمانية من الطور الثاني ، واعني به طور التقسيم أو طور التجزئة . بقي الطور الثالث واعني الحاجة الى المال . ومعلوم اننا نحن معاشر الفرنسيس لا نبرح أبداً من بال أحد متى بلغت المسائل هذا الطور واعني طور الدفع . اذن الى

فرنسا اتجهت الابصار للمطالبة بسد الفراغ الذي سببته هفوات وجنون بل جنايات الآخرين حتى يتهيأ لارباب الجشع والطمع ممن ذكر ان يستتبعوا تحقيق مطامعهم. اما مايطالبوننا به هذه المرة فثماني مئة مليون فرنك

« ولقد غامرت الامة الفرنسوية الى هذا الحين بمبالغ طائلة من توفيرات ابنائها في المشروعات العثمانية فلا ينكر عليها حق السعي في استرداد ذلك المال . ولكن هذا لا يجب ان تتخذ ذريعة لضحية مصالح البلاد في سبيل منافع بعض الماليين ، فبعد نكبات الجيوش العثمانية اتفقت الصحافة وأجمع الرأي العام في فرنسا والعالم كله على إلقاء تبعة تلك الانكسارات على عاتق جمعية الاتحاد والترقي . فان الاتحاديين هم المسؤولون عن سوء انتظام الجيش وسوء الادارة وضياع أموال الحكومة . وان هؤلاء الاتحاديين هم أنفسهم المتقلدون الاحكام اليوم وفي أيديهم التصرف بالاموال العمومية . وهم أنفسهم الذين يتطلبون اليوم الاموال الفرنسوية في حين ان لاستعمالها في فرنسا وجهة أولى وأنفع ، ولكن ما ثم من يعترف ، فان قلم المراقبة في وزارة الداخلية كان قد ألغي وأعاده المتمولون على شكل أضمن لمصلحتهم

« ومن أهم مايتهمون به جمعية الاتحاد والترقي نزعاتها الالمانية وهي تكاد تكون تحرشاً بنا . ثم يتهمونها بأنها ألقت بين يدي الضباط الالمانيين تنظيم جنديتها حتى ألقى بعضهم على الجنرال فندرغولتز تبعة انكسارات العثمانيين في قرق كليسه ولوله برغاس

« فلما استعاد الاتحاديون السلطة كان اول عمل قاموا به انتداب بعثة ألمانية جديدة لتنظيم الجيش العثماني . ورضي العاهل الالماني بايفاد ثلاثة وأربعين رجلا من ضباط جيشه الى الاستانة ، ولكنه اشترط أن تكون لهم مع تحمل المسؤلية السلطة الفعلية ، وان تكون القيادة العليا لزعيم البعثة ، وان يكون الضباط العثمانيون في الجيش خاضعين للضباط الالمانيين . ولما كان الخط البغدادي الذي يجتاز آسيا الصغرى من أدناها الى أقصاها - من خليج العجم الى البوسفور - وكل الخطوط الحديدية الاخرى فروعاً له ، هو الواسطة الوحيدة لتعبئة الجيش وحشده ، فان الجيش العثماني بقيادة الضباط الالمانيين سيكون بمنزلة احدى فرق الجيش الالماني ، فالثماني مئة مليون فرنك التي تطالبنا الحكومة العثمانية بها اليوم ستنفق في تسليح وتجهيز وتنظيم وتدريب جيش يكون في طليعة الجيوش المهاجمة لنا في أول حرب نخوض غمراتها . وتكون أموالنا نحن الفرنسويين قد تحولت الى حديد ورصاص يخترق صدور ابنائنا .

« ولقد بلغ من حرج الموقف ان الحكومة الروسية مع عدم رغبتها في انتهاج

خطة المجافاة والمشاكسة لم يسعها الا اقامة الحجة في عاصمة السلطنة . وليست، زارتنا الحربية والخارجية في فرنسا ببعيدتين عن وزارة المالية فجدير بوزيريهما ان يجتمعا بزميلهما ويكاشفاه بان في الحياة مواقف لا يجوز فيها تضحية الوطنية في سبيل مصالح بعض الافراد ، وان بعض القروض يجب مجانبة قبولها في بورصة باريز

« أما أنا فاني لا ابذل فلسا واحدا من مالي للذين يساومون في تربة الوطن وفي موارده الطبيعية تزلفا لبعض العظماء ،ولا اعتبر من يجود باموال الامة على هذه الصورة مؤتمناً أميناً

« رب قائل يقول ليس في الامر شيء مما تخشاه، وكل ماهنالك تفاهم بتبيين مناطق نفوذ كل دولة . نعم . ولكن لتحدث غداً فتنة أو ثورة أو مذبحة - وليس ذلك بالامر النادر حدوثه في آسيا الصغرى - اذن لانلبث أن نرى العمارة الايطالية في اضاليا ، والانكليز في الكويت ، والالمان في مرسين ، والفرنسويين في بيروت ، والروسيين في طرابزون . ومتى وطئت اقدامهم الارض فهيهات ان تتزحزح عنها . وان لدينا في موقف ايطاليا اليوم في جزر بحر ايجه خير شاهد ، فالامر اذن ليس ينحصر في تبيين مناطق النفوذ ، بل هو يتجاوزه الى تقسيم الاملاك العثمانية الاسيوية والسلام » .   (الاهرام)

ثم علقت الاهرام عليه بما يلي :

هذا هو كلام ذلك الوزير وهو لا يقول لنا شيئا لانعرفه ولكنه يقوله لنا ونردده على أنفسنا لنتعظ ونتخذ الحيطة ونعمل بقول الشاعر:

ماحك جلدك مثل ظفرك   فتول أنت جميع أمرك

(المنار) صدقت الاهرام إن هذا السياسي الكبير لا يقول لنا شيئا لانعرفه ، أي لا يعرفه أهل البصيرة منا ، ولكنهم - واحسرتاه ! - قليلون فينا والجمهور مغرور بما يرى حينا بعد حين من إيماض الذبال قبيل الخمود ، كلما أومض إيماضة حسبوا انهم في عالم الحياة النورانية داخلون، واذا أظلم عليهم عادوا في ظلمتهم يعمهون ، واذا صاح بهم المنذرون ، : ياقومنا فروا الى النجاة فانكم الى الذبح تساقون . وسوس لهم الموسوسون ، : ان هؤلاء قوم غاشون ، وعن حظيرة الاخلاص للاتحاد خارجون ، وبألسنة أعدائنا الافرنج ينطقون ، اما ترون وميض انوار التجديد ، يلوح لأعينكم من بعيد ، فابذلوا لهؤلاء المجددين كل ماتملكون من المال ، تنالون جميع الآمال !!

بينا في المجلد الماضي وفيما قبله ماوصلنا اليه من الخطر القريب ، وبينا ان الأوربيين لايقبلون ان يأخذوا بلادنا الا بالفتح السلمي المعبر عنه بمناطق الاقتصاد والنفوذ ، وبينا طريقة النجاة ولكن لمن لايسمع ولا يبصر ، وها نحن أولاء نرى غير الرسميين من ساسة الافرنج يصرحون بذهاب ملكنا تصريحا ، والرسميين منهم يصرحون بالعمل ويعرضون بالقول تعريضا وحسبنا ان نصحنا وأدينا الأمانة ، وان عرضنا نفسنا للأذى والاهانة .

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

﴿ تاريخ حرب البلقان الأولى ﴾

« بين الدولة العلية والاتحاد البلقاني »

عني يوسف افندي البستاني أحد محرري الجريدة اليوم ، بتتبع حوادث هذه الحرب من أول العهد بنشوب نارها ، الى ان خمدت ووضعت أوزارها ، وقرأ ما كتبه أشهر كتاب الافرنج في الجرائد الاوربية ، وما ألفوه من الكتب في ذلك . وما كانت تنشره الجرائد العربية لمراسليها في الآستانة وغيرها . فاتخذ ذلك مادة لوضع تاريخ لهذه الحرب كتبه بمداد الروية والاعتدال ، فجاء تاريخا مفيدا جامعا لما فيه العبرة النافعة ، والموعظة الصادعة ، بعيدا عن لغو القول وهرائه . وبلغت صفحاته ٣٢٧ ماعدا صفحات المقدمة والصور والرسوم . (وفيه ٤٠ رسما وخريطتان) وقد كتب في الحرب عدة مصنفات عربية لا تعد شيئا مذكورا مع هذا الكتاب فينبغي ان يكون معول قراءة العربية عليه دونها . وهو يطلب من مكتبة المنار بمصر وثمن النسخة منه خمسة عشر قرشا خلا أجرة البريد

﴿ بيلكي مجموعه سي ﴾

مجلة علمية شهرية تركية تصدر في الآستانة العلية صفحاتها ٩٦ قيمة اشتراكها في الممالك العثمانية عن سنة واحدة نصف ليرة عثمانية وفي روسية خمس روابل ونصف و١٥ فرنكا في سائر الممالك وهي مطبوعة طبعا جيدا على ورق نظيف وثمن العدد

(*) كتب تقاريظ هذا الجزء شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

الواحد خمسة قروش عثمانية

(مجلة الناشئة) مجلة شهرية تبحث في الناشئة وشؤونها يحررها طلاب المدرسة العلمية الوطنية في دمشق ، قيمة الاشتراك السنوي ١٥ قرشا ولتلاميذ المدرسة ١٠ قروش . ويضاف الى ذلك اجرة البريد للخارج . وصفحاتها ٣٢ بالقطع الصغير . فنحث على مطالعتها تنشيطا لمحرريها واطلاعا على سير العلم في نابتة الامة

(لسان العرب) مجلة تاريخية اجتماعية ادبية مصورة لمنشئها أحمد عزت الاعظمي صفحاتها ٥٦ مطبوعة على ورق جيد ، قيمة اشتراكها السنوي ثلاثة ريالات مجيدية في الممالك الاجنبية وللطلبة بنصف القيمة وعنوانها « الاستانة . شارع ابو السعود . صندوق البريد عدد ١٤٩ . ولهذه المجلة مكانة في نفسي وارجو أن اوفق الى قراءة مالدي من اعدادها فاعود الى تقريظها بالتفصيل الذي يليق بها

(مجلة كمال) مجلة ادبية فكاهية شهرية (سنتها عشرة أشهر) مطبوعة على ورق نظيف طبعا نظيفا صفحاتها ٩٦ بقطع المنار . يصدرها في بيروت كمال افندي عباس . قيمة اشتراكها في البلاد العثمانية ريالان مجيديان وفي مصر والبلاد الاجنبية عشرة فرنكات

(المرآة) جريدة اسبوعية مصورة سنتها خمسون عددا ، صفحاتها ٢٨ وهي في شكل مجلة من المجلات ذات الصفحات الكبيرة يصدرها في بيروت خليل افندي زينية المعروف لدي كتاب وقراء العربية ، قيمة اشتراكها السنوي في بيروت ٨٠ قرشا سوريا وفي لبنان وسائر الولايات العثمانية ٢٠ فرنكا وفي الخارج ٢٥ فرنكا

باب الاخبار والآراء

لا بابوية في الاسلام * ولا تباع شفاعة خير الانام

ذكرنا في الجزء الماضي ان بعض المنافقين زين للاتحاديين ان يستغلوا حجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم بوضع دفاتر فيها يكتب فيها اسماء الناس الذين يبذلون لهم الذهب الاحمر لتكتب اسماؤهم في تلك الدفاتر ، وبينا قباحة هذه البدعة المشتملة على عدة جرائم منكرة ، وبينا ان سلف الامة الصالح ما كانوا يتسامحون في إحداث بدعة من العادات المباحة في مسجد الرسول (ص) لئلا يدخل محدث ذلك والراضي به في عموم قوله (ص) « من أحدث في مسجدنا هذا حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » وهو الحديث الذي احتج به الامام مالك على ابن مهدي العالم الزاهد لما

صلى على ثوبه . وبنينا على ذلك اننا لا نظن ان جمعية الاتحاد والترقي تقبل هذا الاقتراح ، ولا ان الحكومة تنفذه

ثم بلغنا بعد ذلك انموضوع المشروع ان تسمى تلك الدفاتر دفاتر المستشفعين. أي ان كتابة الاسماء في تلك الدفاتر طريق أو سبب لشفاعة النبي(ص) فهي اذا عبارة عن بيع شفاعة المصطفى (ص) لمن يريد ان يشتري ، وان أقل ثمن لها ليرةعثمانية!!!

الشفاعة لاتملك فتباع ، ومن يدعي ان كتابة اسم أحد ووضعه في الحجرةالنبوية يكون سببا لشفاعة الرسول (ص) له فهو مفتر على الله ورسوله ، لأن هذا أمر لايعلم الا بوحي من الله ، ولو أنزل الله تعالى فيه شيئا يدل عليه بالنص أوالفحوى لكان أجدر الناس بمعرفته والعمل به الصحابة (رض) ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .

لهذا ننصح للذين لايعرفون أصول الدين وفروعه من رجال الدولة الاتحاديين أن يجتنبوا هذه البدعة، فليست هذه المسألة كغيرها من الامور التي تجرءوا عليها. وليتذكروا ان مسألة بيع البابوات للغفران هي التي احدثت الانقلاب الديني العظيم الذي آل الى سلب السلطة السياسية من البابوات ، بعد حروب شابت من هولها الولدان . على ان بيع الغفران له وجه ما في دين النصارى اذ يحتجون عليه بقول اناجيلهم ان ما يحلونه او يعقدونه في الارض يكون كذلك في السماء : وبيع الشفاعة بدعة في الاسلام ليس لها وجه ولا شبهة . بل تدل الحجج الكثيرة على بطلانه وقرنه بالشرك بالله تعالى لانه قول على الله بغير علم ، وشرع لم يأذن به الله ، وزيادة في الدين الذي اكمله ، وداخل في عموم الاحداث والبدع التي نهى وحذر الشارع منها ولعن محدثها . والآيات والاحاديث في هذا كثيرة . تدعمها الآيات الناطقة بأن يوم القيامة لايملك فيه احد لاحد شيئا لاشفاعة ولا غيرها «والامر يومئذ لله» وحده فلا يشفع احد عنده الا باذنه ولا يأذن الا لمن رضي له قولا (ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) واجمع المسلمون على انه ليس لاحد ان يجزم بمستقبل احد في الآخرة الا بنص من الشارع ؛ فليس لاحد من رجال الحكومة العثمانية ولا غيرهم أن يدعي ان النبي (ص) يشفع له او لاحد معين ، فمن لا يملك الشفاعة لنفسه ، كيف يبيعها لغيره ؟ فان كانوا في شك من نصحنا لدينا ولهم في هذه المسألة فليعرضوها على علماء الفتح وعلماء السليمانية في عاصمتهم ويطلبوا منهم إبداء رأيهم فيها بالحرية التامة . وربما نعود الى بيان ذلك بالتفصيل، ودلائل السنة والتنزيل، « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل »

﴿ جمعية خدام الكعبة في الهند ﴾

جاءنا من هذه الجمعية رسالة وجيزة ملخصها ان الدولة العثمانية اصبحت على خطر مما يبيت لها الاعداء ، وان اكبر أماني المسلمين ان تكون غنية قوية ، وان مؤسسي الجمعية احسوا بما سيصيب الحرمين الشريفين من المصائب الحاضرة فأسسوا هذه الجمعية لا يقصدون منها « الا مساعدة الدولة العثمانية في المحافظة على الحرمين الشريفين وبذل المال والنفس في سبيل حمايتهما من الغوائل » ومن ذلك تعليم العرب الذين يقطعون السبل على الحجاج . كل هذا حسن . ولكن جاء بعده ان الجمعية تريد إنشاء جريدة باللغتين العربية والاوردية . قال الكاتب « حتى تنشر افكارنا في جميع البلاد الاسلامية وننبه المسلمين الى ما يجب عليهم نحو دينهم ودولتهم الوحيدة » الخ وهذا هو الامر الذي لم نفهمه :

جمعية خدام الكعبة انشئت لخدمة الحرمين الشريفين فكيف يجوز لها صرف المال الذي تجمعه للحرمين الشريفين في انشاء جريدة سياسية . وما هي هذه الافكار التي يريد رئيس تحرير الجريدة ان يبثها في العالم الاسلامي ؟ هل هي افكاره ام افكار الذين يتبرعون بالمال لخدمة الحرمين الشريفين ؟ ومن اين وقف على افكارهم ؟ وهل دفعوا المال لاجل نشر الافكار السياسية أم لاجل خدمة الحرمين ؟

قد بينا رأينا من قبل في هذه الجمعية وفيما يجب ان تكون عليه فلا نعيده . ونقول الآن انه لا يجوز لها بحسب قانونها الذي نشرناه وبحسب ما اقترحناه من تعديله ان تنفق شيئاً من مالها على انشاء الجرائد ، فهذه الفكرة الجديدة قد ازالت ثقتنا بالجمعية الا ان يرجعوا عنها .

أما مساعدة الدولة العثمانية بالمال والنفس فهو عمل نشكره لكل من قام به في الهند وغيرها فمن شاء فليؤلف له جمعية مستقلة ولينشئ له ما شاء من الجرائد بما شاء من اللغات . واما خدمة الكعبة والحرمين الشريفين فيجب ان يكون بمعزل عن السياسة واهلها . وهو عمل تخدمه جميع الجرائد الاسلامية في جميع الاقطار وتنشر لجمعيته ما شاءت من غير أجرة فلا يحتاج الى جريدة خاصة .

ان مساعدة الدولة بالمال والنفس وبث فكرة الجامعة الاسلامية يوشك ان تقاومه حكومة تلك البلاد وتبطله وتصادر جريدته ، فاذا كان ملصقا بجمعية خدام الكعبة يوشك ان يكون شؤما عليها وسببا لزوالها . لاجل هذا نحب ان تكون بمعزل عن السياسة . ومادمنا نرى هذا الرأي فاننا ننصح لكل مسلم أن يقاوم هذه الفكرة الجديدة التي عزمت عليها جمعية خدام الكعبة ، لتكون جمعية خيرية محضة ، والسلام على من اتبع الهدى ، ورجح الحق والمصلحة على الهوى .

﴿ مفاسد المتفرنجين ، في أمر الاجتماع والدين ﴾

يهاجم الاسلام والمسلمين جيش خارجي من دعاة النصرانية ، وجيش آخر داخلي من دعاة التقاليد الافرنجية . والثاني أنكى من الأول وأضر ، وأدهى وأمر ، لأن جل أفراده من المارقين الذين يعدهم المسلمون منهم وما هم منهم ، ولسبعون عدوا خارج الدار ، أهون من عدو واحد في الدار . فقد تمر السنون ودعاة النصرانية تبح أصواتهم من الصياح بالخطاب والجدل ولا يقع في شركهم في القطر الكبير الا واحد أو آحاد يلجئهم الفقر الى ان يكونوا من خرافهم ، لانهم يجدون من المرعى عندهم مالا يجدون عند غيرهم . وقد ورد في الحديث « كاد الفقر ان يكون كفرا » وقلما تجد واحدا من هؤلاء الخراف يأنس مرعى له خارج دمنتهم الا ويتفلت منها

وأما هؤلاء المنافقون المتفرنجون فانهم يغشون المسلمين بأنهم منهم ، ينفعهم ماينفعهم ويضرهم مايضرهم ، وانهم إنما يدعونهم الى الترقي عما هم عليه الى مدنية أعلى وحضارة أسمى ، وهي أن يكونوا مثل الافرنج في عزهم وثروتهم وزخرفهم ، ويحسبون لصغر عقولهم ، وقصر نظرهم ، ان مايفوقنا به الافرنج من الثروة وأسباب القوة ، قد جاءهم من رقص نسائهم مع رجالهم ، ومن اختلاطهن بهم في مجامعهم ومحافلهم ، — أو من عدم مبالاة كثير منهم بالدين ، وان كان الاكثرون يتعصبون له ويبذلون له الملايين . — أو من عاداتهم في طعامهم وشرابهم وأزيائهم ، وفسقهم وفجورهم ، واجتماعهم وافتراقهم ، فطفقوا يقلدونهم في شر ما عندهم ، ويدعون المسلمين الى تقليدهم في أمثال هذه الظواهر ، على ان منها ماهو من سيئات مدنيتهم وقبائحها التي ينكرها عليهم حكماؤهم وعقلاؤهم ، ومنها ماهو مناسب لطبيعة بلادهم وأجيالهم دوننا ، ومنها مالا نفع فيه ولا ضر لذاته ولكنه يضرنا من حيث هو تقليد لهم يضعف روابطنا القومية ، ومشخصاتنا الاجتماعية ، ويحقر أمتنا في أنفسنا ويعظم أممهم فيها ، فيكون تمهيدا لقبول سيادتهم علينا بغير امتعاض ، دع ما يتوقف عليه البقاء من الجهاد .

وقد قوي هجوم هؤلاء المتفرنجين في فاتحة هذا العام فكان أشد مما كان عليه في العام الماضي ، فكان شأنهم معنا كشأن دعاة النصرانية سواء . ومنبت هذه الفتن ومطلع رؤوس شياطينها الآستانة ومصر ، وقد اشتركت المدينتان في مسألة الدعوة الى تهتك النساء باسم تحرير المرأة ، وامتازت الآستانة بالغلو في عصبية الجنسية ، وقطع ما امر الله به ان يوصل من الوشائج الدينية ، بمثل كتاب (قوم جديد) و (ترجمة القرآن) بالتركية وغير ذلك .

ان الاستانة ومصر فرسا رهان في تهتك النساء وفي تجرئ المتفرنجين على ذلك ، وقد نشر بعض الشبان في الجرائد المصرية دعوة الى جمعية تسعى لهتك ما بقي من آثار الحشمة التي يسمونها حجابا و إبطال ذلك بالفعل ، وعقدوا اجتماعا في ادارة (الجريدة) التي هي لسان حالهم واقنعوا بعض النساء بحضوره حاسرات فهجم بعض الشبان عليهن لمعانقتهن وتقبيلهن فنعهم آخرون . وقد اختلفت الروايات علينا في تفصيل ما كان في هذا الاجتماع فلا نجزم بشيء منه ولا فائدة في شرحه .

قام هؤلاء الشبان بهذه الدعوة في وقت جاءتنا فيه البرقيات الاوروبية ببيان ضرب من ضروب فضائح اختلاط النساء بالرجال ما كان يذاع مثله من قبل . وهو انه قد افتض عدة من العذارى اللواتي يتلقين العلوم العالية في مدارس المانية الجامعة . هذا وان الالمانيين اشد عناية من السكسونيين - دع اللاتينيين - في التربية الدينية والصيانة المنزلية . وان كثيرا من الدعاة الى تهتك النساء الذي يعبرون عنه بتحرير المرأة ، لا يبغون الا ان يمهدوا السبيل لانفسهم للتمتع بالحسان من ثيبات وابكار ، وقليل منهم يريد الظهور بلباس المصلح المدني وهو عاجز عن كل اصلاح فلا يرى اهون عليه من اللغط بالكلام في هذه المسألة ، لانه لا يتوقف على علم ولا عمل ، فما على اللاغط الا أن يبرز ما كتب غيره من قبل في قالب جديد ، ويزيد عليه من لغو الكلام ما يشاء ان يزيد .

يقول لي أهل الصيانة مالك لا ترد على مايكتب هؤلاء المفسدون ، فمنك نطلب ، وإياك نرجو ، أن تتبع عوارهم ، وتقلم أظفارهم ، وإني أرى ان الذين قاموا في وجوههم صائحين متهكمين قد كالوا لهم الصاع صاعين أو عدة آصع ، وليس عندهم شبهات قوية تحتاج الى علم واسع وحجج قيمية . بل لا يكاد يفهم مرادهم من كلامهم ، ولا أراهم يبينون ما يريدون . فليست المرأة مستعبدة فيكون طلبهم تحريرها طلب حق لها شرعي أو عقلي ، وليست محجوبة في مصر حجابا مانعا لها من التصرف والرياضة ولا التبرج المذموم أو غير المذموم بل هي تفعل ما تشاء . الا ان القاعدة العامة في نساء الاغنياء والمتوسطين في المدن انهن لا يحضرن أندية الرجال ومجامعهم العامة ، وأما المجالس الخاصة والمحاكم ومحال التجارة فيحضرها كثير منهن . وانهن لا يخلون بالرجال الاجانب في البيوت الا شذوذا . فالظاهر أن هؤلاء المتفرنجين يطلبون الآن إبطال هاتين العادتين دفعة واحدة . ولا يشك ذو عقل ان ذلك مما يستشرى به الفساد ، وتتفاقم به فوضى الاعراض ، وليس له حسنة تمحو سيئة من سيئاته ، على ان دفع

المفاسد مقدم عقلا ونقلا على جلب المصالح ، وابن هي في مسألتنا ·

إن نساءنا في حاجة الى علم وأدب تثقف بهما عقولهن ، وتصلح بهما عاداتهن ، ويقدرن بهما على تدبير المنازل وتربية الاولاد ، ويكنّ عونا للرجال على تجديد حياة الامة الاجتماعية بمقوماتها ومشخصاتها من الدين واللغة والعادات الحسنة · ولا يتم هذا الا بتأليف جمعية من أهل البصيرة والرأي تنشئ المدارس الداخلية للتعليم والتربية الدينية والمدنية بالعمل · وجمعية أخرى للنساء المتعلمات المهذبات غير المفتونات بالتفرنج للبحث في إصلاح البيوت الموقت. والمتفرنجون لا يطلبون هذا وانما يودون ان ينسلخ جميع نساء المدن مما بقي من عاداتهن ويقلدن نساء الافرنج في الاختلاط بالرجال غير المحارم في البيوت والمجامع والأندية والملاعب والملاهي والمتنزهات ، وما يتبع ذلك من العادات في الزي والمعيشة ·

ولو فرضنا ان جميع ماينسلخن منه بهذه الصفة قبيح أو ضار من بعض الوجوه ، وجميع مايدخلن فيه حسن في ذاته ونافع لا هله ، لما صدنا ذلك عن إنكار هذا التحول والانقلاب ، لما يترتب على التغيرات القومية من المضار وضعف مقومات الامة ومشخصاتها ، وتراخي روابطها وانفصام عري جامعتها · وناهيك به اذا كان تقليداً لأمة أخرى تراها أرقى منها . فكيف اذا كان مايطلب من نسائنا التحول اليه إما قبيح ضار لذاته أو ضارّ بامتنا دون الافرنج

ان الضرر في تفرنج نسائنا أنواع : ديني وسياسي واجتماعي واقتصادي ، ولا يمكن شرح هذا في عجالة كهذه . ولكن التفرنج فتنة ، ولكل جديد لذة ، ونحن نرى ان مايطلبه المتفرنجون لنسائهم من هتك الحجاب الرقيق الحائل دون تمام التمتع ، وهو ماذكرناه من بقايا العادات ـ قريب غير بعيد ، فقد بدأ به بعضهم ولا أحد يقاوم سريان التقليد فيه · بأن الذين يسافرون بنسائهم الى أوربة يلبس نساؤهم مايلبس نساء الافرنج ويأكلن مع الرجال ويجالسن معهم في الملاهي والملاعب · ومنهم الذين يأمرون نساءهم بلقاء أصدقائهم ومجالستهم ومؤاكلتهم ، يكون هذا بينهم بالمبادلة وكل هذا لم يرض بعض الشبان لانه تدرج وهم يطلبون الطفرة . ومن تتبع عورات أولئك الهاتكين لأحسن مابقي من عادات نسائهم لرأى وسمع من الفضائح مايستحيا من نشره وتدوينه . وانا ليحزننا ان نرى هذه العدوى قد سرت الى بعض البيوت الطاهرة أيضا

وجملة القول ان متفرنجي مصر والآستانة يستعجلون بتغيير عادات النساء وأزيائهن والجمع بينهن وبين الرجال تقليدا للافرنج ، على انه ليس لهم ولا لنسائهم من علم الافرنج وتربيتهم وآدابهم وأخلاقهم الموروثة مايجمل المقلد التابع كامامه المقلد المتبوع ، فنحن

لا نعني بأشد ما نحتاج الى أنواع مثله من مزايا الافرنج وفضائلهم لان في تحصيله مشقة، بل نعني بمحا كاتهم في مظاهر الزينة واللذة ، وطالما أهلكت اللذة والزينة الامم القوية ، فكيف يكون فعلها بالامم الضعيفة ؟ ان مسلمي الهند من أشد أهل الارض مبالغة في حجب النساء ولم يمنع ذلك الطبقة العصرية منهم ان تكون أرقى من مثلها في الآستانة ومصر . ولكن من كان له هوى في شيء لا يلتفت الى مايخالف هواه، وان كان مؤيدا بأقوى الحجج ومبينا بأوضح الشواهد والامثال . فالمصريون والترك يريدون بالتفرنج ان يكونوا مثل الافرنج ، وهو الذي يبعدهم عن ان يكونوا مثلهم ، بما يجعلهم عالة عليهم ، ويذهب بما بقي من استقلالهم السياسي ، لانه منوط باستقلالهم الاجتماعي والخلقي ،

ان السواد الاعظم من الشعب التركي والشعب المصري عقت هذا التفرنج ، ولكن ليس للسواد الاعظم زعماء يستعملون قوته المعنوية في المحافظة على مقومات الامة ومشخصاتها مع اقتباس مايقويها من الفنون والصناعات العصرية . وأما المتفرنجون فهم على قلتهم يمتزون بالافرنج أنفسهم ، وناهيك بنفوذهم و سلطانهم ، وكون جل رجال الحكومة من سبك معاملهم . ولا حظ لهؤلاء الافرنج الا جعل جميع ممالك الشرق مزارع ومناجم لهم، وأهلها فعلة لخدمتهم، وسوقا لانواع سلعهم . ولله درهم ! فان أرقى ماوصلوا اليه من العقل والعلم هو ماجعلهم يتصرفون في الامم والشعوب كما يتصرفون في الحيوان والنبات والجماد

هذا ما أحببت أذكر به الكارهين لهذا الغلو والاستعجال ، بالجمع بين النساء والرجال ، وهو لا يغير شيئا من هذه الاحوال ، وانما الذي يمكن ان يغيرها هو العمل الذي أشرنا اليه دون سواه .

العصبية الجنسية

ان روح التعليم الأوربي والسياسة الاوربية أحدث في امم الشرق كلها نزعة جنسية. وقد كان المسلمون أبعد الناس عن هذه النزعة فلذلك كانوا ضعافا فيها، وكان العرب أشدهم بعدا عنها وضعفا فيها ، ولذلك كتبت في مقالات (العرب والترك) التي نشرتها في الآستانة ثم في المنار إن تكوين عصبية جنسية للعرب لايمكن ان يكون الا من عمل الآستانة

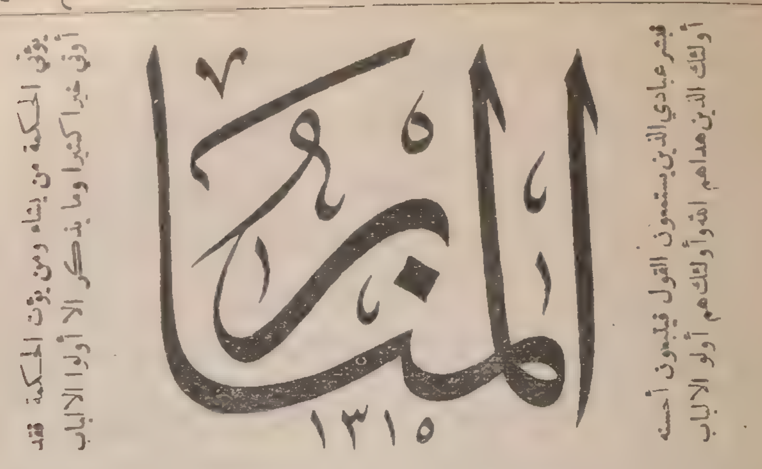
ان في الترك من غلاة العصبية الجنسية من يعز نظيرهم في غيرهم، واتفق ان كان زعماء جمعية الاتحاد والترقي من هؤلاء الغلاة . فلما صار اليهم أمر الدولة ، اندفعوا اندفاعا شديدا في تقوية العصبية التركية، ومحاولة تتريك جميع الشعوب العثمانية ، فهيجوا بذلك عصبية هذه الشعوب حتى نجمت قرون الفتن، وسفكت الدولة دماء غزيرة في

بلاد الارنؤوط وبلاد العرب ، وانتهت سياسة الشدة والقوة بحرب البلقان التي خذلت بها الدولة ، وورث البلقانيون جميع ولاياتها الاوربية الا (ادرنه) فبقيت لها ، وبلاد الارنؤوط فانها استقلت بنفسها . فاضطر الاتحاديون الى سياسة المداراة وتعزيز الجنسية التركية في نفسها بالمدارس ونشر الكتب والرسائل والصحف ، مع ترك سائر الشعوب العثمانية تخبط بجهلها اذا لم ترض الاصطباغ بالجنسية التركية في مدارس الدولة الرسمية ، والمدارس الاهلية التركية ، التي يجمعون لها الاعانات بنفوذ الدولة والخلافة من العثمانيين ومن مسلمي الممالك الاجنبية

يرى هؤلاء العاملون انه ليس في طريقهم عقبة تحول دون بلوغ المقصد بالسرعة التي يبغون من وراء هذا العمل الا حاجة الترك الى اللغة العربية لاجل الدين . ويرون أن هذا الدين ولغته مما يعيق تكوين أمة تركية ودولة تركية محضة على الطراز الافرنجي الفرنسي ، فاجتهدوا في ازالة هذا المانع بمزيلين (أحدهما) ترجمة القرآن بالتركية ودعوة الترك الى الاستغناء عن القرآن العربي بما سموه القرآن التركي ، واذا استغنوا عن القرآن يستغنون بالاولى عن غيره من كتب الحديث والتفسير والفقه وسائر العلوم والفنون العربية (الثاني) نشر الكتب والرسائل التي تجعل الجنسية التركية أعلى وأسمى في النفوس من رابطة الدين تمهيداً لنسخ الثانية بالاولى ، بمعونة الكتب الكثيرة التي تطعن في الاسلام ككتاب تاريخ الاسلام الذي ألفه أعداء الاسلام من الايطاليين وترجمه الدكتور عبد الله بك جودت بالتركية ، فكان له تأثير شديد عند طلبة المدارس العالية ولاسيما مدرستي الطب والحربية ، الذين لا يكادون يعرفون من الاسلام شيئا

وقد نشروا في الآستانة كتابا تركيا اسمه (قوم جديد) كان أنصح معبر عن رأي هؤلاء المتفرنجين من الترك ، ومما جاء فيه الانكار الشديد على وضع اسماء الخلفاء الراشدين وسبطي الرسول (رضوان الله عليهم) في ألوح معلقة في قباب المساجد التركية مع ان أولئك الرجال من العرب ، فالكتاب ينكر عليهم ذلك ويقول للترك أليس عندكم من الخلفاء والرجال العظام من الترك من هم خير من اولئك العرب . انزعوا هذه الاسماء وضعوا مكانها اسماء عظام الترك مثل طلعت بك وفتحي بك وانور بك « صلوات الله عليهم » (؟؟) ويقول إن كل من يساعد رجال الدولة على الاعمال العسكرية يكون أفضل من الائمة المجتهدين ومن شيخ الاولياء العارفين الشيخ عبد القادر الكيلاني الخ وهذا قليل من كثير ، والامر لله العلي الكبير .

(تنبيه) : سقط في الآية لفظ « في » في ص ١٠٧ السطر السادس فليصلح



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كنار الطريق

مصر ٣٠ ربيع الانور ١٣٣٢ هـ ق ٥ الشتاء الثالث ١٢٩٢ هـ ش ٢٥ فبراير ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٣٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٠) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ

ذكر الرازي ان وجه الاتصال والتناسب بين هذه الآيات وما قبلها يرجع الى سياق الكلام على أهل الكتاب لأن ما بعده جاء على سبيل الاستطراد ، وقد جاء في ذلك السياق ان اليهود قد هموا ببسط أيديهم الى الرسول و بعض المؤمنين

بالسوء وقصد الاغتيال ، لما كانوا عليه من العتو على الانبياء وشدة الايذاء لهم ، وانهم كانوا هم والنصارى مغرورين بدينهم ، يزعمون انهم ابناء الله واحباؤه ، فأرشد الله المؤمنين الى الحق وأمرهم بأن يتقوه و يبتغوا اليه وحده الوسيلة بالعمل الصالح ، ولا يكونوا كأهل الكتاب في افتتانهم وغرورهم . هذا معنى ما قاله . والوجه في التناسب عندي ان يبنى على اسلوب القرآن ، الذي امتاز به على سائر الكلام ، من حيث كونه مثاني للهداية ، والموعظة والعبرة ، لا تبلى جدته ، ولا تمل قراءته ، والركن الاول لهذا الاسلوب ان يكون الكلام في كل موضوع مختصرا مفيدا تتخلله اسماء الله وصفاته والتذكير بوحدانيته ، ووجوب تقواه والاخلاص له والتوجه اليه وحده ، و بالدار الآخرة والجزاء فيها على الاعمال . فبناء على هذا الاسلوب قفى الله تعالى على قصة ابني آدم وما ناسبها من بيان حدود الذين يبغون على الناس و يفسدون في الارض ، — بالامر بالتقوى أي اتقاء الحسد والبغي والفساد الذي هو سبب الخزي والعذاب في الدنيا والآخرة — و بابتغاء الوسيلة اليه تعالى والجهاد في سبيله رجاء الفلاح والفوز بالسعادة — و بوعيد الكفار الذين لا يتقون الله ولا يتوسلون اليه بما يرضيه ، فقال

﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة ﴾ اتقاء الله هو اتقاء سخطه وعقابه ، وسخطه وعقابه أثر لازم لمخالفة سننه في الأنفس والآفاق ، ومخالفة دينه وشرعه الذي يعرج بالأرواح الى سماء الكمال . والوسيلة اليه هي ما يتوسل به اي ما يرجى ان يتوصل به الى مرضاته والقرب منه ، واستحقاق المثوبة في دار كرامته . ولا يعرف ذلك على الوجه الصحيح الا بتعريفه تعالى ، وقد تفضل علينا بهذا التعريف بوحيه الى رسوله (ص) قال الراغب : الوسيلة التوصل الى الشيء برغبة ، وهي أخص من الوصيلة ، لتضمنها معنى الرغبة ... وحقيقة الوسيلة الى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة ، وهي كالقربة . اه وروي تفسير الوسيلة بالقربة عن حذيفة وصححه الحاكم عنه . ورواه ابن جرير عن عطاء ومجاهد والحسن وعبدالله ابن كثير . وروى هو وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في الآية انه قال : تقربوا اليه بطاعته والعمل بما يرضيه . وروى عن ابن زيد تفسيرها بالمحبة قال : أي تحببوا الى الله ، وقرأ (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة) وعن السدي انها المسألة

والقربة . وروى ابن الانباري ان نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن الوسيلة فقال الحاجة . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم اما سمعت عنترة وهو يقول :

ان الرجال لهم اليك وسيلة   أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

ولم يرو ابن جرير هذا ، واستدل بالبيت على تفسير الوسيلة بالقربة . وارادة القربة من البيت أظهر من ارادة الحاجة. على انه لا ينافيه، كما لا ينافيه تفسيرها بالمحبة . فان طلب الحاجة من الله ومحبة الله مما يتقرب به اليه. وتفسير الوسيلة بما فسرناها به أعم، وهو المطابق للغة . قال في لسان العرب: الوسيلة في الاصل ما يتوصل به الى الشيء ويتقرب به اليه. وذلك بعد ان فسر الوسيلة بالمنزلة عند الملك و بالقربة . وقال : ووسل فلان الى الله وسيلة، اذا عمل عملا تقرب به اليه، والواسل الراغب، قال لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم   بلى كل ذي رأي الى الله واسل

ثم ذكر من معانيها الوصلة والقربى . وانما يؤخذ عن أهل اللغة أصل المعنى ويرجح به بعض التفسير المأثور على بعض . وللوسيلة معنى في الحديث غير معناها هنا

روى أحمد والبخاري وأصحاب السنن الاربعة من حديث جابر ان النبي (ص) قال « من قال حين يسمع النداء (أي الأذان) : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا (١) الذي وعدته : الا حلت له شفاعتي يوم القيامة » وروى احمد ومسلم وأصحاب السنن الا ابن ماجه من حديث عبدالله بن عمر انه سمع النبي (ص) يقول « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ ، فانه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وتفسير النبي (ص) للوسيلة يؤيده قول نقلة اللغة ان من معانيها المنزلة عند الملك . فيظهر ان هذه الوسيلة الخاصة هي أعلى منازل الجنة . فمن دعا الله تعالى أن يجعلها للنبي (ص) كافأه النبي (ص) بالشفاعة وهي دعاء أيضا . والجزاء من جنس العمل . فالوسيلة في الحديث اسم لمنزلة في

(١) منصوب على الظرفية أي أقمه مقاما محمودا. وقيل ضمن ابعثه معنى اعطه. ولعل الحكمة في التنكير موافقة لفظ الآية . ورواه النسائي وابن حبان وغيرهما بالتعريف

الجنة معينة ، وفي القرآن اسم لكل مايتوصل به الى مرضاة الله من علم وعمل ﴿ وجاهدوا في سبيله ﴾ أي جاهدوا أنفسكم بكفها عن الاهواء ، وحملها على التزام الحق في جميع الاحوال ، وجاهدوا أعداء الاسلام ، الذين يقاومون دعوته وهدايته للناس . فالجهاد من الجهد وهو المشقة والتعب ، وسبيل الله هي طريق الحق والخير والفضيلة ، فكل جهد يحمله الانسان في الدفاع عن الحق والخير والفضيلة، أو في تقريرها وحمل الناس عليها، فهو جهاد في سبيل الله ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي اتقوا مايجب تركه، وابتغوا مايجب فعله، من أسباب مرضاة الله وقربه ، واحتملوا الجهد والمشقة في سبيله ، رجاء الفوز والفلاح ، والسعادة في المعاش والمعاد .

﴿ فصل في التوسل والوسيلة عند عامة المتأخرين ﴾

بينا معنى الوسيلة في الآية وما قاله رواة التفسير المأثور عن السلف فيها . ولم يؤثر عن صحابي ولا تابعي ولا أحد من علماء السلف أو عامتهم ان الوسيلة الى الله تعالى تبتغي بغير ماشرعه الله للناس من الايمان والعمل ومنه الدعاء . الا كلمة رويت عن الامام مالك لم تصح عنه بل صح عنه ماينافيها . وقد حدث في القرون الوسطى التوسل بأشخاص الانبياء والصالحين المتقين ، أي تسميتهم وسائل الى الله تعالى ، والاقسام على الله بهم ، وطلب قضاء الحاجات ودفع الضر وجلب النفع منهم عند قبورهم أو في حال البعد عنها . وشاع هذا وكثر حتى صار كثير من الناس يدعون أصحاب القبور في حاجاتهم مع الله تعالى ، أو يدعونهم من دون الله تعالى . « والدعاء هو العبادة » كما قال النبي (ص) رواه أحمد والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم عن النعمان بن بشير. والله تعالى يقول (فلا تدعوا مع الله أحدا) و يقول (ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) و يقول (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، و يوم القيامة يكفرون بشرككم . ولا ينبئك مثل خبير) ولكن بعض المصنفين زعم أنهم يسمعون، و يستجيبون للداعي . والناس يأخذون بمثل هذا القول المخالف لقول الله تعالى لعموم الجهل ، ومن المشتغلين بالعلم من يتأول لهم بأن هذا من التوسل

بهم . وقد حقق شيخ الاسلام احمد بن تيمية الموضوع بجميع فروعه . فكان ما كتبه في ذلك مصنفا حافلا سمي (التوسل والوسيلة) وقد طبعناه مرتين . ومما جاء فيه قوله . بعد بيان معنى الوسيلة في القرآن والحديث بنحو ما تقدم:

« وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته . والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الاقسام به والسؤال به كما يقسمون بغيره من الانبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح

« وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين، ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة * فاما المعنيان الاولان الصحيحان باتفاق العلماء فاحدهما هو أصل الايمان والاسلام وهو التوسل بالايمان به و بطاعته، والثاني دعاؤه وشفاعته كما تقدم. فهذان جائزان باجماع المسلمين. ومن هذا قول عمر بن الخطاب : اللهم انا كنا اذا اجدبنا توسلنا اليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا . أي بدعائه وشفاعته* وقوله تعالى (وابتغوا اليه الوسيلة) أي القربة اليه بطاعته: وطاعة رسوله طاعته ، قال تعالى (من يطع الرسول فقد اطاع الله) * فهذا التوسل الاول هو أصل الدين. وهذا لا ينكره أحد من المسلمين * وأما التوسل بدعائه وشفاعته كما قال عمر، فانه توسل بدعائه لا بذاته ، ولهذا عدلوا عن التوسل به الى التوسل بعمه العباس، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس، فلما عدلوا عن التوسل به الى التوسل بالعباس، علم ان ما يفعل في حياته قد تعذر بموته، بخلاف التوسل الذي هو الايمان به والطاعة له فانه مشروع دائما

« فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان (احدها) التوسل بطاعته فهذا فرض لا يتم الايمان الا به (والثاني) التوسل بدعائه وشفاعته وهذا كان في حياته ، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته (والثالث) التوسل به بمعنى الاقسام على الله بذاته. فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الادعية المشهورة بينهم * وانما ينقل شيء من ذلك في احاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة ، أو عن من ليس قوله حجة ، كما سنذكر ذلك ان شاء تعالى .

«وهذا هو الذي قال أبو حنيفة واصحابه انه لايجوز ، ونهوا عنه حيث قالوا: لا يسئل بمخلوق ، ولا يقول أحد: أسألك بحق انبيائك . قال أبو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بشرح الكرخي في باب الكراهة . وقد ذكر هذا غير واحد من اصحاب ابي حنيفة * قال بشر بن الوليد : حدثنا ابو يوسف قال قال أبو حنيفة : لاينبغي لأحد ان يدعوالله الا به ، وأكره (١) ان يقول بمعاقد العز من عرشك أو بحق خلقك . وهو قول ابي يوسف قل ابو يوسف : بمعقد العز من عرشه ، هو الله فلا اكره هذا ، واكره ان يقول بحق فلان ، أو بحق انبيائك ورسلك ، و بحق البيت الحرام والمشعر الحرام. قال القدوري: المسئلة بحقه لاتجوز ، لانه لاحق للخلق على الخالق فلاتجوز وفاقا *

« وهذا الذي قاله ابو حنيفة واصحابه من ان الله لايسئل بمخلوق له معنيان (احدهما) هو موافق لسائر الائمة الذي يمنعون ان يقسم احد بالمخلوق ، فانه اذا منع ان يقسم على مخلوق بمخلوق ، فلأن يمنع ان يقسم على الخالق بمخلوق اولى واحرى . وهذا بخلاف اقسامه سبحانه بمخلوقاته كالليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى ، والشمس وضحاها ، والنازعات غرقا ، والصافات صفا. فان اقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته و وحدانيته ما يحسن معه اقسامه ، بخلاف المخلوق فان إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من حلف بغير الله فقد اشرك » وقد صححه الترمذي وغيره ، وفي لفظ « فقد كفر » وقد صححه الحاكم . وقد ثبت عنه في الصحيحين انه قال «من كان حالفا فليحلف بالله » وقال « لاتحلفوا بآبائكم فان الله ينهاكم ان تحلفوا بآبائكم » وفي الصحيحين عنه انه قال «من حلف باللات والعزى فليقل لااله الا الله» وقد اتفق المسلمون على انه من حلف بالمخلوقات المحترمة أو بما يعتقد هو حرمته كالعرش والكرسي والكعبة والمسجد الحرام والمسجد الاقصى ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم والملائكة والصالحين وايمان السدق وسراويل الفتوة وغير ذلك لاينعقد يمينه ولا كفارة في الحلف بذلك

(١) اذا اطلقت الكراهة عندهم يراد بها كراهة التحريم

«والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور . وهو مذهب ابي حنيفة ، واحد القولين في مذهب الشافعي واحمد. وقد حكي اجماع الصحابة على ذلك . وقيل هي مكروهة كراهة تنزيه - والاول اصح - حتى قال عبد الله ابن مسعود وعبد الله ابن عباس وعبدالله ابن عمر : لأن احلف بالله كاذبا احب الي من أن احلف بغير الله صادقا : وذلك لأن الحلف بغير الله شرك، والشرك أعظم من الكذب . وانما نعرف النزاع في الحلف بالانبياء، فعن أحمد في الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم روايتان (احداهما) لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور مالك وأبي حنيفة والشافعي (والثانية) ينعقد اليمين به ، واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي وأتباعه . وابن المنذر وافق هؤلاء. وقصر أكثر هؤلاء النزاع في ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وعدى ابن عقيل هذا الحكم الى سائر الانبياء : وايجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وان كان نبيا قول ضعيف في الغاية، مخالف للاصول والنصوص، فالإقسام به على الله - والسؤال به بمعنى الاقسام - هو من هذا الجنس ،

«والذي قاله أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم من العلماء - من انه لا يجوز أن يسئل الله تعالى بمخلوق ، لا بحق الانبياء ولا غير ذلك - يتضمن شيئين كما تقدم (أحدهما) الاقسام على الله سبحانه وتعالى به، وهذا منهي عنه عند جماهير العلماء كما تقدم، كما ينهى ان يقسم على الله بالكعبة والمشاعر باتفاق العلماء * (والثاني) السؤال به ، فهذا يجوزه طائفة من الناس ونقل في ذلك آثار عن بعض السلف ، وهو موجود في دعاء كثير من الناس . لكن ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك كله ضعيف ، بل موضوع . وليس عنه حديث ثابت قد يظن ان لهم فيه حجة الا حديث الاعمى(١) الذي علمه ان يقول : اسألك واتوجه اليك بنبيك محمد نبي الرحمة *

« وحديث الاعمى لا حجة لهم فيه فانه صريح في انه انما توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته، وهو طلب من النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء ، وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم ان يقول « اللهم شفعه فيّ » ولهذا رد الله عليه بصره

(١) قد اطال الشيخ الكلام على حديث الاعمى فبين طرقه وعللها وبين ان ما سلم سنده منها يدل على ان الاعمى توسل بدعاء النبي (ص) لا بشخصه

لما دعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك مما يعد من آيات النبي صلى الله عليه وسلم . ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالسؤال به لم يكن حالهم كحاله

« ودعا امير المؤمنين عمر بن الخطاب في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والانصار وقوله « اللهم انا كنا اذا اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » يدل على ان التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته ، اذ لو كان هذا مشروعا لم يعدل عمر والمهاجرون والانصار عن السؤال بالرسول الى السؤال بالعباس . وساغ النزاع في السؤال بالانبياء والصالحين دون الاقسام بهم لان بين السؤال والاقسام فرقا ، فان السائل متضرع ذليل يسأل بسبب يناسب الاجابة ، والمقسم اعلا من هذا ، فانه طالب مؤكد طلبه بالقسم ، والمقسم لايقسم الا على من يرى انه يبر قسمه . فابرار القسم خاص ببعض العباد . واما اجابة السائلين فعام ، فان الله يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وان كان كافرا * وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ما من داع يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا اعطاه الله بها احدى خصال ثلاث ، إما ان يعجل له دعوته : واما ان يدخر له من الخير مثلها ، وإما ان يصرف عنه من الشر مثلها » قالوا يارسول الله اذاً نكثر ، قال « الله اكثر » (١)

(ثم قال)

وهذا التوسل بالانبياء بمعنى السؤال بهم ـ وهو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم انه لايجوز ـ ليس في المعروف من مذهب مالك ماينافض ذلك فضلا ان يجعل هذا من مسائل السب ، فمن نقل عن مذهب مالك انه جوز التوسل به بمعنى الاقسام به أو السؤال به فليس معه في ذلك نقل عن مالك وأصحابه ، فضلا عن ان يقول مالك ان هذا سب للرسول أو تنقص به ، بل المعروف عن مالك انه كره للداعي ان يقول : ياسيدي سيدي ! وقال : قل كما قالت الانبياء « يارب

(١) قد اطال الشيخ قدس الله روحه في بيان الفرق بين السؤال والقسم وذكرنا بعض كلامه في تفسير (واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام) من جزء التفسير الرابع (ص ٣٣٤) ج٤

يارب ياكريم » وكره أيضا ان يقول : ياحنان يامنان! فانه ليس بمأثور عنه ، فاذا كان مالك يكره مثل هذا الدعاء اذ لم يكن مشروعا عنده فكيف يجوز عنده أن يسئل الله بمخلوق نبيا كان اوغيره ـ وهو يعلم ان الصحابة لما أجدبوا عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق لا نبي ولا غيره بل قال عمر « اللهم انا كنا اذا أجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » — وكذلك ثبت في الصحيح عن ابن عمر وأنس وغيرهما انهم كانوا اذا اجدبوا انما يتوسلون بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم واستسقائه، لم ينقل عن احد منهم انه كان في حياته صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى بمخلوق لا به ولا بغيره ، لا في الاستسقاء ولا غيره . وحديث الأعمى سنتكلم عليه ان شاء الله تعالى ، فلو كان السؤال به معروفا عند الصحابة لقالوا لعمر ان السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس، فلم نعدل عن الامر المشروع الذي كنا نفعله في حياته وهو التوسل بأفضل الخلق ، الى ان نتوسل ببعض أقاربه؟ وفي ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الافضل، وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على اعلاهما، ونحن مضطرون غاية الاضطرار، في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجدب . والذي فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين فتوسلوا بيزيد بن الاسود الجرشي كما توسل عمر بالعباس

« وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم انه يتوسل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح، قالوا وإن كان من أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أفضل اقتداء بعمر . ولم يقل أحد من أهل العلم انه يسأل الله تعالى في ذلك لا بنبي ولا بغير نبي

«وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول أو غيره (١) بعد موتهم، أو نقل ذلك عن امام من أئمة المسلمين غير مالك كالشافعي وأحمد وغيرهما ، فقد كذب عليهم . ولكن بعض الجهال ينقل هذا و يستند الى حكاية مكذوبة عن

(١) في الاصل «أوغير» ولعل الصواب أو غيره اي من الانبياء

مالك، ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذي فيها هو هذا بل هو التوسل بشفاعته يوم القيامة، ولكن من الناس من يحرف نقلها، واصلها ضعيف كما سنبينه ان شاء الله تعالى» اه المراد منه ومن أراد ان يحيط بهذه المسألة علما تفصيليا فليقرأ كتاب (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) كله .

وأما القول الجلي الجامع فهو ان الوسيلة ما تتقرب به الى الله تعالى، وترجو أن تصل به الى مرضاته، وهو ما شرعه لك لتزكية نفسك، اذ جعل مدار الفلاح على تزكيتها . والتوسل هو ابتغاء الوسيلة المأمور به هنا ، أي العمل بالمشروع لتزكية النفس ، وقد دل كتاب الله في جملته وتفصيله على ان مدار النجاة والفلاح على الايمان والعمل الصالح (وأن ليس للانسان الا ماسعى، وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى * - يوم تجزى كل نفس بما تسعى * - هل تجزون الا ما كنتم تعملون) نعم دلت السنة على ان دعاء المؤمن لغيره قد ينفعه ، ولكن ثبت في الصحيح ان النبي (ص) دعا الله وسأله ان لا يجعل بأس أمته بينها فلم يعطه ذلك ، وثبت أيضا انه (ص) كان حريصا على ايمان عمه أبي طالب وان الله أنزل عليه في ذلك (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وثبت أيضا ان لكل نبي مرسل دعوة واحدة مستجابة قطعا ، فما عداها بين الرجاء والخوف ، ولذلك خبأ (ص) دعوته ليشفع بها يوم القيامة . فتعلم بأمثال هذه الاحاديث الصحيحة التي أشرنا اليها ، والآيات التي ذكرنا بعضها ، أن دعاء غيرك لك لا يطرد نفعه مهما كان الداعي صالحا ، فهل يكون شخص غيرك وسيلة وقربة لك الى الله وان لم يدع لك ؟ هذا شيء لا يدل عليه كتاب ولا سنة ، ولا هو بالذي يدل عليه العقل ، ان جاز ان يحكم العقل في قربات الشرع . فالعمدة في تقرب الانسان الى الله وابتغاء مرضاته وحسن جزائه هو ايمانه وعمله لنفسه . فاذا أنت لم تعمل لنفسك ما شرعه الله لك وجعله سبب فلاحك، ولم يدع لك غيرك بذلك، فكيف تكون قد ابتغيت الى الله الوسيلة ؟ وهل تسميتك بعض عباد الله المكرمين وسيلة أو طلبك منه بعد موته ان يشفع لك - أي يدعو لك - يعد امتثالا منك لأمر الله تعالى (وابتغوا اليه الوسيلة) ؟ كلا ! الطلب من الميت غير مشروع ؟ واذا فرض انه مشروع ومسموع، فلا

يمكن ان يعلم هل كان مقبولا أم غير مقبول ؟ فان ذلك من أمر الآخرة الغيبي ، « والامر يومئذ لله » وحده ، ومنه امر الشفاعة (قل لله الشفاعة جميعا . ـ من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه ؟ ـ ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) فسنة الفطرة في الدنيا مضت بأن الانسان لا يشبع اذا أكل عنه والده أو استاذه أو أحد الصالحين ، ولا يشفى من مرضه إذا ترك الدواء وشربه غيره عنه ، ولا تؤثر في نفسه أو تظهر في أعماله أخلاق غيره ، فاذا كان النبي أو الولي الذي يتكل عليه جوادا سخيا شجاعا أمينا ، لا يبذل هو المال بذلك السخاء ، ولا النفس بتلك الشجاعة ، ولا يؤدي الحقوق الى أهلها بتلك الامانة ، لان أعماله تصدر عن أخلاقه لا عن أخلاق الرسول أو الولي الذي يتكل عليه . فان كان من سنة الفطرة في الدنيا أن لا تعيش بأخلاق غيرك و بعلمه وعمله ـ وهي دار الكسب والتعاون . فكيف ينفعك إيمان غيرك وصلاحه (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) ؟؟

﴿ ان الذين كفروا لو ان لهم مافي الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾ هذا كلام مستأنف يؤكد مضمون ماقبله من كون مدار الفوز والفلاح في الآخرة على تقوى الله والتوسل اليه بالايمان والعلم الصحيح ، وتزكية النفس بالعمل الصالح والجهاد في سبيله ، وهو شأن المؤمنين الصادقين . فهو يقول ان مدار النجاة والفلاح على مافي نفس الانسان لا على ماهو خارج عنه ، كما يتوهم الكفار في امر الفدية . فلو أن للذين كفروا جميع مافي الارض ومثله معه ، و بذلوا ذلك كله دفعة واحدة ليكون فداء لهم يفتدون به من العذاب الذي يصيبهم يوم القيامة لا يتقبله الله تعالى منهم ولا ينقذهم به من العذاب ، لان سنته الحكيمة قد مضت بأن سبب الفلاح والنجاة انما يكون من نفس الانسان لا من الاشياء التي تكون خارجها (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دسّاها) ولهم عذاب شديد الألم قد استحقوه بكفرهم ، وما استتبعه من سيئات أعمالهم ، اتكالا منهم على الفدية والشفعاء . وهذا فرق جوهري واضح بين الاسلام وغيره من الاديان ، فالاسلام دين الفطرة ، وسنة الله تعالى فيها ان سعادة الانسان البدنية والنفسية في الدنيا والآخرة من نفسه لا من غيره ، فالنصارى يعتقدون ان خلاصهم

ونجاتهم وسعادتهم بكون المسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم ، وأكثرهم يضمون إلى المسيح الرسل والقديسين ، ويرون ان الله يحل ما يحلونه و يعقد مايعقدونه ، وانهم شفعاء لهم عنده . وأما المسلمون فيعتقدون ان العمدة في النجاة والفلاح تزكية النفس بالايمان والفضائل والاعمال الصالحة ، فبذلك تصلح نفوسهم وتكون أهلا لرضوان الله تعالى . وان من دسّى نفسه بالشرك والفسق ، والفساد في الارض ، لا يكون أهلا لمرضاة الله ودار كرامته ، فلا يقبل منه فداء ولا تنفعه شفاعة الشافعين

﴿ يريدون ان يخرجوا من النار هم وما بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ يريد الذين كفروا ان يخرجوا من النار دار العذاب والشقاء بعد دخولهم فيها، وما هم بخارجين منها البتة ، كما يدل عليه تأكيد النفي بالباء . ثم أكد مضمون ذلك باثبات العذاب المقيم لهم، والمقيم هو الثابت الذي لا يظعن . والآية استئناف بياني ، اذ من شأن من سمع الآية التي قبلها ان تستشرف نفسه للسؤال عن حال أولئك الكفار الذين لايتقبل منهم فداء مهما جل وعظم ، فجاءت هذه الآية بالجواب.

(٤١) وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ ٱللهِ ، وَٱللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٢) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤٣) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ . وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

المحاربون المفسدون في الارض يأكلون أموال الناس بالباطل جهرة ، وينتزعونها منهم عنوة ، واللصوص يأكلونها كذلك ولكنهم يأخذونها خفية ، فلما بين الله تعالى عقاب أولئك ، وأمر بالتقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيل الله - وهي الاعمال التي يكمل بها الايمان ، وتتهذب بها النفوس حتى تنفر من الحرام - بين عقاب هؤلاء أيضا ، جمعا بين الوازع النفسي وهو الايمان والصلاح ، والوازع

الخارجي وهو الخوف من العقاب والنكال ، فقال عز من قائل :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ أي والسارق والسارقة مما يتلى عليكم حكمهما ، ويبين لكم حدهما ، كما بين لكم حد المفسدين في الارض مثلهما ، فاقطعوا أيديهما ، أو التقدير : وكل من السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، كما كما تقطعون أيدي المحاربين اذا سلبا المال مثلهما . والمراد قطع يد كل منهما ، أي اذا سرق الذكر تقطع يده ، واذا سرقت الانثى تقطع يدها ، وانما جمع اليد ولم يقل يديهما لان فصحاء العرب يستثقلون اضافة المثنى الى ضمير التثنية ، أي الجمع بين تثنيتين . ومثله قوله تعالى (إن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما) والوصف هنا متضمن لمعنى الشرط فقرن خبره بالفاء على الاظهر . وقد صرح بأن هذا الحد على الرجال والنساء كما صرح بذلك في حد الزنا لان كلا من الذنبين يقع من كل منهما ، فأراد الله زجر كل منهما بتلاوة القرآن ، وان كانت الاحكام الشرعية مشتركة بينهما عند الاطلاق ، وتغليب وصف الذكورة وضمائرها في الكلام ، الا ما خص الشرع به الرجال ، كالامامة والقتال ، والمتبادر من إطلاق اليد أنها الكف الى الرسغ ، ولهذا قال في آية الوضوء « وأيديكم الى المرافق » وانما تقع السرقة بالكف مباشرة ، والساعد والعضد يحملان الكف كما يحملهما معها البدن ، فلا يقال ان اليد لا تعمل الا بهما . ولهذا المعنى — وهو ايقاع العذاب على العضو المباشر للجريمة — قالوا ان اليمنى هي التي تقطع ، لان التناول يكون بها . الا ما شذ .

﴿ جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾ هذا تعليل للحد ، اي اقطعوا ايديهما جزاء لهما بعملهما وكسبهما السيئ ، ونكالا وعبرة لغيرهما . فالنكال مأخوذ من النكل وهو (بالكسر) قيد الدابة . ونكل عن الشيء عجز أو امتنع لمانع صرفه عنه . فالنكال هنا ما ينكل الناس و يمنعهم ان يسرقوا . ولعمر الحق ان قطع اليد الذي يفضح صاحبه طول حياته و يسمه بميسم الذل والعار هو أجدر العقوبات بمنع السرقة ، وتأمين الناس على أموالهم ، وكذا على أرواحهم ، لأن الارواح كثيرا ما تتبع الاموال ، اذا قاوم أهلها السراق عند العلم بهم ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ فهو غالب على أمره ، حكيم في صنعه وفي شرعه ، فهو يضع الحدود والعقوبات بحسب الحكمة التي توافق المصلحة .

وقد اختلف العلماء في القدر الذي يوجب الحد من السرقة، فروي عن الحسن البصري وداود الظاهري انه يثبت القطع بالقليل والكثير عملا باطلاق الآية وحديث « لعن الله السارق ، يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الجمل فتقطع يده » رواه الشيخان من طريق الاعمش عن أبي هريرة ، وعليه الخوارج . وذهب جمهور السلف والخلف - ومنهم الخلفاء الاربعة - الى ان القطع لا يكون الا في سرقة ربع دينار (أي ربع مثقال من الذهب) أو ثلاثة دراهم من الفضة . والشافعي جعل ربع الدينار هو الاصل في تقويم الاشياء المسروقة لانه الاصل في جواهر الارض كلها ، وروي عن مالك ان كلا من الذهب والفضة أصل معتبر في نفسه ، وفي رواية أخرى - قيل انها المشهورة عنه - ان التقويم بدراهم الفضة لا بربع الدينار . وقال بعض العلماء : ان العروض تقوّم بما كان غالبا في نقود أهل البلد ، فيختلف باختلاف البلاد . والاصل في هذا المذهب وفي هذا الخلاف في التقدير حديث عائشة « كان رسول الله (ص) يقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدا » رواه احمد والشيخان وأصحاب السنن الا ابن ماجه . وفي رواية مرفوعا « لا تقطع يد السارق الا في ربع دينار فصاعدا » رواه احمد ومسلم وابن ماجه . وفي رواية أخرى للنسائي مرفوعا « لا تقطع اليد فيما دون ثمن المجنّ » قيل لعائشة : ما ثمن المجن ؟ قالت : ربع دينار . ويؤيده حديث ابن عمر في الصحيحين والسنن الثلاث « ان النبي (ص) قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم » وفي رواية قيمته ثلاثة دراهم . وأجابوا عن حديث أبي هريرة بأن الاعمش راويه فسر البيضة ببيضة الحديد التي تلبس للحرب وهي كالمجن (الترس) وقد يكون ثمنها أكثر من ثمنه . ومذهب الحنفية ان النصاب الموجب للقطع عشرة دراهم فأكثر ، ولا قطع في أقل منها . واحتجوا برواية عند البيهقي والطحاوي والنسائي عن ابن عباس وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في تقدير ثمن المجن بعشرة دراهم . ورجحوها على حديث الصحيحين والسنن بادخالها في عموم درء الحدود بالشبهات. ولكن في اسنادها محمد بن اسحق وقد عنعن ولا يحتج بحديثه معنعنا، فكيف يعارض حديث الصحيحين بل الجماعة كلهم ؟ وهنالك مذاهب أخرى كثيرة في قدر النصاب لا نذكرها لضعف أدلتها بل بعضها لا يعرف له دليل

ووردت أحاديث في ان الثمر المعلق والكثر (وهو بالتحريك جمار النخل) لا قطع فيها ، وأما الثمر بعد احرازه فكغيره من المال . وقيل لا قطع فيه . واشترط الجمهور في القطع ان يسرق الشيء من حرز مثله فان لم يكن محرزا محفوظا فلا قطع . وتفصيل ذلك في كتب الحديث وشروحها •

وتثبت السرقة بالاقرار و بالبينة . وتسقط بالعفو قبل الرفع الى الامام • وكذا بعده عند بعض العلماء ، وهو مخالف للاحاديث الصريحة . وورد النهي عن اقامة الحد في الغزو . وتفصيل ذلك في محله . وأما التوبة فقد بين الله حكمها في قوله :

﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم ﴾ أي فمن تاب من السراق ورجع عن السرقة وغيرها من المعاصي رجوع ندم وعزم على الاستقامة ، من بعد ظلمه لنفسه بامتهانها وسفهها ، وللناس بالاعتدا على أموالهم ، وأصلح نفسه وزكاها بالصدقة ، المضادة للسرقة ، و بغير ذلك من أعمال البر ، فان الله تعالى يقبل توبته ويرجع اليه بالرضاء والاثابة ، ويغفر له ويرحمه ، فان ذلك من مقتضى اسمه الغفور واسمه الرحيم •

وهل يسقط الحد عن التائب ؟ قال الجمهور : لا يسقط عنه مطلقا . وقال بعض السلف : بل يسقط عنه . واذا قيست السرقة على الحرابة والافساد فالقول بسقوط الحد ظاهر ، ان تاب قبل رفع أمره الى الحاكم ، ولكن لا يسقط حق المسروق منه ، بل لا تصح التوبة الا باعادة المال المسروق اليه بعينه ان بقي ، والا دفع قيمته ان قدر . ولا يظهر لنا وجه لما قاله بعض الفقهاء من عدم الجمع بين الحد وغرامة المال المسروق . فان الحد حق الله تعالى لمصلحة عباده عامة ، والمال حق من سرق منه خاصة .

﴿ ألم تعلم ان الله له ملك السموات والارض يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وهو على كل شيء قدير ﴾ جعل الله تعالى هذه الآية ذيلا لهذا السياق ، بين فيه ما ينبغي ان يحضر القلوب بعد تلك العبر والاحكام ، فقال ما حاصل المراد منه : ألم تعلم أيها السامع لهذا الخطاب ان الله تعالى له ملك السموات والارض ، يدبر الامر فيهما بالحكمة والعدل والرحمة والفضل ، فكان من متعلقات اسمه العزيز الحكيم أن وضع هذا العقاب لكل من يسرق ما يعد به سارقا من ذكر أو أنثى ، كما وضع

ذلك العقاب للمحاربين المفسدين ، ومن مقتضى اسمه الغفور الرحيم ان يغفر لمن تاب من هؤلاء وهؤلاء ويرحمه ، اذا صدق في التوبة وأصلح عمله ، فهو بمقتضى أسمائه الحسنى ، وصفاته العلى ، يعذب من يشاء تعذيبه من الجناة تربية له ، وتأمينا لعباده من شره ، ويرحم من يشاء من التائبين والمصلحين برحمته وفضله ، ترغيبا لعبادة في تزكية أنفسهم ، واصلاح ذات بينهم ، وهو على كل شيء من التعذيب والرحمة قدير ، لا يعجزه شيء في تدبير ملكه .

يجوز ان يكون الخطاب لكل من يسمع القرآن أو يقرؤه . ويجوز ان يكون موجها الى الرسول (ص) والاستفهام فيه للتقرير ، أي إنك تعلم هذا فتذكره وذكر به . وجهله ابن جرير لأهل الكتاب الذين كانوا في المدينة وجوارها ومن على شاكلتهم ، الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، لان السياق الذي انتهى ببيان حد السرقة كان في محاجتهم ، ومنها إبطال دعواهم انهم أبناء الله وأحباؤه بأنهم بشر من جملة خلقه ، وانه هو رب العباد ومالكهم المتصرف في أمرهم بالعدل والحكمة ، يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء كما تقدم ، فكأن ابن جرير يرى أن ما ذكر من وضع الله الحدود والعقوبات في الدنيا ، و بيان ما أعده من الخزي والعذاب للعصاة في الآخرة ، ينتظم في سلك الدلائل على ابطال دعوى قولهم انهم أبناء الله وأحباؤه ، واثبات كونهم بشرا من جملة خلقه يعذب من شاء منهم بالشرع و بالفعل كما يعذب غيرهم ، كما يرحم من يشاء . كما تشهد بذلك شريعتهم ذات العقوبات القاسية ، وما وقع عليهم أفرادا وجميعا من عذاب الدنيا بالحرب والسبي والامراض .

وقد تقدم هنا ذكر العذاب على ذكر الرحمة خلافا لما تكرر في القرآن حتى في مثل هذا التركيب من تقديم الرحمة أو المغفرة على العذاب ، ومنه الآية التي رد الله فيها على أهل الكتاب زعمهم انهم أبناء الله وأحباؤه ، اذ قال (بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء) وحكمة هذا التقديم هنا ترتيب الآية على ماقبلها من بيان عقاب السارق أولا ، و بيان توبته ثانيا . فهي لا تنافي كون الرحمة المطلقة سابقة ومقدمة على العذاب المطلق .

واستدل الرازي وأمثاله بالآية على مذهب الاشاعرة القائلين بأنه يحسن من

الله تعالى أن يعذب التائبين الصالحين ، والنبيين والصديقين ، ولو بتخليدهم في النار ، ويرحم المفسدين الظالمين ، ولو بتخليدهم في الجنة ووجه الدلالة عندهم انه تعالى ناط التعذيب والرحمة بالمشيئة ، ورتبه على كونه مالك الملك ، والمالك يتصرف في ملكه كما يشاء . وما حسن لهم هذا القول واستنباط مثل هذا الدليل له الا توجه ذكائهم وفهمهم الى الرد على من نقلوا عنهم من المعتزلة انه يجب عليه تعالى ان يفعل ما هو الاصلح لعباده . فان كان قد قال هذا القول بنصه أحد فهو مخطئ وقليل الأدب ، لأنه يوهم أن هنالك سلطانا فوق سلطان الله سبحانه يوجب عليه وان كان لا يريد ذلك . ولكن الاشاعرة لا يستطيعون ان ينكروا ولا أن يتأولوا ما ثبت في الكتاب والسنة من ان الله تعالى يوجب على نفسه ما يشاء ، فلا يكون ذلك نافيا لكونه صاحب الملك والتدبير ، ولا لتقييد مشيئته بسلطة سواه . ولا هم ينكرون ان مشيئته لا تكون الا على حسب علمه وحكمته ، وانه لا يمكن ان تكون معطلة لصفة من صفاته . فإذا لا وجه للقول بأن مقتضى الملك ان يكون كل عمل يعمله المالك حسنا من حيث انه المالك ، اذ الامر في الشرع والعقل والعرف ليس كذلك ، فالذي يملك عدة عبيد فيظلم المحسن منهم بالضرب والإهانة بغير ذنب منه ، ويحسن الى الفاسق المسيء المفسد في داره وملكه ، يعد ظالما مذموما شرعا وعقلا ولغة وعرفا . وأما كون كل ما يفعله الله تعالى فهو حق وحسن فليس سببه انه المالك وكون المالك يحسن منه كل تصرف في ملكه من حيث انه المالك ، بل لأنه تعالى منزه عن الظلم والنقص ، متصف بالحكمة والعدل ، والرحمة والفضل ، فتقديسه وتنزيهه وكماله يتجلى في اسمائه الحسنى كلها لا في اسم الملك والمالك والمريد فحسب .

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ دعاة البهائية ومجلة البيان المصرية ﴾

(س ٣) من صاحب الامضاء في القاهرة

حضرة العالم الفاضل صاحب المنار الاغر

نشرت مجلة البيان التي تصدر في مصر مقالا عن البهائيين وزعيمهم عباس افندي جاء فيه ما يأتي : - « ذلكم هو مولانا عباس افندي الملقب بعبد البهاء بطل الاصلاح الديني وسيد المصلحين الدينيين، والمصدر الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه « البهائية هي كل حي » - « هي الكاثوليكية الصادقة » . وما دعوتها في الحقيقة الا دعوة اصلاح ورقي للاسلام » - ان أنصارها استخرجوا أسمى تعاليم القرآن فنقوها مما علق بها مما ليس من الدين الصحيح في شيء » - « ان نعيم الآخرة وهم وخيال »

هذا بعض ما جاء في تلك المجلة وما نشره صاحبها المسلم الازهري عقب مقابلته لزعيم البهائيين في الاسكندرية

وقد رد على (البيان) الاستاذ صاحب (عكاظ) في عدة مقالات وتبعه كاتب في جريدة الشعب ثم تبعتهما جريدة الافكار وكلهم كان يطلب الى صاحب (البيان) تكذيب مانشره في هذا الموضوع والرجوع الى الحق ، ولكنه كان يقول لهم إني كتبت واكتب عن البهائيين وزعيمهم كما كتبنا عن فولتير وسبنسر ونيتشه ، وكما كتب الاوربيون و يكتبون عن العظماء والفلاسفة والنابغين

فما رأي العالم الجليل صاحب المنار في ما نشره « البيان » في موضوع البهائيين وزعيمهم ؟ وما رأيه في رد عكاظ اولا والشعب والافكار ثانيا ؟ (ف - صحفي قديم)

(ج) بينا في المنار مرارا ان البهائية قد انتحلوا دينا جديدا في هذا العصر ، وان دينهم أبعد عن الاسلام من دين اليهود . لأن أساس دين اليهود التوحيد الذي

هو أساس الاسلام ، واساس دين البهائية وثني مادي ، وهم يعبدون والد زعيمهم عباس افندي الملقب (بعبدالبهاء) وما هذا اللقب الاعنوان القول بألوهية البهاء . ولهم شريعة ملفقة من الأديان المختلفة ، وفلسفتها هي عين فلسفة سلفهم من فرق الباطنية، الذين حاربوا الاسلام بالدسائس التي اخترعتها لهم جمعيات المجوس السرية ، لافساد أمر المسلمين وازالة ملكهم انتقاما للمجوسية التي أبطلها الاسلام . الا وان مرزا حسين الملقب بالبهاء هو وولده الداهية عباس افندي قد جعلا دينهما الجديد تنقيحا لما دعا إليه الأبله الثرثار مرزا محمد علي الذي اشتهر بلقب (الباب) وانما مهد السبيل لدعوته في بلاد الفرس بدعة الشيخية ، الذين هم اكبر المفسدين في الشيعة الامامية ، وسننشر في المنار شيئا من فلسفتهم الخيالية، التي انتزعوها من أباطيل الباطنية، وزفوها في معرض الاساليب الصوفية .

وجملة القول ان دين البهائية دين مخترع ، افتراه الباب المخدوع ، ونقحه بنادي الزمان الباقعة عباس افندي . وهو أضر على الاسلام من كل دين في الأرض ، لان أهله يسلكون في الدعوة اليه مسلك سلفهم الطالح في مخادعة عوام المسلمين وايهامهم أنهم يصلحون لهم دينهم ، واحتجاجهم بالشبهات التي يحرفون بها القرآن والاحاديث بالتأويلات البعيدة ، فهم أكبر فتنة على المسلمين في هذا العصر ولا سيما على الشيعة ، لان الغلو في التشيع سلم للباطنية ، ولهذا كان يقول بعض العلماء يقول : ائتني برافضي كبير اخرج لك منه باطنيا صغيرا ، وائتني بباطني كبير اخرج لك زنديقا كبيرا

فمن عرف دين البهائية من المسلمين ومدحه واستحسنه وشهد بكونه حقا أو اصلاحا للاسلام ، وكونه هو أو زعيمه معصوما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كان بذلك مرتدا عن الاسلام ، وان زعم انه مسلم ، فهو زنديق منافق كسائر الباطنية اذا كانوا ضعفاء بين المسلمين فالبهائية كسلفهم من الباطنية يتوسلون بدعوى الاسلام بين المسلمين ليقبل كلامهم في دعوتهم الى باطلهم وتحريف معاني القرآن للاستدلال عليها وإبطال ما يفهمه المسلمون منها . فاذا كان صاحب البيان قد قال مانقله عنه السائل معتقدا له فالامر ظاهر ، وان كان قد كتبه عن جهل بحقيقة القوم فكان الواجب عليه بعد ان نبهته جريدة عكاظ وغيرها ان يرجع الى الحق ويصرح ببطلان دين البهائية وتحذير المسلمين من خداع دعاته (ويسمونهم مبلغين) وأما ماذكره السائل عنه من الاعتذار عن تقديس دين وثني مادي وتقديس داعيته واحد مخترعيه - بان مدحه له كمدحه لفولتير - فهو غريب ، فان مدحه لفولتير إن

كان باطلا فهو تأييد للباطل بالباطل ، وان كان يراه حقا ويرى ان ما قوله في عباس افندي ودينه حق أيضا ، يكون قد ارتد عن الاسلام ودخل في دين البهائية . والا فان من قال حقا وقال باطلا ، لا يكون قوله الحق مرة عذرا له اذا قال الباطل بعده . والذين مدحوا مثل فولتير من كتاب الافرنج كانوا مثله مارقين من النصرانية ، فهل يرضى صاحب البيان ان يكون مدحه لعباس كمدحهم لفولتير ؟ وليس ما نقله السائل عن البيان قول مؤرخ يحكي شيئا وقع لارأي له فيه ، حتى يقال « ان حاكي الكفر ليس بكافر » بل ذلك مدح لهذا الدين الجديد وتفضيل له على غيره يتضمن دعوة المسلمين اليه . فاذا لم يكن هذا مراده فليصرح كتابة ببراءته من البهائية والتحذير من كفرهم بالاسلام . على ان فيما نقله السائل عنه ما هو كفر في نفسه بالاجماع ، كانكار حقية نعيم الآخرة ، وتسميته وهما وخيالا ، بناء على ان هذا من مذهبهم . وجملة القول ان من شأن المسلم ان لا ينشر شيئا يعد كفرا في دينه ، وان لا ينقله عن غيره مقرا له ومستحسنا . فكيف ينوه بمدح دين جديد يراد به نسخ الاسلام وابطاله من الارض ويصفه بانه هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه ؟ وقد قرأنا بعض ما نشر في عكاظ ردا على البيان فرأيناه مبنيا على اساس الصواب ولم نرما كتب في جريدة الشعب لاننا لانكاد نقرأها بل قلما نراها - وكذا جريدة الافكار - والحق ظاهر في نفسه

* *

(البحث في تعدد الزوجات والطلاق والحجاب)

(س ٤) من صاحب الامضاء في مصر

فضيلة الاستاذ العالم العلامة منشئ المنار الأغر

بعد الاحترام نرجو من سيادتكم اجابتنا على السؤال الآتي في ناركم الأغر :

هل يعد البحث في تعدد الزوجات والطلاق والحجاب من الوجهة العمرانية وتبيان اضرارها في الناس من الوجهة الاقتصادية اهانة للدين الاسلامي

عبد الحميد حمدي بشبرا مصر

(ج) حاشا لله ان يعد البحث في هذه المسائل اهانة للدين الاسلامي مطلقا . بل كثيرا ما يكون البحث فيها كاشفا عن حكم الاسلام وفضائله ، ومبينا وجه كونه دين الفطرة الجامع بين مصالح الروح والجسد . ولكن غير المسلم قد يهين الدين

الاسلامي اذا خالف هواه ورأيه بعض أحكامه ، فيتخذ ذلك وسيلة للطعن فيه . أما المسلم فانه يبحث عن الحقائق مع الادب فان عرضت له شبهة على حكم إسلامي ثابت يزداد بحثا ليزداد علما ، ولكنه ينسب القصور الى نفسه لا الى دينه ، ويجعل هذا قاعدة للبحث ، الى ان يتبين له الحق .

* *

﴿ اسئلة من صاحب الامضاء في (العطف) من ٥ - ١١ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الاستاذ الأوحد منشىء المنار المنير ، السيد محمد رشيد رضا ، شاد الله به منار الدين

السلام عليكم ورحمة الله . اما بعد فاني سائل فضيلتكم عن أمور أشكلت علي مؤملا اسعافي باجوبتها لما اني لا ارى لذلك ممن اعرف اهلا سواكم

(١) لماذا حمل الاستاذ الامام اخذ الكتب في القيامة بالايمان وبالشمائل من وراء الظهور على اخذها بنشاط وسرور أو بضد ذلك مع إمكان الحمل على الظاهر الذي تمتنع مخالفته بلا دليل ؟ واستبعاد تصوير وراء الظهر بما صوره به لا يوجب رفض الظاهر فلم لا يقال يأخذ الكافر كتابه بشماله من وراء ظهره حقيقة ، ولا يزاد على ذلك ؟ ويجعل النشاط والسرور سبباً للأخذ باليمين وضد ذلك سبباً للاخذ بالشمال من وراء الظهر ؟

(٢) هل يحل التداوي بالخمر اذا ظن نفعها بخبر طبيب أخذاً من آية (ما جعل الله عليكم في الدين من حرج) ومن القاعدة المتفق عليها : الضرورات تبيح المحظورات . واذا جوزتم فما ترون في حديث « إنها داء وليست بدواء » أو كما ورد

(٣) هل الخمر نجسة وما دليل نجاستها ان قلتم بها ؟ فاني لم ار دليلا شافياً بعد شدة البحث

(٤) ما جواب مجوزي سماع الملاهي عن حديث تحريم سماع المعازف الذي في البخاري

(٥) ما درجة حديث النهي عن تعليم النساء الكتابة وهل له معارض ؟ وما رأيكم في هذا التعليم ؟ والحديث المشار اليه ذكره في فتح البيان عن البيهقي والحاكم وابن مردويه وسكت عليه ، فهل ذكر الحاكم له يفيد صحته

(٦) ما درجة حديث جابر في خلق النور المحمدي قبل الاشياء فقد انكر الشيخ عبد العزيز شاويش صحته مع ذكره في كتب جمة كشرح الهمزية لابن حجر لكن لم ار من صححه بعد شدة بحث في كثير من كتب السنة

(٧) لم شرطتم على المفتي ذكر دليل الحكم للعامي مع ان كثيراً من الادلة يصعب جداً تفهيمه اياها فالتكليف به حرج شديد ؟ واذا وسع العامي أن يثق برواية المفتي فلم لا يسعه أن يثق بانه اخذ فتواه من دليل صحيح ؟ فانا اذا نظرنا الى احتمال خطأ العالم في اخذ الحكم أو فتواه بما لا يعلم لزم أن ننظر الى احتمال كذبه في الرواية أو في تفهيم مرويه ، ولا اخالكم ترتابون في صعوبة تفهيم العامي بعض الادلة لعلمكم بان مأخذ الحكم قد يتركب من حديثين أو احاديث أو من سنة وقرآن ، ويحتاج تقريره الى فطنة والمام بجملة علوم

هذه ياسيدي الاستاذ مسائل اشتدت حاجتنا الى معرفة الحق فيها جداً فلجأنا اليكم والامل بتحقيق طلبنا ملء الفؤاد لا برحتم عضد الحق

خادم العلم الشريف
م . ز - بالعطف

﴿ اخذ الكتب بالايمان والشمائل ﴾

حمل الاستاذ الامام الآية في سورة الانشقاق على الكناية لانه الابلغ الذي يظهر به معنى الوعد والوعيد الذي وردت الآية في سياقه . والكناية لا تنافي الحقيقة ؛ فيجوز أن يكون المراد هو ما فسر به الآية مع كون الاخذ بالايمان و بالشمائل ممدودة الى ما وراء الظهر يقع بالفعل . ولكن ارادة الحقيقة وحدها خبر مجرد ليس فيه ما في الكناية من الموعظة و بيان حسن حال من يأخذ كتابه بيمينه من قبل وجهه ، وسوء حال من يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره . وحمل كلام الله على ابلغ الوجوه العربية واظهرها انطباقاً على مقاصد القرآن هو الاولى بل المتعين ، وقد انزل الله القرآن هدى وموعظة وعبرة وذكرى كما هو مبين في عدة آيات . نعم لا يجوز ان يتكلف المفسر في كلام الله تعالى معاني لا يسيغها الاسلوب العربي البليغ للهروب من معنى متبادر لا يوافق ذوقه أو رأيه . وقد عهد في الاستعمال العربي البليغ التعبير باليمين و بالاخذ باليمين عن اليمن والنشاط والعناية ، و بالتعبير بالشمال عن ضد ذلك من الشؤم والكراهة . وسمت العرب اليد اليمين اليمنى ، والشمال الشؤمى . وكانوا يتيمنون بالطير اذا مرت يميناً و يتشاءمون

بها اذا مرت شمالا . فقول العرب اخذ فلان كذا بيمينه او بشماله ، قلما يريدون الا الكناية ، فهو من الكنايات المشهورة بينهم ، لأن ارادة الحقيقة قلما تكون لها فائدة . واما قول العلماء ان الاصل في الكلام الحقيقة ولا يصار الى المجاز أو الكناية الا بدليل وقرينة ، فلا يريدون به ان كل ما امكن أن يراد به الحقيقة يحمل عليها مطلقاً ، فان من الكلام ما يجزم سامعه عند سماعه انه مجاز أو كناية مع إمكان ارادة المعنى الحقيقي . ثم ان تحديد الحقيقة في كل مواد الكلم والتمييز بينها وبين المجاز والكناية ليس من السهولة بحيث ينال من طرف الثمام ، ولعسره انكر بعض النقاد المجاز من اصله وعد الجماهير كثيراً من المجازات حقائق ، وخلطت معاجم اللغة الحقيقة بالمجاز ولم يعن بالتزييل بينهما الا افراد من الجهابذة كالزمخشري في أساس البلاغة ، وليس هذا المقام بالذي يتسع لبيان ذلك

﴿ التداوي بالخمر ﴾

التداوي بالخمر لمن ظن نفعها شيء . والاضطرار الى شربها شيء آخر . فاما الاضطرار فانما يعرض لبعض الافراد في بعض الاحوال ، وهو يبيح المحرم من طعام وشراب بنص قوله تعالى (وقد بين لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه) و بنفي الحرج والعسر وغير ذلك من الادلة . وقد مثل الفقهاء له في شرب الخمر بمن غص بلقمة فكاد يختنق ولم يجد ما يسيغها به سوى الخمر . ومثله من دنق من البرد وكاد يهلك ولم يوجد ما يدفع به الهلاك برداً سوى جرعة أو كوب من خمر ، ومثله أو أولى منه من اصابته نوبة ألم في قلبه كادت تقضي عليه وقد علم أو اخبره الطبيب بانه لا يجد ما يدفع عنه الخطر سوى شرب مقدار معين من الخمر القوية كالنوع الحديث الافرنجي الذي يسمونه (كونياك) فاننا نسمع من الاطباء انه يتعين في بعض الاحيان لعلاج ما يعرض من مرض القلب ودفع الخطر وقد ثبت ذلك بالتجربة . وهذا النوع من العلاج لا يكاد يكون شرباً للخمر وانما يؤخذ منه نقط قليلة لا تسكر . واما التداوي المعتاد بالخمر لمن يظن نفعها ولو باخبار الطبيب كتقوية المعدة او الدم ونحو ذلك مما نسمعه من كثير من الناس فهذا هو الذي كان الناس يفعلونه قبل الاسلام ونهى عنه النبي (ص) ونص الحديث الذي اشار اليه السائل «انه ليس بدواء ولكنه داء» رواه احمد ومسلم وابو داود والترمذي . وسببه ان طارق بن سويد الجعفي سأل النبي عن الخمر وكان يصنعها فنهاه عنها ، فقال إنما اصنعها للدواء . فقاله . وقوله

«ولكنه داء» هو الحق وعليه اجماع الاطباء ؛ فان المادة المسكرة من الخمر سم تتولد منه امراض كثيرة يموت بها في كل عام الوف كثيرة ، والسموم قد تدخل في تركيب الادوية ، ولكن الذين يشربون الخمر ولو بقصد التداوي بها لا يلبثون أن يؤثر في اعصابهم سمها ؛ فتصير مطلوبة عندهم لذاتها ،أي لالمجرد التداوي بها ، فيتضررون بسمها ، فلا يغترن مسلم بأمر احد من الاطباء بالتداوي بها لمثل ما يصفونها له عادة والله الموفق

﴿ نجاسة الخمر ﴾

ذهب جمهور الفقهاء الى نجاسة الخمر ، وروي عن ربيعة شيخ الامام مالك القول بطهارتها ، فاما نجاستها المعنوية فلا شك فيها ، واما النجاسة الحسية فلا تصدق على الخمر لغة لانها ليست قذرة والنجس ماكان شديد القذارة ، ولا قام عليها دليل من الكتاب ولا من السنة . وقد شرحنا ذلك في المجلد الرابع من المنار (ص ٥٠٠ و ٨٢١ و ٨٦٦) فليرجع اليه السائل ان شاء. وقد جمعتنا الايام بعد كتابة ما كتبناه في ذلك المجلد بجماعة من اكابر علماء الأزهر في قطار خاص من قطارات سكة الحديد كان يحملنا الى بلدة (ديروط) بدعوة قطب باشا قرشي (رحمه الله) للاحتفال بتأسيسه مسجداً ومدرسة فيها ، فدار الكلام بيننا في هذه المسألة ، فقال احد علماء المالكية انه يريد أن يكتب رسالة يثبت فيها نجاسة الخمر بالدليل فتكون رداً على المنار، قلت له اذا جئت بدليل صحيح يقبله المنار وينشره في الاقطار ، والا رد عليك ما تكتب، ويمكنك أن تذكر الآن ما عندك من الدليل ، قال «الاجماع » قلت لم ينقله احد بل نقلوا عن الامام ربيعة التصريح بطهارتها ، قال « آية المائدة» قلت : إن لفظ « رجس » محمول فيها على الخمر والميسر والانصاب والازلام ، ولم يقل احد من من المسلمين بنجاسة الميسر والانصاب والازلام ، فتعين ان يكون الرجس هو المستقبح عقلا وشرعاً لضرره ، والرجس يكون حسياً وهو ما يدرك باحد الحواس، ويكون معنوياً وهو ما يعرف بالعقل والشرع مجتمعين أو منفردين ، قال تعالى (ويجعل الرجس على الذين لايعقلون) وقال(وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم) وقال (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) ولا يمكن ارادة النجاسة الحسية بشيء من ذلك . . . ولما لم يستطع الاستاذ المالكي أن يقيم دليلا ، سال احد الحاضرين مفتي الديار المصرية- وكان يسمع المناظرة -عن رأيه في المسألة . فقال

المفتي : ما مذهب الاستاذ ؟ يعني كاتب هذا قيل له شافعي . فقال لي : ما المعتمد عند الشافعية في المسألة ؟ قلت المعتمد ان الخمر نجسة . قال انتهى الأمر . قلت لا ، اننا نبحث في الدليل على نجاسة الخمر لا في نص المذهب . فان كان لديك دليل فاذكره لنا . فلم يات بشيء . ثم سكت الشيوخ وسكتنا .

﴿ سماع المعازف ﴾

قد شرحنا في الجزئين الأول والثاني من المجلد التاسع هذه المسألة فذكرنا ادلة مجوزي السماع وادلة حاظريه . وأقوى أدلة الحاظرين حديث البخاري الذي أشار اليه السائل . اذ لم يصح في الباب سواه . بل قال ابن حزم : لا يصح في الباب حديث أبدا وكل ما فيه موضوع . وبينا أجوبة المجوزين عن هذا الحديث (فمنها) انه منقطع الاسناد فيما بين البخاري (ومنها) ان في اسناده صدقة ابن خالد وقد قال فيه يحيي بن معين انه ليس بشيء ، والامام احمد انه ليس بمستقيم (ومنها) انه مضطرب المتن والسند بما بيناه هنالك (ومنها) ان كلمة المعازف التي هي محل الاستدلال ليست عند أبي داود . (ومنها) ان لفظة يستحلون ليست نصا في التحريم فقد ذكر القاضي ابو بكر بن العربي لها معنيين أحدهما ان المعنى : يعتقدون ان ذلك حلال والثاني ان يكون مجازا عن الاسترسال والاكثار من ذلك { ومنها } ان لفظة المعازف مختلف في مدلولها والاختلاف يوجب الاحتمال المسقط للاستدلال { ومنها } ان المعازف المنصوص عليها فيه هي ما كانت مقترنة بشرب الخمر كما يستفاد من بعض روايات الحديث (ومنها) ان المراد بالحديث يستحلون مجموع ما ذكر فيه لا كل واحد منها . وحينئذ يستثنون المعازف بدليل كون الدف والغناء منها جمعا بين الادلة ، إذ ثبت في الاحاديث المتفق عليها سماع النبي (ص) واجازته لهما . واذا أراد السائل أن يقف على تفصيل هذه الوجوه والاجوبة عنها وملخص ما قاله المجوزون والمحرمون في المسألة فليرجع الى المجلد التاسع من المنار .

والذي ظهر لي من مجموع ما ورد في هذا الباب ومن كلام العلماء المختلفين في المسألة ان سماع الغناء وآلات اللهو ليست محرمة لذاتها مطلقا ، ولكن الاكثار منها مكروه ولو لم تبعث على معصية ، فاذا كانت مغرية بالفسق كما يقع كثيرا حرمت لسد الذريعة . ولما كثر اللهو والفسق من المفتونين بالمعازف وصارت أغانيهم كلها غرامية خلافا لما كان عليه الناس في القرون الأولى وصارت بذلك من دواعي السكر والعشق المؤدي للفسق ـ اكثر علماء الدين من ذمها والتنفير منها والجزم بتحريمها — كما حرموا

ابداء المرأة لما ظهر من زينتها وكشف وجهها وكفيها خوف الفتنة ، حتى منعوا النساء الصلاة في المساجد . وقالوا مثل ذلك في الامرد الجميل الصورة . وحديث البخاري أي المسئول عنه اخبار بالغيب عن حال هؤلاء الفساق ، فلم يبعد عن الفهم من قال انه في تقبيح حال هؤلاء الفساق في جملة أعمالهم . فرواية البخاري « ليكونن من امتي قوم يستحلون الحر (١) والحرير والخمر والمعازف » ورواية بعض السنن « ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رءوسهم بالمعازف والمغنيات » وفي لفظ « تروح عليهم القيان وتغدو بالمعازف » فالحديث مروي بالمعنى ولذلك اختلفت ألفاظه . ولا شك ان ما يؤخذ من تعدد الفاظه يدل على استقباح النبي (ص) لمجموع فعل هؤلاء الفساق ، ومنه عزف المغنيات لهم على شربهم وفسقهم . فهو مثل حديث « صنفان من اهل النار لم ارهما بعد : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، على رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » رواه احمد ومسلم في صحيحه من حديث ابي هريرة . فاما الرجال الذين يضربون الناس بسياط كاذناب البقر فهم اعوان الحكام الذين ابتدعوا السياط التي تسمي الكرابيج وصاروا يعذبون الناس بها . واما النساء الموصوفات بما ذكر فهن مشاهدات في زماننا . ولم يفهم المراد من وصفهن بما ذكر كثير من العلماء قبل وجودهن . وانت ترى من وصفهن أنهن يضمن على رءوسهن شيئاً مرتفعاً شبه سنام البخت من الابل . وهذا بحد ذاته مباح بالاجماع ، ولكنه مع سائر تلك النعوت يمثل حال طائفة من الفواسق الفواتن اللواتي يضللن كثيراً من الناس

﴿ تعليم النساء الكتابة ﴾

لم يصح في النهي عن تعليم النساء الكتابة شيء . وليس كل ما يرويه الحاكم صحيحا بل صحح في مستدركه على الصحيحين أحاديث جزموا بان بعضها ضعيف وبعضها موضوع . ومنها هذا الحديث الذي يشير اليه السائل « لاتسكنوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة » رواه في المستدرك من طريق عبد الوهاب بن الضحاك عن عائشة ، وهو كذاب كما قال ابو حاتم ، متروك كما قال النسائي ، منكر الحديث كما قال الدارقطني . وقال الحافظ بن حجر في الأطراف بعد ذكر تصحيح الحاكم له : بل عبد

(١) الحر بالكسر الفرج والمراد الزنا ، وفي لفظ الخز بمعجمتين . وهو نوع من الديباج وهذا من الاضطراب في متن الحديث

الوهاب متروك ، وقد تابعه محمد بن ابراهيم الشامي عن شعيب بن اسحق ، وابراهيم رماه ابن حبان بالوضع . وابن حبان هو الذي روى حديثه هذا في كتاب الضعفاء ، وقال الدارقطني فيه : كذاب . واخرج ابن حبان في الضعفاء أيضاً عن ابن عباس مرفوعا « لا تعلموا نساءكم الكتابة » وفي سنده جعفر بن نصر وهو متهم بالكذب كما قال الذهبي . وهذه الروايات الواهية او الموضوعة معارضة بروايات صحيحة في مشروعية تعليم النساء الكتابة . منها حديث الشفاء التي علمت حفصة أم المؤمنين الكتابة ، وقال لها النبي (ص) مرة مازحا « الا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة » رواه احمد وابو داود بسند رجاله رجال الصحيح ، الا ابراهيم بن مهدي البغدادي المصيصي وهو ثقة كما قال ابن القيم ، ورواه النسائي والحاكم وصححه ، وغيرهم . وقد صرح كثير من العلماء أن حديث الشفاء يدل على جواز تعليم وتعلم النساء الكتابة ، وفي الأدب المفرد للبخاري ان عائشة بنت طلحة كانت في حجر عائشة أم المؤمنين تكاتب الرجال . كانوا يكتبون اليها من الامصار ويهدونها لمكانها من أم المؤمنين فتأمرها أم المؤمنين بأن تجيبهم على كتبهم وتثيبهم على هداياهم . وعلى هذا جرى المسلمون فكان فيهم كثير من الكاتبات العالمات بالحديث والأدب والفنون . وهن يدخلن في عموم خطاب الشرع في جميع احكامه الا ماخصص . ومن مقاصد الشرع اخراج الامة من الامية وتعليمها الكتاب والحكمة كما هو منصوص في كتاب الله تعالى

حديث جابر في اول الخلق

تجدون الكلام على هذا الحديث وما في معناه من كون نبينا (ص) كان نبياً وآدم بين الماء والطين وغيره في ص ٨٦٠-٨٦٩ من مجلد المنار الثامن . ولا عبرة بكلام مثل الشيخ عبد العزيز جاويش في انكار حديث ولا في اثباته فانه ليس من علم الحديث في شيء ، وهو جريء على القول في الدين بالهوى والرأي حتى انه انكر بعض احاديث الصحيحين بغير علم ، فهو ينكر مالا يوافق عقله ورأيه

ذكر المفتي للدليل

لينكم ذكرتم في السؤال عبارتنا التي استنبطتم السؤال منها فاننا لا نتذكر مسألة الشرطية ولا نتذكرها ، وانما نذكر اننا كتبنا مرارا انه ينبغي للمعلم والمفتي في الدين أن يبين للناس نصوص الكتاب والسنة في المسائل ليعرفوا اصل دينهم ، ومن اين أخذ الحكم الذي لقنوه أو أفتوا به . وهذا هو الواجب الذي أخذ على اهل الكتاب العهد أن يبينوه

للناس ولا يكتموه ، فاذا تعسر أو تعذر على بعضهم فهم الآية أو الحديث بعد بيانه بقدر الاستطاعة خرج المفتي من تبعة الكتمان . واما المسائل التي لا نص فيها بعينها ويتعذر على السائل فهم مأخذها ، كبعض مسائل المواريث التي يدخلها العول مثلا ، فلا بأس ببيان الحكم فيها بدون ذكر مأخذه . واما تعويد الناس اخذ مسائل الدين بدون وصلها بأصلها من الكتاب والسنة فهو قطع لحبل الله ورسوله بين المؤمنين ، وهو الذي فتح للباطنية وغيرهم من المضلين ، باب اضلال المسلمين . اذ صارت العامة تقبل كل ما يقال لها انه من الدين . — فهذا سبب ما رأيتموه وسميتموه اشتراطاً ، ولولا ضيق الوقت لراجعنا ما تشيرون اليه من مظانه واجبنا عنه بعينه ، والخطب سهل ان شاء الله تعالى .

باب الانتقاد على المنار

﴿ نقد عبارة في المنار ، والمناظرات بين دعاة النصرانية وعلماء الاسلام ﴾

ارسل الينا طاهر افندي التنير من بيروت نبذتين في الرد على دعاة النصرانية الذين فتح لهم الدستور باب الجرأة على توزيع رسائل الطعن في الاسلام في سورية حتى قاربوا ان يجهروا فيها كما يجهرون في مصر ، وقد رأينا في كل من النبذتين شذوذا في التعبير فحذفنا ونقحنا وتصرفنا في العبارة بحذف بعض المعاني الشعرية التي تؤثر تأثيرا رديئا بلا فائدة . وقد ظهر لنا بعد ذلك انه بقي في الكلام ما ينتقد على الكاتب ، وكذا على الناشر ، لانه يؤلم القارئ من النصارى ، اذ كاشفنا بعض اصدقائنا السوريين بما انتقدوه ، وقالوا ان مثل هذا لايعهد من المنار ، فهو يرد على المبشرين من سنين طويلة ولم ننتقد عليه كلمة واحدة تعد جارحة أو بعيدة عن الأدب ، ثم انه قد عرف بأنه داعية وفاق ومودة ، فلا ينبغي له ان ينشر لمن لا يراعون مشربه هذا ما ينافيه . فرأينا ان نكتب كلمات في هذا الموضوع تزيل اللبس ، وتكون هي القول الفصل ، وهي :

(١) اننا نحمد الله تعالى ان جعلنا من دعاة الوفاق والمودة ، ومن محبي الأدب والنزاهة ، وانه ليسوءنا ويحزننا ان نقع في سهو او غلط ينافي ذلك ويعارضه ، واذا عثرنا نسارع الى التوبة والندم ، ونتلافى ما يمكن تلافيه بما تحمله الطاقة ، وتناله الاستطاعة .

(٢) ان المنار لا يشترك فيه النصارى كما يشترك المسلمون في صحفهم الدنية — دع السياسية التي تسمى عامة — فلا يوجد في مشتركيه عشرة نفر من النصارى ، لأجل هذا لا يخطر في بالنا عند كتابة كل شيء او نشره ان نراعي فيه موقعه من نفوسهم ، وتأثيره في جمهورهم ، والادب مطلوب عندنا لذاته ؛ وانما يطلع عليه عدد قليل من اهل العلم والادب كاصحاب الصحف التي يبادلها المنار ، وهؤلاء من الاحرار اصحاب الصدور

الواسعة ، فاذا هم استنكروا شيئا لا يسمعونه في جمهور قومهم ، ونتيجة هذا أن ما ينشره المنار لا تأثير له في عامة النصارى حتى يقال ان المنار جريدة يجب أن يراعى فيها شعور جميع الملل التي تقيم في الوطن التي تصدر فيه او تنطق باللغة التي تكتب بها . فهو اذا من كتب الاسلام الدينية ، فلا وجه لمطالبتنا أن نراعي شعور غيره، ولا لدعوى ان ما ينشر مخالفا لعقائدهم او ردا عليها يوجب التفرقة والعداوة .

(٣) إن دعاة النصرانية هم المعتدون على المسلمين بالطعن في دينهم بما ينشرون من الكتب والرسائل والصحف، وبما يعقدون من المجامع لدعوة المسلمين الى دينهم وفي مدارسهم ومستشفياتهم ، فصار من الواجب علينا شرعا أن ندافع عن ديننا ، وننفر عوامنا عن قبول دعوتهم . فالفرق بيننا وبينهم انهم مهاجمون ونحن مدافعون، وانهم يكتبون مطاعنهم لينشروها في المسلمين ، كما يبثون مطاعنهم القولية فيهم ، ونحن لا ننشر مطاعننا بين النصارى ولا نشافههم بها ، ولا يكاد يطلع عليها الا عدد قليل من محبي الوقوف على الشؤون العامة. فمن ينتقد ما نكتبه بدعوى انه يوجب العداوة والتفرقة بين عامة الفريقين مخطىء ، وانما يكون مصيبا اذا قال ذلك فيما يكتبه اهل ملته ودينه ، لانهم ينشرونه بين المسلمين فينفرونهم من النصارى ، ولا يغفل عن هذا او يتغافل عنه الا الغالي في التعصب .

(٤) قال بعض اصحابنا إن الطاعنين في الاسلام من النصارى كلهم من الاجانب كالامريكانيين والانكليز لا من ابناء وطننا، فلا ينبغي ان نسيء الى ابناء وطننا بردنا عليهم. ونقول (اولا) أن هذا القول غير صحيح ، فكتاب (الضلالة) المسمى بضد اسمه تأليف رجل من متعصبي القبط وهو اقذر هذه الكتب وأقلها أدبا في الطعن في نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكتاب ابحاث المجتهدين مؤلفه سوري، بل اقول ان اكثر تلك الكتب والرسائل والصحف الطاعنة في الاسلام يكتبها أجراء المبشرين من الوطنيين او يترجمونها اذ لا يكاد يوجد في أولئك الاجانب من يحسن الكتابة العربية، وانما ينشرها الاجانب لان لديهم أموالا كثيرة مرصدة لذلك من اهل بلادهم الذين يقول لنا ابناء وطننا انهم هم البرآء من التعصب الديني دون اهل الشرق !! ولان لهم من الامتيازات والنفوذ السياسي ما يحميهم من سلطة الحكومة. ونحن نبرئ جمهور الوطنيين من ذنب أولئك الاجراء ولا نعده مانعا من الاتفاق بيننا وبينهم (وثانيا) اذا فرضنا ان هذا العدوان من الاجانب خاصة ، فهل من العدل ان يطالبنا نصارى بلادنا بأن لا نرد عليهم ، ولا نحذر عوامنا ونحول بينهم وبين افسادهم لعقائدهم ، لان دفاعنا عن ديننا يجرح عواطفهم الدينية ؟ ؟ أليس منتهى التعصب والسعي للعداوة والتفرق ان تطالب ابن وطنك بان يترك الدفاع عن دينه ، وتعليم اهله ما يصونهم عن الارتداد عنه ، أو عن فساد العقيدة الذي قلما تنتج دعوة المبشرين

غيره، وأن يرضى أن يكذب قرآنه ويشتم رسوله، إكراماً لخاطرك، ومراعاة لعواطفك؟

(٥) ان القاعدة الصحيحة المعقولة للاتفاق هي قاعدة المنار الذهبية التي دعا اليها المختلفين في المذاهب والاجناس من المسلمين، والمختلفين في الاديان والاجناس من العثمانيين . وهي « نتعاون على ما نشترك فيه . ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه » وقد شرحناها غير مرة ولكن كثيرا من الناس لا يحبون الوفاق ، ومنهم اعوان المبشرين من الوطنيين ، وبعض الكتاب والصحافيين ، كالشيخ يوسف الخازن من نصارى السوريين، الذي وضع قاعدة للخلاف، ضد القاعدة التي وضعتها للوفاق ، وصرح بها في ملإ من أدباء نصارى السوريين كنت اكلمهم في وجوب السعي الى الوفق والوحدة . فسخر من هذه الدعوة ، وقال : اذا كان الخلاف بين مسلم ونصراني فأنا مع النصراني على المسلم كيفما كان - أي في الحق والباطل، واذا كان بين كاثوليكي وغير كاثوليكي فأنا مع الكاثوليكي مطلقا ، واذا كان بين كاثوليكي ماروني وكاثوليكي غير ماروني فأنا مع الماروني مطلقا قال وكل الناس كذلك . فمثل هذا لا يعذر المسلمين في كلمة يخالفون فيها النصارى ولا بقولهم ولو في كتبهم وصحفهم الخاصة بهم اننا على الحق والطاعن في ديننا على الباطل. ولذلك اقام النكير على المنار مرة لانه ذكر اسم المبشرين في سياق الكلام على افسد بلادنا من سعي فساق الافرنج كمواخير البغاء وحانات الخمر وبيوت القمار . ونحن نرى المبشرين اشد إفسادا في بلادنا من غيرهم لان صاحب الحانة يحمل المسلم او يساعده على مخالفة الاسلام في امر واحد وهو السكر ، والمبشر يحمله على ترك دينه كله ، وزد على ذلك ان المبشرين هم الذين يوقدون نار العداوة بين المسلمين والنصارى ويفسدون المسلمين انفسهم بتشكيكهم في الدين الذي هو اساس الفضيلة والتقوى والوحدة والاتفاق . فمثل الشيخ يوسف الخازن من متعصبي النصارى السوريين ، وبعض اصحاب الجرائد من متعصبي القبط، اشد سعيا في التفريق بين المسلمين والنصارى من المبشرين الاجانب، لانهم يبحثون عن كلمة يقولها مسلم في الدفاع عن دينه فيجردونها عن سببها والحامل عليها من الأعذار ويزفونها الى قومهم في صورة مشوهة وإضافات باطلة . وما بلغ المكروه الا من نقل

(٤) ان مجالنا في الرد على النصاري اضيق من مجالهم لاننا نؤمن بنبيهم المسيح ونعظمه ونعظم حواريه ، ونعد الطعن فيه كفرا وردة عن الاسلام (لا نفرق بين احد من رسله) وهم يطعنون بلا قيد ولا حد . فغاية ما يمكن ان يكتبه المسلم هو النقل من كتبهم الدينية او كتب احرار الاوربيين بشرط اظهار البراءة من كل ما لا يليق بكرامة المسيح اوغيره من انبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين، والتصريح بأن نقل ما ذكر من باب (ناقل الكفر ليس بكافر) وانا لا احب لنفسي سلوك هذه الطريقة . وهي التي اضطر اليها بعض من كتب في المنار ، وكتابة التنير من

هذا الباب، واني حبا في النزاهة والادب، وكراهة للشعريات في المناظرة والجدل، عملا بقوله تعالى (ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن) قد نقحتها . فاذا كان قد بقي فيها كلمة شاذة ككلمة الثالوث الزنائي في سياق قصة ولادة سليمان عليه السلام ، فانما ذلك من السهو الذي يظهر بما نبين من سببه ،وهو ان الكاتب جعل عنوان مقالته (الثالوث الزنائي المقدس) وصدر الكلام في كل قصة من القصص الثلاث التي نقلها من التوراة بقوله (الاقنوم الاول من الثالوث الزنائي المقدس) الخ وكان يختمها بمثل هذه الكلمة ، ويكررها في أثناء العبارة ، فرجنا (شطبنا) كل هذه الكلمات لان فيها امتهانا لاصطلاحات محترمة ، وغرضنا من تحذير عوام المسلمين من الاستجابة للمبشرين لا يتوقف على ذلك ، ولا هو مما ترضاه آدابنا ، وجعلنا مكان كلمة الاقنوم كلمة الجد ، وحذفنا لفظ الثالوث من العناوين ومن تضاعيف الكلام ، واتفق اننا لم نقرأ تلك الاوراق في وقت واحد لكثرة الشواغل وضيق وقتنا عنها، ولذلك جعلنا في القصة الثالثة لفظ (الشاهد) بدل (الجد) و بقي في آخرها كلمة « الثالوث الزنائي » على اني اذكر جيدا اني حذفت هذه العبارة التي كانت في العنوان الاول وتكررت في الكلام . فلا أدرى اكان ترميجها (شطبها) غير ظاهر فجمعت حروفها،ام كنت قد نسيتها الا اني قرأت تلك الورقة التي هي فيها وحدها . ولهذا قلت فيها الشاهد الثالث بدل الجد الثالث . وقد ظهر بهذا الذي شرحته ان هذه الكلمة قد بقيت في المقالة كالعضو الأثري . وان اللام فيها لام العهد الذكري. اي الثالوث الذي تقدم ذكره . واني لما ذكرت لي ماصدقت حتى راجعت و رأيتها بعيني . وقد امتعضت امتعاضا شديدا ظهر علي وسئلت عن سببه . فان من خلقي وغريزتي أن اتألم مما يقع مني مخالفا لمشربي ورأيي، ولو سهوا او نسيانا . ولا أبالي بما ينتقده الناس اذا كنت اعتقد انه حق وصواب وغير خارج عن حدود الآداب .

ومثل هذا الغلط والسهو يقع كثيرا وفي هذا الجزء من المنار غلط في آية من القرآن غفلنا عنها . لاجل هذا قلت لمن نبهني ولغيره : انني أحب ان أتلافى هذا الخطأ بما يرضى المتألمين، منه وادع لاهل الانصاف من النصارى اقتراح مايرونه و يرضونه من اعتذار او انتقاد لما كتب، او حذف الكراسة من المنار وطبع كراسة بدلها خالية من كل كلمة جارحة . وانما اقبل في هذا قول المعتدلين البرآء من التعصب كاسكندر بك عمون وسامي افندي الجريديني من فضلاء المحامين السوريين . على ان هذه الكتابة يصح ان تعد ترضية للمنصفين ودليلا على اننا لم ننشر تلك العبارة عمدا . واما المتعصبون فلا يرضيهم منا الا خروجنا من ديننا . فلا زالوا ساخطين وقد سعوا مع بعض المبشرين من قبل لاقناع الوكالة البريطانية بالغاء المنار ومنع اصداره ظنا منهم بان الجو يخلو لهم ولغيرهم من اعداء الاسلام فلا يجرأ احد على الرد عليهم .

(٧) ان سبب نشر هذه المقالة والمعنى الذي اردنا ان يفهمه المسلمون منها هو ان

إيماننا بالمسيح والانبياء اصح من إيمان المبشرين، وتكريمنا لهم خير من تكريمهم، فهم قد جمعوا فيما قالوه في المسيح عليه السلام بين الضدين فأطروه حتى اتخذوه ربا وإلها، وتقلوا في نسبه لامه وأبيه الناموسي (لا الحقيقي) انه من نسل سليمان بن داود من سبط يهوذا وقد ثبت في العهد العتيق عندهم (لا عندنا) ان بعض أجداده في هذا النسب (الذي سرده متى ولوقا في انجيليهما) من اولاد الزنا . وثبت عن مقدسهم بولس أنه صار لعنة لاجلهم. ونحن المسلمين نقول انه عليه السلام اهل لكل كرامة وفضيلة، وانه من روح الله وآية منه، ولكن ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ونقول انه طاهر من نسب طاهر، فنحن ننقل ما نقلنا عن العهدين العتيق والجديد مما لا يسعهم إنكاره، لاقامة الحجة عليهم، وإعلام لعامة اهل ديننا باننا لسنا في حاجة الى من يدعونا الى الايمان به عليه السلام، بل نحن أحق بأن ندعوا هؤلاء الدعاة الى تبرئته من اللعنة ومن دنس النسب، كما نبرئ سائر الانبياء عليهم السلام مما لا يليق بهم، ونحثو التراب في فم من يزعم اننا نقول كلمة فيهم تشعر بتنقصهم . قال الابوصيري رحمه الله في لاميته

وأبيك ما أعطى يهوذا خاتما ... لزنا بمحصنة ولا منديلا

لووا بغير الحق ألسنة بما ... قالوه في ليا وفي راحيلا

ودعوا سليمان النبي بكافر ... واستهونوا افكا عليه مقولا

﴿ ٨ - صفوة الكلام وفصل الخطاب ﴾

ان المسلمين مدافعون لا معتدون، وهذا الدفاع فرض ديني عليهم، والمنار الذي يرد عليهم يوزع على المسلمين أيضا ليحذرهم من الارتداد عن دينهم أو يحول دون شكهم فيه ، والمشتركون فيه من غير المسلمين يعدون على اصابع اليد ، فما يكتبون يثير سخط الرأي العام الاسلامي ، ولذلك طفق المسلمون يؤلفون الجمعيات في مصر لمقاومتهم وما يكتبه المسلمون على كونه دفاعا لا يكاد يشعر العالم النصراني لانه يوزع على المسلمين دونهم ، الا اذا بحث عنه بعض المتعصبين من اصحاب الصحف او غيرهم . والمعلول يدوم بدوام علته. فنحن لا نترك الرد عليهم ما داموا يدعوننا الى دينهم قولا وكتابة ويتعرضون في خطبهم وكتبهم وصحفهم لديننا، فان تركوا تركنا ، واذا استمروا استمررنا ، ونلتزم الادب في العبارات بقدر فهمنا واجتهادنا. فمن كان ساعيا في منع ذلك باخلاص وحب للوفاق فليبدأ باسكات المبشرين عن ذكر كتابنا ونبينا واصول ديننا وفروعه ، ويبقى لهم مجال واسع في الدعوة الى دينهم بذكر محاسنه وما عندهم من الدلائل عليه ، ومن لم يرضه منا الا ان نسكت لهم عن الطعن في ديننا والتنفير عنه والتحريف لنصوصه فلا زال ساخطاً غاضباً حقداً الى ما شاء من لوازم تعصبه. ولعل سوء تأثير هؤلاء المبشرين سيضطر الحكومة والمحتلين الى وضع حد لهذا الامر إما بقانون أو بغير قانون، ولا نظن أن الانكليز يجبروننا على السكوت ويدعونهم يبغون كما يريدون

فصل (*)

فحينئذ يطلع منه على (المشهد الثاني عشر)

وهو مشهد الذل والانكسار ، والخضوع والافتقار للرب جل جلاله ، فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة وافتقارا تاما الى ربه ووليه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه وهداه وسعادته ، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، واذا تدرك بالحصول ، فيحصل فيه كسرة خاصة لا يشبهها شيء ، بحيث يرى نفسه كالاناء المرضوض تحت الارجل الذي لا شيء فيه ، ولا به ولا منه ، ولا فيه منفعة ، ولا يرغب في مثله ، وانه لا يصلح للانتفاع الا بجبر جديد من صانعه وقيمه ، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه اليه من الخير ، ويرى انه لا يستحق قليلا منه ولا كثيرا ، فأيّ خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قدره دونه ، وأن رحمة ربه اقتضت ذكره به وسياقته اليه ، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها ولو ساوت طاعات الثقلين من أقل ما ينبغي لربه عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه ، فان الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله ، فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه ! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونفس منه أحب الى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم

وأحب القلوب الى الله سبحانه قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة ، وملكته هذه الذلة ، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه لا يرفع رأسه اليه حياء وخجلا من الله . قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب ؟ قال : نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم اللقاء . فهذا سجود القلب ، فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه . واذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى سجدت معه جميع الجوارح ، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم ، وخشع الصوت والجوارح كلها ، وذل العبد وخضع واستكان ، ووضع خده على عتبة العبودية ،

(*) تابع لما نشر في ص ١١٣ من المجلد السابع عشر

ناظرا بقلبه الى ربه ووليه نظر الذليل الى العزيز الرحيم ، فلا يرى الا متملقا لربه خاضعا له ، ذليلا مستعطفا له ، يسأله عطفه ورحمته ، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له ، الذي لاغنى له عنه ، ولا بد له منه ، فليس له هم غير استرضائه واستعطافه ، لانه لاحياة له ولا فلاح الا في قربه ورضاه عنه، ومحبته له، يقول : كيف أغضب من حياتي في رضاه ؟ وكيف أعدل عن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره ؟

وصاحب هذا المشهد يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه في درجات الكمال أتم ترقية، وهو القيم بمصالحه كلها ، فبعثه أبوه في حاجة له فخرج عليه في طريقه عدو فأسره وكتفه وشده وثاقا ، ثم ذهب به الى بلاد الاعداء فسامه سوء العذاب، وعامله بضد ما يكون أبوه يعامله به ، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه اليه الفينة بعد الفينة ، فيهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله ، وتذكر ما كان عليه، وكل ما كان فيه . فبينا هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب ، ويريد نحره في آخر الامر ، اذ حانت منه التفاتة الى نحو ديار أبيه ، فرأى أباه منه قريبا ، فسعى اليه، وألقى نفسه عليه بين يديه ، يستغيث يا أبتاه يا أبتاه يا أبتاه ! أنظر الى ولدك وما هو فيه، ودموعه تستبق على خديه قد اعتنقه والتزمه ، وعدوه في طلبه ، حتى وقف على رأسه وهو ملتزم لوالده ممسك له . فهل تقول ان والده يسلمه مع هذه الحال الى عدوه ويخلي بينه وبينه ؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده ، ومن الوالدة بولدها ؟ اذ فر اليه ، وهرب من عدوه اليه ، وألقى نفسه طريحا ببابه ، يمرغ خده في ثرى أعتابه ، باكيا بين يديه يقول : يارب ! يارب ! ارحم من لاراحم له سواك ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوي له سواك ، ولا مغيث له سواك ، مسكينك وفقيرك وسائلك ومؤملك ومرجيك ، لاملجأ له ولا منجا له منك الا اليك ، أنت معاذه ، وبك ملاذه

يامن ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لايجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره

﴿ فصل ﴾

فاذا استبصر في هذا المشهد، وتمكن من قلبه، وباشره وذاق طعمه وحلاوته، ترقى منه الى (المشهد الثالث عشر) وهو الغاية التي شمر اليها السالكون، وامها القاصدون، ولحظ اليها العاملون

وهو مشهد العبودية والمحبة والشوق الى لقائه والابتهاج به، والفرح والسرور به، فتقرّ به عينه، ويسكن اليه قلبه، وتطمئن اليه جوارحه، ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية، وارادات التقرب اليه والى مرضاته، مكان ارادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصي، قد امتلأ قلبه من محبته، ولهج لسانه بذكره وانقادت الجوارح لطاعته، فان هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه.

ويحكى عن بعض العارفين قال: دخلت على الله من ابواب الطاعات كلها فما دخلت من باب الا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار فاذا هو اقرب باب اليه واوسعه، ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو الا ان وضعت قدمي في عتبته فاذا هو قد اخذ بيدي وأدخلني عليه. وكان شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول: من اراد السعادة الابدية، فليلازم عتبة العبودية. وقال بعض العارفين: لا طريق أقرب الى الله من العبودية، ولا حجاب اغلظ من الدعوى، ولا ينفع مع الاعجاب والكبر عمل واجتهاد، ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة، يعني بعد فعل الفرائض.

والقصد ان هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق، وان كانت طرق سائر الاعمال والطاعات تفتح للعبد ابوابا من المحبة، لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزا وتفريطا وذنبا وخطيئة، نوع آخر وفتح آخر.

والسالك بهذه الطريق غريب في الناس. هم في واد وهو في واد. وهي تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السعاة فيصبح وقد قطع الركب،

بينا هو يحدثك واذ به قد سبق الطرف وفات السعاة . فلله المستعان وهو خير الغافرين . وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له وفرحه بتوبة عبده ، فانه سبحانه يحب التوابين و يفرح بتوبتهم أعظم فرح واكمله ، فكلما طالع العبد منته سبحانه عليه قبل الذنب وفي حال مواقعته و بعده ، و بره به وحلمه عنه واحسانه اليه . هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق الى لقائه ، فان القلوب مجبولة على حب من احسن اليها ، واي احسان أعظم من احسان من يبارزه العبد بالمعاصي ، وهو يمده بنعمه و يعامله بألطافه ، و يسبل عليه ستره ، و يحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له ادنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم ، و يردهم عنه ويحول بينهم و بينه ، وهو في ذلك كله بعينه يراه و يطلع عليه ، فالسماء تستأذن ربها ان تحصبه، والارض تستأذنه ان تخسف به ، والبحر يستأذنه أن يغرقه ، كما في مسند الإمام احمد عن النبي صلى الله عليه وسلم «ما من يوم الا والبحر يستأذن ربه ان يغرق ابن آدم ، والملائكة تستأذنه ان تعاجله وتهلكه (١) والرب تعالى يقول: دعوا عبدي فأنا أعلم به اذ أنشأته من الارض، ان كان عبدكم فشأنكم به ، وان كان عبدي فمني الى عبدي، وعزتي وجلالي إن أتاني ليلا قبلته ، وأن أتاني نهارا قبلته ، وان تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ، وان تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا ، وان مشى الي هرولت اليه ، وان استغفرني غفرت له ، وان استقالني أقلته ، وان تاب الي تبت عليه . من اعظم مني جودا وكرما وانا الجواد الكريم ؟ عبيدي يبيتون يبارزونني بالعظائم ، وانا أكلؤهم في مضاجعهم ، وأحرسهم على فرشهم ، من اقبل الي تلقيته من بعيد ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد ، ومن اراد مرادي ردت مايريد ، أهل ذكري أهل مجالستي ، واهل شكري أهل زيادتي ، واهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا اقنطهم من رحمتي ، ان تابوا الي فأنا حبيبهم ، وان لم يتوبوا فانا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لاطهرهم من المعايب»

---

(١) لعل المراد أن الانسان عرضة للهلاك في البر والبحر بجهله وخطاياه ، لولا عناية الله به وتسخيره هذه المخلوقات له . والكلام عن لسان الحال ، قد يكون أفصح من لسان المقال

﴿ نموذج آخر من الكتاب ﴾

في بعض منازل السير الى الله تعالى

فما تقدم هو نظر الصوفية في المعصية، واختلاف مشاهد أصناف الناس فيها بين من يعتبر ويندم ويزداد بعدها صلاحا ، ومن يرى انه مجبور ومعذور بالقدر ، ومن يرى انه مؤد لحق الطبيعة ووظائف الاعضاء الخ ولذلك جاء كله في مباحث التوبة . واما هذا النموذج فهو من نظرهم في سير السالكين الى الله تعالى أي الى معرفته العليا وما لهم من المنازل في طريقهم

﴿ فصل ﴾

ثم ينزل القلب منزل الاعتصام وهو نوعان : اعتصام بالله ، واعتصام بحبل الله . قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال (واعتصموا بالله هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير) والاعتصام افتعال من العصمة وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف، فالعصمة الحمية، والاعتصام الاحتماء ، ومنه سميت القلاع العواصم ، لمنعها وحمايتها . ومدار السعادة الدنيوية والاخروية على الاعتصام بالله ، والاعتصام بحبله ، ولا نجاة الا لمن تمسك بهاتين العصمتين .

فاما الاعتصام بحبله فانه يعصم من الضلالة ، والاعتصام به يعصم من الهلكة، فان السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج الى هداية الطريق والسلامة فيها ، فلا يصل الى مقصده الا بعد حصول هذين الأمرين له ، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة ، وان يهديه الى الطريق ، والعدة والقوة والسلاح بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها ، فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل ، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه ، ولهذا اختلف عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم الى هذا المعنى ، فقال ابن عباس : تمسكوا بدين الله . وقال ابن مسعود : هو الجماعة. وقال : عليكم بالجماعة فانها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة ، خير مما تحبون في الفرقة . وقال مجاهد وعطاء : بعهد الله . وقال قتادة والسدي وكثير

من أهل التفسير : هو القرآن . قال ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان هذا القرآن هو حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، وعصمة من تمسك به ، ونجاة من تبعه » وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن « هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ، ولا تختلف به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تشبع منه العلماء » وقال مقاتل : بامر الله وطاعته ، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى . وفي الموطإ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن ابيه عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا : يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولاه الله امركم . ويسخط لكم قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » رواه مسلم في الصحيح

قال صاحب المنازل : « الاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته مراقبا لأمره » ويريد بمراقبة الامر القيام بالطاعة لاجل ان الله أمر بها وأحبها ، لا لمجرد العادة أو لعلة باعثة سوى امتثال الامر ، كما قال طلق بن حبيب في التقوى : هي العمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله . وهذا هو الايمان والاحتساب المشار اليه في كلام النبي صلى الله عليه وسلم كقوله « من صام رمضان إيمانا واحتسابا — ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا — غفر له » فالصيام والقيام هو الطاعة ، والايمان مراقبة الامر (١) واخلاص الباعث هو ان يكون الايمان الآمر (٢) لا شيء سواه . والاحتساب رجاء ثواب الله ، فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل والله أعلم

---

(١) ضبط في نسختنا الآمر بصيغة اسم الفاعل . وفي نسخة أخرى الامر بصيغة المصدر وهي الموافقة لقول صاحب المنازل والمعنى ، فاخترناها (٢) لم يوضع لهذه في نسختنا علامة المد ، وفي نسخة لآمر ، والصواب مااخترناه . أي ان هذه هي التي يجب ان تكون اسم فاعل معرف والاولى هي المصدر .

﴿ فصل ﴾

وأما الاعتصام به فهو التوكل عليه، والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله ان يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه، فان ثمرة الاعتصام به هو الدفع عن العبد، والله يدفع عن الذين آمنوا، فيدفع عن عبده المؤمن اذا اعتصم به كل سبب يفضي الى العطب، ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه. ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه، فتفقد في حقه أسباب العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها، ويدفع عنه قَدرَه بقدره، وارادته بارادته، ويعيذه به منه.

فصل

وأما صاحب المنازل فقال ﴿ الاعتصام بالله الترقي عن كل موهوم ﴾ الموهوم عنده ما سوى الله تعالى. والترقي عنه الصعود من شهود نفعه وضره، وعطائه ومنعه وتأثيره، الى الله تعالى. وهذه إشارة الى الفناء، ومراده الصعود عن شهود ما سوى الله الى الله. والكمال في ذلك الصعود عن ارادة ما سوى الله الى ارادته. والاتحادي يفسره بالصعود عن وجود ما سواه الى وجوده، بحيث لا يرى لغيره وجودا البتة، ويرى وجود كل موجود هو وجوده، فلا وجود لغيره الا في الوهم الكاذب عنده.

قال ﴿ وهو على ثلاث درجات : اعتصام العامة بالخبر استسلاما وإذعانا بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهي، وتأسيس المعاملة على اليقين والانصاف ﴾ يعني أن العامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله استسلاما من غير منازعة، بل ايمانا واستسلاما، وانقادوا الى تعظيم الأمر والنهي والإذعان لهما، والتصديق بالوعد والوعيد، وأسسوا معاملتهم على اليقين، لا على الشك والتردد (١) وسلوك طريقة الاحتياط كما قال القائل :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الاجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

(١) وفي نسخة : لا على شك والترديد . ولعله وتردد

هذه طريق أهل الريب والشك ، يقومون بالامر والنهي احتياطا ، وهذه الطريق لا تنجي من عذاب الله ولا يحصل لصاحبها السعادة ولا توصله الى المأمن .

وأما الانصاف الذي أسسوا معاملتهم عليه ، فهو الانصاف في معاملتهم لله ولخلقه . فأما الانصاف في معاملة الله ، فأن يعطي العبودية حقها ، وأن لا ينازع ربه صفات الـهيته التي لا تليق بالعبد ولا تنبغي له ، من العظمة والكبرياء والجبرية . ومن انصافه لربه ان لا يشكر سواه على نعمه وينساه ، ولا يستعين بها على معاصيه ، ولا يحمد على رزقه غيره ، ولا يعبد سواه ، كما في الاثر الإلهي «اني والجن والانس في نبإ عظيم : أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي» وفي أثر آخر «ابنَ آدم ما انصفتني ، خيري اليك نازل ، وشرك اليّ صاعد ، أتحبب اليك بالنعم ، وأنا عنك غني ، وتتبغض اليّ بالمعاصي وأنت فقير اليّ ، ولا يزال الملك الكريم يعرج اليّ منك بعمل قبيح » وفي أثر آخر « يا ابن آدم ! ما من يوم جديد ، الا يأتيك من عندي رزق جديد ، وتأتي عنك الملائكة بعمل قبيح ، تأكل رزقي وتعصيني ، وتدعوني فاستجيب لك ، وتسألني فأعطيك ، وأنا أدعوك الى جنتي فتأبى ذلك ، وما هذا من الانصاف » وأما الانصاف في حق العبيد فأن يعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به . ولعمر الله هـذا الذي ذكر أنه اعتصام العامة هو اعتصام خاصة الخاصة (١) في الحقيقة ، ولكن الشيخ ممن رفع له علم الفناء فشمر اليه ، فلا تأخذه فيه لومة لائم ، ولا يرى مقاما أجل منه .

﴿ فصل ﴾

قال (واعتصام الخاصة بالانقطاع ، وهو صون الارادة قبضا ، واسبال الخُلُق عن الخلق بسطا ، ورفض العلائق عزما ، وهو التمسك بالعروة الوثقى) يريد انقطاع النفس عن اغراضها من هذه الوجوه الثلاثة ، فيصون إرادته ويقبضها عما سوى الله سبحانه ، وهذا شبيه بحال أبي يزيد فيما أخبر به عن نفسه لما قيل له : ماتريد؟ فقال : أريد أن لا أريد

(١) وفي نسخة الخاصة

(الثاني) إسبال الخُـلُـق على الخلق بسطا • وهذا حقيقة التصوف فانه كما قال ابو بكر الكتاني: التصوف خُـلُـق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف. فان حسن الخُـلُـق وتزكية النفس بمكارم الاخلاق، يدل على سعة قلب صاحبه، وكرم نفسه وسجيته. وفي هذا الوصف يكف الاذى ويحمل الاذى، ويوجد الراحة، ويدير خده الايسر لمن لطم الايمن، ويعطي رداءه لمن سلبه قميصه، ويمشي ميلين مع من سخره ميلا (١) وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه واغراضها.

وأما رفض العلائق عزما، فهو العزم التام على رفض العلائق وتركها في ظاهره وباطنه، والاصل هو قطع علائق الباطن، فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر، فمتى كان المال في يدك وليس في قلبك لم يضرك ولو كثر، ومتى كان في قلبك ضرك ولو لم يكن في يدك منه شيء • قيل للامام أحمد: أيكون الرجل زاهدا ومعه الف دينار؟ قال: نعم على شريطة ألّا يفرح اذا زادت ولا يحزن اذا نقصت. ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال. وقيل لسفيان الثوري: أيكون ذو المال زاهدا؟ قال: نعم إن كان اذا زيد في ماله شكر، وان نقص شكر وصبر. وانما يحمد قطع العلائق الظاهرة في موضعين: حيث يخاف منها ضررا في دينه، أو حيث لا يكون فيها مصلحة راجحة، والكمال من ذلك قطع العلائق التي تصير

(١) قوله: وفي هذا الوصف الخ يريد به تزكية النفس، وهو غير حسن الخلق فان التزكية تهذيب فهي مبدأ، وحسن الخلق غاية. وفي طور التزكية والتهذيب يحسن ما ذكره من العمل بوصايا الانجيل، كقوله: من لطمك على خدك الايمن فأدر له الايسر. الخ ودين المسيح كله تمهيد لدين محمد عليهما السلام، بل هما دين واحد جاء القسم الاول منه تمهيدا للثاني، كما اخبر المسيح اصحابه بأنه لا يستطيع ان يقول لهم كل شيء، وبشرّهم بأنه سيأتي بعده الباروقليط الذي يقول كل شيء من حقائق الدين. وهو محمد (ص) بدليل انه لم يجئ بعده نبي غيره، وانه هو الذي بين كل شيء. وفصل بين السائرين الى الله تعالى بالتزكية والتهذيب وبين الواصلين اليه، وبين فضيلتي العدل والاحسان وغير ذلك

كلاليب على الصراط تمنعه من العبور ، وهي كلاليب الشهوات والشبهات ، ولا يضره ما تعلق به بعدها .

﴿ فصل ﴾

قال (واعتصام خاصة الخاصة بالاتصال ، وهو شهود الحق تفريدا ، بعد الاستحذاء له تعظيما، والاشتغال به قربا) لما كان ذلك الانقطاع، موصلا الى هذا الاتصال ، كان ذلك للمتوسطين ، وهذا عنده لأهل الوصول . ويعني بشهود الحق تفريدا ، أن يشهد الحق سبحانه وحده منفردا ولا شيء معه، وذلك لفناء الشاهد في الشهود ، والحوالة في ذلك عند القوم على الكشف . وقد تقدم ان هذا ليس بكمال ، وان الكمال ان يفني بمراده عن مراد نفسه . واما فناؤه بشهوده عن شهود ماسواه ، فدون هذا الفناء في الرتبة كما تقدم .

وأما قوله بعد الاستحذاء له تعظيما . فالشيخ قدس الله روحه لكثرة لهجه بالاستعارات عبر عن معنى لطيف عظيم بلفظة الاستحذاء التي هي استفعال من المحاذاة ، وهي المقابلة التي لا يبقى فيها جزء من المحاذي خارجا عما حاذاه . بل قد واجهه وقابله بكليته وجميع اجزائه . (١) ومراده بذلك القرب وارتفاع الوسائط المانعة منه ، ولا ريب ان العبد يقرب من ربه ، والرب يقرب من عبده ، فاما قرب العبد فكقوله تعالى (واسجد واقترب) وقوله في الاثر الالهي « من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا » وكقوله « وما تقرب الي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي » وفي الحديث الصحيح « أقرب

(١) هذا التفسير للاستحذاء لم نجده في معاجم اللغة كلسان العرب والقاموس وشرحه بل المعرف فيها ان معنى استحذى فلان فلانا ، طلب منه أن يلبسه حذاء . كاستطعمه واستكساه . واظن أن الاستخذاء في كلام الهروي بالخاء المعجمة وهو الخضوع والانكسار لله تعالى . وانما تكلف المصنف له هذا التفسير لأنه وجد نسخ المنازل تذكره الاستحذاء بالمهملة

ما يكون الرب من عبده في جوف الليل الأخير » وفي الحديث أيضاً « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وفي الحديث الصحيح لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي صلى الله عليه وسلم في السفر فقال « يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، انكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا ، ان الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » فعبر الشيخ عن طلب القرب منه ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب الذي لا تقرعيون عابديه وأوليائه الا به ، بالاستحذاء . وحقيقته موافاة العبد الى حضرته وقدامه وبين يديه ، عكس حال من نبذه وراءه ظهريا ، واعرض عنه ونأى بجانبه ، بمنزلة من ولى المطاع ظهره ، ومال بشقه عنه .

وهذا الامر لا يدرك معناه الا بوجوده وذوقه ، وأحسن ما يعبر عنه بالعبارة النبوية المحمدية ، وأقرب عبارات القوم انه التقريب برفع الوسائط التي بارتفاعها يحصل للعبد حقيقة التعظيم . فلذلك قال: الاستحذاء له تعظيما . ومن اراد فهم هذا كما ينبغي فعليه بفهم اسمه تعالى الباطن وفهم اسمه القريب ، مع امتلاء القلب بحبه ، ولهج اللسان بذكره . ومن هاهنا يؤخذ العبد الى الفناء الذي كان مشمرا اليه ، عاملا عليه ،

فان كان مشمرا الى الفناء المتوسط وهو الفناء عن شهود السوى ، لم يبق في قلبه شهود لغيره البتة ، بل تضمحل الرسوم وتفنى الإشارات ، ويفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل . وفي هذا المقام يجيب داعي الفناء طوعا ورغبة لا كرها ، لأن هذا المقام امتزج فيه الحب بالتعظيم مع القرب ، وهو منتهى سفر الطالبين لمقام الفناء

وان كان هذا مشمرا للفناء العالي ، وهو الفنا ، عن ارادة السوى ، لم يبق في قلبه مراد يزاحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني ، بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب هو مراد العبد . وهذا حقيقة المحبة الخالصة ، وفيها يكون الاتحاد الصحيح . وهو الاتحاد في المراد لا في المريد ولا في الارادة . فتدبر هذا الفرقان في هذا الموضع الذي طالما زلت فيه اقدام السالكين ، وضلت فيه افهام الواجدين .

وفي هذا الباب (١) حقيقة يفنى من لم يكن ارادة وإيثارًا ومحبة وتعظيما وخوفا

(١) وفي نسخة « المقام »

ورجاء وتوكلا ، ويبقى من لم يزل . وفيه ترتفع الوسائط بين الرب والعبد حقيقة ، ويحصل (١) له الاستحذاء المذكور مقرونا بغاية الحب وغاية التعظيم . وفي هذا المقام يجيب داعي الفناء في المحبة طوعا واختيارا لا كرها، بل ينجذب اليه انجذاب قلب المحب وروحه الذي قد ملأت المحبة قلبه ، بحيث لم يبق فيه جزء فارغ منها، الى محبوبه الذي هو اكمل محبوب واجله واحقه بالحب . وهذا الفناء اوجبه الحب الكامل الممتزج بالتعظيم والاجلال والقرب ، ومحو ما سوى مراد المحبوب من القلب ، بحيث لم يبق في القلب الا المحبوب ومراده . وهـذا حقيقة الاعتصام به وبحبله والله المستعان .

واما قوله: والاشتغال به قربا . أي يشغله قرب الحق عن كل ما سواه ، وهذا حقيقة القرب . ألا ترى ان القريب من السلطان جدا المقبل عليه المكلم له لا يشتغل بشيء سواه البتة ؟ فعلى قدر القرب من الله يكون اشتغال العبد به . والله اعلم .

﴿ فصل ﴾

ومن منازل اياك نعبد واياك نستعين (منزلة الفرار) قال الله تعالى (ففروا الى الله) وحقيقة الفرار الهرب من شيء الى شيء ، وهو نوعان : فرار السعداء وفرار الاشقياء . ففرار السعدا الفرار الى الله عز وجل ، وفرار الاشقياء الفرار منه لا اليه . واما الفرار منه اليه ففرار اوليائه . قال ابن عباس في قوله تعالى(ففروا الى الله)فروا منه اليه ، واعملوا بطاعته . وقال سهل بن عبد الله : فروا مما سوى الله الى الله . وقال آخرون : اهربوا من عذاب (٢) الله الى ثوابه بالايمان والطاعة .

وقال صاحب المنازل (هو الهرب مما لم يكن الى من لم يزل ، وهو على ثلاث درجات : فرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ، ومن الكسل الى التشمير جدا وعزما ، ومن الضيق الى السعة ثقة ورجاء) يريد بما لم يكن « الخلق » وبما لم يزل « الحق » وقوله : فرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ـ الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه ، فكلاهما جهل لغة وعرفا وشرعا

(١) وفي نسخة « ويحصل » (٢) نسخة « عقاب »

وحقيقة. قال موسى (أعوذ بالله ان اكون من الجاهلين) لما قال له قومه (أتتخذنا هزوا) أي المستهزئين (١) وقال يوسف الصديق (و إلاّ تصرف عني كيدهن أصبُ اليهن وأكن من الجاهلين) أي من مرتكبي ماحرمت عليهم • وقال تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة) قال قتادة : اجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كل ما عصي الله به فهو جهالة • وقال غيره : أجمع الصحابة ان كل من عصى الله فهو جاهل • وقال الشاعر

ألا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وسمي عدم مراعاة العلم جهلا، اما لانه لم ينتفع به فنزل منزلة الجهل، واما لجهله بسوء ماتجني عواقب فعله . فالفرار المذكور هو الفرار من الجهلين -من الجهل بالعلم الى تحصيله اعتقادا ومعرفة و بصيرة، ومن جهل العمل الى السعي النافع والعمل الصالح قصدا وسعيا •

قوله « ومن الكسل الى التشمير جدا وعزما » أي يفر من اجابة داعي الكسل الى داعي العمل والتشمير، بالجد والاجتهاد • والجد هو هاهنا صدق العمل واخلاصه من شوائب الفتور ووعود التسويف والتهاون، وهو تحت السين وسوف وعسى ولعل. فهي اضر شيء على العبد • وهي شجرة ثمرها الخسران والندامات . والفرق بين الجد والعزم ان العزم صدق الارادة واستجماعها ، والجد صدق العمل و بذل الجهد فيه . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد فقال (خذوا ما آتيناكم بقوة) وقال (وكتبنا له فى الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة) وقال (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) أي بجد واجتهاد وعزم ، لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور .

وقوله « ومن الضيق الى السعة ثقة ورجاء » يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والاحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه، وماهو خارج عن نفسه مما يتعلق باسباب مصالحه ومصالح من يتعلق به ، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه ، - يهرب من ضيق صدره بذلك كله الى سعة فضاء الثقة

(١) تفسير للجاهلين

بالله تبارك وتعالى ، وصدق التوكل عليه وحسن الرجاء لجميل صنعه به ، وتوقع المرجو من لطفه و بره . ومن أحسن كلام العامة قولهم : لاهم مع الله . قال الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب) قال الربيع بن خيثم : يجعل له مخرجا من كل ماضاق على الناس . وقال أبو العالية : مخرجا من كل شدة . وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة ومضايق الدنيا والآخرة . فان الله يجعل المتقي من كل ماضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجا . وقال الحسن : مخرجا مما نهاه عنه ، (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافي من يثق به في نوائبه ومهماته – يكفيه كل ما أهمه . والحسب الكافي « حسبنا الله » كافينا الله . وكلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه ، فان الله لا يخيب أمله فيه ألبتة . فانه سبحانه لا يخيب أمل آمل ، ولا يضيع عمل عامل . وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة ، فانه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الايمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به

﴿ فصل ﴾

قال (وفرار الخاصة من الخبر الى الشهود ، ومن الرسوم الى الاصول ، ومن الحظوظ الى التجريد) يعني انهم لا يرضون ان يكون ايمانهم عن مجرد خبر حتى يترقوا منه الى مشاهدة المخبر عنه ، فيطلبون الترقي من علم اليقين بالخبر ، الى عين اليقين بالشهود ، كما طلب ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه إذ قال (رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أولم تؤمن ؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي) فطلب ابراهيم ان يكون اليقين عيانا ، والمعلوم مشاهداً . وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالشك في قوله « نحن احق بالشك من ابراهيم » حيث قال « رب أرني كيف تحيي الموتى » وهو صلى الله عليه وسلم لم يشك ولا ابراهيم حاشاهما من ذلك . وانما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة . هذا احد الأقوال في الحديث . وفيه قول ثان انه على وجه النفي ، اي لم يشك ابراهيم حيث قال ما قال ، ولم نشك نحن . وهذا القول صحيح أيضا . اي لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن احق به

منه ، لكن لا يطلب ما طلب شكا ، وانما طلبه طمأنينة .

فالمراتب ثلاث : علم يقين يحصل عن الخبر ، ثم يتجلى(١) حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر حتى يصير العلم به عين يقين ، ثم يباشره ويلابسه فيصير حق يقين ، فعلمنا بالجنة والنار الآن علم يقين ، فاذا أزلفت الجنة المتقين في الموقف ، وبُرِّزت الجحيم للغاوين ، وشاهدوها عيانا ، كان ذلك عين يقين ، كما قال تعالى (لترونّ الجحيم * ثم لترونّها عين اليقين) فاذا دخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار فذلك حق اليقين . وسنزيد ذلك ايضاحا ان شاء الله تعالى اذا انتهينا اليه .

واما قوله « ومن الرسوم الى الاصول » يريد بالرسوم ظواهر العلم والعمل ، وبالاصول حقائق الايمان ومعاملات القلوب واذواق الايمان وارداته ، فيفر من إحكام العلم والعمل الى خشوع السر للعرفان ، فان أرباب العزائم في السير لا يقنعون برسوم الاعمال وظواهرها ، ولا يعتدون الا بأرواحها وحقائقها ، وما يثبته لهم التعرف الإلهي وهو نصيبهم من الامر . والتعرف الإلهي لا يقتضي مفارقة الامر كما يظن قطاع الطريق وزنادقة الصوفية ، بل يستخرج منهم حقائق الامر واسرار العبودية وروح المعاملة ، فحظهم من الامر حظ العالم بمراد المتكلم من كلامه تصريحا وإيماء وتنبيها واشارة . وحظ غيرهم منه حظ التالي له حفظا بلا فهم ولا معرفة لمراده ، وهؤلاء احوج شيء الى الأمر لانهم لم يصلوا الى تلك التعرفات والحقائق الا به ، فالمحافظة عليه لهم علما ومعرفة وعملا وحالا ضرورية لا عوض لهم عنه البتة .

وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة وقطاع الطريق من المنتسبين الى طريقة القوم ، فانهم لما علموا أن حقائق هذه الاوامر هي المطلوبة ارواحها ، لا صورها واشباحها ورسومها ، قالوا : نجمع همنا على مقاصدها وحقائقها ، ولا حاجة لنا الى رسومها وظواهرها ، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة ، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره . وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الاعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وارواحها ، فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك وهممهم اعلى ، وانهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر ، فتركب من تقصير هؤلاء

(١) لعلها تجلى بتائين ، وفي نسخة أخرى « تجلي » بتاء ونون

وعدوان هؤلاء تعطيل جملة الامر ـ هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته ، وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته ، فظنوا انهم يصلون الى حقيقته ، من غير رسمه وظاهره ، فلم يصلوا الا الى الكفر والزندقة ، وجحدوا ما علم بالضرورة مجيء الرسل (١) به . فهؤلاء كفار زنادقة منافقون ، وأولئك مقصرون غير كاملين . والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الامر متوجه الى قلوبهم قبل جوارحهم ، وان على القلب عبودية في الامر كما على الجوارح ، وان تعطيل عبودية القلب بمنزله تعطيل عبودية الجوارح وان كمال العبودية قيام كل من الملك وجنوده (٢) بعبوديته ، فهؤلاء خواص اهل الايمان ، واهل العلم والعرفان .

﴿ فصل ﴾

قوله « ومن الحظوظ الى التجريد » يريد الفرار من حظوظ النفوس على اختلاف مراتبها ، فانه لا يعرفها الا المعتنون بمعرفة الله ومراده وحقه على عبده ، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتها . ورب مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها ويفرون اليه منها ، يرونها حائلة بينهم و بين مطلوبهم . و بالجملة فالحظ ما سوى مراد الله الديني منك كائنا ما كان ، وهو ما يبرح حظ محرم الى مكروه الى مباح الى مستحب غيره احب الى الله منه ، ولا يتميز هذا الا في مقام الرسوخ في العلم بالله وامره ، و بالنفس وصفاتها واحوالها . فهناك يتبين له الحظوظ من الحقوق ، ويفر من الحظ الى التجريد . واكثر الناس لا يصلح لهم هذا لانهم انما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه ، واما تجريد عبادته على مراده من عبده :ـ

فتلك منزلة لم يعطها احد | سوى نبي وصديق من البشر
والزهد زهدك فيها ليس زهدك في | ماقد أبيح لنا في محكم السور
والصدق صدقك في تجريدها وكذا (م) | الاخلاص تخليصها ان كنت ذا بصر
كذا توكل ارباب البصائر في | تجريد أعمالهم من ذلك الكدر
كذاك توبتهم منها فهم ابدا | في توبة او يصيروا داخل الحفر

(١) وفي نسخة الرسول (٢) يريد بالملك القلب وبجنوده الاعضاء

وبالجملة فصاحب هذا التجريد لا يقنع من الله بامر يسكن اليه دون الله ، ولا يفرح بما حصل له دون لله ، ولا يأسى على ما فاته سوى الله ، ولا يستغني برتبة شريفة وان عظمت عنده او عند الناس ، فلا يستغني الا بالله ، ولا يفتقر الا الى الله ، ولا يفرح الا بموافقته لمرضاة الله ، ولا يحزن الا على ما فاته من الله ، ولا يخاف الا من سقوطه من عين الله ، واحتجاب الله عنه ، فكله بالله ، وكله لله ، وكله مع الله ، وسيره دائما الى الله ، قد رفع له علم فشمر اليه ، وتجرد له مطلوبه فعمل عليه ، تناديه الحظوظ : الي ! وهو يقول : انما اريد من اذا حصل لي حصل لي كل شي ، واذا فاتني فاتني كل شي ، فهو مع الله مجرد عن خلقه ، ومع خلقه مجرد عن نفسه ، ومع الامر مجرد عن حظه — اعني الحظ المزاحم للامر ، واما الحظ المعين على الامر ، فانه لا يحطه تناوله عن مرتبته ، ولا يسقطه من عين ربه .

وهذا ايضا موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ فظنوا ان ارادة الحظ نقص في الارادة ، والتحقيق فيه ان الحظ نوعان : حظ يزاحم الامر ، وحظ يوازر الامر فينفذه . الاول هو المذموم والثاني ممدوح . وتناوله من تمام العبودية . فهذا لون وهذا لون .

(للنموذج بقية)

(المنار) : أرأيتم ايها المبشرون الذين تدعوننا الى النصرانية هذه المعارف العالية في الايمان ، والعلم بالله وبمزايا الانسان ، وهذه الفضيلة والكمال في الاسلام ؟ — هذا النموذج نقطة من بحر كلام علمائنا في منازل السالكين العارفين . أرأيتم من ارتقى في الدين الى الذروة العليا أيمكن اقناعه بأن النزول عنها الى الدرجات التي هي دونها ، خير له من البقاء على ارتقائه وكماله فيها ؟ ايرضى من هذا حظه من الدين والايمان ان يشغل خياله ولسانه باسم يسوع ، وصورة يسوع ، وتثليث يسوع ، وفداء يسوع ، الذي لا يعقل ؟ اما والله لو كان يسوع وتلاميذ يسوع ويوحنا الذي عمد يسوع ومسح رأسه ودعا له بالبركة ، ومعهم موسى واسرائيل وكل انبياء ابنائه احياء وجاءهم محمد (عليهم الصلاة والسلام) بهذا القرآن لما وسعهم الا اتباعه ، وقد كانوا كلهم على الحق والتوحيد الذي نسختموه بالتثليث والفداء فاربعوا على ظلعكم ، وادعوا الى دينكم البراهمة والبوذيين وامثالهم الذين كان لهم ثالوث كثالوثكم ، فأولئك لا يبعد ان ينتقلوا من ثالوث الى ثالوث . واما صاحب التوحيد الذي هو اكمل واعلى معارف البشر ، فلا يترك التوحيد الى ماهو دونه .

الاسلام يقاوم نفوذ النصرانية (*)

الاسلام في المستقبل سيكون نظير الدين الاسرائيلي يطبق نفسه على حاجات العصر الحديث ولا يدع النصرانية تغلبه وتسلبه ابناءه

(مقدمة للمترجم)

ان نشوء الاسلام في المستقبل سيعيد تاريخ الدين اليهودي الحديث بدرجة مشابهة، فالمبشرون بالانجيل الذين لا يزالون يتوقعون انضمام كل الاديان الى النصرانية لا تحقق احلامهم فيما يتعلق بالاسلام ، لان الدين الاسلامي سيظل دينا قويا نشيطا نظير الدين اليهودي ، ويطبق نفسه نظير الدين اليهودي على حاجات العصر المتغيرة

هذا هو رأي الدكتور (كريستيان سنوك هرغرنج) الهولندي الذي قضى ربع قرن يدرس القضايا الاسلامية وشريعة الاسلام وفلسفته

ومما يقال عن هذا الاستاذ : انه اكثر من خيالي ونبي متغرض. فهو اعلم علماء عصره في الاسلام ـ لانه لا يعرف تاريخ الاسلام وشريعته وفلسفته معرفة دقيقة فقط ، ولكنه قضى ربع قرن يدرس الاسلام من وجه علاقته بالمؤسسات الدينية والسياسية الاخرى

وقد ارسلته جامعة ليدن في هولندا على سبيل المبادلة الى الولايات المتحدة للمرة الاولى ليلقي في امهات كلياتها العلمية اربع محاضرات في نتائج درسه الاسلام ، وقد فصل في هذه المحاضرات زياراته لمكة (مدينة الاسلام المقدسة) فانه قضى ثمانية اشهر ضمن تلك المدينة المسورة وكان فيها عضوا من بطانة رجل مسلم، فاتم هناك الفرائض الدينية التي كان يقوم بها يوميا مائتا الف من حجاج مكة، وتعهد الجوامع هناك، وسمع المحاضرات التي لم يكن يسمعها في الزمن الماضي غير المسلمين . وكم من قصة رويت عن نصارى اضلوا الطريق ويهود مغامرين قتلوا في مكة لاتهامهم بانهم تجرءوا على الدخول الى المدينة الاسلامية المقدسة ؟ واذا لم تصدق هذه الاخبار فقد ثبت ان كثيرين من غير المسلمين طردوا من المدينة باهانة عندما ظهر انهم غير مسلمين

(*) ألقى الدكتور (كريستيان سنوك هرغرنج) الهولندي في أمريكة محاضرة في حال المسلمين الدينية والاجتماعية ومستقبلهم ، فترجمتها بالعربية جريدة الهدى السورية التي تصدر في (نيويورك) ووضعت لها هذا العنوان، وصدرتها بمقدمة في ملخص سيرة الدكتور . فنقلناها عنها مع تصحيح بعض الالفاظ لما فيها من العبر للمسلمين

ثم ان الدكتور هرغرونج ليس يعرف اللغة العربية فقط بل انه قبل ذهابه الى مدينة الاسلام المقدسة قضى عدة سنين يدرس التاريخ الاسلامي ، وكانت معرفته هذه للاسلام وسيلة استطاع بها ان يحافظ على تنكره مدة ثمانية اشهر قضاها في مكة، و بلغ منه انه خدع الكلاب الشاردة التي تفرق المسلم عن غير المسلم لانها تعرفه بقوة الشم فتهاجمه وتفضح امره

وقد وضع الدكتور المذكور بعد اقامته في مكة فصلا فيها وفي تاريخها وحياتها العمومية الحاضرة يعتبر الكتابة الوحيدة التامة عن هذه المدينة المحمية

وليس اهتمام هذا الدكتور بالاسلام اهتمام طالب علم فقط، فقد قضى سبع عشرة سنة في الهند الشرقية الهولندية مستشارا لحكومة هولندا في المسائل المتعلقة بادارة سكان الهند الشرقية الوطنيين ، واستطاع بدرسه الاسلام درسا عميقا واسعا ان يضع لهولندا السياسة التي تجري عليها مستعمراتها الاسلامية التي تحتوي على نحو من خمسة وثلاثين مليونا من تباع النبي محمد

ومن مضي سبع سنين عاد الدكتور الى هولندا ليكون استاذ اللغتين العربية والسلافية في جامعة (ليدن) فقبل هذه الوظيفة على شرط ان يبقى مستشارا عموميا للحكومة في المسائل الاسلامية

وزيادة على ذلك انه ساح في اكثر البلدان الاسلامية، وكان في خلال ربع قرن مضى يراقب الحركات العاملة على احداث تغيير ديني وسياسي في العالم الاسلامي كله، ولذلك كانت صورته التي صور بها حالة الاسلام الحاضرة ، والطريقة التي جرى عليها في تتبع نشوءه في المستقبل، امرين خارجين عن مألوف الذين يعتبرون ان الاسلام لا يزال بربريا في شكله الشرقي، بل انه يرى ان الحواجز بين الشرق والغرب تتهدم بالتدريج تهدما يؤدي الى امتزاجهما السريع في خلال سنين تأتي

وقد القى هذا الدكتور محاضرة بالامس في جامعة كولومبيا في الاسلام هذا ما قاله فيها : —

﴿ محاضرة الدكتور هرغرنج في الاسلام ﴾

ان المدينة الاسلامية كانت في خلال الف سنة مضت ترتفع الى الدرجة الحاضرة النهائية ، فمن مضى الف سنة اعتقد المسلمون ان احوالهم الدينية راضية تمام الرضي، وكان المعتقد الديني عندهم مسألة مقررة ، وكان السواد الاعظم من المسلمين

يقولون بعصمة الدين الاسلامي ويقبلون حقيقته المكشوفة بدون ريب، نظير اجماع النصارى على عصمة الكنيسة الكاثوليكية . وكانت للاسلام شرائع تتعلق بالحياة في كل اطوارها من شخصية وعمومية وفردية واجتماعية . وعلى الجملة ان الاسلام كله قام على استقلال المسلمين السياسي، فقد كانوا في دائرتهم الخصوصية احرارا مستقلين اعتبروا العالم كله ملكا لهم، فالذي لم يكن لهم كان عليهم ان يفتحوه، وبذلك كان حكم السيف ممكنا اذا لم يكن محتملا ، ولكن ثبتت استحالته في الالف سنة التي مضت . ففي خلال القرن الماضي تعرى الاسلام من استقلاله السياسي باعتداء الدول الاوروبية التدريجي عليه، ونتج عن ذلك ان الاسلام اضطر ان يعدل آراءه واعماله، وتأكد للمسلمين انه يجب عليهم ان يحسبوا حسابا لما تفعله الامم الاخرى وتحصل عليه

وقد نجمت عن هذه الحالة مسألتان - الاولى منهما هي: هل يستطيع الاسلام الذي يرشد حياة تابعيه وأفكارهم ان يجاري هذا التغيير عند ما يفقد استقلاله السياسي الذي قام عليه ؟

ان الذين درسوا القضايا الاسلامية استنتجوا ان القضايا الروحية ، متصلة تمام الاتصال بالقضايا المادية في الدين الاسلامي، بحيث ان سقوط الاستقلال السياسي يستلزم سقوط الاسلام نفسه ، ولكني لا أوافقهم على هذا القول

اما المسألة الثانية فهي اهم من الاولى وهي : هل اذا كان الاسلام قادرا على احتمال ذلك التغيير - كما اعتقد انه قادر - يقدر ان يطبق نفسه على قضايا الحياة الحديثة بطريقة يستطيع بها تابعوه بان يكونوا في مقدمة الصفوف في ارتقاء العالم ومدنيته ؟

هاتان هما المسألتان مع كل القضايا الاخرى المتفرعة عنهما ما اريد البحث فيه على مسامع الامريكيين رجاء ان اوقف الغربيين على الانقلاب العظيم الجاري في العالم الشرقي ومجاري هذا الانقلاب

فشل محاولة تنصير المسلمين

والامر الجوهري في هذا الشأن هو الوجه المنظور فيه الى قضية مستقبل الاسلام، فاذا نظرتم اليها بعيني المرسل النصراني الديني فلا بد انكم تستنتجون انه لا يرجى شيء كثير من نشوء الاسلام، لان الاسلام قبل صيرورته كفؤا يجب عليه ان يتخذ النصرانية اولا . ولكن هذا هو اسوأ رأي يعول عليه، وأنا مسرور بقولي: انه ليس رأيا شاملا، فالمسلمون لا يقصدون ان يتنصروا ، وقد احتاطوا اعظم احتياط لهذا الامر الذي ادركه كل المبشرين النصارى المتنورين في الاراضي الاسلامية ، ففي

الهند الشرقية الهولندية – حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقا تمام الالتصاق بالمؤسسات الاسلامية – لا يقدر المرسل النصراني الديني ان يربح تابعين لدينه، نعم يوجد كثيرون من المدعوين مسلمين ولا سيما سكان داخلية البلاد الذين لم يتغلغل اليهم دين من الاديان، وقد ابتعدوا خطوة واحدة عن حالتهم الوثنية الفطرية، ولم يمد يصعب تنصيرهم. وفي بعض جهات جاوه حيث انتشرت الديانة الهندية سابقا لم يجد المرسلون النصارى صعوبة في تنصير قبائل برمتها

ولكن اكثر دعاة النصارى الدينيين في البلاد الاسلامية المحضة – حيث الاسلام تقليد قديم لادين يتدين به – يرون صعوبة كبرى في تنصير المسلمين ، وقد تحولوا عن التبشير بالمسيح الى التهذيب والاعانة ، وما داموا جارين على هذه الطريقة فالمسلمون مستعدون لقبول ما يقدمونه لهم

مثلا ان الذي تقدمه كلية روبرت الامريكية في الاستانة يقبله كل مسلم . وقد كان للكلية المذكورة فضل كبير في نشر المعرفة والطرائق التي يعتبرها المسلمون منتهى التقدم . ولكن الكلية المشار اليها لم تحول مسلما واحدا عن معتقده

وقد حدثت مؤخرا احد زملائي الفرنساويين الذي قضى عدة سنين في الجزائر ولمعرفتي بتعصب المسلمين في شمالي افريقيا سألته عن العمل التبشيري الذي تقوم به الجمعيات الكاثوليكية الدينية المتعددة فقال : انه عمل ناجح ولكن لا ذكر البتة للدين فيه ·

هذا وان هولندا تحكم على خمسة وثلاثين مليونا من المسلمين ولم تعد تفكر قط في هدايتهم وتنصيرهم . وكل ما ادركناه هو حاجتنا الى تعليم هؤلاء الناس الذين وكلت أمورهم الينا بطيات الحوادث التاريخية . وادركنا ان افضل شيء لنفوسهم هو تطبيق دينهم الخاص ومؤسساتهم الخاصة على حاجات العصر الحاضر

ولا اعتقد ابداً ان الدين الاسلامي يسقط امام النصرانية، لان المسلم يحتاط اشد الاحتياط لمقاومة النفوذ النصراني ، فهو يعرف النصرانية التي ليست عنده شيئاً جديداً غير مألوف، فقد عرف اصلها وطريقة نشوءها وهو يعتبرها ديناً فسد بالتدريج، واخيراً نسخه وحي النبي محمد خاتم الانبياء الموحى اليهم . وبالتالي انه يعتبر النصرانية شيئاً مضى، ويرى تدينه بها خطوة الى الوراء . ومهما كان التغيير الذي يقع على الاسلام في ربع القرن الجاري او نصفه فانه لا يكون تغييراً يتناول التدين بالنصرانية ، اذ لا تدعو الضرورة في الاسلام الى هذا الاصلاح

اضعاف الاسلام بالتربية والتعليم

ولا يخفى ان كل من عاش في اراضي الاسلام لا ينكر انه حدث في النصف الاخير من القرن الماضي تغيير عظيم ، فقد اشتدت حاجة المسلمين الى كل ما هو ضروري للاشتراك في الحياة الحديثة التي تبعت دخول الغزاة الغربيين الى الشرق ، ولم يعد المسلمون المتنورون اليوم يكتفون بالتربية الاسلامية القديمة، فهم يطلبون اطباء حديثين وكيمياء حديثة ، واحدث شيء في علم الحياة . وصاروا يطلبون دروساً اجتماعية في مدارسهم، واللغات الحديثة والفن الحديث، ولا يبالون من يقدم لهم هذه الاشياء اذا قدمت لهم في غير صبغة دينية

مرّ زمان كان فيه المسلم يعرف اخاه المسلم بالف طريقة مختلفة ـ كأخلاقه وطريقة معيشته ولباسه وأكله ، ولكن كل هذه المميزات اخذت تزول بالتدريج، بل ان الميزة الوحيدة التي كان بها المسلم يقدر ان يعرف اخاه في الدين سيزيلها التهذيب والتعليم ببقية معروفة من العقيدة الدينية

وقد زالت عادات اسلامية قديمة كثيرة ، واصبح كثير منها آخذا الآن بالزوال، فزي اللباس الشائع الذي دخل من الغرب الى الشرق يجعل تأدية الصلوات الخمس الواجبة يومياً امراً مستحيلا ، فلم يعد المسلم الشرقي يقدر اليوم ان يصلي خمس مرات في اليوم بين شروق الشمس وغروبها !!)وهو مضطر ان يشتغل ثماني ساعات في اليوم. بل انه لا يقدر ان يحافظ على مركزه في الصناعة المنظمة التي يضطر الى مزاولتها بالتدريج ويصوم سحابة النهار في شهر رمضان

وقد كانت هذه الامور قديماً شرائع لا بد من العمل بها . اما الآن فانها تصير اشياء لا يقدر ان يمارسها غير حجاج مكة والائمة المتصوفين، بل حدث تراخ في كل شيء فقد ساد الاسلام في وقت من الاوقات، وتناولت سيادته التجارة ايضا ، ولكن حفت به المشاكل بالتدريج. نعم ان ضمان الحياة لا يزال عند المسلمين شكلا من اشكال المقامرة ، ولكن الربا في استثمار المال صار ممكنا باعتباره قسما من المقاولة الاصلية

درجة تأثير الافكار الاوربية في المتعلمين

تغلغلت الافكار الاوروبية في كل جهة من الاراضي الاسلامية ، ولكن لم يجد فيها الشعور الاوروبي مركزا ولهذا اتجرأ على القول بان المسلمين سيستمرون على دينهم مهما اتخذوا من التهذيب والمدنية الغربيين . ففي كل المدارس الاوربية الكبرى تجد كثيرين من الطلبة المسلمين، وهم من فئة المتنورين الذين بواسطتهم تحدث التغييرات

الاولى في الاسلام . وهؤلاء الشبان من أهل العلم في العالم ، فقد درسوا العلوم الغربية بفروعها نظير خيرة طلبتنا الغربيين ، وهم لا يقومون بكل الفرائض المطلوبة من المسلم الحقيقي ، لانهم مثلنا في طرائق اللباس والمأكل والمعيشة

ولكن مجرى عقلهم لا يزال اسلاميا ، فقد كان بين تلاميذي طلاب مسلمون ، وعندما كنت اتناول مباحثهم التي يكتبونها كنت أرى فيها مظاهر فكر اسلامي في شكل يختلف كل الاختلاف عما يكتبه طلبتي الآخرون ، بل كنت دائما أعرف الطالب المسلم من مباحثه .

ثم انك ترى موقف المسلمين المتنورين تجاه شريعتهم وعقيدتهم القديمتين نفس موقف المتنورين بين الاسرائيليين في العصر الحاضر ، وكلما عشت بين المسلمين ازددت اعتقادا ان الاسلام سيجري في نشوئه على الطريقة التي سلكها الدين الاسرائيلي في تاريخه الحديث .

نعم ان الضغط الشديد الذي وقع على الدين الاسرائيلي لم يقع على الاسلام . فتفرق الاسرائيليين بين امم الارض اضطرهم الى ان يطبقوا حياتهم على شرائع غير شرائعهم ، وكذلك اضطر المسلمون الى ان ينقحوا الطائفة الكبرى من شرائعهم المسيطرة على حياة الفرد اليومية من جراء اتساع الاراضي التي احتلوها بالفتح ، والمحايط المتعددة التي اضطروا الى العمل بموجبها

الاسلام واليهودية

وبين الاسلام والدين الاسرائيلي تشابه عميق يزداد ظهورا في مخالطة المتنورين الاسرائيليين والمسلمين ، فالتوحيد هو قاعدة الدينين ، وليس الله تجاه خدامه في هذين الدينين الا مشترع يرى كل قسم من حياة الرجل يحتاج الى شريعة . ومن أجل ذلك صار درس الشريعة فيهما عاملا مهما . ولكن الوجه الخيالي في الدينين المذكورين انحط انحطاطا عظيما ، وأخذ يقتصر على القائمين ضمن جدران المدارس ، ولم تبق له علاقة قوية بحاجات الحياة الفعلية

وقد صار تفسير الشريعة في الدين الاسرائيلي منوطا بالحاخامين ، وماعدا بعض مراسيم دينية خارجية ترى أكثر المتنورين الاسرائيليين مكتفين بحفظ العقائد الاولية من دينهم ، أما عامة القوم فانهم يضيفون اليها طائفة من الخرافات القديمة

وترى الاسلام تاليا تلو الدين الاسرائيلي . خذ القرآن مثلا وانظر الى التغيير الذي حدث في خلال ثلاثة عشر قرنا مضت على تأسيس الاسلام ، فالمسلم العربي المولد لا يقدر

ان يفهم آيات القرآن الا بعد درس طويل

ولا يخفى أن أكثر المسلمين يعتبرون القرآن كتابا مغلقاً، فقد كان في وقت من الأوقات قوة اصلاحية في العالم، وكان يقرأه كل مؤمن ورع ، أما اليوم فان الائمة والعلمانيين يقرأونه بتجويد دون أن يتدبروا معناه ، حتى أن الكلمات التي يجودونها حجة عليهم في اشياء يصنعونها كل يوم حتى خلال التجويد

وسيقع أيضا تغيير على الشرائع والمؤسسات الاسلامية فيحل درسها بالتدرج محل ممارستها ، بالرغم من التقليد المقدس الذي ينطق بان المعرفة بدون عمل لافائدة منها . وزد على ذلك ان الناشئة الاسلامية الناهضة لاتريد أن تكد ذهنها في درس الشريعة الاسلامية ، كما هي تتعب رئاتها بتجويد الآيات القرآنية ، فان هذا الأمر سيقتصر على فئة خاصة من المسلمين، كما هي الحال عند الاسرائيليين في الوقت الحاضر

ولكن ترك العادات القديمة والاعتراف بعدم اتفاق الشريعة القديمة مع حاجات الحياة الحديثة لم يفهم منهما ان الاسرائيليين تركوا دينهم ، وكذلك لايفهم منهما ان الاسلام سينحط . نعم ان بين المسلمين المتنورين اليوم تعصباً قليلا، ولكن في صدورهم ميلا قويا الى التمسك بدين آبائهم وتطبيقه على الحاجات الحديثة . بل ان المسلمين المتنورين اليوم لم يعودوا يذكرون الجهاد، ولكنهم يلفتون الانظار الى انماء التساهل واتساع المعرفة التي تتغلغل في كل جهة من جهات العالم الاسلامي

وهاهنا أمر آخر هو أن المسلم المتنور يشعر نظير الاسرائيلي المتنور بالرابطة الروحية التي تربطه الى اخوته في الدين وهو لا يريد ان يقطع هذه الرابطة . نعم ان السواد الاعظم من المسلمين ـ ولاسيما حيث النفوذ الاوربي لايزال خفيفا ـ هم الآن حيث كانوا من مضي خمسمائة سنة . وكذلك توجد فئة بين الاسرائيليين لا تزال تمارس شريعة لم تصدم بالحياة الحديثة بعد وقد كان تطبيق التقليد المقدس على حاجات المحيط المتغير ظاهراً باجلى مظاهره في الدين الاسرائيلي . ولكن التشابه في نشوء الدينين الاسرائيلي والاسلامي يحمل الواحد على أن يتوقع للاسلام نفس ما وقع في الدين الاسرائيلي

ولا يمكن أن يقع انحطاط تدريجي في الاسلام، لانه توجد بواعث خارجية تمنعه ، فالاسلام قوي ولم يضعف لاسيما في القرن الماضي، وقلت فيه الانشقاقات الداخلية . وزد على ذلك أن الاسلام يربح أكثر من النصرانية تابعين له من الوثنيين . فالذي يصير مسلما لايطلب منه شيء كثير، اذ لايوجد تقديس ولا طقس ديني ولاتعليم

طويل، فكل ما يطلب منه ان يعترف بالله أنه كلي القوة، ومن ثم يتدرج الى تعلم الفرائض الاسلامية الدينية، وعندما يصير مسلما يتغير مركزه الاجتماعي، ولكن اذا تنصر فانه يبقى دون غيره، ويظل المرسل الديني غريبا منتحيا عنه

الاسلام بمكة ومبلغ علم الخطيب به

ولكني باظهاري لكم هذه الصورة عن الاسلام والحوادث التي تدير مجراه لا اقول انه لا يوجد فيه كثير من التقاليد القديمة التي لا تصدق. ففي خلال الثمانية الاشهر التي قضيتها في مكة كنت احسبني مقيما في مدينة في القرن الثاني عشر او الثالث عشر. فهناك درست الشريعة الاسلامية بكل فروعها وكل اسرار الاسلام في الاشهر الثمانية التي كانت فيها المدينة غاصة بحجاجها البالغ عددهم مائتي الف

ولا توجد تجارة في مكة غير نهب الحجاج فان سكانها الوطنيين يسلبونهم كل ما يكون معهم من مال بالبيع المغبون

ولا شيء ادل على البداوة القديمة من مكة، فهي تمثل الاسلام في العصور القديمة فلا بيوت هناك. اما وسائل النور والحرارة والماء التي اعتدناها في العصر الحاضر فهي هناك كما كانت في العصور المظلمة. ولكن الذي لم يذهب الى مكة ولا أقام في بيت اسلامي فيها ودرس في جوامعها لايقدر ان يفهم الاسلام، او يجد صعوبة شديدة في معرفة نشوء بلاد اسلامية

وقد كثر التحدث حينا بعد آخر عن مكة، أنها ستفتح للعالم بالقوة، ولكني لاارى شيئا يدل على ان انكلترا ستحاول فتح مكة، لانها اذا اقدمت على هذا الامر جلبت لنفسها اضطرابات كثيرة في الهند. ولذلك ستظل مكة عدة سنين مركز التقليد الاسلامي

وعلى الجملة اني اقول ان نشوء الاسلام في القرن الجاري لا يكون شيئا باعثا على الدهشة، بل سيكون طبقا للحركة العمومية التي تقرب بين الامم والاديان، دون زوال الاحترام للتقاليد الموروثة عن السلف، ولا بد للاسلام من الاتصال بالعالم الغربي وسيفعل ذلك، ولكن نقصه العظيم او النقطة التي يحتاج فيها اشد الاحتياج الى اتخاذ الافكار والمبادئ الاوربية هي موقفه تجاه نسائه، وقد اخذ يتساهل في موقفه نحوهن تساهلا بطيئا تدريجيا، فالاسلام لا يمكن ان يرتقي ارتقاء حقيقيا الا اذا حرر نساءه الراسفات في سلاسل التقاليد القديمة التي لا تنطبق على روح العصر الحديثة، التي هي روح الترقي الحقيقي ؟ اهـ

(المنار) : سنبين رأينا في هذه المحاضرة في الجزء الآتي ان شاء الله تعالى

اعتقاد الشيخية (*)

على ما نقل من كلامهم في كتبهم المعروفة الكاشفة عن اعتقاداتهم في مراتب اصول العقائد

(ففي مرتبة معرفة الذّات) قالوا « إنّ الذات ذاتان » ذات غيبية باطنية لا اسم لها ولا رسم لها ، ولا تسمى ولا توصف ، ولا تكليف على العباد بمعرفتها وتوحيدها وعبادتها . وذات ظاهرة تسمى و توصف ، وفي هذا القسم من الذات قالوا : ان المعرفة فرع ادراك المعروف ، والعبادة فرع ادراك المعبود ، فيجب أن يكون المعبود في صقع العارف والعابد ، حتى يعبد بجسمه جسم المعبود ، وبنفسه نفس المعبود ، وبعقله عقل المعبود ، وبفؤاده فؤاد المعبود . فهناك ذات ظاهرة معرفتها تسمى بمعرفة البيان ، وهي المتعلقة بها المعرفة والعبادة ، وهي في مقام النبوة نبيّ ، وفي مقام الامامة إمام ، وفي مقام الركنية ركن رابع . ولذا قالوا : ان الخطاب في « إياك نعبد وإياك نستعين » الى النبي والامام

والركن الرابع صرح به الشيخ أحمد بن صقر المشهور بزين الدين واغر الاحسائي في رسالته الخطابية المطبوعة في جوامعه ، والسيد كاظم الرشتي في شرح الخطبة ، والحاج كريم خان في موارد من ارشاده المعروف المطبوع في عصره

وهذه المقالة دعتهم الى مصاحبتهم لصور مشايخهم ، وجعلها في محال سجودهم ، وقد اشتهروا بذلك بحيث لا يتمكنون من انكاره

(وفي مرتبة معرفة الصفات) قالوا : ان الاسماء والصفات للذات الظاهرة النبي والامام والركن الرابع . وهي معرفتهم بالمعاني . وقالوا : ان الصفات كلها حادثة ، فالله عالم بالاشياء بعلم حادث ، وقادر بقدرة حادثة ، وهكذا . وقالوا : ان الصفات متحدة في المفهوم كما هي متحدة في المصداق . وقالوا : نسبة الخلق والرزق اليه تعالى كفر . قال الخان الكرماني في ارشاده بالفارسية : پس هر كه بكويد ذات خداي تعالى خالق اشياء است باجماع مسلمانان ازضرورت دين بيرون رفته . وصرح بتمام ذلك ابن صقر في شرح العرشية ، والرسالة العلمية ، وشرح الزيارة ، والسيد الرشتي في شرح الخطبة

(وفي مرتبة معرفة الاسماء) قالوا ان الذات لا اسم لها ولا رسم لها . ويقولون في

(*) هم اتباع الشيخ احمد الاحسائي وهم كريم خان القاجار والسيد كاظم الرشتي ، وهم من غلاة الشيعة ابتدعوا فيها فلسفة جديدة خيالية ، كانت المنشأ لما هو شر منها وهو فتنة البابية والبهائية والاصل لذلك كله ضلالات قدماء الباطنية

قوله تعالى « ولله الاسماء الحسنى » يعني الربوبية الثانية في الذات الظاهرة قال سيدهم في شرح الخطبة : ان الربوبية لها ستة مقامات (احدها) رتبة الذات البحت التي لا اسم لها ولا رسم (الثانية) رتبة الذات الظاهرة التي هي مظهرة تلك الذات البحت (والثالثة) رتبة الذات في مقام يعبر عنها بهو (والرابعة) رتبة يعبر عنها بالله (والخامسة) رتبة يعبر عنها بسائر الاسماء (والسادسة) هي الرتبة الربوبية ، السارية في العبودية . وخمسها شيخه

وكثرها الخان الكرماني بغير حساب . قال في الارشاد : من نميكويم انخدائيكه سابق مى پرستند باطل بوده بلكه ميكويم او حق بوده وعبادتش درست بوده ولـكن امروز چون شعور شمازيادشده بايدبدانيدكه ان خدا نبوده بلكه بنده بوده واينكه امروز ميكويم اين خدا است وبعد از اين شعورها زياد بشود ميد اينكه اين خدا نيست بلكه بنده ايست از بندكان خدا وخدا ديكريست .

وقال الشيخ أحمد في شرح الزيادة في تفسير الدعاء : أنت الله عماد السموات - يعني الحسن ابن علي - وقالوا أنت الله قوام الارضين - يعني الحسين بن علي - وقالو : ان الضمائر له في القرآن من الغيبة والخطاب والتكلم راجعة الى النبي والامام والركن الرابع في مرتبة المعاني . وقال الشيخ أحمد : كما ان له الاسماء الحسنى كذلك له الاسماء السوءى ، لكن امرنا بدعوته بالحسنى دون السوءى ! وقال ان معنى قولك « الله عالم قادر بصير » الله الله الله . لاتحادها في المفاهيم اللغوية كاتحادها في المصداق الوجودي

(وفي مرتبة معرفة الافعال) قالوا الافعل لله تعالى ، ولا انتسب اليه الفعل ، ولا يطلق على الذات اسم الخالق والفاعل وأمثالهما ، لانها يجب ان يكون مقارنة للفعل والذات لايقارن شيئا . واستدلوا بقوله : ان الارادة لاتكون الا والمراد معها . ولا يفهمون ان معية المراد مع الارادة حادثة هي لامع المريد الذي هو القديم تعالى

(وفي مرتبة العدل) قالوا لاخصوصية للعدل في حق معرفته من الاصول دون سائر الصفات . ولذلك جعلوا أصول دينهم أربعة (احدها) معرفة الله (والثانية) معرفة النبي (والثالثة) معرفة الامام (والرابعة) معرفة الركن . وعليه بنى الارشاد الخان الكرماني

(وفي معرفة النبوة) قالوا لـكل نوع من الموجودات نبي من نوعهم ، فللجماد نبي من الجمادات ، وللنبات هكذا ، وللحيوان ايضا . وقالوا ان الصفات المقررة في انبياء بني آدم مقررة لها من كونها طاهرة مطهرة ، عاقلة عالمة ، قابلة للوحي والالهام ، معصومة فياضة على ما تحتها من امتها . ولها أئمة من بعدها حافظة لشرائعها ونقباء ونجباء : صرح به الشيخ احمد في جوامعه ، والخان في ارشاده ، وزاد أشياء أخرى

فقال : ان محمدا تنزل وتطور في كل مقام في صورة كل نوع فينبئ فيها و يبلغها ، فانهم قد يظهرون في صور الجمادات والنباتات والحيوانات وصور بني آدم سعيدهم وشقيهم . وبه قال الشيخ احمد في موارد من كتبه . منها ما ذكر في شرح الزيارة في تفسير « واجسادكم في الاجساد » وقال ان الائمة قد يظهرون في احسن صورة لاوليائهم ، وفي اوحش صورة لأعدائهم . ثم ذكر حديث جابر بن عبد الله في قول طلحة ، وقال في الاستشهاد لهذا الحديث : حيث ظهر امير المؤمنين (ع) في صورة قبيحة هي صورة مروان بن الحكم ورمى طلحة بسهم وقتله للاتفاق على ان طلحة قتل برمي مروان ، لكن طلحة لما عاين الموت وكشف عنه غطاؤه رأى عليا (ع) في صورة مروان بن الحكم ، انتهى . وصرح به الخان في ارشاده . والعجب من هذه المقالة بانه كيف عرف طلحة ورأى عليا في صورة مروان ، ولم يعرفه الحسن بن علي حيث قال في مجلس معاوية لمروان : أنت الذي وقفت بين الصفين ورميت طلحة وقتلته؟؟

(وفي مرتبة الختمية) قالوا ان للخاتم (ص) اسمين (يعني ظهورين) اسم سماوي وهو احمد ، واسم ارضي وهو محمد . وقد ظهر باسمه الارضي منذ بعث في رأس كل مائة لترويج ظاهر شريعته ، حتى مضت عليه وعلى شريعته ستة مائة ستة مائة فكانت اثنى عشر مائة (١) وانتهت الدورة الاولى لترويج ظاهر الشريعة ، واتت الدورة الثانية لترويج باطن الشريعة . وانقضت دورة ظاهر الشريعة ، فظهرت تلك الحقيقة المحمدية باسمها السماوي وهو احمد في الشيخ احمد لترويج باطن الشريعة . وهذه المقالة عين ما قاله السيد كاظم الرشتي في شرح قصيدة عبد الباقي ، مذكورة في عشرين ورقا (٢) من أواخر الكتاب . وللخان في هذا الميدان جولان ، حيث شبه الايمان بالانسان . وقال انه كان نطفة في زمن آدم (ع) ثم صار علقة في زمن نوح (ع) ومضغة في زمن ابراهيم (ع) وعظاما في زمن موسى (ع) ونفخ فيه الروح في زمن عيسى (ع) وتولد في زمن محمد (ص) فارتضع من ثدي ولاية الائمة (ع) ولما كان أوان فطامه غاب عنه المرتضعة (٣) فودعوه (٤) لدى المربيات وهم الفقهاء ، وصار مراهقا في زمن شيخنا ، فأخذناه من الاماء المربيات لنعلمه الآداب والسنن . وجال في المقام ، واطال في الكلام ، ولعب بذنبه والسبال ، حتى آل الحال الى مقالة

(١) المنار : الصواب في اللفظ ست مئة ست مئة فكانت اثنتي عشرة مئة (٢) الصواب ورقة (٣) لعله غابت عنه المرضعة اي بغيبة الامام الثاني عشر الوهمية (٤) يريد اودعوه من الوديعة

قرة العين القزوينية راقصة بالغنج والدلال، انكحت وزوجت قد فر من الميدان(؟)

وقال الخان ايضا في ارشاده : ان بعث الانبياء والرسل ونصب الحجج وانزال الكتب كلها لاثبات الركن الرابع ، وهو بمنزلة اصل الكعبة في مسجد الامامة في حرم النبوة في عالم ارض التوحيد . فعلى الاسلام السلام بعد هذه المقالة

وقالوا بكفر من انكر الركن الرابع، وانهم ناصبين (؟) وطهارتهم للتقية. وايضا قال في اول المجلد الرابع من ارشاده ماهذا لفظه: من چكونه بادست قاصر ونفس ضعيف ابن مطلب وابكر دن ابن خلق منكوس بكذارم كه هزار ودوه سال است كه در جاهليت غيبت كرفتاروند. وتاريخ كتابه في ست وستين فيكون من اول ولادة الحجة داخلا في الجاهلية الى ان بلغ قلمه موضعه من الكتاب . وقال كتابي هذا — يعني الارشاد — مطابق لما هو مسطور في اللوح المحفوظ حرفا بحرف ، والسواد مطابق للاصل . وقال قراءة كتابي هذا واجبة وقراءة القرآن مستحبة . وقال من قرأ خمسة اوراق من كتابي فكأنما قرأ التوراة والانجيل والزبور والفرقان ، وما اتى به الانبياء من عند الله . ولا تقتصر عباداته عن عبادة السيد ميرزا على محمد ابن السيد رضا الشيرازي في بيانه النازل اليه من السماء بزعمهم : ان لو اجتمعت الجن والانس على ان يأتوا بحرف من حروف البيان اذا لا يأتون بحرف منه ابدا

(وفي مرتبة الوحي) قالوا ان الوحي عبارة عن توجه خيال النبي (ص) الى نفسه ، ونفسه الى عقله ، وانزال عقله المعاني الى نفسه ، ونفسه الى خياله ، والعقل هو جبريل النازل عليه . صرح به الخان في ارشاده في المقصد الثالث في النبوة . وقال هناك ان النبي مهما كان متوجها الى مسئلة علمية كان غافلا عن سائر المسائل ، فيتدرج له العلم شيئاً بعد شيء في الدنيا والبرزخ . وقال كثيرا ما يسأل عن الائمة من الاحكام الشرعية (١) ولم يكن لهم جواب حتى يلقى اليهم من عقلهم ، فيقصر زمان الإلقاء ويطول

فان قيل فكيف يرمون هؤلاء بالغلو في حقهم (ع) مع هذه المقالة ؟ يقال ان التناقض في كلماتهم غير معدود ولا محدود ، ويقولون بجواز اجتماع النقيضين لاسيما في ذات الواجب ، ويستدلون بوجود ملك نصفه من النار ونصفه من الثلج . وهذا معروف منهم

(وفي مرتبة العصمة) قالوا يجوز الكبائر والصغائر عليهم عمدا وسهوا قبل

(١) لعل الاصل او المراد: كثيرا ما يسئل الائمة عن الاحكام الشرعية .

البعثة وبعدها . صرح بالسهو شيخهم في (جوامع الكلم) وقال يغيب عنهم الملك المسدد . وقال الخان في الارشاد: پس اكر خداوند مصلحت داند در بقاء دين ان پيغمبر كه از دنيا ميرود البتة قائم مقامي از براي ان پيغمبر قرار دهد كه اقلاً در حفظ شريعت معصوم بوده باشدا كرچه درجاهاي ديكر معصوم نباشد · وان كان في مبحث العصمة اثبتهـ لهم وقد قسمها بعصمة عقلية ، وعصمة نفسية ووجودية ، وقسمهـا الشيخ في شرح الزيارة بعصمة ذاتية ـ وقال بها لنبينا والائمة ـ وعصمة عرضية ـ وقال بهـا في سائر الانبياء ـ ولا يفهم مراده · وقال الخان بعصمة الركن الرابع الذي يسميه إمام الزمان حيث يقول في ارشـاده غير مرة : پس امام غائب بكارمر درنميخودر ومردم امام حي حاضر معصوم ميخواهند

(وفي مرتبة الاذعان بالمعراج) قالوا بما هولفظ الشيخ في رسالته المسماة بالقطيفية: قال انه تعالى لما اراد العروج القى في كل كرة ما منها فألقى ترابه في التراب ، وماءه في الماء ، وهواءه في الهواء ، وناره في النار · وكل قبضة (؟) في تلك السماء ، ثم لما رجع اخـذ من كل كرة ما ألقى فيهـا . وصرح عليه في جميع كتبه · ومن بيانه تشبيه المعراج باكل الغذاء وتحليله واخراج ثفله ، الى ان يحصل الروح البخاري في القلب ، ثم يصعد الى الدماغ ، وقد صعدها الخان في معراج الغذاء المأكول الى ان جعلها نفسا وعقلا وفؤادا

(وفي مرتبة الامامة) قالوا ان امام الزمان غير الائمة الاثنى عشر : ولابد في كل زمان عن امام غيرهم ، وهذا صريح كلماتهم · وقال الخان في ارشاده: بس جنانچه بخداى ناديده اكتفا نميتوانيد نمود بامام غائب هم اكتفا نميتوانيد نمود · وقال في موضع آخر: سار غائب جكونه تربيت شاكرد متيواند نمود.

(وفي مرتبة المعاد) قالوا ان الجسم جسمان ، والجسد جسدان ، جسد عنصري دنياوي وهو مخلوق من عناصر هذه الدنيا التي تحت فلك القمر ، وهذه تفنى ويلحق كل شيء الى أصله ، ويعود اليه عود ممازجة واستهلاك ، فيعود ماؤه الى الماء وهواءه الى الهواء ، وناره الى النار، وترابه الى التراب · ولا يرجع ولا يعود لانه كالثوب يلقى من الشخص · والثـاني جسد أصلي من عناصر (هورقليا) وهو كامن في هـذا المحسوس ، وهو مركب الروح ، فيقوم للحساب ، وهو الجسد الذي يتألم ويتنعم وهو الباقي ، وبه يدخل الجنة والنار · وقالوا : السؤال عن الروح والجسد الهورقليائي · يعنون البرزخي . وقالوا ان الصراط والميزان والوسيلة كلها مؤولة بمعنوية غير جسمانية

(وفي مرتبة تكليف الناس في زمان الغيبة) قالوا : لابد في كل زمان من امام زمان غير الائمة الاثنى عشر ، ولهم في هذا المقام متناقضات شتى ، فتارة يعبرون بالشيعة ، وتارة بالنقباء والنجباء ، وتارة بالركن الرابع ، وتارة يفرقون بينهم . وجعلوا معرفة الركن الرابع اصلا من اصول الدين ، ونسبوا منكره الى الناصبية ، وتناقضوا في القول ، فقالوا : هذا الركن من الايمان كان مخفيا حتى أظهره الشيخ أحمد ثم السيد كاظم ثم كريم خان ، فمن لم يعرفهم ولم يحبهم مات ميتة جاهلية ، وميتة كفر ونفاق ، ثم تفرقت كلماتهم من بعدهم على أشخاص كثيرين فتفرقوا أيادي سبا ، كلما دخلت أمة لعنت أخرى ، الا ان اكثرهم اجتمعوا على محمد خان حسب ماوصى اليه ابوه ، وقالوا في صفات الركن الرابع ما لا يقصر عن صفات الرسل والائمة ، قال رحيم خان اخو محمد خان في منظومته : قدرتشان قدرت يزدان بود . وقال لهم السلطنة على العالم والقدرة الالهية على التصرف فيما يشاؤن ، وأمثال ذلك .

ويقولون صريحا بوجود الباب للامام ، وان كانوا ينفونه على السيد ميرزا علي محمد الشيرازي ، فالنزاع في الموضوع دون الحكم ، ومحصل كلامهم ان التصديق في مراتب التوحيد لا يكمل الا بالتصديق بالنبوة ، والتصديق بالنبوة ومعرفتها لا يكمل الا بالتصديق بالامامة ومعرفتها ، والتصديق بالامامة ومعرفتها لا يكمل الا بالتصديق بالركن الرابع ومعرفته ، فالعلة الغائية من المعرفة في معرفة أصول الدين والعقائد معرفة الركن الأخير . على ان الدين والايمان مركب من اربعة اركان ، ولا يتم معرفة الاول الا بالثاني ، ولا يتم هو الا بالثالث ، ولا يتم هو الا بالرابع ، فمعرفته اصل ومعرفة المثلث الاول من باب المقدمة ، كما يفهم عن عبارات الخان في ارشاده . ولذا قالوا ان معرفة الركن الرابع ومحبته وموالاته من ضروريات الدين ، ومن انكرها انكر اصلا من اصوله ، وقد عبر الشيخ في كتبه عن هذا الاصل بالشيعة الخاص ، وبعض آخر منهم بالنائب الخاص في زمن الغيبة الكبرى ، في مقابلة الامامية من قولهم ان الاحكام الشرعية والحوادث الواقعة في زمن الغيبة الكبرى راجعة الى النائب العام ، وهو الفقيه الجامع للشرائط ، حتى آل الامر بالخان فعبر عنها بالركن الرابع ، وزاد في الطنبور نغمات أخر لا فائدة في ذكرها

والعجب كل العجب من الفتنة الحادثة بعده فان ابنه محمد رحيم خان قال بوحدة الناطق أي الركنية الشخصية ، وقال بان الركن الرابع للدين في كل عصر من الاعصار شخص واحد يجب لكل مكلف في ذلك العصر متابعته في الاحكام الصادرة عنه ،

وارجاع أموره التكليفية اليه ، ومعرفته وموالاته ومحبته ، بناء على ان هذه المعرفة بهذه الصفة من ضروريات الدين . وخالفه في هذه المقالة تلميذ الخان السيد ميرزا محمد باقر الهمداني . وقال بكثرة الناطق أي الركنية النوعية ، وقال ان الركن الرابع في كل عصر يمكن أن يكون متعددا متمسكا بالتوقيع الصادر عن الامام القائم المنتظر (ع) وأما الحوادث الواقعة فارجعوا الى رواة احاديثنا ، وكون محل الرجوع رواة يدل على تعدد الركن لا التشخص ، ولكل منهما كتب متعددة ممهدة لاثبات مدعاه . ولذا صارت الشيخية بعد الخان المعهود طائفتين ، وبقي الامر كذلك الى زماننا هذا

والاصبهانيون منهم من الطائفة الهمدانية . وأما الطائفة الاولى أي تبعة الكرماني (فهم) متفرقون في سائر البلاد والاغلب منهم ساكنون في طهران وكرمان . وكلهم متفقون في جواز التقليد من الميت ، والعمل بكل خبر ولوكان ضعيفا . ولذا يعدون من الاخباريين مع إعمالهم نبذة من قواعد أصول الفقه في مباني فتاويهم   انتهى

« المنار »

ما أفسد دين الشيخ أحمد الاحسائي وأصحابه وأثار في أدمغتهم هذه الخيالات الا التشبع بما أثروه عن فرق الباطنية ، وما رأوه من اقرار الناس لبعض زعماء الباطنية بالامامة ولبعضهم بالألوهية ، وعلمهم بأن أهل زمنهم أجدر من المتقدمين بالتقليد ، للاعراض عن القرآن والسنة والجهل بهما وبلغتهما ولما كان قبل من التمهيد . والظاهر ان كلا من الاحسائي والرشتي والكرماني كان يطمع أن يكون في شيعة العراق والفرس ، كامام بل إله الاسماعيلية في الهند ، ولكن كان منتهى شوط أباطيلهم التمهيد للباب ثم للبهاء ، اللذين كانا دونهم في الفلسفة والفصاحة والذكاء ، وما سبب رواج كفر الباطنية وشركهم المخترع ـ على اختلاف فرقهم من اسماعيلية ودروز ونصيرية وبكداشية وبابية وبهائية ـ الا الغلو فى تعظيم آل البيت (وكذا غيرهم من العلماء والصالحين) والتقليد فى الدين فهذان السببان هما اللذان أعدا الاذهان ، لقبول هذا الكفر والطغيان ، ولما كانت فرقة الشيعة الامامية أشد غلوا من سائر فرق المسلمين فى تعظيم آل البيت جعلها واضعوا هذه الاضاليل مباءة لها ، وسلماً لمقاصدهم منها .

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

﴿ نشوء فكرة الله ﴾

« كراسة تحتوي على خلاصة كتاب لجرانت ألين الكاتب الانكليزي المشهور عن نشوء الاعتقاد بالله وترقي الانسان من الوثنية الى التوحيد الحاضر مع بيان أصول المسيحية ونشوئها »

لخص هذه الكراسة من ذلك الكتاب وطبعها ونشرها (سلامه افندي موسى) وهو شاب قبطي الجنس مادي الاعتقاد، يعنى باقناع الناس بأن الأديان أوضاع مخترعة ينبغي لهم تركها والعمل بقواعد الانتخاب الطبيعي واصول الاشتراكية ومنها - على رأيه تبعا لبعض غلاة المادية من الافرنج - أن يعجل الاقوياء باهلاك الضعفاء، ومنعهم من الزواج ومن كل ما يطيل أيام حياتهم على الارض ، كمعالجة المرضى والصدقة على البائسين . وما نشر هذه الكراسة الا في سبيل مذهبه . وهذه الحملات التي يحملها الملاحدة على الدين تؤثر في النصرانية دون الاسلام ، لأن النصرانية الحاضرة وثنية متسلسلة من وثنية قدماء المصريين والهنود وغيرهم . وانا ننقل نصولا من هذه الرسالة بحروفها تثبت ما قلناه ، ثم نعقب عليها بما نراه ، قال الكاتب :

﴿ ١- المسيحية كمقياس ديني ﴾

اذا اخذنا المسيحية كنموذج للاديان واعتبرنا نشوءها نجد ان كل ما فيها من العقائد والمراسم مأخوذ من الاديان السابقة لها التي كانت فاشية عند ظهورها . فاله المسيحية - المسيح - كان انسانا كما كانت كل الآلهة القديمة عند اول ظهورها. وقد اعتبره المسيحيون الاولون ابنا لإله (كذا) تنزيها له عن الانسانية كما فعل اليونانيون مع اسكندر المقدوني . ونجد في المسيحية ما يسمى (بالثالوث الاقدس) وهو عبارة عن ادماج ثلاثة آلهة وهم الآب والابن والروح القدس في إله واحد، على مثال ما كان يعتقد المصريون في الثالوث الالهي المكون من اوزيريس وايسيس وهوريس . والمسيحيون يعتقدون ان أم المسيح عذراء . ولا بد ان هذا الاعتقاد قد تسلسل من

(*) كتب تقاريظ هذا الجزء - ما عدا الاول منها - شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

الاعتقاد المصري القديم الذي كان قائما على اعتقاد البكارة في ايسيس ام هوريس . وكذلك ترى اذا بحثت عن الاصل في مراسم المسيحية كالصليب والقبر والكنيسة والهيكل انها مأخوذة من الاديان المصرية القديمة . كما ان نظام القربان والكهنوت مأخوذة منها ايضا .

(١٥ - الضحية والدم)

قد رأينا فيما سبق ان للضحية باعثين الاول هو الاعتقاد بانها تقدم كطعام للروح او الاله . والثاني هو الاعتقاد بان الاله ذاته يتجسد فيها وتدفن اجزاؤها في الحقول لكي تنمي الزروع .

الى هنا لم نتكلم عن اكل الناس الاحياء للضحية . فقد رأينا الضحية تجزأ وتدفن في الحقول باعتبار انها إله ورأينا القربان ايضا يوضع للميت اعتبارا بانه سيجوع ويأكله . وسنتكلم الآن عن اصل عادة اكل الناس للضحايا .

من الشائع بين عوام مصر ان من اكل قلب ذئب صار قوياً مثل الذئب ويعتقدون في الهند ان من يأكل نمرا يصير شجاعا جريئاً كالنمر . لهذا لما نشأت عادة ذبح الآلهة المتجسدة في الضحية ورد على خواطر المضحين ان يأكلوا هم ايضاً قطعة من جسم الاله حتى يصيروا مثله في صفاته ، على نحو مايفعل آكل الذئب والنمر . فصاروا يضعون جزءا من الضحية المؤلهة في الارض ويأكلون جزءا آخر منها . وهذا صيد العصفورين بحجر واحد : مباركة الحقل وتقوية الجسم . كذا تفعل قبائل الغوند . وكذا ايضاً كان يفعل المكسيكيون . فانهم كانوا اذا ارادوا التضحية قبضوا على اسير من أسرى حروبهم وعاملوه معاملة الملوك مدة عام يقتلونه باحتفال عظيم في نهايته ويأكلونه . وبمضي الزمن ارتقى الانسان من التضحية البشرية الى التضحية الحيوانية الحاضرة في اعياده . وفي طريقة الذبح عند العرب والعبرانيين الآن بقايا اثرية من عوائد التضحية القديمة فانهم يذبحون الآن « باسم الله » ويتطلبون اراقة الدماء من المذبوح ، والدم هو في العادة الجزء الذى يشتهيه الاله لانه - بخلاف اللحم - يجف فيظن الرائي ان الاله قد شربه .

قلنا ان الانسان كان يشرب دم الذبيحة او يأكل لحمها اعتقادا بانه يأكل ويشرب من لحم الاله ودمه . وقد قلنا انه كان يعتقد بأن روح الضحية روح للاله تخرج من الذبيحة عند الذبح وتنتشر في المحاصيل كالكروم والغلال .

من هنا نشأت عادة أخرى وهي أن يأكل المتدين خبزا أو يشرب نبيذا باعتقاد انه يأكل من لحم الاله ودمه · لان روح الاله قد تجسدت في محاصيل الغلال والكروم . والخبز والنبيذ هو ما يأخذه المسيحي من قسيسه باعتقاد انه يأكل ويشرب من لحم المسيح ودمه ·

(١٦ ـ ضحية الافتداء)

للضحية ـ كما قلنا ـ اعتباران عند المتوحشين (١) انها تقدم كطعام للروح أو للاله (٢) انها تقدم كأنها هي الاله ذاته

وهناك نوع ثالث من الضحايا يقدم باعتبار انه يفدي القبيلة أو الامة من خطاياها وقد صلب المسيح لكي يفدي الناس من خطاياهم أي لكي يكفر عن ذنوبهم

والاصل في هذه الضحية هو الاعتقاد بامكان نقل المرض من شخص الى شخص أو الى شيء آخر . مثال ذلك ان ملكا في (بتشوانالاند) أصيب مرة بمرض ما فأحضر ثورا وتليت عليه الرقيات واغرق بعد ذلك في النهر · ومنطق هذا العمل عندهم ان المرض قد انتقل الى الثور وذهب معه بعيدا عن الملك، ولايزال عندنا نحن المصريين آثار باقية من هذا الاعتقاد في رقياتنا حيث تزيل الرقية المرض وتلقيه بعيدا عن المريض بالقائها بعض اشياء كانت تحرقها في النار وقت الرقية

وقد نشأ من اعتقاد امكان نقل المرض اعتقاد امكان نقل الخطيئة · مثال ذلك ان بعض قبائل افريقيا يقتل كل سنة شخصين رجلا وامرأة ـ لكي يكفرا عن خطايا القبيلة. يعتقدون ان خطيئات القبيلة قد انتقلت الى هذين الشخصين وانهم بقتلهما يغسلون القبيلة من ادران خطاياها ، ويبررونها امام آلهتها، كما كان يقتل الاثينيون شخصا عند وفود وباء ما على بلدهم اعتقادا بأن الوباء يموت بموته وينجي الامة منه، وكما تذري الراقية قطعة الشب التي احرقتها في النار وقت الرقية اعتقادا بأنها حملت المرض معها وذهبت بعيدا عن المريض

(١٧ ـ العالم قبل المسيح)

كان العالم الذي انتشرت فيه المسيحية تابعا للدولة الرومانية عند بدء انتشار هذه الديانة · وقد كانت هذه الدولة تشمل كل ممالك البحر المتوسط، ودرجت اللغة الرومانية على ألسن التجار فقربت بين هذه الامم وصبغتهم بالصبغة الرومانية · وقد بعثت التجارة على المهاجرة والنزوح الى المواني فكانت الاسكندرية ورومية

وانطاكية (١) ملأى بالسوريين والرومانيين والاسبانيين وغيرهم من الجاليات التي هجرت مواطنها الاصلية واستعمرت هذه الموانيء للارتزاق. وقد أدى هذا الى انتشار الاديان في اصقاع الامبراطورية، وخروجها من اوطانها الاصلية، فكانت الآلهة المصرية تعبد في انجلترا وورومية بسبب النزلاء المصريين كما كان يعبد الآله (يهوه) في الاسكندرية ومرسيليا بواسطة اليهود. وقد كانت بعض هذه الآلهة تتحد في الصفات فيعبدها الناس وان كانت أجنبية عنهم الا انها تتفق في صفاتها مع احدا آلهتهم. او كانت الظروف تقتضي عبادة الآلهة الغريبة كما حدث مع البطالسة، فانهم حينما تولوا حكم مصر عبدوا الالهة المصرية مع انهم كانوا يونانيين. وقبيل ظهور المسيحية كانت الاديان الوثنية قد ضعفت امام الفلاسفة وحصل بذلك اشتياق في النفوس للتوحيد اليهودي. ولو لم يكن (يهوه) إله اليهود وطنيا متعصبا في الوهيته يكاد لا يعترف بامة حقيقية بالجنة غير اليهود لعمت عبادته. لهذا تحول الناس الى العبادة المسيحية لانها في الحقيقة عبادة للآلهة كلها. لان المسيحية اشتقت مناسكها وسننها ومراسمها من آلهة مصر وسوريا ورومية وفرنسا وانجلترا وغيرها، فكانت كل الامم تعرف شيئاً عنها وتعتقد بصحة بعض سننها وأساطيرها. ومما زاد في الاقبال عليها سهولة طريقة التدين بها وصعوبته عند اليهود

(١٨ - نمو المسيحية)

انا نشك في ان المسيح كان انساناً موجودا. على اننا اذا صدقنا رواية وجوده كشخص ما، فانما نعتقد ذلك باعتبار انه وجد وقتل كضحية مؤلهة. وهي الضحية التي قلنا انها كانت تقدم لآلهة الغلال والنبيذ. فقد كان السوريون المجاورون لليهود يعبدون (أتيس) إله الغلال، وكان من عادتهم أن يقدموا له ضحية سنوية. ولعل الاشاعة التي فشت بعد ظهور المسيحية عن ذبح اليهود للاطفال قد نشأت عن هذه التضحية، وعندنا سبعة اشياء ترجح ان المسيح كان ضحية مؤلهة. وهي:

(١) اذا فحصت عظات بولس في رسائله الى القورنتيين تجده يصف المسيح كأنه يصف احد آلهة الغلال تماماً.

(٢) اكل تلاميذ المسيح وكل المسيحيين الآن الخبز والنبيذ باعتبار انهما من جسد المسيح ودمه. وهذا ما كان يفعله تماماً عبدة (أدونيس وأتيس) آلهي الغلال لان الإله يتجسد في المحصولات.

(١) المنار: انطاكية ليست فرضة (ميناء) وكذلك رومية

(٣) قول المسيح «انا خبز الحياة» . «خذوا. كلوا من دمي»(١) وقد وصفوه بانه قمحي الوجه وان شعره كاون النبيذ .

(٤) انه دخل أورشليم بهيئة ملك مثل ضحايا أتيس وادونيس . لان الاعتقاد كان فاشيا بان هذين الالهين يتجسدان في الضحية التي تقدم لهما فيجب اذن اكرامهما ما داما على قيد الحياة . وقد جاء في الانجيل انهم وهم يقتلون المسيح ركعوا، وهذا يماثل ما كان يفعله كهنة أتيس بالضحايا .

(٥) ولما دخل المسيح أورشليم كان ممتطياً حمارا وقد نثرت أغصان الاشجار على الارض، وهو عين ما كانوا يفعلونه مع ضحية ايتس وما زال في «أحد الزعف»(٢) الذي يسبق العيد الكبير عند النصارى بقية من بقايا أعياد آلهة الغلال .

(٦) لما قتل المسيح بكت عليه النساء مثلما كان يحدث في ضحايا أتيس لانهم كانوا يعتقدون بأن الاله يتجسد فيها وبالتالي يبكون عليه لانهم قتلوه .

(٧) بعثه بعد ثلاثة أيام . مثل أتيس وادونيس بالضبط

فالمسيح قتل لغرضين : انه ضحية مؤلهة ولكي يفدي الشعب من خطاياه (وقد عرفنا اصل ومعنى الفداء)

أما الثالوث فقد جاء للمسيحية من مصر ونشأ اولا عند الاقباط لان أديانهم الوثنية السابقة كانت تحتم هذا الاعتقاد .

أما الصليب فقد أتى ايضاً من مصر ونراه للآن على الجملان . وقد اختلط الموضوع على بطريرك مصري مرة فقال في احد كتبه عن المسيح انه « جَمَل الله» أي انه ظن الصليب والمسيح شيئاً واحدا لان الجمل كان يرسم عليه الصليب .

(١٩ - بقايا اثرية في المسيحية)

ما زال المسيحيون للآن يعبدون الموتى . وقد كانت الكنائس عند اول تشييدها قبورا ليس الا . ومركز القديس الآن بين النصارى وقيمته عندهم كمركز رئيس القبيلة المتوفى بين قبيلته بالضبط . لان النصراني يحترم القديس ويتهيبه ويتقرب منه كأنه يعبده عبادة ولو أنكر ذلك . وقد كانت القرون الوسطى العصر الذهبي

---

(١) المنار : العبارة مقتضبة لم تؤد معنى ما في الاناجيل وهو انه سمى الخبز جسده وأمرهم بأكله وسمى الخمر دمه وأمرهم بشربها

(٢) أي يوم الاحد الذي يضفرون فيه سعف النخل باشكال مخصوصة

لعبادة الموتى والارواح . فانهم كانوا لا يبنون كنيسة الا اذا أحضروا لها شهيدا أو قديسا دفنوه في هيكلها . وقد تفانوا في هذا العمل حتى ان البندقيين نقلوا جثة مرقس الرسول من الاسكندرية الى البندقية لكي يضعوها في الكنيسة المسماة باسمه هناك .

ودين الاسلام التوحيدي العظيم لم يتمالك عن تقديس الموتى واعتبارهم . فالمسلمون ما زالوا الآن يتمسحون بقبور الاولياء و يتبركون بها و يبنون لهم — للاولياء — المساجد على قبورهم .

نريد بذلك ان الانسان الذي تشبع بالتوحيد ما زال يحن الى ميوله الوحشية وتبعثه غريزة التدين الاصلية الى العبادة الاولى : عبادة الجثث والارواح .

وترى الان عند المسلمين أثرا من آثار العبادات القديمة في مشهد قتل الحسين حيث يمثلون قتل الحسين ويسيرون به في الشوارع باكين ومترحمين عليه كما كان يفعل السوريون في البكاء على ادونيس سنوياً . اه

**

(المنار) : ما أضل (جرانت ألين) الكاتب الانكليزي مؤلف الكتاب ، وأضل أمثاله من احرار الكتاب ، وحجبهم عن الدين الحق ، وأوهمهم انه من خرافات الخلق ، الا ما رأوه من مظاهر الوثنية بين الاقوام ، مع جهلهم بحقيقة الاسلام ، وظنهم ان النصرانية هي أرقى الاديان ، مع شهادة التاريخ بأن جميع أصولها مأخوذة من تقاليد عبدة الاوثان ، كتأليه البشر والتثليث والفداء ، وتقديس كثير من الاشياء . ولو فهموا القرآن حق فهمه ، وعرفوا سيرة نبيه لعرفوا الدين الحق . فان الاسلام وحده هو الدين الذي حفظ أصله كما هو ، فهو الذي يجب ان يتخذ مقياسا وميزانا لا النصرانية ، التي لا يزال الكثيرون من العلماء والمؤرخين يشكون ـ كالمؤلف ـ في وجود من تنسب اليه (وهو عيسى بن مريم عليهما السلام) اذا كانوا يحكمون على الاديان بمسائل يستنبطونها من التقاليد التي اخترعت بعد دعاة تلك الاديان فكيف يكون حكمهم صحيحا ؟ ألم تر أيها القارئ كيف عدوا على الاسلام تقديس كثير من المسلمين للموتى وتمسحهم بقبور الصالحين وبناء المساجد عليها ، وتمثيل الشيعة منهم لقتل الحسين بن علي (عليهما السلام) كما كان يفعل الوثنيون الاولون ، اذ كان تقديس الموتي ركناً من أركان الوثنية ؟

يعدون هذا على الاسلام، وأصول الاسلام تنفيه وتحرمه وتعد بعضه كفرا وشركا وبعضه معصية، وقد اجمعوا على انه بدعة، وثبت عن النبي (ص) في الصحيحين

والسنن انه لعن الذين يتخذون القبور مساجد او يوقدون عليها السرج، ونهى ان يتخذ قبره وثنا او يتخذ عيدا . ومن الظلم أيضاً ذكر الاسلام في سياق الكلام عن الدم والاضاحي الوثنية . فان اضحية الاسلام لا شائبة فيها للوثنية والفداء ، وانما هي نفقة وتوسعة على العيال والفقراء ، والله تعالى يقول (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) كما انه ينفي عقيدة الفدية نفيا صريحا . فاذا كان الاسلام وهو الدين الوحيد الذي حفظت أصوله ينتقدون عليه ويعدون منه ما جاء لهدمه وابطاله ونهى عنه اشد النهي، فكيف يعتد بما ينسبونه الى اليهودية والنصرانية ولم تحفظ أصولهما حتى يمكن الرجوع اليها ؟

الحق ان أصل الدين فطري في البشر، انطوى عليه وجدانهم، وصدقته عقولهم، عند ماصاروا يبحثون ويستدلون ، والماديون يتوهمون ان فطرتهم وعقولهم لاتؤمن بغير ما يدركونه بحواسهم ، وهذا غفلة منهم عن أنفسهم ، وعن فرضهم وجود الاثير فرضاً تلجئهم اليه الضرورة . وقد بينا من قبل كيفية طروء الوثنية على الناس، وحقيقة النشوء والارتقاء في الاديان وكيف قاومها الانبياء بالدين الحق ولا محل لاعادته هنا .

﴿ اعتناق الاسلام ﴾

تأليف (المهتدي) عبد الكريم يوسف (جوصو) الفرنسي طبع في المطبعة التونسية على ورق جيد بحرف كبير ص ١٠٧ « بقطع الاسلام والنصرانية » يباع في المكتبة العلمية (عدد ٢٩ بشارع الكنيسة بتونس)

ما زال الله يزيدنا بصيرة ويقينا بدين الاسلام خاتم الاديان بما يهدي اليه من أرباب الارادة القوية والفكر المستقل، فمن اسلام عبد الكريم يوسف (جوصو) الفرنسي، الى اسلام اللورد هدلي الانكليزي ، الى امثالهما من اخواننا الذين لحقوا بنا في الاسلام دين الحق والتوحيد والتنزيه ، والايمان بجميع الانبياء المصلحين .

ولا بد من تعميم الدين الحق { دين الاسلام } في جميع اقطار المعمورة . (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

واليك صورة اهداء كتاب اخينا عبد الكريم قال حفظه الله

الحمد لله الواحد الاحد ، الفرد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا احد ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله الذي جاء بالحق ليظهره على الدين كله. مرغما انف من عاند وحقد وحسد، فدعا لسبيل ربه بالحكمة والموعظة

الحسنة ، وجادل الناس بالتي هي احسن ، فمنهم من تجبر ونفر ، ومنهم من انقاد واذعن واقر ، وتلك سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وعلى كافة الانبياء والمرسلين ، وجميع الآل والاصحاب ومن تبعهم وتلاهم الى يوم الدين.

اما بعد فان المنازل تستهوي ألباب قاطنيها بما يتاح لهم تحت اديمها من افانين السعادة. والسعادة ـ لازلت لها قرينا ـ نوعان: سعادة ارواح وسعادة اشباح، بينهما من التفاوت كما بين النار والنور، والظل والحرور .

وقد صادفت اثناء اقامتي بالقطر التونسي سعادة لنفسي ، وراحة لفكري، من نصب وكفاح مارسته عقدين من السنين ، اعني حين قر قراري، وسكنت نفسي، وانقاد ضميري ، لاتباع دين الهدى وشريعة الاسلام، فصار هذا القطر حينئذ وطنا للنفس تحن اليه، وترفرف بأجنحتها عليه، ومن كان حر الضمير يصدع بالحق لا يخشى لوما ولا تثريبا .

لذلك اردت أن ابدي للناس عند ما نجز هذا التأليف ما لفؤادي من الود والميل نحو قطر يجدر لي ان ادعوه « قطر السعادة » فوطدت العزم على اهداء الكتاب لأميره الاعظم، وملاذه الانخم، صاحب السؤدد والفخار، سيدنا محمد الناصر باشا باي، صاحب المملكة التونسية ، لازال رفيع العماد ، طويل النجاد آمين

عبد الكريم جوصو

وهذه مقدمته

« تقولت عني بعض الصحف الفرنسوية عند ما اعتنقت دين الاسلام اني أريد تمهيد السبيل للتزوج باربع نساء ، وامتلاك ما اشاء من الجواري! سبحانك اللهم هذا رجم بالغيب، وقذف بالبهتان، بل اني اسلمت لله رب العالمين، مخلصا له الدين ، وما أنا اول المهتدين

وجدت الاسلام دينا سمحا سهل المأخذ، بين العقيدة ، واضح البرهان ، مجردا من الغموض، لا يفتقر أتباعه في عبادة خالقهم الى واسطة ، فارتضيته لنفسي والحمد لله

لقد كنت بادئ بدء اردت ان اقلد اسلافي الكاثوليكيين، ولكن الفكر ابى ان يعتقد شيئا لا دليل عليه، وكيف يقام البرهان على صحة العقائد الكاثوليكية وقساوستها ورهبانها وكرادينالاتها عاجزون عنها .

بعد ذلك مكثت نحو عشرين سنة ابحث عن الدين الحق لأكون من شيعته، اذ لا غنى لمخلوق عن عبادة خالقه .

فاتفق لي في اواخر هذه المدة ان جبت بعض الاقطار الاسلامية، فأثر جمال حياة اهلها تأثيرا عظيما على قريحتي الفنية، واستهوتني محاسنها الى ان اندفعت للبحث في شؤونهم اجمالا وتفصيلا، واذ ذاك اخذ دين الاسلام يستهويني شيئا فشيئا، الى ان تجلى اليقين امام عيني، وعلمت ان الدين عند الله الاسلام .

وها انا ابين للواقفين على هذا الكتاب خلاصة ابحاثي من اولها الى آخرها تفنيدا لمزاعم الواهمين . » اه

ثم كتب له ملحقا في المباحث الآتية وهي (تسامح الاسلام) و (انتشار الاسلام) و (في الخلق) نقلا عن كتاب الاسلام الذي الفه الكونت هنري دي كاستري . ثم (القرآن) نقلا من « البحث في اصل اللغات » تأليف جان جاك روسو ومن «حياة محمد» تأليف بولانفير . ومن « الاسلام» تأليف هنري دي كاستري .

وبعد ذلك مبحث (في المرأة) من مختصر « في حقوق المسلمات » تأليف رحمين حلو . ومن « مختصر الانكليزي في الاسلام » تأليف ريفي . يتلوه مبحث (قضاء الكنيسة الكاثوليكية على المرأة) ثم (في تعدد الزوجات) من كتاب « الاسلام على حفض القرآن » تأليف قرسين دي تاسي .

(الاسلام) مجلة دينية علمية اخلاقية سياسية فارسية تصدر في طهران في كل شهر عربي مرة صفحاتها ٤٨ بالقطع الصغير . رئيس تحريرها حسين كمال السلطان . قيمة اشتراكها ١٢ قرانا في إيران ويضاف اجرة البريد للخارج. وثمن العدد الواحد قران واحد عنوانها « طهران خيابان حربية مركز توزيع كل جرائد داخلية وخارجية »

(العرفان) مجلة شهرية شهيرة تصدر في صيدا سنتها عشرة أشهر تبحث في العلم والادب والاجتماع وتعنى عناية خاصة بشؤون الشيعة ، وكانت حجبت عن قرائها زمنا ثم عادت الى خدمتها وهي ذات أربعين صفحة بقطع المنار ، وقيمة اشتراكها في البلاد العثمانية ريال مجيدي وفي الخارج ستة فرنكات

(المنهل) مجلة ادبية تاريخية اجتماعية مصورة عند الاقتضاء . تصدر مرة في الشهر في القدس الشريف لمنشئها محمد موسى المغربي . صفحاتها ٤٠ قيمة اشتراكها ريال ونصف ريال مجيدي في البلاد العثمانية وفي الخارج عشرة فرنكات

﴿ الاصلاح اللامركزي وطلابه في البلاد العربية ﴾

تألف حزب اللامركزية بمصر لمطالبة الدولة بتغيير شكل ادارتها في المملكة كلها - وان كان جميع مؤسسيه من العرب السوريين - لأنهم يريدون الحياة للدولة كلها لا لبلادهم فقط ، ولو طلبوا الادارة اللامركزية لبلادهم وحدها لما كان ذلك أنفع لهم ولا أرجى لقبول طلبهم ، اذ رضاء الدولة بجعل ادارة بعض ولاياتها مركزية وبعضها غير مركزية بعيد عن العقل والتصور . وتألفت في أثناء ذلك الجمعية الاصلاحية ببيروت لطلب اصلاح معين لولاية بيروت خاصة . وتلتها جمعية في البصرة لطلب الاصلاح لولاية البصرة خاصة . وما حفز العرب في هذه المواضع واهاب بهم الى طلب الاصلاح والدولة تئن من أثقال الحرب البلقانية التي غلبت فيها على امرها ، الا خوفهم أن يكون بقاء الخلل السابق سببا لانحلال الدولة وتقسيم الدول لها بالفتح السلمي الاقتصادي او الاحتلال العسكري .

ولما رفعت هذه الجماعات اصواتها بطلب الاصلاح رددت صداه جماعات المهاجرين السوريين في امريكة الشمالية والجنوبية وفي أوربة ، واقترح بعض من في باريس منهم تأليف مؤتمر عربي بباريس لاعلان مقاومة كل احتلال اجنبي في البلاد وللبحث في حقوق العرب فى الدولة العثمانية والمطالبة بها . وعهدوا الى حزب اللامركزية ادارة هذا المؤتمر ، فاختار الحزب للقيام بذلك كلا من السيد عبد الحميد الزهراوي واسكندر بك عمون ورشح الاول لرياسة المؤتمر على ان يكون بانتخاب اعضاء المؤتمر ، وكذلك كان . وكان من امر انعقاد المؤتمر ونجاحه واهتمام حكومة الاستانة به ما هو مشهور .

شعر أركان الحكومة الاتحادية بوجود العرب وعنوا بمبادلة الاحتفالات بينهم وبين من في الاستانة من العرب واكثرهم طلبة المدارس الاميرية . وسعوا لاستقدام الوفود من سورية ، واحتفلوا واحتفوا بمن ذهب منهم الى الاستانة ، وادبوا لهم المآدب ، واحبوا التأليف بين طلاب الاصلاح ومن عارضهم وشنع عليهم تزلفاً للحكومة ، ولكن لم يتم لهم هذا . وكانت هذه المظاهرات التي اهتم بها اهل الاستانة تذكر بالسخرية في غيرها ، ويعدها العرب في مصر وسورية والعراق وفي البلاد الاجنبية خداعا وتخديرا .

وأما الامر الذي كان محل النظر ، وموضع الامل عند بعض العرب ، فهو

الاتفاق الذي عقدته جمعية الاتحاد والترقي مع رئيس المؤتمر العربي ، واعطته العهد والميثاق لتنفذنه كله . وهو مؤلف من اثنى عشرة مادة . ولهذا مكث رئيس المؤتمر بضعة اشهر في باريس ينتظر تنفيذه ، وكانت الاستانة تجذبه اليها وحزب اللامركزية يجذبه عنها ، حتى اختار الحزب أخيرا أن يعود الى مصر ، وان يمر بالاستانة مختبرا اذا شاء . فشاء وجاء الاستانة ، وراجع رجال الحكومة في أمر تنفيذ الاصلاح الموعود به ، فقالوا إننا على عهدنا ، وقد بدأنا من التنفيذ بانشاء مدرستين سلطانيتين باللغة العربية احداهما في دمشق والاخرى في بيروت ، وبتقرير جعل عسكر كل ولاية في منطقتها العسكرية ، وبجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم ودواوين الولايات العربية ، وباختيار الموظفين لهذه الولايات من العارفين باللغة العربية . واما ما يتعلق بالنافعة والاوقاف والمعارف فهو يتوقف على وضع القوانين له ونحن شارعون في ذلك بتنقيح قانون الولايات ووضع قوانين أخرى ، ثم ان تنفيذ بعض ذلك يتوقف على وجود المال ولا مال الآن . واما المناصب والوظائف في مجلس الاعيان ومصالح الحكومة العليا فهلم ساعدنا على اختيار الاكفاء لها لنعينهم بالتدريج .

هذا ملخص ما نتذكره من معنى أجوبة الحكومة للسيد الزهراوي بعد مراجعات متعددة ، ووعود مبهمة ، كان فيها بين اليأس والرجاء مدة طويلة ، حتى عزم على مغادرة الاستانة . ثم شرعت الحكومة في تنفيذ مالا يتوقف على القوانين ولا المال من المطالب بالمشاورة معه ، ومنها تعيين ستة اعضاء من العرب في مجلس الاعيان احدهم السيد الزهراوي نفسه ، إذ اقتضت الحال ان يكون في الاستانة مراقبا لتنفيذ سائر ما وعدت به الحكومة من الاصلاح ، ومنها تعيين الشيخ اسماعيل الحافظ من علماء طرابلس الشام عضوا في مجلس المعارف الاعلى ، وهو في الذروة العليا من نابغي العرب علما وعملا واخلاقا وعقلا ورأيا واستقامة . ومنها تعيين عبد الوهاب افندي الانكليزي (لقبا لا نسبا) وشكري افندي العسلي مفتشين في بعض الولايات ، وهما من اشهر نابغي العرب من سلك الحكومة الملكي المستحقين للمناصب العالية . ومنها تعيين اناس آخرين في (الدوائر) العالية في العاصمة .

وكان رجال الاستانة قبل هذا قد أرضوا بعض رجال جمعية بيروت الاصلاحية بالوعود الجميلة فسكنت حركتها بالتدريج ، واستمالوا السيد طالب بك النقيب زعيم البصرة ، فأعلن في الجرائد الرضاء عن الحكومة والاتفاق معها وتبرع للاسطول العثماني وجمع له مالا كثيرا

ثم ان حزب اللامركزية رأى من الصواب ان يحفظ صلته بالسيد الزهراوي كما حفظ هو صلته بالحزب بعد قيامه بما عهد اليه خير قيام . حتى انه لم يحل ولم يرحل ، ولم يحلّ ولم يعقد ، الا باستشارة الحزب ، ولان زعماء الحزب يثقون كل الثقة بصدقه في القول وباخلاصه في العمل لمصلحة الامة ، فهو بهذا خير من يوقفهم على أعمال حكومة العاصمة فيكونون على بصيرة منها ، فلا يبنون عملهم وسعيهم على الظنون والاوهام ، فقرر الحزب باتفاق الآراء إقرار السيد الزهراوي على قبول منصب الاعيان واثقة به ، اي في التوسط لدي الحكومة بمطالب الاصلاح . فعل الحزب هذا وهو غير موقن ولا مرجح لانجاز الحكومة ما وعدت به السيد الزهراوي ، كما انه غير موقن بأنها لا تنجزها ، فكانت الحكمة في عدم قطع الصلة بالحكومة ، ومطالبتها بالبرهان والحجة ، على كون الحزب لا يألو جهدا في السعي الى الاصلاح من طريق الامة ، فهو يسلك الطريقين الى مقصده ، فاذا لم يصل من احدهما وصل من الآخر .

اتفق ان الحزب لم ينشر شيئا جديدا بعد بيانه العام الذي نشره يوم المظاهرة البرقية السلمية ، بطالب البلاد كلها بالادارة اللامركزية ، لانه لم تجدد شيء جديد يدعو الى النشر ، فظن البعداء عن مركز الحزب والذين ليس لهم صلة مكاتبة به ، ان الحزب قد سكن وسكت او انحل كجمعية بيروت وجمعية البصرة . وأنه رضي من الحكومة بما قالت وما فعلت ، وطفقت الجرائد العربية في امريكة تطعن في الحزب وفي طلاب الاصلاح كافة ، وزعماء بيروت منهم خاصة .

***

يدخل الكلام بهذا الموضوع في اربع مسائل : الجماعات الاصلاحية ، والمعترضون عليها الآن ، وما يعترضون به ، والحالة الحاضرة . ولنا في كل مسألة منها قول وجيز .

اما الجماعات الاصلاحية فثلاث كما تقدم: جماعة حزب اللامركزية وهي تعمل للملكة كلها وان كان العاملون فيها عربا وتأثير عملها الاول في البلاد العربية . ومتى وجد الاصلاح في البلاد العربية يوجد في غيرها حتما اما سابقا واما لاحقا - وجماعة بيروت وجماعة البصرة ، ومطالب كل منهما موضعية ، ولكن زعماءهما متفقون مع حزب اللامركزية في مطالبه العامة كلها ، اذ النسبة بينه وبينهما كالنسبة بين الخاص والعام . فاذا سكتت الجماعتان اليوم عن مطالبهما الخاصة لأسباب اقتضت ذلك ،

فذلك لاينفي بقاء اتفاق أهل الرأي منهما مع حزب اللامركزية في المطالب الاصلاحية العامة ، وان لم يساعده على ذلك جميع افرادهما في الشكل الاول ، فقد يساعده كثير منهم في شكل آخر . والحق الواقع ان الحزب الآن اقوى ناصرا واكثر عددا مما كان عليه من قبل ، خلافا لما يتوهمه البعيد عنه ، فقد تشعبت شعبه وكثرت فروعه في الولايات ، ورسخت مقاصده في النفوس ، وقد قويت الآمال فيه ، وانحصر رجاء الولايات في سعيه ، وان صلة السيد الزهراوي به لم تزد رجاء الولايات فيه الا قوة وثباتا ، وان كان أهل الرأي من شعبه ولجانه فيها متفقين مع اخوانهم الذين في مصر على كون ما منت به الحكومة على العرب لا يعد شيئا مذكورا في جانب مطالب الحزب ، ولا ينبغي ان يزيده الا جدا واجتهادا في السعي .

وأما المعترضون فمنهم المخلص الذي لا علم له بدخائل الامور وحقائقها ، ومنهم المخلص المطلع الذي يريد بالاعتراض حفز الهمم ، والحث على الاسراع في العمل ، ومنهم من لا حظ له من المطالبة بالاصلاح الا التلذذ بمقاومة الدولة العثمانية والتهويش عليها ، وهو لا يرجو لها ولا منها صلاحا ، ولا يحب لها بقاءا . فهو نصير المتألبين عليها ، وظهير المقاومين لها ، وعدو الراضين منها ، كيفما كانوا ، وبأيه شكل ظهروا ، ومراده ان تستولى الدول الاوربية عليها ولا يرضيه ما دون هذا . ومنهم من لا يسهل معرفة قصده ولا حقيقة مراده . فاما فالمخلصون في طلب الاصلاح فلا يلبثون أن يرجعوا عن انكارهم ، وغير المخلصين لا علاج لهم .

وأغرب ما رأى الحزب من المعارضة والمقاومة وأبعده عن المعقول ما كان من احد كتاب نصارى السوريين الذين انتموا للحزب . فقد حضر كثيرا من جلسات اللجنة العليا بطريق الاستثناء ، كان يلقي فيها دلوه بين الدلاء ، فينفرد بالمعارضة ، ويلح بطلب جعل المصالح والمنافع قسمة بين المسلمين والنصارى ، وقد اتفق الفريقان على انكار هذا الرأي وضرر هذه القسمة ، وكونها تكون مثار النزاع والتخاصم والعداوة والبغضاء ، ويجزم أهل العلم والرأي من النصارى بأن ضرر هذه القسمة عليهم اشد ، وان السكوت عن كل ما يتعلق بالدين والمذاهب خير لهم وانفع . ولكن هذا الكاتب الذي كان ينكر ذكر الدين في امور السياسة وشؤون الدنيا بث فكره هذا بما نشره في بعض جرائد مصر وأمريكة ، ونفر نصارى المهاجرين في أمريكة من الحزب ، ونهاهم عن مساعدته باسم المسيحية وحقوق المسيحيين وهضم المسلمين لها ، حتى انه كتب في جريدة الهدى الامريكية التي تعنى بنشر ما يكتبه ان صاحب المنار أنكر على مسلمي بيروت اتفاقهم مع نصاراها على جعل نصف أعضاء المجالس المحلية

من المسلمين والنصف الآخر من غيرهم . وهي دعوى غير صحيحة ، فان المنار أنكر من لائحة جمعية بيروت الاصلاحية اكثر ما اعطته للمفتشين والمراقبين من الاجانب ولم ينكر مسألة المناصفه في المجالس بل عدها دليلا على اخلاص المسلمين وصدقهم الاتفاق مع النصارى لأنهم تنازلوا لهم عن بعض حقوقهم .

وأما الانتقاد والطعن الذي صوب اليهم فهو ان الترك ارضوهم ببعض المناصب والوظائف ، فظهر أن طلب الاصلاح كان شبكة لصيد المنافع ، و يحتجون على هذا بأن المؤتمر العربي قد قرر ان لا يقبل احد من المنتمين الى لجان الاصلاح العربية اي منصب في الحكومة العثمانية اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها — الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها . وخص باشد الانتقاد السيد الزهراوي وعميدي المسلمين والنصارى في جمعية بيروت الاصلاحية - محمد افندي بيهم ونخله بك سرسق اذ قبلوا ان يكونوا أعضاء في مجلس الاعيان ، قبل تنفيذ الاصلاح في البلاد العربية

ولهؤلاء الثلاثة ثلاثة اجوبة يردون بها تلك المطاعن (احدها) ان الحكومة قد شرعت في تنفيذ الاصلاح ولا يعقل أن لا يقبل العرب طلاب الاصلاح منصبا ولا عملا فيها الا بعد تنفيذ الاصلاح كله بأيدي الترك ومقاومي الاصلاح من العرب ، كأننا نقول : إننا بعد ان يصلح لنا هؤلاء بلادنا نقبل المناصب والوظائف فيها ! (الثاني) ان عضوية الاعيان لا تعد وظيفة او منصبا في الحكومة ، لان عمل الاعيان كعمل المبعوثين (النواب) : وضع القوانين ومراقبة الحكومة في تنفيذها ، فهو سيطرة على الحكومة لا خدمة لها (الثالث) ان اللجان الاصلاحية التي نتتمي اليها قد وافقت علي ان نكون في مجلس الاعيان . وأما الذين قبلوا المناصب في غير مجلس الاعيان فيمكن لمن كان منتميا الى بعض لجان الاصلاح ان يجيب بالجواب الاول . وهو جواب ضعيف اذا لم يعززه الثالث .

سواء على حزب اللامركزية اقتنع المنتقدون والطاعنون بهذه الاجوبة أم لم يقتنعوا ، فان لجنة الحزب العليا لم تدخل في باب المناصب والوظائف ، وقد دعي رئيسه (رفيق بك العظم) الى الاستانة مرارا قبل ذهاب الزهراوي اليها و بعده - وكان ولا يزال مرشحا لمنصب الوزارة — فلم يجب الدعوة ، والسيد الزهراوي - وان حضر تأسيس الحزب - لم يجب ان يدخل في لجنته الادارية ولا في الانتخاب لها ، لانه جاء مصر زائرا لا مقيما . ولكن مكانته العالية من نفوس لجنة الحزب العليا ومن نفوس سائر طلاب الاصلاح في سورية وغيرها هي التي حملت اللجنة

على اختياره للمؤتمر ، ثم ان حسن سلوكه في المؤتمر ، وثباته بعد اتمام عمله فيه على السعي الى الاصلاح مع الارتباط بالحزب وتقيده بقراراته ، وانقطاعه عن كل عمل لأجله ، على كونه ينفق من مال نفسه – وناهيك بسعة النفقات في أوربة – كل ذلك كان من الاسباب الجديدة لرضاء الحزب بقبوله لمنصب عضوية الاعيان والتوسط لدي الحكومة في الاصلاح ، واما السبب الأول فهو كفاءته الشخصية في صدقه واخلاصه وتاريخه الحميد النقي ، كما أشرنا الى ذلك من قبل .

***

بقيت المسألة الرابعة ، وهي بيان حالة الحزب الحاضرة . والقول الوجيز فيها ان الحزب – وان لم يسمع له صوت عال من عدة أشهر – قد أصبح أقوى مما كان ، منذ أسس الى الآن ، فقد كثرت فروعه في الولايات وانتظمت ، وقويت الثقة به وثبتت ، وانحصرت آمال طلاب الاصلاح فيه أو كربت ، ويصح ان يقال ان طوره الأول كان طور تمهيد للعمل بإعداد الافكار ، ثم بتأليف اللجان ، وقد انتهى الآن بطور القيام بالاعمال ، وان قيامه بالعمل ، واضطلاعه بالسعي ، هو خير خدمة للدولة قبل الامة ، لما أثبته الماضي لرجاله من الروية وحسن النية ، فكانت المصلحة في أن يدير هو الحركة ، لئلا تفضي الى الفوضى ، أو يتغلب عليها الغلاة المتطرفون ، الذين ظهرت في مدة سكوته اصواتهم بنغمة الثورة ، وتوزيع منشورات أقلقت الحكومة وعقلاء الامة . ويقال انه يريد ان يبدأ عمله بجمع مؤتمره السنوي وتجديد انتخاب أعضاء اللجنة العليا ، وعرض المشروعات الجديدة للعمل عليها ، ومنها تحويله الى جمعية ، اذ لم تصدق عليه الحكومة . فقد اقترح هذا كثيرون . وعسى ان تكفيه الحكومة هذا الامر ، فتبادر الى الاصلاح من تلقاء نفسها والله الموفق .

الشيخ علي يوسف

٤

﴿ أخلاقه وسجاياه ﴾ المنار لايعنى بترجمة أحد ترجمة تاريخية محضة وإنما يعنى من تراجم الناس ببيان الاخلاق الحسنة والاعمال النافعة التي تكون مثالا حسنا ، وقدوة صالحة ، لأن غاية المنار اصلاحية فهو يعنى بكل ما يتوسل به

الى الاصلاح ، ويرغب الناس في الفضائل ومحاسن الاعمال ، وانذ كرنا مايقابل ذلك فانما نذكره لان العبرة لاتتم الا به ، ولا يجمل ذكر المساوي هو الاصل في الموعظة، وقدكان ماذكرناه من ترجمة هذا الرجل دائراً على هذا القطب ،وأحببنا أن نختمها بهذه الكلمات التي تذكر الناسي وتنبه الغافل لما هو المقصود بالذات .

فنقول أن هذا الرجل نبه بعد خمول ، وارتفع بهمته وأخلاقه الى الطبقة العليا في أمته ، فصار من بطانة أمير البلاد وأهل ثقته . وصاحب التأثير الاول في أفكار المصريين ، والرأي المحترم في جميع الاقطار الاسلامية ، وكم من متعلم نال الدرجات العلى في العلوم والفنون العربية والافرنجية يتمنى أن يصل الى ماوصل اليه الشيخ علي يوسف بما دون درجات علمه وهو لا يستطيع الى ذلك سبيلا ، لأن من أبطأت به سجاياه وأخلاقه لاتسرع به علومه وفنونه ، فأحب أن تتذكر نابتتنا أن الرجل قد ارتقى بالعزيمة. وقوة الارادة والصبر والثبات وعلو الهمة،والاخلاص الملة ولامة. فمن استطاع ان يتخلق بهذه الاخلاق فليقصد بها ماشاء من مراتب الكمال ، ومقامات الرجال . وليحذر المعتبر بسير رجال عصره من الوقوع في مثل الخطأ الذي ارتكبه هذا النابغة وأمثاله من النوابغ(كقاسم بك أمين) وهو محاولة استعجال الثروة الواسعة التي تليق بمقامهم الاجتماعي بسلوك الطرق التي ربما تؤدي الى ضد مرادهم ، والشيخ رحمه الله عصمته تربيته الدينية ان يفتتن بما افتتن به كثير من كبرائنا المتفرنجين من المقامرة ، وانما تورط في شراء الدور والقصور وعرصات الارض المعدة للبناء في تلك المدة التي خرج فيها التغلي بالاثمان عن الحد الطبيعي الذي وصلت اليه درجة العمران في البلاد . ولما عادت (سنة ردّ الفعل) باثمان المباني وعرصاتها الى مادون الثمن المعتدل لها ، بعد ذلك الافراط فيها ،غرق الرجل مع من غرق في طوفانها ، ولولا ذلك لما قصرت ثروته بما يليق بمقامه الاجتماعي ، على ما كان من تقصيره في ادارة المؤيد المالية . وما ذكرنا هذا على كونه معروفا مشهورا الا ليكمل الاعتبار بسيرة فقيدنا النافعة طردا وعكسا ، ونسأل الله تعالى ان يتغمده برحمته ، بمنه وفضله وكرمه .

(تنبيه)وقع في السطر ٢٢ من ص١٦٨ من هذا الجزء كلمة سب خطأ وصوابها(سبب)

ملحق

﴿ لمجلة المنار الاسلامي في مصر ﴾

سنة ١٣٣٢

﴿ ٢ ﴾

السفر الجميل في ابناء الخليل

﴿ لأحمد افندي ترجمان ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

في اسمعيل ثم في اسحق ثم دخول المسلمين الى الشام وفوائد (في اسمعيل) في التكوين بحسب الاصل العبراني ١٦ : ١٢ آدم برى، يده في الكل ويد الكل فيه وامام جميع اخوته يسكن . وقال قبله لأم اسمعيل : لان الرب سمع لمذلتك . وكلمة « بري » مثلها بالمضارع في نبوة هوشع ١٣ : ١٥ يثمر كما في قاموس الاسرائيلية والمراد بقوله « يده في الكل ويد الكل فيه » النبي (عم) لانه من اسمعيل، وقوله « امام جميع اخوته يسكن » فمحل نزول اسمعيل وسكنه ومعه أولاده و بيان أسمائهم في التكوين ٢٥ : ١٣ وهذه أسماء بني اسمعيل — نبايوت بكر اسمعيل وقيدار . الى آخره اثنا عشر — ١٨ وسكنوا من حويلة الى شور الى قوله « امام جميع اخوته نزل» اي اسمعيل. وحويلة الثاني عشر من بني يقطان تكوين ١٠ : ٢٩ ويقطان بن عابر تكوين باب ١٠ وابراهيم أبو اسمعيل من عابر تكوين باب ١١ وفي تاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس مجلد أول في سكنى بني يقطان « حويلة الثاني عشر من أبناء يقطان استوطنت ذريته في بلاد خولان شمال اليمن على تخوم الحجاز حيث امتدت بعد ذلك ذرية اسمعيل كما جاء في التكوين فصل ٢٥ عدد ١٨ » اه أما فاران ففي كتاب تحفة الاريب قال « فاران اسم رجل من ملوك العمالقة الذين اقتسموا الارض فكان الحجاز وتخومه لفاران » وقال ياقوت « فاران جبال الحجاز . وفاران قرية من نواحي صغد من أعمال سمرقند ، وفاران والطور كورتان من كور مصر القبلية »

ولما هاجر النبي (عم) من مكة ونزل المدينة وأهلها الاوس والخزرج وأصلهم من بني يقطان أسلموا وأيضاً أسلم بنو يقطان الذين هم في اليمن وغيرهم . ولما قام المسلمون للفتح ـ بنو عدنان من بني اسمعيل وبنو يقطان وغيرهم ـ قومة واحدة انتصروا على الفرس والرومان واخذوا البلاد ، وفي تاريخ التمدن الاسلامي لجورجي بك زيدان صاحب الهلال بمصر قال : كان اليهود بالشام يدلون العرب على عوارات المدن ضد الروم ويدخلونهم اليها فصارت يد بني عابر يدا واحدة . وقوله في اسمعيل في التكوين ١٦ : ١٢ يده في الكل ويد الكل فيه . قلنا ان المراد به النبي

(ع م) لانه من اسمعيل . وبيانه في نبوة اشعيا ٤١: ٢ بحسب العبراني { من أنهض من المشرق الصدق يدعوه لقدمه وفي عدد ٢٥ منه قد انهضته من الشمال فاتى من مشرق الشمس يدعو باسمي } فاولا قام النبي من مكة ديار بني اسمعيل الى المدينة مهاجرا ثم قام من المدينة المنورة الى مكة فاتحا ودخلها من اعلاها شرقا ، والمدينة شمال مكة ومكة شمال حويلة وحويلة {خولان} شمال اليمن على تخوم الحجاز كما سبق البيان . وفي نبوة اشعيا ٤٢ : ١ هوذا عبدي الذي اعضده مختاري - ثم قال في عدد ٦ منه - فامسك بيدك والعبراني «وامسكت بيدك» وترجمة الكاثوليك واخذت بيدك أي امسكت بيدك بيانا لما في التكوين في اسمعيل ١٦ : ١٢ « يده في الكل » ثم بعد قوله وامسكت بيدك في نبوة اشعيا باب ٤٢ ذكر في عدد ١١ ذكر ديار قيدار وتمجيدهم للرب من رؤس الجبال اشارة للحج الاسلامي وفي عدد ١٢ خروج الرب كرجل حروب } كناية عن اعانة الرب وعنايته للمسلمين في جهادهم وتأييدهم من الرب . وقيدار ابن اسمعيل تكوين ٢٥: ١٣) { تنبيه اول } في خروج اسمعيل الى الحجاز بحث لان وقت فطام اسحق كان عمر اسمعيل ١٧ سنة كما في شرح الاسرائيلية القرابين . فكيف يقال في اسمعيل عند ما كان مع امه : طرحت الولد قومي احملي الغلام ؟ وسنه قدر سن يوسف بن يعقوب لما كان يرعى (١٧ سنة) كما في التكوين ٣٧ : ٢ فالاسرائيلية اختصروا في القصة فوقع فيها الارتباك وسننشر كتابا انشاء الله تعالى ونكملها من التاريخ والكتاب (تنبيه ثان) بعد ولادة اسمعيل لابراهيم من هاجر بحسب العبراني قال الرب لابراهيم { يكون اسمك ابراهيم لاني جعلتك ابا لجمهور امم } اشارة الى نسل اسمعيل ولنسل اسحق الذي سيأتي قال الرب له (واجعلك امما) وامره بالختان وجعله عهدا ابديا وعاهده أيضا على اعطائه ارض كنعان بالشام ، ثم بشره بانه سيعطيه ابنا ايضا من سارة فقال ابراهيم في قلبه . هل يولد لابن مئة سنة ؟ وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة ؟ وقال ابراهيم لله : ليت اسمعيل يعيش امامك . فقال الله له : حقا سارة تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق وأقيم عهدي معه لنسله من بعده ، أما اسمعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا باركته وأثمرته وأكثرته - الى قوله - وعهدي أقيم مع اسحق) كل ذلك في التكوين باب ١٧ وترجمة النصارى هنا خلاف العبراني الذي اعترفوا بالنقل عنه (والاصل ماذكرنا) وفي شرح الاسرائيلية الربانيين العهد لاسحق الختان وبنو اسمعيل مع اسحق اه لان اسمعيل ختن قبل ميلاد اسحق . وأيضاً العهد لاسحق بأرض كنعان بالشام كما في سفر الخروج ٦: ٣ ومزمور ١٠٥: ٩ الذي عاهد به ابراهيم

وقسمه لاسحق ١٠ فثبته ليعقوب الى قوله قائلا أعطي لك أرض كنعان) فجعل الرب لبني اسمعيل اليد في الكل وجعل لبني اسحق أرض كنعان بالشام. (ملحق) ان الله تعالى بارك اسمعيل لاجل ابراهيم كما في التكوين باب١٧ وبارك اسحق أيضاً لاجل ابراهيم كما في التكوين باب٢٦ وفي نبوة أشعيا من قول الرب ٤١ :٨ - ابراهيم خليلي) فالكل لاجل ابراهيم، وسمع الرب ذل هاجر فجعل اسمعيل ابنها يده في الكل، تكوين ١٦ :١٢ والله سبحانه وتعالى لايخلف وعده وهو على كل قدير اه وفي سفر أيوب ٢٢ :٢١ تعرف به وأسلم) أي تعرف بالرب وأسلم له، والعبراني «وشلام» وأيوب كان قبل موسى كما في حاشية الكاثوليك وقبل ابراهيم كما في مرشد الطالبين للبروتستان فالأصل « الاسلام » اه

(في اسحق) بركة الرب لأسحق في الارض المقدسة كما في التكوين باب٢٦ تنتقل من بعده الى يعقوب ثم الى داود ثم الى المسيح في اخوته. وبيانه في دعاء اسحق ليعقوب بالوحي الالهي كما في التكوين ٢٧ : ٢٨ فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الارض وكثرة حنطة ونبيذ ٢٩ ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل . كن سيدا لاخوتك وليسجد لك بنو امك. لاعنك ملعون ومباركك مبارك} فقول اسحق ليعقوب يستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل . هذا تم لداود في ارض الشام لان يعقوب لم يخضع له شعوب بل لداود الذي هو من يعقوب ، وسلطنته في بلاد الشام وبيانه من قول داود في مزمور ١٨ : ٤٧ الاله المنتقم لي والذي يخضع الشعوب تحتي . والعبراني (يخضع شعوب تحتي) ثم قول اسحق ليعقوب: كن سيدا لاخوتك وليسجد لك بنو أمك لاعنك ملعون ومباركك مبارك) وهذا المراد به المسيح لانه من داود وداود من يعقوب فهو نفس يعقوب ايضا وفي نبوة اشعيا خطابا لشعب اسرائيل ٥١ : ٢ انظروا الى ابراهيم ابيكم والى سارة التي ولدتكم لأني دعوته وهو واحد وباركته واكثرته) فالمسيح في مجيئه الثاني يكون كبيرا لاخوته بني اسمعيل من ابيه ابراهيم ويخضع له بنو امه وهم بنو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم من سارة . والسجود بمعنى الخضوع والخضوع يسبقه العناد ابتداء والخضوع انتهاء. وفي شرح الاسرائلية الربانيين في قول اسحق ليعقوب (كن سيدا لاخوتك) قالوا كبير على بني اسمعيل وبني قطورا يعني من ابراهيم وفي قوله (وليسجد لك بنو امك) قالوا بنو يعقوب اه لان يعقوب بن اسحق بن ابراهيم من زوجته سارة ، ولا يقال في قول اسحق ليعقوب (كن سيدا لاخوتك وليسجد لك بنو امك) المراد به داود ايضا لان داود لم يكن

رئيسا على بني اسمعيل وفي نبوة اشعيا في المسيح باب ٤٩ بحسب العبراني انه سمى المسيح فيها اسرائيل واسرائيل هو يعقوب، وفيها ان للمسيح مجيئين: الاول لم يقبل اليهود منه، ومجيئه الثاني يكون في وقت رضاء ويجمعهم ويقيم الارض، وهي بيان لقول اسحق في امر المسيح مع بني اسرائيل بني امه ساره جدة يعقوب ، وقول اسحق ليعقوب بعد قوله له كن سيدا لاخوانك وليسجد لك بنو امك ـ والمراد المسيح كما توضح ـ قال لاعنك ملعون ومباركك مبارك) فلاعن المسيح ملعون ومباركه مبارك حسب قول اسحق، فلا يتأتى للنصارى اذا كانوا تابعين للمسيح ـ كما يقولون ـ ان يسموا المسيح لعنة كما في رسالة بولس الى اهل غلاطية ٣ : ١٣ او يسموا المسيح ملعونا كما في مرشد الطالبين للبروتستان صحيفة ٤٤٢ طبعة سادسة سنة ١٩٠٩ لان لاعن المسيح ملعون ومباركه مبارك حسب قول اسحق . وكيف يسمون المسيح ملعونا ولاعنه ملعون ؟ وسيدنا اسحق من الانبياء العظام والمسيح مؤيد لنبوات الانبياء والناموس اي الشريعة كما في انجيل متي ٥ : ١٧ فبنو اسمعيل اخوة المسيح لابيه ابراهيم على هدى ونور من ربهم لايمانهم بالرب وبأنبيائه واعترافهم بالمسيح (ع م) بانه من الانبياء العظام وهم ينتظرون نزوله كما اخبرهم نبيهم (ع م) في الحديث (١) الشريف الصحيح . يكون المسيح في مجيئه الثاني كبيرا لهم فلذلك تقدموا في قول اسحق ليعقوب والمراد المسيح بقوله كن سيدا لاخوتك أي كبيرا لهم . ولعناد بني اسرائيل وانكارهم المسيح وهم بنوامه سارة جدة يعقوب والدة ابيه وصفهم اسحق بقوله (وليسجد لك بنو امك) اشارة لخضوعهم اليه انتهاء ويلزم من الخضوع العناد ابتداء ثم الخضوع انتهاء ، ثم قول اسحق (لاعنك ملعون ومباركك مبارك) فقوله مباركك مبارك يراد به بنو اسماعيل ومن معهم من المسلمين لانهم يباركون المسيح كما في القرآن الشريف يحكي قول المسيح عن الرب { وجعلني مباركا اينما كنت } ولا

---

(١) قوله في الحديث الشريف أما ماورد في القرآن الشريف في قوله تعالى للمسيح (اني متوفيك ورافعك) الآية المراد بالتوفي النوم ومنه قوله تعالى (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى) فجعل النوم وفاة وكان سيدنا عيسى قد نام فرفعه الله وهو نائم لئلا يلحقه خوف فمعنى الآية (منيمك ورافعك) اه من الخازن وفي الزمور ٣٧ خطاب للمسيح عدد ٣٤ (انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الارض. ومثله مزمور ٩١ وفي القرآن الشريف أيضا في المسيح (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) أي قبل موت المسيح لان سياق الكلام فيه وهذا في مجيئه الثاني وحكمه حين ترجع اليهود الى الله تعالى وتؤمن لمسيح ثم ينتقل الى كرامة الله تعالى . ومجيئه في آخر الزمان كما في قوله تعالى في المسيح (وانه لعلم للساعة) أي نزوله قرب الساعة ، ومثله في نبوة هوشع ٣ : ٥ في آخر الايام

يقولون في المسيح انه لعنة او ملعون بل ينكرون ذلك اشد الانكار والهداية من الله تعالى وبناء على ما توضح فالمسلمون على هدى ونور من ربهم والمسيح مع اسحق وبقية الانبياء مؤيداً لهم كما في انجيل متي ٥ : ١٧ { تنبيه } في الامثال ٨ : ٣٠ كنت عند صانعا والعبراني مربيا (ملخص) من نبوات الانبياء بالوحي الإلهي المبينة لقول اسحق في امر المسيح مع بني اسرائيل في قول اسحق وليسجد لك بنو امك

(الاول) من نبوة اشعيا في المسيح باب ٤٩ باتفاقهم مضمونها ان المسيح يرسله الرب الى بني اسرائيل بان يرجعو الى الرب فلم يقبلوا منه فيخفيه الرب في كنانته كناية عن حفظه ، وقال له (انت عبدي اسرائيل الذي به اتمجد) واسرائيل هو يعقوب اشارة لقول اسحق ليعقوب والمراد المسيح (وليسجد لك بنو امك) والخضوع يلزم منه العناد ابتداء ثم الخضوع اليه انتهاء . وفي نبوة اشعيا هذه مجيئه الاول يكون في وقت دولة اليهود بفلسطين وتسلط الكهنة على الشعب كما في عدد ٧ منها { هكذا قال الرب ـ لمحتقر النفس لمكروه الامة لعبد المتسلطين ـ } وقد انتهت دولتهم وتشتتوا فتهم بن مجيئه الاول ، والمجيئه الثاني قال(ينظر ملوك فيقومون رؤساء فيسجدون) أي لما ينظرونه يقومون اجلالا له وتعظيما(ويجيبه الرب في وقت رضاء فيعينه في خلاصهم من الامم ويقيم الارض اي بهم وهذا يتم في مجيئه الثاني . فالمسيحيون ترجموا عدد ٦ من باب ٤٩ من نبوة اشعيا هـذه بخلاف الاصل والاصل العبراني وهو اصل النبوة يحكي قول المسيح عن الرب قال(‹‹سهل›› او ‹‹ يسير ›› ان تـكون لي عبدا لتقيم اسباط يعقوب ورد محصوري اسرائيل واجعلك نورا لامم لتكون خلاصي الى اقصى الارض) فقالوا بدل ذلك قال { قليل ان تكون لي عبدا لتقيم — او لاقامة— اسباط يعقوب ورد محفوظي اسرائيل فقد جعلتك نورا للامم لتكون خلاصي الى اقصى الارض) بناء على قول بولس كما في اعمال الرسل ١٣ : ٤٧ — قد اقمتك نورا للامم لتكون انت خلاصا الى اقصى الارض) وقصدهم جعل الامم بدل بني اسرائيل وهذا خلاف الاصل وتحريف للنبوة عن اصلها وموضوعها كأن الرب الذي ارسل المسيح(عم) لم يعرف ما يستحقه المسيح من الوظيفة وقد فاتهم ما ذكر في عدد ٨ منه في وقت رضاء أجبتك وفي يوم خلاص اعنتك وحفظتك ـ الى قوله ـ لتقيم الارض أي الشعب في الارض ومعنى نورا لامم اي موصيا في مجيئه الثاني كما في نبوة اشعيا ٥٥ : ٤ (هوذا جعلته شارعا) والعبراني شاهدا للشعوب رئيسا وموصيا) وفي الامثال ٦ : ٢٣ (لان الوصية مصباح) اي نور يعني يوصي بتوحيد الرب واطاعته واما مجيئه الاول كان

رسولا كما في نبوة اشعيا ٤٩ : ٥ جابلي من البطن عبدا له لارجاع يعقوب ، أي بني يعقوب اه ولا عبرة بقول النصارى « رمزى وحرفي » لان التحريف ممنوع كما في نبوة ارميا ٢٣ : ٣٦ — كلمة كل انسان تكون وحيه اذ قد حرفتم كلام الاله الحي — (الثاني) من نبوة ميخا ٥ : ٢ — انت يا بيت لحم — يخرج لي الذي يكون حاكما على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ ايام الازل ، اي مخارجه في مجيئه الاول منذ (١) القدم بالنسبة لمجيئه الثاني وحكمه الذي ابتدأ النبوة فيه ولذلك قال : لذلك يسلمهم الى حين تلد الوالدة) اي يتركهم للضيق مثل الوالدة لما تلد وهذا في مجيئه الاول لعنادهم ثم في مجيئه الثاني بينه بقوله (ثم ترجع بقية اخوته الى بني اسرائيل ٤ ويقف ويرعى بقدرة الرب بعظمة اسم الرب إلهه ويسكنون لانه الآن يتعاظم الى اقاصي الارض ٥ ويكون هذا سلاما .) اي ترجع بقية اخوته الذين في الخارج على الموجودين بالشام ويرعاهم جميعا بقدرة الرب ويسكنون ويكون سلام لان بتعاظمه الى اقاصي الأرض يسهل رجوع الذين في الخارج الى الارض المقدسة بالشام ، وهذا معنى مافي نبوة اشعيا ٤٩ : ٦ لتكون خلاصي الى اقصي الارض ، اي لخلاص بني اسرائيل (الثالث) من نبوة هوشع ٣ : ٤ لان بني اسرائيل سيقعدون اياما كثيرة بلا ملك وبلا رئيس — الى قوله — وبعد ذلك يعود والعبراني يرجع بنو اسرائيل ويطلبون الرب إلههم والى داود ملكهم — الى قوله في آخر الايام) والمراد بداود ملكهم المسيح لانه من داود وداود من يعقوب . المعنى ان بني اسرائيل يقعدون اياما كثيرة حيارى بلا رئيس وبعد ذلك يرجعون عن العناد ويطلبون الرب إلههم ويرجعون الى داود ملكهم ويلزم من رجوعهم اليه عنادهم ابتداء معه فالنصارى تركوا « الى » في قوله الى داود ملكهم فقالوا وداود ملكهم تحريفا بالنقصان اه

(ملحق) نقول لاهل الكتاب لاتستغربوا أن للمسيح مجيئين حسب نص نبوات الانبياء المقدسة عندكم والله على كل شيء قدير بأن يحفظ المسيح من الاعداء ويأتي به حسب ماتقتضيه حكمته ، ومثل ذلك ايليا رفعه الله الى السماء كما في ملوك ثانى ٢ : ١١ — فصعد ايليا في العاصفة الى السماء) وفي نبوة ملاخي من قول الرب ٤ : ٥ (هانذا أرسل اليكم ايليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف) العبراني « ا الياهو » وفي حاشية الكاثوليك على نبوة ملاخي قالت التقليد الراهن والمتفق

---

(١) منذ القدم يطلق على الزمن الماضي القديم قدم وازل كما في مزمور ٤٤ : ١ — في أيامهم في أيام القدم وفي نبوة اشعيا ٦٤ : ٤ ومنذ الازل لم يسمعوا)

عليه عند عموم اليهود والمسيحيين ان ايليا النبي يجيء بشخصه في منتهى العالم لمقاومة الدجال وقد صرح بذلك السيد المسيح نفسه (مت ١٧ : ١١ ومرقس ٩ : ١) اه وقولهم « في منتهى العالم » نص النبوة قبل مجيء « يوم الرب » وفي شرح الاسرائيلية الربانيين قال : قبل مجيء اليوم العظيم اه فاذا كنتم يا أهل الكتاب مصدقين بكتابكم يلزم أن تصدقوا بجميعه خصوصاً نبوات الانبياء لا ان تصدقوا البعض وتنكروا البعض الآخر (تنبيهات) (الاول) في ترجمة المسيحيين لداود مزمور ٢٢ : ١٦ (ثقبوا يدي ورجلي) الاصل العبراني كاسد يدي ورجلي وفي حاشية كتاب البروتستانت أوكأسد. فقد اعترفوا . وقول داود في مزمور ٢٢:١٦ (كأسد يدي ورجلي) بناء على قول يعقوب في يهوذا ابنه كما في التكوين ٤٩ : ٩ يهوذا شبل أسد الى قوله كأسد) والمراد بهوذا داود لانه من يهوذا وسلطنته بالشام (الثاني) في نبوة أشعيا باب ٥٣ عدد ٨ ـ انه ضرب من أجل ذنب شعبي) والاصل العبراني « لهم ضربة » يعني الشعب ولفظها العبراني « لامو » فتركوا « لهم » وقالوا ضرب ، وفي عدد ١٠ منه ـ ان جعل نفسه ذبيحة اثم كلمة ذبيحة زادوها . والاصل العبراني نحسب نفسه آثما ، وفاتهم قوله بعدها « يرى نسلا » والمراد الشعب لا المسيح وفي عدد ٦ ـ وضع عليه اثم جميعنا ـ والمراد الشعب وبيانه في مراثي النبي أرميا ٥ : ٧ آباؤنا أخطأوا وليسوا بموجودين ونحن نحمل آثامهم) فمراثي أرميا هي بيان لنبوة أشعيا باب ٥٣ وقد اعترف الكاتوليك والبروتستانت كما في كتبهم انهم يترجمون من الاصل العبراني وهنا خالفوا ونسبوه للاصل العبراني (الثالث) نبوة زكريا باب ١٢ وباب ١٣ تمت في يهوذا وأخيه يوناثان من المكابين من بيت هرون ؛ وعبارتهم في سفر المكابين الاول وهو من الاسفار القانونية عند الكاتوليك والاورتدكس ، والبروتستانت تعتبره تاريخا لليهود (الرابع) في نبوة أشعيا ٧ : ١٤ ـ ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل) الاصل العبراني الفتاة حبلى والكلمة العبرانية مثلها حرفيا في هاجر لما كانت حاملة باسمعيل كما في التكوين ١٦ : ١١ ـ ها أنت (حبلى) وفي قاموس البروتستانت للكتاب (عمانوئيل) اسم ولد فى أيام أشعيا الخ (الخامس) فى نبوة أشعيا ٩ : ٦ لانه يولد لنا ولد ونعطى ابناً الى قوله مشيرا إلهاً الخ وترجمة الكاتوليك لانه قد ولد لنا ولد أعطي لنا ابن الى قوله مشيرا إلهاً الخ مثل العبراني في شرح الاسرائيلية الربانيين هو حزقيا أي ملك يهوذا اه ويطلق عند الاسرائيلية على القضاة والرؤساء آلهة كما في سفر الخروج في العبد الذي يعتق ٢١ : ٦ يقدمه سيده الى الله والعبراني الى الآلهة . وترجمة الكاتوليك يقدمه مولاه الى الآلهة) وفي حاشيتهم أي القضاة

وفي سفر الخروج ٧: ١ فقال الرب لموسى ـ أنا جعلتك إلهاً لفرعون . العبراني جعلتك آلهة لفرعون } فيطلق الجمع ويراد به المفرد من باب التعظيم ومثله في صموئيل أول ١٣:٢٨ (السادس) في انجيل يوحنا من قول المسيح لليهود ٧: ٣٤ ستطلبونني ولا تجدونني ـ) وفي انجيل يوحنا ١٢: ٣٤ ـ نحن سمعنا من الناموس أن المسيح يبقى الى الابد ـ ٣٥ فقال لهم يسوع النور معكم ـ فسيروا مادام لكم النور ـ) والناموس نور كما في مزمور ١٩: ٧ ناموس الرب كامل الى قوله ينير العينين، ومثله في مزمور ١١٩: ١٠٥ سراج لرجلي كلامك ونور لسبيلي) والمسيح مؤيد للناموس والانبياء كما في انجيل متى ٥ : ١٧

(فصل في ميلاد المسيح) من قول يعقوب بالوحي في يهوذا ابنه كما في التكوين ٤٩: ١٠ لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه الخ معنى المشترع معطي الشريعة ومحققها فالمراد بيهوذا داود لانه من يهوذا وسلطنته بالشام والمشترع من بين رجليه أي مبين الشريعة وهو المسيح لانه ولد من أنثى من نسل داود من بين رجليها ، والكلمة مثلها في التثنية ٢٨: ٥٧ بمشيمتها الخارجة من بين رجليها، كما في القاموس العبراني، والمشيمة غشاء المولود ، وبيانه في نبوة أرميا ٣١: ٢٢ لان الرب قد خلق شيئاً حديثاً اي جديدا في الارض انثى تحيط برجل ٢٣ هكذا قال رب الجنود ـ سيقولون بعد هذه الكلمة أو القول في أرض يهوذا ومدنها عند ما أرد سبيهم يباركك الرب يا مسكن البر يا أيها الجبل المقدس ٢٤ فيسكن فيه « والعبراني ويسكن » فيه يهوذا وكل مدنه معاً) أي عند مايرد الرب سبيهم ويسكنون يولد المسيح من غير أب بخلق الله تعالى لذلك ـ كما نوضح ـ فكما خلق الرب حواء من آدم من ضلع من أضلاعه كما في التكوين ٢: ٢١ و٢٢ و٢٣ خلق المسيح من أمه كما توضح من قول يعقوب ونبوة أرميا، وقول الاسرائيلية في شروحهم على نبوة أرميا هذه (ان المراد بالانثى أورشليم أو الارض، والرجل الشعب. لم يذكر في الكتاب أنثى ويراد بها أورشليم أو الارض وانما ورد انثى ويراد بها أمنا حواء كما في التكوين ١: ٢٧ ـ ذكر وأنثى خلقهم) أي آدم وحواء وأم المسيح مثل أمها حواء وانما اليهود أخفوا نبوة أرميا هذه عن النصارى وأبدلوها بشكل آخر وترجموا في السبعينية اليونانية بما يأتي وجعلوا باب ٣١ عبرانية لنبوة أرميا باب ٣٨ سبعينية وقالوا في السبعينية بدل قوله خلق الرب شيئا جديدا في الارض أنثى تحيط برجل الخ قالوا الرب خلق خلاصاً لغرس جديد ان الناس سيدورون في الخلاص لانه هكذا يقول الرب الخ والترجمة السبعينية موجودة ومطبوعة باليوناني وبالانكليزي

عن اليوناني (تنبيه) في الترجمة السبعينية التي كان عليها النصارى أولا ثم من بعد أزمنة قالوا ترجمنا العهد القديم من الاصل العبراني كما في كتبهم وقالوا كتاب الاناجيل أخذوا من السبعينية أنظر المجلد الثالث من كتاب الكاثوليك ومرشد الطالبين للبروتستان وفي كتاب ذخيرة الالباب في بيان الكتاب للكاثوليك طبع بيروت قال في الترجمة السبعينية لم يترجم فيها الا الاسفار الخمسة الاولى أما بقية العهد العتيق فقد ترجم في أعصار مختلفة، ثم ذكر ان الترجمة السبعينية دخلها أغلاط الى أن قال ان ايرنيموس الذي كان يعرف العبرانية ترجم العهد العتيق من العبرانية وايرنيموس الذي تعلم العبرانية كان في اواخر القرن الرابع، وفي مرشد الطالبين للبروتستان ان ايرنيموس ترجم في أوائل القرن الخامس، والتوراة عند اليهود تطلق على الاسفار الخمسة الاولى و بقية العهد القديم وان كان عندهم مقدساً لا يطلقون عليه توراة، والنصارى يطلقون التوراة على كل العهد القديم (في الاناجيل) في قاموس الكتاب للبروتستان قال في الاناجيل انها كانت مستعملة في الكنائس قبل سنة ٢٠٠ مايتين وربما قبل سنة ١٥٠ اي بعد الميلاد فقوله « ربما » شك منهم وفي مقتطف مارس سنة ١٩١٢ تقريظ رسالة في الاناجيل للاب انطون رباط اليسوعي قال عليها ان الادلة التاريخية التي أوردها يرتقي بعضها الى أواسط القرن الثاني وكانت كما هي عليه الآن منذ أواخر القرن الثالث اه والحواريون ماتو قبل أواسط القرن الثاني أي قبل سنة ١٥٠ فعلى ذلك الاناجيل ليست من تصنيف الحواريين أتباع المسيح وانما هي روايات فيها وفيها، فالذي يوافق منها نبوات الانبياء حرفيا في الموضوع بدون زيادة أو نقصان أو تغيير حسب الاصل العبراني الذي اعتمدوه أخيرا يصح قبوله لان المسيح مع الانبياء اه

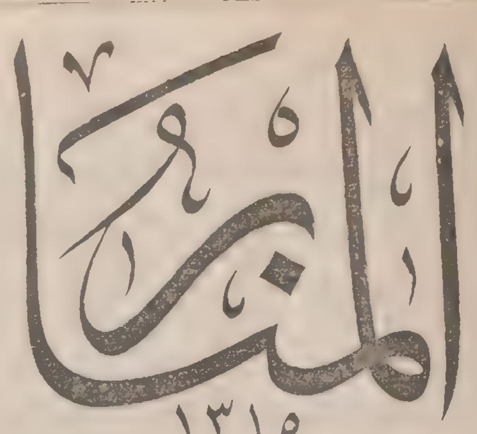
(فصل في دخول المسلمين الى الشام) النصوص كثيرة انما نذكر منها ما يأتي في نبوة حجي بحسب العبراني من قول الرب ٢ : ٦ - بعد قليل فازلزل السموات والارض - ٧ وازلزل كل الامم ويأتون احسن كل الامم او افخر كل الامم فاملأ هذا البيت مجداً ٩ - وفي هذا المكان اعطي السلام -) فقد اتت أمة الاسلام وهي احسن كل الامم لانها على التوحيد وتعظم الرب والايمان بانبيائه واحترامهم، واعطت السلام والامان وبنت بيت الرب في المدينة المقدسة بعد ما كان البيت خرابا وامتلأ البيت مجدا لعبادة الرب فيه ، اما ترجمة النصارى هنا في قولها « و يأتي مشتهى كل الامم » خلاف الاصل العبراني والعبراني بالجمع « ويأتون » وفي عدد ٢٠ منه وصارت كلمة الرب ثانية - كلم زربابل والي يهوذا قائلا « اني ازلزل السموات والارض ٢٢

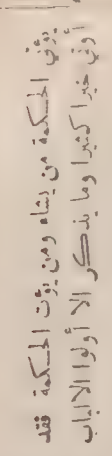
وأقلب كرسي الممالك ٢٣ - في ذلك اليوم - آخذك يازربابل عبدي - وأجعلك كخاتم) والمراد به المسيح في مجيئه الثاني وحكمه لانه من زربابل، والخاتم الذي يوضع في اليد كناية عن السلطنة أنظر نبوة أرميا ٢٢: ٢٤

في نبوة دنيال باب ٩ مضمونه مقضي على الشعب سبعين (١) اسبوعا وبعدها البر الابدي وقال في شرح الاسرائيلية وحاشية الكاثوليك كل اسبوع بسبع سنين تكون المدة ٤٩ سنة تحسب المدة من حرب الرومان لليهود سنة ١٣٢ بعد الميلاد وبهذه الحرب تشتتوا وآخر المدة سنة ٦١٢ ميلادية وفيها هاجر النبي (ص) الى المدينة وصار رئيسا عليها وبعد ١٤ سنة دخل المسلمون الشام، فالاربعة عشر السنة في نظير اخذ دولة فارس للشام من الروم ١٤ سنة من سنة ٦١٤ لغاية سنة ٦٢٨ ثم دخل المسلمون المدينة المقدسة سنة ٦٣٦ كما في تواريخ المسيحيين وفي نبوة دانيال باب ٧ رأى في الرؤيا أربع حيوانات وأوحي اليه انها اربع دول تقوم على الارض اي الارض المقدسة وبعدهم تكون الارض لقديسين الى الابد، وقد اعترف اهل الكتاب ان الدول الاربع الكلدان والفرس واليونان والرومان اه فقد انتهوا وحل المسلمون الارض المقدسة وهم فيها للآن وبعنه تعالى الى الابد، وبمثله في نبوة زكريا ١ : ١٨ رآهم بهيئة قرون اربعة في ارض يهوذا أي الارض المقدسة وانتهى امرهم، وفي انجيل يوحنا من قول المسيح ١٦ : ١٣ - روح الحق فهو يرشدكم - لانه لا يتكلم من نفسه بل بكل ما يسمع يتكلم به - ١٤ ذاك يمجدني) فالذي يسمع يكون له صفة السمع والصفة تقوم بذات ولا تقوم بصفة، وروح الحق انسان كما في رسالة يوحنا الاولى ٤: ١ ايها الاحبة لا تصدقوا كل روح - كل روح يعترف بيسوع المسيح - فهو من الله ٣ وكل روح لا يعترف بيسوع - فليس من الله ٦ - من هذا نعرف روح الحق -) والنبي (ص) يؤمن بالمسيح ويعظمه ويتكلم بما يوحى اليه) (يا اخت هرون) في الحديث الشريف كانوا يسمون بأسماء انبيائهم والصالحين قبلهم اه من ابن كثير وقد سمي المسيح داوداً كما في نبوة حزقيال ٣٧: ٢٤ « فصل » المسيح كان على التوحيد كما في انجيل يوحنا من قول المسيح يخاطب الرب ١٧ : ٣ وهذه هي الحياة الابدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي ارسلته، وترجمة الكاثوليك والذي ارسلته يسوع المسيح - أي يعرفون ان الاله الحقيقي واحد والذي أرسله هو المسيح مثل قول اشهد أن لا إله الا الله وان محمداً رسول الله

(١) قوله سبعين أسبوعاً سبق بيان هذه النبوة تفصيلا في كتاب البرهان الصريح في بشائر النبي والمسيح وفي الكتاب أسبوع بسبعة سنين وأسبوع سنة وبينا المتشابه الخ وأطلق على ابراهيم واسحق مسحاء كما في مزمور ١٠٥ : ١٥ (تنبيه) سامرة العبراني شمرون موضعين منها في سفر يشوع ١٢ : ٢٠ شمرون بل سامرة جملة بلاد

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كنار الطريق

مصر ٣٠ ربيع الآخر ١٣٣٢ هـ ق ٨ الربيع الاول ١٢٩٢ هـ ش ٢٧ مارث ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٤٤) يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ
الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا،
سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ، يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ، يَقُولُونَ: إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ
تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا،
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤٥) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ

لِلسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٦) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ؟ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ

أخرج احمد والبخاري ومسلم عن ابن عمر قال : ان اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال : ما تجدون في كتابكم ؟ قالوا : نسخم وجوههما ويخزيان ، قال : كذبتم ان فيها الرجم (فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) فجؤا بالتوراة وجاؤا بقارئ لهم ـ وفي رواية احمد زيادة : أعور يقال له ابن صوريا ـ فقرأ حتى اذا أتى الى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك ، فرفع يده فاذا هي تلوح (أي آية الرجم) . فقالوا : يا محمد ان فيها الرجم ولكنا كنا نتكاتمه بيننا . فأمر بهما رسول الله (ص) فرجما . فلقد رأيته يجنأ عليها (أي ينحني) يقيها الحجارة بنفسه . ولفظ مسلم : نسود وجوههما (وهو بمعنى التسخيم هنا والتحميم في رواية أخرى ، فالاول من السخام وهو سواد القدر ، والثاني من الحمة وهي الفحمة) ونحملهما ونخالف بين وجوههما ، أي نركبهما ونجعل وجوههما الى مؤخر الدابة ـ وهو المراد من الخزي أي الفضيحة . وفيها ان الذي أمر القارئ ان يرفع يده هو عبد الله بن سلام .

واخرج احمد ومسلم وابوداود والنسائي والنحاس في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن البراء بن عازب . قال : مر على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي محمما مجلودا ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال : انشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟ قال : اللهم لا . ولولا انك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم ، ولكنه كثر في اشرافنا فكنا اذا اخذنا الشريف تركناه ، واذا اخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . فقال النبي

صلى الله عليه وسلم « اللهم اني اول من احيا امرك اذ أماتوه » وامر به فرجم ، فأنزل الله (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ـ الى قوله ـ ان أوتيتم هذا فخذوه) يقول : ائتوا محمدا فان امركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وان افتاكم بالرجم، فاحذروا. فأنزل الله عز وجل (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون — ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون — ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون) قال هي في الكفار كلها *

هذا أصح ما ورد في سبب نزول الآيات . وهاك تفسيرها :

﴿ يا أيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ الخطاب بوصف الرسول تشريف للنبي (ص) ولم يرد الا في هذا الموضع وفي موضع آخر من هذه السورة وسيأتي . ومثله « يا أيها النبي » وورد في بضع سور . وفي هذا التشريف والتكريم تعليم وتأديب للمؤمنين ، يتضمن النهي عن مخاطبته باسمه ، والامر بأن يخاطبوه بوصفه ، وكذلك كان يدعوه أصحابه : يارسول الله . وجهل هذا الادب بعض الأعراب لما كانوا عليه من سذاجة البادية وخشونتها ، فكانوا ينادونه باسمه « يامحمد » حتى أنزل الله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) فلم يعد الى دعائه باسمه أحد . ولكن المفسرين يغفلون عن هذا فيكرر كثير منهم كلمة « يامحمد » عند تفسيرهم لخطاب الله لرسوله بمثل « إنا أعطيناك الكوثر » وما أشبهه من الخطاب ، وأخذه عنهم قراء التفسير فيكادون يقولونه في تفسير كل خطاب، وان لم يذكر النداء في الكتاب .

والحزن ضد السرور وهو ضرب من آلام النفس يجده الانسان عند فوت ما يحب . ويستعمل الفعل الثلاثي منه متعديا بعلى كحزن فلان على ولده ، ومتعديا بنفسه كحزنه الامر ، وهذه لغة قريش . وتميم تعديه بالهمزة فتقول أحزنه موت ولده . والحزن مذموم طبعا وشرعا مهما كان سببه ، ولهذا نهى الله تعالى عنه في هذه الآية وفي آيات أخرى ، وجعل التجرد منه ومن مقابله وهو فرح البطر والخفة بالاشياء المحبوبة غاية لكمال الايمان في قوله (لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وأما الفرح والسرور بالحق والفضل دون أعراض الدنيا لذاتها فهو محمود (قل بفضل الله وبرحمته

فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) كما أن حزن الرحمة والرأفة عند موت الولد وغيره من الصفات الفطرية الشريفة، لا ماتكلفه المرء من لوازمه .

فان قيل: ان الحزن ألم طبيعي يعرض للانسان عند فوت مايحبه وليس أمرا اختياريا فكيف نهى الله تعالى عنه ؟ قلنا : ان النهي عن الحزن يراد به النهي عن لوازمه التي يفعلها كثير من الناس مختارين فتكون محركة لذلك الألم ومجددة له . ومبعدة أمد السلوى ـ والامر بضدها من تكلف الأعمال التي تشغل النفس وتصرفها عن التذكر والتفكر فيما حزنت لاجله احتسابا ورضاء من الله تعالى، وهذه الافعال تكون بدنية نفسية وتكون نفسية او بدنية فقط . وفسروه هنا بقولهم أي لانهتم ولاتبال بهؤلاء المنافقين الذين يسارعون في الكفر أي في إظهاره بالتحيز الى أعداء المؤمنين من أهله، عند ما تسنح لهم الفرصة، ويجدون قوة يعتصمون بها من التبعة . فان الله يكفيك شرهم، وينصرك عليهم وعلى من يتشيعون لهم .

وللناس في المصائب عادات رديئة، واعمال سخيفة ضارة، تدل على ضعف البشر، والسخط على القدر، ومعظم العقلاء والحكماء يذمونه وينهون عنه كما نهى عنه الدين، وقد قلت في مرثية نظمتها في ايام طلب العلم، ناهيا ذاما ما اعتيد من شعائر الحزن :

أطبيعة ذا الحزن ليس يشذ عن ناموسه فرد من الافراد
ام ذاك مما اودعته شرائع ال أديان من هدي لنا ورشاد
ام ذلك العقل السليم قضى على كل الشعوب بهذه الاصفاد
كلا فليس الامر ضربة لازب لكنه ضرب من المعتاد
فاخلع جلابيب العوائد ان تكن ليست بحكم العقل ذات سداد

يقال: سارع الى الشيء (وسارعوا الى مغفرة من ربكم) وسارع في الشيء (أولئك يسارعون في الخيرات) فالمسارع الى الشيء هو الذي يسرع اليه من خارجه لاجل ان يصل اليه . والمسارع في الشيء هو الذي يسرع في أعماله وهو داخل فيه. وهؤلاء الذين نزلت فيهم الآية لم يكونوا مؤمنين فيكون ما عملوا من أعمال الكفار انتقالا بسرعة من الايمان الى الكفر، بل كانوا داخلين في ظرف الكفر محيطا بهم سرادقه،

وانما انتقلوا سراعا من حيز الإخفاء له والكتمان، الى حيز المصارحة والاعلان، كالذي ينتقل في البيت من مكان الى مكان .

وقد بين الله حقيقة حالهم هذه بقوله ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا * سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ اختلف القراء والمفسرون في الوقف هنا: هل يتم عند قوله تعالى «قلوبهم» ام قوله «هادوا»؟ أما تقدير الكلام على الأول فهو: لايحزنك الذين يسارعون في الكفر من المنافقين الذين ادعوا الايمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم. وما بعده جملة مستقلة تقديرها: ومن الذين هادوا (أي اليهود) قوم سماعون للكذب الخ. وأما التقدير على الثاني فهو: لايحزنك الذين يسارعون في الكفر من المنافقين واليهود. وقوله تعالى «سماعون للكذب» جملة حذف منها المبتدأ. أي هم سماعون للكذب الخ والاول أظهر. وقد قال بعض المفسرين: ان المراد بالمنافقين هنا منافقو اليهود، فيكون الكلام هنا في اليهود عامة - الذين اظهروا الاسلام نفاقا والذين ظلوا على دينهم، و يدخل في عموم الاول المنافقون من غير اليهود على قاعدة: العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب. واختلف في قوله «سماعون للكذب» هل هو وصف للفريقين ام لاحدهما؟ أي بناء على ان قوله: سماعون الخ جملة مستأنفة .

واللام في قوله «للكذب» فيها وجهان (احدهما) انها للتقوية والمعنى انهم يسمعون الكذب كثيرا سماع قبول أو يقبلونه . والمراد بالكذب مايقوله رؤساؤهم في النبي (ص) وفي احكام الدين التي يتلاعبون فيها باهوائهم (وثانيها) انها للتعليل. والمعنى انهم كثيرو الاستماع لكلام الرسول (ص) لاجل الكذب عليه بالتحريف واستنباط الشبهات، فهم عيون وجواسيس بين المسلمين يبلغون رؤساءهم وسائر أعداء الاسلام كل مايقفون عليه، لاجل ان يكون ما يفترون عليه من الكذب مقبولا، لانه مبني على وقائع ومسائل واقعة يزيدون في روايتها و ينقصون، و يحرفون منها مايحرفون، ومن يكذب عليك وهو لا يعرف من أمرك شيئا لا يستطيع ان يجعل كذبه مرجو القبول كمن يعرف بل يظهر اختلاقه لاول وهلة. ولهذا نرى الذين يفترون الكذب على الاسلام في هذا الزمان يقرأون بعض كتب المسلمين ليبنوا أكاذيبهم على مسائل معروفة يحرفون الكلم فيها عن

مواضعه كما سيأتي في وصف هؤلاء، كالذي افتروه في قصة زيد وزينب وفي غيرها من الوقائع والاخبار. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى «سماعون لقوم آخرين لم يأتوك» أي لاجل قوم آخرين من رؤسائهم وذوي الكيد فيهم - أو من أعدائك مطلقا - لم يأتوك ليسمعوا منك بآذانهم إما كبرا وتمردا، وإما خوفا على أنفسهم لأنهم معلنون للعداوة.

اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابو الشيخ عن جابر بن عبد الله في قوله « ومن الذين هادوا سماعون للكذب » قال يهود المدينة «سماعون لقوم آخرين لم يأتوك» قال يهود فدك «يحرفون الكلم» قال يهود فدك، يقولون ليهود المدينة « ان أوتيتم هذا» الجلد « فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا» الرجم.

واما قوله تعالى ﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ فمعناه يحرفون كلم التوراة من بعد وضعه في مواضعه، إما تحريفا لفظيا بإبدال كلمة بكلمة أو باخفائه وكتمانه أو الزيادة فيه والنقص منه، إما تحريفا معنويا بحمل اللفظ على غير ما وضع له

﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ أي يقولون لمن ارسلوهم الى الرسول (ص) ليسألوه عن حكم الرجل والمرأة اللذين زنيا منهم وارادوا ان يحابوهما بعدم رجمهما: ان أعطيتم من قبل محمد رخصة بالجلد عوضا عن الرجم فخذوه وارضوا به، وان لم تعطوه بان حكم بأنهما يرجمان فاحذروا قبول ذلك والرضاء به. وقد تقدم أنهم جاؤه فسألهم عن حد الزناة في التوراة؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، وجاؤا بالتوراة فوضع أحدهم يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع فاذا آية الرجم. فاعترفوا بصدق النبي (ص) وظهر كذبهم وعبثهم بكتاب شريعتهم.

قال الله تعالى في بيان حال هؤلاء العابثين بدينهم وفي أمثالهم ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ﴾ أي ومن تعلقت ارادة الله تعالى بأن يختبر في دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله، كما يفتن الذهب بالنار فيظهر مقدار ما فيه من الغش والزغل، فلن تملك أيها الرسول له من الله شيئا من الهداية والرشد، كما انك لا تستطيع ان تحول النحاس الى الذهب. لان سنة الله تعالى لا تتبدل في معادن الناس ولا في

معادن الارض. فهؤلاء المنافقون والجاحدون من اليهود قد أظهرت لك فتنة الله واختباره إياهم درجة فسادهم، وعلمت انهم يقبلون الكذب دون الحق، وان إظهار بعضهم للايمان ورؤيتهم لحسن حال المؤمنين وصلاحهم لم تؤثر في أنفسهم، ورأيت كيف طوعت للآخرين أنفسهم التحريف والكتمان لاحكام كتابهم، اتباعا لاهوائهم، ومرضاة لاغنيائهم، فلا يحزنك بعد هذا مسارعتهم في الكفر، ولا تطمع في جذبهم الى الايمان. فانك لا تملك لاحد هداية ولا نفعا وانما عليك البلاغ والبيان، ولا تخف عاقبة نفاقهم فانما العاقبة للمتقين من أهل الايمان، ولهم الخزي والهوان. ولذلك قال:

﴿ أولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم ﴾ اي أولئك الذين بلغت منهم الفتنة هذا الحد لم تتعلق ارادة الله تعالى بتطهير قلوبهم من الكفر والنفاق، لان ارادته تعالى انما تتعلق بما اقتضته حكمته البالغة، وسننه العادلة، ومن سننه في قلوب البشر وانفسهم أنها اذا جرت على الباطل والشرور ونشأت على الكيد والمكر، واعتادت اتخاذ دينها، شبكة لشهواتها واهوائها، ومردت على الكذب والنفاق، وألفت عصبية الخلاف والشقاق، وصار ذلك من ملكاتها الثابتة، واخلاقها الموروثة الثابتة، تحيط بها خطيئتها، وتطبق عليها ظلمتها، حتى لا يبقى لنور الحق منفذ ينفذ منه اليها، فتفقد قابلية الاستدلال والاستبصار، والاستعداد للنظر والاعتبار، التي جعلها الله اسباب الاتعاظ والاهتداء، بحسب سنته الحكيمة في توفيق الاقدار للأقدار، وهؤلاء الزعماء واعوانهم من اليهود قد صبوا في قوالب تلك الصفات الرديئة صبا، فلا تقبل طباعهم سواها قطعا. فهذا هو سبب عدم تعلق ارادة الله تعالى بأن يطهر قلوبهم مما طبع عليها، لان ارادته تطهير قلوبهم وهم متصفون بما ذكرنا إبطال للقدر، وتبديل لما اقتضته الحكمة من السنن، وكان امر الله قدرا مقدورا، لا امرا أُنفا، ولن تجد لسنته تبديلا. ثم بين تعالى عاقبة هؤلاء المخذولين وجزاءهم فقال:

﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ فاما العذاب في الآخرة فامره معلوم، وكنهه مجهول. وأما خزي الدنيا فهو ما يلحقهم من الذل والفضيحة

وهوان الخيبة ، عند ما ينكشف نفاقهم ، ويظهر للناس كذبهم ، ويعلو الحق على باطلهم . وقد صدق وعيد الله تعالى بهذا الخزي على يهود الحجاز كلهم ، كما يصدق في كل زمان على من يفسدون كفسادهم، فيفشو فيهم الكذب والنفاق ، ويغلب عليهم فساد الاخلاق، ولا يغني عنهم، الانتساب الى نبي لم يتبعوه ، ولا تنفعهم دعوى الايمان بكتاب لم يقيموه . فان الوعيد في الآية لم يوجه الى أولئك اليهود لذواتهم واعيانهم ، فذواتهم كسائر الذوات ، ولا لنسبهم وأرومتهم ، فنسبهم أشرف الانساب . وإنما هو وعيد على فساد القلوب الذي نشأ عنه فساد الاعمال ، فما بال الفاسدين المفسدين ، من المسلمين الجغرافيين او السياسيين ، لا يعتبرون بما كان من خزي اليهود بخروجهم عن سنة انبيائهم ، وبما حل من وعيد الله بهم ، على ما كان من حرص الرسول (ص) على هداهم، وهم يرون في كل زمن مصداقه باعينهم ، أفلا يقيمون القرآن بالاعتبار بنذره ، والحذر ما حذر منه ؟

ثم قال في وصفهم ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ أعاد وصفهم بكثرة سماع الكذب لتأكيد ماقبله، والتمهيد لما بعده ـ كما قالوا : والاعادة للتأكيد وتقرير المعنى وافادة اهتمام المتكلم به مما ينبعث عن الغريزة ، ويعرف التأثير والتأثر به من الطبيعة ، ولعله عام في جميع لغات البشر . واذا قلنا ان اللام في الآية الاولى للتعليل، وفي هذه الآية للتقوية، ينتفي التكرار ، اذ المعنى هناك: يسمعون كلام الرسول والمؤمنين لاجل ان يجدوا مجالا للكذب ينفرون الناس به من الاسلام ، والمعنى هنا انهم يسمع بعضهم الكذب من بعض سماع قبول ، فهم يكذب بعضهم على بعض كما يكذبون على غيرهم، ويقبل بعضهم الكذب من بعض. فأمرهم كله مبني على الكذب ، الذي هو شر الرذائل وأضر المفاسد . وهكذا شأن الامم الذليلة المهينة ، تلوذ بالكذب في كل أمر ، وترى أنها تدرأ به عن نفسها ما تتوقع من ضر، وكذلك يفشو فيها اكل السحت، لأنها تعيش بالمحاباة ، وتألف الدناءة ، وتؤثر الباطل على الحق . فسر ابن مسعود السحت بالرشوة في الدين، وابن عباس بالرشوة في الحكم،وعلي بالرشوة مطلقا ، قيل له : الرشوة في الحكم ؟ قال: ذلك الكفر . وقال عمر : بابان من السحت يأكلهما الناس ـ الرشا في الحكم ومهر الزانية. فأفاد أن السحت

أعم من الرشوة . ومن فسره بالرشوة المطلقة أو المقيدة فقد اراد به أنه المراد من الآية باعتبار نزولها في أحبار اليهود ورؤسائهم لا لمعنى اللغوي العام . وقيل : السحت الحرام مطلقا ، أو الربا ، أو الحرام الذي فيه عار ودناءة كالرشوة . واختلف علماء العربية في معناه الاصلي الذي اختير هذا اللفظ لاجله . فقال الزجاج هو من سحته وأسحته بمعنى استأصله بالهلاك ، ومنه قوله تعالى (قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) فعلى هذا يكون المراد بالسحت ما يسحت الدين والشرف لقبحه وضرره ، أو لسوء عاقبته وأثره . وقال الفراء : اصل السحت شدة الجوع ، يقال رجل مسحوت المعدة اذا كان أكولا لا يكاد يرى الا جائعا ، وعلى هذا يكون المراد به الحرام أو الكسب الدنيء الذي يحمل عليه الشره . قرأ ابن عامر ونافع وعاصم وحمزة السحت بضم السين وفتح الحاء والباقون بضمهما معا . لسان العرب : السحْت والسحُت كل حرام قبيح الذكر ، وقيل ما خبث من المكاسب وحرم فلزم عنه العار وقبيح الذكر ، كثمن الكلب والخمر والخنزير . وسحت الشيء يسحته (كفتح يفتح) قشره قليلا قليلا ، وسحتَ الشحم عن اللحم قشرته عنه مثل سحفته . . . وقال اللحياني سحت رأسه سحتا وأسحته استأصله حلقا . وأسحت ماله استأصله وافسده . ـ الى أن قال ـ والسحت (بالفتح) شدة الأكل والشرب ، ورجل سحت (بالضم) وسحيت ومسحوت : رغيب واسع الجوف لا يشبع . اه

المراد من اللسان فعلم منه ان اصل معنى السحت ازالة القشر عن العود بالتدريج وما في معناه كحلق الشعر ، ومن العرب من لا يقول : اسحت الشيء . الا اذا استأصله بالقشر . ويمكن ارجاع معنى عدم الشبع الى هذا المعنى كأن المعدة لسرعة هضمها تستأصل الطعام . وسمي الكسب الخسيس والحرام سحتا لانه يستأصل المروءة او الدين ، والرشوة تستأصل الثروة ، وتفسد أمر المعاملة ، وتستبدل الطمع بالعفة . وكان احبار اليهود ورؤساؤهم في عصر التنزيل كذابين أكالين للسحت من الرشوة وغيرها من الخسائس ، كدأب سائر الامم في عهد فسادها وانحطاطها ، وقد صارت حالهم لا آن احسن من حال كثير من الذين يعيبونهم بما كان من سلفهم .

ومن عجائب غفلة البشر عن انفسهم ان يعيبك احدهم بنقيصة ينسبها الى أحد أجدادك الغابرين، على علم منه بأنك عارٍ عنها، أو متصف بالمحمدة التي هي ضدها، وهو متصف بنقيصة جدك التي يعيبك بها !! فان كثيرًا ممن يعدهم المسلمون من احبارهم ورؤساء الدين فيهم، وكثيرًا من حكامهم الشرعيين والسياسيين يكذبون كثيرا ويقبلون الكذب ويأكلون السحت، حتى أنهم يأخذون الرشوة من طلبة العلم ليشهدوا لهم زورا بأنهم صاروا من العلماء الاعلام، ويعطونهم ما يسمونه «شهادة العالمية» كما يمنحهم حكامهم الرتب العلمية. وقد تجرأ بعض طلبة الازهر مرة على شيخنا الاستاذ الامام فعرض عليه ثلاثين جنيها ليساعده في امتحان شهادة العالمية لعلمه بأنه غير مستعد للامتحان ولا أهل للشهادة، فلم يملك الاستاذ نفسه من الانفعال ان ضربه ضربا موجعا، وقال: اتطلب مني في هذه السن ان اغش المسلمين بك فتفسد عليهم دينهم بجهلك، بهذه الجنيهات الحقيرة في نظري العظيمة في نظرك، وأنا الذي لم أتدنس في عمري حتى ولا بقبول الهدية ممن أنقذتهم من الموت؟. ولو كنت ممن يتساهل في هذا لكنت من اوسع الناس ثروة. أو ما هذا مؤداه

﴿فإن جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ أي فان جاؤك متحاكمين اليك فأنت مخير بين الحكم بينهم والإعراض عنهم وتركهم الى رؤسائهم. وقد اختلف العلماء في هذا التخيير هو خاص بتلك الواقعة التي نزلت فيها الآية – وهي حد الزنا هل هو الجلد أو الرجم. أو دية القتيل، اذ كان بنو النضير يأخذون دية كاملة على قتلاهم لقوتهم وشرفهم، وبنو قريظة يأخذون نصف دية لضعفهم، وقد تحاكموا الى النبي (ص) فجعل الدية سواء – أم هو خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة وغيرهم اذ كان اولئك اليهود معاهدين، ام الآية عامة في جميع القضايا من جميع الكفار، عملا بقاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؟ المرجح المختار من الاقوال في الآية ان التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة. وعلى هذا لا يجب على حكام المسلمين ان يحكموا بين الاجانب الذين هم في بلادهم وان تحاكموا اليهم، بل هم مخيرون. يرجحون في كل وقت مايرون فيه المصلحة. وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم اذا تحاكموا الينا. وليس في الآية نسخ كما قال بعض

من زعم أنها عامة في جميع الكفار ، وقد نسخ من عمومها التخيير في الحكم بين الذميين.
وقال بعضهم ان التخيير منسوخ بقوله تعالى في هذا السياق « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » ونقول لا يعقل ان تنزل آيات في سياق واحد كما هو الظاهر في هذه الآيات فيكون بعضها ناسخا لبعض . وانما تلك الآية امر للنبي (ص) بان يحكم بينهم بما أنزل الله من القسط . وسيأتي بيان ذلك

﴿ وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ﴾ أي وان اخترت الاعراض عنهم ، فاعرضت ولم تحكم بينهم ، فلن يستطيعوا ان يضروك شيئا من الضر ، وان ساءتهم الخيبة ، وفاتهم ما يرجون من خفة الحكم وسهولته . ولعل هذا تعليل للتخيير

﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط . ان الله يحب المقسطين ﴾ أي وان اخترت الحكم فاحكم بينهم بالقسط أي العدل لا بما يبغون . وقد شرحنا معناه اللغوي و بينا ما عظم الله من أمره في القيام به والشهادة به في تفسير الآية ١٣٤ من سورة النساء (ص ٤٥٥ ج ٥ تفسير) والآية التاسعة من هذه السورة . والمقسطون هم المقيمون للقسط بالحكم به أو الشهادة أو غير ذلك وفصلنا القول في الحكم بالعدل في تفسير (٤ : ٥٧ واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) فيراجع في المنار أو (ص ١٧٤ و ١٧٩ ج ٥ تفسير)

﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك ؟ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ هذا تعجيب من الله لنبيه ببيان حال من اغرب أحوال هؤلاء القوم . وهو انهم اصحاب شريعة يرغبون عنها و يتحاكمون الى نبي جاء بشريعة أخرى وهم لم يؤمنوا به . اي وكيف يحكمونك في قضية كقضية الزانيين او قضية الدية والحال ان عندهم التوراة التي هي شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه، ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم ؟ اي اذا فكرت في هذا رأيته من عجيب امرهم، وسببه انهم ليسوا بالمؤمنين إيمانا صحيحا بالتوراة ولا بك، وانما هم ممن جاء فيهم (افرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم) فان المؤمن الصادق بشرع لا يرغب عنه الى غيره الا اذا آمن بأن ما رغب اليه شرع من الله أيضا أيد به الاول ، او نسخه لحكمة اقتضت ذلك باختلاف

أحوال عباده . وهؤلاء تركوا حكم التوراة التي يدعون الايمان بها واتباعها لانه لم يوافق هواهم . وجاؤك يطلبون حكمك رجاء ان يوافق هواهم ، ثم يتولون ويعرضون عنه اذا لم يوافق هواهم . فما هم بالمؤمنين بالتوراة ولا بك ، ولا بمن انزل على موسى التوراة وأنزل عليك القرآن ، وقد يقولون انهم مؤمنون ، وقد يظنون ايضا انهم مؤمنون ، غافلين عن كون الايمان يقينا في القلب ، يتبعه الاذعان بالفعل ، ويترجم عنه اللسان بالقول . ولكن اللسان قد يكذب عن علم وعن جهل ، فمن أيقن أذعن ، ومن أذعن عمل ، لان الايمان الاذعاني هو صاحب السلطان الاعلى على الارادة ، والارادة هي المصرفة للجوارح في الاعمال .

أما حكم الرجم في التوراة التي بين أيدينا اليوم فهو خاص ببعض الزناة . قال في الفصل ٢٢ سفر التثنية بعد بيان ان من تزوج عذراء فوجدها ثيبا ترجم عند باب بيت أبيها : (٢٢ اذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان ، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة ، فتنزع الشر من اسرائيل ٢٣ اذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة فاضطجع معها فأخرجوهما كليهما الى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ـ الفتاة من أجل انها لم تصرخ في المدينة ، والرجل من أجل انه أذل امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك) ثم ذكر أحكاما أخرى في الزنا ، منها قتل أحد الزانيين ومنها دفع غرامة والتزوج بالمزني بها

ومما يجب التنبيه له هنا ان دعاة النصرانية يحتجون بهذه الآية وما في معناها على كون التوراة التي في ايديهم وايدي اليهود هي ما انزله الله تعالى على موسى لم يعرض لها تغيير ولا تحريف . وذلك انهم كأولئك اليهود الذين يأخذون من القرآن ما يوافق اهواءهم ويردون ما يخالفها جدلا . والمؤمنون يؤمنون بالكتاب كله ، فالكتاب بين لنا أن عندهم التوراة اي الشريعة ، وان فيها حكم الله في القضية التي تحاكموا فيها الى النبي (ص) وقد صدق الله تعالى وهو اصدق القائلين . وبين لنا أيضا أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه ، وانهم نسوا حظا مما ذكروا به ، وانما أوتوا نصيبا من الكتاب اذ نسوا نصيبا آخر واضاعوه . وقد صدق الله تعالى في ذلك أيضا . ولما خرجت امة القرآن بالقرآن من الامية وعرفوا

تاريخ أهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ظهر لهم ان إخبار القرآن بذلك كان من من معجزاته الدالة على انه من عند الله ، اذ ظهر لهم ان اليهود قد فقدوا التوراة التي كتبها موسى ثم لم يجدوها ، وانما كتب لهم بعض علمائهم ما حفظوه منها ممزوجا بما ليس منها ، والتوراة التي في ايديهم تثبت ذلك ، كما بيناه في غير هذا الموضع. ومنه تفسير اول سورة آل عمران وسيعاد ذكره ايضا

---

(٤٧) إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّـٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَـٰبِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ، فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا . وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَـٰفِرُونَ (٤٩ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ . فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ـ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ (٤٩) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَـٰرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرٰةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرٰةِ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٥٠) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ

هذه الآيات من سياق التى قبلها والتي بعدها ، والغرض منها بيان كون التوراة كانت هداية لبني اسرائيل فاعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم من الفساد ، و بيان مثل ذلك في الانجيل واهله ، ثم الانتقال من ذلك الى ماسيأتي من ذكر انزال

القرآن ومزيته وحكمة ذلك. ومنه يعلم ان العبرة بالاهتداء بالدين وانه لا ينفع أهله الانتماء اليه اذا لم يقيموه ، اذ لا يستفيدون من هدايته ونوره ، الا باقامته والعمل به . وان ايثار أهل الكتاب اهواءهم على هداية دينهم ، هو الذي أعماهم عن نور القرآن والاهتداء به . قال تعالى

﴿ إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ أي انا نحن أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى في العقائد والاحكام خرج به بنو اسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم ، وعلى نور أبصروا به طريق الاستقلال في امر دينهم ودنياهم ﴿ يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا ﴾ أنزلناها قانونا للاحكام يحكم بها النبيون - موسى ومن بعده من انبياء بني اسرائيل - طائفة من الزمان ، انتهت ببعثة عيسى ابن مريم عليه السلام . وهم الذين اسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين على ملة ابراهيم عليهم الصلاة والسلام ، فالاسلام دين الجميع ، وكل ما استحدثه اليهود والنصارى من اسباب التفرق في الدين ، فهو باطل وضلال مبين . وانما يحكمون للذين هادوا أي اليهود خاصة ، لانها شريعة خاصة بهم لا عامة ، ولذلك قال آخرهم عيسى : لم ارسل الا الى خراف اسرائيل الضالة . ولم يكن لداود وسليمان وعيسى من دونها شريعة . ﴿ والربانيون والاحبار ﴾ أي ويحكم بها الربانيون والاحبار في الازمنة أو الامكنة التي لم يكن فيها أنبياء . والربانيون هم المنسوبون الى الرب - إما بمعنى الخالق المدبر لامر الملك ، لانهم يعنون بالعلم الالهي والتهذيب الروحاني - وإما بمعنى مصدر ربه يربه أي رباه ، لأنهم يربون انفسهم ثم غيرهم بالعلم والعرفان ، وأحاسن الآداب والاخلاق ، وهم كبار كهنتهم من اللاويين الصالحين . ويروى عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال : أنا رباني هذه الأمة . وقد سبق بيان معنى الكلمة في تفسير آل عمران . والاحبار جمع حبر (بفتح الحاء وكسرها) وهو العالم . ومادة حبر في اللغة تدل على الجمال والزينة التي تسر الناس ، وشعر محبر مزين بنكت البلاغة والفصاحة . وثوب محبر ، موشى بالنقوش او الوشي الجميل . ومنه برد حبرة (بالكسر) وحبير ، وهو ثوب ذو خطوط بيض وسود أو حمر . فيحتمل ان يكون إطلاق لفظ الحبر على العالم مأخوذا من هذا المعنى ، ويحتمل ان يكون

من الحبر الذي يكتب به . وقال الراغب الحبر (بالكسر) الأثر المستحسن . ثم قال والحبر العالم وجمعه أحبار لما يبقى من أثر علومهم . اه واطلق لقب حبر الامة في الاسلام على ابن عباس رضي الله عنهما ، كما اطلق لفظ الرباني على علي المرتضى عليه الرضوان . والذي يسبق الى فهمي عند ذكر الربانيين والاحبار ان الربانيين عند بني اسرائيل كالاولياء العارفين عندنا ، والاحبار عندهم كعلماء الظاهر عندنا . وقال ابن جرير الربانيون جمع رباني وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم . واما الاحبار فانهم جمع حبر وهو العالم المحكم للشيء . وما قلناه اظهر ، وهو الى اللغة أقرب . والتوراة مؤنثة اللفظ ومعناها الشريعة .

واما قوله تعالى ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ فمعناه انهم يحكمون بها بسبب ما أودعوه من الكتاب واتمنوا عليه وطلب منهم حفظه . أي طلب منهم الانبياء موسى ومن بعده اي يحفظوه ولا يضيعوا منه شيئا . وناهيك بالعهد الذي اخذه موسى بأمر الله على شيوخ بني اسرائيل بعد ان كتب التوراة ـ ان يحفظوها ولا يتحولوا عنها . وقد تقدم في تفسير الميثاق من اواخر سورة النساء واوائل هذه السورة . وانهم نقضوا ميثاق الله ولم يوفوا به ، وقد قال الله فيهم انهم استحفظوا ، ولم يقل انهم حفظوا ، ولكنه قال ﴿ وكانوا عليه شهداء ﴾ اي كان سلفهم الصالحون رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به ، كما فعل عبد الله بن سلام في مسألة الرجم ، او شهداء على انه هو شرع الله تعالى ، لا كما فعل خلفهم من كتمان بعض احكامه ، اتباعا للهوى ، او خوفا من اشرافهم ان اقاموا عليهم حدوده ، وطمعا في برهم اذ حابوهم فيها . واعظم من ذلك كتمانهم صفة خاتم المرسلين والبشارة به ، وروي عن ابن عباس ان المراد : وكانوا على حكم النبي الموافق لحكم التوراة في حد الزنا شهداء . ولعله اراد ـ إن صحت الرواية عنه ـ ان هذا مما يدخل في عموم صفات أحبار اليهود الصالحين . تعريضا بجمهور الخلف الصالحين .

ولذلك شهد عبد الله بن سلام وهو من بقية خيارهم وكذا غيره بأن حكم التوراة رجم الزاني تصديقا وتأييدا لما قاله النبي (ص)

ثم قال تعالى تعقيبا على ما قصه من سيرة سلف بني اسرائيل الصالح ، بعد

بيان سوء سيرة الخلف الذين خلفوا بعدهم ، مخاطبا رؤساء اليهود الذين كانوا في زمن التنزيل ، لايخافون الله في الكتمان والتبديل

﴿ فلاتخشوا الناس واخشون ﴾ اي اذا كان الامر كما ذكر - وهوما لاتنكرونه كما تنكرون غيره مما قصه الله على رسوله من سيرة سلفكم - فلاتخشوا الناس فتكتموا ما عندكم من الكتاب خوفا من بعضهم ورجاء في بعض، واخشوني وحدي، وأوفوا بعهدي ، فان الأمر كله لي ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ﴾ اي لاتتركوا بيانها والعمل والاهتداء والحكم بها في مقابلة منفعة دنيوية لايمكن ان تكون الا قليلة بالنسبة الى المنافع العاجلة والآجلة المترتبة على الاهتداء بآيات الله تعالى . وتقدم تفسير مثل هذه الجملة في سورة البقرة

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ أي وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله من أحكام الحق والعدل ، فلم يحكم بها لمخالفتها لهواه أو لمنفعته الدنيويه ، فأولئك هم الكافرون بهذه الآيات ، لأن الايمان الصحيح يستلزم الإذعان ، والاذعان يستلزم العمل، وينافي الاستقباح والترك . وهذه الجملة مقررة لما قبلها ، ومؤكدة لقوله تعالى في هذا السياق (وما أولئك بالمؤمنين) ثم جاء بمثل من هذه الاحكام فقال

﴿ وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن ﴾ أي وفرضنا على بني اسرائيل من العقوبات في التوراة ان النفس تؤخذ أو تقتل بالنفس اذا قتلت عمدا بغير حق، وقدر الجمهور مقتولة أو مقتصة بها ، والعين تفقأ بالعين ، والانف يجدع بالانف، والاذن تصلم بالاذن، والسن تقلع بالسن . أي ان هذه الاعضاء والجوارح المتماثلة هي كالنفس في كون جزاء المتعدي على شيء منها مثل مافعل ، لانه هو العدل . وقد قرأ الكسائي العين والانف والاذن والسن بالرفع . أي وكذلك العين بالعين الخ - ولهم في اعرابها عدة وجوه . وقرأها الجمهور بالنصب ، عطفا على النفس . ﴿ والجروح قصاص ﴾ قرأ الكسائي الجروح بالرفع أيضا ، والجمهور بالنصب، أي ذوات قصاص، تعتبر في جزائها المساواة بقدر

الاستطاعة ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ أي فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص بأن عفا عن الجاني فهذا التصدق كفارة له يكفر الله بها ذنوبه ويعفو عنه كما عفا عن أخيه . ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ أي وكل من كان بصدد الحكم في شيء من هذه الجنايات ونحوها فأعرض عما أنزل الله من القصاص المبني على قاعدة العدل والمساواة بين الناس ، وحكم بهواه أو بحكم غير حكم الله فهو من الظالمين حتما . اذ الخروج عن القصاص لا يكون الا بتفضيل أحد الخصمين على الآخر ، وهضم حق المفضل عليه وظلمه .

أما مصداق هذا القصاص من التوراة التي في الأيدي فهو في الفصل الحادي والعشرين من سفر الخروج ، ففيه بعد عدة ذنوب توجب القتل ما نصه : (٢٣ وان حصلت أذية تعطي نفسا بنفس ٢٤ وعينا بعين وسنا بسن ويدا بيد ورجلا برجل ٢٥ وكيا بكي وجرحا بجرح ورضا برض) يوضحه قوله في الفصل ٢٤ من سفر اللاويين (١٧ واذا أمات أحد انسانا فانه يقتل ١٨ ومن أمات بهيمة يعوض عنها نفسا بنفس ١٩ واذا أحدث انسان في قريبه عيبا فكما فعل كذلك يفعل به ٢٠ كسر بكسر وعين بعين وسن بسن ، كما أحدث عيبا في الانسان كذلك يحدث فيه) فصرح بعموم القصاص بالمثل فدخل فيه الأذن والأنف . واما العفو فلا أذكر له نقلا عن التوراة ، وانما جاء في وعظ المسيح على الجبل من انجيل متى انه ذكر مسألة العين بالعين والسن بالسن ، ووصى بأن لا يقاوم الشر بالشر ، وهو امر بالعفو ، ولكن الذين يدعون اتباعه في هذا العصر هم اشد اهل الارض انتقاما ومقاومة للشر بأضعافه الا قليلا من الافراد ، الذين اخفاهم الزمان في زوايا بعض البلاد .

﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ﴾ أي وبعثنا عيسى بن مريم بعد أولئك النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة متبعا أثرهم جاريا على سننهم ، مصدقا للتوراة التي تقدمته بقوله وعمله أو بحاله . ولفظ قفى مأخوذ من القفا وهو مؤخر العنق . يقال : قفاه وقفا إثره يقفوه واقتفاه ، اذا اتبعه

وسار وراءه حسا او معنى . وقفاه به تقفية جعله يقفوه او يقفو أثره ، قال تعالى (وقفينا من بعده بالرسل) قال في الاساس : وقفيته وقفيت به وقفيته به على أثره اذا أتبعته اياه . وهو قفية آبائه وقفيّ أشياخه ، تلوهم اه اي يتلوهم ويسير على طريقتهم · وعيسى عليه السلام من انبياء بني اسرائيل وشريعته هي التوراة ، ولكن النصارى نسخوها وتركوا العمل بها اتباعا لبولس . على انهم ينقلون عنه في اناجيلهم انه ما جاء لينقض الناموس (اي شريعة التوراة) وانما جاء ليتمم ، اي ليزيد عليها ماشاء الله ان يزيد من الاحكام والآداب والمواعظ الروحية . ولذلك قال تعالى { وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التورة وهدى وموعظة للمتقين } اي اعطيناه الانجيل مشتملا على هدى من الضلال في العقائد والاعمال كالتوحيد النافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والاباطيل ، ونور يبصر به طالب الحق طريقه الموصل اليه من الدلائل والامثال ، والفضائل والآداب ، ومصدقا للتورة التي تقدمته ، اي مشتملا على النص بتصديق التوراة ، وهذا غير تصديق المسيح لها بقوله وعمله . وصفه بمثل ما وصف به التوراة ، وبكونه مصدقا لها . ثم زاد في وصفه عطفا على تلك الاحوال فجعله نفسه هدى من وجه آخر وموعظة للمتقين ، والمراد ما تفرد به من المسائل الروحية ، والمواعظ الادبية ، وزلزل ذلك الجمود الاسرائيلي المادي ، وزعزعة ذلك الغرور الذي كان الكتبة والفريسيون من اليهود مفتونين به . وخص هذا النوع بالمتقين لانهم هم الذين ينتفعون به اذ لا يفوتهم شيء من الكتاب لحرصهم عليه ، وعنايتهم به · والحكمة في هذا النوع من الهدى والموعظة فقه اسرار الشريعة ومعرفة حكمتها والمقصد منها ، والعلم بأن وراء تلك التوراة وهذا الانجيل هداية أتم وأكمل ، ودينا اعم واشمل ، وهو الذي يجيء به النبي الاخير (البارقليط) الاعظم ، ولولا زلزال الانجيل في جملته لذلك التقليد وزعزعته لذلك الغرور ، وانس الناس بما حفظ من تعاليمه عدة قرون ، لما انتشر الاسلام بين اهل الكتاب في سورية ومصر وبين النهرين تلك السرعة ·

{ وليحكم أهل الانجيل بما انزل الله فيه } قرأ الجمهور « وليحكم » بصيغة الامر ، وهو حكاية حذف منها لفظ القول - ومثله كثير في القرآن - أي وقلنا ليحكم أهل الانجيل

بما أنزله الله فيه من الاحكام ، أي امرناهم بالعمل »، فهو مثل قوله في أهل التوراة « وكتبنا عليهم فيها » كذا وكذا . وقرأ حمزة « وليحكم » بكسر اللام ، أي ولأجل ان يحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه . وجوزوا ان يكون قوله « وهدى وموعظة » مفعولا لأجله وعطف « وليحكم » عليه مع اظهار اللام لاختلاف الفاعل .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفسقون ﴾ أي فأولئك هم الخارجون من حظيرة الدين الذين لا يعدون منه في شيء ، أو الخارجون من الطاعة له، المتجاوزون لاحكامه وآدابه

ومن مباحث اللفظ في الآيات ان قوله « فأولئك هم » الخ راجع الى « من » بحسب معناها فانها من صيغ العموم . وأما فعل « يحكم » فهو راجع الى لفظها وهو مفرد . ومثل هذا كثير ، يراعى اللفظ في الاول لقربه ويراعى المعنى فيما بعده

﴿ بحث في عدم الحكم بما أنزل الله وكونه كفرا وظلما وفسقا ﴾

الكفر والظلم والفسق كلمات تتوارد في القرآن على حقيقة واحدة ، وترد بمعاني مختلفة ، كما بيناه في تفسير (والكافرون هم الظالمون) من سورة البقرة . وقد اصطلح علماء الاصول والفروع على التعبير بلفظ الكفر عن الخروج من الملة وما ينافي دين الله الحق ، دون لفظي الظلم والفسق . ولا يسع احدا منهم إنكار إطلاق القرآن لفظ الكفر على ماليس كفرا في عرفهم، ولكنهم يقولون « كفر دون كفر » ولا إطلاقه لفظي الظلم والفسق على ماهو كفر في عرفهم ، وما كل ظلم أوفسق يعد كفرا عندهم . بل لا يطلقون لفظ الكفر على شيء مما يسمونه ظلما او فسقا . لأجل هذا كان الحكم القاطع بالكفر على من لم يحكم بما انزل الله محلا للبحث والتأويل عند من يوفق بين عرفه ونصوص القرآن .

واذا رجعنا الى المأثور في تفسير الآيات نراهم نقلوا عن ابن عباس (رض) اقوالا منها قوله: كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق . ومنها أن الآيات الثلاث في اليهود خاصة ليس في أهل الاسلام منها شيء . وروي عن الشعبي ان الاولى والثانية في اليهود والثالثة في النصارى . وهذا هو الظاهر ، ولكنه لاينفي ان

ينال هذا الوعيد كل من كان مثلهم ، واعرض عن كتابه إعراضهم عن كتبهم ، والقرآن عبرة يعبر به العقل من فهم الشيء الى مثله . وقد ذكرت هذه الآيات عند حذيفة بن اليمان فقال رجل : ان هذا في بني اسرائيل قال حذيفة : نعم الاخوة لكم بنو اسرائيل ان كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة . كلا والله لتسلكن طريقهم قدر الشرك (أي سير النعل) عزاه في الدر المنثور الى عبد الرزق وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه . (قال) واخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : نعم القوم انتم ان كان ما كان من حلو فهو لكم وما كان من مر فهو لأهل الكتاب . كأنه يرى ان ذلك في المسلمين . واخرج عبد بن حميد عن حكيم بن جبير انه سأل سعيد بن جبير عن قوله تعالى « ومن لم يحكم . . . ومن لم يحكم . . . ومن لم يحكم . . . قال فقلت زعم قوم انها نزلت على بني اسرائيل ولم تنزل علينا . قال اقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال : لا بل نزلت علينا . ثم لقيت مقسما مولى ابن عباس فسألته عن هؤلاء الآيات التي في المائدة ، قلت زعم قوم انها نزلت على بني اسرائيل ولم تنزل علينا ، قال انه نزل على بني اسرائيل ونزل علينا ، وما نزل علينا وعليهم فهو لنا ولهم . ثم دخلت على علي بن الحسين فسألته ــ وذكر انه ذكر له ما قاله سعيد ومقسم ــ قال : قال صدق ولكنه كفر ليس ككفر الشرك وظلم ليس كظلم الشرك وفسق ليس كفسق الشرك . فلقيت سعيد بن جبير فأخبرته بما قال . فقال سعيد بن جبير لابنه كيف رأيته ؟ قال لقد وجدت له فضلا عظيما عليك وعلى مقسم . والمراد ان عدم الحكم بما انزل الله أو تركه الى غيره وهو المراد لا يعد كفرا بمعنى الخروج من الدين ، بل بمعنى اكبر المعاصي

وأقول ان قول من قال ان هذه الآيات أو خواتم الآيات نزلت على بني اسرائيل يراد به انها نزلت في شأنهم لا انها من كتابهم ، اذ لا شيء يدل على انها محكية ، وإلا فهو خطأ . والاوليان منها في سياق الكلام على اليهود والثالثة في سياق الكلام على النصارى لا يجوز فيها غير ذلك . وعبارتها عامة لا دليل فيها على الخصوصية . ولا مانع يمنع من إرادة الكفر الاكبر في الاولى ، ــ وكذا الاخريان ، اذا كان الاعراض عن الحكم بما أنزل الله ناشئا عن استقباحه وعدم الإذعان له

وتفضيل غيره عليه ، وهذا هو المتبادر من السياق في الاولى بمعونة سبب النزول كما رأيت في تصويرنا للمعنى .

واذا تأملت الآيات أدنى تأمل تظهر لك نكتة التعبير بوصف الكفر في الاولى و بوصف الظلم في الثانية و بوصف الفسوق في الثالثة ، فالالفاظ وردت بمعانيها في أصل اللغة موافقة لاصطلاح العلماء . ففي الآية الاولى كان الكلام في التشريع وانزل الكتاب مشتملا على الهدى والنور والتزام الانبياء وحكماء العلماء العمل والحكم به والوصية بحفظه . وختم الكلام ببيان ان كل معرض عن الحكم به لعدم الاذعان له ، رغبة عن هدايته ونوره ، مؤثرا لغيره عليه ، فهو الكافر به . وهذا واضح لايدخل فيه من لم يتفق له الحكم به أو من ترك الحكم به عن جهالة ثم تاب الى الله ، وهذا هو العاصي بترك الحكم الذي يتحامى أهل السنة القول بتكفيره ، والسياق يدل على ما ذكرنا من التعليل

وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام فيها في أصل الكتاب الذي هو ركن الايمان وترجمان الدين ، بل في عقاب المعتدين على الانفس أو الاعضاء بالعدل والمساواة ، فمن لم يحكم بذلك فهو الظالم في حكمه كما هو ظاهر . وأما الآية الثالثة فهي في بيان هداية الانجيل وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب في اقامة الشريعة على الوجه الذي يطابق مراد الشارع وحكمته لا بحسب ظواهر الالفاظ فقط ، فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا بها فهم الفاسقون بالمعصية ، والخروج من محيط تأديب الشريعة .

وقد استحدث كثير من المسلمين من الشرائع والاحكام نحو ما استحدث الذين من قبلهم . وتركوا بالحكم بها بعض ما انزل الله عليهم . فالذين يتركون ما انزل الله في كتابه من الاحكام من غير تأويل يعتقدون صحته فانه يصدق عليهم ما قاله الله تعالى في الآيات الثلاث او في بعضها ، كل بحسب حاله . فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة او القذف او الزنا غير مذعن له لاستقباحه إياه وتفضيل غيره من اوضاع البشر عليه فهو كافر قطعا . ومن لم يحكم به لعلة أخرى فهو ظالم ان كان في ذلك إضاعة الحق او ترك العدل والمساواة فيه ، والا فهو فاسق فقط ، اذ لفظ الفسق أعم هذه الالفاظ ، فكل كافر وكل ظالم فاسق ولا

عكس. وحكم الله العام المطلق الشامل لما ورد فيه النص ولغيره مما يعلم بالاجتهاد والاستدلال هو العدل، فحيثما وجد العدل فهناك حكم الله- كما قال أحد الاعلام-

ولكن متى وجد النص القطعي الثبوت والدلالة لايجوز العدول عنه الى غيره الا اذا عارضه نص آخر اقتضى ترجيحه عليه كنص رفع الحرج في باب الضرورات. وقد كان مولوي نور الدين مفتي بنجاب من الهند سأل شيخنا الاستاذ الامام رحمه الله تعالى عن أسئلة منها مسألة الحكم بالقوانين الانكليزية فحولها الي الاستاذ لأجيب عنها كما كان يفعل في أمثالها أحيانا. وهذا نص جوابي عن مسألة الحكم بالقوانين الانكليزية في الهند، وهو الفتوى الـ ٧٧ من فتاوى المجلد السابع من المنار

﴿ الحكم بالقوانين الانكليزية في الهند ﴾

(س ٧٧) ومنه: أيجوز للمسلم المستخدم عند الانكليز الحكم بالقوانين الانكليزية وفيها الحكم بغير ما أنزل الله

(ج) أن هذا السؤال يتضمن مسائل من أكبر مشكلات هذا العصر كحكم المؤلفين للقوانين وواضعيها لحكوماتهم وحكم الحاكمين بها والفرق بين دار الحرب ودار الاسلام فيها. وانا نرى كثيرين من المسلمين المتدينين يعتقدون أن قضاة المحاكم الاهلية الذين يحكمون بالقانون كفار أخذاً بظاهر قوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» ويستلزم الحكم بتكفير القاضي الحاكم بالقانون تكفير الامراء والسلاطين الواضعين للقوانين فانهم وان لم يكونوا ألفوها بمعارفهم فانها وضعت باذنهم وهم الذين يولون الحكام ليحكموا بها ويقول الحاكم من هؤلاء: أحكم باسم الامير فلان، لانني نائب عنه باذنه، ويطلقون على الامير لفظ (الشارع)

أما ظاهر الآية فلم يقل به أحد من أئمة الفقه المشهورين بل لم يقل به أحد قط فان ظاهرها يتناول من لم يحكم بما انزل الله مطلقا سواء حكم بغير ما أنزل الله تعالى أم لا. وهذا لايكفره أحد من المسلمين حتى الخوارج الذين يكفرون الفساق بالمعاصي ومنها الحكم بغير ما أنزل الله. واختلف أهل السنة في الآية فذهب بعضهم الى أنها خاصة باليهود وهو مارواه سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: انما أنزل الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون في اليهود خاصة: وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال الثلاث الآيات التي في المائدة

« ومن لم يحكم بما أنزل الله » الخ ليس في أهل الاسلام منها شيء هي في الكفار وذهب بعضهم الى أن الآية الأولى التي فيها الحكم بالكفر للمسلمين والثانية التي فيها الحكم بالظلم لليهود والثالثة التي فيها الحكم بالفسق للنصارى وهو ظاهر السياق . وذهب آخرون الى العموم فيها كلها ويؤيده قول حذيفة لمن قال إنها كلها في بني اسرائيل : نعم الاخوة لكم بنو إسرائيل ان كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة كلا والله لتسلكن سبيلهم قدّ الشراك : رواه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم وصححه . وأول هذا الفريق الآية بتأويلين

فذهب بعضهم الى أن الكفر هنا ورد بمعناه اللغوي للتغليظ لا معناه الشرعي الذي هو الخروج من الملة واستدلوا بما رواه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في السنن عن ابن عباس (رض) أنه قال في الكفر الواقع في احدى الآيات الثلاث : إنه ليس بالكفر الذي تذهبون اليه إنه ليس كفرا ينقل عن الملة ، كفر دون كفر .

وذهب بعضهم الى ان الكفر مشروط بشرط معروف من القواعد العامة وهو ان من لم يحكم بما أنزل الله منكرا له أو راغبا عنه لاعتقاده بأنه ظلم مع علمه بأنه حكم الله أو نحو ذلك مما لايجامع الايمان والاذعان . ولعمري أن الشبهة في الامراء الواضعين للقوانين أشد والجواب عنهم أعسر ، وهذا التأويل في حقهم لايظهر ،وان العقل ليعسر عليه ان يتصور أن مؤمنا مذعنا لدين الله يعتقد ان كتابه يفرض عليه حكما ثم هو يغيره باختياره ويستبدل به حكما آخر بارادته اعراضاعنه وتفضيلا لغيره عليه ويعتد مع ذلك بايمانه واسلامه . والظاهر ان الواجب على المسلمين في مثل هذه الحال مع مثل هذا الحاكم ان يلزموه بابطال ماوضعه مخالفا لحكم الله ولا يكتفوا بعدم مساعدته عليه ومشايعته فيه فان لم يقدروا فالدار لاتعتبر دار اسلام فيما يظهر ، وللاحكام فيها حكم آخر ، وههنا يجيء سؤال السائل . وقبل الجواب عنه لا بد من ذكر مسألة يشتبه الصواب فيها على كثير من المسلمين وهي

اذا غلب العدوّ على بعض بلاد المسلمين وامتنعت عليهم الهجرة فهل الصواب ان يتركوا له جميع الاحكام ولايتولوا له عملا أم لا ؟ يظن بعض الناس ان العمل للكافر لايحل بحال والظاهر لنا ان المسلم الذي يعتقد انه لا ينبغي ان يحكم المسلم إلا المسلم، وان جميع الاحكام يجب ان تكون موافقة لشريعته وقائمة على أصولها العادلة ينبغي له أن يسعى في كل مكان باقامة مايستطيع اقامته من هذه الاحكام، وان يحول دون تحكم غير المسلمين بالمسلمين بقدر الامكان . وبهذا القصد يجوز له أو يجب عليه

ان يقبل العمل في دار الحرب الا اذا علم أن عمله يضر المسلمين ولا ينفعهم، بل يكون نفعه محصورا في غيرهم ، ومعينا للمتغلب على الاجهاز عليهم واذا هو تولى لهم العمل وكاف الحكم بقوانينهم فماذا يفعل وهو مأمور بأن يحكم بما أنزل الله ؟

أقول ان الاحكام المنزلة من الله تعالى منها ما يتعلق بالدين نفسه كأحكام العبادات وما في معناها كالنكاح والطلاق وهي لاتحل مخالفتها بحال ، ومنها ما يتعلق بأمر الدنيا كالعقوبات والحدود والمعاملات المدنية والمنزل من الله تعالى في هذه قليل وأكثرها موكول الى الاجتهاد . وأهم المنزل وآكده الحدود في العقوبات ، وسائر العقوبات تعزير مفوض الى اجتهاد الحاكم ، والربا في الاحكام المدنية . وقد ورد في السنة النهي عن اقامة الحدود في ارض العدو ، وأجاز بعض الائمة الربا فيها بل مذهب أبي حنيفة أن جميع العقود الفاسدة جائزة في دار الحرب واستدل له بمناحبة (مراهنة) أبي بكر (رض) لأبيّ ابن خلف على ان الروم يغلبون الفرس في بضع سنين وإجازة النبي (ص) ذلك ، وصرحوا بعدم اقامة الحدود فيها ، روي ذلك عن عمرو أبي الدرداء وحذيفة وغيرهم وبه قال أبو حنيفة . قال في أعلام الموقعين : «وقد نص أحمد واسحق بن راهويه والاوزاعي وغيرهم من علماء الاسلام على ان الحدود لا تقام في أرض العدو ، وذكرها أبو القاسم الخرقي في مختصره فقال لايقام الحد على مسلم في أرض العدو . وقد أتي بسر بن أرطاة برجل من الغزاة قد سرق مجنة فقال لولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا تقطع الايدي في الغزو لقطعتك » : رواه أبو داود وقال أبو محمد المقدسي وهو اجماع الصحابة . روى سعيد بن منصور في سننه باسناده عن الاحوص بن حكيم عن أبيه ان عمر كتب الى الناس ان لا يجلدوا أمير جيش ولا سرية ولا رجلا من المسلمين حدا وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلا لئلا تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار . وعن أبي الدرداء مثل ذلك » ثم ذكر ترك سعد إقامة حد السكر على أبي محجن في وقعة القادسية وذكر أنه قد يحتج به من يقول لاحد على مسلم في دار الحرب كما يقول أبو حنيفة ، ولكنه علله تعليلا آخر ليس هذا محل ذكره . وانظر تعليل عمر تجده يصح في بلاد الحرب

فعلم مما تقدم أن الاحكام القضائية التي أنزلها الله تعالى قليلة جدا وقد علمت ما قيل في اقامتها في دار الحرب لا سيما عند الحنفية . فاذا كانت الحدود لاتقام هناك فقد عادت أحكام العقوبات كلها الى التعزير الذي يفوض الى اجتهاد الحاكم . والاحكام المدنية أولى بذلك لأنها اجتهادية أيضا ، والنصوص القطعية فيها عن الشارع قليلة جدا . واذا رجعت

الاحكام هناك الى الرأي والاجتهاد في تحري العدل والمصلحة وأجزنا للمسلم ان يكون حاكما عند الحربي في بلاده لاجل مصلحة المسلمين فالذي يظهر أنه لا بأس من الحكم بقانونه لاجل منفعة المسلمين ومصلحتهم. فان كان ذلك القانون ضارا بالمسلمين ظالما لهم فليس له ان يحكم به ولا أن يتولى العمل لواضعه إعانة له

وجملة القول أن دار الحرب ليست محلا لاقامة احكام الاسلام، ولذلك تجب الهجرة منها الا لعذر أو مصلحة للمسلمين، يؤمن معها من الفتنة في الدين. وعلى من أقام ان يخدم المسلمين بقدر طاقته، و يقوي أحكام الاسلام بقدر استطاعته، ولا وسيلة لتقوية نفوذ الاسلام وحفظ مصلحة المسلمين مثل تقلد أعمال الحكومة، ولا سيما اذا كانت الحكومة متساهلة قريبة من العدل بين جميع الامم والملل كالحكومة الانكليزية. والمعروف أن قوانين هذه الدولة أقرب الى الشريعة الاسلامية من غيرها، لانها تفوض أكثر الامور الى اجتهاد القضاة، فمن كان أهلا للقضاء في الاسلام وتولى القضاء في الهند بصحة قصد وحسن نية يتيسر له ان يخدم المسلمين خدمة جليلة. وظاهر ان ترك أمثاله من أهل العلم والغيرة للقضاء وغيره من أعمال الحكومة تأثما من العمل بقوانينها يضيع على المسلمين معظم مصالحهم في دينهم ودنياهم. وما نكب المسلمون في الهند ونحوها وتأخروا عن الوثنيين الا بسبب الحرمان من أعمال الحكومة. ولنا العبرة في ذلك بما يجري عليه الاوربيون في بلاد المسلمين، اذ يتوسلون بكل وسيلة الى تقلد الاحكام، ومتى تقلدوها حافظوا على مصالح أبناء ملتهم وجنسهم، حتى كان من أمرهم في بعض البلاد ان صاروا أصحاب السيادة الحقيقية فيها، وصار حكامها الاولون آلات في أيديهم

والظاهر مع هذا كله ان قبول المسلم للعمل في الحكومة الانكليزية في الهند (ومثلها ماهو في معناها) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل في قاعدة ارتكاب أخف الضررين، ان لم يكن عزيمة يقصد بها تأييد الاسلام وحفظ مصلحة المسلمين. ذلك ان تعده من باب الضرورة التي تنفذ بها حكم الامام الذي فقد أكثر شروط الامامة، والقاضي الذي فقد أهم شروط القضاء، ونحو ذلك. فجميع حكام المسلمين في أرض الاسلام اليوم حكام ضرورة. وعلم مما تقدم ان من تقلد العمل للحربي لاجل ان يعيش براتبه فهو ليس من أهل هذه الرخصة، فضلا عن ان يكون من أصحاب العزيمة. والله أعلم

{ تنبيه } دار الحرب بلاد غير المسلمين وان لم يحاربوا. وكانت القاعدة ان كل من لم تعاهده على السلم يعد محاربا

استفتاء في فسخ نكاح المعسر

ماقولكم في امرأة فقيرة غاب عنها زوجها من مدة سنين وترك عندها ولدا ولم يترك لها شيئا لنفقتها ونفقة ولده ولم يرسل لهما سوى شيء يسير لايقوم بنفقة الولد وكتبت له عدة كتب طلبت منه النفقة الكاملة لها ولولدها اوالطلاق فتعنت ولم يجوب عليها (?) ثم التمست من شيخه شيخ الجاوى فكتب له ولم (يجب) فهل لها طلب فسخ النكاح عند الحاكم الشافعي ام لا ؟ وهل لو رفعت أمرها اليه وتحقق وثبت عنده جميع مادعته المرأة بالبينة الكاملة وفسخ نكاحها يكون فسخه واقعا موقعه ولها بعد تمام العدة من الفسخ المذكور التزوج أم لا ؟ أفتونا مأجورين

جواب مفتي الشافعية بمكة المكرمة

باسمه سبحانه وتعالى أبتدئ الجواب ، واستمد منه تعالى العون والهداية لصواب في الحقيقة يقع كثير من بعض الرجال الظلم والتعدي والايذاء في حق النساء البائسات ، وذلك حرام وفاعله آثم مخالف لما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في حقهن ، ومن ذلك التزوج بهن ثم السفر وتركهن بلا نفقة ولامنفق ، فجزى الله امامنا الشافعي رضي الله عنه خيرا حيث سوغ لهن فسخ النكاح عند تضررهن. ويسوغ للحاكم متى رفعن أمرهن اليه ان يفسخ نكاحهن، ثم بعد تمام العدة يتزوجن بمن شئن. وكذلك أمام دارالهجرة الأمام مالك رضي الله عنه . فالمرأة المسئول عنها متى رفعت أمرها الى الحاكم وثبت لديه تضررها ودعواها فله حينئذ فسخ نكاحها من الزوج المذكور وفسخه سائغ وواقع موقعه ، ولها بعد تمام عدة الفسخ المذكور التزوج بمن يقوم بشأنها . قال في الأسنى متنا وشرحا : واختار القاضي الطبري وابن الصباغ وغيرهما جواز الفسخ لها اذا تعذر تحصيلها للنفقة في غيبته للضرورة ، وقال الروياني وابن اخته صاحب العدة أن المصلحة الفتوى به . وقال في فتح المعين : واختار جمع كثيرون من محققي المتأخرين في غائب تعذر تحصيل النفقة منه الفسخ ، وقواه ابن الصلاح . وقال في فتاويه: اذا تعذرت النفقة لعدم مال حاضر مع عدم امكانها اخذها منه حيث هو بكتاب حكمي وغيره لكونه لم يعرف موضعه او عرف ولكن تعذرت مطالبته عرف حاله في اليسار والاعسار أم لم يعرف فلها الفسخ بالحاكم والافتاء بالفسخ هو الصحيح اه ونقل شيخنا كلامه في الشرح الكبير ، وقال في آخره وأفتى بما

قاله جمع من متأخري اليمن . وقال المحقق الطنبداوي في فتاويه : والذي نختاره تبعا للأئمة المحققين أنه ان لم يكن له مال كما سبق لها الفسخ وإنه كان ظاهر المذهب خلافه لقوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج) ولقوله (ص) « بعثت بالحنيفية السمحة » ولان مدار الفسخ على الاضرار ولاشك أن الضرر موجود فيها اذا لم يمكن الحصول الى النفقة منه وإن كان موسرا اذ سر الفسخ هو تضرر المرأة وهو موجود لاسيما مع اعسارها فيكون تعذر وصولها الى النفقة حكمه حكم الاعسار اه

وقال السيد عبد الله بن عمر الحضرمي أنه يجوز فسخ النكاح من زوجها حضر أوغاب بتسعة شروط الى ان قال : ولوغاب الزوج وجهل يساره وإعساره بانقطاع خبره ولم يكن له مال بمرحلتين فلها الفسخ بشرطه كما جزم به في النهاية وزكريا والمزجد والسنباطي وابن زياد وابن قاسم والكروي وكثيرون . وقال ابن حجر في التحفة والفسخ وهو متجه مدركا لا نقلا اه بل اختار كثيرون وافتى به بن عجيل وابن الصباغ والروياني انه لو تعذر تحصيل النفقة من الزوج في ثلاثة ايام جاز لها الفسخ حضر الزوج أم غاب ،وقراه ابن الصلاح ورجحه ابن زياد والطنبداوي والمزجد وصاحب المهذب والكافي وغيرهم فيما اذا غاب وتعذرت النفقة منه ولو بنحو شكاية . قال ابن قاسم وهذا أولى من غيبة ماله وحده والمجوز للفسخ . أما الفسخ بتضررها بطول الغيبة وشهوة الوقاع فلايجوز اتفاقا وأن خافت الزنا والله سبحانه وتعالى أعلم

امر برقمه مفتي الشافعية بمكة المحمية الراجي غفران المساوي

عبد الله ابن السيد محمد   صالح الزواوي

كان الله لهما آمين

الختم

صورة ما كتبه بعض كبار علماء الشافعية بالازهر على هذه الفتوى

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

أفاد العلامة السيد مصطفى الذهبي في المسائل الفقهية أن أصل مذهب الامام الشافعي أنه لافسخ مادام الزوج موسرا ؛أي لم يعلم اعساره وان انقطع خبره وتعذر استيفاء النفقة منه، وأن الذي جرى عليه ابن الصلاح وشيخ الاسلام وكثير من المحققين انه اذا تعذر استيفاء النفقة منه من كل الوجوه لانقطاع خبره او تعززه أي تواريه بحيث لايتمكن الحاكم من جبره ، ولم يوجد لكل منهما مال فسخت الزوجة بالحاكم ، قالوا لأن سر الفسخ بالاعسار هو التضرر ، والتضرر موجود هنا ولو مع

اليسار ، فلا نظر لعدم تحقق الاعسار . وظاهر انه لا إمهال هنا لأن سبب الفسخ كما علمت هو محض الضرر من غير نظر لليسار والاعسار انتهى وان اردت بسط في المقام فراجع المسائل المذكورة صحيفة ٦٧ و٦٨ والله أعلم

كتبه كتبه كتبه

محمد النجدي سليمان العبد بالأزهر الشريف محمد ابراهيم القاياتي الشافعي

(المنار) ان ماعلل به أولئك الفقهاء جواز الفسخ صحيح وان رفع الحرج ونفي الضرر والضرار قطعي في الشريعة . ومن أشد الضرر والحرج والعنت عدم القيام بحق الزوجية الثابت بحديث « وان لزوجك عليك حقا » المتفق عليه . فلا عبرة بقول من قال انه لا يفسخ به وان خافت الزنا على نفسها . لانه مخالف لأدلة الشرع القطعية . وقد سبق لنا في المنار بيان فتوى المشيخة الاسلامية في الاستانة بالفسخ على الغائب والمعسر ، وصدور الارادة السنية بذلك

﴿ محاضرة الدكتور كريستيان سنوك هرغرنج الهولندي ﴾

(في الاسلام ومستقبل المسلمين)

وعدنا أن نعلق شيئاً على هذه المحاضرة التي نشرناها في الجزء الماضي ووفاء بالوعد نقول

(١) يظهر من كلام الدكتور انه اختبر المسلمين اختباراً واسماً قلما يصل الى مثل غوره الاجنبي ، فهو قد اصاب في اكثر ما ذكره عنهم من رأي وخبر ، ولكنه ما عرف حقيقة الاسلام وكنهه ، وأنى له ان يعرف ذلك ومن اين يعرفه ؟ يقول انه درس الاسلام وعرف أصوله وفروعه من مكة المكرمة حيث أقام ثمانية اشهر يتلقى عن بعض العلماء ! سبحان الله ! إن اهل مكة اقل اهل الامصار الاسلامية عناية بالعلم الديني وغيره ، ومن يوجد فيها من المدرسين الغرباء ، فقلما يوجد فيهم أحد من المبرزين الاقوياء ، وان وجد فيهم من يتقن بعض العلوم الشرعية ، فهو لا يقرأ الدروس الا على طريقة متأخري المسلمين العقيمة ، طريقة المناقشة في عبارات بعض كتب المذاهب . فالثمانية الاشهر لا تكفيه لقراءة عقيدة كالنسفية او السنوسية ، ونحوهما من كتب الكلام على مذهب الاشعرية ، ولا لقراءة باب الطهارة والصلاة من متوسطات كتب الشافعية أو الحنفية . وعلم الكلام الذي هو علم فلسفة العقائد الاسلامية يقول فيه الامام الغزالي انه ليس من علوم الدين وانما هو حارس

للعقيدة كالعسكر الذين يحرسون البلاد او الحجاج مثلا . بل نقول انا على سعة اختبارنا للعالم الاسلامي لا نعرف مكانا في الارض تبين فيه حقيقة الاسلام التي بيّنها القرآن وسنة الرسول المتبعة وسيرة السلف الصالح ، من العقائد والاخلاق والآداب ، والسياسة والادارة والقضاء ، تبيانا سالما من الشوائب والاوهام ، بحيث تتلقى بسهولة في ثمانية اشهر أو اعوام (وارجو ان يوفق لهذا من يتخرجون في مدرسة دار الدعوة والارشاد) .

(٢) اعترف هذا الدكتور الهولندي بأنه ادعى الاسلام نفاقا اوخداعا للمسلمين ليسبر غورهم وغور دينهم من حيث تأثيره في حياتهم المدنية والسياسية . وقد فعل مثل هذا غيره من أفراد الشعوب الاوربية اصحاب المستعمرات الاسلامية ، كالفرنسيس والروس والانكليز . ولو كان للمسلمين حكومات منظمة ، وجمعيات اصلاحية عامة ، لما تيسر لهؤلاء الجواسيس ما يتيسر لهم وأمر المسلمين فوضى . واننا نرى هؤلاء المستعمرين يراقبون كل غريب يدخل مستعمراتهم ولا سيما اذا كان مسلما . فلا يفوتهم من حركاته ولا اقواله شيء .

(٣) بين الدكتور ان الاسلام الديني ، كان قائما على اساس الاسلام السياسي ، وان المسلمين كانوا واثقين بدينهم راضين به اذ كانوا احرارًا يرون ان العالم كله ملك لهم بالفعل او بالقوة ، عليهم ان يفتحوا منه ما لم يفتحوه . وهذا الذي ذكره عن المسلمين هو الذي عليه الافرنج الآن ، فهم يرون ان العالم كله ملك لهم ، ولذلك يتفقون فيما بينهم على اقتسام الممالك المستقلة ثم ينفذون ذلك . ولا مجال هنا للبحث في تفصيل هذا وبيان مآخذه . ولكننا ننبه عقلاء القراء الى الاعتبار بحالهم السابقة وحال الاوربيين الحاضرة ، ثم العبرة كل العبرة فيما رتبه هذا السياسي الكبير على هذا وهو .

(٤) بين ان الاوربيين قد سلبوا المسلمين ذلك الاستقلال والحرية بالتدريج ، فاضطر المسلمون الى تعديل افكارهم في الاسلام الديني ، بعد زوال الاساس الذي بني عليه وهو الاستقلال السياسي . ثم نقل ان بعض الساسة الاوربيين يرون ان سقوط الاسلام الديني يتبع سقوطه السياسي ، فيزول الاسلام من الارض ، وانه يخالفهم في ذلك ، ويرى ان الاسلام الديني لا يزول كما أنه لا يبقى كما كان في عهد استقلاله والثقة به ، وسنذكر ملخص رأيه فيه . والعبر لمن يعقل من المسلمين في هذا كثيرة ، ومن اهمها غرور المفتونين من المسلمين الذين يظنون أنهم يحفظون

استقلالهم السياسي او يؤسسون لهم استقلالا جديدا مع ترك الدين ، فان هذا اذا جاز في غير الاسلام لا يجوز فيه ، لان جميع المقومات للامة جماعها الاسلام اسلامية

(٥) كما بين إزالة أوربة لاستقلال الاسلام السياسي بالاستيلاء على ممالكه الواسعة ، بين تصرفها في إزالة استقلال افراد المسلمين في انفسهم، بما بثه من تغلغل الآراء الاوربية في افكارهم ، وزلزلتها لكثير من مقوماتهم ومشخصاتهم الملية التي يمتازون بها عن غيرهم ، وبها كانوا أمة واحدة ، وبين ان ازالة بعض المميزات العادية كاللباس ، له دخل في ازالة المميزات الدينية كالصلاة ، فقال ان اداء الصلوات الخمس صار متعذرا على المتفرنجين ، الذين يلبسون الزي الافرنجي (قال) وسيتبعه الصيام . فجزم بأنهم يتركونه ، وبأن الشرائع التي كانت مقدسة عامة ستكون خاصة بحجاج مكة والمتصوفة !

وطالما نبهنا المسلمين على ضرر هذا الانسلاخ من العادات والاخلاق بتقليد الافرنج . وقد فطنا لهذه المسألة في اثناء اشتغالنا بطلب العلم بطرابلس الشام، فكتبنا في بحث الزي واللباس فصلا طويلا بينا فيه أنه ليس للاسلام زي ديني خاص ، وان ضرر تغيير الزي سياسي اجتماعي ، وانما يمس الدين ويكون محرما شرعا لاسباب عارضة ككونه ضيقا يمنع من اداء الصلاة . ولكن جماهير المسلمين لا يزالون بمعزل عن فهم امثال هذه التنبيهات والنصائح ، حتى انه ليسخر بها من يعدون انفسهم من الفلاسفة والسياسيين ، وانما هم من السفهاء المفتونين .

(٦) ذكر من اثر سلطان الاسلام في اهله ان الآراء الاوربية على شدة تغلغلها في انفس المسلمين وتحويلها لعاداتهم وافكارهم ، وتغييرها لشؤون حياتهم ، لم تقو على محو الشعور الديني من قلوبهم ، حتى انه كان يعرف تلاميذه المسلمين من غيرهم ، بمجرد قراءته لمنشآتهم ، لان روح الاسلام لا بد ان تجلى في عبارتها

(٧) يعلل الدكتور بهذا وغيره ما رآه ورواه من خذلان دعاة النصرانية (المبشرين) فيما يحاولون من تنصير المسلمين ، ويجزم بأن التغيير الذي ادخلته اوربة على الاسلام لا ينتهي بتنصير المسلمين، لأنهم يعرفون النصرانية ويعتقدون انها فسدت وان الاسلام أرقى منها . وهذا القول الذي قاله صحيح وان كان يجهله من لم يكن له مثل علمه واختباره . فنحن نعتقد ان أصل النصرانية صحيح ، وانه طرأ عليها التبديل والتغيير، وان الله أكمل دينه بالاسلام، على سنته في النشوء وترقي الاجتماع في الاقوام.

(٨) رأي الدكتور في مستقبل المسلمين الذي أطال في بيانه هو انهم يكونون

مثل اليهود في زوال الملك والرضا بحكم الاوربيين وسيادتهم ، مع المحافظة على شعور دينهم وبعض تقاليده مثلهم ، ومجاراة الافرنج في سائر الشؤون وان كان فيها ترك احكام الاسلام وآدابه . واستدل على ذلك بتحول افكار المسلمين عن الرضاء بالتربية الدينية القديمة الى لغات الاوربيين وعلومهم وتربيتهم .

(٩) يرى هذا الدكتور الهولندي ما يراه الفرنسيون وغيرهم ان ما يراد ادخاله على الاسلام من الآراء والافكار التي يريدها دعاة النصرانية يجب ان يبث في المسلمين باسم المدنية لا باسم الدين، فحينئذ تقبل . وهذا ما تجري عليه فرنسة في مستعمراتها الاسلامية • يعني ان المسلمين قد فتنوا باسم المدنية الاوربية ومظاهرها فهم يقبلون من بابها كل شيء ، - وأن لم يوصل اليها - لا يميزون بين كفر وايمان ، ولا بين ضار ونافع. واما ثقتهم بدينهم ورؤيتهم دين النصرانية دونه فهما مما يحول دون قبولهم لشيء ما من دعاة النصرانية باسم النصرانية .

(١٠) ملخص المحاضرة أن اوربة ازالت استقلال الاسلام السياسي وانتزعت ملك المسلمين من ايديهم بالتدريج ، وأنها شرعت في ازالة سائر مقوماتهم ومشخصاتهم القومية التي كانوا بها أمة واحدة ، دينية وغير دينية ، حتى اللغات والعادات واركان الدين — وان اهل الرأي فيها يختلفون في دين الاسلام نفسه هل يمكن ازالته من الارض بعد اسقاط الحكومات الاسلامية كلها ام لا . فبعضهم يرون امكان ذلك فيبذلون الملايين لدعاة النصرانية لتنصير المسلمين • وبعضهم يرى ان الاسلام لا يزول بالمرة ، ولكن ينبغي ان تزال ثقة المسلمين به ، وأن يحولوا باسم المدنية عن جميع ما يربط بعضهم ببعض حتى اللباس، فبهذا يكونون فعلة وزراعا للسادة المالكين لبلادهم ، اذ لا يستغنون عنهم في استخراج خيرات الارض • وهذا ما يسعى اليه قوم آخرون .

ومن العجائب ان محاضرة كهذه تترجمها جريدة سورية بالعربية ، وتجعل عنوانها (مقاومة الاسلام لنفوذ النصرانية !!) كانه كبر عليها قول الخطيب ان المبشرين لا يستطيعون تنصير المسلمين ، فعدت هذا من مقاومة الاسلام للنصرانية ، وهكذا تقول بعض الجرائد القبطية هنا اذا قابل بعض المسلمين طعن المبشرين بجزء من الف جزء • فمتى يفهم المسلمون ومتى يعقلون ؟

(١١) نحن نسلم قول الكاتب وفاقا لكثير من احرار الأفرنج : ان أوربة قد ازالت استقلال الاسلام السياسي، ولا يصدنا عن هذا التسليم ابقاء او بقاء خيال من الاستقلال ضعيف في بعض البلاد ، يدير بعضه النفوذ الاوربي ظاهرا وباطنا او

باطنا فقط ، ولا وجود بعض الامارات الصغيرة غير المنظمة التي يدور حولها النفوذ الاوربي ولا يجد له الآن منفذا للدخول في احشائها كقلب جزيرة العرب . ولو كان عدد العقلاء الذين يفهمون هذه الحقيقة ولا يغترون بخيال الاستقلال الرسمي او ظلاله مثلنا كثيرا ، لكان نهوض الاسلام من سقوطه السياسي والديني قريبا ، ولكن جمهور المسلمين الاكبر كالاطفال الذين يظنون ان الصور المتحركة التي يرونها في الملاعب تمثل الملوك والجيوش والوقائع هي من الاحياء التي تتحرك وتعمل بارادتها .

ولو عرف الدكتور الحاذق انبه حقيقة الاسلام كما عرف احوال المسلمين الاجتماعية ، ولو دقق نظره بعد ذلك في شؤون المسلمين فضل تدقيق ، وقاس حاضرهم الذي عرفه بماضيهم القريب المظلم ، وماضيهم البعيد المشرق ، – لعلم ان في الاسلام قوة كامنة لم يكن لليهود مثلها ولا ما يقرب منها عند ما زال ملكهم ، ولا قبل ذلك ولا بعده . ولعلم ان هذه القوة لو وجدت من يحسن استخدامها والانتفاع بها لامكنه ان يملك بها الشرق كله ، او يكون سيده الاول ، ولكن من سوء حظ الشرق انه لم يوجد في هذه القرون الاخيرة عقل نير ادرك هذا بقوة اشمته ولا همة عالية ارادت ان تتصدى له ، الا عقل نابليون الكبير وهمته ولكن حالت الاقدار بينه وبينه .

ولو عقل الدكتور السياسي هذا وخبره لاقنع دولته بأن تكون هي الدولة التي تسود الشرق بالمسلمين ، ولو اقنعها لامكنها ذلك وان كان مسلمو بلادها اضعف من غيرهم في قوتي العلم والعمل ، وفي الجد التالد والطارف . أما لو فطنت لمثل هذا العمل فرنسة أو انكلترة لكانت كل منهما اقدر عليه من غيرها .

فاذا ظلت هذه الدول التي تملك عشرات الملايين من المسلمين ، محجوبة عن هذه الحقيقة بما ضربه التاريخ دونها من حجب السياسة والدين ، فليس من البعيدان تفطن له دولة اليابان ، ان صح مايظنه الاوربيون من انهم قطعوا طرق الحياة كلها على هذه البقايا من دول الاسلام

واما الاسلام الديني فهو لا يزداد الا قوة وجدة مهما حل بالاسلام السياسي ، وقد حفظ الدكتور منه شيئا وغاب عنه اشياء . فان كان بعض المتفرنجين قد تركوا الصلاة والصيام ، ويظن هو كما يظنون ان الجماهير ستتبعونهم في هذا الضلال ، افتتانا بزخرف الشهوات المدنية ، وما تعبث بعقولهم الآراء الاوربية ، فليعلم ان عدد المصلين يزيد ولا ينقص ، وان هؤلاء المتفرنجين المفتونين سيرجع بعضهم الى الهدى ، وينبذ المسلمون البعض الآخر نبذ النوى ، وأن الاسلام دين المستقبل « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق . أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » ؟؟

الباطنية وغلاة المتصوفة

(بدعهم وتأويلاتهم من فصول كتاب الاعتصام للامام الشاطبي)

فصل

(ومنها) بناء طائفة منهم الظواهر الشرعية على تأويلات لا تعقل - يدعون فيها انها هي المقصود والمراد ، لا ما يفهم العربي - مسندة عندهم الى اصل لا يعقل . وذلك انهم - فيما ذكر العلماء - قوم ارادوا إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً ، وإلقاء ذلك فيما بين الناس لينحل الدين في ايديهم ، فلم يمكنهم إلقاء ذلك صراحاً ، فيرد ذلك في وجوههم ، وتمتد اليهم ايدي الحكام - فصرفوا اعناقهم الى التحال على ما قصدوا بانواع من الحيل ، من جملتها صرف الهم من الظواهر إحالة على أن لها بواطن هي المقصودة ، وان الظواهر غير مرادة . فقالوا : كل ما ورد في الشرع من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والامور الإلهية ، فهي امثلة ورموز الى بواطن.

*
* *

فمما زعموا في الشرعيات ان الجنابة مبادرة الداعي للمستجيب بافشاء سرّ اليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك . ومعنى مجامعة البهيمة مفاتحة من لا عهد له ولم يؤد شيئاً من صدقة النجوى - وهي مائة وتسعة عشر درهما عندهم - قالوا : فلذلك اوجب الشرع القتل على الفاعل والمفعول به ، والا فالبهيمة متى يجب القتل عليها ؟

والاحتلام ان يسبق لسانه الى افشاء السر في غير محله، فعليه الغسل، أي تجديد المعاهدة . والطهر هو التبري من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الامام . والتيمم الاخذ من المأذون الى أن يسعد بمشاهدة الداعي والامام . والصيام هو الامساك عن كشف السر .

ولهم من هذا الافك كثير في الامور الالهية ، وامور التكليف ، وامور الآخرة ، وكله حوم على ابطال الشريعة جملة وتفصيلاً ، اذ هم ثنوية ودهرية وإباحية ، منكرون للنبوة والشرائع والحشر والنشر والجنة والنار والملائكة، ـ بل هم منكرون للربوبية . وهم المسمون بالباطنية .[1]

وربما تمسكوا بالحروف والاعداد بان الثقب في رأس الآدمي سبع، والكواكب السيارة سبع ، وايام الاسبوع سبع ، فهذا يدل على أن دور الأئمة سبعة ، وبه يتم . وان الطبائع اربع ، وفصول السنة اربع ، فدل على أن اصول الاربعة هي السابق والتالي الإلهان ـ عندهم ـ والناطق والاساس . ـ وهما الامامان ـ . والبروج اثنا عشر ، يدل على أن الحجج اثنا عشر ، وهم الدعاة ، الى انواع من هذا القبيل . وجميعها ليس فيه ما يقابل بالرد ، لأن كل طائفة من المبتدعة سوى هؤلاء ، ربما يتمسكون بشبهة تحتاج الى النظر فيها معهم . أما هؤلاء فقد خلعوا في الهذيان الربقة ، وصاروا عرضة للّمز ، وضحكة للعالمين . وانما ينسبون هذه الاباطيل الى الامام المعصوم الذي زعموه ، وابطال الأئمة معلوم في كتب المتكلمين .

(١) انقسمت الباطنية الى عدة فرق يجمعهم القول بجعل ظواهر النصوص غير مرادة ، والذهاب في تأويلها مذاهب من التحكم لا تتفق مع اللغة في مجاز ولا كناية . والقول بامام معصوم ، وقد يسمونه باسم آخر ، ويجعلونه بعد ذلك إلهاً . وآخر فرقهم البابية البهائية

ولكن لا بد من نكتة مختصرة في الردّ عليهم .

فلا يخلو ان يكون ذلك عندهم ما من جهة دعوى بالضرورة وهو محال، لأن الضروري هو ما يشترك فيه العقلاء علما وادراكا، وهذا ليس كذلك.

واما من جهة الامام المعصوم بسماعهم منه لتلك التأويلات. فنقول لمن زعم ذلك: ما الذي دعاك الى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم سوى المعجزة؟ وليس لامامك معجزة ، فالقرآن يدل على أن المراد ظاهره ، لاما زعمت. فان قال : ظاهر القرآن رموز الى بواطن فهمها الامام المعصوم ولم يفهمها الناس فتعلمناها منه . قيل لهم : من أي جهة تعلمتموها منه ؟ أبمشاهدة قلبه بالعين ؟ أو بسماع منه ؟ ولا بد من الاستناد الى السماع بالاذن . فيقال : فلعل لفظه ظاهر له باطن لم تفهمه ، ولم يطلعك عليه ، فلا يوثق بما فهمت من ظاهر لفظه . فان قال : صرح بالمعنى. وقال : ما ذكرته ظاهر لا رمز فيه، او : والمراد ظاهره . قيل له : وبماذا عرفت قوله انه ظاهر لا رمز فيه، بل انه كما قال ؟ اذ يمكن أن يكون له باطن لم تفهمه ايضاً ، حتى لو حلف بالطلاق الظاهر انه لم يقصد الا الظاهر ، لاحتمل أن يكون في طلاقه رمز هو باطنه وليس مقتضى الظاهر . فان قال : ذلك يؤدي الى حسم باب التفهيم . قيل له : فانتم حسمتموه بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فان القرآن دائر على تقرير الوحدانية ، والجنة، والنار ، والحشر ، والنشر ، والانبياء، والوحي، والملائكة ، مؤكداً ذلك كله بالقسم . وانتم تقولون : ان ظاهره غير مراد وان تحته رمزا . فان جاز ذلك عندكم بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم لمصلحة وسرّ له في الرمز، جاز بالنسبة الى معصومكم أن يظهر لكم خلاف ما يضمره لمصلحة وسرّ له فيه، وهذا لا محيص لهم عنه .

* *

قال ابو حامد الغزالي رحمه الله : ينبغي ان يعرف الانسان ان رتبة هذه الفرقة هي اخس من رتبة كل فرقة من فرق الضلال ، اذ لا تجد فرقة تنقض مذهبها بنفس المذهب سوى هذه التي هي الباطنية . اذ مذهبها إبطال النظر ، وتغيير الالفاظ عن موضوعها بدعوى الرمز . وكل ما يتصور ان تنطق به السنتهم فاما نظر أو نقل . أما النظر فقد ابطلوه . وأما النقل فقد جوزوا أن يراد باللفظ غير موضوعه . فلا يبقى لهم معتصم . والتوفيق بيد الله .

* * *

وذكر ابن العربي في العواصم مأخذاً آخر في الرد عليهم اسهل من هذا - وقال انهم لا قبل لهم به - وهو أن يسلط عليهم في كل ما يدعونه السؤال «بكم» خاصة ، فكل من وجهت عليه منهم سقط في يده . وحكى في ذلك حكاية ظريفة يحسن موقعها هاهنا . وتصور المذهب كاف في ظهور بطلانه ، الا أنه مع ظهور فساده وبعده عن الشرع قد اعتمده طوائف وبنوا عليه بدعا فاحشة (منها) مذهب المهدي المغربي . فانه عد نفسه الامام المنتظر ، وانه معصوم حتى ان من شك في عصمته أو في أنه المهدي المنتظر فهو كافر .

وقد زعم ذووه انه ألف في الامامة كتاباً ذكر فيه أن الله استخلف آدم ونوحا وابراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم السلام، وان مدة الخلافة ثلاثون سنة ، وبعد ذلك فرق واهواء وشح مطاع، وهوى متبع ، واعجاب كل ذي رأي برأيه، فلم يزل الامر على ذلك، والباطل ظاهر والحق

كامن ، والعلم مرفوع – كما اخبر عليه الصلاة والسلام – والجهل ظاهر ، ولم يبق من الدين الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه ، حتى جاء الله بالامام فاعاد الله به الدين – كما قال عليه الصلاة والسلام « بدئ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدئ فطوبى للغرباء » وقال : ان طائفته هم الغرباء ، زعما من غير برهان زائد على الدعوى . وقال في ذلك الكتاب : جاء الله بالهدى ، وطاعته صافية نقية ، لم ير مثلها قبل ولا بعد ، وان به قامت السموات ، والارض به تقوم ، ولا ضد له ، ولا مثل ، ولا ند . وكذب ، تعالى الله عن قوله . وهذا كما نزّل احاديث الترمذي وابي داود في الفاطمي على نفسه وانه هو بلا شك .

واول اظهاره لذلك انه قام في اصحابه خطيبا فقال : الحمد لله الفعال لما يريد ، القاضي لما يشاء ، لا رادّ لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلى الله على النبي المبشر بالمهدي ، يملأ الارض قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجورا ، يبعثه الله اذا نسخ الحق بالباطل ، وازيل العدل بالجور ، مكانه بالمغرب الاقصى ، وزمانه آخر الازمان ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، ونسبه نسب النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر جور الامراء ، وامتلأت الارض بالفساد ، وهذا آخر لزمان ، والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل . يشير الى ما جاء في احاديث الفاطمي .

فلما فرغ بادر اليه من اصحابه عشرة . فقالوا : هذه الصفة لا توجد الا فيك ، فأنت المهدي . فبايعوه على ذلك . واحدث في دين الله احداثا كثيرة زيادة الى الاقرار بانه المهدي المعلوم ، والتخصيص بالعصمة . ثم وضع ذلك في الخطب ، وضرب في السكك ، بل كانت تلك الكلمة عندهم

ثالثة الشهادة . فمن لم يؤمن بها أو شك فيها ، فهو كافر كسائر الكفار . وشرع القتل في مواضع لم يضعه الشرع فيها . وهي نحو من ثمانية عشر موضعا . كترك امتثال امر من يستمع امره ، وترك حضور مواعظه ثلاث مرات ، والمداهنة اذا ظهرت في احد قتل ، واشياء كثيرة .

وكان مذهبه البدعة الظاهرية ، ومع ذلك فابتدع اشياء ، كوجوه من التثويب ، اذ كانوا ينادون عند الصلاة «بتا صاليت الاسلام» و « بقيام تا صاليت » و «سو ردين» و « باردي » و « واصبح ولله الحمد » وغيره. فجرى العمل بجميعها في زمان الموحدين . وبقي اكثرها بعد ما انقرضت دولتهم . حتى اني ادركت بنفسي في جامع غرناطة الاعظم الرضا عن الامام المعصوم . المهدي المعلوم ، الى أن أزيلت وبقيت اشياء كثيرة غفل عنها أو اغفلت .

وقد كان السلطان ابو العلاء ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي منهم . ظهر له قبح ما هم عليه من هذه الابتداعات .فامر- حين استقر بمراكش - خليفته بازالة جميع ما ابتدع من قبله، وكتب بذلك رسالة الى الاقطار يأمر فيها بتغيير تلك السنة ، ويوصي بتقوى الله والاستعانة به ، والتوكل عليه ، وانه قد نبذ الباطل واظهر الحق ، وان لامهدي الا عيسى ، وان ما ادعوه انه المهدي بدعة ازالها ، واسقط اسم من لا تثبت عصمته .

وذكر أن اباه المنصور هم بان يصدع بما به صدع ، وان يرفع الحرف الذي رفع ، فلم يساعده الاجل لذلك . ثم لما مات واستخلف ابنه ابو محمد عبد الواحد الملقب بالرشيد ، وفد اليه جماعة من اهل ذلك المذهب المتسمين

بالموحدين ، فقتلوا منه في الذروة والغارب ، وضمنوا على انفسهم الدخول تحت طاعته، والوقوف على قدم الخدمة بين يديه، والمدافعة عنه بما استطاعوا، لكن على شرط ذكر المهدي وتخصيصه بالعصمة في الخطبة والمخاطبات، ونقش اسمه الخاص في السكك ، واعادة الدعاء بعد الصلاة ، والنداء عليها « بتاصاليت الاسلام » عند كمال الاذان و « بتقام تاصاليت » وهي اقامة الصلاة، وما اشبه ذلك من « سودرين » و « وقادري » و « اصبح ولله الحمد » وغير ذلك .

وقد كان الرشيد استمر على العمل بما رسم ابوه من ترك ذلك كله ، فلما انتدب الموحدون الى الطاعة اشترطوا اعادته ماترك ، فاسعفوا فيه . فلما احتلوا منازلهم اياما ولم يعد شيء من تلك العوائد ، ساءت ظنونهم، وتوقعوا انقطاع ما هو عمدتهم في دينهم ، وبلغ ذلك الرشيد ، فجدد تأنيسهم باعادتها .

قال المؤرخ : فيا لله ! ماذا بلغ من سرورهم وما كانوا فيه من الارتياح لسماع تلك الامور ، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء لخليفتهم بالنصر والتأييد، وشملت الافراح فيهم الكبير والصغير. وهذا شأن صاحب البدعة، فان يسر باعظم من انتشار بدعته واظهارها (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) وهذا كله دائر على القول بالامامة والعصمة الذي هو رأى الشيعة .

فصل

(ومنها) رأي قوم التغالي في تعظيم شيوخهم ، حتى ألحقوهم بما لا يستحقونه . فالمقتصد منهسم يزعم انه لا ولي لله اعظم من فلان ، وربما

اغلقوا باب الولاية دون سائر الامة الا هذا المذكور. وهو باطل محض، وبدعة فاحشة، لأنه لا يمكن أن يبلغ المتأخرون ابداً مبالغ المتقدمين. فخير القرون الذين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، وهكذا يكون الامر ابداً الى قيام الساعة. فاقوى ما كان اهل الاسلام في دينهم واعمالهم ويقينهم واحوالهم في اول الاسلام. ثم لا زال ينقص شيئاً فشيئا الى آخر الدنيا. لكن لا يذهب الحق جملة، بل لا بد من طائفة تقوم به وتعتقده. وتعمل بمقتضاه على حسبهم في ايمانهم. لا ما كان عليه الاولون من كل وجه، لانه لو أنفق احد من المتأخرين وزن احد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نصيفه. واذا كان ذلك في المال فكذلك في سائر شعب الايمان، بشهادة التجربة العادية.

ولما تقدم اول الكتاب انه لا يزال الدين في نقص فهو اصليٌّ لا شك فيه. وهو عند اهل السنة والجماعة. فكيف يعتقد بعد ذلك في انه ولي أهل الارض؟ وليس في الامة ولي غيره؟ لكن الجهل الغالب، والغلو في التعظيم، والتعصب للنحل، يؤدي الى مثله أو أعظم منه.

والمتوسط يزعم انه مساو للنبي صلى الله عليه وسلم، الا انه لا يأتيه الوحي. بلغني هذا عن طائفة من الغالين في شيخهم، الحاملين لطريقتهم في زعمهم، نظير ما ادعاه بعض تلامذة الحلاج في شيخهم على الاقتصاد منهم فيه. والغالي (١) يزعم فيه أشنع من هذا، كما ادعى اصحاب الحلاج في الحلاج.

(١) نص النسخة التي نطبع عنها « والقالي »

وقد حدثني بعض الشيوخ أهل العدالة والصدق في النقل انه قال: اقمت زمانا في بعض القرى البادية، وفيها من هذه الطائفة المشار اليها كثير - قال - فخرجت يوما من منزلي لبعض شأني، فرأيت رجلين منهم قاعدين، فاتهمت انهما يتحدثان في بعض فروع طريقتهم، فقربت منهما على استخفاء لأسمع من كلامهم، - إذ من شأنهم الاستخفاء باسرارهم - فتحدثا في شيخهم وعظم منزلته، وانه لا أحد في الدنيا مثله، وطربا لهذه المقابلة طربا عظيما، ثم قال أحدهما للآخر: اتحب الحق؟ هو النبي. قال: نعم هذا هو الحق. قال المخبر: فقمت من ذلك المكان فارًّا أن يصيبني معهم قارعة.

وهذا نمط الشيعة الامامية. ولولا الغلو في الدين والتكالب على نصر المذهب، والتهالك في محبة المبتدع، - لما وسع ذلك عقل احد، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع » الحديث. فهؤلاء غلوا كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام. حيث قالوا: ان الله هو المسيح ابن مريم. - فقال: الله تعالى (يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق. ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا، وضلوا عن سواء السبيل) وفي الحديث « لا تطروني كما أطرت النصاري عيسى بن مريم، ولكن قولوا عبد الله ورسوله».

ومن تأمل هذه الاصناف وجد لها من البدع في فروع الشريعة كثيرا، لأن البدعة اذا دخلت فى الاصل سهلت مداخلتها الفروع.

فصل

واضعف هؤلاء احتجاجا قوم استندوا فى أخذ الاعمال إلى المقامات، وأقبلوا وأعرضوا بسببها، فيقولون: رأينا فلانا الرجل الصالح، فقال لنا: اتركوا كذا، واعملوا كذا. ويتفق مثل هذا كثيرا للمتمرسين (١) برسم التصوف، وربما قال بعضهم: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال لي كذا وامرني بكذا، فيعمل بها ويترك بها معرضا عن الحدود الموضوعة في الشريعة، وهو خطأ، لأن الرؤيا من غير الانبياء لا يحكم بها شرعا على حال الا ان تعرض على ما فى ايدينا من الاحكام الشرعية، فان سوغتها عمل بمقتضاها، والا وجب تركها والاعراض عنها، وانما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة. وأما استفادة الاحكام فلا. كما يحكى عن الكتاني رحمه الله قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقلت: ادع الله ان لا يميت قلبي. فقال « قل كل يوم اربعين مرة ياحي ياقيوم، لا اله الا انت» فهذا كلام حسن لا اشكال فى صحته، وكون الذكر يحيي القلب صحيح شرعا. وفائدة الرؤيا التنبيه على الخير، وهو من ناحية البشارة. وانما يبقى الكلام فى التحديد بالاربعين، واذا لم يوجد على اللزوم استقام.

وعن ابي يزيد البسطامي رحمه الله، قال: رأيت ربي في المنام، فقلت: كيف الطريق اليك؟ فقال: اترك نفسك وتعال. وشأن هذا الكلام من الشرع موجود، فالعمل بمقتضاه صحيح، لانه كالتنبيه لموضع الدليل،

(١) تمرس بالشيء احتك به، وتمرس بدينه تلعب به وعبث كما يعبث البعير. والمراد بهم هنا المقلدون للصوفية في رسومهم الظاهرة دون اخلاقهم واعمالهم

لان ترك النفس معناه ترك هواها باطلاق ، والوقوف على قدم العبودية . والآيات تدل على هذا المعنى ، كقوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى) وما اشبه ذلك . فلو رأى في النوم قائلا يقول : ان فلانا سرق فاقطعه ، أو عالم فاسأله ، أو اعمل بما يقول لك ، أو فلان زنى فحده ، وما أشبه ذلك ، لم يصح له العمل حتى يقوم له الشاهد في اليقظة ، والا كان عاملا بغير شريعة ، اذ ليس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحي .

ولا يقال : إن الرؤيا من اجزاء النبوة ، فلا ينبغي أن تهمل . وأيضا إن المخبر في المنام قد يكون النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قد قال « من رآني في النوم فقد رآني حقا ، فان الشيطان لا يتمثل بي » واذا كان ... فاخباره في النوم كاخباره في اليقظة .

لانا نقول : ان كانت الرؤيا من اجزاء النبوة فليست الينا من كمال الوحي ، بل جزء من اجزائه ، والجزء لا يقوم مقام الكل في جميع الوجوه ، بل انما يقوم مقامه في بعض الوجوه ، وقد صرفت الى جهة البشارة والنذارة ، وفيها كاف [1]

وأيضا فان الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوة من شرطها ان تكون صالحة من الرجل الصالح ، وحصول الشروط مما ينظر فيه ، فقد تتوفر ، وقد لا تتوفر .

وأيضا فهي منقسمة الى الحلم ، وهو من الشيطان ، والى حديث النفس ، وقد تكون سبب هيجان بعض اخلاط ، فمتى تتعين الصالحة حتى

(١) كذا ولعل في الكلام حذفا

يحكم بها وتترك غير الصالحة ؟

ويلزم أيضاً على ذلك ان يكون تجديد وحي بحكم بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو منهي عنه بالاجماع .

يحكى ان شريك بن عبد الله القاضي دخل على المهدي ، فلما رآه قال : عليّ بالسيف والنطع . قال : ولم يا امير المؤمنين ؟ قال : رأيت في منامي كأنك تطأ بساطي وأنت معرض عني ، فقصصت رؤياي على من عبّرها ، فقال لي : يظهر لك طاعة ويضمر معصية . فقال له شريك: والله ما رؤياك برؤيا ابراهيم الخليل عليه السلام ، ولا معبرك بيوسف الصديق عليه السلام ، فبالاحلام الكاذبة تضرب اعناق المؤمنين ؟ فاستحي المهدي ، وقال : اخرج عني . ثم صرفه وابعده .

وحكى الغزالي عن بعض الأئمة انه افتى بوجوب قتل رجل يقول بخلق القرآن ، فروجع فيه، فاستدل بان رجلاً رأى في منامه ابليس قد اجتاز بباب المدينة ولم يدخلها ، فقيل : هل دخلتها ؟ فقال : اغناني عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن ، فقام ذلك الرجل فقال : لو افتى ابليس بوجوب قتلي في اليقظة هل تقلدونه في فتواه ؟ فقالوا : لا ! فقال : قوله في المنام لا يزيد على قوله في اليقظة .

**

وأما الرؤيا التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الرائي بالحكم. فلا بد من النظر فيها ايضاً ، لأنه اذا اخبر بحكم موافق لشريعته ، فالحكم بما استقر ، وان اخبر بمخالف ، فمحال ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة في حياته ، لان الدين لا يتوقف استقراره

بعد موته على حصول المرائي النومية ، لأن ذلك باطل بالاجماع . فمن رأى شيئاً من ذلك فلا عمل عليه ، وعند ذلك نقول : ان رؤياه غير صحيحة . اذ لو رآه حقاً لم يخبره بما يخالف الشرع .

لكن يبقى النظر في معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من رآني في النوم فقد رآني » وفيه تأويلان : احدهما ما ذكره ابن رشد اذ سئل عن حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في قضية ، فلما نام الحاكم ذكر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : ما تحكم بهذه الشهادة ؟ فانها باطلة . فاجاب بانه لا يحل له ان يترك العمل بتلك الشهادة ، لان ذلك إبطال لأحكام الشريعة بالرؤيا ، وذلك باطل لا يصح أن يعتقد ، اذ لا يعلم الغيب من ناحيتها الا الانبياء الذين رؤياهم وحي ، ومن سواهم انما رؤياهم جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة .

ثم قال : وليس معنى قوله « من رآني فقد رآني حقاً » ان كل من رأى في منامه انه رآه فقد رآه حقيقة . بدليل ان الرائي قد يراه مرات على صور مختلفة ، ويراه الرائي على صفة ، وغيره على صفة اخرى . ولا يجوز أن تختلف صور النبي صلى الله عليه ولا صفاته . وانما معنى الحديث « من رآني على صورتي التي خلقت عليها . فقد رآني ، اذ لا يتمثل الشيطان بي » اذ لم يقل : من رأى انه رآني ، فقد رآني . وإنما قال : من رآني فقد رآني . وانى لهذا الرائي الذي رأى انه رآه على صورته انه رآه عليها ؟ وان ظن انه رآه ، ما لم يعلم ان تلك الصورة صورته بعينها ، وهذا ما لا طريق لأحد الى معرفته .

فهذا ما نقل عن ابن رشد . وحاصله يرجع الى ان المرئي قد يكون

غير النبي صلى الله عليه وسلم ، وان اعتقد الرائي انه هو

**

والتأويل الثاني يقوله علماء التعبير : ان الشيطان قد يأتي النائم في صورة ما من معارف الرائي وغيرهم. فيشير له الى رجل آخر : هذا فلان النبي ، وهذا الملك الفلاني ، أو من اشبه هؤلاء ممن لا يتمثل الشيطان به . فيوقع اللبس على الرائي بذلك وله علامة عندهم . واذا كان كذلك امكن ان يكلمه المشار اليه بالامر والنهي غير الموافقين للشرع ، فيظن الرائي انه من قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يكون كذلك ، فلا يوثق بما يقول له أو يأمر أو ينهى .

وما احرى (١) هذا الضرب أن يكون الامر أو النهي فيه مخالفاً لكمال الاول ، حقيق بان يكون فيه موافقا ، وعند ذلك لا يبقى في المسئلة اشكال . نعم لا يحكم بمجرد الرؤيا حتى يعرضها على العلم ، لإمكان اختلاط احد القسمين بالآخر . وعلى الجملة فلا يستدل بالرؤيا في الاحكام الا ضعيف المنة . نعم يأتي المرئي تأنيساً وبشارة ونذارة خاصة ، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكماً ، ولا يبنون عليها اصلاً ، وهو الاعتدال في اخذها ، حسبما فهم من الشرع فيها ، والله اعلم .

فصل

وقد رأينا أن نختم الكلام في الباب بفصل جمع جملة من الاستدلالات المتقدمة ، وغيرها في معناها ، وفيه من نكت هذا الكتاب جملة اخرى ، فهو مما يحتاج اليه بحسب الوقت والحال ، وان كان فيه طول ولكنه

(١) نص النسخة التي نطبع عنها « اجرى » بالجيم وهو غلط

يخدم ما نحن فيه ان شاء الله تعالى .

وذلك انه وقع السؤال عن قوم يتسمون بالفقراء ، يزعمون انهم سلكوا طريق الصوفية ، فيجتمعون في بعض الليالي ويأخذون في الذكر الجهوري على صوت واحد ، ثم في الغناء والرقص ، الى آخر الليل ، ويحضر معهم بعض المتسمين بالفقهاء ، يترسمون برسم الشيوخ الهداة الى سلوك ذلك الطريق : هل هذا العمل صحيح في الشرع أم لا ؟

فوقع الجواب بان ذلك كله من البدع المحدثات ، المخالفة طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطريقة اصحابه والتابعين لهم باحسان ، فنفع الله بذلك من شاء من خلقه .

ثم ان الجواب وصل الى بعض البلدان ، فقامت القيامة على العاملين بتلك البدع ، وخافوا اندراس طريقتهم ، وانقطاع اكلهم بها ، فارادوا الانتصار لأنفسهم ، بعد أن راموا ذلك بالانتساب الى شيوخ الصوفية الذين ثبتت فضيلتهم ، واشتهرت في الانقطاع الى الله ، والعمل بالسنة طريقتهم ، فلم يستقر لهم الاستدلال ، لكونهم على ضد ما كان عليه القوم ، فانهم كانوا بنوا نحلتهم على ثلاثة اصول : الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الاخلاق والافعال ، واكل الحلال ، واخلاص النية في جميع الاعمال ، وهؤلاء قد خالفوهم في هذه الاصول ، فلا يمكنهم الدخول تحت ترجمتهم

وكان من قدر الله ان بعض الناس سأل بعض شيوخ الوقت في مسئلة تشبه هذه ، لكن حسّن ظاهرها بحيث يكاد باطنها يخفى على غير المتأمل . فاجاب عفا الله عنه على مقتضى ظاهرها من غير تعرض الى ما هم عليه من البدع والضلالات ، ولما سمع بعضهم بهذا الجواب ارسل

به الى بلدة اخرى ، فتنى به فرحل الى غير بلده ، وشهر في شيعته ان بيده حجة لطريقتهم تقهر كل حجة ، وانه طالب للمناظرة فيها ، فدعي لذلك فلم يقم فيه ولا قعد ، غير أنه قال : ان هذه حجتي ، وألقى بالبطاقة التي بخط المجيب ، وكان هو ومجيبه [1] واشياعه يطيرون بها فرحاً . فوصلت المسئلة الى غرناطة ، وطلب من الجميع النظر فيها . فلم يسع احد له قوة على النظر فيها الاول [2] أن يظهر وجه الصواب فيها الذي يدان الله به لأنه من النصيحة التي هي الدين القويم ، والصراط المستقيم

ونص خلاصة السؤال : ما يقول الشيخ فلان في جماعة من المسلمين يجتمعون في رباط على ضفة البحر في الليالي الفاضلة ، يقرؤن جزءا من القرآن ، ويستمعون من كتب الوعظ والرقائق ما امكن في الوقت ، ويذكرون الله بانواع التهليل والتسبيح والتقديس ، ثم يقوم من بينهم قوال يذكر شيئاً في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، ويأتي من السماع ما تتوق النفس اليه وتشتاق سماعه من صفات الصالحين ، وذكر آلاء الله ونعمائه ، ويشوقهم بذكر المنازل الحجازية ، والمعاهد النبوية ، فيتواجدون اشتياقاً لذلك ، ثم يأكلون ما حضر من الطعام ، ويحمدون الله تعالى ، ويرددون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويبتهلون بالادعية الى الله في صلاح أمورهم ، ويدعون للمسلمين ولإمامهم ويفترقون .

فهل يجوز اجتماعهم على ما ذكر ؟ أم يمنعون وينكر عليهم ؟ ومن دعاهم من المحبين الى منزله بقصد التبرك ، هل يجيبون دعوته ويجتمعون على

---

(١) كذا ولعلها « ومحبه » أو « ومحبوه » (٢) لفظ الاول لايظهر له معنى هنا والظاهر ان المقام مقام الاستثناء وان العبارة ربما دخل فيها التحريف والسقط

الوجه المذكور أم لا ؟

فاجاب بما محصوله : مجالس تلاوة القرآن وذكر الله هي رياض الجنة . ثم اتى بالشواهد على طلب ذكر الله . واما الانشادات الشعرية : فانما الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وفي القرآن في شعراء الاسلام (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) وذلك ان حسان ابن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعبا لما سمعوا قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) الآيات . بكوا عند سماعها فنزل الاستثناء ، وقد أنشد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورقت نفسه الكريمة وذرفت عيناه لأبيات اخت النضر ، لما طبع عليه من الرأفة والرحمة .

واما التواجد عند السماع ، فهو في الاصل رقة النفس ، واضطراب القلب ، فيتأثر الظاهر بتأثر الباطن . قال الله تعالى (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي اضطربت رغباً أورهباً . وعن اضطراب القلب يحصل اضطراب الجسم ، قال الله تعالى (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) الآية . وقال (ففروا الى الله) فانما التواجد رقة نفسية ، وهزة قلبية ، ونهضة روحانية . وهذا هو التواجد عن وجد ، ولا يسمع فيه نكير من الشرع . وذكر السلمي انه كان يستدل بهذه الآية على حركة الوجد في وقت السماع . وهي (وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا) الآية . وكان يقول : ان القلوب مربوطة بالملكوت ، حركتها انوار الاذكار ، وما يرد عليها من فنون السماع .

- ووراء هذا تواجد لا عن وجد ، فهو مناط الذم ، لمخالفة ما ظهر

لما بطن . وقد يغرب [١] فيه الامر عند القصد لاستنهاض العزائم ، واعمال الحركة في يقظة القلب النائم « يا أيها الناس ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا » [٢] ولكن شتان ما بينهما .

ـ واما من دعا طائفة الى منزله فتجاب دعوته ، وله في ذلك قصده ونيته . فهذا ما ظهر تقييده على مقتضى الظاهر ، والله يتولى السرائر ، وانما الاعمال بالنيات . انتهى ما قيده .

فكان مما ظهر لي في هذا الجواب : ان ما ذكره في مجالس الذكر صحيح اذا كان على حسب ما اجتمع عليه السلف الصالح ، فانهم كانوا يجتمعون لتدارس القرآن فيما بينهم ، حتى يتعلم بعضهم من بعض ، ويأخذ بعضهم من بعض ، فهو مجلس من مجالس الذكر التي جاء في مثلها من حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفت بهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » وهو الذي فهمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الاجتماع على تلاوة كلام الله .

وكذلك الاجتماع على الذكر فانه اجتماع على ذكر الله . ففي رواية اخرى انه قال « لا يقعد قوم يذكرون الله الا حفتهم الملائكة » الحديث المذكور . لا الاجتماع للذكر على صوت واحد ، واذا اجتمع القوم على التذكر لنعم الله ، أو التذاكر في العلم ان كانوا علماء ، أو كان فيهم عالم فجلس

---

(١) لعله « يعزب » (٢) لعله أراد حديث « أتلوا القرآن وابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا » فاقتبسه بالمعنى ، وهو في سنن ابن ماجه من حديث سعد ابن ابي وقاص بسند جيد

اليه متعلمون ، أو اجتمعوا يذكر بعضهم بعضاً بالعمل بطاعة الله والبعد عن معصيته - وما اشبه ذلك مما كان يعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم في اصحابه ، وعمل به الصحابة والتابعون - فهذه المجالس كلها مجالس ذكر وهي التي جاء فيها من الاجر ما جاء .

كما يحكى عن ابن ابي ليلى انه سئل عن القصص . فقال : ادركت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يجلسون ويحدث هذا بما سمع وهذا بما سمع - فاما أن يجلسوا خطيباً فلا - وكان كالذى نراه معمولاً به في المساجد من اجتماع الطلبة على معلم يقرئهم القرآن أو علما من العلوم الشرعية . أو تجتمع اليه العامة فيعلمهم امر دينهم ، ويذكرهم بأسه ، ويبين لهم سنة نبيهم ليعملوا بها ، ويبين لهم المحدثات التي هي ضلالة ليحذروا منها ، ويتجنبوا مواطنها والعمل بها .

فهذه مجالس الذكر على الحقيقة وهي التي حرمها الله اهل البدع من هؤلاء الفقراء الذين زعموا انهم سلكوا طريق التصوف - وقلّ ما تجد منهم من يحسن قراءة الفاتحة في الصلاة الا على اللحن ، فضلاً عن غيرها ، ولا يعرف كيف يتعبد ، ولا كيف يستنجي أو يتوضأ أو يغتسل من الجنابة . وكيف يعلمون ذلك وهم قد حُرموا مجالس الذكر التي تغشاها الرحمة ، وتنزل فيها السكينة ، وتحف بها الملائكة ؟ فبانطماس هذا النور عنهم ضلوا ، فاقتدوا بجهال امثالهم ، واخذوا يقرؤن الاحاديث النبوية والآيات القرآنية فينزلونها على آرائهم ، لا على ما قال اهل العلم فيها . فخرجوا عن الصراط المستقيم ، الى ان يجتمعوا ويقرأ احدهم شيئا من القرآن يكون حسن الصوت طيب النغمة جيد التلحين تشبه قراءته الغناء المذموم ، ثم يقولون

تعالوا نذكر الله . فيرفعون اصواتهم يمشون ذلك الذكر مداولة ، طائفة في جهة ، وطائفة في جهة اخرى ، على صوت واحد يشبه الغناء ، ويزعمون ان هذا من مجالس الذكر المندوب اليها ، وكذبوا . فانه لو كان حقاً لكان السلف الصالح اولى بادراكه وفهمه والعمل به ، والا فأين في الكتاب أو في السنة الاجتماع للذكر على صوت واحد جهراً عالياً ؟ وقد قال تعالى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية انه لايحب المعتدين) والمعتدون في التفسير هم الرافعون اصواتهم بالدعاء

وعن ابي موسى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أربعوا على انفسكم ، انكم لا تدعون اصم ولاغائباً ، انكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم » وهذا الحديث من تمام تفسير الآية ، ولم يكونوا رضي الله عنهم يكبرون على صوت واحد ، ولكنه نهاهم عن رفع الصوت ليكونوا للآية ممتثلين . وقد جاء عن السلف أيضاً النهي عن الاجتماع على الذكر ، والدعاء بالهيئة التي يجتمع عليها هؤلاء المبتدعون . وجاء عنهم النهي عن المساجد المتخذة لذلك ، وهي الربط التي يسمونها بالصفة . ذكر من ذلك ابن وهب وابن وضاح وغيرهما ما فيه كفاية لمن وفقه الله .

فالحاصل من هؤلاء انهم حسنوا الظن بانهم فيما هم عليه مصيبون ، واساؤا الظن بالسلف الصالح اهل العمل الراجح الصريح ، واهل الدين الصحيح . ثم لما طالبهم لسان الحال بالحجة اخذوا كلام المجيب وهم لايعلمون ، وقولوه ما لا يرضى به العلماء ، وقد بين ذلك في كلام آخر اذ سئل عن ذكر فقراء زماننا، فاجاب بان مجالس الذكر المذكورة في الاحاديث انها

هي التي يتلى[1] فيها القرآن ، والتي يتعلم فيها العلم والدين ، والتي تعمر بالعلم والتذكير بالآخرة والجنة والنار . كمجالس سفيان الثوري والحسن وابن سيرين ، واضرابهم .

اما مجالس الذكر اللساني فقد صرح بها في حديث الملائكة السياحين ، لكن لم يذكر فيه جهراً بالكلمات ، ولا رفع اصوات ، وكذلك غيره . لكن الاصل المشروع اعلان الفرائض واخفاء النوافل ، واتى بالآية وبقوله تعالى (اذ نادى ربه نداء خفيا) وبحديث « اربعوا على انفسكم » - قال — : وفقراء الوقت قد تخيروا بآيات ، وتميزوا باصوات ، هي الى الاعتداء ، اقرب منها الى الاقتداء ، وطريقتهم الى اتخاذها مأكلة وصناعة ، اقرب منها الى اعتدادها قربة وطاعة .

انتهى معناه على اختصار اكثر الشواهد . وهي دليل على ان فتواه المحتج بها ليس معناها ما رام هؤلاء المبتدعة . فانه سئل في هذه عن فقراء الوقت ، فاجاب بذمهم ، وان حديث النبي صلى الله عليه وسلم لا يتناول عملهم . وفي الاولى انما سئل عن قوم يجتمعون لقراءة القرآن ، أو لذكر الله . وهذا السؤال يصدق عن قوم يجتمعون مثلاً في المسجد فيذكرون الله ، كل واحد منهم في نفسه أو يتلو القرآن نفسه ، كما يصدق على مجالس المعلمين والمتعلمين ، وما اشبه ذلك مما تقدم التنبيه عليه ، فلا يسعه وغيره من العلماء الا ان يذكر محاسن ذلك والثواب عليه ، فلما سئل عن اهل البدع في الذكر والتلاوة بيّن ما ينبغي أن يعتمد عليه الموفق ، ولا توفيق الا بالله العليّ العظيم . اه المراد منه

(١) في الاصل « يختلا » هكذا ، فصححها ناسخ الورق الذي نطبع عنه فجعلها « يختلى » وكلاهما غلط

فصل (*)

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين (منزلة التوكل)

قال الله تعالى (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين - وقال - وعلى الله فليتوكل المؤمنون - وقال - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - وقال عن اوليائه - ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير - وقال - قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا - وقال لرسوله - فتوكل على الله انك على الحق المبين - وقال - وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا - وقال - وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده - وقال - فاذا عزمت فتوكل على الله، ان الله يحب المتوكلين - وقال عن انبيائه و رسله - ومالنا ألا نتوكل على الله ؟ (١) الآية - وقال عن اصحاب نبيه - الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل - وقال - انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم، واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) والقرآن مملوء من ذلك

وفي الصحيحين في حديث السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون» وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها ابراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل) وفي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، واليك انبت، وبك خاصمت. اللهم اعوذ بعزتك، لا اله الا انت ان تضلني، انت الحي الذي لا تموت، والجن والانس يموتون» وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه مرفوعا «لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا» وفي السنن عن انس رضي الله عنه

---

*) نموذج من الجزء الثاني من كتاب (مدارج السالكين . بين منازل « اياك نعبد واياك نستعين) لابن القيم (١) زاد في البغدادية من الآية قوله تعالى « وقد هدانا سبلنا»

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال ـ يعني اذا خرج من بيته ـ بسم الله توكلت على الله، ولاحول (١) ولاقوة الا بالله، يقال له: هديت ووقيت (٢) وكفيت، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل هدي وكفي ووقي؟ »

التوكل نصف الدين ، ونصفه الثاني الانابة ، فان الدين استعانة وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والانابة هي العبادة ، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل ، وكثرة حوائج العالمين ، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والابرار والفجار، والطير والوحش والبهائم ، فأهل السموات والارض ـ المكلفون وغيرهم ـ في مقام التوكل ، وان تباين متعلق وكلهم . فاولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول مايرضيه منهم ، وفي اقامته في الخلق ، فيتوكلون عليه في الايمان ونصرة دينه، واعلاء كلمته ، وجهاد اعدائه ، وفي محابه وتنفيذ أوامره . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في استقامته في نفسه ، وحفظ حاله مع الله فارغا عن الناس . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق او عافية أو نصر على عدو او زوجة أو ولد ، ونحو ذلك . (ودون هؤلاء) من يتوكل عليه في حصول الاثم والفواحش . فان اصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبا الا باستعانتهم بالله ، وتوكلهم عليه ، بل قد يكون توكلهم (٣) أقوى من توكل كثير من اصحاب الطاعات ، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك معتمدين على الله ان يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم ، فافضل التوكل في الواجب (اعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس) ، واوسعه وانفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية ، أو في دفع مفسدة دينية ، وهو توكل الانبياء في اقامة دين الله ، ودفع فساد المفسدين في الارض ، وهذا توكل ورثتهم.

ثم الناس بعدُ في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم ، فمن متوكل على الله في حصول الملك ، ومتوكل في حصول رغيف . ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله ، فان كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة ، وان كان

---

(١) في نسختنا « ولاحول » وفي البغدادية سقط الواو (٢) وفيها « وكفيت ووقيت »
(٣) في الحجازية « توكلهم عليه »

مسخوطا مبغوضا كان ماحصل له بتوكله مضرة عليه ، وان كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ماتوكل فيه، ان لم يستعن به على طاعة (١) والله أعلم .

فصل

فلنذكر معنى التوكل ودرجاته وما قيل فيه .

قال الامام احمد : التوكل عمل القلب . ومعنى ذلك انه عمل قلبي ليس بقول اللسان ، ولا عمل الجوارح ، ولا هو من باب العلوم والادراكات . (ومن) الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول : هو تعلم القلب بكفاية الرب للعبد. (ومنهم) من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب . فيقول : التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، وهو ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجاري الاقدار . قال سهل : التوكل الاسترسال مع الله على ما يريد . (ومنهم) من يفسره بالرضاء . فيقول : هو الرضاء بالمقدور . قال بشر الحافي : يقول احدهم : توكلت على الله ، يكذب على الله ، لو توكل على الله رضي بما يفعل الله . وسئل يحيى بن معاذ : متى يكون الرجل متوكلا ؟ فقال اذا رضي بالله وكيلا (ومنهم) من يفسره بالثقة بالله ، والطمأنينة اليه والسكون اليه . قال ابن عطاء : التوكل ان لا يظهر فيك انزعاج الى الاسباب مع شدة فاقتك اليها ، ولاتزال (٢) على حقيقة السكون الى الحق مع وقوفك عليها . وقال ذوالنون: هو ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة ، وانما يقوى العبد على التوكل اذا علم ان الحق سبحانه يعلم ويرى ماهو فيه. وقال بعضهم :التوكل التعلق بالله في كل حال . وقيل : التوكل ان ترد عليك موارد الفاقات ، فلا تسمو الا الى من اليه الكفايات . وقيل : نفي الشكوك ، والتفويض الى مالك الملوك . وقال ذو النون : خلع الارباب، وقطع الاسباب — يريد قطعها من تعلق القلب بها ، لا من ملابسة الجوارح لها .

(ومنهم) من جعله مركبا من امرين او أمور . فقال ابو سعيد الخراز :

(١) في البغدادية طاعته (٢) في البغدادية - ولا تزول

التوكل اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب ، — يريد حركة ذاته في الاسباب بالظاهر والباطن — وسكون الى المسبب وركون اليه ، ولا يضطرب قلبه معه ، ولا تسكن حركته عن الاسباب الموصلة الى رضاه . وقال ابو تراب النخشبي : هو طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة الى الكفاية . فان اعطي شكر ، وان منع صبر . فجعله مركبا من خمسة أمور : اقيام بحركات العبودية ، وتعلق القلب بتدبير الرب ، وسكونه الى قضائه وقدره ، وطمأنينته بكفايته له ، وشكره اذا اعطى ، وصبره اذا منع . قال ابو يعقوب النهرجوري : التوكل على الله بكمال الحقيقة كما وقع لابراهيم الخليل عليه السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام «اما اليك فلا» لانه غاب عن نفسه بالله (١) الم ير مع الله غير الله .

واجمع القوم على ان التوكل لا ينافي القيام بالاسباب ، فلا يصح التوكل الا مع القيام بها . والا فهو بطالة وتوكل فاسد . قال سهل بن عبد الله : من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الايمان ، فالتوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته ، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته . وهذا معنى قول ابي سعيد «هو اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب» وقول سهل ابين وارفع . وقيل : التوكل قطع علائق القلب بغير الله . وسئل سهل عن التوكل فقال : قلب عاش مع الله بلا علاقة . (٢) وقيل : التوكل هجر العلائق ، ومواصلة الحقائق . وقيل : التوكل ان يستوي عندك الاكثار والاقلال . وهذا من موجباته وآثاره ، لا نه (٣) حقيقته . وقيل : هو ترك كل سبب يوصلك الى مسبب ، حتى يكون الحق هو المتولي لذلك . وهذا صحيح من وجه ، باطل من وجه ، فترك الاسباب المأمور بها قادح في التوكل ، وقد تولى الحق ايصال العبد بها . وأما ترك الاسباب المباحة ، فان تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح ، ولا فهو

(١) في البغدادية ـ لانه علق نفسه بالله ـ (٢) هاتان الفقرتان سقطتا من نسختنا فأثبتناهما من البغدادية (٣) وفيها ـ لا أنه ـ

مذموم . وقيل : هو إلقاء النفس في العبودية ، وإخراجها من الربوبية . يريد استرسالها مع الامر ، وبراءتها من حولها وقوتها ، وشهود ذلك بها ، بل بالرب وحده.

(ومنهم) من قال : التوكل هو التسليم لامر الرب وقضائه (ومنهم) من قال : هو التفويض اليه في كل حال.

(ومنهم) من جعل التوكل بداية ، والتسليم وساطة ، والتفويض نهاية . قال ابو علي الدقاق : التوكل ثلاث درجات — التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن الى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه . فالتوكل بداية ، والتسليم وساطة ، والتفويض نهاية فالتوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الاولياء ، والتفويض صفة الموحدين . التوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خاصة الخاصة . التوكل صفة الانبياء ، والتسليم صفة ابراهيم الخليل ، والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين . هذا كله كلام الدقاق . ومعنى هذا التوكل اعتماد على الوكيل ، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه ، وارادة وشائبة منازعة ، فاذا سلم اليه زال عنه ذلك ، ورضي بما يفعله وكيله . وحال المفوض فوق هذا ، فانه طلب مريد ممن فوض اليه ، ملتمس منه ان يتولى أموره ، فهو رضاء واختيار ، وتسليم واعتماد ، فالتوكل يندرج في التسليم ، وهو والتسليم يندرجان في التفويض ، والله سبحانه وتعالى اعلم .

فصل

وحقيقة الامر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا تتم حقيقة التوكل الا بها . وكل اشار الى واحد من هذه الامور ، او اثنين او اكثر . فأول ذلك معرفة بالرب وصفاته ، من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الامور الى علمه ، وصدورها عن مشيئته وقدرته . وهذه المعرفة اول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل . قال شيخنا رضي الله عنه : ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف ، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء (١) ولا

(١) في البغدادية « مالم يشأه »

يستقيم ايضا من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله ، ولا يستقيم التوكل لا من اهل الاثبات . فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم ؟ ولا هو فاعل باختياره ؟ ولا له ارادة ومشيئة ؟ ولا يقوم به صفة ؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم واعرف ، كان توكله اصح واقوى . والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل

(الدرجة الثانية اثبات في الاسباب والمسببات) فإن من نفاها فتوكله مدخول . وهذا عكس مايظهر في بدوات الرأي ان الاسباب يقدح في التوكل ، وأن نفيها كمال (١) التوكل

فاعلم ان نفاة الاسباب لا يستقيم لهم توكل البتة ، لان التوكل من اقوى الاسباب في حصول المتوكل فيه ، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به، فاذا اعتقد العبد ان توكله لم ينصبه الله سببا ، ولا جعل دعاءه سببا لنيل شيء ، فان المتوكل فيه المدعو بحصوله ان كان قدر (٢) حصل توكل او لم يتوكل ، دعا او لم يدع . وان لم يقدر لم يحصل ، توكل ايضا او ترك التوكل . وصرح هؤلاء ان التوكل والدعاء عبودية محضة لا فائدة لهما لاذلك ، ولو ترك العبد التوكل والدعاء مافاته (٣) شيء مما قدر له . ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة على الخطإ والنسيان عديم الفائدة ، اذ هو مضمون الحصول.

ورأيت بعض متعمقي هؤلاء في كتاب له (٤) لا يجوز الدعاء بهذا ، وإنما يجوزه تلاوة لا دعاء . قال — لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه ، لأن الداعي بين الخوف والرجاء ، والشك في وقوع ذلك - شك في خبر الله ، فانظر الى ماقاد انكار الاسباب من العظائم ، وتحريم الدعاء بما أثنى الله على عباده وأوليائه بالدعاء

---

(١) نص نسختنا - كلام التوكل - وكلام محرف عن كمال بالقلب ، كما هو نص الحجازية ، والبغدادية « تمام التوكل » (٢) في البغدادية « قد قدر » (٣) نسختنا والحجازية « مافاته » والبغدادية « لما فاته » (٤) نص الحجازية « في كتاب لا » وسقط من البغدادية كلمة « له »

به و بطلبه ، ولم يزل المسلمون من عهد نبيهم صلى الله عليه وسلم الى الآن يدعون به في مقامات الدعاء ، وهو من أفضل الدعوات .

وجواب هذا الوهم الباطل ان يقال : بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه ، وهو الواقع . وهو ان يكون قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء ، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب ، وقضى الله بحصوله اذا فعل العبد سببه ، فاذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب . وهذا كما قضى بحصول الولد اذا جامع الرجل من يحبلها ، فاذا لم يجامع لم يخلق منه الولد . وقضى بحصول الشبع اذا أكل ، والري اذا شرب ، فاذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو . وقضى بحصول الحج والوصول الى مكة اذا سافر وركب الطريق ، فاذا جلس (١) في بيته لم يصل الى مكة (١) وقضى بدخول الجنة اذا أسلم وأتى بالاعمال الصالحة ، فاذا ترك الاسلام لم يدخلها أبدا (٢) وقضى بانضاج الطعام بإيقاد النار تحته . وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الارض وإلقاء البذر فيها ، فما لم يأت (٣) بذلك لم يحصل الا الخيبة .

فوزان ما قاله منكرو الاسباب ان يترك كل من هؤلاء السبب الموصل ويقول : ان كان قضي لي وسبق في الازل حصول الولد والشبع والري والحج ونحوها ، فلا بد ان يصل ، ان تحركت أو سكنت ، تزوجت أو تركت ، سافرت أو قعدت ، وان لم يكن قضي لي لم يحصل لي ايضا ، فعلت أو تركت . فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء ؟ وهل البهائم الا افقه منه ؟ فان البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة . فالتوكل من أعظم الاسباب التي يحصل بها المطلوب ، ويندفع بها المكروه . فمن أنكر الاسباب لم يستقم منه التوكل ، ولكن من تمام التوكل عدم الركون الى الاسباب ، وقطع علاقة القلب بها ، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها ، وحال بدنه قيامه بها . فالاسباب محل حكمة الله وأمره ودينه ، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره ، فلا تقوم عبودية الاسباب الا على ساق التوكل ، ولا يقوم ساق التوكل الا على قدم العبودية • والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) في البغدادية « فاذا جلس في بيته لم يصل الى مكة أبدا » (٢) حذف من البغدادية لفظ « أبدا » (٣) نص البغدادية فان لم « يأت »

فصل

الدرجة الثالثة (رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل) (١) فانه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده ، بل حقيقة التوكل توحيد القلب ، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل ، فان العبد متى التفت الى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه ، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ، ومن هاهنا ظن من ظن ان التوكل لا يصح الا برفض الاسباب ، وهذا حق ، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح ، فالتوكل لا يتم الا برفض الاسباب عن القلب ، وتعلق الجوارح بها ، فيكون منقطعا منها متصلا بها . والله سبحانه أعلم .

﴿ فصل ﴾

الدرجة الرابعة (اعتماد القلب على الله ، واستناده اليه ، وسكونه اليه) بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الاسباب ، ولا سكون اليها ، بل يخلع السكون إليها من قلبه ، ويلبسه السكون الى مسببها ، وعلى هذا (٢) نه لا يبالي باقبالها وإدبارها ، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها وإقبال ما يكره ، لأن اعتماده على الله وسكونه اليه واستناده اليه ، قد حصنه من خوفها ورجائها ، فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به ، فرأى حصنا مفتوحا فأدخله ربه اليه ، وأغلق عليه باب الحصن ، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن ، فاضطراب قلبه وخوفه منهم في هذه الحال لا معنى له . وكذلك من أعطاه ملك درهما فسرق منه ، فقال له الملك : عندي اضعافه لا تهتم متى جئت لي أعطيتك من خزائني اضعافه . فاذا علم صحة قول الملك ووثق به واطمأن اليه ، وعلم ان خزائنه ملية بذلك ـ لم يحزنه فوته . وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف

---

(١) نسختنا والحجازية « توحيد التوكل » وسقط من البغدادية كلمة « توحيد »

(٢) نسختنا والحجازية « الى مسببها وعلى هذا » وفي البغدادية « الى مسببها وعلامة هذا »

غيره ، وليس في قلبه التفات الى غيره ، كما قال بعض العارفين : المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوي اليه الا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يأوي الا الى ربه سبحانه .

﴿ فصل ﴾

الدرجة الخامسة (حسن الظن بالله عز وجل) فعلى قدر حسن ظنك بربك(١) ورجائك له يكون توكلك عليه • ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن فقال : التوكل حسن الظن بالله . والتحقيق ان حسن الظن به يدعوه الى التوكل عليه ، اذ لا يتصور التوكل على من ساء (٢) ظنك به ، ولا التوكل على من لا ترجوه ، والله أعلم .

﴿ فصل ﴾

الدرجة السادسة (استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها اليه ، وقطع منازعاته) وبهذا فسره من قال : ان يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد ، لا يكون له حركة ولا تدبير . وهذا معنى قول بعضهم : التوكل اسقاط التدبير . يعني الاستسلام لتدبير الرب لك . وهذا في غير باب الامر والنهي . بل فيما يفعله بك لا فيما أمرك بفعله . فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده وانقياده له ، وترك منازعات نفسه وارادتها مع سيده . والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ فصل ﴾

الدرجة السابعة (التفويض) وهو روح التوكل ولبه وحقيقته ، وهو إلقاء اموره كلها الى الله ، وانزالها به طلبا واختيارا ، لا كرها واضطرارا ، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب أموره (٣) الى ابيه العالم بشفقته عليه ورحمته ، وتمام كفايته ، وحسن ولايته له ، وتدبيره له ، فهو يرى ان تدبيره له خير من تدبيره لنفسه ، وقيامه بمصالحه وتوليه لها ، خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها ، فلا يجد له أصلح ولا أوفق من تفويضه اموره كلها الى ابيه ، وراحته من حمل كلفها (٤) وثقل حملها ، مع عجزه عنها ، وجهله بوجوه المصالح فيها ، وعلمه بكمال علم من فوض اليه وقدرته وشفقته .

(١) في البغدادية « به (٢) في البغدادية « على من تسيء » (٣) كذا في نسختنا وفي البغدادية ، وفي الحجازية قبل كلمة « اموره خربوشة يوشك ان يكون اصلها « في » او « على » فتكون العبارة « المغلوب على اموره » وهي الصواب (٤) في البغدادية « كلها »

افضل الوسائل

لانهاض السلطنة

﴿ فصل جليل ختم به كتاب تاريخ الحرب البلقانية للبستاني ﴾

خطر لنا عند الفراغ من تأليف هذا الكتاب ، أن نستطلع آراء نخبة من أكابر العلماء وفحول الكتاب ، عن أفضل وسيلة تنهض بالسلطنة بعد كبوتها ، وتزيد في يقظة الامة بعد غفوتها . فسألنا من أسعدنا الحظ بالوصول اليه قبيل صدور هذا المؤلف أن يصوغ لنا فكرته الاساسية في أسطر قليلة فتكرموا بتلبية الطلب ، أدامهم الله زهرا نضيرا في بستان العلم والادب . واليك آراءهم مرتبة حسب تواريخ ورودها

(رأي سياسي شهير)

كتب الي عالم كبير لم يشأ أن ينشر اسمه قال « ان الامر عويص جدا لان في السلطنة فواعل كثيرة متناقضة وبعضها خفي . ولقد سمعت مرة المرحوم نوبار باشا رئيس الوزارة المصرية الاسبق يقول ان لورد دربي ألقى عليه سؤالا مثل سؤالك وطلب منه أن يرتأي رأيا أو يضع مشروعاً نافعاً للسلطنة العثمانية ، قال نوبار : فأخذت القلم وكتبت « أن ينشأ في السلطنة محكمة مختلطة مستقلة ترفع اليها الشكاوى من المأمورين فتحا كمهم وتنفذ الحكومة ماتحكم به عليهم »

فما أدق هذا الانتقاد ، وما أرق هذا التهكم ! ...

(رأي القانوني الكبير ، والعالم الاجتماعي الشهير)

سعادة فتحي باشا زغلول

أقرئك السلام وبعد فسؤالك هام ومطلبك أهم

الدولة العلية رعاك الله مجموع يحتاج في سياسته وانهاضه الى حكمة عالية وبصر بالأمور كبير ، فاذا غلب الرأي الهوى ، وبطل التفاضل بين العناصر ، وأقيم وزن العدل وتساوى الناس جميعاً في الحقوق وفي الواجبات - واذا خلصت نيات اهل الزعامة وصدقت عزائم ذوي الرئاسة ، ففضلوا مصالح الامة على المنافع الفردية ، وجدّ الكلّ في طلب الاصلاح ، فنشروا التعليم وعنوا بالأمور الاقتصادية ، فاستبقوا لأنفسهم مرافق

البلاد وكنوزها ، وذللوا السبل وأمنوا السابلة وقربوا المسافات . ثم ازدرعوا واحترفوا واتجروا فأحرفوا ، واذا احكموا نظام الجند وهذبوه ـ لاشك أن الدولة ناهضة من سقطتها ، وان الأمة ناشطة من عقالها ، وانها نائلة من الحضارة والمناعة مكانا عليا

(رأي العالم العامل الشهير ، والصحافي المحنك الخبير)

الدكتور فارس افندي نمر

صاحب المقتطف والمقطم

حضرة الفاضل ! ان كان المقصود من « السلطنة » في سؤالكم « الحكومة والامة » في حالتهما الحاضرة أي الدستورية فوسائط انهاضها متعددة منها مادي ومنها أدبي ولكل واسطة منها قوة لا يُستغنى عنها ، وخصوصاً وسائط العلم والمال . على أن في الحكومة وفي الأمة رجالاً من ذوي العلم وذوي المال فلا يعوزهم ادراك ولا يسار ، ولكن الذي ينقصنا هو تربية الحكومة على الاخلاق القويمة ، والصفات المنظمة والمرقية لشؤون الهيئة الاجتماعية ، حتى نستطيع الاتحاد والتعاون على تدبير أمورنا وإنجاح أعمالنا ونحن جماعات ، كما يستطيع كثيرون منا اليوم تدبير أمورهم وانجاح أعمالهم وهم أفراد .

(رأي شيخ الادباء ، وكبير الشعراء)

(سعادة اسماعيل صبري باشا)

التوظيف ـ اذا أراد التركي أن يستبقي ما بقي له من ملكه فلا يفرقن بين التركي وسائر الاجناس التي تتألف منها الدولة العثمانية ، بل يجب عليه أن يفضل في التوظيف في كل بلد أهل الكفاءة من بنيها ، فلا يوظف التركي في بلد غير بلده الاصلي الا اذا كان يتعسر وجود أكفاء مثله من أبناء ذلك البلد ، فتتعود جميع العناصر التي تتألف منها الدولة حب الراية التي تظلهم ، والاراضي التي تقلهم ، فيقوم عندئذ وطن عثماني حقيقي يحبونه ويذبون عنه في اليوم العصيب .

التعليم — التعليم من أوجب الواجبات لنهوض الشعب العثماني مما هو فيه ، ولا يُراد بالتعليم ان يصبح جميع الافراد من العلماء ، بل يكفي أن يكون هناك عدد وافر من المتعلمين يسيرون بالدولة الى مقام الشعوب الراقية ، وأن يتعلم باقي أفراد الامة ما يمكنهم من فهم قادتهم وأرباب الرأي فيهم .

العدل — العدل بسيط في معناه صعب في تنفيذه بين الافراد . وأكبر آفاته

القرض والرشوة . فاذا أرادت الدولة أن يسود فيها العدل فلتصرف كل جهدها في انشاء هاتين الآفتين، ولتحذر من أن تستعين بالاجانب في سن قوانينها وتوزيع العدل بين رعاياها ، ومن أن تطلب غير أبناء بلادها لاقامة العدل وسن القوانين . والا تعذر عليها أن تجد عدلا وطنيا متفقاً مع أخلاق أمتها وعاداتها . وما يقال في العدل يقال أيضاً في سائر فروع الادارة . واذا كانت الحكومة لا تجد مندوحة عن الاستعانة بالاجانب الاكفاء فلا تطلبهم من حكوماتهم ، بل تكلفهم وضع التقارير بعد اختبارهم لحالة البلاد، ثم تأخذ النافع والموافق لعادات الاهالي من تلك التقارير دون أن تجعل أصحابها موظفين رسميين

(رأي العالم الاجتماعي الشهير)

الدكتور شبلي الشميل

الدولة لا تنهض الا بثلاثة : رجال ومال ووقت ، والرجال بالعلم والتربية ، والمال بالموارد . فهل ذلك متوفر ، ولاسيما الوقت ، وحالنا في الاجتماع كما هي من قلة التكافوء ، مع ماهو عليه اليوم من شدة التنازع ؟ والجواب على ذلك يدل على المصير

(رأي الاستاذ الفاضل الشهير)

ابو شادي بك

رئيس تحرير جريدة المؤيد

رأيي أن الدولة لاتنهض من سقطتها ولا تعود الى سابق مجدها الا اذا توفر لديها ما يأتي

أولا تعميم التعليم في أنحاء البلاد وجعل الاولي منه اجباريا

ثانياً ازالة التنافر بين العناصر ولا يكون ذلك الاّ بمنح كل ولاية استقلالا اداريا داخلياً حتى يعلم كل فرد ان اجتهاده منصرف الى بلده والى نفسه .

ثالثاً ايجاد الاكفاء من الموظفين اذ بغير شك ان قوانين الدولة عادلة ولكن تنفيذها معدوم .

رابعاً اصلاح جباية الضرائب بحيث تكون الضرائب متسلطة على الاعيان لا على الحاصلات وتنظيم أوقات تحصيلها .

خامساً نزع السياسة من افكار الجيش
سادساً تعميم اللغة العربية في جميع الولايات وبين المسلمين بنوع اخص وذلك لان مظهر الدولة اسلامي والقرآن عربي

(رأي العالم الاسلامي الكبير)

السيد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

الدولة كائن حي، يُحفظ وجودها بالسنة التي تحفظ بها حياة سائر الاحياء، وهي سلامة مزاجها في نفسها ووقايته مما يعدو عليه من الخارج

فأما سلامة مزاج دولتنا العثمانية في نفسه فانما يكون باقامة الشرع العادل في القضية، والمساواة في الحقوق بين الرعية، وبناء ادارة المملكة على أساس اللامركزية، وحمل السلطة العليا شق الأبلمة بين العنصرين الكبيرين فيها -العرب والترك- بحيث يكونان منها كالعنصرين اللذين يتكون منهما الماء أو الهواء. واما وقايتها مما يعدو عليها من الخارج فهو الآن منوط بدول أوربة الكبرى فهن اصحاب المطامع فيها ومطامعهن متعارضة. وما دامت كذلك كانت الدولة آمنة على نفسها من اقتسامهن اياها بالقوة، فيجب ان تتقي استيلاءهن على البلاد بقوة المال والسياسة، أي بالفتح السلمي، وان تقوي مزاج الامة بالمال والعلم واعدادها للدفاع عن نفسها. فاذا هي فرطت في مرافقها وأملاكها فباعتها للاوربيين، وبقيت على تبذيرها، وتوهمها انها تستطيع ان تحمي نفسها منهن بقوتي الدولة البرية والبحرية الرسميتين، ولم تحمل كل اعتمادها على الامة، فالخطر عليها من الفتح السلمي، أقرب واقوى من خطر الفتح الحربي.

(رأي الكاتب التحرير الشهير)

داود افندي بركات

رئيس تحرير الاهرام

رأيي في اصلاح السلطنة العثمانية ان تقسم مناطق، وان تكون كل منطقة مؤلفة من العناصر المتفقة في التقاليد والعادات واللغة، فتعطى الاستقلال الاداري تبت من أموره كل ما لا يتناول منطقة أخرى أو اكثر من منطقة. و يعين لكل منطقة

مندوب سام يعاونه مجلس ادارة يؤلف من الفنيين في الامور المالية والادارية والقضائية والعسكرية ، ويؤخذ للمركز العام جزء معين من دخل كل منطقة ، وتلغى الضرائب العشرية ، وتقرر ضرائب ثابتة معينة على الاملاك ، وتوضع قوانين للشركات على اختلاف انواعها ، ويوحد القضاء فلا يكون من اختصاص رجال الدين الا الامور الشخصية . فتكون الدولة مؤلفة من ولايات متحدة او مناطق متحدة . ذلك رأيي في انهاض السلطنة بسرعة

《 رأي العالم المؤرخ 》

جرجي بك زيدان

صاحب مجلة الهلال

العلة الحقيقية في حال الدولة العثمانية اليوم فقر المملكة واضطراب الحكومة . والحكومة الدستورية في أيدي الامة ، والامة العثمانية ضعيفة الاخلاق ، عريقة في الانقسام ، بسبب ما توالى عليها من أعصر الفساد .

أما المملكة ونعني الولايات الباقية منها في آسيا فليس فقرها اصليا فيها ، وكل ولاية منها كانت في بعض الازمان مملكة قائمة بنفسها ، فالعراق كانت وحدها مملكة البابليين والاشوريين ، وبها اعتز العباسيون في إبان دولتهم ، وكانت جبايتها ثلث جباية مملكتهم الواسعة الممتدة من حدود الهند الى شواطئ الاتلانتيكي . وسوريا كانت مؤلفة من عدة دول ثم اعتز بها السلوقيون اجيالا ، وكذلك آسيا الصغرى ، وظلت مدة هي اعظم أركان الدولة العثمانية .

فهذه الولايات اذا أحسنت سياستها وادارتها صارت غنية . وهذا لا يتم والامة كما تقدم . فالوسيلة المثلى للنهوض بالدولة العثمانية انما هي ترقية الشعب ، وهو لا يقدر أن يرقي نفسه رغم استعداده الطبيعي للرقي . وقد يقوم بذلك حاكم عادل عاقل ، انما يشترط أن يكون مستبدا ، وهذا لا يتيسر والحكومة دستورية . فلا بد من الاستعانة بالاجانب ، وأسلم الطرق أن تحالف الدولة العثمانية مع دولة تثق بصداقتها ، فتستعين برجالها على اصلاح حكومتها وترقية شعبها وصيانتها من مطامع الدول الاخرى ، بشرط أن لا يكون لهذه الدولة مطمع في الاستعمار . فاذا وفقت الى ذلك في أثناء أربعين سنة نهضت واسترجعت رونقها .

《 رأي الشاعر الكاتب الطائر الصيت 》

خليل افندي مطران

أخي — سألتني عما أرتئيه لاصلاح الدولة العلية . فالذي أرتئيه انما هو أمر واحد يلخص في كلمة واحدة : التعليم

منذ عشرين سنة أرقب حوادث الدولة واستقري ما يجري فيها . فالذي بدا لي من شأنها في كل حال : ان الحكام كانوا لا يهتمون باصلاحها اعتماداً منهم على جهل الامة وعلى تسليمها لهم بسبب ذلك الجهل . وان المحكومين كانوا فاقدي الحيلة في التماس ما هو خير لهم وكانوا صابرين على مضض . وربما أومض لهم بارق الاصلاح في احدى المصادفات فتألموا منه تألمهم من الرمد المفاجئ .

فهؤلاء المحكومون ما لم يتعلموا لا يقيمون لانفسهم وزناً ولا يفرقون بين حق لهم وحق عليهم . كما أن أولئك الحكام أياً كان جنسهم ودينهم يلبثون أبد الدهر متسكرين لامتهم جانين عليها ، الا حيث تضطرهم الى الاصلاح اضطراراً ، وتأخذ منهم قسرا ما يأبونه عليها اختيارا .

وكل ذلك لا يتم شيء منه الا بالتعليم .

《 رأي الكاتب الشهير 》

محمد أفندي مسعود

حياة الدولة في مستقبلها . ومستقبلها في حكومة كفيلة باسترجاع مجدها المضيع ، وهذه الحكومة لاتوجد ، الا متى عرف رجالها قدر انفسهم . فوضعوها فوق عبث الاحزاب .

《 رأي الصحافي الخبير والكاتب الالمعي 》

سامي افندي قصيري

المحرر في المقطم

لما كانت الدولة العثمانية فيما مضى دولة استبدادية قائمة على حكومة الفرد كانت تقوى بقوة ذلك الفرد وتضعف بضعفه وتسعد بسعده وتشقى بشقائه . أما الآن وقد أعلن فيها الحكم الدستوري مراعاة لاحوال الزمان والمكان وتبدلت

حكومة الفرد بحكومة الامة ، فصلاح الحكومة قائم بصلاح الامة . ولا يكون ذلك في رأيي الا بنشر التعليم الحر بين طبقاتها، والفصل بين دنياها ودينها، والتأليف بين عناصرها وطوائفها ، حتى تصبح جميعها كتلة واحدة يحركها من أعلاها الى أسفلها عامل واحد ، هو عامل الوطنية، وتجمعها من أقصاها الى ادناها جامعة واحدة هي الجامعة العثمانية .

(رأي الكاتب الشهير)

فرح افندي انطون

صاحب مجلة الجامعة

ان سنة التطور (evolution) التي تحكم العالم المادي والعالم الاجتماعي أمر لامفر منه . فما السبيل الى جعل التطور في السلطنة لها لا عليها ؟ لا أظن أن صديقي المؤلف يكلفني الجواب على هذا السؤال في بضعة أسطر . على ان كل ما يقوله الكاتب ويفكر فيه المفكر في هذا الشأن أمر معلوم ، فما تنقصنا الاقوال ولكن تنقصنا الافعال . فقد يقال « العدل والسواء وتوسيع سلطة الولايات وقطع دابر الرشوة بحسن اختيار الموظفين وشدة مراقبتهم واصلاح المحاكم وتنظيم البوليس وتقويته وانشاء الطرق الحديدية واستثمار الارض ظهرها و بطنها (الزراعة والمعادن) واحياء الصناعة والتجارة والمستشارون الاجانب وتنظيف الدوائر العليا والدنيا الخ الخ » وكلها اشياء جميلة . ولكني ارى امرا آخر مقدماً عليها وان وجد المال وقوة الارادة لانفاذها وهو ما أسميه « الانسلاخ » أعني به انسلاخ الرجل الشرقي القديم — وكلنا ذلك الرجل — من جلده القديم وروحه القديمة واتخاذه جلداً جديداً وروحاً جديدة . ومعنى هذا بكلام مجرد من الزخرف والخيال تغيير السياسة التي حكمت بها السلطنة وجعلها بوزيتيفست (positiviste) وهنا المشكلة العظمى . فانه يجب بناء أعمال الحكومة على هذه السياسة من غير أن يصدم هذا البناء معتقدات العناصر المختلفة وأوهامها ، أي سوق التطور في طريق هذه السياسة من غير ان يؤدي الى كسر في أعضائها . ورأس سياسة الوزيتيفست أن يفصل الدين عن السياسة الدنيوية عند جميع العناصر العثمانية . و بعد هذا الفصل يمكن الاتجاه الى موحدة الامة وبانية اساس مستقبلها أعني بها المدرسة الابتدائية الالزامية — واحدة لجميع ابناء الامة، وبمعزل عن المذاهب الدينية لتوحيد اغراض الامة واهوائها ما أمكن التوحيد ، وجعلها أمة واحدة لا أمماً مختلفة كما هي الآن .

(رأي الاستاذ القانوني الشهير)
عزيز خانكي بك

يجب ان تبدأ الدولة باعطاء ولاياتها الاستقلال الذاتي الداخلي ثم تجعل الصلة بينها وبين ولاياتها كالصلة بين ممالك المانيا والامبراطورية، أو كالصلة بين الولايات المتحدة الاميركية والجمهورية، ثم تتعاون جميع الولايات على تكوين قوة الدولة البرية والبحرية بمعنى أن كل ولاية تشترك بنسبة ثروتها

هذا من جهة سياسة الدولة من حيث مجموعها . أما رقي الولايات فلا أمل فيه الا بانشاء المحاكم، ووضع القوانين النظامية على الطريقة المصرية ، واقامت المدارس، ومد السكك الحديدية ، وتوطيد اركان الامن العام ، واجراء الاصلاحات العامة اللازمة لكل بلد مثل انشاء السكك الزراعية ، وبناء القناطر للري ، وتسهيل المواصلات البرية والبحرية، وتعميم بعض النظامات الغربية، مثل التلغرافات والتلفونات وتنظيم البريد داخل الولايات ، وتشجيع الاهالي على انشاء الشركات للاستثمار بخيرات هذه الاقطار التي يقال انها كلها كنوز لا تنفد .

(رأي الاستاذ الفاضل الشهير)
اسكندر بك عمون

اصلح نظام للدولة على ما بين العناصر والولايات العثمانية من التباين في الحاجات والاخلاق ، والعادات والتقاليد ، وعلى ما بين اهليها من التفاوت في الحضارة ، ان تجعل ممالك أو ولايات مستقلة في جميع شؤونها الخاصة استقلالا تاما حتى في قوانينها وفي شكل حكومتها ، مع ارتباطها جميعاً في الشؤون العمومية على نحو نظام الولايات المتحدة الاميركانية أو الممالك الجرمانية ، فتسمى حينئذ الولايات أو الممالك العثمانية المتحدة

ولهذا النظام مزية على كل نظام آخر وهي : انه النظام الوحيد الذي يمكنه أن يجمع بين الولايات والامارات العربية في جزيرة العرب وسائر الولايات الممتازة وغير الممتازة

(رأي الكاتب العالم)
نجيب بك البستاني
أحد مؤلفي وأصحاب دائرة المعارف البستانية

اهم ما يجب لاحياء امر الدولة العثمانية واعلاء شأنها انما هو العدل الصحيح في

الرعية ، واصلاح المالية ، فهما اساس الملك وبهما قوام الدول . ذلك بأن تشترك جميع عناصر المملكة على نسبة كل منها الى المجموع ، فيعهد في الوظائف الى ذوي الكفاءة ، وتؤدى الرواتب في مواقيتها ، وتوضع المكوس على ما تطيق الرعية ، وتستثمر المعادن ، وتقام اعمال الري والطرق الحديدية وغيرها على السواء في جميع اقطار البلاد ، وتستعمل الدولة في الاصلاح وتعميم التعليم العلماء الراسخين من الشرقيين والغربيين ، ويكون الانتخاب على ما يضمن لكل ملة العدد الذي من الاعيان والنواب دون محاباة أو تفاضل . فمتى حصل ذلك توفرت الاموال واتحدت كلمة الجيش، وساد الامن واستوثقت الرعية من الوازع، وانتظمت الشورى وحصلت الالفة بين الامم المختلفة ، وانصرف هم القائمين بالامر الى استصلاح الزراعة وترقية الصناعة والعناية باسباب العمران، ونبذوا الشقاق وصدقوا في حب الوطن، تعاونوا على الامر مخلصين منزهين عن المطامع الشخصية بما يزيد هيبة الحكومة ويؤيد سلطانها

يتم ذلك باذن الله اذا امتنعت الدول عن تعكير الامر على العثمانيين ، واجرى هؤلاء نحو ما تقدم ربع قرن أو ما يزيد ، لتنال الناشئة - وعليها المعول في الاحتفاظ بعمل الاصلاح - من العلم والمدنية والمران على الاعمال ما يضمن للدولة كيانها وعظمتها ، وللعثمانيين اتحادهم واستقلالهم

(رأى الكاتب البليغ)

الاستاذ امين افندى البستاني

سألتني رأيي في الدولة ومصيرها : جاز بالدولة في هذا العام عبرة كبرى اذا لم تعتبر بها نالها ما هو اشر منها . وللدولة الآن بقية ملك هو ابعد مدى وامنع حمى واطيب بقعة من جل الممالك الاوروبية ، فهل لها أن تعدل في الباقي من هذا الملك وتمنعه حادثات الدهر ؟ الله اعلم . على أن الدولة لا تجهل اشراط الملك على المالك وما هو مبق له وما هو ذاهب به ، حتى لقد اصبحت الدلالة على وجوه الاصلاح المنشود من مبتذلات الكلام، وملوكات الافواه والاقلام، فهل للدولة أن تعمل بما علمها الدهر على حين لم يبق لها من ناصر الا ما تسعى اليه، من ترميم هذا الملك العزيز ، والا فقد قضى الله بما لا دافع له ولا مانع له، وحسبكم الاشارة يا أبناء هذه الدولة . فاعدلوا بين ضروب الرعية لان دولتكم مستمدة من جملتها لا من ابعاضها، وقدموا الكفؤ على غيره مهما كانت نبعته ومنبت اسلته، واستعملوا الاجنبي

في تدبير ما انتم ضعاف عن تدبيره واسلكوا القصد في عملكم من غير سرف ولا تفريط وخذوا بالجديد الصالح واخلعوا القديم المبتذل ثم اعدوا للملك عدته من رجال ومال ، والله الواقي في هذا الباقي

﴿ رأي استاذنا الاجتماعي الكبير ﴾

احمد لطفي بك السيد

مدير الجريدة

(وصل في آخر ساعة لغياب حضرته عن القاهرة)

راجعت نفسي فوجدتني غير حاصل على المقدمات التفصيلية اللازمة لتكوين رأي صحيح في الوسائل العملية لاصلاح الدولة العلية . وان الذين يستطيعون معرفة هذه الوسائل هم رجال الدولة المشتغلون بسياستها والواقفون بانفسهم على ما اجهله من المقدمات الضرورية لتكون رأي صحيح غير أن لرقي الامم وهبوطها قوانين قد تكفي لتكوين رأي اجمالي ونظري في الاصلاح

مهما كانت الاسباب التي حملت اوروبا على اضطهاد الدولة العلية فلا شك في أن وقوعها في الضعف والهرم هو اهم تلك الاسباب ، وليس يوجد مانع طبيعي يمنع الدولة بعد أن مسها الهرم من استعادة شبابها بالاخذ بالتعليم الحديثة من حيث الحكم والتربية والتعليم وتدبير حالها الاقتصادية على وجه يكفل لها النظام والقوة . ولست اجد في هذا الحاضر ما يرجح كفة توقع الشر في المستقبل على كفة انتظار الخير . فاذا قام العنصر الحاكم باحترام اطماع العناصر المحكومة والنهضة بالامة عن الجمود الى التسلح بجميع الاسلحة الحديثة ان في التربية وان في الاقتصاد ، أمكن الحكم بهذه الدلائل على الاصلاح المنتظر . نعم ان للظروف الخارجية دخلا في اصلاح الدولة ولكن العثمانيين هم المسؤلون وحدهم عن اجراء هذا الاصلاح . عليهم عمل ما في قدرتهم والله يتولى امر ما لا يقدرون عليه

(المنار) هذه آراء أشهر حملة الاقلام وعلماء السياسة والقوانين من المصريين والسوريين ، وأكثرهم متفقون في الرأى فيما صرحوا به وما لم يصرحوا ، ولا تكاد ترى خلافا صريحا بينهم الا في مسألة استخدام الاجانب أو استعانة الدولة بهم ، أجازها أو أشار بها بعضهم تصريحا أو تلويحا وحذر منها بعض ، أهملها الاكثرون . وصرح جماعة بمسألة اللامركزية أو الاستقلال الاداري للولايات أو الاقاليم . ولم يحفل هذا الجمهور بمسألة القوة الحربية ولا البحرية التي تعدها الدولة بتقاليدها الموروثة كل شيء . وقد انفردنا بابداء الرأي في مسألة الدفاع . فلتعتبر بهذه الآراء الامة وان لم تعتبر بها الدولة.

﴿ عبد العزيز بك علي المصري ﴾

عبد العزيز بك المصري - أو عزيز بك كما تقول الترك - من ضباط اركان الحرب المشهورين في الجيش العثماني . وقائد برقه في قتال الجيش الايطالي . وقد قبض عليه في الاستانة منذ شهرين وسجن بأمر ديوان الحرب العرفي ، ولم يعرف السبب الرسمي لذلك ، فحدث لذلك من التأثير السيء في مصر وسورية وغيرهما من البلاد العربية فوق ما كان ينتظر ، وصار ذلك شغل الجرائد العربية الشاغل ، وسرى هذا التأثير الى كثير من الجرائد الاوروبية . وتناقلت الجرائد عن الاستانة ان الذي وشى به هو الشيخ عبد العزيز شاويش الذي وظيفته التجسس على العرب . وقد دعا شيخ الجامع الازهر اشهر علماء المصريين وفضلائهم الى عقد اجتماع للتشاور فيما يجب اتخاذه لانصاف هذا الرجل ، فاجتمع الوف من الناس في ٢٦ من هذا الشهر . وكان قد دعي الى الخطابة فيما يتعلق بهذا الموضوع رفيق بك العظم ومحمد افندي لطفي جمعه ومحمد ابو شادي بك وابراهيم بك الهلباوي - الثلاثة من المحامين - فخطب كل منهم فاجاد ، واثنوا على عبد العزيز بك المصري واطروا خدمته للدولة واقاموا الدلائل والبينات على استهجان القبض عليه وفندوا ما شاع وما تصور من اتهامه به . وخطب صاحب هذه المجلة خطبة ارتجالية وجيزة اقترحت عليه عند ما وصل وأخذ مجلسه من مكان الاحتفال ، واختار ناظم عقد اللجنة حسن باشا رضوان ان يكون الخطيب الثاني ، فأجبنا الطلب ، ثم اقترح علينا أن نكتب ملخص ما قلناه وننشره وهو هذا :

اقترح علي الآن أن اقول شيئاً في الموضوع الذي عقد لاجله هـذا الاجتماع ولم يكن اسمي في جدول الخطباء - وهم كثير - فانا اقول كلمة وجيزة حتى لا اضيع على الخطباء المستعدين وقتهم

سمعتم ما شرحه الخطيب الاول (رفيق بك) من خدمة عبد العزيز بك المصري للدولة والامة في إقامة الدستور وتأييده ، وفي مقاومة حرب العصابات المسلحة في مكدونية ، وفي اليمن وبرقة . وستسمعون من سائر الخطباء شرحا اوسع في الثناء على الرجل . وانني اظن كما تظنون أن الرجل بريء مما رماه به السعاة الواشون ، ولكنني ابني كلمتي على غير الاساس الذي بنى عليه رفيق بك كلامه ،

فانا لا افرض انه بريء ، وانه يخشى أن يؤثر في اعضاء المحكمة التي تنظر في قضيته ما يدور حولها من السعايات والاوهام فتصدق بعضها وتبني عليه الحكم ، ولا اقول بوجوب عقابه اذا كان مذنباً أو طلب العفو عنه بعد الحكم، بل أقول قولا آخر فهاكموه:

يجوز أن يكون عبد العزيز المصري قد أتى بذنب، لأننا نحن المسلمين لا نقول بعصمة أحد من البشر غير الانبياء الذين يبلغون رسالات ربهم فيما يتوقف عليه امر التبليغ وحكمته ، كما يجوز أن يذنب كل واحد من الناس وليس فيهم انبياء مرسلون. نجوز هذا عقلا وان كان لدينا دلائل متعددة تؤيد البراءة الاصلية ، أظهرها أن الرجل بقي زمناً في الاستانة بعد عودته من برقة كانت توكل اليه الاعمال العسكرية التي لا توكل عادة الى المجرمين المستحقين للسجون، ولم يؤخذ بالتهمة المبهمة الا بعد استقالته من الخدمة ، ولم يكن له بعدها عمل صالح ولا سيء . وانما أخذ بسعاية واش مفسد . فلنفرض انه مذنب ، وان ذلك الواشي الخبيث صادق

أنتم تعلمون ان الامم لا تعز ولا ترتقي الا بالرجال القادرين على الخدمة العامة للأمة القائمين بها ، وهؤلاء الرجال قليلون ، لذلك يجب ان يضن بهم وتقال عثراتهم . وعزيز المصري من هؤلاء الرجال بدليل ما قام به من الخدمة العامة للدولة والأمة، فاذا صدق ذلك الواشي النمام الخبيث – وما كان الا كذوباً – في زعمه انه قد اتى ذنباً يحاكم عليه ، أليس له من حسناته وخدمته العامة شفيع يقتضي أن تغفر الدولة ذنبه وتقيل عثرته ؟ وهل كان الذين يريدون الانتقام منه براء من الذنوب والعثرات ؟ أم نقول لهم كما قال المسيح عليه الصلاة والسلام حين جيء بالمرأة الزانية لاجل رجمها ؟

كلا ان لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة حسنة، ولنا في سيرة اصحابه وأئمة العدل من خلفائه ما نهتدي به في مثل حادثة عزيز المصري .

كان ابو محجن الثقفي مدمن خمر في الجاهلية وقد اسلم ولقي النبي (ص) وروى عنه حديثاً . وكانت الخمرة قد احدثت له مرض الخمار فكان لا يستطيع تركها ، وكانوا يجلدونه اذا شرب فيري الم الجلد دون الم الخمار . وقد حضر حرب القادسية مع سعد بن ابي وقاص (رض) فحبسه سعد وقيده بتهمة الشرب، وقد التحم المسلمون مع المجوس في معركة شديدة ، وكان سعد مجروحاً لم يحضر المعركة بل قعد على سطح بيته ينظر ما يفعل المقاتلون . فلما رأى ابو محجن رحى الحرب دائرة وخاف على المسلمين ان يغلبوا ، رغب الى امرأة القائد العام أن تحله من قيده ليحضر المعركة، وعاهدها بان يعود الى قيده اذا هو سلم . ففعلت . فوثب على فرس لسعد يقال لها

البلقاء، وحمل برمحه على جيش الاعداء، فكان لايحمل حملة الا انهزم الاعداء امامه. وكان سعد (رض) يرى ذلك ويتعجب ويقول: الكر كر البلقاء والحمل حمل أبي محجن(١) وابو محجن في القيد!. ولما انهزم العدو رجع ابو محجن الى قيده كما وعد امرأة سعد. واخبرت هي سعداً بما كان، فاطلقه من قيده، وقال: لا احدّ اليوم رجلا نصر الله المسلمين على يديه. فقال ابو محجن: لقد كنت اشربها اذ يقام علي الحد فيطهرني، واذ قد حايتني (٢) فوالله لا اشربها ابداً. وتاب من ذلك اليوم

ولدينا شاهد آخر من وقائع القادسية: زُهرة بن حَوِية هو الذي قتل الجالينوس، قائد جيش المجوس، وقد اخذ سلبه بدون إذن القائد العام سعد بن أبي وقاص، فانتزعه سعد منه وأراد أن يؤاخذه، ولكنه كتب الى امير المؤمنين عمر ابن الخطاب يستأمره في ذلك. فكتب اليه عمر (رض): تعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما صلى به، وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه؟ (٣)

انكر سيدنا عمر على سعد عمله، وامضى لزهرة سلبه، لانه رأى أن عمله الماضي والحاجة الى عمله في المستقبل أرجح من هذه المخالفة وأن المصلحة تقتضي ذلك.

ان لنا فوق هذا كله اسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في خبر حاطب بن ابي بلتعة: نقض مشركو قريش عهد النبي (ص) فاراد أن يزحف عليهم لفتح مكة، وكان لحاطب أهل ومال بمكة خاف عليهم لانه ليس لهم احد يحميهم، فكتب الى اهل مكة يخبرهم بعزم النبي (ص) فعلم النبي (ص) بما كان (وارسل من اخذ الكتاب من امرأة كانت تحمله في عقاص شعرها) وسأل حاطباً عن ذلك فاعترف واعتذر بالخوف على اهله وولده وانه عمل ما لا يضر الله ولا رسوله. فقبل عذره. واراد عمر بن الخطاب الذي تضرب الامم بعدله المثل أن يقتله، لان افشاء سر الحرب من اكبر الذنوب العسكرية فجعله عمر دليل النفاق، واستأذن النبي (ص) بقتله فلم يأذن له، وقال «انه شهد بدراً»

عد النبي (ص) شهود غزوة بدر من اقوى آيات الايمان، والصدق والاخلاص

(١) لفظ سعد (رض) «الضبر ضبر البلقاء، والظفر ظفر ابي محجن» الخ والضبر بالضاد المعجمة كر الخيل وعدوها: والظفر الوثوب (٢) كلمته المأثورة «بهرجتني» ونحن ذكرنا المعنى المراد من هذه الكلمات ليفهمها جميع الحاضرين. وقد أشكل على بعض الناس ترك سعد اقامة الحد وجهلوا سببه، وهو ان الحدود لاتقام في الحرب ولا دار الحرب، كما تراه في الفتوى الملحقة بالتفسير من هذا الجزء، وسعد يعلم هذا وهو مما أوصى به عمر، ولا يبعد ان لايبرة مثل ابي محجن (٣) الفوق بالضم موضع الوتر من السهم، ويطلق على السهم بمعنى الحظ وبمعنى أعلى الفضائل

في الاسلام، لان المسلمين كانوا وقتئذ في قلة عدد، وقلة مال، وقلة طعام، وقلة ركائب، كانوا في اشد الضعف، وكان المشركون في أوج قوتهم، فمن يبذل نفسه في سبيل الله في مثل تلك الحال، لا يبذلها الا بباعث الايمان وحافز الاخلاص، وتلك حسنة تتضاءل بازائها أي سيئة من السيئات

فلنفرض أن عبد العزيز المصري قد اجترح ذنباً عسكرياً كبيراً (كذنب حاطب أو ماليا كذنب زهرة بن حوية، أو شخصيا كذنب ابي محجن رضي الله عنهم)، وان ذلك الواشي الخبيث صادق فيما رماه به – وما كان اواشي النمام الخبيث الا كذوباً فاسقاً – اليس له من الجهاد في سبيل الحكومة الدستورية عند تكوينها ومن الدفاع عنها ايام كان الخطر محدقاً بها، ما يشبه حسنة حاطب في شهود غزوة بدر؟ وما كان حاطب ممتازاً فيها بشيء انفرد به دون سائر من حضرها، ولا كان في مقدمة الذين أبلوا فيها وأثخنوا؟ وأما عبد العزيز المصري فكان في مقدمة الضباط الذين أبلوا في فتح الاستانة وفي غيرها من الاعمال العسكرية التي ايدت الحكومة الحاضرة. فهو جدير بان يكتفى منه بالاعتذار، اذا فرضنا انه ارتكب بعض الاوزار، دع خدمته للدولة في عقد الصلح بينها وبين امام اليمن، بعد حرب استمرت عدة اجيال، سفكت فيها دماء مئات الالوف من الرجال، وضاعت بها القناطير المقنطرة من الاموال، ولم تستفد الدولة من ذلك فائدة ما، فكان ذلك الصلح من افضل الاعمال وانفعها للدولة ولأهل اليمن – ثم دع خدمته في قتال الجيش الايطالي في برقة

واذ كان هذا الاجتماع العظيم قد عقد لاجل التشاور في انصاف هذا الرجل، أو انقاذه من الخطر، قد جعل تحت رياسة الاستاذ الاكبر شيخ جامع الازهر، وشهده طائفة من اكبر علمائه، مع هذا الجمع العظيم من خواص البلاد – فالذي اراه وأقترحه هو أن ترسل برقية بامضاء الاستاذ الرئيس الى مولانا السلطان المعظم يخاطبه فيها بعنوان الخلافة، ويفتتحها بقوله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) ويطلب منه بان لا يؤاخذ عبد العزيز بك المصري بما عساه ينسبه اليه ديوان الحرب من ذنب أو تقصير، لاخلاصه وسابق خدمته للدولة، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم في مسألة حاطب، وبامير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في امضاء سلب الجالنوس لزهرة بن حوية وبسعد بن ابي وقاص في مسألة ابي محجن (رضي الله عنهم اجمعين) ويظهر له رغبته ورغبة هذا الجمع الكبير من علماء مصر وفضلائها في ذلك. واكبر ظني أن هذا هو أرجى ما يرجى نفعه في الاستانة.

هذا وانني اختم كلمي بالشكر لكم ايها الفضلاء الذين تصدتم هـذا المكان للسعي في انقاذ اخ لكم من الهلاك فان هذا خدمة للانسانية، ومحافظة على حقوق البشر في الحياة والحرية ، وقد قال الله تعالى (ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعاً) قال بعض مفسري السلف احياؤها السعي في انقاذها من الموت . والسلام .

هذا وان لجنة الاجتماع لم تعمل بهذا الاقتراح لانها كانت قد وضعت صورة برقية باسم الصدر الاعظم تتضمن معنى شفاعة الامة المصرية بالرجل . فجاءها جواب من أنور باشا ناظر الحربية ، ملخصه ان المجلس الحربي مستقل تمام الاستقلال لا يطرأ عليه أقل تأثير !!

﴿ التعصب على المنار ﴾

هاج بعض غلاة التعصب على المسلمين هيجة شؤمى على المنار في هـذا العام ، وجددوا السعي الى الوكالة البريطانية اولا وبالذات والى الحكومة المصرية ثانياً وبالتبع ، لتبطش بصاحب المنار فتلقيه في غيابة السجن ، أو تنفيه من ارض مصر ، واستعانوا على مجلهم وسعايتهم ببعض القسيسين وغير القسيسين ، من الاجانب والوطنيين ، ونفثوا سموم تعصبهم في جرائد القبط وبعض الجرائد الافرنجية التي يحرر فيها بعض السوريين . وكان محضاء نار هذه الفتنة ، والمدبر الاول لهـذه المكيدة ، يوسف الخزن اللبناني الذي يعيش من التحرير في جريدة الوطن القبطية ، وجريدة دوكير الفرنسية ، وهو هو الراسخ في بغض المسلمين الذي نقل عنه انه قال : اذا صافحه مسلم تضطرب اعصابه ، ولهذا لا تكاد تراه يبدأ مسلماً من معارفه بالمصافحة .

قد عرف القراء مما كتبناه في الجزء الماضي شيئاً من خبر هذه الهيجة التعصبية على المنار ، ولعل أدباء القراء ظنوا أن ما كتبناه في الجزء الماضي قد اطفأ بما يتجلى فيه من حسن نيتنا نيرانهم، واستخرج بحججه وسماحته اضغانهم، كلا انه لم يزدهم الا بغياً وعدواناً ، وسعاية ووشاية وزوراً وبهتاناً ، فنحن نثبت من تاريخنا ومما كتبناه في المنار من أول نشأته الى الآن ، اننا طلاب تسامح ووفاق، وهم يريدون أن يتبدلوا الشيء بضده فيوهموا من يسمع كلامهم أننا دعاة عداوة وافتراق ، نحقر النصارى وندعو المسلمين الى بغضهم وعداوتهم لاجل دينهم !!

حسب الانسان أن يعلم من نفسه ومن نيته السعي للخير، والاخلاص في العمل، فان كان يبالي باطلاع الناس على عمله ، ومظاهر حسن قصده، لاجل الاسوة الحسنة،

والتعاون على الخدمة العامة ، فحسبه أن يعرف أهل الاخلاص وحسن النية منه ما يعرفه من نفسه .

ونحن - ولله الحمد والمنة - اصحاب تاريخ معروف، واثر في السعي الى الاصلاح والاتفاق مدون مطبوع ، يعرفه قراء العربية ، ولا يجهله خواص الامم الافرنجية ، وحسبك ما نوه به في العام الماضي أصحاب المجلة الفرنسية المصرية بمصر ، وجريدة فرنسا الاسلامية في باريس ، من حسن تأثير خدمة المنار في المسلمين بحملهم على التسامح والمدنية ، وما سموه « المدرسة العبدية » هو ما بثه المنار من مشرب شيخنا الاستاذ الامام من إثبات التسامح الاسلامي والدعوة اليه ، والتأليف بين قواعد الاسلام الثابتة، وبين المدنية الصحيحة. وما قالته هاتان الصحيفتان اخيرا هو صدى ما كتب في جريدة الطان من بضع سنين في سياق الكلام عن مسلمي تونس ، وما كتبه لورد كرومر عن حزب الشيخ محمد عبده في تقريره الذي ذكره فيه عقب وفاته. وهل لمشرب الشيخ محمد عبده وآرائه مظهر عرفت به في الاقطار ، غير مجلة المنار ؟ بل نقول ان هذا المشرب مما اتفق فيه رأينا مع رأي الاستاذ رحمه الله تعالى ولم يكن مما تلقيناه عنه ، ومالنا فيه من القول والسعي اكثر مما كان له، ومن الشواهد على ذلك ما كتبناه في فاتحة العدد الاول من المنار ، وفي اول نبذة فيه بعد الفاتحة ، ولم نكن يومئذ تلقينا عن الاستاذ درسا ، ولا بسطنا معه في هذه المسألة وامثالها قولا.

قلنا في بيان خطة الصحيفة وما أنشئت لاجله ما نصه « وتحاول اقناع أرباب النحل المتباينة ، والمذاهب المختلفة ، ان الله تعالى شرع الدين للتحابّ والتواد والبر والاحسان، وان المعارضة والمناهضة، والمناصبة والمواثبة ، تفضي الى خراب الاوطان وتقضي على هدي الاديان »

وبينت في النبذة التي بعد المقدمة ان لفظ الكفر لم يستعمل في الكتاب والسنة للاهانة ، بل لبيان حقيقة من الحقائق . وأنه يستعمل الآن في غير ما كان يستعمل من قبل ، ومنه ارادة السب والشتم ، فلا يجوز ان يوجه بهذا المعنى في الخطاب بنداء أو وصف الى من حرم الشرع إيذاءهم وجعل لهم حقوقا محترمة من الذميين والمعاهدين (الاجانب الذين بينهم وبين المسلمين عهود على ترك الحرب اي غير المحاربين) واستخرجت نصا من كتب الفقهاء على ذلك لا حاجة لاعادة ذكره هنا

بعد هذا التمهيد اقول ليوسف الخازن واصحاب الجرائد القبطية من غلاة التعصب ومبغضي المسلمين كيفما كانوا ولجميع من هو مثلهم من وطني او اجنبي :

قولوا فينا ما شئتم ، وظنوا ما شئتم ، واعتقدوا ما شئتم ، وهيجوا من شئتم ، ولتدب عقارب سعايتكم الى من شئتم ، فنحن لا نبالي بكم ، ولا نأبه لرضاكم ولا لسخطكم ، فمن أخطأ الى مثلكم فهو الذي يحسن منه ان يصر ولا يعتذر ، اذ لا صارف لكم عن شيء من الشر ، الا مكانتكم من الضعف والعجز ، وها انتم اولاء قد اجمعتم كيدكم ، وبذلتم في سبيل ايذائنا جهدكم ، فما كنتم الا خائبين مخذولين « ان الله لا يصلح عمل المفسدين » نعم لو كان ساسة الانكليز كساسة القبط في عقولهم واخلاقهم ، وكان لورد كتشنر كيوسف الخازن في تعصبه وحنقه على المسلمين ، لأقفل المنار ، ونفي صاحبه من هذه الديار ، وتبعه اقفال الازهر بعد دار الدعوة والارشاد ، ولو رأيت من جمهور المشاركين لكم بلقب الدين مارأيت منكم ، لقلت للمسلمين انه قد ظهر لي في السنة السابعة عشرة من دعوتي اياكم الى الاتفاق والتعاون مع هؤلاء الناس على ترقية البلاد ، انهم لا يمكن ان يتفقوا معكم ، ولا يرضيهم منكم الا خروجكم من دينكم ، أو اقامتكم فيه على خسف ، لاتدفعون عنه بحق ، ولا تقابلون محاولي إبطاله واخراجكم منه بالمثل ولا دون المثل ، ولكن من فضل الله على عباده ان مثل هؤلاء الغلاة قليل ، ولهذا لانيأس من خطتنا ، ولا نرجع عن قاعدتنا . وهي (نتعاون على ما نشترك فيه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيه)

﴿ المسألتان الشرقية والصهيونية ﴾

ما تبددت ثروة شريف باشا الكبير في مصر الا وكان بددها مكونا لثروات جديدة لم تكن ، ومددا لثروات أخرى ومزيدا فيها . ذهبت تلك الثروة الكبيرة ممن عجزوا عن حفظها بله تنميتها ، الى ايدي القادرين على ذلك . وكذلك تتبدد الدول فتتألف من الكبيرة منها دول متعددة ، وتنمى وتتسع دول أخرى — سنة الله في تغذي الاحياء بفرائسها ، من افراد الجنة (الميكروبات) والهوام ، الى جماعات البشر . أرقى انواع الحيوان .

ومن عجائب العبر ، في تفاوت همم البشر ، أن ترى كاتبا صغيرا في خدمة غني كبير يطمع ان يرث ثروته او ينشئ لنفسه مثلها ، وذلك الغني ييأس من حفظ ثروته واستبقائها ، وان تعجب من تكون ممالك البلغار واليونان والصرب والجبل الاسود والالبان من املاك الدولة العثمانية في أوربة ، وتغذي الدول الكبرى بأملاكها في افريقية وفتح افواههن لابتلاع املاكها في آسية . فأعجب من ذلك كله تصدي جمعية من

يهود أوربة لتكوين دولة جديدة في البلاد المقدسة من هذه المملكة تتألف من مهاجرة فقراء اليهود المتفرقين في جميع اطراف الارض بمساعدة هذه الجمعية ؟ فكيف تسموهمة جمعية أسسها رجل من اليهود الى تكوين دولة من اوزاع المهاجرين الفقراء في بلاد تتنازع على شبر الارض فيها اقوى الامم والدول ، وتسفل همة اصحاب هذه البلاد عن حفظها لانفسهم ، دع سمو الهمة الى تأسيس ملك جديد ، في قطر قريب او بعيد . وهكذا تموت الناس وتحيا ، وهكذا تردى وترقى ، واسباب ذلك ظاهرة لا محل هنا لشرحها ، وكلها تدور حول العلم او الجهل ، وعلو الهمة او وطوءها ، وكبر المقاصد وصغرها . « والعلم ما يعرفك من انت ممن معك »

علم الصهيونيون ان الدول الكبرى لا يسمحن لواحدة منهن بامتلاك مهبط الوحي ومصدر الدين الموسوي والعيسوي وانه اذا زال ملك الترك من بلاد فلسطين فلا بد ان تكون مستقلة تحت حماية جميع الدول (وهذا رأي بعضهم في الحجاز ايضا) فطمعوا في ارضاء الدول بأن تحل اشكال التنازع بين الدول والمذاهب المسيحية بأن يكون اليهود هم اصحاب الملك في هذه المملكة ، بل طمعوا ايضا في ارضاء جمعية الاتحاد والترقي بذلك ، بل يقال انهم اقنعوها به فهي تساعدهم على التمهيد له لتقطع الطريق على العرب وتكثر خصومهم في بلادهم ، ولا محل هنا للبحث في اثبات هذا القول او نفيه ، وانما جئنا بهذه المقدمة كلها لاجل تذكير الذين اكثروا القول في المسألة الصهيونية من كتاب العرب بأنهم ما فتئوا يدورون حولها ولما يدخلوا فيها .

يجب على زعماء العرب اهل البلاد احد امرين . اما عقد اتفاق مع زعماء الصهيونيين على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد ان امكن — وهو ممكن قريب اذا دخلوا عليه من بابه ، وطلبوه بأسبابه — وإما جمع قواهم كلها لمقاومة الصهيونيين بكل طرق المقاومة ، وأولها تأليف الجمعيات والشركات ، وآخرها تأليف العصابات المسلحة التي تقاومهم بالقوة — وهو ما تحدث به بعضهم على ان يكون اول ما يعمل وانما هو الكي — والكي آخر العلاج كما يقال .

﴿ السيدة نُعمى آل رضا ﴾

في النصف الثاني من ليلة الاحد سادسة ليالي شهر ربيع الانور وهبنا الله تعالى بنتاً سميناها نعمى ، والله نسأل ان يحقق معنى الاسم في المسمى ، وقد فاتنا ان نذكر ذلك في الجزء الماضي .

﴿ تنبيه ﴾

وقع خطأ (في السفر الجليل في ابناء الخليل) لاحمد افندي ترجمان الذي الحق بمنار شهر ربيع الاول سنة ١٣٣٢ جزء ٣ وصوابه ما يأتي بيانه وهو : في صحيفة ٣ سطر ١٥ – ١٠ والصواب ١٧ وفي صحيفة ٤ سطر ١٦ في بلاد الشام اي وتخومها بما في ذلك بلاد آدوم وآدوم لقب عيسو اخي يعقوب وتم خضوع بني آدوم لداود الذي هو من يعقوب كما في اخبار الايام الاولى ١٨ : ١٣ وفي صحيفة ٨ سطر ٢ ١٩ : ١ والصواب ٩ : ١١ وفي صحيفة ١١ والسطر ٦ – ٤٩ والصواب ٤٠ : ٤ وفي صحيفة ١١ ايضا سطر ٧ سنة ٦١٢ والصواب سنة ٦٢٢ ميلادية وهي سنة الهجرة

هذا وتباع هذه الرسالة في مكتبة المنار بشارع عبد العزيز بمصر وفي مطبعة الهلال بالفجالة وثمنها ٥ مليمات

الخَيْرَاتِ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٢) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا

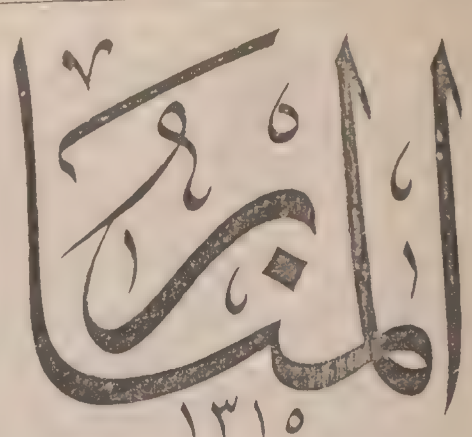
يهود أوربة لتكوين دولة جديدة في البلاد المقدسة من هذه المملكة تتألف من مهاجرة فقراء اليهود المدزقين في جميع اطراف الارض بمساعدة هذه الجمعية ؟ فكيف تسموهمة جمعية أسسها رجل من اليهود الى تكوين دولة من اوزاع المهاجرين

وانما هو الكي — والكي آخر العلاج كما يقال ·

﴿ السيدة نُعمى آل رضا ﴾

في النصف الثاني من ليلة الاحد سادسة ليالي شهر ربيع الانور وهبنا الله تعالى بنتاً سميناها نعمى ، والله نسأل ان يحقق معنى الاسم في المسمى ، وقد فاتنا ان نذكر ذلك في الجزء الماضي ·

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الالباب

﴿ قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق ﴾

مصر ٣٠ جمادى الاولى ١٣٣٢ هق ٨ الربيع الثاني ١٢٩٢ ه ش ٢٥ ابريل ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٥١) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
الْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً، وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا
الْخَيْرَٰتِ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ
(٥٢) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَإِن تَوَلَّوْا

فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون (٥٤) أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون

هذه الآيات تتمة السياق . بين الله تعالى شأنه إنزل التوراة ثم الانجيل على بني اسرائيل ، وما أودعه فيهما من هدى ونور ، وما حتم عليهم من اقامتهما ، وما شدد عليهم من إثم ترك الحكم بهما . فناسب بعد ذلك ان يذكر إنزاله القرآن على خاتم النبيين والمرسلين ، ومكانه من الكتب التي قبله ، وكون حكمته تعالى اقتضت تعدد الشرائع ومناهج الهداية - فتلك مقدمات ووسيلة ، وهذا هو المقصد والنتيجة، قال:

﴿ وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ اي وأنزلنا اليك الكتاب الكامل الذي أكملنا به الدين ، فكان هو الجدير بأن ينصرف اليه معنى الكتاب الإلهي عند الاطلاق ، وهو القرآن المجيد - هذه حكمة التعبير بالكتاب بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه الخاص (التوراة) وعن كتاب عيسى باسمه الخاص (الانجيل) - ومثل هذا اطلاق لفظ النبي حتى في كتبهم - وقوله بالحق الخ معناه أنزلناه متلبسا بالحق ، مؤيدا به ، مشتملا عليه مقررا له ، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مصدقا لما تقدمه من جنس الكتب الإلهية كالتوراة والانجيل ، أي ناطقا بتصديق كونها من عند الله ، وان الرسل الذين جاؤا بها لم يفتروها من عند أنفسهم ،

وأما قوله : ومهيمنا عليه - أي على جنس الكتاب الالهي - فمعناه أنه رقيب عليها وشهيد ، بما بينه من حقيقة حالها ، في أصل انزالها ، وما كان من شأن من خوطبوا بها ، من نسيان حظ عظيم منها واضاعته ، وتحريف كثير مما بقي منها وتأويله ، والاعراض عن الحكم والعمل بها ، فهو يحكم عليها لأنه جاء بعدها . روى ابن جرير عن ابن عباس انه قال : « ومهيمنا عليه » يعني أمينا عليه ، يحكم على ما كان قبله من الكتب . وفي رواية عنه عند الفريابي وسعيد بن منصور والبيهقي ورواة التفسير

المأثور قال : مؤتمنا عليه . وفي رواية أخرى قال : شهيدا على كل كتاب قبله .

لسان العرب : وقال ابن الانباري في قوله « ومهيمنا عليه » قال المهيمن (أي من اسماء الله) القائم على خلقه ، وأنشد :

ألا إن خير الناس بعد نبيه   مهيمنه التاليه في العرف والنكر

(قال) معناه : القائم على الناس بعده . وقيل القائم بأمور الخلق . (قال) وفي المهيمن خمسة أقوال — قال ابن عباس : المهيمن المؤتمن . وقال الكسائي المهيمن الشهيد . وقال غيره : هو الرقيب ، يقال هيمن يهيمن هيمنة اذا كان رقيبا على الشيء . وقال ابو معشر : « ومهيمنا عليه » معناه وقبّانا عليه . وقيل وقيّما على الكتب . اه والظاهر من مجموع الاقوال ان المهيمن على الشيء هو من يقوم بشؤونه ويكون له حق مراقبته والحكم في أمره بحق ، كما وصف بذلك أبو بكر (رض) في قيامه بأعباء خلافة الرسول (ص) . والقيام بالامر يستلزم المراقبة والائتمان والشهادة عليه .

ومن الغرائب ان بعض المفسرين فهم من هيمنة القرآن على الكتب التي قبله أنه يشهد لها بالحفظ من التحريف والتبديل ! . واللفظ لايدل على هذا المعنى ، فاذا كان معنى المهيمن الشهيد فهل يصح أن يتحكموا في شهادته كما يشاؤن؟ أم الواجب عليهم الرجوع الى ماقاله في شأن هذه الكتب وأهلها ، لأنه هو نص شهادته لها ولهم ، أو عليها وعليهم ؟ والقرآن يفسر بعضه بعضا — وحسبهم انه قال في هذه السورة نفسها في كل من أهل التوراة والانجيل انهم نسوا حظا مما ذكروا به ، كما قال في سورة النساء قبلها انهم « أوتوا نصيبا من الكتاب » . وقال فيهما جميعا انهم كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه . وقال النبي (ص) « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا (آمنا بالله وما أنزل الينا) الآية . رواه البخاري في صحيحه ، وذكر ان سببه انه كان بعض أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها لبعض المسلمين بالعربية ، فنهاهم (ص) عن الاستماع اليهم وقبول كلامهم بهذا الحديث . يوضحه مارواه احمد والبزار — واللفظ له — من حديث جابر قال . نسخ عمر كتابا من التوراة بالعربية فجاء به الى النبي (ص) فجعل يقرأ — ووجه النبي (ص) يتغير — فقال له رجل من الانصار : ويحك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله (ص)

فقال رسول الله (ص) « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، وانكم اما ان تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل . والله لو كان موسى بين أظهركم ماحل له الا اتباعي » وورد في هذا المعنى أحاديث أخرى ضعيفة . والمراد من النهي عن سؤالهم النهي عن سؤال الاهتداء ، وتلقي مايرونه بالقبول ، لاجل العلم بالشرائع الماضية وأخبار الانبياء ، لزيادة العلم أو لتفصيل بعض ما أجمله القرآن . وسببه ماهو ظاهر من السياق ، وهو أنهم نسيانهم بعض ما أنزل اليهم وتحريفهم لبعضه بطلت الثقة برواياتهم ، فالمصدق لها عرضة لتصديق الباطل ، والمكذب لها عرضة لتكذيب الحق ، اذ لا يتيسر لنا ان نميز فيما عندهم بين المحفوظ السالم من التحريف وغيره ، فالاحتياط أن لا نصدقهم ولا نكذبهم . الا اذا رووا شيئاً يصدقه القرآن أو يكذبه ، فانا نصدق ماصدقه ، ونكذب ما كذبه ، لانه مهيمن على تلك الكتب وشهيد عليها ، وشهادته حق ، لانه نزل بالحق ، وحفظه الله من التحريف والتبديل ، بتوفيق المسلمين لحفظه في الصدور والسطور ، من زمن النبي (ص) الى اليوم ، وسيحفظه كذلك الى آخر الزمان (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ولا يعارض هذا قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر) لان ذلك ورد في السؤال عن أمر متواتر قطعي وهو أن الرسل كانوا رجالا يوحى اليهم .

﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ أي اذا كان هذا شأن القرآن ومنزلته مما قبله - وهو أنه قائم بأمر الدين بعدها ، ورقيب وشهيد عليها ، فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله اليك من الاحكام والحدود ، دون ما أنزل اليهم ، لان شرعك ناسخ لشرائعهم ﴿ ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ أي ولا تتبع مايهوون - وهو الحكم بما يسهل عليهم ويخف احتماله - مائلا بذلك عما جاءك من الحق الذي لا مرية فيه ولا ريب ، ولو الى ماصح من شريعتهم بما نقصه عليك منها ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ هذه الجملة استئناف بياني لتعليل الامر والنهي قبلها . أي لكل رسول أو كل أمة منكم أيها الناس جعلنا شريعة أوجبنا عليهم اقامة أحكامها ، وطريقا للهداية فرضنا عليهم سلوكه لتزكية أنفسهم واصلاحها ، لان الشرائع العملية ، وطرق التزكية الادبية ، تختلف باختلاف أحوال الاجتماع واستعداد البشر . وانما اتفق

جميع الرسل في أصل الدين وهو توحيد الله واسلام الوجه له بالاخلاص والاحسان

والشرعة والشريعة في اللغة الطريق الى الماء، أي مورد الماء من النهر ونحوه، وهذا هو المستعمل عند العرب حتى الآن . وهي من الشروع في الشيء . قال ابن جرير : وكل ماشرعت فيه من شيء فهو شريعة ومن ذلك قيل لشريعة الماء شريعة ، لأنه يشرع منها الى الماء ، ومنه سميت شرائع الاسلام شرائع لشروع أهله فيه ، ومنه قيل للقوم اذا تساووا في الشيء : هم شرع ، سواء . واما المنهاج فان اصله الطريق البين الواضح . يقال منه : هو طريق نهج ومنهج بين ، كما قال الراجز :

من يك في شك فهذا فلج   ماء رواء وطريق نهج   اه

وقال بعضهم سميت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء من حيث ان من شرع فيها على الحقيقة روي وتطهر . والمراد الري المعنوي وطهارة النفس وتزكيتها . وقد جعل الله الماء سبب الحياة النباتية والحيوانية ، وجعل الشريعة سبب الحياة الروحية الانسانية .

اخرج غير واحد من رواة التفسير المأثور عن قتادة في قوله تعالى « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » يقول سبيلا وسنة . والسنن مختلفة، للتوراة شريعة وللانجيل شريعة وللقرآن شريعة، يحل الله فيها مايشاء و يحرم مايشاء، كي يعلم الله من يطيعه ممن يعصيه ، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره التوحيد والاخلاص الذي جاءت به الرسل . وفي رواية عنه : الدين واحد والشريعة مختلفة . وروى ابن جرير من عدة طرق عن ابن عباس انه قال في تفسير « شرعة ومنهاجا » سنة وسبيلا . وظاهر من قول قتادة ان الشريعة اخص من الدين ان لم تكن مباينة ، وانها الاحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل و ينسخ لاحقها سابقها ، وأن الدين هو الاصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الانبياء . وهذا يوافق او يقارب عرف الامم حتى اليوم ، لا يطلقون اسم الشريعة الا على الاحكام العملية ، بل يخصونها بما يتعلق بالقضاء وما يتخاصم فيه الى الحكام، دون مايدان الله تعالى به من احكام الحلال والحرام

ولا تجد هذا الحرف في القرآن الا في هذه الآية ـ وفي قوله تعالى من سورة الشورى (٤٢ : ١٣ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي اوحينا اليك ،

وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ـ ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وقوله منها (٤٢ : ٢١ ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟) ـ وفي قوله من سورة الجاثية (٤٥ : ١٧ ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون) فاما شرع الدين فهو وضعه وانزاله من عند الله تعالى وليس لغيره ان يشرع . فآيتا الشورى تدلان على أن وضع الله تعالى للدين ومخاطبة الناس به يسمى شرعا بالمعنى المصدري ، وليس مما نحن فيه . وأما آية الجاثية فقد روى ابن جرير عن قتادة انه قال فيها : الشريعة الفرائض والحدود والامر والنهي . وهو نص فيما ذكرنا من قصر الشريعة على الاحكام العملية دون العقائد والحكم والعبر التي يشتملها الدين . والمشهور في عرف فقهائنا وعامتنا ان الدين والشرع او الشريعة بمعني واحد . ولكن مع ذلك ترى استعمال : علم الشرع ، وعلماء الشريعة ـ وكتب الشريعة ، ـ ألصق بالفقه وكتبه وعلمائه منها بعلم العقائد والاخلاق وعلمائها وكتبها . وتجد الفقهاء يقولون : يجوز هذا ديانة لا قضاء . ونحو ذلك . وتحرير القول ان الشريعة اسم للاحكام العملية وانها أخص من كلمة (الدين) وانما تدخل في مسمى الدين من حيث ان العامل بها يدين الله تعالى بعمله ويخضع له ويتوجه اليه مبتغيا مرضاته وثوابه .

والآية نص في ان شرع من قبلنا ليس شرعا لنا مطلقا ، سواء كانت اللام في قوله « لكل جعلنا » للاختصاص الحصري ام لا ، خلافا لمن قال به محتجين بقوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك) الآية . وقوله (اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) الآية ، وما في معناها . فاما الآية الاولى فقد بين ماشرعه تعالى فيها من التوصية وهو قوله تعالى (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فهذه وصية الله الى الامم على ألسنة جميع الرسل ، فهي لاتدل على اتحاد شرائعهم بل على حظر الاختلاف في الدين ، لان الدين نزل لازالة الخلاف الضار واصلاح الامة ، فالاختلاف فيه يجعل الاصلاح افسادا ، والدواء داء . ولذلك قال تعالى (وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة) وقال (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) ولو

كانت الآية عامة في الدين والشريعة لكان معناها ان ما شرعه الله لنا هو عين ما شرعه لنوح والنبيين من بعده ، ولم يكن معناها اننا مخاطبون بالاحكام العملية التي شرعها الله لقوم نوح ومن بعده . وكون ما شرعه لنا هو عين ما شرعه لهم مناقض لقوله « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » وكيف يتصور عاقل ان يكون المراد من الآية ان كل ماشرعه الله لقوم نوح هو شرع لنا اذا لم يرد في شريعتنا ما ينسخه؟ وهو خبر لا فائدة فيه ، اذ لا علم لنا بما شرعه تعالى لقوم نوح ، وكلام الله منزه عن العبث ؟

وأما قوله تعالى في سورة الانعام (فبهداهم اقتده) فقد جاء بعد ذكر هدايته تعالى لطائفة من الانبياء والمرسلين، فلا يمكن ان يراد به العمل بشرائعهم العملية، لعدم إعلامه تعالى بها ، وعدم الثقة باعلام غيره – ان وجد – ولاختلافها ونسخ بعضها بعضا. قال بعض المحققين: ولا يجوز أيضا ان يراد بذلك الاقتداء بهم في العقائد وأصول الدين ، لأن الاقتداء تقليد ، والعقائد لاتصح الا بالعلم اليقيني بالبرهان العقلي أو السمعي ، وقد أبطل الله التقليد في كتابه فلا يقبله من آحاد الناس، فكيف يأمر به خاتم المرسلين ، الذي هو في مقام عين اليقين ؟ ولأنه صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية كان عالما بالعقائد داعيا اليها ، ولا معنى لان يكون أمره بالاقتداء أمرا بالثبات عليها . والصواب ان المراد بالاقتداء هنا موافقة سنتهم وسيرتهم في دعوة أقوامهم الى الدين والصبر على أذاهم، ونحو ذلك من خلائقهم الحسنة التي بينها الله تعالى في سيرتهم كما قال (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك)وقال تعالى(فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) أي ولا تستعجل لقومك العذاب كما استعجل بعضهم . واودلت هذه الآية على ان شرع من قبلنا شرع لنا الدل عليها قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أيضا . ولكنا مأمورين بأن نتبع من دون النبيين ، من الصديقين والشهداء والصالحين ، في جميع أحكام شرائعهم ، وجزئيات أعمالهم . كلا ان المراد بالهداية في هذا الباب هداية القلوب بما وفقها الله له من الاخلاص ونور البصيرة ، وحب الحق والخير وتحريهما في العلم والعمل ، والوقوف عند حدود الله تعالى . فهم بهذا كانوا مهتدين ، وهذا هداهم

وصراطهم ، لا احكام الشرائع التي خوطب بها من عمل بها ومن لم يعمل .

لعمري ان الحق في هذه المسألة واضح كالصبح بل هو أوضح . ولكن أكثر المصنفين المقلدين جروا على سنة سيئة . وهي ان يأخذوا أقوال العلماء الذين ينتسبون اليهم قضايا مسلمة ، ويلتمسون الدلائل لاثباتها وإبطال ما خالفها دليلا ومدلولا واو التمحل والتأول والاحتمال ، فلادلة عندهم تابعة لامتبوعة ، فما وافق الاصل المسلم عندهم ولو بادي الرأي قبلوه ، وما خالفه أبطلوه اعرضوا عنه وتركوه ، أو حرفوه وتأولوه . والا فمن المعلوم من الدين بالضرورة ان الله قد أكمل الدين بدينا ، وختم النبيين بنبينا ، وأرسله للناس كافة ، وكان كل نبي يبعث الى قومه خاصة ، وأن جميع الشرائع قبله كانت موقتة ، وشريعته هي الشريعة الدائمة ، وحكمة ذلك معروفة بين العلماء ، لم تكن محل خلاف بين المذاهب ولا بين الافراد ، وهي ان هذه الشريعة الكاملة السمحة صالحة لكل زمان وكل مكان ، وحكمة نسخ الشرائع الماضية عدم صلاحيتها لغير أهلها ، وعدم صلاحيتها للدوام في أهلها ، ويؤيد هذا جملة ما في الايدي من التوراة والانجيل ، فكل من اطلع عليهما يعلم علم اليقين انه لاطاقة للبشر في هذا العصر باقامتهما . فشدة أحكام التوراة في العبادات وأحكام المعاملات المدنية والقتال لا يمكن ان تعمل به أمة . ولشدة أحكام الانجيل في الزهد وترك الدنيا ، والخضوع لكل حاكم وكل معتد ، لا يمكن ان تكون عليه أمة - فاذا كان الامر كذلك فهل يعقل أن تكون تلك الشرائع الخاصة الموقوتة - التي نسختها شريعتنا لاكمال الدين بما يناسب ارتقاء البشر - شريعة دائمة لنا يجب علينا العمل بها ؟ وان يعد هذا أصلا من أصولنا ؟؟ يا ضيعة الوقت الذي نصرفه في رد هذا القول ، بل يا ضيعة الحبر والورق الذي يصرف في سبيله ؟ لولا انه صار ضروريا بتلك الشبهات التي فتن بها كثير من الاذكياء كالسعد التفتازاني وأضرابه

وجملة القول ان دين الله تعالى على ألسنة أنبيائه واحد في أصوله ومقاصده ، وهي توحيد الله وتنزيهه واثبات صفات الكمال له ، والاخلاص له في الاعمال ، والايمان باليوم الآخر، والاستعداد له بالعمل الصالح . وأما الشرائع فهي مختلفة . وشرع من قبلنا ليس شرعا لنا ، وموافقته لبعض الشرائع في بعض الاحكام

كوافقته لبعض القوانين الوضعية ، في كونها لا يصح أن تكون سببا لشرعها لنا ، كما لا يصح ان تكون مانعا - فانما كنا مخاطبين بهذه الاحكام بنزولها علينا ، لا بكونها شرعت لمن قبلنا ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب مخالفة اليهود - بعد نزول الكثير من الاحكام الشرعية عليه في المدينة - حتى في عمل البر الداخل في عموم شريعتنا وشريعتهم كصيام يوم عاشوراء اذ كان يصومه فلما قيل له في المدينة: ان أهل الكتاب يعظمونه - أو اليهود يصومونه - . قال «لئن بقيت الى قابل لأصومن التاسع» رواه مسلم وانما روي انه كان يحب موافقتهم اجتهادا قبل نزول الاحكام التفصيلية في مكة . وما قال من قال: ان شرع من قبلنا شرع لنا. الا لعدم التفرقة بين أصل الدين والملة و بين الشريعة ، لأن الجمهور يستعملون هذه الالفاظ استعمال المترادفات ، والتحقيق الفرق - كما قال قتادة - وعرفت تفصيله

يدل على ذلك ماورد في (ملة ابراهيم) فان الله سمى الاسلام ملة ابراهيم وأمر النبي (ص) باتباع ملة ابراهيم، وامتن على العرب بأنه أمرهم بملة أبيهم ابراهيم، قال تعالى (٣ :٩٥ قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) وقال (٤: ١٢٤ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا) وقال (٦ : ١٦١ قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم (١٦٢) دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان المشركين (١٦٣) قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٤) لاشريك له وبذلك أمرت وانا أول المسلمين) فهذا هو الاسلام وهو بيان لملة ابراهيم . يؤيد ذلك قوله (١٦ :١٢٠ ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ١٢١ شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم (١٢٢) وآتيناه في الدنيا حسنة وانه في الآخرة لمن الصالحين (١٢٣) ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) فهذه هي ملة ابراهيم الحنيفية السمحة التي كان عليها سائر الانبياء من ذريته - ومن قبله أيضا - يؤيده قوله تعالى (٢:١٣٠ ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين (١٣١) اذ قال له ربه أسلم

قال أسلمت لرب العالمين (١٣٢) ووصى ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون (١٣٣) ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون) يؤيد هذا قوله تعالى حكاية عن يوسف (١٢: ٣٧ اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ٣٨) واتبعت ملة آبائي ابراهيم وإسحق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون) فهذه الآيات يصدق بعضها بعضا ويؤيده ، وكلها برهان على ماحققناه . واما قوله تعالى في آخر سورة الحج (٢٢ : ٧٨ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملةَ ابيكم ابراهيم . هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا . ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير) فالظاهر ان قوله فيه « ملة ابراهيم » منصوب على الاختصاص ، اي الزموا ملة ابراهيم ، وهي التوحيد الخالص والاخلاص لله الذي هو معنى الاسلام . وعلم منه ان لفظ الملة يراد به اصل الدين وجوهره دون ما يتبع ذلك من الشرائع وتفاصيل الاحكام . ومنه قول العلماء : الكفر ملة واحدة . مع الجزم بأن شرائع الكفار مختلفة ومتعددة

قال تعالى ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ اي ولو شاء تعالى ان يجعلكم ايها الناس أمة واحدة ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد في سلوكها والعمل بها لفعل، بأن خلقكم على استعداد واحد ، وألزمكم حالة واحدة في اخلاقكم واطوار معيشتكم ، بحيث تصلح لها شريعة واحدة في كل زمن . وحينئذ تكونون كسائر انواع الخلق التي يقف استعدادها عند حد معين كالطير او النمل او النحل .

﴿ ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ اي ولكن لم يشأ ذلك بل جعلكم نوعا ممتازا يرتقي في اطوار الحياة بالتدريج وعلى سنة الارتقاء ، فلا تصلح له شريعة واحدة في كل طور من اطوار حياته ، في جميع اقوامه وجماعاته ، وآتاكم من الشرائع والمناهج في الفهم والهداية في طور طفولية النوع وغلبة المادية عليه ما يصلح له -

وفي طور تمييزه وغلبة الوجدانات النفسية عليه ما يصلح له — حتى اذا ما بلغ النوع سن الرشد ومستوى استقلال العقل ، بظهور ذلك في بعض الاقوام بالقوة وفي بعضها بالفعل، ختم له الشرائع والمناهج بالشريعة المحمدية المبنية على أصل الاجتهاد، وجعل امره في القضاء والسياسة والاجتماع ، شورى بين اولي الامر ، من اهل المكانة والعلم والرأي - « ليبلوكم » اي ليعاملكم بذلك معاملة المختبر لاستعدادكم « فيما آتاكم » أي اعطاكم من الشرائع والمناهج ، فتظهر حكمته في تمييزكم على غيركم من انواع الخلق في ارضكم ، وهو كونكم جامعين بين الحيوانية والملكية .

يظهر مثال ما حققناه في الشرائع والمناهج الأخيرة — اليهودية والنصرانية والاسلامية - فاليهودية شريعة مبنية على الشدة في تربية قوم ألفوا العبودية والذل، وفقدوا الاستقلال في الارادة والرأي ، فهي مادية جسدية شديدة ليس لاهلها فيها رأي ولا اجتهاد ، فالقائم بتنفيذها كالمربي للطفل العادم الشكس . والمسيحية يهودية من جهة وروحانية شديدة من جهة أخرى ، فهي تأمر اهلها بأن يسلموا أمورهم الجسدية والاجتماعية للمتغلبين من اهل السلطة والحكم ، مهما كانوا عليه من الفساد والظلم ، وان يقبلوا كل ما يسامون به من الخسف والذل ، ويجعلوا عنايتهم كلها بالامور الروحية ، وتربية العواطف والوجدانات النفسية ، فهي تربية للنوع في طور التمييز عند ما كان كالغلام اليافع الذي تؤثر في نفسه الخطابيات والشعريات . واما الاسلامية فهي القائمة على اساس العقل والاستقلال ، المحققة لمنى الانسانية بالجمع بين مصالح الروح والجسد ، وبهذا يصدق عليها قوله تعالى (وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) فهي مبنية على اساس الاستقلال البشري اللائق بسن الرشد ، وطور ارتقاء العقل ، ولذلك كانت الاحكام الدنيوية في كتابها قليلة ، وفرض فيها الاجتهاد ، لان الراشد يفوض اليه امر نفسه فلا يقيد الا بما يمكن ان يعقله من الاصول القطعية ، ومن مقومات أمته الملية ، التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان . ومن احب زيادة التفصيل في هذا البحث فليرجع الى تفسير قوله (٢ : ٢١٢ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين — الآية (ص ٢٧٦ ج ٢

تفسير) وتفسير « ولولا ان يكون الناس امة واحدة » في ص ٨٢٧ م ١٥ من المنار ، والى فصل (الدين الاسلامي او الاسلام) من رسالة التوحيد لشيخنا الاستاذ الامام .

ومن فقه ما حققناه علم ان حجة الله تعالى باكمال الله الدين بالقرآن وختمه النبوة بمحمد (ص) وجعل شريعته عامة دائمة ـ لا تظهر الا ببناء هذا الدين على اساس العقل ، و بناء هذه الشريعة على اساس الاجتهاد وطاعة اولي الامر ، الذين هم جماعة اهل الحل والعقد . فمن منع الاجتهاد فقد منع حجة الله تعالى وابطل مزية هذه الشريعة على غيرها ، وجعلها غير صالحة لكل الناس في كل زمان، فما اشد جناية هؤلاء الجهال على الاسلام ، على انهم يسمون انفسهم علماء الاسلام .

﴿ فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ اي فاذا كان الامر كذلك فالواجب عليكم جميعا ان تبتدروا الخيرات وتسارعوا اليها، لانها هي المقصودة بالذات من جميع الشرائع ومناهج الدين ، فما بالكم أيها الناس تنظرون من الدين والشرع الى ما به الخلاف والتفرق، دون حكمة الخلاف ومقصد الدين والشرع ، أليس هذا هو ترك الهدى ، واتباع سبل الهوى ؟ فاستباق الخيرات هو الذي ينفع في الدنيا والآخرة ، والى الله ـ دون غيره ـ ترجعون جميعا في الحياة الثانية ، فينبئكم عند الحساب بحقيقة ما كنتم تختلفون فيه ، ويجزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته . فعليكم أن تجعلوا الشرائع سببا للتنافس في الخيرات ، لا سببا للعداوة بتنافس العصبيات .

﴿ وأن احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك ﴾ أي انزلنا اليك الكتاب فيه حكم الله، وانزلنا اليك فيه أن احكم بينهم بما انزل الله اليك فيه ، ولا تتبع أهواءهم بالاستماع لبعضهم وقبول كلامه ولو لمصلحة في ذلك وراء الحكم، كتأليف قلوبهم وجذبهم الى الاسلام، فان الحق لا يتوسل اليه بالباطل . واحذرهم ان يفتنوك اي يستزلوك باختبارهم اياك وينزلوك عن بعض ما انزل الله اليك لتحكم بغيره . اخرج ابن اسحق وابن جرير وابن ابي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال كعب بن اسد

وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس « من اليهود » : اذهبوا بنا الى محمد لعلنا نفتنه عن دينه . فأتوه فقالوا : يا محمد انك عرفت أنا احبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وانا ان اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا ، وان بيننا و بين قومنا خصومة فنحاكمهم اليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك . فأبى ذلك : وانزل الله عز وجل فيهم « وان احكم بينهم بما انزل الله — الى قوله — لقوم يوقنون » اه يعني ان الحكمة في انزال هذه الآية اقرار النبي « ص » على ما فعل من عدم الحكم لهم وأمره بالثبات والدوام على ما جرى عليه من التزام حكم الله وعدم الانخداع لليهود ، وتسجيل هذه العبرة في كتاب الله . وروى ابن جرير عن ابن زيد أن فتنتهم ان يقولوا : في التوراة كذا وكذا ، فيصدّقوا .-والاول اظهر

﴿ فان تولوا فاعلم أنما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ اي فان تولوا عن حكمك بعد تحاكمهم اليك فاعلم ان حكمة ذلك هي ان الله تعالى يريد ان يعذبهم ببعض ذنوبهم في هذه الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فاضطرابهم في دينهم واستثقالهم لاحكام التوراة ، وتحاكمهم اليك رجاء أن تتبع اهواءهم ، واعراضهم عن حكمك بالحق ، ومحاولتهم لمخادعتك وفتنتك عن بعض ما انزل الله اليك — كل هذه مقدمات من فساد الاخلاق وروابط الاجتماع لا بد ان تنتج وقوع عذاب بهم . قيل ان المراد بالعذاب هنا ما حل بيهود المدينة وما حولها بغدرهم، وانما يصح هذا اذا كان نزول الآية قبل ذلك ، وعلى هذا يكون نزول هذا السياق كله قبل نزول أوائل السورة في حجة الوداع . فان ثبت انه لم يصبهم عذاب في عصر النبي «ص» بعد نزولها فلا يبعد ان يكون المراد بالعذاب اجلاء عمر من أجلاهم منهم في خلافته . وقيل المراد عذاب الآخرة وانما ذكر بعض الذنوب لبيان ان بعضها يوبقهم ويهلكهم، فكيف يكون العقاب على جميعها ؟ وهو كما ترى . ثم قال

﴿ وان كثيرا من الناس لفاسقون ﴾ اي لا يرعك ايها الرسول ما تراه من فسوقهم من دينهم ، وعدم اهتدائهم الى دينك، فان كثيرا من الناس قد صار الفسوق والعصيان والتمرد من صفاتهم الثابتة التي لا تنفك عنهم .

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ قرأ الجمهور يبغون بفعل الغيبة لأنه حكاية عن

اليهود ، وقرأه ابن عامر « تبغون » على الالتفات لمخاطبتهم، والاستفهام للانكار والتعجيب المتضمن للتوبيخ ، أي أيتولون عن حكمك بالحق فيبغون حكم الجاهلية المبني على الهوى وترجيح القوي على الضعيف ؟ روي ان هذا نزل في خصومة ما كان بين بني النضير و بني قريظة من جعل دية القريظي ضعفي دية النضيري لمكان القوة والضعف . ﴿ ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ اي لا أحد احسن حكما من حكم الله تعالى لقوم يوقنون بدينه ، ويذعنون لشرعه ؛ لان هذا الحكم يجمع الحسنين - منتهى العدل و التزام الحق من الحاكم، ومنتهى القبول والاذعان من المحكوم له والمحكوم عليه . وهذا مما تفضل به الشريعة الالهية القوانين البشرية . وقيل ان اللام هنا بمعنى عند او للبيان اي ان حكمه تعالى احسن الاحكام عند الموقنين وفي نظرهم ، وان جهل ذلك غيرهم . ومضمون الآية ان مما ينبغي التعجب منه من منكراتهم انهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر ، ويؤثرونه على حكم الله العادل ، والحال ان حكمه تعالى احسن الاحكام ، لاهل الايمان والاسلام . لأن حكمه هو العدل، الذي يستقيم به أمر الخلق ، وأما حكم الجاهلية فهو تفضيل القوي على الضعيف ، الذي يمكن الظالمين الاقوياء ، من استذلال أو استئصال الضعفاء ، وهو شر الاحكام ، المخرب للعمران المفسد للنظام .

ومن العبرة في الآيات أنه يوجد بين المسلمين الجغرافيين (١) في هذا العصر ، من هم أشد فسادا في دينهم وأخلاقهم من أولئك الذين نزلت فيهم هذه الآيات ، ومن ذلك أنهم يرغبون عن حكم الله الى حكم غيره ، ويرون أن استقلال البشر بوضع الشرائع خير من شرع الله تعالى ، على أنهم لايعرفون أصول شرع الله ولا قواعده ، بل يظنون انه محصور في هذه الكتب الفقهية - التي أكثر ما فيها من آراء أفراد من المجتهدين والمقلدين فهم ينتقدون كثيرا منها بعدم موافقتها لمصالح الناس تارة ولأهوائهم تارة أخرى . يحتجون بضرب من الجهل على ضرب آخر -

(١) المسلمون الجغرافيون الذين يعدون مسلمين في احصاء الجغرافية كما قلنا مرارا

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع الناس عامة ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ حديث صحيفة علي كرم الله وجهه ﴾

(س ١٢) من صاحب الامضاء بمصر

سيدي الأستاذ الفاضل والعلامة الكبير صاحب المنار الأغر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فأرجوكم شرح حديث عليّ الذي نقلتموه في(ص٤٨٣م١٦) من المنار وقوله فيه (وما في هذه الصحيفة ـ العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر) فما الذي تعرفه عن هذه الصحيفة ؟ وأين هي ولماذا أهملها المسلمون ؟ وهل ما فيها متفق عليه في جميع المذاهب؟ وإن لم يكن متفقا عليه فلمَ ذلك ؟ ولماذا امر صلى الله عليه وسلم بكتابتها مع أنه نهى عن كتابة شيء عنه غير القرآن ؟ ومتى أمر بكتابتها ومن كتبها وأين ؟ وكيف لا يقتل المسلم بالكافر . فالرجاء الاجابة الشافية عن كل هذه الاسئلة كعادتكم حتى لانحتاج لمزيد بيان بعد ذلك

(المخلص محمد توفيق صدقي)

(ج) الحديث رواه الجماعة أحمد والشيخان وأصحاب السنن بألفاظ متقاربة . أما البخاري فقد روى الحديث عن أبي جحيفة في كتاب العلم بلفظ قلت لعلي : هل عندكم كتاب؟ قال : لا الا كتاب الله ، أو فهم اعطيه رجل مسلم ، أو مافي هذه الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الاسير ولايقتل مسلم بكافر . ورواية الكشميهني «وان لا يقتل » الخ

وفي باب فكاك الاسير من كتاب الجهاد بلفظ : قلت لعلي هل عندكم شيء من الوحي الا ما في كتاب الله ؟ قال : لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما أعلمه الا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن ، وما في هذه الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال العقل وفكاك الاسير وان لايقتل مسلم بكافر .

وفي باب الديات بلفظ : سألت عليا رضي الله عنه : هل عندكم شيء مما ليس في

القرآن ؟ — وقال ابن عيينة مرة : مما ليس عند الناس — فقال : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما عندنا الا ما في القرآن، الا فهما يعطى رجل في كتابه وما في هذه الصحيفة . قلت وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل وفكاك الاسير الخ

ورواه في باب حرم المدينة من كتاب الحج عن ابراهيم التيمي عن ابيه بلفظ : عن علي (رض) قال : ما عندنا شيء الا كتاب الله ، وهذه الصحيفة عن النبي (ص) « المدينة حرم ما بين عائر الى كذا من احدث فيها حدثا ، أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل (وقال) ذمة المسلمين واحدة ، فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل ، ومن تولى بغير اذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل منه صرف ولا عدل »

وفي باب ذمة المسلمين من كتاب الجزية بلفظ « خطبنا علي فقال: ما عندنا كتاب نقرأه الا كتاب الله وما في هذه الصحيفة . قالوا وما في هذه الصحيفة ؟ فقال فيها الجراحات واسنان الابل ، والمدينة حرام ما بين عير الى كذا ، فمن احدث فيها حدثا أوآوى فيها محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، لايقبل منه صرف ولا عدل . ومن تولى غير مواليه فعليه مثل ذلك . وذمة المسلمين واحدة ، فمن اخفر مسلما فعليه مثل ذلك .

وفي باب إثم من عاهد ثم غدر بلفظ . عن علي قال : ما كتبنا عن النبي (ص) الا القرآن وما في هذه الصحيفة . قال النبي (ص) « المدينة حرام ما بين عائر الى كذا ، فمن احدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه عدل ولا صرف . وذمة المسلمين واحدة يسعى بها ادناهم ، فمن اخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل ، ومن والى قوما بغير اذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل »

وفي باب إثم من تبرأ من مواليه بلفظ : ما عندنا كتاب نقرؤه الا كتاب الله غير هذه الصحيفة (قال) فأخرجها فاذا فيها اشياء من الجراحات واسنان الابل (قال) وفيها المدينة حرام الخ (وذكر مسألة الولاء فمسألة الذمة بمثل ماتقدم)

وفي باب كراهة التعمق والتنازع والغلو في الدين من كتاب الاعتصام بلفظ : خطبنا عليّ على منبر من آجرّ فقال « والله ما عندنا من كتاب يقرأ الا كتاب الله

وما في هذه الصحيفة ، فنشرها فاذا فيها اسنان الابل ، واذا فيها المدينة حرم من من عير الى كذا ، فمن احدث فيها حدثا فعليه لعنة الله ـ ... واذا فيه :ـ ذمة المسلمين واحدة يسعى بها ادناهم فمن اخفر مسلما فعليه .... واذا فيها : من والى قوما بغير اذن مواليه فعليه ..... (الا انه قال) : لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

وروايات مسلم واصحاب السنن بمعنى روايات البخاري، وصرح مسلم بحدي المدينة وهما عير وثور (جبلان) قال الحافظ في فتح الباري في الكلام على حديث علي من طريق ابراهيم التيمي عن ابيه :

« وسبب قول علي هذا يظهر مما اخرجه احمد من طريق قتادة عن ابي حسان الاعرج أن عليا كان يأمر بالامر فيقال له « فعلناه » فيقول : صدق الله ورسوله . فقال له الاشتر : إن هذا الذي تقول اهو شيء عهده اليك رسول الله (ص) ؟ فقال ما عهد الي شيئا خاصة دون الناس الا شيئا سمعته منه فهو في صحيفة في قراب سيفي . فلم يزالوا به حتى اخرج الصحيفة فاذا فيها ـ فذكر الحديث ـ وزاد فيه « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم ، وهم يد على من سواهم . ألا لا يقتل مؤمن بكافر ، ولا ذو عهد في عهده (وقال فيه) ان ابراهيم حرم مكة واني أحرم المدينة ما بين حرتيها وحماها كله ، لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ، ولا تلتقط لقطتها ، ولا يقطع منها شجرة ، الا ان يعلف رجل بعيره ، ولا يحمل فيها السلاح لقتال » والباقي نحوه . وذكر في موضع آخر ان سبب سؤال علي زعم بعضهم ان النبي خصه بشيء دون الناس .

وقال في الكلام على حديثه في باب إثم من تبرأ من غير مواليه : وكان فيها ايضا ما مضى في الخمس من حديث محمد بن الحنفية ان اباه علي بن ابي طالب ارسله الى عثمان بصحيفة فيها فرائض الصدقة ، فان رواية طارق بن شهاب عن علي في نحو حديث الباب عند احمد انه كان في صحيفته فرائض الصدقة .

وقال الحافظ : ان الصحيفة كانت مشتملة على كل ما ورد . أي فكان يذكر كل راو منها شيئا ، إما لاقتضاء الحال ذكره دون غيره ، وإما لان بعضهم لم يحفظ كل مافيها او لم يسمعه . ولا شك انهم نقلوا ما نقلوه بالمعنى دون التزام اللفظ كله ، ولذلك وقع الخلاف في ألفاظهم . ولم ينقل الرواة أنه قرأها عليهم برمتها فحفظوها او كتبوها عنه، بل تدل ألفاظهم على انه كان يذكر ما فيها او بعضه من حفظه ، ومن قرأها لهم كلها أو

بعضها لم يكتبوها بل حدثوا بما حفظوا ومنه ما هو من لفظ الرسول (ص) ومنه ما هو اجمال للمعنى كقوله « العقل وفكاك الاسير » فان المراد بالعقل دية القتل وسميت عقلا لأن الاصل فيها ان تكون إبلا تعقل اي تربط بالعُقُل في فناء دار المقتول أو عصبته المستحقين لها . وقوله « اسنان الابل » في بعض الروايات معناه ما يشترط في اسنان إبل الدية او الصدقة . وفكاك الاسير ما يفك به من الاسر من فداء او مال. ففي الصحيفة بيان ذلك ، لا لفظ « العقل، وفكاك الاسير، واسنان الابل» . وجملة القول اننا لا نعلم ان احدا كتب عن أمير المؤمنين ما كان في تلك الصحيفة بنصه ، ولا انه هو كتبها بأمر النبي (ص) لانه قال في رواية قتادة عن أبي حسان انه سمع شيئا فكتبه

واما كتابة الصحيفة مع ما ورد من النهي عن كتابة شيء عن النبي (ص) غير القرآن، فيقال فيه ان النهي عن الكتابة معارض بالامر بها كحديث « اكتبوا لابي شاه » وغيره ، والكتابة لاهل اليمن ، وكتاب الصدقات الذي كتبه ابو بكر (رض) الى انس لما وجهه الى البحرين أي عاملا على الصدقة . فانه قال فيه « ان هذه فريضة ـ وفي رواية فرائض ـ الصدقة التي فرض رسول الله (ص) على المسلمين والتي أمر الله بها رسوله » الخ رواه الشافعي واحمد والبخاري وابو داود والنسائي وغيرهم وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن الزهري عن سالم بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب (رض) قال : كتب رسول الله (ص) كتاب الصدقة فلم يخرجه الى عماله حتى قبض فقرنه بسيفه . فعمل به ابو بكر حتى قبض ثم عمل به عمر حتى قبض» الخ هذا لفظ ابي داود ثم بينه بنحو حديث أنس مختصرا ولم يذكر الزهري البقر . وفي رواية عن يونس بن يزيد عن الزهري قال هذه نسخة كتاب رسول الله (ص) الذي كتبه في الصدقة وهو عند آل عمر بن الخطاب . قال ابن شهاب اقرأنيها سالم بن عبد الله ابن عمر فوعيتها على وجهها » ثم ذكر ان عمر بن عبد العزيز انتسخها . وقد تفرد بوصل هذا الحديث سفيان بن حسين وهو من رجال مسلم الا انه ضعيف فيما يرويه عن الزهري خاصة ، وتابعه سليمان بن كثير من رجال الصحيحين . وفي رواية ابي داود لحديث انس ان الكتاب كان عليه ختم رسول الله (ص) وغير ذلك مما ورد في الكتابة .

فمن الناس من يجعل الاذن ناسخا ومنهم من يجعل احد النصين مطلقا والآخر مقيدا كتقييد كون الكتابة عنه لتبليغ نصها والتعبد بلفظها عنه كالقرآن ، لئلا يشتبه

بعض الناس، فيمتنع التنافي بينهما حينئذ . وقد سبق للمنار البحث في ذلك كما يعلم السائل

واما الاخذ بالاحكام المروية عن تلك الصحيفة : هل هو متفق عليه أم لا ؟ فجوابه أن العلماء لم يتفقوا على العمل بها ، فمنهم من لم يحرم المدنية كمكة ، ومنهم من يقول: يقتل المؤمن بالكافر . كالحنفية . ومن خالف من العلماء شيئا مما في الصحيفة فله من الدليل المعارض له ما يراه مرجحا عليه ، كاحتجاجهم باقرار النبي (ص) لمن صاد النغر (طائر احمر المنقار كالعصفور) على جواز صيد المدنية ، على ان تلك واقعة حال مجهول تاريخها ، وكاحتجاجهم على قتل المؤمن بالكافر بان النبي (ص) قتل مسلما بمعاهد وقال « انا اكرم من وفى بذمته » رواه البيهقي من حديث عبد الرحمن البيلماني مرسلا وهو ضعيف . وبقوله في بعض روايات حديث الصحيفة وفي احاديث أخرى « لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده » قالوا معناه المناسب لعطفه على منع قتل المؤمن بالكافر - : ولا يقتل معاهد حال كونه في عهده لم ينقضه بكافر . وحينئذ يكون المراد بالكافر الحربي ، اي من كان محاربا للمسلمين بالفعل او بالقوة بان لم يكن بينه وبينهم عهد ولا ذمة . لان المعاهد والذمي لا يقتل بالحربي اجماعا ، وبعموم ادلة القصاص ، وليس هذا محل تحرير هذا البحث ، وانك تجد تحرير الادلة فيه من غير تعصب في (فتح الباري) و (نيل الاوطار)

فمن صح عنده قتل المسلم بالكافر فله ان يعده من عجائب مبالغة الاسلام فى العدل والمساواة ، ومن صح عنده خلافه فلا يراه بدعا في اعمال الامم الفاتحة ، والزمن زمن الاحكام العرفية او العسكرية ، بل ترى الافرنج لا يقبلون ان يكونوا مساوين لأمم الشرق والجنوب في الدماء لا في البلاد التي يفتحونها فتحا حربيا ولا سلميا ولا في البلاد التي يكونون فيها نزلاء معاهدين كالضيوف . اما احكامهم العرفية فحسبك نموذجا منها ماجرى في (دنشواي) من هذه البلاد من تمزيق جلود بعض المصريين بالضرب المبرّح بالسياط ذات العقد ، ثم شنقهم وصلبهم على أعين الناس من رجال ونساء وأطفال من أهلهم وغير أهلهم ، لانهم تجرؤا على بعض عسكر الانكليز الذين صادوا حمامهم عن بيادرهم بالمقاومة والضرب المعتاد الذي لا يقصد به القتل ، ولا يقتل مثله . هذا وقد اشتهر الانكليز بأنهم أعدل الاوربيين وأقربهم الى الرحمة. وحجة الافرنج في تميز انفسهم على الشرقيين انهم ارقى منهم عدلا وفضيلة ، وهكذا كان المسلمون فوق جميع الامم عدلا وفضيلة بشهادة جميع مؤرخي الامم . وانما ذكرت السائل بمسألة الاحكام العرفية وبهذا الشاهد منها ، وبما يعاملنا به الافرنج

في بلادنا ، ليحاجّ به من يجادل في أمثـال هذه المسائل من المخالفين أو متفرنجة المسلمين ، محجوبين بنظريات الحقوق عن سيرة العالم العملي . ومن لم يسدل على نظره هذا الحجاب يقول كما قال غوستاف لوبون الحـكيم الفرنسي « ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » وكذا سائر المسلمين كانوا في فتوحاتهم أعدل وأرحم من غيرهم وان كانوا دون العرب .

دليل منع الحائض من الصلاة وحكمته

(س ١٣) من صاحب الامضاء في (ههيا - شرقية)

سيدي الاستاذ الرشيد المرشد

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فقد قرأت مباحثـكم الرائقة الحـكيمة في موضوع الوضوء والطهارة في المنار فاعجبتني جدا ، واستفدت منها الشيء الكثير ، فجزاكم الله عني وعن الاسلام والمسلمين خير الجزاء . واني لمناسبة هذا المقام لسؤال عندي قديم ، أنتهز هذه الفرصة لابديه ، عسى ان تتكرموا بالجواب على طريقتكم العصرية فأقول :

هل سقوط فريضة الصلاة عن المرأة وهي حائض أو في نفاس من الاشياء المجمع عليها بين جميع فرق المسلمين ، واذا كانت كذلك أو كانت صحيحة فلم لم تذكر في القرآن مع أنه تعالى نهى عن الجماع في الحيض فـكان من باب أولى أن ينهى عن الصلاة في مثل هذه الحالة لو كان اراد سبحانه وتعالى ان يكون النهي لـكل زمان ومكان ، كما ذكر مسوغات عدم الحج بقوله (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) ومسوغات عدم الصيام او بالاحرى ما يمنع الصيام بقوله تعالى (ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من ايام أخر)

لم تذكر موانع للصلاة مطلقا وانما ذكرت أعمال يؤتى بها قبل الشروع فيها ، فلا الخوف من الاعداء أو غيرهم في الحرب أو غيرها مسوغ لترك أو تأجيل الصلاة ، فكيف يكون دم الحيض وهو ذلك الدم الذي يتغذى منه الجنين في بطن امه مانعا من الصلاة ؟ فان صح ان يقال انه نجس ، يصح ان يقال ان جسم الطفل بل جسم كل انسان نجس ، لأن اصله من ذلك الدم

العلم الحديث لم يثبت ان في دم الحيض عناصر خبيثة في ذاتها بل اثبت ان الاتيان اثناء وجوده ضار جدا بالمرأة ، لأن أعضاءها التناسلية تـكون في حالة احتقان . والاوعية الدموية فيها تـكون متمددة ، فيسهل حصول نزيف بسبب

حركة عنيفة، كما يسهل جدا دخول مكروبات الامراض، فتحدث التهابات موضعية وغيرها قد تذهب بحياة المرأة أو تورثها العقم الدائم مع الآلام الشديدة . ولا سيما عند مجيء الحيض في كل شهر . والرجل لا يخلو أيضا من الضرر ، فقد يدخل بعض السائل من الحيض في مجرى البول من القضيب فيحدث التهابا يشبه السيلان

وهـذا كله ينطبق على قوله عز وجل (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)

فاين هذا من نهي الحائض عن الصلاة وهي عماد الدين ؟ ومثلهـا في طهارة الارواح كمثل الماء في طهارة الاجسام ، على ان حركاتها من قيام وركوع وسجود لاتضر الحائض غالبا ، وان خيف منها الضرر فيمكن أن تؤتى بشكل خال من كل مضرة . وليكن أخذ ذلك من قوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فان خفتم فرجالا أو ركبانا . فاذا امنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون)

الحيض لا يمكن اعتباره الا مرضا شهريا من اخف الامراض فلم تؤمر المرأة بالصلاة في أشد الامراض وأكثرها اذى لها ولغيرها وتنهى عنها في الحيض الذي لا ينهى عن القيام باكثر أعمالها اليومية ؟ فما رأيكم دام فضلكم

المستفيد من علمكم والمستضيء بمناركم
الدكتور عبده ابراهيم

(ج) نقل الحفاظ إجماع المسلمين على ان الحائض لا يشرع لهـا الصلاة ولا الصيام، وانها تقضي الصيام دون الصلاة . الا انهم نقلوا ان سمرة بن جندب من الصحابة (رض) كان يقول بمطالبة المرأه بقضاء الصلاة أيضا فأنكرت ذلك عليه ام المؤمنين ام سلمة (رض) ونقلوا أيضا مثل ذلك عن بعض الخوارج ولم يعتدوا به ولا رأوه مخلا بالاجماع . وأما مخالفة سمرة فهي تخرق الاجماع ، وظاهر كلامهم انه رجع الى قول ام سلمة لأن امهات المؤمنين هن القدوة فيما نرويه من هـذه الاحكام المتعلقة بالنساء ، اذ لا يجوز ان يوجب الله على النساء قضاء الصلاة ولا يأمرهن به النبي (ص) بل لا يجوز منه السكوت عن ذلك أو إقرارهن عليه . وقد جعل العلماء حجة الاجماع على ذلك ما ورد فيه من الحديث

ويمكن ان يستنبط الدليل من القرآن على منع الحائض من الصلاة ، فانه تعالى قد اشترط الطهارة للصلاة ، والطهارة متعذرة على الحائض مع استمرار سببها وهو نزول الدم . أما الطهارة المشترطة للصلاة إجماعا فهي الوضوء من الحدث الاصغر والغسل من الحدث الاكبر ، واما المشترطة عند الاكثرين فقط فطهارة البدن

والثوب والمكان . وقد صرح القرآن في آيتي الوضوء والتيمم بأن طهارة الجنب الغسل ، والحائض ملحقة بالجنب لا نحدثها كحدثه في تأثيره في الروح والجسد ، كلاهما يحدث في الجسد ضربا من الضعف والفتور يزيله تعميم البدن بالماء كما بيناه في حكمة الوضوء والغسل ، وكلاهما يضعف الروحانية . وقد ثبت في السنة والاجماع القولي والعملي المتواترين ان المراد بقوله تعالى في بيان طهارة الحيض (فاذا تطهرن) فاذا اغتسلن ، فطهارتهن الغسل بالكتاب والسنة والاجماع ، وهي متعذرة مع وجود سببها وإنما تجب بزواله ، فاذا تعذرت الطهارة تعذرت الصلاة شرعا لانها مشروطة بها . وتتعذر عليها الطهارة من الخبث كما تتعذر عليها الطهارة من الحدث ، فان الدم نجس شرعا وعرفا لأنه مستقذر جدا باتفاق الطباع السليمة من كل الامم . ولا يلزم من نجاسته نجاسة الجنين الذي يتغذى به ، كما لا يلزم ان يكون النبات الذي يتغذى بالعذرة والروث وغيرهما من الاقذار نجسا ، فالنجاسة في الشرع والعرف لاتبنى على قواعد الطب، فان جميع ادباء البشر بل جميع طبقاتهم تستقذر المطلخ بالدم وتعاف مجالسته ومواكلته ومصاحبته ، وان لم يضرهم ذلك الدم بافساد صحتهم عليهم، وخروج المني يوجب الغسل وهو طاهر عند بعض الأئمة . وصرح الفقهاء بان الدم وغيره لا يحكم بنجاسته في معدنه من البدن بل بعد خروجه. ومتى خرج دم الحيض صار قذرا ولم يعد غذاء للاجنة

وقد علم مما تقدم أن ماثبت في السنة العملية والاجماع من سقوط الصلاة عن الحائض له مأخذ من القرآن ، والقرآن لم يبين احكام الصلاة التفصيلية بل تركه لبيان النبي (ص) الذي خاطبه بقوله (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) اذ يشمل هذا بيان الذكر المنزل وتبليغه، و بيان المجمل منه، وما يستنبط من دقائق تعبيره وأساليبه ــ كاستنباط النبي (ص) تحريم الأكل والشرب في أواني الذهب والفضة من قوله تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) بجعل الاسراف في لزوم الشيء ومتعلقاته كالاسراف فيه نفسه ، واستنباطه تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها من تحريم الله الجمع بين الاختين ، لاتحاد العلة ، واطراد الحكمة .

ولم نذكر في سياق هذا الاستدلال ما عليه السواد الاعظم من المسلمين من تحريم قراءة القرآن على الجنب والحائض ، والقرآن ركن من أركان الصلاة لاتتم بدونه ، لانه وقع فيه خلاف ما . ولهذا مأخذ من القرآن وان لم يكن نصا فيه ، وهو قوله تعالى (لا يمسه إلا المطهرون)

وجملة القول ان الصلاة أكمل العبادات اذا لم تصح مع الجنابة فلا تصح مع الحيض بالأولى . وكلا السائلين فيهما من اسباب النسل . والحيض مرض قد تضر

معه الصلاة كما قلتم ، والفرق بينه و بين سائر الامراض التي تسقط معها الصلاة انه طبيعي دائم وسائر الامراض ليست كذلك ، وهي خلاف الاصل ومقتضي الطبيعة المعتدلة . واذا اسقطها الشرع عن المرأه تخفيفا عليها ، فان لها من العبادة المزكية للروح مالا يشترط فيه ما يشترط فيها وهو ذكر الله عز وجل بالقلب واللسان والتفكر في خلق السموات والأرض (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر)

حقيقة الاعجاز (*)

اما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن، وما حققناه بعد البحث، وانتهينا اليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر وإنضاج الرّوِية ، وما استخرجناه من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه واطراد اسلوبه ، ثم ما تعاطيناه لذلك من التنظير والمقارنة واكتناه الروح التاريخية في اوضاع الإنسان وآثاره . وما نتج لنا من تتبع كلام البلغاء في الأغراض التي يقصد اليها. والجهات التي يعمل عليها . وفي رد وجوه البلاغة الى أسرار الوضع اللغوي التي مرجعها الى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة التأليف وإحكام الوضع وجمال التصوير وشدة الملاءمة ، حتى يكون اصغر شيء فيه كأكبر شيء فيه ـ نقول : ان الذي ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا أن هذا القرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز على اطلاقه . فهو امر لا تبلغ منه الفطرة الانسانية مبلغاً ، وليس الى ذلك مأتىً ولا جهة، وانما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع. وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغاً من ذوب تلك المواد كلها. وما نظنه الا الصورة الروحية للانسان. اذا كان الانسان في تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله .

فالقرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثره الانساني، ومعجز في حقائقه. وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الانسانيه في شيء. فهي باقية ما بقيت.

---

*) فصل من الجزء الثاني من كتاب آداب لغة العرب لمصطفى صادق افندي الرافعي

وقد اشرنا اليها في بعض الفصول المتقدمة، على انها ليست من غرضنا في هذا الباب. وانما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي. لاننا انما نكتب في تاريخ الآداب . ونحن في كل ما نضعه من هذا الكتاب إنما نسلك الجانب الضيق من الطريق. ونقتص الأثر الطامس، ونلتزم الخطة التي تحمل عليها النفس حملا، وقد كان فيما قدمناه بل فيما دونه مقنع لو آثرنا ما تستوطئه النفس ، وعطفنا على ما تنازع اليه من السكون، كلما انتهت الى حجة واضحة او استبانت لائحة مسفرة، ولكننا نمضي ما اعتزمنا فاللهم عونك واللهم عونك .

هذا ولا بد لنا قبل الترسل في بيان ذلك الإعجاز ان نوطئ بنبذ من الكلام في الحالة اللغوية التي كان عليها العرب عند ما نزل القرآن فستقلب من كتاب الدهر ثلاث عشرة صفحة تحتوي ثلاثة عشر قرناً لنتصل بذلك العهد. حتى نخبر عنه كأننا من اهله وكأنه رأي العين . وانما سبيل الصحة فيما نحن فيه أن يشهد عليه الشاهد ان العين والأذن إذ كان من شأنهما ان لاتثبت دعوى في حادثة دون ان يشهد عليها احدهما او كلاهما .

بلغ العرب في عهد القرآن مبلغاً من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل، فان كل ما وراءه انما كان ادواراً من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها واطرادها على سنن الاجتماع ، فكانوا قد اطالوا الشعر وافتنوا فيه وتوافى عليه من شعرائهم افراد معدودون. كان كل واحد منهم كأنه عصر من تاريخه. بما زاد في محاسنه وابتدع من اغراضه ومعانيه ، وما نفض عليه من الصبغ والرونق ، ثم كان لهم من تهذيب اللغة واجتماعهم على نمط من القرشية يرونه مثالا لكمال الفطرة الممكن ان يكون. واخذهم في هذا السمت ما جعل (الكلمة) نافذة في اكثرهم. لا يصدها اختلاف من اللسان، ولا يعترضها تناكر في اللغة . فقامت فيهم بذلك دولة الكلام. ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن .

وكل من يبحث في تاريخ العرب وآدابهم وينفذ الى ذلك من حيث تنفذ به الفطنة وتتأتى حكمة الاشياء . فانه يرى كل ما سبق على القرآن من امر الكلام العربي وتاريخه انما كان توطيداً له، وتهيئة لظهوره. وتناهياً اليه. ودُربة لاصلاحهم به،

وليس في الارض امة كانت تربيتها لغوية غير اهل هذه الجزيرة . فما كان فيهم كالبيان آنَقَ منظراً وأبدع مظهرا ، وأمدّ سبباً الى النفس ، وارد عليها بالعاقبة ، ولا كان لهم كذلك البيان ازكى في ارضهم فرعا ، واقوم في سمائهم شرعا ، واوفر في انفسهم ريعا ، واكثر في سوقهم شراءاً وبيعا . وهذا موضع عجيب للتأمل ما ينفد عجبه على طرح النظر وإبعاده ، وإطالة الفكر وترداده ، واي شيء في تاريخ الأمم اعجب من نشأة لغوية ، تنتهي بمعجزة لغوية ، ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الأمة مما تنطوي عليه هذه المعجزة ، وتأتي به على اكمل وجوهه واحسنها . وتخرج به للدهر خير امة كان عملها في الأمم صورة اخرى من تلك المعجزة ؟

هذا على انه - كما علمت - انشأهم على الكبر ، ولم يجر معهم على المألوف من مذاهب تربية الأمم ، ولا هو كان طباقاً لروح الأخلاق التاريخية فيهم التي تظهرها العادات على كل دين وشريعة وسياسة ، إذ كانت ميراث الدهر ، وكانت مستقرة في كل عرق سار ، وفي كل شبه نازع . وكانت روح المجموع لاتكون الا منها ، ولا تعرف الا بها ، ولا تظهر الا فيها . فما عدا ان سفه احلامهم ، ونكس اصنامهم ، وازرى عليهم وعلى آبائهم الأولين وقام على رؤسهم بالتقريع والتأنيب ، وهم اهل الحمية والحفاظ ، واهل النفوس التي تصب كالمعاني في الالفاظ ، ثم ذهب بطريقة كانت لهم معروفة . وعادات كانت لهم مألوفة . وارسلهم في طريق العمر الى الفناء ، فكأنما طلع بهم من اولها . وكأنهم بعد ذلك على آدابه نشأوا وهم اغفال واحداث . بل كأنهم سلالة اجيال كان القرآن في اوليتهم المتقادمة فكانوا هم الوارثين لا الموروثين ، والناشئين لا المنشئين ، مصداقاً للحديث الشريف « خير القرون قرني ثم الذي يليه » . ولعمرك إن هذا لعجيب ، وليس اعجب منه إلا ان اول جيل انسل من هؤلاء القوم كان هو الذي تنول مفتاح العالم فأداره . وقد خرج للغاية التي جاء بها القرآن ، وكأنه دارمعها في الاصلاب دهرا طويلا ، حتى احكمته الوراثة الزمنية ، ووردت عليه من الطباع ما لا يتهيأ الا في سلالة بعد سلالة وجيل بعد جيل ، من قوم قد مروا منذ اولهم في ادوار الارتقاء . على سنن واضح وطريق نهج . لم ينتقض لهم في

اثناء ذلك طبع من طباع الاجتماع . ولا رذلت شيمة . ولا التوت طريقة . ولا سقطت مروءة . ولا ضل عقل . ولا غوت نفس . ولا عرض لهم بغي ولا افسدتهم عادة . واين هذا كله او بعضه من قوم كانوا بالامس عاكفين على الاوثان يأكل بعضهم بعضاً ، ولهم العادات المرذولة . والعقائد السخيفة . والطباع الممزوجة - الى غيرها مما يحمل عليه الإفراط فيما زعموه فضيلة كحمية الأنف واستقلال النفس . ومما كان من عكس ذلك كالتسليم للعادة والانقياد لطبيعة التاريخ . والمضي على ماوجدوا ثم الموت على ما ولدوا؟

لا جرم ان في ذلك سرا من اسرار الفطرة . فلولا ان اكبر الأمر بينهم كان للفصاحة واساليبها بما استقام لهم من شأن الفطرة اللغوية وما بلغوا منها كما فصلناه في بابه . حتى صارت هذه الأساليب كأنها اعصاب نفسية في اذهانهم . تنبعث فيها الإرادة بأخلاق من معاني الكلام الذي يجري فيها . وتعتزم على اخلاقهم وطباعهم فتصرفهم في كل وجه . كأنها إرادة جبارة معتزمة لا يلوي ولا يستأني ولا يتئد .

ولولا ان القرآن الكريم قد ملك سر هذه الفصاحة وجاءهم منها بما لا قبل لهم برده . ولا حيلة لهم معه . مما يشبه على تمام اساليب الاستهواء في علم النفس . فاستبد بإرادتهم . وغلب على طباعهم . وحال بينهم وبين ما نزعوا اليه من خلافه . حتى انعقدت قلوبهم عليه وهم يجهدون في نقضها . واستنفذوا لدعوته وهم يبالغون في رفضها . فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون الا اليه . لأنه اخذ عليهم بفصاحته واحكام اساليبه جهات النفس العربية . والمكابرة في الأمور النفسية لاتتجاوز اطراف الألسنة . فإن اللسان وحده هو الذي يستطيع ان يتبرأ من الشعور ، إذ هو أداة مغلبة تتعاورها الأغراض . والألفاظ كما يرمى بها في حق او باطل ، لاتمتنع على من ارادها لأحدهما او لهما جميعاً ؛

قلنا لولا ان ذلك على وجهه الذي عرفت لما صار امر القرآن الى اكبر مما ينتهي اليه امر كل كتاب في الأرض . بل لما كان له في اولئك العرب امر البتة ، لأنهم قوم أميون قد تأثلت فيهم طباع هذه الأمية . وكان لهم الشيء الكثير من العادات والأخبار والتواريخ . وبينهم اهل الكتاب من اليهود والنصارى . ثم هم لم يعدموا الحكماء من خطبائهم وشعرائهم . ومن جنح الى التأله منهم . كامية بن ابي

الصلت وقس ابن ساعدة وغيرهم .

ولو جاءهم القرآن بشيء لا يفهمونه ولا يثبتون معناه على مقدار ما يفهمون . ولا كان هذا القرآن كتاب سياسة ولا نظام دولة . ولو كان امراً من ذلك ما حفلوا به ولا استدعى هو منهم الإجابة . لأنهم لم ينزعوا في الحرية لم تغلبهم عليه دولة من دول الأرض . ولا أفلح في ذلك من دول من دول هذه الدول في الأكاسرة والقياصرة والتبابعة . بل خلقوا عرباً يشرقون ويغربون مع الشمس حيث أرادوا وحيث ارتدوا . وهم على ذلك لم يجمعهم ولا يخرجهم الى الدنيا ولا يغلبهم على تصريف الأمور غير القرآن .

فلو ان هذا القرآن غير فصيح . او كانت فصاحته غير معجزة في أساليبها التي ألقيت اليهم . لما زال منهم على الدهر ولا نزلا منه عن وضعه الذي هو فيه . ثم لكان سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص . وهو لم يخرج عن كونه في الجملة كأنه موجود فيها بأكثر معانيه . قبل أن يوجد بألفاظه وأساليبه . ثم لنقضوه كلمة كلمة وآية آية . دون أن تتخاذل أرواحهم . أو تتراجع طباعهم . ولكان لهم وله شأن غير ما عرف . ولكن الله بالغ أمره .

وقد أومأنا في بعض ماسلف الى ان هذا القرآن يكبر ان يكون حيا بروح عصره الذي أنزل فيه . فلا يستطيع من يقول بإعجازه أن يقصره على زمن الجاهلية . او يتعلل في ذلك . وهو بعد من الإحكام والسمو وشرف الغاية وحسن المطابقة ، بحيث تعرف منه روح كل أمة قد فرعت الأمم واستولت على الأمد التاريخي ، ونالت ما لا ينال الا مع بسطة في العلم ، وزيادة في المعرفة بوجوه العمل . وفضل من القوة . ومع كمال المنزلة في كل ذلك واشباهه من مقومات الأمة ، كذلك ما علمت .

وان ههنا وجهاً آخر هو اعجب مما اومأنا اليه ، على انه ضريبه في الحكمة وقسيمه في الاعتبار ، إذ هو متعلق بطبيعة الارض كما ان ذلك متعلق بطبيعة اهلها ، فان من الثابت البين ان لهيئة الطبيعة جهة من التأثير في تهيئة الاخلاق . فترى في الجهات المقفرة اوالمخوفة . اوالتي يلقي منظرها في نفسك اهبة دون المحبة والفزع دون الاطمئنان . اقواماً كأنما نشؤا في المعابد وولدوا في الصوامع ، فليس في اخلاقهم

الا الاستسلام للوهم والتخيل، والا الخوف من كل شيء تكون فيه روح الطبيعة، كما زعم العرب من البيات مع الغيلان وتزوج السعالى ومحاوبة الهواتف ، والروغان عن الجن الى الحن، واصطياد الشق ومحاربة النسناس وصحبة الرئي، وما كان لهم من خدع الكاهن وتدسيس العراف ، ومن العيافة والتنجيم والزجر والطرق بالحصى[1] وغيرها من خرافاتهم ، ثم الخوف من كل شيء تعرف فيه روح الطبيعة كالأوثان وسائر ما قدسته العادات والشعائر، وان كانوا في غير ذلك اهل جلد ونجدة ومضاء وبديهة وعارضة، لان هذه الصفات وامثالها تكتسب من طبيعة الخيال حدة وشدة، وانت واجد عكس ذلك فيمن تكون طبيعة ارضهم ساكنة مطمئنة لاتجتاح اهلها ولا ترميهم بالفزع ، فانهم لا يقرون على خوف وتوثب، ولا يكون في اخلاقهم الجنوح الى عبادة مايخيفهم ، او تقديس ماتصلت به روح الطبيعة ، ثم لايكونون الا اهل عمل بالحواس دون التخيل . قد غبر احدهم دهره عاملا فليس يبالي الا بالحاضر الذي تتعلق به روح العمل. دون الماضي الذي يجتمع عليه حرص أولئك لانه غيب الطبيعة التي يقدسونها . فكان من اخلاق العرب هو ما مشهور عنهم من التفاخر بالآباء والأجداد . والذهاب مع الوهم في كل مذهب وعدم المبالاة الا بما يلحقهم بآبائهم ويجعلهم في عداد الماضين ، ليكون لهم فيمن يخلفهم من الشأن والتقديس والتعظم بهم ما كان فيهم لمن تقدمهم ، فيتقون سوء القالة وخبث الأحدوثة ، وسائر ما يفسد عليهم هذا الشأن بكل ما وسعهم، لايألون في ذلك جهداً ولا يغمضون فيه ،

---

(١) للعرب مذاهب كثيرة من مثل ما وصفنا ولا محل لبسط القول فيها، ولكنا نقتصر على تعريف ما أتينا به تعريفا لفظيا ، فالغيلان إناث الجن والسعالي جمع سعلاة وهي سحرة الجن. ويقال ان الغيلان من السعالى. والهواتف جمع هاتف وهي الجن تهتف بهم وتنذرهم . والجن نوع من الجن والشق جنس من أجناسهم والنسناس جنس من الخلق يعد فيهم. والرئي جني يكون لبعض الناس فيخبره بالغيب. والكاهن من يتنبأ بما سيقع . والعراف من يستدل بالاسباب والحوادث ويتنبأ من ذلك. والعيافة التكهن بالطير أو غيرها. والزجر أن يزجر الطير ليتسعد أو يتشاءم اذا أراد ان يهم بأمر. والطرق بالحصى وسيلة من وسائل التكهن . وفي كل ذلك شرح طويل واختلاف كثير .

ولا يتقدمون في سد غيره قبل إحكامه واستفراغ قوتهم له . الى غير هذا مما هو معروف متظاهر عنهم .

ثم كان هوشهم كله في الشعر لانه عبادة ارواحهم طبيعة ارضهم . وهو الصلة المحفوظة بينهم وبين ماضيهم فجاء القرآن يسفه تلك الطباع منهم . ويحول بينهم وبين ذلك الماضي . ويصرفهم الى العمل . ويذهب عنهم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، ويأتيهم بالبصائر من ربهم . ويهديهم بالعقل الى اسرار الطبيعة . ليعلموا انها مسخرة لهم فلا يسخروا انفسهم لها . وحرم عليهم التقديس ومافي حكمه . وبصرهم بما مسهم من طائف الشيطان وما نزغهم من امره خيالا او وهماً او شعراً او عبادة ، وجعل افضل الفضائل في الذي قام يدعوهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم أنه ابن يومه وابن عمله وابن عقله فلا هو مفاخر ولا واهم ولا شاعر ، وتلك اخص فضائلهم الاصطلاحية . وخاطبه بهذه الآية الكريمة التي هي روح الثبات في ام العلم والعمل وهي قوله « وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون » . فكيف يمكن ان يكون هذا القرآن مع ذلك كله مما يطابق ارض العرب في طبيعتها وهي ما علمت . وكيف يتفق ان يكون كل ذلك من صنعة رجل قد نشأ فيهم واتصل بهم ، وذهبت عروقه بينهم واشجة ، وهو من صميمهم نسباً ووراثة ، يعرفونه ويحققون جملة امره ، ولم يخرج عنهم قط للعلم او الطلب ، ولا طرأ عليهم من غير ارضهم ، ولا انكروا عليه امراً من لدن نشأته الى حد الكهولة والى ان دب الشيب في عذاريه ، وهم مستيقنون انه ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه ؟

وما عهدنا رجلا من عظماء التاريخ قد اهاب بأمة طبيعية كالعرب ذات بأس وصرامة وحمية وحفاظ ، وذات خيال وتصور — يدعوها ان تخلع نفسها مما هي فيه ؛ وان تضع اعناقها للحق الذي لم تألفه حقا ، وان تعطيه مع ذلك محض ضمائرها وتسوغه تاريخها وعاداتها ، وما هو اكبر من تاريخها وعاداتها . وهم لايرونه في ذلك الا مسخوط الرأي ، ذاهب الوهم ، بعيداً منهم ومن نفسه ومن الحقيقة جميعاً . ولا يرون من امره ذلك الا قلة وضرعاً وهواناً واستخفافاً ، وان كانوا يعرفونه من قبل بحسن الخلق

وضيء الذمة وتخشع السمت، ويعرفون انه لا يريد ملكا ولا يبغي دولة، ولا يتصنع حدثاً من الاحداث السياسية، ولا يهتبل غرة ذاهلة، ولا يستعد لنهزة سانحة «وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون».

ثم هو على هذا كله من أمرهم لا يأتي بهم بقوة، ولا يداخلهم بنفاق، ولا يتألفهم على باطلهم، ولا ينزل في العقيدة على حكمهم، ولا يداهن في غضبهم، ولا يرفق بهم فيما يتخيلون وما يعبدون. ولا يحكم ذلك الامر من ناحية الدهاء والخداع، فيقرهم على طباعهم وعاداتهم، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويداهنهم في الخفي مداً من امره اعجبهم، ومن شأن ما استخفهم، كما يصنع دهاة السياسة وقادة الامم، وكما صنع داهية اوربا نابليون الذي انتحل الكثلكة في حرب الفاندي، والاسلام في مصر، وجهر بعصمة البابا في حرب ايطاليا، وقال مع ذلك: ولو كنت احكم شعباً يهوديا لأعدت هيكل سليمان ... ثم يكون مع ذلك كله من فعله وفعلهم ان تذهب اليه الأمر، ويستوثق على ما اراد، وان تعطيه تلك الأمة عن يدٍ وهي صاغرة للحق، وتبذل نصرها له بعد التخذيل عنه، وتسكن اليه بعواطفها المستنفرة، وتنعطف عليه بقلوبها الجامحة. وهو الراغب عن سننهم، والمسفه لأحلامهم، والطاعن عليهم وعلى آبائهم، والمفارق لشرائعهم وعاداتهم. وهو الذي خرج من الأمة اولاً، ثم خرج الأمة كلها من نفسه آخراً، كما اتفق للنبي صلى الله عليه وسلم.

ما عندنا ذلك، ولا عندنا ان الأمم تخرج عن طبائعها النفسية وتستقيم لمن يلتوي على مثل هذا الالتواء، وتدخل في امره وتثبت على طاعته ومحبته، وهو اضعف نصراً واقل عدداً. الا ان يغلبها على انفسها ويمتلك خيالها ويستبد بتصورها. وكيف له ان يغلب على النفس، بتنفيرها ويمتلك الخيال بالعنف عليه، ويستبد بالتصور وهو يستفزه؟. ومن اين له ذلك الا ان يأتي الفطرة التي هي اساس هذه كلها فيملكها، ثم يصوغها ثم يصرفها؟ فان الذي لا يدفع الطبع لا يدفع الرغبة، ومن لم يقد الأمة من رغائبها لم يقد في زمامه غير نفسه، وان كان بعد ذلك من كان؟

وهذا الذي وصفناه امر لو ذهبت تلتمسه في تاريخ الأرض كلها ما رأيت

اسبابه الفطرية في غير أولئك العرب، ولا رأيت تحقيقه في العرب، الا من ناحية القرآن وإعجازه بنظمه واساليبه، وافتنانه على هذه الوجوه المعجزة، التي اقل ماتوصف به انها السحر بل السحر بعضها [1]

(١) وذلك فيما نرى انما هو وجه الحكمة في نشأة هذا الدين عربياً واختصاص العرب بالقرآن دون غيرهم من الامم، وإفراد قريش بذلك دون غيرها من العرب. ومن يقرأ صدر التاريخ في الاسلام ويعتبر حوادثه ويتدبر آثار القرآن في قبائل العرب، ير أن شدة الايمان كانت عند شدة الفصاحة، وان خلوص الضمائر كان يتبع خلوص اللغة. وأن القائمين بهذا الدين والذين افاضوه وصرفوا اليه جمهور العرب وقاتلوهم عليه وجمعوا ألفتهم وقوموا أودهم انما كانوا اهل الفصاحة الخالصة. من قريش الى سرة البادية، وان الفتن انما استطارت في الجزيرة استطارة الحريق فيمن وراء هؤلاء الى اطراف اليمن، فكانوا قوماً مدخولين منقوصين، وما كان ضعف اعتقادهم الا في وزن الضعف من لغتهم. وقد اسلفنا في غير هذا الموضع أن غرابة الدين ما تزال تتبع غرابة العربية. ولما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عمرو بن العاص بعمان فاقبل منها الى المدينة يخترق بلاد العرب فاطافت به قريش وسألوه فقال لهم إن العساكر معسكرة من دبا «سوق بعمان» الى حيث انتهيت اليكم. فتفرقوا حلقاً، ومر عمر بن الخطاب بجماعة فسألهم فيم انتم؟ فلم يخبروه. فقال: اظن قلتم ما اخوفنا على قريش من العرب. قالوا صدقت، قال: فلا تخافوا هذه المنزلة انا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم، والله لو تدخلون معاشر قريش جحرا لدخلته العرب في آثاركم. اه

وحسبك من اثر القرآن في العرب الفصحاء وصوغ فطرتهم وتصريفها ان احدهم كان اذا انهزم في بعض اخلاقه لم يذكر ذلك باشد من قوله: بئس حامل القرآن أنا اذن! ولما أعطي سالم مولى أبي حذيفة راية المسلمين يوم قتال مسيلمة الكذاب وكان من اشد الايام واعظمها نكاية قال لأصحابه: ما اعلمني لأي شيء أعطيتموها! قلتم صاحب قرآن وسيثبت كما ثبت صاحبها قبله حتى مات؟ قالوا اجل فانظر كيف تكون. قال بئس والله حامل القرآن أنا ان لم اثبت. فتأمل. وكان صاحب الراية قبله عبد الله بن حفص. وفي هذه الموقعة صاح أبو حذيفة وقد اضطرب المسلمون: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال، ثم حمل على القوم فحازهم حتى انفذهم

ولو أن هذا المعنى من غرض كتابنا لبسطناه بسطاً، ولكن القول فيه يتسع بما يخرجنا الى تاريخ الاسلام وفلسفة آدابه ومعانيه الاجتماعية، وهي اغراض انما نلم بها إلماماً في هذا الكتاب كما عرفت.

وليت شعري ماهو امر المعجز في العقل ان لم يكن هذا من امره ؟ « ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلي الكبير »

(المنار)

ان مسألة إعجاز القرآن قد صارت من المسائل المعلومة بالضرورة بعجز العرب والمستعربين عن الاتيان بمثله ، ووقوفهم حيارى منبهري الانفاس خاشعي الأبصار ناكسي الرؤس في نور شمسه . ولاعجازه وجوه كثيرة يعقل كل ذي علم و بصيرة منها مقدار ما يتوجه اليه ذهنه ، مما استعد لادراكه عقله ، ومن الناس من لا يدرك من ذلك شيئا ، كالاطفال والعوام الذين لايدركون علل عجز ضعفاء البنائين الاميين بغير نظام ولا هندسة عن بناء هرم مثل هرم الجيزة في عظمته ، وما روعي فيه من دقائق الهندسة ، والاشارات العمرانية ، والتقاليد الدينية ، والمقاصد الخفية . وانما يفهم وجود هذا العجز الرياضي والفلكي والعالم بتاريخ مصر وآثارها ، كل بقدر بحثه في فنه .

وقد كتب كثير من العلماء في بيان وجوه إعجاز القرآن ، وما أطالوا الا في شرح فصاحته و بلاغته ، وقد تعب مصنف هذا الكتاب (تاريخ آداب العرب) في تصفح ما كتبوا ، وتتبع ماصنفوا ، ولم يعجزه مع ذلك ان يكون مصداق المثل السائر « كم ترك الأول للآخر » ، فجعل ٢٨٨ صفحة من الجزء الثاني من كتابه في إعجاز القرآن ، وباقيه الى ص ٣٦٤ في البلاغة النبوية . واذا كان قد انفرد ببيان نكت ودقائق لم تعرف لغيره ، فقد جلى بعض ماسبقه اليه من النكت والوجوه من قبله ، بعبارة مؤثرة مما ألبسها من حلل الخيال ، حتى تحلت في أربع مثال . وثم مباحث مفيدة في هذا الباب ، تراها في الفصول الكثيرة من الكتاب ، وسترى الاشارة اليها في تقريظه من جزء آخر من المنار

بعد هذا كله نقول انه قد بقي من وجوه الاعجاز ما لم يغص المؤلف بحره ، حتى يستخرج دره ، وقد أجملنا في (عقيدة الاسلام) التي كتبناها لطلاب المدارس الوسطى من هذه الوجوه ما يمكن شرحه في سفر أو أسفار . والتحقيق ان اعجاز القرآن بمعانيه من الهداية والعلم اعظم من إعجازه بفصاحة عبارته و بلاغة اسلوبه ، وهي التي كانت سبب بقاء الدين في العرب والعجم ، بعد ان قل من يذوق طعم تلك البلاغة .

﴿ الرضا بقضاء الله تعالى وقدره ﴾

قد اضطربت في هذه المسألة الافهام ، وزلت فيها أقلام وأقدام ، وأوردوا فيه أبياتا ليهودي حقيقة أو حكاية يقول فيها اذا :قضى الله ان يكون يهوديا وأمره ان يرضى بقضائه فما حيلته في ذلك . وأوردوا له أجوبة لم يرها الكثيرون مقنعة . ولذلك طالب الشعراني في بعض كتبه ممن ظفر بجواب أحسن مما أورده ان يلحقه بما ذكره منها . ولم نر لأحد من العلماء تحريرا لهذه المسألة كتحرير ابن القيم لها في (كتاب مدارج السالكين) واين نجد كابن القيم في المحققين المحررين ؟ قال قدس الله روحه في شرح كلام الهروي من الجزء الثاني :

قوله « وهو الرضاء عنه في كل ماقضى » هاهنا ثلاثة أمور : الرضاء بالله ربا ، (١) والرضاء عن الله، والرضاء بقضاء الله . فالرضاء به فرض ، والرضاء عنه ـ وان كان من أجل الامور واشرف أنواع العبودية ـ فلم يطالب به العموم لعجزهم ومشقته عليهم ـ واوجبته طائفة كما اوجبوا الرضاء به ، واحتجوا بحجج (منها) انه اذا لم يكن راضيا عن ربه فهو ساخط عليه ـ اذ لا واسطة بين الرضاء والسخط ـ وسخط العبد على ربه مناف لرضائه به ربا . قالوا ـ وايضا فعدم رضائه عنه يستلزم سوء ظنه ومنازعته له في اختياره لعبده ، وان الرب تبارك وتعالى يختار شيئا ويرضاه ولا يختاره العبد ولا يرضاه ، وهذا مناف للعبودية . قالوا ـ وفي بعض الآثار الإلهية « من لم يرض بقضاي ، ولم يصبر على بلاي، فليتخذ له (٢) ربا سواي » ولا حجة في شيء من ذلك . اما قوله (٣) « لم يتخلص من السخط على ربه الا بالرضاء عنه اذ لا واسطة بين الرضاء والسخط » فكلام مدخول ، لان السخط بالمقضي لا يستلزم السخط على من قضاه ، كما أن كراهة المقضي و بغضه والنفرة عنه لا يستلزم تعلق ذلك بالذي قضاه وقدره ، فالمقضي قد يسخطه العبد وهو راض عمن قضاه وقدره ، بل يجتمع تسخطه والرضا بنفس القضا ـ كما سيأتي ان شاء الله ـ واما

{١} سقط من البغدادية كلمة « ربا » (٢) سقط من البغدادية كلمة « له » {٣} وفيها « انه لم »

قولكم (١) « انه يستلزم سوء ظن العبد بربه ومنازعته له في اختياره » فليس كذلك، بل هو حسن الظن بربه في الحالتين ، وانه انما يسخط المقدور وينازعه بمقدور آخر ، كما ينازع القدر الذي يكرهه ربه بالقدر الذي يحبه ويرضاه ، فينازع قدر الله بالله لله (٢) كما يستعيذ برضاه من سخطه ، وبمعافاته من عقوبته ، ويستعيذ به منه .

فاما « كونه يختار لنفسه خلاف ما يختاره الرب » فهذا موضع تفصيل لا يسحب عليه ذيل النفي والاثبات . فاختيار الرب تعالى لعبده نوعان (احدهما) اختيار ديني شرعي ، فالواجب على العبد ان لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده، قال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم) فاختيار العبد ذلك مناف لإيمانه وتسليمه ورضاه بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا (النوع الثاني) اختيار كوني قدري لا يسخطه الرب ، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده ، فهذا لا يضره فراره منها الى القدر الذي يرفعها عنه ويدفعها ويكشفها ، وليس في ذلك منازعة للربوبية ـ وان كان فيه منازعة للقدر بالقدر ـ فهذا يكون تارة واجبا ، وتارة مستحبا ، وتارة يكون مباحا مستوي الطرفين ، وتارة يكون مكروها ، وتارة يكون حراما . واما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ، مثل قدر المعايب والذنوب ، فالعبد مأمور بسخطها ومنهي عن الرضا بها .

وهذا هو التفصيل الواجب في الرضا بالقضاء . وقد اضطرب الناس في ذلك اضطرابا عظيما ونجا منه اصحاب الفرق والتفصيل ، فان لفظ الرضا بالقضا لفظ محمود مأمور به ، وهو من مقامات الصديقين ، فصارت له حرمة اوجبت لطائفة قبوله من غير تفصيل ، وظنوا ان كل ما كان مخلوقا للرب تعالى فهو مرضى له ينبغي الرضا به ، ثم انقسموا فرقتين ، فقالت فرقة : اذا كان القضاء والرضاء متلازمين فمعلوم انا مأمورون ببغض المعاصي والكفر والظلم ، فلا تكون مقضية مقدرة . وفرقة قالت :

---

(١) في البغدادية هنا « قولهم » ونص نسختنا « قولكم » وفيها القولة السابقة « قوله » فيهما وكان الاولى ان تكون « قولهم » فيهما (٢) نص البغدادية « فينازع قدر الله بقدر بالله ولله »

قد دل العقل والشرع على أنها واقعة بقضاء الله وقدره فنحن نرضى بها .
والطائفتان منحرفتان جائرتان عن قصد السبيل، أولئك اخرجوها عن قضاء الرب وقدره ، وهؤلاء رضوا بها ولم يسخطوها . هؤلاء خالفوا الرب تعالى في رضائه وسخطه ، وخرجوا عن شرعه ودينه ، وأولئك انكروا تعلق قضائه وقدره بها .

واختلفت طرق اهل الاثبات للقدر والشرع في جواب الطائفتين ، فقالت طائفة : لم يقم دليل من الكتاب ولا السنة ولا الاجماع على جواز الرضا بكل قضا ، فضلا عن وجوبه واستحبابه ، فأين امر الله عباده او رسوله ان يرضوا بكل ماقضاه الله وقدره ؟ وهذه طريقة كثير من اصحابنا وغيرهم ، وبه اجاب القاضي ابو يعلى وابن الباقلاني قال — فان قيل : أفترضون بقضاء الله وقدره ؟ قيل له : نرضى بقضاء الله الذي هو خلقه الذي امرنا ان نرضى به ، ولا نرضى من ذلك ما نهانا عنه ان نرضى به ، ولا نتقدم بين يدي الله ، ولا نعترض على حكمه .

وقالت طائفة أخرى : يطلق الرضا بالقضا في الجملة دون تفاصيل المقضي المقدر . فنقول : نرضى بقضاء الله جملة ولا نسخطه ، ولا نطلق الرضا على كل واحد من تفاصيل المقضي — كما يقول المسلمون : كل شيء يبيد ويهلك ، ولا يقولون : حجج الله تبيد وتهلك ، ويقولون : الله رب كل شيء ، ولا يضيفون ربوبيته الى الاعيان المستخبثة المستقذرة بخصوصها .

وقالت طائفة أخرى : نرضى بها من جهة اضافتها الى الرب خلقا ومشيئته ، ونسخطها من جهة اضافتها الى العبد كسبا له وقيامه بها .

وقالت طائفة أخرى : بل نرضى بالقضاء ونسخط المقضي ، فالرضاء والسخط لم يتعلقا بشيء واحد . وهذه الاجوبة لا يتمشى شيء منها على اصول من يجعل محبة الرب تعالى ورضاءه ومشيئته واحدة - كما هو احد قولي الاشعري واكثر اتباعه - فان هؤلاء يقولون : ان كل ما شاءه وقضاه فقد احبه ورضيه ، واذا كان الكون محبوبا له مرضيا فنحن نحب ما احبه ونرضى ما رضيه . وقولكم : ان الرضا بالقضا يطلق جملة ولا يطلق تفصيلا . فذلك لا يمنع دخوله في جملة المرضي به ، فيعود الاشكال . وقولكم : نرضى بها من جهة كونها خلقا لله ، ونسخطها من جهة كونها

كسبا للعبد، فكسب العبد ان كان امرا وجوديا فهو خلق لله فيرضى به، وان كان امرا عدميا فلا حقيقة له ترضي ولا تسخط. واما قولكم: نرضى بالقضاء دون المقضي. فهذا انما يصح على قول من جعل القضاء غير المقضي، والفعل غير المفعول، واما من لم يفرق بينهما فكيف يصح هذا على اصله ؟

وقد اورد القاضي ابو بكر على نفسه هذا السؤال فقال - فان قيل: القضاء عندكم هو المقضي اوغيره ؟ قيل: هو على ضربين، فالقضاء بمعنى الخلق هو المقضي، لان الخلق هو المخلوق، والقضاء الذي هو الالزام والاعلام والكتابة غير المقضي، لان الامر غير المأمور والخبر غير المخبر عنه. وهو الجواب لا يخلصه ايضا، لان الكلام ليس في الالزام والاعلام والكتابة، وانما الكلام في نفس الفعل المقدر المعلم به المكتوب: هل مقدره وكاتبه سبحانه راض به أم لا ؟ وهل العبد مأمور بالرضاء به نفسه ام لا ؟ هذا حرف المسئلة.

وقد انكر الله سبحانه وتعالى على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزما لمحبته ورضاه، فكيف بمن جعل ذلك شيئا واحدا ؟ قال الله تعالى (سيقول الذين اشركوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، ولاحرمنا من شي. كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ان تتبعون الا الظن وان انتم إلا تخرصون - وقال تعالى - وقال الذين اشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولاحرمنا من دونه من شيء. كذلك فعل الذين من قبلهم - وقالوا: لو شاء الرحمن ماعبدناهم. مالهم بذلك من علم) فهم استدلوا على محبته ورضاه لشركهم بمشيئته لذلك، وعارضوا بهذا الدليل امره ونهيه. وفيه ابين الرد لقول من جعل مشيئته غير محبته ورضاه، فلاشكل انما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة، ثم زادوه بجعلهم الفعل نفس المفعول، والقضاء عين المقضي، فنشأ من ذلك إلزامهم بكونه تعالى راضيا محبا لذلك، والتزام رضائهم به.

والذي يكشف هذه الغمة، ويبصر من هذه العماية، وينجي من هذه الورطة التفريق بين ما فرق الله بينه، وهو المشيئة والمحبة، فانهما ليسا واحدا ولا هما

متلازمين، بل قد يشاء مالا يحبه ويحب مالا يشاء كونه ، (فالأول) كمشيئته لوجود ابليس وجنوده ، ومشيئته العامة لجميع مافي الكون مع بغضه لبعضه . (والثاني) كمحبته ايمان الكفار ، وطاعات الفجار ، وعدل الظالمين ، وتوبة الفاسقين ، ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه ، فانه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن .

فاذا تقرر هذا الاصل وان الفعل غير المفعول ، والقضاء غير المقضي ، وان الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضاء بكل ماخلقه وشاءه ـ زالت الشبهات ، وانحلت الاشكالات ، ولله الحمد ، ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض بحيث يظن ابطال احدهما الآخر ، بل القدر ينصر الشرع والشرع يصدق القدر ، وكل منهما يحقق الآخر .

اذا عرف هذا فالرضا بالقضا الديني الشرعي واجب وهو اساس الاسلام، وقاعدة الايمان ، فيجب على العبد ان يكون راضيا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض ، قال الله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فاقسم انهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ، ويرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه ، ويسلموا لحكمه تسليما . وهذا حقيقة الرضاء بحكمه . فالتحكيم في مقام الاسلام ، وانتفاء الحرج في مقام الايمان (١) والتسليم في مقام الاحسان . ومتى خالط القلب بشاشة الايمان ، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين ، وحيي بروح الوحي ، وتمهدت طبيعته ، وانقلبت النفس الامارة مطمئنة راضية وادعة ، وتلقى احكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم ، فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ورسوله .

والرضاء بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وارادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة امر لازم بمقتضى الطبيعة ، لأنه ملائم للعبد ، محبوب له ، فليس في الرضاء به عبودية ، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله ان توضع فيها ، وان لايعصى المنعم بها ، ويرى التقصير في جميع ذلك .

(١) نص نسختنا والحجازية «والرضاء في مقام الايمان» فاعتمدنا نص البغدادية

والرضاء بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان، وفي وجوبه قولان، وهذا كالمرض والفقر وأذى الخلق له، والحر والبرد والآلام ونحو ذلك.

والرضاء بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه، كانواع الظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه وهو مخالفة لربه تعالى، فان الله لا يرضى بذلك ولا يحبه، فكيف تتفق المحبة ورضاء ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟ فعليك بهذا التفصيل في مسئلة الرضا بالقضا.

فان قلت: كيف يريد الله سبحانه أمرا لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف تجتمع ارادة الله له وبغضه وكراهيته؟. قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقا، وتباينت عنه طرقهم واقوالهم. فاعلم ان المراد نوعان: مراد لنفسه ومراد لغيره. فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته ومافيه من الخير، فهو مراد ارادة الغايات والمقاصد، والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصودا للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته، وان كان وسيلة الى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث افضائه وإيصاله الى مراده، فيجتمع فيه الامران بغضه وارادته، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما: وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة اذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتأكل اذا علم ان في قطعه بقاء جسده: وكقطع المسافة الشاقة جدا اذا علم انها توصله الى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في ايثار هذا المكروه وارادته بالظن الغالب وان خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟ فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك ارادته لغيره (١) وكونه سببا الى ماهو احب اليه من فوته.

مثال ذلك انه سبحانه خلق ابليس الذي هو مادة لفساد الاديان والاعمال والاعتقادات والارادات، وهو سبب شقاوة العبيد وعملهم بما يغضب الرب تبارك

(١) أي لاجل أمر غيره وهو ما بينه بقوله: وكونه سببا الخ

وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف مايحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة . فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى مسخوط له ، لعنه الله ومقته وغضب عليه ، ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، وجودها احب اليه من عدمها .

(منها) ان تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق هذه الذات التي هي من اخبث الذوات وشرها ، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبرائيل صلى الله عليه وسلم التي هي اشرف الذوات واطهرها وازكاها ، وهي مادة كل خير ، فتبارك الله خالق هذا وهذا . كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار ، والضياء والظلام ، والداء والدواء ، والحياة والموت ، والحر والبرد ، والحسن والقبيح ، والارض والسماء ، والماء والنار ، والخير والشر . وذلك من ادل الدلائل على كمال قدرته وعزته وسلطانه وملكه ، فانه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وسلط بعضها على بعض ، وجعلها محالّ تصرفه وتدبيره وحكمته ، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبيره مملكته

(ومنها) ظهور آثار اسمائه القهرية ، مثل القهار والمنتقم والعدل والضار ، وشديد العقاب، وسريع الحساب ، وذي البطش الشديد ، والخافض والمذل ، فان هذه الاسماء والافعال كمال فلا بد من وجود متعلقها ، ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملك لم يظهر اثر هذه الاسماء والافعال

(ومنها) ظهور آثار اسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده ، فلولا خلق مايكرهه من الاسباب المفضية الى ظهور آثار هذه الاسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد ، وقد اشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا بقوله « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم »

(ومنها) ظهور آثار اسماء الحكمة والخبرة ، فانه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الاشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضع الشيء في غير موضعه ، ولا ينزله غير منزلته ، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته ، فلا يضع الحرمان

والمنع موضع العطاء والفضل ، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع ، ولا الثواب موضع العقاب ولا العقاب موضع الثواب ، ولا الخفض موضع الرفع ولا الرفع موضع الخفض ، ولا العز مكان الذل ولا الذل مكان العز ، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه ، ولا ينهى عن ما ينبغي الامر به . فهو أعلم حيث يجعل رسالاته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها و يشكره على انتهائها اليه ووصولها ، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله ، وأحكم من ان يمنعها أهلها و يضعها عند غير أهلها ، فلو قدر عدم الاسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار ولم تظهر لخلقه ، ولفاتت الحكمة والمصالح المرتبة عليها ، وفواتها شر من حصول تلك الاسباب ، فلو عطلت تلك الاسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الاسباب . وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر ، فلو قدر تعطيلها لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه و بينه .

فصل

(ومنها) حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق ابليس لما حصلت ، ولكان الحاصل بعضها لا كلها ، فان عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية اليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة فيه سبحانه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه . و بذل النفس له في محاربة عدوه ، وعبودية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى ، وايثار محاب الرب على محاب النفس .

(ومنها) عبودية التوبة والرجوع اليه واستغفاره ، فانه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم ، فلو عطلت الاسباب التي يثاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها .

(ومنها) عبودية مخالفة عدوه ومراغمته في الله واغاظته فيه ، وهي من احب أحب انواع العبودية اليه ، فانه سبحانه يحب من وليه ان يغيظ عدوه و يراغمه ويسوءه ، وهذه عبودية لا يتفطن لها الا الأكياس .

(ومنها) أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه وسؤاله ان يجيره منه و يعصمه من كيده وأذاه ٠

(ومنها) ان عبيده يشتد خوفهم وحذرهم اذا رأوا ما حل بعدوه بمخالفته وسقوطه من المرتبة الملكية الى المرتبة الشيطانية ، فلا يخلدون الى غرور الامل بعد ذلك ٠

(ومنها) انهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة ، فأ كثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته ٠

(ومنها) ان نفس اتخاذه عدوا من اكبر انواع العبودية واجلها ، قال الله تعالى (ان الشيطان لكم عدوا فاتخذوه عدوا) فاتخاذه عدوا أنفع شيء للعبد وهو محبوب للرب ٠

(ومنها) ان الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر ، والطيب والخبيث ، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد ، فخُلِقَ الشيطان مستخرجا ما في طبائع أهل الشر من القوة الى الفعل ، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة الى الفعل ، فاستخرج احكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ليترتب عليه آثاره ، وما في قوى أولئك من الشر ليترتب عليه آثاره ، وتظهر حكمته في الفريقين وينفذ حكمه فيهما ، ويظهر ما كان معلوما له مطابقا لعلمه السابق . وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : اني اعلم مالا تعلمون) فظنت الملائكة ان وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه ، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة ٠

(ومنها) ان ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة والظالمة ، كآية الطوفان ، وآية الريح ، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط ، وآية انقلاب النار على ابراهيم بردا وسلاما ، والآيات التي اجراها

الله تعالى على يد موسى ، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها (ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم) فلولا كفر الكافرين ، وعناد الجاحدين ، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلا بعد جيل الى الابد .

(ومنها) أن خلق الاسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضا ، ويكسر بعضها بعضا ، هو من شأن كمال الربوبية ، والقدرة النافذة ، والحكمة التامة ، والملك الكامل ، وإن كان شأن الربوبية كاملا في نفسه ولو لم يخلق هذه الاسباب ، لكن خلقها من لوازم كماله وملكه ، وقدرته وحكمته ، فظهور تأثيرها واحكامها في عالم الشهادة تحقيق لذلك الكمال ، وموجب من موجباته ، فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته .

وبالجملة فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته ، أحب الى الله سبحانه وتعالى من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها .

فان قلت : فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الاسباب ؟ : فهذا سؤال باطل اذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه . كفرض وجود الابن بدون الاب ، والحركة بدون المتحرك ، والتوبة بدون التائب .

فان قلت : فاذا كانت هذه الاسباب مرادة لما تفضي اليه من الحكم ، فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه ؟ أم هي مسخوطة من جميع الوجوه ؟ قلت هذا السؤال يورد على وجهين (أحدهما) من جهة الرب سبحانه وتعالى . وهل يكون محبا لها من جهة افضائها الى محبوبه وان كان يبغضها لذاتها ؟ (والثاني) من جهة العبد . وهو انه هل يسوغ له الرضاء بها من تلك الجهة أيضا ؟ فهذا سؤال له شأن .

فاعلم ان الشر كله يرجع الى العدم ، اعني عدم الخير واسبابه المفضية اليه ، وهو من هذه الجهة شر ، واما من جهة وجوده المحض فلا شرفية . مثاله ان النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة ، وانما حصل لها الشر بقطع

مادة الخير عنها ، فنها به (١) خلقت في الاصل متحركه لا تسكن ، فان اعينت بالعلم والهام الخير تحركت (٢) وان تركت تحركت بطبعها الى خلافه ، وحركتها من حيث هي حركة خير ، وانما تكون شرا بالاضافة ، لا من حيث هي حركة . والشر كله ظلم ، وهو وضع الشيء في غير موضعه ، فلو وضع في موضعه لم يكن شرا ، فعلم ان جهة الشر فيه نسبته بمشيئته (٣) اضافية ، ولهذا كانت العقوبات الموضوعات في محالها خيرا في نفسها وان كانت شرا بالنسبة الى المحل الذي حلت به ، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة ، مستعدة له ، فصار ذلك الألم شرا بالنسبة اليها ، وهو خير بالنسبة الى الفاعل ، حيث وضعه موضعه ، فانه سبحانه لا يخلق شرا محضا من جميع الوجوه والاعتبارات (٤) فان حكمته تأبى ذلك ، بل قد يكون ذلك المخلوق شرا ومفسدة ببعض الاعتبارات ، وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر أرجح من اعتبارات مفاسده ، بل الواقع منحصر في ذلك ، فلا يمكن في جناب الحق جل جلاله ان يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه بكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما . هذا من أبين المحال ، فانه سبحانه بيده الخير ، والشر ليس اليه ، بل كل ما اليه خير ، والشر انما حصل لعدم هذه الاضافة والنسبة اليه ، فلو كان اليه لم يكن شرا ، فتأمله ، فانقطاع نسبته اليه هو الذي صيره شرا .

فان قلت : لم تنقطع نسبته اليه خلقا ومشيئة . قلت : هو من هذه الجهة ليس بشر ، فان وجوده هو المنسوب اليه ، وهو من هذه الجهة ليس بشر ، والشر الذي فيه من عدم امداده بالخير واسبابه ، والعدم ليس بشيء (٥) حتى ينسب الى من بيده الخير .

فان اردت مزيد إيضاح لذلك ، فاعلم ان اسباب الخير ثلاثة : الايجاد ،

---

(١) حذف من البغدادية كلمة «به» ولعله الصواب (٢) في الحجازية «تحركت في الخير» (٣) حذف من البغدادية كلمة «بمشيئته» (٤) في الحجازية «من جميع وجوه الاعتبارات» وفي البغدادية «من جميع الوجوه والاعتبارات» وانفردت نسختنا بالغلط ونصها «من جميع الوجوه الاعتبارات» (٥) في البغدادية «بشر»

والإعداد، والإمداد. فهذه هي الخيرات واسبابها، فايجاد هذا السبب خير وهو الى الله، واعداده خير وهو اليه أيضا، وامداده خير وهو اليه، فذا لم يحدث فيه اعدادا ولا امدادا حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس الى الفاعل، وانما اليه ضده.

فان قلت: فهلاّ أمده اذ أوجده؟ قلت: مااقتضت الحكمة ايجاده وامداده فانه سبحانه يوجده ويمده، وما اقتضت الحكمة ايجاده وترك امداده اوجده بحكمته ولم يمده بحكمته، فايجاده خير، والشر وقع من عدم امداده.

فان قلت: فهلاّ امد الموجودات كلها؟ فهذا سؤآل فاسد، يظن مورده ان التسوية بين الموجودات ابلغ في الحكمة، وهذا عين الجهل، بل الحكمة كل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت، والتفاوت انما وقع بامور عدمية لم يتعلق بها الخلق، والا فليس في الخلق من تفاوت. فان اعتاص ذلك عليك ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل:

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

كما ذكر ان الاصمعي اجتمع بالخليل بن احمد وحرص على فهم العروض فاعياه ذلك، فقال له الخليل يوما: قطع لي هذا البيت. وانشده (إذا لم تستطع) البيت، ففهم ما اراد فامسك عنه ولم يشتغل به

وسر المسئلة ان الرضاء بالله يستلزم الرضاء بصفاته وأفعاله واسمائه واحكامه، ولا يستلزم الرضاء بمفعولاته كلها، بل حقيقة العبودية ان يوافقه عبده في رضاه وسخطه، فيرضى منها بما يرضى به ويسخط منها (١) ما سخطه. فان قيل: فهو سبحانه يرضى عقوبة من يستحق العقوبة. فكيف يمكن العبد ان يرضى بعقوبته له؟ قيل لو وافقه في رضاه بعقوبته لانقلبت لذة وسرورا، ولكن لايقع ذلك (٢) فانه لم يوافقه في محبته وطاعته التي هي سرور النفس وقرة العين وحياة القلب، فكيف يوافقه في محبته للعقوبة التي هي اكره شيء اليه، واشق شيء عليه؟ بل

(١) حذف من البغدادية كلمة «منها» (٢) وفيها «منه ذلك»

كان كارها لما يحبه من طاعته وتوحيده ، فلا يكون راضيا بما يختاره من عقوبته ، ولو فعل ذلك لارتفعت عنه العقوبة .

فان قلت : فكيف يجتمع الرضا بالقضا الذي يكرهه العبد من المرض والفقر والألم مع كراهته ؟ قلت : لا تنافي في ذلك فانه يرضى به من جهة افضائه الى ما يحب ، ويكرهه من جهة تألمه به ، كالدواء الكريه الذي يعلم ان فيه شفاءه ، فانه يجتمع فيه رضاؤه به وكراهته له .

فان قلت : كيف يرضى لعبده شيئا ولا يعينه عليه ؟ قلت : لأن اعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له ، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي اكره اليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة ، بحيث يكون وقوعها منه مستلزما لمفسدة راجحة ، وبفوتا لمصلحة راجحة ، وقد اشار تعالى الى ذلك في قوله (ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل : اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين) فاخبر سبحانه انه كره انبعاثهم مع رسول الله للغزو وهو طاعة وقربة ، وقد امرهم به ، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه ، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت تترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لو خرجوا فيكم مازادوكم الاخبالا » أي فسادًا « ولأوضعوا خلالكم » أي سعوا فيما بينكم بالفساد والشر « يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم » أي قابلون منهم مستجيبون لهم ، فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول اولئك منهم من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم ، فاقتضت الحكمة والرحمة ان منعهم من الخروج وأقعدهم عنه . فاجعل هذا المثال اصلا لهذا الباب وقس عليه .

فان قلت قد تصور لي هذا في رضاء الرب تعالى لبعض ما يخلقه من وجه وكراهته من وجه ، فكيف لي بان يجتمع الامران في حقي بالنسبة الى المعاصي والفسوق ؟ قلت : هو متصور ممكن ، بل واقع ، فان العبد يسخط ذلك ويبغضه ويكرهه من حيث هو فعل له واقع بسببه وارادته واختياره ، ويرضي بعلم الله

وكتابته ومشيئته واذنه الكوني فيه، فيرضى بما من الله، ويسخط ما هو منه. فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان، وطائفة اخرى رأوا كراهة ذلك مطلقا، وعدم الرضاء من كل وجه، وهؤلاء في الحقيقة لا يخالفون اولئك، فان العبد اذا كرهها مطلقا فان الكراهة انما تقع على الاعتبار المكروه منها، وهؤلاء لم يكرهوا علم الرب وكتابته ومشيئته وإلزامه حكمه (١) الكوني، واولئك لم يرضوا بها من الوجه الذي سخطها الرب وابغضها لأجله.

وسر المسئلة ان الذي الى الرب منها غير مكروه، والذي الى العبد منها هو المكروه والمسخوط، فان قلت: ليس الى العبد شيء منها - قلت: هذا هو الجبر الباطل الذي لايمكن صاحبه التخلص من هذا المكان الضيق، والقدري اقرب الى التخلص منه من الجبري، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية هم اسعد بالتخلص منه من الفريقين.

فان قلت: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير، ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟ قلت: هذا الذي اوقع من عميت بصيرته في شهود الامر على خلاف ماهو عليه، فرأى تلك الافعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر، وقال: ان عصيت أمره فقد اطعت ارادته في ذلك. قيل

أصبحت منفعلا لما تختاره   مني ففعلي كله طاعات

وهؤلاء اعمى الخلق بصائر، واجهلهم بالله واحكامه الدينية والكونية، فان الطاعة هي موافقة الامر لا موافقة القدر والمشيئة، ولو كانت موافقة القدر طاعة لله لكان ابليس من اعظم المطيعين لله، وكان قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون كلهم مطيعين له، فيكون قد عذبهم اشد العذاب على طاعته، وانتقم منهم لاجلها، وهذا غاية الجهل بالله واسمائه وصفاته وافعاله.

فان قلت: ومع ذلك فاجمع لي بين الندم والتوبة وبين مشهد القيومية والحكمة. قلت: العبد اذا شهد عجز نفسه ونفوذ الاقدار فيه، وكمال فقره الى ربه، وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين - كان (٢) بالله في هذه الحال

(١) في البغدادية «وحكمه الكوني» (٢) جواب «اذا»

لا بنفسه ، فوقوع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال البتة ، فان عليه حصنا حصينا من « فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي » فلا يتصور منه الذنب في هذه الحال ، فاذا حجب عن هذا المشهد وسقط الى وجوده الطبيعي وبقي بنفسه استولى عليه حكم النفس والطبع والهوى ، وهذا الوجود الطبيعي قد نصبت فيه الشباك والاشراك ، وارسلت عليه الصيادون ، فلا بد ان يقع في شبكة من تلك الشباك ، وشرك من تلك الاشراك ، وهذا الوجود وهو حجاب بينه وبين ربه ، فعند ذلك يقع الحجاب ويقوى المقتضي ، ويضعف المانع ، وتشتد الظلمة ، وتضعف القوى . فأنى له بالخلاص من تلك الاشراك والشباك ؟ فاذا انقشع ضباب ذلك الوجود الطبيعي وانجاب ظلامه ، وزال قتامه ، وصرت بربك ، ذاهبا عن نفسك وطبعك

بدا لك سر طال عنك اكتتامه	ولاح صباح كنت انت ظلامه
فان غبت عنه حل فيه وطنبت	على منكب الكشف المصون خيامه
فانت حجاب القلب عن سر غيبه	ولولاك لم يطبع عليه ختامه
وجاء حديث لا يمل سماعه	شهي الينا نثره ونظامه
اذا ذكرته النفس زال عناؤها	وزال عن القلب المعنى قتامه

فهنالك يحضره الندم والتوبة والانابة ، فانه كان في المعصية (١) بنفسه ، محجوبا فيها عن ربه وعن طاعته ، فلما فارق ذلك الوجود وصار في وجود آخر بقي بربه لا بنفسه ، واذا عرف هذا فالتوبة والندم يكونان في هذا الوجود الذي هو فيه بربه ، وذلك لا ينافي مشهد الحكمة والقيومية ، بل يجامعه ويستمد منه . وبالله التوفيق .

(١) سقط من الحجازية « في المعصية »

القول السديد

﴿ في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد (*) ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

اللهم ارنا الحق حقا واهدنا لاتباعه ، وارنا الباطل باطلا ووفقنا لاجتنابه

الحمد لذاته وجميل صفاته ، والشكر له على آلائه ونعمائه وعطائه وهباته ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله المبعوث بالدين المتين ، والكتاب المبين ، سيدنا ومولانا ونبينا محمد الرسول الامين ، وعلى آله واصحابه الهداة المهتدين .

أما بعد فهذه تعليقة موسومة (بالقول السديد . في بعض مسائل الاجتهاد والتقليد) اذكر فيها ما حضرني من بعض مسائل الاجتهاد ، واقتداء المقلد بامام يرى خلاف قول مقلده — بفتح اللام — إما اجتهادا او تقليدا ، وما يتعلق بذلك ويتذيل عليه ، متصد للتتبع في ذلك ، بل قيدت ما سنح للخاطر الفاتر ، في الوقت الحاضر ، من غير تقيد بمراجعة في ذلك ، وهي نبذة يسيرة من شيء كثير . فاقول وبالله الاعانة

الكلام في هذه المسائل في فصول .

(*) هذه الرسالة هي تأليف الفقيه الاصولي الشيخ محمد بن عبد العظيم المكي الحنفي ابن المقدسي المبروز الملا فروخ بن عبد المحسن الرومي الموروي ، اتم تأليفه سنة ١٠٥٢ للهجرة ظفر بنسخة خطية منها صديقنا الشيخ مصطفى بن محمد سليم الغلاييني فأرسلها الينا فاستحببنا نشرها في المنار لفوائدها وللاستشهاد بها على وجود العلماء المنصفين الميسرين الجامعين للكلمة في كل شعب اسلامي وكل عصر من عصور ضعف العلم

الفَصْلُ الأَول

إِعْلَمْ انه لم يكلف الله احدا من عباده بان يكون حنفيا او مالكيا او شافعيا او حنبليا ، بل اوجب عليهم الايمان بما بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم، والعمل بشريعته . غير ان العمل بها متوقف على الوقوف عليها، والوقوف له طرق ، فما كان منها مما يشترك به العوام واهل النظر كالعلم بفريضة الصلاة والزكاة والصوم والحج والوضوء اجمالا ، وكالعلم بحرمة الزنا والخمر واللواطة وقتل النفس، وغير ذلك مما علم من الدين بالضرورة ، فذلك لا يتوقف فيه على اتباع مجتهد ومذهب معين ، بل كل مسلم عليه اعتقاد ذلك . فمن كان في العصر الاول فلا يخفى وضوح ذلك في حقه ، ومن كان في الأعصار المتأخرة ،فلوصول ذلك الى علمه ضرورة من الاجماع والتواتر وسماع الآيات والسنن ، اي الأحاديث الشريفة المستفيضة المصرحة بذلك في حق من وصلت اليه .

وَأَمَّا ما لا يتوصل اليه الا بضرب من النظر والاستدلال فمن كان قادرا عليه بتوفر آلاته وجب عليه فعله ، كالائمة المجتهدين رضوان الله عليهم اجمعين ، ومن لم يكن له قدرة عليه وجب عليه الاتباع الى من يرشده[1] الى ما كلِّف به ممن هو أهل النظر والاجتهاد والعدالة، وسقط عن العاجز تكليفه بالبحث والنظر لعجزه بقوله تبارك وتعالى (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) وقوله عز من قائل (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم

(١) المنار : حق العبارة ان تكون « اتباع من يرشده »

لا تعلمون) وهي الاصل في اعتماد التقليد ، كما اشار اليه المحقق الكمال ابن الهمام في التحرير [1].

فصل

إذا علمت ذلك ، فاعلم ان ابا حنيفة ومالكا والشافعي واحمد بن محمد ابن حنبل رحمة الله عليهم اجمعين، كلٌّ من اهل الذكر الذين وجب سؤالهم لمن لم يصل الى درجة النظر والاستدلال ، فاذا عمل احد من المقلدين في طهارته وصلاته او شيء مما جرى به التكليف بقول واحد منهم مقلدا له فيه ـ لو صادف قوله ، ولو لم يعلم به حين العمل فقلده فيه بعد انقضائه على ما ظهر لي في المسئلة ؛ كما يدل عليه ما استشهد به في المسئلة بعد هذا ـ فقد ادى ما عليه، وليس لاحد ممن هو في درجة التقليد له . قلت : بل ولا للمجتهد الانكار عليه ، كما صرح به في غير كتب عندنا من تصانيف الصدر الشهيد حسام الدين وغيره من كتب المذهب المعتبرة ، كالتجنيس والمؤيد لشيخ الاسلام برهان الدين صاحب الهداية كما نقلته بخطي عنها في مظانه.

اذا ثبت ذلك فليس لحنفي او مالكي او شافعي من المقلدين ان يمتنع من الاقتداء بالإمام المخالف لمذهبه ، وليس له ان يحتج باني لما قلدت الشافعي وابا حنيفة ــ مثلا ــ فقد وجب علي الحكم ببطلان ما خالف

(١) المنار : التقليد الاخذ بالرأي من غير دليل . وإنما تدل الآية على السؤال عن الدليل ، وهو ماتواتر عند أهل الكتاب من كون جميع الرسل كانوا رجالا . ومنه طلب النص دون الرأي . هذا وان الاجتهاد يتجزأ فمن لم يقدر على معرفة جميع الاحكام أو أكثرها بالنظر والاستدلال يجوز ان يقدر على مايحتاج اليه منها كله او بعضه ، وحينئذ يمتنع عليه ان يأخذ فيه برأي غيره واجتهاده ، كما ثبت في علم الاصول

اجتهاده ، لاننا نقول : انما ابيح التقليد بقدر الضرورة . وذلك يندفع بتقليدك له في عملك وكيفيته فقط ، وان شئت قل : في كيفية ايقاع ما كانت به فقط . واما الحكم ببطلان مخالفه فليس ذلك اليك ، بل للكلام مجال في تسويغ ذلك للمجتهد الذي قلدته .

وَأَمَّا أَنتَ ، ومن هو في مرتبتك من المقلدين ، فقول « كل مجتهد » عنده على حد سواء ، اذ ليس الترجيح بالدليل من وظائفك ، والا كنت في درجتهم ووجب عليك الاجتهاد وارتفع التقليد ، ولكن لا بد للعمل في تصحيحه من مستند ، فانت استندت الى امامك ــ ونعم الامام ــ وهذا الآخر استند الى امام في فعله مثل امامك أو أعلى منه ، فلا يمكنك الحكم على عمله بالبطلان البتة ، فلست حينئذ في تخلفك عن الاقتداء به الا عاملا بمحض التعصب ، وقد نص علماؤنا وغيرهم من اصحاب المذاهب على حرمة التعصب وتصويب الصلابة في المذهب ، ومعنى الصلابة أي[1] الثبات على ما ظهر للمجتهد من الدليل ، وليس ذلك الا للمجتهد نفسه او لمن هو من اهل النظر ممن اخذ بقوله

والتعصب هو الميل مع الهوى لاجل نصرة المذهب ومعاملة الامام الآخر ومقلديه بما يحطط عنهم . وقد نص في جواهر الفتاوى وغيرها من كتب اصحابنا ان الامام الشافعي رحمه الله تعالي لم يكن له تعصب على أئمتنا رحمهم الله تعالى .

(١) لفظ « أي » لاحاجة اليه . فلعله سبق قلم من الناسخ أو المؤلف

فصل

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يقتدي بعضهم ببعض، وكذا التابعون لهم، - وفيهم المجتهدون - ولم ينقل عن احد من السلف رحمهم الله تعالى انه كان لا يرى الاقتداء بمن يخالف قوله في بعض المسائل ولو في خصوص الطهارة والصلاة، بل كان يقتدي بعضهم ببعض، وربما اعتقد بعضهم ولاية بعض، حتى ان الشافعي رضي الله عنه بعث يطلب قميص الامام أحمد بن حنبل من بغداد يستشفي به في مدة مرضه بغسله وشرب مائه - كما رأيته مثبتا في مناقب احمد رضي الله عنه - وقد روي ذلك بالعكس[1] وكذلك كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يعامل بعضهم بعضاً، كما يعلم ذلك من سيرهم واحوالهم

ولا يلتفت الى ما قد تمسك به من لا معرفة عنده بان الاختلاف بينهم لم يكن بينهم بهذه الصفة التي عليها المذاهب الآن، لانا قد قررنا ان ذلك لا يمنع، لأن الكل كانوا في طلب الحق على حد متساو، واجتهاد كل واحد منهم يحتمل الخطأ كغيره بعد تسليم بلوغهم درجة الاجتهاد، وان تفاوتوا فيه.

---

(١) في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي أن الشافعي أرسل الى أحمد كتابا من مصر وهو ببغداد مع الربيع يذكر له فيه ان النبي (ص) أمره ان يكتب اليه «إنك ستمتحن وتدعى الى القول بخلق القرآن فلا تجبهم فيرفع الله لك علما الى يوم القيامة» وان أحمد أعطى الربيع قميصه بشارة، وأن الشافعي قال للربيع لما عاد: ليس نفجعك به ولكن بله وارفع الي الماء لأتبرك به. فهذا أصل الحكاية وبعض الناس يتصرفون فيها. والسند الذي ذكره السبكي لا يصح، ولكنهم يقبلون مثله في المناقب

فإن قلت : قد نقل الامام حافظ الدين النسفي صاحب الكنز والكافي في مصنفاه عن المشايخ المتقدمين : انا اذا سئلنا عما ذهبنا اليه في الفروع نجيب بأن ماذهبنا اليه صواب يحتمل الخطأ ، وما ذهب اليه الغير خطأ يحتمل الصواب . انتهى بمعناه ، وان لم يكن بلفظه . وهذا يوجب امتناع المقلد من اتباع امام يرى مخالفة قول امامه لكونه خطأ ، وما قلد فيه صواب عنده .

قلنا : المراد من هذا تخصيص (أن) ماذهب اليه ائمتنا هو صواب عندهم مع احتمال الخطإ ، اذ كل مجتهد قد يصيب وقد يخطئ في نفس الامر . واما بالنظر الينا فهو مصيب في اجتهاده ، وهو معنى ما روي ان كل مجتهد مصيب ، فليس معناه ان الحق يتعدد .

وينبغي ان يكون قد اراد الكلام (١) ان للمجتهد الحكم ظنا لا قطعيا بأن اجتهاد غيره خطإ . واما نفس المجتهد المخالف فهو مصيب في العمل باجتهاد نفسه لا مخطئ في ذلك ، وان كان محكوما بخطإ اجتهاده عند غيره ، لانه مأمور باجتهاد نفسه كما لا يخفى .

قال الامام فخر الاسلام علي بن محمد البزدوي في شرح الجامع الصغير في مسئلة التحري بالقبلة في الليلة المظلمة : وهذا نص من اصحابنا على انهم لم يقولوا : كل مجتهد مصيب . خلافا للمعتزلة ، فان من نسب ذلك اليهم فقد تقول عليهم . هذا لفظ فخر الاسلام رحمة الله عليه .

قلت ، وقد ذهب بعضهم الى ان الحق يتعدد في المسئلة ، وهوما أدى

---

(١) المنار : كانت هذه الجملة الى الاربعة الاسطر موضوعة في الفصل السابق قبل قوله « وأما أنت » الخ ولا معنى لها هناك ولا مرجع لضميري يكون وأراد .

اليه اجتهاد كل مجتهد فيها ، فقد جعل الله تبارك وتعالى حكم المسئلة ما أدى اليه اجتهاد كل مجتهد . ولكن لا نقول به ، بل معناه انه مصيب في اجتهاده ثم العمل به ، والحق عند الله واحد ، ولكن لما ظهر لهم بالدليل حكم من الاحكام وجب عليهم اتباع الدليل ، ومن ضرورة وجوب الاتباع التصويب ، والا فالشرع لا يأمر باتباع الخطإ . ثم من ضرورة تصويب قولهم تخطئة قول مخالفهم مع احتمال الاصابة من مخالفهم ، لان المجتهد لم يحصل له الا الظن لا القطع بذلك ، ولهذا لو حكم بشيء من القطعيات في العقائد يجزم بالاصابة وتخطئة المخالف ، كما ذكره النسفي في تلك المسئلة في المصفى ايضا .

فالحاصلُ ان المراد من أئمتنا ومن اخذ بقولهم من اهل النظر - كمشايخ المذهب الكبار المتقدمين ، كالشيخ ابي الحسن الكرخي والامام ابي جعفر الطحاوي ، والمتأخرين مثل شمس الائمة الحلواني وتلميذه السرخسي وفخر الاسلام البزدوي وامثالهم من النظار في القرن الخامس ، والامام قاضي خان وخسرويه صاحب الهداية ، واضرابهما من اهل الانظار ذوي القدر الخطير في القرن السادس — لو سئلوا لكان جوابهم ما ذكره . ويرشد الى ذلك تعبيره بقوله « لو سئلنا » وقوله « عما ذهبنا » الى آخره . ولم يقل : لو سئل المقلد . فهذا الجواب مقدر من جانب الأئمة انفسهم فيما ذهبوا اليه ، وليس المراد ان يكلف كل مقلد ان يعتقد ذلك فيما قلد فيه ، اذ ذلك تقليد فيما لا يحتاج اليه ، وهو ممنوع ، كما افدتك من قبل ان التقليد انما يسوغ بقدر الضرورة ، وهو محتاج الى العمل ، فلا بد من التقليد في كيفية حصوله ، واما اعتقاد صحة ما قلد

فيه ولا يدري[1] بطلان كل ما عداه فليس مكلفا .

فإن قلت : بل هو مكلف ، وإلا لزم اذاً التكليف مع اعتقاد عدم صحتها .

قلت : لا يلزم ذلك الا لو اعتقد عدم صحة ما قلد فيه ، ونحن لانقول به ، بل هو على الصواب ظاهرا حيث فعل ما عليه ، وهو الاخذ بقول مجتهد ، واما تخطئة من اخذ بخلاف قول مقلده فما هو مكلف بها .

وإذا تقرر هذا فلا يسوغ لحنفي او شافعي وجد في المسجد اماما على خلاف مذهبه بعد ان كان من اهل السنة والجماعة ترك الاقتداء به ، نظراً الى عدم صحة صلاته على مقتضى مذهب امامه[2] .

فصل

يؤيد ما ذكرته ما نقله التقي الشمني في شرح المختصر والشيخ عثمان الزيلعي وصاحب البحر الرائق وغيرهم عن الامام الجليل أبي بكر الرازي رحمه الله من صحة الاقتداء بامام رعف ولم يتوضأ ، وهذا يشعر بالاكتفاء باعتقاد الامام نفسه في صحة صلاته ، ولا عبرة حينئذ بفسادها في اعتقاد المقتدي ، كما اشار اليه النسفي ايضا ، وهذا القول هو المقصود روايته وان اعتقد خلافه رواية عندنا . وهو الذي اميل اليه ، وعليه

(١) المنار : كذا في الاصل ولعل في الكلام حذفا والمراد ظاهر . أي: وأما اعتقاد صحة ماقلد فيه ولا يدري ما دليله ، وبطلان كل ما عداه فليس مما يكلفه .

(٢) تقييده بأهل السنة فيه بحث فقد أجازوا الاقتداء بالفاسق ولو في الاعتقاد كالمبتدع ولكن مع الكراهة وهذا مما يتحقق به كونهم أهل الجماعة أي يجمعون كلمة المسلمين ولا يفرقونها

يتمشى ما ذهبنا اليه في هذه الوريقات .

بَل أَزيد واقول : والذي يقتضيه النظر — فيما ذهبنا اليه — لا ينبغي تخصيص عقيدة الامام بالاعتبار في الصحة ، بل يقول : يكفي حصول الصحة على قول مجتهد سواء في ذلك مطابقة عقيدة الامام والمأموم اوغير مطابقة ، كمثل شافعي مس فرجه وصلى ناسيا اماما واقتدى الحنفي بالشافعي ثم نسي ودخل في الصلاة ، والحنفي كان عالما بمسه وهو ذاكر له ، فنقول : له ان يقتدي به لانه في حالته بعد المس ، وهو متوضئ في اعتقاد الحنفي المقتدي فيكفي ذلك .

وقد قال المحقق في فتح القدير في مثل هذه الصورة : ان الاكثر على الصحة خلافاً للهندواني وغيره ، ففي هذه الصورة قد اعتبرنا اعتقاد الحنفي المقتدى ، واكتفينا بصحتها في عقيدته ، وصححنا الاقتداء ، كما انه في مسئلة اقتداء الحنفي بالامام الذي رعف ولم يتوضأ اكتفينا بصحتها في عقيدة الامام الراعف ، وصححنا الاقتداء به ، وهو الذي نقلوه عن الامام الرازي .

وقد ذكر الشيخ الامام المحقق كمال الدين بن الهمام في شرحه على الهداية عن شيخه الامام سراج الدين الشهير بقارئ الهداية انه كان يعتقد قول ابي بكر الرازي ، وانه انكر مرة ان يكون فساد الصلاة بذلك مرويا عن المتقدمين انتهى.

ورأيت في رسالة لبعض الفضلاء ، ان بعض الفضلاء كانوا يرجحون قول ابي بكر الرازي بناء على قوة دليله ووضوح بيانه ، وهو ان شرط صحة صلاة المأموم صحة صلاة الامام في نفسها ، وصلاة كل

مكلف انما تصح فى نفسها إماما ومأموما باعتبار رأيه ومذهبه، لا على مذهب الغير، إذ كل مجتهد مطاع فى حكمه، ومجزي عن عمله الذي رآه ومثاب عليه، وان لم يصب الحق، فالحنفي لا يجزم بفساد صلاة مجتهد خرج منه الدم وهو يرى انه غير ناقض، وان قطع بفسادها من حنفي ابتلي به - على رأيه -.

قوله: لا يجزم. وقوله: وان قطع. لا يخفى انه لا جزم ولا قطع فى الظنيات، فالصواب ان يقال: لا يحكم. او لا يقول بفسادها. وكذا ان يقول: وان حكم - أو - وان قال بفسادها، بدل قوله: وان قطع. قال جامعها.. وان قطع بفسادها من حنفي ابتلي به بناء على رأيه ومذهبه - الى آخر ما ذكره مما تركت ذكره قصد الاقتصار على ما هو المقصود منه.

وكذلك ايضاً اجاب عنه الشهني فى شرح المختصر وغيره من المصنفين فى مسئلة صحة اقتداء مقلد ابي حنيفة فى الوتر بمن يرى عدم وجوبه، بانه لا يجب عليه اعتقاد الوجوب. يدل أيضا على ما ارشدتك اليه من ان التقليد انما هو بقدر الحاجة، واعتقاد الوجوب فى عمل لم يجمعوا على وجوبه لا يجب، بل ربما لا يسوغ كما سيأتي قريبا. فلذلك نقول: المقلد محتاج الى ايقاع ما كلف به بطريقه لا غير. فتنبه ! فقد نقل صاحب البحر الرائق - وهو خاتمة المتأخرين مولانا العلامة ابن نجيم رحمه الله تعالى في (البحر الرائق شرح كنز الدقائق) عن (شرح منية المصلي) انه صرح بعض مشايخنا بانه لا ينوي فى الوتر انه واجب للاختلاف فى وجوبه، ونقل هو ايضا عن المحيط والبدائع انه ينوي صلاة الوتر والعيد فقط، انتهى. وهذا نص فيما اشرت اليه.

فصل

قد استفاض عند فضلاء العصر منع التلفيق في التقليد، وذلك بأن يعمل - مثلا - في بعض أعمال الطهارة والصلاة، او احدهما بمذهب امام، وفي بعض العبادات بمذهب امام آخر. ولم اجد على امتناع ذلك برهاناً، بل قد اشار الى عدم منعه المحقق في التحرير، وانه لم يرد ما عنم، ونقل منع التلفيق عن بعض المتأخرين. قال شارح تحريره العلامة ابن اميرحاج: القائل بالمنع العلامة القرافي رحمه الله تعالى.

قلت: والقرافي رجل من فضلاء الأصوليين من المالكية، ولا علينا ان نأخذ بقوله، خصوصا وقد وجدت عن بعض أئمتنا ما يدل على جوازه، بل على وقوعه، وهو ما نقل في البزازية ان من علماء خوارزم من اصحابنا من اختار عدم فساد الصلاة بالخطإ في القراءة فيها أخذا بمذهب الامام الشافعي رحمه الله: فقيل له: مذهبه في غير الفاتحة[1]. فقال: اخترت من مذهبه الاطلاق، وتركت القيد[2]. لما تقرر في كلام محمد[3] رحمه الله تعالى: ان المجتهد يتبع الدليل لا القائل. حتى صح القضاء بصحة النكاح بعبارة النساء على الغائب، انتهى. نقله عنها العلامة خاتمة المتأخرين ابن نجيم في بعض رسائله في الوقف. فانظر كيف لفق اخذا بمذهبه بأن الفاتحة ليست بركن فلا يضر نقصان بعضها

(١) أي ذلك مذهبه في غير الفاتحة (٢) سينقل المصنف قريبا قول الخوارزمي في هذا السياق «وتركه القيد في غير محله» - أي الشافعي - فهل هو عين هذه العبارة ووقعت هنا محرفة؟ أم سقط من الكلام هنا؟ (٣) سيعيد العبارة بلفظ «من كلام محمد»

فيما اخطأ فيه، اعني خطأ فاحشا كمن قال: اياك نعبا واياك نستعين. نسبقه اللسان خطأ. فان الفاتحة نقصت كلمة نعبد فلم تجز صلاته على مذهب الامام الشافعي رحمه الله ما لم يعد قراءة نعبد، فاذا اعادها صحت صلاته ولم تفسد عنده بهذا الخطإ، لأن عنده الكلام الخطأ لا يفسد اذا كان قليلا، وعندنا هو مفسد، فاذا اعادها على الصحة لا يفيد لأن الصلاة قد فسدت. هذا وقد قال بعدم الفساد عندنا بعض المشايخ ان اعادها على الصحة كما نقله الزاهدي، ولكن ظاهر ما في البزازية عن بعض علماء خوارزم انه لا تفسد ولو لم يعد على الصحة، وان اخذه بمذهب الشافعي في عدم الفساد بالخطإ، وهو عين التلفيق.

فان قلت: ان ذلك البعض من علماء خوارزم لعله انما قال بذلك اجتهادا بدليل قوله: ان المجتهد يتبع الدليل لا القائل. قلت: يمنع من ذلك قوله: اخذا بمذهب الشافعي، فان المتبادر من ذلك انه قلده في ذلك: ومعنى قوله حينئذ: لما تقرر من كلام محمد - الى آخره - يعني ان المجتهد كما يتبع ما دل عليه الدليل باجتهاد لا باتباع من قال بمثل ما اداه اليه اجتهاده، فكذلك المقلد انما يلزمه خصوص ما قلد فيه، لا اتباع ذلك المجتهد الذي قلده في جميع ما قال به، وخصوص ما قلت فيه انما هو عدم الفساد بالخطإ في القراءة مطلقا، سواء كان ذلك في الفاتحة اوغيرها، وذلك هو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه وعن سائر الائمة المجتهدين. وفساد الصلاة بوقوع الخطإ في الفاتحة عنده ليس لخصوص كونه في الفاتحة، بل لفوات بعض الفاتحة عنده في الصلاة، ولهذا لو اتى بما اخطأ فيه منها على الصحة فانه لا يقول بفساد صلاته حينئذ.

والخوارزمي لم يقلده في ركنية الفاتحة، بل قلده في عدم الفساد بالخطإ في القراءة - اعني الشافعي رحمه الله تعالى يقول باطلاقه، وقول القائل «له مذهبه في غير الفاتحة» غير صحيح، - كما تقدم بيانه - وكذلك قول الخوارزمي له، وتركه القيد واقع في غير محله، لانه لم يقيده الشافعي بغير الفاتحة، بل خرج ذلك من الخوارزمي للمشاكلة في الجواب لمن نسب اليه القيد، اي الى الشافعي، وذلك إما جهل من ذلك القائل بمذهب الشافعي، او توسع في العبارة وتسامح، لانه لما كان الشافعي يقول بالفساد بوقوع الخطإ في الفاتحة اذا لم يعد على الصحة، فكأن غير الفاتحة صار كالقيد لاطلاق الجواز، وليس قيدا حقيقة - كما بينته في اول الكلام فافهم -.

والحاصل انه لم يثبت من كل وجه كون الخوارزمي قال بذلك الاجتهاد، ولو فرضنا ثبوت ذلك فما ضرنا ذلك فيما قصدنا اليه من جواز التلفيق، فكما انه لو حصل التلفيق بالاجتهاد حكمنا بالصحة، فكذلك اذا حصل التلفيق بالتقليد حكمنا بالصحة، لان الاجتهاد اصل في العمل والتقليد فرع. التكليف في الاصل انما هو بالاجتهاد عند عدم النص، فان عجز عن ذلك الاجتهاد نزل إلى التقليد، ففي كل موضع قلنا بالصحة مع الاجتهاد نقول بها مع التقليد عند العجز عنه من غير زيادة امر آخر، وما زاد على ذلك فهو قول مخترع لا يقوم به دليل مرضي، ولا تنهض به حجة.

وما يزعمه من منع التلفيق من ان كلا من المجتهدين اللذين قلدهما - مثلا - يقول ببطلان صلاته الملفقة - مثلا - او سئل عنها بانفراده، فمغالطة مدفوعة بما لا يسع هذا المحل بيانه.

واجمال ذلك انه انما يقول له : انها باطلة ان كنت اخذت في ذلك الامر الذي حكمت اذا ببطلانه من اجله بمذهبي . واما ان كنت قلدت فيه غيري فلا احكم ببطلانها حينئذ في حقك ان كنت متمسكا بقول مجتهد . وكذلك يقول له الآخر والآخر والآخر، فبطل اطلاق قولهم : بمنع التلفيق بأن كلا من المجتهدين حاكم ببطلان صلاته مثلا، بل يقيد الحكم منه ببطلانها بما اذا كان متمسكا فيها بمذهبه فيما يرى ذلك المجتهد بطلانها بسبب فعله او تركه، لا ان قلد غيره فيه، فافهم ما فيه، فتندفع تلك المغالطة التي حكم من حكم بمنع التلفيق بسببها . فان ابيت وقلت : لا بل المجتهد يطلق القول ببطلانها على رأيه . فنقول : لا يليق هذا الابطال بما اذا قلد مجتهدا غيره في ذلك الامر الذي ابطلها بسببه ، كما لا يليق ابطاله بنقض قول ذلك المجتهد المصحح لها مع وجود ذلك الامر الذي ابطلها بسببه ذلك المجتهد الآخر ،فسلمت له صلاته — اي المقلد — بتقليده لها كل امر من امورها مجتهدا يرى صحة ذلك ، فصار حكم المجتهد المبطل في مصروفا عنه بتقليده من يري الصحة بذلك الامر ، وبذلك ينصرف عنه حكم كل المجتهدين ، وببطلانها بيان قول المانع فيما اذا قلد المكلف اباحنيفة رضي الله عنه في ان المس غير ناقض مثلا ، وقلد الشافعي رحمه الله تعالى في الاكتفاء بمسح بعض شعرات من الرأس لا تبلغ الربع ، او مقدار ثلاثة اصابع باعتبار الرواية الاخرى في مذهب ابي حنيفة رحمة الله عليه في المقدار المفروض في مسح الرأس ، فان المانع يقول : ان ابا حنيفة والشافعي حاكمان ببطلان صلاته ، فابو حنيفة لفقد مسح المقدار المفروض عنده ، والشافعي لوجود المس ، فهي غير جائزة عندهما .

اقول : وجوابه ما بيناه أن هذه مغالطة ، واطلاق في محل تقييد، بل الحكم ببطلانها عند كل منهما مقيد بما اذا كان آخذا في ذاك الامر الذي حكم من حكم ببطلانها بسببه بمذهب المبطل - كما تقدم بيانه قريبا - فافهم والله اعلم بالصواب .

اللهم لو ذهب مجتهد الى ان المفروض من الرأس في المسح مقدار ما قال به الشافعي ، والى ان المس غير ناقض ، والى ان الدلك والموالاة في الوضوء لا يلزمان ، لم يسوغ المانع له حينئذ اجتهاده ؟ (١) فكذلك عليه ان يسوغ للمقلد تقليده في كل واحد من المذكورات لمجتهد قال بذلك . كما لا يخفى ؛ فان تأبَّى متأبٍ عن تلقي هذا البيان بالقبول بعد صحته ووضوحه فاقرعه بما تقدم قريبا من عدم لحوق الإبطال من المجتهد بالمقلد لغيره فيما ابطله بسببه ، وان صادف حكمه عنه بذلك .

ثم نرجع ونقول : وكذلك مسئلة النكاح . فانه لا يصح بعبارة النساء على الغائب ، وعندنا الحكم بالعكس في المسئلتين ، فاذا حكم بصحته بعد وقوعه بعبارة النساء على الغائب فقد لفق ، ومع هذا فقد حكموا بصحة هذا الحكم الملفق من المذهبين . وكذلك مسئلة الامام ابي يوسف رحمه الله تعالى لما صلى بالناس الجمعة فاخبر بوجود فأرة في ماء الحمام الذي كان اغتسل منه للجمعة . فقال : نأخذ بقول اخواننا من اهل المدينة « اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا » قال في المحيط البرهاني والفتاوي الظهيرية

(١) قوله لم يسوغ الخ جواب لو . ومعنى النفي باطل لأن مانع التلفيق لا يمنع المجتهد من القول بهذه المسائل ، ولا يصح المعنى الا اذا جعلت الجملة للاستفهام ولا تبعد على المصنف لضعفه في العربية ، والا فالعبارة محرفة

وغيرها من كتاب النكاح مستشهداً بها في مسئلة من مسائل النكاح سيأتي ذكرها : للحنفي ان يعمل فيها بغير مذهبه .

اقول : فهذا ابو يوسف رحمه الله امام المذهب وكبيره المجتهد الكامل قد قلد عند الضرورة ولم يكن ذلك مذهباً له ، بل مذهبه تنجس الماء القليل وان لم يتغير بوقوع ما ينجسه فيه ، ولا شك ان الظاهر انه فعل الطهارة وصلى الصلاة على مقتضى مذهبه وانما قلد في خصوص الماء فقد حصل التلفيق منه ، وهو اوفى حجة لنا ، ويستفاد منه ايضا انه يقلد اذا احتاج ، اذ هو الظاهر من فعله هنا ، وان كان نقل في جواهر الفتاوى عن الحاوي من كتبنا : ان ابا يوسف رحمه الله بقي على هذا المذهب ستة اشهر ، ثم رجع الى مذهب ابي حنيفة رحمه الله تعالى في المسئلة . فانه يحتمل انه ظهر له بالدليل بعد التقليد صحة ما ذهب اليه غيره ممن قلده في المسئلة خصوصاً ، ولفظ نقل المحيط والظهيرية « ولم يكن ذلك مذهبا له بل يدل على وقوعه تقليداً »

وهذه المسئلة وهي : هل للمجتهد ان يقلد مجتهداً في مسئلة فيها خلاف ؟ المشهور انه ليس له ذلك ، وروي عن الامام محمد رحمه الله جواز تقليد العالم للأعلم ، والفقيه للأفقه ، وفرع ابي يوسف هذا يوافقه . ثم رأيت في أصول الامام شمس الائمة ابي بكر بن محمد بن احمد بن ابي سهل السرخسي رحمهم الله تعالى — وهو صاحب — المبسوط ما نصه :

على اصل ابي حنيفة رحمه الله تعالى — اذا كان عند مجتهد ان من يخالفه

في الرأي اعلم بطريق الاجتهاد فانه مقدم عليه في العلم فانه يدع رأيه لرأي من عرف زيادة قوة في اجتهاده — الى ان قال — : وعلى قول ابي

يوسف ومحمد رحمهما الله تعالى « لا يدع المجتهد في زماننا رأيه لرأي من هو مقدم عليه في الاجتهاد من اهل عصره » الى آخر ما ذكره . فافاد عن محمد خلاف ما رأيته عنه ، فلعل ان له في المسئلة روايتين ، ونقل صاحب الفتاوى الصيرفية عن فوائد تجنيس الملتقط : اشترى الامام الشافعي رحمه الله تعالى الباقلاء من منادى السكك ، فاكل واكلوا وصلوا بعد ما حلق وعلى ثوبه شعر كثير ، فقيل له في ذلك ، فقال :

حين ابتلينا انحططنا الى مذهب اهل العراق . وهو يفهم بظاهره انه قلد في ذلك .

فقد تلخص من المنقول عن الأئمة ان التلفيق[1] من مسئاتي ابي يوسف وبعض علماء خوارزم ، ومسئلة صحة الحكم على الغائب بصحة النكاح بعد وقوعه - كما سبق في المسئلة التي ذكروها - واستئناسي بمقالة المحقق في التحرير ، وما على الانسان ان يختار الاسهل في العمل .

ثم وجدت شيخ الاسلام خاتمة الأئمة المتأخرين مولانا العلامة زين الدين ابن نجيم صرح في رسالة الفها في بيع الوقف على وجه الاستبدال -

بان ماوقع في آخر التحرير من منع التلفيق فانما عزاه الى بعض المتأخرين وليس هذا المذهب . انتهى . فحمدت الله تبارك وتعالى على موافقة ما ادعيته لما نص عليه مولانا العلامة ابن نجيم .

(للرسالة بقية)

---

(١) كذا والمعنى مأخوذ من مسألتي أبي يوسف الخ

الصهيونية

(ننقل هذا الفصل من جزء نوفمبر سنة ١٩١٣ لمجلة الهلال المفيدة لاطلاع من لم يطلع عليه من قرائنا في هذه الايام التي كثر فيها الخوض في هذه المسألة)

تاريخها وأعمالها

الصهيونية دعوة اجتماعية سياسية انتشرت في الامة الاسرائيلية باواخر القرن الماضي وكثر تحدث الناس فيها بالاعوام الاخيرة . وقد همنا امرها على الخصوص في اثناء رحلتنا بفلسطين . ولابد لنا في بحثنا عن احوال تلك البلاد الاجتماعية والاقتصادية من الاشارة الى هذه الدعوة وتأثيرها الشديد في تلك الاحوال . فرأينا ان نأتي على خلاصة تاريخها وحقيقة غرضها لزيادة الايضاح فنقول .

موضوعها

قد تقدم في كلامنا عن تاريخ فلسطين في الهلال الماضي كيف تشتت اليهود في انحاء العالم بعد ان جاهدوا في الدفاع عن اورشليم دفاع الاسود . وقد مضى عليهم في هذه الهجرة نحو ١٩ قرنا وهم يندبون وطنهم ودولتهم وهيا كلهم . ولاسيما هيكل سليمان الباقية آثاره في القدس الى الآن كما سنبينه مصورا في رحلتنا . وقد حاولوا استرداد ذلك الوطن عبثا ونظموا الاشعار في رثائه . ولا يزالون الى اليوم يبكون ذلك المجد الذاهب كل اسبوع عند احجار يعتقدون انها من بقايا هيكل سليمان

وقد حاول اليهود المهاجرون السعي في استرجاع ذلك الوطن غير مرة باساليب مختلفة آخرها الحركة الصهيونية التي نحن في صددها

ولابد لكل دعوة اجتماعية او سياسية من غرض ترمي اليه . وغرض الصهيونية «جمع الشعب الاسرائيلي في فلسطين وجعلها وطنا خاصا به» وهي مبنية من الوجهة الدينية على آيات جاءت في سفر ارميا الفصل ٣٠ عدد ١٠ حيث يقول « لا تخف ياعبدي يعقوب يقول الرب ولاتفزع يااسرائيل فاني اخلصك من الغربة وذريتك من ارض جلائهم فيرجع يعقوب ويستقر في الراحة والخصب ولايرعبه احد» وفي حزقيال (ص ٣٩ عدد ٢٨) «فيعلمون اني انا الرب الههم باجلائي اياهم الى الامم ثم جمعي

اياهم الى ارضهم بحيث لا أبقي هناك منهم احداً من بعد » وفي عاموس قول صريح (ص٩: ١٤) «وارد شعبي اسرائيل فيبنون المدن الخربة ويسكنونها ويغرسون كروما يشربون من خمرها وينشئون جنات يأكلون من ثمرها واغرسهم على ارضهم فلا يقتلعون فيما بعد من ارضهم التي اعطيتها لهم »

وهناك نبوات أخرى بهذا المعنى او نحوه في زكريا واشعيا وميخا وغيرها . غير ماعندهم من الاعتقاد بالمسيح الذي سيأتي ويجمع بني اسرائيل حوله ويزحف على القدس ويعيد العبادة للهياكل وغير ذلك مما جاء في التلمود

على ان هذه الاقوال وامثالها لا تكفي لاجماع الامة على العمل بها ان لم يتوقع اصحابها نفعا اقتصاديا اوسياسيا من ورائها او ان يدفعهم للعمل جوع او اضطهاد اوظلم . وكم من اعتقاد يعتقده الناس ولايجتمعون للعمل به لعجزهم عن ذلك او لعدم الاضطرار اليه ؟ وانما يجتمعون للعمل في مايرون لهم فيه مصلحة حقيقية . ويتذرعون الى الاجتماع غالبا باسباب دينية يتوكأون عليها ويؤولونها الى مايساعدهم على ذلك القيام

ولابد في مثل هذه الحال من محرك يبعث على النهوض . وقد بعث اليهود على هذه الحركة امران : الاول تمكن الروح الملية من نفوسهم على اثر الارتقاء الاجتماعي والعلمي في العالم المتمدن . فان شيوع الحرية الشخصية ولد في نفوس الامم عصبية عنصرية غلبت على الجامعات الاخرى . وبهذه العصبية يطلب المجر التخلص من النمسا ويحاول البلقانيون الخروج من سلطة تركيا . والبلقانيون انفسهم يتحاربون الآن باسم العنصرية مع انهم من مذهب واحد واقليم واحد . والامر الثاني مبالغة الامم النصرانية في امتهان اليهود باسم الانتسميتزم (Antisemitism) ومعنى اللفظة « مقاومة الساميين » لكنهم يريدون بهم اليهود خاصة . فآل ذلك طبعا الى اجتماع كلمة اليهود باوربا وفيهم طائفة حسنة من اصحاب الاموال ورجال السياسة والعلم وأهل الهمة والنشاط فاخذوا يبحثون في الدفاع عن امتهم . وآنسوا في انفسهم المقدرة على العمل بتلك الآيات فوجهوا عنايتهم اليها، فأخذ كتابهم يحرضون قومهم على الاستعمار في فلسطين للتخلص من اضطهاد الامم لهم . وقال بعضهم « اذا لم يكن ابتياع فلسطين ممكنا فلنطلب وطنا في مكان آخر على وجه هذه البسيطة »

ونشط آخرون لاستنصار الجمعيات الخيرية الاسرائيلية كجمعية الاتحاد الاسرائيلي على القيام بهذا العمل سنة ١٨٦٣ ولكن هذه الجمعية غرضها الرئيسي تهذيب الشبيبة اليهودية. وحاول غيرهم استنهاض جمعية اليهود الانكليزية في لندن وجمعيتهم في برلين فترتب

على ذلك تأسيس الجمعية العمومية الفلسطينية وجمعية الاستعمار الفلسطيني . لكن الدعوة لم تكن نضجت بعد فلم تأت هذه المساعي بثمرة . فوجهوا التفاتهم الى وادي الفرات لعله يصح ان يكون مهجرا لهم . وبذل السياسي اولفانت الانكليزي جهده في نيل امتياز خط حديدي في ذلك الوادي ليسكن فيه مهاجري اليهود من روسيا . واقترح انشاء مهجر يهودي في فلسطين بنواحي الساحل على ان تتألف جمعية رأس مالها عشرة ملايين فرنك تبتاع مليون فدان يستثمرها يهود بولندا ورومانيا والاناطول. فلم يأذن لهم السلطان — وقس على ذلك سائر مساعيهم في هذا السبيل

لكن روح الصهيونية اخذت تتمكن من قلوب اليهود . وهم يزدادون تمسكا بالعنصرية كلما زاد مقاوموهم شدة . فكثرت الجمعيات التي تألفت لهذه الغاية . واول جمعية افلحت في استثمار ارض فلسطينية نشأت سنة ١٨٧٩ ولما التأم المؤتمر الاسرائيلي سنة ١٨٨٤ للنظر في احوال المستعمرين والاخذ بناصرهم حضره مندوبون عن خمسين جمعية فازداد القوم نشاطا وبلغت الحركة اشدها سنة ١٨٩٤ واوشكوا ان يبلغوا غايتهم لكن العثمانيين انتبهوا لاغراضهم فحالوا بينهم وبين ما يريدون . ولم يستقر عملهم على قواعد متينة الا بعد ظهور الدكتور تيودور هرتسل صاحب الدعوة الصهيونية

وهو رجل نمساوي شديد الغيرة على العنصر الاسرائيلي عالي الهمة قوي الحجة كتب وهو في باريس سنة ١٨٩٥ كتابا في استعمار اليهود سماه « الوطن الاسرائيلي » لم يزعم انه يستنهض به الهمم او يستثير العزائم بل قال انه كتبه لنفسه ولايقاف بعض اصدقائه على آرائه . ولكن الكتاب مالبث ان طبع في فينا بالنمساوية حتى نقل الى الفرنساوية والانكليزية والعبرانية واعيد طبعه مرارا وراج رواجا عظيما . وحرك الهمم فوق ما كان يتوقع الناس منه . وقد عارضه كثيرون لكن المجاري الاجتماعية اقتضت ظهور ثمره لان فكرة استعمار اليهود لفلسطين كانت قد نضجت واستعدت لها الاذهان وتاقت اليها النفوس

وخلاصة آراء هرتسل في ذلك الكتاب « ان اعداء الساميين آخذون في الازدياد ولا يستطيع اليهود مقاومتهم لتشتت شملهم في الارض فهم في حاجة الى الاجتماع في وطن خاص بهم » فاقترح انشاء شركة يهودية اقتصادية رأسمالها ٥٠٠٠٠٠٠٠ جنيه مركزها لندن . وان تتألف جمعية سياسية يهودية تدبر اعمال هذه الشركة وتشير عليها بما ينبغي عمله . واقترح للقيام بذلك ابتياع فلسطين او الارجنتين على ان

ينتقل اليها اليهود انتقالا منتظما . ثم عدل هرتسل رأيه هذا فحصر طلبه باستعمار فلسطين دون سواها لعلمه ان الناس لا يساقون بمثل الشعائر الدينية واليهود هجروا فلسطين وقلوبهم في هيكل سليمان

ولم تمض سنة على نشر آراء هرتسل حتى اقبلت الجمعيات على الاخذ بها. واول من فعل ذلك جمعية اليهود النمساوية فوقع بضعة آلاف منهم سنة ١٨٩٦ على خطاب يطلبون فيه تأسيس جمعية يهودية في لندن ، غير من أخذ برأيه وتعصب له من الناشئة المتألمين من مقاومة اليهود . على ان طائفة كبيرة من الحاخامين في روسيا والمانيا والنمسا وانكلترا عارضوه في بادئ الرأي لانه لم يعتبر الوجهة الدينية من المسألة كما ينبغي . ولان أتباعه اكثرهم من الشبان المتنورين(١) واتهموهم بكل قبيح . وكان المسيحيون أشد عطفا على الصهيونية من اولئك الحاخامين فنصروها باقلامهم والسنتهم

ومن جملة العقبات التي قامت في طريق الصهيونية مسألة التعليم لان الحاخامين اعتبروا نشر العلوم العصرية من قبيل الخروج عن الآداب الدينية . واشاعوا ان ان الصهيونية من آلات الكفر . فلما انعقد المؤتمر الثاني رأى هرتسل من الحكمة مسالمة رجال الدين فاعترف ان الصهيونية تشمل السعي في احياء شعائر الدين فضلا عن الاقتصاد والسياسة

اعمال الصهيونية ووسائلها

قد يستغرب القارئ نجاح هذه الدعوة في هذه المدة القصيرة . لكنه اذا علم الغرض والوسيلة هان عليه ذلك . دعا هرتسل الشعب اليهودي من انحاء العالم المتمدن الى مؤتمر اجتمع في باسل سنة ١٨٩٧ حضره نيف ومئتا عضو بعضهم يمثلون جماعات . وكانت الاذهان متأهبة لقبول الدعوة فلم يكتفوا باعلانها — وهي ايجاد وطن شرعي للشعب الاسرائيلي في فلسطين - بل بحثوا في الوسائل المؤدية الى نشرها وتأييدها فقرروا لذلك ثلاث وسائل من ارقى الوسائل المؤدية الى النجاح وهي :

(١) احياء آداب العبرانية ونشرها

(٢) انشاء مدارس لتعليم اللغة العبرانية

(٣) انشاء مالية مشتركة لليهود

واخذوا بعد انفضاض هذا المؤتمر في تأييد هذه القرارات بنشر الكتب والقاء

(١) لعلها المتهورين كما يقتضيه السياق

الخطب في اللغات العبرانية والالمانية والافرنسية والانكليزية والعربية . وشكلوا عمدة للاستعمار الاسرائيلي . فلما انعقد المؤتمر الثاني في فينا ثم في باسل سنة ١٨٩٨ ظهر في التقارير التي تليت في ذلك الاجتماع ان الجمعيات الصهيونية القائمة بذلك العمل تضاعفت كثيرا واصبح عددها ١٥٠٠ جمعية . فاخذ اعداؤها يتقربون منها وآمن بمبادئها كثيرون من رجال الدين . وتقرر في هذا المؤتمر تعيين جمعية خاصة بالاستعمار غرضها توسيع نطاقه وان تكون اللغة العبرانية هي لغة اليهود حيثما وجدوا

وقس على ذلك ماجرى في المؤتمرات التالية . فانعقد المؤتمر الثالث في باسل ايضا وكانت ابحاثه اكثرها في نيل امتياز من السلطان عبد الحميد لم يسفر عن نتيجة ، وبلغ عدد الجمعيات الروسية فقط ٨٧٧ جمعية . وعدد المنتظمين في عضوية الجمعية ٢٥٠٠٠٠ نفس. وانعقد المؤتمر الرابع في لندن سنة ١٩٠٠ والخامس في باسل سنة ١٩٠١ وفي هذا المؤتمر تقرر عقد مؤتمر عمومي كل سنتين . غير المؤتمرات الفرعية في اثناء السنتين. وقرروا انشاء مكاتب المطالعة ومدارس وتأليف دائرة معارف عبرانية . وانعقد المؤتمر السادس في باسل سنة ١٩٠٣ وتقرر فيه ارسال لجنة الى اوغندة تبحث في هل تصلح تلك البلاد للاستعمار . وقرر تخصيص ٢٠٠٠٠٠ جنيه لشراء ارض في فلسطين وسوريا

وفي السنة التالية ١٩٠٤ توفي الدكتور هرتسل صاحب هذه الدعوة فانتخبوا مكانه الدكتور نوردو رئيسا . وعرضت انكلترا في ذلك العام على الصهيونيين ارضا في شرقي افريقيا الانكليزية على سكة حديد اوغندة بين نيروبي وماو لاجل انشاء مستعمرة يهودية مستقلة باحكامها تحت رعاية الدولة الانكليزية . فعينت لجنة للبحث فقررت ان البقعة ضيقة لاتكفي فرفضوها . وقس على ذلك سائر مؤتمرات الصهيونية وآخرها المؤتمر الحادي عشر الذي انعقد هذا في العام فينا برئاسة الموسيو وانسن وقد جاء فيه ان الصهيونية سائرة على قدم النجاح وان سلامتها مرتبطة بسلامة الدولة العثمانية لان المسألة اليهودية والمسألة العربية متفقتان . وقرر اشياء اخرى اهمها انشاء جامعة في اورشليم لتعليم العلوم العالية باللغة العبرانية وفي جملتها اللغات الشرقية والفلسفة القديمة والحديثة . غير المؤتمرات الفرعية التي كانت تعقد في انحاء العالم المتمدن ومنها مؤتمر عقد في زمارين من اعمال فلسطين حضره ٥٠ عضواً وشرط للدخول في الجمعية خمسة غروش يدفعها الطالب . وقسموا فلسطين من حيث الصهيونية الى ست مناطق وتقرر تأليف جمعيات وفروع للاخذ بناصرها

ومن قرارات المؤتمر السابع من حيث العمل في فلسطين السعي في التنقيب عن

الاثار وترويج الزراعة والصناعة وتحسين سائر الاحوال الاقتصادية وترقية الحياة الاجتماعية اليهودية وغير ذلك . وبلغت الجمعيات الصهيونية الآن الوفا عديدة ترجع في اعمالها الى قرارات المؤتمرات العامة

وللجمعية مصارف مالية لترويج اغراضها منها «المصرف اليهودي الاستعماري» وغرضه سياسي . وهو اهم ادوات الجمعية في موضوعها الاساسي . والغرض منه «تنشيط الاستعمار الاسرائيلي في فلسطين وسوريا وسائر انحاء تركيا وفي جزيرة سينا وقبرص» . وهو بنك مساهمة عدد المساهمين فيه نحو ١٣٥٠٠٠ وله شعبة في يافا باسم الشركة الانكليزية الفلسطينية لها فروع في اكثر مدائن فلسطين . وزاد رأس ماله على ١٢٠٠٠٠ جنيه والبنك اليهودي الملي والغرض منه جمع رأس مال يكون ملك الصهيونية يستخدم لابتياع الارضين في فلسطين . واشترطوا ان رأس ماله لايمس حتى يبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه . وقد زاد الآن على ١٢٠٠٠٠ جنيه

غير ما انشأته الجمعية من وسائل التعليم والتهذيب كالمكاتب والمدارس والجمعيات الادبية والصحية للرجال والنساء وعززوا شأن المرأة واعطوها حق التصويت والانتخاب لعضوية المؤتمر ، فالفت الجمعيات النسائية الادبية والتهذيبية والاجتماعية

وناهيك بما انشأوه من الصحف الكبري لخدمة اغراض الجمعية في روسيا والنمسا والمانيا وايطاليا وانكلترا ومصر وبلغاريا وغيرها . وانتشرت الدعوة الصهيونية بذلك في انحاء العالم المتمدن الى الصين واليابان وتركستان وفيليبين فضلا عن ممالك اوربا واميركا وغيرها . واصبح انصارها يعدون بالملايين . وهي مؤلفة من احزاب وفرق تتناقش وتتباحث سعيا في المصلحة العامة وتأييد الغرض الاصلي المراد بها . فهي اشبه بدولة ديموقراطية منها بجمعية سياسية اجتماعية . وقد اتخذت احسن الوسائل المؤدية الى تقوية البدن وتوسيع العقل وتأييد المبدإ فافلحت مساعيها . وانشأت في فلسطين مستعمرات يهودية في اطيب ارضها واكثرت من المدارس والمزارع والجمعيات والمكاتب والمصارف والمعامل الصحية والطبية . واهم تلك المساعي من الوجهة الاجتماعية احياء اللغة العبرانية وآدبها مما سنأتي على امثلة منه في الكلام عن احوال فلسطين الاقتصادية والاجتماعية من رحلتنا لهذا العام .

---

(١) المنار ليعتبر بهذه الهمة العالية من كان له قلب يشعر وعقل يفكر وليتعلم من سيرة هؤلاء اليهود كيف تحيا الامم بعد موتها وتعز بعد ذلها ، وليحث في افواه اليائسين التراب قبل ان يحثى على اجسادهم لعنة الله عليهم أجمعين

تقريظ المطبوعات الجديدة (*)

أعيان البيان . من صبح القرن الثالث عشر الهجري الى اليوم

كتاب خاص بتاريخ الآداب العربية فى هذا العصر ، وتراجم نوابغ الادباء والشعراء تأليف حسن افندي السندوبي. طبع بمطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ و ١٩١٤ مالية صفحاته ٤٣٢ بقطع المنار بحرف متوسط الحجم على ورق جيد ثمنه ١٠ قروش خلا اجرة البريد ويطلب من مكتبة المنار بشارع عبد العزيز بمصر

اندفع كتاب العربية في هذه السنين الاخيرة الى تدوين آداب اللغة العربية وتاريخها فكتب جرجي بك زيدان والشيخ احمد الاسكندري ومصطفى افندي صادق الرافعي وغيرهم . وألقى أشهر علماء الادب بمصر الشيخ محمد المهدي استاذ هذا الفن في الجامعة المصرية ومدرسة القضاء الشرعي دروسا في الجامعة المصرية وغيرها في الموضوع تبلغ أسفارا ، واتجهت نفوس الاساتذة والطلبة الى استخراج جواهر هذا الفن من قواميس جهابذة العربية واساطينها . فتسابق المؤلفون والمدرسون في هذا المضمار

وكان مؤلف هذا الكتاب حسن افندي السندوبي يراقب هذه الحركة وضم الى مطالعة كتب الأدب القديمة مطالعة هذه المكتوبات الحديثة وأعد العدة الى تأليف كتاب في ركن من أركان الموضوع لم يطرقه المعاصرون وهو تراجم اشهر ادباء هذا القرن والذي قبله فاثبتها ذاكراً مميزات المترجم فمؤلفاته فنبذا من آثاره القلمية نثرا ونظما

وقد جعل كتابه هدية لمليك البلاد اعزه الله وصدره بمقدمة شعرية تاريخية اجمل فيها تطورات الادب العربي في ست عشرة صفحة أوجز فيها واختصر فالكتاب مفيد وليس له في بابه نظير من المؤلفات العصرية وأني لارجو ان اوفق الى مطالعته لاعطيه حقه من التقريظ والنقد

﴿ ديوان المازني ﴾

الجزء الاول منه نظم ابراهيم عبد القادر المازني طبع بمطبعة البسفور صفحاته ١٥٧ بقطع رسالة التوحيد بحرف كبير ثمنه خمسة قروش ويطلب من مكتبة المنار بمصر

صدر المازني ديوانه بمقدمة عنوانها « الطبع والتقليد في الشعر العصري » من انشاء

(*) كتب تقاريظ هذا الجزء شقيقنا السيد صالح مخلص رضا

عباس محمود العقاد ابدع فيها وان يكن قد جار في بعض احكامه الا انه تكلم على سير الادب كلام ذي ذوق وتطرق الي اسلوب الشاعر (المازني) بالنظم على اوزان لم تكن مسبوقة سيرا مع العصر وفكا لقيود اخنى عليها الدهر

هذا وقد جرى بعض كتاب العصر على سنة سيئة تنافي سيرتهم الاولى وطريقة آبائهم المثلى وهي ترك مكتوباتهم بتراء جذماء لا بسملة فيها ولا حمدلة، وعلى هذه السنة جرى شاعرنا المازني وكاتب المقدمة . على ان كتبة الفرنجة الذين يكتبون بالعربية قلما يدعون كتبهم غفلا ، فكان على كتابنا احد امرين اما السير على سنن الاولين واما تقليد المعاصرين تقليدا اعمى

هذا وان المازني قد طرق عدة مواضيع اجاد النظم فيها وان شعره يشعر بان هلال ادبه سيكون بدرا .

(فتاة النيل) مجلة نسائية علمية تاريخية أدبية صحية تصدرها في مصر الفاضلة سارة الميهية في أول كل شهر عربي قيمة اشتراكها في مصر والسودان ٥٠ قرشا وفي الخارج ١٥ فرنكا صفحاتها ٤٠ مطبوعة على ورق جيد

للفاضلة سارة الميهية مباحث يعرفها قراء العربية بما كانت تنشره في الصحف السيارة باسم (فتاة النيل) وقد رحب القطر المصري بمجلتها « فتاة النيل » لتسد فراغا في عالم الادب بصدور هذه المجلة فنحث التلميذات والمعلمات على قرءاتها كما نحث أرباب العائلات على ذلك

(الرشديات) مجلة تاريخية أدبية شهرية لصاحبها زكريا أحمد رشدي تصدر في مدينة الاسكندرية قيمة اشتراكها السنوي في مصر ٣٠ قرشا وفي الخارج ١٢ فرنكا صفحاتها ٣٢ صدر منها العددان الاول في غرة شعبان والثاني في غرة رمضان سنة ١٣٣١

ولم نر من أعدادها بعد ذلك شيئا فأتمنى لها الحياة ودوام الانتشار لانها ذات مواضيع مفيدة

(البشير) صحيفة تخدم العرب والعربية والملة تصدر في كل شهر عربي مرتين في فيلمبغ « صومترا » لمنشئها محمد بن هاشم بن طاهر ذات اربع صفحات أوخمس قيمة اشتراكها في هولنده ومستعمراتها ثلاث روبيات هولندية

من أجل الخدمات التي قام بها السيد محمد بن طاهر بن هاشم للدين والعرب والعربية هذه الجريدة وهو يكتبها باللغة العربية ولغة البلاد فهي عامل من عوامل الرقي هناك و يمكن الحصول عليها بواسطة ادارة ومكتبة المنار بمصر

(دروس الديانة والتهذيب) الجزء الاول منه طبعة ثانية سنة ١٩١٤ صفحاته ٤٥ بالقطع الصغير والجزء الثاني منه تحت الطبع ويطلب من مكتبة المنار بمصر

(مقرر السنة الاولى لتلاميذ المكاتب منه) - مواضيعه معرفة الله، والرسل، رسالة سيدنا محمد (ص) سيدنا آدم، سيدنا نوح، نجاة سيدنا ابراهيم من النار، سيدنا يوسف واخوته، اجتماع يوسف مع ابيه واخوته، سيدنا موسى والعصا، هجرة سيدنا محمد الى المدينة، نواقض الوضوء، الاشياء اللازمة لكل صلاة، كيفية الصلوات الخمس.

(مقرر السنة الثانية لتلاميذ المكاتب أيضا) سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولادته، أعماله، أخلاقه قبل الرسالة، هجرته الى المدينة، مقابلة أهل المدينة له، انتشار الدين الاسلامي بعد الهجرة، الاسلام بعد فتح مكة، وفاته (ص) قواعد الاسلام الخمس، الشهادتان، الصلاة وأوقاتها، شروط صحتها، مبطلات الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، الاخلاق الفاضلة المأخوذة من القرآن الكريم الخ

(كتاب المطالعة السهلة) الجزآن الثاني والثالث مقرران للفرقين الثالثة والرابعة من المكاتب طبع طبعة ثانية سنة ١٩١٤ منقحا على حسب ما رأته نظارة المعارف صفحاته ٦٩ يطلب من مكتبة المنار بمصر ومن المؤلفين وهو مجموعة حكايات ومحادثات ونبذ علمية واجتماعية واخلاقية وادارية الى غير ذلك

(دروس الحساب) هو كتاب على اسلوب سهل الجزء الاول منه للفرقة الاولى والثاني للثانية من تلاميذ المكاتب وهكذا الى الرابع

هذه الكتب الثلاثة تأليف الاستاذين العالمين الشيخ مصطفى العناني المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية والشيخ عطية الاشقر مساعد مفتش بنظارة المعارف العمومية، وناهيك بكتب يضعها للتعليم من اشتغل فيه عدة سنين في مدارس متفرقة، فاحر بهذه الكتب أن تنتشر في الآفاق العربية وان تستعملها الحكومة العثمانية في مدارسها، على انني لم اطلع بعد على جميع الاجزاء وبما رأيته كفاية

(عظة الناشئين) كتاب اخلاق وآداب واجتماع تأليف الشيخ مصطفى الغلاييني استاذ اللغة العربية في المكتب السلطاني في بيروت طبع في مطبعة الثبات في بيروت سنة ١٣٣١ صفحاته ١٦٠ بالقطع الصغير ويطلب من المكتبة الاهلية في بيروت

الكتاب مجموعة ما كان يكتبه صديقنا الاستاذ الغلاييني في جريدة المفيد وقد جعله هدية لروح فقيد الادب، وريحانة نابتة العرب، فؤاد افندي حنتس احد

صاحبي المفيد . ولا حاجة بي الى مدح الكتاب باكثر من انه من انشاء من عرفه جمهور قراء العربية بعلمه وفضله وتحريه النفع فيما يكتب وثمنه خمسة قروش

(الفرائد) هو مختار ما كتبه الشيخ محمد مصطفى الهياوي في الأدب والاخلاق والاجتماع ونشره في الجرائد طبع على ورق جيد طبعا نظيفا بمطبعة ابي الهول بمصر سنة ١٣٣١ صفحاته ١٨٩ بقطع رسالة التوحيد ، يطلب من مكتبة المنار وثمنه خمسة قروش

فصول الكتاب شتى ومعظمها شكاية من الدهر وبنيه وابيهم الاول فكأنما نفخ فيه من روح المعري وتسربل برداء ابن الهبارية

كتاب المؤتمر العربي الاول

المنعقد في باريس من ١٣ رجب سنة ١٣٣١ الى ١٨ منه

صدرته اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر مزينا بالصور مفتتحا بمقدمتين (احداها لمنشيء هذه المجلة والثانية لجامعه محب الدين الخطيب) عن فكرة المؤتمر ونتيجته وتاريخ الحركة العربية ويتخللهما صورة الاتفاق الذي تم بين المؤتمر ومندوب جمعية الاتحاد والترقي . وفيه محاضر جلسات المؤتمر الاربع وما دار فيها من المناقشات، وفيه خطب: السيد الزهراوي ، العريسي، مطران ، دياب، طباره ، عمون، مكرزل ، بيهم ، دباس، غانم . وفيه ١٨ رسالة بريدية وبرقية من ٤٢٠ جمعية وجماعة وشخص في تأييد المؤتمر . وفي آخره قصيدة مهداة من فؤاد الخطيب للمؤتمر ، ثم بيان حزب اللامركزية ومظاهرته السلمية برفع برقيات الاحتجاج الى الصدارة بطلب اللامركزية وقد وقع في ٢٣٤ صفحة كبيرة وطبع على ورق جيد ، ثمنه ٨ قروش مصرية واجرة البريد قرشان ويطلب من مكتبة المنار بمصر

فالكتاب اجتماعي سياسي أداري يمثل شعور الامة بحاجيات الحياة والارتقاء فيها ، وضرورة الائتمار بين أولي الأمر ، ومداولات اصحاب العقول الراجحة والافكار الثاقبة ، ويجلي سر تطور الامم وانتقالها في الاجتماع والسياسة من طور الى طور

ويشخص بالاجمال امراض الاجتماع في المملكة العثمانية وشعوبها المتعددة المتباينة ، ويصف انجع دواء يحفظ حياتها ويشد عضدها ، لتقف في صف الاحياء العاملة فتناضل عن حوزتها ، وتحفظ بقيتها ، وتدافع عن ملكها وملكها ، فاجدر بكل من يقرأ العربية ان يطلع على هذا الكتاب وخصوصا العثمانيين حاكمهم ومحكومهم ، عربهم وعجمهم ، فانه الصق بهم من غيرهم ، وجميع ابحاثه تدور على محور مصلحتهم

﴿ مستقبل الدولة العثمانية وطلاب الاصلاح من العرب ﴾

كنا نسمع ونقرأ منذ وعينا أن لكل دولة من الدول الاوربية مطمعا في ولاية أو قطر من المملكة العثمانية . سمعنا كثيرا أن مملكة طرابلس الغرب ستكون لايطالية . وقرأنا في تاريخ الافغان للسيد جمال الدين ان انكلترة لم تروها مياه التمس والكنج ففغرت فاها لتجرع مياه النيل ونهر جيحون (يعني الاستيلاء على مصر وبلاد الافغان لأن نهر جيحون على التخم الشمالي الشرقي من تلك المملكة) كتب السيد هذا بمصر في عهد اسماعيل باشا . وقد احتلت انكلترة مصر وإيطالية طرابلس . فصدق ما كان يقال

وكنا ولا نزال نسمع ونقرأ أن فرنسة ترى أن سورية لها ، وان انكلترة ترى ان البصرة وبغداد وجميع سواحل جزيرة العرب لها - والداخلية تتبع السواحل بالطبع - كما صرنا نسمع ان لألمانية قلب الأناطول الى العراق . ولروسية شمال الاناطول الى الآستانة - على الخلاف في الغاية اتدخل في المغيا أم لا ؟ . فما يؤمننا ان يحل بهذه البلاد ما حل بما قبلها ؟ ولاسيما بعد ان رأينا ما حل بولايات مكدونية - ونحن ننشد في أمثالنا :

من حلقت لحية جار له   فليسكب الماء على لحيته

ان جميع من نعرف من عقلائنا في خوف ووجل من قرب تلك الساعة ، والعرب منهم موقنون بأن الدولة ان قدرت على ايجاد اسطول يحمي سواحل البلاد التركية القريبة من الآستانة وجزائرها من اليونان أو البلقان ، فلن تقدر به عن حماية سواحل سورية من فرنسة ولا سواحل العراق أو اليمن و الحجاز من انكلترة ، فما حظ بلادهم من الاسطول الذي يبذلون لتأسيسه الاعانات الاختيارية وغير الاختيارية ؟

هذا الخوف على البلاد هو الذي حمل بعض أهل الغيرة على تأسيس حزب اللامركزية ، وكان المحرك لهم على ذلك صوت رسمي سمعوه من باريس تذكر فيه فرنسة حقها في سورية ... وكان أول سعيهم الفزع الى صاحب الدولة رؤف باشا المعتمد (القومسير) العثماني بمصر ومكاشفته بخوفهم على سورية أن تغير عليها فرنسة كما أغارت ايطالية على طرابلس ، و بكونهم ألفوا من أنفسهم لجنة للسعي الى الدفاع

سورية ، وطلبوا منه ان يكتب الى الباب العالي بذلك وبما يطلبون من المساعدة على الاستعداد للدفاع الوطني عن البلاد . ولكن المعتمد لم يجبهم الى طلبهم، ولايزال القرار الذي كتبوه بذلك وما كتبوه في مسألة تنفيذه محفوظا عندهم

سُمع بعد ذلك الصوت الفرنسي صوت ألماني من برلين معارض له ، فاطمأن القوم بعض الاطمئنان الموقوت ، وقويت في نفوسهم فكرة وجوب الاستعداد للدفاع الوطني - أو الملي كما يسميه الترك - ووجوب قضاء شبان كل قطر خدمة العسكرية في قطرهم لأجل ذلك ، وعقدوا عدة اجتماعات للمذاكرة في ذلك استطردوا فيها من مسألة الدفاع ومسألة المال الذي يتوقف عليه كل شيء الى الجزم بوجوب ترقية كل قطر بأهله ، وتوقف ذلك على الادارة اللامركزية ، فوضعوا برنامج حزب اللامركزية ، رجاء ان يقنعوا به جميع الامة العثمانية ، لا العرب خاصة

وفي أثناء ذلك قامت ضجة في بيروت كان من أثرها تأسيس الجمعية الاصلاحية باذن والي الولاية ، وكان من غرضها ان اتفاق المسلمين والنصارى على الاصلاح هو الذي يسد ذريعة الاعتداء الاجنبي على البلاد ، ثم قامت ضجة أخرى في العراق وتألفت جمعية اصلاحية عراقية في البصرة

تلا ذلك صوت عربي من باريس يدعو الى عقد مؤتمر سوري عربي يكون أهم مقاصده مقاومة الاحتلال الاجنبي للبلاد . وكان من أمر انعقاده ماهو معروف ، ولم يكن المؤتمر ولا الجمعية الاصلاحية البيروتية ولا العراقية ولا حزب اللامركزية سببا لمداخلة اجنبية قولية ولا فعلية ، لأن غرض أربابها دفع التدخل الاجنبي ، والمقدمات السلبية لا تنتج نتيجة موجبة

قام المنافقون للحكومة طلاب الدراهم والوظائف والمناصب يلعنون طلاب الاصلاح ، زاعمين ان طلبهم له في تلك الاوقات يحرج الحكومة ويكون ذريعة لافتيات الاجانب عليها ، ولم نر أحدا منهم شتم الارمن ولا لعنهم على استغاثتهم بأعدى أعداء الدولة من الاجانب ونيلهم ماطلبوا بسعيها !! وقد كذبهم الحق الواقع ولا يزالون يهذون بزعمهم ان طلب الاصلاح على قاعدة اللامركزية يفضي الى اضاعة البلاد واستيلاء الدول عليها . ومنهم من يخص حزب اللامركزية بهذا الطعن لاعتقاد

ان جمعيتي بيروت والبصرة قد انحلتا. والمنافق الذي يكتب مالا يعتقد لأجل ارضاء من ينتفع منهم لا يستحي ان يحول الشيء الى ضده بالسفسطة والتمويه

نرى طلاب اللامركزية موقنين بأنهم لا يعرفون طريقة لبقاء الدولة وحفظ البلاد ثم عمرانها الا مايطلبونه ، ونرى حجتهم ناهضة يذعن لها المنصفون من غيرهم ، وهم يطلبون من كل ذي رأي ان يقنعهم بطريقة يمكن بها حفظ البلاد العربية من استيلاء الدول الطامعة فيها عليها ، ولما يجدوا مقنعا

كنت مرة في دار المعتمد العثماني (القومسيرية) بمصر أتكلم في شؤون الدولة مع اسماعيل حقي بك القائم بأعمال المعتمد الآن ، فجاءنا فؤاد بك سليم (قنصل الدولة الجنرال في سلانيك الآن) ودخل معنا في الحديث ، فانتقد فؤاد بك ما كان من عقد المؤتمر العربي بباريس والمطالبة بالاصلاح في وقت الحرب بمثل ما كان ينتقده به المعارضون المعتدلون . فقلت له كان هذا يقال و يعد محل نظر وبحث في الوقت الذي انعقد فيه المؤتمر اذ كان سيئو الظن وسيئو القصد يقولون انه يمكن ان يفضي الى اتعاب الدولة أو ايقاعها في مشكلة سياسية ، وكان القائمون بالعمل يدفعون هذا ليقينهم بحسن نيتهم واحتياطهم في عملهم ، ثم أيدهم الحق الواقع فانقضت الحرب وانقضى المؤتمر ولم يكن شيء من عمل طلاب الاصلاح متعبا للدولة في شيء ، وقد قبلوا كل ماعرضه على المؤتمر مندوب جمعية الاتحاد والترقي . فدل ذلك على حسن نيتهم ، وبراءتهم من المشاغبة ومن المطالب البعيدة عن المعقول حتى عند الاتحاديين . وانتقدت انا بعض أعمال الاتحاديين بما عز الجواب المقنع عنه . ثم انتقلنا الى المسألة الكبرى

قال فؤاد بك : إن مامضى فات خطأ كان أو صوابا فما الرأي الآن لسلامة الدولة واعلاء شأنها الذي يجب على الجميع السعي له ؟

قلت ان لي في ذلك آراء أشرت اليها في المنار غير مرة ولو علمت ان رجال الدولة يقبلونها و ينفذونها لفصلتها لهم تفصيلا ، وأهمها مسألة سلامة الدولة ، فأنا أرى أن ماتوجهت اليه الدولة من اقتراض عشرات الملايين من أوربة لأجل سد عجز ميزانيتها والقيام بمشروعاتها سيفضي الى أكبر الاخطار ، وان نظارتي الحربية

والبحرية مهما عملنا لا تستطيع الدولة ان تحمي بهما سواحل سورية والحجاز واليمن والعراق ، ولا أن تحول دون احتلال كل دولة من الدول لما تطمع فيه

قال : انا نوافقك على هذا فما المخرج منه ؟

قلت لم يبق لنا وسيلة فيما أرى الا مسألة الدفاع الملي ، لأن الدول الكبرى التي نخافها لا تحارب بلاداً لأجل البطش والانتقام والتخريب كما كان يفعل الملوك في التاريخ القديم ، ولا كما يفعل وحوش البلقان ، وإنما تفعل هذه الدول كل ماتفعله لأجل الكسب ، فمتى كان أهل البلاد مسلحين مستعدين للدفاع عن بلادهم اذا احتلها الاجنبي تمتنع الدول عن الاعتداء عليهم ، وان كانت ترى أنها لا تعجز عنهم ، لأن معاداة الاهالي وتخريب بلادهم ، يحول دون الانتفاع منها ومنهم .. الخ فوافقني فؤاد بك وكذا اسماعيل بك على ماقلت في هذه المسألة وفي غيرها مما لا حاجة الى ذكره

وجملة القول ان طلاب الادارة اللامركزية انما يطلبونها لأنهم يعتقدون أنها هي المنجية لدولتهم ولبلادهم من الخطر الاجنبي ، وان البلاد لا تعمر الا بها ، وليس في مطالبهم شيء يمنع ان تكون مقاليد القوة البرية والبحرية والسياسية للدولة وان تكون في يد العاصمة .

ولما وعدتهم جمعية الاتحاد المتصرفة في الدولة باجابتهم الى بعض مطالبهم رضوا وصبروا وانتظروا . وقد مرت السنة على انتظارهم ولم يحدثوا شغبا داخليا ، ولا توسطوا الاجانب في شيء من مطالبهم ، وهذه جرائد الشرق والغرب تصخ مسامعهم بخبر اتفاق الدولة مع الدول الكبرى على جميع سواحل البلاد العربية ، و باعطائهن الامتيازات فيها ، و بارهاق الولايات كلها بالديون الفاحشة - وتلك طرق الدول وسلاحها في الفتح السلمي - فيزدادون خوفا ورعبا من سوء العاقبة وخطر المستقبل . أفليس من سنة الله في غرائز البشر وفطرهم ومما توجبه عليهم أديانهم وشرائعهم ، ومما تطالبهم به حقوق أمتهم و بلادهم ، - ان يبحثوا عن المأمن من الخوف ، والموئل من الفزع ، والمنجاة من الخطر ؟؟ أو ليس من مقتضى الفطرة والشريعة أن يطلب الانسان لنفسه فوق تجنب الهلكة ، عيشة راضية وحالة حسنة عزيزة ؟

عقدت جمعية الاتحاد الاتفاق بين مندوبها (مدحت بك شكري) ومندوب حزب اللامركزية في المؤتمر العربي (السيد الزهراوي) وصدقت حكومتها على بعض ما وقع عليه الاتفاق وصدرت به الارادة السلطانية. ثم عينت الحكومة السيد الزهراوي عضوا في مجلس الاعيان فقبل ذلك ليكون مطلعا ومساعدا على تنفيذ الاصلاح الموعود به قولا وكتابة. فلم يستفد حزب اللامركزية من ذلك الا لوم كثير من الاصدقاء وذم كثير من غير الاصدقاء، واتهامه بأنه يسعى للمناصب والوظائف خلافا للعهود والوعود. وقد احتمل الحزب كل هذا لتكون له الحجة على الأمة اذا نفذت الحكومة الاصلاح، والحجة على الحكومة اذا لم تنفذه، وهو لا حجة عليه مطلقا

الحزب لم يقل انه لا يقبل الوظائف ولكنه فعل، فلم يدخل احد من اعضائه في خدمة الحكومة. وقد بينا قضية السيد الزهراوي من قبل، ونزيده بيانا

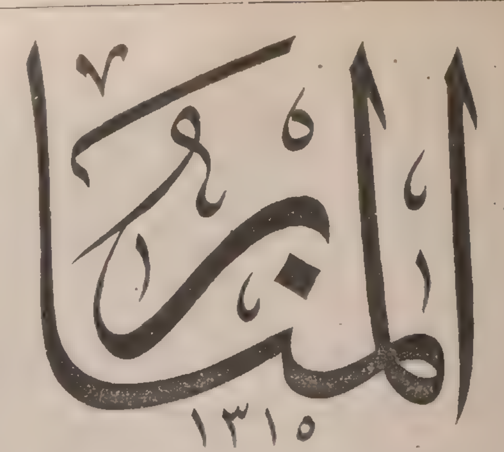
الرجل ثقة مقبول الرواية عند الحزب. وقد كتب الى الحزب انه آنس من الحكومة عزما على الاصلاح المطلوب وأنها تريد ان تعتمد على الثقات المخلصين من العرب وتستعين بهم على اصلاح بلادهم، وانها تكون معذورة في قبول المنافقين، اذا تجنبتها فئة المصلحين الصادقين. ولما تكررت هذه الكتابة منه رغب اليه رئيس الحزب وغيره من اصدقائه بأن يزور مصر قبل افتتاح المجلس ويوقف إخوانه على حقيقة ما رآه، ويفسر لهم ما أشكل عليهم من أعمال الحكومة (كتقوية إمام اليمن على السيد الادريسي وتسليح ابن الرشيد إمام ابن سعود وغير ذلك مع قدرتها على الاصلاح بين الجميع والاستفادة منهم) فأجاب الدعوة، وتكرم بالزيارة، واكد بلسانه مضمون ما كان يكتبه بقلمه، من ان الدولة تريد إصلاح بلاد العرب ولكنها لا تقدر على تنفيذ ذلك الا بالتدريج، ووعد بأن يراجع أصحاب الشأن في المسائل التي لم يقف على حقيقتها كمسألة جزيرة العرب وأمرائها، ويوقف اخوانه على ما يقف عليه منها

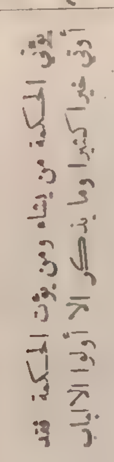
والخلاصة ان طلاب الإصلاح اللامركزي في مصر وغيرها من الاقطار لا يزالون في خوف ووجل على بلادهم ودولتهم، ولم يسمعوا قولا ولا رأوا فعلا يفيد الاطمئنان. فالاقوال مضطربة، والافعال مشتبهة

لا ننكر ان الوزارة الحاضرة قد هبت للعمل هبة شديدة ، ووثبت في سياستها وثبة بعيدة ، وأظهر أفرادها من الهمة والذكاء والجرأة ، مالا نعرف له نظيرا في تاريخ هذه الدولة ، فأقدموا على اقتراض عشرات الملايين من أوربة ، واعطاء حكوماتها وشركاتها الامتيازات الكثيرة ، والمساعدة على إزالة التنازع والخلاف الذي بين الدول على منافع بلادها ، ونفوذهن الاقتصادي والسياسي فيها ، وتمهيد السبيل للصهيونيين ، لاستعمار مملكة فلسطين ، والشروع في تقوية الاسطول ، وفتح المدارس الكثيرة في الاستانة والأناطول ، وايجاد مشروعات الصناعة والزراعة الحديثة في البلاد التركية ، واجابة الارمن الى ماطلبوا لبلادهم ، ووعد العرب بالتفضل عليهم ببعض مطالبهم . وارضاء بعض الاذكياء الظاهرين منهم بالوظائف . وتفننت في جمع الاعانات من الامة بأسماء مختلفة ، وأساليب متعددة ، من وطنية ودينية جائزة وغير جائزة ، كل ذلك من مظاهر الذكاء والهمة والاقدام ، ولكن طلاب الاصلاح ازدادوا به خوفا على البلاد لما تجدد من زيادة حقوق الاجانب فيها وديونهم عليها . مع الجزم بأن كل ما شرع فيه من وسائل القوة ، لا يجعل الدولة كفؤا لدولة من هذه الدول الطامعة ، فكيف والدول لا تعمل الا مجتمعة متفقة ؟ ولا هو وسيلة لعمران المملكة ، واتحاد عناصرها المختلفة .

وانما الاصلاح الذي يعقلونه هو ان تكون قوة كل قطر فيه . وعمرانه بأيدي أهله ، وان تجتنب الديون الاجنبية بقدر الطاقة ، و يكون حظ البلاد التي تحمل هذا الدين مقسوما بينها بنسبة ماتحمله منه ، وان توجه العناية والهمة والذكاء والاقدام الى استثمار الامة بمساعدة الدولة الخيرات البلاد ، فهذه الينابيع الكثيرة از يت البترول في العراق وغيره (مثلا) لاتحتاج الى نفقات كثيرة ، ولا الى علوم وفنون كثيرة ، وهي ثروة ستضاعف على ممر السنين لأنها ستحل محل الفحم الحجري في السفن الحربية وغيرها . فلماذا تمنحها الدولة للاجانب دون الاهالي؟ ولماذا لاتخصص من هذه الملايين التي تقترضها جزءا قليلا لتعليم مئات من شبان الامة ما يلزم من الفنون لاستخراجها ؟

وقصارى القول ان طلاب الاصلاح لايرجعون عن شيء من مطالبهم ، بشتم بعض السفهاء لهم ، وانما يرجعون عما تقوم الحجة على ضرره ، و يساعدون الدولة على كل مايقوم عندهم الدليل على نفعه ، وهكذا شأن المخلصين ، والعاقبة للمتقين





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ جمادى الآخرة ١٣٣٢ هـ ق ٧ الربيع الثالث ١٢٩٢ هـ ش ٢٤ مايو ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٥٤) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ. إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّلِمِينَ (٥٥) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَرِعُونَ فِيهِمْ، يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ. فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ

(٥٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ

من المعلوم في السيرة النبوية الشريفة ان النبي (ص) وادع اليهود حين قدم المدينة واقرهم على دينهم واموالهم ، واثبت ذلك في الكتاب الذي كتبه في المؤاخاة بين المهاجرين والانصار وحقوق القبائل والبطون . ومما جاء في ذلك الكتاب : « وانه من تبعنا من اليهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » ومنه في حقوق الحلف والولاء في الحرب : « وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وان يهود بني عوف امة مع المؤمنين لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ، مواليهم ، وانفسهم ، الا من ظلم او اثم فانه لا يوتغ (اي يهلك) الا نفسه واهل بيته . وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف » ثم اعطى مثل ما لبني عوف ليهود بني الحارث وساعدة وجشم والأوس وثعلبة ــ ومنهم جفنة ــ والشطنة .

قال ابن القيم في الهدي النبوي : « ولما قدم النبي (ص) المدينة صار الكفار معه ثلاثة اقسام : قسم صالحهم ووادعهم على ان لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه . وهم على كفرهم آمنون على دمائهم واموالهم ، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول اليه امره وامر اعدائه . ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن . ومنهم من دخل معه في الظاهر ، وهو مع عدوه في الباطن ، ليأمن الفريقين . وهؤلاء هم المنافقون ، فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما امره به ربه تبارك وتعالى . فصالح يهود المدينة وكتب بينهم وبينه كتاب امن . وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة ــ بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة . فحاربته بنو قينقاع بعد ذلك بعد بدر . واظهروا البغي والحسد » ثم قال في فصل آخر « ثم نقض العهد بنو النضير . قال البخاري وكان ذلك بعد بدر بستة اشهر » وبين كيف تآمروا على قتل النبي (ص) وتقدم ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى من هذه السورة (يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم ان يبسطوا اليكم أيديهم فكف ايديهم عنكم) اذ ورد ان الآية نزلت في ذلك . ثم بين في فصل آخر ان قريظة كانت اشد عداوة للنبي (ص) وأنهم نقضوا صلحه لما خرج الى غزوة الخندق . وبين كيف

حارب كل طائفة واظهره الله عليهم . فهذا هو السبب العام في النهي عن موالاة اهل الكتاب في هذه الايات. وكان نصارى العرب ـ وكذا الروم بالطبع ـ حربا له كيهود

واما السبب الخاص الذي ذكروه في سبب النزول فهاك ملخصه : اخرج رواة التفسير المأثور والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن عبادة بن الوليد ان عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله (ص) تشبث بامرهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول (زعيم المنافقين) وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت الى رسول الله (ص) وتبرأ الى الله والى رسوله من حلفهم ، وكان احدَ بني عوف ابن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي كان لعبد الله بن ابي ، فخلعهم الى رسول الله (ص) وقال « أتولى الله ورسوله والمؤمنين . وابرأ الى الله ورسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم» . قال: وفيه وفي عبد الله نزلت الايات في المائدة « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ـ الى قوله ـ فان حزب الله هم الغالبون »

واخرج ابن ابي شيبة وابن جرير عن عطية ابن سعد قال جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج الى رسول الله (ص) فقال يا رسول الله : ان لي موالي من اليهود كثير عددهم . واني ابرأ الى الله ورسوله من ولاية يهود واتولى الله ورسوله . فقال عبد الله بن ابي : اني رجل اخاف الدوائر لا ابرأ من ولاية موالي . فقال رسول الله (ص) لعبد الله بن ابي « يا ابا الحباب : أرايت الذي نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه » قال : اذن اقبل . فأنزل الله (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى ... ـ الى ان بلغ ـ والله يعصمك من الناس)

واخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ـ في الاية ـ انها نزلت في بني قريظة اذ غدروا ونقضوا العهد بينهم وبين رسول الله (ص) في كتابهم الى ابي سفيان بن حرب يدعونه وقريشا ليدخلوهم حصونهم . فبعث النبي (ص) ابا لبابة ابن عبد المنذر اليهم يستنزلهم من حصونهم فلما اطاعوا له بالنزول اشار الى حلقه بالذبح ، وفيها ان بعض المسلمين كانوا يكاتبون النصارى بالشام ، وان بعضهم كان يكاتب يهود المدينة بأخبار النبي (ص) يمتون اليهم لينتفعوا بمالهم ولو بالقرض

فنهوا عن ذلك . وروى ابن جرير ان بعضهم قال لما خافوا ان يدال المشركين يوم احد انه يلحق بفلان اليهودي فيتهود معه . وقال آخر انه يلحق بفلان النصراني فيتنصر معه . وان الاية نزلت في ذلك . وكان هؤلاء من المنافقين

اقول : الظاهر ان الآيات نزلت بعد تلك الوقائع وغيرها مما ذكروه ان صحت الروايات . وان معنى جعلها اسبابا لنزولها انها نزلت في المعنى الذي ينتظمها . وهو النهي عن موالاة النصر والمظاهرة لهؤلاء الناس اذ كانوا حربا للنبي (ص) والمؤمنين وكانوا هم المعتدين في ذلك . فان النبي (ص) لم يقاتل الا من نصبوا انفسهم لقتاله . ومعناها عام في كل حال كالحال التي نزلت فيها .

قال الله تعالى ﴿ يا ايها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى اولياء ﴾ علم مما سبق ان المراد بالولاية ولاية التناصر والمحالفة وقيده بعضهم بكونها على المؤمنين . وان النهي لأفراد المسلمين وجماعاتهم دون جملتهم ، وانه يشمل المؤمنين الصادقين وغيرهم . لانه مقدمة للانكار على مرضى القلوب الذين يتخذون لهم اليد عندهم لعدم ثقتهم ببقاء الاسلام وثبات اهله . ولولا هذا لجوز ان يكون النهي لجملة المسلمين ايضا . لا لأن من اصول الدين ان لا يحالف اهله من يخالفهم فيه . كيف — وقد كان النبي (ص) حالف يهود المدينة عقب الهجرة ؟ بل لأن القوم كانوا في حنق شديد على الاسلام . وحسد للعرب على ما آتاهم الله من فضله . فلايوثق بوفائهم . بعد ما كان من خيانتهم وغدرهم . ولكن هذا غير مراد من الآية . بل السياق يدل على الوجه الأول وهو ان يوالي افراد او جماعات من المسلمين اولئك اليهود والنصارى المعادين للنبي والمؤمنين ويعاهدونهم على التناصر من دون المؤمنين . رجاء ان يحتاجوا الى نصرهم ، اذا خُذل المسلمون وغُلبوا على امرهم . ونكتة التعبير عنهم باليهود والنصارى دون اهل الكتاب هي ان معاداتهم للنبي والمؤمنين انما كانت بحسب جنسياتهم السياسية لا من حيث ان كتابهم يأمرهم بذلك

هذا النهي عن ولاية اهل الكتاب مثل النهي عن ولاية المشركين في قوله تعالى (٦٠ : ١ ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة) الخ وقد نزلت في حاطب بن ابي بلتعة لما كتب الى قريش يخبرهم بعزم

النبي (ص) على حربهم لأن له عندهم مالا واهلا فأراد ان يتخذ عندهم يدا لاجل حماية اهله . والنهي عن الشيء لسبب من الاسباب لا يتناول من لم يتحقق فيهم ولا ينافي زوال النهي بزوال سببه . ولذلك قال تعالى بعد هذا النهي في هذه السورة (الممتحنة) ٦٠ : ٧ عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة . والله قدير والله غفور رحيم — ٨ — لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين — ٩ — انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) فهذه الآيات نص صريح في كون النهي عن الولاية لاجل العداوة وكون القوم حربا . لا لأجل الخلاف في الدين لذاته . فان النبي (ص) لما حالف اليهود كتب في كتابه « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم » كما امره الله ان يقول لجميع المخالفين (لكم دينكم ولي دين)

وقد جعل المتأخرون من المفسرين - كالزمخشري والبيضاوي ومن تابعهما - الولاية بمعنى المودة وحسن المعاملة واستخدام المخالفين من اهل الكتاب . واستدلوا بحديث « لاتتراءى ناراهما » ودعموا ذلك بأمر عمر (رض) لأبي موسى الاشعري بعزل كاتبه النصراني . والسياق يأبى ذلك كما تقدم . وقد حاول المتقدمون جعل النهي خاصا بمن نزل فيهم مع جعل الولاية ولاية النصرة ، وما ابعد الفرق بين الفريقين

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري « والصواب من القول في ذلك عندنا ان يقال : ان الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعا ان يتخذوا اليهود والنصارى انصارا وحلفاء على اهل الايمان بالله ورسوله . واخبر انه من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله فانه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين ، وان الله ورسوله منه بريئان . وقد يجوز ان تكون الآية نزلت في شأن عبادة بن الصامت وعبد الله بن ابي بن سلول وحلفائهما من اليهود ، ويجوز ان تكون نزلت في ابي لبابة بسبب فعله في بني قريظة ، ويجوز ان تكون في شأن الرجلين اللذين ذكر السدي ان احدهما اراد اللحاق بذلك اليهودي والآخر بنصراني بالشام . ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خبر يثبت بمثله حجة فيسلم لصحته القول

بانه كما قيل . فاذا كان ذلك كذلك فالصواب ان يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ما عم . ويجوز ماقاله اهل التأويل فيه من القول الذي لا علم عندنا بخلافه . غير انه لا شك ان الآية نزلت في منافق كان يوالي يهود او نصارى جزعا على نفسه من دوائر الدهر ، لأن الآية التي بعد هذه تدل على ذلك » اه

وقال البيضاوي في تفسير النهي عن اتخاذهم اولياء : فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الاحباب . « بعضهم اولياء بعض » : إيماء الى النهي، اي فانهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين واجتماعهم على مضادتكم « ومن يتولهم منكم فانه منهم » اي ومن والاهم منكم فانه من جملتهم . وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قل عليه الصلاة والسلام « لا تتراءى ناراهما » او لأن الموالين لهم كانوا منافقين ، اه

هكذا خص البيضاوي الولاية بمعاشرة المحبة والاعتماد على الاشخاص في الأمور. وهوخطأ تتبرأ منه لغة الآية في مفرداتها وسياقها كما يتبرأ منه سبب النزول والحالة العامة التي كان عليها المسلمون والكتابيون في عصر التنزيل كما علم مما تقدم . وسبب وقوع البيضاوي في مثل هذا الغلط اعتماده على مثل الكشاف في فهم الآيات دون الرجوع الى تفاسير السلف . على ان صاحب الكشاف ارسخ منه في اللغة قدما ، وادق فهماً وذوقاً ، ولذلك بدأ تفسير الولاية بقوله « تنصرونهم وتستنصرونهم » وهو المعنى الصحيح ، وعطف عليه ولاية الاخوة والمودة . فأخذ البيضاوي المعنى الثاني بعبارة تستحق من النقد ما لا تستحقه عبارة الزمخشري .

واخطأ كل منهما في ايراد حديث « لا تتراءى ناراهما » في هذا المقام، وكل منهما قليل البضاعة في علم الحديث . فالحديث ورد في وجوب الهجرة من ارض المشركين الى النبي (ص) لنصرته ، رواه اهل السنن - اما ابو داود فرواه من حديث جرير بن عبد الله وذكر ان جماعة لم يذكروا جريرا اي رووه مرسلا، وهو الذي اقتصر عليه النسائي . واخرجه الترمذي مرسلا وقال : وهذا اصح . ونقل عن البخاري تصحيح المرسل . ولكنه لم يخرجه في صحيحه ولا هو على شرطه . والاحتجاج بالمرسل فيه الخلاف المشهور في علم الاصول . ولفظ الحديث : بعث

رسول الله (ص) سرية الى خثعم . فاعتصم ناس منهم بالسجود فأسرع فيهم القتل فبلغ ذلك النبي (ص) فأمر لهم بنصف العقل (اي الدية) وقال « انا بريء من كل مسلم يقيم بين اظهر المشركين - قالوا يارسول الله لم ؟ قال - لا تتراءى ناراهما » فجعل لهم نصف الدية وهم مسلمون لأنهم اعانوا على انفسهم واسقطوا نصف حقهم بإقامتهم بين المشركين المحاربين لله ولرسوله (ص) وشدد في مثل هذه الإقامة التي يترتب عليها مثل ذلك من القعود عن نصر الله ورسوله . والله تعالى يقول في امثال هؤلاء (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم و بينهم ميثاق) فنفى تعالى ولاية المسلمين غير المهاجرين اذ كانت الهجرة واجبة . فلأن ينفي ولاية اليهود والنصارى - وقد كانوا محاربين ايضا - اولى . فذكر هذا الحديث في تفسير هذه الآية لا يصح وضعه في الموضع الذي وضعه فيه الزمخشري والبيضاوي ، وانما يناسبه ما قلنا آنفا . فهو لا يدل - اذا صح الاحتجاج به - على ما ذكر من عدم معاشرة الكتابي والإقامة معه وان كان ذا ذمة او عهد . لا خوف من الاقامة معه ولا خطر ، وقد كان اليهود يقيمون مع النبي (ص) ومع الصحابة في المدينة . وكانوا يعاملونهم بالمساواة التامة، حتى ان عليا المرتضى لما تحاكم مع يهودي الى عمر (رضي الله عنهما) وخاطبه عمر امام خصمه اليهودي بالكنية (ياابا الحسن) غضب وعاتب عمر انه عظمه امام خصمه . وعمر لم يقصد تمييزه على خصمه وانما جرى لسانه بذلك لتعوده تكريم علي بمخاطبته بالكنية . على ان الحديث ورد في المشركين وقد فرق الشرع بينهما في عدة مسائل . الم تر ان الله تعالى اباح لنا طعام اهل الكتاب والتزوج بنسائهم دون المشركين ، وهو يقول في حكمة الزوجية وسرها (وجعل بينكم مودة ورحمة)

وقد جرى الذين يفسرون القرآن من المتأخرين تصنيفا وتدريسا على آثار البيضاوي، اذ هو الذي يُدرس الآن في اكثر الامصار الاسلامية . وقد اتفق انني لما زرت مدرسة دار الفنون في الاستانة سنة ١٣٢٩ وطفت على حجرات المدرسين ألفيت مدرس التفسير يفسر هذه الآية ، فلما قرر ما قاله البيضاوي قام احد طلاب

العلم من الترك وقال اذا كان الامر كذلك فلماذا جعلت الدولة بعض الوزراء والاعيان والمبعوثين والموظفين من النصارى واليهود ... ؟ فأرتج على المدرس وعرق جبينه ـ وناهيك بعقاب الحكومة العرفية العسكرية هنالك لمن يطعن في دستورها ! ـ فقلت للمدرس اتأذن لي ان أجيب هذا السائل ؟ قال نعم . فقمت فبينت لهم ان الولاية في الآية ولاية النصرة بنحو ما قدمته هنا ، وانها لا تدل على عدم جواز استخدام الدولة لغير المحاربين لنا ، ولا هي من هذا السياق في شيء ، فاقتنع السائل والسامع وسر الاستاذ وسُرّي عنه ، وكان لهذا الجواب احسن الوقع عند مدير قسم الإلهيات والأدبيات من المدرسة ، وبلغه ناظر المعارف فارتاح اليه واعجبه ، فاقترح المدير عليه ان يقرر جعل تدريس التفسير بالعربية ـ وكذلك الحديث ـ رجاء ان يعهد الي به ان اقمت في الاستانة فأجابه الى ذلك[1]

اما قوله تعالى ﴿ بعضهم اولياء بعض ﴾ فهو استئناف بياني سيق لتعليل النهي كما قالوا . ومعناه ان اليهود بعضهم اولياء وانصار بعض ، والنصارى بعضهم اولياء وانصار بعض ، لا أن اليهود اولياء وحلفاء النصارى والنصارى اولياء وحلفاء اليهود . ولم يكن للمؤمنين منهم من ولي ولا نصير ، اذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول معهم من العهد كما تقدمت الاشارة اليه ، فصار الجميع حربا للرسول ومن معه من المؤمنين ، من غير ان يبدأهم بعدوان ولا قتال ، كما علمت من عبارة ابن القيم السابقة

واما قوله ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ الخ فهو وعيد لمن يخالف النهي ، اي ومن ينصرهم ويستنصر بهم من دون المؤمنين وهم إلب واحد عليكم . فانه في الحقيقة منهم لا منكم ، لأنه معهم عليكم . ولا يعقل ان يقع ذلك من مؤمن صادق . فهو اما موافق لمن والاهم في عقيدتهم ؛ او في عداوتهم لمن والاهم عليهم . وعلى كلتا الحالتين يكون حكمه حكمهم . وقال ابن جرير : يقول فان من تولاهم

(١) كنت في الآستانة وقتئذ اسعى لتأسيس دار الدعوة والارشاد فيها كما يعلم القراء وكان مدير قسم الالهيات والادبيات في دار الفنون اسماعيل حقي بك الازميري من أجل علماء الترك واوسعهم اطلاعا في العلوم العربية الاسلامية ولا سيما الكلام والاصول . وكان ناظر المعارف « امرُ الله » افندي

ونصرهم على المؤمنين فهو من اهل دينهم وملتهم ، فانه لا يتولى متول احدا الا وهو به وبدينه وما هو عليه راض . واذا رضيه ورضي دينه فقد عادى من خالفه وسخطه ، وصار حكمه حكمه . اه وبنى على ذلك عد اهل العلم من الصحابة والتابعين [كابن عباس والحسن] بني تغلب من النصارى لموالاتهم لهم ، واجازوا اكل ذبائحهم ونكاح نسائهم ـ وهم مشركون ـ لعدهم من النصارى . قال ابن عباس (رض) بعد امره بأكل ذبائحهم وزواج نسائهم ؛ وتلاوة الآية « لو لم يكونوا منهم الا بالولاية لكانوا منهم » وقد قيد ابن جرير الولاية بكونها لاجل الدين ، كما كانت الحال في ذلك العصر . اذ قام المشركون واهل الكتاب يعادون المسلمين ويقاتلونهم لأجل دينهم . وقد تقع الموالاة والمحالفة والمناصرة بين المختلفين في الدين لمصالح دنيوية ، فاذا حالف المسلمون امة غير مسلمة على امة مثلها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها فهذه المحالفة لا تدخل في عموم كلامه ، لانه اشترط ان يكون ذلك لمقاومة المسلمين .

﴿ ان الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ هذا تعليل للوعيد وبيان لسببه، وهو ان من يوالي اعداء المؤمنين الذين نصبوا لهم الحرب وينصرهم او يستنصر بهم فهو ظالم بوضعه الولاية في غير موضعها ، ولن يهتدي مثله الى الحق والنجاة ابدا .

﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ﴾ اتفق رواة التفسير المأثور على نزول هذه الآية في المنافقين ، فهم الذين في قلوبهم مرض، اي ايمانهم معتل غير صحيح ، اذ لم يصلوا فيه الى مستقر اليقين ، وكان عبد الله بن ابيّ زعيم المنافقين ذا ضلع مع يهود بني قينقاع. وكان غيره من المنافقين يمتون الى اليهود بالولاء والعهود ، ويسارعون في هذه السبيل التي سلكوها . كلما سنحت لهم فرصة لتوثيق ولائهم وتأكيده ابتدروها ، فهم يسارعون في اعمال موالاتهم مسارعة الداخل في الشيء الثابت عليه ، الراغب فيما يزيده تمكنا وثباتا ، ولهذا قال « يسارعون فيهم » ولم يقل : يسارعون اليهم. فما عذر هؤلاء الذين يرددونه في انفسهم، ويقولونه عند الحاجة بألسنتهم؟ ﴿ يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة ﴾ اي نخشى ان تقع بنا مصيبة كبيرة مما

يدور به الزمان ، او من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها . فنحتاج الى نصرتهم لنا . فنحن نتخذ لنا يدا عندهم في السراء . ننتفع بها اذا مست الضراء . والمراد انهم يخشون ان تدول الدولة لليهود او المشركين على المؤمنين — وكان اليهود عونا للمشركين على المؤمنين كما ظهر في وقعة بدر والاحزاب — فيحل بهم ما يحل بالمؤمنين من النقمة . ذلك بأنهم غير موقنين بوعد الله بنصر رسوله ، واظهار دينه على الدين كله . لأنهم في شك من امر نبوته ، لم يوقنوا بصدقها ولا بكذبها . فهم يريدون ان ينتفعوا منها باظهارهم الايمان بها . وان يتخذوا لهم يدا عليها لأعدائها . ليكونوا معهم . اذا دالت الدولة لهم . وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان . وهو الذي جعل كثيرا من وزراء بعض الدول منذ قرن او قرنين ما بين روسي وانكليزي والماني ، كل منهم يتخذ له يدا عند دولة قوية ، يلجأ اليها اذا اصابته دائرة . حتى تغلغل نفوذ هذه الدول في احشاء هذه الدولة . فأضعفن استقلالها في بلادها . ويخشى ما هو اكبر من ذلك من خطر نفوذهن فيها ، وحتى صار بعض رجالها الصادقين لها . يرون انفسهم مضطرين للاستعانة بنفوذ بعض هذه الدول على بعض . واما الذين استعمر الأجانب بلادهم — بأي صورة من صور الاستعمار واي اسم من اسمائه — فأمر منافقيهم اظهر . يتقربون الى الاجانب بما يضر امتهم حتى فيما لم يكلفوهم اياه . ويسمون هذا تأميناً لمستقبلهم . واحتياطاً لمعيشتهم ، ولو التزموا الصدق في امرهم كله فلم يلقوا امتهم بوجه والاجانب بوجه لكان خيرا لهم ، واقرب الى الجميع بين مصلحة البلاد ومداراة الأجانب . ولكنه النفاق يخدع صاحبه ، بما يظن صاحبه انه يخدع به غيره ، ويسلك سبيل الحزم لنفسه . وهو الذي يحمل بعض المنافقين الخائنين على نهب مال امتهم ودولتهم ، وايداعه في مصارف أوربة لأجل التمتع به اذا دارت الدائرة على دولتهم .

قال الله تعالى ردا على منافقي عصر التنزيل ﴿ فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في انفسهم نادمين ﴾ اي فالرجاء بفضل الله تعالى وصدقه ما وعد به رسوله (ص) ان يأتي بالفتح والفصل بين المؤمنين ومن يعاديهم من اليهود والنصارى . او بأمر من عنده في هؤلاء المنافقين ، كفضيحتهم

او الايقاع بهم ، فيصبحوا نادمين على ما كتموه واضمروه في انفسهم من اتخاذ الأولياء على المؤمنين وتوقع الدائرة عليهم . فالفتح في اللغة القضاء والفصل في الشيء وهو يصدق بفتح البلاد وبغير ذلك . ومنه قوله تعالى حكاية (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) وقوله (ويقولون متى هذا الفتح) وقيل المراد فتح مكة الذي كان به ظهور الاسلام والثقة بقوته وانجاز الله وعده لرسوله . ولا يصح هذا القول الا اذا كانت الآيات نزلت قبل فتح مكة ، مع الجزم بان أوائل السورة نزلت بعد ذلك في حجة الوداع . ويمكن حينئذ ان يكون المراد بالفتح فتح بلاد اليهود في الحجاز كخيبر وغيرها . وفسر بعضهم الامر من عنده بالجزية تضرب على اهل الكتاب . فينقطع امل المنافقين منهم ، ويندموا على ما كان من اسرارهم بالولاء لهم . وفسره بعضهم بالايقاع باليهود واجلائهم عن موطنهم ، واخراجهم من حصونهم وصياصيهم ، اما بالقهر . والايجاف عليهم بالخيل والركب [كبني قريظة] واما بإلقاء الرعب في قلوبهم . حتى يعطوا بأيديهم [كبني النضير]

﴿ ويقول الذين آمنوا ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي « ويقولُ » بالرفع على انه كلام مبتدأ معطوف على ما قبله عطف الجمل . وقرأه ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعا بغير واو على انه جواب سؤال تقديره : فماذا يقول المؤمنون حينئذ ؟ وقرأه ابو عمرو ويعقوب بالنصب عطفا على « يأتي » اي فعسى الله ان يأتي بالفتح وان يقول الذين آمنوا حينئذ : ﴿ أهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانكم إنهم لمعكم ﴾ اي يقول بعضهم لبعض متعجبين من عاقبة المنافقين : أهؤلاء الذين اقسموا بالله اغلظ الايمان مجتهدين في توكيدها ، انهم منكم ايها المؤمنون وعلى دينكم ، ومعكم في حربكم وسلمكم ، كما قال تعالى في سورة براءة التي فضحتهم (٩٣ : ٥٧ ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) أي فهم لفرقهم وخوفهم يظهرون الاسلام تقية (٥٨ لو يجدون ملجأ او مغارات او مُدَّخلا لولوا اليه وهم يجمحون) اي يسرعون اسراع الفرس الجموح فرارا من الاسلام واهله . وتواريا عنهم ، واعتصاما منهم . او يقولون ذلك لليهود الذين كانوا يغترون بموالاة المنافقين ومودتهم السرية لهم ، ويظنون انهم اذا نقضوا عهد النبي (ص) وحاربوه يجدون منهم اعوانا

وانصارا بين المسلمين يقاتلون معهم أو يوقعون الفشل والتخذيل في جيش المسلمين لاجلهم ، كما قال تعالى في سورة الحشر (٥٩ : ١١ ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ، ولا نطيع فيكم احدا ابدا ، وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون ١٢ لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم) الخ .

وقوله ﴿ حبطت اعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾ يحتمل ان يكون من حكاية قول المؤمنين ، ويكون معناه بطلت اعمالهم التي كانوا يتكلفونها نفاقا ليقنعوكم بانهم منكم، كالصلاة والصيام والجهاد معكم ، فخسروا ما يترتب عليها من الاجر والثواب لو صلح حالهم وقوي ايمانهم بها ، قال الزمخشري وفيه معنى التعجب كأنه قيل : ما احبط اعمالهم وما اخسرها . ويحتمل ان يكون من قول الله عز وجل تعقيبا على قول المؤمنين . فهو شهادة منه تعالى بحبوط اعمالهم الاسلامية ، اذ كانت تقية لا تقوى فيها ولا إخلاص ، وبخسرانهم في الدنيا بعد الفضيحة ، وفي الآخرة يوم الجزاء .

وفي هاتين الآيتين من خبر الغيب ما هو صريح ، وفي « عسى » هنا يصح قول المفسرين ان الرجاء من الله تعالى للتحقيق، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، واعز جنده ، وهزم الاحزاب وحده ، فخذل الله الكافرين ، وفضح الله المنافقين، وظهر تأويل الآيتين وما في معناهما وقوله (والعاقبة للمتقين) وفي القرآن كثير من اخبار الغيب التي يعبر عنها اهل الكتاب بالنبوات ، وهي الاصل عندهم في صدق الانبياء ، وهم مع ذلك يكابرون في نبوة خاتم النبيين ، ويمارون في (نبواته) الظاهرة الصريحة على تصديقهم (بنبوات) رمزية تختلف فيها وجوه التأويل . يرونا السهى فنريهم القمر . بل نريهم ما هو أضوأ من الشمس واظهر . (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع عامة الناس، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

(تلقين الميت)

(س١٤) من صاحب الامضاء في — كلنتن — جاوه

حضرة امام المرشدين وقدوة العلماء المصلحين· من يتلقى سؤال كل سائل ملهوف بالقبول والرضا· الاستاذ العلامة مرشد الامة ورشيدها سيدي محمد رشيد رضا· ابقاه الله للمسلمين يداوي كل مرض كان عارضا آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - ارجو من فضلكم اجابة السؤال الآتي على صفحات المنار الاغر - ما قول سيدي فيما شاع في ناحيتنا الجاوية من قراءة التلقين في حاشية البرماوي على شرح ابن قاسم وهو قوله تعالى (كل شيء هالك الا وجهه) الخ بعد تمام الدفن· وهو مشتمل على آيات قرآنية على خلاف اسباب نزولها، ومعان غير متناسبة، وبعضهم زاد على ما في البرماوي زيادات كثيرة ومناسبات لا تليق بالحال « كقل متاع الدنيا قليل » الخ وهي متعلقة بالاحياء لا بالاموات فهل هو على هذا النظم مأثور ام لا ؟ فان قلتم نعم انه مأثور أو أنه مجموع من متفرقات مأثورة، فأرجو من سعة علمكم وكريم انسانيتكم ان تشرحوه لنا شرحا وافيا حتى لا تخفى معانيه على أمثالنا من القاصرين. وان قلتم لا، فقد اشكل علينا ان البرماوي يقول ويسن تلقينه بعد الدفن وتسوية القبر فيجلس عند رأسه انسان ويقول بسم الله الرحمن الرحيم كل شيء هالك الا وجهه الخ والبرماوي من علماء المسلمين فكيف يسوغ له ان يقول بالسنية ما لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم والعلماء هم ادلاء الامة ومرشدوهم الى سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ؟ فكيف يرشدون بما لم يرشدهم نبيهم صلى الله عليه وسلم، ويخترعونه بعقلهم ورأيهم؟ وكيف يجوز لنا أن نلقن موتانا بما لم يرد عن نبينا صلى الله عليه وسلم ومبنى التلقين على التعبد لا مجال للرأي فيه ؟ أفيدونا بيانا شافيا لانا قليلو الاطلاع، فانا لم نجد سجعاته في الآيات القرآنية ولا في الاحاديث النبوية والسلام

الداعي : الحاج موسى عبد الصمد

(ج) ماذكره البرماوي ليس بسنة، ولم يرد فيه حديث يثبت السنية ولا الاستحباب، بل لم يرد في التلقين حديث صحيح ولا حسن، وانما ورد فيه حديث واحد ضعيف لم يخرجه أصحاب الصحاح ولا السنن، بل رواة الضعاف والمناكير والموضوعات وغيرها لاجل تدوينها، على أن الاعتماد في مسألة الاحتجاج على اسانيدها ومتونها، وقد اختلفت ألفاظهم فيه بعض الاختلاف، وهو حديث أبي أمامة رضي الله عنه. رواه ابن عساكر وابن النجار والطبراني والديلمي، وهاك رواياتهم مرموزا فيها اليهم، من سنن الاقوال، من كنز العمال، وهي ثلاث:

١- «اذا مات الرجل فدفنتموه فليقم احدكم عند رأسه فليقل: يافلان ابن فلانة! فانه سيسمع، فليقل يا فلان ابن فلانة! فانه سيستوي قاعدا، فليقل يافلان ابن فلانة! فانه سيقول له ارشدني رحمك الله» فليقل: اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة ان لا إله الا الله وان محمدا عبده ورسوله، وان الساعة آتية لاريب فيها، وان الله يبعث من في القبور. وان منكرا ونكيرا عند ذلك كل واحد يأخذ بيد صاحبه ويقول: قم ما تصنع عند رجل لقن حجته؟ فيكون الله حجيجهما دونه (كر عن أبي أمامة)

٢- «اذا مات احد من اخوانكم فنثرتم عليه التراب فليقم رجل منكم عند رأسه ثم ليقل يا فلان ابن فلانة فانه يسمع ولكن لايجيب. ثم ليقل يا فلان ابن فلانة، فانه يستوي جالسا، ثم ليقل يا فلان ابن فلانة فانه يقول أرشدنا رحمك الله، ولكن لاتشعرون. ثم ليقل اذكر ما خرجت عليه من الدنيا- شهادة ان لا إله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وانك رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالاسلام دينا وبالقرآن إماما. فانه اذا فعل ذلك أخذ منكر ونكير أحدهما بيد صاحبه ثم يقول له: اخرج بنا من عند هذا، ما تصنع به فقد لقن حجته؟ ولكن الله عز وجل حجته دونهم. قال رجل يارسول الله فان لم أعرف أمه؟ قال انسبه الى حواء (طب. كر الديلمي. عن أبي أمامة)

٣- «يا أبا أمامة: ألا ادلكم على كلمات هي خير للميت من الدنيا وما فيها وما غابت عليه الشمس وطلعت؟ اذا مات أخوكم المؤمن وفرغتم من دفنه فليقم أحدكم عند قبره ثم ليقل يا فلان ابن فلانة والذي نفس محمد بيده انه ليستوي قاعدا، ثم ليقول يافلان ابن فلانة: فيقول ارشدني الى ما عندك يرحمك الله(١) فليقل اذكر ما خرجت عليه من الدنيا. شهادة أن لا إله الا الله وان محمدا رسول الله، وقد كنت رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا، فيقوم منكر فيأخذ بيد نكير فيقول قم بنا ما يقعدنا عند

(١) لمن يذكر الدعاء في هذه الرواية الامرتين ، ولعله الآفة من النساخ

هذا وقد لقن حجته ؟ ويكون الله حجيجهما دونه. قيل: ان كنت لا احفظ اسم أمه؟ قال فانسبه الى حواء (ابن النجار عن أبي امامة)

واورده في سنن الافعال معزوا الى ابن عساكر بهذا اللفظ : عن سعيد الأموي قال شهدت أبا أمامة وهو في النزع فقال لي : يا سعيد اذا أنا مت فافعلوا بي كما أمرنا رسول الله (ص) قال لنا رسول الله (ص) « اذا مات احد من إخوانكم فسويتم عليه التراب » الخ ما تقدم

فانت ترى أنه ليس في شيء من ألفاظ هذا الحديث شيء من تلك الآيات ، ولا تلك السجعات ، ولهذا سكت بعض الفقهاء عن مسألة التلقين وقال بعضهم باستحبابه بناء على تساهلهم في العمل بالحديث الضعيف في فضائل الاعمال ، وقد أدخل هـذا التساهل بدعا كثيرة في الاسلام ، كما حققه الامام الشاطبي في الاعتصام ، وحسبك منه مانقله عنه في هذه الايام ، من اثبات بدعية الدعاء بعد الصلاة من الجماعة مع الامام . حتى الادعية والاذكار المأثورة عنه عليه الصلاة والسلام ، فان ما ثبت عمله على الانفراد ، لا يجوز فيه التزام الاجتماع ، والمدققون من الفقهاء لم يزيدوا على ما ورد في حديث أبي أمامة

قال النووي : هذا التلقين استحبه جماعات من اصحابنا منهم القاضي حسين وصاحب التتمة والشيخ نصر المقدسي في كتابه التهذيب وغيرهم . ونقله القاضي حسين عن الاصحاب مطلقا . والحديث الوارد فيه ضعيف ولكن احاديث الفضائل يتسامح فيها عند أهل العلم من المحدثين وغيرهم. وقد اعتضد هذا الحديث بشواهد من الاحاديث الصحيحة كحديث « اسألوا الله له التثبيت » ووصية عمرو بن العاصي اهـ المراد منه

أقول أن حديث الدعاء للميت بالتثبيت لا يعضد شرعية التلقين التي يراد بها منع السؤال الذي ثبت الدعاء بالتثبيت لاجله ورجاء السداد فيه ، ولو كان التلقين يحول دون السؤال لكان تلقينه خيرا من الدعاء له . وكذلك وصية عمرو لا تعضده ، فانه أوصى بان يقيموا عند قبره قدر ما ينحر جزور ويفرق لحمها ، لاجل أن يستأنس بهم ، يعني ان روحه تشعر بوجودهم فتستأنس بهم في ذلك الوقت الذي هو أول العهد بذلك العالم وحيث يمتحن الداخل فيه . فمسائل التشريع لا تبنى على مثل هذا. وأنت ترى فيما نقله الشاطبي عن الامام مالك اصلا راسخا من أصول الشريعة وهو ان ماتركه النبي (ص) والصحابة (رض) مع وجود سببه وداعيته فتركهم إياه إجماع على انه غير مشروع ولا جائز في الدين - أي في العبادات دون العادات -

وقد ذهب بعضهم الى تقوية الحديث بعمل أهل الشام به من العصر الاول في زمن من يقتدى به . قال في شرح الاقناع من كتب الحنابلة بعد ذكر المتن استحباب الاكثر للتلقين وذكر الحديث وضعفه ما نصه : وقال الاثرم قلت لأبي عبد الله (أي الامام أحمد) هذا الذي يصنعون اذا دفن الميت يقف الرجل ويقول : يا فلان ابن فلانة اذكر ما فارقت عليه ـ شهادة أن لا إله الا الله ـ فقال ما رأيت احدا فعل هذا الا أهل الشام حين مات أبو المغيرة ، جاء إنسان فقال ذاك . وكان ابو المغيرة يروي فيه عن أبي بكر بن مريم عن اشياخهم أنهم كانوا يفعلونه اهـ

أقول أبو بكر بن أبي مريم ضعيف وقد اختلط عقله . وأما أبو المغيرة فهو عبد القدوس بن الحجاج الحمصي روى عنه أحمد والبخاري في غير الصحيح وأصحاب السنن وهو ثقة وقال النسائي لا بأس به وقد ذكر التلقين أبو عبد الله ابن القيم في في سياق الاستدلال على سماع الموتى بعد الدفن . قال وقد سئل عنه الامام أحمد فاستحسنه واحتج عليه بالعمل . وروي فيه حديث ضعيف ذكره الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة . ـ فذكر الحديث وقواه باتصال العمل به في سائر الامصار والاعصار من غير انكار . ثم ذكر حكايات مناسبة لمعنى التلقين

أقول لو أن ابن القيم رحمه الله تعالى اراد تحقيق هذه المسألة في حد ذاتها لكتب غير هذا ، ولكنه أوردها في سياق يريد تقويته بسرد الدلائل الكثيرة كعادته فجاء كلامه فيه موضعا للنظر والنقد . فاما جواب الامام أحمد عنه للاثرم فلا يدل على استحسانه ولا على تقويته بالعمل به ، اذ لم ينقل العمل به الا عن أهل الشام من رواية أبي بكر بن أبي مريم وهو ضعيف ، فيدل لفظ الامام أحمد على ان التلقين في عصره من القرن الثالث لم يكن معروفا الا عن أهل الشام ، فسقط بهذا قول ابن القيم باتصال العمل به في سائر الامصار والاعصار . والحق أن العمل لا يعد حجة الا اذا كان مستفيضا عن أهل الصدر الاول من الصحابة والتابعين فما حدث بعد ذلك فلا قيمة لشيوعه وكثرة العمل به ، فكم من بدعة عمت الاقطار والامصار ، يقيم الحجج على بطلانها وقبحها مثل ابن القيم واستاذه ابن تيمية من انصار السنة.

وجملة القول ان التلقين لم يثبت بكتاب الله ولا بسنة رسوله ولا قال احد من المحققين انه سنة ، بل قال بعض الفقهاء باستحبابه للتساهل في العمل بالحديث الضعيف والاستئناس له بما يناسبه . والبرماوي ليس قدوة ، وكم في كتب أمثاله وكتب من هم اعلم منه من البدع ، فلا ينبغي لاحد ان يثق الا بما يصرح المحققون بثبوت نقله عن النبي وجمهور السلف ، دون ما يذكر غفلا

فصل (*)

وكذلك مسـئلة التحرير ايضا - وهي التي عبر عنها بعضهم بقوله : «لا تقليد بعد العمل» - فيها نظر . وهو ان هذه العبارة لها معنيان (احدهما) انه اذا عمل وصادف الصحة على مذهب امام ولم يكن عالما بذلك، والحال انه على مقتضى مذهبه بطل ذلك العمل، فهل له ان يقول : اخذت بمذهب من يرى صحة ذلك ، ام لا ؟ فعلى ما ذكر ليس له ذلك على تقدير تفسير العبارة بهذا المعنى . اقول : وفرع ابو يوسف المنقول في مسئلة الفأرة يرده، اذ هو عين التقليد بعد انتهاء العمل، وهو الذي اذهب اليه واقول به ، بل قد اختار عالم قطر اليمن في زمانه الامام العلامة الفقيه عبد الرحمن ابن زياد الشافعي في فتاويه - ان العامي اذا وافق فعله مذهب امام من الائمة الذين يجوز تقليدهم صح وان لم يقلده ، توسعة على العباد ، واختلاف الائمة رحمة . وقال المحقق ابن حجر : لا يكون صحيحاً الا ان قلد ذلك القائل بالصحة، لأن تقليده لامام من الأئمة المذكورين التزم متابعته في الاحكام كلها ، فلا يجزئ في خلاف ذلك الا بتقليد صحيح .

وقد ذكر بعض أولياء الله تعالى الصالحين انه كشف له ان الله لا يعذب من عمل في المسئلة بقول امام مجتهد من الذين يجوز تقليدهم ، وهم الآن الأئمـة الاربعة المدونة مذاهبهم ، والمحررة اصول وفروع مسائلهم ؛ أما المجتهدون السابقون فلا ، للجهل بضوابط الاحكام عندهم،

*) تابع لما نشر في ص ٣٦٨ ج ٥

لفقد التدوين، لتطاول السنين. كذا رأيت ما حكيته في بعض المجاميع .

قلت: وفي تخصيص الائمة الاربعة كلام لايسع في هذا المحل بيانه

ثم رأيت في البحر الرائق شرح الكنز للعلامة ابن نجيم في باب قضاء الفوائت عند قوله : ويسقط بضيق الوقت والنسيان ، ما نصه : وان كان عاميا ليس له مذهب معين فمذهبه فتوى مفتية — كما صرحوا به — فان أفتاه حنفي اعاد العصر والمغرب، وان افتاه شافعي فلا يعدهما ولا عبرة برأيه ؛ وان لم يستفت أحدا وصادف الصحة على مذهب مجتهد أجزأه ، ولا إعادة عليه إنتهى . وهذا موافق لما اختاره عالم قطر اليمن في زمانه وفقيهه العلامة عبد الرحمن بن زياد الشافعي رحمه الله تعالى .

والمعنى الثاني انه ليس للانسان اذاعمل في مسئلة بمذهب ان يعمل بخلافه فيها ثانيا ، وهذا أيضاً مدفوع من وجوه (الاول) انه لم يقم عليه دليل الا لزوم صورة التلاعب ، وذلك لايلزم الا لو قصد به ذلك ، أو دلت عليه قرائن احوال ، أو مكلف ضاق به الحال فالتجأ الى الاخذ في واقعة كان عمل فيها مرة بقول امام فوقعت له مرة ثانية ، فاراد الأخذ فيها في المرة الثانية بقول امام آخر ، لدفع ضرورة ألجأته الى ذلك - والغرض صحيح - فلا ينسب الى التلاعب ، وقد صح وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه رجع عن قوله في مسئلة كان حكم فيها بحكم، ثم تكررت فتبدل نظره فيها فحكم بخلافه ، وقال : تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضي .

فان قلت : انه مجتهد وهذا حال المجتهد انه يجب عليه الرجوع الى ما سنح له من الدليل بخلاف المقلد . قلت : مهلا يا اخي ! فان المقلد لم

يظهر له بالدليل صحة ما قلد فيه اولا كما ظهر للمجتهد ، وهنا مجتهد آخر قائل بخلافه فهو احرى بتجويز الانتقال له .

ثم ظهر لي بعد مدة من تسطيري هذه الاسطر ظهوراً بينا منكشفا لاريب فيه — ان مرادهم من قولهم : لاتقليد بعد العمل . انه اذا عمل مرة في مسئلة بمذهب في طلاق أو عتاق أو غيرهما واعتقده وأمضاه ، ففارق الزوجة مثلا واجتنبها وعاملها معاملة من حرمت عليه ، واعتقد البينونة بينه وبينها بما جرى منه من اللفظ مثلا ، فليس له ان يرجع عن ذلك ويبطل ما أمضاه ويعود اليها بتقليده ثانيا اماماً غير الامام الاول الذي قلده فيها ، حيث كان الثاني يرى خلاف مارآه الامام الاول ، فهذا معنى قولهم « ليس له التقليد بعد العمل ولا يرجع عما قلد فيه وعمل به » ونحو ذلك من العبارات ، فاما اذا وقعت تلك الواقعة مرة ثانية مع امرأة اخرى أو مع زواجها بنكاح جديد ، فله الاخذ بقول امام آخر ، ولا مانع منه — كما سيأتي قريبا ـ

على انه قد نقل العلامة ابن امير الحاج الحلبي الحنفي تلميذ المحقق ابن الهمام عن الزركشي من أئمة الشافعية في شرح التحرير — ان فى كلام بعض الائمة ما يقتضي جريان الخلاف فى جواز التقليد بعد العمل أيضاً وان منعه ليس باتفاق فاعلمه . وقد نقل صاحب الفتاوى الصرفية عن الظهيرية والنسفية والنصاب — واللفظ من الظهيرية — انه سئل شيخ الاسلام عطاء بن حمزة السندي ، عن الصغيرة اذا زوجها ابوها من صغير وقبل ابوه وكبر الصغير وبينهما غيبة منقطعة وقد كان التزويج بشهادة الفسقة : فهل يجوز للقاضي ان يبعث الى شافعي المذهب ليبطل

هذا النكاح بينهما بهذا السبب ؟ قال : نعم . وللحنفي أن يفعل ذلك بنفسه أيضاً اخذا بمذهب الخصم ، وان لم يكن ذلك مذهبه . انتهى .

ثم اورد فى المحيط والظهيرية مسئلة ابي يوسف فى الفأرة عقبها مستشهداً فاعلم ذلك . وكذا مولانا خاتمة المتأخرين العلامة ابن نجيم رحمه الله فى البحر الرائق في مسئلة اليمين المضافة عن البزازية عن أصحابنا أنه لو استفتى فقيها عدلا فافتى ببطلان اليمين : هل له العمل بفتواه وامساكها؟ وروى أوسع من هذا وهو انه لو افتاه مفت بالحل ، ثم افتاه آخر بالحرمة بعد ما عمل بفتوى الاول ، فانه يعمل بفتوى الثاني فى حق امرأة أخرى لا فى حق الاولى ، أي فى هذه المرأة التي مضت - كما نبهتك عليه قريبا - وانظره فقد صرح بجواز العمل بخلاف ما عمل للعامي ، وانما منع من ان يفتي به المفتي لئلا ينسب الى الغرض والتشهي والتلاعب ، ولئلا ينسب العلماء الى التناقض من جهة العوام ، فافهم[1] . هذا ما قام عندي فى وجه ذلك ، ورأيت في عبارة بعضهم تعليله « بكيلا يتطرق به الى هدم مذهب اصحابنا » أو نحو ذلك من العبارة والله أعلم .

واعلم أنَّ من المسائل مايقع التصريح بها من بعض المتأخرين رحمة الله عليهم أجمعين - وخصوصاً في الاصول التي ألفها المتأخرون - وليست

(١) هذا التعليل ضعيف وأضعف منه ما يذكره بعده عن بعضهم . وله تعليل آخر أقوى منهما وهو ان تقليده الثاني يجب أن لا يبطل عمله بالتقلد الأول بعد التزامه لأنه تناقض في حقة . ولا يباح لأحد ان يلتزم التناقض و يعمل به وهولا يتحقق الا في الموضوع الواحد والمسألة الواحدة كالطلاق والعتق الذي أمضاه بالفعل . ومثله المجتهد اذا تغير رأيه في المسألة بعد إمضائها لاينقض اجتهاده الثاني ما أمضاه بالأول

بمرضية ، بل ربما يقع التصريح بخلافها من المتقدمين ، ويوجد من هذا النوع في كتاب التحرير الذي ألفه المحقق وجمع فيه من مقالات المتأخرين من فضلاء عصره فمن قبلهم بقليل حتى من كلام ارباب المذاهب غير مذهبنا ، فلا علينا ان ناخذ بما ظهر لنا صواب خلافه [1] ان أنعم الله علينا بحصول ضرب من النظر يمكن الوقف به على الصواب . هذا ونحن مع ذلك بحمد الله تعالى لانخرج عن درجة التقليد لامامنا الاعظم ابي حنيفة رحمة الله عليه ، ونحن مقلدون له ولكبار أصحابه ومن بعدهم من كبار أئمتنا كشمس الائمة واضرابه [2] . وأما مايبحثه ويقرره المتأخرون من أهل التاسع والعاشر [3] من فضلاء المذهب فلنا النظر فيه ان أمكن ، وعلينا التمسك بما هو منقول عن المتقدمين وخصوصاً اذا انتهض متمسكا لنا فيما نرتضيه . والله الموفق الى الصواب وبه الاعتصام .

فصل

ومما ينشأ من الجهل والتعصب تفويت فرض من فروض الله تعالى مع امكان اقامته على رأي مجتهد جليل ، بل على رأي جمع من المجتهدين ، وذلك (ان) جهلة المتعصبين يمتنعون ويمنعون من جمع الصلاتين فى السفر التي ذهب الى جوازها الامام الشافعي وغيره من صدر الاسلام رحمة الله عليهم ، ويؤدي ذلك الى تفويت الغرض رأساً ، وذلك انهم

(١) يوشك ان يكون قد سقط بعض الكلم من هذا السياق (٢) يريد بتقليدهم العمل بأصولهم والسير على طريقتهم في الفهم والعمل (٣) أي أهل القرنين التاسع والعاشر والمصنف من أهل القرن الحادي عشر . فهو يعد أهل ذينك القرنين كأهل قرنه لغلبة التقليد المحض عليهم و بعدهم عن الاستقلال والاجتهاد حتى في المذهب

لما يعزمون على السير عند الزوال مثلا فيصلون الظهر [١] لاول وقتها ويمتنعون من جمع العصر اليها ، فيركبون ويسيرون بناء على انهم ينزلون قبل المغرب آخر وقت العصر فيدركونها ، والحال انهم قد لا يتهيأ لهم النزول الا مع المغرب أو الغروب بحيث لا يتسع الوقت الى الطهارة والصلاة [٢] وخصوصاً في حق من تتعسر الطهارة عليه فتفوتهم الفرصة ، وقد كانوا يمكنهم اداؤها فى المنزل [٣] مجموعة جمع تقديم الى الظهر على مذهب الامام الشافعي رحمة الله عليه ، وعلى مذهب غيره ممن جوز الجمع لاجل السفر ، فيمتنعون عن ذلك ويرضون بتفويتها ، ولا بفعلها [٤] على مذهب مجتهد يجوز لهم أو عليهم يجب اتباعه ، والحال ما قرر ، لأن تحصيل الفرض من وجه مقدم على تفويته من كل وجه ، وما هذا الا محض التعصب والجهل. وقد (ذكر) الامام الاجل ظهير الدين الكبير المرغيناني عن استاذه السيد الامام أبي شجاع رحمه الله تعالى : انه سئل شمس الائمة الحلواني عن كسالى بخارى انهم يصلون الفجر والشمس طالعة : فهل نمنعهم من ذلك ؟ فقال : لا يمنعون ، لانهم لو منعوا يتركونها اصلا ظاهراً . (أي مما يظهر من حالهم) ولو صلوها تجوز عند اصحاب الحديث ، ولا شك ان الاداء الجائز عند البعض اولى [٥] من الترك اصلا. هذا جواب الحلواني ، وناهيك به اذ هو شيخ المذهب في عصره تخرج به الفحول النظار من ائمتنا كشمس الائمة السرخسي وفخر الاسلام

---

(١) كان الظاهر ان يقول : وذلك انهم عند ما يعزمون على السفر بعد الزوال يصلون الظهر الخ (٢) الصواب للطهارة والصلاة . يقال اتسع لكذا لا الى كذا (٣) لعل أصله « في المنزل الاول » اي من منازل السفر (٤) لعل اصله « ولا يرضون بفعلها » الخ (٥) لعل الاصل « وهو اولى من الترك »

البزدوي صاحب المبسوطين واضرابهم من رؤساء المذهب الذين هم قدماء الدهر، وعظماء ماوراء النهر .

هذا مع أن الجاهل المتعصب الغبي يكفيه ايقاعها مجموعة مع الظهر تقليد الامام[1] الشافعي وغيره، ثم ان اراد الاحتياط وادرك في الوقت فسحة اعادها على مذهبه أو قضاها بعد المغرب احتياطا ان لم تطعه نفسه فى ادائها مجموعة مع الظهر، والله أعلم والموفق لارب غيره وهو حسبي ونعم الوكيل .

قال جامعها محمد عبد العظيم المكي الحنفي غفران الله تبارك وتعالى له ولوالديه ولسائر المسلمين : ثم بعد تسطير هذه الاسطر ظفرت فى أثناء المطالعة بعدة من النقول تؤيد ماذكرته بهذه الرسالة وتشهد له لم انشط لإلحاقها . ثم رأيت كلاما للإمام الكبير المجتهد فى العلوم رأس الفقهاء والمحدثين الشهير بابن تيمية الحنبلي رحمه الله تعالى فاحببت تعليقه في ذيل هذه الرسالة وهومؤيد لما اشرنا اليه مطابق الى جميع[2] ما اوردته فيها، فالحاصل وان كان في كلامي زيادة أيضاح وبيان فهو لايخالفه بل يعضده ويؤيده . ولفظ ما رايته :

« سئل الامام العلامة شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحنبلي رحمه الله تعالى عن أهل المذاهب الاربعة : هل يصح اقتداء بعضهم ببعض في الصلوات المفروضة وغيرها أم لا ؟ وهل قال احد من السلف انه لا يصلي بعض المسلمين

(١) لابد ان يكون الاصل : بتقليد الامام - أو - تقليداً للامام الخ
(٢) الصواب « لجميع »

خلف بعض اذا اختلفت مذاهبهم أم لا ؟ وهل قائل ذلك مبتدع أم لا ؟ واذا فعل الامام ما يعتقد ان صلاته صحيحة والمأموم يعتقد خلاف ذلك مثل ان يكون الامام تقايأ او رعف أو احتجم او لمس النساء بشهوة أو مس ذكره أو قهقه في صلاته أو أكل مامسته النار أو أكل لحم الابل وصلى ولم يتوضأ ، وهو لايعتقد وجوب الوضوء من ذلك ، أو كان الامام لا يقرأ البسملة أو لم يتشهد التشهد الاخير أو لم يسلم من الصلاة والمأموم يعتقد وجوب ذلك ـ : فهل تصح صلاة المأموم والحالة هذه ؟ افتونا مأجورين ولكم الثواب .

«أجاب رحمه الله تعالى : الحمد لله رب العالمين . نعم تجوز صلاة المسلمين بعضهم خلف بعض كما كان الصحابة والتابعون لهم باحسان ومن بعدهم من الائمة الاربعة رضوان الله عليهم أجمعين يصلي بعضهم خلف بعض مع تنازعهم في هذه المسائل المذكورة وغيرها ، ولم يقل أحد من السلف الصالح رحمهم الله تعالى : انه لايصلي بعضهم خلف بعض . ومن انكر ذلك فهو مبتدع ضال مخالف للكتاب والسنة واجماع سلف الامة وائمتها ؛ وكان الصحابة والتابعون ومن بعدهم منهم من يقرأ البسملة ومنهم من لايقرأها ومنهم من يجهر بها ومنهم من لا يجهر بها ، وكان منهم من يقنت في الفجر ومنهم من لايقنت ، ومنهم من يتوضأ من الحجامة والرعاف والقيء ومنهم من لا يتوضأ من ذلك ، ومنهم من يتوضأ من لمس النساء بشهوة ومس الذكر ومنهم من لا يتوضأ من جميع ذلك ، ومنهم من يتوضأ مما مسته النار ومنهم من لايتوضأ من ذلك ، ومنهم من يتوضأ من أكل لحوم الابل ومنهم من لا يتوضأ من ذلك ، ومع هذا كان بعضهم

يصلي خاف بعض مثل ما كان ابو حنيفة واصحابه والشافعي وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين يصلون خاف الائمة المرتبة من المالكية وغيرهم وان كانوا لا يقرؤن البسملة لا سراً ولا جهرا . وصلى الرشيد إماما وكان قد احتجم فصلى الامام ابو يوسف خلفه ولم يعد صلاته ، وكان أفتاه الامام مالك بانه لاوضوء عليه ، وكان الامام أحمد ابن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة ، فقيل له في ذلك اذا كان الامام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ تصلي خلفه ؟ فقال كيف لا أصلي خاف مالك وسعيد بن المسيب [1]

وفي الجملة فهذه المسائل لها صورتان (احداهما) ان لا يعرف المأموم ان امامه فعل مايبطل الصلاة ، فهذا يصلي خلفه باتفاق السلف والائمة الاربعة وغيرهم ، وليس في هذا خلاف متقدم ، وانما خالف بعض المتعصبين من المتأخرين فزعموا ان الصلاة خلف الحنفي لا تصح وان أتى بالواجبات — قال — لانه اداها وهو لايعتقد وجوبها . وقائل هذا القول الى ان يستتاب كما يستتاب أهل البدع احوج منه الى ان يعتد بخلافه [2] ، فانه ما زال المسلمون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه رضي الله عنهم يصلي بعضهم ببعض ، وأكثر الائمة لا يميزون بين المسنون والمفروض بل يصلون الصلوات الشرعية ، ولو كان العلم بهذا واجبا لبطلت صلاة أكثر المسلمين ولم يمكن الاحتياط ، فان كثيرا

(١) كأن سقط من هذه العبارة كلمات أوفقرات من نسختنا فأتممناها من أصل فتاوى ابن تيمية ، وفي الاصل تقديم سعيد بن المسيب على مالك لأنه اعلم التابعين

(٢) هذا نص الفتوى وعبارة نسختنا « الى ان يعتقد بطلانها »

من هذا فيه نزاع وادلة ذلك خفية ، وأكثر ما يمكن المتقدمين ان يحتاطَ من الخلاف ، وهو لا يجزم باحد القولين وان كان الجزم باحدهما واجبا ؛ فاكثر الخلق لا يمكنهم الجزم بذلك ، وهذا القائل ليس معه الا تقليد بعض الفقهاء ، ولو طولب بادلة شرعية تدل على صحة قول امامه دون غيره لعجز عن ذلك ، ولهذا لا يعتد بنقل مثل هذا فانه ليس من أهل الاجتهاد .

(والصورة الثانية) ان يتيقن المأموم ان الامام فعل مالا يسوغ عنده ، مثل ان يمس ذكره أو يلمس النساء بشهوة ، أو يحتجم ، أو يتقايأ ثم يصلي بلا وضوء . فهذه الصورة فيها نزاع مشهور ، فاحد القولين : لا تصح صلاة المأموم لانه يعتقد بطلان صلاة امامه — كما قال ذلك جماعة من اصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى — والقول الثاني : تصح صلاة المأموم ؛ وهو قول جمهور السلف وهو مذهب مالك رحمه الله ، واحد قولي الشافعي وأحمد ، بل وأبي حنيفة ، وأكثر نصوص الامام أحمد على هذا ؛ وهذا هو الصواب ، لما ثبت في الصحيح وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « يصلون بكم فان أصابوا فلكم ولهم وان اخطؤا فلكم وعليهم » فقد بين صلى الله عليه وسلم ان خطأ الامام لا يتعدى الى المأموم ، ولأن المأموم يعتقد ان ما فعله سائغ له ، وأنه لا اثم عليه فيما فعل فانه مجتهد ، أو مقلد مجتهد ، وهو يعلم ان هذا قد غفر الله له خطأه ، فهو يعتقد صحة صلاته ، وأنه لا يأثم اذا لم يعدها ، بل لو حكم حاكم بمثل هذا لم يجز له نقض حكمه ، بل كان ينفذه ؛ واذا كان الامام قد فعل باجتهاده — ولا يكلف الله نفساً الا وسعها — والمأموم قد فعل ما يجب

عليه كانت صلاة كل منهما صحيحة، وكان كل منهما قد أدى ما يجب عليه؛ وقد حصلت موافقـة الامام فى الافعال الظاهرة .

وقول القائل: «ان المأموم يعتقد بطلان صلاة الامام» خطأ منه لأن المأموم يعتقد ان الامام قد فعل ما وجب عليه، وان الله قد غفر له ما اخطأ فيه، وانه لا تبطل صلاته لاجل ذلك، ولو أخطأ الامام والمأموم فسلم الامام خطأ واعتقد المأموم جواز متابعته فسلم كما سلم المسلمون خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من ركعتين سهوا مع علمهم بانه انما صلى ركعتين ، وكما لو صلى خمساً سهوا فصلوا خلفه سهوا مع علمهم بانه صلى خمساً لاعتقادهم جواز ذلك فانه تصح صلاة المأموم فى هذه الحالة ، فكيف اذا كان المخطئ هو الامام وحده ؛ وقد اتفقوا كلهم على ان الامام لو سلم خطأ لا تبطل صلاة المأموم اذا لم يتابعه ، فدل ذلك على أن ما فعله الامام خطأ لا يلزم فيه بطلان صلاة المأموم والله أعلم .

انتهى بلفظه فانظره فانه مطابق ومؤيد لما ذكرته في هذه الرسالة ولله الحمد على موافقة من مضى من كبار الأئمة .

وكثيرا ما أختار شيئاً الا فأجد من قد سبقني الى اختياره الفحول من الرجال من الأئمة [١] أو أستشكل شيئاً فاجد استشكاله منقولا عن كبار المتقدمين، وكذلك اذا ابديت قولا لم يكن وقف من رأى كلامي على

---

(١) كلمة « الا » وكلمة « من » قبل الأئمة زائدتان . أي كثيرا ما اختار شيئا فأجد الذين قد سبقوني الى اختياره هم الفحول من الرجال والأئمة. وسبب موافقة المصنف في كثير من المسائل لهؤلاء عدم التعصب للمذهب وحب الانصاف . ولو عنى بالتفسير والحديث كما عني بالفقه الحنفي مع زيادة اتقان للعربية لكان مجتهد مستقلا تمام الاستقلال

نقله فيقع منهم موقع الانكار ويحملهم الجهل والتعصب على رده ثم اجده منقولا بعد ذلك بعينه أو بما يوافقه عن السلف فمن بعدهم من كبار الأئمة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، بل ربما افعل أمورا من الامور العادية فيستغرب به الناس ويتعجبون من صدوره مني، وربما عيب علي، بل ربما أنسب به عند بعض الجهال الى سخافة العقل ثم اجده أو مثله محكيا عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أو عن التابعين أو عن بعض الخلفاء أو السلاطين الكبار المجمع على اصابة فعلهم وجلالتهم، والحمد لله رب العالمين

ثم لخص لي تلخيصاً شافياً شافعي زمانه السيد الجليل عمر بن عبد الرحيم البصري المكي رحمه الله تعالى، ومن خطه الكريم نقلت مانصه:

« قال الامام الرافعي في[1] وان كانت صلاته صحيحة في اعتقاد الامام دون المأموم أو بالعكس، فان كان الاختلاف فى الفروع كما اذا مس الحنفي فرجه وصلى، أو ترك الاعتدال أو قرأ غير الفاتحة: ففي صحة اقتداء الشافعي به وجهان (أحدهما) يصح، وبه قال القفال لان خطأه غير مقطوع به (والثاني) ـ وبه قال الشيخ ابو حامد: لا يصح لفسادها عند المأموم ـ فأشبه ما لو اختلف اجتهاد رجلين فى القبلة لا يقتدي احدهما بالآخر، وهو اظهر عند الاكثرين انتهى.

قال الامام الزركشي فى الخادم ما حاصله: وخلاصة مارجحه ونقله عن الاكثرين غير مسلم فانما تعرض له طائفة كالبرزنجي والروياني في الحلية والبغوي وصاحب الكافي والغزالي فى فتاويه، ولم يذكر المسئلة طائفة

---

(١) بياض في الاصل والذي سقط اسم الكتاب ولعله « الشرح الكبير » للوجيز ولايبعد ان يكون مما سقط اسم الباب او البحث

كالماوري والدارمي والشيخ في المهذب والتنبيه ، وكلام الشيخ أبي حامد فيها محتمل فانه قال : لو اقتدى به وهو يحتمل الكراهة وعليها جرى الروياني في البحر، ولم يصح عن القاضي أبي الطيب شيء، بل حكي عن الدارمي الجواز ، وعن أبي اسحاق المنع ، والقائلون به لم يقفوا للشافعي على نص ، بل قالوا : إنه قياس مذهبه في المختلفين في القبلة والاواني . وهذا ممنوع نقلا وتوجيها . (أما) النقل، فان المنصوص للشافعي ـ ما نقله القفال ـ الصحة ، ومما يشهد للصحة ماحكاه المحاملي في المجموع قال: قال الشافعي رحمه الله تعالى في الامالي : واذا دخل الرجل بلدا فنوى أن يقيم أربعين يوما، وكان يرى جواز القصر حينئذ، ومعه رجل يعتقد عدم جوازه، فيكره له ان يقدمه ويصلي خلفه لانه يعتقد ان صلاته المقصورة لاتجوز . فان قدمه وصلى خلفه جاز لانه محكوم بصحة صلاته في حقه . هكذا حكاه القاضي أبو الطيب عن الامالي .

ولو كانت العبرة باعتقاد المأموم لكان اقتداؤه به باطلا لان عند المأموم ان نية القصر لاتنعقد معها الصلاة . ومع ذلك صحح الشافعي الاقتداء به اعتبارا باعتقاد الامام ، وهذا النص ذكره الامام النووي أيضاً في باب صلاة المسافر في شرح المهذب ، ووقع في بعض نسخ شرح المهذب هكذا «والمختار والظاهر قول القفال» فلم تزل الائمة المختلفون في الفروع يصلي بعضهم خلف بعض ويشهد له تصحيحهم ان الماء الذي توضأ منه الحنفي وغيره — ممن لايرى وجوب النية — مستعمل وان لم ينو على الاصح ، وهذا هو الصواب الذي ينبغي ان تكون الفتوى عليه، وقد كان الامام الشافعي رحمه الله تعالى يصلي خلف أئمة المدينة ومصر ،

وكانوا لا يسلمون ؛ ولم ينقل عنه الامتناع عن الاقتداء بهم ، وصح عن ابن مسعود رضي الله عنه انه أتم بمنى مع عثمان رضي الله عنه مع انكاره عليه ذلك ؛ فقيل له في ذلك ، فقال : الخلاف شر فتنة .

وأما توجيه المانعين بقولهم : « ان المأموم يعتقد بطلان صلاة الامام » فمردود ؛ فانها مسئلة اجتهاد واعتقاد ، والخطأ فيها لا يسوغ كما في غيرها من المسائل الاجتهادية ، كالحكم بصحة حكمه وامتناع نقضه بشرطه .

وأما قياسهم على المجتهدين في القبلة أو في الاواني فيصرف بان الامام والمأموم فيهما يعتقدان فساد صلاة من صلى بطهارة من اناء نجس ، أو صلى الى غير القبلة ، بخلاف المأموم في اقتدائه بتارك الفاتحة فانه لا يعتقد بطلان صلاته مع تركها ، لانه مستند لاجتهاد من جملة عقيدة المأموم التي يدين بها ربه اعتقاد صحته ؛ وبان المجتهد لو بان له في مسئلتي الاواني والقبلة ان الامر على خلاف ظنه يقينا لزمته الاعادة ، بخلاف المجتهد في الفروع لو عثر على نص جلي مخالف لاجتهاده السابق ، لا تلزمه اعادة ما صلاه بالاجتهاد السابق ؛ وسر ذلك ان الاجتهاد الاول مستند الى أمر عادي وقرائن تشير [1] الظن اكتفى بها الشارع تخفيفا على الامة ، فان تحقق الخطأ فيها رجع الى الاصل وتبين عدم صلاحيتها لمن ظن بها ، بخلاف الاجتهاد الثاني فانه مستند الى امر شرعي أوجب الشارع عليه اتباعه ، فلم يقع عمله السابق على خلاف حكم الله تبارك وتعالى ؛ وان فرض وصرح النص الثاني المعثور عليه بحيث افاد اليقين أو ما قاربه من

(١) سقط من هنا كلام والمعنى ان الاجتهاد الأول مبني على قرائن ظنية لا هي علم ولا شرع وانما اجازها الشرع للضرورة

الظن القوي ؛ وأيضاً الاجتهاد الاول يمكن التوصل[1] الى القطع بالخطإ فيه بخلاف الثاني

وممن اختار ذلك من المتأخرين صاحب الذخائر وأفرد المسئلة بتصنيف سماه « بيان المشروع في الاقتداء بالمخالفين فى الفروع » وقال ابن أبي الدم فى باب الجنائز من شرح الوسيط : لعل الاصح الصحة مطلقا ، واقام الدليل على الجواز من وجوه ، ثم نبه على أمر حسن فقال : وهذا الخلاف كله فى المجتهدين ، وأما عوام الناس فليسوا مقصودين في الخلاف فانهم لا مذهب لهم يعولون عليه ، وانما فرضهم التقليد عند نزول المنازعه فمن أفتاهم من أهل الفتوى وجب عليهم قبول قوله ؛ وانتسابهم الى المذاهب عصبية ، ومعناه ارتضى ان يعمل فى عبادته وكل احواله بقول امام انتسب اليه ، فهؤلاء يصح قدوة كل منهم باي امام كان من غير تفصيل .

ونقل عن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أنه كان يرى الوضوء من الدم الكثير فقيل له : اذا كان الامام لا يتوضأ من ذلك أتصلي خلفه ؟ فقال : سبحان الله تعالى ! أقول إنه لا يصلى خلف سعيد ابن المسيب ومالك رضي الله عنهما ؟

وكان القاضي أبو عصام العامري الحنفي مارا في باب مسجد القفال والمؤذن يؤذن المغرب فنزل عن دابته ودخل المسجد ، فلما رآه القفال أمر المؤذن أن يثني في الاقامة ، وقدم القاضي أبا عصام فتقدم وصلى

(١) لعل الاصل « يمكن التوصل به »

وجهر بالبسملة ، وأم بشعار الشافعية فى صلاته ، وكان ذلك منهما تهوينا لأمر الخلاف فى الفروع . وقال القاضي الحسين فى تعليقه : والمختار أن كل مجتهد مصيب ، الا أن أحدهم أصاب الحق عند الله والباقون أصابوا الحق عند أنفسهم . وقال ابن السمعاني : قال علماؤنا — : من أخطأ كان مخطئا للحق عند الله مصيبا فى حق عمل نفسه ، حتى إن عمل نفسه يقع صحيحا عند الله شرعا كانه أصاب الحق عند الله . وقد حكى الامام الشافعي رحمة الله عليه الاجماع على أن كل مجتهد اداه اجتهاده الى أمر فهو حكم الله تعالى فى حقه ولا يشرع له العمل بغيره حينئذ ، فمن صلى بحكم اجتهاده فصلاته صحيحة عنده وعند من يخالفه في المسئلة لاعتقاده ان ذلك حكم الله تعالى عنده ، وصلاته صحيحة لاتيانه بها على الوجه المأمور به حينئذ ، فكيف يمنع الاقتداء به مع الحكم بصحة صلاته في نفسه ؛ انتهى مع تلخيص وتحرير . واقتضى نسخه الى هنا انتهى ما رأيته بخط المذكور دامت افادته ؛ وقد أرسل به اليّ في ذيل نسخة من هذه الرسالة بعد امرار نظره السعيد عليها ؛ وهذا بحمد الله تعالى أيضا مؤيد لما أشرت اليه ، واعتمدت فيها عليه ، والله الموفق الى الصواب.

قال جامعها ومؤلفها محمد بن عبد العظيم المكي الحنفي بن المقدسي الميروز الملا فروخ بن عبد المحسن الرومي الموروي حفظه الله تعالى فى نفسه واولاده وجميع نعم الله تعالى عليه ، واحياه حياة طيبة سالمة من الاسواء فيما وصل ويصل من منة الله اليه ، بعد ان علم بانه مر عليه مطالعة وتصحيحا وتمة في يوم الجمعة الثانية من شوال سنة اثنتين وخمسين والف من الهجرة النبوية ، والحمد لله على ذلك ، وصلى الله على نبيه كذلك.

فصل

﴿ الابتداع بالتشدد في الدين . والتزام مالم يرد وتتبع آثار الصالحين ﴾

من كتاب الاعتصام للامام الشاطبي

ثبت بمضمون هذه الفصول المتقدمة آنفا ان الحرج منفي عن الدين جملة وتفصيلا ، — وان كان قد ثبت ايضا في الاصول الفقهية على وجه من البرهان ابلغ — فلنبن عليه فنقول :

قد فهم قوم من اصول[1] السلف الصالح واهل الانقطاع الى الله ممن ثبتت ولايتهم انهم كانوا يشددون على انفسهم ، ويلزمون غيرهم الشدة ايضاً والتزام الحرج ؛ ديدنا في سلوك طريق الآخرة . وعدوا من لم يدخل تحت هذا الالتزام مقصرا مطرودا ومحروما . وربما فهموا ذلك من بعض الاطلاقات الشرعية ، فرشحوا بذلك ما التزموه ، فافضى الأمر بهم الى الخروج عن السنة الى البدعة الحقيقية او الاضافية .

فمن ذلك ان يكون للمكلف طريقان في سلوكه للآخرة ، احدهما سهل والآخر صعب ، وكلاهما فى التوصل الى المطلوب على حد واحد ؛ فيأخذ بعض المتشددين بالطريق الاصعب الذي يشق على المكلف مثله ، ويترك الطريق الاسهل بناء على التشديد على النفس ، كالذي يجد للطهارة ماءين سخن وبارد فيتحرى البارد الشاق استعماله ، ويترك الآخر . فهذا لم يعط النفس حقها الذي طلبه الشارع منه . وخالف دليل رفع الحرج من غير معنى زائد ؛ فالشارع لم يرض بشرعية مثله ، وقد قال تعالى

(١) كلمة « أصول » لا يظهر لها معنى ههنا ولعلها محوال

(ولا تقتلوا انفسكم ، ان الله كان بكم رحيما) فصار متبعا لهواه ؛ ولا حجة له فى قوله عليه السلام « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ اسباغ الوضوء عند الكريهات » — الحديث . من حيث كان الاسباغ مع كراهية النفس سببا لمحو الخطايا ورفع الدرجات ، ففيه دليل على ان للانسان ان يسعى فى تحصيل هذا الاجر باكراه النفس ، ولا يكون الا بتحري إدخال الكراهية عليها . لانا نقول : لا دليل فى الحديث على ما قلتم ، وانما فيه ان الاسباغ مع وجود الكراهية ، ففيه امر زائد ، كالرجل يجد ماء باردا فى زمان الشتاء ولا يجده سخنا فلا يمنعه شدة برده عن كمال الاسباغ .

واما القصد الى الكراهية فليس فى الحديث ما يقتضيه ، بل فى الأدلة المتقدمة ما يدل على انه مرفوع عن العباد ، ولو سلم ان الحديث يقتضيه لكانت ادلة رفع الحرج تعارضه ، وهي قطعية وخبر الواحد ظني ، فلا تعارض بينهما للاتفاق على تقديم القطعي . ومثل الحديث قول الله تعالى (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة) ـ الآية .

ومن ذلك الاقتصار من المأكول على اخشنه وافظعه لمجرد التشديد لا لغرض سواه ، فهو من النمط المذكور فوقه ، لان الشرع لم يقصد الى تعذيب النفس فى التكليف ؛ وهو ايضا مخالف لقوله عليه السلام « ان لنفسك عليك حقا » وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأكل الطيب اذا وجده ، وكان يحب الحلواء والعسل ، ويعجبه لحم الذراع ، ويُستعذب له الماء . فاين التشديد من هذا ؟

ولا يدخل الاستعمال المباح فى قوله تعالى (أذهبتم طيباتكم فى

حياتكم الدنيا) لان المراد به الاسراف الخارج عن حد المباح ، بدليل ما تقدم . فإذاً الاقتصار على البشيع في المأكول من غير عذر تنطع ؛ وقدمر مافيه في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) الآية .

ومن ذلك الاقتصار في الملابس على الخشن من غير ضرورة ، فانه من قبيل التشديد والتنطع المذموم . وفيه ايضامن قصد الشهرة ما فيه .

وقد روي عن الربيع بن زياد الحارثي انه قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه : أعد بي على اخي عاصم . قال : ما باله ؟ قال : لبس العباء يريد النسك . فقال علي رضي الله عنه : عليَّ به . فأتى به مؤتزرا بعباءة مرتديا بالاخرى ، شعث الرأس واللحية ، فعبس في وجهه وقال : ويحك ! أما استحييت من أهلك ؟ أما رحمت ولدك ؟ اترى الله أباح لك الطيبات وهو يكره ان تنال منها شيئا ؟ بل انت اهون على الله من ذلك ، اما سمعت الله يقول في كتابه (والارض وضعها للانام — الى قوله - يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) ؟ أفترى الله أباح هذا لعباده الا ليبتذلوه [1] ويحمدوا الله عليه فيثيبهم عليه ؟ وان ابتذالك نعم الله بالفعل خير منه بالقول . قال عاصم : فما بالك في خشونة مأكلك وخشونة ملبسك ؟ قال: ويحك ! ان الله فرض على أئمة الحق ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس .

فتأملوا كيف لم يطالب الله العباد بترك الملذوذات ! وانما طالبهم

(١) الابتذال ضد الصون ، وما يستعمل يبتذل ، فالمراد استعمال النعم والطيبات والانتفاع بها . ويستعمل الابتذال في لازمه وهو الامتهان والاحتقار ، وليس بمراد هنا .

بالشكر عليها اذا تناولوها ؛ فالمتحري للامتناع من تناول ما اباحه الله من غير موجب شرعي مفتات على الشارع [1] وكل ماجاء عن المتقدمين من الامتناع عن بعض المتناولات من هذه الجهة وانما [2] امتنعوا منه لعارض شرعي يشهد الدليل باعتباره ، كالامتناع من التوسع لضيق الحال في يده ، أو لأن المتناول ذريعة الى ما يكره أو يمنع ، أو لأن في المتناول وجه شبهة تفطن اليه التارك ولم يفطن اليه غيره ممن علم بامتناعه . وقضايا الاحوال لا تعارض الادلة بمجردها ، لاحتمالها في أنفسها . وهذه المسئلة مذكورة على وجهها في كتاب الموافقات .

ومن ذلك الاقتصار في الافعال والاحوال على ما يخالف محبة النفوس ، وحملها على ذلك في كل شيء من غير استثناء ؛ فهو من قبيل التشديد . الا ترى أن الشارع اباح اشياء مما فيه قضاء نهمة النفس وتمتعها واستلذاذها ؛ فلو كانت مخالفتها براً الشرع ، ولندب الناس الى تركه فلم يكن مباحا ، بل مندوب الترك او مكروه الفعل .

وايضاً فان الله تعالى وضع في الامور المتناولة ايجابا أوندبا أشياء من المستلذات الحاملة على تناول تلك الامور ، لتكون تلك اللذات كالحادي الى القيام بتلك الامور ، كما جعل في الأوامر اذا امتثلت وفي النواهي اذا اجتنبت اجوراً منتظرة ، ولو شاء لم يفعل ؛ وجعل في الاوامر اذا تركت والنواهي اذا ارتكبت جزاءا على خلاف الاول ، ليكون جميع ذلك منهضا لعزائم المكلفين في الامتثال ، حتي انه وضع لاهل الامتثال

(١) يقال افتأت على فلان افتئاتا وافتات افتياتا . اذا تصرف بشيء من شؤونه بدون إذنه ولا رضاه (٢) لعل الاصل «فانما» والجملة خبر قوله «وكل ما جاء عن المتقدمين» ويبعد ان يكون خبر المبتدا قوله «من الجهة»

الثائرين على المبايعة [1] في النفس تكاليف أنواعا من اللذات العاجلة ، والأنوار الشارحة للصدور ، ما لا يعدله من لذات الدنيا شيء ، حتى يكون سببا لاستلذاذ الطاعة والفرار اليها وتفضيلها على غيرها ، فيخف على العامل العمل ، حتى يتحمل منه ما لم يكن قادرا قبل على تحمله الا بالمشقة المنهي عنها ، فاذا سقطت سقط النهي .

بل تأملوا كيف وضع للأطعمة على اختلافها لذات مختلفات الالوان ، وللاشربة كذلك ، ولإيقاع الموضوع سببا لاكتساب العيال - وهو أشد تعبا عن النفس - لذة أعلى من لذة المطعم والمشرب ، الى غير ذلك من الامور الخارجة عن نفس المتناول ، كوضع القبول في الارض وترفيع المنازل ، والتقدم على سائر الناس في الامور العظائم ، وهي ايضاً تقتضي لذات تستصغر في جنبها لذات الدنيا

واذا كان كذلك ، فاين هذا الموضع الكريم ، من الرب اللطيف الخبير ؛ فمن يأتي متعبدا بزعمه بخلاف ماوضع الشارع له من الرفق والتيسير والاسباب الموصلة الى محبته ، فيأخذ بالاشق والاصعب ، ويجعله هو السلم الموصل والطريق الاخص ؟ : هل هذا كله الا غاية في الجهالة ، وتلف في تيه الضلالة ؟ عافانا الله من ذلك بفضله .

فاذا سمعتم بحكاية تقتضي تشديدا على هذا السبيل ، أو يظهر منها تنطع أو تكلف ، فإما ان يكون صاحبها ممن يعتبر كالسلف الصالح ، او من غيرهم ممن لا يعرف ولا ثبت اعتباره عند اهل الحل والعقد من العلماء ، فان كان الاول فلا بد أن يكون على خلاف ما ظهر لبادي

(١) لعل اصله : السائرين أو المثابرين على المتابعة

الرأي - كما تقدم - وان كان الثاني فلا حجة فيه ، وانما الحجة فى المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم . فهذه خمسة فى التشديد في سلوك طريق الآخرة يقاس عليها ما سواها .

فصل

قد يكون اصل العمل مشروعاً ولكنه يصير جارياً مجرى البدعة من باب الذرائع ، ولكن على غير الوجه الذي فرغنا من ذكره . وبيانه ان العمل يكون مندوباً اليه - مثلا - فيعمل به العامل فى خاصة نفسه على وضعه الاول من الندبية ، فلو اقتصر العامل على هذا المقدار لم يكن به بأس، ويجري مجراه اذا دام عليه فى خاصيته غير مظهر له دائماً ، بل اذا اظهره لم يظهره على حكم الملتزمات من السنن الرواتب والفرائض اللوازم ، فهذا صحيح لا اشكال فيه . واصله ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم لإخفاء النوافل والعمل بها في البيوت ، وقوله « افضل الصلاة صلاتكم فى بيوتكم الا المكتوبة » فاقتصر فى الاظهار على المكتوبات - كما ترى - وان كان ذلك في مسجده عليه السلام او فى المسجد الحرام او في مسجد بيت المقدس؛ حتى قالوا : ان النافلة في البيت افضل منها في احد هذه المساجد الثلاثة بما اقتضاه ظاهر الحديث . وجرى مجرى الفرائض في الإظهار السنن كالعيدين والخسوف والاستسقاء وشبه ذلك ، فبقى ما سوى ذلك حكمه الاخفاء، ومن هنا ثابر السلف الصالح رضي الله عنهم على اخفاء الاعمال فيما استطاعوا او خف عليهم اقتداء بالحديث و بفعله عليه السلام ؛ لأنه القدوة والاسوة .

ومع ذلك فلم يثبت فيها اذا عمل بها في البيوت دائماً ان يقام جماعة في المساجد البتة ، ما عدا رمضان — حسبما تقدم — ولا في البيوت دائما ، وان وقع ذلك في الزمان الاول في الفرط[1] كقيام ابن عباس رضي الله عنهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ما بات عند خالته ميمونة ، وما ثبت من قوله عليه السلام « قوموا فلأصلي لكم »

وما في الموطإ من صلاة يرفا[2] مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الضحى ؛ فمن فعله في بيته وقتا ما فلا حرج ، ونص العلماء على جواز ذلك بهذا القيد المذكور ، وان كان الجواز قد وقع في المدونة مطلقاً — فما ذكره تقييد له ، واظن ابن حبيب نقل[3] عن مالك مقيدا ؛ فاذا اجتمع في النافلة أن تلتزم التزام السنن الرواتب إما دائماً وإما في اوقات محدودة وعلى وجه محدود ، واقيمت في الجماعة في المساجد التي تقام فيها الفرائض، او المواضع التي تقام فيها السنن الرواتب، فذلك اتباع[4] . والدليل عليه انه لم يأت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن اصحابه ولا عن التابعين لهم باحسان فعل هذا المجموع هكذا مجموعاً ، وان اتى مطلقاً من غير تلك التقييدات . فالتقييد في المطلقات التي لم يثبت بدليل الشرع تقييدها رأي في التشريع ؛ فكيف اذا عارضه الدليل ، وهو الامر باخفاء النوافل مثلا ؟

---

(١) كذا ولا يظهر لهذه الكلمة هنا معنى . والمثل الذي ذكره ثابت في الصحيح هو ان ابن عباس أراد ان يعرف صلاة النبي (ص) في الليل فبات عند خالته ميمونة في ليلتها ، فلما قام النبي (ص) من الليل قام معه واقتدى به فصلى أحدى عشرة ركعة فهي قيامه ووتره (٢) كذا في الاصل (٣) لعله « نقله » أو نقل ذلك (٤) كذا . وصوابه « ابتداع » اذ لا تصح تسميته اتباعا الا بتمحل بعيد

ووجه دخول الابتداع هنا ان كل ما واظب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوافل واظهره في الجماعات فهو سنة ؛ فالعمل بالنافلة التي ليست بسنة على طريق العمل بالسنة ، إخراج للنافلة عن مكانها المخصوص بها شرعاً . ثم يلزم من ذلك اعتقاد العوام فيها ومن لا علم عنده انها سنة . وهذا فساد عظيم ، لأن اعتقاد ما ليس بسنة والعمل بها على حد العمل بالسنة نحو من تبديل الشريعة ؛ كما لو اعتقد في الفرض انه ليس بفرض ، او بما ليس بفرض انه فرض ، ثم عمل على وفق اعتقاده فانه فاسد ، فهب العمل في الاصل صحيحاً فاخراجه عن بابه اعتقادا وعملا من باب إفساد الاحكام الشرعية . ومن هنا ظهر عذر السلف الصالح في تركهم سننا قصدا لئلا يعتقد الجاهل أنها من الفرائض كالاضحية وغيرها . — كما تقدم ذلك —

ولأجله ايضاً نهى اكثرهم على اتباع الآثار ، كما خرج الطحاوي وابن وضاح وغيرهما عن معروز بن سويد الاسدي قال : وافيت الموسم مع امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما انصرفنا الى المدينة انصرفت معه ، فلما صلى لنا صلاة الغداة قرأ فيها (ألم تر كيف فعل ربك) و (لإيلاف قريش) ثم رأى ناساً يذهبون مذهبا ، فقال : اين يذهب هؤلاء ؟ قالوا يأتون مسجدا هاهنا صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : انما هلك من كان قبلكم بهذا ، يتبعون آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس وبيعا ، من ادركته الصلاة في شيء من هذه المساجد التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فليصل فيها والا فلا يتعمدها .

وقال ابن وضاح : سمعت عيسى بن يونس مفتي أهل طرسوس

يقول : أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجره التي بويع تحتها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقطعها لان الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها نخاف عليهم الفتنة .

قال ابن وضاح : وكان مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة يكرهون إتيان تلك الآثار للنبي صلى الله عليه وسلم ماعدا قباء وحده - وقال - وسمعتهم يذكرون ان سفيان دخل مسجد بيت المقدس فصلى فيه ولم يتبع تلك الآثار ولا الصلاة فيها ، وكذلك فعل غيره أيضا ممن يقتدى به؛ وقدم وكيع أيضا مسجد بيت المقدس فلم يعدُ فِعل سفيان -قال ابن وضاح- فعليكم بالاتباع لأئمة الهدى المعروفين ، فقد قال بعض من مضى : كم من امر هو اليوم معروف عند كثير من الناس كان منكراً عند من مضى ؟.

وقد كان مالك يكره كل بدعة وان كانت في خير . وجميع هذا ذريعة لئلا يتخذ سنة ماليس بسنة ، أو يعد مشروعا ما ليس معروفاً .

وقد كان مالك يكره المجيء الى بيت المقدس خيفة ان يتخذ ذلك سنة ؛ وكان يكره مجيء قبور الشهداء ، ويكره مجيء قباء خوفا من ذلك ، مع ماجاء فى الآثار من الترغيب فيه .

ولكن لما خاف العلماء عاقبة ذلك تركوه .

وقال ابن كنانة واشهب : سمعنا مالكا يقول: لما اتاه سعد ابن ابي وقاص قال : وددت ان رجلي تكسرت وأني لم أفعل .

وسئل ابن كنانة عن الآثار التي تركوا بالمدينة فقال: اثبت مافي ذلك

عندنا قباء ، إلا ان مالكا كان يكره مجيئها خوفا ان يتخذ سنة .

وقال سعيد بن حسان : كنت اقرأ على ابن نافع ، فلما مررت بحديث التوسعة ليلة عاشوراء قال لي : حرّق عليه [1] قلت : ولم ذلك يا ابا محمد ؟ قال خوفا من ان يتخذ سنة .

فهذه امور جائزة او مندوب اليها ، ولكنهم كرهوا فعلها خوفا من البدعة ؛ لان اتخاذها سنة انما هو بأن يواظب الناس عليها مظهرين لها ؛ وهذا شأن السنة ، واذا جرت مجرى السنن صارت من البدع بلا شك .

فان قيل : كيف صارت هذه الاشياء من البدع الاضافية ؟ والظاهر منها انها بدع حقيقية ، لأن تلك الاشياء اذا عمل بها على اعتقاد أنها سنة فهي حقيقية ، اذ لم يضعها صاحب السنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا لم توجه [2] فصارت مثل ما اذا صلى الظهر على انها غير واجبة واعتقدها عبادة فانها بدعة من غير اشكال ؛ هذا اذا نظرنا اليها بمآلها ، واذا نظرنا اليها أولا فهي مشروعة من غير نسبة الى بدعة اصلا .

فالجواب ان السؤال صحيح ، الا ان لوضعها اولا نظرين (احدهما) من حيث هي مشروعة فلا كلام فيها . و (الثاني) من حيث صارت كالسبب الموضوع لاعتقاد البدعة ، أو للعمل بها على غير السنة ، فهي من

---

(١) لعلها حوق بالواو . يقال حوق عليه الكلام اذا خلطه وأفسده عليه بحيث لا يفهم ، او لا يقرأ اذا كان مكتوبا . وهو من الحواقة اي الكناسة التي يختلط بها ما يكنس بعضه ببعض . يقال حاق الدار بالمحوقة : كنسها . ومما حفظته من صبيان المكتب اذ كنا نتعلم الخط « حوق » عليه أي السطر (مثلا) أي رمجه او جعل حوله خطا ليعلم انه غير مقصود . وهو استعمال عربي . وأما حرق عليه بالراء فلا يظهر له معنى هنا الا اذا كانوا استعملوا التحريق بمعنى برد المعدن بالمبرد في حك الحروف المكتوبة بمبراة القلم ولم أره (٢) لعله « على هذا الوجه »

هذا[1] غير مشروعة ، لأن وضع الاسباب للشارع لا للمكلف ، والشارع لم يضع الصلاة فى مسجد قباء أو بيت المقدس – مثلا – سببا لان تتخذ سنة ، فوضع المكلف لها كذلك رأي غير مستند الى الشرع ، فكان ابتداعا .

وهذا معنى كونها بدعة اضافية . أما اذا استقر السبب وظهر عنه مسببه الذي هو اعتقاد العمل سنة والعمل على وفقه ، فذلك بدعة حقيقية لا اضافية ، ولهذا الاصل أمثلة كثيرة وقعت الاشارة اليها فى اثناء الكلام ، فلا معنى للتكرار .

واذا ثبت فى الامور المشروعة أنها قد تعد بدعا بالاضافة ، فما ظنك بالبدع الحقيقية ؟ فانها قد تجتمع فيها ان تكون حقيقية واضافية معا ، لكن من جهتين ، فاذاً بدعة « اصبح ولله الحمد » فى نداء الصبح ظاهرة . ثم لما عمل بها في المساجد والجماعات ، مواظبا عليها لا تترك كما لا تترك الواجبات وما اشبهها ، كان تشريعا اولا يلزمه ان يعتقد فيها الوجوب اوالسنة ، وهذا ابتداع ثان اضافي ، ثم اذا اعتقد فيها ثانيا السنية اوالفرضية صارت بدعة من ثلاثة اوجه . ومثله يلزم في كل بدعة اظهرت والتزمت ، واما اذا خفيت واختص بها صاحبها فالامر عليه اخف ، فيالله ويا للمسلمين ! ماذا يجني المبتدع على نفسه مما لا يكون في حسابه ؟ وقانا الله شرور انفسنا بفضله .

---

(١) لعل الاصل « من هذا القبيل » أو « من هذا الوجه » وكتب في الاصل « فهي من هذه البدعة غير شرعية » ووضع فوق كلمة « البدعة » علامة الترميج

فصل

من تمام ما قبله

وذلك انه وقعت نازلة : أمام مسجد ترك ما عليه الناس بالاندلس من الدعاء للناس بآثار الصلوات بالهيئة الاجتماعية على الدوام - وهو ايضا معهود في اكثر البلاد ، فان الامام اذا سلم من الصلاة يدعو للناس ويؤمن الحاضرون - وزعم التارك ان تركه بناء منه على انه لم يكن من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فعل الأئمة بعده ، حسبما نقله العلماء في دواوينهم عن السلف والفقهاء . أما أنه لم يكن من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهر ، لان حاله عليه السلام في ادبار الصلوات مكتوبات او نوافل — كانت بين امرين : إما ان يذكر الله تعالى ذكرا هو في العرف غير دعاء ، فليس للجماعة منه حظ ، الا ان يقولوا مثل قوله او نحوا من قوله كما في غير ادبار الصلوات ، كما جاء انه كان يقول في دبر كل صلاة « لا إله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما اعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وقوله « اللهم انت السلام ومنك السلام ، تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام » وقوله « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » الآية ، ونحو ذلك . فانما كان يقوله في خاصة نفسه كسائر الاذكار ، فمن قال مثل قوله فحسن ؛ ولا يمكن في هذا كله هيئة اجتماع .

وان كان دعاء فعامة ما جاء من دعائه عليه السلام بعد الصلاة مما سمع منه انما كان يخص به نفسه دون الحاضرين ، كما في الترمذي عن

علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا قام الى الصلاة المكتوبة رفع يديه - الحديث الى قوله : ويقول عند انصرافه من الصلاة « اللهم اغفر لي ما قدمت وما اخرت وما اسررت وما اعلنت ، انت إلهي لا إله الا انت » حسن صحيح . وفي رواية ابي داود : كان رسول صلى الله عليه وسلم اذا سلم من الصلاة قال « اللهم اغفر لي ماقدمت وما اخرت وما اسررت وما اعلنت وما اسرفت وما انت اعلم به مني ، انت المقدم وانت المؤخر لا إله الا انت » .

وخرج ابو داود : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول دبر كل صلاة « اللهم ربنا ورب كل شيء انا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك ، اللهم ربنا ورب كل شيء انا شهيد ان العباد كلهم اخوة ، اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصا لك واهلي في كل ساعة في الدنيا والآخرة ، ياذا الجلال والاكرام اسمع واستجب ، الله اكبر الله اكبر ، الله نور السموات والارض ، الله اكبر الله اكبر ، حسبي الله ونعم الوكيل » .

ولأبي داود في رواية[1] « رب اعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وأمكن لي ولا تمكن علي ، واهدني ويسر هداي الي ، وانصرني على من بغى علي » — الى آخر الحديث .

وفي النسائي انه عليه السلام كان يقول في دبر الفجر اذا صلى « اللهم اني اسألك علما نافعا ، وعملا متقبلا ، ورزقا طيبا » . وعن بعض الانصار قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دبر الصلاة « اللهم اغفر لي وتب عليّ انك انت التواب الغفور » حتى يبلغ مائة مرة .

(١) حذف لفظ رواية من نسختنا

وفي رواية ان هذه الصلاة كانت صلاة الضحى.

فتأملوا سياق هذه الأدعية كلها مساق تخصيص نفسه بها دون الناس! فيكون مثل هذا حجة لفعل الناس اليوم؟ الا ان يقال: قد جاء الدعاء للناس في مواطن، كما في الخطبة التي استسقى فيها، ونحو ذلك. فيقال: نعم، فاين التزام ذلك جهراً للحاضرين في دبر كل صلاة؟

ثم نقول: ان العلماء يقولون فى مثل الدعاء والذكر الوارد على اثر الصلاة: انه مستحب لا سنة ولا واجب. وهو دليل على امرين (احدهما) ان هذه الادعية لم تكن منه عليه السلام على الدوام. (والثاني) انه لم يكن يجهر بها دائما ولا يظهرها للناس فى غير مواطن التعليم؛ اذ لو كانت على الدوام وعلى الاظهار لكانت سنة، ولم يسع العلماء ان يقولوا فيها بغير السنة؛ اذ خاصيته — حسبما ذكروه — الدوام والاظهار فى مجامع الناس. ولا يقال: لو كان دعاؤه عليه السلام سرا لم يؤخذ عنه. لانا نقول: من كانت عادته الاسرار فلا بد أن يظهر منه، او يظهر منه ولو مرة، اما[1] بحكم العادة بقصد التنبيه على التشريع.

فان قيل: ظواهر الاحاديث تدل على الدوام بقول الرواة «كان يفعل» فانه يدل على الدوام كقولهم «كان حاتم يكرم الضيفان». قلنا: ليس كذلك، بل يطلق على الدوام وعلى الكثير والتكرار على الجملة، كما جاء فى حديث عائشة رضي الله عنها انه عليه السلام كان اذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ وضوءه للصلاة. وروت أيضاً انه كان

(١) يظهر ان في العبارة تحريفا وحذفا. ولعل الاصل «فلا بد ان يظهر منه إما بحكم العادة واما بقصد التنبيه على التشريع»

عليه السلام ينام وهوجنب من غير أن يمس ماء ، بل قد يأتي في بعض الاحاديث « كان يفعل فيما لم يفعله الامرة واحدة » نص عليه اهل الحديث.

ولو كان يداوم (١) المداومة التامة للحق بالسنن كالوتر وغيره ؛ ولو سلم : فاين هيئة الاجتماع ؟

فقد حصل ان الدعاء بهيئة الاجتماع دائما لم يكن من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما لم يكن من قوله ولا إقراره .

وروى البخاري من حديث أم سلمة انه صلى الله عليه وسلم كان يمكث اذا سلم يسيرا . قال ابن شهاب : حتى ينصرف الناس فيما نرى . وفى مسلم عن عائشة رضي الله عنها : كان اذا سلم لم يقعد الامقدار مايقول « اللهم أنت السلام ومنك السلام . تباركت ياذا الجلال والاكرام » .

واما فعل الائمة بعده فقد نقل الفقهاء من حديث أنس في غير كتب الصحيح : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان اذا سلم يقوم . وصليت خلف ابي بكر رضي الله عنه فكان اذا سلم وثب كأنه على رضفة (يعني الحجر المحمى) ونقل ابن يونس الصقلي عن ابن وهب عن خارجة انه كان يعيب على الائمة قعودهم بعد السلام ، وقال : انما كانت الائمة ساعة تسلم تقوم . وقال ابن عمر : جلوسه بدعة . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لأن يجلس على الرضف خير له من ذلك . وقال مالك في المدونة : اذا سلم فليقم ولا يقعد الا ان يكون فى سفر اوفي فنائه.

(١) اي على ما ذكر من الادعية والاذكار . ويوشك ان يكون قدسقط من الناسخ ما يدل على ذلك . والمداومة والاجتماع لاتكون الا لشعائر الدين وانما تثبت الشعائر بعمل الرسول

وعدّ الفقهاء اسراع القيام ساعة يسلم من فضائل الصلاة، ووجهوا ذلك بأن جلوسه هنالك يدخل عليه فيه كبر وترفع على الجماعة، وانفراده بموضع عنهم يرى به الداخل انه امامهم ؛ واما انفراده به حال الصلاة فضروري . قال بعض شيوخنا الذين استفدنا منهم : واذا كان هذا في انفراده في الموضع، فكيف بما انضاف اليه من تقدمه امامهم في التوسل به بالدعاء والرغبة وتأمينهم على دعائه جهراً ؟ - قال - ولو كان هذا حسنا لفعله النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم، ولم ينقل أحد من العلماء مع تواطئهم على نقل جميع أموره، حتى : هل كان ينصرف من الصلاة عن اليمين أو عن الشمال ؟ .

وقد نقل ابن بطال عن علماء السلف انكار ذلك والتشديد فيه على من فعله بما فيه كفاية .

هذا ما نقله الشيخ بعد أن جعل الدعاء بأثر الصلاة بهيئة الاجتماع دائماً بدعة قبيحة ، واستدل على عدم ذلك فى الزمان الاول ، بسرعة القيام والانصراف لأنه مناف للدعاء لهم وتأمينهم على دعائه ؛ بخلاف الذكر ودعاء الانسان لنفسه ، فان الانصراف وذهاب الانسان لحاجته غير مناف لهما . فبلغت الكائنة بعض شيوخ العصر فردى على ذلك الامام رداً أمرع فيه على خلاف ما عليه الراسخون، وبلغ من الرد-على زعمه- الى أقصى غاية ما قدر عليه، واستدل بامور اذا تأملها الفطن عرف ما فيها ، كالامر بالدعاء إثر الصلاة قرآنا وسنة ، وهو - كما تقدم - لا دليل فيه ، ثم ضم الى ذلك جواز الدعاء بهيئة الاجتماع في الجملة الا في ادبار الصلوات ، ولا دليل فيه أيضاً - كما تقدم -لاختلاف المتأصّلين .

وأما في التفصيل فزعم انه مازال معمولا به في جميع اقطار الارض أو في جلها من الأئمة في مساجد الجماعات من غير نكير الا نكير ابي عبد الله ؛ ثم اخذ في ذمه . وهذا النقل تهور بلا شك ؛ لانه نقل إجماع يجب على الناظر فيه والمحتج به قبل التزام عهدته ان يبحث عنه بحث اصل عن الاجماع ، لأنه لابد من النقل عن جميع المجتهدين من هذه الأمة من اول زمان الصحابة رضي الله عنهم الى الآن . هذا أمر مقطوع به . ولا خلاف انه لا اعتبار باجماع العوام وان ادعوا الامامة .

وقوله «من غير نكير» تجوز ، بل مازال الانكار عليهم من الأئمة ؛ فقد نقل الطرطوشي عن مالك في ذلك اشياء تخدم المسئلة ، فحصل انكار مالك لها في زمانه ، وانكار الامام الطرطوشي في زمانه ، واتبع هذا اصحابه وهذا اصحابه ؛

ثم القرافي قد عدّ ذلك من البدع المكروهة على مذهب مالك ، وسلمه ولم ينكره عليه أهل زمانه — فيما نعلمه — مع زعمه ان من البدع ما هو حسن ؛

ثم الشيوخ الذين كانوا بالاندلس حين دخلتها هذه البدعة — حسبما يذكر بحول الله — قد انكروها ، وكان من معتقدهم في ذلك أنه مذهب مالك . وكان الزاهد ابو عبد الله بن مجاهد وتلميذه ابو عمران الميرتلي رحمهما الله ملتزمين لتركها ، حتى اتفق للشيخ ابي عبد الله في ذلك ماسنذكره إن شاء الله .

قال بعض شيوخنا راداً على بعض من نصر هذا العمل : فانا قد

شاهدنا العمل الأئمة [1] الفقهاء الصلحاء المتبعين للسنة المتحفظين بامور دينهم يفعلون ذلك ائمة ومأمومين ، ولم نر من ترك ذلك الاّ من شذ في احواله .ـ فقال ـ وأما احتجاج منكر ذلك بان هذا لم يزل الناس يفعلونه فلم يأت بشيء ؛ لأن الناس الذين يقتدى بهم ثبت انهم لم يكونوا يفعلونه. قال — ولما كانت البدع والمخالفات وتواطأ الناس عليها صار الجاهل يقول : لو كان هذا منكرا لما فعله الناس . ثم حكى اثر الموطإ « ما اعرف شيئاً مما ادركت عليه الناس الا النداء بالصلاة » — قل — فاذا كان هذا في عهد التابعين يقول : كثرت الاحداثات فكيف بزماننا ؟ ثم هذا الاجماع لو ثبت لزم منه محظور ، لأنه مخالف لما نقل عن الأولين من تركه ؛ فصار نسخ اجماع باجماع ، وهذا محال في الاصول .

وأيضاً فلا تكون مخالفة المتأخرين لاجماع المتقدمين على سنة حجة على تلك السنة ابداً ، فما اشبه هذه المسئلة بما حكي عن ابي علي بشاذان [2] بسند يرفعه الى ابي عبد الله ابن اسحاق الجعفري ، قال : كان عبدالله بن الحسن — يعني ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم — يكثر الجلوس الى ربيعة ، فتذاكروا يوما ، فقال رجل كان في المجلس : ليس العمل هذا [3] فقال عبد الله : أرأيت ان كثر الجهال حتى يكونوا هم الحكام ، أفهم الحجة على السنة ؟ فقال ربيعة : اشهد ان هذا كلام ابناء الانبياء . انتهى .

---

(١) لعله « من الأئمة » (٢) شاذان لقب رجلين من رواة الحديث احدهما الاسود بن عامر أبو عبد الرحمن الشامي نزيل بغداد مات سنة ٢٠٨ وثانيهما عبد العزيز بن عثمان بن جبلة مات سنة ٢٢١ وظاهر ان في عبارة نسختنا تحريفا

(٣) لعل الاصل « ليس العمل على هذا » أي الذي تقولونه

الا اني اقول : ارأيت ان كثر المقلدون ثم أحدثوا بآرائهم فحكموا بها ، افهم الحجة على السنة ولا كرامة ؟

ثم عضد ما ادعاه باشياء من جملتها « قوله » : ومن امثال الناس « أخطئ مع الناس ولا تصب وحدك » أي ان خطأهم هو الصواب ، وصوابك هو الخطأ . — قال — ومعنى ما جاء في حديث « عليك بالجماعة فانما يأكل القاصية »[1] فجعل تارك الدعاء على الكيفية المذكورة مخالفا للاجماع ـ كما ترى ـ وحض على اتباع الناس وترك المخالفة لقوله عليه السلام « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وكل ذلك مبني على الاجماع الذي ذكروا[2] ان الجماعة هم جماعة الناس كيف كانوا . وسيأتي معنى الجماعة المذكورة في حديث الفرق ، وانها المتبعة للسنة وان كانت رجلا واحدا في العالم .

قال بعض الحنابلة : لا تعبأ بما يعرض من المسائل ويدّعى فيها الصحة بمجرد التهويل ، أو بدعوى ان لا خلاف في ذلك . وقائل ذلك لا يعلم احدا قال فيها بالصحة فضلا عن نفي الخلاف فيها ، وليس الحكم فيها من الجليات التي لا يقدر المخالف[3] — قال — وفي مثل هذه المسائل قال الامام أحمد بن حنبل : من ادعى الاجماع فهو كاذب وانما هذه دعوى كثير وابن علية يريدون ان يبطلوا السنن بذلك . يعني أحمد ان المتكلمين في الفقه على أهل البدع اذا ناظرتهم بالسنن والآثار قالوا : هذا خلاف الاجماع . وذلك القول الذي يخالف ذلك الحديث لا يحفظونه الا عن

(١) لفظ الحديث « ... فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » (٣) كذا في نسختنا ، والظاهر ان الناسخ قد اسقط كلاما من هذا الموضع واقل ما يفهم به الكلام ان يقال « وان الجماعة » الخ (٣) كذا في نسختنا ، ولعله : لا يعذر المخالف بجهله

بعض فقهاء المدينة أو فقهاء الكوفة - مثلا - فيدعون الاجماع من قلة معرفتهم باقاويل العلماء، واجترائهم على رد السنن بالآراء، حتى كان بعضهم تسرد عليه الاحاديث الصحيحة في خيار المجلس ونحوه من الاحكام فلايجد لها معتصما الا ان يقول: هذا لم يقل به احد من العلماء؛ وهو لايعرف الأ ابا حنيفة أو مالكا، لم يقولوا بذلك، ولو كان له علم لرأى من الصحابة والتابعين وتابعيهم ممن قال بذلك خلقاً كثيراً.

ففي هذا الكلام ارشاد لمعنى ما نحن فيه، وانه لاينبغي ان ينقل حكم شرعي عن أحد من أهل العلم الاّ بعد تحققه والتثبت، لانه مخبر عن حكم الله، فاياكم والتساهل فانه مظنة الخروج عن الطريق الواضح الى البنيّات.

ثم عدّ من المفاسد في مخالفة الجمهور انه يرميهم بالتجهيل والتضليل؛ وهذا دعوى من خالفه فيما قال، وعلى تسليمها، فليست بمفسدة على فرض اتباع السنة، وقد جاء عن السلف الحض على العمل بالحق، وعدم الاستيحاش من قلة أهله.

وأيضاً فمن شنع على المبتدع بلفظ الابتداع فاطلق العبادة بالنسبة الى المجتمعين يوم عرفة بعد العصر للدعاء في غير عرفة - الى نظائرها - فتشنيعه حق كما يقوله بالنسبة الى بشر المريسي ومعبد الجهني وفلان وفلان؛ ولا يدخل بذلك - ان شاء الله - في حديث «من قال: هلك الناس. فهو أهلكهم» لان المراد ان يقول ذلك ترفعا على الناس واستحقارا، واما ان قاله تحزناوتحسرا فلا بأس. قال بعضهم: ونحن نرجو ان نعرج على ذلك - ان شاء الله - فالاستدلال به ليس على وجهه.

وعدّ من المفاسد الخوف من فساد نيته بما يدخل عليه من العجب

والشهرة المنهي عنها ، فكأنه يقول : اترك اتباع السنة في زمان الغربة خوف الشهرة ودخول العجب . وهذا شديد من القول وهو معارض بمثله ؛ فان انتصابه لا يكون داعيا للناس باثر صلواتهم دائما مظنة لفساد نيته بما يدخل عليه من العجب والشهرة ، وهو تعليل القرافي ، وهو اولى فى طريق الاتباع ،فصار تركه للدعاء لهم مقرونا بالاقتداء ، بخلاف الداعي فانه في غير طريق من تقدم ؛ فهو اقرب الى فساد النية .

وعد منها ما يظن به من القول برأي اهل البدع القائلين بان الدعاء غير نافع ، وهذا كالذي قبله لانه يقول للناس :اتركوا اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الدعاء بهيئة الاجتماع بعد الصلوات لئلا يظن بك [1] الابتداع . وهذا كما ترى .

قال ابن العربي : ولقد كان شيخنا ابو بكر الفهري يرفع يديه عند الركوع وعند رفع الرأس منه ، وهو مذهب مالك والشافعي ، وتفعله الشيعة - قال - فحضر عندي يوما فى محرس ابي الشعراء بالثغر موضع تدريسي عند صلاة الظهر، ودخل المسجد من المحرس المذكور، فتقدم الى الصف الاول وانا في مؤخره على طاقات البحر ، أتنسم الريح من شدة الحر ، ومعي في صف واحد ابو ثمنة رئيس البحر وقائده فى نفر من اصحابه ينتظر الصلاة ، ويتطلع على مراكب المنار ، فلما رفع الشيخ الفهري يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه ، قال ابو ثمنة واصحابه : الا ترى الى هذا المشرقي كيف دخل مسجدنا ؟ قوموا اليه فاقتلوه وارموا به فى البحر فلا

(١) المناسب لقوله « اتركوا » ان يقول هنا « بكم » ويعبر عن هذا المعنى بعبارة اخرى فيقال : ابتدعوا بالفعل لئلا يظن باطلا انكم ابتدعتم . او اتركوا السنة بالفعل، لئلا تتهموا بتركها بسوء الظن

يراكم احد . فطار قلبي من بين جوانحي ، وقلت : سبحان الله ! - هذا الطرطوشي فقيه الوقت. فقالوا لي : ولم يرفع يديه؟ فقلت كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل، وهو مذهب مالك في رواية اهل المدينة عنه، وجعلت أسكتهم واسكنهم حتى فرغ من صلاته، وقمت معه الى المسكن من المحرس؛ ورأى تغير وجهي فانكره، وسألني فأعلمته فضحك، وقال : من اين لي ان اقتل على سنة ؛ فقلت له : ويحل لك هذا ؟ فانك بين قوم ان قمت بها قاموا عليك، وربما ذهب دمك . فقال: دع هذا الكلام وخذ في غيره .

فتأملوا في هذه القصة ففيها الشفاء ، اذ لا مفسدة في الدنيا توازي مفسدة اماتة النفس ، وقد حصلت النسبة الى البدعة، ولكن الطرطوشي رحمه الله يرى ذلك شيئا [1] فكلامه للاتباع [2] اولى من كلام هذا الراد ، اذ بينهما في العلم ما بينهما .

وأيضا فلو اعتبر ما قال لزم اعتباره بمثله في كل من انكر الدعاء بهيئة الاجتماع يوم عرفة في غير عرفة ، ومنهم نافع مولى ابن عمر ومالك والليث وعطاء وغيرهم من السلف ، ولما كان ذلك غير لازم فمسألتنا كذلك

ثم ختم هذا الاستدلال الاجماعي بقوله وقد اجتمع أئمة الاسلام في مساجد الجماعات في هذه الاعصار في جميع الاقطار على الدعاء ادبار الصلاة ، فيشبه ان يدخل ذلك مدخل حجة اجماعية عصرية

فان اراد الدعاء على هيئة الاجتماع دائما لا يترك كما يفعل بالسنن - وهي مسألتنا المفروضة - فقد تقدم ما فيه . (انتهى الفصل والبحث طويل)

---

(١) كذا في نسختنا ، والسياق يقتضي النفي أي كان لا يرى ذلك شيئا - والاظهر ان تكون العبارة : لم ير ذلك شيئا . (٢) لعله بالاتباع

﴿ حظر الشحاذة والسؤال والذل لغير الله ﴾

فصل من فصول كتاب (مدارج السالكين . بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) للامام المحقق ابن القيم . ذكره في بحث منزلة الرضاء بالله ومن الله ، فحرر المسألة به تحريرا كعادته ، قال أجزل الله ثوابه :

(فصل) والمسئلة في الاصل حرام ، وانما أبيحت للحاجة والضرورة ؛ لانها ظلم في حق الربوبية وظلم في حق المسئول ، وظلم في حق السائل

(أما الاول) فلانه بذل سؤاله وفقره وذله واستعطاءه لغير الله ، وذلك نوع عبودية ، فوضع المسألة في غير موضعها وانزلها بغير اهلها ، وظلم توحيده واخلاصه وفقره الى الله وتوكله عليه ورضاءه بقسمه ، واستغنى بسؤال الناس عن مسئلة رب الناس ، وذلك كله يهضم من التوحيد ويطفئ نوره ويضعف قوته

(واما ظلمه) المسئول فلأنه سأله ما ليس له عنده ، فاوجب له بسؤاله عليه حقا لم يكن له عليه ، وعرضه لمشقة البذل أو لوم المنع ، فان اعطاه اعطاه على كراهة ، وان منعه منعه على استحياء واغماض . هذا اذا سأله ما ليس عليه ، واما اذا سأله حقا هو له عنده ، لم يدخل في ذلك ، ولم يظلمه بسؤاله .

(واما ظلمه لنفسه) فانه اراق ماء وجهه ، وذل لغير خالقه ، وأنزل نفسه ادنى المنزلتين ، ورضي لها بأبخس الحالتين ، ورضي باسقاط شرف نفسه وعزة تعففه وراحة قناعته ، وباع صبره ورضاءه وتوكله وقنعه بما قسم له واستغناءه عن الناس بسؤالهم ، وهذا عين ظلمه لنفسه ، اذ وضعها في غير موضعها ، وأخمل شرفها ، ووضع قدرها ، واذهب عزها ، وصغرها وحقرها ، ورضي ان تكون نفسه تحت نفس المسئول ؛ ويده تحت يده ، ولولا الضرورة لم يبح ذلك في الشرع . وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مايزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في

وجهه مزعة لحم » وفي صحيح مسلم عن (١) أبي هريرة رضي الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل الناس أموالهم تكثرا ، فإنما يسأل جمرا ، فليستقل أو ليستكثر » وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « والذي نفسي بيده لأن يأخذ احدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من ان يأتي رجلا فيسأله ، أعطاه أو منعه » وفي صحيح مسلم عنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ، و يستغني به عن الناس ، خير له من ان يسأل رجلا ، أعطاه أو منعه ذلك فإن (٢) اليد العليا خير (٣) من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ـ زاد الامام أحمد ـ ولأن يأخذ ترابا فيجعله في فيه خير له من ان يجعل في فيه ماحرم الله عليه » وفي صحيح البخاري عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لأن يأخذ احدكم حبله فيأتي بحزمة من الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها (٤) وجهه، خير له من ان يسأل الناس اعطوه أو منعوه » وفي الصحيحين عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه ان ناسا من الانصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، ثم سألوه فاعطاهم . حتى نفدما عنده ، فقال لهم حين انفق كل شيء بيده « مايكون عندي من خير فلن ادخره عنكم ، ومن يستعفف (٥) يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطي احد عطاء خيرا وأوسع من الصبر » وعن عبد الله بن عمر (٦) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر ، وذكر الصدقة والتعفف عن المسئلة (٧) « اليد العليا خير من اليد السفلى ، فاليد العليا هي المنفقة واليد السفلى هي السائلة » رواه البخاري ومسلم .

---

(١) في الحجازية « عنه أيضا » وهو الحديث الآتي « لان يغدو أحدكم » الخ فحذف منها حديثان (٢) في نسختنا والبغدادية « بان » وفي الحجازية « فان » (٣) في البغدادية « افضل » (٤) حذف من الحجازية اسم الجلالة (٥) في غير الحجازية « يستعف » (٦) وفي غيرها « ابن عامر » وهو غلط (٧) وفي غيرها « والمسألة »

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ثم قال « ياحكيم ! ان هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف(١) نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليدالعليا خيرمن اليدالسفلى » قال حكيم فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا ارزأ احدا بعدك شيئا حتى افارق الدنيا . وكان ابو بكر رضي الله عنه يدعو حكيما الى العطاء فيأبى ان يقبله منه ، ثم ان عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى ان يقبل منه شيئا ، فقال عمر : اني اشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أني اعرض عليه حقه من هذا الفيء ، فيأبي ان يأخذه . فلم يرزأ حكيم احدا من الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي . متفق على صحته .

وعن الشعبي قال حدثني كاتب المغيرة بن شعبة ، قال كتب معاوية الى المغيرة ابن شعبة ان اكتب الي شيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب اليه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله كره لكم ثلاثا . قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » رواه البخاري ومسلم . وعن معاوية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تلحفوا في المسئلة ، فو الله لا يسألني احدمنكم شيئا فتخرج له مسألته مني شيئا وانا له كاره فيبارك له فيما اعطيته » — وفي لفظ — انما انا خازن ، فمن اعطيته عن طيب نفس يبارك له فيه ، ومن اعطيته عن مسئلة وشره كان كالذي يأكل ولا يشبع » رواه مسلم .

وعن ابي مسلم الخولاني قال . حدثني الحبيب الامين ـ اما هو فحبيب الي واما هو عندي فأمين ـ عوف ابن مالك الاشجعي رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تسعة او ثمانية او سبعة فقال « ألا تبايعون رسول الله ؟ » صلى الله عليه وسلم ـ وكنا حديث عهد ببيعة ـ فقلنا قد بايعناك يارسول الله . قال « الا تبايعون رسول الله ؟ ـ فقلنا قد بايعناك يارسول الله ثم قال . ـ الا

(١) في البغدادية « باسراف » والرواية بالمعجمة . ومعنى الاشراف التطلع الى الشيء بحرص

تبايعون رسول الله ؟ - قال فبسطنا ايدينا وقلنا قد بايعناك يا رسول الله فعلى م نبايعك ؟ - قال . أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، والصلوات (١) الخمس وتطيعوا الله - واسر كلمة خفية - ولا تسألوا الناس شيئا » فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط احدهم فما يسأل احدا يناوله اياه . رواه مسلم .

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان المسئلة كد يكد بها الرجل وجهه الا أن يسأل الرجل سلطانا اوفي امر لابد منه » رواه الترمذي وقال . حديث حسن صحيح .

وفي مسند الامام احمد عن زيد بن عقبة الفزاري ، قال دخلت على الحجاج ابن يوسف الثقفي فقلت : أصلح الله الامير ، ألا أحدثك حديثا سمعته من سمرة ابن جندب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال بلى ، قال سمعته يقول « المسائل كد يكد بها الرجل وجهه ، فمن شاء ابقى على وجهه ومن شاء ترك ، إلا أن يسأل رجل ذا سلطان ، او يسأل في امر لا بد منه »

وعن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يتقبل لي بواحدة اتقبل (٢) له بالجنة - قلت انا . قال - لا تسأل الناس شيئا » فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب فلايقول لاحد ناولنيه ، حتى ينزل هو فيتناوله . رواه الامام احمد واهل السنن . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من اصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن انزلها بالله اوشك الله له بالغنى ، اما بموت عاجل اوغنى عاجل » رواه ابوداود والترمذي ، وقال حديث حسن صحيح (٣)

وعن سهل بن الحنظلية قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عيينة بن حصن والاقرع بن حابس فسألاه فامر لهما بما سألا ، وأمر معاوية فكتب لهم بما سألا ، فأما الاقرع فأخذ كتابه فلفه في عمامته وانطلق ، واما عيينة فاخذ كتابه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتابه ، فقال : يا محمد أراني حاملا الى قومي كتا.

(١) في البغدادية « وتقيموا الصلوات » (٢) كان نص نسختنا « واتقبل »
(٣) حذف من البغدادية - لفظ حسن -

لا أدري ما فيه كصحيفة المتلمس ، فأخبر معاوية بقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سأل وعنده (١) مايغنيه فإنما يستكثر من النار - وفي لفظ آخر - من جمر جهنم» قالوا : يا رسول الله ! وما يغنيه ؟ - وفي لفظ - وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة ؟ قال - قدر مايغديه و يعشيه - وفي لفظ - ان يكون له شبع يوم وليلة » رواه ابو داود والامام احمد .

وعن ابي الفراس (٢) قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أسأل يارسول الله؟ قال « لا ، وأن كنت سائلا لا بد فسل (٣) الصالحين » رواه النسائي .

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي ، قال : تحملت حمالة فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم أسأله فقال « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها - قال ثم قال - ياقبيصة إن المسئلة لا تحل الا لاحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسئلة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسئلة حتى يصيب قواما من عيش ، - او قال - سدادا من عيش ، ورجل اصابته فاقة ، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه : لقد اصابت فلانا فاقة فحلت له المسئلة حتى يصيب قواما من عيش - او قال - سدادا من عيش ، فما سواهن من المسئلة يا قبيصة سحتا يأكلها صاحبها سحتا » رواه مسلم .

وعن عائذ بن عمرو ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله فاعطاه ، فلما وضع رجله على اسكفة الباب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو يعلمون ما في المسئلة ما مشى احد إلى احد يسأله شيئا » رواه النسائي .

وعن مالك بن نضلة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الايدي ثلاثة - فيد الله العليا ، ويد المعطي التي تليها ، ويد السائل السفلى ، فأعط الفضل ولا

(١) في البغدادية « وله » بدل « وعنده » (٢) في البغدادية « وعند ابن الفراس ان الفراس » والصواب « وعن ابن الفراسي أن الفراسي » . وفي الاصابة ان البخاري سماه فراسا . وأطلق عليه غيره لفظ الفراسي . فقيل هو اسم وقيل نسب والاسم مجهول ، وعزى الحديث الى ابن ماجه وابن حبان ، أقول : وهو في أبي داود أيضا (٣) وفيها « فاسأل »

تعجز عن نفسك » رواه الامام احمد وأبو داود .

وعن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من سأل مسئلة وهو عنها غني كانت شينا في وجهه يوم القيامة » رواه الامام احمد . وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ثلاث والذي نفس محمد بيده ان كنت لحالفا عليهن: لا ينقص مال من صدقة ، فتصدقوا ، ولا يعفو عبد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله ألا رفعه الله بها ، ولا يفتح عبد باب مسئلة إلا فتح الله عليه باب فقر » رواه الامام احمد .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : سرحتني أمي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله . فأتيته فقعدت ـ قال ـ فاستقبلني فقال « من استغنى اغناه الله ، ومن استعف اعفه الله ، ومن استكفى كفاه الله ، ومن سأل وله قيمة اوقية فاقد ألحف » فقلت ناقتي هي خير من أوقيه ، ولم أسأله . رواه الامام احمد وابو داود (١) . وعن خالد بن عدي الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جاءه من اخيه معروف من غير اشراف ولا مسئلة فليقبله ولا يرده . فانما هو رزق ساقه الله اليه » رواه الامام احمد .

(١) هذا الحديث لم يخرجه أبو داود وانما أخرج حديثه المتفق عليه في سؤال الانصار وتقدم في ص ١٣٠ وأما هذا الحديث فعزاه الحافظ في الفتح الى النسائي. ولعل هذا من سهو النساخ لا المصنف ، اذ رأيت في هذه الاحاديث اغلاطا كثيرة صححتها على الاصول

تشريف امير البلاد

مدرسة دار الدعوة والارشاد

ان عناية مولانا عزيز مصر العباس (أيده الله تعالى) برفع منار العلم والعرفان، مما سارت به الركبان، وعرف فضله فيه الثقلان، وقد أدرك حفظه الله بنور بصيرته الثاقب، أن التعليم الذي شيد لمعاهده أركانها، وأقام من مدارسه بنيانها، لا تصلح به حال الامة الا اذا قرن بالتربية العملية، وتهذيب الاخلاق في المدارس الداخلية، ولما وقف على مشروع مدرسة دار الدعوة والارشاد، ورأى قواعد نظامها قائمة على هذا الاساس، أظهر ميله الشريف اليها، واستحسانه لطريقتها، وقد أراد في هذه الايام أن يظهر للامة ميله اليها، وعنايته السامية بها، تشجيعاً للقائمين بأمر المدرسة على عملهم، وارشاداً لمحبي الخير الى شد أزرهم، فأظهر لناظر المدرسة عزمه الشريف على زيارتها فى ضحوة يوم الاثنين (٢ جمادى الآخرة) وأنه يحب أن يراها كما هي من غير زينة ولا كلفة، ولم يأذن لي بدعوة أحد الى استقباله فيها، الا من حضر من أعضاء جماعتها.

وكان ذلك اليوم قد ضرب موعداً لاجتماع مجلس النظار في الساعة العاشرة صباحاً، وموعد خروج الامير من قصر القبة رأس الساعة التاسعة. فكان اجتهاد رجال التشريفات انه يشرف قصر عابدين أولا ثم يؤم المدرسة منه، وان مدة مكثه في المدرسة تكون من عشر دقائق الى ١٥ دقيقة

ولما تشرفت يوم السبت الماضي بتهنئته بعيد مولده السعيد فى

المقابلة العامة تفضل باجلاسي بجانبه وقال لي عند الانصراف انه سيخرج من قصر القبة على رأس الساعة التاسعة ويقصد المدرسة توًّا ، فاستبشرت حينئذ بأن مدة تشريفه ستكون طويلة

وفي ضحوة ذلك اليوم الميمون جاء المدرسة صاحب العزة محمد بك فهمي التشريفاتي الأول فتعهد المدرسة والطريق الموصل اليها ، وكان قد تعهد الطريق غيره من رجال المعية السنية وكذا مهندس السيارات ، ثم جاءت فصيلة من العسكر المصري ووقفت عند طريق المدرسة الخاص لاداء السلام العسكري لسموه

ولما كان تمام الساعة التاسعة جاء نبأ المسرة بلسان المسرّة (التلفون) من قصر القبة بأن الركاب العالي قد تحرك ، وكان قد جاء المدرسة لاستقبال سموه صاحب الفضيلة السيد عبد الحميد البكري رئيس جماعة الدعوة والارشاد ، وكل من الاستاذ الشيخ محمد المهدي المدرس بمدرسة القضاء الشرعي والاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار المدرس بمدرسة البوليس وأصحاب العزة محمود بك سالم ومحمود بك صادق ومحمد بك لبيب البتانوني وعبد الله بك فائق والطبيب محمد توفيق افندي صدقي من أعضاء جماعة الدعوة والارشاد ، وشقيقي السيد صالح رضا ، نخف الجميع مع محمد بك فهمي الى باب حديقة المدرسة ، ووقفنا خارجه ، وبعد ربع ساعة من نبإ المسرة وصل سموه الى المدرسة في سيارة كهربائية تسابق البرق ، فصافح المستقبلين كما هو دأبه الشريف ، وكان مع سموه رئيس حجاب معيته السنية ، وجاء أيضا صاحب السعادة علي باشا ذو الفقار محافظ العاصمة وحده ليكون فى خدمته مدة زيارته للمدرسة

ثم دخل سموه المدرسة فكان أول شيء رآه وتعاهده فيها مسجدها في الطبقة الاولى منها . ثم صعد الى الطبقة الثانية فشرف حجرة الناظر أولا ، ثم حجرة المعلمين . فقدمتُ له المعلمين واحداً بعد واحد ، فكان يسأل كل واحد عن العلم الذي يدرسه وعن عدد دروسه . ثم دخل حجرة السنة التمهيدية ، فبينت لسموه أجناس الطلبة بالاشارة اليهم فكان يسأل : أين كانوا قبل الانتساب الى المدرسة ، وعن درجة فهم الاعاجم منهم للعربية ونطقهم بها . فاستأذنته بسماع إلقاء طالب هندي لبعض محفوظه من الشعر العربي فأذن . فقام الطالب عبد الله خدايار وأنشد بلسان فصيح أبيات أبي تمام التي أولها

يا صاحبيّ تقصيا نظريكما تريا وجوه الروض كيف تصوّر

تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر

فأعجبه إنشاده وإلقاؤه وفصاحة لسانه . ثم عرضتُ على مسامع سموه ان بعض الطلبة قد نظموا على ضيق الوقت شيئاً من الشعر ترحيبا بتشريفه: فهل يأذن بانشاد شيء منها ؟ فأذن فأنشدوا ما سيذكر بعد ، وهو واقف يسمع ، وقد جبر قلوب المنشدين باشارة الرضا والاستحسان . ثم مرّ سموه من وسطهم متفرسا فيهم ، ودخل حجرة السنة الاولى ، فاستأذن الطالب الاول فيها وهو محمد أبو زيد وأنشد هذين البيتين :

شرفت دار المرشدين ياملي كما نورت أضواؤه لمن سلك

عباسنا فى رفع شأن شعبه لم يأل جهداً فهو خير من ملك

وكان بعض الطلبة من هذه الفرقة قد نظموا شيئاً من الشعر أيضا فلم

أر من الذوق استئذان سموه بانشاده .

ثم انه حفظه الله تعالى سألني عن جميع الدروس التي يتلقونها ، وأمر أن يسألهم معلم اللغة الانكليزية أمامه بعض الاسئلة ، وأن يطلعه على خطوطهم وترجمتهم ففعل ، ونطق حفظه الله تعالى بكلمات من الحكمة في منافع لغات العلم الاوربية وحاجة طلاب هذه المدرسة اليها في هذا العصر.

ثم عاد الى حجرة ناظر المدرسة فاستأذنته بالقاء بعض مايخالج القلب من واجب الشكر والدعاء ، فأذن فألقيت ما سيذكر بعد ، وهو حفظه الله واقف والجميع وقوف فى خدمته ، فتكرم بكلمة القبول المؤذنة بتواضعه المعهود ، وأظهر استحسانه لكل مارأى . ووعد بأن يزور المدرسة فى كل سنة . ودعا الله تعالى بأن يراها تزداد تقدما وارتقاء فى كل عام . فشكرت له هذا بما يليق بالمقام ، وأطلعته على دفاتر ذات جداول وضعناها فى هذا العام لتكون سجلات لتاريخ الطلبة فى تربيتهم وتعليمهم ، تحصى فيها درجات الامتحانات المختلفة ، وأنواع المخالفات والعقاب عليها ، وغير ذلك ، فأظهر استحسانه لها .

ثم انه نزل الى الطبقة الاولى فتفقد حجرات النوم والطعام ، والمتوضأ والحمام ، فأعجبه كل ذلك . وعلم برؤية ذلك اننا جددنا عمارة فى المدرسة لم تكن ، فسأل عن ذلك فذكرت لسموه ما جددناه فيها . وسأل عن اجارتها وأجرتها وكم بقي لنا من مدتها ، فأجبته عن ذلك ، وقد كرر عبارات استحسان المكان في بنائه وموقعه ، فذكر ذلك فى بدء الدخول وعند ارادة الخروج

وبعد أن أتم بحثه وتفتيشه بدقة يعجز عن مثلها أمهر المفتشين خرج

مشيعا بالقلوب والاجسام . حتى اذا ما بلغ باب حديقة المدرسة ودع المشيعين وودعوه بتقبيل يده الكريمة. وأراد أن يمشي فى الشمس الى الشارع العام، فلما رآنا نريد المشي فى خدمته ركب سيارته . وأمر سعادة محافظ العاصمة بالركوب معه . وانصرف والالسنة تلهج بحمده والدعاء له . وكانت الساعة بلغت ١٠ و ٥ دقائق .

وعلى أثر ذلك تألف وفد من رئيس الجماعة والشيخ محمد المهدي والشيخ عبدالوهاب النجار وكاتب هذه السطور (ناظر المدرسة) لاداء واجب الشكر الى سموه ، فجئنا قصر عابدين ، فأبلغنا رجال التشريفات أن موعد انعقاد مجلس النظار قد حان ، فلا وقت لمقابلة سموه الآن . فاكتفينا بكتابة أسمائنا فى الدفتر كما هي العادة المتبعة

ثم ان كاتب هذه السطور أمّ قصر عابدين مرة أخرى فى أصيل ذلك اليوم فتكرم الجناب العالي بمقابلته مقابلة خاصه ، فأديت مايجب من الشكر بلساني ولسان اخواني، وتفضل أيده الله تعالى بابداء سروره من زيارة المدرسه ورضاه عنها ، وببعض الاوامر الارشادية المتعلقة بها وبما تبرع به لها ، فخرجت حامداً شاكراً داعياً . أما ما تبرع به لها فهو خمسمائة جنيه مصري . ومايرجى من عنايته وبره فوق ذلك ، أدام الله توفيقه وتأييده ، آمين .

كلمة الدعاء والشكر

التي وجهها الى سمو أمير البلاد ، ناظر مدرسة دار الدعوة والارشاد [1]
وهو واقف بين يديه في حجرته من المدرسة

مولانا العزيز العظيم !

ليس في طاقتنا ولا في طاقة الامة أن تقوم بما يجب لك من الاجلال والتكريم ، بتشريفك هذا العهد الاسلامي من معاهد التربية والتعليم ، ولكن لسان كل منا يردد قول الابوصيري :

ماله حيلة سوى حيلة العا جز إما توسل أو دعاء

فنقول : أعز الله بك أيها العزيز الاسلام ، ورفع بهمتك منار العلم والعرفان ، واحيا بهديك السنة ، وجدد بعنايتك مجد الامة .

نحمد الله تعالت اسماؤه ثم نحمدك ، ونشكره جل ثناؤه ثم نشكرك ، ولو كبر عن الثناء محسن لكبرت يا مولاي عن الحمد ، ولو جل عن شكر الصنيعة منعم لجلت صنائعك عن الشكر .

فانت أنت الذي انفرت دون أمراء المسلمين ، بالجمع بين المدنية الصحيحة واقامة شعائر الدين . ففي أوروبة تزاحم بمنكبك مناكب أعاظم الملوك ، وفى حرم الله ورسوله يزاحمك بمنكبه البدوي والصعلوك .

وأنت أنت الذي أفضت المال والنظام على معاهد العلم الدينية ، ولم تنس من فيضك مدارس الفنون الدنيوية ، ولم ترض بما رفعت من شأن الازهر حتى أنشأت أزهراً ثانياً فى مدينة الاسكندرية ، كما نفخت

(١) نشرت هذا وما قبله في الجرائد اليومية المشهورة عقب تشريف الامير ثم نشرته هنا بالنص الذي نشر في الجرائد - فلهذا قلت وجهها ناظر المدرسة ولم أقل وجهتها

روح الثقة فى جسم الجامعة المصرية ، باعانتك المالية وعنايتك المعنوية .

وأنت أنت الذي رقيت بعلمك وعملك الزراعة ، وجددت فى قطرك السعيد أعمال الصناعة ، ووسعت بهديك دائرة التجارة .

تفعل كل هذا بحق ، بما آتاك الله من الهمة العلية ، وتجري فيه على عرق ، بالوراثة المحمدية العلوية .

فأنت أنت الذي لله مافعلا   وأنت أنت الذي لله ما صنعا
وأنت أنت الذي لله ما وصلا   وأنت أنت الذي لله ما قطعا

ولكن : هل رضيت نفسك الكبيرة بكل هذا ووقفت همتك العلية عنده ؟ كلا ! انك أيدك الله بروح منه قد توجهت الى ما وراءه من الاصلاح الاجتماعي والسياسي ، والاصلاح الديني الروحي

أما الاول : فقد أشهدت الشرق والغرب - وكفى بالخافقين شاهدي عدل - على انك تريد أن تشاركك أمتك في سلطتك الذاتية ، وتجعل حكومتك حكومة نيابية ؛ ولا تزال تمهد لذلك السبيل ، وتمتزج مع الامة من كل قبيل ؛ وهذه رحلتك الميمونة المباركة التي أزمعتها . آية بينة على احيائك سنة الراشدين فى احترام الامة ومعاشرتها ، ومحبتها والتحبب اليها [1]

وأما الثاني : فهو عنايتك بأمر هذه المدرسة ورغبتك في نجاحها ، على

(١) كنت بدأت في صبيحة يوم تشريف الامير بكتابة كلمة الدعاء والشكر لاجل ان ترسل الى الصحف بنصها ولكنني كتبت قليلا منها وشغلني استقبال من حضر وتعاهد نظام المدرسة عن اتمامها كتابة فأتممتها ارتجالا ، ولما نشرتها في الجرائد قال لي غير واحد ممن كان حاضرا ان ما قلته في هذه الرحلة كان اوسع مما كتب وابلغ عبارة وأحسن تأثيرا

علم منك بأنها تقوم فى الاسلام بخدمة لايغني غيرها غناءها ، من حيث انها رباط لتربية الاخلاق والاداب الاسلامية، على ما كان عليه السلف الصالح وقدماء الصوفية ؛ ومعهد لتعليم العلوم الدينية ، وما يحتاج اليه المرشدون والدعاة من العلوم الكونية والعقلية ؛ وان الغرض منها احياء دعوة الاسلام والدفاع عنه بحسب ماتقتضيه حال العصر ، وارشاد عامة المسلمين الى ما يصلح به أمر دينهم ودنياهم، ويجارون به غيرهم ويعيشون عيشة الوفاق مع من عداهم .

وان ارتباط جماعة الدعوة والارشاد بمشيخة الطرق الصوفية . مما يمهد السبيل للمرشدين الذين يتخرجون في هذه المدرسة لاصلاح شؤون العامة ، لان أكثر العامة تنتمي الى طرق الصوفية ، فاذا انبث المرشدون المستعدون بالتأثير بالوعظ والخطابة فى هؤلاء الناس ، وعهدت اليهم المشيخة الصوفية بارشادهم وتعليمهم . فالمرجو بحسب سنة الله تعالى في تأثير الدين فى النفوس أن يصلح حالهم في أقرب وقت ، وبذلك تقل الجرائم والجنايات ، والتعديات على الزرع والبهائم والناس ، بعد ان أعيا الحكومة أمرها ، وحارت في الوسائل التي تقللها . فعنايتك يا مولانا بهذه المدرسة ستكون عهد اصلاح جديد للامة والبلاد . ان شاء الله تعالى

هذا . ولولا أن أشق على مولاي باطالة الوقوف لاطلت القول بحمده وشكره ، وشرح ما أعتقد من الخير والنفع للامة بعنايته وبره . ولكنني أكتفي بما فى القلب ، وما في القلب كثير .

القصائد والمقاطيع التي انشدها الطلاب

على مسامع مولانا الامير

القصيدة الاولى لمحمد افندي الشريقي اللاذقي من الطلاب المستمعين في القسم الخارجي الذين يختلفون الى المدرسة في هذا العام ، وهو حسن الالقاء والانشاد ، وكنت اشرت اليه بعد انشاد ابيات من الغزل أن يختصر منه ، تفاديا من طول وقوف مولانا العزيز على قدميه ، فأشار أعزه الله وإشارته أمر مطاع ، وحكم لا يقرن الا بالتنفيذ والاتباع ، بأن يتم الطالب إنشاده فأتمه ، وهذا نص قصيدته :

بلابل الروض بالتغريد تطربنا ... وبالنواح حمام الروض يشجينا
وما أحيلى نسيمات الصبا سحرا ... رسائلَ الحب نهديها وتهدينا
والطل يحنو على الازهار يلثمها ... حسبته والها بالحب مفتونا
وقفت أرنو إلى الأزهار مبتسما ... لله يا زهر ما أحلى تدانينا
وقفت والقلب لا يدري محجته ... أيعشق الورد أم يهوى الرياحينا
حتى اذا ما بدت والغصن قامتها ... مليكة الروض عن بعد تحيّينا
شعرت ان الهوى قد دب في كبدي ... ياوجد رفقا بأكباد المحبينا
رنت اليّ بطرف زانه حورٌ ... فالوجه يجذبنا والطرف يرمينا
راقت ورقت فلما جئتها ولهاً ... قطفت من خدها ورداً ونسرينا

* * *

دع الخيال خيال الشعر ما خطرت ... بنتُ الحقيقة تجلى في مغانينا
ماذلك الروض عندي غير مدرسة ... وما أزاهرها الا المريدينا
وما مليكة ذاك الروض باسمةً ... الا مثال حياة العلم تحيينا
حياة مدرسة نقضي مراحلها ... والدرس زائدنا والجد حادينا
تنير أذهاننا تعلي مداركنا ... فلا يلذّ لنا الاّ تآخينا

كم قربت بيننا سقيا لعاملها ... وأشرق النور وانجابت ليالينا
حياة مدرسة قلبي بها وله ... سلوت في حبها الغزلان والعينا
حياة مدرسة تذكى قرائحنا ... نظل من بعدها غُرًّا ميامينا
نبغي الحقائق مهما عز مطلبها ... نقدس العقل والوجدان والدينا

*

أرى بأفق العلا نورا يجللنا ... لله نور أضاء اليوم نادينا
نور الأمير الذي قد عم نائله ... وغيث نعمائه أروى مغانينا
فاسجع حمام الحمى واطرب بلا ملل ... واهتف لعباسنا وآحمد خديوينا
إني أرى مصر في أيام دولته ... بغدادنا وأرى العباس هارونا
والنيل يجري فراتا في كنانته ... وما وردناه الا راح يروينا
مولاي اني عشقت العلم من صغر ... ولا أزال بحب العلم مفتونا
وأنت خير أمير شاد معهده ... وقام للعلم والتحصيل يدعونا
لذا سكنت فؤادي دون ما عجب ... وكنت أفضل من أحيا أمانينا
هذا فؤادي باخلاص أقدمه ... على وفائي الى مولاي عربونا

* * *

ثم أنشد الطالب الشيخ أحمد كمال الغزي الطالب الداخلي في القسم التمهيدي هذه القصيدة وجعل عنوانها ﴿ الترحيب ﴾

أهلا بمن طلعت شموس سعوده ... وفعاله تاج لكل زمان
أهلا بمن نال المعالي والذي ... سهر الدجى لمصالح الأوطان
أهلا بمن ملك النفوس وساسها ... بالحزم فانقادت مع الأبدان
أهلا بعباس الذي لولاه ما ... نشرت علينا راية العرفان
فلأنت للاسلام أقوى ساعد ... يسعى الى الاصلاح والعمران

وأقمت صرح العلم والأدب الذي   أخنت عليه نوائب الحدثان
وأريتنا كيف الصعود الى العلى   وعظمت حتى لا يرى لك ثان
لو تعرف الأبطال فعلك بالوغى   علموا بأنك فارس الميدان
أو يشهدونك في المكارم والندى   شهدوا بأنك نخبة الأزمان
ولقد نرى ملك البلاد كأنه   ملك بدا في صورة الانسان
مولاي ان المسلمين كما ترى   ما بين مظلوم وبين مهان
والدين أنت نصيره وحفاظه   فارفع دعائمه على الأديان
وانهض فدار الرشد تعلي شأنه   تهدي القلوب بساطع البرهان
فنارها للشرق أعظم مصلح   يحيي النفوس بمحكم القرآن
فأقم دعائمها وشيد ذكرها   فهي السبيل الى هدى الانسان
لازلت عز المسلمين وكهفهم   ما غرد القمري في الافنان

* * *

ثم أنشد الطالب الداخلي في ذلك القسم الشيخ عبد السميع البطل هذه الابيات

أهذا كوكب أم ضوء صبح   أم القمر المنير أم الأمير
وذا ملك كريم أم مليك   أم العباس يعلوه السرور
هو العباس مولي كل خير   وطل عطائه بحر غزير
مليك القطر انا قد بسطنا   اليك يدا الى الجدوى تشير
فنحن غراسكم نحيا اذا ما   سقاه ماء جودكم النمير
اترضى ان يكون لكل دين   دعاة في ممالكنا تسير
ولا يدعو الى الاسلام داع   ولا يبدي حقائقه بشير
اعباس هداة الناس أموا   علاك وملء قلبهم سرور
فأنت المرتجى لسداد أمر   وأنت لدينا نعم النصير

مصاب مصر والشام

برجال العلم وحملة الاقلام

اكبر مصائب البلاد موت العلماء والادباء والكتاب الذين يغذون العقول ويزكون النفوس بالتعليم والتصنيف ونشر العلوم والآداب . وقد رزئت الديار المصرية والسورية في هذه الأيام بوفاة اربعة كهول من اشهر رجالهما في علوم الدين والدنيا واللغة ، يعدون من عوامل التحول والانقلاب الاجتماعي في الامة العربية . وهم احمد فتحي باشا زغلول المصري والشيخ حسن المدور والشيخ محي الدين الخياط البيروتيان — والشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي

١ — احمد فتحى باشا زغلول

في آخر يوم من الشهر الماضي شيعت مصر جنازة نابغة العرب فيها صديقنا احمد فتحي باشا زغلول ، وشعر كل ذي بصيرة فيها بأنها فقدت رجلا لا خلف له في مواهبه ومزاياه

ولد الفقيد لليلتين او ثلاث خلت من شهر رمضان ١٢٧٩ (الموافق اول شهر الشتاء الثاني سنة ١٢٤١ هجرية شمسية ـ ٢٢ فبراير ١٨٦٣ م) والده من بيت كريم ينتمي الى بعض قبائل العرب التي استوطنت القطر المصري ، ووالدته من بيت كريم يسمى بيت بركات وهما من قرية من قرى مديرية الغربية اسمها (إبيان) وكان والده سماه (فتح الله صبري) ثم غير اسمه ناظر المعارف فسماه باسمه (احمد) لما ظهر له من نجابته ، ولقبه بفتحي للاشارة الى اسمه الأول . وتلقى التعليم الابتدائي والوسط في مدارس الحكومة بمصر والاسكندرية ، واختار له ناظر المعارف ان يتلقى التعليم العالي في فرنسة ، فكان في مدارس التعليم كلها آية الذكاء والاجتهاد . ولما عاد من اوربة دخل في خدمة الحكومة في النيابة والقضاء حتى صار رئيسا لمحكمة مصر الاهلية ثم وكيلا لنظارة الحقانية ، ونال مانال من رتب الحكومة واوسمتها العالية ، وكان العارفون يجزمون بأن ترقيه دون استحقاقه واستعداده . فهل هذا هو احمد فتحي باشا زغلول ؟

تعلم في مدارس مصر واوربة ألوف ، عاش اكثرهم ومات كما يعيش ويموت الملايين من الجهلة والمغمولين ، وتقلب كثيرون منهم في مناصب الحكومة واعمالها . وما كل واحد منهم يستحق ان يترجم في الصحف ويخلد اسمه في دواوين التاريخ ، اللهم الا تواريخ المنافقين الذين يعظمون كل صاحب منصب او ثروة وان لم يكن

له اثر يذكر، او منقبة تؤثر، الا جمع المال واقتناء العقار، والتعالي على الناس ولو بالظلم والافساد.

احمد فتحي زغلول ذلك الرجل الذي شهد له كل ذي علم وفهم في مصر بانه بذ الاقران، وكان المجلي من حلبة المدنية في كل ميدان، لم يجمع مالا، ولم يتأثل عقارا، ولم يترك درهما ولا دينارا، وانما كان هو ذلك الرجل بما آتاه الله من الذكاء واللوذعية، والعقل والروية، والهمة العلية، وما تربى عليه من ملكة الاستقلال، وما اكتسبه من العلوم وما احسنه من الاعمال.

خلق احمد فتحي زغلول كبير الاستعداد، آتاه الله فؤاداً ذكيا، وذهنا لوذعيا، والأذكياء في أمتنا العربية كثيرون، فان كان حظ هذا الرجل من الذكاء عظيما فكم من عظيم الذكاء اطفأت التربية السوءى والبيئة الفاسدة نور ذكائه، وهدمت ما بنته الفطرة من قوة استعداده؟ وكم من ذكي وجهت القدوة السوءى ذكاءه الى ما يضره او يضر أمته كلها، وقد اتفق لهذا الذكي اللوذعي ان نبت في بيئة خاصة، مثل فيها امام عينيه من اول العهد بالتمييز إمام الاصلاح في هذا الزمان، ومن حوله من المريدين والاخوان، الذين لم يكن لهم سمر ولا حوار، الا في شؤون التربية والاصلاح، فكان يرى منذ عهد التعليم الابتدائي الاستاذ الامام متجليا في فضائله وحكمته، والشيخ عبد الكريم سلمان متحليا بآدابه وفطنته، واخاه (سعدا) معتصما باستقلاله وحجته، مع أتراب لهم من مريدي السيد جمال الدين حكيم الاسلام، وخليفته الاستاذ الامام، وكل في فلك العلم والحكمة يسبحون، وحول قطب الاصلاح وتجديد حياة الامة يدورون، فلقح استعداد احمد فتحي بفكرة العمل والسعي لتجديد حياة الامة، وصحب الاستاذ الامام بعد عودته من أوربة ودخوله في اعمال الحكومة كاخيه الاكبر (سعد باشا) صحبة المريد الصادق، للمرشد الكامل، فاستفاد من تلك الافكار السامية، والمقاصد العالية، والفصاحة الخلابة، والبلاغة الجذابة، ما شاء الله ان يستفيد. وكان زيته صافيا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، فاتصل بذلك القبس المتألق فاشتعل نورا على نور.

أروي عن فقيدنا النابغة كلمتين في أستاذنا الامام رحمهما الله تعالى. الاولى سمعتها منه في أول مجلس لقيته فيه: زار الفقيد طرابلس الشام بصحبة الاستاذ ايام كنت اطلب العلم فيها، فكنت مدة مكثهما في طرابلس ملازما لهما من الصباح الى وقت النوم، لانني كنت اطلعت على ما صدر من جريدة (العروة الوثقى)

فعشقت السيد جمال الدين مدير سياستها، والشيخ محمد عبده رئيس تحريرها، وصرت مريدا لهما بالغيب. وقد جئت الدار التي نزلا فيها ليلة قدما فقيل لي انهما ذهبا الى حمام عز الدين، جئت الحمام فألفيت بعض العلماء والوجهاء قعودا في خارج الحمام ينتظرون مع الفقيد، والاستاذ في الداخل، فترجمني الشيخ خير الدين الميقاتي من علماء طرابلس للفقيد. وكان مما قاله: انه اكتب الكتاب عندنا وهو لا يرى لنفسه استاذا في الكتابة الا الاستاذ الشيخ محمد عبده على انه لم يره. فقال الفقيد كلنا ليس لنا استاذ في الكتابة غير الاستاذ. واحسب انه فسر ذلك بان التمايز في الكتابة انما هو بالافكار واساليب التصرف في الكلام، وأن كل من يقرأ ما كتبه الشيخ او يسمع كلامه يجد فيه القدوة المثلى والمادة الغزيرة في ذلك. ولم احفظ من كلامه بنصه وقتئذ الا تلك الكلمة

واما الكلمة الثانية فقد قالها منذ ثلاث سنين اذ كنا نتذاكر في داره ببعض المسائل الاجتماعية، فذكرنا كلمة من حكم الاستاذ في ذلك فسرتها الحوادث فقال: ان كثيرا من كلام الشيخ لم يظهر لنا معناه المراد الا بعد موته. وقد كان يقول الكلمة فنظن اننا فهمناها ثم يظهر لنا بعد عدة سنين اننا لم نكن فهمنا بعد غوره فيها، حتى كشفه طول البحث وسعة الاختبار. اه بالمعنى

تلك البيئة الاصلاحية هي التي جعلت من استعداد احمد فتحي زغلول خطيبا مفوها، كما جعلته كاتبا قديرا، فكان في مصر ثاني الاستاذ الامام في فصاحة لسانه، والتزام الفصيح في اكثر كلامه، اما الاستاذ فقد كتب الشيخ ابراهيم اليازجي في ترجمته - وناهيك بنقده ودقته - ان كلامه الذي كان يلقيه في مجالسه العادية كابلغ ما يكتبه المترسلون المتأنقون. أقول: وناهيك به قدوة صالحة، ومربيا للملكة.

تلك البيئة الطيبة والقدوة الصالحة هي التي لقحت ذلك الذهن الوقاد بلقاح الاستقلال، الذي به تظهر ثمرات العلوم عند القيام بالاعمال، فكان مضطلعا بالعمل بما تعلم، وكان علمه ملكة ثابتة، وصفة راسخة، وشجرة مثمرة، واكثر المتعلمين منا مقلدون، يودعون العلم بوداع المدرسة، وما عرفنا رجلا مثله كانت الحكومة تشعر بحاجتها الى علمه، وترجع اليه حتى في القوانين والاعمال التي لا تتعلق بعمله، فهو واضع اللائحة الاصلاحية للمحاكم الشرعية، وهو واضع قانون إصلاح الازهر، وناهيك بهما، وبما يتوقف عليه وضعهما، وقد اشتهر أنه كان في نظارة الحقانية الركن الركين، لوضع جميع الانظمة واللوائح والقوانين.

لم تشغل الفقيد خدمة الحكومة التي كان يتقنها من كل وجه، عن خدمة الامة بالعلم والعمل، فقد كان عضوا عاملا في الجمعية الخيرية الاسلامية، وألف

وترجم عدة كتب يبتغي بها الاصلاح والنهوض بالامة ، دون الكسب والثروة ، وكان اول ما اخرجه للغة العربية من نفائس مصنفات الافرنج (كتاب أصول الشرائع) لبنتام ، وهو كتاب جليل في فلسفة القوانين وعللها ومداركها ، يعجز عن ترجمته من لم يكن راسخا في علوم القوانين والفلسفة ، وسعة الاطلاع في علم اللغة ، ولو كان العلم في الامة حيا لاعيد طبع هذا الكتاب مرارا .

وكان آخر كتاب ألفه في القضاء (شرح القانون المدني المصري)شرحه شرح العالم المجتهد المستقل ، وتصرف في تنسيقه وترتيبه تصرف المصلح المنقح ، وغير في هذه الترجمة كثيرا من الاصطلاحات القضائية المترجمة عن اللغة الفرنسية ترجمة غير صحيحة ، فأعجبت الحكومة وجمهور رجال القضاء بهذا الشرح ، واعترفوا بشدة الحاجة اليه ، وكان هو الباعث على احتفالهم بالشارح ذلك الاحتفال الذي نوهنا به في وقته

وله في هذه المباحث القضائية كتاب حافل سماه (المحاماة) وقد بين في هذا الكتاب تاريخ المحاماة عند الامم القديمة بالاجمال وعند الامم الغربية بالتفصيل ومنه الكلام في نظامها عند هذه الامم ، والمؤتمر الذي عقد لها ، ثم افاض القول في المحاماة في مصر ، وبيان حال المحاكم المصرية وتاريخها وتأسيس الحكومة المصرية ودخولها في سلك النظام الاوربي ، وأطال الكلام على القضاء فيها ، وبعد استيفاء كل ما أراده من الكلام على المحاماة وأهلها من التاريخ والنظام والقوانين والآداب وما يناسب ذلك ختم الكتاب بملحقات في قوانين مصرية سابقة ولوائح وأوامر رسمية مصرية متممة للموضوع . فكانت صفحات الكتاب ٤٣٤ وصفحات الذيل ٢١٠ وله رسالة قضائية في التزوير مفيدة في بابها

وله ترجمة كتاب (الاسلام - خواطر وسوانح) للكونت هنري دي كاستري الفرنسي ، في رد مفتريات الصليبيين وأشباههم على الاسلام ، فقد كان هذا الكونت واسع الاطلاع في كتب المسلمين ، ونقل في هذا الكتاب من مطاعن الافرنج في الاسلام ما لم يخطر على بال مسلم في الدنيا ، وردها واثنى على الاسلام خير الثناء . وقد ترجم هذا الكتاب وطبعه في اواخر سنة ١٣١٥ وهي التي صدر فيها المنار ، وقرظناه في العدد الحادي عشر من السنة الاولى ، ونشرنا مقدمته للترجمة العربية التي نقل الفقيد فيها نبذة من المنار . وكان غرضه من ترجمة هذا الكتاب الدفاع عن الاسلام وبيان محاسنه وتنبيه المسلمين الى ذلك

وأما الكتب التي ترجمها لغرض التجدد العلمي والمدني في مصر وسائر الامة

العربية فهي كتاب (سر تقدم الانكليز السكسونيين) في الطريقة المثلى للتربية والتعليم، لعالم فرنسي اسمه (أدمون ديمولان) وكتاب (روح الاجتماع) وكتاب (تطور الامم) كلاهما للفيلسوف الفرنسي الكبير (غوستاف لوبون) فكان غرضه من هذه الكتب بث فكرة التربية الاستقلالية والتعليم العملي في الامة، واعتماد الافراد على انفسهم لاعلى حكوماتهم (١) وتنبيهها الى اسباب التحول والانقلاب في الامم والشعوب، وكونه لا يحصل الا بالتدريج البطيء، وتذكيرها بالآفات والعلل الكامنة في التطورات الاجتماعية الحديثة في الافرنج، كالاشتراكية والاحزاب والجمعيات السياسية والاقتصادية وغيرها. ولغوستاف لوبون مذهب خاص في هذه المباحث يخالفه في كثير من آرائه بعض علمائهم. والناظر المستقل لا يقلد أحدا من المختلفين، وانما يمحص المسائل ويتبع قوة الحجة والدليل

ويقال انه كان بدأ بترجمة كتاب مدنية العرب أو حضارة العرب لغوستاف لوبون أيضا، وكان الاستاذ الامام حضه على ترجمته. وآخر ما أخرجه قلمه للناس ترجمة رسالة سياسية في سوء حال الدولة العثمانية وشدة حاجتها الى تغيير وضعها ونظامها، وهي للامير مصطفى فاضل باشا زعيم الاحرار الاول في الآستانة خاطب بها السلطان عبد العزيز، ورسالة أخرى في قواعد وفذلكات اجتماعية لغوستاف لوبون جملها كالمذكرات والمنارين لما فصله في كتبه الاجتماعية. فترجمها الفقيد بالعربية وسماها (جوامع الكلم)

وقصارى القول في صفة الرجل الاجتماعية والسياسية انه حجة على كفاءة العربي وقدرته على العلم والعمل بالنظام الاوربي كأرقى الاوربيين، لانه ركن في العمل بذلك.

وأما صفاته الشخصية فقد كان حسن المعاشرة، حلو المفاكهة، نزيه النفس واللسان، يقدر على إرضاء كل جليس بغير دهان، لا يمل جليسه جده، ولا يعبث بوقاره هزله، وقلما تربى في اوربة شاب مثله في عفته وصيانته، والاعتصام من استخفاف حرية الفسق لشرة الصبا وخفته. وكان دقيق النظام في كل شيء متأنقا جد التأنق في زيه ومعيشته بلا تكلف، ولا اضاعة وقت في العبث. وأما رأيه في الاصلاح والتجدد فهو ان يبني ولا يهدم، لان الامة اذا وجدت البناء الجديد اصلح لها، تركت المباني العتيقة تسقط

(١) كتبت في منار اول المحرم سنة ١٣١٧ مقالة عنوانها (الاعتماد على النفس) فقال لي وقتئذ: انني استعملت هذه الكلمة في ترجمة كتاب (سر تقدم الانكليز) الذي يطبع الآن واراك سبقتني الى استعمالها، ثم كثر استعمال هذه الكلمة بانتشار ذلك الكتاب لا بمقالتي

من تلقاء نفسها ، فلم يكن يدعو الى ترك العادات الضارة ويشنع على أنصارها ، لذلك لم يطعن الناس في رأيه ومذهبه كما طعنوا في صديقه قاسم بك امين ، بل لم يكن الجمهور يعرفون ان له رأيا يرمي اليه في الانقلاب الاجتماعي . فان فهم بعض اذكياء الحزب الوطني ان ما شرحه كتاب روح الاجتماع من امر اندفاع الجماعات بغير عقل ولا شعور ينطبق على حزبهم ، فهل كان يسهل عليهم ان يطعنوا بوطنية مترجم الكتاب ويعدونه خصما لهم ؟

هذا وان الفقيد قد كان ميالا الى الاصلاح الديني ، معتقدا انه شطر أو شرط للاصلاح المدني والسياسي ، وقد كان أخبرني في أوائل العهد بانشاء المنار ان ابراهيم باشا فؤاد ناظر الحقانية مغتبط بالمنار ويرى وجوب تعميم نشره بين المسلمين . وأنه هو قد سر بذلك وتواعد مع الناظر باتخاذ وسيلة لذلك يوزع بها ألوف من النسخ على طلاب العلم وفقراء القراء بثمن قليل . ثم لم أراجعه ولا كلمت ابراهيم باشا في ذلك عندما كنت ألقاه وأسمع منه الثناء على المنار . ولا هما وفقا لشيء مما تحدثا به .

ولما توفي شيخنا الاستاذ الامام تذكر أصدقاؤه ومريدوه في عمل شيء يذكر به ، فاقترحت ان تنشأ باسمه مدرسة كلية يجمع بها بين التربية الدينية الصحيحة وتعليم العلوم الدينية والدنيوية على طريقته التي كان يسمى لها سعيها باصلاح الازهر ، فقبلوا الاقتراح بكل ارتياح ، وانتخبوا في دار سعد باشا زغلول لجنة لوضع نظام المدرسة مؤلفة من حسن باشا عاصم والفقيد وصاحب هذه المجلة ، فكان الفقيد مهتما بهذا ، وذاكر به لورد كرومر - كما تقتضي المصلحة - فاظهر اللورد له الاستحسان . ووعده بأن يحضر له نظام وبرنامج مدرسة عليكرة الاسلامية الهندية للاقتباس منه واستحسن ان يبدأ بالعمل صغيرا ليكبر بالتدريج . ويعلم الذين يقرؤن المنار منذ سنين ان الذي حال دون إنشاء هذه المدرسة هو ظهور مشروع مدرسة الجامعة المصرية ونوط أمرها بسعد باشا زغلول وقاسم بك أمين . وكان سعد باشا هو الركن الركين لمشروعنا فتركه للجامعة وما كان يمكن ان يشتغل به وبمشروع الجامعة معا

ولما عزمت على السفر الى الاستانة منذ أربع سنين لاجل مشروع الدعوة والارشاد اهتم بذلك الفقيد اهتماما عظيما ، وجاءني ليلة من ليالي رمضان الذي سافرت فيه واقترح ان نتكلم في المشروع منفردين ، فاقفلنا باب الدار ، وظللنا نتحدث في المشروع الى ما بعد نصف الليل ، فلما شرحت له وسائله ومقاصده سرّ به وبالغ في استحسانه ، ووعد بأن يساعد الجمعية التي تؤسس له هناك بقدر الطاقة وعهد اليّ

بأن أتعاهده بالكتابة من الآستانة ، فكانت الكتابة بيننا متصلة في ذلك ، ولم أر أحداً من أصدقائي بمصر اهتم بذلك بعض اهتمامه رحمه الله تعالى

كان سبب موته مرض ألمّ بدماغه، سببه كثر تفكره واشتغاله ، ولا غرو فقد كانت قوة ذلك الدماغ اعظم من مادته ، وعمله فوق استطاعته ، وذلك منتهى أكثر الرجال الذين همتهم اكبر من قوتهم ، تنسى عقولهم حقوق ابدانهم : فيجنون على امتهم بجناياتهم على انفسهم، اذ ينتزعهم القدر منها ، أقدر ما كانوا على خدمتها ، فمنهم من يختضر في سن الشباب ، ومنهم من يلاقي مصرعه عند الاكتهال ، وبلوغ قواه كلها مستوى الكمال ، كمن فقدنا اليوم ، ومن فقدنا بالامس ، رحمهم الله تعالى .

محاربة متعصبي القبط وغيرهم للمنار

في يوم السبت في ٢١ جمادى الاخرة دعانا بالمسرة (التلفون) رئيس النظار حسين رشدي باشا الى داره فوافيناه فيها فاذا هو في سرير النوم لانحراف صحته ، واذا بجانبه جريدة مصر القبطية : فأطلعنا عليها ، وسألنا عما تنسبه الى المنار من الطعن المعلم عليه بالحبر الأحمر فيها ، وملخصه أنه يجعل النصارى كلهم وثنيين وان طعنه يكاد يضرم نار الثورة في البلاد ؟؟ فلما قرأت مافيها قلت للرئيس : ياعطوفة الرئيس ! انت قاض قبل كل شيء ، وقد اشتهرت في حياتك القضائية بالاستقلال ، ومن مقتضى ذلك ان تقرأ الطعن الذي تشير اليه جريدة مصر ، قبل ان تحكم في المسألة بشيء . هذه العبارة التي تشير اليها جريدة مصر اوردها المنار كعنوان لموضوع كتاب في سياق تقريظه له . هذا الكتاب اسمه « نشوء فكرة الله » مؤلفه انكليزي ، ولخصه بالعربية سلامه افندي موسى القبطي ، وطبعه بمطبعة يوسف افندي الخازن الماروني السوري ، محرر جريدة الوطن القبطية ، وقرظته الجرائد والمجلات السورية والقبطية والاسلامية ، ولم يعب المترجم والناشر احد منها بانه عاب النصرانية وكاد يضرم نار الثورة في البلاد ! ولكن لما قرظته مجلة المنار الاسلامية وذكرت ان ملخصه اثبات كون الديانة النصرانية وثنية الاصل — وقيدتها بالحاضرة تبرئة للمسيحية الصحيحة التي كان عليها المسيح عليه السلام وحواريه رضي الله عنهم — صار ذلك اكبر الجرائم المحركة للثورات والفتن ، واستحق صاحب المنار النفي من مصر ، واستحقت الحكومة هذا الانذار من جريدة مصر — اذ فيها : ان من انذر فقد اعذر — بعد الاقتراح على الحكومة ان بان تعاقب صاحب المنار بمثل ما عاقبت به عبد العزيز شاويش عدو القبط من سجن ونفي .

ثم اعطيت للرئيس نسخة المنار فلما قرأ التقريظ فيها ضحك مستغربا كتابة

جريدة مصر . ثم ذكرت له ان المنار لما كان هو المجلة الاسلامية الوحيدة التي اخذت على نفسها الدفاع عن الاسلام في هذه البلاد الحرة التي ينشر المبشرون فيها الصحف والرسائل الكثيرة في الطعن في الاسلام والقرآن والنبي (ص) وجب علينا شرعا ان نرد عليها اعتداءها ولو بما هو دونه ، اذ لا يسمح لنا ديننا أن نطعن في سيدنا عيسى ولا في اصل دينه وكتابه . فأنا لا أرى مدافعة المبشرين الا اذا كانت الحكومة تريد منع حرية المسلمين في دينهم وتجعل الحرية للنصارى وحدهم . فقال الرئيس كلا ان الحكومة لا تسلبك حرية الدفاع عن الاسلام ولكن توصيك بالاعتدال والتزام خطة الدفاع . قلت انني أعني بالدفاع انهم البادئون واننا نجزيهم بما دون عملهم ، وانهم اذا تركوا الكلام في ديننا تركنا الكلام في دينهم ، وانني مستعد لتقديم جدول للحكومة بالشواهد من كتب المبشرين ورسائلهم على ما فيها من الطعن الفاحش في الاسلام الخ ...

كان ما أطلعني عليه الرئيس اول ما اطلعت عليه من المطاعن الكثيرة التي وجهتها الي والى المنار جريدة مصر ، وكنت اسمع بها ، ولا احاول الاطلاع على شيء منها . ثم جاءني احد الاصدقاء بعدد بن منها فاذا في احدهما ما نصه تحت عنوان (صاحب المنار)

« اتصل بنا ان ولاة الامر قد اهتموا بما كتبناه عن الشيخ صاحب المنار وطعنه الطعن الجارح في الدين المسيحي واهله فستدعاه عطوفة رئيس النظار الى منزله وحذره من الكتابة في مثل هذه المواضيع المهيجة وانذره بتعطيل مجلته ان عاد الى تلك الكتابات . فعسى ان يكون هذا الانذار مانعاً من الوقوع في المصائب التي يريد صاحب المنار جلبها على البلاد واهلها . » اهـ

دع كذب جريدة مصر على رئيس الحكومة في هذا العدد وانتظر ما كتبت في الآخر : كنت كتبت مقالة في الرد على جريدة (دوكير) التى تصدر بمصر باللغة الفرنسية اذ نشرت مقالة تنكر فيها على المنار ما كتبه في النصرانية يظهر انها لاحد السوريين ، بينت فيها طريقة المنار في الجمع بين الاسلام والمدنية الصحيحة والتأليف بين المسلمين وغيرهم ، والصحف الفرنسية التي شهدت له بذلك ، وكون رده على دعاة النصرانية لا ينافي ذلك . وارسلت المقالة الى المؤيد فلم ينشرها الا بعد زهاء شهر من ارسالها اليه . وقد هاج نشرها جريدة مصر فكتبت مقالة فى اليوم التالي لنشر المقالة في المؤيد (وهو ٢٧ جمادى الآخرة) استفرغت فيها مافي قلب صاحبها ومحررها من السباب والشتائم والحقد والضغينة على صاحب المنار ، فظهر من فحوى ذلك سر من الاسرار ، وهو سبب حملة جريدة مصر علينا في هذا الشهر ، مع ان المنار يرد على المبشرين من بضع عشرة سنة . وهاك ما فضح السر منها :

« ولكن هذا الرجل المسكين لم يعد يعطف أحد عليه . فالوطنيون يكرهونه

لانه يعاكس مبادئهم . والانكليز يبغضونه لانه عدو مدنيتهم . وعلماء المسلمين يكرهونه لانه غير واقف على اسرار الدين . وقد ادركت الحكومة سوء طويته وستوقفه عند حده عن قريب .

« اننا اذا اغتفرنا لهذا الرجل كل سيئاته وتغاضينا عن مدرسته التي لا ندري الغرض منها ، فانه لا يرضينا منه تداخله في ما لا يعنيه وشرحه للدين المسيحي شرحا يخالف ما يعتقد به اهله . وطعنه ذاك الطعن الاليم في المدنية الاوربية ، ووضعه القناصل والمبشرين والمومسات والقوادين في مستو واحد .

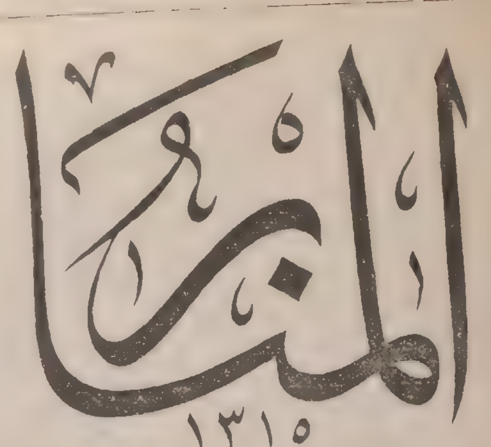
لذلك كله نرى من واجباتنا الوطنية ان نلاحق هذا الرجل ونعمل جهد استطاعتنا لمحاربته كما تحارب الحكومات الامراض المعدية ولو تسلح برضا بعض ولاة الأمر عنه وشد جريدة مثل المؤيد لأزره بقولها عنه : « ان صاحب المنار مهضوم الجانب وفي حاجة الى الدفاع عن نفسه ودينه » اه بحروفه

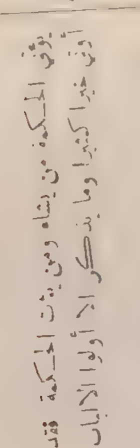
(المنار) ظهر لنا من هذا التصريح الذي لا يحتمل التأويل ان سبب انفجار بركان التعصب على صاحب المنار في جريدة مصر هو تشريف مولانا الامير عزيز مصر مدرسة دار الدعوة والارشاد ، وما تضمنته هذه الزيارة من اعلان ثقته بالمدرسة وعطفه السامي على ناظرها صاحب المنار ، ولذلك عرضت جريدة مصر بذكر المدرسة وقالت انها تغاضت عنها ، على كونها لا تدري الغرض منها ! ! كأنه يجب على كل مسلم يعمل للاسلام عملا ان يوقف جريدة مصر على غرضه من عمله ! ؟

تقول جريدة مصر في صاحب المنار ان المصريين والانكليز يبغضونه وإن الحكومة قد ادركت سوء طويته وستوقفه عند حده عن قريب : أثبتت جريدة مصر كل هذا ، فكان ينتظر من مديرها ومحرريها انصار الديانة المسيحية بزعمهم ان يجد صاحب المنار من قلوبهم عطفة او نفحة من الرحمة المسيحية المبني اساسها على محبة الاعداء ومباركة اللاعنين !! ولكنهم لم يزدادوا الا قسوة وحقدا عليه ، فبعد الجزم بجميع ما ذكر قالوا ان الواجب عليهم أن يعملوا جهد استطاعتهم لمحاربته ولو تسلح برضا بعض اولياء الامور عنه ؟ فاذا كان الانكليز ورجال الحكومة غاضبين عليه . فمن تعني ببعض أولياء الامور المتسلح برضاهم عنه ؟؟

ثم ماذا تريد جريدة مصر بالمحاربة الجديدة التي توعدتنا بها ، بعد ما كان من تهييجها المبشرين وغيرهم من رجال النصرانية علينا ، وبعد هذه السباب والشتائم وبعد انذار الحكومة بخطر الثورة اذا لم تنكل بصاحب المنار ؟ وهل بعد هذا من حرب تقدر عليه جريدة ؟ نعم بلغني ممن يعاشر بعض محرري جريدة مصر أنهم يعنون بهذه المحاربة الاستعانة بنفوذ المبشرين في انكلترة على اقناع حكومة لندرة نفسها بوجوب إلغاء المنار والتنكيل بصاحبه وإقفال مدرسة دار الدعوة والارشاد . — الى هذا الحد وصلت ثقة متعصبي القبط بكيدهم للمسلمين ، فاعتبروا يا أولي الابصار

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ رجب ١٣٣٢ ه‍ ق ٦ الصيف الاول ١٢٩٢ ه‍ ش ٢٣ يونيو ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٥٧) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ . ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

(٥٨) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ
(٥٩) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ

هذه الآيات من تتمة السياق السابق . فلما كان من يتولى الكافرين من دون المؤمنين يعد منهم ،كان أولئك الذين يسارعون فيهم من مرضى القلوب مرتدين بتوليهم إياهم . فان اخفوا ذلك فاظهارهم للايمان نفاق . ولما بين الله حالهم ، اراد ان يبين حقيقة يدعمها بخبر من الغيب يظهره الزمن المستقبل. وهي ان المنافقين ومرضى القلوب لا غناء فيهم ، ولا يعتد بهم في نصر الدين وإقامة الحق . وإنما يقيم الله الدين ويؤيده بالمؤمنين الصادقين. الذين يحبهم الله فيزيدهم رسوخا في الحق وقوة على إقامته ، ويحبونه فيؤثرون ما يحبه من إقامة الحق والعدل . وإتمام حكمته في الأرض ، على سائر محبوباتهم من مال ومتاع واهل وولد . هذه هي الحقيقة . واما خبر الغيب فهو انه سيرتد بعض الذين آمنوا عن الاسلام جهرا فلا يضره ذلك ، لأن الله تعالى يسخر له عن ينصره ويجاهد لحفظه . فقال :

﴿ يا ايها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ قرأ ابن عامر ونافع (يرتدد) بدالين والباقون يرتدّ بدال واحدة مشددة وهما لغتان . فلغة اظهار الدالين هي الاصل ، ولغة الإدغام تشديد يراد به التخفيف . والمعنى من يرتد منكم ياجماعة الذين دخلوا في أهل الايمان عن دينه بعدم رسوخه . فسوف يأتي الله مكانهم أو بدلا منهم بقوم راسخين في الايمان يحبهم ويحبونه الخ ماذكره من صفات المؤمنين الصادقين

اخرج رواة التفسير المأثور عن قتادة ــ واللفظ لابن جرير ــ انه قال : انزل الله هذه الآية وقد علم انه سيرتد مرتدون من الناس . فلما قبض الله نبيه محمدا (ص) ارتد عامة العرب عن الاسلام الا ثلاثة مساجد ــ اهل المدينة واهل مكة واهل البحرين من عبد القيس ــ قالوا (اي المرتدون) نصلي ولا نزكي . والله لا تغصب اموالنا . فكلم ابو بكر في ذلك فقيل له : انهم لو قد فقهوا لهذا اعطوها وزادوها . فقال : لا والله ، لا افرق بين شيء جمع الله بينه . ولو منعوا عقالا مما فرض الله ورسوله لقاتلناهم عليه . فبعث الله عصابة مع ابي بكر فقاتل على ما قاتل عليه نبي الله (ص) حتى سبى وقتل وحرق بالنيران اناسا ارتدوا عن الاسلام ومنعوا

الزكاة . فقاتلهم حتى اقروا بالماعون — وهي الزكاة — صَغَرَةً اقمياء [1] فأتته وفود العرب فخيرهم بين حطة مخزية . او حرب مجلية . فاختاروا الحطة المخزية . وكانت أهون عليهم ان يشهدوا أن قتلاهم في النار . وان قتلى المؤمنين في الجنة . وان ما اصابوا من المسلمين من مال ردوه عليهم . وما اصاب المسلمون لهم من مال فهو لهم حلال . فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه على هذا هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة . ونقل المفسرون هذا القول عن علي المرتضى والحسن وقتادة والضحاك . ورووا عن السدي انه قال انهم الانصار لأنهم هم الذين نصروا النبي (ص) وقيل هم الفرس لحديث ورد في مناقب سلمان انهم قومه . ولكنه ضعيف . وقيل نزلت في علي كرم الله وجهه . لأن النبي (ص) وعد في خيبر بأن يعطي الراية غدا رجلا يحبه الله ، ثم أعطاها عليا . وليس هذا بدليل . ولفظ القوم لا يجري على الواحد لأنه نص في الجماعة . وغلاة الرافضة يزعمون ان الذين ارتدوا عن دينهم هم أبو بكر ومن شايعه من الصحابة وهم السواد الاعظم . ولكن عليا كان مع ابي بكر ولا عليه ولم يقاتله . هذه دسيسة من زنادقة الفرس وساستهم الذين كانوا يريدون الانتقام من أبي بكر وعمر لفتحهما بلادهم . وازالتهما لملكهم . وخيار مسلمي الفرس نصروا الاسلام فيدخلون في عموم الآية اذا جعلت لعموم من تتحقق فيهم تلك الصفات

وروى اهل التفسير المأثور حديثا مرفوعا الى النبي (ص) انه قال في القوم الذي يحبهم الله ويحبونه انهم قوم أبي موسى الاشعري . وروي عن بعضهم انهم من اهل اليمن على الاطلاق ، والاشعريون من اهل اليمن . وفي رواية هم اهل سبأ . وفي حديث مرفوع « هؤلاء قوم من اهل اليمن من كندة ثم من السكون ثم من التجيب »

وقد رجح ابن جرير ان الآية نزلت في قوم ابي موسى الاشعري من اهل اليمن للحديث في ذلك ، وان لم يكونوا قاتلوا المرتدين مع ابي بكر . قال ان الله تعالى وعد بان يأتي بخير من المرتدين بدلا منهم ولم يقل انهم يقاتلون المرتدين . ورأى انه يكفي في صدق الوعد ان يقاتلوا ولو غير المرتدين ، وان مجيء الاشعريين على

(١) الصغرة بالتحريك جمع صاغر — من الصغار بالفتح — وهو المهين الخاضع لغيره واقمياء جمع قميء وهو الذليل الضعيف .

عهد عمر كان موقعه من الاسلام احسن موقع . ولقائل ان يقول ان الآية تصدق في كل من اتصف بمضمونها ، ومن أشار اليهم النبي ومن قتلوا المرتدين هم أهلها بالأولى .

أما الذين ارتدوا في زمن النبي (ص) وبعده فكثيرون وقاتلهم كثيرون فكان كل مفسر يذكر قوما ممن حاربوا المرتدين ويحمل الآية عليهم . فقد روى اهل السير والتاريخ انه قد ارتد عن الاسلام احدى عشرة فرقة ثلاث في عهد الرسول (ص)

(الاولى) بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو الاسود العنسي . كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده فأخرج منها عمال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتب عليه الصلاة والسلام الى معاذ بن جبل والى سادات اليمن ، فأهلكه الله تعالى على يدي فيروز الديلمي بيته فقتله واخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتله ليلة قتل . فسرّ به المسلمون . وقبض عليه الصلاة والسلام من الغد . واتى خبره في شهر ربيع الاول .

(الثانية) بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ابن حبيب . تنبأ وكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، سلام عليك . اما بعد فاني قد أشركت في الامر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ولكن قريشا قوم يعتدون . فقدم على النبي عليه الصلاة والسلام رسولان له بذلك فحين قرأ صلى الله تعالى عليه وسلم كتابه قال لهما « فما تقولان أنتما ؟ » قالا نقول كما قال . فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « أما والله لولا ان الرسل لا تقتل لضربت اعناقكما » ثم كتب اليه « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب . السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » وكان ذلك في سنة عشر ، فحاربه ابو بكر رضي الله تعالى عنه بجنود المسلمين ، وقتل على يدي وحشي قاتل حمزة (رض) وكان يقول : قتلت في جاهليتي خير الناس وفي اسلامي شر الناس . وقيل اشترك في قتله هو وعبد الله بن زيد الانصاري طعنه وحشي ، وضربه عبد الله بسيفه ، وهو القائل في ابيات

يسائلني الناس عن قتله فقلت ضربت وهذا طعن

(الثالثة) بنو اسد قوم طليحة بن خويلد ، تنبأ فبعث أبو بكر (رض) اليه

خالد ابن الوليد . فانهزم بعد القتال الى الشام فأسلم وحسن اسلامه

وارتدت سبع فرق في عهد أبي بكر (١) فزارة قوم عيينة بن حصين (٢) غطفان قوم قرّة بن سلمة القشيري (٣) بنو سليم قوم الفجاءة بن عبد ياليل (٤) بنو يربوع قوم مالك بن نويرة (٥) بعض بني تميم قوم سجاح بنت المنذر الكاهنة. تنبأت وزوجت نفسها من مسيلمة في قصة شهيرة وصح انها اسلمت بعد ذلك وحسن اسلامها (٦) كندة قوم الاشعث بن قيس (٧) بنو بكر بن وائل بالبحرين قوم الحطم بن زيد . وكفى الله تعالى أمرهم على يدى أبي بكر رضي الله تعالى عنه

وارتدت فرقة واحدة في عهد عمر رضي الله تعالى عنه وهم غسان قوم جبلة بن الايهم ، تنصر ولحق بالشام ومات على ردته وقيل انه اسلم . ويروى ان عمر (رض) كتب الى احبار الشام لما لحق بهم كتابا فيه ان جبلة ورد الي في سراة قومه فأسلم فأكرمته ، ثم سار الى مكة فطاف فوطئ ازاره رجل من بني فزارة فلطمه جبلة فهشم أنفه وكسر ثناياه ، وفي رواية قلع عينه ، فاستعدى الفزاري على جبلة الي فحكمت اما بالعفو واما بالقصاص ، فقال أتقتص مني وأنا ملك وهو سُوقة ؟ فقلت شملك واياه الاسلام فما تفضله الا بالعافية . فسأل جبلة التأخير الى الغد فلما كان من الليل ركب مع بني عمه ولحق بالشام مرتدا . وروي انه ندم على ما فعله وأنشد :

تنصرت بعد الحق عاراً للطمة	ولم يك فيها لو صبرت لها ضرر
فادركني منها لجاج حمية	فبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليت أمي لم تلدني وليتني	صبرت على القول الذي قاله عمر

فهؤلاء لم يقاتلهم أحد . وابو بكر هو الذي قاتل جماهير المرتدين بمن معه من المهاجرين والانصار . فهم الذين تصدق عليهم صفات الآية .

وصف الله هؤلاء الكملة من المؤمنين بست صفات (الاولى) انه تعالى يحبهم . فالحب من الصفات التي أسندت الى الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه (ص) فهو تعالى يحب ويبغض كما يليق بشأنه ، ولا يشبه حبه حب البشر ، لأنه لا يشبه البشر (ليس كمثله شيء) وكذلك علمه لا يشبه علم البشر ولا قدرته تشبه قدرتهم . ولا

تأول حبه بالإثابة وحسن الجزاء كما تأوله المعتزلة وكثير من الاشاعرة . فرارا من التشبيه الى التنزيه ، اذ لا تنافي بين إثبات الصفات وتنزيه الذات . ولا لاحتجر الى تأويل العلم والقدرة والارادة . وهم لا يتأولونها . ولا يخرجون معانيها عن ظواهر ألفاظها . فمحبته تعالى لمستحقيها من عباده ، شأن من شؤونه اللائقة به ، لا نبحث عن كنهها وكيفيتها . وحسن الجزاء من المغفرة والاثابة قد يكون من آثارها ، قال تعالى (٣ : ٣٠ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) فجعل اتباع الرسول (ص) سببا لمحبة الله تعالى للمتبعين والمغفرة . فكل من المحبة والمغفرة جزاء مستقل اذ العطف يقتضي المغايرة .

(الصفة الثانية) انهم يحبون الله تعالى . وحب المؤمنين الصادقين لله تعالى ثبت في آيات غير هذه من كتاب الله تعالى (٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله) وقال تعالى (٩ : ٢٥ قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره)

وفي حديث أنس المرفوع في الصحيحين « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الايمان — ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه الا لله — وان يكره ان يعود في الكفر بعد إذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار » وحديثه الآخر في الصحيحين أيضا : جاء اعرابي الى النبي « ص » فقال يارسول الله متى الساعة ؟ قال « ما اعددت لها » ؟ قال : ما اعددت لها كبير صلاة ولا صيام الا اني احب الله ورسوله . فقال له رسول الله [ص] « المرء مع من احب » قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الاسلام فرحهم بذلك .

وقد تأول هذا الحب بعض الناس أيضا فقالوا ان المراد به المواظبة على الطاعة اذ يستحيل ان يحب الانسان الا ما يجانسه . ويرد هذا قوله تعالى (احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله) وحديث الاعرابي المذكور آنفا ، فانه فرق بين الحب والعمل . وجعل عدته للساعة الحب دون كثرة العمل الصالح ، نعم ان الحب

يستلزم الطاعة، ويقتضيها بسنة الفطرة ، كما قيل

تعصي الإله وانت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ان المحب لمن يحب مطيع

وقد اطال ابو حامد الغزالي في كتاب المحبة من الاحياء في بيان محبة الله لعباده ومحبة عباده له ، والرد على المنكرين المحرومين ، فجاء بما يطمئن به القلب . وتسكن له النفس ، ويثلج به الصدر . وللمحقق ابن القيم كلام في ذلك هو أدق تحريرا ، واشد على الكتاب والسنة انطباقا ، وبسيرة سلف الامة موافقة . ولولا ان هذا الجزء من التفسير قد طال جدا لحررت هذا الموضوع هنا واتيت بخلاصة أقوال النفاة المعترضين ، وصفوة اقوال المثبتين، ولكننا نرجئ هذا الى تفسير آية أخرى كآية التوبة « ٩ :٢٥ » وقد بينا معنى حب الله من قبل في تفسير (٢:١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله) فحسبك الرجوع اليه الآن « راجع ص ٧٢ ج ٢ من التفسير »

(الصفتان الثالثة والرابعة) الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين ، والمروي في تفسيرها انها بمعنى قوله تعالى (اشداء على الكفار رحماء بينهم) وقال الزمخشري « أذلة » جمع ذليل واما « ذلول » فجمعه ذلل (ككتب) . ووجه قوله « اذلة على المؤمنين » دون « اذلة للمؤمنين » بوجهين أحدهما ان يضمن الذل معنى الحنو والعطف ، كأنه قال : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع . والثاني انهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم اجنحتهم .

(الصفة الخامسة) الجهاد في سبيل الله . وهو من اخص صفات المؤمنين الصادقين . واصل الجهاد احتمال الجهد والمشقة . وسبيل الله طريق الحق والخير الموصلة الى مرضاة الله تعالى . واعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال اعداء الحق ؛ وهو من آيات المؤمنين الصادقين . و المنافقون فقد قال الله تعالى فيهم (لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) وضعاف الإيمان قد يجاهدون ، ولكن في سبيل منفعتهم دون سبيل الله . فان رأوا ظفرا وغنيمة ثبتوا ، وان رأوا شدة وخسارة انهزموا . وهل المراد بهذا الجهاد هنا قتال

المرتدين أم هو على إطلاقه ؟ الظاهر الثاني ولكنه يتناول مقاتلي المرتدين في الصدر الاول أولا وبالأولى .

(الصفة السادسة) كونهم لا يخافون لومة لائم . وجملة هذا الوصف معطوفة على التي قبلها او مبينة لحال المجاهدين ، وفيها تعريض بالمنافقين الذين كانوا يخافون لوم أوليائهم من اليهود لهم اذا هم قاتلوا مع المؤمنين . والأبلغ ان تكون للوصف المطلق ، اي انهم لتمكنهم في الدين ، ورسوخهم في الايمان ، لا يخافون لومة ما من افراد اللوم او انواعه ، من لائم ما كائنا من كان ، لأنهم لا يعملون العمل رغبة في جزاء او ثناء من الناس ، ولا خوفا من مكروه يصيبهم منهم فيخافون لوم هذا او ذاك ، وانما يعملون العمل لاحقاق الحق وإبطال الباطل ، وتقرير المعروف وازالة المنكر ، ابتغاء مرضاة الله تعالى بتزكية انفسهم وترقيتها .

﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ اي ذلك الذي ذكر من الصفات الست فضل الله يعطيه من يشاء من عباده ، فيفضلون غيرهم به وبما يترتب عليه من الأعمال . وقد بينا مرارا ان مشيئته سبحانه لمثل هذا الفضل تجري بحسب سننه التي اقام بها أمر النظام في خلقه . فمنهم الكسب والعمل النفسي والبدني ، ومنه سبحانه آلات الكسب والقوى البدنية والعقلية ، والتوفيق والهداية الخاصة واللطف والمعونة . ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ فلا ينبغي للمؤمن ان يغفل عن فضله ومنته ، وما يقتضيه من شكره وعبادته .

ثم بين سبحانه من تجب موالاتهم ، بعد النهي عن تولي من تجب معاداتهم ، فقال ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾ ليس لكم ايها المؤمنون ناصر ينصركم الا الله تعالى ورسوله والذين آمنوا ، فهو نفي لنصر من يسارع مرضى القلوب في توليهم من دون الله ، واثبات لنصر الله وولايته ، ولنصر من يقيم دينه من الرسول والمؤمنين الصادقين . ولما كان لقب « الذين آمنوا » يشمل كل من أسلم في الظاهر

وصف هؤلاء الاولياء بقوله ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ أي دون المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، والذين يأتون بصورة

الصلاة دون روحها ومعناها ، فاذا قاموا اليهـا قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا . فالمؤمنون الذين يقومون بحق الولاية هم الذين يقيمون الصلاة إقامة كاملة ، بالآداب الظاهرة والمعاني الباطنة . والذين يعطون الزكاة مستحقيها وهم خاضعون لأمر الله تعالى طيبة نفوسهم بأمره ، لا خوفا ولا رياء ولا سمعة . او يعطونها وهم في ضعف ووهن لا يأمنون الفقر والحاجة . فاستعمل الركوع في المعنى النفسي لا الحسي وهو التطامن والخشوع لله . اوالضعف وانحطاط القوى . قال في حقيقة الاساس : وكانت العرب تسمى من آمن بالله ولم يعبد الاوثان راكعا . ويقولون « ركع الى الله » اي اطمأن اليه خالصة . قال النابغة :

سيبلغ عذرا او نجاحا من امرئ　　الى ربه رب البرية راكع

فهذا هو الشاهد على الوجه الأول . وقال في مجاز الركوع : وركع الرجل انحطت حاله وافتقر . قال :

لا تهين الفقير علك ان تر　　كع يوما والدهر قد رفعه

وفسره بعضهم بركوع الصلاة وهو الانحناء فيها ، ورووا من عدة طرق انها نزلت في أمير المؤمنين علي المرتضى كرم الله وجهه اذ مرّ به سائل وهو في المسجد فاعطاه خاتمه . ولكن التعبير عن المفرد بالذين آمنوا وعن اعطاء الخاتم بيؤتون الزكاة ، مما لا يقع في كلام الفصحاء من الناس ، فهل يقع في المعجز من كلام الله ، على عدم ملاءمته للسياق ؟

اما افراد « وليكم » مع اسناد الجمع اليه فهو لبيان ان الولي الناصر بالذات هو الله تعالى ، كما قال (الله ولي الذين آمنوا) وان ولاية الرسول والمؤمنين تبع لولايته . ولو قال : ان اولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا ــ لما افاد هذا المعنى ، لأن هذا التعبير لا يدل على تفاوت ما بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهل يستوي الخالق والمخلوق ، والرب المالك والعبد المملوك ؟

﴿ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون ﴾ اي اذا كان الله هو وليكم وناصركم ، وكان الرسول والذين آمنوا أولياء لكم بالتبع لولايته ،

فهم بذلك حزب الله تعالى . والله نصرهم . ومن يتول الله تعالى بالايمان به والتوكل عليه . ويتولى الرسول والمؤمنين بنصرهم وشد أزرهم . وبالاستنصار بهم دون اعدائهم، فانهم هم الغالبون فلا يغلب من يتولاهم ؛ لأنهم حزب الله تعالى . ففيه وضع المظهر موضع الضمير . ونكتته بيان علة كونهم هم الغالبين .

وقد استدلت الشيعة بالآية على ثبوت إمامة علي بالنص بناء على ما روي من نزول الآية فيه . وجعلوا الولي فيها بمعنى المتصرف في أمور الأمة ، وقد بينا ضعف كون المؤمنين في الآية يراد به شخص واحد ، وعلمنا من السياق ان الولاية هنا ولاية النصر ، لا ولاية التصرف والحكم، اذ لامناسبة له في هذا السياق . وقد رد عليهم الرازي وغيره بوجوه ، وهذه المجادلات ضارة غير نافعة . فهي التي فرقت الامة وأضعفتها فلا نخوض فيها . ولو كان في القرآن نص على الامامة لما اختلف الصحابة فيها ، أو لاحتج به بعضهم على بعض . ولم ينقل ذلك .

---

(٦٠) يَاءَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٦١) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ (٦٢) قُلْ يَاءَهْلَ الْكِتَٰبِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ، وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ (٦٣) قُلْ : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّٰغُوتَ . أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٤) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا : آمَنَّا ـ وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ

خَرَجُوا بِهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦٥) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٦) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ؛ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ

نهى الله تعالى عن اتخاذ اليهود والنصارى اولياء من دون المؤمنين معللا له بان بعضهم اولياء بعض لايوالي المؤمنين منهم احد . ولا يواليهم ممن يدعون الايمان الا مرضى القلوب والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمؤمنين . ثم أعاد النهي عن اتخاذهم اولياء واصفا إياهم بوصف آخر مما كانوا يؤذون به المؤمنين ويقاومون دينهم . وعطف عليهم الكفار والمراد بهم مشركو العرب - فقال:

﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء ﴾ قرأ ابو عمرو والكسائي « الكفار » بالجر عطفا على « الذين اوتوا الكتاب » والباقون بالنصب عطفا على « الذين اتخذوا » والفرق بينهما ان قراءة الجر تفيد أن الكفار اي المشركين الذين اتخذوا دين المسلمين هزؤا ولعبا لا تباح ولايتهم . وقراءة النصب تفيد ان جميع المشركين لا يتخذون اولياء بحال من الاحوال . وأما اهل الكتاب فانما ينهى عن موالاتهم لوصف فيهم ينافي الموالاة . كاتخاذهم دين الاسلام هزوًا ولعبا . فلا تنافي بين القراءتين . ولكن قراءة النصب فيها زيادة معنى . وحكمة قراءة الجر انه كان يوجد من المشركين من يهزأ بدين الاسلام ويعبث به ، فقراءة الجر نص في النهي عن موالاة هؤلاء لوصفهم هذا . وقراءة النصب لإفادة النهي عن موالاة جميع المشركين . لأن موالاة المسلمين لهم بعد ان اظهرهم الله عليهم بفتح مكة ودخول الناس في دين الله افواجا تكون قوة لهم . واقرارا على شركهم . الذي جاء الاسلام لمحوه من جزيرة العرب . واما اهل الكتاب فسياسة

الاسلام فيهم غير سياسته في مشركي العرب . ولذلك أجاز في هذه السورة - وهي من آخر ما نزل من القرآن - أكل طعامهم ونكاح نسائهم . وشرع في سورة التوبة قبول الجزية منهم واقرارهم على دينهم . ونهى في سورة العنكبوت عن مجادلتهم الابالتي هي أحسن . وفي الآية تمييزهم على المشركين في اطلاق اللقب ، اذ خصهم في المقابلة بلقب اهل الكتاب ، ولقب المشركين بالكفر . كما يعبر عنهم في آيات أخرى بالمشركين والذين اشركوا . لانهم لوثنيتهم عريقون في الكفر والشرك وأصلاء فيه . واما اهل الكتاب فكان قد عرض الشرك والكفر للكثيرين منهم عروضا وليس من اصل دينهم . ثم لما بعث النبي (ص) ازداد المعاندون منهم كفرا بجحود نبوته وإيذائه .

﴿ واتقوا الله ان كنتم مؤمنين ﴾ اي واتقوا الله في امر الموالاة فلا تضعوها في غير موضعها ، فينقلب الغرض منها الى ضده ، فتكون وهنا لكم لانصرا . - وكذا في سائر الاوامر والنواهي - ان كنتم مؤمنين صادقين في ايمانكم تحفظون كرامته . وتتجنبون مهانته .

﴿ واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ﴾ اي واذا أذن مؤذنكم بالدعوة الى الصلاة جعلها أولئك الذين نهيتم عن ولايتهم من اهل الكتاب والمشركين من الأمور التي يهزؤن ويلعبون بها ، ويسخرون من أهلها ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ حقيقة الدين . وما يجب لله تعالى من الثناء والتعظيم . ولو كانوا يعقلون ذلك لخشعت قلوبهم كلما سمعوا مؤذنكم يكبر الله تعالى ويوحده بصوته الندي ، ويدعو الى الصلاة له والفلاح بمناجاته وذكره . والآية تدل على شرع الأذان فهو ثابت بالكتاب والسنة معا ، خلافا لما يوهمه حديث الأذان .

روينا وسمعنا من بعض النصارى المعتدلين في بلادنا كلمات الثناء والاستحسان لشعيرة الأذان من شعائر الاسلام ، وتفضيلها على الاجراس والنواقيس المستعملة عندهم ، وقد كان جماعة من بيوتات نصارى طرابلس مصطافين في بلدنا (القلمون) فكان النساء يجتمعن مع الرجال في النوافذ عند اذان المؤذن - ولا سيما اذان الصبح - ليسمعوا أذانه ، وكان المؤذن ندي الصوت حسنه . واتفق ان غاب المؤذن

يوم فاذن رجل قبيح الصوت . فلقي والدي رب بيت من تلك البيوتات فقال له : ان مؤذنكم اليوم يستحق المكافأة علي ؟ ! قال الوالد بماذا ؟ قال بأنه أرجع اهل بيتنا إلى دينهم بعدان صاروا مسلمين بأذان المؤذن الأول . وانا اتذكر ان بعض صبيانهم حفظ الأذان وصار يقلده تقليد استحسان فتغضب والدته منه . وتنهاه عن الأذان ، وأما والده فكان يضحك و يسر لأذان ولده . لأنه كان على حرية وسعة صدر . ولا يدين بالنصرانية . فالأذان ذكر مؤثر لاتخفى محاسنه على من يعقل الدين. ويؤمن بالله العلي الكبير . ولا على غيرهم من العقلاء . وقد روي في التفسير المأثور عن السدي انه قال في تفسير الآية : كان رجل من النصارى في المدينة اذا سمع المنادي ينادي « أشهد ان محمدا رسول الله » قال : أحرق الكاذب. [دعاء عليه بالحريق] فدخلت خادمته ذات ليلة من الليالي بنارٍ وهو نائم واهله نيام ، فسقطت شرارة فأحرقت البيت فاحترق هو واهله . ووجود النصارى في المدينة كان نادرا واكثر هذا الاستهزاء كان يكون من اليهود كما يعلم من رد الله تعالى عليهم في هذه الآيات التالية :

﴿ قل : يا أهل الكتاب ! هل تنقمون منا إلا ان آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل . وان اكثركم فاسقون؟ ﴾ الاستفهام للانكار والتبكيت. اي قل ايها الرسول مخاطبا ومحتجا على اهل الكتاب دون المشركين : هل تنقمون منا شيئا ، اي هل عندنا شيء تنكرونه وتعيبونه علينا وتكرهوننا لاجله لمضادتكم ايانا فيه ، الا ايماننا الصادق بالله وتوحيده وتنزيهه واثبات صفات الكمال له ، وإيماننا بما أنزله الينا وبما انزله من قبل على رسله ؟ اي ما عندنا سوى ذلك وهو لا يعاب ولا ينقم ، بل يمدح صاحبه ويكرم ؛ والا ان اكثركم فاسقون اي خارجون من حظيرة هذا الايمان الصحيح الكامل ، وليس لكم من الدين الا العصبية الجنسية ، والتقاليد الباطلة ؟ فلذلك تعيبون الحسن من غيركم ، وترضون القبيح من انفسكم

يقال نقم منه كذا ينقم (كضرب يضرب) اذا انكره عليه بالقول والفعل وعابه به وكرهه لاجله . وهو من مادة النقمة وهي كراهة السخط ، والعقاب المرتب عليها. ويقال « نقم ينقم (بوزن علم يعلم) والمستعمل في القرآن الأول .

روى ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله (ص) نفر من اليهود فيهم ابو ياسر بن اخطب ورافع بن ابي رافع وعازي وزيد وخالد وازر بن أبي ازار وواسع . فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال « نؤمن بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا لانؤمن بمن آمن به. فأنزل الله فيهم (قل يأهل الكتاب) الخ. والمعنى ان الآية تتناول هؤلاء اولا وبالذات. وتعم كل ناقم من المسلمين .

وفي قوله تعالى « وان أكثركم فاسقون » تنبيهنا على مثاله من دقة القرآن في الحكم على الامم والشعوب اذ يحكم على الكثير او الاكثر. وما عمّ الا واستثنى. وقد كان ولا يزال في أهل الكتاب أناس لا يزالون معتصمين بأصول الدين وجوهره من التوحيد وحب الحق والعدل والخير . وهؤلاء هم الذين كانوا يسارعون الى الاسلام. بقدر نصيب كل من جوهر الدين ونور البصيرة . وهذا لا ينافي ما كان من طروء التحريف على دينهم ، ونسيان حظ ونصيب مما نزل اليهم .

﴿ قل هل أنبئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله ؟ ﴾ المثوبة كالمقولة من ثاب الشيء يثوب ، وثاب اليه اذا رجع . فهي بمعنى الثواب . واستعماله في الجزاء الحسن اكثر ، وقيل استعماله في الجزاء السيء تهكم . والمعنى هل أنبئكم يا معشر المستهزئين بديننا وأذاننا بما هو شر من عملكم هذا ثوابا وجزاء عند الله تعالى ؟ وهذا السؤال يستلزم سؤالا منهم ، وجوابه قوله تعالى ﴿ من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ﴾ . اي ان الذي هو شر من ذلك ثوابا وجزاء عند الله هو عمل من لعنه الله . او جزاء من لعنه الله الخ فهو على حد قوله تعالى (ولكن البر من اتقى) وقوله (ولكن البر من آمن بالله) وفي هذا التعبير وجه آخر وهو: هل أنبئكم بشر من اهل ذلك العمل مثوبة عند الله ؟ هم الذين لعنهم الله الخ . كما تقول في تفسير الآية الاخرى : ولكن ذا البر من اتقى

انتقل بهذه الآية من تبكيت اليهود واقامة الحجة على هزؤهم ولعبهم بما تقدم الى ما هو اشد منه تبكيتا وتشنيعا عليهم، بما فيه من التذكير بسوء حالهم مع انبيائهم،

وما كان من جزائهم على فسقهم وتمردهم. بأشد ما جازى الله تعالى به الفاسقين الظالمين لأنفسهم، وهو اللعن والغضب والمسخ الصوري او المعنوي وعبادة الطاغوت. وقد عظم شأن هذا المعنى بتقديم الاستفهام عليه، المشوق الى الأمر العظيم المنبإ عنه •

اما لعن الله لهم فهو مبين مع سببه في عدة آيات من سور البقرة والنساء، وقد تقدم تفسيره • وكذا هذه السورة (المائدة) فسيأتي في غير هذه الآية خبر لعنهم • ومنها انهم لعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم عليهما السلام • و بعض ذلك اللعن مطلق و بعضه مقيد بأعمال لهم، كنقض الميثاق، والفرية على مريم العذراء، وترك التناهي عن المنكر. ومنه لعن اصحاب السبت اي الذين اعتدوا فيه، وقد ذكر في سورة البقرة مجملا، وسيأتي في سورة الاعراف مفصلا •

والغضب الالهي يلزم اللعنة وتلزمه، بل اللعنة عبارة عن منتهى المؤاخذة لمن غضب الله عليه، وتقدم تفسير كل منهما.

واما جعله منهم القردة والخنازير فتقدم في سورة البقرة وسيأتي في سورة الاعراف. قال تعالى في الاولى (٢: ٦٠ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وقال بعد بيان اعتدائهم في السبت من الثانية (٧ : ١٦٥ فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وجمهور المفسرين على ان معنى ذلك انهم مسخوا فكانوا قردة وخنازير حقيقة، وانقرضوا، لان الممسوخ لا يكون له نسل كما ورد. وفي الدر المنثور « اخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم في قوله (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وانما هو مثل ضربه لهم مثل الحمار يحمل أسفارا » فالمراد على هذا أنهم صاروا كالقردة في نزواتها، والخنازير في اتباع شهواتها. وتقدم في تفسير آية البقرة ترجيح هذا القول من جهة المعنى بعد نقله عن مجاهد من رواية ابن جرير. قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة وانما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل اسفارا » ولا عبرة برد ابن جرير قول مجاهد هذا وترجيحه القول الآخر فذلك اجتهاده، وكثيرا ما يرد به قول ابن عباس والجمهور. وليس قول مجاهد بالبعيد من استعمال اللغة.

فمن فصيح اللغة ان تقول : ربى فلان الملك قومه أو جيشه على الشجاعة والغزو، فجعل منهم الاسود الضواري ، وكان له منهم الذئاب المفترسة .

واما قوله تعالى « وعبد الطاغوت » ففيه قراءتان سبعيتان متواتران وعدة قراءات شاذة . قرأ الجمهور « عبد » بالتحريك على انه فعل ماض من العبادة ، و « الطاغوت » بالنصب مفعوله ، والجملة على هذا معطوفة على قوله (لعنه الله) اي هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ هم من لعنه الله وغضب عليه الخ ومن عبد الطاغوت ، وقرأ حمزة (وعبد) بفتح العين والدال وضم الباء . وهو لغة في (عبد) بوزن (بحر) واحد العبيد ، وقرأ (الطاغوت) بالجر بالاضافة ، وهو على هذا معطوف على (القردة) اي وجعل منهم عبيد الطاغوت . بناء على ان عبد يراد به الجنس لا الواحد ، كما تقول : كاتب السلطان يشترط فيه كذا وكذا ، وقد تقدم ان الطاغوت اسم فيه معنى المبالغة من الطغيان الذي هو مجاوزة الحد المشروع والمعروف الى الباطل والمنكر. فهو يشمل كل مصادر طغيانهم. وخصه بعض المفسرين بعبادة العجل . ولا دليل على التخصيص .

﴿ أولئك شر مكانا واضل عن سواء السبيل ﴾ اي أولئك الموصوفون بما ذكر من المخازي والشنائع شر مكانا اذ لا مكان لهم في الآخرة الا النار ، ـ أو المراد باثبات الشر لمكانهم اثباته لأنفسهم من باب الكناية . الذي هو كاثبات الشيء بدليله ، ـ واضل عن قصد طريق الحق ووسطه الذي لا إفراط فيه ولا تفريط ، ومن كان هذا شأنه لا يحمله على الاستهزاء بدين المسلمين وصلاتهم وأذانهم واتخاذها هزوءا ولعبا الا الجهل وعمى القلب .

﴿ واذا جاؤكم قالوا آمنا ﴾ الكلام في منافقي اليهود الذين كانوا في المدينة وجوارها . ذلك شأنهم في حال البعد عنكم . واذا جاؤكم قالوا للرسول ولكم اننا آمنا بالرسول وما أنزل عليه ﴿ وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ﴾ والحال الواقعة منهم انهم دخلوا عليكم متلبسين بالكفر ، وهم انفسهم قد خرجوا متلبسين بعاء، فحالهم عند خروجهم هي حالهم عند دخولهم ، لم يتحولوا عن كفرهم بالرسول وبما

نزل من الحق ، ولكنهم يخادعونكم . - كما قال في آية البقرة (٢: ٧٥ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا : اتحدثونهم بما فتح الله عليكم» الآية ﴿والله اعلم بما كانوا يكتمون﴾ عند دخولهم من قصد تسقط الأخبار . والتوسل اليه بالنفاق والخداع ، وعند خروجهم من الكيد والمكر والكذب الذي يلقونه الى البعداء من قومهم ، كما تقدم قريبا في تفسير (سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين) ونكتة قوله «وهم قد خرجوا به» هي تأكيد كون حالهم في وقت الخروج كحالهم في وقت الدخول ، وانما احتاج هذا للتأكيد لمجيئه على خلاف الاصل، لأن من كان يجالس الرسول (ص) واصحابه (رض) يسمع من العلم والحكمة ويرى من الفضائل ما يكبر في صدره ، ويؤثر في قلبه . حتى اذا كان سيء الظن رجع عن سوء ظنه ، - وأما سيء القصد فلا علاج له - وقد كان يجيئه الرجل يريد قتله ، فاذا رآه وسمع كلامه آمن به واحبه . وهذا هو المعقول الذي ايدته التجربة . وانما شذ هؤلاء وأمثالهم . لأن سوء نيتهم ، وفساد طويتهم ، قد صرفا قلوبهم عن التذكر والاعتبار . ووجها كل قواهم الى الكيد والخداع : والتجسس وما يراد به ، فلم يبق لهم من الاستعداد مايعقلون به تلك الآيات ، ويفقهون مغزى الحكم والآداب . (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)

﴿ وترى كثيرا منهم يسارعون في الأثم العدوان وأكلهم السحت﴾ اي وترى أيها الرسول أو ايها السامع كثيرا من هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دين الحق هزوا ولعبا يسارعون فيما هم فيه من قول الإثم وعمله، وهو كل ما يضر قائله وفاعله في دينه ودنياه . وفي العدوان وهو الظلم وتجاوز الحقوق والحدود الذي يضر الناس . وفي اكل السحت وهو الدنيء من المحرم كما تقدم . ولم يقل يسارعون الى ذلك لان المسارع الى الشيء يكون خارجا عنه فيقبل عليه بسرعة ، وهؤلاء غارقون في الأثم والعدوان ، وانما يسارعون في جزئيات وقائعهما ، كلما قدروا على إثم او عدوان ابتدروه ولم ينوا فيه ﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾ تقبيح للعمل الذي كانوا يعملونه في استغراقهم في المعاصي المفسدة لأخلاقهم ، وللامة التي يعيشون فيها ان لم تنهم وتزجرهم ، على انهم تركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فلم يكن يقوم به أحد

منهم لا العلماء ولا العباد ، اذ كان الفساد قد عم الجميع . ولذلك قال

﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ! لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ أي هلاّ ينهى هؤلاء المسارعين فيما ذكر أئمتهم في التربية والسياسة وعلماء الشرع والفتوى فيهم . عن قول الإثم كالكذب واكل السحت كالرشوة: لبئس ما كان يصنع هؤلاء الربانيون والاحبار، من الرضى بهذه الاوزار، وترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . روي عن ابن عباس انه قال : ما في القرآن اشد توبيخا من هـذه الآية ، أي فهي حجة على العلماء اذا قصروا في الهداية والارشاد ، وتركوا النهي عن البغي والفساد ، واذا كان حبر الامة ابن عباس يقول هذا فما قول علماء السوء الذين اضاعوا الدين وافسدوا الامة بترك هذه الفريضة ؟ ومن العجائب اننا نقرأ توبيخ القرآن لعلماء اليهود على ذلك ، ونعلم ان القرآن انزل موعظة وعبرة ، ثم لانعتبر باهمال علمائنا لأمر ديننا ، وعناية علمائهم في هذا العصر بأمر دينهم ودنياهم !! وسيأتي بسط هذا المعنى ان شاء الله تعالى.

ومن مباحث البلاغة في التعبير التفرقة بين يعملون ويصنعون. قال الراغب : الصنع اجادة الفعل فكل صنع فعل ، وليس كل فعل صنعا ، ولا ينسب الى الحيوانات والجمادات كما ينسب الفعل ، اه وقال غيره الصنع اخص من العمل فهو لما صار ملكة منه . والعمل اخص من الفعل ، لانه فعل بقصد . وقال في الكشاف : كانهم جعلوا آثم من مرتكبي المناكير، لأن كل عامل لايسمى صانعا . ولا كل عمل يسمى صناعة ، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب اليه، وكان المعنى في ذلك ان مواقع المعصية معه الشهوة التي تدعوه اليها وتحمله على ارتكابها ، واما الذي ينهاه فلا شهوة معه في فعل غيره فاذا فرط في الانكار كان أشد إثما من المواقع اه والذي أفهمه ان معاصي العوام من قبيل مايحصل بالطبع لانه اندفاع مع الشهوة بلا بصيرة، ومعصية العلماء بترك النهي عن المنكر والأمر بالمعروف من قبيل الصناعة المتكلفة لفائدة للصانع فيها يلتمسها ممن يصنعه له . وما ترك العلماء النهي عن المنكر وهم يعلمون ماأخذ الله عليهم من الميثاق الا تكلفا لارضاء الناس . وتحاميا لتنفيرهم منهم . فهو ايثار لرضاهم على رضوان الله وثوابه . والاقرب ان يكون من الصنع لا من الصناعة وهو العمل الذي يقدمه المرء لغيره يرضيه به .

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة ، اذ لا يسع عامة الناس ، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء ، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا ، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

(السكروته والحرير)

(س ١٠) من صاحب الامضاء الرمزي بدمياط

صاحب الفضيلة حضرة الاستاذ المرشد والامام المصلح السيد محمد رشيد رضا سدده الله ووفقه

ما قولكم يافضيلة الاستاذ في هذه الثياب المعروفة بمصر التي تسمى بالسكروته وما حكم لبسها مع اختلاف الناس فيها اهي حرير أم من نبات ؟ فبعضهم يقول انها من حرير الدودة المحرم . وبعضهم يقول انها ألياف نباتية تنبت بارض الهند كالتيل والكتان . واختلف الناس في شأنها كثيرا ، وقد اصبح الناس يلبسونها كثيرا وخصوصا علماء الدين فلا تجد واحدا منهم الا وهو يقتني منها ثوبا او أثوابا ، بل ربما يديم لبسها طول الصيف ويفتي الناس بحلها ، بناءً على انها نباتية ، ويقول ذلك ويقرره بجراءة غريبة ، وقد وقع الناس الآن في شأنها كثيرا في بلدة دمياط ، واهتموا بهذا الموضوع اهتماما ذا بال ، فنرجو فضيلتكم اجابتنا بما ترونه في ذلك منطبقا على دين الله ، وما تعلمونه عن حقيقة مادة السكروته هذه ، مع ذكر مسئلة الحرير وتحريمه في الدين وحكمة التحريم ، ورأيكم الخاص في ذلك . فان الخلاف فيه قديم بين الجمهور وقليل من السلف والخلف واقبلوا مزيد الاحترام (م . ل)

(ج) من اعتقد من الرجال ان النسيج المسمى بالسكروته حرير حرم عليه لبسه ، ومن لم يعتقد ذلك لم يحرم عليه . والمتبادر من التسمية ان السكروته غير الحرير . وقد سألت تاجرا مسلما سوريا يتجر بهذا الصنف في (شنغاي) من مواني الصين فقال ان الذي يعلمه هو ان السكروتة من نسج دود غير دود الحرير ، اي فلهذا وضع لها

اسم غير اسم الحرير . وتفارق الحرير في اخص صفاته وهي النعومة . ولا يمكن ان يقال ان جميع ما تنسجه الحشرات حرير . فقد كان نسج العنكبوت معروفا عند العرب ولم يسمه احد حريرا . وبلغنا ان الافرنج يتخذون منه قفافيز وغيرها .

والحكمة في تحريم السنة لبس الحرير الخالص على الرجال هي كونه مبالغة في الترف والنعيم المضعفين للرجولية . والمفسدين لبأس الأمة . وكان ولا يزال عند اكثر الأمم من خصائص النساء . ولمثل هذه العلة ورد النهي في السنة عن لبس المعصفر والمزعفر اذ كان من زينة النساء خاصة . فما نعلم من حكمة تحريم الحرير لا يوجد في السكروته . نعم ان الرقيق من السكروته اذا كوي بالمكواة يكون له لمعان كالحرير ، والكثير من نسيج القطن والكتان مثل ذلك . فالظاهر لنا ان لبس السكروته غير محرم . والله اعلم واحكم

تكرار الفدية بتأخير قضاء الصيام

(س ١٦) من نوح بن الحاج عبد القادر القاهري السندي

ما قولكم ايها العلماء الاعلام وائمة الاسلام في قول المنهاج في كتاب الصيام : « والأصح تكرره بتكرر السنين » ما المراد بتكرر السنين : هل هو تأخير قضاء رمضانين او اكثر الى رمضان آخر : أم تأخير قضاء رمضان الواحد الى رمضانين فصاعدا ؟ فان قلتم بالثاني فما المراد بقول الشرقوي في حاشيته على شرح التحرير : قوله « الى رمضان آخر » بالتنوين مصروف لانه نكرة اذ المراد به غير معين . بدليل وصفه بالنكرة وهي « آخر » وزالت منه احدى العلتين وهي العلمية . وبقاء الألف والنون الزائدتين لا يقتضي منعه من الصرف اه وما المراد بقول السيد الفاضل المصطفى الذهبي في تقريبهما على على هامش تلك الحاشية : قوله رمضان آخر هو مصروف لانه غير معين . انظر ما الفرق بينه والاول ؛ وغاية ما يقال الاول مقصود منه الشهر الذي يستعقبه المدرك بعينه بخلاف الثاني فانه يتناول ما بعده لا الى نهاية . فتكرر الكفارة بكل رمضان يأتي بعد الاول فهل يكفي هذا في منع الصرف حرره اه وما المراد بقول السيد علوي بن السيد احمد سقاف في حاشيته على فتح المعين : قوله « لكل سنة »

اي اصوم كل يوم من رمضان كاملة . وبه قال مالك واحمد اه وقد قال العلامة الدسوقي المالكي في حاشيته على شرح المختصر ما نصه : فاذا كان عليه يومان من رمضان ومضى عليه ثلاث رمضانات او اكثر فانما يلزمه مدان . افيدونا بلا طول جزاكم الخير رب غفور .

(ج) مراد المنهاج : « والأصح تكرره بتكرر السنين » أن من أخر قضاء ما فاته من رمضان واحد الى رمضانين فأكثر يطعم عن لرمضانين مسكينين لكل مسكين مد — وعن ثلاث رمضانات ثلاث مساكين وهلم جرا . ولا يمكن ان يكون معناه من أخر قضاء يومين فأكثر من رمضانين فأكثر الى رمضان آخر لزمه عن كل يوم مد . لأن هذا لغو من القول للاستغناء عنه بما قبله وهو قوله « ومن أخر قضاء رمضان مع امكانه حتى دخل رمضان آخر لزمه مع القضاء لكل يوم مد » ولأنه لاخلاف فيه حينئذ فلا يكون لوصفه بالأصح معنى . اذ مقابل الأصح — وهو الصحيح — انه لا يتكرر . فهل يمكن ان يكون المراد بعدم التكرر على الصحيح ان من أخر قضاء يومين من رمضانين الى رمضان آخر لا تجب عليه فديتان ؟ لا لا . واذا تبين الحق فمن إضاعة الوقت البحث في كلام من لم يعرفه والاهتمام بفهم المراد منه . على ان بحث الشرقاوي والذهبي في العلة النحوية لصرف رمضان لا ينافي هذا ، ولا حاجة الى العناية والبحث فيما جاء به السقاف . ولا الرجوع الى عبارة الدسوقي المالكي فانه ليس تفسيرا لعبارة المنهاج ولا يتفق مع مذهب الشافعي . فالمعنى واضح والمذهب معروف .

(التقليد والمذاهب وجمع المسلمين على الكتاب والسنة)

(س ١٧) من صاحب الامضاء المصري في (السودان)

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأستاذ منار الدين الحق السيد محمد رشيد رضا ادامه الله حاميا لدينه .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

سيدي ارفع سؤالي هذا ولي عظيم الأمل في اني سأحصل على الجواب الشافي الذي يريح ضميري واغلب المسلمين . نرى اختلافا كثيرا بين الأئمة المجتهدين

رضوان الله عليهم في مسائل عديدة . الا انا نعتقد فيهم مثابون ومصيبون في ذلك، لما نعلم من اعذارهم في مثل هذا . كبلوغ احدهم الدليل وعدم بلوغه للآخر . او بلوغه وعدم صحته . فهم مثابون ومصيبون من حيث تحريهم الحق . لا من حيث اصابتهم لحقيقة الحكم ، اذ يستحيل ان يكونوا كلهم مصيبين مع هذا الاختلاف ، والا فيكون هذا حكما صريحا على ان في الشرع تناقضا وحاشاه من ذلك . اذا علمنا ان هذا هو سبب اختلافهم واقوالهم بين أيدينا فلماذا نختلف نحن ايضا ويتبع كل فريق منا مذهبا ؟ وهل يتعين على المسلمين في هذه الحالة ان يستخلصوا الأدلة الصحيحة الثابتة ويتركوا ما عداها وقد علموا عذر الأئمة في ذلك ؟ والا فان المقلد لا يسلم من ان يكون متبعا إمامه فيما أخطأ فيه او على الأقل فيما كان منه وخا و مرجوحا . وهل يصح ان يلتمس له عذرا من قلده مع خنوه عنه ؟ وهل الخطاب بالكتاب والسنة عام لكل الناس أو مختص بالأئمة الاربعة فقط ؟ وإذا كان الخطاب عاما فما عذر من عدل عنهما الى سواهما ؟ وان قيل ان الاستدلال بالكتاب والسنة لا يتأتى الا للعلماء وهم الأقلون ، فهل يتحتم على هؤلاء العلماء ارشاد العامة الى السبيل القيم مبينة لهم الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله تاركين هذه الاختلافات القديمة التي لا تخلو من ضرر وقد اصبح ذلك ميسورا ؟ . رجائي الاجابة على هذه على صفحات مناركم الأغر . مبينين السبيل الحق في ذلك . أثابكم الله وادامكم نوارا يستضاء به ، تفضلوا بقبول احتراماتي محسوبكم سليمان حلمي

(ج) قد سبق للمنار بيان هذه المسائل كلها مرارا ، وأول ما كتبناه فيها (محاورات المصلح والمقلد) التي نشرت في المجلدين الثالث والرابع . ثم جمعت في كتاب على حدتها . ثم وقفنا على مناظرة في بحث الاجتهاد والتقليد للمحقق ابن القيم نشرناها في المجلدين السادس والسابع . وتكرر ذلك في التفسير والفتاوى ، ومما ورد في باب الفتوى اجوبة المسائل الباريسية التي سئل عنها أحمد باشا زكي في باريس فارسلها الينا . وقد طبعت في ذيل كتاب محاورات المصلح والمقلد . فاذا لم يتيسر للسائل مراجعة هذه المسائل في مواضعها المتفرقة من مجلدات المنار فليكتف بقراءة كتاب محاورات المصلح والمقلد وذيله ، ثم اذا بقي عنده او تجدد لديه بعض

الاسئلة في ذلك فليسأل عنها . ونزيده هنا فائدة ينبغي ان يفكر فيها بعد ان يقرأ في اواخر ذلك الكتاب ما قرره المصلح في مسألة وحدة الأمة . وهي ان هذه الوحدة الدينية قد توجهت اليها نفوس عقلاء المسلمين من جميع المذاهب في جميع الاقطار ، وانه لا يرجى حصولها في وقت قريب الا اذا ايد الاصلاح الديني دولة او إمارة اسلامية . على ان الأمة لا بد ان تنبذ كل خلاف ، وتصير الى الوحدة ولو بعد جيل او اجيال .

﴿ الخلاعة في التمثيل ﴾

(س ١٨) من صاحب الامضاء في بيروت

سلام على امامنا السيد الرشيد ايده الله

و بعد فلا يخفى ان مولانا السيد كان افتى في المنار من استفتاه من دمشق في امر التمثيل الروائي بانه جائز اذا لم يكن فيه خلاعة . ونظر الاستاذ ذلك الجواز بكتب الأدب واللغة التي هي روايات خيالية ، وعلمية لا عملية كالمقامات . ولما كان الداعي مختلفا هو و بعض العلماء في تلك الخلاعة تمقنا على ان استفتي سيادة الاستاذ في بيان وجهها .

فسر الداعي تلك الخلاعة بما يتخلله الفساق ويحصل في المراقص لا في الروايات التى يمثل فيها النساء مع الرجال، وهي روايات ادب وعلم وصدق وعدل . وفسر ذلك البعض الخلاعة بحل تلك النساء الممثلات . فانهن يكن كاشفات الرأس والوجه واليدين حتى مافوق المرفقين واعلى الصدر. مع المعانقة الجزئية بين العاشق والمعشوقة وتقبيل جبهتها حسب ما يقتضي التمثيل ، ويكن ايضا لابسات افخر الثياب مع زينة الحلي . فذكرت لهذا المفسران هذه الحال لا تكون الا لمجرد التمثيل كي تظهر نتيجتها من حيث التوفيق بين العاشقين او الحكم عليهما حسب مقتضى امرهما كما هو من فوائد التمثيل التي تحدث عظة اوخلقا في نفس الرائي .

ثم انني ذكرت لذلك العالم انه يسوغ أن يقاس ما فسرت انا على الحديث الصحيح الذي فيه ان عائشة رضي الله عنها كانت تنظر مع النبي صلى الله عليه وسلم الى الرجال وهم يلعبون . فلما اورد هذا الحديث على الامام الشافعي رضي الله تعالى عنه وهو يحرم نظر الاجنبية الى الاجنبي. اجاب ان نظرها انما هواللعب نفسه ولم يكن مقصودا به النظر المجرد الى الرجال . فقال لي ذلك العالم ان ذلك كان في

زمن غير زمننا المعروفة احواله. فاجبته بان تخيل الفسق يكون أثمه على من يتخيله . فهذا خلافنا رفعته الى مولاي الاجل كي يحكم بيننا بالحق . فنرجو الجواب في الجزء الآتي من المنار اعز الله به الاسلام ونصر به ونحمد الله اولا وآخرا .

بيروت : الأربعاء ٢٤ رجب سنة ١٣٣٢ الداعي : راغب القباني

(ج) ان الخلاعة التي ينبغي ان تكون مانعة من رؤية تمثيل القصص هي ما كان ذريعة للفسق وفساد الأخلاق . فانه ليس لأحد ان يحرم شيئا غير ما حرم الله ورسوله بالنص او مقتضاء النص وهو سد الذرائع . فمن يخاف ان يغريه هذا التمثيل في بعض القصص بفعل محرم وجب عليه اجتنابه . ومن لا يخاف على نفسه ذلك تباح له رؤيته . واذا غلب فيه كونه ذريعة لمحرم يصح اطلاق القول بتحريمه. ولم يثبت هذا . بل المعروف ان من يحضرون هذا العمل يكون جل همهم مراقبة الاعمال كرؤية عائشة للعب الحبش ، وان يعرفوا الوقائع وعاقبتها ومآلها . وقلما سمعنا أن احدا منهم يحفل بغير ذلك. فان وجد من افتتن في بعض البلاد بامرأة ممثلة فلا يصح ان يجعل نفس التمثيل ذريعة لذلك على الاطلاق . اذ ثبت في كل زمن ان بعض الناس يفتنون ببعض الحسان في الطرق او المعابد . اما النساء التي يمثلن في بعض القصص مكشوفات الرءوس والسواعد فلسن — كما يعهد في هذه الاقطار — بمسلمات ولا يكلفن من فروع الشريعة ما تكلفه المسلمات . وقد جرى عرف أهل ملتهن على اسقاط حرمة الستر فلا يعدونه فضيلة بل نقصا . وهن يمشين في الأسواق والشوارع حاسرات كما يكن في معاهد التمثيل . ولا فرق بين رؤيتهن في الاسواق ورؤيتهن في تلك المعاهد ولا بين الاختلاف الى الاسواق وهن فيها والاختلاف الى تلك المعاهد وهن فيها . والعبرة في ضرر ما يمثل من حيث الخلاعة والتهتك وغيره بموضوع القصة. فاذا كان موضوعها اعمالا منكرة بحيث يكون تأثيرها سيئا ضارا ، فلا وجه للتردد في حظر ما كان كذلك ومنعه ان امكن والا فالامتناع من رؤيته . واما ما كان موضوعه حسنا مرغبا في الفضيلة ، منفرا عن الرذيلة ، اومبينا لعواقب ظلم الحكام ، واستبدادهم في الاحكام ، ومرشدا للأمة الى ازالة الظلم ، وأطر الظالمين على الحق، ومجرئا لها على مقاومة العدوان والبغي — فهو الذي يعده الحكماء من مربيات الامم ، ومهذبات الاخلاق ، وينظمونه في سلك اساليب التربية العملية

نموذج آخر من مدارج السالكين

من بحث تغير الاخلاق وعدمه في ضرب مثل للانتفاع بكل خلق وكل غريزة وعدم محاولة تغييرها

فصل

نافع جدا عظيم النفع للسالك يوصله عن قريب ، ويسير باخلاقه التي لا يمكنه ازالتها ، فان اصعب ما على الطبيعة الانسانية تغيير الاخلاق التي طبعت عليها ، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة انما عملوا عليها ولم يظفر اكثرهم بتبديلها ، لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها ، فاذا جاء سلطان تلك الاخلاق وبرز كسر جيوش الرياضة وشتتها واستولى على مملكة الطبع . وهذا فصل يصل به السالك مع تلك الاخلاق ولا يحتاج الى علاجها وازالتها ، ويكون سيره أقوى وأجل واسرع من سير العامل على ازالتها .

ونقدم قبل هذا مثلا نضر به مطابقا لما نريده وهو : نهر جار في صببه ومنحدره ، ومنته الى تغريق ارض وعمران ودور ، وأصحابها يعلمون انه لا ينتهي حتى يخرب دورهم ويتلف أراضيهم واموالهم ، فانقسموا ثلاث فرق : فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها الى سكره وحبسه وايقافه فلم تصنع هذه الفرقة كبير أمر ، فانه يوشك ان يجتمع ثم يحمل على السكر فيكون إفساده وتخريبه أعظم . وفرقة رأت هذه الحالة وعلمت انه لا يغني عنها شيئا فقالت : لا خلاص من محذوره الا بقطعه من أصل الينبوع ، فرامت قطعه من أصله فتعذر عليها ذلك غاية التعذر ، وأبت الطبيعة النهرية ذلك اشد الاباء ، فهم دائما في قطع الينبوع ، وكلما سدوه من موضع نبع من موضع ، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الاشجار . فجاءت فرقة ثالثة خالفت رأي الفرقتين وعلموا أنهم قد ضاعت عليهم كثير من مصالحهم فاخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي الى خراب العمران ، وصرفوه الى موضع ينتفعون بوصوله اليه ولا يتضررون به ، فصرفوه الى ارض قابلة النبات وسقوها به ، فانبتت انواع العشب والكلاء والثمار المختلفة الاصناف ، فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر :

فاذا تبين هـذا المثل فالله سبحانه اقتضت حكمته ان ركب الانسان بل سائر الحيوان على طبيعة محمولة على قوتين غضبية وشهوانية وهي الارادية ، وهاتان القوتان هما الحاملتان لاخلاق النفس وصفاتها ، وهما مركوزتان في جبلة كل حيوان ، فبقوة الشهوة والارادة يجذب المنافع الى نفسه ، وبقوة الغضب يدفع المضار عنها ، فاذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج اليه تولد منها الحرص ، واذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه تولد منه القوة والعزة ، فاذا عجز عن ذلك الضار أورثه قوة الحقد ، وان اعجزه وصول ما يحتاج اليه ورأى غيره مستبدا به أورثه الحسد . فان ظفر به أورثته شدة شهوته وارادته خلق البخل والشح . وان اشتد حرصه وشهوته على الشيء ولم يمكنه تحصيله الا بالقوة الغضبية فاستعملها فيه اورثه ذلك العدوان والبغي والظلم ، ومنه يتولد الكبر والفخر والخيلاء ، فانها اخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب ، وتزوج احدهما بصاحبه .

فاذا تبين هذا فالنهر مثال هاتين القوتين ، وهو منصب في جدول الطبيعة ومجراها الى دور القلب وعمرانه وحواصله يذهبها ويتلفها ولا بد ، فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه فخرب ديار الايمان وقلع آثاره وهدم عمرانه ، وانبت موضعها كل شجرة خبيثة من حنظل وضريع وشوك وزقوم ، وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد ، واما النفوس الزكية الفاضلة فانها رأت ما يؤول اليه امر هذا النهر فافترقوا ثلاث فرق . فاصحاب الرياضات والمجاهدات والخلوات والتمرينات راموا قطعه من ينبوعه فأبت ذلك حكمة الله تعالى وما طبع عليه الجبلة البشرية ، ولم تنقد لهم الطبيعة ، فاشتد القتال ودام الحرب وحمي الوطيس وصارت الحرب دولا وسجالا ، وهؤلاء صرفوا قواهم الى مجاهدة النفس على ازالة تلك الصفات .

وفرقة اعرضوا عنها وشغلوا نفوسهم بالاعمال ولم يجيبوا دواعي تلك الصفات مع تخليتهم اياها على مجراها ، لكن لم يمكنوا نهرها من إفساد عمرانهم بل اشتغلوا بتحصين العمران واحكام بنائه واساسه ، ورأوا ان ذلك النهر لا بد ان يصل اليه فاذا وصل الى بناء محكم لم يهدمه بل يأخذ عنه يمينا وشمالا ، فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وارادتهم في العمارة واحكام البناء ، وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من اصلها خوفا من هدم البناء . وسألت يوم شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة وقطع الآفات والاشتغال بتنقية الطريق و بتنظيفها ، فقال لي جملة كلامه : النفس مثل الباطوس (وهو جب القذر) كلما نبشته ظهر وخرج

ولكن ان أمكنك ان تسقف عليه وتعبره وتجوزه فافعل ؛ ولا تشتغل بنبشه فانك لن تصل الى قراره ، وكلما نبشت شيئا ظهر غيره ، فقلت : سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ فقال لي : مثال آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر فان اقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها انقطع ولم يمكنه السفر قط . ولكن لتكن همتك المسير والاعراض عنها وعدم الالتفات اليها. فاذا عرض لك فيها مايعوقك عن المسير فاقتلة ثم امض على سيرك . فاستحسن شيخ الاسلام ذلك جدا ، واثنى على قائله .

اذا تبين هذا فهذه الفرقة الثالثة رأت ان هذه الصفات ما خلقت سدى ولا عبثا ، وانها بمنزلة ماء يسقى به الورد والشوك والثمار والحطب ، وانها صوان واصداف لجواهر منطوية عليها دواما فما خاف منه أولئك هو نفس سبب الفلاح والظفر ، فرأوا أن الكبر نهر يسقى به العلو والفخر والبطر والظلم والعدوان ، ويسقى به علو الهمة والانفة والحمية والمراغمة لاعداء الله وقهرهم والعلو عليهم ، وهذه درة في صدفته ، فصرفوا مجراه الى هذا الغراس واستخرجوا هذه الدرة من صدفته وابقوه على حاله في نفوسهم ، لكن استعملوه حيث يكون استعماله انفع ، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ابا دجانة يتبختر بين الصفين فقال « انها لمشية يبغضها الله الا في مثل هذا الموضع » فانظر كيف خلى مجرى هذه الصفة وهذا الخلق يجري في احسن مواضعه ، وفي الحديث الآخر واظنه في المسند « ان من الخيلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغضها الله ، فالخيلاء التي يحبها الله اختيال الرجل في الحرب وعند الصدقة » فانظر كيف صارت الصفة المذمومة عبودية ، وكيف استحال القاطع موصلا . فصاحب الرياضات والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات والخلوات، هيهات هيهات ؛ انما يوقع ذلك في الآفات والشبهات والضلالات ، فان تزكية النفوس مسلم الى الرسل ، وانما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم اياها ، وجعلها على ايديهم دعوة وتعليما و بيانا وارشادا ، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الامم، قال الله تعالى (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم - الى قوله - لفي ضلال مبين) وقال تعالى (كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا و يزكيكم و يعلمكم الكتاب والحكمة و يعلمكم مالم تكونوا تعلمون * فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) وتزكية النفوس أصعب من علاج الابدان واشد ، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل ، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه ، وأين رأيه من معرفة الطبيب ؟ فالرسل اطباء القلوب فلا سبيل الى تزكيتها وصلاحها الا من طريقهم وعلى ايديهم ، وبمحض الانقياد والتسليم لهم ، والله المستعان .

الدين والتدين ، والإلحاد والتعطيل

التدين غريزة فطرية . والدين حاجة من حاجات البشر الطبيعية ، والإلحاد والتعطيل إما نقص في الفطرة . كما يولد بعض الناس مخدوجا بنقص حاسة من حواسه ، او تشوه عضو من اعضائه ، واما تصرف سيئ في الفطرة ، وجناية على الطبيعة . وقد خلق الله الانسان في هذه الأرض واعطاه فيها سلطان التصرف فيها وفي نفسه . واسجد له من فيها من ملائكته . الذين هم كالملكات والقوى في تدبير الأمر ، واقامة النظام في الخلق ، فهو بهذا التصرف فيها يفسد فيها ويسفك الدماء ، كما يصلح ويعمر وينفع الناس : يجني على نفسه فيحملها فوق طاقتها ، ويعرضها للأمراض التي لاقبل له بها ، ويجني على غيره بالعدوان والبغي ، واهلاك الحرث والنسل . فلا غرو اذا جنى على الدين ، بشبهة دليل او بغير دليل .

كان السواد الأعظم من الناس متدينا ، ولا يزال السواد الأعظم من الناس متدينا ، وسيبقى السواد الأعظم من الناس متدينا . ولكنهم يتصرفون في اديانهم ، كما يتصرفون في انفسهم وابدانهم . وسيظلون زمنا طويلا في اضطراب ومخض ، بين رفع وخفض ، وابرام ونقض ، حتى تزول العصبيات الدينية ، وتسقط الرياسات المذهبية . ويكون الدين لله ، لا للخلفاء والاشياخ . ولا للرهبان والأحبار ، ويكون للانسان الحرية فيه والاستقلال ، فيتفق اكثر المختلفين . ويجتمع اكثر المتفرقين ، فتنقشع السحب عن دين الفطرة ، ويدخلون في السلم كافة

كان الناس متدينين ، وكان يكون في كل جيل منهم في كل عصر اناس من المعطلين ، وافراد من الملحدين ، كما يوجد فيهم العمي الذين لا يبصرون . والصم الذين لا يسمعون . والبكم الذين لا ينطقون . (٤٥ : ٣٣ وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر . وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) هذه حكاية القرآن عن بعض جاهلية العرب . وحكى مثله عن قوم نوح أقدم من أثر تاريخهم من الامم . ولكن بعض ملاحدة عصرنا يظنون لجهلهم بالتاريخ ان هذا الشذوذ خاص بالفلاسفة . واصحاب الافكار الراقية . ولهذا الامتياز الوهمي

صار بعض الغوغاء يكفر بالتقليد ، لينتظم في سلك الفلاسفة الجديد . ويتفلت من قيد التكليف

نعم يوجد من اهل النظر من حجبته نظريات الفلسفة ، ومسائلها وتعليلاتها المسلمة ، عن الدين وجوهره ، وما كان من حسن اثره ؛ فطفقوا يقذفون بتلك النظريات والمسلمات . ظواهر الدين وتقاليده المحدثات . وخيل اليهم انهم فازوا بقصب الرهان . وأبرهوا جيوش الأوهام بسيف البرهان . وما ذلك الا وهم يناطح وهما ، هذا يسميه هدى وذلك يدعوه علما ، ولو كانت تلك النظريات علما يقينيا لما تنازعت فيها الافكار ، واختلفت باختلاف الأجيال والأعصار ، فان فلسفة هذا الزمان ، قد نقضت معظم فلسفة اليونان ، وينقض بعضها بعضا في كل عام . واما علم اليقين ، فلا شيء منه بمناقض لهداية الدين . وان نقض بعض تواريخ الكتب المقدسة في بعض الاديان ، و بعض عقائدها المخترعة التي ما انزل الله بها من سلطان . وحاشا دين القرآن ، الذي كفل حفظه الرحمن ، فلم تؤثر فيه تأويلات المتكلمين ، ولا تعليلات المتفقهين ، دع اباطيل أهل الزيغ او الزندقة ، كالباطنية والمتفلسفة .

ان في الفلاسفة متدينين ، كما ان فيهم ماديين ، وكذلك اصحاب العقول الكبيرة من العلماء والقواد والسياسيين . فتولستوي الفيلسوف الروسي كان متدينا . والبرنس بسمارك كان متدينا ، وإمام الاطباء باستور كان متدينا ، وان أكبر قائد حربي في فرنسة اليوم متدين . كما كان ابن سينا والفارابي والغزالي وابن رشد من فلاسفة المسلمين متدينين . وأمثالهم كثيرون في كل أمة

نعم ان دين امثال هؤلاء قد يخالف في أصوله وفروعه دين العوام المقلدين ، لان لعلومهم وفلسفتهم ظريقا خاصا في فهمهم الدين ، والعامي المقلد تابع لمن يلقنه ، وللبيئة التي يعيش فيها كل منهم تأثير في فهم ما يتلقنه . فاذا كان العالم المستقل يخطئ فهم حقيقة الدين في قليل من المسائل ، فالجاهل المقلد اجدر بالخطإ في فهم الاكثر منها .

يغتر كثير من مقلدة الإلحاد في أمتنا بمن اشتهر من ملاحدة علماء الأفرنج . غافلين عن الاعتبار بحال المتدينين منهم ، وما كل من طعن في الكنيسة واهلها من علماء الافرنج كافر بالله ورسله . بل لهؤلاء دين غير دين الكنيسة ، وتكفير الكنيسة

لهم كتكفير بعض المتكلمين والصوفية لابن سينا وامثاله. فمن متديني الافرنج المقلدون، ومنهم العقليون والموحدون . ولعل دين السواد الاعظم من المتعلمين المهذبين منهم كدين (مدام كلاير): عجوز فرنسية ذات علم وادب، من بيت في ليون محترم، جاورتنا مرة في الدار، فرأيتها لا تذهب الى الكنيسة في ايام الآحاد، فسألتها: ما بالك لا تذهبين الى الكنيسة؟ الست متدينة؟ قالت: انا مؤمنة بالله وأصلي له في بيتي، وما فضل الكنيسة على البيت؟ انها لا فضل لها الا ان فيها رجالا يأكلون اموالنا ... قلت: اتدينين بعقيدة التثليث؟ قالت لا اعرف التثليث. اعرف ان الرب واحد. قلت وما تقولين في السيد المسيح عليه السلام؟ قالت «مثل نبي» فهذه حال اهل التعليم العالي في القوم. دع السواد الاعظم من العامة، وكثيرا ممن يعدون من الخاصة، الذين يتمسكون بمذاهبهم التقليدية، لا يثنيهم عنها انكار العقليين ولا غيره

أفلا ينظرون من وراء ذلك كله — جهلوه ام عرفوه — الى ما يبذله الإفرنج من ملايين الجنيهات لجمعياتهم الدينية لأجل نشر دينهم في الخافقين، وتعميمه في المشرقين والمغربين؟ يقول بعضهم بغير علم: ان الغرض من ذلك سياسي لا ديني. كذبوا، وحكموا بما لم يعلموا، ان تلك الملايين يبذلها الشعب الذي لا يعرف السياسة. ولا ننكر ان اهل السياسة يستفيدون من سعي المبشرين، فاذا كانت حكومة روسيا تستفيد بسياستها من تنصير دعاة الارثوذكسية لمسلمي بلادها . وانكلترة تستفيد من تنصير دعاة البروتستانية لمن ينصرون من اهل الهند والسودان. فاي فائدة سياسية لأمريكة في بث دعاة النصرانية في بلاد العرب والترك والفرس والهند وسائر الأقطار؟

تأملت في حال ملاحدة هذا العصر، فما رأيت اشد عماية، وابعد غواية، واضل سبيلا . وافسد قيلا، من ملاحدة المسلمين الجغرافيين.

ما رأيت احدا منهم صاحب دعوة سياسية في أمته قد ثبت عنده ان الاسلام يعارضها، ويحول دون التحول السياسي والاجتماعي الذي يراد بها، فهو ينفر من الاسلام وينفر عنه لأجلها، كيف وهم يعترفون تبعا لحكماء الافرنج بان الدين اقوى

عوامل السياسة ولا سيما دين الاسلام ، كما صرح بذلك علماء الاجتماع

ما رأيت احدا منهم صاحب مذهب فلسفي أدبي ثبت عنده أن حكمة الاسلام تناقضه ، وان صلاح الأمة لا يكون الا به ، فهو يلهج بالاعتراض على الاسلام، لانه عقبة في طريق ما يحاول من الاصلاح . كيف وان التربية عند أئمتهم – اكثر الافرنج لاتزال قائمة على اساس آداب الدين ؟

ما رأيت احدا منهم عني بفقه القرآن وصحيح السنة ، وما كان عليه سلف الأمة ، ثم عرضت له شبه قوية على صحة تلك الهداية فهو يريد التفصي منها . وقد خانته البينات والدلائل المزيلة لها . كيف ونحن نعلم ان اكثرهم لم يقرأ تفسير سورة من السور . ولا يميز بين الصحيح والموضوع من الأثر ؟ وان من له إلمام بشيء من علم الدين ، قلما يعرف الا بعض القشور من هذه التقاليد ، فهو يهزأ بالدين لأجل خرافة او بدعة ، يحسب انها عقيدة ثابتة او سنة .

ألا انهم على ما هم عليه من جهل بحقيقة الاسلام ، وقصور عن النهوض بدعوة الى الاصلاح ، يطلقون لالسنتهم العنان ، فيجمح بهم في كل ميدان . فمنهم من يتشدق بالسياسة ، ومنهم من يتفيهق بالمقابلة بين القانون والشريعة ، ومنهم من يهذر بالأخلاق والآداب . ومنهم من يهذي بالاعتراض على العبادات ، يتخذون الكلام في ذلك هزؤا ولعبا . وافاكيه يتلذذون بها تلذذا ، في زمن قل فيه العليم باسرار الدين، والبصير بحكم التشريع ، الذي يفرق بين الأصول الثابتة بالدليل . والنصوص التي لا تحتمل التأويل . وبين الفروع المستنبطة بالاجتهاد . والظواهر التي لم يتعين منها المراد .

على ان الأرض لا تخلو من قائم لله بحجته . ومن مفصح للشرع عن حكمته ، ولكن هؤلاء بمعزل عن الحجة واهلها . هي مجهولة لهم فهم لا يطلبونها ، ثقيلة عليهم فاذا تليت عليهم آياتها لا يسمعونها . الا من كان سليم الفطرة ، قريب العهد بهذه الهجرة . وطالما تأذنهم المنار ، بما يذهب بالتعلات والاعذار ، من الاستعداد لإزالة كل شبهة ، والتصدي لكشف كل غمة .

ياسبحان الله ! أتبيح السياسة لبسمرك أعظم رجال أوربة في القرن الماضي – وهو كما قال جمهوري بالطبع – ان يكون على دين يناقض طبعه فيجعله عبدا لملك

بروسية ، لأنه يقول له ان سلطة الملوك من الله ؟ – ولا تبيح لهؤلاء المتشدقين منا ان يكونوا على دين سبق كتابه الى وضع اعظم اساس للحكم الذاتي بقوله (وامرهم شورى بينهم) ؟ واقام على هذا الاساس اركان المصالح المرسلة، وجعل دفع المفسدة مقدما على جلب المصلحة ؟ – الى غير ذلك من الاركان الثابتة ، ثم قس على هؤلاء المتشدقين ، أمثالهم من المتفيهقين والهاذين والهاذرين .

وان تعجب فعجب خوضهم في مسائل الاخلاق والآداب ، فقد انقلبت عقولهم فيها شر الانقلاب، حتى صار فيهم من يعد العفة والغيرة والرحمة من الرذائل، وأضدادها من الفضائل ، بناء على قاعدة الانتخاب الطبيعي التي تغري القوي بالضعيف، وتبيح له ان يعجل بسلب حياته و يستأثر دونه بزوجه وماله، ولعل واحدهم لا يرجع عن هذه الغواية الا اذا مسه الضر . وعضه ناب الفقر ، وتصدى اخوانه في الكفر لإزهاق روحه . وتعدى أخدانه في الالحاد على عرض زوجه ، ومنعوها من خدمته ومواساته . بناء على قاعدتهم في كون الحق في ذلك للقوي القادر على الإنتاج ، والقيام بشؤون الاجتماع !

ألا إن من بلغ هذه الغاية من ارتكاس الفطرة ، وانتكاس الفكرة ، فصار يرى الحقائق بغير صورها ، ويزن الاشياء بغير ميزانها ، فلا طمع في هدايته ، ولا رجاء في مناظرته ، أولئك الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، يجادلونك في الحق بعد ما تبين ، ويمارونك في البديهي وقد تعين .

واما اكثر المخدوعين ، بأوهام هؤلاء المبطلين، فهم مستعدون لقبول الدليل، والاهتداء الى سواء السبيل ، اذا تداركهم العلماء والراسخون ، وتعاهدهم الحكماء الربانيون ، ولكن قل العلماء القادرون على كشف الشبهات ، وكثر المشتبهون ، فالاصلاح موقوف على تكثير سواد المصلحين الجامعين بين علوم الدنيا والدين ، مع استقلال الفكر . وتزكية النفس ، ولا يكون هذا الا بتربية وتعليم . على صراط الحق المستقيم . فتمل للذين هم على الدين يغارون ، : لمثل هذا فليعمل العاملون . فسارعوا اليه ان كنتم صادقين ، . وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين .

فصل (*)

﴿ الابتداع بالتشدد في الدين ، والتزام مالم يرد وتتبع آثار الصالحين ﴾
من كتاب الاعتصام للشاطبي

ثم اتى بمأخذ آخر من الاستدلال على صحة مازعم ، وهو أن الدعاء على ذلك الوجه لم يرد في الشرع نهي عنه مع وجود الترغيب فيه على الجملة ، ووجود العمل به . فان صح أن السلف لم يعملوا به ، فالترك ليس بموجب لحكم في المتروك الا جواز الترك وانتفاء الحرج خاصة، لاتحريم ولا كراهية .

وجميع ما قاله مشكل على قواعد العلم وخصوصا في العبادات ـ التي هي مسألتنا ـ اذ ليس لأحد من خلق الله ان يخترع فى الشريعة من رأيه امرا لايوجدعليه منها دليل، لانه عين البدعة ، وهذا كذلك ، اذ لا دليل فيها على اتخاذ الدعاء جهرا للحاضرين فى آثار الصلوات دائما ، على حدّ مانقام ، بحيث يعد الخارج عنه خارجا عن جماعة أهل الاسلام متجزا ومتميزا (١) ـ الى سائر ماذكر ، وكل ما لا يدل عليه دليل (٢) فهو البدعة

والى هذا (٣) فان ذلك الكلام يوهم ان اتباع المتأخرين المتقلدين خير من اتباع الصالحين من السلف ، ولو كان في احد جائزين ، فكيف اذا كان فى امرين احدهما متيقن انه صحيح والآخر مشكوك فيه ؟ فيتبع

(*) تابع لما نشر في ص ٤٣٣ ج ٦

(١) كذا في الاصل (٢) سقط لفظ دليل من الاصل (٣) لعله : وعلى هذا

المشكوك فى صحته ، ويترك ما لا مرية فى صحته ولو لعا من يتبعه (١)

ثم اطلاقه القول بان الترك لا يوجب حكما فى المتروك الا جواز الترك ، غير جار على أصول الشرع الثابتة . فنقول إن هنا اصلا لهـذه المسئلة لعل الله ينفع به من أنصف من نفسه : وذلك ان سكوت الشارع عن الحكم فى مسئلة ما او تركه لأمر ما على ضربين .

(احدهما) ان يسكت عنه أو يتركه لأنه لا داعية له تقتضيه ، ولا موجب يقرر لاجله ، ولا وقع سبب تقريره ، كالنوازل الحادثة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فانها لم تكن موجودة ثم سكت عنها مع وجودها ، وانما حدثت بعد ذلك ، فاحتاج أهل الشريعة الي النظر فيها واجرائها على ما تبين في الكليات التي كمل بها الدين ، والى هذا الضرب يرجع جميع ما نظر فيه السلف الصالح مما لم يسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخصوص مما هو معقول المعنى ، كتضمين الصناع ، ومسئلة الحرام ، والجد مع الاخوة ، وعول الفرائض . ومنه جمع المصحف ، ثم تدوين الشرائع ، وما أشبه ذلك مما لم يحتج في زمانه عليه السلام الى تقريره للتقديم (٢) كلياته التي تستنبط منها ، اذ لم تقع اسباب الحكم فيها ولا الفتوى منه عليه السلام ، فلم يذكر لها حكم مخصوص .

فهذا الضرب اذا حدثت اسبابه فلابد من النظر فيه واجرائه على أصوله ان كان من العاديات ، أو من العبادات التي لا يمكن الاقتصار فيها على ما سمع ، كمسائل السهو والنسيان في اجراء العبادات . ولا اشكال

(١) كذا في الاصل (٢) كذا في الاصل وهو محرف . ولعل في الكلام حذفا أيضا والمعنى المراد ظاهر ، وهو ان ما لم يحتج الى تقريره في عصر النبوة من جزئيات الاحكام قد وجد في الشريعة من القواعد الكلية ما يدخل فيه ويستنبط هو

في هذا الضرب ، لان أصول الشرع عقيدة ، واسباب تلك الاحكام لم تكن في زمان الوحي ، فالسكوت عنها على الخصوص ليس بحكم يقتضي جواز الترك أو غير ذلك ، بل اذا عرضت النوازل روجع بها اصولها فوجدت فيها ، ولا يجدها من ليس بمجتهد ، وانما يجدها المجتهدون الموصوفون في علم أصول الفقه .

(والضرب الثاني) أن يسكت الشارع عن الحكم الخاص أو يترك امرا ما من الأمور ، وموجبه المقتضي له قائم ، وسببه في زمان الوحي وفيما بعده موجود ثابت ، الا انه لم يحدد فيه امر زائد على ما كان من الحكم العام في امثاله ولا ينقص منه ، لانه لما كان المعنى الموجب لشرعية الحكم العقلي الخاص موجودا ثم لم يشرع ولا نبه على السبطا (١) كان صريحا في ان الزائد على ماثبت هنالك بدعة زائدة ومخالفة لقصد الشارع ، اذفهم من قصده الوقوف عند ما حدهنالك لا الزيادة عليه ولا النقصان منه

ولذلك مثال فيما نقل عن مالك بن أنس في سماع اشهب وابن نافع هو غاية فيما نحن فيه ، وذلك ان مذهبه في سجود الشكر الكراهية وانه ليس بمشروع وعليه بني كلامه . قال في العتبية : وسئل مالك عن الرجل يأتيه الامر يحبه فيسجد لله عزوجل شكرا ؟ فقال : لا يفعل هذا مما مضى من امر الناس . قيل له : ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه - فيما يذكرون - سجد يوم اليمامة شكرا لله . أفسمعت ذلك ؟ قال : ما سمعت ذلك ، وانا أري ان قد كذبوا على أبي بكر . وهذا من الضلال ان يسمع المرء الشيء فيقول : هذا لم تسمعه مني . قد فتح الله على رسول الله صلى

(١) كذا والمعنى ولم ينبه على قاعدة لاستنباطه منها

الله عليه وسلم وعلى المسلمين بعده . أفسمعت ان احدا منهم فعل مثل هذا ؟ اذ ما قد كان في الناس وجرى على أيديهم سمع عنهم فيه شيء ، فعليك بذلك فانه لو كان لذكر ، لانه من أمر الناس الذي قد كان فيهم، فهل سمعت ان احدا منهم سجد ؟ فهذا اجماع . واذا جاءك امر لا نعرفه فدعه - تمام الرواية - وقد احتوت على فرض سؤال والجواب بما تقدم.

وتقرير السؤال ان يقال في البدعة - مثلا - : انها فعل سكت الشارع عن حكمه في الفعل والترك ، فلم يحكم عليه بحكم على الخصوص ، فالأصل جواز فعله، كما أن الأصل جواز تركه ، اذ هو معنى الجائز ، فان كان له أصل جملي فاحرى ان يجوز فعله، حتى يقوم الدليل على منعه أو كراهته ، واذا كان كذلك ، فليس هنا مخالفة لقصد الشارع ، ولا ثم دليل خالفه هذا النظر ، بل حقيقة ما نحن فيه انه أمر مسكوت عنه عند الشارع، والسكوت عند الشارع لا يقتضي مخالفة ولا موافقة ، ولا يعين الشارع قصدا ما دون ضده وخلافه ، واذا ثبت هذا فالعمل به ليس بمخالف اذ لم يثبت في الشريعة نهي عنه .

وتقرير الجواب : معنى ما ذكره مالك رحمه الله ، وهو أن التشديد عن حكم الفعل أو الترك هنا اذا وجد المعنى المقتضي له اجماع من كل ساكت على أن لا زائد على ما كان . اذ لو كان ذلك لائقا شرعا أو سائغا لفعلوه ، فهم كانوا احق بادراكه والسبق الى العمل به ، وذلك اذا نظرنا الى المصلحة ، فانه لا يخلو إما أن يكون في هذه الأحداث مصلحة أو لا . والثاني لا يقول به أحد . والاول إما ان تكون تلك المصلحة الحادثة آكد

من المصلحة الموجودة في زمان التكليف أولا ، ولا يمكن ان يكون [١] مع كون الحدثة زيادة تكليف ، ونقضه [٢] عن المكلف احرى بالأزمنة المتأخرة، لما يعلم من قصور الهمم واستيلاء الكسل ، ولأنه خلاف بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، ورفع الحرج عن الأمة، وذلك في تكليف العبادات ، لان العادات أمر آخر - كما سيأتي - وقد مر منه [٣]

فلم يبق الا ان تكون المصلحة الظاهرة الآن مساوية للمصلحة الموجودة في زمان التشريع أو أضعف منها ، وعند ذلك تصير هذه الاحداث عبثا أو استدراكا على الشارع، لان تلك المصلحة الموجودة في زمان التشريع ان حصلت للأولين من غير هذا الاحداث اذا عبث [٤] اذ لا يصح أن يحصل للاولين دون الآخرين ؛ فقد صارت هذه الزيادة تشريعا بعد الشارع بسبب الآخرين ما فات للاولين [٥] فلم يكمل الدين إذا دونها ، ومعاذ الله من هذا المأخذ .

وقد ظهر من العادات الجارية فيما نحن فيه ان ترك الاولين لأمر ما من غير أن يعينوا فيه وجها مع احتماله في الأدلة الجملية ووجود المظنة ، دليل على ان ذلك الأمر لا يعمل به ، وانه اجماع منهم على تركه .

---

(١) انظر اسم أن يكون وخبره ؟ الظاهر انه قد سقط من الناسخ . والمعنى الذي يقتضيه السياق ويتعين مما يأتي هو نفي كون المصلحة الحادثة آكد ، لانه يقول انها مساوية أو أضعف . فلعل أصل الكلام : « ولا يمكن ان يكون آكد » وقوله مع كون المحدثة الخ تعليل للنفي (٢) كذا ولعل الاصل نقصه بالصاد المهملة ، أي نقص التكليف وتخفيفه

(٣) كذا ولعل الاصل « وقد مر شيء منه » أو ماهو بمعنى هذا

(٤) لعل الاصل « فهي اذاً عبث » (٥) لعل الاصل « بسبب للآخرين مافات الأولين »

قال ابن رشد في شرح مسئلة العتبية : الوجه في ذلك انه لم يره مما شرع في الدين - يعني سجود الشكر - فرضاً ولا نفلا ، اذ لم يأمر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا فعله ، ولا أجمع المسلمون على اختيار فعله ؛ والشرائع لا تثبت الامن احد هذه الامور - قل - واستدلاله على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك ولا المسلمون بعده ، « بان ذلك لو كان لنقل »صحيح ، اذ لا يصح ان تتوفر الدواعي على ترك نقل شريعة من شرائع الدين ، وقد أمروا بالتبليغ — قال— وهذا أصل من الاصول ، وعليه يأتي اسقاط الزكاة من الخُضر والبقول مع وجود سبب الزكاة فيها ، لعموم قول النبي صلى الله عليه وسلم « فيما سقت السماء والعيون والبعل العشر ، وفيما سقي بالنضح نصف العشر » لا نا نزّلنا ترك نقل اخذ النبي صلى الله عليه وسلم الزكاة منها كالسنة القائمة في ان لا زكاة فيها ؛ فكذلك نزّل ترك نقل السجود عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشكر كالسنة القائمة في ان لا سجود فيه . ثم حكى خلاف الشافعي والكلام عليه ؛ والمقصود من المسئلة توجيه مالك لها من حيث انها بدعة ، لا توجيه انها بدعة على الاطلاق .

وعلى هذا النحو جرى بعضهم في تحريم نكاح المحلل ،وانه بدعة منكرة، من حيث وجد في زمانه عليه السلام المعنى المقتضي للتخفيف والترخيص للزوجين باجازة التحليل ليتراجعا كما كانا أول مرة ، وانه لما لم يشرع ذلك مع حرص امرأة رفاعة على رجوعها اليه دل على أن التحليل ليس بمشروع لها ولا لغيرها . وهو أصل صحيح اذا اعتبر وضح به ما نحن بصدده ، لأن التزام الدعاء بآثار الصلوات جهرا للحاضرين

في مساجد الجماعات لو كان صحيحا شرعا أو جائزا لكان النبي صلى الله عليه وسلم اولى بذلك ان يفعله .

وقد علل المنكر هذا الموضع بعلل تقتضي المشروعية ، وبنى على فرض انه لم يأت ما يخالفه وان الاصل الجواز في كل مسكوت عنه .

أما ان الاصل الجواز فيمتنع ، لأن طائفة من العلماء يذهبون الى ان الاشياء قبل وجود الشرع على المنع دون الاباحة ، فما الدليل على ما قال من الجواز ؟ وان سلمنا له ما قال :فهل هو على الاطلاق ام لا ؟ أما فى العاديات فمسلم ، ولا نسلم ان ما نحن فيه من العاديات ، بل من العباديات ، ولا يصح ان يقال فيما فيه تعبد : انه مختلف فيه على قولين - : هل هو على المنع ؟ ام هو على الاباحة ؟ بل هو امر زائد على المنع ، لأن التعبديات انما وضعوا للشارع[1] فلا يقال في صلاة سادسة — مثلا — : انها على الاباحة ، فللمكلف وضعها — على احد القولين — ليتعبد بها لله . لانه باطل باطلاق ، وهو أصل كل مبتدع يريد ان يستدرك على الشارع . ولو سلم انه من قبيل العاديات او من قبيل ما يعقل معناه ، فلا يصح العمل به أيضاً ، لأن ترك العمل به من النبي صلى الله عليه وسلم في جميع عمره ، وترك السلف الصالح له على توالي ازمنتهم ، قد تقدم انه نص فى الترك واجماع من كل من ترك ، لأن عمل الاجماع كنصه — كما اشار اليه مالك في كلامه — .

وأيضاً فما يعلل له لا يصح التعليل به ، وقد اتى الرادّ باوجه منه (أحدها) ان الدعاء بتلك الهيئة ليظهر وجه التشريع في الدعاء ، وانه

(١) لعله « انما وضعها للشارع »

بآثار الصلوات مطلوب. وماقاله يقتضي ان يكون سنة بسبب الدوام والاظهار في الجماعات والمساجد؛ وليس بسنة اتفاقا منا ومنه؛ فانقلب اذاً وجه التشريع.

وأيضاً فان اظهار التشريع كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم والى، فكانت الكيفية المتكلم فيها أولى للاظهار، ولما لم يفعله عليه السلام دل على الترك مع وجود المعنى المقتضي، فلا يمكن بعد زمانه في تلك الكيفية الا الترك.

(والثاني) ان الامام يجمعهم على الدعاء ليكون باجتماعهم أقرب الى الاجابة. وهذه العلة كانت في زمانه عليه السلام، لأنه لا يكون احد اسرع اجابة لدعائه منه؛ اذ كان مجاب الدعوة بلا اشكال، بخلاف غيره وان عظم قدره في الدين فلا يبلغ رتبته، فهو كان احق بان يزيدهم الدعاء لهم خمس مرات في اليوم والليلة زيادة الى دعائهم لأنفسهم.

وأيضاً فان قصد الاجتماع على الدعاء لا يكون بعد زمانه أبلغ في البركة من اجتماع يكون فيه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم واصحابه، فكانوا بالتنبيه لهذه المنقبة أولى.

(والثالث) قصد التعليم للدعاء ليأخذوا من دعائه مايدعون به لانفسهم لئلا يدعوا بما لا يجوز عقلا أو شرعا. وهذا التعليل لا ينهض؛ فأن النبي صلى الله عليه وسلم كان المعلم الاول، ومنه تلقينا ألفاظ الأدعية ومعانيها، وقد كان من العرب من يجهل قدر الربوبية فيقول:

رب العباد ما لنا ومالك انزل علينا الغيث لا ابا لك

وقال الآخر:

لاهُمَّ ان كنت الذي بعهدي ولم تغيرك الامور بعدي

وقال الآخر :

أبنيَّ ليتي لا احبكم وجد الآله بكم كما اجد

وهي الفاظ يفتقر اصحابها الى التعليم ، وكانوا أقرب عهد بجاهلية تعامل الاصنام معاملة الرب الواحد سبحانه ، ولا تنزهه كما يليق بجلاله ؛ فلم يشرع لهم دعاء بهيئة الاجتماع في آثار الصلوات دائما ليعلمهم أو يعينهم على التعلم اذا صلوا معه ، بل علم في مجالس التعليم ، ودعا لنفسه إثر الصلاة حين بدا له ذلك ، ولم يلتفت اذ ذاك الى النظر للجماعة ، وهو كان أولى الخلق بذلك .

(والرابع) ان في الاجتماع على الدعاء تعاونا على البر والتقوى، وهو مأمور به . وهذا الاحتجاج ضعيف . فان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي انزل عليه (وتعاونوا على البر والتقوى) وكذلك فعل . ولو كان الاجتماع للدعاء اثر الصلاة جهرا للحاضرين من باب البر والتقوى لكان أول سابق اليه ، لكنه لم يفعله أصلا ولا احد بعده حتى حدث ما حدث . فدل على انه ليس على ذلك الوجه بر ولا تقوى .

(والخامس) ان عامة الناس لا علم لهم باللسان العربي ، فربما لحن فيكون اللحن سبب عدم الاجابة . وحكى عن الاصمعي في ذلك حكاية شعرية لا فقهية . وهذا الاحتجاج الى اللعب أقرب منه الى الجد ، وأقرب ما فيه ان احدا من العلماء لا يشترط في الدعاء ان لا يلحن كما يشترط

الاخلاص وصدق التوجيه [١] وعزم المسئلة ، وغير ذلك من الشروط . وتعلم اللسان العربي لاصلاح الالفاظ في الدعاء ـ وان كان الامام اعرف به ـ هو كسائر ما يحتاج اليه الانسان من أمر دينه ؛ فان كان الدعاء مستحبا فالقراءة واجبة ، والفقه في الصلاة كذلك ؛ فان كان تعليم الدعاء إثر الصلاة مطلوبا ، فتعليم فقه الصلاة آكد ؛ فكان من حقه ان يجعل ذلك من وظائف آثار الصلاة .

فان قيل بتوجبه في المحرف المتعارف . فهذه القاعدة تجتث أصله ؛ لأن السلف الصالح كانوا أحق بالسبق الى فضله لجميع ماذكر فيه من الفوائد ، ولذلك قال مالك فيها : أترى الناس اليوم كانوا ارغب في الخير ممن مضى ؟ وهو اشارة الى الاصل المذكور ، وهو أن المعنى المقتضي للاحداث — وهو الرغبة في الخير — كان أتم في السلف الصالح وهم لم يفعلوه ، فدل على انه لا يفعل .

وأما ما ذكر من آداب الدعاء فكله مما لا يتعين له إثر الصلاة ؛ بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم منها جملة كافية ولم يعلم منها شيئا إثر الصلاة ، ولا تركهم دون تعليم ليأخذوا ذلك منه في آخر الصلاة ، أو ليستغنوا بدعائه عن تعليم ذلك ؛ ومع ان الحاضرين للدعاء لا يحصل لهم من الامام في ذلك كبير شيء ، وان حصل فلمن كان قريبا منه دون من بعد .

(١) أي توجيه القلب الى الله تعالى المأخوذ من قوله (وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض) ويحتمل ان تكون (التوجه) الذي هو مطاوع التوجيه

فصل

ثم استدل المستنصر بالقياس فقال: وان صح ان السلف لم يعملوا به، فقد عمل السلف بما لم يعمل به من قبلهم مما هو خير - ثم قال بعد -: قد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه « تحدث للناس اقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور » فكذلك تحدث لهم مرغبات في الخير بقدر ما أحدثوا من الفتور.

وهذا الاستدلال غير جار على الاصول: (أما أولا) فانه في مقابلة النص، وهو ما أشار اليه مالك في مسألة العتبية، فذلك من باب فساد الاعتبار. (وأما ثانيا) فانه قياس على نص لم يثبت بعد من طريق مرضي؛ وهذا ليس كذلك. (وأما ثالثا) فان كلام عمر بن عبد العزيز فرع اجتهادي جاء عن رجل مجتهد يمكن أن يخطئ فيه كما يمكن أن يصيب، وانما حقيقة الاصل أن يأتي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو عن أهل الاجماع؛ وهذا ليس عن واحد منهما. (وأما رابعا) فانه قياس بغير معنى جامع أو بمعنى جامع طردي [1]؛ ولكن الكلام فيه سيأتي - إن شاء الله - في الفرق بين المصالح المرسلة والبدع.

وقوله « ان السلف عملوا بما لم يعمل به من قبلهم » حاش لله ان يكونوا ممن يدخل تحت هذه الترجمة. وقوله « مما هو خير » أما بالنسبة الى السلف فما عملوا خير، وأما فرعه المقيس فكونه خيراً دعوى، لأن كون الشيء خيراً أو شرا لا يثبت الا بالشرع، أو لأن الدعاء على تلك الهيئة غير خير شرعا.

(١) لعل الاصل « غير طردي »

وأما قياسه على قوله « تحدث للناس اقضية » فما تقدم[١] وفيه أمر آخر ، وهو التصريح بان إحداث العبادات جائز قياسا على قول عمر ، وانما كلام عمر بعد تسليم القياس عليه في معنى عادي يختلف فيه مناط الحكم الثابت فيما تقدم ، كتضمين الصناع ، أو الظنة في توجيه الايمان ، دون مجرد الدعاوى ، فيقول : ان الاولين توجهت عليهم بعض الاحكام لصحة الأمانة و الديانة والفضيلة ؛ فلما حدثت اضدادها اختلف المناط فوجب اختلاف الحكم ، وهو حكم رادع أهل الباطل عن باطلهم ؛ فاثر هذا المعنى ظاهر مناسب بخلاف مانحن فيه ، فانه على الضد من ذلك ؛ الا ترى ان الناس اذا وقع فيهم الفتور عن الفرائض فضلا عن النوافل — وهي ماهي من القلة والسهولة — فماظنك بهم اذا زيد عليهم اشياء أخرى يرغبون فيها ، ويرخصون[٢] على استعمالها ؛ فلا شك ان الوظائف تتكاثر حتى يؤدي الى أعظم من الكسل الاول ، والى ترك الجميع . فان حدث للعامل بالبدعة هو في بدعته ، أو لمن شايعه فيها ، فلابد من كسله مماهو أولى[٣]

فنحن نعلم ان ساهر ليلة النصف من شعبان لتلك الصلاة المحدثة لا يأتيه الصبح الا وهو نائم أو في غاية الكسل فيخل بصلاة الصبح ،

---

(١) كذا والظاهر انه سقط منه شيء . ولعل أصله « فما تقدم نعلم بطلانه »

(٢) كذا والترخيص هنا غير مناسب ولا يتعدى بعلى فلعل الاصل « ويحضون »

(٣) ظاهر ان في هذه العبارة غلطا . والمعنى المفهوم من السياق ان صاحب البدعة اذا كان يعرض له الكسل في بدعته ولمن شايعه عليها ، فلابد من عروض الكسل له في غيرها من الاعمال بالأولى . لان نظرية البدعة انها بجدتها تحدث نشاطا بعد الفتور كما تقدم

وكذلك سائر المحدثات ، فصارت هذه الزيادة عائدة على ما هو اولى منها بالابطال أو الاخلال ؛ وقد مر أن ما من بدعة تحدث الا ويموت من السنة ما هو خير منها .

وأيضاً فان هذا القياس مخالف لاصل شرعي ، وهو طلب النبي صلى الله عليه وسلم بالسهولة والرفق والتيسير وعدم التشديد . وزيادة وظيفة لم تشرع فتظهر ويعمل بها دائما في مواطن السنن ، فهو تشديد بلا شك .

وان سلمنا ما قال، فقد وجد كل مبتدع من العامة السبيل الى احداث البدع ، وأخذ هذا الكلام بيده حجة وبرهانا على صحة ما يحدثه كائنا ما كان ؛ وهو مرمى بعيد .

***

ثم استدل على جواز الدعاء إثر الصلاة في الجملة ، ونقل في ذلك عن مالك وغيره انواعا من الكلام ، وليس محل النزاع [1] بل جعل الادلة شاملة لتلك الكيفية المذكورة . وعقب ذلك بقوله : وقد تظاهرت الاحاديث والآثار وعمل الناس وكلام العلماء على هذا المعنى ، كما قد ظهر — قال — ومن المعلوم انه عليه السلام كان الامام في الصلوات ، وانه لم يكن ليخص نفسه بتلك الدعوات ، اذ قد جاء في سنته « لا يحل لرجل ان يؤم قوما الا باذنهم، ولا يخص نفسه بدعوة دونهم ، فان فعل فقد خانهم » .فتأملوا يا أولي الاولباب ! فان عامة النصوص فيما سمع من ادعيته في ادبار الصلوات انما كان دعاء لنفسه ، وهذا الكلام يقول فيه : إنه لم يكن ليخص نفسه بالدعاء دون الجماعة ، وهذا تناقض . ومن الله نسأل التوفيق .

(١) لفظ محل منصوب خبر ليس ، أي وليس هذا محل النزاع

وانما حمل الناس الحديث على دعاء الامام في نفس الصلاة من السجود وغيره ، لا فيما حمله عليه هذا المتأول . ولما لم يصح العمل بذلك الحديث عند مالك اجاز للامام ان يخص نفسه بالدعاء دون المأمومين . ذكره في النوادر . ولما اعترضه نقل العلماء وكلام السلف مما تقدم ذكره ، أخذ يتأول ويوجه كلامهم على طريقته المرتكبة[1] ووقع له في كلام على غير تأمل لا يسلم ظاهره من التناقض والتدافع لوضوح أمره ، وكذلك فى تأويل الاحاديث التي نقلها ، لكن تركت هنا استيفاء الكلام عليها لطوله ، وقد ذكرته فى غير هذا الموضع والحمد لله على ذلك

فصل

(بحث جليل في كون المشتبهات تدخل في البدع الاضافية)

من كتاب الاعتصام للامام الشاطبي . قال رحمه الله تعالى :

ويمكن ان يدخل فى البدعة الإضافية كل عمل اشتبه أمره فلم يتبين أهو بدعة فينهى عنه ؛ أو غير بدعة فيعمل به ؛ فانا اذا اعتبرناه بالاحكام الشرعية وجدناه من المشتبهات التي قد ندبنا الى تركها حذرا من الوقوع في المحظور ؛ والمحظور هنا هو العمل بالبدعة ؛ فاذا العامل به لا يقطع انه عمل ببدعة ، كما انه لا يقطع انه عمل بسنة ؛ فصار من جهة هذا التردد غير عامل ببدعة حقيقية ، ولا يقال أيضاً : انه خارج عن العمل بها جملة .

وبيان ذلك ان النهي الوارد في المشتبهات انما هو حماية ان يقع فى ذلك الممنوع الواقع فيه الاشتباه ؛ فاذا اختلطت الميتة بالذكية نهيناه عن الاقدام ، فان أقدم امكن عندنا ان يكون آكلا للميتة في الاشتباه ؛

(١) كذا ولعله « المرتبكة »

فالنهي الاخف اذاً منصرف نحو الميتة فى الاشتباه، كما انصرف اليها النهي الأشدّ فى التحقق.

وكذلك اختلاط الرضيعة بالاجنبية: النهي فى الاشتباه منصرف الى الرضيعة كما انصرف اليها في التحقق، وكذلك سائر المشتبهات انما ينصرف نهي الاقدام على المشتبه الى خصوص الممنوع المشتبه؛ فاذا الفعل الدائر بين كونه سنة أو بدعة اذا نهي عنه فى باب الاشتباه نهي عن البدعة في الجملة؛ فمن أقدم على منهي عنه في باب البدعة لأنه محتمل أن يكون بدعة في نفس الأمر، فصار من هذا الوجه كالعامل بالبدعة المنهي عنها — وقد مر أن البدعة الاضافية هي الواقعة ذات وجهين — فلذلك قيل: ان هذا القسم من قبيل البدع الاضافية. ولهذا النوع أمثلة.

(أحدها) اذا تعارضت الادلة على المجتهد في ان العمل الفلاني مشروع يتعبد به، أو غير مشروع فلا يتعبد به، ولم يتبين له جمع بين الدليلين، أو إسقاط احدهما بنسخ أو ترجيح أو غيرهما — فقد ثبت في الاصول ان فرضه التوقف، فلو عمل بمقتضى دليل التشريع من غير مرجح لكان عاملا بمتشابه، لإمكان صحة الدليل بعدم المشروعية، فالصواب الوقوف عن الحكم رأسا، وهو الفرض فى حقه.

(والثاني) اذا تعارضت الاقوال على المقلد في المسئلة بعينها، فقال بعض العلماء بكون العمل بدعة. وقال بعضهم: ليس ببدعة. ولم يتبين له الأرجح من العالمين بأعلمية أو غيرها؛ فحقه الوقوف والسؤال عنهما حتى يتبين له الارجح فيميل الى تقليده دون الاخر، فان أقدم على تقليد احدهما من غير مرجح كان حكمه حكم المجتهد اذا أقدم على العمل باحد

الدليلين من غير ترجيح ، فالمثالان في المعنى واحد .

(والثالث) انه ثبت في الصحاح عن الصحابة رضي الله عنهم انهم يتبركون [1] باشياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ففي البخاري عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة فأتي بوضوء فتوضأ ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به ، الحديث. وفيه : كان اذا توضأ يقتتلون على وضوئه . وعن المسور رضي الله عنه في حديث الحديبية « وما انتخم النبي صلى الله عليه وسلم نخامة الا وضعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده » وخرج غيره من ذلك كثيرا في التبرك بشعره وثوبه وغيرهما ؛ حتى انه مس باصبعه احدهم بيده فلم يحلق ذلك الشعر الذي مسه عليه السلام حتى مات وبالغ بعضهم في ذلك حتى شرب دم حجامته ؛ — الى اشياء لهذا [2] كثيرة . فالظاهر في مثل هذا النوع ان يكون مشروعا في حق من ثبتت ولايته واتباعه لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان يتبرك بفضل وضوئه ، ويتدلك بنخامته ، ويستشفى بآثاره كلها ، ويرجى نحو مما كان في آثار المتبوع الاصل [3] صلى الله عليه وسلم [4] .

إلا أنه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه ، مشكل في تنزيله ؛ وهو أن الصحابة رضي الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع من احد منهم شيء من ذلك بالنسبة الى من خلفه ، اذ لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم بعده في الامة أفضل من ابي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ فهو كان

(١) لعل الاصل : كانوا يتبركون (٢) لعله : كهذا (٣) يظهر ان هذه الجملة محرفة
(٤) قد استفاض انه (ص) كان ينهى عن الغلو في تعظيمه

خليفته ، ولم يفعل به شيء من ذلك ، ولا عمر رضي الله عنهما ، وهو كان أفضل الأمة بعده ، ثم كذلك عثمان ثم علي ، ثم سائر الصحابة الذين لا احد أفضل منهم في الامة ؛ ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف ان متبركا تبرك به على احد تلك الوجوه أو نحوها ؛ بل اقتصروا فيهم على الاقتداء بالافعال والاقوال والسير التي اتبعوا فيها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فهو اذا إجماع منهم على ترك تلك الاشياء .

وبقي النظر فى وجه ترك ما تركوا منه ، ويحتمل وجهين :

(احدهما) ان يعتقدوا فيه الاختصاص وان مرتبة النبوة يسع فيها ذلك كله ، للقطع بوجود ما التمسوا من البركة والخير ؛ لانه عليه السلام كان نورا كله في ظاهره وباطنه ، فمن التمس منه نورا وجده على أي جهة التمسه ؛ بخلاف غيره من الامة ـ وان حصل له من نور الاقتداء به والاهتداء بهديه ماشاء الله ـ لا يبلغ مبلغه على حال توازيه في مرتبته ، ولا تقاربه ؛ فصار هذا النوع مختصا به كاختصاصه بنكاح ما زاد على الاربع ، واحلال بُضع الواهبة نفسها له ، وعدم وجوب القسم على الزوجات[1] وشبه ذلك ؛ فعلى هذا المأخذ : لا يصح لمن بعده الاقتداء به في التبرك على احد تلك الوجوه ونحوها ؛ ومن اقتدى به كان اقتداؤه بدعة ، كما كان الاقتداء به فى الزيادة على اربع نسوة بدعة .

(الثاني) ان لا يعتقدوا الاختصاص ولكنهم تركوا ذلك من باب الذرائع خوفا من ان يجعل ذلك سنة ـ كما تقدم ذكره في اتباع الآثار ـ

[1] لعل اصله : وعدم وجوب القسم عليه للزوجات

والنهي عن ذلك ؛ أو لأن العامة لا تقتصر في ذلك على حد، بل تتجاوز فيه الحدود ، وتبالغ بجهلها في التماس البركة ، حتى يداخلها للمتبرك به تعظيم يخرج عن الحد ، فربما اعتقد في المتبرك به ماليس فيه ؛ وهذا التبرك هو أصل العبادة ، ولاجله قطع عمر رضي الله عنه الشجرة التي بويع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل هو كان اصل عبادة الاوثان في الامم الخالية — حسبما ذكره أهل السير — فخاف عمر رضي الله عنه ان يتمادى الحال في الصلاة الى تلك الشجرة حتى تعبد من دون الله ؛ فكذلك يتفق عند التوغل في التعظيم .

ولقد حكى الفرغاني مذيل تاريخ الطبري عن الحلاج ان اصحابه بالغوا في التبرك به حتى كانوا يتمسحون ببوله ويتبخرون بعذرته ، حتى ادعوا فيه الالـهية . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

ولأن الولاية وان ظهر لها في الظاهر آثار فقد يخفى أمرها ، لانها في الحقيقة راجعة الى أمر باطن لايعلمه الا الله ، فربما ادعيت الولاية لمن ليس بوليّ ، او ادعاها هو لنفسه ، أو أظهر خارقة من خوارق العادات هي من باب الشعوذة لا من باب الكرامة ، أو من باب (١) أو الخواص أو غير ذلك ؛ والجمهور لا يعرف الفرق بين الكرامة والسحر، فيعظمون من ليس بعظيم ، ويقتدون بمن لا قدوة فيه ـ وهو الضلال البعيد ـ الى غير ذلك من المفاسد . فتركوا العمل بما تقدم — وان كان له أصل — لما يلزم عليه من الفساد في الدين

(١) بياض في الاصل ، ولعل الساقط لفظ « السحر » فانه بذكره قريبا

وقد يظهر بأول وهلة أن هذا الوجه الثاني ارجح، لما ثبت في الاصول العامية ان كل قربة أعطيها النبي صلى الله عليه وسلم فإن لأمته انموذجا منها، مالم يدل دليل على الاختصاص.

الا ان الوجه الاول أيضاً راجح من جهة أخرى، وهو إطباقهم على عدم التبرك، اذ لو كان اعتقادهم التشريع لعمل به بعضهم بعده، أو عملوا به ولو في بعض الاحوال، إما وقوفا مع اصل المشروعية، وإما بناء على اعتقاد انتفاء العلة الموجبة للامتناع.

وقد خرج ابن وهب فى جماعة من حديث يونس بن يزيد عن ابن شهاب، قال: حدثني رجل من الانصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا توضأ أو تنخم ابتدر من حوله من المسلمين وَضوءه ونخامته فشربوه ومسحوا به جلودهم، فلما رآهم يصنعون ذلك سألهم «لِمَ تفعلون هذا؟ قالوا: نلتمس الطهور والبركة بذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كان منكم يحب ان يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث، وليؤد الأمانة ولا يؤذ جاره» فان صح هذا النقل فهو مشعر بان الاولى تركه [1] وان يتحرى ما هو الآكد والاحرى من وظائف التكليف؛

(١) قد يقال: ان هذا يدل على الانكار وكراهة النبي (ص) لهذا الفعل، ويؤيده ما ثبت من مجموع سيرته من كراهة الغلو فيه واطرائه، وحبه للتواضع ومساواة الناس بنفسه في المعاملات كلها، الا ما خصه الله به، حتى انه طلب ان يقتص منه من لعله آذاه ـ وهو القائد والمربي الذي جعله الله أولى بالمؤمنين من انفسهم ـ ولم يعرف من الاحوال التي تبركوا فيها بفضل وضوئه و ببصاقه الا يوم الحديبية. وظهر له يومئذ حكمة، فان مندوب المشركين في صلح الحديبية لما حدثهم بما رأى من ذلك هابوا النبي (ص) وخافوا قتال المسلمين فلعل المسلمين قصدوا هذا لهذا

ولا يلزم الانسان في خاصة نفسه ؛ ولم يثبت من ذلك كله الا ما كان من قبيل الرقية وما يتبعها، أو دعاء الرجل لغيره على وجه سيأتي بحول الله.

فقد صارت المسئلة من اصلها دائرة بين أمرين : ان تكون مشروعة، فدخلت تحت حكم المتشابه والله أعلم.[1]

فصل

ومن البدع الاضافية التي تقرب من الحقيقية ان يكون أصل العبادة مشروعاً إلا انها تخرج عن أصل شرعيتها بغير دليل، توهماً انها باقية على أصلها تحت مقتضى الدليل؛ وذلك بأن يقيد إطلاقها بالرأي، أو يطلق تقييدها، وبالجملة فتخرج عن حدها الذي حد لها.

ومثال ذلك ان يقال : ان الصوم في الجملة مندوب اليه لم يخصه الشارع بوقت دون وقت، ولا حد فيه زماناً دون زمان، ما عدا ما نهى عن صيامه على الخصوص كالعيدين، وندب اليه على الخصوص كعرفة وعاشوراء بقول؛ فاذا خص منه يوماً من الجمعة بعينه، أو أياماً من الشهر بأعيانها - لا من جهة ما عينه الشارع - فان ذلك ظاهر بأنه من جهة اختيار المكلف، كيوم الاربعاء مثلا فى الجمعة، والسابع والثامن في الشهر، وما أشبه ذلك؛ بحيث لا يقصد بذلك وجهاً بعينه مما لا ينثني عنه. فاذا قيل له : لم خصصت تلك الايام دون غيرها ؟ لم يكن له بذلك حجة غير التصميم، أو يقول : ان الشيخ الفلاني مات فيه أو ما أشبه ذلك؛ فلا شك انه رأي محض بغير دليل، ضاهى به تخصيص الشارع أياماً بأعيانها

(١) ينظر أين الامر الثاني ؟ ولعل الساقط «او تكون غير مشروعة»

دون غيرها . فصار التخصيص من المكلف بدعة ، إذ هي تشريع بغير مستند

ومن ذلك تخصيص الايام الفاضلة بأنواع من العبادات التي لم تشرع لها تخصيصاً ، كتخصيص اليوم الفلاني بكذا وكذا من الركعات ، أو بصدقة كذا وكذا ، أو الليلة الفلانية بقيام كذا وكذا ركعة ، أو بختم القرآن فيها أو ما أشبه ذلك [1] فان ذلك التخصيص والعمل به اذا لم يكن بحكم الوفاق أو بقصد يقصد ومثله أهل العقل والفراغ والنشاط ، كان تشريعاً زائداً

لاحجة له في أن يقول : ان هذا الزمان ثبت فضله على غيره فيحسن فيه ايقاع العبادات . لانا نقول : هذا الحسن هل ثبت له أصل أم لا ؟ فان ثبت فمسئلتنا [2] كما ثبت الفضل في قيام ليالي رمضان وصيام ثلاثة أيام من كل شهر وصيام الاثنين والخميس فان لم يثبت فما مستندك فيه — والعقل لايحسن ولا يقبح ، ولا شرع يستند اليه ؟ فلم يبق الا انه ابتداع في التخصيص ، كاحداث الخطب وتحري ختم القرآن في بعض ليالي رمضان . اه

(١) ومنه صلاة الرغائب وصلاة ليلة النصف من شعبان ، ومنه تخصيص أيام معينة لزيارة القبور والصدقة عندها كاول جمعة من رجب . كل ذلك من البدع والتشريع الذي لم يأذن به الله . وقد يتصل بالبدعة الواحدة بدع ومعاص أخرى توجب تركها — ولو لم تكن بدعة — لسد ذريعة هذه المفاسد (٢) أي فهو مسألتنا

الجنسيات في المملكة العثمانية

الجنس في عرف اهل السياسة كالصنف في عرف علماء المنطق . فيطلق على الأجيال التي تنفصل بينها الفصول العامة (كالنسب واللغة) وهما اقدم روابط الجنسية، ويليهما الدين والوطن الأرضي والسياسي . ولم يوجد دين من الاديان ألف بين شعوب وقبائل مختلفة في جميع روابط الجنسية وجعلها أمة واحدة وجنسا واحدا الا الدين الاسلامي وقد بينا هذا مرارا فلا نعيده الآن . ولما كان اتحاد الأمة لا يتم الا بوحدة لغتها كان من مقاصد الاسلام جعل لغة القرآن لغة لجميع المسلمين . وعلى هذا جرى المسلمون في خير القرون بالعمل ، فصارت العربية لغة المسلمين في المشرق والمغرب من القرن الأول . وقد زال من نفوس المسلمين الشعور بالعصبية الجنسية زمنا طويلا ، حتى أحياه الفرس والترك كما بينا من قبل .

ان العصبية الجنسية في هذا العصر قد دخلت في طور سياسي جديد ، وكان العرب آخر الأجناس شعورا بها . لأن سوادهم الأعظم مسلمون لايكادون يشعرون بغير الجنسية الدينية . ولكن الاستانة بسياسة حكومتها وادارتها بعد الدستور وسياسة جرائدها قد كونت هذا الشعور وجعلته حيا ناميا . فصدقت كلمتي المحفوظة: « ان العرب يعجزون بأنفسهم . عن تكوين جنسية عربية سياسية لهم . ولا يقدر على ذلك الا الآستانة وحدها » ولما رأينا بوادر هذا الأمر وكنا نعلم ان التحولات الاجتماعية السريعة تكون دائما محفوفة بالاخطار سعينا لتدارك الخطر في الآستانة نفسها . ومقالاتنا الست التي نشرناها هنالك تحت عنوان (العرب والترك) لا تزال محفوظة تشهد لنا بأننا سعينا الى الوحدة بين العنصرين جد السعي . وبينا من الحجج على ذلك ما لم يبينه أحد . ولكن ذلك كله لم يفد ، ولماذا ؟

ان من المقاصد الأساسية لجمعية الاتحاد والترقي احياء الجنسية التركية وتقويتها لتوجد منها أمة تركية كأمم أوربة في مدنيتها . ودولة تركية كدول أوربة في عزتها وحضارتها . وكانوا يظنون انهم يستطيعون بقوة الدولة أن يتركوا جميع الأجناس العثمانية في البلاد الخضرية القابلة للعمران . ويجعلوا سائر البلاد مستعمرات ليس لها

من الحقوق ما لسائر العثمانيين . ولهذا كانوا يجدون في تقوية الجنسية التركية ونشر اللغة التركية . ويعاقبون من يقتدي بهم في ذلك من غير الترك أشد العقاب

دار الفلك دورته . فثبت للاتحاديين ضرر هذه التجربة ـ محاولة تتريك شعوب المملكة ـ ، وكان من نتائجها المشؤومة الفتنة الالبانية . فالحرب البلقانية العثمانية . فرجعوا عن فكرة تعميم تتريك الشعوب كلها الى الاكتفاء بتتريك الضعيف منها ، اما بقلة العدد كاللاز والشركس ، واما بقلة العلم وعدم تدوين اللغة كالاكراد ، واما بالخضرمة في اللغة كالعرب المتصلين بالترك بالقرب من الاناضول ، ثم بتقوية اللغة التركية في جميع البلاد العثمانية . وجعل الارتقاء في الحكومة والعلوم والمدنية موقوفا عليها . وترتب على هذا ترك الضغط السابق على المستيقظين من الشعوب الكبيرة ، اذ كانت الجرائد تحاكم وتقفل اذا ذكرت اسم جنسها ، و الاعتصام بحبل لغتها ، والتذكير بمجد سلفها . حتى ان المجلس العسكري العرفي في بيروت حاكم مدير جريدة المفيد وعده مجرما وحكم بمنع صدور الجريدة بذنب غريب جدا في هذا الباب . وهو كلمة (يقوم) وردت في قصيدة . نشرت في تلك الجريدة !! قرر رئيس المجلس واعضاؤه من الترك ان كلمة (يقوم) معناها عنصر العرب . فذكرها تفريق بين العناصر العثمانية . وهو من اعظم الجنايات !! . [كما مر] ذلك بأن الترك يستعملون كلمة « قوم » بمعنى الجنس والجيل من الناس الذي يعبرون عنه بالعنصر . ولم يلتفت المجلس لاحتجاج المتهم بأن القصيدة المنشورة في جريدته عربية ولفظ القوم في اللغة العربية معناه الجماعة من الناس ، كما هو منصوص في المعاجم ، قيل يشمل الرجال والنساء ، وقيل هو خاص بالرجال ... وان الشعراء يستعملونه الآن بمعنى (يناس)

كانت جمعية الاتحاد والترقي قد صرحت تصريحا نشرته جريدتها (طنين) بالرجوع عن فكرة « تتريك العنصر » وكان ذلك مداراة لم يصدقه العمل . ولكنها في العهد الأخير عقدت اتفاقا مع (جمعية الشبيبة العربية) التي يمثلها (المنتدى الادبي) في الاستانة . واشهروا هذا الاتفاق بالاحتفالات والمآدب . وجعلوه وسيلة وذريعة للاتفاق بين جمعية الاتحاد والترقي والمؤتمر العربي الذي انعقد في

باريس . وصار زعماء الجمعية من وزراء الحكومة يزورون المنتدى الادبي ويحضرون بعض احتفالاته ، وتمثيل القصة العربية التي يمثلها اعضاؤه كل سنة . وقد احتفل اعضاء المنتدى في هذا العام بذكرى المولد النبوي الشريف فحضر احتفالهم فيه طلعت بك ناظر الداخلية وجمال بشا ناظر البحرية (الآن) وخطب طلعت بك بالتركية باستمساك الترك بالعرب ، وانهم اذا فروا منهم يتبعونهم ويلتزمونهم ، فاهتزت لهذه الخطبة اسلاك البرق في العالم ، ووعد الزعيم الكبير في خطبته هذه بأن يخطب في احتفال مولد العام القابل بالعربية . هذا بعد ان كان اعضاء المنتدى الأدبي لا يسمون انفسهم جمعية خوفا من اقفال الحكومة الاتحادية لناديهم . ومحاكمتهم على ذلك في المجلس العسكري العرفي . فأين هذا من تسقط هذا المجلس لبعض اعضاء المنتدى بتسميتهم جمعية ليعترف بعضهم بذلك فيحكم المجلس فيهم حكمه ؟ وقع هذا التسقط في تحقيق المجلس مع المتهمين في حادثة الاعتداء على صاحب جريدة (إقدام) التركية الشهيرة . عقب نشر مقالة أهين بها العرب . وكان المنتدى الادبي لم يتجاوز السنة الأولى من عمره .

علم من هذا ان السياسة الجديدة التي ظهر بها الاتحاديون في العاصمة هي ان العصبية الجنسية نافعة او ضرورية لترقي كل جنس ، وانه يمكن الجمع بينها وبين الوحدة العثمانية ، ولا سيما الوحدة بين العرب والترك من العثمانيين . وانه يجب على كل جنس ان يرقي نفسه من غير ان يضر غيره او يحول دون الوحدة العثمانية .

وقد سر جمهور المتعلمين من العرب بهذه السياسة الجديدة ، وهم لا يشترطون لاعتقاد اخلاص الاتحاديين للعرب فيها الا اطلاق الحرية لجرائدهم وجماعاتهم وافرادهم كما اطلقوها للترك . ومساواة الحكومة بينهما في التربية والتعليم والمساعدة على الاعمال . ولكن الترك في هذا الطور الجديد قد ألفوا عدة جمعيات تركية محضة ، وقاموا بعدة مشروعات تركية خالصة ، وألفوا عدة كتب ورسائل في النهضة التركية والرابطة الجنسية البحتة . وصار شغل جرائدهم الشاغل وجوب انشاء أمة تركية محضة ودولة تركية محضة وكان كلام بعضهم في هذا ان الدولة تركية لا عثمانية ، وان العثمانية وهم من الاوهام . ولم يفعل العرب شيئا يذكر من ذلك . نعم ان بعضهم

يتكلم او يكتب في الجرائد كتابة تعد ضئيلة نحيلة اذا قيست بما يكتبه الترك . ولم أر لأحد منهم مصنفا خاصا في هذا الموضوع الا رسالة لأحد أدباء بيروت من آل الفاخوري .ونشر بعض الغلاة منشورات تهييج وثورة وقالوا فيها ان لهم جمعية ، وانا لا اصدق ذلك

الجنسية والاسلام وحزب اللامركزية

بعد هذا كله قام من كتاب العرب كاتب من طائفة لها دين لا يتفق مع دين الاسلام في اصوله ولا فروعه (١) فكتب كتابا جعل نفسه فيه اشد اسلاما من جميع علماء الاسلام . واشد عصبية تركية من غلاة الترك انفسهم، واشد اتحادية من زعماء جمعية الاتحاد والترقي ووزرائها . إذ قام يجاهد فيه الجنسية العربية وحدها، ويجعلها هادمة للاسلام الذي يغار عليه بزعمه ما لا يغار عليه الذين افنوا اعمارهم في القيام به علما وعملا ودعوة ودفاعا . ويلصق تهمة هذه الجناية على الاسلام بحزب اللامركزية وحده . على ان حزب اللامركزية عثماني محض ليس في برنامجه ولا في بياناته كلمة واحدة تدعو الى الجنسية العربية ، او تنفر من الجنسية التركية . وانما هو يدعو جميع العثمانيين الى مطالبة الحكومة بالادارة اللامركزية . بالطرق المشروعة القانونية ، نعم ان فكرته قد انتشرت في العرب لأن المؤسسين له من العرب ، ولم يقدروا على نشر دعوتهم في غير الشعب العربي . وذلك الكاتب المنحي عليهم يقول : ان دعوتهم لم يحفل بها احد يذكر ، ولم يستجب لها الا عدد لا يقدم ولا يؤخر . فلماذا عني اذا بتأليف كتاب خاص في التشنيع عليهم ؟

ما رأيت مثالا لإطالة هذا الكاتب القدح في حزب اللامركزية ـ بدعوى الجناية على الاسلام بتقوية الجنسية العربية وجعلها هي واللامركزية التي تراد لاجلها اسرع ما يمحو الاسلام ويوقع المملكة في ايدي الاجانب . ! ! ـ الا

(١) دين هذه الطائفة سري ومن المعروف عنهم جواز مشايعة غير اهل دينهم على سبيل التقية . ولهذا صرح بعض الفقهاء بعدم الاعتداد باظهار احد منهم للاسلام . واما انا فارى صحة اسلام من تدل القرائن على صدقه ككن يصرح على مسمع من اهل ملته بالخروج منهم و بتخطئتهم في دينهم مع التزام الاسلام بالعمل .

ما اطال به كاتب امريكاني في التشنيع على جمعية ابطال المسكرات في امريكة . ذلك بان هذه الجمعية سلكت اخيرا السبيل القانوني الموصل الى غرضها الشريف ، وهوالسعي لانتخاب اعضائها ومشايعيها لمجلس النواب . وقد فازوا في بعض الولايات فوزا عظيما ، فانبرى لمحاربتهم تجار المسكرات ، الذين يربحون منها الملايين من الريالات ، وكان اغرب حربهم القلمية ، مقالات لأحد الكتاب عنوانها (الحرية الشخصية) ماترك هذا الكاتب شيئا اهتدى اليه باطلاعه وذكائه في مدح الحرية الشخصية الا وقاله ، وجعل ابطال المسكرات مزيلا له ، كأنه الذي يهدم الحكومات الدستورية ، ويوقع العالم في الفوضى والهمجية !! فكثير من كلامه حق أريد به باطل ، ومنه ما هو باطل أريد به باطل ، وهكذا فعل كاتبنا العربي . ونقول في كل منهما : انه يمكن تفنيد مقالاته . ودحض شبهاته . بمقالات اصح منها دليلا ، واقوم قيلا ، واوسع تفصيلا . ولكن الرد على ما يكتب اتباعا للهوى ، وارتيادا للمناصب إضاعة للوقت ، وسبب للتمادي في الباطل واللغو .

قد يظن هذا الكاتب ويظن من تقرب اليهم بما كتب ، ممن لا يحبون ان تقوم للعرب قائمة ، ولا تستيقظ لهم عين نائمة ، ان مثل هذه الكتابة تقنع السواد الاعظم من مسلمي العرب بأن لا يجيبوا دعوة لمن يدعونهم الى إحياء لغتهم ، والى قيامهم بعمران بلادهم ، والاستئثار بخيراتها دون الصهيونيين والاجانب ، الذين تقذفهم بهم الحكومة المركزية من كل جانب ، بما تعطيهم من امتياز ، وما تمكن لهم من امتلاك البلاد ، وان ينبذوا هؤلاء الدعاة الى الاصلاح نبذ النوى ، اعتقادا بصدق ذلك الكاتب في زعمه أن هذا يميت الاسلام ويزيل هداية السنة والقرآن ! وان هذا هو الذي يرمي اليه زعماء اللامركزية ، بدعوتهم الى احياء الجنسية العربية . وسيعلم الظانون كذب ظنهم . وان هذه الكتابة لا تخدع عامة العرب فضلا عن خاصتهم ، بل تكون سببا لقوة نهضة العرب ، واساءة الظن بمصادر هذه الخدع .

كنا عزمنا على ترك الكتابة في هذه المسائل ، ثم بدا لنا بعد هذه الخلابة والخديعة ؛ ان نبين للامة والتاريخ لباب الحقيقة ، وان ننشر نموذجا من كلام دعاة الجنسيتين التركية والعربية . لأجل المقارنة بينهما ، وليعرف اعتدال حزب اللامركزية

بين غلاتهما ، ومنه يظهر ان تخصيصه باللوم والتعنيف ، ليس نصرا للدين الحنيف ، اذ الدين لا يحيا الا بحياة لغته ، وارتقاء أمته ، واننا نبدأ بنموذج من كتاب (قوم جديد) لأنه جاء الدعوة الى الجنسية التركية من طريق الدين ، بما فيه اكبر عبرة للمعتبرين ، من التحريف والتبديل ، والتحريم والتحليل والتكفير بمحض الرأي والهوى . وجعل الدين كله كالمحصور في بذل المال والنفس لحكومة الاستانة الاتحادية

نموذج من كتاب (قوم جديد)

(مترجم عن النسخة التركية المطبوعة في الاستانة)

جاء في الصفحة ١٤ من هذا الكتاب :

يجب تعطيل المساجد والتكايا الموجودة في الاستانة ماعدا الجوامع التي بناها السلاطين . وتخصيص نفقاتها الى الشؤن الحربية والعسكرية كما ورد في الآيات الكريمة والاعمال النبوية .

وفي الصفحة ١٥ :

ورد منذ مدة في احدى الجرائد السياسية انه من الضروري الاهتمام بتعميم تعلم اللغة العربية لتفهم الامة على الاقل الخطب التي تلقى ايام الجمع في المساجد . وهذا الكلام يدل على البلاهة اذ بدلا من تعلم جميع الاتراك اللغة العربية تلقى الخطبة باللغة التركية ، وهل هناك امر اسهل من هذا ؟ لاسيما وان ترجمة الحديث والخطب والقرآن جائز في مذهب الامام الاعظم(١) . ان النبي لم يبعث الى العرب فقط لذلك أصبحت ترجمة القرآن الى اللغات الاخرى فرضا من الفروض(٢) (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)

نعم ان القرآن الذي نزل على سيدنا محمد المأمور بدعوة العالم جميعا الى الاسلام نزل باللغة العربية ولكن لا يستدل من هذا ان كل قوم دعوا الى الاسلام يكونون مضطرين الى تعلم اللغة العربية

وفي الصفحة ٢٥

وهنا اكرر ما قلته آنفاً من أن أكثر الناس يستثنى منهم الفقير المعدم والاعرج والاعور ومنهم المشايخ الذين يدعون انهم ورثة الانبياء والمدرسون والمفتون والقضاة

(١) كذب الكاتب في هذه الدعوى (٢) جعل الكاتب الجاهل نفسه شارعا . وقد افتى شيخ الاسلام في الاستانة بعدم جواز ترجمة القرآن

مشايخ الطورق والدراويش والتجار والصناع، والحاصل جميع الناس اصبحوا في حكم القرآن المجيد مرتدين ومن زمرة المنافقين ومن ثم وجب قتلهم، لانهم تعمدوا ترك الجهاد بالمال والنفس الثابت بوجود آلاف من الآيات البينات (وأورد هنا اثنتين منها؛ الاولى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين...الخ) والثانية (فرح المخلفون..الخ)

قال: ويتوقف تجديد ايمان هؤلاء اولا على الاشتراك بدنا بالحرب وثانيا على اعطاء نصف ما يمتلكونه الى دار الخلافة الاسلامية اذا كانوا من اصحاب الغنى والاموال ليتسنى لرجال الاسلام الانتقام من الكفار الفجار، ونزع البلاد التي انتزعوها من ايديهم، واعادة ذكر كلمة «الله» في مساجدنا وجوامعنا، واذا لم يفعلوا هكذا (أي اذا لم يدفعوا نصف ما يمتلكونه للدولة) فلا يقبل منهم تجديد الايمان فيحشرون وهم مرتدون وكفرة، ويلحقون بأهل جهنم. وهذا لابد منه ولو قرؤا في اليوم مئة الف مرة «آمنت بالله ....» ولو صلوا الليل والنهار ولو كانوا من الذين صلوا وراء النبي، ولو حجوا الى بيت الله الحرام مئة الف مرة، ولو كانوا بدرجة الامام الاعظم من العلم او بدرجة الغوث عبد القادر الكيلاني من القطبية.

وفي (ص ٢٧)

ان بعض المشايخ والحفاظ والحجاج في الاستانة وكثيرين ممن يتبعونهم وكلهم من الذين يجرؤن على ارتكاب انواع المنكرات اشتغلوا بالكتب كالحمير التي تحمل التوراة فتركوا الجهاد، والبعض منهم فسروا الآيات والاحاديث حسب ماتقتضيه منافعهم، وللحصول على غرض دنيوي. فلعنة الله على أمثال هؤلاء الحفاظ الذين يقرؤن القرآن بالدراهم وعلى المنافقين الذين تسلطوا بالاشتراك مع أعداء الدين على فرقة الاتحاد والترقي التي هي في الحقيقة الفرقة المحاربة والساعية لاتحاد الاسلام، والمجاهدة في سبيل تشييد قوى الاسلام، وبالنتيجة لعنة الله على الذين كانوا سبباً لدوس الملايين من المسلمين تحت اقدام أعداء الاسلام، وعلى اولئك الذين سلكوا طرق الدسائس والتفغيل والتزوير لمنع الذين كانوا يريدون ان يجاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لعنة الله عليهم وعلى آلهم واقوالهم وعلى تأليفاتهم ومصنفاتهم واعتقاداتهم أجمعين

وفي (ص٣١) يفسر آية (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) بما يأتي:

ان الذين ثبتوا في الصوم والصلاة والحج اعرضوا اليوم عن الجهاد المفروض مالا وبدنا واصبحوا خلاف رسول الله فهؤلاء من المنافقين

ان البروغرام القديم البالي الفاسد يعرف به بقاء الدين بالصوم والصلاة والحج . والحقيقة ليست كذلك بل هو حسب البروغرام الجديد بالجهاد مالا وبدنا . وهذا ثابت ايضاً بهذه الاية : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ... ﴾ فيفهم من هذه الآية صراحة ان المسلمين الموجودين تحت حماية ملوك النصارى ليسوا مسلمين بحق لان ملوكهم النصارى راضون عنهم ويضمونهم في صف امنهم، على ان الملل النصرانية لاترضى عنهم الا بعد ان يرتدوا الى دينهم الباطل .

وفي (ص ٣٢)

اذا رضي الكافر يغضب الرحمن، وكذلك اذا غضب الرحمن رضي الكافر . يعني اذا رضي كافر تمام الرضا عن مسلم فهذا المسلم يكون على كل حال موضوع قهر الرحمن وغضبه مثل المسلمين الساكنين في البلاد المسيحية. وبالعكس كل كافر يغاضب ويعادي مسلماً يكون موضوع رضاء الرحمن وحبه مثل خلفاء المسلمين من الأتراك .

وفي (ص ٣٣)

يفسر هذه الآية (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله) بما يأتي :

فيفهم من هذه الآية الجليلة ان دين المسلمين الموجودين تحت التابعية أوالحماية الروسية والانكليزية والفرنسوية لايتم ولا يعدون من المسلمين ماداموا لايشتركون في الجهاد المفروض وما داموا محرومين من اعانة الاستانة مالا وبدناً .

وفي (ص ٣٦)

ان من لايشترك من رعايا الدولة الاسلامية العثمانية الثابتة خلافتها بالنص القاطع(١) من العرب أو التتار أو الألبان أو أبناء مكة واليمن، والحاصل جميع الأقوام المختلفة اذا لم يشتركوا مالا وبدناً ونقداً بالجهاد الذي هو أعظم العبادات في صفوف حضرات عبد الرحيم وجمال ورضا وشكري وبكر وجاويد ورؤف وانور وعزت وطلعت وأمثالهم من أبناء الترك الذين هم أولياء الله صلى الله تعالى عليهم وعلى آلهم وأصحابهم وقدس الله أسرارهم ، يكونون في صف المرتدين عن الدين والمعتنقين طوعاً لدين الصليب الباطل. ومن هذا القبيل الأرناؤد، فانهم ارتدوا عن الاسلام ـ إما لاستعمالهم السلاح ضد الجنود الاسلامية مشتركين مع الكفار الفجار في ذلك ، أو إضعاف قوة الجيش الاسلامي بفرارهم من ساحات القتال ، فسببوا بذلك انهزام الاسلام وأصبحوا من الكفرة الفجرة ، ومن هذا القبيل أيضاً المصريون والهنود والبخاريون والتتار

(١) مذهب اهل السنة ان خلافة الراشدين لم تثبت بالنص بل باجتهاد الصحابة

الروسيون وسكان فاس وتونس والجزائر وأهل الحجاز واليمن فانهم لم يعدوا الخلافة الاسلامية بالنقد ، ولم يكتف قسم من العثمانيين الأتراك بذلك بل انهم اتفقوا مع قوزميدي وبوشو والبطركخانه الرومية واعانوا دين الصليب، واعلنوا العصيان سمعاً وطوعاً على الاسلام ، وأقاموا الدنيا على أهل الايمان .

وفي (ص ٣٩)

ان القوم العتيق (أي القدماء الذين لا يتبعون كتابه هذا) يتركون الاوامر الالهية الاصلية التي تعد بالألوف ويتمسكون بالصوم والصلاة والحج والزكاة وكلمة الشهادة فقط ، ويتخذون كتب البركوي والحلبي والشافعي والكنز ومنية المصلي والمالكي والحنبلي دستور العمل في أعمالهم وحركاتهم ، مع ان هذه الكتب مملوءة بالنفاق والشقاق والمنافرة (كذا) والاختلافات الكثيرة ، فالعمل بما فيها غير جائز

وفي (ص ٥٢)

أما القوم الجديد (ويريد بهم من مدحهم في كتابه من الترك الاتحاديين ومن يسير على طريقتهم وطريقه) فانهم لا يبالون بمثل هذه الخرافات القديمة بل انهم استخرجوا من الاحكام القرآنية والحديثية الاركان الدينية الآتية : (١)

١ - العقل

٢ - كلمة الشهادة

٣ - الاخلاق الحسنة

٤ - الجهاد مالا وبدناً والحرب .

٥ - السعي لاعداد لوازم الحرب بالاتحاد والاتفاق تحت راية الخلافة المعظمة العثمانية .

وفي (ص ٥٦ - ٥٧)

يجب ان تقرأ الخطب أيام الجمع والاعياد باللغة التركية ثم تقرر خطبة كل جمعة بتلقين من الحكومة تتضمن الاحوال السياسية .ويجب أيضا ان تفضل الامور السياسية في بعض الاحوال على الامور الشرعية حتى ولو لم تكن منطبقة على الاحكام الشرعية!! فتعطل موقتاً الامور الشرعية . ويوجد جواز شرعي للعمل هكذا بدليل وضع النبي توقيعه على عهدة الصلح في وقعة الحديبية مجرداً من ألقاب ونعوت النبوة حسب طلب

(١) اي ليس في دين (القوم الجديد) صلاة ولا صيام ولا زكاة ولا حج فهم لا يمتون الى المسلمين لأكل اموالهم ومشاركتهم في حقوقهم الا بعدم انكار الشهادتين . وعلى هذا كثير من ملاحدة العصر ومنافقيه كما قال المؤلف

كفار قريش ، وكما تقتضيه الاحوال ويوجبه الزمان . وكذلك الآيات الناسخة والمنسوخة هي من مقتضيات السياسة .

وفي (ص ٦٠)

وعليه فان الهنود الذين هم تحت حماية النصارى من الانكليز لوكانوا من اصحاب الاخلاق الحسنة فانهم لاريب محرومون من العقل ولو كانوا عقلاء لما رضوا بالذلة تحت حكم دولة ظالمة شريرة تسلك دين الصليب

(وفي ص ٦٣)

وبهذه الصورة سيخرج المسلمون المحكومون بالنصارى من دينهم بالتدريج ويندمجون بدين حكامهم . وسبب ذلك عدم ارتباط هؤلاء المسلمين مالا وبدنا بالخلافة الاسلامية

(وفي ص ٧٠ - ٧١)

كثير من المسلمين حتى من علمائهم ومشايخهم اثبتوا في الحرب البلقانية الحاضرة انهم ارتدوا عن دينهم لانهم ائتلفوا {عبر بلفظ الائتلاف في الاصل} مع البطركخانة لاجل الدراهم والمنافع ، ومن هذا القبيل أيضاً الضباط والجنود والمعممون الذين فروا من ساحات القتال ، فهؤلاء ليسوا مسلمين بل هم منافقون ومرتدون عن دينهم . أما المسلمون الحقيقيون فهم الذين حاربوا في حرب طرابلس الغرب وحرب البلقان تحت امرة انور ورضا واسعد وجاويد ورؤف صلى الله تعالى عليهم ، وبقية رجال جمعية الاتحاد والترقي المقدسة ، الذين لم يولوا ظهورهم الى العدو بل داوموا في جهادهم في سبيل الله ، فهؤلاء هم المسلمون الحقيقيون . وقد كان عدد الذين ينتمون الى جمعية الاتحاد والترقي في هذه الحرب لا يتجاوز مئة الف . اما الباقون فانهم كانوا من المرتدين المنتمين الى الائتلاف (أي حزب الائتلاف) والبطركخانات.

وفي ص ٧٦

يفسر آية (انما انا بشر مثلكم) — الحرب بيننا وبينهم سجال ينالون منا وننال منهم - أفإن مات .... الخ فيقول : انا بشر مثلكم فلا تستبعدوا موتي ، ان الانتصار في الحرب يتوقف على التجهيزات العسكرية ....

وفي ص ٨٥

ماهذا الجهل ؟ وما هذه الغفلة التي استولت عليكم ايها الناس ؟ تعلقون اسماء

خلفاء العرب على جدران جوامعكم (١) وتتركون اسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الاحاديث النبوية ولا تكتفون بذلك بل ينزل الخطيب قدمه واحدة عند مايذكر اسماء الخلفاء الترك تنزيلا لمقامهم وتذليلا ثم تزيدون ركعتين يوم الجمعة باسم « آخر ظهر » فكل هذا مبتدع ومحدث للحط بشأنكم سياسة .

انكم ايها الاتراك قوم مقدسون ومبجلون ومع ذلك تقدسون عبدالقادرالكيلاني والشيخ البدوي والشيخ الفلاني وتدعون ان الله وملائكته حتى الموكلين منهم بعذاب القبر منكر ونكير يتكلمون باللغة العربية وتقولون دائماً « أوله شام وآخره شام » وتسعون دائما لتفضيل ابناء الترك بأنه سيخرج من العرب مهدي . والحاصل تشتغلون منذ سبعمائة سنة بمثل هذه الخرافات ، فتفشون العالم وتحتقرون بذلك ابناء العثمانية النجباء الذين ما فتئوا يجاهدون في سبيل الله للدفاع عن الاسلام ويدفعون عنه تعرض الكفار الفجار له ، فكل ماذكرته موضوع بصورة خصوصية ومقصود بالذات لتحقيركم والحط من منزلتكم

أما سمعتم الآية (والعاديات ضبحا) فان الله قدس بهذه الآية الجيوش التركية نخيل هذه الجيوش هي اشرف واقدس اضعاف مضاعفة من شرافة وقداسة رؤساء واشراف الشعوب الاخرى الذين تقدسونهم وتحترمونهم . (٢)

**

(المنار) هذا نموذج من كتاب (قوم جديد) الذي صنف لاقناع الترك بما يجب ان يكونوا عليه في هذا العصر . ولا شك في كون جميع علماء الدين من الترك كغيرهم ينكرون هذه الضلالات المودعة في هذا الكتاب ويعلمون ان هذه الجرأة على تحريف القرآن واتخاذ الاسلام هزؤا ولعبا ، وهدم اركانه ، وتكفير اهله ، والكذب على الله ورسوله . المراد به تقوية الجنسية التركية - كله كفر وضلال . ولكن الملاحدة الذين ليس لهم من الاسلام الا اللقب الرسمي او الجغرافي يرضون بهذا ويغشون به جهلة العامة من الترك فما للمنكر على حزب اللامركزية تقوية الجنسية العربية باسم الاسلام ، لا يؤلف كتابا في الرد على هؤلاء الغلاة المحرفين للقرآن . الهادمين للاسلام؟؟

(١) جرت عادة اخواننا الترك بأن يعلقوا في قباب مساجدهم الواحا فيها اسماء الخلفاء الاربعة (رض) وسبطى الرسول (ص) (٢) اي كالخلفاء الراشدين وائمة آل البيت الطاهرين عند العرب

(نموذج من إنشاء طلبة دار الدعوة والارشاد)

اقترحنا الموضوع الآتي على طلبة السنة الأولى لاختبار انشائهم وآرائهم في هذه المسألة ، فاخترنا ان ننشر ما كتبه بعضهم كما كتبوه مع تصحيح بعض الغلط في الهامش ، وهو :

آداب الاسلام في معاشرة المخالفين ومعاملتهم

انشاء الطالب يس ابراهيم

لم ير التاريخ من لدن آدم الى ظهور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كالاسلام في معاملته وعدله ، ولم ينقل الينا أثر يدل على أن الاسلام عامل مخالفيه بالقسوة ؛ بل تواترت الآثار والشواهد الدالة على عدله ، وانه ماجاء الا لهداية البشر لما فيه صلاحهم في الحال وصلاحهم في المآل ، وأنه رحمة للناس كافة (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)

وإن اهم ما يستشرف منه على عدل الاسلام في معاشرة مخالفيه النظر في نصوص الدين ، فانه الميزان الذي يبين العدل من الجور ويفصل بين الضغط والحرية ؛ تأمل ترَ أن الاسلام قد بلغ حدا من القوة لا يقاومه صادٌّ . ولا يحركه مزحزح . ومع ذلك ينادي الاسلام (لا اكراه في الدين)

فلو ان الاسلام فيه شائبة من ظلم لحمل النـاس علي الدخول فيه كرها أيام استكمال القوة في عزه وشبابه ، كما يفعل اهل الأديان الأخرى في العصر الحاضر والقرون الخالية ، على ان السابقين معذورون . فانهم ماوصلوا الى درجة من العلم والحضارة تحملهم على الالتجاء الى العدل ، بخلاف اهل هذا الجيل فلا عذر لهم مع صياحهم بصوت العدل ، ولا يخفى على احد ما يفعلونه بالناس من حملهم على دينهم وسلب اموالهم وجعلهم خدما وعبيدا ، إما بالظلم البين ، او الجور المستتر ؛ وهو ما يسميه الاستاذ بالسياسة اللينة . فوربك أما تشعر الآن بأن الاسلام دين الرحمة والعدالة في القرون المظلمة خير من جميع الاديان وقوانين السياسة في عصر العلم والحضارة ؟

ان الاسلام لم يضغط على معاشريه ، ولم يحملهم على المعاملة بأحكامه ، بل جعل

لهم الحرية التامة في وضع احكامهم. وجعل عقوبة لمن يتعرض لهم بالاذى من المسلمين ، هكذا كان الاسلام في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وايام الخلفاء بعده. ومما يروى أن يهوديا جاء الى سيدنا عمر بن الخطاب شاكيا سيدنا عليا رضي الله عنهما من اجل دين ادعاه عليه ولما كان الخليفة يحكم بينهما رأى ان امير[1] جالسا قال « قم فساو خصمك » فيا لله ما هذا العدل والانصاف بين يهودي ومسلم لدى امير المسلمين ؟ ما انشأ هذا العدل لامن نور الاسلام وسماحته. ولا يتوهمن أحد ان القتال الذي وقع بين المسلمين ومعاشريهم ومن ساعدهم ينافي العدل ما دام يعلم ان الذنب على المعتدي . وان البادئ اظلم ، فمعلوم ان المسلمين ما آذوا أحدا ولم يكن غرضهم الا ايصال هذا النور الى القلوب. وكل ما وقع منهم انما هو دفاع عن انفسهم بأمر من الله تعالى بعد التعدي عليهم (فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فان انتهوا فان الله غفور رحيم)

وان الاسلام لم ينه معتنقيه عن موالاة من خالفهم . ولم يمنعهم من مواساتهم الا اذا كانوا يقاتلونهم ويعادونهم، والقرآن اعظم دليل على ذلك (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين * انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الفاسقون) اتراك بعد سماع هذه الآيت تشعر بان الاسلام ليس دين العدل والرحمة اذا ازلت عن بصرك غشاء العصبية ؟

فلو نظرت نظرة الانصاف ما وسعك الا التسليم بن آداب الاسلام في معاشرة المخالفين احسن الآداب . وكم عفا صلى الله عليه وسلم عن مذنب واحسن الى مسيئ ؟ وان التاريخ يدلنا على انه كان يتحمل أذى الاعداء . ودائما يتبع أثر السلم ولو بالحكم الشاق . ألا تراه مع كثرة تطلعه الى مكة. وشدة شوقه الى الكعبة ، وحنينه الى حجر أبيه ابراهيم، كيف قبل ان يرجع . مع وفرة القوة وامكان الوصول، وقساوة الشروط. التي منها أنه اذا ارتد احد من شيعته يقبلونه. واذا اسلم أحد منهم

(١) هذا غلط والمراد انه رأى عليا كرم الله وجهه

لا يقبله ـ على ما يقول التاريخ ـ وقد ترك زيارة البيت في هذا العام[١]. هكذا كان الاسلام ولم يزل في تسامحه وعدله بين أهليه ومعاشريه .

ومن أدب الاسلام انه لم يسمح المؤمنين أن يساعدوا الذين آمنوا ولم يهاجروا على من كان بينهم و بينهم ميثاق[٢] (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم و بينهم ميثاق. والله بما تعملون بصير)

ولعمري ما انتشر الاسلام على ما ترى الا بحسن آدابه وعدله في المعاملة. فان العدل يجمع القلوب، وبالآداب الحسنة تملك الازمة، ولا رأي للقائلين بالضغط والغلظة. والقول الفصل في هذا قول الله تعالى (ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك) فان الله تعالى اعلم بقلوب عباده، خبير بما يوحدهم ويجمع كلمتهم، وقد انزل القرآن وضمنه ما يكفل ذلك ان قام به اهله . ولوتصفحت القرآن آية آية لا تجده يأمر بالغلظة على من التزم حده.وانما قال (ادفع بالتي هي احسن) وقال (فبما رحمة من الله لنت لهم) الخ

وقد اجمع عقلاء الاجتماع[٣] على ان اللين خير من الشدة مهما كانت القوة، وانه ما أثر هذا التأثير رجل واحد الا باعطاء الحرية وانتشار العدل ومخاطبته العقول. ويخيل لي بل ربما كان اقرب الى الحقيقة ان الذي يحتاج الى استعمال الشدة والقوة والغلظة هو من يدعو الى شيء باطل. فان العقول بطبعها تنفر عنه. فان اخذ اصحاب الباطل وسائل القسوة والضغط ربما امكن ان يخضعوا بعض الناس في الظاهر زمنا ما، ولا يلبث ان يحصل رد الفعل ويرجع الناس الى فطرتهم، وان الاسلام ما جاء بشيء يناقض الفطرة فكان مقبولا بمجرد وصوله الى الآذان الصاغية. ولذلك قال الله تعالى (ان عليك الا البلاغ) فلو ان المسلمين قاموا بما اوجب الله عليهم و بلغوا هذا الدين الى الناس كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح وتدبره الناس لدخلوا في دين الله افواجا ؟

(١) المنار: يشير الكاتب الى صلح الحديبية ولكنه قصر في البيان واختار الاختصار المخل (٢) أي من المشركين (٣) الظاهر انه كان يريد ان يقول « علماء الاجتماع » فسبق القلم

آداب الاسلام في معاشرة المخالفين ومعاملتهم

انشاء الطالب محيي الدين رضا

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك ربي ما احكمك ، واحكم شرعك ونبيك ، لقد صببت الآداب والفضائل كلها في كتابك الحكيم ، واجريتها على لسان خاتم المرسلين ، فبأي لسان نحمدك ونمجدك ؟ وباي عمل نشكرك على آلائك واحساناتك ؟ فشكرا لك من عبد ضعيف ، وصلاة وسلاما على نبيك الأمين .

الاسلام وما ادراك ما الاسلام ؟ الاسلام هو ذلك الدين الذي سوى بين الامير والحقير (بل لاحقير عنده) أما بلغك خبر الأمير العادل «عمر بن الخطاب» مع ذلك الأمير الغساني جبلة بن الايهم الذي وطئ الاعرابي وصفعه[1] على قفاه ؟ هل قبل منه عمر أن يجعل بينهما درجات متفاوتات؟ كلا ! ثم كلا! ولذلك فر الغساني هاربا الى القسطنطينية ولا تسأل عما حل به من الندم بعد ذلك . فشعره يشهد على ندمه العظيم

هذا ما كان من عمر في قضية الأمير الغساني والصعلوك العربي ، وانظر الى ما كان منه مع ابن عمرو بن العاص حينما ساط القبطي الذي سبقه (ولا تنس فضل ابيه الفاتح وانه كان صغير السن قد يهفو) فقد كتب الى ابيه : ياعمرو منذكم استعبدتم[2] الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا ؟

ما هذا بعدل انسان ، انما هو من هدى القرآن ، نعم هذا هو سبيل الاسلام وأمرائه ، وليس بعجيب ان قلنا إن التاريخ لم ير أعدل منه . ولعلك تتذكر أن عليا (وهو صهر الرسول وابن عمه) تحاكم مع يهودي امام قاض مسلم[3] فكناه القاضي ونادى الآخر يا يهودي! فغضب علي من القاضي وقال له : ما كان لك ان

---

(١) الصواب : وطئ الاعرابي ذيله فصفعه الخ (٢) الرواية المشهورة « مذكم تعبدتم الناس » الخ وان عمر استقدم عمرا مع ولده الى المدينة وأمر القبطي ان يضرب ابنه كما ضربه وقال له « اضرب ابن الاكرمين » اذ كان ابن عمرو لما ضرب القبطي يقول : انا ابن الاكرمين . (٣) انما تحاكما الى عمر بن الخطاب فخاطب عمر اليهودي باسمه ، لا بنسبته الى قومه

تفعل هذا في موقف اقتضاء بل كان يجب أن تسميني وتسميه .

خير الأمور التسامح في محله وقد جرت الشريعة الاسلامية على هذه الفضيلة وحثت عليها في مواضع شتى . وكم من موقف لأمراء الاسلام وعلمائه اسرع التاريخ اليه فاقتنصه وحلى به جيده العاطل . فالشريعة تنادي اهلها ان : خالقوا الناس بخلق حسن . (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) « من غشنا فليس منا » (يا ايها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة. كذلك كنتم من قبل » الآية . (ن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) . (واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) .

ولو أردنا تتبع ما ورد في الشريعة من الآي والحكم الواردة بخصوص المخالفين لنا فقط لما أمكننا في هذا الموقع . غير اننا نعلم بالجملة من تاريخ السلف الصالح ومما اقتبسناه وأرشدنا الى تدبره من قرآن وحديث ، أن الدين الاسلامي خير دين قد أخرج للناس يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحترم المصالح العامة والخاصة. ولا يأمر الا بكل خير وصلاح لمعتنقيه والمستظلين برايته البيضاء. حتى يجعل الجميع في هناء . يرفلون في حلل السعادة وطيب العيشة الراضية :

لا تظن ان الاسلام احتقر اهل الذمة واهتضم حقوقهم. كلا ! بل هو مع ذلك لم يرغمهم على التدين به وهو خير دين (لا اكراه في الدين) فالدين قد جعل لهم أحكاما ترضيهم، فعقد لذلك الفقهاء الابواب والفصول ؛ وكلها مستمدة من الدين القويم، فقد جعلهم احرارا . واي حرية اكبر من حرية ذلك اليهودي الذي اخذ بتلابيب النبي صلى الله عليه وسلم يجذبه اليه ويصيح به . فهم عمر باستلال السيف فناداه النبي : دعه فانه له حقا (١)

(١) الرواية ان اليهودي اراد اختبار خلق النبي (ص) فاشترى منه تمرا الى اجل واعطاه الثمن وجاء يطالبه بالتمر قبل الاجل بيومين ، فاخذ بمجامع قميصه وردائه ونظر اليه بوجه غليظ وقال : الا تقضيني يامحمد حقي؟ فوالله انكم يابني عبد المطلب مطل . فوبخه وهدده عمر فقال له النبي (ص) بهدوء « انا وهو كنا =

هذه الواقعة التي وقعت من ابي المسلمين محمد (ص) نعطينا درسا اجتماعيا كبير الأهمية عظيم المنفعة، وتعظم منزلة الدين في نفوسنا، ولعلنا نقوم فنحا كي سلفنا الصالح ونسير على نهجه القويم فنعود أمة حيـة، وليس بعجيب على التاريخ أن يعيد نفسه؛ ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لهذا بدون اثارة الغبار على من خالفنا، كما نسأله أن يهدي مخالفينا ويجعلنا أمة صالحة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر

آداب الاسلام في معاشرة المخالفين ومعاملتهم

إنشاء الطالب عبد الرحمن عاصم

اقتضت حكمة الله تعالى بأن يرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، بدين الفطرة السليمة والعقل الصحيح، ليكون الناس أمة واحدة تجمعهم جامعة الدين على كلمة الاخلاص لله وحده، والشهادة لنبيه محمد (ص) بالرسالة، فجاء صلى الله عليه وسلم مبشرا ونذيرا. وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا. جاء كما قال (ص) ليتم مكارم الاخلاق. جاء بالآداب السامية والاخلاق الشريفة، من بعد ما اعد الله تعالى لقبولها نفوسا زكية وأرواحا طاهرة. فتقبلتها بقبول حسن، وأنبتتها نباتا حسنا، فكان الناس يدخلون في دين الله افواجا، لما يرون من السـعادة في لباسها. وقد سمعت عن كاتب فرنسي ترجم رواية عربية وكتب لها مقدمة قال فيها ما معناه ــ إن من سوء حظ فرنسا أن صادمت العرب [ويريد المسلمين]. ومنعتهم من استعمار بلادها، لأنها لو تركتهم يعمرون البلاد لسبقت فرنسا الأمم الى المدنية والحضارة بسنين عديدة(١) هذي شهادة رجل بعيد عن الآداب الاسلامية ــ والفضل ماشهدت به الاعداء ــ (٢) يقول الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون

= احوج الى غير هذا منك ياعمر: تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التقاضي، اذهب به فاقضه وزده عشرين صاعا مكان ما رعته» فأسلم اليهودي لذلك. رواه الطبراني وابن حبان والحاكم والبيهقي. (١) الصواب لسبقت الامم الاوربية بعدة قرون. والرواية التي اشار اليها هي رواية العباسة أخت الرشيد لجرجي بك زيدان (٢) إيراد هذا المثل هنا حجة على الكاتب

عن المنكر) وبين طريقة الدعوة واسلوبها بقوله سبحانه (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن) فبهذي الآية أمرنا الله تعالى بأن ندعو ونخاطب مخالفينا ومعاندينا باللين واللطف، ونحاجّهم بالتي هي احسن، حتى نستميلهم الى الاسلام ليكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

والآثار التاريخية التي تدل على تسامح المسلمين مع مخالفيهم كثيرة منها أن يهوديا لقي النبي (ص) وطالبه بدين له ثم امسك بثوبه وهزه ، وصفح عنه الرسول (ص) الصفح الجميل . ومن آداب الاسلام في معاملة المخالفين أن الرسول (ص) كان غانما في غزوة من غزواته نعما كثيرة وجاءه احد كبار المشركين ورآها ترعى فأعجب بها فوهبه اياها الرسول (ص) فأسلم المشرك لما رأى من سماحة النبي (ص) وكرم اخلاقه . ومن آداب الاسلام في معاشرة المخالفين أن ابن فاتح مصر كان يتسابق مع المتسابقين فسبقه قبطي فأخذته العزة فلطمه، ووصل الخبر لصاحب العدل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخليفة الثاني، فكتب الى ابن العاص يعاتبه على هذا ويزجره قال (ياعمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً)[1]

ومن ذلك ما يحكى عن جبلة بن الايهم أنه كان يطوف في البيت مسبلا إزاره ومر به فزاري فوطئ الازار فسقط عن منكبي جبلة فلطمه جبلة لطمة فشكا الفزاري جبلة لسيدنا عمر (ض) فأمر عمر بأخذ حق الفزاري من جبلة ــ وكان من كبار العرب ــ فقال جبلة ياعمر أتساويني بهذا الرجل وانا ابن الايهم؟ فقال عمر (ض) الاسلام قد ساوى بينكما . الخ

ومن آداب الاسلام التسوية في الحقوق بين الناس . ومن ذلك ما روي في رسالة سيدنا عمر بن الخطاب الى عبد الله بن قيس في القضاء[2] (سوّ بين الناس في عدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك) هذا وان من ينظر في جميع الاديان التي عليها الناس فلا يجد دينا كالدين الاسلامي في آدابه في معاشرة المخالفين ومعاملتهم . فقد روي عن نبي الرحمة محمد (ص) انه

(١) بينا الصواب من الرواية في هامش النبذة التي قبل هذه (٢) كتاب عمر في القضاء هذا كتبه الى ابي موسى الاشعري (رض)

قال في الذميين ما معناه (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)[1] وقد عرفنا التاريخ ذلك فانهم بقوا في أوطانهم يقيمون شعائر دينهم آمنين على انفسهم متمتعين بالرفهية والنعيم.

كل ما أتيت به من حسن معاشرة المسلمين للمخالفين ومن المساهلة في معاملتهم انما هو أثر من آثار الدين الاسلامي الذي جاء به محمد (ص) نورا وهدى ومزكيا، جاء الناس بسلام من عند ربه ليكونوا به آمنين. جاء مسهلا لا معسرا. مبشرا لا منفرا. ليجمع الناس على صفاء واخلاص يحب الرجل لأخيه ما يحب لنفسه، بل (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة)

اذا تبين لنا ما جاء به الاسلام من حسن المعاشرة، واللين في المعاملة. فلا يضيرنا قول جاحد. ولا يهمنا صوت مفسد. اذ ليس من كل الاصوات تجب الهيبة. بل نقول لأولئك المنكرين لهذه الفضائل (لكم دينكم ولي دين)

كيف لهؤلاء الناس يقولون على دين الله ما لا يعلمون. ويزعمون أن الاسلام شديد في معاملاته. والله يقول (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)

آداب الاسلام في معاشرة المخالفين ومعاملتهم

انشاء الطالب عبد العزيز العتيقي

الدين الاسلامي دين الرحمة والعدل. دين الحكمة والعقل. دين الاحسان والفضل. دين يأمر بالاحسان لجميع البشر، دين يأمر بالرأفة بالحيوان فضلا عن الانسان. يظهر ذلك في اقوال النبي صلى الله عليه وسلم وافعاله. وما جرى عليه الخلفاء الراشدون وجميع السلف الصالح من بعده

اجل نظرة في سيرته الطاهرة تجدها حافلة بالمواعظ مشحونة بالوصايا بالحث على الاحسان لجميع الخلق كقوله (ص) «الخلق كلهم عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله» وقوله «في كل ذي كبد حرى صدقة[2]» ما هذه الرحمة والحنان! ما هذه الشفقة

---

(١) الحديث ورد في المهاجرين، واستعمل العلماء العبارة في حقوق الذميين

(٢) الحديث «في كل ذات كبد حرّى اجر»

والاحسان !ما هذه الرأفة التي لم تقصر على بني البشر بل عمت كل من اتصف بالحياة .

الله اكبر ان دين محمد وكتابه أقوى واقوم قيلا
لاتذكر الكتب السماوية[1] عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلا

أدر بصرك في أفعاله (ص) تجد انه كان يقابل السيئة بالحسنة . اضرب لك مثالا صغيرا تقيس عليه ما لم تعلم . كان احد اليهود يؤذيه (ص) ويضع الاقذار في طريقه اذا خرج الى المصلى، فلما مرض ذلك اليهودي فقده (ص) بفقد ما كان يضع فسأل عنه (ص) فقيل انه مريض فذهب (ص) لزيارته. فلما رأى ذلك اليهودي فعله وحفاوته به مع علمه انه يعلم ما كان يصنع في اذيه، قال اشهد ان لا إله الا الله. وان محمدا عبده ورسوله . فيا حبذا لو جرى المسلمون على هذه القاعدة في معاملة مخالفيهم في الدين . اخوانهم في الوطن والبشرية . فوالله لو جروا على هذه القاعدة لدخل الناس في دينهم افواجا .

من راجع القرآن الشريف وجد نصوصه الكريمة في كيفية الدعوة تدور على محور الحكمة والعقل والاحسان والفضل . قال تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن) وامتن تعالى على نبيه (ص) بقوله (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وقال تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) وقال (ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن)

نرجع الى النظر فيما جرى عليه السلف الصالح في ذلك اي في معاملة مخالفيهم في الدين ، نجد أنهم جعلوا لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، لا فرق بين المسلم وغيره في الحقوق . انظر الى ما قاله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص فاتح مصر حينما تسابق ابنه مع ابن القبطي فسبقه فلطمه ابن عمرو وافتخر عليه بآبائه . فلما بلغ ذلك عمر رضي الله عنه ارسل اليه يهدده ويقول له : «متى استعبدتم الناس يا عمرو وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا » وحكم عليه بان يرضي القبطي او يقتص منه[2] . وقصة اليهودية

(١) الصواب : السوالف (٢) تقدم الصواب في الرواية

صاحبة البيت الذي كان في المسجد مشهورة، بل نرى من تسامحهم انهم قد أرقوهم (؟) الى اعلى المراتب فاتخذوا منهم الـكتاب وغيرهم. وقد اتخذ الحرس في المدينة المنورة في يوم من الايام من النصارى . ومن راجع تاريخ الدولة العباسية في عنفوان التمدن الاسلامي رأى أن للذميين من ذلك حظا وافرا، فقد أرقوهم (؟) الى اعلى المناصب فصار منهم الاطباء والندماء للملوك وغيرهم.هذه المعاملة تمثل لنا عدالة الدين الاسلامي وتسامحه وآدابه الراقية

فعلى رجال الدعوة والارشاد الذين قد اخذوا على عواتقهم هذه الامانة وعاهدوا الله عليها ــ وهي ارشاد المسلمين الى اوامر دينهم ودعوة غيرهم اليه ــ أن يظهروه في ثوبه الحقيقي . وان يجعلوا نصوص الـكتاب والسنة وأعمال النبي « ص » والسلف الصالح امام اعينهم ليسيروا عليها . وليفطنوا لمقصد الدين التي جاء اليها . وهي اصلاح نفوس البشر وتحليتها بالفضائل ، وتطهيرها من الرذائل ؛ لتكون اهلا لجوار الله تعالى في الآخرة ، واصلاح حال المجتمع الانساني في هذه الدار التي قدر له ان يعيش فيها برهة من الزمن. وليعلموا الناس أن الله قد جعلهم شعوبا وقبائل للتعارف والتعاون (وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا . ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وان الله غني عن العالمين .

آداب الاسلام في معاشرة المخالفين ومعاملاتهم

انشاء الطالب محمد أبو زيد

قال الله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) من فقه حكمة الاسلام ووقف على مقاصده وما يرمي اليه، عرف أن المراد منه اتمام الفطرة البشرية بما يصلح به شأن الانسان في حياته الاولى ، وينال به الرضوان الاكبر في حياته الأخرى (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)

ولما كان حسن المعاشرة والمعاملة من اعظم ما يكون في النفس الملكات الفاضلة ، ويقوي الصلة بين الافراد والامم، كان مما امتاز به ذلك الدين العناية بشأنها ، والحث عليها ، غير ناظر الى ما يكون عليه المعاشر او المعامل من المخالفة - وليست المخالفة قاصرة على الدينية فقط بل يدخل فيها الجنسية واللغوية وغيرها

ولقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك فلم يتجاوز امر ربه في دعوة مخالفي دينه بالحكمة والموعظة الحسنة (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن) حتى كان من تمام رقته في مخاطبته ما حكاه عنه ربه (وانا او اياكم لعلى هدى اوفي ضلال مبين) ولم يترك التلطف في معاملاتهم حتى جعل لمن دخل في حوزته واطمأن من جهته الامان من كل ما يشينه، وحافظ على حقوقه كما يحافظ على جميع المسلمين . وسار من بعده من اهل العدل على قوله (لهم ما لنا وعليهم ماعلينا) حتى لقد شغل كثير منهم مراكز في الحكومات الاسلامية المتقدمة وغير ذلك مما يشهد به التاريخ

هذا وان الاسلام بريء مما يرميه به اعداؤه من التعصبات الدينية على زعمهم - نظرا لما قرره في أصوله المبنية على الدليل والبرهان « قد تبين الرشد من الغي » كما وانه (؟) قد قضى على الجنسيات والامتيازات بغير ما فيه التقى (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) فما اعظمه من دين سوى بين الطبقات بعدله ، فانقذ الناس من العبودية القديمة ، وما اعرفه بحقوق الانسان ! قرر الفضيلة برتبتيها - العدل والاحسان - فقضى له بالاولى ليكون مرفوع الرأس آمنا من الذل (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وخيره في الثانية ليذوق حلاوة فضله و يشعر بلذة احسانه (فمن عفا واصلح فأجره على الله)

فوالله ما وجد للبشر دين أرحم على الانسان منه ، ولا عرف ضمير المخالفين معاملة أوفى من معاملته ، دين يقول كتابه (ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) جدير بان يسود بمتبعيه

دين يقول نبيه « سلم على من عرفت ومن لم تعرف » « خالق الناس بخلق حسن » حقيق بان يسعد من دخل في حظيرته . دين يقول كتابه (ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم) ويقول نبيه « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه » لا يسع كل مجرد عن الاغراض بعيد عن الهوى الا ان يقر بفضله ، ويخر ساجدا لآياته

دين قد شهد لنفسه بما أحدثه في العصور الخالية من الانقلاب المدهش، واقر له اعداؤه - والفضل ما شهدت به الاعداء - بان التاريخ لم ير اكثر عدلا ولا احسن معاملة من اهله ، لاشك في تسامحه ، ولا ريب في كونه دين الاصلاح العام لجميع البشر

مصاب مصر والشام . برجال العلم وحملة الاقلام

٢ ـ الشيخ حسن المدور

هو من بيت معروف في بيروت . اشتغل من اول نشأته بطلب العلوم العربية والشرعية ، وصحب الاستاذ الامام ايام هجرته في بيروت وتلقى عنه ، فاستنار عقله ، واشرب حب الاصلاح في قلبه ، ولكنه كان يداري الجامدين ، ويخاف شر المستبدين ، فلهذا لم ينهض بالدعوة الى الاصلاح ، ولم يقم بمظاهرة الظاهرين بها في زمن الاستبداد . على انه كان يدرس ويفيد الطلاب باعتداله ورويته ، وقد رغب الي منذ سنتين ان ارسل اليه ما طبع من (تفسير القرآن الحكيم) ليقرأه درسا في الجامع الكبير ، فلم ابادر في ارساله اليه ، فكنت في ذلك مخطئا ، وما كنت التمسه لنفسي من العذر في التأخير كان ضعيفا .

وكان الفقيد كريم الاخلاق ، حسن المعاشرة ، واسع الحلم ، شديد الاحتياط في أموره ، فوجود فقيه مثله في بيروت كان ضروريا ، اذ كان رحمه الله تعالى وسطا بين تشديد الجامدين ، وشذوذ المتساهلين المفرطين ، فهو من الافراد الذين لاتستغني أمتنا الاسلامية في قطر ولا مصر عن واحد أو آحاد منهم في هذا العصر — عصر التحول والانقلاب . وقد كان مسلمو بيروت مستفيدين من هذه المزية من مزاياه وان لم يعرفها له الجمهور منهم .

وقد صار في العهد الاخير أمينا للفتوى في بيروت فكان خير عون وظهير لمفتيها لهذا العهد صديقنا الشيخ مصطفى نجا . ويسوءنا اننا لا نعرف من ترجمة هذا الصديق شيئا كثيرا نثبته في ترجمته ، ليكون ذكرا باقيا له ، فنحن نعلم انه كان يفيد طلاب العلم والمستفتين بعلمه وعقله وأدبه . ولا ندري أكتب شيئا من الكتب والرسائل المفيدة ام لا . وقد خسرت بيروت بفقده خسارة لا عوض لها الآن عنها ، لضعف الاشتغال بالعلوم الدينية فيها . وهو قد دخل في العقد السادس من عشرات سني عمره ، وكان جيد الصحة فعرض له المرض أياما معدودات انتهت باجله ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة

٣ — الشيخ محيي الدين الخياط

ولد بمدينة صيدا في رجب سنة ١٢٩٢ فكانت وفاته في أواخر السنة القمرية المتممة للاربعين : ورأينا في بعض جرائد بيروت التي أبنته ان والده من السلالة العلوية ، وانه لرغبته عن التفاخر بالانساب لم يكن يعرف عنه كلمة تدل على ذلك ، وان أمه ألبانية الاصل ، وكانت كريمة الخلق ذكية الفؤاد ، فهي التي تولت تربيته

وعنيت بتعليمه . وقد تعلم التعليم الابتدائي في مدرسة لجمعية المقاصد الخيرية في بيروت ، وتلقى بعض علوم الادب والدين عن الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي والشيخ يوسف الاسير البيروتي اللذين انتهت اليهما رئاسة العلوم العربية والشرعية في بيروت . ثم كان جل تحصيله بجده واجتهاده في المطالعة والمراجعة والتعليم ، وعني بالكتابة العصرية ونظم الشعر فكان في الرعيل الأول من فرسانهما في وطنه . وعلم في بعض المدارس ، وحرر في عدة جرائد ، وألف عدة كتب قرظها المنار في ازمنة نشرها ، حتى صار اشهر شبان النهضة الاسلامية في بيروت

لقيته في بيروت قبل هجرتي الى مصر ، فاذا هو شاب يتدفق غيرة على الامة وشعورا بسوء حالها، وشدة حاجتها الى الاصلاح ومجاراة الامم الحية. ولما أنشأت المنار جعلته وكيلا له في بيروت وما يتصل بها، فقبل ذلك بالارتياح ، وكان مغتبطا بالمنار اشد الاغتباط ،على ما كان في ذلك من الخطر والتعرض لاذي الحكومة الحميدية. ولكنه عهد بعد ذلك بتوزيعه وجمع مال اشتراكاته لصاحب له من ذوي المطامع الدنيئة وفاسدي الاخلاق، فغشنا به ـ غير متعمد ـ عدة سنين سامحه الله وعفا عنه.

كان الفقيد صاحب همة علية ، وحب للاستقلال الفكري والحرية ، وميل شديد للسياسة ، ولو أتيح له ان يعيش في بلاد حرة بعمل يستقل به لظهر من استعداده ما كان كامنا ، ولصار من اشهر كتاب العصر المصلحين . ولكنه كان ضعيف الثقة باستقلال نفسه في العمل، فلم يتجرأ على الهجرة ولا على النهوض بعمل مستقل غير مضمون الربح ، ولهذا باع قلمه لاصحاب الجرائد بالاجرة مراعيا مشاربهم ومذاهب سياستهم فيها ، فكان لا يؤلف كتابا الا بعد ان يتعاقد مع رجل يطبعه على نفقته، ويكون ملكا لطابعه من دونه ، وكان الباعث له على ذلك الحاجة الى المال، وحب التعجل بربح قطعي بلا نفقة ولا انتظار، وكان من لوازم هذه الطريقة من الكسب بالقلم اختيار ما يروج عند الطابعين وسرعة التأليف، فالوقوف به عند حد في استطاعة المؤلف ما هو أعلى منه. ولولاها لم ينحصر جل ما كتبه في كتب التعليم الابتدائي، فانه لم يؤلف الا كتب دروس التاريخ الاسلامي والعربية والفقه والمطالعة للمدارس الابتدائية . وعلق على ديواني ابي تمام وابن المعتز تفسيرا لغريبهما سلك فيه مسلك الاختصار المخل ، واوقعه الاستعجال في كثير من الغلط ، على أنه كان من أحرص كتاب العصر على ضبط اللغة وصحة العبارة ، والثقة مما يضبطه بدقة المراجعة . فكان يضاهي الشيخ ابراهيم اليازجي في هذا . وكان يعرف اللغة التركية ، وترجم عنها قصة (الوطن) لنامق كمال بك الشهير .وكان يرجى من خدمته للغة العربية ما هو اعظم من ذلك ، ولكن كان من سوء حظ الامة العربية ان فقدته عند ما بلغ اشده واستوى ، وقوي في اتقان خدمة الامل والرجاء عرضت له حمى وهو في عنفوان

قوته ، فقضت في اسبوع واحد على حياته ، فخسرت بفقده الامة العربية قلما سيالا ، وذهنا جوالا ، وهمة لا تعرف ملالا ولا كلالا .

٤ — الشيخ محمد جمال الدين القاسمي

هو علامة الشام ، ونادرة الايام ، والمجدد لعلوم الاسلام ، محيي السنة بالعمل والتعلم ، والتهذيب والتأليف ، وأحد حلقات الاتصال بين هدي السلف ، والارتقاء المدني الذي يقتضيه الزمن ، الفقيه الاصولي ، المفسر المحدث ، الاديب المتفنن ، التقي الاواب ، الحليم الاواه ، العفيف النزيه ، صاحب التصانيف الممتعة ، والابحاث المقنعة ، صديقنا الصفي ، وخلنا الوفي ، واخونا الروحي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ، واحسن عزاءنا عنه .

نشأ الفقيد في بيت من بيوت العلم والدين في دمشق الشام ، ولد سنة ثلاث وثمانين ومئتين والف . وتلقى مبادئ العلوم العربية والشرعية عن والده الشيخ سعيد بن الشيخ قاسم الملقب بالحلاق . والقاسمي نسبة الى الشيخ قاسم هذا . ووالدته علوية يتصل نسبها بنسب الشيخ ابراهيم الدسوقي الشهير . وقد عني الفقيد في آخر عمره باثبات هذا النسب ، وكتب له شجرة ، وجاء مصر في العام الماضي لشؤون تتعلق بذلك . فسررنا بلقائه ، وجددنا ما لاتخلقه الايام من عهود إخائه . وكتبنا له كما أحب كلمات على نسبه . وقد صار بعض تلاميذه واصحابه يطلقون عليه لقب « السيد » بعد تحرير هذا النسب ، بناء على القول بعموم شرف الاسباط . ولكن العرف الذي عليه أكثر المسلمين على خلاف هذا القول . والكثيرون من أهل سورية يطلقون لقب « السيد » على من ليس له لقب علمي ولا رسمي ، ولعل ذلك من نزغات الامويين ، في هضم حقوق العلويين . والشيخ غني عن هذا اللقب ، الذي لا يفهم المراد منه أحد .

وقد تلقى العلوم المتداولة في الشام عن الشيخ بكري العطار اشهر علمائها وفقهاء الشافعية فيها ، وكان يحضر مجالس الاستاذ الكبير الشيخ عبد الرزاق البيطار مجدد مذهب السلف في الشام ، وقد استفاد من علمه وعقيدته الأثرية وهديه واخلاقه المرضية ، ما لم يستفده من غيره . وصحب الاستاذ المعمّر المفنن الشيخ طاهراً الجزائري ، فاستفاد من صحبته علما بحال العصر ، ومعرفة بنوادر الكتب وغرائب المسائل ، وصحب العالم المستقل الشيخ سليم البخاري ، وأترابا من خيرة شبان العصر المدنيين كرفيق بك العظم ومحمد افندي كردعلي وغيرهما وجماعتهم . فكان لصحبة هؤلاء الشيوخ والشبان ، وهم خير من انبتت الشام في هذا الزمان ، تأثير عظيم في حياته العلمية ، من حيث فتحت لاستعداده الفطري ، واستقلاله الوهبي ، ابواب البحث والتحقيق ،

وعدم الوقوف عند المسلمات من التقاليد ، ونبهته الى حاجة الامة الى الاصلاح المدني كحاجتها الى الاصلاح الديني . وجاء مصر مع الاستاذ البيطار ، على عهد الاستاذ الامام ، فاغتبطا بلقائه واغتبط بلقائهما ، وصارت المكاتبة بعد ذلك متصلة بينه و بينهما

وإنما كان جمال الدين ذلك الرجل بجوهر نفسه ، وقوة استعداده ، وكم من طالب علم سمع مثل ما سمع ، ولقي من الشيوخ والشبان مثل من لقي ، فأنكر كل ما خالف - وعلى كل من خالف - ما عرف وألف . ولم يهده ذلك الى طلب علم جديد ، ولا الى مراجعة النظر واستشارة الدليل . فالحق ان الافراد الذين امتازوا في هذا العصر من أمتنا بالعلم الصحيح والتصدي للاصلاح ، انما امتازوا اولا بقوة الاستعداد ، والميل الفطري الى الاستقلال ، ثم سلوك النظر والاستدلال ، فمن كان هكذا نفعه لقاء اهل الاختصاص ، والاطلاع على احاسن الكتب والاسفار ، فيكون في ذلك كالنحلة في الروض ، تجني من ناضر الازهار ويانع الثمار اطيب ما فيها .

رغبت بعض المدرسين ، في قراءة كتاب احياء علوم الدين ، فقلب او راقه كلها او بعضها ، فلم يقع اختياره على شيء يقرأه منها ، الا بعض حكايات الصالحين ، وبعض الآثار في فضائل الاعمال . فهو لم يستفد من علم الغزالي مسألة ما ، ولم يعقل من خصائص الكتاب شيئا . ذلك بان هم ذلك المدرس كان محصورا فيما رأى عليه أمثاله ، وهو انتقاء ما يرضي الناس و يلذ لهم ، ولا يذكرهم بشيء من جهلهم ، ولا يكشف لهم الستار عن شيء من عيوبهم ، ولا ينذرهم سوء عاقبة افراطهم وتفريطهم .

نعم ان كل فرد من أولئك الافراد القلائل الذين نعدهم في هذا العصر من المصلحين - وصديقنا المترجم منهم - لم يكن امتيازهم الا بصفاء جوهرهم وقوة استعدادهم الفطري للاستقلال والكمال . مع التوفيق للطلب والاشتغال ، واتفاق لقاء بعض أصحاب المزايا من الرجال ، ذلك بانه ليس في أمتنا مربون ، ولا معلمون مصلحون ، لا في البيوت ولا في المدارس ، ولو وجد فينا كثير من القادرين على التربية الصحيحة والتعليم الاستقلالي ، لوجد في كل بلد - لا في كل قطر فقط - كثير من أمثال القاسمي .

ظهر الشيخ جمال الدين في الشام على حين فترة من العلماء ، فقد كان من ادرك من كبار شيوخها آخر الذين عنوا بدراسة الكتب المعهودة التي يطلق على مدارسيها لقب (علماء) على ان العلم الصحيح - وهو العلم الاستقلالي المبني على الدليل - كان قد حجر عليه وحكم بحريته من عدة قرون ، فلم يكن أحد يشم ريحه ولا يشيم وميضه الا قليلا ، وصار الناس كالخفافيش لا يفتحون في هذا النور عينا ، ولا يجيلون في شعاعه فكرا . . ظهر الفقيد وفي دمشق الشام أفراد ورثوا عن آبائهم واجدادهم عمائم العلماء والقابهم والرواتب التي كانوا يأخذونها من اوقاف المسلمين

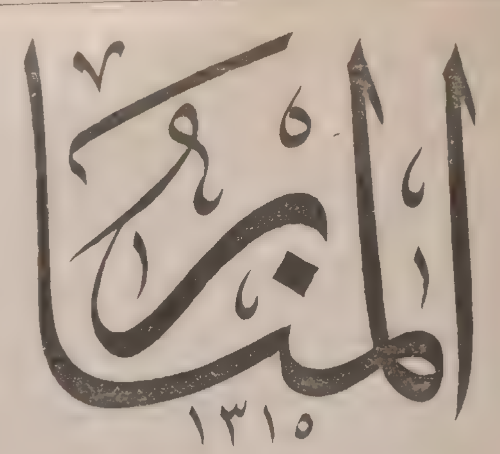
ولم يرثوا عنهم من العلم بتلك الكتب شيئا . فتهم العلم ولم يفتهم صرف الاوقات كلها في استنباط الحيل للتمتع بجاهه ومجده ، تبعا للتمتع بالقابه وأزيائه ونقده ، فكان من اكبر الخطوب عليهم ان يروا في الشام عالما يتصدى للتدريس والتصنيف ، و يبين حاجة البلاد الى الاصلاح والتجديد . فاذا تصدى لذلك أحد يكيدون له المكايد ، و ينصبون له الحبائل ، و يبغونه الفتنة ، و يجعلونه في موقف الظنة ، فيسعون به الى الحكام ، انصار كل منافق ، و يهيجون عليه العوام ، اتباع كل ناعق . فماذا يعمل العالم المصلح بينهم ؟

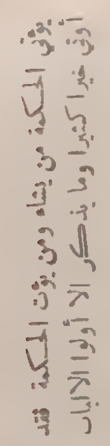
اذا كان عمل القاسمي للاصلاح وتجديد علوم الدين صغيرا في نفسه ، فهو كبير جدا في بلاده و بين قومه ، فما القول فيه اذا كان عمله كبيرا في الواقع ، وقد عظم المطلوب وقل المساعد ؟

كان رحمه الله تعالى يقرأ الدروس العربية والشرعية للطلبة وللعامة ، ويخطب في المسجد خطبة الجمعة ، و يصنف الرسائل والأسفار الممتعة ، و يصحح ما يرى نشره نافعا من كتب المتقدمين ، و يشرح المختصر ويختصر المطول منها ، و يسعى في طبعها ونشرها ، و يبث روح الاستقلال والاستدلال في ذلك كله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هي احسن . وكم سعى فيه وكاد له أولئك المعممون الجامدون فأنجاه الله منهم ، وان اكبر الكبائر التي يتهمون بها كل من يدعو مثله الى العلم والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، هي محاولة هدم الدين بفتح باب الاجتهاد والاستدلال ، وما يستلزمه ذلك بزعمهم من تحقير الأئمة ، ومن اتبعهم من علماء الأمة !! وقد اتهم مرة بذلك مع بعض اصدقائه وعقد لهم مجلس في المحكمة الشرعية وسألهم القاضي عن تلك التهمة ، واخذ الفقيد من دونهم الى دار الشرطة ، وحبس فيها بضع ساعات .

كان له رحمه الله تعالى دروع سابغات من اخلاقه وسيرته ، تقيه بغي أعداء العلم والاصلاح من حساده ، اذ كان نزيه اللسان ، بعيدا عن المراء والجدال ، متجنبا للازراء بغيره ، والتعريض بغميزة خصمه اومدح نفسه ، غيرمزاحم لوارثي العمائم على الحطام ، ولا مسابق لهم الى ابواب الحكام ، - الى ما كان عليه من العبادة ، والعفة والاستقامة . (للترجمة بقية)

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ شعبان ١٣٣٢ ﻫ ق ٢ الصيف الثاني ١٢٩٢ ﻫ ش ٢٤ يوليو ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٦٧) وقالت اليهود: يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا . وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيمة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا . والله لا يحب المفسدين (٦٨) ولو أن أهل الكتب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنت النعيم (٦٩) ولو أنهم أقاموا التورية والإنجيل وما أنزل إليهم

مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ. مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ

لما أسرفت يهود المدينة وما حولها في عداوة النبي (ص) بعد مافضلهم على مشركي قومه. وأقرهم على دينهم وما في أيديهم، بين الله تعالى له مخازيهم التي يشهد بها تاريخهم وكتب دينهم، وما كان من تأثيرها في أخلاق المعاصرين له وأعمالهم. ثم عطف على ما تقدم من ذلك هنا قولا فظيعا قاله بعضهم يدل على الجرأة على الله تعالى فيهم، الذي هو أثر ترك التناهي عن المنكر فيما بينهم، فقال:

﴿ وقالت اليهود : يد الله مغلولة ﴾ هذا القول الفظيع من شواهد قولهم الاثم الذي أثبته فيما قبل هذه الآية. وقد عزي اليهم — وهو قول واحد أو آحاد منهم — لانه أثر ما فشا فيهم من الجرأة على الله وترك انكار المنكر — كما قلنا آنفاً — والمقر للمنكر شريك الفاعل له. وهذا هو وجه وصل هذه الآية بما قبلها

روى ابن اسحق والطبراني في الكبير وابن مردويه عن ابن عباس — : قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس: ان ربك بخيل لا ينفق. فأنزل الله « وقالت اليهود» الآية. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس أنها نزلت في فنحاص رأس يهود بني قينقاع. وروى ابن جرير مثله عن عكرمة. وروى عن مجاهد انهم قالوا: لقد يجهدنا الله يابني اسرائيل حتى جعل يده الى نحره — أو حتى ان يده الى نحره. فعلى هذا يكون مرادهم أنه ضيق عليهم الرزق. كأنهم اعتذروا بهذا عن انفاق كان تطلب منهم، أو في حال جدب أصابهم. قيل: كانوا اغنى الناس فضاق عليهم الرزق بعد مقاومتهم للنبي (ص) — وروى عن السدي في قولهم ومرادهم —: قالوا: ان الله وضع يده على صدره فلا يبسطها حتى يرد علينا ملكنا. وروى عن ابن عباس في معنى عبارتهم أنه قال: ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكنهم يقولون انه بخيل أمسك ماعنده، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. فجعل العبارة ابن عباس من باب الكناية لامن باب الحقيقة

وقد جعل بعض أهل الجدل الآية من المشكلات لان يهود عصره ينكرون

صدور هذا القول عنهم ، ولانه يخالف عقائدهم ومقتضى دينهم . ومما قالوه في حل الاشكال : إنهم قالوا ذلك على سبيل الإلزام ، فانهم لما سمعوا قوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له) قالوا : من احتاج الى القرض كان فقيرا عاجزاً مغلول اليدين ، بل قالوا ماهو أبعد من هذا في تعليل قولهم والخرص في بيان مرادهم منه ، وما هذا الا غفلة عن جرأة أمثالهم في كل عصر . على مثل هذا القول البعيد عن الادب بعد صاحبه عن حقيقة الايمان ، ممن ليس لهم من الدين الا العصبية الجنسية ، والتقاليد القشرية ، فلا اشكال في صدوره عن بعض المجازفين من اليهود في عصر النبي (ص) وقد كان أكثرهم فاسقين فاسدين . وطالما سمعنا ممن يعدون من المسلمين في عصرنا مثله في الشكوى من الله عز وجل والاعتراض عليه عند الضيق . وفي ابان المصائب ، وعبارة الآية لاتدل على ان هـذا القول يقوله جميع اليهود في كل عصر . حتى يجعل انكار بعضهم له في بعض العصور وجهاً للاشكال في الآية ، وانما عزاه الى جنسهم لما ذكرناه آنفاً . على أن الناس في كل زمان يعزون الى الامة مايسمعونه من بعض أفرادها اذا كان مثله لاينكر فيهم . والقرآن يسند الى المتأخرين ما قاله وفعله سلفهم منذ قرون . بناء على قاعدة تكافل الامة وكونها كالشخص الواحد . ومثل هذا الاسلوب مألوف في كلام الناس أيضاً

واليد تطلق في اللغة على عدة معان يقول أهل البيان ان بعضها حقيقة و بعضها من المجاز أو الكناية . فتطلق على الجارحة وعلى النعمة والقدرة والملك والتصرف وغير ذلك . رأى أهل التأويل ان هذه الآية يجب تأويلها لان اليد بمعنى الجارحة مما يستحيل نسبته الى الله تعالى ، ويقول بعض أهل التفويض بل نثبت له اليد وننزهه عن لوازم هذا الاطلاق من مشابهة الناس ، وتفسير ابن عباس امام مفسري السلف والخلف للآية يدل على أنها ليست مما يجري فيه الخلاف بين الخلف والسلف في التأويل والتفويض . لان استعمال غل اليد في البخل و بسطها في الجود معروف في اللغة مألوف . ومنه قوله تعالى (١٧ : ٢٩ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) ولا يقول أحد يفهم اللغة ان هذا من اخراج اللفظ عن ظاهره المسمى عندهم بالتأويل .

أما قوله تعالى ﴿ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾ فهو دعاء عليهم يناسب جرمهم هذا، وجزاء لهم بالطرد والابعاد من رحمة الله تعالى وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين. قد جاء على طريقة الاستئناف البياني لانه مما تستشرف له النفوس وتتساءل عنه بالفعل او بالقوة . والمشهور من معنى «غلت أيديهم» أمسكت أيديهم وانقبضت عن العطاء والانفاق في سبيل البر والخير. وهو دعاء عليهم بالبخل؛ وما زالوا أبخل الامم فلا يكاد أحدمنهم يبذل شيئاً. الا اذا كان يرى أن له من ورائه ربحاً . وقد حسنت أحوالهم في هذا الزمان . وارتقت معارفهم وحضارتهم في كثير من البلاد ، وتربوا في أمم من الافرنج صار من تقاليدهم الاجتماعية بذل المال لمعاهد العلم والملاجئ والمستشفيات والجمعيات الخيرية ، وهم على كونهم أغنى هذه الامم ومضطرون لمجاراتها لا يبذلون الا دون ما يبذل غيرهم من الاعانات الخيرية. بل هم على شدة تكافلهم واستمساكهم بالعصبية الملية فيما بينهم. قلما يساعد أغنياؤهم فقراءهم بالصدقة الخالصة لوجه الله تعالى وحبا في الخير، بل يتجرون ويرابون بالإعانات ، فيعطون الفقراء مالا على أن يعملوا به في تجارة أوغيرها ، بشرط أن يردوه في مدة معينة مع ربا قليل في الغالب

وقيل : أن المراد بغل الايدي ربطها الى الاعناق بالاغلال في الدنيا أو في النار أو فيهما . نقل عن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذا الغل : يغلون في الدنيا أسارى وفي الآخرة معذبين بأغلال جهنم . وقال في تفسير اللعنة : عذبوا في الدنيا بالجزية وفي الآخرة بالنار . حكاه عنه نظام الدين النيسابوري في تفسيره. وأورد واقعة بهذا المعنى حدثت في زمنه قال : ومما وقع في عصرنا من إعجاز القرآن ما حكي ان متغلبا من اليهود مسمى بسعد الدولة ـ وهو من أشقى الناس ـ كان سمع بهذه الآية. فاتفق أن وصل الى بغداد فنزل بالمدرسة المستنصرية، ودعا بمصحف كان مكتوباً بأحسن خط وأشهره من خطوط الكتاب الماضين . وكان يعلم ان أهل هذا العصر لا يقدرون على كتابة مثله ، ثم قال : أين هذه الآية ؟ ــ يعني قوله « غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » فأروه اياها فمحاها . فلم يمض الا أسبوع الا وقد سخط السلطان عليه وبعث في طلبه وأمر بغل يديه، فغلوه وحملوه اليه فأمر بقتله. اه

والمراد ان السلطان غضب عليه بسبب من أسباب شقاوته التي عرف بها لا بسبب

اعتدائه وتشويهه للمصحف ، لأن السلطان لم يعلم بذلك، ولاجل هذا عد المصنف الايقاع به من معجزات القرآن . وإنما عجبنا نحن في هذه الحكاية من تساهل المسلمين في عهد الحكومة العباسية كيف وصل الى هذا الحد. رجل من أشقياء اليهود أهل النفوذ يجيء بغداد فينزل في مدرسة من أشهر المدارس الاسلامية ويكون له من حرية التصرف فيها والعبث بكتبها ما يمكنه من تشويه مصحف أثري كان أحسن المصاحف التي حفظها التاريخ في بغداد ؟ !! فليعتبر بهذا التسامح المعتبرون

ثم رد عليهم تعالى بقوله ﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ أي بل هو صاحب الجود الكامل ، والعطاء الشامل ، عبرعن ذلك ببسط اليدين لان الجواد السخي اذا أراد أن يبالغ في العطاء جهد استطاعته يعطي بكلتا يديه . وصفوه بغاية البخل والامساك ، فأبطل قولهم وأثبت لنفسه غاية الجود وسعة العطاء . ولا غرو فكل مايتقلب فيه العالم كله من الخير والنعم ، هو سَجل من ذلك الجود والكرم، والنكتة في قوله « كيف يشاء » بيان أن تقتير الرزق على بعض العباد ، الجاري على وفق الحكمة وسنن الله تعالى في الاجتماع ، لاينافي سعة الجود ، وسريانه في كل الوجود ؛ فان له الارادة والمشيئة في تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، بحسب السنن التي أقام بها نظام الخلق .

والعجب من الامام الجليل أبي جعفر ابن جرير الطبري كيف صور استعمال لفظ اليد هنا أحسن تصوير ، ثم خفيت عنه نكتة تثنيته فجعلها حجة المفوضة على أهل التأويل ، ونحن معه في اثبات الصفات ، ننعي على المؤولين النفاة ، ولا يمنعنا ذلك أن نفهم نكتة تثنية اليد، من استعمال لفظها المفرد ، قال ابن جرير بعد تفسير غل اليد بالامساك وحبس العطاء عن الاتساع مانصه : وانما وصف تعالى ذكره اليد بذلك والمعنى العطاء لان عطاء الناس و بذل معروفهم الغالب بأيديهم، فجرى استعمال الناس في وصف بعضهم بعضا اذا وصفوه بجود وكرم ، أو ببخل وشح وضيق ، باضافة ما كان من ذلك من صفة الموصوف الى يديه ، كما قال الاعشى في مدح رجل :

يداك يدا جود فكف مفيدة   وكف اذا ماضُن بالزاد تنفق

فأضاف ما كان صفة صاحب اليد من انفاق وافادة الى اليد ، ومثل ذلك في كلام العرب في أشعارها وأمثالها أكثر من أن تحصى ، فخاطبهم الله بما يتعارفونه او يتحاورونه بينهم في كلامهم اه . ثم لما ذكر قول من قال من أهل الجدل ان يد الله نعمته أو قدرته أو ملكه . وقول من قال ان يد الله صفة من صفاته غير أنها ليست بجارحة كجوارح بني آدم ، ـ رد القول الاول ورجح الثاني بتثنية اليد وعدم إفرادها ، وابطال قول من قال ان التثنية بمعنى الجمع .

نعم ان التثنية ليست بمعنى الجمع ، واليد واليدين لم يقصد بلفظهما النعمة ولا القوة ولا الملك ، وانما الاستعمال في الموضعين من الكناية ، ونكتة التثنية افادة سعة العطاء ومنتهى الجود والكرم . وليس في هذا القول المروي عن ابن عباس تأويل ، ولا نفي لما أثبته البارئ لنفسه من صفة اليد واليدين والايدي في آيات أخرى ، وما سبب ذهول ابن جرير عن نكتة التثنية الا توجهه الى الرد على أهل الجدل في المذهب الذي كانوا قد انتحلوه في تأويل الصفات ، ومتى وجه الانسان همه الى شيء يكون له منه حجاب ما عن غيره . وتقرير الحقيقة لذاتها ، غير الرد على من يعدون من خصومها ، (ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ولهذا غلط كثير من أنصار مذهب السلف في مسائل خالفوا فيها المذهب من حيث يريدون تأييده . وهذه آفة من آفات عصبية المذاهب لا تنفك عنها

﴿ وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفرا ﴾ الخطاب للنبي (ص) أي ان هذا الذي أنزلناه عليك من خفي أمور هؤلاء اليهود المعاصرين لك ومن أحوال سلفهم وشؤون كتبهم وحقائق تاريخهم، هو من أعظم الحجج والآيات على نبوتك، فكان ينبغي أن يجذبهم الى الايمان بك ، لانك لولا النبوة والوحي لما علمت من ذلك شيئاً ـ لامن ماضيه لانك أمي لم تقرأ الكتب، وما كل من قرأها يعلم كل ماجئت به عنهم ـ ولا من حاضره لانه من خفايا مكرهم وأسرار كيدهم ـ ولكنهم لتجاوزهم الحدود في الكفر والحسد للعرب والعصبية الجنسية لانفسهم ، لايجذبهم الى الايمان ولا يقربهم منه الا قليلا منهم ، ووالله ليزيدن كثيرا منهم طغياناً في بغضك وعداوتك وكفرا بما جئت به . قال قتادة : حملهم حسد محمد (ص) والعرب على ان

كفروا به - وفي رواية : على أن تركوا القرآن وكفروا بمحمد ودينه - وهم يجدونه مكتوباً عندهم . فعلم مما شرحناه ان زيادة طغيان الكثيرين منهم وكفرهم جاء على خلاف الظاهر وضد مايقتضيه الدليل . فلهذا اكده بالقسم الذي تفيده اللام في قوله « وليزيدنّ »

﴿ وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ﴾ قال المفسرون ان الضمير في قوله « بينهم » يرجع الى اليهود والنصارى في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) رواه ابن جرير عن مجاهد واقتصر عليه . وعزاه غيره الى الحسن أيضاً ، ورواه أبو الشيخ عن الربيع ، فلا نعرف في التفسير المأثور عن السلف غيره . وفي تفاسير المتأخرين احتمال أن يكون الضمير لليهود وحدهم ، ويراد به حينئذ عداوة المذاهب والبغضاء بين الافراد ، لان هذا لا ينقطع من بين الناس ، ولكن لايظهر معه فائدة لتخصيص اليهود به ، وهم الآن من أشد الامم تعاطفا وتعاضدا وائتلافا . وأما العداوة بينهم وبين النصارى فلم تنقطع ، وهي على أشدها الآن في بلاد روسية وعلى أقلها في انكلترة وفرنسة وألمانية ، لما في هذه الممالك من القوانين الحرة والحكومات المنتظمة ، ولما للمال وأهله فيها من النفوذ والتأثير في السياسة وسائر شؤون الاجتماع ، واليهود أغنى أهلها ، والمديرون لأرحية اعظم الاعمال المالية فيها . وهم على مكانتهم هذه مبغوضون من جماهير النصارى ، وكم ألفت كتب في فرنسة وغيرها في التحريض عليهم . وقد أخبرني ألماني من العلماء المستشرقين أنهم لا يعدون اليهودي في بلاده منهم ، بل يقولون هذا يهودي وهذا ألماني . واما العداوة بين النصارى فهي اشد ، وان دولهم الكبرى تستعد دائما لحرب يسحق بها بعضها بعضا .

﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ الحرب ضد السلم وليس مرادفا للقتال بل اعم - كما حققناه في تفسير آية المحاربة من هذه السورة - فهو يصدق بالاخلال بالامن ، والنهب والسلب ولو بغير قتل ، ويصدق بتهييج الفتن والاغراء بالقتال ، خص مجاهد الحرب هنا بحربهم للنبي (ص) والحسن باجتماع السفلة من الاقوام على قتل العرب . وقال السدي في تفسير الجملة : كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقه الله وأطفأ حدهم ونارهم وقذف في قلوبهم الرعب . وفسره الربيع بما كان من مفاسدهم الماضية

التي أغرت بها البابليين والروم قبل النصرانية وبعدها ثم المسلمين ، كأنه يرى أن أن ايقادهم لنار الحرب هو تلبسهم بالاعمال التي هي سبب لها ، وان لم يريدوها بها . والمراد ان الله تعالى يخذلهم في كل ما يكيدون به لرسوله وللمؤمنين الصادقين ؛ فإما أن يخيبوا ولا يتم له مايسعون اليه من الاغراء والتحريض، وإما ان ينصر الله رسوله والمؤمنين . وكذلك كان ، وصدق الله وعده ، وأعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده .

وجعل بعض المفسرين ذلك عاما عملا بظاهر اللفظ دون السياق والقرينة والاسباب والعلل ، فقال الزمخشري في تفسيره : كلما أرادوا محاربة أحد غلبوا وقهروا ولم يقم لهم نصر من الله على أحد قط ، ـ ثم قال ـ وقيل كلما حاربوا رسول الله (ص) نصر عليهم . اه وما اخترناه أظهر

ومن المفصل في السيرة النبوية ان اليهود كانوا يغرون المشركين بالنبي (ص) والمؤمنين ، وكان منهم من سعى لتحريض الروم على غزوهم ، ومنهم من كان يقطع الطريق على المؤمنين ويؤوي أعداءهم ويساعدهم ، ككعب بن الاشرف

وكل ما كان من مقاومة اليهود للنبي (ص) والمؤمنين كان سببه الحسد والعصبية، وتوقع الاحبار والرؤساء ازالة الاسلام لما كان لهم من الامتياز بين العرب في الحجاز من مكانة العلم والمعرفة . اذ كان المشركون يحترمونهم لكونهم أهل كتاب وعلم وان لم يدينوا بدينهم . فكانت عداوتهم للمسلمين عداوة سياسية جنسية ليست من طبيعة الدين ولا من روحه، ولذلك كان ضلع اليهود مع المسلمين في الشام والاندلس لما رأوا ماعند مسلمي العرب من العدل ، المزيل لما كان عليه الروم والقوط من الجور عليهم والظلم . وكذلك كانت عداوة النصارى للمسلمين في الصدر الاول للاسلام سياسية ، ولذلك كانت على أشدها بينهم وبين الروم (الرومان) المستعمرين للبلاد المجاورة للحجاز كالشام ومصر ، وكان نصارى البلاد أقرب الى الميل للمسلمين بعد ماوثقوا بعدلهم ، لما كانوا يقاسون من ظلم الروم على كونهم من أهل دينهم . وهذا شأن الناس في العداوة والمودة ابدا ، يتبعون في ذلك مصالحهم ومنافعهم ، فلا ينبغي ان يجعل ما ذكر وصفاً ذاتيا لهم او لدينهم ، ولينتظر القارئ شهادة الله تعالى للنصارى بكونهم

اقرب مودة للمؤمنين بعد آيات قليلة . فتحتم ان العداوة من السياسة لامن الدين .

﴿ ويسعون في الارض فسادا ، والله لايحب المفسدين ﴾ اي انهم لم يكونوا فيما يأتونه او على مايأتونه من عداوة النبي والمؤمنين وايقاد نيران الحرب والفتن والقتال ، مصلحين للاخلاق والاعمال ، او لشؤون الاجتماع والعمران ، بل كانوا يسعون في الارض سعي فساد أو لأجل الفساد ، بمحاولة منع اجتماع كلمة العرب . وخروجهم من الامية الى العلم . ومن الوثنية الى التوحيد . و بالكيد للمؤمنين . وتشكيكهم في الدين ، حسدا لهم ، وحبا في دوام امتيازهم عليهم . والله لايحب المفسدين في الارض ، فلا يصلح عملهم . ولا ينجح سعيهم . لانهم مضادون لحكمته في صلاح الناس وعمران البلاد

والدليل على صحة هذا ان الله ابطل كل ما كاده اولئك الاقوام، للنبي (ص) وللعرب والاسلام . وان العرب لما اجتمعت كلمتها وصلحت حالها بالاسلام، أصلحوا بين الناس ، وعمروا الارض في كل بلاد كان لهم فيها سلطان ، وأما غيرهم فكانوا مفسدين بالظلم ومخربين للبلاد . فالاسلام يأمر بالصلاح والاصلاح على اكمل وجه وهو ما يحبه الله تعالى، فلما قام المسلمون به حق القيام ، ايدهم ونصرهم على جميع من ناوءهم من الاقوام. وكذلك التوراة والانجيل ما أنزلت الا لهداية الناس الى الصلاح والاصلاح . وانما كان اهلها مفسدين في ذلك العصر . لانهم تركوا هدايتها ، كما هو شأن جماهير المسلمين في هذا العصر : تركوا هداية القرآن، وأعرضوا عما أرشد اليه من الصلاح والاصلاح . فزال ملكهم . وسلط الله عليهم غيرهم . وقس جزاء الآخرة على جزاء الدنيا . فكل منهما مرتب بحسب حكمة الله تعالى على صلاح النفوس والاصلاح في الاعمال ، وبناء على هذه الحقيقة قال :

﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ﴾ أي لو انهم آمنوا بخاتم النبيين والمرسلين ، واتقوا باتباعه تلك المفاسد التي جروا عليها، لكفرنا عنهم تلك السيئات لان هذا الايمان يجب ما قبله ، والتقوى التي تتبعه تزكي النفس وتطهرها من تأثير تلك السيئات فيمحى أثرها ، ويكون ذلك كفارة

لها . فيستحقون جنات النعيم التي لا بؤس فيها

﴿ ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ إقامة التوراة والانجيل العمل بهما على أقوم الوجوه وأحسنها ، سواء فيه عمل النفس وهو الايمان والاذعان ، وعمل القوى والجوارح . أي لو أقاموا ما في التوراة والانجيل المنزلين من قبل بنور التوحيد والفضائل، المبشرين بالنبي الذي يأتي من أبناء أخيهم اسماعيل كما قال موسى ، والبارقليط روح الحق الذي يعلمهم كل شيء كما قال عيسى (عليهم السلام) وأقاموا بعد ذلك ما أنزل اليهم من ربهم على لسان هذا النبي الذي بشرت به كتبهم وهو الفرقان الذي أكمل الله به الدين — لو أقاموا جميع ذلك ولم يفرقوا بين رسل الله وكتبه — لوسع الله عليهم بالتبع لذلك ما يهمهم من موارد الرزق ، فأكلوا من الثمرات والبركات التي تنتج من أمطار السماء ونبات الارض، وتمتعوا بما وعد الله به هذا النبي وأمته من سعة الملك.

وقيل إن المراد بما أنزل اليهم من ربهم سائر ما أوحاه الله تعالى الى أنبيائهم من أمر الدين وآدابه والبشارة بالنبي الاخير (ص) كزبور داود وحكم سليمان وكتب دانيال وأشعيا وغيرها عليهم السلام وفي مجلدات المنار بيان لكثير من هذه البشارات. واقامة هذه الكتب من أسباب الصلاح والاصلاح . فلو أقامها قبل البعثة المحمدية اهل الكتاب ، لما غلب عليهم ما عزاه المؤرخون اليهم من الطغيان والفساد ، ولما عاندوا النبي المبشرة به ذلك العناد . ذلك بأنهم لم يقيموها ولا تدبروها ، وانما كان الدين عندهم أماني يتمنونها ، وبدعاً وتقاليد يتوارثونها. فهم بين غلو وتقصير، وافراط وتفريط. والمراد أن دهماءهم وسوادهم الاعظم كان كذلك كما يعلم من تواريخهم وتواريخ غيرهم . ومن دقة القرآن وعدله . تمحيص الحقيقة في ذلك بقوله :

﴿ منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ أي منهم جماعة معتدلة في أمر الدين ، لا تغلو بالافراط ولا تهمل بالتقصير. قيل هم العدول في دينهم ، وقيل هم الذين أسلموا منهم . والمعتدلون لا تخلو منهم أمة ، ولكنهم يكثرون في طور صلاح الامة وارتقائها، ويقلون في طور فسادها وانحطاطها . وهل تهلك الامم لا بكثرة الذين يعملون السوء من الاشرار ، وقلة الذين يعملون الصالحات من

الاخيار ؟ — وهؤلاء المعتدلون في الامم هم الذين يسبقون الى كل صلاح واصلاح يقوم به المجددون من الانبياء في عصورهم ، ومن الحكماء في عصورهم ، ولما جاء الاصلاح الاسلامي على لسان خاتم النبيين والمرسلين (ص) قبله المقتصدون من أهل الكتاب ومن غيرهم؛ فكانوا مع اخوانهم العرب من المجددين للتوحيد والفضائل والآداب . والمحيين للعلوم والفنون والعمران ، فهل يعتبر المسلمون بذلك الآن ، ويعودون الى اقامة القرآن ، وأخذ الحكمة من حيث يجدونها ، وعدد الاصلاح والسيادة من حيث يرونها ، أم يفتؤن يسلكون سنن من قبلهم في طور الفساد والإفساد ، شبرا بشبر وذراعاً بذراع، ومنه الغرور بدينهم مع عدم اقامة كتابه ، والتبجح بفضائل نبيهم على تركهم لسنته وآدابه ؟

روى ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله (ص) قال « يوشك أن يرفع العلم » قلت : كيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال « ثكلتك أمك يا ابن نفير ، إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة ، أوليست التوراة والانجيل بأيدي اليهود والنصارى؟ فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله» ؟ ثم قرأ (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) الآية . وأخرج أحمد وابن ماجه من طريق ابن أبي الجعد عن زياد ابن لبيد قال : ذكر النبي (ص) شيئاً فقال « وذلك عند ذهاب العلم » [1] قلنا يا رسول الله : وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم الى يوم القيامة ؟ قال « ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد ، ان كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والانجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء » اه من الدر المنثور. والشاهد فيه أن العبرة بالعمل بما في الكتب الالهية والاهتداء بهدايتها . وقد كان أهل الكتاب في ذلك العصر أبعد ما كانوا عن هداية دينهم مع شدة عصبيتهم الجنسية له ، كما هو شأن المسلمين اليوم ، على أن عصبيتهم الجنسية له قد ضعفت أيضاً واستبدل كثير منهم بها جنسية اللغة أو الوطن

---

(١) في نسخة الدر المنثور المطبوعة كلمة « ابنائنا » مكان كلمة « العلم » وهو غلط ظاهر وهذه الطبعة كثيرة الغلط

ولا يمنعنا من الاعتبار بهذا الحديث ماعلل به من الضعف وانقطاع السند والقلب والاختلاف ، لاننا لانريد أن نثبت به حقيقة ولاحكما شرعيا لادليل عليها سواه . وهو لا يدل على سلامة التوراة والانجيل من التحريف بالزيادة والنقصان، لانهما على ثبوت ذلك يشتملان على التوحيد والهداية الى البر والتقوى، ولكن أهلهما لايقيمون ذلك، فالحجة عليهما قائمة على كل حال. وقد علمت أن هذا الحديث تثبت به العبرة ، ولكن لاتقوم به حجة . وقد أشار الحافظ في ترجمة زياد بن لبيد من الاصابة الى مخرجيه وعلله عندهم ، ومنه يعلم قصور ما اكتفى به السيوطي في الدر المنثور

﴿ تنبيه ﴾ ان الشهادة لبعض أهل الكتاب بالقصد والاعتدال في هذه الآية له نظائر في آيات أخرى كقوله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق و به يعدلون) وقوله (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك)ـ الآيةـ وغير ذلك . ولولا أن هذا القرآن وحي من الله لما وجدت فيه مثل هذه الشهادة ، لان الانسان مهما كان عادلاً فاضلاً لايرى الفضيلة المستترة في خصومه الذين يناوئونه ويحاربونه فيشهد لهم بها ، بل اكثر الناس يعمى عن محاسن عدوه الظاهرة المستفيضة ، وان رأى شيئاً منها يظن أنه نفاق وخداع ، قال شاعرنا الحكيم :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

ومن شواهد العبرة على هذه الحقيقة كلمة قالتها امرأة كبيرة العقل والعلم والسن من فضليات النساء في سويسرة لشيخنا الاستاذ الامام ؛ قالت له « انني لم اكن قبل معرفتك أظن ان القداسة توجد في غير المسيحيين » فاذا كانت هذه المرأة الواسعة العلم بأخلاق البشر التي لها عدة مؤلفات في علوم التربية تظن مثل هذا الظن في هذا العصر الذي عرف البشر فيه من أحوال البعداء عنهم وتاريخهم مالم يعرف مثله سلفهم في عصر ما ، فهل يظن أن رجلا أميا في الحجاز يهتدي بغير وحي من الله الى تلك الحقيقة في أولئك القوم منذ ثلاثة عشر قرنا ؟؟

(٧٠) يَاأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وَإِن لَّمْ

تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس. إن الله لا يهدي القوم الكفرين (٧١) قل يا أهل الكتب لستم على شيء حتى تقيموا التورية والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم، وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغينا وكفرا، فلا تأس على القوم الكفرين (٧٢) إن الذين آمنوا والذين هادوا والصبئون والنصرى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صلحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون

﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك﴾ تقدم ان نداء النبي (ص) بلقب الرسول لم يرد الا في موضعين من هذه السورة ، وهذا ثانيهما ؛ وكلاهما جاء في سياق الكلام في دعوة اهل الكتاب الى الاسلام ومحاجتهم في الدين . وقد اختلف مفسرو السلف في وقت نزول هذه الآية ، فروى ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس ، وأبو الشيخ عن الحسن ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد — مايدل على انها نزلت في اول الاسلام ، وبدء العهد بالتبليغ العام . وكأنها على هذا القول وضعت في آخر سورة مدنية للتذكير بأول العهد بالدعوة في آخر العهد بها ، وروى ابن ابي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن ابي سعيد الخدري انها نزلت يوم غدير خم في عليّ بن ابي طالب .

وروت الشيعة عن الامام محمد الباقر ان المراد بما أنزل اليه من ربه النص على خلافة عليّ بعده ، وانه (ص) كان يخاف ان يشق ذلك على بعض اصحابه فشجعه الله تعالى بهذه الآية . وفي رواية عن ابن عباس ان الله امره ان يخبر الناس بولاية علي فتخوف ان يقولوا : حابى ابن عمه ، وان يطعنوا في ذلك عليه . فلما نزلت الآية عليه في غدير خمّ اخذ بيد علي وقال « من كنت مولاه فعلي مولاه ؛ اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » ولهم في ذلك روايات واقوال في التفسير مختلفة ، ومنها

ما ذكره الثعلبي في تفسيره ان هذا القول من النبي (ص) في موالاة علي شاع وطار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري فأتى النبي (ص) على ناقته وكان بالابطح فنزل وعقل ناقته وقال للنبي (ص) وهو في ملاٍ من اصحابه : يا محمد امرتنا عن الله ان نشهد ان لااله الا الله وانك رسول الله ؛ فقبلنا منك — ثم ذكر سائر اركان الاسلام وقال — ثم لم ترض بهذا حتى مددت بضبعي ابن عمك وفضلته علينا ، وقلت « من كنتُ مولاه فعلي مولاه » فهذا منك ام من الله ؛ فقال (ص) « والله الذي لااله الا هو ، هو امر الله » فولى الحارث يريد راحلته وهو يقول (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم) فما وصل اليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره ، وانزل الله تعالى (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين) الخ وهذه الرواية موضوعة . وسورة المعارج هذه مكية . وما حكاه الله من قول بعض كفار قريش (اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك) كان تذكيرا بقول قالوه قبل الهجرة ، وهذا التذكير في سورة الانفال وقد نزلت بعد غزوة بدر قبل نزول المائدة ببضع سنين . وظاهر الرواية ان الحارث ابن النعمان هذا كان مسلما فارتد، ولم يعرف في الصحابة ، والابطح بمكة والنبي (ص) ولم يرجع من غدير خم الى مكة ؛ بل نزل فيه منصرَفه من حجة الوداع الى المدينة

أما حديث « من كنت مولاه فعلي مولاه » فقد رواه احمد في مسنده من حديث البراء وبريدة ، والترمذي والنسائي والضياء في المختارة من حديث زيد ابن ارقم ، وابن ماجه عن البراء ، وحسنه بعضهم وصححه الذهبي بهذا اللفظ ، ووثق أيضا سند من زاد فيه « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » الخ وفي رواية انه خطب الناس فذكر اصول الدين، ووصى بأهل بيته فقال « اني قد تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما . فانهما لم يفترقا حتى يردا علي الحوض. الله مولاي، وانا ولي كل مؤمن » ثم أخذ بيد علي وقال الحديث . ورواه غير من ذكر بأسانيد ضعيفة ومنها ان عمر لقيه فقال له : هنيئا لك اصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة. وذكروا ان سببه تبرئة علي مما كان قاله فيه بعض من كان معه في اليمن

واستمالتهم اليه . ذلك ان عليا كرم الله وجهه كان قد وجهه النبي (ص) في سرية الى اليمن، فقاتل من قاتل وأسلم على يديه من أسلم ، ثم انه تعجل الى رسول الله (ص) ليدرك معه الحج واستخلف على جنده رجلا من اصحابه فكسا ذلك الرجل كل واحد منهم حلة من البز الذي كان مع علي . فلما دنا جيشه خرج اليهم علي فوجد عليهم الحلل فأنكر ذلك وانتزعها منهم ، فأظهر الجيش شكواه من ذلك . وروي ايضاً عن بريدة الاسلمي انه كان مع علي في غزوة اليمن وانه رأى منه جفوة فشكاه الى النبي (ص) فلما رأى النبي (ص) ان بعض المؤمنين يشكو عليا بغير حق ، اذ لم يفعل الا ما يرضي الحق ، خطب الناس في غدير خم ، واظهر رضاه عن علي وولايته له وما ينبغي للمؤمنين من موالاته . وغدير خم مكان بين الحرمين قريب من رابغ على بعد ميلين من الجحفة . قالوا وقد نزله النبي (ص) وخطب الناس فيه في اليوم الثامن من ذي الحجة. وقد اتخذته الشيعة عيدا على عهد بني بويه في حدود الاربع مئة

ويقول اهل السنة ان الحديث لايدل على ولاية السلطة التي هي الامامة او الخلافة . ولم يستعمل هذا اللفظ في القرآن بهذا المعنى . بل المراد بالولاية فيه ولاية النصرة والمودة التي قال الله فيها في كل من المؤمنين والكافرين (بعضهم اولياء بعض) ومعناه من كنت ناصرا ومواليا له فعلي ناصره ومواليه، أو من والاني ونصرني فليوال عليا وينصره . وحاصل معناه انه يقفو أثر النبي (ص) فينصر من ينصر النبي (ص) وعلى من ينصر النبي أن ينصره . وهذه مزية عظيمة. وقد نصر كرم الله وجهه ابا بكر وعمر وعثمان ووالاهم . فالحديث ليس حجة على من والاهم مثله ، بل حجة له على من يبغضهم ويتبرأ منهم . وانما يصح ان يكون حجة على من والى معاوية ونصره عليه . فهو لا يدل على الامامة بل يدل على نصره اماما ومأموما. ولو دل على الإمامة عند الخطاب لكان اماماً مع وجود النبي (ص) والشيعة لاتقول بذلك ، وللفريقين اقوال في ذلك لانحب استقصاءها والترجيح بينها ، لانها من الجدل الذي فرق بين المسلمين، واوقع بينهم العداوة والبغضاء. وما دامت عصبية المذاهب غالبة على الجماهير فلارجاء في تحريهم الحق في مسائل الخلاف، ولا في تجنبهم ما يترتب على الخلاف من التفرق والعداء .ولو زالت تلك العصبية ونبذها الجمهور فلايضر المسلمين حينئذ ثبوت

هذا القول او ذاك، لانهم لا ينظرون فيه حينئذ الا بمرآة الانصاف والاعتبار، فيحمدون المحقين، ويستغفرون للمخطئين (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا انك رؤف رحيم)

ثم اننا نجزم بأن مسألة الامامة لو كان فيها نص من القرآن او الحديث لتواتر واستفاض، ولم يقع فيها ماوقع من الخلاف، ولتصدى علي للقيام بأمر المسلمين يوم وفاة النبي [ص] فخطبهم وذكرهم بالنص، و بين لهم ما يحسن بيانه في ذلك الوقت. وكان هو الواجب عليه لو كان يعتقد انه الامام بعد رسول الله [ص] بأمر من الله ورسوله . ولكنه لم يقل ذلك ولا احتج بالآية هو ولا احد من آل بيته وانصاره الذين يفضلونه على غيره، لا يوم السقيفة ولا يوم الشورى بعد عمر، ولا قبل ذلك ولا بعده في زمنه، وهو هو الذي كان لا تأخذه في الله لومة لائم، ولم يعرف التقية في قول ولا عمل؛ وانما وجدت هذه المسائل، ووضعت لها الروايات واستنبطت الدلائل، بعد تكوّن الفرق وعصبية المذاهب ، والوصية بالخلافة لامناسبة لها في سياق محاجة اهل الكتاب، فهي مما لاترضاه بلاغة القرآن . بل لو اراد النبي (ص) النص على خليفته من بعده وتبليغ ذلك للناس لقاله في خطبته في حجة الوداع. وهي التي استشهد الناس فيها على تبليغه فشهدوا، واشهد الله على ذلك. دع سياق الآية وما قبلها وما بعدها، فانها هي نفسها لاتقبل ان يكون المراد بالتبليغ فيها تبليغ الناس امارة عليّ، فان الجملة الشرطية . التي بعد هذه الجملة الأمرية، وجملة الامر بالعصمة، وجملة التذييل التعليلي بنفي هداية الكافرين — لا يناسب شيء منها تبليغ الناس مسألة الامارة . فتأمل الآية في ذاتها بعين البصيرة لا بعين التقليد

واما الحديث فنهتدي به : نوالي عليا المرتضى ونوالي من والاهم، ونعادي من عاداهم، ونعد ذلك كموالاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ونؤمن بان عترته (ص) لا تجتمع على مفارقة الكتاب الذي أنزله الله عليه، وان الكتاب والعترة خليفتا الرسول، فقد صح الحديث بذلك في غير قصة الغدير؛ فاذا اجمعوا على امر قبلناه واتبعناه . واذا تنازعوا في أمر رددناه الى الله والرسول .

وأما المتبادر من الآية فالظاهر انه الامر بالتبليغ العام في اول الاسلام، كما رواه أهل التفسير المأثور، ولولاه لاحتمل ان يكون المراد به تبليغ اهل الكتاب ما بعد هذه الآية. كأنه قال: بلغ ما أنزل اليك في شأن أهل الكتاب، واذكر لهم ما يكون فصل الخطاب، فان سألت عن ذلك فهاك الجواب: « قل يا اهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل» الخ. ولو صح حديث ابن عباس الذي رواه ابن مردويه والضياء لما بقي للاحتمال مجال. قال: سئل رسول الله [ص] اي آية من السماء انزلت اشد عليك؟ فقال: «كنت بمنى ايام موسم واجتمع مشركو العرب وافناء الناس في الموسم، فنزل عليّ جبريل فقال (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته) الاية. — قال — فقمت عند العقبة فقلت: يا أيها الناس من ينصرني على ان أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة؟ أيها الناس قولوا: لا اله الا الله، وأنا رسول الله اليكم، تفلحوا وتنجحوا ولكم الجنة — قال (ص) فما بقي رجل ولا امرأة ولا أمة ولا صبي الا يرمون علي بالتراب والحجارة ويقولون: كذاب صابئ. فعرض علي عارض فقال: يا محمد ان كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك. فقال النبي (ص) اللهم اهد قومي فانهم لايعلمون، وانصرني عليهم أن يجيبوني الى طاعتك» فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه. وسيأتي لهذا مزيد تأكيد.

قال تعالى ﴿ وان لم تفعل ﴾ أي وان لم تفعل ما أمرت به من التبليغ العام لما أنزل اليك كله — وهو ماعليه الجمهور — أو الخاص بأهل الكتاب — على ماسبق من الاحتمال — بأن كتمته ولو موءقتاً خوفاً من الاذى بالقول أو الفعل أو بهما جميعاً ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ أي فحسبك جرما انك ما بلغت الرسالة ولا قمت بما بعثت لاجله، وهو تبليغ الناس ما أنزل اليهم من ربهم (ان عليك الا البلاغ) وذهب الجمهور الى ان معناه: وان لم تبلغ جميع ما انزل اليك من ربك بأن كتمت بعضه فكأنك لم تبلغ منه شيئاً قط، لان كتمان البعض ككتمان الجميع. فهو من قبيل قوله تعالى (من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً)

ويقويه قراءة نافع وابن عامر وابن أبي بكر « رسالاته » بالجمع

فمعنى هذه القراءة افادة استغراق النفي لكل مسألة من مسائل الوحي الذي كلف الرسول تبليغه، لكن في الحكم لا في الواقع . فكأنه قال : وان لم تفعل كنت كأنك مابلغت شيئاً ما من مسائل الرسالة لانها لاتتجزأ . وقد ضعف هذا الوجه الامام الرازي وان كان رأي الجمهور ، لانه يقتضي ان ترك تبليغ بعض المسائل ترك لتبليغ كل مسألة بالفعل ، وذلك خلاف الواقع ؛ أو في الحكم ، ولا يصح ان يجعل تارك صلاة واحدة كتارك جميع الصلوات. وانما المعنى على التشبيه من بعض الوجوه. ولا يعارَض ما لا يتجزأ في الحكم كالايمان والكفر ، بما يتجزأ كالعبادات والمعاصي. وترك التبليغ لوجاز وقوعه كفر. ولهذا المعنى نظير يؤيده وهو حكم الله بأن من كذب بعض الرسل كان كمن كذبهم كلهم ، وذلك قوله تعالى (٤ : ١٤٩ ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ١٥٠ أولئك هم الكافرون حقا) بل ورد ما يؤيد الوجه الآخر ايضا ، وهو تشبيه قاتل النفس الواحدة بقاتل الناس جميعا ، وتقدمت الاشارة الى ذلك . وأما معنى قراءة الآخرين « رسالته » بالافراد فهو نفي القيام بمنصب الرسالة .

وقد جاء في القرآن ذكر تبليغ الرسالات بالجمع في قوله تعالى من سورة الاحزاب بعد قصة زيد وزينب (٣٣ : ٣٩ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله) هكذا قرأ الجماعة كلهم « رسالات » بالجمع ، وانما قرئ بالافراد في الشواذ . وجاء في مواضع أخرى من سورة الاعراف وغيرها . والاستشهاد بآية الاحزاب أنسب في هذا المقام ، لان ما نزل في قصة زيد وزينب هو أشد ما نزل على النبي (ص) متعلقا بشخصه الكريم ، وهو قوله تعالى (٣٣ : ٣٧ واذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله . وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) حتى روي عن عائشة وأنس (رض) أنهما قالا: لو كتم النبي (ص) من القرآن شيئاً لكتم هذه الآية.

فان قيل: ان الله تعالى قد عصم الرسل عليهم السلام من كتمان شيء مما أمرهم

بتبليغه، ولولا ذلك لبطلت حكمة الرسالة بعدم ثقة الناس بالتبليغ ، فما حكمة التصريح مع هذا بالامر بالتبليغ ، وتأكيده بجعل كتمان بعضه ككتمانه كله ؟

قلت: حكمته بالنسبة الى الرسول (ص) إعلام الله تعالى اياه بأن التبليغ حتم لا تخيير فيه، ولا يجوز كتمانه ولو موقتاً بتأخير شيء منه عن وقته على سبيل الاجتهاد، اذ كان يجوز لولا هذا النص ان يكون من اجتهاد الرسول تأخير بعض الوحي الى أن يقوى استعداد الناس لقبوله، ولا يحملهم سماعه على رده . وايذاء الرسول لاجله ، — وبالنسبة الى الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة بالنص ، فلا يعذروا اذا اختلفوا فيها باختلاف الرأي والفهم

أما الاول — فيؤيده تأخير الرسول [ص] الاذن لمولاه زيد بن حارثة بتطليق زينب مع علمه بأن الله تعالى ما قضى بتزويجها له — وهو يعلم ان طباعهما لا تتفق وانه لابد ان يضطر الى طلاقها — الا ليتزوجها النبي [ص] بعد الطلاق ، ويبطل بذلك جريمة التبني وما يترتب عليها من الباطل . وكان النبي [ص] يخشى أن يقول الناس : تزوج مطلقة ابنه . لانه تبنى زيدا قبل البعثة . ولما لم يوقت الله تعالى وقتا لتطليق زيد لزينب ولتزوج النبي [ص] بها ، وافق اجتهاد النبي [ص] طبعه البشري والعمل بظاهر الشريعة من كراهة الطلاق فكان بناء على هذا يقول لزيد كلما شكا اليه عشرة زينب « أمسك عليك زوجك واتق الله » ويخفي في نفسه ما يعلمه من أنه لابد من طلاق زيد لها وتزوجه هو بها ، ولكنه كان يحب تأخير ذلك . فلو كان في تبليغ الوحي هوادة لجاز في بعض مسائل الوحي مثل هذا التأخير بالاجتهاد. ولأجل هذا الشبه والتناسب بين تنفيذ ما اراد الله من ابطال التبني ولوازمه بزواج الرسول (ص) بزينب بعد تطليق زيد لها و بين مسألة تبليغ الوحي وكونه لايجوز تأخيره خشية من قول الناس أو فعلهم — لاجل هذا — بين الله تعالى عقب هذه المسألة من سورة الاحزاب سنته في عدم الحرج على الرسل وفي تبليغهم رسالات الله ، وكونهم يخشونه ولا يخشون احدا سواه

وأما الثاني — وهو ما ذكرنا من حكمة ذلك بالنسبة الى الناس — فيؤيده مانقل الينا من الاقوال والآراء في جواز كتمان بعض الوحي — غير القرآن — أو العلم

النبوي غير الوحي ، عن كل الناس أو عن جمهورهم ، وتأويل هذه الآية وما ثبت في معناها تأويلا يتفق مع آرائهم ؟ فكيف لو لم ترد هذه الاية في المسألة . ومن هذا الباب ما ثبت في الصحيحين والسنن من سؤال بعض الناس عليا المرتضى : هل خصهم الرسول بشيء من الوحي أو علم الدين ؟ يعني اهل البيت . وقد ورد في ذلك روايات متعددة بألفاظ مختلفة . منها قول أبي جحيفة لعلي : هل عندكم شيء من الوحي الا ما في كتاب الله ؟ قال علي: لا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، الا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن ، وما في هذه الصحيفة . (قال السائل) قلت: وما في هذه الصحيفة ؟ قال العقل وفكاك الاسير وأن لا يقتل مسلم بكافر . ومن البديهي ان الاستثناء في كلام الامام علي منقطع لان الفهم في القرآن ليس من الوحي ، وكذا مافي الصحيفة وهو العقل أي دية القتل وفكاك الاسير الخ (١) وقال بعض العلماء: ان سبب سؤال علي عن ذلك ان بعض غلاة الشيعة كانوا يتحدثون أو يبثون في الناس ان عند علي وآل بيته من الوحي ما خصهم به النبي (ص) دون الناس . ويروى عن بعضهم جواز الكتمان على سبيل التقية

ومن الناس من قال ان ما يوحيه الله للرسل أنواع : منها ما هو خاص بهم لايأذنهم بتبليغه لاحد ، ومنه ما يأمرهم بتبليغه لجميع الناس ، ومنه ما يخص به من يراهم اهلا له من الافراد . ومن هنا أخذ من يقولون إن علم الانبياء قسمان ظاهر وباطن ، فالظاهر عام والباطن خاص . ولبعض المتصوفة والباطنية سبح طويل في بحر هذه الاوهام .

فأما الباطنية فأئمتهم في مذاهبهم زنادقة تعمدوا هدم الاسلام بالشبهات والتأويلات المشككات

وأما المتصوفة فقد راج على بعضهم بعض تلك الشبهات والتأويلات لضعفهم في علم الكتاب والسنة . فاستمسكوا بالاحاديث الموضوعة ، وأخذوا بظواهر بعض الاحاديث والآثار الصحيحة . كقول أبي هريرة المروي في صحيح البخاري :

(١) بينا روايات هذا الحديث ومعانيها في الجزء الخامس من مجلد المنار السابع عشر

حفظت من رسول الله (ص) وعاءين فأما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته قطع مني هذا البلعوم — يشير الى عنقه ، لانه اذا ذبح ينقطع بلعومه وهو مجرى الطعام — فجهلة المتصوفة يزعمون ان ماعندهم من علم الحقيقة هو من قبيل ما في الوعاء الآخر من وعائي أبي هريرة ، وبعضهم يظن ان لشيوخهم سندا في تلقي علم الباطن ينتهي الى بعض الصحابة أو أئمة آل البيت عليهم الرضوان . والذي عليه المحققون ان أبا هريرة يعني بما كتم من الحديث أحاديث الفتن وما يكون من الفساد في الدين والدنيا على أيدي اغيلمة من سفهاء قريش . وهم بنو أمية . وقد روي عنه انه دعا الله تعالى أن ينقذه من سنة ستين وامارة الصبيان . وقد مات سنة سبع وخمسين، وقيل سنة تسع وخمسين ؛ وفي سنة ستين ولي يزيد ابن معاوية ؛ فعلم ان أبا هريرة كان يستعيذ بالله من امارته ؛ وقد أعاذه الله تعالى فلم ير أيامها السود . وروي عنه انه كان يقول في اغيلمة قريش الذين يفسدون على المسلمين امر دينهم كما ورد في الحديث : لو شئت أن أسميهم بأسمائهم لفعلت . فهذا دليل على انه سمع كحذيفة بن اليمان أخبار الفتن وأمراء الجور من النبي (ص) وكان يكتمها عند وقوعها خوفاً من انتقام أولئك الامراء المستبدين المفسدين . واما كتمان شيء من امر الدين فهو محرم بالاجماع وبنصوص الكتاب والسنة ، فكيف يكتمه ؟ . وقد روى البخاري عنه انه قال : ان الناس يقولون اكثر ابو هريرة الحديث، ولولا آيتان في كتاب الله تعالى ما حدثت حديثاً . ثم يتلو قوله تعالى (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى — الى قوله تعالى — الرحيم) وقوله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) الخ وروى عنه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه حديث « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وروي عن غيره ، وله طرق حسنة وصحيحة ، والوعيد في بعض ألفاظه على الكتمان مطلقا

والحق الذي لامرية فيه أن الرسول بلغ جميع ما أنزله الله اليه، ولم يخص أحدا بشيء من علم الدين، وانه لايمتاز أحد في علم الدين على أحد الا بفهم القرآن. وهو على نوعين : نوع كسبي يتوسل اليه بعلم السنة وآثار علماء الصحابة والتابعين وعلماء

الامصار في الصدر الاول . ومفردات اللغة العربية وأساليبها . وكذا بعلوم الكون وشؤون البشر وسنن الله في الخلق ، فمن هذه العلوم المكتسبة من نقلية وعقلية هي التي يستعان بها على فهم القرآن — ونوع وهبي وهو الذي أشار اليه الامام علي المرتضى بالفهم الذي يؤتيه الله عبدا في القرآن ، وهو مابه يفضل أهل العلم الكسبي بعضهم بعضاً ، ومن لاحظ له من علم العربية والسنن والآثار لاحظ له من هذا العلم الوهبي ، لان الكسبي هو الاصل الذي يثمر العلم الوهبي . وقد ذكر القسطلاني في شرح البخاري ان قول علي يدل على جواز استخراج العالم بفهمه من القرآن ما لم يكن منقولا عن المفسرين . وانما اشترط العلماء لكل فهم جديد في القرآن شرطين أحدهما أن يوافق مدلولات اللغة العربية ، وثانيهما أن لا يخالف أصول الدين القطعية . فسقطت بذلك ضلالات الباطنية ، وأهل الوحدة من غلاة الصوفية ، وأشباههم من الذين يعبثون بكتاب الله بأهوائهم ، كالدجال عبيد الله الذي صنف في هذه الايام تصانيف باللغة التركية حرف فيها القرآن أبعد تحريف ، بحيث لاينطبق على اللغة العربية ، ولا على أصول الاسلام ولافروعه . منها كتاب (قوم جديد) وكتاب (صوك جواب) أي الجواب الاخير . والظاهر ان الغرض من هذه الكتب تنفير الترك من الاسلام وتحويلهم عنه .

وقد بينا غير مرة أن القرآن هو اصل الدين ، وان السنة بيان له واستنباط منه . وذكرنا بعض الشواهد على هذا في التفسير وفي المنار . ثم رأينا النقل في ذلك عن الامام الشافعي فقد قال : جميع ماحكم به النبي (ص) فهو مما فهمه من القرآن . ذكره السيد الآلوسي في روح البيان . ومن أجدر من النبي (ص) بالفهم الوهبي من القرآن ، وقد اختصه الله بانزاله اليه وببيانه للناس ؟ وتقدم ايضاح هذا البحث في تفسير (اليوم اكملت لكم دينكم) في أوائل هذه السورة . وقد روي عن اكابر الصوفية مالم يرو عن غيرهم في اثبات كون القرآن ينبوع علوم الدين ، بل صرح بعضهم بكونه ينبوع جميع العلوم والحقائق الكونية كلها . وسنعود الى هذا البحث فنوفيه حقه ان شاء تعالى في تفسير قوله تعالى (مافرطنا في الكتاب من شيء) وما في معناه

﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ روى أهل التفسير المأثور والترمذي وأبو الشيخ

والحاكم وأبو نعيم والبيهقي والطبراني عن بضعة رجال من الصحابة أن النبي (ص) كان يُحرس في مكة قبل نزول هذه الآية فلما نزلت ترك الحرس ، وكان أبوطالب أول الناس اهتماماً بحراسته، وحرسه العباس أيضاً . ومما روي في ذلك عن جابر وابن عباس أن النبي (ص) كان يحرس وكان يرسل معه عمه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت الآية فقال « ياعم! ان الله قد عصمني لاحاجة لي الى من تبعث » ومعنى « يعصمك من الناس » يمنعك من إيذائهم ، مأخوذ من عِصام القربة ، وهو ماتوكأ به — أي مايربط به فمها — من سير جلد أو خيط . والمراد بالناس الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحي بيان كفرهم وضلالهم ، وفساد عقائدهم وأعمالهم، والنعي عليهم وعلى سلفهم، فان ذلك يغيظهم ويحملهم على الايذاء. لذلك كان المشركون يتصدون لايذائه (ص) بالقول والفعل، وائتمروا به بعد موت أبي طالب، وقرروا قتله في دار الندوة ، ولكن الله تعالى عصمه منهم . وكذلك فعل اليهود بعد الهجرة . ولذلك قيل: ان هذه الآية نزلت مرتين ، فان لم تكن نزلت مرتين فقد وضعت في سياق تبليغ أهل الكتاب لتدل على أن النبي (ص) كان عرضة لايذائهم ، وأن الله تعالى هو الذي عصمه من كيدهم ، ولتذكر بما كان من ايذاء مشركي قومه من قبلهم

أما قوله تعالى ﴿ ان الله لايهدي القوم الكافرين﴾ فهو تذييل تعليلي للعصمة، أي انه تعالى لايهدي أولئك الناس الذين هم بصدد ايذائك على التبليغ — وهم القوم الكافرون — الى مايهمون به من ذلك ، بل يكونون خائبين ، وتتم كلمات الله تعالى حتى يكمل بها الدين .

﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم﴾ أي «قل» لاهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما تبلغهم عن الله تعالى « لستم على شيء » يعتد به من أمر الدين ، ولا ينفعكم الانتساب الى موسى وعيسى والنبيين « حتى تقيموا التوراة والانجيل » فيما دعيا اليه من التوحيد الخالص، والعمل الصالح ، وفيما بشرا به من بعثة النبي الذي يجيء من ولد اسماعيل، الذي عبر عنه المسيح بروح الحق وبالبارقليط« وما أنزل اليكم من ربكم»على لسانه وهو القرآن

المجيد ، فانه هو الذي أكمل به دين الانبياء والمرسلين ، على حسب سنته في النشوء والترقي بالتدريج .

وقيل: ان المراد بما أنزل اليهم من ربهم ما أنزل على سائر أنبيائهم ، كما قبل مثاله في آية (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم) وتقدم توجيهه ، ولم يبعد العهد به فنعيده . الا أن ذاك حكاية ماضية ، وهذا بيان للحال الحاضرة ، والحجة عليهم في الزمنين قائمة . فهم لم يكونوا مقيمين لتلك الكتب قبل هذا الخطاب ، ولا في وقته . ولا كان في استطاعتهم أن يقيموها في عهده ، كما انهم لا يستطيعون أن يقيموها الآن . فهذا تعجيز لهم ، وتفنيد لدعواهم الاستغناء عن اتباع خاتم النبيين ، باتباعهم لأنبيائهم السابقين . ولا يتضمن الشهادة بسلامة تلك الكتب من التحريف. ومثله أن نقول الآن لدعاة النصرانية من الامريكان والالمان والانكليز : يا أيها الداعون لنا الى اتباع التوراة والانجيل ، نحن لا نعتد بكم ، ولا نرى انكم على ايمان وثقة بدينكم ، وصدق واخلاص في دعوتكم ، حتى تقيموا أنتم وأهل ملتكم التوراة والانجيل اللذين في أيديكم ، فتحبوا أعداءكم ، وتباركوا لاعنيكم ، وتعطوا ما لقيصر لقيصر ، وتخضعوا لكل سلطة لانها من الله ، واذا اعتدى عليكم أحد فلا تعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، بل أديروا له الخد الايسر ، اذا ضربكم على الخد الايمن ، وتركوا التنافس في إعداد آلات الفتك الجهنمية . ليكون للناس السلام في الارض . واخرجوا من هذه الاموال الكثيرة والثروة الواسعة ، لان الغني لا يدخل ملكوت السموات ، حتى يلج الجمل في سم الخياط ، ولا تهتموا برزق الغد ، الخ ونحن نراكم على نقيض كل ما جاء في هذه الكتب ، فأنتم لا تخضعون لكل حاكم بل ميزتم أنفسكم . واستعليتم على الشرائع والحكام من غيركم ، واذا اعتدي على أحد منكم في بقعة من بقاع الأرض . تجردون سيوف دولتكم وتصوبون مدافعها على بلاد المعتدي ودولته لا عليه وحده ، حتى تنتقموا لانفسكم بأضعاف ما اعتدي به عليكم . ولا همَّ لاممكم ودولكم الا بامتلاك ثروة العالم وزينته ونعيمه ، وتسخير غيركم من الامم لخدمتكم بالقوة القاهرة . والاستعداد لسحق من يناسكم في مجد هذا العالم الفاني ، لعدم اهتمامكم بمجد الملكوت الباقي ، فنحن

لا نصدق بأنكم تدينون الله بهذه الكتب التي تدعوننا اليها ، حتى تقيموها على وجهها ، — فهل يعد دعاة النصرانية مثل هذا الخطاب لهم اعترافاً منا بسلامة كتبهم من التحريف والزيادة والنقصان ؟ أم يفهمون انه حجة مبنية على التسليم الجدلي لاجل الالزام ؟ نعم يفهمون هذا ولكنهم يقولون لعوام المسلمين . ان هذه الآية شهادة للتوراة والانجيل بالسلامة من التحريف ! ! .

﴿ وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً ﴾ هذه جملة مستأنفة مؤكدة بالقسم الذي تدل عليه اللام في أولها تثبت أن الكثير من أهل الكتاب لا يزيدهم القرآن الذي اكمل الله به الدين ، المنزل على محمد خاتم النبيين ، الا طغياناً في فسادهم ، وكفراً على كفرهم . ذلك بأنهم ما كانوا على ايمان صحيح بالله ولا بالرسل ، ولا على عمل صالح مما تهدي اليه تلك الكتب ، وانما كان أكثرهم على تقاليد وثنية ، وعصبية جنسية . وعادات وأعمال ردية ، فهم لهذا لم ينظروا في القرآن نظر إنصاف . وليس لهم من حقيقة دينهم الحق ما يقربهم من فهم حقيقة الاسلام . ليعلموا أنهما واحد وانما ذلك بدء وهذا اتمام . بل ينظرون اليه بعين العصبية والعدوان ، وهذا سبب زيادة الكفر والطغيان . — والطغيان مجاوزة الحد المعتاد

وأما غير الكثير ، وهم الذين حافظوا على التوحيد ، ولم تحجبهم عن نور الحق تلك التقاليد ، فهم الذين يرون القرآن بعين البصيرة فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وان من أنزل عليه هو النبي الاخير المبشر به في كتبهم ؛ فيسارعون الى الايمان ، على حسب حظهم من العلم وسلامة الوجدان .

والفرق بين نسبة انزال القرآن الى الرسول هنا ونسبة انزاله اليهم في أول الآية (على القول المشهور بان المراد بما أنزل اليهم القرآن) هو أن خطابهم بانزال القرآن اليهم يراد به انهم مخاطبون به ومدعون اليه ، ومثله (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا) وأما اسناد انزاله الى الرسول (ص) فليس لافادة أنه أوحي اليه فقط ، بل يشعر مع ذلك بان انزاله اليه سبب لطغيانهم وكفرهم . وانهم لم يكفروا به لاجل انكارهم لعقائده وآدابه وشرائعه أو استقباحهم لها ، بل لعداوة الرسول الذي أنزل اليه وعداوة

قومه العرب . وقيل انه يفيد براءتهم منه، وانه لاحظ لهم فيه

﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ أي فلا تحزن عليهم لانهم قوم تمكن الكفر منهم، وصار وصفاً لازماً لهم . — وهذه نكتة وضع الظاهر موضع الضمير — وحسبك الله ومن اتبعك من مؤمني قومك ومنهم ، كعبد الله بن سلام وغيره من علمائهم ، قال الراغب : الاسى الحزن، وأصله اتباع الفائت بالغم

والعبرة للمسلم في الاية أن يعلم أن المسلمين لايكونون على شيء يعتد به من أمر الدين حتى يقيموا القرآن وما أنزل اليهم من ربهم فيه ويهتدوا بهدايته ، فحجة الله على جميع عباده واحدة ، فاذا كان الله تعالى لايقبل من أهل الكتاب قبلنا ، تلك التقاليد التي صدتهم عما عندهم من وحي الله تعالى ، على ما كان قد طرأ عليه من التحريف بالزيادة والنقصان ، فأن لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظه لكتابنا أولى . والناس عن هذا غافلون ، وبالانتساب الى المذاهب راضون، وبهدي أئمتها لايقتدون، والى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون ، (ويحسبون أنهم على شيء : ألا انهم الكاذبون) ولما كان الانتساب الى الدين لا يفيد في الآخرة الا باقامة كتاب الدين ، بين الله تعالى بعد تلك الحجة أصول الدين المقصودة من اقامة الكتب الالهية كلها التي يترتب عليها الجزاء والثواب فقال

﴿ ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى — من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ مناسبة وضع هذه الآية هنا لما قبلها وما بعدها بيان ان اهل الكتاب لم يقيموا دين الله ، وما كلفهم الله اياه ، لاوسائله ولا مقاصده . فلا هم حفظوا نصوص الكتب كلها ، ولاهم تركوا ماعندهم منها على ظواهرها ؛ ولاهم آمنوا بالله واليوم الآخر ، على الوجه الذي كان عليه سلفهم الصالح ، ولا هم عملوا الصالحات كما كانوا يعملون ؛ اللهم الا قليلا منهم كان مخبوءاً في طيات الزمان . أو شعاف الجبال وزوايا البلدان ، كانوا يعذبون على توحيد الله ، ويرمون بالزندقة أو الهرطقة لرفضهم تقاليد الكنائس . وقد تقدم مثل هذه الآية في سورة البقرة فيراجع تفسيرها المفصل ، في جزء التفسير الاول .

وفي هذه الآية بحث لفظي ليس في تلك؛ وهو رفع كلمة الصابئين وتقديمها على

كلمة النصارى، فأما الرفع ففي اعرابه وجوه أشهرها انه مبتدأ خبره محذوف والتقدير « والصابئون كذلك » أو معطوف على محل اسم ان ؛ وقد أجاز كوفيو النحويين هذا وعدوه من الفصيح اذا كان اسم ان مبنيا كما هو هنا ، وكقولك : انك وزيد صديقان . والبصريون يمنعونه . ومن هذا القبيل قول الشاعر :

وإلا فاعلموا أنا وأنتم   بغاة ما بقينا في شقاق

والإعراب صناعة يستعان بها على ضبط كلام العرب وفهمه ، والعمدة في اثبات اللغات كلها السماع من أهلها . وقد ثبت بالسماع ان هذا الاستعمال فصيح ولكن ما نكتته ؟ النكتة التي كان بها رفع الصابئين فصيحاً ههنا على مخالفته نسق عطف المنصوب على المنصوب ، هي تنبيه الذهن الى أن الصابئين كانوا اهل كتاب وان كان حكمهم كحكم المسلمين واليهود والنصارى في تعليق نفي الخوف والحزن عنهم يوم القيامة بشرط الايمان الصحيح والعمل الصالح ، اللذين تتزكى بهما النفوس ، وتستعد لارث الفردوس . ولما كان هذا غير معروف عند المخاطبين بهذه الآية ، وكان الصابئون غير مظنة لاشراكهم في الحكم مع أهل الكتب السموية ، حسن في شرع البلاغة ان ينبه الى ذلك بتغيير نسق الاعراب . فمثل هذا التغيير لا يعد فصيحاً الا في مثل هذا التعبير . وهو ما كان لما تغير اعرابه وأخرج عما يماثله ، صفة خاصة تريد التنبيه عليها ، فاذا قلت « ان زيدا وعمرا - وكذا بكر - أو بكر كذلك — قادرون على مناظرة خالد » لم يكن هذا القول بليغاً الا اذا كان بكر في مظنة العجز عن مناظرة خالد ؛ وأردت أن تنبه على خطإ هذا الظن ، وعلى كون بكر ، يقدر على ما يقدر عليه من ذلك زيد وعمرو .

وههنا قاعدة عامة في البلاغة ، تدخل في بلاغة النطق والخط . وهي أن ما يراد تنبيه السمع أو اللحظ اليه من المفردات أو الجمل يميز على غيره ، إما بتغيير نسق الاعراب في كل الكلام العربي مطلقا ، وإما برفع الصوت في الخطابة ، واما بكبر الحروف أو تغيير لون الحبر أو وضع الخطوط عليه في الكتابة . والمسلمون يكتبون القرآن في التفسير ، والمتون المشروحة بحبر أحمر . وفي الطبع يضعون الخطوط فوق الكلام الذي يميزونه كآيات القرآن في بعض كتب التفسير ، فصار الكثيرون منهم يقلدون الافرنج

في وضع هذه الخطوط تحت الكلام الذي يريدون التنبيه عليه بتمييزه .

وقد تجرأ بعض أعداء الاسلام على دعوى وجود الغلط النحوي في القرآن ! وعدّ رفع الصابئين هنا من هذا الغلط !! وهذا جمع بين السخف والجهل . وانما جاءت هذه الجرأة من الظاهر المتبادر من قواعد النحو مع جهل أو تجاهل أن النحو استنبط من اللغة ولم تستنبط اللغة منه . وان قواعده اذا قصرت عن الاحاطة ببعض ماثبت عن العرب فانما ذلك لقصور فيها ، وان كل ما ثبت نقله عن العرب فهو عربي صحيح ، ولا ينسب الى العرب الغلط في الالفاظ ولكن قد يغلطون في المعاني. ولم توجد لغة من لغات البشر دفعة واحدة . وانما تترقى اللغات وتتسع بالتدريج، ولم يكن التجديد في مفرداتها ومركباتها . والتصرف في أساليبها ومشتقاتها ، بالتشاور والتواطؤ بين جميع أفراد الامة ولا بين الجماعات منها . – إلا ما يحصل في بعض المجامع العلمية والادبية عند بعض الافرنج في هذا العصر – وانما كان التصرف والتجديد من عمل الافراد ، ولا سيما من يشتهرون بالفصاحة كالخطباء والشعراء . فلو لم يكن ذلك المعترض ضعيف العقل أو قوي التعصب علي الاسلام . لنهاه عن هذا الاعتراض رواية هذا اللفظ عن النبي عليه الصلاة والسلام . وان لم يؤمن بانه منزل عليه من الله عز وجل . بل يجب أن ينهاه مثل ذلك نقله عن أي بدوي من صعاليك العرب ولو برواية الآحاد . وليت شعري هل يعد ذلك المتعصب الاعمى مبتكرات مثل شكسبير في الانكليزية وفيكتور هيغو بالفرنسية من اللحن والغلط فيهما ؟ ؟

وأما تقديم الصابئين هنا على النصارى فمن قال ان المراد بالذين آمنوا هنا المنافقون الذين ادعوا الايمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم . يرى أن نكتته الترتيب بين هذه الاصناف بالترقي من الجدير بقبول توبته اذا صح ايمانه ودعم بالعمل الصالح الى الاجدر بذلك ، ويجعل النصارى أقربها الى القبول، ويليهم عنده الصابئون ، فاليهود فالمنافقون . وأنت تعلم ان العطف بالواو لا يفيد الترتيب بل مطلق الجمع فلا حاجة الى تكلف النكتة للتقديم والتأخير

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع الناس عامة، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

(وجوب تعلم العربية على كل مسلم)

(١٩ س) من صاحب الامضاء بمصر

السيد الامام صاحب المنار

قرأنا في أعداد سابقة من مجلتكم المنار أدلة وجوب تعلم اللغة العربية على كل مسلم وأشرتم في بعض الاجزاء الى ان الامام الشافعي (رح) قال بذلك . ثم قرأنا في الجزء السابع من المجلد ١٧ قول عبيد الله صاحب «قوم جديد» باستغناء المسلمين عن تعلم العربية . فنرجو أن تنشروا قول الامام الشافعي بذلك الجاماً لذلك الدجال واطمئنانا لقوم يؤمنون ؟

مستفيد

يقرأ المنار

(ج) جاء في رسالة الامام الشافعي التي هي أول رسالة كتبت في أصول الفقه رواية الربيع بن سليمان المرادي ما نصه :

(قال الشافعي) رضي الله عنه والقرآن يدل على أن ليس في كتاب الله شيء الا بلسان العرب ، ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليدا له وتركا للمسألة له عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه ، وبالتقليد أغفل من أغفل منهم والله يغفر لنا ولهم. ولعل من قال: ان في القرآن غير لسان العرب، وقبل ذلك منه ذهب الى أن من القرآن خاصا يجهل بعضه بعض العرب ، ولسان العرب أوسع الالسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب

منه شيء على عامتها ، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه ، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه ، لا نعلم رجلا جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء ، فاذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن ، واذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها ، ثم كان ماذهب عليه منها موجودا عند غيره ، وهم في العلم طبقات ، منهم الجامع لاكثره وان ذهب عليه بعضه ، ومنهم الجامع لاقل مما جمع غيره ، وليس قليل ماذهب من السنن على من جمع اكثرها دليلا على أن لايطلب علمه عند غير أهل طبقته من أهل العلم ، بل يطلب عند نظرائه ما ذهب عليه حتى يؤتى على جميع سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم. بأبي هو وأمي ، فينفرد جملة العلماء بجمعها . وهم درجات فيما وعوا منها . وهكذا لسان العرب عند خاصتها وعامتها لا يذهب منه شيء عليها. ولا يطلب عند غيرها ولا يعلمه الا من قبله عنها ، ولا يشركها فيه الا من اتبعها في تعلمه منها ، ومن قبله منها فهو من أهل لسانها ، وانما صار غيرهم من غير أهله بتركه، فاذا صار اليه صار من أهله. وعلم اكثر اللسان في اكثر العرب أعم من علم اكثر السنن في اكثر العلماء

فان قال قائل: فقد نجد من العجم من ينطق بالشيء من لسان العرب؛ فذلك يحتمل ما وصفت من تعلمه منهم ، فان لم يكن ممن تعلمه منهم فلا يوجد ينطق الا بالقليل منه . ومن نطق بقليل منه فهو تبع للعرب فيه ، ولا ينكر اذا كان اللفظ قبلُ تعلما أو نطق به موضوعاً أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليل من لسان العرب ، كما ياتفق (١) القليل من ألسنة العجم المتباينة في اكثر كلامها ، مع تنائي ديارها واختلاف لسانها ، و بعد الاواصر (٢) بينها و بين من وافقت بعض لسانه منها

فان قال قائل : ما الحجة في أن كتاب الله محض بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره ؟ فالحجة فيه كتاب الله ، قال الله تبارك وتعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) فان قال قائل : فان الرسل قبل محمد صلى الله تعالى عليه

---

(١) قوله ياتفق هو مضارع بمعنى يتفق لكن لم تدغم فيه فاء الافتعال بل قلبت حرفا لينا من جنس الحركة قبلها وهى لغة أهل الحجاز يقولون : ايتفق ياتفق فهو موتفق ولغة غيرهم الادغام (٢) الاواصر جمع آصرة وهى الرحم والقرابة

وسلم كانوا يرسلون الى قومهم خاصة وأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بعث الى الناس كافة ، قيل : فقد يحتمل أن يكون بعث بلسان قومه خاصة ، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه أو ما أطاقوه منه ، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم ، فان قال قائل : فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم ؟

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى : فالدلالة على ذلك بينة في كتاب الله عز وجل في غير موضع ؛ فاذا كانت الالسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون بعضهم تبعا لبعض . وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع . وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يجوز — والله تعالى أعلم — أن يكون أهل لسانه أتباعاً لاهل لسان غير لسانه في حرف واحد ؛ بل كل لسان تبع للسانه . وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه . وقد بين الله تعالى ذلك في غير آية من كتابه . قال الله عز ذكره (وانه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربيّ مبين) وقال (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) وقال (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال تعالى (حم. والكتاب المبين ، انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها . ثم اكد ذلك بأن نفى عنه جل وعز كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر. لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وقال (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ، أأعجمي وعربي ؟)

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى : وعرّفنا قدر نعمه بما خصنا به من مكانه فقال تعالى (لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه) الآية - وقال (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) الآية . وكان مما عرّف الله تعالى نبيه عليه السلام من انعامه عليه ان قال (وانه لذكر لك ولقومك) فخص قومه بالذكر معه بكتابه

وقال (وأنذر عشيرتك الاقربين) وقال (لتنذر أم القرى ومن حولها) وأم القرى مكة وهي بلده وبلد قومه . فجعلهم في كتابه خاصة وأدخلهم مع المنذرين عامة . وقضى أن ينذروا بلسانهم العربي لسان قومه منهم خاصة . فعلى كل مسلم ان يتعلم من لسان العرب ، ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله . ويتلو به كتاب الله تعالى وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وامر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك . وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته وأنزل به آخر كتبه كان خيرا له . كما عليه أن يتعلم الصلاة والذكر فيها . ويأتي البيت وما أمر باتيانه . ويتوجه لما وجه له ويكون تبعاً فيما افترض عليه وندب اليه لا متبوعاً

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى وانما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيرهم لانه لا يعلم من ايضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها ، ومن علمها انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها ، فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين ، والنصيحة لهم فرض لا ينبغي تركه ، أو ادراك نافلة خير لا يدعها الا من سفه نفسه وترك موضع حظه ، فكان يجمع بين النصيحة لهم قياما بايضاح حق ، وكان القيام بالحق ونصيحة المسلمين طاعة لله . وطاعة الله جامعة للخير

(قال الشافعي) رحمه الله تعالى : أخبرنا سفيان بن عيينة عن زياد بن علاقة قال سمعت جرير بن عبد الله يقول : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم . وأخبرنا سفيان بن عيينة عن سهيل ابن أبي صالح عن عطاء بن يزيد الليثي عن تميم الداري ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة — قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال — لله ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم » اه المراد منه

فصل (*)

اذا ثبت هذا انتقلنا منه الى معنى آخر :

وهو أن المحرم ينقسم في الشرع الى ماهو صغير والى ما هو كبير ــ حسبما تبين في علم الاصول الدينية ــ فكذلك يقال في البدع المحرمة إنها تنقسم الى الصغيرة والكبيرة اعتبارا بتفاوت درجاتها ــ كما تقدم ــ وهذا على القول بان المعاصي تنقسم الى الصغيرة والكبيرة . ولقد اختلفوا في الفرق بينهما على أوجه ، وجميع ماقالوه لعله لا يوفي بذلك المقصود على الكمال . فلنترك التفريع عليه .

وأقرب وجه يلتمس لهذا المطلب ماتقرر في كتاب الموافقات ان الكبائر منحصرة في الاخلال بالضروريات المعتبرة في كل ملة ، وهي الدين والنفس والنسل والعقل والمال . وكل ما نص عليه راجع اليها ، ومالم ينص عليه جرى في الاعتبار والنظر مجراها ، وهو الذي يجمع اشتات ماذكره العلماء ومالم يذكروه مما هو في معناه ؛

فكذلك نقول في كبائر البدع : ماأخل منها باصل من هذه الضروريات فهو كبيرة ، ومالا فهي صغيرة . وقد تقدمت لذلك أمثلة أول الباب . فكما انحصرت كبائر المعاصي أحسن انحصار ــ حسبما أشير اليه في ذلك الكتاب ــ كذاك تنحصر كبائر البدع أيضاً ، وعند ذلك يعترض في المسئلة إشكال عظيم على أهل البدع يعسر التخلص عنه في اثبات الصغائر فيها . وذلك ان جميع البدع راجعة الى الاخلال بالدين

*) تابع لما نقل من كتاب الاعتصام للامام الشاطبي

إما أصلا وإما فرعا، لأنها إنما أحدثت لتلحق بالمشروع زيادة فيه أو نقصانا منه أو تغييرا لقوافيه ، أو ما يرجع الى ذلك، وليس ذلك بمختص بالعبادات دون العادات ، ان قلنا بدخولها في العادات ، بل تعم الجميع

واذا كانت بكليتها اخلالا بالدين فهي اذا اخلال باول الضروريات وهو الدين ، وقد أثبت الحديث الصحيح ان كل بدعة ضلالة ، وقال في الفرق «كلها في النار الا واحدة» وهذا وعيد أيضاً للجميع على التفصيل.

هذا وان تفاوتت مراتبها في الاخلال بالدين فليس ذلك بمخرج لها عن أن تكون كبائر، كما ان القواعد الخمس اركان الدين وهي متفاوتة في الترتيب، فليس الإخلال بالشهادتين كالاخلال بالصلاة ، ولا الاخلال بالصلاة كالاخلال بالزكاة، ولا الاخلال بالزكاة كالاخلال برمضان، وكذلك سائرها مع الاخلال ، فكل منها كبيرة . فقد آل النظر الى ان كل بدعة كبيرة

ويجاب عنه بان هذا النظر يدل على ما ذكر ، ففي النظر ما يدل من جهة أخرى على اثبات الصغيرة من أوجه :

(أحدها) أنا نقول : الاخلال بضرورة النفس كبيرة بلا إشكال ، ولكنها على مراتب ادناها لا يسمى كبيرة ، فالقتل كبيرة وقطع الاعضاء من غير اجهاز كبيرة دونها ، وقطع عضو واحد كبيرة دونها ، وهلم جرا الى ان تنتهي الى اللطمة ، ثم الى أقل خدش يتصور ، فلا يصح أن يقال في مثله كبيرة ، كما قال العلماء في السرقة : إنها كبيرة ، لانها اخلال بضرورة المال . فان كانت السرقة في لقمة أو تطفيف بحبة فقد عدّوه من الصغائر. وهذا في ضرورة الدين أيضاً .

فقد جاء في بعض الاحاديث عن حذيفة رضي الله عنه قال : «أول

ما تفقدون من دينكم الامانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، ولتنقضن عرى الايمان عروة عروة ، وليصلين نساء وهن حيض - ثم قال - حتى تبقى فرقتان من فرق كثيرة تقول احداهما : ما بال الصلوات الخمس ؟ لقد ضل من كان قبلنا ، انما قال الله « أقم الصلاة طرفي النهار وزُلَفا من الليل » لا تصلُنّ الا ثلاثا . وتقول أخرى : انا لنؤمن بالله ايمان الملائكة ، ما فينا كافر . حق على الله ان يحشرهما مع الدجال » وهذا الاثر - وان لم تلتزم عهدة صحته - مثال من أمثلة المسئلة .

فقد نبه على ان في آخر الزمان من يرى أن الصلوات المفروضة ثلاث لاخمس ، وبين ان من النساء من يصلين وهن حيض ، كانه يعني بسبب التعمق وطلب الاحتياط بالوساوس الخارج عن السنة . فهذه مرتبة دون الاولى

وحكى ابن حزم ان بعض الناس زعم ان الظهر خمس ركعات لا اربع ركعات ، ثم وقع في العتبية ، قال ابن القاسم : وسمعت مالكا يقول : أول من أحدث الاعتماد في الصلاة حتى لا يحرك رجليه رجل قد عرف وسمي الا أني لا أحب ان اذكره ، وقد كان مُساء (أي يساء الثناء عليه) قال - قد عيب ذلك عليه ، وهذا مكروه من الفعل . قالوا « ومساء » أي يساء الثناء عليه . قال ابن رشد : جائز عند مالك ان يروّح الرجل قدميه في الصلاة ، قاله في المدونة . وانما كره ان يقرنهما حتى لا يعتمد على احداها دون الاخرى ، لان ذلك ليس من حدود الصلاة ، اذ لم يأت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من السلف والصحابة المرضيين ، وهو من محدثات الامور . انتهى .

فمثل هذا ـ ان كان يعده فاعله من محاسن الصلاة وان لم يأت به أثر ـ فيقال في مثله : إنه من كبائر البدع . كما يقال ذلك في الركعة الخامسة في الظهر ونحوها ، بل انما يعد مثله من صغائر البدع ان سلمنا ان لفظ الكراهية فيه ما يراد به التنزيه ، وإذا ثبت ذلك في بعض الامثله في قاعدة الدين ، فمثله يتصور في سائر البدع المختلفة المراتب ، فالصغائر في البدع ثابتة كما أنها في المعاصي ثابتة .

(والثاني) ان البدع تنقسم الى ماهي كلية في الشريعة والى جزئية ، ومعنى ذلك ان يكون الخلل الواقع بسبب البدعة كليا في الشريعة ، كبدعة التحسين والتقبيح العقليين ، وبدعة انكار الاخبار السنية اقتصارا على القرآن ، وبدعة الخوارج في قولهم : لا حكم الا الله . وما أشبه ذلك من البدع التي لا تختص فرعا من فروع الشريعة دون فرع ، بل تجدها تنتظم مالا ينحصر من الفروع الجزئية ، أو يكون الخلل الواقع جزئيا انما يأتي في بعض الفروع دون بعض ، كبدعة التثويب بالصلاة ـ الذي قال فيه مالك : التثويب ضلال . ـ وبدعة الاذان والاقامة في العيدين ، وبدعة الاعتماد في الصلاة على احدى الرجلين ، وما اشبه ذلك . فهذا القسم لا تتعدى فيه البدعة محلها ، ولا تنتظم تحتها غيرها حتى تكون اصلا لها .

فالقسم الاول اذا عدّ من الكبائر اتضح مغزاه وأمكن ان يكون منحصرا داخلا تحت عموم الثنتين والسبعين فرقة ، ويكون الوعيد الآتي في الكتاب والسنة مخصوصا به لا عاما فيه وفي غيره ، ويكون ماعدا ذلك من قبيل اللمم المرجوّ فيه العفو ، الذي لا ينحصر الى ذلك العدد ، فلا قطع على أن جميعها من قبيل واحد ، وقد ظهر وجه انقسامها .

(والثالث) ان المعاصي قد ثبت انقسامها الى الصغائر والكبائر. ولا شك ان البدع من جملة المعاصي - على مقتضى الادلة المتقدمة - ونوع من أنواعها، فاقتضى اطلاق التقسيم أن البدع تنقسم أيضاً، ولا يخصص وجوها (؟) بتعميم الدخول في الكبائر، لأن ذلك تخصيص من غير مخصص، ولو كان ذلك معتبرا لاستثنى مَن تقدم من العلماء القائلين بالتقسيم قسم البدع، فكانوا ينصون على ان المعاصي ما عدا البدع تنقسم الى الصغائر والكبائر، الا أنهم لم يلتفتوا الى الاستثناء وأطلقوا القول بالانقسام، فظهر أنه شامل لجميع أنواعها.

فان قيل: إن ذلك التفاوت لا دليل فيه على اثبات الصغيرة مطلقا، وانما يدل ذلك على أنها تتفاضل، فمنها ثقيل وأثقل، ومنها خفيف وأخف؛ والخفة هل تنتهي الى حد تعد البدعة فيه من قبيل اللمم؟ هذا فيه نظر، وقد ظهر معنى الكبيرة والصغيرة في المعاصي غير البدع؛

وأما في البدع فثبت لها أمران: احدهما انها مضادة للشارع ومراغمة له، حيث نصب المبتدع نفسه نصب المستدرك على الشريعة، لا نصب المكتفي بما حدّ له.

والثاني أن كل بدعة - وان قلّت - تشريع زائد أو ناقص، أو تغيير للاصل الصحيح؛ وكل ذلك قد يكون على الانفراد، وقد يكون ملحقا بما هو مشروع، فيكون قادحا في المشروع. ولو فعل أحد مثل هذا فى نفس الشريعة عامداً لكفر، اذ الزيادة والنقصان فيها أو التغيير قلّ أو كثر كفر، فلا فرق بين ما قل منه وما كثر. فمن فعل مثل ذلك بتأويل فاسد أو برأي غالط رآه، أو ألحقه بالمشروع، اذا لم نكفره لم يكن فى

حكمه فرق بين ما قل منه وما كثر ، لان الجميع جناية لا تحملها الشريعة بقليل ولا بكثير .

ويعضد هذا النظر عموم الادلة في ذم البدع من غير استثناء ، فالفرق بين بدعة جزئية وبدعة كلية ، وقد حصل الجواب عن السؤال الاول والثاني .

وأما الثالث فلا حجة فيه لان قوله عليه السلام « كل بدعة ضلالة » وما تقدم من كلام السلف يدل على عموم الذم فيها .وظهر أنها مع المعاصي لا تنقسم ذلك الانقسام ، بل إنما ينقسم ما سواها من المعاصي . واعتبر بما تقدم ذكره فى الباب الثاني يتبين لك عدم الفرق فيها . وأقرب منها عبارة تناسب هذا التقرير أن يقال : كل بدعة كبيرة عظيمة بالاضافة الى مجاوزة حدود الله بالتشريع ، الا أنها وان عظمت لما ذكرناه ، فاذا نسب بعضها الى بعض تفاوتت رتبتها فيكون منها صغار وكبار ، أما باعتبار ان بعضها أشد عقابا من بعض ، فالاشد عقابا اكبر مما دونه ، واما باعتبار فوت المطلوب في المفسدة ، فكما انقسمت الطاعة باتباع السنة الى الفاضل والأفضل ، لانقسام مصالحها الى الكامل والاكمل ، انقسمت البدع لانقسام مفاسدها الى الرذل والارذل ، والصغر والكبر، من باب النسب والاضافات ، فقد يكون الشيء كبيرا في نفسه لكنه صغير بالنسبة الى ما هو أكبر منه .

وهذه العبارة قد سبق اليها امام الحرمين لكن في انقسام المعاصي الى الكبائر والصغائر فقال : المرضي عندنا أن كل ذنب كبيرة وعظيم بالاضافة الى مخالفة الله ، ولذلك يقال : معصية الله أكبر من معصية العباد–

قولا مطلقاً، الا أنها وان عظمت لما ذكرناه، فاذا نسب بعضها الى بعض تفاوتت رتبها. ثم ذكر معنى ما تقدم؛ ولم يوافقه غيره على ما قال، وان كان له وجه في النظر وقعت الاشارة اليه في كتاب الموافقات. ولكن الظاهر يأبى ذلك ـ حسبما ذكره غيره من العلماء ـ. والظواهر فى البدع لا تأبى كلام الامام اذا نزل عليها ـ حسبما تقدم ـ فصار اعتقاد الصغائر فيها يكاد يكون من المتشابهات، كما صار اعتقاد نفي الكراهية التنزيه عنها من الواضحات.

فليتأمل هذا الموضع أشد التأمل ويعط من الانصاف حقه، ولا ينظر الى خفة الأمر في البدعة بالنسبة الى صورتها وان دقت، بل ينظر الى مصادمتها للشريعة ورميها لها بالنقص والاستدراك، وأنها لم تكمل بعد حتى يوضع فيها، بخلاف سائر المعاصي فانها لا تعود على الشريعة بتنقيص ولا غض من جانبها، بل صاحب المعصية متنصل منها مقر لله بمخالفته لحكمها.

وحاصل المعصية أنها مخالفة في فعل المكلف لما يعتقد صحته من الشريعة؛ والبدعة حاصلها مخالفة في اعتقاد كمال الشريعة، ولذلك قال مالك بن أنس: من احدث في هذه الامة شيئا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خان الرسالة، لان الله يقول «اليوم أكملت لكم دينكم» الى آخر الحكاية. وقد تقدمت.

ومثلها جوابه لمن اراد أن يُحرم من المدينة وقال: أي فتنة فيها؟ إنما هي أميال أزيدها. فقال: وأي فتنة أعظم من أن تظن أنك فعلت فعلا قصر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الى آخر الحكاية، وقد تقدمت

أيضاً. فاذاً يصح أن يكون في البدع ما هو صغيرة.

فالجواب أن ذلك يصح بطريقة يظهر ان شاء الله أنها تحقيق في تشقيق هذه المسئلة:

وذلك أن صاحب البدعة يتصور أن يكون عالما بكونها بدعة وأن يكون غير عالم بذلك. وغير العالم بكونها بدعة على ضربين، وهما المجتهد في استنباطها وتشريعها والمقلد له فيها. وعلى كل تقدير فالتأويل يصاحبه فيها ولا يفارقه اذا حكمنا له بحكم أهل الاسلام. لانه مصادم للشارع مراغم للشرع بالزيادة فيه أو النقصان منه أو التحريف له؛ فلا بد له من تأويل كقوله «هي بدعة ولكنها مستحسنة» أو يقول «إنها بدعة ولكني رأيت فلانا الفاضل يعمل بها» أو يقربها ولكنه يفعلها لحظ عاجل، كفاعل الذنب لقضاء حظه العاجل خوفا على حظه، أوفرارا من خوف على حظه، أو فراراً من الاعتراض عليه في اتباع السنة، كما هو الشأن اليوم في كثير ممن يشار اليه، وما أشبه ذلك.

وأما غير العالم وهو الواضع لها، فانه لا يمكن ان يعتقدها بدعة، بل هي عنده مما يلحق بالمشروعات، كقول من جعل يوم الاثنين يصام لأنه يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وجعل الثاني عشر من ربيع الاول ملحقا بايام الاعياد لانه عليه السلام ولد فيه، وكمن عدّ السماع والغناء مما يتقرب به الى الله بناء على أنه يجلب الاحوال السنية، أو رغب في الدعاء بهيئة الاجتماع في ادبار الصلوات دائما بناء على ما جاء في ذلك حالة الوحدة، أو زاد في الشريعة احاديث مكذوبة لينصر في زعمه سنة محمد صلى الله عليه

وسلم . فلما قيل له : إنك تكذب عليه. وقد قال « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » قال : لم أكذب عليه وإنما كذبت له. أو نقص منها تأويلا عليها لقوله تعالى فى ذم الكفار (إن يتبعون الا الظن ! وإن الظن لايغني من الحق شيئا) فاسقط اعتبار الاحاديث المنقولة بالآحاد لذلك ولما أشبه،لان خبر الواحد ظني ؛ فهذا كله من قبيل التأويل.

وأما المقلد فكذلك أيضاً لانه يقول : فلان المقتدى به يعمل بهذا العمل ويثني (؟) كاتخاذ الغناء جزءا من أجزاء طريقة التصوف بناء منهم على أن شيوخ التصوف قد سمعوه وتواجدوا عليه ، ومنهم من مات بسببه ، وكتمزيق الثياب عند التواجد بالرقص وسواه لانهم قد فعلوه ، وأكثر مايقع مثل هذا في هؤلاء المنتمين الى التصوف ،

وربما احتجوا على بدعهم بالجنيد والبسطامي والشبلي وغيرهم فيما صح عندهم أو لم يصح، ويتركون أن يحتجوا بسنة الله ورسوله وهي التي لا شائبة فيها اذا نقلها العدول وفسرها أهلها المكبون على فهمها وتعلمها . ولكنهم مع ذلك لا يقرون بالخلاف للسنة بحتا، بل يدخلون تحت اذيال التأويل، اذ لا يرضي منتم الى الاسلام بابداء صفحة الخلاف للسنة اصلا .

واذا كان كذلك فقول مالك : من أحدث فى هذه الامة شيئا لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم خان الرسالة . وقوله لمن اراد ان يحرم من المدينه : أي فتنة أعظم من أن تظن أنك سبقت الى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ الى آخر الحكاية ـ انها الزام للخصم على عادة أهل النظر،كانه يقول : يلزمك في هذا القول كذا.

لا أنه يقول قصدت اليه قصدا ، لانه لا يقصد الى ذلك مسلم ، ولازم المذهب : هل هو مذهب أم لا ؛ هي مسئلة مختلف فيها بين أهل الاصول ، والذي كان يقول به شيوخنا البجائيون والمغربيون ويرون أنه رأي المحققين أيضاً : ان لازم المذهب ليس بمذهب ، فلذلك اذا قرر على الخصم أنكره غاية الانكار،[1] فاذا اعتبار ذلك المعنى على التحقيق لا ينهض، وعند ذلك تستوي البدعة مع المعصية صغائر وكبائر ، فكذلك البدع .

ثم أن البدع على ضربين : كلية وجزئية ، فأما الكلية فهي السارية فيما لا ينحصر من فروع الشريعة ، ومثالها بدع الفرق الثلاث والسبعين فانها مختصة بالكليات منها دون الجزئيات ، حسبما يتعين[2] بعد ان شاء الله .

وأما الجزئية فهي الواقعة فى الفروع الجزئية ؛ ولا يتحقق دخول هذا الضرب من البدع تحت الوعيد بالنار ، وإن دخلت تحت الوصف بالضلال . كما لا يتحقق ذلك في سرقة لقمة أو التطفيف بحبة ، وان كان داخلا تحت وصف السرقة، بل المتحقق دخول عظائمها وكلياتها كالنصاب في السرقة ؛ فلا تكون تلك الادلة واضحة الشمول لها ، ألا ترى أن خواص البدع غير ظاهرة فى أهل البدع الجزئية غالبا ؟ كالفرقة والخروج عن الجماعة ، وإنما تقع الجزئيات فى الغالب كالزلة والفلتة ، ولذلك لا يكون اتباع الهوى فيها مع حصول التأويل فى فرد من افراد الفروع، ولا المفسدة الحاصلة بالجزئية كالمفسدة الحاصلة بالكلية ؛ فعلى هذا اذا اجتمع في البدعة

(١) ... كل لازم للمذهب ينكره صاحبه لو عرض عليه ولذلك جعل بعضهم الانكار شرطا لكون لازم المذهب ليس بمذهب وهذا التفصيل هو التحقيق

(٢) لعله يتبين

وصفان - كونها جزئية وكونها بالتأويل - صح أن تكون صغيرة ، والله أعلم .

ومثاله مسئلة من نذر أن يصوم قائما لا يجلس ، وضاحيا لا يستظل ، ومن حرم على نفسه شيئا مما أحل الله من النوم أو لذيذ الطعام ، أو النساء أو الاكل بالنهار ، وما أشبه ذلك مما تقدم ذكره أو يأتي ؛ غير ان الكلية والجزئية قد تكون ظاهرة وقد تكون خفية ، كما أن التأويل قد يقرب مأخذه وقد يبعد ؛ فيقع الاشكال فى كثير من أمثلة هذا الفصل ، فيعد كبيرة ما هو من الصغائر وبالعكس ، فيوكل النظر فيه الى الاجتهاد اه

فصل

واذا قلنا : إن من البدع ما يكون صغيرة . فذلك بشروط (أحدها) أن لا يداوم عليها ؛ فان الصغيرة من المعاصي لمن داوم عليها تكبر بالنسبة اليه ، لان ذلك ناشئ عن الاصرار عليها ، والاصرار على الصغيرة يصيرها كبيرة ، ولذلك قالوا : لا صغيرة مع اصرار ، ولا كبيرة مع استغفار . فكذلك البدعة من غير فرق ؛ الا أن المعاصي من شأنها في الواقع أنها قد يصر عليها ، وقد لا يصر عليها ، وعلى ذلك ينبني طرح الشهادة وسخطة الشاهد بها أو عدمه ، بخلاف البدعة فان شأنها في الواقع المداومة والحرص على أن لا تزال من موضعها ، وأن تقوم على تاركها القيامة ، وتنطلق عليه ألسنة الملامة ، ويرمى بالتسفيه والتجهيل ، وينبز بالتبديع والتضليل ، ضد ما كان عليه سلف هذه الامة ، والمقتدى بهم من الائمة ؛ والدليل على ذلك الاعتبار والنقل ، فان أهل البدع كان من شأنهم القيام بالنكير على أهل السنة إن كان لهم عصبة ، أو لصقوا بسلطان تجري أحكامه في

الناس وتنفذ أوامره في الاقطار . ومن طالع سير المتقدمين وجد من ذلك ما لا يخفى .

وأما النقل فما ذكره السلف من أن البدعة اذا أحدثت لا تزيد الا مضيا ، وليست كذلك المعاصي ، فقد يتوب صاحبها وينيب الى الله ؛ بل قد جاء مايشد ذلك في حديث الفرق ، حيث جاء في بعض الروايات « تتجارى بهم تلك الاهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه » ومن هنا جزم السلف بان المبتدع لا توبة له منها — حسبما تقدم — .

(والشرط الثاني) أن لا يدعو اليها ، فان البدعة قد تكون صغيرة بالاضافة ، ثم يدعو مبتدعها الى القول بها والعمل على مقتضاها فيكون إثم ذلك كله عليه ، فانه الذي أثارها ، وسبب كثرة وقوعها والعمل بها ، فان الحديث الصحيح قد أثبت ان كل من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا ؛ والصغيرة مع الكبيرة انما تفاوتها بحسب كثرة الاثم وقلته ، فربما تساوي الصغيرة من هذا الوجه الكبيرة أو تربي عليها ؛

فمن حق المبتدع اذا ابتلي بالبدعة ان يقتصر على نفسه ، ولا يحمل مع وزره وزر غيره ، وفى هذا الوجه قد يتعذر الخروج ، فان المعصية فيما بين العبد وربه يرجو فيها من التوبة والغفران مايتعذر عليه مع الدعاء اليها ، وقد مر في باب ذم البدع . وباقي الكلام في المسئلة سيأتي ان شاء الله .

(والشرط الثالث) ان لا تفعل في المواضع التي هي مجتمعات الناس ، أو المواضع التي تقام فيها السنن ، وتظهر فيها اعلام الشريعة . فاما اظهارها فى

المجتمعات ممن يقتدى به أو ممن به [1] الظن فذلك من أضر الاشياء على سنة الاسلام ، فانها لاتعدو أمرين : اما ان يقتدى بصاحبها فيها ، فان العوام اتباع كل ناعق ، لاسيما البدع التي وكل الشيطان بتحسينها للناس ، والتي للنفوس في تحسينها هوى ، واذا اقتدي بصاحب البدعة الصغيرة كبرت بالنسبة اليه ، لان كل من دعا الى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ، فعلى حسب كثرة الأتباع يعظم عليه الوزر ؛

وهذا بعينه موجود في صغائر المعاصي ؛ فان العالم مثلا اذا أظهر المعصية — وان صغرت — سهل على الناس ارتكابها ، فان الجاهل يقول : لو كان هذا الفعل كما قال من أنه ذنب لم يرتكبه ، وانما ارتكبه لأمر علمه دوننا . فكذلك البدعة اذا أظهرها العالم المقتدى فيها لامحالة ؛ فانها في مظنة التقرب فى ظن الجاهل ، لان العالم يفعلها على ذلك الوجه ، بل البدعة أشد فى هذا المعنى ، اذ الذنب قد لايتبع عليه ، بخلاف البدعة فلا يتحاشى أحد عن اتباعه الا من كان عالما بانها بدعة مذمومة ، فحينئذ يصير فى درجة الذنب ، فاذا كانت كذلك صارت كبيرة بلا شك ، فان كان داعيا اليها فهو أشد ، وان كان الاظهار باعثا على اتباع ، فبالدعاء يصير ادعى اليه .

وقد روي عن الحسن أن رجلا من بني اسرائيل ابتدع بدعة فدعا الناس اليها فاتبع ، وأنه لما عرف ذنبه عمد الى ترقوته فنقبها فادخل فيها حلقة ثم جعل فيها سلسلة ثم أوثقها فى شجرة فجعل يبكي ويعج الى ربه ، فاوحى الله الى نبي تلك الامة ان لا توبة له قد غفر له الذي أصاب . فكيف بمن ضل فصار من أهل النار ؟ .

(١) لعل الاصل « بمن يحسن به الظن »

وأما اتخاذها في المواضع التي تقام فيها السنن فهو كالدعاء اليها بالتصريح ،لأن عمل اظهار الشرائع الاسلامية[1] توهم ان كل ما أظهر فيها فهو من الشعائر ، فكأن المظهر لها يقول : هذه سنة فاتبعوها .

قال أبو مصعب: قدم علينا ابن مهدي فصلى ووضع رداءه بين يدي الصف ، فلما سلم الامام رمقه الناس بابصارهم ورمقوا مالكا — وكان قد صلى خلف الامام — فلما سلم قال : من هاهنا من الحرس ؟ فجاءه نفسان. فقال : خذا صاحب هذا الثوب فاحبساه . فحبس ، فقيل له : انه ابن مهدي ، فوجه اليه وقال له : ما خفت الله واتقيته ان وضعت ثوبك بين يديك في الصف ، وشغلت المصلين بالنظر اليه ، وأحدثت فى مسجدنا شيئا ما كنا نعرفه ؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من احدث في مسجدنا حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » فبكى ابن مهدي وآلى على نفسه ان لايفعل ذلك ابدا في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ولا في غيره . وفي رواية عن ابن مهدي قال: فقلت للحرسيين : تذهبان بي الى أبي عبد الله ؟ قالا ان شئت ، فذهبنا اليه . فقال : يا عبد الرحمن ! تصلي مستلبا ؟ فقلت يا أبا عبد الله إنه كان يوما حارا — كما رأيت — فثقل ردائي عليّ . فقال : الله ما أردت بذلك الطعن على من مضى والخلاف عليه ، قلت : الله[2] . قال خلياه .

وحكى ابن وضاح قال ثوّب المؤذن بالمدينة في زمان مالك ، فارسل اليه مالك فجاءه ، فقال له مالك : ما هذا الذي تفعل ؟ فقال : أردت أن

(١) هذا قسم حذفت أداته . لقنه القسم فحلف على ما لقنه فكأنه قال له : قل والله ما أردت . ذا الطعن الخ فقال : والله . أي ما اردت ذلك (٢) كذا ولعل فيها تحريفا وسقطا والمراد ظاهر من القرينة

يعرف الناس طلوع الفجر فيقوموا . فقال له مالك : لا تفعل، لا تحدث في بلدنا شيئا لم يكن فيه ، قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا البلد عشر سنين وأبو بكر وعمر وعثمان فلم يفعلوا هذا ، فلا تحدث في بلدنا مالم يكن فيه؛ فكف المؤذن عن ذلك واقام زمانا ، ثم انه تنحنح في المنارة عند طلوع الفجر، فارسل اليه مالك فقال له: ما الذي تفعل؟ قال: أردت أن يعرف الناس طلوع الفجر . فقال له : ألم انهك ان لا تحدث عندنا مالم يكن ؟ فقال : انما نهيتني عن التثويب . فقال له لا تفعل . فكف زمانا . ثم جعل يضرب الابواب ، فارسل اليه مالك فقال : ماهذا الذي تفعل ؟ فقال : أردت ان يعرف الناس طلوع الفجر . فقال له مالك : لا تفعل ، لا تحدث فى بلدنا ما لم يكن فيه .

قال ابن وضاح : وكان مالك يكره التثويب — قال — وإنما احدث هذا بالعراق . قيل لابن وضاح : فهل كان يعمل به بمكة أو المدينة أو مصر أو غيرها من الامصار ؟ فقال : ماسمعت الا عند بعض الكوفيين والاباضيين .

فتأمل كيف منع مالك من احداث أمر يخف شأنه عند الناظر فيه ببادي الرأي وجعله أمرا محدثا ، وقد قال في التثويب: إنه ضلال . وهو بين ، لأن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، ولم يسامح المؤذن في التنحنح ولا في ضرب الابواب ، لأن ذلك جدير بان يتخذ سنة ، كما منع من وضع رداء عبد الرحمن ابن مهدي خوف أن يكون حدثا احدثه .

وقد أحدث بالمغرب المتسمى بالمهدي تثويبا عند طلوع الفجر وهو قولهم « أصبح ولله الحمد » اشعارا بان الفجر قد طلع ، لإلزام الطاعة ،

ولحضور الجماعة، وللغدو لكل ما يؤمرون به. فيخصه هؤلاء المتأخرون تثويبا بالصلاة كالأذان. ونقل أيضاً الى أهل المغرب الحزب المحدث بالاسكندرية، وهو المعتاد في جوامع الاندلس وغيرها، فصار ذلك كله سنة في المساجد الى الآن، فانا لله وانا اليه راجعون.

وقد فسر التثويب الذي اشار اليه مالك بان المؤذن كان اذا اذن فابطأ الناس قال بين الأذان والاقامة: قد قامت الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح. وهذا نظير قولهم عندنا: الصلاة — رحمكم الله.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه دخل مسجدا اراد ان يصلي فيه، فثوّب المؤذن، فخرج عبد الله بن عمر من المسجد، وقال: اخرج بنا[1] من عند هذا المبتدع. ولم يصل فيه. قال ابن رشد: وهذا نحو مما كان يفعل عندنا بجامع قرطبة من ان يفرد المؤذن بعد اذانه قبل الفجر النداء عند الفجر بقوله: حي على الصلاة. ثم ترك — قال — وقيل: انما عنى بذلك قول المؤذن في اذانه: حي على خير العمل. لانها كلمة زادها في الاذان من خالف السنة من الشيعة. ووقع في المجموعة ان من سمع التثويب وهو في المسجد خرج عنه كفعل ابن عمر رضي الله عنهما.

وفي المسئلة كلام المقصود منه التثويب المكروه الذي قال فيه مالك إنه ضلال. والكلام يدل على التشديد في الامور المحدثة ان تكون في مواضع الجماعة أو في المواطن التي تقام فيها السنن، والمحافظة على المشروعات أشد المحافظة، لانها اذا اقيمت هنالك اخذها الناس وعملوا بها، فكان

(١) يظهر انه كان معه صاحب قال له ذلك. وهل كان في كلام المصنف تصريح بذلك سقط من الناسخين ام لا؟ الله اعلم

وزر ذلك عائداً على الفاعل أولا ، فيكثر وزره ويعظم خطر بدعته .

(والشرط الرابع) ان لا يستصغرها ولا يستحقرها - وان فرضناها صغيرة - فان ذلك استهانة بها ، والاستهانة بالذنب أعظم من الذنب ؛ فكان ذلك سببا لعظم ما هو صغير . وذلك ان الذنب له نظران : - (نظر) من جهة رتبته في الشرط ، ونظر من جهة مخالفة الرب العظيم به ؛ فاما النظر الاول فمن ذلك الوجه يعد صغيرا اذا فهمنا من الشرع انه صغير ، لانا نضعه حيث وضعه الشرع ؛ وأما الآخر فهو راجع الى اعتقادنا في العمل به حيث نستحرم جهة الرب سبحانه بالمخالفة ، والذي كان يجب في حقنا ان نستعظم ذلك جدا ، اذ لا فرق في التحقيق بين المواجهتين - المواجهة بالكبيرة والمواجهة بالصغيرة .

والمعصية من حيث هي معصية لا يفارقها النظران في الواقع أصلا ، لأن تصورها موقوف عليهما ، فالاستعظام لوقوعها مع كونها يعتقد فيها انها صغيرة لا يتنافيان ، لانهما اعتباران من جهتين : فالعاصي وان تعمد المعصية لم يقصد بتعمده الاستهانة بالجانب العليّ الرباني ، وانما قصد اتباع شهوته مثلا فيما جعله الشارع صغيرا أو كبيرا ، فيقع الاثم على حسبه ، كما ان البدعة لم يقصد بها صاحبها منازعة الشارع ولا التهاون بالشرع ، وانما قصد الجري على مقتضاه ، لكن بتأويل زاده ورجحه على غيره ، بخلاف ما اذا تهاون بصغرها في الشرع ، فانه انما تهاون بمخالفة الملك الحق ، لان النهي حاصل ومخالفته حاصلة ، والتهاون بها عظيم ؛ ولذلك يقال : لا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى عظمة من واجهته بها .

وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع «أي يوم هذا ؟ - قالوا : يوم الحج الاكبر . قال - فان دماءكم واموالكم واعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا ، لا يجني جان الا على نفسه ، ألا لا يجني جان على ولده ولا مولود على والده ، ألا وان الشيطان قد يئس ألا يعبد في بلدكم هذا أبدا ، ولا تكون له طاعة فيما يحتقرون من أعمالكم فسيرضى به »[1] فقوله عليه السلام « فسيرضى به » دليل على عظم الخطب فيما يستحقر .

وهذا الشرط مما اعتبره الغزالي في هذا المقام ، فانه ذكر في الاحياء ان مما تعظم به الصغيرة ان يستصغرها — قال — فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله . ثم بين ذلك وبسطه .

فاذا تحصلت هذه الشروط ، فاذ ذاك يرجى ان تكون صغيرتها صغيرة ، فان تخلف بشرط منها أو اكثر صارت كبيرة ، أو خيف ان تصير كبيرة ، كما ان المعاصي كذلك ، والله أعلم .

*

(١) كذا في نسخة الكتاب . ولا أذكر لاحد روايته بهذا اللفظ . وفي حديث عمرو بن الاحوص عند أصحاب السنن ماعدا ابا داود « ألا ان الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبدا ، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحقرون من أعمالكم فيرضى بها »

ترجمة الامام الشاطبي

من كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج (١)

هو ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي ابو اسحاق الشهير بالشاطبي. الامام العلامة ، المحقق القدوة ، الحافظ الجليل المجتهد ، كان أصوليًّا مفسرا ، فقيها محدثا ، لغويا بيانيّا ، نظارا ثَبْتاً ، ورعا صالحا ، زاهدا سنيّا ، اماما مطلقا . بحاثا مدققا ، جدليا بارعا في العلوم ، من افراد العلماء المحققين الاثبات ، وا كابر الأئمة المتفننين الثقات ، له القدم الراسخ والامامة العظمى في الفنون - فقها وأصولا ، وتفسيرا وحديثا ، وعربية وغيرها - مع التحرّي والتحقيق ، له استنباطات جليلة ، ودقائق منيفة ، وفوائد لطيفة ، وابحاث شريفة ، وقواعد محررة محققه ، على قدم راسخ من الصلاح والعفة والتحري والورع ، حريصا على اتباع السنة ، مجانبا للبدع والشبهة ، ساعيا في ذلك مع تثبت تام ، منحرفا عن كل ما ينحو للبدع واهلها ، وقع له في ذلك امور مع جماعة من شيوخه وغيرهم في مسائل .

وله تآليف جليلة ، مشتملة على ابحاث نفيسة ، وانتقادات وتحقيقات شريفة .

قال الامام الحفيد ابن مرزوق في حقه : انه الشيخ الاستاذ الفقيه الامام المحقق العلامة الصالح ، ابو اسحاق . انتهى ، وناهيك بهذه التحلية من مثل هذا الامام ، وانما يعرف الفضل لأهله اهله .

اخذ العربية وغيرها عن أئمة ، منهم الامام المفتوح عليه في فنها ما لا مطمع فيه لسواه ، بحثا ، وحفظا ، وتوجيها ، ابن الفخَار الأَلْبِيرِي . لازمه الى ان مات ، والامام الشريف رئيس العلوم اللسانية ، ابو القاسم السَّبتي ، شارح مقصورة حازم ، والامام المحقق اعلم اهل وقته ، الشريف ابو عبد الله التلمساني ، والامام علامة وقته باجماع ، ابو عبد الله المقري ، وقطب الدائرة ، شيخ الجلة ، الامير الشهير ، ابو سعيد ابن لبّ ، والامام الجليل ، الرحلة الخطيب ، ابن مرزوق الجد ، والعلامة المحقق

(١) تأليف أحمد بن أحمد بن عمر اقيت المعروف ببابا التكروري ثم التنبكتي المولود سنة ٩٦٣ والمتوفى سنة ١٠٣٢

المدرس الاصولي ، ابو علي منصور بن محمد الزواوي ، والعلامة المفسر المؤلف ابو عبد الله البلنسي ، والحاج العلامة الرحلة الخطيب ابو جعفر الشقوري . وممن اجتمع معه . واستفاد منه ، العالم الحافظ الفقيه ، ابو العباس القباب ، والمفتي المحدث ابو عبد الله الحفار . وغيرهم .

اجتهد و برع . وفاق الاكابر . والتحق بكبار الأئمة في العلوم ، وبالغ في التحقيق ، وتكلم مع كثير من الأئمة في مشكلات المسائل من شيوخه وغيرهم ، كالقباب . وقاضي الجماعة الفشتالي ، والامام ابن عرفة ، والولي الكبير ابي عبد الله بن عباد . وجرى له معهم ابحاث ومراجعات ، اجلت عن ظهوره فيها . وقوة عارضته وامامته . منها مسألة مراعاة الخلاف في المذهب [1] فيها له بحث عظيم ، مع الامامين القباب وابن عرفة . وله ابحاث جليلة في التصوف وغيره . وبالجملة فقدره في العلوم فوق ما يذكر ، وتحليته في التحقيق فوق ما يشهر .

الف تواليف نفيسة ، اشتملت على تحريرات للقواعد ، وتحقيقات لمهمات الفوائد . منها شرحه الجليل على الخلاصة في النحو ، في اسفار اربعة كبار ، لم يؤلف عليها مثله بحثا وتحقيقا فيما اعلم . وكتاب (الموافقات) في أصول الفقه سماه « عنوان التعريف باصول التكليف » كتاب جليل القدر جدا لا نظير له ، يدل على امامته وبعد شأوه في العلوم ، سيما علم الاصول . قال الامام الحفيد بن مرزوق : كتاب الموافقات المذكور ، من انبل الكتب ، وهو في سفرين . وتأليف كبير نفيس في الحوادث والبدع في سفر في غاية الاجادة ، سماه (الاعتصام) وكتاب (المجالس) شرح فيه كتاب البيوع من صحيح البخاري . فيه من الفوائد والتحقيقات ، ما لا يعلمه الا الله . وكتاب (الإفادات والانشادات) في (كراسين فيه طرف وتحف . وملح ادبيات وانشادات . وله ايضا كتاب (عنوان الاتفاق في علم الاشتقاق) وكتاب (أصول النحو) ، وقد ذكرهما معا في شرح الألفية . ورأيت في موضع آخر انه اتلف الأول في حياته وان الثاني اتلف ايضا . وله غيرها ، وفتاوي كثيرة

ومن شعره لما ابتلي بالبدع :

(١) اشار الى هذه المسألة في المقدمة الثالثة عشرة من كتاب الموافقات

بليت يا قوم والبلوى منوّعة بمن اداريه حتى كاد يرديني
دفع المضرة لا جلبا لمصلحة فحسبي الله في عقلي وفي ديني

انشدهما تلميذه الامام ابو يحيى بن عاصم له مشافهة .

اخذ عنه جماعة من الأئمة كالامامين العلامتين ابي يحيى بن عاصم الشهير ، واخيه القاضي المؤلف ابي بكر بن عاصم ، والشيخ ابي عبد الله البياني ، وغيرهم . وتوفي يوم الثلاثاء ثامن شعبان سنة تسعين وسبعمائة ولم اقف على مولده رحمه الله :

(فائدة) وكان صاحب الترجمة ممن يرى جواز ضرب الخراج على الناس ، عند ضعفهم وحاجتهم ، لضعف بيت المال عن القيام بمصالح الناس ، كما وقع للشيخ المالقي في كتاب الورع . قال: توظيف الخراج على المسلمين من المصالح المرسلة ، ولا شك عندنا في جوازه ، وظهور مصلحته في بلاد الاندلس في زماننا الآن : لكثرة الحاجة لما يأخذه العدوّ من المسلمين ، سوى ما يحتاج اليه الناس ، وضعف بيت المال الآن عنه ، فهذا يقطع بجوازه الآن في الأندلس ، وانما النظر في القدر المحتاج اليه من ذلك ، وذلك موكول الى الامام ، ثم قال اثناء كلامه : ولعلك تقول كما قال القائل لمن اجاز شرب العصير بعد كثرة طبخه وصار رُبًّا : أحللتها والله يا عمر . يعني هذا القائل احللت الخمر بالاستجرار الى نقص الطبخ . حتى تحل الخمر بمقالك. فاني اقول — كما قال عمر رضي الله عنه : والله لا احل شيئا حرمه الله ، ولا احرّم شيئا احله، وان الحق احق ان يتبع ، (ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه)

وكان لخراج بناء السور في بعض مواضع الاندلس في زمانه وظفا على اهل الموضع . فسئل عنه امام الوقت في الفتيا بالاندلس الاستاذ الشهير ابو سعيد ابن لبّ . فأفتى انه لا يجوز ولا يسوغ ، وافتى صاحب الترجمة بسوغه ، مستندا فيه الى المصلحة المرسلة . معتمدا في ذلك الى قيام المصلحة ، التي ان لم يقم بها الناس فيعطونها من عندهم ضاعت . وقد تكلم على المسئلة الامام الغزالي في كتابه . فاستوفى . ووقع لابن الفراء في ذلك مع سلطان وقته وفقهائه كلام مشهور لا نطيل به .

وكتب جوابا لبعض اصحابه في دفع الوسواس العارض في الطهارة وغيرها

« وصلني جوابكم فيما تدفعون به الوسواس، فهذا امر عظيم في نفسه ، وانفع شيء فيه المشافهة ، واقرب ما اجد الآن ، ان تنظروا من اخوانكم من تدلون عليه وترضون دينه، و يعمل بصلب الفقه ، ولا يكون فيه وسوسة ، فتجعلونه امامكم على شرط أن لا تخالفوه ، وان اعتقدتم ان الفقه عندكم بخلافه . فاذا فعلتموه رجوت لكم النفع ، وان تواظبوا على قول « اللهم اجعل لي نفسا مطمئنة توقن بلقائك ، وتقتنع بعطائك، وترضى بقضائك ، وتخشاك حق خشيتك، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » فانه نافع للوسواس ، كما رأيته في بعض المنقولات .

وكان يقول : لا يحصل الوثوق والتحقيق بشأن الرواية في الأكيال المنقولة بالأسانيد . واختبرت ذلك فوجدت الأكيال مختلفة ، متباينة الاختلاف ، وهي ذوات روايات ، فالكيل الشرعي تقريبا منقول عن شيوخ المذهب ، يدركه كل احد، حفنة من البر أو غيره بكلتا اليدين مجتمعين، من ذوي يدين متوسطتين، بين الصغري والكبرى ، فالصاع منها اربع حفنات ، جربته فوجدته صحيحا . فهذا الذي ينبغي ان يعول عليه. لانه مبني على اصل التقريب الشرعي. والتدقيقات في الامور غير مطلوبة شرعا ، لانها تنطع وتكلف ، فهذا ما عندي .

ومن كلامه : اما من تعسف وطلب المحتملات ، والغلبة بالمشكلات ، واعرض عن الواضحات ، فيخاف عليه التشبه بمن ذمه الله في قوله (فاما الذين في قلوبهم زيغ) الآية .

وكان لا يأخذ الفقه الا من كتب الاقدمين ، ولا يرى لأحد ان ينظر في هذه الكتب المتأخرة ، كما قرره في مقدمة كتابه الموافقات وترد عليه الكتب في ذلك، من بعض اصحابه ، فيوقع له : واما ماذكرتم من عدم اعتمادي على التآليف المتأخرة ، فليس ذلك مني محض رأي ، ولكن اعتمدته بحسب الخبرة عند النظر في كتب المتقدمين مع المتأخرين كابن بشير ، وابن شاس ، وابن الحاجب ، ومن بعدهم ، ولان بعض من لقيته من العلماء بالفقه، اوصاني بالتحامي عن كتب المتأخرين . واتى بعبارة خشنة ولكنها محض النصيحة ، والتساهل في النقل عن كل كتاب جاء لا يحتمله دين الله . ومثله ما اذا عمل الناس بقول ضعيف ، ونقل عن بعض

الأصحاب ، لا تجوز مخالفته ، وذلك مشعر بالتساهل جدا ، ونص ذلك القول لا يوجد لاحد من العلماء فيما اعلم .

والعبارة الخشنة التي اشار اليها ، كان ينقلها عن صاحبه ابي العباس القبَّاب انه كان يقول في ابن بشير وابن شاس : افسدوا الفقه . وكان يقول : شأني عدم الاعتماد على التقاييد المتأخرة . اما للجهل بمؤلفيها او لتأخر ازمنتهم جدا ، فلذلك لا اعرف كثيرا منها ولا اقتنيته ، وعمدتي كتب الأقدمين المشاهير . ولنقتصر على هذا القدر من بعض فوائده .

الجنسيات في المملكة العثمانية

٢

بينا في المقالة الاولى من هذا البحث ان الحكومة العثمانية الاتحادية تركت فى طورها الاخير عقاب من يلهج بالعرب والعربية من اصحاب الجرائد العربية وغيرهم، وان العرب لم يغلوا في إحياء الجنسية العربية كما غلت الجمعيات والجرائد التركية ، التي جاهرت بالدعوة الى كل شيء في الدولة تركيا . بالقول والفعل ، وهجر اسم «العثمانية» ولم نسمع لاحد من كتاب الترك صوتا في انكارهذا الغلو والانتصار للجامعتين الاسلامية والعثمانية على التركية الا لعلي بك كمال ، فقد كتب في جريدة (بيام) ردا على أولئك الغلاة بين فيه ان الحياة التركية ، لا تقوم الا بالجامعة العثمانية السياسية ، وان المجاهرة بحصر كل شيء في الترك والتركية يبعث العرب والكرد وغيرهم من العناصر العثمانية الى مثل هذه الدعوة فلا يبقى للترك شيء . واشتدت المناظرة بينه و بين (اقچورا) وغيره من غلاة الجنسية التركية حتى انتهت الى السباب والشتم

وكان مما كتبه (اقچورا) في (تورك يوردي) بالاستانة في اوائل ربيع الآخر من هذا العام ما ترجمته بالاختصار والاجمال :

«يجب ان نعمد الى الحقائق فنقررها . ما العثمانية ؟ ولماذا لا تقول التركية ؟ أليست العثمانية نسبة الى عثمان التركي ؟ ان الحقيقة تغلب الخيال ، ومن المحال العقلي ان تظل هذه العناصر المتباينة مرتبطا بعضها ببعض وراء ستار وهمي، وتحت اسم خلق بال !

« يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة ان نعمد الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغه بالصبغة التركية المحضة (ليت شعري هل تدخل الشريعة الاسلامية في هذه الشرائع التي عناها ام هم في غنى عنها لان الله تعالى يقول « إنا انزلناه حكما عربيا » ؟)

« يجب ان نعلم اننا من أمة ظهر فيها قواد اعظم من نابليون ، وعظماء اشهر من يوليوس قيصر ، وشعراء اكبر من هيغو . وان في استطاعتنا ان نفعل ما يفعله الجرمان والسكسونيون لحياة قومهم ، فلا ينبغي ان نظل مقيدين بالاوهام والخرافات الماضية . »

وقد انهزم علي كمال بك امام حملات الغلاة واضطر الى مجاراتهم . واننا لنرى اشد كتاب العرب لهجا بالعربية لا يعدون غلاة بالنسبة الى الكتاب المعتدلين من الترك بل يعدون مقصرين ، وان جماعة حزب اللامركزية لم يجعلوا مسألة الجنسية العربية من موضوع حزبهم ، الا اذا كانت المحافظة على اللغة العربية بين اهلها يعد دعوة الى الجنسية العربية . ولهذا انكرنا على ذلك الكاتب العربي رميهم بالعصبية الجنسية التي ذمها ذما إسلاميا ، وجعلها هادمة الاسلام! كأن الاسلام الذي دخل فيه يموت بحياة لغته العربية ، ويحيا باللغة التركية !

استدللنا بتخصيص الحزب بهذا الذم وبسكوته عن غلاة العصبية التركية ، على انه لم يكتب ما كتب الا تزلفا ونفاقا ، وجعل اسم الدين الاسلامي شبكة لصيد المال والجاه . ولو انكر على أولئك الغلاة والمعتدلين في العصبية الجنسية ، واتبع هواه باضافة اللامركزيين اليهم ، واشراكه معهم ، لما اعتقدنا فيه كل هذا الاعتقاد .

سلكت الجماعات العربية كلها مسلك الاعتدال فيما تطلبه لامتها من الدولة وفيما تنصح به للامة ، الا ما عرض لجماعة البصرة ، فقد كان في بعض كلامها شيء من الشدة ، ثم كان زعيمها السيد طالب بك النقيب ساعد الحكومة وعضدها في عقد الوفاق بينها وبين الامير عبد العزيز بن سعود أمير نجد ، وفي غير ذلك مما عهدته اليه من خدمتها في تلك البلاد ، وقد تبرع هو ووجهاء البصرة للاسطول وغير الاسطول بمبالغ قلما رأت مثلها الدولة من بلد آخر . على انها لم تجبهم الى شيء مما طلبوه من الاصلاح . فكان ذلك دليلا على ان أشد العرب في ولايات الدولة شكيمة ، وأقواهم عصبية ، لا يني ولا يقصر في خدمتها ، اذا هي أظهرت الثقة به ، وعهدت اليه بعمل يعمله .

الجنسية اللبنانية

نعم ان بعض الجرائد والجمعيات اللبنانية ، قد غلت في الدعوة الى الانسلاخ من كل صفة عثمانية ، والاستقلال بجنسية لبنانية لا عربية . فلبنان يتمتع باستقلال داخلي لا يشاركه في مثله جبل من الجبال ، ولا سهل من السهول ، ولا ولاية ولا مملكة في الارض ، حتى قال الدكتور يعقوب صروف — وهو من يفتخر لبنان بمكانه من العلم والفلسفة ومعرفة شؤون العالم — : إن كل تغيير يطرأ على نظام لبنان يكون شرا ، اذ لا خير مما هو عليه . ولكن كثيرا من اللبنانيين لا ينظرون الى هذه النعمة بالعين التي ينظر بها هذا العالم الخبير ، فترى صراخ شكواهم قد ملأ فضاء امريكة الشمالية والجنوبية ومصر ، ونقلت الجرائد صداه الى كل قطر يوجد فيه لبنانيون أو سوريون . فمنهم من يدعو الى الاستقلال التام ، ومنهم من يدعو الى احتلال فرنسة للبلاد . ولهم عدة جمعيات سياسية يشترك فيها ألوف منهم في الوطن وفي ديار الهجرة من مصر الى أوربة وامريكة وغيرها من الممالك .

وقد قرأنا كثيرا من مقالاتهم وقصائدهم واناشيدهم الاستقلالية فرأيناهم يفخرون فيها بعراقة هذا الجبل في الاستقلال ، وامتناعه على الفاتحين من جميع الامم والاجيال ، أي فهم لا يطلبون الآن ، الا الاستقلال الذي كانوا متمتعين به في كل زمان . وقد جددوا لانفسهم علما وطوابع بريد ، ومنهم من يختار الاستقلال تحت حماية فرنسة والاستظلال بعلمها . وقد عرف أهل الخافقين ما كان من مبالغة أهل الجبل في الحفاوة بضباط الاسطول الفرنسي والمظاهرات الولائية لهم عند ما زاروا بطرك الموارنة و بعض البلاد منذ اشهر ، اذ كان الاسطول في مياه بيروت. ويلي ذلك ما كان لمسيو جورج بيكو قنصل فرنسة عند ما زار لبنان مصاحبا لمسيو موريس بارس احد اعضاء مجلس النواب الفرنسي . وهذا النوع من الاحتفالات والمظاهرات قد تكرر ، وتكررت الوعود من فرنسة بإنالة الجبل ما يريد .

لسنا نريد الاستقصاء التاريخي في هذه المسائل فنفصل القول فيه ، ولا الانتقاد على الغلو والشذوذ الذي كان يتخلل ذلك مما لا يعهد له نظير للاجانب في مملكة من الممالك ، فنتتبع من ذلك ما قيل وما كتب ، وما انتقده بعض المسلمين في جرائد بيروت على ذلك وما رد به اللبنانيون على هؤلاء . وانما نريد أن نبين بالاجمال ان اللبنانيين منهم المعتدلون فيما ينقمون من الدولة وما يطلبون لبلادهم ، ومنهم الغلاة. وأن ذلك الكاتب العربي المدافع عن الجامعة العثمانية أو الجامعة الاسلامية ، المعادي للجنسية العربية والموضعية (كاللبنانية) لم يكتب كلمة في انتقاد هؤلاء الغلاة من

أبناء وطنه ، وأين منهم مؤسسو حزب اللامركزية ، الذين لم يدخلوا حزبهم في باب مباحث المسألة الجنسية .

واننا نثبت ما قلناه عن اللبنانيين أولا بنشر ماجاء في جريدة الهدى التي تصدر في نيويورك من مطالب جمعية النهضة اللبنانية التي يرأسها مدير تلك الجريدة وهذا نصه :

من مبادئ النهضة اللبنانية ومنازعها

« لكل امرئ من دهره ما تعودا » وما تعودناه ان نصون الوعد فلا نخلفه، والعهد فلا نخفره ، وان نكث الناكثون ، وعبث العابثون، مستأثرين بايام، نرجو ان تنقضي على سلام ، فلا يلؤم فيها احد ، بما يجنيه من الفيش والفند .

أرسلنا في « الاغراض من سياحتنا » كلمة ، وترسل الآن في بعض مبادئ النهضة اللبنانية أخرى نحن دون احد من الناس المسئولون عنها .

كنا في رحلتنا نبشر بهذه المبادئ بلساننا ، ونحن الآن نبشر بها بقلمنا ، الى ان تعود الخطابة : فتنوب عن الكتابة .

اللبنانيون مظلومون وظالمون – مظلومون لان السلطة ضعيفة ضاغطة وجائرة، وظالمون لانهم وهم تحت الضغط والجور يتنابذون ويتطاحنون مؤثرين الخصوصيات على العموميات . فيجب على خدمتهم – ونحن منهم – التجرد في النصح لهم، والدعوة الى ما فيه صلاحهم ونجاحهم ، و وضع مبادئ يقوم عليها حزبهم السياسي الاكبر المدعو « النهضة اللبنانية » .

قد يقوم من اللبنانيين انفسهم من ينا كر و يصادر ، و يشاكس و يعاكس، ولكن لبنانية المناوئين هؤلاء غير صحيحة ، لقيامها على التعصب والتحزب والنكاية والغواية . والحق ظافر ، والاخلاص ظاهر .

من مبادىء النهضة اللبنانية

١ جمع اللبنانيين بدين الوطنية الشامل الكامل الفاضل « وتمزيق الاناجيل الطائفية ليسلم انجيل المسيح » وما يقال عن الانجيل يقال عن القرآن والتلمود وكل كتاب مقدس عند اهله . إلا ان ذلك لا يعني الكفر ولا التعطيل ، فليعبد الناس إلههم في كنيستهم وكنيسهم وجامعهم وخلوتهم وتحت افياء الشجر وظلال الصخور اذا شاؤا وانما فليجتمعوا (؟) بدين الوطنية الواحد وهم المفلحون .

٢ استقلال المهاجرين « بنهضتهم اللبنانية » ما زال الاصلاح لا يتم الا عن طريق المهاجرة وعلى همم المهاجرين . الا ان هذا الاستقلال لا يعني الانفصال، بل

توحيد قوة المهاجرين ما بين القطبين وجعلهم قوة واحدة تسعى للاصلاح سعيا مجردا صادقا ، الى ان ينفلت المتخلفون من قيود الوظائف ، ويكشفوا عنهم غيوم السفاسف ، التي لا يزال حتى في المهجر أثر مجلوب (؟)

٣ – طلب امير اجنبي من دول أوربا الست الضامنة استقلال لبنان تكون غايته غايتنا ومصلحته مصلحتنا ، ولغتنا لغته ولغة اولاده ، فلا يكون دخيلا لا يشعر بشعورنا، ولا يهمه وهو المرجع الاكبر في الجبل ان يتعلم لغة الناس فيه ليكون حكمه معقولا وقضاؤه مقبولا – امير اجنبي يكون لنا ما كان مثله لرومانيا و بلغاريا واليونان وألبانيا ولا تعود تهمه « المدة » تنقضي وينقضي الاهتمام بعد الابتداء بها بايام – الشعب الخامل الغافل يرضى بحاكمه وقاضيه دخيلا اعجميا لا يشعر معه ولا يفهم لغته ليقضي بالعدل ، ولا يهمه الا تناول المرتب وربما الرشوة (:) مباشرة وبواسطة ، وتفريق الناس لاتخاذ الاحزاب منهم. وقد يكون وضيعا قبل ان يصير حاكما بلقب كبير ومرتب كبير وتغطرس كبير وعمل صغير .

٤ ارجاع لواء لبنان اليه فان لكل شعب على شيء من الاستقلال راية او علما او لواء الا لبنان الذي كان منذ بدء التاريخ على كثير من الاستقلال حتى وقوع حوادثه الاخيرة التي زعم انه نال بعدها حكما ذاتيا لا نرى له اثرا

٥ «تمديد لبنان بعد تقلصه» اي اعادة حدوده الاولى والطبيعية اليه ما بين نهري القاسمية والعاصي. ومعنى ذلك ان تكون حدوده كما كانت على عهد امرائه الاصلاء من القاسمية الى جبل الشيخ الى لبنان الشرقي الى حمص فالنهر الكبير وهي حدود تتناول بيروت وطرابلس وصيدا والسهول المحيطة به – اللبنانيون لا يطلبون التوسع بهذه المطالب بل اعادة الحدود التي انتزعها المنتزعون اليهم

٦ اعادة الجمارك والبريد والبرق الى لبنان لان الدولة « ضمنتها من لبنان ضمانا » ولكنها لم تتقيد بشروط الضمان ولم تدفع الى لبنان ما هو من حقوقه ولكل صاحب ملك حق باستعادة ملكه الذي لا يدفع الضامن ضمانه او المستأجر اجرته ، فضلا عن ان اللبنانيين لم يطلبوا المرافىء لتكون بغير جمارك، ولا البريد ليظل عمال الاتراك عابثين ومتلاعبين به و باقدس اسراره وغير حافلين بغير سرقة الحوالات المالية حتى من الكتب المضمونة و بمصادرة الصحافة الحرة لئلا يستفيق الشعب من غفلته

٧ جعل كل قدم تتكسر عليها امواج البحر المتوسط من شواطىء لبنان مرفأ له اذا شاء اللبنانيون عدم الاكتفاء بجونة والنبي يونس .

٨ اطلاق حرية الفكر والخطابة والكتابة وانشاء الجمعيات اذ لا يوجد في نظام لبنان ما يحول دون ذلك « لولا انتصاب التماثيل الشمعية المحركة بزنابرك (؟) المآرب

والمفاسد في مجلس ادراة لبنان » ـ ان مجلس ادارة لبنان هو المجلس المشترع في الاصل ويجب ان يكون الاكفاء دون سواهم فيه لا ان يجاز القمار ، الذي هو على كل شعب متمدن عار ، بمجرد ان اعضاء مجلس الادارة مقمرون ... ـ ان حرية الصحافة ضرورية للبنان الا اذا رضي مجلس الادارة بان يكون خائنا متلاعبا خوفا من الانتقاد وعملا بالاستبداد ولكن كم يطول هذا الوقت ... ـ يجب ان يكون لبنان في الشرق مثل سويسرا في أوروبا فهل تحرك « التماثيل » لابقاء آثار وطنية لا آثار عار واقذار !!!

٩ اقامة مندوب في اوروبا يمثل اللبنانيين ويطالب بحقوقهم ولا يكون له اهتمام بغير مفاوضة الدول الضامنة استقلال لبنان ومفاوضة وزاراتها الخارجية بكل ما يحتاج اليه الجبل

١٠ اقامة « رقيب » على الحكومة اللبنانية في نفس لبنان يناصر الاكفاء المخلصين للوطن ويصادر الادنياء الخونة فيه وينشىء الفروع للنهضة فى كل قضاء ومديرية وبلدة ويكون الحزب من ورائه يشد أزره وأزر كل مندوب أمين .

١١ ما زالت اكثرية المهاجرين من اللبنانيين فيجب (؟) ان يكون القناصل في كل مهجر من المهاجر من اللبنانيين او يستغنى عنهم وتفاوض قناصل الدول الضامنة في امر حماية اللبنانيين ومصالحهم .

١٢ انشاء مدارس عمومية في لبنان تعلم فيها لغة البلاد قبل سائر اللغات وتنصرف فيها الهمم الى تعليم الصناعة والتجارة والزراعة والتعدين وغير ذلك مما يحتاج اليه اللبنانيون ويجب ان يوضع للبنان تاريخ صادق وخريطة صحيحة لمدارسه العمومية. والهدى الذي يقترح هذا الاقتراح يقوم بنفقات الطبع فلا نظل نتعلم تواريخ الامم الغربية وحدودها ونجهل تاريخنا وحدود بلادنا

١٣ وضع قانون عام للنهضة اللبنانيــة لا يجوز لاي فرع منها الزيادة عليه او الحذف منه الا في الترتيبات المحلية التي لا علاقة لها بالمبادىء ويجب ان يكون المركز الرئيسي للولايات المتحدة وكندا والمكسيك وجزائر الهند الغربية وبعض الجمهوريات اللاتينية واحدا في نيويرك اما في سائر المهاجر فيجب ان يكون النظام واحدا باستقلال كل بلاد بنهضتها وفروعها بشرط التقيد « النظام الواحد » والاشتراك في العمل الواحد على حد ما هي الولايات من « مركز الاتحاد » او المقاطعات من العاصمة (؟؟)

١٤ اصدار كتاب كل عام من اقلام ادباء النهضة اللبنانية في كل بقعة من العالم تكون مواضيعه الاصلاح والتربية والسياسة والاجتماع والتعليم بفروعه وغير ذلك

مما تدعو اليه الحاجة ويجب ان تكون اسماء الاعضاء و بيان الدخل والخرج في آخر هذا الكتاب مع قانون النهضة المعدل .

١٥ تعديل قانون النهضة اللبنانية عند التئام كل مؤتمر تعقده يكون مؤلفا من نواب كل فرع مستقل او مرتبط في مدينة متوسطة وموافقة للجميع وقبل انتهاء مدة المتصرف بسنة (؟؟)

١٦ من حق كل مشترك في النهضة اللبنانية التصويت لمرشحي المركز الرئيسي مباشرة لمن كان غير منضم الى فرع او بواسطة الفرع الذي يكون منه ويعلن الترشيح مقدما

١٧ للمرأة الحقوق الوطنية بالانضمام الى النهضة اللبنانية وبانشاء الفروع لها او بالانتخابات عموما (؟)

١٨ السعي مع المتمولين لانشاء الشركات على اختلافها لا تكون النهضة فيها الا منشطة (؟) وتكون كل شركة مستقلة بادارتها ونظامها - الشعب الذي لا يتحد في الشركات لا يستطيع الاتحاد في غيرها و بكل اسف نقول انه لا يكون ارتقى كثيرا .

١٩ العدول عن التبرعات للمشاريع المدعوة في الوطن عمومية وهي خصوصية لم يتم منها حتى الآن مشروع واحد على ما نعلم بعد جمع عشرات ألوف الدولارات ولاسيما ان (؟) فضل المهاجرين غير معترف به واذا كان من اعتراف فبتفوق عليهم (؟) وبذكر واجب لا ندري مصدره قبل الاعتراف المخلص بالمساواة (؟) - المهاجرون ساعدوا كل مشروع وهمي في الوطن منذ ثلاثة عقود من السنين ولم يساعدهم المتخلفون بشيء حتى في اصلاح البلاد فمن العدل ان يعدلوا عن الاستئثار الى الخدمة الوطنية المتساوية وامام المهاجرين واجبات كثيرة من الضروري القيام بها - يجب العدول عن التبرعات الى ان يتم المشروع الوطني على الاقل

٢٠ تكافل المهاجرين والمتخلفين في كل ما يعود على الوطن بالاصلاح والرقي

٢١ الاهتمام بالجندية اللبنانية اهتماما تنظر فيه النهضة

٢٢ بذل العناية التامة لانجاح قلم المهاجرة وصون اموال واعراض المهاجرين الجدد

٢٣ اذا كان المهاجرون مطالبين بالاموال الاميرية وسائر الضرائب فمن الواجب ان يكون لهم رأي في حكومتهم واعمالها وانتخاباتها .

٢٤ عضو مجلس الادارة « شيخ مشترع » او « سناتور » فمن العار على البلاد ان يكون غير متعلم ولا متهذب ان لم يكن متشرعا

٢٥ ترمي النهضة اللبنانية الى انشاء مدرسة داخلية في امريكا الشمالية لاحيا اللغة العربية و بهاء الوطنية ولتنشئة الصغار على المبادىء القويمة واهم ما ترمي اليه حمل مدارس الوطن على تعديل انظمتها فلا ينفق التلميذ ربع عمره قاتلا ويخرج بعد هذه الخسارة غافلا

٢٦ جعل لبنان مصيفا جميلا ونقيا بالآداب والاخلاق مثله بالمناظر والماء والهواء (؟)

٢٧ تحويل افكار المهاجرين عن اقامة الدور والقصور — الا ما كان ضروريا — الى انشاء المعامل والعناية بالزراعة والصناعة واستثارة دفائن كنوز لبنان

٢٨ تعليم الاقتصاد على انواعه وترويج المصنوعات والمستغلات الوطنية

٢٩ حؤول اعضاء النهضة اللبنانية دون الخلافات الطائفية والقومية والبلدية والفصل بين المختلفين منهم في محاكم النهضة الخصوصية الا اذا عز التوفيق

٣٠ انشاء جريدة رسمية مساهمة في كل بلاد فيها مركز رئيسي للنهضة وانشاء مجلة نسائية عند الحاجة والمقدرة

٣١ الاهتمام بالغرف التجارية الضرورية للمهاجرين

٣٢ السعي لاقامة رؤساء اساقفة في المهاجر للطوائف النائلة امتيازات في الوطن اصون الشرف ومنع الاستئثار اسوة بالطوائف الممتازة في اوروبا

٣٣ مساعدة نوابغ اعضاء النهضة او نوابغ ابنائهم

٣٤ عدم مساعدة الكنائس الا اذا كان لها مدارس في الوطن والمهجر

٣٥ التفاهم مع رؤساء الاديان لخدمة الشعب وافادته بتنفيذ غاية الواقفين من الاوقاف دون تعرض لاي حق راهن لهم

٣٦ يجب اقامة وكلاء للنهضة حيث لا يوجد فروع او حيث يكون انشاء الفروع مبددا لا موحدا

٣٧ مرتب الدخول دولار واحد في السنة يجب ايصاله الى المركز الرئيسي من كل عضو في النهضة الا اذا شاء العضو التبرع. اما الفروع فلها ان تتفاهم مع الاعضاء على طرائق القيام بالنفقات المحلية (؟)

٣٨ ينتخب نائب الرئيس وامناء الصندوق والمديرون من التجار اما الرئيس فيجب ان يكون غير تاجر صونا لحقوق مصالح سائر التجار

٣٩ لا يقبل الامي — الذي لا يحسن القراءة — عضوا الا في السنين الخمس بعد إعداد القانون الاساسي ولا يقبل غير المستقيم على الاطلاق

٤٠ يجب ترغيب الشبان في تعليم الصناعات والفنون استعدادا لخدمة الوطن بما يكونون تعلموه

٤١ يعتبر مفشي اسرار الجمعية « خائنا » و يطرد بعد المحاكمة

٤٢ لا يقبل عضو في النهضة كل (؟) من يكون منتظما في سلك جمعية في مبادئها ما يخالف مبادئ النهضة اللبنانية

٤٣ للجمعية شارة وكلمة تعارف وقوانين تعرف من النظام العمومي بعد طبعه

٤٤ تسعى النهضة اللبنانية لاحياء ذكر النوابغ في العلم والوطنية من رجال ونساء بطبع نتاج قرائحهم واقامة تماثيل للعظماء منهم

٤٥ من مساعي النهضة اللبنانية انشاء المتاحف الوطنية وصون كنوز الحفريات والعاديات وحفظ كل ما يهتم القوم الراقي (؟) بحفظه

٤٦ يجب ان يكون لنا « جمعية علماء » تبذل منتهى العناية باحياء اللغة والفنون الجميلة ومنها تتفرع فروع العلوم والتاريخ والجغرافيا وغير ذلك

هذا اهم ما مر في خاطرنا من المبادئ والمنازع التي تقبل المسؤولية عليها دون احد من الناس ولنا في اكثر هذه البنود كلام نتبسط فيه ونرجو ان يكون عند صادقي الوطنية مقبولا

الا اننا لا ندعي بان ما جئنا به يجب ان يعتبر فصل الخطاب وانما اردنا ان نوقف الشعب على الاهم من مرامي هذا الحزب الاكبر المدعو نهضة لبنانية وهو حزب لم يظهر مثله حتى يومنا هذا في العالم العربي ولا انضوى تحت لواء اي جمعية عربية العدد المنضوي تحت لوائه

في كل مصر وقطر انصار لهذا الحزب لا نعلن اسماء جميعهم لحوائل سياسية ونؤكد للبنانيين اننا بعد سنة واحدة نصبح ٢٥ الفا في المهاجر وحدها فمن كان مؤمنا بكتاب اللبنانية الشريف فليحمل لواءه بالاخلاص خفاقا، وينشر تعاليمه بالوطنية نطاقا، والفوز للمجاهدين اه

(المنار) نشرنا هذه المقالة بحروفها ووضعنا بجانب بعض المفردات والجمل علامة (؟) للاشارة الى ما فيها من خطأ أو ضعف لفظي او معنوي (ولولا ان استحسنا انشاء الكاتب لما أشرنا الى ذلك) . ويظهر منها ان هذه الجمعية سياسية علمية اقتصادية ادبية خيرية سرية جهرية . وفي هذه المواد المنشورة تعارض وتهافت، بني بعضها بمملكة مستقلة، كما بني بعضها على تابعية مبهمة . ولعل رئيس النهضة البارع يصححها ويرتبها بعد اعادة النظر فيها . ولا نسأله عن القوة التي يؤسس المهاجرون بها هذا الملك العظيم

ولنزد ما تقدم بيانا بنقل النبذة التالية من جريدة ابي الهول التي تصدر في البرازيل وهي :

أنا لبناني

ليقرأها اللبنانيون بتمعن ! !

لاتصبح الامة أمة حقيقية ولا يستتب لها كيان الا متى نمت في صدور اغلبيتها عاطفة حب الوطن ، وكان هذا الحب مؤسساً على معرفة تاريخها ، وما التاريخ الا قطعة من قلب الامة ، وما أبناء هذا الجيل الا أحفاد أجيال اذا تناسيناها مسخنا نفوسنا وانكرنا الاصول التي انما نحن لها فروع

ولقد اثبت المدققون ان قوة الشعوب الحقيقية قائمة في ايمانها الوطني ، وعرف العالم باجمعه ان العثماني قد غلب في الحرب البلقانية لانه فقد هذا الايمان ، وان الامم البلقانية لم تنتصر ذلك الانتصار الباهر الا لامتلاكها القوة الادبية علاوة على قواها الحربية

ومن الثابت ان السرب مثلا قد انتصروا لانهم بأجمعهم — من القائد الكبير الى الجندي الصغير — كانوا قد رسموا في قلوبهم وأدمغتهم تذكارات تاريخهم القديم الذي طمست به سنوات الحكم العثماني عليهم

وفي سنة ١٩٠٧ تشكلت لجنة نيابية سربية لفحص حالة استعداد الجيش العامة ، وارادت اللجنة ان تعلم مقدار معرفة الجنود تاريخ بلادهم فوقعت القرعة على فرقة من الفرق المقيمة في اقصى ارجاء سربيا فالقيت على كل من الجنود الاسئلة العشرة التالية :

ما ذا تعرف عن كراليفتش ماركوا ؟ وعن ميلوش او بليتش ؟
عن الامير لازار ؟ وعن الامبراطور دوشان ؟
عن موقعة قوصوه ؟ وعن كاراجورجس ؟
عن الامير ميلوش وما هو اسم الملك الحالي ؟
واسم ولي العهد وهل يوجد سربيون خارج سربيا ؟

فأيدت الاجوبة ان مئة في المائة من الجنود يعرفون ان « كراليفتش ماركو » ملك سربيا و بطل التاريخ الوطني كان آخر حماة استقلال سربيا ضد الاتراك

ومائة في المائة يعرفون ان السربي « ميلوش او بليتش » قتل السلطان مراد في موقعة قوصوه سنة ١٣٨٩

ومائة في المائة يعرفون ان الامير « لازار » قاد الجيش السربي في معركة قوصوة وقتل فيها

وثمانون في المائة يعرفون ان الامبراطور « دوشان » المتوفى سنة ١٣٥٥ كان اعظم ملوك سربيا القديمة

ومائة في المائة يعرفون ان الامبراطورية السربية قد سقطت في موقعة قوصوه

واثنان وستون في المائة يعرفون ان « كراجورجس » كان زعيم الثورة الاولى السربية ضد الاتراك سنة ١٨٠٤ — ١٨١٣

وتسعة وخمسون في المائة يعرفون ان الامير « ميلوش » قاد الثورة الثانية التي ولدت منها سربيا الحالية سنة ١٨١٥

واثنان واربعون في المائة يعرفون اسم الملك الحالي

وثلاثة وعشرون في المائة يعرفون اسم ولي العهد

وثمانية وتسعون في المائة اجابوا انه يوجد سربيون كثيرون خارج سربيا

فهذه النتائج تثبت بوضوح ان الشعب السربي باجمعه كان ـ ساعة شهر الحرب على تركيا ـ متشربا تذكارات تاريخه الوطني البعيدة والقريبة ومعتقدا بان أمنية سربيا الحالية قائمة بتوسيع حدودها لامتلاك الاراضي المغتصبة وجعل سربيا كافية لضم جميع السربيين

في هذه التذكارات كمنت قوة سربيا الحقيقية . وبهذه التذكارات انتقمت للتاريخ وانتصرت على تركيا

***

لم اروكل هذه المقدمات لاحدث القراء عن سربيا والسربيين . ولكنها أمثولة للامم التي تريد ان تتكون وتحيا !

نحن معاشر اللبنانيين لانحلم بمحاربة تركيا او الثورة عليها . ولكن الاوان قد آن لنسعى في تعزيز جامعتنا القومية وتأليف أمة يعرفها العالم المتمدن ,, بالامة اللبنانية ،، . ومن اجل ذلك يجب ان نبدأ باعتناق الايمان الوطني وان نؤسس هذا الايمان على تذكارات تاريخنا البعيدة والقريبة

لقد انهكت مذابح الستين قوانا الوطنية ولكن نصف جيل خلا كاف لتجديد الدم اللبناني

لو ألفت اليوم لجنة لبنانية واختارت بضعة قرى من قرى لبنان واخذت تطرح على ابنائها الاسئلة التالية :

من هم اجداد اللبنانيين ؟ هل فقد لبنان يوما استقلاله ؟
من هو أعظم أمير لبناني ؟ من اخرج محمد علي من سوريا ؟
ما هي حدود لبنان الاصلية ؟ ماهي المسئلة اللبنانية ؟
وأين مزايا اللبنانيين ؟ ما الفرق بين المسيحي والدرزي ؟
من هو احسن متصرف واسوا متصرف حكم لبنان ؟
ماذا يجب ان يحلم اللبناني اليوم ؟

لو ألفت هذه اللجنة وسألت هذه الاسئلة واجاب مئة في المائة ان أجداد اللبنانيين هم الفينيقيون غزاة البحر وتجاره واساتذة اليونان وممدنو قسم من افريقيا الشمالية وايطاليا وفرنسا واسبانيا

ومئة في المائة : ان لبنان لم يخضع يوما لدولة من الدول التي اجتاحت سوريا خضوعا تاماً وانه لايستطيع الحياة إلا مستقلا

وثمانون في المائة بان أعظم أمير لبناني هو الامير فخر الدين المعني الثاني الذي أوصل حدود لبنان في الجيل السابع عشر من اطراف حلب الى اوائل فلسطين ولقبه سلطان تركيا « بسلطان البر » يليه الامير الشهابي الكبير الذي نريد نقل رفاته من الاستانة الى لبنان احياء للروح الوطنية

ومئة في المائة بان سيوف اللبنانيين كانت العامل الاول فى اخراج محمدعلي باشا المصري واعادة سوريا الى تركيا في اوائل الجيل الاخير

ومائة في المائة أيضا بان حدود لبنان الاصلية التي اغتصبتها الدولة تمتد من اعالي طرابلس الى صيدا ومن ساحل البحر المتوسط وفيه بيروت الى اطراف الشام وفيها سهل البقاع وجبل انتيلبنان المعروف بجبل حرمون او جبل الشيخ

ومئة في المائة بان المسألة اللبنانية مشكلة بين الدولة ولبنان لا تحل الا باستعادة لبنان حدوده المغتصبة وحقوقه في الكمرك والبريد — وان هذه المسألة يجب ان يطرحها المجلس الاداري امام محكمة اوربا التي تحمينا ولنا بها علاقة منذ بضعة اجيال بتقديم دعوى الديون التي لنا في ذمة الدولة

وثمانون في المائة بان مذابح الستين التي كان لمأموري الدولة اليد الاولى في اثارتها وصمة على جبين لبنان يجب ان يمحوها بنزع التعصب الديني وابداله بالتعصب الوطني

ومائة في المائة بان الدرزي أخ للمسيحي في الوطنية، للاول ما للثاني وعليه ماعليه وان أحسن متصرف جاء قبل المتصرف الحالي هو داود باشا الارمني الذي سعى

في تحسين شؤون الجبل وتوسيع اراضيه ، واسوأ متصرف هو كل المتصرفين الذين سبقوا متصرفنا الحالي

وان على اللبناني ان يحلم اليوم باستعادة الامارة اللبنانية ، ويساعد جمعيات النهوض المخلصة ليعود المهاجرون الى بلادهم ، وتعود الى لبنان حياته ومعها العز والفخار

. . . في ذلك اليوم . . . في ذلك اليوم يصبح اللبنانيون أمة حقيقة و يستطيع اللبناني ان يسمي جبله وطناً ، وان ينادي على رؤوس الملا بكل مباهاة وافتخار : « انا لبناني ! » « انا لبناني ! ! ! »

(المنار) : لولا هذه النقط التي أبهم بها الكاتب النتيجة ، لقال القارئ ان النتيجة جاءت أصغر من المقدمات ، لا متبعة أخس المقدمات كما يقول علماء المنطق. والمجال واسع امام من يريد انتقاد ما كتب الكاتب ، واهم ما يهم دعاة النهضة العربية من ذلك جعل البلاد السورية أو طانا متعددة ، ومن فروع ذلك جعل هذا الكاتب اللبنانيين كلهم فينيقيين ـ على مذهب عبيد الله التركي الذي زعم ان نصارى سورية ليسوا عربا ـ وهذا خطأ مبين ، فان كثيرا من سكان الجبل يعرفون انهم من سلالة العرب ، ومنهم أمراؤه كبني معن و بني شهاب الذين يفخر الكتاب بكبيريهما الامير فخر الدين والامير بشير ، و بني رسلان وغيرهم من الدروز . والباقون من سلائل العرب والفينيقيين وغيرهم . ولكنهم صاروا كلهم عربا بتوحيد لغتهم ، وانما الجنسية باللغة فكثير من الاسبانيين من سلالة العرب ولكنهم لا يعدون الآن عربا

يظهر مما نشرنا ومما لم ننشر مما يكتبه غلاة الدعوة اللبنانية انهم يمنون أنفسهم بما ليس في طاقتهم ، يمنون أنفسهم بأن يكونوا دولة قوية مستقلة تمام الاستقلال ، منفصلة عن جدتهم الامة العربية وأمهم سورية نفسها ، لا عن الدولة العثمانية فقط . ولا يكون مثل هذا الا لشعب حربي قوي ، ولذلك يكثر أصحاب دعوة هذا الاستقلال من ذكر قوة الجبل وامتناعه عن الفاتحين ، وانتصاره على المصريين ، واخراجهم جيش محمد علي الكبير من سورية وردها الى الدولة ! والاسترسال في المبالغات التي ليس من موضوعنا البحث فيها . ولنسلم لهم حديثهم عن ماضيهم ، فانه لا يمنعنا من الجزم بأنهم لا يستطيعون ان يأخذوا بقوتهم شبرا من أرض الدولة ولا درهما من خزينتها . وانما مسألتهم أوربية مفتاحها بيد الدول الكبرى ، فاذا هن اتفقن على إعطاء الجبل شيئا فهو الذي يرجى ان يأخذوه ، واذا لم يتفقن ففرنسة وحدها لا تستطيع ان تعمل للجبل شيئا . واذا استطاعت الدولة ان ترضي الدول بالغاء امتياز لبنان فانها تلغيه ، وخلاف فرنسة وحدها لا يحول دون ذلك . فمن يعرف هذه الحقائق يجزم بأن مؤسسي جمعية (الاتحاد اللبناني) في مصر ارسخ قدما في السياسة من سائر اللبنانيين . وان وراء ذلك كله سياسة مثلى لو قدروها قدرها ، ولم تحجبهم آمالهم بفرنسة وغيرها عنها ! !

مصاب مصر والشام برجال العلم وحملة الاقلام

٤ — الشيخ محمد جمال الدين القاسمي (تتمة ترجمته)

تصانيفه ورسائله

كان أثابه الله سيال القلم سيال القريحة ، سريع الذاكرة سريع المراجعة ، وقد كتب كثيرا من الكتب والرسائل تصنيفا وشرحا واختصارا لبعض المطولات ، أحصاها لنا بعض تلاميذه فزادت على السبعين ، وهو العقد الذي تعبر به العرب من الكثرة . وهذه أسماؤها مرتبة على حروف المعجم :

(١) الاستئناس ، في تصحيح أنكحة الناس . طبع في دمشق سنة ١٣٣٢
(٢) الانوار القدسية ، على متن الشمسية في المنطق ، كتب عليها الى آخر قسم التصورات (٣) ايضاح الفطرة ، في أهل الفترة (٤) الارتفاق ، بمسائل الطلاق (٥) ازالة الاوهام ، بما يستشكل من ترك سيدنا عمر لكتابة الكتاب الذي هم به عليه الصلاة والسلام (٦) افادة من صحا ، في تفسير سورة والضحى (٧) اعلام الجاحد ، عن قتل الجماعة المتمالئة بالواحد (٨) الاقوال المروية ، في من حلف بالطلاق الثلاث في قضية (٩) الاوراد المأثورة - مطبوع في دمشق (١٠) الاجوبة المرضية - مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٦ (١١) اصلاح المساجد ، من البدع والعوائد
(١٢) بذل الهمم ، لموعظة أهل وادي العجم (١٣) بديع المكنون ، في أهم مسائل الفنون (١٤) بيت القصيد ، في ديوان الامام الوالد السعيد (١٥) بحث في جمع القراآت المتعارف
(١٦) تعطير المشام ، في مآثر دمشق الشام (١٧) تعليقات على حصول المأمول لصديق حسن خان (١٨) تنوير اللب ، في معرفة القلب (١٩) تاريخ الجهمية والمعتزلة. نشر في مجلة المنار وطبع في مطبعتها سنة ١٣٣١ (٢٠) تنبيه الطالب ، الى معرفة الفرض والواجب - طبع في مصر سنة ١٣٢٦
(٢١) ثمرة التسارع ، الى الحب في الله وعدم التقاطع
(٢٢) الجواب السني ، عن سؤال السيد أحمد الحسني (٢٣) الجوهر الصاف ، في نقابة الاشراف (٢٤) جواب المسألة الحورانية (٢٥) جوامع الآداب ، في أخلاق الانجاب (٢٦) جدول في مخارج الحروف وصفاتها (٢٧) جواب الشيخ السناني في مسألة العقل والنقل - نشر في مجلة المنار
(٢٨) حسن السبك ، في الرحلة لوعظ قضاء البنك (٢٩) حياة البخاري .

طبع في صيدا سنة ١٣٣٠ (٣٠) حاشية على الروضة الندية

(٣١) درء الموهوم ، من دعوى جواز المرور بين يدي المأموم (٣٢) دلائل التوحيد . مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٦ « ٣٣ » ديوان خطب مطبوع في دمشق سنة ١٣٢٥ .

«٣٤» رفع المناقضات، بين ما يزيد في العمر و بين المقدرات « ٣٥ » رسالة في الشاي والقهوة والدخان. مطبوعة في بيروت سنة ١٣٢٣ «٣٦» رسالة في أوامر من مشايخ الاسلام بالحكم بغير المذهب الحنفي . مطبوعة بعد نشرها فى مجلة المنار سنة ١٣٣١ «٣٧» رسالة في المسح على الجوربين مطبوعة فى بيروت سنة ١٣٣٢ « ٣٨ » رسالة فى المسح على الرجلين .

«٣٩» زوال الغشاء ، عن وقت العشاء « ٤٠ » زبدة الاخبار ، عن أولاد الكفار « ٤١ » السطوات ، في الرد على منع العشاء قبل الصلوات

«٤٢» شمس الجمال، على منتخب كنز العمال « ٤٣ » الشذرة البهية في حل ألفاظ نحوية . مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢٢ «٤٤» شذرة من السيرة المحمدية . مطبوعة بمطبعة المنار في مصر سنة ١٣٣١ «٤٥» شرح لقطة العجلان. مطبوعة في مصر سنة ١٣٢٦ « ٤٦ » شرح مجموعة أربع رسائل في الاصول . مطبوعة في بيروت سنة ١٣٢٤ « ٤٧ » شرح مجموعة أربع رسائل فى الاصول أيضا . مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢٣ «٤٨» شرح مجموعة ثلاث رسائل في أصول التفسير وأصول الفقه . مطبوعة في دمشق سنة ١٣٣١ «٤٩» شرح مختصر المستصفى لابن رشيق .

« ٥٠ » الطائر الميمون ، في حل لغز الكنز المدفون . مطبوع مرتين سنة ١٣١٦ وسنة ٢٢ «٥١» طراز الخلعة، فيما نقل من قول الرملي : وأقسام الاسم تسعة «٥٢» الطالع المسعود ، على تفسير أبي السعود (لم يتم) «٥٣» الطالع السعيد ، في مهمات الاسانيد

«٥٤» العقود النظيمة فى ذكرى مولد النبي (ص) وأخلاقه العظيمة، ومحاسن شريعته القويمة « ٥٥ » غنيمة الهمة ، على كشف الغمة «٥٦» فصل الكلام ، في حقيقة عود الروح الى الميت حين الكلام « ٥٧ » الفضل المبين ، على عقد الجوهر الثمين ، ويعرف بشرح الاربعين العجلونية «٥٨» فتاوى الاشراف ، في العمل بالتلغراف . مطبوع فى دمشق سنة ١٣٢٩ « ٥٩ » قواعد التحديث ، من فن مصطلح الحديث

٦٠ الكواكب السيارة ، فى مدح الفوارة ٦١ كتاب الفتوى في الاسلام . مطبوع فى دمشق سنة ١٣٢٩. (٦٢) كتاب ارشاد الخلق ، الى العمل بخبر البرق.

طبع بدمشق سنة ١٣٢٩ ، ٦٣ كتاب الاسراء والمعراج . طبع بدمشق سنة ١٣٣١ ٦٤ كتاب شرف الاسباط . طبع بدمشق ٦٥ كتاب (شرح العقائد) وهو كتاب كبير كتب الفقيد منه نحوا من مائتي صفحة ولم يتم ٦٦ اللف والنشر ، في طبقات المدرسين تحت قبة النسر ٦٧ لزوم المراتب ، في الادب مع الامام الراتب

٦٨ المسند الاحمد، على مسند الامام احمد ٦٩ منتخب التوسلات . مطبوع في دمشق سنة ١٣ ، ٧٠، مذاهب الاعراب وفلاسفة الاسلام في الجن . طبع بدمشق سنة ١٣٢٨ ، ٧١، ميزان الجرح والتعديل طبع في مصر سنة ١٣٣٠ ٧٢ موعظة المؤمنين، من احياء علوم الدين . طبع بمصر سنة ١٣٣١ ، ٧٣ محاسن التأويل) وهو التفسير العظيم الذي يقع في اثنى عشر مجلدا مع مقدمته التي كتبت في مجلد حافل

٧٤ النفحة الرحمانية ، على متن الميدانية . مطبوعة في دمشق سنة ١٣٢٢ ٧٥ نقد النصائح الكافية . طبع بدمشق سنة ١٣٢٨

٧٦ هداية الالباب ، لتفسير آية « وطعام الذين أوتوا الكتاب » ٧٧ الوعظ المطلوب من « قوت القلوب » ٧٨ وفاء الحبيب وحده ، في ايضاح جهة الوحدة (المسوقة في الفناري) ٧٩ ينابيع العرفان، في مسائل الارواح بعد مفارقة الابدان

اقول: ان بعض ما ذكرنا رسائل صغيرة مؤلفة من كراسة او كراستين او كراسات قليلة ، له او لغيره ، وبعض ما ذكرنا من الشروح عبارة عن تعليقات لا يصح ان تسمى شرحا ، وقد كتب الي في العام الماضي ان له كتابا في العبادات مقتبسا من كتب المذاهب مع بيان حكمة التشريع. كان اخذه منه الشيخ احمد طباره ليطبعه في مطبعته ببيروت ولم يعده اليه ، وعلمت مما كتب الي انه من اهم كتبه ، وكنت وعدت بتأليف كتاب في ذلك فسبقني رحمه الله اليه، فتمنيت لو يطبع لأستغني به . ولعل هذا الكتاب وتفسيره الحافل هما اكبر مظاهر علمه واصلاحه، على ان له رسائل مختصرات، لاتغني عنها المطولات

سيقول كثير من الناس: إنك عددت القاسمي من رجال الاصلاح ، وان أسماء كثير من هذه الكتب التي صنفها أو شرحها تدل على انها ليست من الاصلاح في ورد ولا صدر ، ولا تشتمل على عين منه ولا أثر ؛ فكيف يضيع العالم المصلح وقته في شرح لغز ، أو مايعد أبعد عن الاصلاح من اللغز ؟

ويمكنني أن أقول : ان الرجل كان من خيار مصلحي المسلمين في هذا العصر وان لم يدخل كل ما كتبه في باب الاصلاح الذي يفهمه قراء المنار ، فمسمى الاصلاح ومفهومه واسع، وهو يختلف باختلاف الزمان والمكان . والسن والعشراء والاقران، والتلاميذ والمريدين ، وغيرهم من المخاطبين ؛ والمصلح لايخلق مصلحا بالفعل ، بل يخلق كغيره لايعلم شيئا ، ويكون الاستعداد للاصلاح فيه كامنا، ثم تظهره التربية والتعليم ،وما يتجدد المرة بعد المرة له من العبرة والتأثير. فهل يطلب ممن عاش خمسين، ترك فيها من هذه الكتب والرسائل نحوا من سبعين، ان يكون جميع ما كتبه او شرحه اصلاحاً في الدنيا والدين ، مرضيا عند الكهول المجربين ، والشيوخ المحنكين ؟

طريقته في الاصلاح

حسب من نشأ وتعلم وتربى في أرض التعصب للتقليد ، والجمود على العادات والخرافات ، تحت سماء الاستبداد ، والحجر على الالسنة والاقلام ، — ولم تكن هذه المفاسد في الاستانة أشد منها في الشام — ان يكون بسلامة فطرته ، وعناية الله به ، مثل الشيخ جمال الدين القاسمي في استقلاله، ونزاهته واعتداله، ونظافة عقله وقلمه ولسانه ، وجرأته على مجاهدة الجمود والتقليد ، والجمع في احياء علوم اللغة والدين بين الطريف والتليد .

أما طريقته في الاصلاح وغايته منه فلم يكن فيهما على خطة مقررة من اول النشأة، وانما كونتهما الحاجة بقدر استعداد البيئة؛ فتح الرجل عينيه فرأى أطلال العلم في بلده دارسة ، وأعلامه طامسة . وقد كانت مهاجرا يرحل الطلاب اليها، فأصبحت مهجورة يرحل عنها. فكان الاصلاح الضروري فيها ايجاد نشء جديد من طلبة العلم يعلمون تعليما صالحا يرجى أن يحيا به وبهم العلم ، وقد كان سبب اختيار الشيخ لقراءة بعض الكتب ولكتابة بعض الشروح والتعاليق على بعضها ، هو الضرورة أو الحاجة الى تدريسها، لا كونها صالحة في نفسها ،او محاولته اصلاح التعليم بها . مثال ذلك ما كتبه على شرح الفناري ومتن الشمسية في المنطق . كان مما لابد منه ، لان طلبة العلم كانوا يمتحنون بهما لاجل اعفائهم من الخدمة العسكرية . ونقيس مالم نعرف عذره فيه — كقراءة كتاب جمع الجوامع وشرح بعض المتون — على ما عرفنا عذره فيه

كمتن الشمسيةوشرح الفناري، وكلاهما لا يصلحان للتدريس، في رأي العارفين بطرق اصلاح التعليم. ولو كان الشيخ في مصر لقلنا ان عذره في قراءة جمع الجوامع اعتماد الجامع الازهر عليه في الامتحان ونيل شهادة العالمية

لعلنا لو اطلعنا على جميع ما كتبه لظهر لنا من عذره مالايظهر لنا الآن . أو ننتقد منها مالا نظن الآن انه منتقد ، وحسب الرجل ان يكون مصلحا في سيرته ومجموع أعماله

قد اطلعنا على كتاب دلائل التوحيد و بعض الرسائل من مؤلفاته المطبوعة ، وقرظنا بعضها في المنار و بينا مزيتها فيه . ويمكننا أن نستنبط منها ومن مذاكراتنا القصيرة له مانعده للقارئين من مزاياه ومزاياها

(١) ان القاسمي درس فنون اللغة العربية والعلوم الشرعية على الطريقة المألوفة في مدارس المسلمين منذ قرون ، وتلقى تلك الكتب التي اختارها المتأخرون للتدريس ، ورأى حاجة أهل البلاد الى بعض تلك الكتب لاجل امتحان الاعفاء من العسكرية ، وان المشتغلين بالعلم منهم يظنون أن العالم لا يكون عالما حقيقة الا بتحصيل كذا وكذا منها (كجمع الجوامع وكتب السعد التفتازاني) فكانت هذه الامور الثلاثة أسباباً لمحافظته على بعض ذلك التليد

(٢) انه كان يرى ان ما يثبت بالدليل النقلي في النقليات والعقلي في العقليات وبالتجربة في المجربات، لا تتلقاه بالقبول هذه الامة التي جمدت على التقليد، وبعد عهد جمهورها بالحجة والدليل ، الا اذا أيد بنقل عن بعض العلماء السابقين ، ولا سيما اذا كان من المشهورين ، فكان يرى هذا ركنا من أركان الاصلاح في التدريس والتأليف لاجل اقناع المستدلين والمقلدين معا، ونحن نجري على هذا في المنار والتفسير احيانا

(٣) انه كان يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته وما مذهب السلف الا العمل بالكتاب والسنة ، بلا زيادة ولا نقصان ، على الوجه الذي كانوا يفهمونه في الصدر الاول . وقد اتهم — كما اتهم غيره من المستقلين — بأنه احدث مذهبا جديدا في الاسلام ، ولما كانت حادثة السعاية التي أشرنا اليها ، وذكرنا انه حبس فيها ، لغط حساده بهذه المسألة فقال يرد عليهم :

زعم الناس بأني مذهبي يدعى الجمالي
واليه حينما أفـ ـتي الورى أعزو مقالي
لا وعمر الحق اني سـلفي الانتحال
مذهبي ما في كتا ب الله ربي المتعالي
ثم ما صح من الاخـ ـبار لا قيل وقال
أقتفي الحق ولا أر ضى بآراء الرجال
وأرى التقليد جهلا وعمى في كل حال

وقال ايضا في هذا المعنى :

أقول كما قال الأئمة قبلنا صحيح حديث المصطفى هو مذهبي
أألبس ثوب القيل والقال باليا ولا أتحلى بالرداء المذهب

(٤) كان يتحرى في المسائل الخلافية الاعتدال والانصاف ، واتباع ما يقوم عليه الدليل من غير تشنيع على المخالف ولا تحامل . وكان لحرصه على الوفاق وجمع كلمة المسلمين يجتهد في استبانة حجة كل فريق من اصحاب المذاهب ، وتقريب احدهما من الآخر ، باظهار حجته أو شبهته ، وحكاية ما يعارض الخصم به . ومن كانت هذه طريقته فكثيرا ما يغضب الخصمين معاً . فيتهمه كل منهما بالتشيع للآخر . ثم اذا كان احدهما مصيباً والآخر مخطئا يتعذر على محب الاعتدال في الحكم بينهما ان يرضى باستحداث مذهب ثالث يجعله وسطا بينهما ، اذ ليس بين الحق والباطل وسط ، وانما يكون الحق وسطا بين باطلين ، او أباطيل ترجع كثرتها الى نوعين — الزيادة على الحق او النقص منه. وقد اتهم الفقيد بعض السلفيين بأنه خالف مذهب السلف في رسالته (تاريخ الجهمية والمعتزلة) التي نشرناها في المنار ، على شدة حرصه عليه وتحريه اياه ؛ وانتقدها بعض الشيعة كما يأتي . واتهمه بعض المستقلين بعثرة اخرى في رسالته (نقد النصائح الكافية) وهي ان حب الاعتدال وتقريب احد الخصمين من الآخر اخرجه عن الاعتدال في بعض المسائل، ولكن بقصد الاصلاح

وهنا مسألتان (أحداهما) أن المستقل في علمه وحكمه حق الاستقلال يتحرى

مايظهر له أنه الحق فيقوله ويحكم به وان أغضب جميع الناس عليه . وقصارى ما يستبيحه من ارضاء الناس أو استمالتهم التلطف في القول ، وتزيين الحق الذي ثبت عنده بحلي البيان وحلله ، دون ابرازه لهم عاري الجسد عاطل الجيد

(الثانية) ان الاصلاح بين الرجلين أو القبيلين من الناس فضيلة حث عليها الشرع وعرف حسنها العقل ، وقد أبيح فيها الكذب عند الضرورة عملا بقاعدة « ارتكاب أخف الضررين » فبالاولى يباح فيها التماس العذر لكل خصم فيما خالف فيه الآخر ، وتوجيه ماقام عنده من الحجة أو شبه الحجة . وهذه الطريقة في الاصلاح أقرب الطرق لارضاء المعتدلين من أهل المذاهب المختلفة، وأما الغلاة في التعصب لمذاهبهم فلا يرضيهم الا موافقتهم واتباعهم .

أما العمل بهاتين المسألتين واعطاء كل واحدة منهما حقها فهو عسر جدا، فان المستقل جد الاستقلال اذا تصدى للتوفيق بين الخصمين المتعصبين يغضبهما جميعاً وانما يمكن أن يرضي المستقل من كل فريق أو المستعد للاستقلال، اذا أوتي الحكمة وفصل الخطاب

ومن الآيات على ذلك أن رسالة (تاريخ الجهمية والمعتزلة) لم يكتب أحد في هذا العصر كتابة أعدل منها في التأليف بين فرق المسلمين الكبرى — وهم أهل السنة الأثرية والاشاعرة والمعتزلة والشيعة والخوارج — وقد كتب بعض علماء الشيعة ردا عليها قبل اتمام نشرها ، وهل يرضى شيعي بتعديل بعض الخوارج والرواية في الصحيحين عنهما ؟ وانكر بعض اهل السنة الأثريين بعض المسائل فيها كما تقدم . فأين هذه من تلك الرسالة التي كتبها احد علماء الشيعة للتوفيق بين الامة بزعمه او دعواه الظاهرة فكانت عبارة عن دعوة أهل السنة الى التشيع بتخطئتهم وتصويب الشيعة في جميع مسائل الخلاف ! !

أخلاقه وشمائله

كان من اكمل مارأيت في أخلاقه وآدابه وشمائله : كان أبيض اللون نحيف الجسم ربعة القد ، أقرب الى القصر منه الى الطول ، غضيض الطرف ، كثير الاطراق ، خافض الصوت ، ثقيل السمع ، خفيف الروح ، دائم التبسم

وكان تقيا ناسكا واسع الحلم ، سليم القلب ، نزيه النفس واللسان والقلم ، برا بالاهل ، وفيا للاخوان ، يأخذ ماصفا ويدع ما كدر ، عائلا عفيفاً قانعا

لايطبيه طمع مدنس   اذا استمال طمع او اطبى

وقد بينا ماكان لاخلاقه الكريمة من حسن الاثر ، والوقاية من كيد الجامدين والحاسدين ، والاعانة على الاصلاح

ومن حسن وفائه انه لم يقطع مراسلتنا ولا مراسلة الاستاذ الامام في ابان ثقل وطأة الاستبداد الحميدي ، اذ كانت مراسلتنا تعد من الجنايات السياسية التي تعاقب الحكومة صاحبها أشد العقاب ، ولكنه ترك التصريح بنقل شيء عنا كما يعلم من كتابه (دلائل التوحيد) وصرح لنا بذلك

وقد عبرنا عن بعض ماوجدناه من الحزن لفقده بكتاب وجهناه الى أهله، وكان من يعرف ما بيننا من الاخاء يعزينا عنه كما يعزى الاخوة في النسب. وما بيننا من أخوة النسب الروحي، أعلى من النسب الجسدي، على أن نسب امه يتصل بنسبنا أيضا وحسبي أن أدون من تلك التعازي ما كتبه الي صديقي وصديقه علامة العراق ورحلة أهل الا فاق، السيد محمود شكري الآلوسي الشهير. وقد كتبت اليه مثل الذي كتبه الي بباعث القلب ، ولكنه سبق كدأبه في السبق الى كل فضل . وهذا ما كتبه بعد الالقاب ، وفاتحة الخطاب :

« أما بعد فقد نعت الينا صحف البلاد الشامية وفاة العلامة السيد جمال الدين القاسمي قدس الله روحه الزكية، فأمضّ ذلك الخبر قلبي وأفضّ لبي، وجرح فؤادي وطرد رقادي . وأحدث لي حزناً ملازماً ، وألما دائما ، وأورثني قلقا واخزا . وانزعاجا حافزا . وحيث كان المشار اليه من أعزة أحبابكم، وخلص أصفيائكم، مع ما كان عليه من الفضل الوافر ، والادب الباهر ، والورع الظاهر ، والنسب الطاهر ، والذب عن الشرع المبين ، وقوه الايمان واليقين ، ومناضلة الحائدين والملحدين ، وانه حسبما اعترف له الموافق والمخالف

أحيا به الله الشريعة والهدى   وأقام فيه شعائر الاسلام
حكم على أهل العقول يبثها   منعوتة الاوضاع والاحكام
ويريك في ألفاظه وكلامه   سحر العقول وحيرة الافهام

ـفاني اعزيك على فقده، وتوسده للحدد، ومفارقته لهذه الدنيا الغدارة، الخائنة المكارة ، فان نعيمها زائل، وكوكب سعدها آفل،فلا اوجع الله لك قلبا، ولا كدر لك خاطرا ولا لبا ، وللاسلام من طلعتكم الغراء، سلوان عمن مضى من الفضلاء، وانما يجل الرزء اذا قل العوض ، ويكبر المصاب اذا عدم الخلف . فاما اذا كنت الباقي،وغيرك الماضي،وصرت الموجود، وسواك المفقود، فالفادحة خفيفة الوقع، مرؤبة الصدع ويد الدهر فيما نالـ قصيرة، ومنته فيما ترك كبيرة. هذا مع أسفي عليه كل الاسف، وتصاعد أنفاسي بمزيد اللهف، وقد جرت عليه من العيون عيون، فانا لله وإنا اليه

راجعون. نسأله تعالى ان يديمكم ركنا للاسلام، ومرجعا للخاص والعام، ويصونكم من طوارق الليالي والايام، تذكرة للسلف الاعلام » اه

وأقول ان مما يعزني ويعزي هذا الاخ الكريم . والمصلح العظيم ، الذي لا استحق بعض ثنائه ، ولا ينسيني نقصي كمال إطرائه ان أخانا الفقيد قدر بى وعلم افرادا من اخوته وغيرهم يرجى ان يقفوا اثره، ويتلو تلوه ، وان كان نسيج وحده فتبقى بهم ديار الشام . آهلة ان شاء الله بالعلماء الاعلام . على مدى السنين والايام.

(٥ — جرجي بك زيدان)

قضى الله — ولا رادّ لقضائه — ان لانفرغ من رثاء وترجمة رجال العلم الذين فجعت بهم الأمة العربية في هذه السنة في مصر والشام ، الا وقد رزئ القطران بفجيعة أخرى ، فقد فجأت المنية في التاسعة والعشرين من هذا الشهر جرجي بك زيدان صاحب مجلة الهلال ، وأحد أركان النهضة العربية الحديثة ، فجاءته كهلا قد بلغ اشده واستوى، حسن الصحة تام القوى ـ وقد أتم في هذه الليلة تصحيح آخر كراسة من آخر جزء من أجزاء السنة الثانية والعشرين للهلال ، وآخر كراسة من كتاب تاريخ العرب . وتنفس الصعداء من تعب ليلة شعر بأنه ألقى عن عاتقه في أولها تعب عشرة أشهر ، ثم ألقى نفسه على سريره ليبدأ فيها باستراحة شهرين كاملين ، فغاضت نفسه فاذا هو قد ألقى عنها تعب ربع قرن في الجهاد العقلي كان هو القاضي على مادة ذلك الدماغ الذي يشبه معملا من معامل الكهرباء ، في السرعة والنور والحرارة والضياء، والمقوض لدعائم تلك الحياة الجيدة، حياة الجد والعمل والعفة والاستقامة. فاذا كان الجهاد العقلي قد صرع احمد فتحي باشا زغلول والاستاذ القاسمي بعد مرض طويل أو قصير ، فقد صرع جرجي بك زيدان من غير مرض ولا شكوى

فقدت الأمة العربية بهذا الرجل ركنا من أركان نهضتها الحديثة في العلم والأدب ، بعد أن نضج علمه ، واتسعت معارفه ، وكملت تجاربه ، وصار اقدر على اتقان خدمتها ، ومساعدة نهضتها .

نشأ الرجل عصاميا ، فقد ولد في أواخر سنة ١٨٦١ م من أبوين فقيرين اميين، ولكن يظهر انه كان له في الأرومة العربية عرق راسخ، فقد بحث عن أصل بيتهم — وكان يسمى بيت مطر — فانتهى به البحث الى ترجيح كونه من عرب حوران ، وكان يظن انه كأكثر الروم الارثوذكس في سورية من بني غسان .

تلقى مبادي القراءة والكتابة في بعض مكاتب بيروت الابتدائية . وكان يشتغل مع والده في مهنته لاجل المعاش، ولكن استعداده للعلم وعشقه للمدارس كان قويا جدا ، فكان يختلف الى بعض المدارس الليلية ، يتعلم فيها اللغة الانكليزية . ويبحث عن رجال العلم والأدب ويتقرب اليهم ، وانتظم مع طائفة من خيارهم في سلك جمعية شمس البر الادبية ، فازداد حبا للعلم ورغبة في طلبه ،

وكان بعض من آنس فيه الاستعداد من أهل العلم يقرأ له دروسا خصة يستعد بها لدخول القسم الطبي من المدرسة الكلية الامريكانية الشهيرة ببيروت ، و بعد تحصيل قليل أدي الامتحان ودخل المدرسة فكان يتعلم فنون الصيدلة و يؤدي بعض الخدمة لاجل المعاش ، ولكنه ترك المدرسة في أثناء السنة الثانية لما كان عرض فيها من الاختلال الداخلي المعروف . وقصد بعد ذلك الديار المصرية ليتم دروسه في مدرسة القصر العيني فلم يتح له ذلك ، بل دخل في طور العمل والكسب

ان كثيراً من النابغين لم يقيموا في المدارس زمنا طويلا ، ومن الثابت بالاختبار ان طول الاقامة في المدارس تضعف ملكة الاستقلال ، فيخرج الطالب بعده مقلدا جامدا على ماأطال درسه ومزاولته . فان كانت سعة العلم لاتحصل الا في الوقت الواسع ، فالواجب ان يكون أطول زمن التحصيل خارج المدرسة لا داخلها ، وفي أثنا العمل بالعلم ، لا في أثناء تلقي نظرياته ومصطلحاته . ورب ذكي أو مجتهد يحصل من مسائل العلم في سنة ما لا يحصله غيره في سنين كثيرة . وما تحصيل المدرسة الا دلالة على طريق العمل بالعلم ، فمن يطلب العلم فيها لاجل الاستعانة به على العمل بعد الخروج منها ، فربما يكفيه القليل من العلم فيجعله أهلا للعمل الذي لايكمل العلم الا به . واما من يطلب العلم لاجل نيل شهادة مدرسية يتوسل بها الى رزق لا يتوقف على دوام الاشتغال به والارتقاء فيه ، فهجرته الى ماهاجر اليه ، فهو يحصل ورقة الشهادة، ولكنه قلما يكون عالما عاملا بعلمه مرتقيا فيه . وناهيك اذا كان طلبه للعلم بارادة ولي أمره ، لابارادته الذاتية ورغبته .

أما فقيدنا اليوم فقد كانت نفسه العصامية هي الحافزة لهمته والباعثة له على طلب العلم ، وكان يقصد من العلم ان يعمل به فيفيد مالا وجاها يكون به في مقدمة امته لافي ساقتها . ولذلك حصل بجده وقوة ارادته في الزمن القليل ، ماتمكنه من العمل الذي عجز عن مثله من هم أكثر منه تحصيلا ، وأوسع في العلوم والفنون عرفانا. وأما اذا اتفق لمثل صاحب هذه الهمة والارادة تحصيل المقدمات تامة من أول النشأة ، فان عمله يكون أقوم ، وسيره فيه يكون اسرع وأتم .

اشتغل الفقيد عقب هجرته الى مصر بالتحرير في جريدة يومية اسمها الزمان نحوا من سنة ، ثم سافر مع الحملة النيلية الانكليزية الى السودان مترجما في قلم المخابرات ، وشهد بعض وقائع الحرب في السودان ، ومكث هنالك عشرة أشهر ، ثم عاد وسافر الى سورية فاشتغل فيها مدة بدراسة اللغتين العبرانية والسريانية . ثم الى بلاد الانكليز . ثم عاد الى مصر فندبه أصحاب المقتطف الى مساعدتهم في ادارته فتولاها سنة واشهرا ، ثم استقال منها وانصرف بكل همته الى التأليف فألف تاريخ الماسونية ومختصر التاريخ العام وتاريخ مصر الحديث . ثم تولى ادارة

التعليم بالمدرسة العبيدية سنتين

وفي أواخر سنة ١٨٩٢ ميلادية أنشأ مجلة الهلال ، وجعل جل عنايته فيها بالتاريخ والاخبار العلمية ، وجعل لها ذيلا من القصص (الروايات) الغرامية الممزوجة بتاريخ الاسلام ، فظهر من خطته فيما ينشئ وينقل أنه من أقدر من اشتغل بالصحف العربية والتأليف في هذا العصر ، أو أقدرهم على جذب جمهور القراء الى ما يكتب ، بمحاولة جعل ما يكتبه لذيذا سهل الفهم ، كالطعام اللذيذ سهل الهضم ، وكان يختار في كل وقت ما يناسبه ؛ وفي كل حال ما يلائمه ، فاذا ألمت ملمة ، أوحدثت حادثة مهمة - كالحروب ومشاكل الدول وموت الملوك والكبراء بادر الى كتابة ما يتعلق بذلك من مباحث التاريخ القديم والحديث ، مزينا له بما يتعلق به من الصور والرسوم .

وكان سلما نزيه القلم ، يتقي كل ما يثير غضب أصحاب المذاهب الدينية ، والاحزاب السياسية ، ولكنه لم يسلم مع ذلك من اتهام بعض سيئي الظن من المسلمين والنصارى ، فقد اتهمه بعض الاولين بتعمد الطعن في الاسلام بفرية يفتريها ، أو دسيسة يدسها ، وكانوا يستدلون على ذلك ببعض الاغلاط التي وقع فيها ، أو تصوير بعض المسائل بغير الصورة التي يعرفونها ، لفهمها بغير الصفة التي يفهمونها ، ورد عليه بعض هؤلاء في المؤيد . وطالما رددت على بعضهم مبرئا له من سوء القصد ، لما لي فيه من حسن الظن . وأشرت الى ذلك في المنار غير مرة .

وقد حدثني ان بعض سيئي الظن من النصارى قد اتهمه بضد ما يتهمه به بعض المسلمين : اتهموه بمصانعة المسلمين ومحاباتهم ، ومدح الاسلام والمسلمين تقربا اليهم ، لاجل الكسب منهم . ولا يسلم من ألسنة الناس أحد ، كيف وقد كفروا بالواحد الاحد ، الفرد الصمد ، سبحانه وتعالى

نعم انه قد ظهر منه بعد الانقلاب العثماني نزعة جديدة ، تقدمتها نزغة عدت احياء لمذهب الشعوبية : ذلك بأنه زار الآستانة ولقي فيها بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي ، ثم عاد متشبعا بالنهضة التركية ، مستنكرا مجاراة العرب لاخوانهم الترك بالقيام بنهضة عربية ، مستصوبا خطة الاتحاديين الاولى من تتريك العناصر وادغام العرب في الترك . وقد كتب في الهلال ما يشعر بهذه النزعة ، فهاج ما كتبه جماعات فتيان العرب في الاستانة وسورية ؛ وكادوا يحملون عليه في الصحف ردا واحتجاجا ، ولكن حالت دون ذلك معارضة مسموعة مقبولة

وأما النزغة التي سبقت هذه النزعة ، فهي مطاعن للفقيد في العرب أودعها في تاريخ التمدن الاسلامي فطن لها أخيرا من لم يكن يحفل بها . وزادهم التفاتا اليها ترجمة جريدة (إقدام) التركية لتاريخ التمدن الاسلامي ونشره فيها بالتتابع . فتشاور كثير من

الشبان المتعلمين في الرد على هذا التاريخ ولم يظهر منهم شيء . ثم اتفق أن انبرى للرد عليه في هذه المسألة الاستاذ الشهير الشيخ شبلي النعماني من أشهر علماء الهند وأوسعهم اطلاعا في التاريخ. وكتب الينا هذا الاستاذ الكبير وهو صديقنا وصديق فقيدنا المردود عليه يخبرنا بما شرع فيه من الرد، ويقترح علينا أن ننشر رده في المنار ، ولما كنا نعهد من الفقيد تلقي الانتقاد عليه بسعة الصدر ، بل عهدنا منه مطالبة الكتاب بهذا الانتقاد - ونعلم ان الاستاذ الشيخ شبلي النعماني صديقه - ونرى ان تمحيص هذه المسألة اصبح ضروريا - بادرنا الى نشر الرد من غير أن نقرأه ؛ بل نشر في أثناء رحلتنا الهندية، ثم قرأناه بعد عودتنا من الهند وعمان والعراق وسورية فرأيناه فوق ما كنا نظن من شدة الرد ، ورمي الفقيد بسوء القصد . وكنا علمنا من المنتقد عند لقائه في الهند أنه كان يرى بعض الغلط في تاريخ التمدن الاسلامي وغيره من مؤلفات صاحبه فيحمله على الخطاء أو سوء الفهم ، ولكنه لما قرأ مجموع طعنه في العرب جزم بانه صادر عن سوء قصد . فهذا سبب شدة حملته عليه ، على ما كان من موادته له . وقد كتبنا مقدمة لانتقاد الشيخ شبلي اذ طبع على حدته بينا فيها ذلك ، واننا لو اطلعنا على ما فيه من الشدة قبل نشره ، لراجعنا الكاتب فيه واستأذناه بحذف الطعن الشخصي منه ، وقد نشرنا تلك المقدمة في المنار تعزيزا لدفاعنا السابق بالقلم واللسان، عن رجل عددناه صديقا لنا ، وعضوا نافعا في أمتنا ، على اننا لم نسلم مع ذلك من سوء ظنه فينا :

ثقلت وطأة رد الشيخ شبلي النعماني على الفقيد لشدته ، ولأنه كان يعده من أصدقائه . واثنى عليه غير مرة في هلاله ، فلم يصدق أولا انه هو المنتقد ، واتهمنا بذلك ، وكتب الى الشيخ شبلي كتابا ذكر فيه ذلك، راجيا ان يكتب اليه متنصلا منه ليبين ذلك في الهلال ، ويظهر ان النقد لصاحب المنار ! ! وقد اطلعني الاستاذ الشيخ شبلي على كتابه ذاك في (لكهنؤ) أيام كنت فيها ، ورأيته متعجبا منه ، فكان عجبي أشد من عجبه . وقد ذكرت للفقيد ذلك معاتبا ، فكان حقي عليه في سوء ظنه بي ، أكبر من حقه علي في نشر النقد - وقد نشر في غيبتي .

وقد اتفق لي مثل هذا مع كاتب سوري آخر ، كانت حقوق الصحبة بيني و بينه أقوى منها بيني و بين جرجي بك زيدان، وكنت أثني عليه للاستاذ الامام واستميله لمساعدته ، فكتب الى الاستاذ كتابا يطعن بي فيه . ويتهمني بتنفير الاستاذ عنه ، والطعن فيه عنده ، فتعجب الاستاذ من أمري وأمره !!

أما مؤلفاته فهي مطبوعة مشهورة وهاك أسماؤها :

١ التاريخ العام

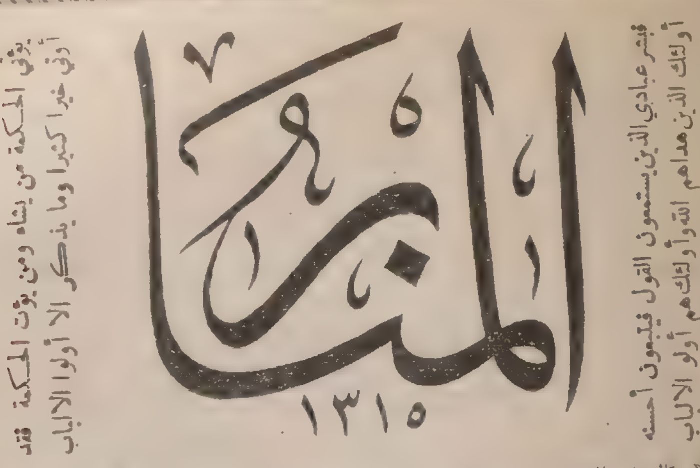
٢ تاريخ مصر الحديث - جزآن

٣ « التمدن الاسلامي . خمسة أجزاء
٤ « العرب قبل الاسلام . جزء واحد
٥ « الماسونية العام »
٦ « اليونان والرومان « صغير
٧ « انكلترة « لم نره
٨ « اللغة العربية «
٩ « آداب اللغة العربية — ٤ أجزاء
١٠ الفلسفة اللغوية . جزء صغير
١١ انساب العرب القدماء «
١٢ علم الفراسة الحديث «
١٣ طبقات الامم «
١٤ عجائب الخلق «
(١٥ ٣٦ قصص (روايات) منها ١٨ قصة تتعلق بتاريخ الاسلام وثلاث تتعلق بتاريخ مصر ، وواحدة غرامية محضة .

وأما أخلاقه وشمائله فقد كان أديب النفس، نزيه اللسان والقلم، بشوش الوجه معتصما بحبوة الجد ، متنزها عن اللغو والعبث، محبا للنظام ، حفيا بالأهل، وصولا للرحم ، محبا للقريب

ورأيي فيه أن عقله كان اكبر من علمه ، ومن فضل عقله على علمه حسن اختيار ما كان يكتب، وحسن ترتيبه وتبويبه، فقد كان في هذا وهو من ثمرات العقل أبرع منه في تحرير المباحث وتنقيحها ، وتمحيص الحقائق بالقول الفصل فيها . وسبب ما انتقد وما ينتقد من الغلط على كتبه بحق، هو أنه كان يقدم على الكتابة في مباحث لم تسبق له دراستها ، معتمدا على مراجعتها من مظانها عند الحاجة اليها ، ومن كان يكتب المقالة في يوم أو ايام أو ساعة أو ساعات، لاجل أن تنشر في مجلة شهرية ، ويؤلف الكتاب في عدة أشهر لانه وعد بنشره في وقت معين من السنة ، قلما يستطيع أن يجمع بين المواد وتنسيقها وترتيبها ، و بين تمحيص الحقائق فيها وتحريرها . ولعمر الانصاف انه ليقل من يستطيع كتابة تلك الكتب في مثل الزمن الذي كتبها فيها مصنفها، وهل يوجد في أمتنا كثير من أمثال من فقدته اليوم؟

وقد ترك للامة ما يعزيها عنه -- تلك المصنفات الجامعة بين الفائدة واللذة ، ونجله النجيب أميل زيدان الذي أحسن تعليمه وتربيته . وقد رأى قراء الهلال من آثار قلمه فيه، ما يبشر باستمرار بزوغه عليهم ما داموا مقبلين عليه موازرين له ، ،، ولا غرو ان يحذو الفتى حذو والده ،،



قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ رمضان ١٣٣٢هـ ق ١ الصيف الثالث ١٢٩٢ هـ ش ٢٣ أغسطس ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

(٧٣) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ، كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٤) وَحَسِبُوٓا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ، ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا - كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ، وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ

بدأ الله تعالى السياق الطويل في أهل الكتاب بأخذ الميثاق على بني اسرائيل وبعث النقباء فيهم ، ثم اعاد التذكير به في اواخره هنا ، فذكره وذكر معه ارسال الرسل اليهم وما كان من معاملتهم لهم فقال :

﴿ لقد اخذنا ميثاق بني اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا ، كلما جاءهم رسول بما

لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ﴾ تقدم ان الميثاق هو العهد الموثق المؤكد وان الله أخذه عليهم في التوراة فراجع الآية ٨١ (ص ٢٨٠ ج ٦ تفسير) وقد نقضوا الميثاق كما تبين في أوائل هذه السورة واواخر ماقبلها . واما معاملتهم للرسل فقد بين الله تعالى اجماله بهذه القاعدة الكلية، وهي انهم كانوا كلما جاءهم رسول بشيء لاتهواه انفسهم — وان كان مقترناً بأشياء يوافق فيها الحق اهواءهم — عاملوه بأحد امرين : التكذيب المستلزم الاعراض والعصيان، او القتل وسفك الدم. والظاهر ان جملة « كلما جاءهم رسول » استئناف بياني لاصفة لرسلا كما قال الجمهور. وجعل الرسل فريقين في المعاملة بعد ذكر لفظ الرسول مفردا في اللفظ جائز، لأن وقوعه مفردا انما هو بعد « كلما » المفيدة للتكرار والتعدد ، واستحسن بعضهم ان يكون جواب « كلما » محذوفاً تقديره : استكبروا وأعرضوا ، وجعل التفصيل بعد ذلك استئنافاً بيانيا مفصلا لما ترتب على الاستكبار وعدم قبول هداية الرسل . وهو حسن لموافقته لقوله تعالى في آية اخرى (٢ : ٨٧ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) وتقدم تفسيرها . والتعبير عن القتل بالمضارع مع كونه وقع في الماضي كالتكذيب - نكتته تصوير جرم القتل الشنيع واستحضار هيئته المنكرة كانه واقع في الحال، للمبالغة في النعي عليهم والتوبيخ لهم. فقد افادت الآية انهم ركبوا من الفساد واتباع اهوائهم اخشن مركب واشده تقحما بهم في الضلال ، حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل وهديهم ، بل صار يغريهم بزيادة الكفر والتكذيب ، وقتل أولئك الهداة الاخيار، كشعيا وزكريا ويحيى عليهم السلام

﴿ وحسبوا أن لا تكون فتنة ﴾ قرئ تكون بالنصب وبالرفع كما يأتي - اي وحسبوا حسباناً تمكن من نفوسهم فكان كالعلم في قوته انه لا توجد ولا تقع لهم فتنة بما فعلوا من الفساد . والفتنة الاختبار بالشدائد كتسلط الامم القوية عليهم بالقتل والتخريب والاضطهاد ، وقيل المراد بها القحط والجوائح ؛ وليس بظاهر هنا . وانما المتبادر أن المراد بما أجمل هنا هو ما جاء مفصلاً في أوائل سورة الاسراء — التي تسمى سورة بني اسرائيل أيضاً — من قوله تعالى (١٧ : ٤ وقضينا الى بني اسرائيل

في الكتاب : لتفسدن في الارض مرتين — الى قوله — ٨ عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا) الآية ، فالفساد مرتين هناك هو المشار اليه هنا بقوله تعالى

﴿ فعموا وصموا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثير منهم ﴾ أي فعموا عن آيات الله في كتبه الدالة على عقاب الله للامم المفسدة الظالمة ، وعن سننه في خلقه المصدقة لها ، وصموا عن سماع المواعظ التي جاءهم بها الرسل ، وأنذروهم بها عقاب الله لمن نقض ميثاقه ، وخرج عن هداية دينه ، فاتبع هواه ، وظلم نفسه والناس ، فلما عموا وصموا وانهمكوا في الظلم والفساد ، سلط الله تعالى عليهم البابليين فجاسوا خلال الديار ، وأحرقوا المسجد الاقصى ونهبوا الاموال ، وسبوا الامة وسلبوها الملك والاستقلال ، ثم رحمهم الله تعالى وتاب عليهم ، وأعاد اليهم ملكهم وعزهم ، ثم عموا وصموا مرة أخرى وعادوا الى ظلمهم وافسادهم في الارض ، وقتل الانبياء بغير حق ، فسلط الله تعالى عليهم الفرس ثم الروم (الرومانيين) فأزالوا ملكهم واستقلالهم .

أما قوله تعالى « كثير منهم » فهو بدل من فاعل عموا وصموا ، أو هو الفاعل والواو علامة الجمع على لغة بعض العرب من الازد التي يعبر النحاة بكلمة واحد من أهلها قال « اكلوني البراغيث » والمراد ان عمى البصيرة والختم على السمع لم يكن عاما مستغرقاً لكل فرد من أفرادهم ، وانما كان هو الكثير الغالب عليهم . وتقدم قريباً في تفسير « وكثير منهم ساء ما يعملون » بيان حكمة هذا التدقيق في القرآن بنسبة الفساد للكثير أو الاكثر في الامة . وانما يعاقب الله الامم بالذنوب اذا كثرت وشاعت فيها ، لان العبرة بالغالب ، والقليل النادر لا تأثير له في الصلاح أو العام ، ولذلك قال تعالى (٨ : ٢٥ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهذا هو الواقع وعلته ظاهرة ، وحكمته باهرة

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ الآن من الكيد لخاتم الرسل ، فاتباع الهوى قد أعماهم واصمهم مرة أخرى ، فتركهم لا يبصرون ما جاء به من النور والهدى ، وما هو عليه من النعوت والصفات التي أشار اليها النبيون في بشاراتهم به ، ولا يسمعون ما يتلوه عليهم من الآيات ، وما فيها من الحجج والبينات . وسيعاقبهم الله تعالى على ذلك بمثل ما عاقبهم على ما قبله . وقد غفل عن هذا المعنى جمهور المفسرين فجعلوا

« يعملون » بمعنى الماضي . ونكتة التعبير به استحضار صورة أعمالهم في ماضيهم ، وتمثيلها لهم ولغيرهم في حاضرهم ، كما قلنا في تفسير « وفريقاً يقتلون » وما قلناه أقوى وأظهر ، وانما تحسن هذه النكتة في العمل المعين المهم الذي يراد التذكير به بعد وقوعه بجعل الزمن الحاضر، مرآة للزمن الغابر ، ولا يظهر هذا الحسن في الاعمال المطلقة المبهمة

ومن مباحث اللفظ ان أبا عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب قرأوا « أن لا تكون » والاصل حينئذ : وحسبوا أنه - أي الحال والشأن - لا تكون فتنة ، فخففت أن المشددة وحذف ضمير الشأن المتصل ، وأشرب الحسبان معنى العلم كما تقدم .

---

(٧٥) لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ، وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٦) لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ . وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ . وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٨) مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ . ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ

هذه الآيات تم انتقال من بيان حال اليهود الى بيان حال النصارى في دينهم قال:

﴿ لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح بن مريم ﴾ أكد تعالى بالقسم كفر قائلي هذا القول من النصارى ، اذ غلوا في نبيهم المسيح بن مريم عليه السلام ، غلوا

ضادوا به غلو اليهود في الكفر به، وقولهم عليه وعلى أمه الصديقة بهتاناً عظيما ، ثم صار هو العقيدة الشائعة فيهم ، ومن عدل عنها الى التوحيد يعد مارقاً من دينهم ، ذلك بأنهم يقولون ان الإله مركب من ثلاثة أصول يسمونها « أقانيم » وهي الآب والابن وروح القدس، ويقولون ان المسيح هو الابن ، والله هو الآب، وان كل واحد من الثلاثة عين الآخرين ، فينتج ذلك أن الله هو المسيح، وان المسيح هو الله بزعمهم . وقد تقدم تفسير مثل هذه الجملة في تفسير الآية ال١٩ من هذه السورة (راجع ص ٣٠٦ ج ٦ تفسير)

﴿ وقال المسيح : يابني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ أي والحال ان المسيح قال لهم ضد مايقولون : أمرهم بعبادة الله تعالى وحده، معترفاً بأنه ربه وربهم، فاعترف بأنه عبد مربوب لله تعالى، ودعا بني اسرائيل الذين أرسل اليهم أن يعبدوا الله الذي يعبده هو . ولا يزل أمره هذا محفوظاً عندهم فيما حفظوا من انجيله في هذه الكتب التي كتبت لبيان بعض سيرته وتاريخه ، وهي التي يسمونها الاناجيل. ففي انجيل يوحنا منها عنه عليه السلام مانصه: « ١٧: ٣ وهذه هي الحياة الابدية — أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» فدين المسيح مبني على التوحيد المحض وهو دين الله الذي أرسل به جميع رسله . وسنعود الى بيان ذلك في تفسير قوله تعالى في آخر هذه السورة حكاية عنه عليه السلام (ماقلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم)

﴿ انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ،وما للظالمين من أنصار ﴾ أمرهم عليه السلام بالتوحيد الخالص . وقفى عليه بالتحذير من الشرك والوعيد عليه ، ببيان أن الحال والشأن الثابت عند الله تعالى هو أن كل من يشرك بالله شيئا ما من ملك أو بشر أو كوكب او حجر اوغير ذلك، بأن يجعله ندا له، أو متحدا به، أو يدعوه لجلب نفع أو دفع ضر ، أو بزعم أنه يقرب به الى الله زلفى، فيتخذه شفيعا زاعما أنه يؤثر في ارادة الله تعالى أو علمه ، فيحمله على شيء غير ماسبق به علمه وخصصته ارادته في الازل، — من يشرك هذا الشرك ونحوه فان الله يحرم عليه الجنة في الآخرة ، بل هو قد حرمها عليه في سابق علمه ، وبمقتضى دينه الذي أوحاه الى جميع رسله ، فلا

يكون له مأوى ولا ملجأ يأوي اليه الا النار ، دار العذاب والهوان، وما لهؤلاء الظالمين لانفسهم بالشرك من نصير ينصرهم ، ولا شفيع ينقذهم (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه — ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) فالنافع رضاه (ولا يرضى لعباده الكفر) وشر أنواعه الشرك . ونكتة جمع الانصار مع كون النكرة المفردة تفيد العموم في سياق النفي ، هي التنبيه على كون النصارى كانوا يتكلون على كثير من الرسل والقديسين اذ كانت وثنية الشفاعة قد فشت فيهم ، وان لم تكن من أصل دينهم

﴿ لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة ﴾ أكد تعالى بالقسم أيضا كفر الذين قالوا ان الله الذي هو خالق السموات والارض وما بينهما ثالث أقانيم ثلاثة ، وهي الآب والابن وروح القدس، قال ابن جرير : وهذا قول كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكانية والنسطورية . كانوا فيما بلغنا يقولون : الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم — أبا والدا غير مولود ، وابنا مولودا غير والد ، وزوجاً متبعة بينهما .اه فكان هو وكثير من المفسرين والمؤرخين المتقدمين يرون — بحسب معرفتهم بحال نصارى زمنهم وما يروون عمن قبلهم — أن الذين يقولون من النصارى ان إلههم ثالث ثلاثة ، هم غير الفرقة التي تقول منهم : ان الله هو المسيح ابن مريم. وان ثم فرقة ثالثة تقول : ان المسيح هو ابن الله وليس هو الله ، ولا ثالث ثلاثة . وأما النصارى المتأخرون فالذي نعرفه منهم وعنهم انهم يقولون بالثلاثة الاقانيم، وبأن كل واحد منها عين الآخر . فالآب عين الابن وعين روح القدس ، ولما كان المسيح هو الابن كان عين الآب وروح القدس أيضا . ومن العجيب ان بعض متأخري المفسرين ينقلون أقوال من قبلهم في أمثال هذه المسائل ويقرونها ، ولا يبحثون عن حال أهل زمنهم ، ولا يشرحون حقيقة عقيدتهم . وقد سبق لنا بيان عقيدة التثليث ، وكون النصارى أخذوها عن قدماء الوثنيين ، فارجع الى تفسير (ولا تقولوا ثلاثة) في أواخر سورة النساء (ص ٨٦ — ٩٥ ج ٦ تفسير) وبينا قبيلها عقيدة الصلب والفداء (ص ٢٣ — ٥٥ ج ٦ تفسير) ثم بينا عقيدة التثليث في تفسير الآية ١٩ من هذه السورة (ص ٣٠٧ ج ٦ تفسير)

قال تعالى ردا عليهم ﴿ وما من إله الا إله واحد ﴾ أي قالوا قولهم هـذا بلا روية ولا بصيرة والحال انه ليس في الوجود ثلاثة آلهة ولا اثنان ولا اكثر من ذلك – لايوجد آلـه ما الا آلـه متصف بالوحدانية . وهو الله الذي لاتركيب في ذاته ولا تعدد . وهذه العبارة أشد تأكيداً لنفي تعدد الإله من عبارة : لاإله الا إله واحد . لان « من » بعد « ما » تفيد استغراق النفي وشموله لكل نوع من أنواع المتعدد وكل فرد من أفراده ؛ فليس ثم تعدد ذوات وأعيان ، ولا تعدد أجناس أو أنواع ، ولا تعدد جزئيات أو أجزاء . والنصارى قد اقتبسوا عقيدة التثليث عمن قبلهم ولم يفهموها ، وعقلاؤهم يتمنون لو يقدرون على التفصي منها ، ولكنهم اذا أنكروها بعد هذه الشهرة تبطل ثقة العامة بالنصرانية كلها . كما قال أحد عقلاء القسوس لبعض أهل العلم العصري من الشبان السوريين

ومن الغريب انهم يعترفون بأن هذه العقيدة لاتعقل ، ولكن بعضهم يحاول تأنيس النفوس بها ، بضرب أمثلة لاتصدق عليها ، ككون الشمس مركبة من الجرم المشتعل والنور والحرارة ، قال الشيخ ناصيف اليازجي

نحن النصارى آل عيسى المنتمي حسب التأنس للبتولة (؟) مريم
فهو الإله ابن الإله وروحه فثلاثة في واحد لم تقسم
للآب لاهوت ابنه وكذا ابنه وكذاهما والروح تحت تقنم
كالشمس يظهر جرمها بشعاعها وبحرها والكل شمس فاعلم

فهو يقول ان ربهم جوهر له أعراض كسائر الجواهر والاجسام . ولكن العرض ليس عين الذات . فحرارة الشمس ليست شمساً ، ولا هي عين الجرم ولا عين الضوء . فاذا لا يصح أن يكون الابن وروح القدس عين الآب ! ! وقد أورد صاحب اظهار الحق الحكاية الآتية ، في بيان تخبطهم في هذه المسألة ، قال :

« نقل أنه تنصر ثلاثة أشخاص وعلمهم بعض القسيسين العقائد الضرورية سيما عقيدة التثليث . وكانوا في خدمته ، فجاء محب من أحباء هذا القسيس وسأله عمن تنصر فقال: ثلاثة أشخاص تنصروا فسأل هذا المحب : هل تعلموا شيئا من العقائد الضرورية ؟ فقال : نعم ، وطلب واحدا منهم ليري محبه ، فسأله عن عقيدة التثليث

فقال: انك علمتني أن الآلهة ثلاثة، أحدهم الذي هو في السماء، والثاني الذي تولد من بطن مريم العذراء، والثالث الذي نزل في صورة الحمامة على الإله الثاني بعد ماصار ابن ثلاثين سنة. فغضب القسيس وطرده وقال هذا مجهول، ثم طلب الآخر منهم وسأله فقال: انك علمتني أن الآلهة كانوا ثلاثة وصلب واحد منهم فالباقي إلهان. فغضب عليه القسيس أيضا وطرده، ثم طلب الثالث وكان ذكيا بالنسبة الى الاولين وحريصاً في حفظ العقائد فسأله، فقال: يامولاي حفظت ما علمتني حفظا جيدا، وفهمت فهما كاملا، بفضل السيد المسيح: ان الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، وصلب واحد منهم ومات، فمات الكل لاجل الاتحاد، ولا إله الآن، وإلا يلزم نفي الاتحاد. أقول لاتقصير للمسؤولين فان هذه العقيدة يخبط فيها الجهلاء هكذا ويتحير علماؤهم ويعترفون بأنا نعتقد ولا نفهم، ويعجزون عن تصويرها وبيانها. اه

﴿ وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ أي وان لم ينتهوا عن قولهم بالتثليث ويتركوه، ويعتصموا بعروة التوحيد الوثقى ويعتقدوه، فوالله ليصيبنهم بكفرهم عذاب شديد الالم في الآخرة. فوضع «الذين كفروا» موضع الضمير ليثبت أن ذلك القول كفر بالله، وان الكفر سبب العذاب الذي توعدهم به، ويبين ان هذا العذاب لايمس الا الذين كفروا منهم خاصة بالتثليث او غيره، دون من تاب وأناب الى الله تعالى، اذ ليس عذاب الآخرة كعذاب الامم في الدنيا يشترك فيه المذنبون وغيرهم. وقيل ان «من» بيانية

﴿ أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه — والله غفور رحيم؟ ﴾ الاستفهام هنا للتعجيب من شأن هؤلاء الناس في تثليثهم واصرارهم عليه بعد ماجاءتهم البينات المبطلة له، والنذر بالعذاب المرتب عليه. والهمزة داخلة على فعل محذوف عطف عليه فعل التوبة المنفي. والتقدير: أيسمعون ما ذكر من التفنيد والوعيد، فلا يحملهم على التوبة والرجوع الى التوحيد، واستغفار الله تعالى مما فرط منهم، والحال ان الله تعالى عظيم المغفرة واسع الرحمة، يقبل التوبة من عباده ويغفر لهم ما سلف، اذا هم آمنوا وأحسنوا فيما بقي؟ ان هذا لشيء عجاب. أو: أيصرون على ما ذكر بعد اقامة الحجة، ودحض الشبهة، فلا يتوبون؟ الخ

﴿ ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأ كلان الطعام ﴾ قد يقول قائلهم اذا سمع ماتقدم : اذا كان التثليث أمرا باطلا لا حقيقة له ، وكان الإله الحق واحدا لاتعدد فيه ولا تركيب من أصول ولا أقانيم ، ولا يشبه الاجسام بذات ولا صفة — فما بال المسيح وما شأنه ؟ هل يعد فردا من أفراد المخلوقات ، لايمتاز عليها بالذات ولا بالصفات ؟ وهل تعد أمه كسائر النساء ؟ أجاب الله تعالى عن هذه الاسئلة التي يوردها من ا كبروا المسيح أن يكون بشرا ، فبدأ بذكر خصوصيته التي امتاز بها على أ كثر الناس ، ثم ثنى ببيان حقيقته التي يشارك بها كل فرد من أفرادهم ؛ أما الخصوصية فهو انه ليس الا رسولا من رسل الله تعالى الذين بعثهم لهداية عباده ، قد خلت ومضت من قبله الرسل الذين اختصهم الله مثله تعالى بالرسالة وأيدهم بالآيات . فبهذه الخصوصية امتاز هو واخوته الرسل على جماهير الناس ؛ وأما أمه فهي صديقة من فضليات النساء ، فمرتبتها في الفضل والكمال تلي مرتبة الانبياء .[1] وأما حقيقتهما الشخصية والنوعية فهي مساوية لحقيقة غيرهما من أفراد نوعهما وجنسهما . بدليل أنهما كانا يأ كلان الطعام ، وكل من يأ كل الطعام فهو مفتقر الى مايقيم بنيته ويمدّ حياته ، لئلا ينحل بدنه وتضعف قواه فيهلك — دع ما يستلزمه أ كل الطعام ، من الحاجة الى دفع الفضلات ، — وكل مفتقر الى غيره فهو ممكن مساو لسائر الممكنات المخلوقة في حاجتها الى غيرها، فلا يمكن أن يكون ربا خالقاً ، ولا ينبغي أن يكون ربا معبودا . وان من سفه الانسان لنفسه، واحتقاره لجنسه ، أن يرفع بعض المخلوقات المساوية له في ماهيته ومشخصاته بمزية عرضية لها، فيجعل نفسه لها عبدا ، ويسمي مايفتتن بخصوصيته منها إلها أو ربا .

﴿ أنظر كيف نبين لهم الآيات ! ثم انظر أنّى يؤفكون ﴾ أي انظر أيها الرسول او ايها السامع نظر عقل وفكر . كيف نبين لهؤلاء النصاري الآيت والبراهين على بطلان دعواهم في المسيح ، ثم انظر بعد ذلك كيف يصرفون عن استبانة الحق بها ، والانتقال من مقدماتها الى نتائجها ؟ كأن عقولهم قد فقدت بالتقليد وظيفتها ؟

(١) راجع تحقيق الكلام في الصديقين في تفسير سورة النساء (ص ٢٤٤ ج ٥ تفسير)

(٧٩) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٨٠) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٨١) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ. ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٨٢) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٨٣) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا. لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ. وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٤) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ

أقام الله تعالى البرهان من حال المسيح وأمه على بطلان كونه إلها، وبين مايشاركان به أشرف البشر من المزية الخاصة، ومايشاركان به سائر البشر من صفاتهم العامة، وقفى على ذلك بالتعجيب من بُعد التفاوت مابين قوة الآيات التي حجهم بها، و شدة انصرافهم عنها، ثم لقن نبيه حجة أخرى يوردها في سياق الإنكار عليهم وتبكيتهم على عبادة مالا فائدة في عبادته فقال :

﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ؟ ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء النصارى وأمثالهم الذين عبدوا غير الله : أتعبدون من دون الله — أي متجاوزين عبادة الله وحده — ما لا يملك لكم ضرا تخشون ان يعاقبكم به اذا تركتم عبادته، وترجون أن يدفعه عنكم اذا انتم عبدتموه، ولا يملك لكم نفعا ترجون ان يجزيكم به اذا عبدتموه، وتخافون أن يمنعكم اذا كفرتموه؟ ﴿ والله هو السميع العليم ﴾

أي والحال ان الله تعالى هو السميع لأدعيتكم وسائر أقوالكم، العليم بحاجاتكم وسائر أحوالكم، فلا ينبغي لكم ان تدعوا غيره، ولا أن تعبدوا سواه

ولما كان قول النصارى في المسيح من أشد الغلو في الدين، بتعظيم الانبياء فوق مايجب، وكان ايذاء اليهود له وسعيهم لقتله، من الغلو في الجمود على تقاليد الدين الصورية، واتباع الهوى فيه، وكان هذا الغلو هو الحامل لهم على قتل زكريا ويحيى وشعيا قال تعالى:

﴿قل ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أهوء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل﴾ الغلوّ الإفراط وتجاوز الحد في الامر — فاذا كان في الدين فهو تجاوز حد الوحي المنزل الى ما تهوى الانفس. كجعل الانبياء والصالحين أربابا ينفعون ويضرون بسلطة غيبية لهم فوق سنن الله في الاسباب والمسببات الكسبية، واتخاذهم لاجل ذلك آلهة يعبدون فيدعون من دون الله تعالى أو مع الله تعالى. سواء أطلق عليهم لقب الرب والإله كما فعلت النصارى أم لا. وكشرع عبادات لم يأذن بها الله، وتحريم مالم يحرم الله. كالطيبات التي حرمها القسوس والرهبان على انفسهم وعلى من اتبعهم. مبالغة في التنسك. سواء كان ذلك لوجه الله، ام كان رياء وسمعة — نهى الله تعالى أهل الكتاب الذين كانوا في عصر نزول القرآن عن هذا الغلو الذي كان عليه من قبلهم من أهل ملتهم، وعن التقليد الذي كان سبب ضلالتهم. فذكرهم بأن الذين كانوا قبلكم قد ضلوا باتباع أهوائهم في الدين. وعدم اتباعهم فيه سنة الرسل والنبيين. والصالحين من الحواريين. فكل أولئك كانوا موحدين. ولم يكونوا مفرطين ولا مفرّطين. وانما كانوا للشرك والغلو في الدين منكرين. فهذا التثليث وهذه الطقوس الكنيسية الشديدة المستحدثة من بعدهم. ابتدعها قوم اتبعوا أهواءهم. فضلوا بها وأضلوا كثيرا ممن اتبعهم في بدعهم وضلالهم.

واما الضلال الثاني التي ختمت به الآية فقد فسر باعراضهم عن الاسلام، كما فسر الضلال الاول بما كان قبل الاسلام، فالاسلام هو سواء السبيل، أي وسطه الذي لاغلوّ فيه ولا تفريط، لتحتيمه الاتباع وتحريمه الابتداع والتقليد،

ويجوز ان يكون الضلال الاول ضلال الابتداع والزيادة في الدين، والضلال الثاني جهل حقيقة الدين وجوهره، وكونه وسطا بين اطراف مذمومة، كالتوحيد بين الشرك والتعطيل. واتباع الوحي بين الابتداع والتقليد، والسخاء بين البخل والتقتير الخ

فان قيل: كيف غلب على غلاة بني اسرائيل ذلك الضلال والاضلال، وآثر أكثرهم اتباع الهوى على هدى الانبياء؟ وبماذا آخذهم الله تعالى على هذا الاصرار؟

فالجواب عن ذلك قوله عز وجل ﴿ لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ اللعن أشد مايعبر الله تعالى به عن مقته وغضبه، فالملعون منه هو المحروم من لطفه وعنايته، البعيد عن هبوط رأفته الخاصة ورحمته، وقد كان داود عليه السلام لعن الذين اعتدوا منهم في السبت، أو العاصين المعتدين عامة، والمعتدين في السبت خاصة. ثم لعنهم عيسى عليه السلام وهو آخر الانبياء المرسلين منهم. وانما كان سبب ذلك اللعن من الله، الذي استمر هذا الاستمرار، عصيانهم له عز وجل، واعتداؤهم الممتد المستمر، كما يدل عليه قوله تعالى «وكانوا يعتدون» أي كان من شأنهم اعتداء حدود الله وتجاوز شرعه دائما.

وقد بين جل ذلك العصيان، وسبب استمرارهم على تعدي حدود الله واصرارهم عليه بقوله ﴿ كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ﴾ أي كانوا لاينهى بعضهم بعضا عن منكر ما من المنكرات مهما اشتد قبحها وعظم ضررها. وإنما النهي عن المنكر حفاظ الدين، وسياج الآداب والفضائل، فاذا ترك تجرأ الفساق على إظهار فسقهم وفجورهم، ومتى صار الدهماء يرون المنكرات بأعينهم، ويسمعونها بآذانهم، تزول وحشتها وقبحها من أنفسهم، ثم يتجرأ الكثيرون أو الاكثرون على اقترافها. فالاخبار بهذا الشأن من شؤونهم، اخبار بفشو المنكرات فيهم، وانتشار مفاسدها بينهم، لأن وجود العلة يقتضي وجود المعلول، ولولا استمرار وقوع المنكرات لما صح ان يكون ترك التناهي شأنا من شؤون القوم ودأبا من دأبهم. [وقد بسطنا القول في مسألة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر في تفسير (٤ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير) ـ الاية. فليراجع في جزء التفسير الرابع (ص ٢٥ ـ ٤٥)

وسنعود اليه إن شاء الله تعالى]

﴿ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ هذا تأكيد قسمي لذم ما كانوا يفعلونه مصرين عليه من اقتراف المنكرات والسكوت عليها والرضاء بها . وكفى بذلك افسادا

ذلك شأنهم ودأبهم الذي مردوا واصروا عليه ، بينه الله تعالى لرسوله والمؤمنين عبرة لهم ، حتى لا يفعلوا فعلهم فيكونوا مثلهم ، ويحل بهم من لعنة الله وغضبه ما حل بهم . روى ابو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وغيرهم من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله (ص) « ان اول مادخل النقص على بني اسرائيل انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول ياهذا اتق الله ودع ماتصنع فانه لايحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك ان يكون اكيله وشريبه وقعيده. فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال (لعن الذين كفروا - الى قوله - فاسقون) ، ثم قال (ص) - كلا والله لتأمرنّ بالمعروف وتنهونّ عن المنكر . ثم لتأخذنّ على يد الظالم ولتأطرنّه على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم لعنكم كما يلعنهم » وورد في هذا المعنى عدة احاديث ، فهل من معتبر أومدّكر ؟ بل رأينا من آثار غضب الله تعالى مثلما رأى بنو إسرائيل أو قريبا منه ، وقد عرفنا سببه ولم نتركه ، ونراه يزداد بالاصرار على السبب ، ولا نتوب ولا نتذكر !! فالى متى الى متى ؟؟

ثم ذكر الله تعالى لرسوله حالا من أحوالهم الحاضرة التي هي من آثار تلك السيرة الراسخة ، فقال ﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ﴾ أي ترى أيها الرسول كثيرا من بني اسرائيل يتولون الذين كفروا من مشركي قومك ، ويحرضونهم على قتالك ، وانت تؤمن بالله وبما انزله على أنبيائهم وتشهد لهم بالرسالة ؛ واولئك المشركون لا يوحدون الله تعالى ولا يؤمنون بكتبه ولا برسله مثلك ، فكيف يتولونهم ويحالفونهم عليك لولا اتباع أهوائهم ، وسخط الله عليهم ؟ ﴿ لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ﴾ هذا ذم مؤكد بالقسم لعمل اليهود الذي قدمته لهم أنفسهم ليلقوا الله تعالى به في الآخرة ، وما هو الا العمل القبيح الذي أوجب سخط الله عليهم . فالمخصوص بالذم هو ذلك السخط الذي استحقوه ، وليس أمامهم ما يجزون

به سواه، ولبئس شيئاً يقدمه الانسان لنفسه، فيجزون به شر الجزاء ﴿ وفي العذاب هم خالدون ﴾ فهو محيط بهم لايجدون عنه مصرفا، لأن النجاة من العذاب انما تكون برضاء الله تعالى، وهم لم يعملوا الا ما أوجب سخطه

﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ﴾ أي ولو كان اولئك اليهود الذين يتولون الكافرين من مشركي العرب يؤمنون بالله والنبي محمد (ص) أو النبي الذي يدعون اتباعه وهو موسى (ص) وما انزل اليه من الهدى والفرقان، لما اتخذوا اولئك الكافرين من عبدة الاصنام أولياء لهم وأنصارا، لأن العقيدة الدينية كانت تبعدهم عنهم، والجنسية علة الضم. وفي العبارة وجه آخر وهو: لو كان اولئك الذين كفروا من المشركين يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذهم اليهود أولياء. أي انهم لم يتخذوهم أولياء الا لكفرهم بالله ورسوله وما انزل اليه، والمراد من التوجيهين واحد، وهو ان هذه الولاية بين اليهود والمشركين لم يكن لها علة الا اتفاق الفريقين على الكفر بالله ورسوله وكتابه، والتعاون على حرب الرسول وابطال دعوته والتنكيل بمن آمن به. هذا هو المشهور في تفسير الآية

وذهب مجاهد الى ان المراد بالذين تولاهم اليهود من الذين كفروا المنافقون، وهو اظهر الاقوال. والمعنى ان اولئك المنافقين كفار، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه كما يدعون ما اتخذهم اليهود أولياء لهم. فتوليهم إياهم دليل كونهم يسرّون الكفر ويظهرون الايمان نفاقا.

وقد تقدم الكلام في موالاة المنافقين لليهود وغيرهم فيما مضى من تفسير هذه السورة، وما العهد به ببعيد. كما تقدم القول في الموالاة والتناصر بين اليهود والمشركين. فاليهود كانوا يتولون المشركين والمنافقين جميعا للاشتراك في عداوة النبي (ص) والمؤمنين. وما قلنا: ان قول مجاهد اظهر الا من حيث اللفظ. وقد بين الله العلة الجامعة بينهم بقوله ﴿ ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾ أي خارجون من حظيرة الدين، منسلون منه انسلال الشعرة من العجين. والقليل لا تأثير له في سيرة الامة وأعمالها. والله أعلم

﴿ تم الجزء السادس ﴾

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة، اذ لا يسع عامة الناس، ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء، واننا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متأخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا، ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

﴿ تفسير له (معقبات من بين يديه ومن خلفه) ﴾

(س ٢٠) من صاحب الامضاء في بركة السبع (مصر)

فضيلة الاستاذ ! السلام عليكم ورحمة الله

لي الشرف الرفيع والقدح المعلى بمثول مسطوري بين يديكم ، وانني وان لم احظ من الاستاذ بالمعرفة الشخصية فقد عرفتني به آدابه الجمة ، وهداني اليه منار علمه الغزير ، ومشكاة فضيله العميم ، ولا غرو بعد اذا رفعت هذا اليكم مستفتيا عن الآتي :

جاء في كتاب « الاسلام دين الفطرة » للاستاذ المفضال « الشيخ عبد العزيز شاويش » تنديد على بعض مفسري الزمن الغابر

نرى فضيلته قد ذهب مذهبا غير الذي ذهب اليه المفسرون كالجلالين والنسفي وغيرهما . ولقد جاء في كلامه المنشور على «ص ٣٣و٣٤ » من الكتاب المشار اليه في تفسير الآية التالية ما لا يتفق مع السابقين :

« عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال * سواء منكم من أسرَّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » الآية . فسر الأوائل المعقبات بالملائكة تتعقب على العبد ليل نهار ، ورووا في ذلك حديثا عن كنانة العدوي قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله فقال اخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ قال « ملك على يمينك على حسناتك وهو امين على الذي على الشمال ....وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وملك قابض على ناصيتك

فذ تو ضعت لله رفعك ، و ذ تجبرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك لا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام ، وملك على فيك لايدع الحية تدخل اليه . وملكان على يمينك. فهؤلاء عشرة املاك على كل آدمي ينزلون وملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي وإبليس بالنهار وولده بالليل » اه

وفسر الشيخ شاويش المستخفي بالليل والسارب بالنهار فقال إنهما المتخذان لها وحرسا وجلاوزة الخ وهنا يتضح من سياق كلامه أنه جحد وجود ملائكة تحفظ العبد

وصفوة القول إنني حيال هذه التفاسير المتضاربة وتلك الآراء المتباينة كريشة في مهب الرياح

بيد أن ثقتي بكم واعتمادي على علو كعبكم في العلوم الدينية سيدنيان مني الغرض ويقصيان عني الريب

وهاأنا (ذا) على أحر من الجمر ، حتى يرد على القول الفصل ،وما هو شفاء للصدور . ورجائي أن تشمل الاجابة الاسئلة الآتية :

(١) أي الطرفين أصاب وما وجه أصابته وأيهما الجدير بالاتباع ؟

(٢) لم لايعود الضمير في قوله تعالى « له معقبات » على من ذكر اسم الله كقول المفسرين ولم لا أثر لذلك في الآية أصلا كرأي فضيلة الشيخ شاويش ؟

(٣) ماهو تفكيك نظام الآية الذي جاء به المفسرون وكيف قطعوا الحال من صاحبها وفرقوا بين الاجزاء التي تتألف منها ؟

(٤) كذب الشيخ شاويش الحديث . وبأي وجه يحتمل تكذيبه له مع أن راويه البخاري وهو كما تعلم من رؤوس الرواة وأصحها سندا ؟ المخلص

محمد السيد الجارحي

(ج) اختلف مفسرو السلف في المعقبات هنا فأخذ الشيخ عبد العزيز شاويش بما أعجبه وشنع على من قالوا بغيره ، وما كان ينبغي له ذلك - وقد ذكر الحديث المرفوع فيه - وانا لم نطلع على ما كتبه ويظهر مما كتبه السائل انه ردّ الحديث من غير أن يبني رده على علته فيه وطعن في سنده ، وأن عبارته توهم أن ما اعتمده في تفسير المعقبات مما استنبطته قريحته الوقادة وكان دليلا على تفضيل الأواخر على

الأوائل ! وقد عهدنا منه في مجلته ردّ الاحاديث الصحيحة المتفق عليها اذا لم يعجبه معناها . وحديث كنانة العدوي في تفسير المعقبات ليس في الصحيحين ، وقد عزاه في الدر المنثور الى ابن جرير ، وخرجه ابن جرير في تفسيره بسند ضعيف قال « حدثني المثنى قال حدثنا عبد السلام بن صالح القشيري قال ثنا علي بن حرب عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوي » وذكره . وعبد السلام بن صالح اختلفوا فيه فقالوا انه يروى المناكير واتهمه بعضهم بالوضع ، ولكن انكر الحافظ قول العقيلي فيه انه كذاب . وفي غيره من رجال السند مقال لا محل لبسطه . ولو صح هذا السند عند ابن جرير لما رجح عليه غيره . وقد روى عن ابن عباس انه قال في تفسير المعقبات : يعني ولي السلطان يكون عليه الحراس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه الخ كذا في الدر المنثور . وفي تفسيره بسنده عنه قال : ذكر ملكا من ملوك الدنيا له حرس من دونه حرس . وفي رواية أخرى له عنه قال : يعني ولي الشيطان يكون عليه الحرس . وروى أيضا عن عكرمة انه قال في اصحاب المعقبات : هو هؤلاء الامراء . وقال في رواية أخرى انه قال في المعقبات : المواكب من بين يديه ومن خلفه . قال ابن جرير بعد ماروى القولين في المعقبات عن ابن عباس وعن غيره :

« وأولى التأويلين في ذلك بالصواب قول من قال : الهاء في قوله (له معقبات) [راجع الى] مَن التي في قوله (ومن هو مستخف بالليل) وان المعقبات من بين يديه ومن خلفه هي حرسه وجلاوزته — كما قال ذلك من ذكرنا قوله . وانما قلنا ان ذلك أولى التأويلين بالصواب لأن قوله (له معقبات) أقرب إلى قوله (ومن هو مستخف بالليل) منه الى قوله (عالم الغيب) فهي لقربها منه أولى بأن تكون مَن ذكره « فيها » وان يكون المعني بذلك ، هذا مع دلالة قول الله (واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له) على انهم هم المعنيون بذلك . وذلك انه جل ثناؤه ذكر قوما أهل معصية له وأهل ريبة يستخفون بالليل ويظهرون بالنهار ، ويمتنعون من عند أنفسهم بحرس يحرسهم ومنعة تمنعهم من أهل طاعته ان يحولوا

بينهم وبين ما يأتون من معصية الله ؛ ثم أخبر أن الله تعالى ذكره اذا أراد بهم سوءا لم ينفعهم حرسهم ولا يدفعهم عنهم حفظهم » اه ماقاله وهو الذي نختاره

أما حديث أبي هريرة في الصحيحين والنسائي فهذا نصه « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر . ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون » ورواه البزار بلفظ « ان لله ملائكة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » الخ . فأنت ترى انه لم يرد تفسيراً للآية

ولا أدري أكذب عبد العزيز شاويش هذا الحديث وأنكر أن يكون في الملائكة حفظة يتعاقبون في المكلفين ؟ أم أنكر أن يكون ذلك هو المراد من الآية ؛ ظاهر عبارة السؤال الأول ، ولا يبعد ذلك على هذا الرجل فقد عهد منه مثله ، ولا عبرة بقوله ، فلا هو من أهل العلم بالحديث رواية ولا دراية . ولا بغير الحديث من علوم الدين ، ولكن له مشاركة في الفنون العربية وبعض العلوم العصرية ، فتصدى بذلك للتشبه بالمصلحين ، الذين يجمعون بين الدين والعقل ، فتجرأ على رد الاحاديث الصحيحة بغير علم . وقوله هو المردود ، وحديث الرسول (ص) هو المقبول . ولعل ما ذكرناه يغني عن بقية مباحث السؤال اللفظية غير الواضحة

(السبي والرق في التوراة والانجيل)

(س٢١) من صاحب الامضاء في الكويت

حضرة الاستاذ السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الأغر

نرجو من فضلكم تبيين حكم السبي في الشرائع القديمة هل هو مشروع فيها أم لا ؛ وهل له ذكر في هذه الاناجيل وهذه التوراة الموجودة في أيدي الناس اليوم إثباتاً أو نفياً أم لا ؟ وما هو أحسن جواب للمعترضين به على الدين الاسلامي بدعوى انه من الهمجية أو انه ينافي الانسانية أو ماأشبه ذلك من العبارات

وكيل المنار

سليمان العدساني

(ج) يؤخذ من أسفار العهد القديم التي يسمونها التوراة ان السبي والرق كان مشروعا على عهد الانبياء السابقين ابراهيم (ص) فمن بعده (راجع سفر التكوين ١٤ :١٤) وان شريعة موسى تقضي بأن يستأصل الاسرائيليون الامم التي يغلبونها في الارض المقدسة التي أعطوها فلا يبقوا من أهلها صغيرا ولا كبيرا ، وان يسبوا من غلبوهم في غير تلك الارض . وللسبايا والعبيد والإماء من العبرانيين وغيرهم أحكام متفرقة في سفر الخروج وسفر اللاويين وسفر التثنية . ومنها انه شرع لهم تحرير العبراني دون الغريب ، وكذلك يجب الرفق بالعبراني منهم دون غيره

ومن نصوص سفر اللاويين في ذلك ماجاء في الفصل الخامس عشر منه وهو مما ذكروه من كلام الرب لموسى بعد توصية الاسرائيلي بأخيه اذا بيع له الفقره قال« ٤٤ وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب الذين حولكم — منهم تقتنون عبيدا وإماء ٤٥ وأيضا من المستوطنين النازلين عندكم ، منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكا لكم ٤٦ وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك تستعبدونهم الى الدهر . واما اخوتكم بنو اسرائيل فلا يتسلط عليهم أحد بعنف »

والظاهر من هذه العبارة انه لايجوز عتق العبد الغريب عندهم ، واما العبراني فيعتق سنة اليوبيل عندهم الا اذا احب هو ان يبقى رقيقا ، فعند ذلك تثقب اذنه ويبقى عبدا الى الأبد ، وكان لاستعباد العبراني عندهم ثلاثة أسباب : الفقر ، والسرقة اذا لم يجد السارق قيمة المسروق ، و بيع الوالد بنته لتكون سرية . فاذا تم للصهيونيين مايريدون من امتلاك فلسطين واقاموا شريعتهم فيها فانهم يستأصلون أهلها ويستعبدون جميع من يقدرون على استعباده من جيرانهم الى الابد . ولا يرضون ان يكون لأحد معهم حق ولا ملك ، دع الملك الذي صرح سفر التثنية فيه بأنه لايحل للاسرائيلي ان يجعل عليه ملكا اجنبيا ليس هو اخاه (راجع ١٧ : ١٤ و١٥)

وفي الفصل العشرين من سفر التثنية مانصه « ١٠ حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح ١١ فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب

الموجود فيها يكون لك للتسخير والسبي ويستعبدلك ١٢ وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ١٣ واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ١٤ وأما النساء والاطفال والبهائم وكل مافي المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وكل غنيمة اعدائك التي اعطاك الرب إلهك ١٥ هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الامم هنا . واما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك فلا تستبق منها نسمة مـا »

تأملوا تأملوا أيها المنصفون ماأشد ظلم الذين ينتقدون الاسلام وهم يدعون الايمان بالتوراة ! فالقرآن يأمر المسلمين اذا أثخنوا في مقاتليهم ، وظهرت لهم الغلبة عليهم ، ان يكفوا عن القتل ، ويكتفوا بالاسر ، ثم شرع لهم في الاسرى ان يمنوا عليهم بالعتق فضلا واحسانا ، أو يفادوهم ان احتاجوا الى ذلك ، كما قال (٤٧ : ٤- حتى اذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق فإما مَنًّا بعدُ وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها)

واذا تزوج الاسرائيلي امرأة من السبايا يشرع له ان يكرمها لا اذلالها . كما في الفصل الحادي والعشرون من سفر التثنية ، وهذا التكريم هو ان يتركها لنفسها اذا لم يسرّ بها ولا يبيعها ولا يسترقها .

أما الانجيل فقد أقر الاسرائيليين على الرق كما أقر الرومانيين ولم يأمر السادة بالعتق ولا بالرفق . بل أوصى العبيد بالخضوع والطاعة بغير شرط ولا قيد . ومن وصايا بطرس في رسالته الاولى « أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس للصالحين المترفقين فقط بل للعنفاء أيضا » الخ ومن وصايا بولس في رسالته الى أهل أفسس « ٦ : ٥ أيها العبيد اطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم للمسيح » وفي رسالته الى أهل كولوسي « ٣ : ٢٢ أيها العبيد اطيعوا في كل شيء سادتكم حسب الجسد »

وقد شرحنا في عدة مجلدات من المنار عدل الاسلام ورحمته وحكمته في تخفيف وطأة الرق التي كانت عند جميع الامم والملل وتمهيده السبيل الى تحريره . فهو لم يوجب الاسترقاق كما كان يوجبه بعض الملل ، ولكنه أباحه لأن المصلحة قد تقتضيه حتى لمصلحة السبايا . اذ كانت طبيعة العمران ولا تزال في بعض البلاد على غير

ماهي عليه الآن في ممالك الحضارة . فاذا قتل رجال قبيلة و بقي نساؤهم وأطفالهم ما كانوا يجدون من يكفلهم وينفق عليهم . ففي مثل هذه الحال قد يكون الاسترقاق خيرالهم ، اذا كان كاسترقاق الاسلام يهدي الى اطعام الارقاء مما يأكل منه السادة وإلباسهم كما يلبسون ، وعدم تكليفهم مالا يطيقون . وعدم اهانتهم حتى بالتعبير عنهم بلقب العبد والامة . وناهيك بما شرعه من الاسباب الموجبة لإعتاقهم . وقد فصلنا ذلك في مواضع من مجلدات المنار كما قلنا آنفا فراجع الفهارس تجد ذلك مفصلا ، وتجد حجة الاسلام قائمة على جميع الخلق ولا سيما اليهود والنصارى منهم

أقوال علماء القرن الثالث الاثبات

في عقيدة السلف واثبات الصفات

لما ظهرت بدعة الجهمية في إنكار صفات الله عز وجل وتأويل ماورد منها في الكتاب والسنة هب حفظة الدين وحملته من التابعين ومن بعدهم للرد عليهم ، وتفنيد تأويلاتهم ، والاستمساك بعروة النقل ، حذرا من تحريفها بنظريات العقل ، التي يخدع بها بعض القاصرين ، توهما انها من قطعيات البراهين ، وانا ننقل من كتاب العلو للذهبي (الذي يطبع في مطبعة المنار) بعض أقوال الأئمة المتبوعين ، الذين يجهل أقوالهم من يجلهم من المعاصرين . ولكن الذهبي ينقل في هذا الكتاب ما صح ومالم يصح ، ويشير الى ضعف الرواية الضعيفة أو نكارتها غالبا ، على ان من غلاة الأثريين من يقبل كل ماروي في ذلك . قال :

﴿طبقة الشافعي واحمد رضي الله عنهما﴾

روى شيخ الاسلام أبو الحسن الهكاري والحافظ أبو محمد المقدسي باسنادهم الى أبي ثور وأبي شعيب ، كلاهما عن الامام محمد بن ادريس الشافعي ناصر الحديث رحمه الله قال: القول في السنة التي انا عليها ، ورأيت عليها الذين رأيتهم مثل سفيان ومالك وغيرهما — اقرار بشهادة ان لا إله

الا الله، وأن محمدا رسول الله، وان الله على عرشه في سمائه، يقرب من خلقه كيف شاء، وينزل الى السماء الدنيا كيف شاء. وذكر سائر الاعتقاد.

وباسناد لا اعرفه عن الحسين بن هشام البلدي قال: هذه وصية الشافعي — انه يشهد ان لا إله الا الله — فذكر الوصية بطولها وفيها: القرآن غير مخلوق، وان الله يرى في الآخرة عيانا، ويسمعون كلامه، وانه تعالى فوق العرش. اسنادهما واهٍ

قال الحاكم سمعت الاصم يقول، سمعت الربيع، سمعت الشافعي وقد روى حديثا فقال له رجل: تأخذ بهذا يا أبا عبدالله؟ فقال: اذا رويت حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم آخذ به فأشهدكم ان عقلي قد ذهب

(ابن خزيمة وعدة)

سمعت يونس يقول قال الشافعي: لا يقال للاصل لم ولا كيف. ابو ثور وغيره: قالا سمعنا الشافعي يقول: ما ارتدى احد بالكلام فافلح. وقال الربيع سمعت الشافعي يقول: المراء في الدين يقسي القلب، ويورث الضغائن. وعن يونس بن عبد الأعلى سمعت الشافعي يقول: لله تعالى اسماء وصفات لا يسع احدا قامت عليه الحجة ردها. قال ابن أبي حاتم سمعت الربيع بن سليمان، يقول سمعت الشافعي يقول: من حلف باسم من اسماء الله فحنث فعليه الكفارة، لان اسم الله غير مخلوق، ومن حلف بالكعبة وبالصفا والمروة فليس عليه كفارة لانها مخلوقة

(قلت) تواتر عن الشافعي ذم الكلام وأهله، وكان شديد الاتباع للآثار في الأصول والفروع — مات في رجب سنة أربع ومائتين بمصر

كهلا ، عاش أربعا وخمسين سنة

(القعنبي ذاك الامام)

قال بنان بن أحمد : كنا عند القعنبي رحمه الله فسمع رجلا من الجهمية يقول (الرحمن على العرش استوى) فقال القعنبي : من لا يوقن ان الرحمن على العرش استوى كما يقرُّ في قلوب العامة فهو جهمي . اخرجهما عبد العزيز القحيطي في تصانيفه . والمراد بالعامة عامة أهل العلم ، كما بيناه في ترجمة يزيد بن هارون امام أهل واسط . ولقد كان القعنبي من أئمة الهدى ، حتى لقد تغالى فيه بعض الحفاظ وفضله على مالك الامام . توفي سنة حدى وعشرين ومائتين عن بضع وثمانين سنة ، وهو أكبر شيخ لمسلم مطلقا

(عفان احد اعلام السنة)

قال ابن أبي حاتم : ثنا يحيى بن زكرياء بن عيسى حدثني يحيى ابن أبي بكر السمسار ، سمعت عفان بن مسلم بعد ماجاء من دار اسحاق بن ابراهيم لما امتحنه في القرآن فقال : انه كتب الي ان ادرّ أرزاقك ان اجبت الى خلق القرآن . فقلت: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم (يريدون ان يبدلوا كلام الله - لا إله الا هو الحي القيوم - قل هو الله احد) أمخلوق هذا ؟ ادركت شعبة وحماد بن سلمة وأصحاب الحسن يقولون : القرآن كلام الله ليس مخلوقاً . قال : اذاً يقطع أرزاقك . قلت : (وفى السماء رزقكم وما توعدون) قيل كان رزقه في الشهر ألف درهم فترك ذلك لله عز وجل . وفي سنة تسع عشرة ومائتين

(عاصم بن علي شيخ البخاري)

روينا عن عاصم بن علي بن عاصم الواسطي قال: ناظرت جهماً فتبين من كلامه أنه لا يؤمن ان في السماء ربا. قلت: كان عاصم حافظاً من أوعية العلم صادقاً، حمل عن شعبة وابن أبي ذئب وخلق. ذكر الخطيب في ترجمته ان المعتصم وجه من يحزر مجلس عاصم هذا في رحبة جامع الرصافة، وكان يجلس على سطح الرحبة ويجلس الخلق في الرحبة وما يليها، فعظم الجمعُ مرة حتى قال أربع عشر مرة « ثنا الليث بن سعد » والناس لا يسمعون لكثرتهم. وكان المستملي هارون يركب نخلة يستملي عليها، فحزروا الجمع فكان عشرين ومائة الف. وقال يحي ابن معين: عاصم بن علي سيد المسلمين. قلت: مات مع القعنبي في سنة (أي سنة ٢٢١)

(الحميدي)

أخبرنا اسماعيل بن عبد الرحمن المعدل أنبأ عبد الله بن أحمد الفقيه سنة سبع عشرة وستمائة أنبأ سعد الله بن نصر أنبأ أبو منصور الخياط أنبأ عبد الغفار بن محمد أنبأ أبو علي الصواف أنبأ بشر بن موسى الحميدي قال: أصول السنة عندنا ... فذكر أشياء، ثم قال: وما نطق به القرآن والحديث مثل (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم) ومثل قوله (والسموات مطويات بيمينه) وما أشبه هذا من القرآن والحديث، لا نزيد فيه ولا نفسره، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسنة، ونقول (الرحمن على العرش استوى) ومن زعم غير هذا فهو مبطل جهمي.

كان العلامة أبو بكر عبد الله بن الزبير القرشي الاسدي الحميدي

مفتي أهل مكة وعالمهم بعد شيخه سفيان بن عيينة ، حدث عنه البخاري والكبار . مات سنة تسع عشرة ومائتين

(عالم المشرق يحيى بن يحيى النيسابوري)

قال ابن منده : أنبأ محمد بن يعقوب الشيباني ثنا محمد بن عمرو بن النضر ثنا يحيى بن يحيى قال: كنت عند مالك فجاءه رجل فقال : يا أبا عبد الله ! (الرحمن على العرش استوى) فأطرق ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . قال ابن أبي حاتم سمعت مسلم بن الحجاج : سمعت يحيى بن يحيى يقول: من زعم ان من القرآن من أوله الى آخره آية منه مخلوقة فهو كافر.

كان يحيى بن يحيى اليه المنتهى في الاتقان والورع والجلالة بنيسابور ، قلّ ان ترى العيون مثله . حمل عن مالك وخارجة بن مصعب والكبار ، ومات سنة ست وعشرين ومائتين

(عالم الري هشام بن عبيد الله الرازي)

قال ابن أبي حاتم : ثنا علي بن الحسن بن يزيد السلمي سمعت أبي يقول : سمعت هشام بن عبيد الله الرازي ـ وحبس رجلا في التجهم فجيء به اليه ليمتحنه ـ فقال له : أتشهد ان الله على عرشه بائن من خلقه ؟ فقال : لا أدري ما بائن من خلقه ـ فقال ردوه فانه لم يتب بعد .

كان هشام بن عبد الله من أئمة الفقه على مذهب أبي حنيفة ، تفقه على محمد بن الحسن، كان ذا جلالة عجيبة وحرمة عظيمة ببلده ، توفي سنة

احدى وعشرين ومائتين

ابن أبي حاتم: حدثنا أبو هرون محمد بن خلف الجزار: سمعت هشام ابن عبيد الله يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق. قال له رجل: أليس الله تعالى يقول (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث)؟ فقال محدث الينا وليس عند الله بمحدث. قلت لانه من علمه وعلمه قديم فعلم عباده منه. قال تعالى (الرحمن علم القرآن) فالمقري يلقن الختمة مائة نفس ومائتين فيحفظونه وهو لا ينفصل عنه منه شيء، كسراج أوقدتَ منه سرجاً ولم يتغير

﴿ فقيه المدينة عبد الملك بن الماجشون ﴾

قال ابن أبي حاتم: ثنا يحيى بن زكريا بن عيسى ثنا هرون بن موسى الفروي قال: ماسمعت الكلام في القرآن الا سنة تسع ومائتين — جاء نفر الى عبد الملك بن الماجشون وكلموه فانكر ذلك عليهم، فكان في بعض ما كلمهم به أن قال (قل هو الله أحد) أهذا مخلوق؟ ثم قال: لو أخذت بشرا المريسي لضربت عنقه.

كان عبد الملك من أجلّ تلامذة مالك، وكان ابوه عبد العزيز بن الماجشون يفتي مع مالك في دولة المهدي، توفي عبد الملك في سنة أربع عشرة ومائتين

(المنار) سننشر طائفة أخرى من نقول هذا الكتاب. ونبين ان مذهب السلف هو الموافق للعقل السليم دون مذهب الجهمية.

الطامة الصغرى أو الحرب الكبرى

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ. انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (سورة الأنعام ٦ : ٦٦)

« ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » . وإنه ليبغي أن رآه عز وستعلى ، وان مدّ الطغيان لا إلى جزر ، وان غناه لا إلى فقر ، وإن البغي مصرعه وخيم . وإن عتوّ الجبارين لا إلى هبوط ذميم . (ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بُغي عليه لينصرنه الله . ان الله قويٌّ عزيز)

كانت المسألة الشرقية فزّاعة أوربة اذا فزعت من سوء العواقب ، ومشأمتها اذا تطيرت من امارات النوائب ، وكانت ترى ان مشكلاتها أعقد من ذنب الضب ، وأن حلها أعسر من تربيع الدائرة ؛ وقد أنذرها داهية ساستها (البرنس بسمارك) بأن شرارة واحدة من نار حرب بلقانية تكفي لإحراق ممالك أوربة كلها ، ولكنهم تماروا بالنذر ، وغرهم ما كانوا يسمونه التوازن الأوربي بين وفاق مثلث وحلاف مثلث . وألفت دولة الروسية بين المختلفين من الدول البلقانية ، فجعلت البلغار واليونان والصرب والجبل الاسود إلبا واحدا على الدولة العثمانية . بعد أن أغارت ايطالية على مملكة كبيرة من ممالكها وهي طرابلس الغرب وبرقة .

ثم سمحت الدول الكبرى كلها للبلقانيين بقتال الدولة العثمانية ؛ ولكنهن صرحن بأنهن لا يسمحن بتغيير مَّا في خريتة البلقان ، لأن التنازع على تلك الارض مثار البغي والعدوان ، فاشتعلت نيران الحرب ، واظهر البلقانيون فيها من القسوة والوحشية والفظائع والفواحش ما لا مزيد عليه ، ولم ينبض في قلوب رجال الدول الكبرى عرق من عروق الرأفة والرحمة ، ولا احتج أحد منهم على تلك المذابح والفظائع بكلمة ، وانما كان همهم محصورا في حصر الحرب في البلقان ، ومنع شررها ان يصل الى ممالكهم الكبار

ثم شرع البلقانيون في قسمة ما استولوا عليه من البلاد العثمانية ، فسمحت لهم الدول بذلك متناسية وعدها بعدم السماح . فوقع بينهم التنازع والتقاطع ، وحل الخلاف محل الحلاف. ولم يرضهم ما حكم به في القسمة مؤتمر السفراء . فأوقدوا نار القتال بينهم ، ونقضوا ماأبرمته الدول لهم . ثم دخلت رومانية في الامر معهم ، وضربت من الغنيمة بسهم ، وكانت القسمة ضيزى . غبن بها البلغار ، وكان القدح المعلى لليونان ، واعتزت الصرب أي اعتزاز . وكانت النمسة مسعر نار الفتنة بينهن لتأمن مغبة اعتزاز الروسية بهن .

وقعت الواقعة ، وفتح باب المسألة الشرقية ، وسوّل الغرور للدول الكبرى عملها ، وظنت ان ساستها قدروا بدهائهم على حصر نيرانها في مواقدها ، ومنع شررها ان يتعدى الى ماحولها ، وأن أوربة المملوءة من البارود والديناميت ، أمنت أن تصيبها الشرارة التي أنذرها بسمرك فيعمها الحريق . ونسوا عدل الله العام ، في جميع الأمم والأقوام ، وانه يعاقب المقرّ للشر كمجترحه ، ويجزي الساعي بالخير كفاعله ، (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون)

غر الصرب ما أوتيت من نصر ، ومن سعة في الملك ؛ ومن عود الصربيين العثمانيين اليها ، فطمعت في صرب النمسويين وفيما يسكنونه من البلاد أيضا ، فزادت جمعياتها السرية الساعية الى ذلك جرأة وإقداما ، حتى اغتال بعض الفدائيين منهم ولي عهد النمسة وقرينته (في ٢٨ يونيو الماضي) في مدينة (بوسنه سراي) عاصمة البوسنه عند زيارتهما لها . وقد ثبت لدى حكومة النمسة والمجر ان هذه الجناية كانت أثر مكيدة دبرت في (بلغراد) عاصمة الصرب . وان بعض الضباط وعمال الحكومة من الصربيين هم الذين اعطوا الجناة ما كان معهم من السلاح والقذائف النارية ، وكلهم من جمعية صربية ثورية . فأرسلت حكومة النمسة والمجر بلاغ تهديد وانذار لحكومة الصرب مشتمل على مايرهقها ويذلها

فمما كلفتها اياه تصريحا أو ضمنا أن تعترف باشتراك بعض ضباطها وموظفيها في جناية قتل ولي العهد وزوجه ، وتتبرأ من عملهم وتصرح بالأسف لوقوعه — وان تنشر الاعتراف والبراءة في جريدتها الرسمية وجريدتها العسكرية ، — وان تتبرأ من

أعمال الجمعيات الصربية المحرضة على عداوة النمسة - وان تحل جمعية (نارونا) أو (ابرانا) — وان تضبط جميع المطبوعات الصربية المشتملة على التحريض على النمسة والتنفير منها لهذه الجمعية ولغيرها - وان تعزل جميع الضباط والمستخدمين الذين تثبت لدى حكومة النمسة تهمة تحريضهم على عداوتها — وان تعاقب الشركاء في جناية اغتيال ولي العهد من الصربيين المقيمين في بلادهم ، ومنهم بعض الضباط والموظفين المعينين بأسمائهم — ومنها ان تحذف من كتب التعليم كل ما يعد دعوة الى معاداة النمسة ، وتعزل المعلمين الذين يبثون هذه الدعوة - ومنها ان تمنع تهريب السلاح والمواد المفرقعة الى ماوراء الحدود - ومنها ان تقبل من تندبهم حكومة النمسة لمساعدة حكومة الصرب على تنفيذ هذه الاقتراحات

كتب إنذار النمسة في ٢٣ يوليو الماضي ، وكلفت الصرب ان تجيب عنه في مدة ٤٨ ساعة . أما الصرب فلم تقبل مطالب النمسة ، وبلغت الدول الانذار وطلبت منها التوسط في الأمر ، وأما الدول فقد اختلف رأيهن — فروسية عدت بلاغ النمسة وسيلة منها الى قتال الصرب وإذلالها ، وصرحت بأنها لاتسكت على ذلك . وبادرت الى مذاكرة فرنسة وانكلترة ومطالبتهما بالاتحاد معهما على الحرب والقتال ، فأسرعت فرنسة الى وعدها بالقيام بجميع عهودها التي تفرضها عليها المحالفة . ولكن انكلترة ترددت في الامر ، ولم تعد بالمساعدة على الحرب ، وطفقت تخاطب سفراءها بلسان البرق ، مجتهدة في رتق الفتق . وأما ألمانية فقد أظهرت العطف على حليفتها ، وارتأت وجوب حصر الخلاف بين النمسة والصرب دون سواهما ، حتى لايتعدى لهيب النار الى أوربة كلها ، وتبادل عاهل الألمان وقيصر الروس البرقيات في وجوب صيانة السلم في أوربة ، وصرح الأول للثاني بأن ذلك موقوف على عدم تصدي روسية للاستعداد للحرب . ولكن روسية بادرت الى تعبئة جيشها تعبئة عامة ، وبلغ ناظر خارجيتها سفير انكلترة ان عند حكومته براهين قاطعة على ان ألمانية تستعد برا وبحرا لمهاجمتها . فروسية بدأت بالتعبئة جهرا ، متهمة ألمانية بأنها تستعد سرا ، وأنها لاتدعها تسبقها في الاستعداد

والمتبادر مما دار بين الدول في هذه المسألة أن ماكانوا يقولونه ويكتبونه كان

له ظهر وبطن ، والظاهر منه أن انكلترة وفرنسة كانتا حريصتين على منع الحرب الأوربية. ولكن روسية وألمانية لم تدعا لهن طريقا يسلكانه لذلك . ففي ٢١ يوليو قر قرار الروسية على التعبئة العامة رسميا ، وألمانية وفرنسة امرتا بذلك في أول أغسطس . وأعلنت ألمانية الحرب على روسية في ٢ منه بناء على اجتياز بعض الجنود الروسية للحدود ، وتتايعت[1] سائر الدول الكبرى على الحرب ماعدا إيطالية فانها لزمت الحياد

ثم ان وراء الاسباب الرسمية للحرب أسبابا أخرى تقدمتها ترجع الى أصل واحد في السياسة ، وهو تعارض الدول الكبرى في المصالح والمنافع والسيادة والعظمة في الأرض ، فروسية ترمي الى ان تكون ذات السيادة العليا بضم عصبية الشعوب السلافية في البلقان والنمسة اليها ، والتوسل بذلك الى النفوذ من زقاقي الآستانة (البوسفور والدردنيل) الى البحر الابيض المتوسط ، الذي هو بين أوربة وآسية وافريقية بمنزلة القلب من جسد الانسان .

وألمانية تود أن تكون ذات السيادة العليا في أوربة كلها بل في العالم كله ، بالجمع بين القوتين البرية والبحرية ، على أكمل ما يصل اليه ارتقاء العلوم الطبيعية ، والفنون الآلية

وكانت انكلترة قد سبقت الدول كلها بالقوة البحرية التي جعلت لها السيادة العليا في الاستعمار ، فهي ترى انه يجب عليها أن تحافظ على ما آتاها الله بجدها وتدبيرها ، فكانت كلما رأت ألمانية أنشأت بارجة حربية تنشئ بارجتين مثلها .لانها إذا لم تفعل ذلك لاتلبث أن تسلبها ألمانية ملكها

وأما فرنسة فهي على ما كان لها من السبق في الفنون والأعمال الحربية ، من برية وبحرية ، لم تكن هذا في العهد الذي عظمت فيه المباراة بين انكلترة وألمانية ، مجتهدة في الاستعداد للحرب الاوربية بحسب ماتخولها ثروتها ومعارفها ، بل اكتفت من العظمة بتوسيع مساحة مستعمراتها ، بالاستيلاء على مملكة المغرب الأقصى بعد إضعافها ، بإيقاع الفتن والحروب الداخلية فيه . وانصرفت الى التمتع بسعة الثروة ونعمة الحضارة ، واكتفت من اتقاء زحف ألمانية عليها بتحصين حدودها . وبمحالفة

(١) التتايع بالمثناة التحتية بمعنى التتابع بالموحدة الا أنه خاص بالشر

روسية ثم مودة انكلترة لها ، فكانت تمدّ روسية بالقناطير المقنطرة من الذهب ؛ وتغريها بما يوافق هواها من الاستعداد للحرب ، وتوغر صدرها ، وتستثير دفين حقدها ، وتستخرج كمين ضغنها . على نمسة وألمانية معا . وكان من سياستها أن تعطي روسية المال الذي تقتضي الحال انفاقه على الاستعداد الحربي مباراة لألمانية — فتستفيد بذلك فائدتين — استغلال المال بدلا من اضاعته في زيادة أهبة الحرب ، وإعداد جند غريب للدفاع عن فرنسة بدلا من تعريض معظم شبانها للقتل ، مع مامنيت به من قلة النسل ، — ولكن انكلترة حملتها بعد الاتفاق معها على تعزيز قوتها البحرية ، كما حملت هي روسية على زيادة العناية بجميع المعدات الحربية .

بذلك كله اصبحت هذه الدول العريقة في العلم والصناعة ، والثروة والحضارة ، تنفق مئات الملايين مما تمصه من ثروة البشر وثمرات كسبهم . على الاستعداد لإراقة دمائهم ، وتدمير حضارتهم ، وكلها مشتركة في هذا الوزر الكبير ، ومصرة على هذا الحنث العظيم ، الذي لاباعث له الا الطمع في الكسب ، وحب العلو في الارض ، وان كانت تموهه بدعوى تأييد السلم بالاستعداد للحرب ؛ وعدم استعمال هذا السلاح في غير المتوحشين ، الذين تريد تهذيبهم بالمدنية والدين !!

وانما تراهم يخصون ألمانية أو عاهلها غليوم الثاني بمزيد الذم ، ويرمونه بتعمد اغراق أوربة في بحر من الدم ، لأن أمته قد صارت بسعيه أشد امم الارض عناية بالفنون والاعمال العسكرية ، واستعدادا للحروب البرية والبحرية ، حتى اضطرت سائر الدول اضطرارا لمجاراتها في ذلك . فاذا كانت ألمانية لم ترض من الدول التي سبقتها الى الاستعمار بمساواتهن لها في حرية التجارة والكسب في بلادهن ومستعمراتهن . ولا بما بذتهن به من النماء النسبي في تجارتها وصناعتها فقامت تستعد لسلبهن مافي أيديهن ، أو الاستعلاء عليهن ، — فكيف يرضين بأن يعرضن ملكهن للضياع والخضوع لقوة الشعب الجرماني العسكرية القاهرة ؟

هذه حجة الامم الاوربية على ألمانية التي ارادت ان تعامل الدول التي جارتها أو سبقتها بالحضارة ، بمثل ما عاملن به الامم التي غلب عليها الجهل والبداوة ، وهي السيادة بقوة العلم والصناعة . على ان الجرائد المصرية الرئيسة كالمقطم والاهرام نقلت

لنا عن لندن وباريس و بطرسبرج ان جميع الشعوب تلقت نبأ اعلان الحرب بالسرور والابتهاج ، والهتاف في الشوارع والاسواق ، بل استثنوا الشعب الالماني فزعموا أنه كاره للحرب ، مسوق اليها بتأثير العاهل غليوم الثاني والحزب العسكري . فان صح قولهم هذا — ولن يصح — فهو فضيلة لهذا الشعب على سائر الشعوب الاوربية . ولكنهم ارادوا ان يهونوا امره ، ويبالغوا في ذم عاهله ، فمدحوه بغير قصد ، وسيرجعون عن هذا المدح

حسبنا هذه الجملة الوجيزة من بيان أسباب هذه الحرب ومقدماتها ، ونختم المقال بعبرة المؤمنين بالله فيها ، فنقول ان هذه الحرب تربية من الله تعالى للبشر الذين بغي أقوياؤهم على ضعفائهم ، ولم يشكروا نعم الله عليهم بتسخير الطبيعة لهم ، وتمكينهم بسعة العلم بسننه فيها ، من جميع أنواع الانتفاع بها . بل كفروا هذه النعم بالبغي في الارض ، واستعلاء بعضهم على بعض ، حتى انهم حقروا أخاهم الإنسان الذي لم يصل الى درجتهم في العلم ، فجعلوه ـ وقد كرمه الله — أدنى منزلة من الحيوانات العجم ، فلو أنهم رأوا قطعا من الانعام أو أسرابا من الطير ، يفتك بعضها ببعض ، وتسرف في الظلم والعدوان ، كما فعل جيرانهم في البلقان ، لحالوا بينها ، ومنعوها من التمادي في ظلمها

أما وقد فعلوا مافعلوا ، ورضوا بما رضوا ، وجعلوا جل همهم الاستعداد لسفك الدماء ودك صروح العمران ـ فلا بد أن ينتقم الله تعالى منهم لكفرهم بنعمته ، ويزلزل قواهم بما استعلوا وبغوا به على الضعفاء من خلقه ، وكذلك فعل — فقد جعل الآلات الحربية التي بها يتحكمون وبالا عليهم ، وعذابا يأتيهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فتفتك بهم مناطيدهم وطياراتهم ، وبوارجهم وغواصاتهم ، وألغامهم وبنادقهم ومدافعهم ، وتفني من جموعهم . أكثر مما أفنوا من اخوانهم البشر بأيديهم . أو بمساعدتهم وإقرارهم . وأذاق بعضهم بأس بعض ، فجعل محالفاتهم واتفاقاتهم وبالا عليهم . وسببا لتعميم الانتقام بهم . فصدق قول الله الذي صدرنا به الكلام عليهم . وسيصدق وعده أيضا بجعل العاقبة للمتقين ، الذين يحررون الشعوب المظلومة من استعباد الظالمين ، وإنما يرحم الله الراحمين ، « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء »

الباب السابع (*)

من كتاب الاعتصام

﴿ في الابتداع : هل يدخل في الامور العادية أم يختص بالامور العبادية ؟ ﴾

قد تقدم في حد البدعة مايقتضي الخلاف فيه : هل يدخل في الامور العادية أم لا ؟ اما العبادية فلا اشكال في دخوله فيها ، وهي عامة الباب ؛ اذ الامور العبادية إما اعمال قلبية وامور اعتقادية ، وإما اعمال جوارح من قول أو فعل ، وكلا القسمين قد دخل فيه الابتداع كمذهب القدرية والمرجئة ، والخوارج والمعتزلة ، وكذلك مذهب الاباحة واختراع العبادات على غير مثال سابق ولا أصل مرجوع اليه ؛

واما العادية فاقتضى النظر وقوع الخلاف فيها وامثلتها ظاهرة مما تقدم في تقسيم البدع ، كالمكوس والمحدثة من الظالم ، وتقديم الجهال على العلماء في الولايات العلمية ، وتولية المناصب الشريفة من ليس لها باهل بطريق الوراثة ، واقامة صور الأئمة وولاة الأمور والقضاة ، واتخاذ المناخل وغسل اليد بالاشنان ، ولبس الطيالس ، وتوسيع الاكمام ، واشباه ذلك من الامور التي لم تكن فى الزمن الفاضل والسلف الصالح ، فانها أمور جرت في الناس وكثر العمل بها ، وشاعت وذاعت فلحقت بالبدع ، وصارت كالعبادات المخترعة الجارية في الامة ؛ وهذا من الادلة الدالة على ماقلنا ، واليه مال القرافي وشيخه ابن عبد السلام ، وذهب اليه بعض السلف.

*) تابع لما نشر في ص ٥٩٣

فروى ابو نعيم الحافظ عن محمد بن أسلم انه ولد له ولد — قال محمد ابن القاسم الطوسي — فقال : اشتر لي كبشين عظيمين. ودفع اليّ دراهم ، فاشتريت له واعطاني عشرة أخرى ، وقال لي : اشتر بها دقيقا ولا تنخله واخبزه — قال — فنخلت الدقيق وخبزته ثم جئت به ، فقال : نخلت هذا ؟ واعطاني عشرة أخرى وقال : اشتر به دقيقا ولا تنخله واخبزه . فخبزته وحملته اليه ، فقال لي : يا ابا عبدالله ! العقيقة سنة ، ونخل الدقيق بدعة ، ولا ينبغي ان يكون في السنة بدعة ، ولم أحب ان يكون ذلك الخبز في بيتي بعد ان كان بدعة . ومحمد بن أسلم هـذا هو الذي فسر به الحديث اسحاق بن راهويه حيث سئل عن السواد الاعظم في قوله عليه السلام « عليكم بالسواد الاعظم » فقال : محمد واصحابه . حسبما يأتي — ان شاء الله — فى موضعه من هذا الكتاب .

وأيضا فان تصور في العبادات، وقوع الابتداع وقع فى العادات ، لانه لافرق بينهما . فالامور المشروعه تارة تكون عبادية وتارة عادية ، فكلاهما مشروع من قبل الشارع ؛ فكما تقع المخالفة بالابتداع فى احدهما تقع في الآخر .

ووجه ثالث وهو أن الشرع جاء بالوعد باشياء تكون في آخر الزمان هي خارجة عن سنته ، فتدخل فيما تقدم تمثيله ، لانها من جنس واحد .

ففي الصحيح عن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انكم سترون بعدي اثرة وأمورا تنكرونها ـ قل فما تأمرنا يارسول الله ؟ قال ـ ادوا اليهم حقهم وسلوا حقكم » وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من كره من اميره

شيئا فليصبر » وفي رواية « من رأى من اميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فانه من فارق الجماعة شبرا فمات مات ميتة جاهلية »

وفي الصحيح ايضا «اذا أسند الامر الى غير اهله فانتظروا الساعة» .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يتقارب الزمان ، ويقبض العلم ، ويلقى الشح ، [1] وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج - قال : يارسول الله ايما هو ؟ قال - القتل القتل » . وعن ابي موسى رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ان بين يدي لأ ياما [2] ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم ، ويكثر فيها الهرج » والهرج القتل .

وعن حذيفة رضي الله عنه . قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين ، رأيت أحدهما وانا انتظر الآخر - حدثنا ان الامانة نزلت في جدر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة . وحدثنا عن رفعها ثم قال« ينام (الرجل) النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل اثرها مثل الولت [3] ثم ينام النومة فتقبض ، فيبقى اثرها مثل اثر المجل ، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شيء ، ويصبح الناس يتبايعون ولا يكاد احد يؤدي الامانة . فيقال : ان في بني فلان رجلا امينا . ويقال للرجل: ما اعقله ! وما اظرفه ! وما اجلده !وما في قلبه مثقال حبة خردل من ايمان » الحديث .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، يكون بينهما مقتلة عظيمة ،

(١) في رواية احمد والشيخين هنا زيادة « ويظهر الجهل »(٢) لعله : بين يدي الساعه ، وروي بلفظ « ان من ورائكم أياما » الخ رواه الترمذي وابن ماجه عنه
(٣) الولت بقية الماء او النبيذ او العجين في الاناء والقليل من المطر

دعواهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم انه رسول ، وحتى يقبض العلم — ثم قال — وحتى يتطاول الناس فى البنيان » الى آخر الحديث .

وعن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخرج في آخر الزمان احداث الاسنان ، سفهاء الاحلام ، يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يقولون من قول خير البرية ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية »

ومن حديث ابي هريرة رضي الله عنه انه عليه السلام قال « بادروا بالاعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا فيبيع دينه بعرض الدنيا » وفسر ذلك الحسن قال : يصبح محرما لدم اخيه وعرضه وماله ، ويمسي مستحلا له . كأنه تأوله على الحديث الآخر « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » والله اعلم .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان من اشراط الساعة ان يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزناء ويشرب الخمر ، ويكثر النساء ، ويقل الرجال ، حتى يكون للخمسين امرأة قيم واحد »

ومن غريب حديث علىّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا فعلت امتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء — قيل وما هي يا رسول الله ؟ قال — اذا صار المغنم دولا ، والامانة مغنما ، والزكاة مغرما ، واطاع الرجل زوجته وعق أمه ، وبر صديقه وجفا اباه ، وارتفعت الاصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم ارذلهم ، وا كرمَ

الرجل مخافة شره ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذت القيان والمعازف ، ولعن آخر هذه الامة أولها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء ، وزلزلة وخسفا ، او مسخا وقذفا »

وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه قريب من هذا وفيه « ساد القبيلة فاسقهم ، وكان زعيم القوم ارذلهم » وفيه « ظهرت القيان والمعازف » وفي آخره « فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع »

فهذه الاحاديث وأمثالها مما اخبر به النبي صلى الله عليه وسلم انه يكون في هذه الامة بعده إنما هو في الحقيقة تبديل الاعمال التي كانوا أحق بالعمل بها ، فلما عوضوا منها غيرها ، وفشا فيها كانه من المعمول به تشريعاً، كان من جملة الحوادث الطارئة على نحو مابين في العبادات .

والذين ذهبوا الى أنه مختص بالعبادات لا يسلمون جميع (1) الاولون.

أما ماتقدم عن القرافي وشيخه فقد مر الجواب عنه ،فانها معاصي في الجملة ، ومخالفات للمشروع ، كالمكوس والمظالم ،و تقديم الجهال على العلماء، وغير ذلك ؛ والمباح منها كالمناخل إن فرض مباحا- كما قالوا — فانما اباحته بدليل شرعي فلا ابتداع فيه ، وان فرض مكروها —كما أشار اليه محمد بن أسلم— فوجه الكراهية عنده كونها عدت من المحدثات ، اذ في الأثر : أول ما أحدث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المناخل - أو كما قال- فاخذ بظاهره من أخذ به كمحمد بن أسلم . وظاهره ان ذلك من ناحية

(1) كذا ولا بد ان يكون قد سقط من هنا كلام . ولعل أصله : لا يسلمون جميع ما قاله الاولون . او جميع ما ذهب اليه الاولون

السرف والتنعم الذي أشار الى كراهيته قوله تعالى (اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا) الآية [1] لا من جهة انه بدعة ؛

وقولهم : كما يتصور ذلك فى العبادات يتصور في العادات - مسلم ؛ وليس كلامنا فى الجواز العقلي ، وانما الكلام في الوقوع ، وفيه النزاع .

وأما ما احتجوا به من الاحاديث فليس فيها على المسئلة دليل واحد ، اذ لم ينص على أنها بدع أو محدثات أو مايشير الى ذلك المعنى ؛ وأيضاً ان عدوا كل محدث العادات بدعة ، فليعدوا جميع ما لم يكن فيهم من المآكل والمشارب والملابس والمسائل النازلة التي لاعهد بها فى الزمان الاول بدعا ، وهذا شنيع ؛ فان من العوائد ما تختلف بحسب الازمان والامكنة والاسم ، فيكون كل من خالف العرب الذين ادركوا الصحابة واعتادوا مثل عوائدهم غير متبعين لهم . هذا من المستنكر جدا ؛ نعم لابد من المحافظة في العوائد المختلفة على الحدود الشرعية والقوانين الجارية على مقتضى الكتاب والسنة ؛

وأيضا فقد يكون التزام [2] الواحد والحالة الواحدة أو العادة الواحدة تعبا ومشقة لاختلاف الاخلاق والازمنة والبقاع والاحوال ؛ والشريعة تابى التضييق والحرج فيما دل الشرع على جوازه ولم يكن ثم معارض . وانما جعل الشارع ما تقدم في الاحاديث المذكورة من فساد الزمان واشراط الساعة لظهورها وفشها بالنسبة الى متقدم الزمان ،

(١) لعل ابن اسلم يخص كراهة الدقيق المنخول بما كان اداء لسنة كالعقيقة ليفعلها كما كانوا يفعلونها (٢) بياض بالاصل لعل مكانه « الزي »

فان الخير كان أظهر، والشر كان اخفى وأقل، بخلاف آخر الزمان فان الامر فيه على العكس، والشر فيه اظهر والخير أخفى .

وأما كون تلك الاشياء بدعا فغير مفهوم على الطريقتين في حد البدعة فراجع النظر فيها تجده كذلك .

والصواب في المسئلة طريقة أخرى وهي تجمع شتات النظرين ، وتحقق المقصود في الطريقتين ، وهو الذي بني عليه ترجمة هذا الباب ، فلنفرده في فصل على حدته والله الموفق للصواب .

فصل

افعال المكلفين بحسب النظر الشرعي فيها على ضربين: احدهما ان تكون من قبيل التعبدات ، والثاني أن تكون من قبيل العادات . فاما الاول فلا نظر فيه هاهنا .

وأما الثاني — وهو العادي — فظاهر النقل عن السلف الاولين ان المسئلة تختلف فيها ، فمنهم من يرشد كلامه الى ان العاديات كالعباديات ، فكما انا مأمورون في العبادات بان لا نحدث فيها ، فكذلك العاديات — وهو ظاهر كلام محمد بن أسلم ، حيث كره في سنة العقيقة مخالفة من قبله في أمر عادي ، وهو استعمال المناخل ، مع العلم بانه معقول المعنى ؛ نظرا منه —والله أعلم— الى ان الأمر باتباع الاولين على العموم غلب عليه جهة التعبد . ويظهر أيضاً من كلام من قال : أول ما أحدث الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المناخل . ويحكى عن الربيع بن أبي راشد أنه قال : لولا اني أخاف من كان قبلي لكانت الجبانة مسكني الى

ان أموت . والسكنى [1] عادي بلا إشكال . وعلى هذا الترتيب يكون قسم العاديات داخلا فى قسم العباديات ، فدخول الابتداع فيه ظاهر . والاكثرون على خلاف هذا ، عليه نبني الكلام فنقول :

ثبت فى الاصول الشرعية أنه لابد في كل عادي من شائبة التعبد ، لأن مالم يعقل معناه على التفصيل من المأمور به أو المنهي عنه فهو المراد بالتعبدي ، وما عقل معناه وعرفت مصلحته أو مفسدته فهو المراد بالعادي ، فالطهارات والصلوات والصيام والحج كلها تعبدي ، والبيع والنكاح والشراء والطلاق والاجارات والجنايات كلها عادي ، لان أحكامها معقولة المعنى ، ولا بد فيها من التعبد ، اذ هي مقيدة بامور شرعية لاخيرة للمكلف فيها ، كانت اقتضاء أو تخييرا ، فان التخيير فى التعبدات إلزام ، كما ان الاقتضاء إلزام — حسبما تقرر برهانه في كتاب الموافقات — واذا كان كذلك فقد ظهر اشتراك القسمين في معنى التعبد ، فان جاء الابتداع في الامور العادية من ذلك الوجه ، صح دخوله في العاديات كالعباديات ، والا فلا .

وهذه هي النكتة التي يدور عليها حكم الباب ويتبين ذلك بالامثلة ، فما أتى به القرافي [2] وضع المكوس فى معاملات الناس ، فلا يخلو هذا الوضع المحرم أن يكون على قصد حجر التصرفات وقتاً ما ، أو في حالة ما ، لنيل حطام الدنيا ، على هيئة غصب الغاصب ، وسرقة السارق ، وقطع القاطع للطريق ، وما أشبه ذلك . أو يكون على قصد وضعه على الناس

---

(١) ربما سقط من هنا كلمة « أمر » (٢) لعله سقط من هنا كلمة « من جواز » أو « فى مسألة »

كالدين الموضوع والامر المحتوم عليهم دائما ، أو في أوقات محدودة ، على كيفيات مضروبة ، بحيث تضاهي المشروع الدائم الذي يحمل عليه العامة ، ويؤخذون به وتوجه على الممتنع منه العقوبة ، كما في أخذ زكاة المواشي والحرث وما أشبه ذلك .

فاما الثاني فظاهر انه بدعة ، اذ هو تشريع زائد ، إلزام للمكلفين يضاهي إلزامهم الزكاة المفروضة ، والديات المضروبة . والغرامات المحكوم بها في اموال الغصاب والمتعدين بل صار في حقهم كالعبادات المفروضة ، واللوازم المحتومة ، أو ما أشبه ذلك ، فمن هذه الجهة يصير بدعة بلاشك ، لانه شرع مستدرك ، وسن في التكليف مهيع ، فتصير المكوس على هذا الفرض لها نظران : نظر من جهة كونها محرمة على الفاعل ان يفعلها كسائر أنواع الظلم ، ونظر من جهة كونها اختراعا لتشريع يؤخذ به الناس الى الموت كما يؤخذون بسائر التكاليف ، فاجتمع فيها نهيان : نهي عن المعصية ، ونهي عن البدعة ؛ وليس ذلك موجودا في البدع في القسم الاول ، وانما يوجد به النهي من جهة كونها تشريعاً موضوعا على الناس أمر وجوب أو ندب ، اذ ليس فيه جهة أخرى يكون بها معصية ، بل نفس التشريع هو نفس الممنوع ؛

وكذلك تقديم الجهال على العلماء ، وتولية المناصب الشريفة من لا يصلح [1] بطريق التوريث ، هو من قبيل ما تقدم ، فان جعل الجاهل في موضع العالم حتى يصير مفتيا فى الدين ، ومعمولا بقوله فى الاموال

(١) اي لا يصلح لها

والدماء والابضاع وغيرها، محرم[1] في الدين . وكون ذلك يتخذ ديدنا حتى يصير الابن مستحقا لرتبة الاب — وان لم يبلغ رتبة الاب في ذلك المنصب — بطريق الوراثة أو غير ذلك، بحيث يشيع هذا العمل ويطرد ويرده الناس كالشرع الذي لا يخالف بدعة[2] بلا اشكال، زيادة الى القول بالرأي غير الجاري على العلم، وهو بدعة أو سبب البدعة كما سيأتي تفسيره ان شاء الله، وهو الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله «حتى اذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» وانما ضلوا واضلوا لانهم افتوا بالرأي إذ ليس عندهم علم.

وأما اقامة صور الأئمة والقضاة وولاة الامر على خلاف ما كان عليه السلف، فقد تقدم أن البدعة لا تتصور هنا، وذلك صحيح؛ فان تكلف أحد فيها ذلك فيبعد جدا، وذلك بفرض أن يعتقد في ذلك العمل انه مما يطلب به الائمة على الخصوص تشريعا خارجا عن قبيل المصالح المرسلة، بحيث يعد من الدين الذي يدين به هؤلاء المطلوبون به؛ أو يكون ذلك مما يعد خاصا بالأئمة دون غيرهم، كما يزعم بعضهم أن خاتم الذهب جائز لذوي السلطان، أو يقول: ان الحرير جائز لهم لبسه دون غيرهم، وهذا أقرب من الاول في تصور البدعة في حق هذا القسم.

ويشبهه على قرب زخرفة المساجد، اذ كثير من الناس يعتقد أنها من قبيل ترفيع بيوت الله، وكذلك تعليق الثريات الخطيرة الاثمان،

(١) قوله «محرم» خبر قوله «فان جعل الجاهل» (٢) «بدعة» خبر قوله «وكون ذلك»

حتى يعد الانفاق فى ذلك انفاقاً في سبيل الله ؛ وكذلك اذا اعتقد فى زخارف الملوك واقامة صورهم انها من جملة ترفيع الاسلام واظهار معالمه وشعائره ، أو قصد ذلك فى فعله أولا بأنه ترفيع للاسلام لما لم يأذن الله به ؛ وليس ما حكاه القرافي عن معاوية من قبيل هذه الزخارف ، بل من قبيل المعتاد فى اللباس والاحتياط في الحجاب مخافة من انخراق خرق يتسع فلا يرقع - هذا ان صح ما قال ، والا فلا يعول على نقل المؤرخين ومن لا يعتبر من المؤلفين ، وأحرى أن ينبني عليه حكم (١)

وأما مسئلة المناخل فقد مر ما فيها ، والمعتاد فيها انه لا يلحقها أحد بالدين ولا بتدبير الدنيا بحيث لا ينفك عنه كالتشريع فلا نطول به ؛ وعلى ذلك الترتيب ينظر فيما قاله ابن عبد السلام من غير فرق ؛ فتبين مجال البدعة فى العاديات من مجال غيرها ، وقد تقدم أيضاً فيها كلام فراجعه ان احتجت اليه .

*
* *

وأما وجه النظر في أمثلة الوجه الثالث من أوجه دخول الابتداع في العاديات على ما أريد تحقيقه ؛ فنقول : ان مدار تلك الاحاديث على بضع عشرة خصلة ، يمكن ردها الى أصول هي كلها أو غالبها بدع ؛ وهي قلة العلم وظهور الجهل ، والشح ، وقبض الامانة ، وتحليل الدماء والزنا والحرير والغناء والربا والخمر ، وكون المغنم دولا ، والزكاة مغرماً ، وارتفاع الاصوات في المساجد ، وتقديم الاحداث ، ولعن آخر الامة أولها ، وخروج الدجالين ، ومفارقة الجماعة .

(١) لعل الاصل « وأحرى الا ينبني عليه حكم »

أما قلة العلم وظهور الجهل فبسبب التفقه للدنيا ، وهذا إخبار بمقدمة أنتجتها الفتيا بغير علم ـ حسبما جاء في الحديث الصحيح « ان الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس » الى آخره — وذلك ان الناس لا بد لهم من قائد يقودهم في الدين بجرائمهم ، والا وقع الهرج وفسد النظام ، فيضطرون الى الخروج الى من انتصب لهم منصب الهداية ، وهو الذي يسمونه عالما ، فلا بد أن يحملهم على رأيه في الدين ، لان الفرض انه جاهل ، فيضلهم عن الصراط المستقيم ، كما انه ضال ؛ وهذا عين الابتداع ، لانه التشريع بغير أصل من كتاب ولا سنة . ودل هذا الحديث على أنه لا يؤتى الناس قط من قبل العلماء ، وانما يؤتون من قبل انه اذا مات علماؤهم أفتى من ليس بعالم فتؤتى الناس من قبله ؛ وسيأتي لهذا المعنى بسط أوسع من هذا ان شاء الله .

❊

وأما الشح فانه مقدمة لبدعة الاحتيال على تحليل الحرام ؛ وذلك ان الناس يشحون بأموالهم فلا يسمحون بتصريفها في مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم ، كالاحسان بالصدقات والهبات والمواساة والايثار على النفس . ويليه أنواع القرض الجائز ؛ ويليه التجاوز في المعاملات بإنظار المعسر ، وبالاسقاط كما قال (وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) ، وهذا كان شأن من تقدم من السلف الصالح . ثم نقص الاحسان بالوجوه الأول فتسامح الناس بالقرض ؛ ثم نقص ذلك حتى صار الموسر لا يسمح بما في يديه فيضطر المعسر الى أن يدخل فى المعاملات التي ظاهرها الجواز وباطنها المنع ، كالربا والسلف الذي يجر النفع فيجعل بيعاً في الظاهر ،

ويجري في الناس شرعاً شائعاً ، ويدين به العامة ، وينصبون هذه المعاملات متاجر . وأصلها الشح بالاموال وحب الزخارف الدنيوية والشهوات العاجلة . فاذا كان كذلك فالحري أن يصير ذلك ابتداعاً في الدين ، وأن يجعل من أشراط الساعة .

فان قيل : هذا انتجاع من مكان بعيد ، وتكلف لا دليل عليه .

فالجواب : انه لولا ان ذلك مفهوم من الشرع لما قيل به ، فقد روى أحمد فى مسنده من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا ضن الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعينة ، واتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاء فلا يرفعه حتى يراجعوا دينهم » ورواه أبو داود أيضاً وقال فيه « اذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لاينتزعه حتى ترجعوا الى دينكم »

فتأمل كيف قرن التبايع بالعينة بضنة الناس ، فأشعر بأن التبايع بالعينة يكون عن الشح بالاموال . وهو معقول فى نفسه ، فان الرجل لايتبايع أبدا هذا التبايع وهو يجد من يسلفه أو من يعينه فى حاجته ، الا أن يكون سفيها لا عقل له . ويشهد لهذا المعنى ماخرجه أبو داود أيضاً عن عليّ رضي الله عنه قال : « سيأتي على الناس زمان عضوض يعض الموسر على ما في يديه ، ولم يؤمر بذلك . قال الله تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) وينشد شرار خلق الله ، يبايعون كل مضطر . ألا ان بيع المضطر حرام ؛ المسلم أخو المسلم لا يظلمه .

ولا يخونه ، ان كان عندك خير فعد به على أخيك ، ولا تزده هلاكا الى هلاكه »

وهذه الاحاديث الثلاثة — وان كانت أسانيدها ليست هناك — مما يعضد بعضه بعضاً ، وهو خبر حق فى نفسه يشهد له الواقع . قال بعضهم : عامة العينة انما تقع من رجل يضطر الى نفقة يضن عليه الموسر بالقرض الا أن يربحه في المائة ما أحب ، فيبيعها ثمن المائة بضعفها أو نحو ذلك ، ففسر بيع المضطر ببيع العينة . وبيع العينة انما هو العين بأكثر منها الى أجل — حسبما هو مبسوط في الفقهيات — فقد صار الشح اذاً سبباً في دخول هذه المفاسد فى البيوع .

فان قيل : كلامنا في البدعة لا فى فساد المعصية ، لان هذه الاشياء بيوع فاسدة فصارت من باب آخر لا كلام لنا فيه .

فالجواب : ان مدخل البدعة هاهنا من باب الاحتيال الذي أجازه بعض الناس ، فقد عده العلماء من البدع المحدثات ، حتى قال ابن المبارك في كتاب وضع في الحيل : من وضع هذا فهو كافر ، ومن سمع به فرضي به فهو كافر ، ومن حمله من كورة الى كورة فهو كافر ، ومن كان عنده فرضي به فهو كافر . وذلك انه وقع فيه الاحتيالات بأشياء منكرة ، حتى احتال على فراق الزوجة زوجها بأن ترتد .

وقال اسحق بن راهويه عن سفيان بن عبد الملك : ان ابن المبارك قال في قصة بنت أبي روح حيث أمرت بالارتداد ، وذلك في أيام أبي غسان . فذكر شيئاً ، ثم قال ابن المبارك وهو مغضب : أحدثوا في

الاسلام، ومن كان أمر بهذا فهو كافر، ومن كان هذا الكتاب عنده أو في بيته ليأمر به أو صوبه ولم يأمر به فهو كافر - ثم قال ابن مبارك: - ما أرى الشيطان يحسن مثل هذا، ثم جاء هؤلاء فأفادها منهم فأشاعها حينئذ، وكان لحسنها[1] ولم يجد من يمضيها فيهم، حتى جاء هؤلاء.

وانما وضع هذا الكتاب وأمثاله ليكون حجة على زعمهم في أن يحتالوا للحرام حتى يصير حلالا، وللواجب حتى يكون غير واجب. وما أشبه ذلك من الامور الخارجة عن نظام الدين، كما أجازوا نكاح المحلل، وهو احتيال على رد المطلقة ثلاثا لمن طلقها، وأجازوا اسقاط فرض الزكاة بالهيئة المستعارة؛ وأشباه ذلك. فقد ظهر وجه الاشارة في الاحاديث المتقدمة المذكور فيها الشح، وانها تتضمن ابتداعا كما تتضمن معاصي جملة.

*

وأما قبض الامانة فعبارة عن شياع الخيانة؛ وهي من سمات أهل النفاق، ولكن يوجد في الناس بعض انواعها تشريعاً، وحكيت عن قوم ممن ينتمي الى العلم، كما حكيت عن كثير من الامراء؛ فان أهل الحيل المشار اليهم إنما بنوا فى بيع العينة على اخفاء ما لو أظهروه لكان البيع فاسدا، فاخفوه لتظهر صحته، فان بيعه الثوب بمائة وخمسين الى أجل[2] لكنهما أظهرا وساطة الثوب، وأنه هو المبيع والمشترى، وليس كذلك؛ بدليل الواقع.

وكذلك يهب ماله عند رأس الحول قائلا بلسان حاله ومقاله:

(١) لعل الاصل « ولو كان يحسنها لم يجد » الخ (٢) أين خبر «ان» ؟

أنا غير محتاج الى هذا المال وأنت احوج اليه مني . ثم يهبه ، فاذا جاء الحول الآخر قال الموهوب له للواهب مثل المقالة الاولى ، والجميع في الحالين ، بل في الحولين فى تصريف المال سواء ؛ أليس هذا خلاف الامانة ؛ والتكليف من أصله أمانة فيما بين العبد وربه ، فالعمل بخلافه خيانة .

ومن ذلك أن بعض الناس كان يحقر الزينة ويرد [1] من الكذب ، ومعنى الزينة التدليس بالعيوب، وهذا خلاف الامانة والنصح لكل مسلم. وأيضاً فان كثيرا من الامراء يحتاجون اموال الناس اعتقادا منهم أنها لهم دون المسلمين . ومنهم من يعتقد نوعا من ذلك فى الغنائم المأخوذة عنوة من الكفار ، فيجعلونها في بيت المال ، ويحرمون الغانمين من حظوظهم منها تأويلا على الشريعة بالمعقول . فوجه البدعة هاهنا ظاهر .

وقد تقدم التنبيه على ذلك في تمثيل البدع الداخلة في الضروريات في الباب قبل هذا — . ويدخل تحت هذا النمط كون الغنائم تصير دولا . وقوله « سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها — ثم قال — أدوا اليهم حقهم وسلوا الله حقكم » .

*

(لها بقية)

---

(١) كذا في الاصل

الأدب . وكلام الصوفية فيه (*)

فصل

وأما الادب مع الرسول صلى الله عليه وسلم فا قرآن مملوء به ، فرأس الادب معه كال التسليم له والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون ان يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولا ، أو يحمله شبهة أو شكا ، أو يقدم عليه آراء الرجال وز بالات أذهانهم ، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والاذعان ، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل ، فهما توحيدان لانجاة للعبد من عذاب الله الا بهما – توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول ، فلا يحاكم الى غيره ولا يرضى بحكم غيره ، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وامامه ، وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه ، فان أذنوا له نفذه وقبل خبره ، وإلا فان طلب السلامة أعرض عن أمره وخبره وفوضه اليهم ، والا حرفه عن مواضعه ، وسمى تحريفه تأويلا وحملا فقال : نؤوّله ونحمله . فلأن يلقى العبدُ ربه بكل ذنب على الاطلاق ماخلا الشرك بالله خير له من ان يلقاه بهذه الحال

ولقد خاطبت يوما بعض أكابر هؤلاء فقلت له : سألتك بالله لو قدّر ان الرسول صلى الله عليه وسلم حي بين اظهرنا وقد واجهنا بكلامه و بخطابه – أكان فرضا علينا ان نتبعه من غير ان نعرضه على رأي غيره وكلامه ومذهبه ؟ أم لا نتبعه حتى نعرض ماسمعناه منه على آراء الناس وعقولهم ؟ فقال : بل كان الفرض المبادرة الى الامتثال من غير التفات الى سواه . فقلت : فما الذي نسخ هذا الفرض عنا ؟ و بأي شيء نسخ ؟ فوضع أصبعه على فيه و بقي باهتا متحيرا وما نطق بكلمة

هذا أدب الخواص معه ، لا مخالفة أمره والشرك به ، ورفع الاصوات وازعاج الاعضاء بالصلاة عليه والتسليم ، وعزل كلامه عن اليقين ، وان يستفاد منه معرفة الله او يتلقى منه احكامه . بل المعول في باب معرفة الله على العقول المنهوكة المتحيرة

(*) نموذج من كتاب مدارج السالكين للامام العارف المحقق ابن قيم الجوزية . وقد اطال في بحث الادب مع الله تعالى ثم قال

المتناقضة ، وفي الاحكام على تقليد الرجال وآرائها . والقرآن والسنة انما نقرأهما تبركا ، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه . ومن طلب ذلك ورامه عاديناه وسعينا في قطع دابره واستئصال شأفته (بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون * حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون * لاتجأروا اليوم انكم منا لاتنصرون * قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامرا تهجرون * أفلم يدبروا القول ؟ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين ؟ * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون * ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ، بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون * أم تسألهم خرجا ؟ فخراج ربك خير وهو خير الرازقين * وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم * وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون)

والناصح لنفسه العاقل على نجاة نفسه يتدبر هذه الآيات حق تدبرها ، ويتأملها حق تأملها ، ويعرضها على الواقع يرى العجب ، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا « فالحديث لك واسمعي يا جارة » والله المستعان

ومن الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ان لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا اذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن ، كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدي الله ورسوله) وهذا باق الى يوم القيامة ولم ينسخ . فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته ، كالتقدم بين يديه في حياته ، لافرق بينهما عند ذي عقل سليم . قال مجاهد رحمه الله : لاتفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء حتى يقضيه الله على لسانه . وقال الضحاك لاتقضوا أمراً دون رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال ابو عبيدة : تقول العرب لاتقدم بين يدي الامام وبين يدي الاب . أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه ، وقال غيره : لا تأمروا حتى يأمر ولا تنهوا حتى ينهي .

ومن الادب معه أن لا ترفع الاصوات فوق صوته فانه سبب لحبوط الأعمال ، فما الظن برفع الآراء ونتائج الافكار على سنته وما جاء به ؟ اترى ذلك موجبا لقبول الاعمال ، ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها ؟

ومن الادب معه أن لايجعل دعاءه كدعاء غيره قال تعالى (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) وفيه قولان للمفسرين (أحدهما) أنكم لاتدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا بل قولوا: يارسول الله ! يانبي الله ! فعلى هذا المصدر مضاف الى المفعول، أي دعاءكم الرسول. (الثاني) أن المعنى لاتجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضا ان شاء أجاب وان شاء ترك، بل اذا دعاكم لم يكن لكم بد من اجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة. فعلى هذا المصدر مضاف الى الفاعل، أي دعاءه اياكم

ومن الادب معه انهم اذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد مذهبا في حاجته حتى يستأذنه، كما قال تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) فاذا كان هذا مذهبا مقيدا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه الا باذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين أصوله وفروعه دقيقه وجليله ؟ هل يشرع الذهاب اليه بدون استئذانه ؟ (فسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون)

ومن الادب معه أن لايستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الاقيسة وتلقى (١) لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول. ولا يوقف قبول ماجاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الادب معه صلى الله عليه وسلم، وهو عين الجرأة

فصل

وأما الادب مع الخلق فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم، فلكل مرتبة أدب، والمراتب فيها أدب خاص، فمع الوالدين أدب خاص، وللاب منهما أدب هو أخص به، ومع العالم أدب آخر، ومع السلطان أدب يليق به، وله مع الاقران أدب يليق بهم، ومع الاجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي انسه،

(١) ب «وتلغى»

ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته .

ولكل حال أدب - فللأكل آداب وللشرب آداب ، وللركوب والدخول والخروج والسفر والاقامة والنوم آداب، وللبول آداب ،وللكلام آداب ،وللسكوت والاستماع آداب .

وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه ، وقلة أدبه عنوان شقاوته و بواره ، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب ، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الادب

فانظر الى الادب مع الوالدين كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين اطبقت عليهم الصخرة ، والاخلال به مع الام تأويلا واقبالا على الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته ، وضرب الناس له ورميه بالفاحشة ، وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر كيف تجد قلة الادب هو الذي ساقه الى الحرمان ، وانظر قلة أدب عوف مع خالد كيف حرمه السلب بعد ان برد بيديه ، وانظر أدب الصديق رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة ان يتقدم بين يديه فقال : ما كان ينبغي لابن ابي قحافة ان يتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيف أورثه مقامه والامامة بالامة بعده ، فكان ذلك التأخر الى خلفه ، - وقد أومأ اليه ان اثبت مكانك - جمزا لا سعيا الى قدام، بكل خطوة الى وراء مراحل الى قدام تنقطع فيها اعناق المطي. والله اعلم

فصل

قال صاحب المنازل﴿ الادب حفظ الحد بين الغلو والجفاء بمعرفة ضرر العدوان﴾ هذا من احسن الحدود . فان الانحراف الى احد طرفي الغلو والجفاء هو قلة الادب، والادب الوقوف في الوسط بين الطرفين ، فلا يقصر بحدود الشرع عن تمامها ولا يتجاوز بها ماجعلت حدوداً له، فكلاهما عدوان والله لايحب المعتدين ،والعدوان هو سوء الادب. وقال بعض السلف : دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه ،فاضاعة الادب بالجفاء كمن لم يكمل اعضاء الوضوء ولم يوف الصلاة آدابها التي سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعلها ، وهي قريب من مئة ادب ما بين واجب ومستحب .

واضاعته بالغلو كالوسوسة في عقد النية ورفع الصوت بها، والجهر بالاذكار والدعوات التي شرعت سرا، وتطويل ما السنة تخفيفه وحذفه، كالتشهد الاول والسلام الذي حذفه سنة . وزيادة التطويل على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لا على ما يظنه سراق الصلاة والنقارون لها ويشتهونه ، فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمر بأمر ويخالفه، وقد صانه الله من ذلك. وكان يأمرهم بالتخفيف ويؤمهم بالصافات، ويأمرهم بالتخفيف وتقام صلاة الظهر فيذهب الذاهب الى البقيع فيقضي حاجته ويأتي أهله ويتوضأ ويدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركعة الاولى . فهذا هو التخفيف الذي أمر به ، لا نقر الصلاة وسرقها ، فان ذلك اختصار بل اقتصار على ما يقع عليه الاسم ويسمى به مصليا . وهو كأكل المضطر في المخمصة ما يسد به رمقه ، فليته شبع على القول الآخر . وهو كجائع قدم اليه طعام لذيذ جدا فأكل منه لقمة أو لقمتين فماذا يغنيان عنه ؟ ولكن لو احسّ بجوعه لما قام عن الطعام حتى يشبع منه وهو يقدر على ذلك ، لكن القلب شبعان من شيء آخر .

ومثال هذا التوسط في حق الانبياء عليهم السلام ان لا يغلو فيهم كما غلت النصارى في المسيح ، ولا يجفو عنهم كما جفت فيهم اليهود ، فالنصارى عبدوهم ، واليهود قتلوهم وكذبوهم ، والامة الوسط آمنوا بهم وعزروهم ونصروهم واتبعوا ماجاؤا به .

ومثال ذلك في حقوق الخلق ان لا يفرط في القيام بحقوقهم ، ولا يستغرق فيها بحيث يشتغل بها عن حقوق الله او عن تكميلها او عن مصلحة دينه وقلبه ، وان لا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية ، فان الطرفين من العدوان الضار ، وعلى هذا الحد ، فحقيقة الادب هو العدل ، والله اعلم

فصل

قال ﴿ وهو على ثلاث درجات ، الدرجة الاولى منع الخوف ان يتعدى الى اليأس(١) وحبس الرجاء ان يخرج الى الامن ، وضبط السرور ان يضاهي الجرأة ﴾

(١) ب «الاياس» وكذلك في نسخة المتن

يريد انه لايدع الخوف يفضي به الى حد يوقعه في القنوط والأياس من رحمة الله ، فان هذا خوف مذموم . وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : حد الخوف ماحجزك عن معاصي الله ، فما زاد على ذلك فهو غير محتاج اليه . وهذا الخوف الموقع في الاياس اساءة أدب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه ، وجهلٌ بها .

وأما حبس الرجاء أن يخرج الى الأمن ، فهو أن لا يبلغ به الرجاء الى حد يأمن معه العقوبة ، فانه لايأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . وهذا اغراق في الطرف الآخر ، بل حد الرجاء ما طيب لك العبادة ، وحملك على السير ، فهو بمنزلة الرياح التي تسير السفينة ، فاذا انقطعت وقفت السفينة ، واذا زادت ألقتها الى المهالك ، واذا كانت بقدر أوصلت الى البغية .

واما ضبط السرور ان يخرج الى مشابهة الجرأة ، فلا يقدر عليه الا الاقوياء ارباب العزائم الذين لا تستفزهم السراء فتغلب شكرهم ، ولا تضعفهم الضراء فتغلب صبرهم ، كما قيل :

لاتغلب السراء منهم شكرهم كلا ولا الضراء صبر الصابر

والنفس قرينة الشيطان ومصاحبته وتشبهه في صفاته ، ومواهب الرب تبارك وتعالى تنزل على القلب والروح ، فالنفس تسترق السمع ، فاذا نزلت على القلب تلك المواهب وثبت لتأخذ قسطها منها وتصيره ، من عدتها وحواصلها ، فالمسترسل معها الجاهل بها يدعها تستوفي ذلك ، فبينا هو في موهبة للقلب والروح وعدة وقوة له ، اذ صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعددها ، فصالت به وطغت لأنها رأت غناها به ، والانسان يطغى ان رآه استغنى بالمال ، فكيف بما هو أعظم خطرا وأجل قدرا من المال ، بما لا نسبة بينهما من علم أو حال أو معرفة او كشف ؟ فاذا صار ذلك من حاصلها انحرف العبد به - ولا بد - الى طرف مذموم من جرأة او شطح او ادلال ونحو ذلك ، ولله كم ههنا من قتيل وسليب وجريح يقول : من اين أتيت ؟ ومن اين دُهيت ؟ ومن اين اصبت ؟ واقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك أن يغلق عنه باب المزيد ، ولهذا العارفون وأرباب البصائر اذا نالوا شيئا من ذلك انحرفوا الى طرف الذل والانكسار ومطالعة عيوب النفس ، واستدعوا حارس الخوف ،

وحافظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس ، ونظروا الى أقرب الخلق من الله وأكرمهم عليه وأدناهم منه وسيلة وعظمهم عنده جاها ، وقد دخل مكة يوم الفتح وذقنه تمس قربوس سرجه انخفاضا وانكسارا وتواضعا لربه تعالى في مثل تلك الحال التي عادة النفوس البشرية فيها أن يملكها سرورها وفرحها بالنصر والظفر والتأييد ويرفعها الى عنان السماء ، فالرجل من صان فتحه ونصيبه من الله ، وواراه عن استراق نفسه وبخل عليها به ، والعاجز من جاد لها به ، فياله من جود ما أقبحه وسماحة ما اسفه صاحبها ! والله المستعان .

فصل

قال ﴿ الدرجة الثانية الخروج من الخوف الى ميدان القبض ، والصعود (١) عن الرجاء الى ميدان البسط ، ثم الترقي من (٢) السرور الى ميدان المشاهدة ﴾

ذكر في الدرجة الأولى كيف يحفظ العبد بين المقامات حتى لا يتعدى الى غلو أو جفاء ، وذلك سوء أدب . فذكر منع الخوف ان يخرجه الى اليأس (٣) والرجاء ان يخرجه الى الأمن ، والسرور ان يخرجه الى الجرأة . ثم ذكر في هذه الدرجة أدب الترقي من هذه الثلاثة الى ما يحفظه (٤) عليها ولا يضيعها بالكلية ، كما ان في الدرجة الاولى لا يبالغ فيها . فيكون خروجه من الخوف الى القبض ، يعني لا يزايل الخوف بالكلية ، فان قبضه لا يؤيسه ولا يقنطه ولا يحمله على مخالفة ولا بطالة ، وكذلك رجاؤه لا يقعد به عن ميدان البسط ، بل يكون بين القبض والبسط ، وهذه حال الكمال ، وهي السير بين القبض والبسط ، وسروره لا يقعد (٥) به عن ترقيه الى ميدان مشاهدته ، بل يرقى بسروره الى المشاهدة ، ويرجع من رجائه الى البسط ، ومن خوفه الى القبض . ومقصوده ان ينتقل من اشباح هذه الاحوال الى ارواحها ، فان الخوف شبح والقبض روحه ، والرجاء شبح والبسط روحه ،

(١) في ب « والقعود » (٢) وفيها « من » (٣) وفيها « الاياس » (٤) كتب في هامش ن « لعله يحفظها » وكان يجب أن يزيد كلمة « عليه » (٥) ب « يقصد »

والسرور شبح والمشاهدة روحه ، فيكون حظه (١) من هـذه الثلاثة ارواحها وحقائقها، لاصورها ورسومها .

فصل

قال ﴿ الدرجة الثالثة معرفة الادب، ثم الفناء (٢) عن التأدب بتأديب الحق ، ثم الخلاص من شهود اعباء الادب ﴾ قوله « معرفة الادب » يعني لا بد من الاطلاع على حقيقته في كل درجة ، وانما يكون ذلك في الدرجة الثالثة ، فانه يشرف منها على الادب في الدرجتين الاولين ، فاذا عرفه وصار له حالا فانه ينبغي له ان يفنى عنه ، بان يغلب عليه شهود من أقامه فيه فينسبه اليه تعالى دون نفسه ، و يفنى عن رؤية نفسه وقيامها بالادب بشهود الفضل لمن اقامه فيه ومنته ، فهذا هو الفناء عن التأدب بتأدب الحق. قوله « ثم الخلاص من شهود اعباء الأدب » يعني انه يفنى عن مشاهدة الأدب بالكلية لاستغراقه في شهود الحقيقة في حضرة الجمع التي غيبته عن الأدب ، ففناؤه عن الادب فيها هو الأدب حقيقة ، فيستريح حينئذ من كلفة حمل اعباء الأدب وأثقاله ، لان استغراقه في شهود الحقيقـة لم يبق عليه شيئا من اعباء الادب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) ن «حفظه » (٢) في نسخة المتن «الغنى»

البروغرام الصهيوني السياسي

﴿ بقلم الزعيم الصهيوني اوسيشكن ﴾

شرعت جريدة فلسطين بترجمة هذا الكتاب بالعربية ونشره تباعا فيها ، فرأينا ان ننقل بعض فصوله عنها بمناسبة ما نشرناه في الاجزاء الماضية عن الجنسية في البلاد العثمانية ، ولما فيها من العبر

الفصل الاول

ان المساعي التي بذلها الشعب الاسرائيلي للخلاص من منفاه بعدان مضى عليه فيه نحو الفي عام ، قد تحولت منذ ٢٥ سنة من حالة التفكير والسكون الى حالة الحركة والعمل ، وذلك لاعادة حياته السياسية الحرة في بلاد اجداده

ولقد كان مالاقاه اليهود من المذابح وما قاسوه من الاضطهادات في غربي روسيا من اكبر البواعث على اخراج هذه المجهودات من حيز الفكر الى حيز العمل . ومن يتتبع تلك المساعي يجد انها كانت تتغير وتتطور تبعا للظروف ومجاراة لما كان يضعه الزعماء من البروغرمات والخطط . فجمعيات «محبة صهيون» و«الصهيونية الروحية» و«الصهيونية السياسية» لم تكن الا وسائط مختلفة وطرقاً متعددة ترمي جميعها الى غاية واحدة وتوصل الى غرض واحد

– الصهيونية السياسية –

كل امة تسعى وراء كيان سياسي مستقل حر يجب عليها توصلا لغايتها هذه ان تراعي ثلاث حالات ضرورية : حالة الشعب – وحالة

البلاد — وحالة الظروف الخارجية

١ حالة الشعب : من الشروط الاولية لكل امة تسعى وراء الاستقلال السياسي والاقتصادي والادبي ان يكون شعبها على شيء من الاستعداد لذلك،كأن يكون ذا شعور قومي راق، وجمعيات قوية منظمة، ورؤس اموال كبيرة عمومية ، وصبر على احتمال المصاعب ، واهم من ذلك كله ان يكون مستعدا دائما لتضحية مصالحه الحاضرة امام الصالح العام المستقبل . فاذا كانت هذه الشروط جميعها لا توجد في الشعب ولم تبذل المساعي اللازمة لايجادها فيه، استحال على الامة ان تنشئ لنفسها مركزاً سياسياً حراً

٢ حالة البلاد : اما حالة البلاد أو الارض التي تريد الامة ان تستقل بها استقلالا سياسيا فيجب ان تكون ملكا لها بالفعل من الوجهتين الاقتصادية والعقلية، اعني ان تكون جميع قوى تلك الارض الحيوية في يد شعبها ، وان كانت الارض نفسها تحت سيادة غيره اسما . وان يكون للشعب بها علاقة روحية، وتكون تربتها مشبعة من دمه وعرق جبينه ، والا كانت غير صالحة للاستقلال

٣ حالة الظروف الخارجية : ثم لو فرضنا ان الشعب كان جامعا لكل شروط الاستقلال وكانت حالة البلاد موافقة له ، فاستقلاله فيها واعلان حكمه عليها، لا يتيسر له الا اذا ساعدته الظروف الخارجية أيضاً، لارتباط مصالح جميع الشعوب بعضها ببعض وإن تشعبت الطرق المؤدية اليها . ولذلك كان لا بد في كل حركة قومية من بروغرام سياسي تتمشى عليه لاجتناب ما ربما يقف في طريقها من العثرات، واقناع الحكام والمحكومين

باخلاص تلك الحركة وما ينجم عنها من الفوائد ، مع السعي في الوقت نفسه باستمالة الرأي العام الاجنبي ، واستخدام احسن ما فيه من القوى العقلية والانسانية لمنفعة تلك الحركة ، والا اصابها الفشل

الفصل الثاني

ان احسن بروغرام يجب السير عليه في كل حركة قومية تتطلب الخلاص والاستقلال هو العمل لها من الجهات الثلاث المذكورة. وبهذه الطريقة فقط تتقدم وتتقوى من يوم الى يوم ومن سنة الى اخرى . فيصلح حال الشعب ويسهل عليه امتلاك البلاد ، وتصبح الظروف الخارجية ملائمة له ، وتكون جميع القوى التي تملكها الامة قد استخدمت لفائدة تلك الحركة . فبينما تسعى جماعة مثلا لتكثير رءوس الاموال وافعام خزائن الشعب منها ، تكون غيرها ساعية وراء تعليم العامة وانماء مداركها وشعورها ، وبينما تكون جماعة ترود البلاد وتدرس حالتها ، تأتي اخرى لاستثمارها واستعمارها ، وبينما يقوم البعض بشرح رغبات الامة وغاياتها امام الشعوب الاجنبية ، يسعى آخرون بالتعارف مع الملوك والوزراء وما يترتب على ذلك من الامور السياسية. لان على مجموع هذه الاعمال المتفرقة التي يقوم بها الافراد والجماعات في جهات متعددة وفي وقت واحد يتوقف نمو الحركة ونجاحها .

وبالعكس فان النتيجة تكون عقيمة أو قليلة الفائدة[1] اذا حصر المسعى

(١) هذه عبارة تستعملها الجرائد على انها منطقية وما هي بمنطقية، ولكنها فاسدة . فالنتيجة لا تكون عقيمة وانما تسمى المقدمات التي ليس لها نتيجة صحيحة مقدمات عقيمة أي غير منتجة ، ولفظ العكس مستعمل في غير محله ايضا . والمراد من الكلام ان نتيجة ما يأمن السعي يكون ضد نتيجة ما تقدم

في جهة واحدة ، وبقيت قوى كثيرة مهملة بدون عمل . ومن المحتمل ايضاً ان يكون هذا العمل الناقص ذا نتائج محزنة في المستقبل، لان اقل عارض يطرأ عليه يوقف مجراه فيفقد العملة نشاطهم ومراكزهم ، وتقع عامة الشعب في أزمة شديدة ، وتصبح الحركة في طورحرج جدا، وفي ذلك من الاضرار مالا يخفى على احد .

أما اذا كان العمل مشتركا وفي جهات متعددة فخبوط جزء منه في جهة يعادله نجاح جزء آخر في جهة اخرى. وهكذا تبقى الحركة سائرة سيرا طبيعيا مطرداً

لنتصور الآن ان الظروف الخارجية كانت موافقة لرغبات امة ما ، تريد ان تجدد تاريخها وحياتها الاستقلالية في أرض ما ، ووافقت الحكومات والشعوب جميعها على رغبتها هذه ، ولم تجد مانعاً خارجيا يقف في سبيلها ، ولكن شعبها كان من جهته قليل الثقة بقواه الخاصة قليل الاستعداد لبلوغ الغاية التي ترمي اليها ؛ لا جمعيات منظمة لديه ، ولا اموال عمومية تساعده على اغتنام الفرص المهمة واستخدامها ، فماذا تكون النتيجة ؟ تكون النتيجة حينئذ ان تلك الفرصة المهمة التي سنحت تفوت ، وربما لا تعود في عدة قرون . ومثل هذه الفرص عرضت مرتين لليهود عند ما طردوا من اسبانيا في ايام الدوق جوزيف دي نكسوس فلم يستخدموها .

ثم لو تصورنا عكس ذلك ورأينا الشعب مستعدا للحياة الاستقلالية ولديه جميع الوسائط اللازمة وكانت البلاد في قبضة يده فعلا ولكن الظروف الخارجية كانت لا تساعده اولا تسمح له بالحصول على بغيته ، إما

لانه لم يهتم بها، واما لانها لم تكن على استعداد تام لقبول فكرته ، فماذا تكون النتيجة ؟ تكون النتيجة اذ ذاك ان الشعب يضطر الى ان يبقى تحت العبودية والنير في انتظار ايام احسن . ومثل هذه الحالة تنطبق الآن تماماً على حالة ارمينيا العثمانية التي وان كان استقلالها امراً لا بد منه، الا ان ذلك يطول مادامت الظروف الخارجية غير موافقة له .

على انا اذا وجدنا لما تقدم مثالا صعب علينا جدا ان نجد في التاريخ العام كله من اوله الى آخره حالة مفجعة اسوأ من حالة شعب ذكي متعلم راق كالشعب اليهودي هبّ لجمع شتات قواه وتنظيم رؤس أمواله ، وشعر بوجوب استمالة شعوب وحكام العالم أجمع لمساعدته والاخذ بيده ، فوجد بعد كل هذا العناء ان البلاد التي ينشدها وهي غاية امانيه ومطمح انظاره ومرمى مساعيه التاريخية بين ايدي شعب آخر يضارعه اجتهاداً ولا يقل عنه في مداركه الاقتصادية . ولذلك فانني [1] اشعر بوجل شديد وترتجف اعصابي عندما أتصور ان الشعب الاسرائيلي ربما وجد نفسه في مثل هذه الحالة يوما ما اذا ظلت مساعي بعض زعمائه منصرفة الى جهة واحدة. وحينئذ قل: السلام على تاريخه المملوء بالآلام والاضطهادات وعلى امانيه وموضوع احلامه وآماله ، وقل: السلام على مستقبله الذي أضرّ به جهل الزعماء ، اكثر من مساعي الاعداء

(١) يكثر مثل هذا التعبير في الجرائد وكتابة بعض المتاخرين — أعني الجمع بين لام التعليل وفاء السببية بهذه الصفة — وقد يكون المقام لاحدهما فقط . والاستعمال الفصيح في الجمع بينهما ان يقال . فلذلك اشعر بوجل شديد . فان حتيج الى التأكيد قيل : فانني لذلك أشعر بوجل الخ

الفصل الثالث

ان سبب قلة نجاح الحركة الصهيونية في الخمس وعشرين سنة الاخيرة يرجع معظمه الى النقص في العمل-فجمعية «محبة صهيون» لم تهتم في بحر عشر سنوات في غير امر البلاد وحالة الارض فقط، فلم تفكر في اعداد الشعب لها وانماء مداركه العقلية، ولا بانشاء رءوس اموال عمومية، ولم تعرف ان تحول هذه الحركة الى حركة رسمية سياسية، ولم تجرب ان تستميل اليها الدول الاجنبية، بل اكتفت بان تظهر في مظهر المحسن بانشاء بضع مستعمرات تعيش من مال الاحسان، ولذلك انتهت هذه المدة الاولى من تاريخ الصهيونية بازمة سنة ١٨٩١

على ان المدة الثانية التي تلت تلك الازمة وهي مدة انتشار الصهيونية الروحية لم تكن باسعد حظًّا من الاولى، فقد أهمل فيها امر البلاد كما أهمل في التي قبلها امر الظروف الخارجية. وبعد خمس سنين انصرفت في اثنائها جميع المساعي الى التعليم الداخلي وتنبيه الشعور العقلي فقط، نبغ عدد قليل جُلُّهُ من الخياليين، فلم يجدوا لما تعاموه فائدة محسوسة أو عملا ماديا، وبقي مجموع الامة جامدا، وأصبحت الحركة الصهيونية مهددة بالموت- الى ان عقد المؤتمر الاول فابتدأت به المدة الثالثة وهي عصر الصهيونية الذهبي، فبعثت الحركة من مرقدها ودبت في الامة روح جديدة، لانها وجدت في المؤتمر ضالتها، ووافقت قراراته هوى في نفسها.

ان جميع الصهيونيين الحقيقيين اصحاب الوجدان ومفكري الامة رأوا في بروغرام مؤتمر (بال) الاول ادغام البراغرمات السابقة باخرى جديدة حوت صفوة ما تقرر، وخلاصة رغبات الامة، ولاسيما في تصريحه جليا على

مسمع من العالم أجمع، باننا نجاهد لانشاء حكومة يهودية في فلسطين، وانه لابد لنا لنصل الى هذه الغاية من اربعة امور:

١ً – امتلاك فلسطين اقتصاديا وادبياً

٢ً – تنظيم قوى الشعب وانشاء رؤوس اموال عامة له

٣ً – انماء الشعور القومي في الشعب وترقيته

٤ً – السعي بكل طرق السياسية لجعل جميع الظروف الخارجية موافقة لنا. وفي الحقيقة ان الشجاعة الادبية التي اظهرها هذا المؤتمر في اعلان حقوق الامة الاسرائيلية على فلسطين، والخطة الجلية الصريحة التي رسمها لبلوغ هذه الغاية، والقوة المعنوية التي تجلت من خلال ابحاثه، – كان فعلها في الشعب اليهودي فعل المعجزات. فانهُ تنبه من سباته العميق، وفي كل محل بلغت اليه اخبار المؤتمر عقدت الاجتماعات، وألقيت الخطب، فأسست الجمعيات، وتألفت الشركات. ومنذ ذلك الحين اخذ العمل يتقدم بسرعة وبجدّ واجتهاد عظيمين، فاشتد ساعد الجمعية الصهيونيه وانشأت صندوق المال الملي، وانضمت لها قوى سياسية خارجية، وظهر لنا من نتيجة مقابلات الملوك والوزراء بان حركتها ستنمى وتتقوى على مرّ الايام

غير ان القريب من مركز ادارة هذه الحركة والواقف على ماجرياتها، يلاحظ في الحال ان الخطأ العظيم الذي كانت الصهيونية تتألم منه في مدتيها الاولى والثانية – واعني به قيادة الحركة من جهة واحدة فقط وتوحيد المساعي وصرفها وراء نقطة واحدة من نقط البروغرام – مازال يرتكب حتى الآن، وذلك بسعينا وراء العمل السياسي فقط لاجتناب العقبات الخارجية

اما الجهات الاخرى فلم يلتفت اليها بل اهملت بالكلية

فالامر الاول من بروغرام مؤتمر (بال) وهو امتلاك « فلسطين » اقتصاديا وادبياً كان من نتيجة قلة الاهتمام به ان اللجنة التي عينها المؤتمر للنظر في المسائل الاستعمارية لم تعمل شيئاً ، لانه لم يدخل صندوقها شيء من المال، ووجد مديرو هذه الحركة فى فلسطين انفسهم بعد ست سنوات أنهم لم يتقدموا خطوة الى الامام، بل ظلوا في ذات النقطة التي ابتدأوا منها

ثم ان الآداب الاسرائيلية لم تتقدم أيضاً تقدما محسوساً ، وكانت مسألة البحث فى احيائها تبدو في كل مؤتمر كشبح مرعب . والدليل على ذلك النجاح البطيء الذي صادفته اللغة العبرانية في السبع السنوات الاخيرة مع انها من اكبر العوامل على تنبه الشعور القومي

الفصل الرابع

ظهر مما تقدم ان ادارة العمل من جهة واحدة لا يمكن ان تأتي بالفائدة المقصودة ، ففي الوقت الذي كانت فيه مساعي الرؤساء جميعها منصرفة الى العمل السياسي ، كان بقية الاعضاء يطلبون بالحاح شغلا عملياً آخر ، ولكن هذا الشغل لم يكن موجوداً ، والعمل السياسي كما لا يخفى لا يصلح له الا رجال مخصوصون ، وهكذا أهملت نفسها التي عليها مدار الحركة، ولم يلتفت الى حفظ المواصلات معها، وارسال قوى جديدة اليها، كما انه لم يهتم احد للاعمال العقلية وتنبيه الشعور القومي، وجل ماعمل اذ ذاك كان منحصراً في جمع المال والقاء الخطب، - الى ان جاء المؤتمر الرابع. وهذا بدلا من ان يكون صهيونيا أي ان يهتم بقيادة الحركة فى الطريق

السويّ اقترح وضع بروغرام خلاصته : انشاء جمعيات للتعاون وجمعيات خيرية وجمعيات اسعاف لإطعام الجياع وصندوق للتسليف . فجعل للحركة الصهيونية دخلا في كل شيء حتى في جمعيات رجال المطافى الحرة ، فكانت النتيجة ان العزائم انحلت وشعر الناس بأن هذه الاعمال لاتصل بهم الى الغاية

ثم حدث ماهو انكى من ذلك فقداستقر في الاذهان أن الصهيونية السياسية رغم مابذلته من المساعي واستفادته من وعد الحكومات بمعاضدتها ، هي عاجزة عن تغيير طرق معيشة الشعب اليهودي واصلاح احواله وتحسين معاملته ودفع الحيف عنه في اكثر البلاد التي يقطنها ، ولذلك كان كل عمل الصهيونية في نظر الامة الاسرائيلية لايساوي شيئاً. وقد اصاب الناس في هذا الاعتقاد لان امورهم الاقتصادية كانت تزداد سوءا من يوم الي يوم ، والمهاجرين يغادرون بلادهم بالالوف ، والحرائق والمذابح والاضطهادات يتلو بعضها بعضاً ، والافواه تردد باصوات عالية قائلة : اعطونا عملا ، نريد شغلا . فلم يجدوا من الصهيونية مايحقق آمالهم فيها . وممازاد في الطين بلة على أثر ذلك قيام عثرة جسيمة في طريق سياستنا اضطرتها في سنتها السابعة ان توقف عملها مدة من الزمن فوقفت الحركة من جميع الجهات.

على ان وقوف دولاب الحركة هذا لم يكن ليضرها بمقدار ما اضرت بها فكرة بعضهم في استعمار اوغندا . وهي اعظم غلطة ارتكبت في مدة الخمس وعشرين سنة الماضية من تاريخ الصهيونية، لان الانظار تحولت

اذ ذاك الى هذه الوجهة . وانشقت الحركة الى قسمين ، وانتشبت الحرب بين الإخوة وتمزق العمل فكان من نتيجة ذلك حدوث ازمة هائلة . وبعد ان كان الصهيونيون قبل المؤتمر السادس اقوياء - لا في سياستهم او في اموالهم أو في جمعياتهم فقط بل في اتحادهم ووحدة مبدئهم - جاءت هذه الفكرة فهدمت ذلك الاتحاد الى سنين كثيرة، وزادت عليه فقضت بما احدثته من التأثير السيء على زعيمنا الاكبر هرتسل العظيم منشئ المؤتمرات، وذلك عندما رأى صروح عمله تنهار واتعابه تذهب أدراج الرياح .

ان الامة الاسرائيلية تجتاز الآن زمناً مخيفاً فقد اصبحت لا قائد لها ولا بروغرام ، واصبح افرادها لا ثقة للواحد منهم بالآخر ، والكل يجهل ماتؤدي اليه هذه الحالة . ومن يعلم ماذا يضمر لها المؤتمر السابع ، وهل هو يجري على خطة المؤتمر السادس ويتمم ما ابتدأ به من هدم جميع ما اشتغلنا فيه مدة ٢٥ سنة ؟ او هو يستخرج من اليأس قوة عظيمة فيسعى للتكفير عن تلك الزلة الهائلة التي ارتكبها المؤتمر السادس فيضع خطة جديدة لادارة العمل .

اني اريد ان اعتقد أنه سيختار الخطة الثانية لان السبيل الموصل اليها سهل هين، وهو الرجوع الي بروغرام مؤتمر بال بجملته ومافيه من الصراحة .

الفصل الخامس

ان النقطة الاساسية في بروغرام مؤتمر بال هي انشاء وطن سياسي حر مستقل للشعب الاسرائيلي في فلسطين . ويفهم من هذا بوضوح ان

الغاية الوحيدة من الحركة الصهيونية هي انشاء بلاد سياسية حرة مستقلة لليهود في فلسطين، لا ايجاد ملجأ او مركز روحي لهم، وقد ذكرت فلسطين ولم يذكر غيرها لان كل سعي يرمي الى بلاد غير فلسطين ليس هو من الصهيونية في شيء، واحر بالقائمين به ان لا يستظلوا بالعلم الصهيوني لنشر فكرتهم. ولذلك اصبح من واجب المؤتمر السابع ان يهدم ماوضعه اولئك المنافقون المتظاهرون بالصهيونية، ويزيد على بروغرام المؤتمر الاول كلمه واحدة لها معنى كبير وهي كلمة «فقط» أي «في فلسطين فقط» ويحتاط بمادة اخري يضيفها الى القوانين الاساسية الصهيونية تضمن لمجموعها عدم التنقيح والتغيير فيها

وهنالك أيضاً اشياء اخرى يجب على المؤتمر تقريرها. منها ان يصادق على طرق العمل التي وردت في المواد الاربع المذكورة في بروغرام مؤتمر بال. وان لا ينقص حرفاً منها ولا يزيد عليها شيئاً من شأنه ان يصرف الاذهان الى طرق أخرى كانشاء ملاجئ أو مستعمرات خيرية، فاذا عمل ذلك سهل عليه انهاض الحركة من كبوتها والقبض على ازمتها والسير بها في أقوم طريق. وهانحن أولاء نأتي الآن على شرح تلك المواد الاربع من بروغرام مؤتمر بال لا كما وردت بالترتيب ولكن بحسب درجاتها في الاهمية ومايتراآى لنا من سهولة تناولها. (له بقية)

[المنار]

لولم ينشر من هذا الكتاب الصهيوني الا هذه الفصول لكفت من يعتبر من العرب الفلسطينيين وغيرهم عبرة وبيانا لمقاصد هؤلاء الصهيونيين. وليعلم من لم يكن يعلم دين هذه الأمة وتاريخها أن الصهيونيين اذا تم لهم مايريدون فانهم لايبقون

« في أرض الميعاد » التي يؤسسون ملكهم الجديد فيها مسلما ولا نصرانيا . وليست أرض الميعاد أو فلسطين عندهم ما نسميه نحن الآن فلسطين فقط ، بل هي في عرفهم وتحديد كتبهم الدينية تمتد الى سورية حتى « النهر الكبير » أي نهر الفرات . فهذه بلاد لا يجوز عندهم أن يقيم فيها أحد غير الاسرائيليين . وفي سفر (تثنية الاشتراع) ان الرب أمرهم عند دخولهم فيها بعد خروجهم من مصر على يد موسى (ص) أن لا يستبقوا من أهلها نسمة مّا . ـ والنص في ذلك تجده في باب الفتاوى ـ نعم انهم لا يبيدون الآن من فيها من غير اليهود بالسيف والنار كما فعل اسلافهم من قبل ، بل يبيدونهم بقوتي الكيد والمال ، وهما قوتان لهذا الشعب الصغير ترهبهما كبرى الأمم والدول ، حتى ان دولة الروسية القوية القاهرة انشأت تستميل في هذه الايام يهود بلادها على قلتهم لئلا يحدثوا فيها أحداثا وفتنا داخلية تزلزل أقدامها في هذه الحرب التي تقتضي مصلحة الدول المحاربة فيها أن لا يكون لها شاغل داخلي يشغلها . فماذا عسى أن يفعل العرب أصحاب فلسطين من أسباب المحافظة على وطنهم وأملاكهم فيه على تفرقهم وجهل السواد الاعظم منهم بكنه الخطر وكنه قوة مزاحميهم ، وعلى جهلهم أيضا بالقوة أنفسهم و بطريق الانتفاع بها ؟

لا أقول إنه لا يمكن ن يعملوا ولكن أقول لابد من الروية والحزم وقوة الاجتماع ، ولا بد من المسارعة الى تنظيم وسائل الدفاع ، وليعلموا انه لا يكاد يوجد شعب من شعوب الارض غافل عن قوته واستعداده كالشعب العربي . فقوته واستعداده كامنان فيه كمون النار في حجر الصوان تحت الثلج ، فمن ذا الذي يزيل أو يذيب الثلج عن هذا الحجر الصلد ، وأين مقدحة الحديد التي تقدح النار من هذا الزند ؟ ستجيب عن هذين السؤالين الايام ، فان الجواب عنهما احداث وافعال لا أحاديث ولا كلام .

باب المراسلة والمناظرة

(تمثيل القصص)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى فضيلة الرشيد المرشد ، شائد منار السنة ، مولانا السيد محمد رشيد رضا ، أيده الله وأيد ثمرات مسعاه آمين

السلام عليكم ورحمة الله . إني أحمد اليكم الله الآمر بالتواصي بالحق ، وأصلي وأسلم على صفوة الخلق ، وآله وصحبه ألسنة الصدق

(أما بعد) فقد رأيت لفضيلتكم في الجزء السابع من المجلد السابع عشر من ناركم الاغر فتوى في حل التمثيل وحضوره عُـلّـل فيها الحل بأنه لانص على حرمته وليس ذريعة لفساد حتى يحرم سدا للذرائع ، فلا يحرم الا على من يغريه بمحرم ، مالم يكن موضوعه منكرًا بحيث يكون موضوع القصة الممثلة عملا محظورا فيحرم اذاً ، ولا عبرة بوجود نساء في موضعه كاشفات الرءوس والسواعد اذ الغالب أن يكن كافرات غير مخاطبات بالفروع ، وأن يكون الناظر لمقصود التمثيل فقط ، على أنهن كثيرًا ما يُرَينَ في الطرق على تلك الصفة فلا فرق بين رؤيتهن كذلك فيهـا ونظرهن بهذه الصفة في موضع التمثيل . هذا معنى ماجاء في جوابكم . وفيه أن كون التمثيل لانص على حرمته يرد بأن حضور النساء كاشفات على مامر مبديات زينتهن المبالغ في التأنق فيها جزء من التمثيل الغرامي وذلك محرم بنص (قل المؤمنين يغضوا من أبصارهم) (ولايبدين زينتهن) الآية . والنصوص المانعة من حضور المنكر والتسبب فيه . وعدم كونه ذريعة فساد يرد بأنا نعلم بالسبر أن الا كثر يتهافتون جدا على التمثيل الغرامي لا لشيء سوى وجود أولئك النساء ، بدليل أنهم لايعتنون كذلك بما لايحضرنه ، ونسمع الكثير يسألون عن حال الممثلات من حيث نحو الجمال قبل السعي الى التمثيل ، حتى لقد اتخذ هذا الضرب من التمثيل وسيلة لمحض التكسب به كثير من فاسدي الاخلاق الذين لايعقل أن يقصدوا تهذيب غيرهم ، وسمعنا

كثيرا غب مفارقة التمثيل يلهجون بوصف جمال الممثلات ورونق زينتهن ورخامة أصواتهن . وأنبأنا بعض من حضروا ذلك التمثيل ثم تابوا لما رأوا من سيئ أثره بأن من الحضور من كان مستصحباً نظارة تجعل الممثلة كأنها الى جنبه . وهذا مما يؤكد سوء أثر نظرهن ، وبالغ هذا المنبئ في سوء آثار حضور التمثيل المذكور وأنه لايكاد يسلم من ذلك أحد مهما كان ورعاً ، على أنه يحضره كثير ممن لاعناية لهم بالاخلاق ، ولا وازع يزعهم عن الاسترسال في مطلق الشهوات ، فيخرجون وقد استفحل الداء في نفوسهم ، واستولت الاضطرابات على قلوبهم ، وكون الكفار غير مخاطبين بالفروع مختلف فيه ومعتمد الشافعية والمالكية الخطاب لدخولهم في عموم الوعيد ولآية (ماسلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين) الخ ولئن سلم جواز السفور للكافرات لم يسلم جواز حضور مكانهن حال السفور مع نظرهن ، للامر بغض البصر وتحريم النظر لغير الوجه والكف بالسنة دون فرق بين مؤمنة وكافرة . وهو مقتضى حكمة تحريم النظر ، وهو كونه بريد الزنا — كما ورد — بل سمي في الصحيح زنا العين ، وقد أطلتم في بعض أبحاث المنار القول في مفاسد النظر بما يعلم به أن مفسدته تغلب مصلحة التمثيل الغرامي - ان كانت -

أما كون الناظر انما يلاحظ مقصود التمثيل ، فخلاف ماعهدنا في كثير . نعم من الناس من هو كذلك ولكن قليل ماهم . وأما التسوية بين نظر السافرات في مواضع التمثيل ونظرهن في الطرق فقد يرد بأن الماشي في الطريق غير مستقر في موضع فتصادفه منهن من تصادفه بدون قصد أو به ، مع شدة الحاجة الى المشي فيه ، ومع كون اللاتي فيه لا يتأنقن في الزينة تأنق الممثلات اللاتي يخترن من أجمل الطبقات ، ويعددن من الزينة ما تجلب به الرجال للتمثيل ويبالغن في ترخيم أصواتهن عند قراءة الاشعار الغرامية التي قد تحدث وحدها في النفس أثرا سيئا ، فما الظن اذا حدث من نسوة على هذه الصفات بهذا الترخيم على مرأى من الرجال الذين جبلوا على شدة الميل الى مثل ذلك ؟ فهذا كله يقتضي أن مفسدة مثل هذا التمثيل غالبة ، على أن لنا عما يقصد منه من الاعتبار والتهذيب غنى بآداب ديننا التي جاء بها القرآن والآثار وحكم العارفين ، فما بالنا نفزع في طلب العظة الى هذا الامر الذي

ضره أضعاف نفعه ؟ اني لأعتقد أن لتمثيل القصص الغرامية الحظ الاوفر في افساد أخلاق المصريين والمصريات ، الذين عرف بالاستقراء فرط شغفهم بالشهوات ، وتكالبهم على الزخارف وان كانت محظورات، وعدم مبالاتهم بالتهتك . ولذا كنت اود أن تفسحوا في ناركم الاغر مكاناً لانتقاد ذلك التمثيل والتنفير منه جدا مادام على غير صفة شرعية. والآن أرجو ابانة رأيكم بعدما ذكرت لكم ماعندي ليستبين الحق اتم استبانة لازلتم عضدا للحق والحقيقة ؟ (محمد زهران)

[المنار] ان ماذكره اخونا الكاتب من وصف التمثيل خاص بتمثيل القصص الغرامية المعهود بمصر، وهو مبني على السماع والمبالغة في دعوى براعة جمال الممثلات ورخامة أصواتهن وافتتان الرجال بهن . وكلام المنار السابق في التمثيل المطلق . ومنه مايقوم به الرجال وحدهم وما يقوم به نساء لسن من مظنة الفتنة في شيء . واذا ثبت ان التمثيل الذائع هنا مصدر للفتنة ، وذريعة للمفسدة ، فهو مما جزمنا بتحريمه في كلامنا السابق . ومن الغريب جعله آية نهي المؤمنات عن ابداء زينتهن نصا على وجوب ذلك على الكوافر بمعنى مطالبتهن به كالمسلمات ، وجعل هذا مذهبا للشافعية ! وانما المذهب ان الكفار يعاقبون على ترك فروع الشريعة في الآخرة بدليل آية المدثر التي ذكرها . بل قال «لعموم الخطاب» وانما الخطاب في الآية للمؤمنات ، وفي الرسالة مسائل أخرى قابلة للبحث والنقد ولا حاجة الى ذلك ، وحسبنا ان نقول ان حكم هذا التمثيل منوط بما فيه من المصلحة أو المفسدة والثاني هو الذي يحظر دون الأول

(المعازف — آلات اللهو)

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأستاذ الاوحد رافع منار الدين وحامي حوزته السيد محمد رشيد رضا الحسيني أنجح الله تعالى مساعيه واكثر في المسلمين من أمثاله

السلام عليكم ورحمة الله . اني أحمد اليكم الله الذي وفقكم لاجلّ الخدمات الاسلامية ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسائر القائمين بنصرة

الشريعة المحمدية

(أما بعد) فقد كنت منذ بدء اشتغالي بالعلم شديد التعطش الى معرفة الحق في مسألة آلات الملاهي فكنت أراجعها في كل كتاب تيسر لي من كتب المقلدين والمستقلين فلا يشفى لي غليل، حتى أتيح لي مراجعتها في نيل الاوطار مرارا فكاد يثلج صدري بتحقيق ذلك العالم الرباني، وكنت أقرأ في المنار الاسمى اجوبة اسئلة في هذا الشأن تحيل استيفاء البحث على اول اجزاء المجلد التاسع وتاليه فيشتد شغفي لاقتنائهما حتى تيسر ذلك، فأمتعت الفكر بمطالعة المبحث فيها فاذا حاصل مازدتموه على الشوكاني في نيل الاوطار ان رجحتم ادلة الاباحة على ادلة الحظر بموافقتها للبراءة الاصلية ومقتضى الفطرة وسماحة الدين وكونها صحيحة دون ادلة الحظر. وقولكم: ان ادلة الحظر تحظر المعازف والدف - منها قطعا - اي فتكون معارضة لاحاديث جواز الدف. فتقدم هذه لما مر - وقولكم: ان غناء النساء الثابت جوازه في الصحيح اشد الملاهي تأثيرا في النفس. أي فغيره أولى بالجواز - وقولكم عقب نقل كلام الشوكاني: ومعلوم ان نذر الحرام او المكروه لا ينعقد، وذا يبطل دعوى الشوكاني نهوض ادلة المانعين شبهة على المنع - وقولكم في حاشيتي صفحتي ٤٦ و ٤٧ من الجزء الاول بعد نقل كلام الشوكاني في رد الحافظ ابن حجر على ابن حزم في دعواه انقطاع حديث المعازف الذي في الصحيحين مانصه: ومنه تعلم ان الحافظ ابن حجر والشوكاني يعترفان بأنه لم يصح من الاحاديث الواردة في حظر آلات اللهو الا الحديث الاول مما اوردنا. - وزيادات أخرى أوردتموها في بحث القياس الفقهي في السماع وفي خلاصة البحث

أما ترجيح ادلة الجواز لموافقتها لاصل الاباحة ولمقتضى الفطرة ويسر الشريعة فانما يصح لو تعارضت ادلة الجواز وادلة المنع، ولا تعارض، اذ القاعدة الاصولية تقتضي تخصيص احاديث تحريم المعازف بغير ماصح في الاحاديث جوازه من الدف والغناء كما هو الشأن في تخالف العام والخاص. واذا لم يحرم الشافعية ما ذكر من الدف والغناء حيث أمنت الفتنة بالثاني، وخص المالكية جواز الدف في النكاح او كل سرور وقوفاً مع ظاهر الوارد. واری هذا قريباً واحوط

واما الترجيح بصحة ادلة الجواز وضعف مقابلها ففيه انكم اعترفتم تبعاً للحافظين بصحة حديث البخاري في المعازف ، وهو كاف في اثبات المنع غير انه يخص بأحاديث الدف والغناء كما مر ، وبذا علم ما في قولكم ان ادلة المنع تحظر المعازف والدف منها

واما كون غناء النساء اشد الملاهي تأثيرا في النفس فغير مسلم على العموم ، اذ ليس غناء كل امرأة اشد تأثيرا من كل لهو آخر ، بل كثيرا ما يكون صوت العود مثلاً أشد تأثيرا من غناء بعض النساء

على أنه بعد صحة الحديث بتحريم المعازف المراد بها غير الغناء والدف بدليل الاحاديث الاخرى لامساغ لهذا اذ لايجوز إلغاء حديث صحيح لمجرد توهم مخالفته لمقتضى القياس الاولوي على مافي حديث آخر، لا نه لاوثوق لنا بأن علية جوازها في هذا الحديث هي مافهمناه ، اذ لامانع من كون العلة شيئاً آخر لم يبلغه ادرا كنا ، فلماذا لانجمع بين الادلة ما امكن ونعمل بجميعها امتثالا لما أمرنا به من الاخذ بكل ما أتانا به الرسول (ص) ؟

وأما كون الامر بضرب الدف لمن نذره يدل دلالة واضحة على جواز الملاهي لعدم انعقاد نذر المنهي عنه — ففيه أن ذا انما يدل جليا على جواز ضرب الدف فقط فيخصص بذلك و بأحاديث الغناء حديث منع المعازف كما سبق فيبقى باقيها على المنع ، فكيف يقال: ان الامر المذكور قد منع نهوض أدلة المنع شبهة

وأما كون اقتصار الحافظ على رد تضعيف حديث البخاري في المعازف يدل على أنه يرى ضعف سائر الباب ففيه انه قد يكون سكوته عن بيان حالها لعدم علمه به لالعلمه بضعفها

وبعد فاني أرى ان ما استنتجه الشوكاني من كلامه الطويل من ان المقام مقام شبهة فقط لا يصلح نتيجة لبحثه فانه نقل أجوبة المجوزين عن حديث البخاري المعلق وردها ، فعلم منه أن الحديث حجة للمانعين ، وقد قال في خلال البحث ان الاحاديث ينهض مجموعها حجة لتعاضدها ، فقد نصر المانعين بحجتين سلمهما . وما احتج به للمجوزين من نحو عموم (ويحل لهم الطيبات) يرد بتخصيصه بتينك الحجتين

وبعد دلالة السنة على المنع لامساغ لمقاس فقهي ولا غيره الا قياس مع وجود دليل من كتاب أو سنة . فصفوة بحث الشوكاني نصرة المانعين وترجيح التحريم ، لا لمجرد ان المقام مقام شبهة

نعم قد يقال ان لفظ المعازف جمع محلى بأل وهو للعموم فمعنى استحلال المعازف استحلال جميعها حتى نحو الغناء المهيج على محرم فيكفي في تحقق معنى الحديث تحريم مثل ذلك ويكون هذا جمعاً مقبولا بين الادلة يتفق مع القياس الفقهي ومع الامور التي رجحتم بها أدلة الجواز

وقد يرد كون مجموع أحاديث الحظر غير الاول ينهض حجة بأن تعدد الاحاديث الضعيفة انما يقتضي بلوغ درجة الحسن اذا كان الضعف لنحو سوء حفظ الراوي لا لفسقه أو اتهامه بكذب والاول غير متحقق هنا فلا جزم بالحسن . ولو ان الشوكاني ذكر هذين النقضين لانتج بحثه ماذكره من أن الموضوع موضوع شبهة

فخلاصة بحث الفقير هو مارآه الشوكاني أخيرا من الاشتباه لامارأيتموه . وقد أطلعت فضيلتكم عليه كي تروه أو تردوه . ولي وطيد الامل ان تعيروا ذلك عناية تامة احقاقاً للحق ، وازالة للثام الشبهة عن وجهه ، لابرحتم علما للمهتدين ، ونبراساً للمستضيئين ؟

محمد زهران

خادم العلم الشريف ببندر المحمودية (بحيرة)

وأحد مشتركي المنار الاغر

[المنار]

يؤخذ من لسان العرب وغيره من المعاجم ان العزف يطلق في اللغة على اللهو وعلى اللعب وعلى بعض الاصوات كالغناء والنواح والرعد والريح ، وصوت الرمل اذا هبت بها الريح ، وقيل ان هذا هو الذي كانت العرب تطلق كلمة « عزيف الجن » على مايسمع منه في الليل . ويطلق بكثرة على الدف أوصوته . والعزيف الصوت . قال في اللسان : عزف يعزف عزفا لها . والمعازف الملاهي . واحدها معزف ومعزفة . وعزف الرجل يعزف اذا أقام في الاكل والشرب . وقيل واحد المعازف عزفة على غير قياس . ونظيره ملامح ومشابه في جمع شبهة ولمحة ؛ والملاعب التي يضرب بها

يقولون للواحد والجمع معازف رواية عن العرب . فاذا افرد المعزف ضرب من الطنابير ويتخذه أهل اليمن . وغيرهم يجعل العود مِعزفا . وعزف الدف صوته . وفي حديث عمر انه مر بعزف دف فقال ماهذا ؟ قالوا ختان . فسكت . العزف اللعب بالمعازف وهي الدفوف وغيرها مما يضرب به .. وكل لعب عزف اه المراد

فمن تأمل هذه المعاني يعلم انها هي التي كانت تراد من العزف والمعازف في عصر النبي (ص) ولم يصح نص بتحريم شيء منها ، وكان اشهر آلات الملاهي في في ذلك العصر الدف -- وقد ثبت في السنن العملية والقولية إباحته واستحبابه في بعض الاوقات كالعرس . وسائر آلات اللهو التي لم تكن في ذلك العصر معروفة أو مشهورة يصح إطلاق لفظ المعازف عليها كما يصح إطلاق لفظ الخمر على المسكرات التي حدثت بعد عصر الوحي وان لم تكن تخطر هذه ولا تلك في بال من كان يطلق اللفظ قبل وجودها . ولو جاء في الكتاب أو السنة نص صريح في تحريم المعازف لكان أول مايتبادر الى فهم الصحابة منه تحريم ما كان ذائعا في عصرهم منه كالدف . ثم يلحق به غير الذائع وغير المعروف عندهم بعموم اللفظ اذا كان الوضع اللغوي يساعد على ذلك ، أو بطريق القياس اذا اتحدت العلة .

وقد علمنا من عبارة لسان العرب ان تسمية العود معزفا ليس متفقا عليها . ولو كان المشهور من المعازف التي كانت في عصره (ص) محرما لورد النص عليه في الكتاب أو السنة المشهورة لتوفر الدواعي على نقل ذلك واشتهاره . ولم يصح حديث مشهور ولا دون المشهور في التنصيص على تحريم شيء منها ، بل صح مايدل على الإباحة كما يعلم اخونا الباحث المنتقد . واشتهر عن بعض كبار الصحابة والتابعين وأئمة الحديث كرواة الصحيحين والسنن أنهم كانوا يبيحون الغناء والاوتار لا الدفوف فقط . وكان جمهور هؤلاء من أهل المدينة الذين هم أجدر الناس بمعرفة السنن المتبعة في عصر النبي (ص)

أما الحديث الذي هو موضوع البحث والسؤال فليس نصا ولا ظاهرا في إنشاء حكم تحريم المعازف ولا خبرا بمعنى إنشاء ذلك . وانما هو حديث آحادي في الإخبار عن شيء يقع في المستقبل ، كالأحاديث في اشراط الساعة واماراتها الواردة

في سياق الكلام عن الساعة . أو في مناسبات أخرى : كحديث ابي هريرة عند احمد ومسلم « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد — قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، على رءوسهن كأسنمة البُخت . لايدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » فهذا الحديث ليس إنشاء لتحريم حمل السياط التي تشبه أذناب البقر (وهي التي نسميها الكرابيج) وضرب الناس بها ، ولا لتحريم كل وصف من أوصاف النساء التي فيه . ولكنه يدل ضمنا على ان كلا من الصنفين يتلبس بمحرم يستحق به عذاب الله تعالى . ان لم يكن في جزئيات ماوصف به ففي جملتها ومجموعها . ولا بد ان يكون لتلك المحرمات أدلة تدل عليها من شرع الله تعالى في غير هذا الحديث .

فأنا أفهم حديث المعازف الذي نتكلم فيه — كما أفهم هذا الحديث : أفهم ان حديث ابي هريرة يبين حال رجال من الظلمة يحملون نوعا من السياط يضربون بها الناس بغير حق ، لانهم أنشؤا لأنفسهم شريعة في عقاب المذنبين اليهم بذلك . فحمل السياط التي تشبه أذناب البقر ليس محرما اذ لادليل على تحريمه ، وضرب الناس بها اذا كان في اقامة حد الله تعالى على الوجه المشروع ليس محرما أيضا . ولكن ضرب الكرابيج الذي كان معهودا بمصر محرم شرعا لأنه من الظلم البين، وحرمته معلومة من الدين بالضرورة . وكذلك النساء الكاسيات العاريات بما يلبسن من الشفوف التي تحكي ماتحتها من البدن ، لادليل في الشريعة على تحريم هذا منهن اذا فعلنه امام أزواجهن فقط ، ولك ان تقول مثل هذا في سائر أوصافهن في في الحديث . ولكن وجد في هذا العصر نساء يبرزن بهذه الصفات مع الاجانب، وقد فسدن وافسدن بذلك كثيرا من الناس ، فكل أفعالهن هذه محرمة بلا ريب .

وعلى هذا النحو ومثل هذا الفهم أفهم حديث أبي عامر او أبي مالك « ليكونن قوم من أمتي قوم يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف » معناه سيوجد من أمتي قوم يغلب عليهم الجهل بالدين أو التأويل للنصوص حتى توافق أهواءهم ، فيقعون في الحرام معتقدين بالجهل أو بالتأويل انه حلال ، كاستحلالهم الفروج بالمحلل من

الطلاق الثلاث ، وبالتسري بالحرائر اللواتي يبيعهن آباؤهن أو يختطفن من بلادهن ، وكذلك يستحلون لبس الحرير الذي هو منتهى الزينة التي لاتليق الا بالنساء باعتقاد ان المحرم منه ما كان حريرا خالصا ، وما يلبسونه مشوبا بقطن أو كتان — مثلا — ويستحلون الخمر التي يستحدثونها بدعوى ان المحرم لذاته منها ما كان من عصير العنب ، ولا يحرم من غيره الا القدر المسكر الذي لايميز شاربه السماء من الارض — مثلا — ويستحلون المعازف المستحدثة على الوجه الذي بين في رواية الحديث الأخرى « يعزف على رءوسهم بالمعازف والمغنيات » والمراد بالمغنيات هنا القيان المشار اليهن في حديث علي وابي هريرة عند الترمذي في الخصال الخمس عشرة التي يترتب عليها نزول البلاء بهذه الامة قبل الساعة ومنها « وظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور » فالمراد من ذلك شيء لم يكن في زمنه (ص) مع العلم بأن كل هذه المفردات كانت موجودة ، وهو مااستحدثه بعض الفساق من الجمع بين العزف والغناء وشرب الخمر ، ويدل عليه قول بعض علماء اللغة في تفسير القينة وهو ان المراد بها الجارية البيضاء التي تغني للرجال في مجلس الشرب . فاقتران المعازف بالقيان وشرب الخمر هو المخبر عنه بأنه من أسباب حلول البلاء وان لم يذكر ذلك في كل رواية للحديث — وهو حديث واحد لايعرف المراد منه الا بعد معرفته كله — وكثيرا مايكون الاقتصار على بعض ألفاظ الحديث سببا لجهل المراد منه . ومثله في هذا الحديث « وأطاع الرجل امرأته وعق أمه وأدنى صديقه وأقصى أباه » فإطاعة المرأة وإدناء الصديق ليس منكرا في الدين وانما كان أنكر باعتبار اقترانه بعقوق الام وإقصاء الأب . أو فهم منه ان اطاعة المرأة وإدناء الصديق في اتباع الهوى والمنكرات .

وجملة القول إنني أفهم الحديث الذي نحن بصدد البحث فيه كما أفهم أمثاله مما ورد في أنباء المستقبل التي أخبر بها النبي (ص) فأجزم بأنها ليست تشريعا وانما هي أخبار بأشياء ستحدث بعده فما دل منها على تحريم شيء عرف في شرعه دليل تحريمه فالأمر فيه ظاهر من هذه الجهة ، وما دل على تحريم شيء لايعرف فيه دليل على تحريمه فلا بد ان يكون ما أخبر به (ص) سيقع على وجه محرّم ، وان يكون عنى به وقوعه على ذلك الوجه ، كحديث الرجال الذين بأيديهم سياط

كأذناب البقر الخ وغيره .

فهذه الاحاديث لايقع التعارض والترجيح بينها وبين نصوص الكتاب والسنة في التحليل والتحريم كما فعل الباحث اذ جعل السنن العملية والقولية التي صحت في اباحة المعازف والغناء مخصصة لعموم لفظ المعازف في حديث « ليكونن أناس من أمتي » كأنه هو الاصل في تحريم ماذكر، وكأن النبي (ص) أراد بما سمعه وما أجازه وأقره أو ندب اليه من سماع الدفوف والغناء في الوقائع المختلفة تخصيص ذلك العموم ، وجعل ما كان يقع في عصره من عزف الناس وسماعهم بسائق الفطرة استثناء من ذلك الأصل التشريعي العام ! ولا يفهم هذا الفهم ويقول هذا القول ذو ملكة عربية الا اذا حصر نظره في تحكيم قواعد أصول الفقه في أمرين أحدهما لفظ يدل على حرمة المعازف مطلقة وثانيهما لفظ أو عمل يدل على إباحة بعضها . فهو يعد الأول بمعنى « حرمت عليكم المعازف » أو « اجتنبوا المعازف » أما اذا نظر في أسلوب الحديث وسياقه الذي بيناه وقارنه بأمثاله من الاحاديث فانه يجزم بما جزمنا به . ويعلم أن تحريم الشيء ابتداء وجعله حكما شرعيا لايكون بمثل تلك العبارة ، وناهيك بشيء من مقتضى الفطرة عهد من الناس في كل زمان ومكان . فلو أراد الشارع تحريم مثله لحرمه بنص صريح يبلغه جمهور الأمة ، وتتوفر الدواعي على نقله بالتواتر أو الاستفاضة

فعلم مما شرحنا ان هذا الحديث لم يقصد به تحريم ماذكر وانما قصارى مايدل عليه انه سيوجد قوم يسرفون في ذلك اسرافا مقترنا بالفساد ، وبمنكرات قبيحة محرمة بنص الكتاب ، كشرب الخمر وتهتك القيان ، وانهم يستحلون ذلك بعد معازفهم الإفسادية من قبيل المعازف التي أباحها الشرع لترويح النفس في بعض الأحايين ، أو السرور بنعمة الله في أيام الأعياد والأعراس وقدوم المسافرين ، من غير ان يقترن بها منكر من المنكرات المحرمة في الدين . كما يستحلون بعض الخمور بعدّها من قبيل النبيذ المباح الذي هو نقيع نحو التمر والزبيب في الماء الذي لم يختمر فيصير مسكرا . وما شدد من شدد من الفقهاء في إطلاق تحريم السماع إلا لمثل هذه المفاسد التي فتن بها المغرمون به حتى صارت من لوازمه عندهم . وما

أنكرعليهم من أنكر من المحدثين والفقهاء والصوفية الا تعميم التحريم . وتكلف الاستدلال عليه بالآيات والاحاديث ، ولم يسلم لهم دليل مما استدلوا به . كما يعلم من الكتب المؤلفة في إباحته ومن مثل نيل الاوطار والاحياء وشرحه

والقول الفصل ان الاصل في العزف والمعازف (ومنه الغناء واللعب) الحل . وانه ورد في السنة مايؤيد هذا الاصل كلعب الحبشة في المسجد وغناء الجواري وسماع الدف والاذن به ، وان الحرمة تعرض لبعض ذلك ، كما يعرض لبعضها الاستحباب ، ولايبعد ان تصل معازف الحرب الى درجة الوجوب اذا كانت الحرب شرعية ، فقد ثبت بالتجارب المتعددة المفيدة للقطع أن معازف الحرب التي يسمونها « موسيقى » تنشط المقاتلين وتحفز هممهم وتزيد في ثباتهم وإقدامهم وجرأتهم ، وتزيل الشعور بالتعب والمشقة أو تخففه عنهم ، كما يفعل الحداء بالابل . فاذا كان الثبات والاقدام من الواجبات بنص قوله تعالى (فاثبتوا) و بعموم الادلة الاخرى ، فقد تكون المعازف في بعض الاحيان داخلة في قاعدة « مالايتم الواجب الا به فهو واجب »

هذا وان من أصول دين الفطرة ، والشريعة السمحة ، الثابتة بالنصوص القطعية ، والمعلومة من الدين بالضرورة ، ـ أصل اليسر وتنفي الحرج ، وعدم تحريم شيء على الناس الا لضرره ، ورفع الإصر والاغلال عن الأمم التي كانت قبله ، حتى ان النبي (ص) علل أمره للحبشة باللعب في مسجده باظهار هذه المزية في الاسلام

أفنهدم هذه الاصول الثابتة، والقواعد الراسخة ، ونستنبط من حديث آحادي روي بالمعنى في سياق الاخبار عن المستقبل ، وذكر بعض الرواة من ألفاظه وقيوده مالم يذكره غيره، ـ أن الأصل في آلات اللهو ان تكون محرمة في الاسلام وان وجدت بباعث الفطرة عند جميع الامم ، ولم تحرمها قبله الاديان الالهية في ملة من الملل ، ثم نفرع عن هذا الاصل أن إباحة كل آلة منها تحتاج الى نص من الشارع يخصص ذلك الاصل العام ، ان لم يمكن تأويله وتطبيقه عليه كما فعل المشددون ؟ كلا ان الامر بالعكس كما تقدم ، ولا سبيل الى تحريم شيء من ذلك بخصوصه ، وانما نجزم بحرمة مافيه مفسدة ظاهرة من سماع الفساق وعزفهم الذي نراه في عصرنا مصداقا للحديث ، وبهذا الشرح نستغني عن بيان رأينا في سائر مباحث هذه الرسالة

باب الاخبار والاراء

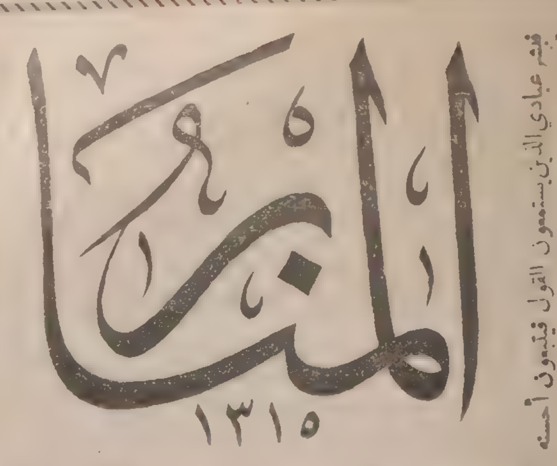
(الحرب الأوربية . والدولة العثمانية)

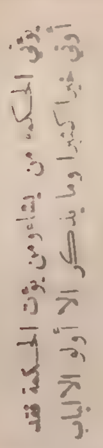
كان أخوف منخاف على دولتنا قبل هذه الحرب اتفاق الدول الكبرى على تقسيم بلادها الى مناطق نفوذ اقتصادي، يتبعه النفوذ السياسي، فتمهد كل منهن السبل في منطقتها ، للاستيلاء التام عليها ، وتنتظر الفرص لاعلان امتلاكها ، وكنا قد رأينا بوادر هذا الاتفاق ، ومنها الاتفاق ، مع فرنسة على منافعها في سورية ومع انكلترة على العراق . بازاء ما لألمانية من الحقوق بامتياز سكة الحديد بين الاستانة وبغداد .

أما وقد وقع بين تلك الدول ما كانت تتمخض به حوادث الاعصار وتشخص لرؤية أهواله الأبصار ، فقد سنحت لها فرصة لم شعثها ، وتوفير ثورتها ، وجمع كلمة شعوبها ، واعداد وسائل الدفاع الوطني في بلادها . وازالة ما للاجانب من النفوذ والامتياز فيها ، مع حفظ حقوقهم ، وتأمينهم على أنفسهم وأموالهم ، بحيث تكون مستقلة في داخليتها حق الاستقلال ، ولا تكون دون الجبل الاسود والبلغار واليونان ، وما شرعت فيه من الاستعداد العسكري وتعبئة الجيش المنظم يجب أن تراعي فيه الاقتصاد . وتجعله وسيلة للاستفادة من الحياد ، ولا شك ان الامة كلها تشدأزرها في ذلك « وعند الشدائد تذهب الاحقاد »

هذا ما نراه وما يراه كل من نعرف من العقلاء الذين ذاكرناهم في هذه المسألة من عرب وترك وغيرهما . وانا لنعلم مع ذلك ان بين الحكومة الاتحادية والدولة الألمانية اتفاقا سريا قبل الحرب ، والظاهر ان الثانية جعلته ذريعة لاستخدام جيش الأولى في قتال أعدائها .

الدولة قريبة العهد بحرب لم تبق في خزائنها مالا ، ولا في مسالحها سلاحا ، وقد أبيد بها مئات الالوف من خير جندها ، والامة فقيرة لا تستطيع ان تمد الدولة عن سعة بما تستطيع ان تحارب به دولة كبيرة كالروسية وحدها ، فكيف تحاربها ومعها انكلترة وفرنسة واليابان ، وبعض حكومات البلقان- وهذه الحرب قد تستمر عدة أعوام ؟ كم تسوق من الجند الى روسية وكم تبقى لحماية بلادها الواسعة ، وثغورها غير محصنة ؟ واذا غلب جيش لها في رجاء من الارجاء ، أو احتاج الى الميرة والذخيرة والسلاح ، فكيف السبيل الى إمداده من الارجاء الاخرى - والبحار محرمة عليها ، ولا سكك حديدية تصل بين أقطارها ؟





قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و« منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ شوال ١٣٣٢ هـ ق ، الخريف الأول ١٢٩٣ هـ ش ٢٠ سبتمبر ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه

الجزء السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

(٨٥) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى . ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

٨٦) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق. يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين (٨٧) وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (٨٨) فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين

ختم الله هذا السياق في محاجة أهل الكتاب وبيان شأنهم، بهذه الآيات التي بين فيها حالتهم النفسية في عداوة المؤمنين ومودتهم. ودرجة قربهم منهم وبعدهم عنهم، وكذا حالة المشركين — فقال:

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا. ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ العداوة بغضاء يظهر أثرها في القول والعمل، والمودة محبة يظهر أثرها في القول والعمل، خلافا للجمهور الذين فسروها بالمحبة مطلقا. وفي كلمة «لتجدن» تأكيدان — لام القسم في أول الكلمة ونون التوكيد في آخرها. وفي الخطاب بها وجهان - أحدهما أنه للنبي (ص) وثانيهما أنه لكل من يوجه اليه الكلام، وفي «الناس» الذين نزل فيهم هذا التفصيل قولان — أحدهما انهم يهود الحجاز ومشركو العرب ونصارى الحبشة في عصر التنزيل، والثاني انه عامّ.

فأما صدقه على أهل العصر الأول فظاهر أتم الظهور، ولا سيما اذا جعلنا الخطاب للنبي (ص) فان أشد ما لاقى — بأبي هو وأمي — من العداوة والإيذاء قد كان من يهود الحجاز في المدينة وما حولها، ومشركي العرب ولا سيما مكة وما قرب منها، ولم ير من النصارى مثل تلك العداوة والإيذاء، بل رأى من نصارى الحبشة أحسن المودة بحماية المهاجرين الذين أرسلهم النبي (ص) في اول الاسلام من مكة الى الحبشة خوفا عليهم من مشركيها الذين كانوا يؤذونهم أشد الإيذاء

ليفتنوهم عن دينهم . حتى قال أكثر أهل التفسير المأثور: ان الآية نزلت فيهم أولا وبالذات . ولا ينفي هذا القول كون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . وسيأتي ماروي في ذلك في آخر تفسير الآيات .

لما أرسل النبي (ص) كتب الدعوة الاسلامية الى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى منهم أحسنهم ردًا فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الاسلام فلما لم يقبلوا لجمودهم على التقليد . وعدم فقههم حقيقة الدين الجديد ، اكتفى بالرد الحسن . والمقوقس عظيم القبط في مصر كان احسن منه ردا ، وان لم يكن أكثر الى الإسلام ميلا ، وأرسل للنبي (ص) هدية حسنة ، ثم لما فتحت مصر والشام ،وعرف اهلهما مزية الاسلام ، دخلوا في دين الله افواجا ، وكان القبط أسرع له قبولا .

وقد كان حاطب بن أبي بلتعة رسول النبي (ص) الى المقوقس ، وكان مما قاله له بعد ان أعطاه الكتاب : إنه كان قبلك رجل يزعم انه الرب الأعلى (فأخذه الله نَكالَ الآخرة والأولى) فانتقم به ثم انتقم منه . فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك غيرك . فقال (المقوقس) ان لنا دينا لن ندعه الا لما هو خير منه . فقال حاطب : ندعوك الى دين الاسلام الكافي به الله فقدَ سواه ، إن هذا النبي دعا الناس فكان اشدهم عليه قريش ، واعداهم له اليهود . واقربهم منه النصارى . ولعمري مابشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك الى القرآن ، إلا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل . وكل نبي ادرك قوما فهم امته ، فالحق عليهم ان يطيعوه ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به (اي هو الاسلام عينه) فقال المقوقس: اني قد نظرت في امر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم اجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة باخراج الخبء ، والاخبار بالنجوى . وسأنظر — الخ

ومما يشهد لما ذكرناه أيضا حديث عمرو بن العاص رسول النبي (ص) الى ملك عمان جيفر ابن الجلندي واخيه عبد ابن الجلندي ، فان عمرا عمد أولا الى عبد لأنه أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا ، فبلغه دعوة الاسلام . فقال له عبد : ياعمرو إنك ابن

سيد قومك فكيف صنع أبوك ؟ (قال عمرو) قلت: مات ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . ووددت انه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت انا على مثل رأيه حتى هداني الله للاسلام . قال فمتى تبعته ؟ قلت: قريبا . فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت: عند النجاشي . واخبرته ان النجاشي قد اسلم . قال: فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت أقروه واتبعوه . قال والاساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت نعم . قال: انظر ياعمرو ماتقول ، انه ليس من خصلة في رجل افضح من الكذب . قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا . ثم قال: ماارى هرقل علم باسلام النجاشي . قلت: بلى . قال بأي شيء علمت ذلك ؟ قلت: كان النجاشي يخرج له خرجا فلما اسلم وصدق بمحمد (ص) قال: لا والله لو سألني درهما واحدا ما اعطيته . فبلغ هرقل قوله ؛ فقال له يناق أخوه: اتدع عبدك لايخرج لك خرجا . ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ قال هرقل: رجل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع . قال: انظر ماتقول ياعمرو . قلت والله صدقتك . قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه ؟ قلت يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته . ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان ، وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال: ما أحسن هذا الذي يدعو اليه ! لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ؛ ولكن أخي يضن بملكه من ان يدعه ويصير ذنبا . اه المراد منه

فعلم من هذه الشواهد ان النصارى الذين كانوا مجاورين للحجاز كانوا في زمن البعثة أقرب مودة للمؤمنين ، وأقرب قبولا للاسلام ، وان من توقف من ملوكهم عن الاسلام فما كان توقفه الا ضنا بملكه . وأن النجاشي [اصحمة] ملك الحبشة قد أسلمت معه بطانته من رجال الدين والدنيا . ولكن يظهر أن الاسلام لم ينتشر في الحبشة بعد موته رضي الله عنه . ولم يُعنَ المسلمون باقامة أحكامهم في تلك البلاد . كما فعلوا في مصر والشام (مثلا) وهذا بحث تاريخي ليس من موضوعنا هنا . ولكن ورد ان النبي (ص) قال « دعوا الحبشة ماودعوكم . واتركوا الترك ماتركوكم » عزاه السيوطي في الجامع الصغير الى ابي داود عن رجل من الصحابة وعلم عليه بالصحة .

وقد رواه ابو داود بهذا اللفظ ، والنسائي بلفظه في آخر : حديث طويل ملخصه ان النبي (ص) قال مامعناه ان الله تعالى أراه وهو يحفر في الخندق في وقعة الاحزاب - بلاد كسرى فسئل ان يدعو الله تعالى بأن يفتحها لأمته فدعا . ثم ذكر ان الله أراه ملك قيصر وديار الشام فسئل ان يدعو الله تعالى بأن يفتحها لهم فدعا . ثم ذكر ان الله أراه بلاد الحبشة وقال هذا الحديث قبل ان يسألوه الدعاء بفتحها .

وجملة القول ان النبي (ص) والمؤمنين به رأوا في عصره من مودة النصارى وقربهم من الاسلام بقدر مارأوا من عداوة اليهود والمشركين . وقد يظن بعض الناس ان سبب ذلك بعد النصارى عنهم، وقرب اليهود منهم في المدينة والمشركين في مكة والمدينة معا . ومن بلغته الدعوة الى ترك دينه الى دين آخر من بعيد لا يعنى بعداوة أهلها وبمقاومتها كما يعنى القريب الذي توجه اليه الدعوة مواجهة ومشافهة . ولذلك كان اليهود في الشام والاندلس يعطفون على المسلمين عند الفتح ويرغبون في نصرهم على نصارى الروم والقوط . ثم صار بين المسلمين والنصارى من العداوة على الملك والحروب لاجله ما هو أشد مما كان من عداوة اليهود والمشركين لسلفهم في أول الاسلام

والقاعدة لهذا الرأي أن العداوة والمودة كانت ولم تزل أثر التنازع على المنافع والسيادة باسم الدين أو الدنيا . ولا دخل لطبيعة الدين فيها . وقد يؤيد هذا بما يثيره دعاة النصرانية في نفوس المسلمين في هذا الزمان ، وبما بين الدول الاسلامية والنصرانية من البغي والعدوان ، على أنه ليس بين اليهود والمسلمين من ذلك شيء ، ولكن قد يوجد مثله بين مسلمي الهند ومشركيها ، لتعارض مصالحهم ومنافعهم فيها ؛ فعلة العداوة والمودة خارجية لادينية ولا جنسية .

هذا كلام صحيح في نفسه وينطبق على المختلفين في الدين والمتفقين فيه فقد حارب نصارى البلقان بعضهم بعضا كما حاربوا العثمانيين ، بل أهل المذهب الواحد من النصارى يحارب الآن بعضهم بعضا كالانكليز والألمان ، وليس هو المراد بالآية ، وإنما القرآن يبين هنا معنى أعلى منه وأعم ، لاخاصا بالتنازع وهو أن العلة الصحيحة لعداوة المعادين ومودة الموادين هي الحالة الروحية التي

هي أثر تقاليدهم الدينية والعادية وتربيتهم الأدبية والاجتماعية، وقد نبه القرآن الى ذلك في بيان سبب مودة النصارى من هذه الآية. وترك سبب شدة عداوة اليهود والمشركين لأن حالتهم الروحية مبينة في القرآن اتم البيان في عدة سور؛ ومن أوسعها بيانا لاحوال اليهود هذه السورة وما قبلها من السور الطوال المدنية، وأوسعها بيانا لأحوال المشركين سورة الانعام التي تليها وهي من السور المكية.

كان اليهود والمشركون مشتركين في بعض الصفات والاخلاق التي اقتضت شدة العداوة للمؤمنين. فمنها الكبر والعتوّ والبغي وحب العلوّ، ومنها العصبية الجنسية، والحمية القومية، ومنها غلبة الحياة المادية، ومنها الأثرة والقسوة، وضعف عاطفة الحنان والرحمة، وكان مشركو العرب على جاهليتهم أرق من اليهود قلوبا، وأكثر سخاء وايثارا، وأشد حرية في الفكر والاستقلال. وما قدم الله ذكر اليهود في الآية الا لإفادة أصالتهم وتمكنهم فيما وصفوا به، وتبريزهم على مشركي العرب فيه، وناهيك بما سبق لهم من قتل بعض الانبياء وإيذاء بعض. واستحلال أكل أموال غيرهم بالباطل. وأما ما كان من ضلعهم مع المسلمين في البلاد المقدسة والشام والاندلس فانما كان لاجل تفيوء ظل عدلهم، والاستراحة من اضطهاد نصارى تلك البلاد لهم، فهم لم يعدوا في ذلك عادتهم، ولم يتركوا ماعرف من شنشنتهم، وهي أنهم لايعملون شيئا الا لمصلحتهم

ويمكن ان يستنبط ماتركه الله هنا من بيان سبب شدة عداوة هؤلاء واولئك مما بينه من سبب قرب مودة النصارى بقوله عز وجل ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لايستكبرون ﴾ أي ذلك — الذي ذكر من كون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا — بسبب أن منهم قسيسين يتولون تعليمهم وتربيتهم الدينية، ورهبانا يمثلون فيهم الزهد وترك نعيم الدنيا والخوف من الله عز وجل والانقطاع لعبادته. وانهم لايستكبرون عن الاذعان للحق اذا ظهر لهم انه الحق، لأن أشهر آداب دينهم التواضع والتذلل، وقبول كل سلطة، والخضوع لكل حاكم، بل من المشهور فيها الأمر بمحبة الاعداء، وادارة الخد الايسر لمن ضرب الخد الأيمن. فتداول هذه الوصايا، ووجود اولئك القسيسين والرهبان، لابد أن يؤثر في نفوس

جمهور الامة وسوادها ، فيضعف صفة الاستكبار عن قبول الحق فيها . وقد عهد من النصارى قبول سلطة المخالف لهم طوعا واختيارا ، والرضاء بها سرا وجهارا ، وأما اليهود فاذا اظهروا الرضا بذلك اضطرارا ، أسرّوا الكيد اسرارا ، ومكروا مكرا كبّارا

فتلك كانت صفات الفريقين الغالبة . لا أخلاق أفراد الأمتين كافة . ففي كل قوم خبيثون وطيبون ، (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) ولكن شريعة اليهود نفسها تربي في نفوسهم الأثرة الجنسية لانها خاصة بشعب اسرائيل ، وكل أحكامها ونصوصها مبنية على ذلك

وحكمة ذلك تربية أمة موحدة بين أمم الوثنية الكثيرة بعد إنقاذها من استعباد أشد أولئك الوثنيين بطشا وأضراهم بالاستبداد . وهي أمة الفراعنة . ولو أذن الله لبني اسرائيل بعد انجائهم من مصر الى الارض المقدسة أن يخالطوا الامم التي كانت فيها ، وجعل شريعتهم عامة مبنية على قواعد المساواة بين الاسرائيليين وغيرهم — كالشريعة الاسلامية — لغلبت تعاليم أولئك الوثنيين وشرورهم على الاسرائيليين لقرب عهدهم بالتوحيد ، مع استعدادهم الوراثي لقبول تقاليد غيرهم والخضوع لهم ، ولذلك أمروا بأن لا يبقوا في الارض المقدسة نسمة ما ممن كان فيها قبلهم . وكان موسى عليه السلام يحذرهم أشد التحذير من مفاسد الوثنيين بعده

فان قلت : ان هذا الاصلاح بتربية امة واحدة على هذه الطريقة ، بمثل هذه الشريعة . يترتب عليه مفاسد أخرى في اخلاق هذه الامة ، ولو لم يكن من مفاسده الا ماهو معروف من أخلاق اليهود الى الآن ، التي كانت سبب اضطهاد الامم لهم في كل مكان . من حرصهم على الانتفاع من غيرهم ، وعدم نفع أحد بشيء منهم ، الا اذا كان وسيلة لمنفعة لهم أكبر منه أو دفع ضرر ، وتجرد السواد الاعظم منهم عن إيثار احد غريب عنهم بشيء — لكفى ، وكان شبهة عظيمة على كون دينهم ليس من عند الله تعالى (والله لا يحب الفساد)

والجواب عن هذه الشبهة سهل على المسلمين . وبيانه : ان تلك الشريعة كانت موقتة لا دائمة . فكانت في العصر الاول هي الوسيلة الى تكوين امة موحدة بين

امم الوثنية . وكان المصلحون من الانبياء صلوات الله عليهم يتعاهدون أهلها زمنا بعد زمن بالاصلاح المعنوي ، كإلهيات زبور داود وادبيات حكم سليمان عليهما السلام ، حتى لاتغلب على القوم المادية وتفسدهم الأثرة ، ثم جاء مصلح اسرائيل الاعظم عيسى المسيح صلوات الله وسلامه عليه بنقض ما كانوا عليه من ذلك بدعوتهم الى نقيض ما كانوا عليه ، فقابل مبالغتهم في المادية بالمبالغة في الروحانية ، ومبالغتهم في الأثرة بالمبالغة في الايثار (الذي تعبر عنه النصارى بانكار الذات) ومبالغتهم في الجمود على ظواهر الشريعة بالمبالغة في النظر الى مقاصدها . فكرّه اليهم السيادة والغنى ، وذم التمتع بنعيم الدنيا ، وأمر بمحبة الاعداء . وعدم الجزاء على الايذاء وكان ذلك كله تمهيدا لا كمال الله تعالى دينه بارسال خاتم النبيين والمرسلين . محمد المبعوث رحمة للعالمين ، البارقليط روح الحق . الذي يعلمهم ويعلم غيرهم كل شيء ، فيجمع للبشر بين مصالح الروح والجسد ، ويأمر بالعدل والاحسان لا بالاحسان فقط

فمن لم يؤثر فيهم إصلاح المسيح من اليهود ظلوا على جمودهم وأثرتهم وعصبيتهم ، وكانوا اشد عداوة لهذا النبي ومن آمن به ممن أثر فيهم ذلك الاصلاح ، وكان فيهم بقية من القسيسين والرهبان ، سواء كان أصلهم من اليهود أو غيرهم من الاقوام ، فكانوا اقرب مودة لهم ، وكانو أسرع الى الايمان من غيرهم ، فصدق عليهم قوله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويُحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم) وما كان ذلك الاصر والاغلال إلا شدة أحكام التوراة في الطعام والشراب والاحكام المدنية والجنائية ، وشدة أحكام الانجيل في الزهد وإذلال النفس وحرمانها

ومما يدل على كون النصارى أقرب من اليهود الى الاسلام بطبيعة دين كل منهما وفاقا لتعليل الآية الكريمة كثرة من يسلم من النصارى في كل زمان وقلة من يسلم من اليهود . ولولا ضعف المسلمين في هذا الزمان . واعراضهم عن هداية القرآن ، واهمالهم الدعوة الى الاسلام . وابرازه بصورته الصحيحة للانام . على فساد

حكوماتهم وعجز رجالها في السياسة ، وتخلفهم عن مجاراة الامم في العلم والحضارة ، ولولا بلوغ دول الافرنج النصرانية فيه أوج العزة والقوة ، وسبق أممهم في حلبة المدنية والثروة . واستمالتهم لنصارى الشرق وجذبهم اليهم . واعتزاز هؤلاء بهم ، وتلقيهم أساليب التربية الدينية والمدنية عنهم ، وجعل الدين فيها من المقوّمات الجنسية للأقوام والشعوب تربي على أن تحافظ عليها كما تحافظ على لغتها، فلا تستبدل بها غيرها وان كانت خيرا منها — الى غير ذلك من قوانين هذه التربية وأساليبها — ولولا ماأشرنا اليه من التنازع السياسي الدنيوي بين دولنا ودولهم لكانت المودة بين الفريقين أتم ، وانتشار الاسلام فيهم أعم، لأن الاسلام اصلاح في النصرانية ، كما ان النصرانية اصلاح في اليهودية ، فاليهود الذين عادوا النصرانية ، كانوا أجدر ممن صلحوا بها بعداوة الاسلامية . ودين الله على ألسنة موسى وعيسى ومحمد (ص) واحد ولكنه جرى مع البشر على سنة الارتقاء . الى أن بلغ سن الكمال .

فان قيل: اذا كنت تزعم ان سبب ما ذكره الله تعالى من كون النصارى أقرب الناس مودة للمؤمنين هو تعاليم دينهم وتقاليده ، وانه لذلك يجب ان يكون عاما فيهم، وان نزل في طائفة معينة منهم، اذا انتفت الموانع — فبماذا تجيب عن الحرب الصليبية التي أوقد النصارى نارها باسم الدين . ولم يلق المسلمون مثلها من اليهود ولا المشركين. ويقرب من ذلك سائر الحروب بين المسلمين والنصارى؟ — فإن عندي جوابين عن هذا السؤال أو جوابا من وجهين :

(أحدهما) ان ما كان عليه المسلمون من الدين القريب من النصرانية بل الذي هو إصلاح فيها كما قررنا، لم يكن معروفا عند اولئك الصليبيين. بل كان للمسلمين صورة في مخيلاتهم غير صورتهم الصحيحة التي طبعها في نفوسهم الاسلام — صورة وثنية وحشية مشوهة أقبح التشويه، منعكسة عن الكتب والرسائل والخطب التي كان ينشئها بطرس الراهب وأمثاله . ولو وُصف للمسلمين يومئذ قوم بما وصفهم به مثيرو الحرب الصليبية ودُعوا الى قتالهم لنفروا خفافا وثقالا

(ثانيهما) ان مافي الانجيل من روح السلام والمحبة والتواضع والايثار ،

والخضوع لكل سلطان . لم تنتصر في أوربة على روح الحرب والأثرة والكبرياء وحب السيادة في الارض — تلك الصفات التي كانت قد بلغت في عهد السلطة الرومانية أشدها ، وكانت سبب إبادة الوثنيين من أوربة كلها . ثم سبب الحرب الصليبية ، ومحاولة إبادة المسلمين من البلاد المقدسة أو الشرق كله . بل كانت ولا تزال سبب الحروب القاسية بين النصارى أنفسهم بسبب اختلاف المذاهب ، أو التنازع على الممالك ، وكل هذا من تعاليم روح الشيطان . لامن تأثير تعاليم روح الله عليه السلام ، وان رووا عنه أنه قال: ماجئت لالقي سلاما على الارض انما جئت لالقي سيفا .

فعلم من هذا ان ما كان بين المسلمين والنصارى من عداء فانما سببه بُعد أحد الفريقين أو كل منهما عن هداية دينه. أو جهلة وسوء فهم وقع بينهما. وأمر المتأخر من دولها ظاهر ، لاينسبه الى طبيعة دينهما الا جاهل اومكابر . فالدولة العثمانية كانت قد فتحت كثيرا من بلادهم بالقوة القاهرة. فلما دالت لهم القوة ثاروا لانفسهم، فان كان الساسة البلقانيون قد هاجوا شعوبهم على قتالها باسم الصليب والمسيح ، فلم يلبثوا ان كذب الله تعالى دعواهم المسيحية بايقادهم نار القتال بينهم ، فما زال أئمة السياسة المضلين من الفريقين يتخذون الدين أخدوعة يخدعون بها العامة لتأييد سياستهم حتى في الجناية على الدين وأهله .

فان قيل: ان اليهودية اقرب الى الاسلام من النصرانية لانها ديانة توحيد ، والنصرانية ديانة تثليث ، والتوحيد هو أساس دين الله على ألسنة جميع رسله، وهو منتهى الكمال في العقائد، ولذلك يجوز ان يغفر الله كل ذنب الا الشرك .

فالجواب عن هذا ان عقيدة التثليث الدخيلة في المسيحية لما كانت لاتفهم ولا تعقل لم يكن لها تأثير في انفس أهلها يبعدهم عن الاسلام. بل ربما كانت من اسباب قبول دعوة الاسلام، وانما التأثير الاعظم في تقريب الناس بعضهم من بعض أوضده الاخلاق والآداب، واننا نرى في كل عصر من الموادة بين المسلمين والنصارى ما لا نرى مثله بين غيرهما من المختلفين في الدين؛ وما ضعفت هذه المودة في بلد الا بفتن السياسة، وعصبيات اهل الرياسة ، فلعنة الله على مثيري العداوة والبغضاء بين عباد الله اتباعاً

لأهوائهم ، أوارضاء لرؤسائهم

ومن مباحث الألفاظ في الآية ان الرهبان جمع راهب (كركبان جمع راكب) وهو المتبتل المنقطع في دير أو صومعة للعبادة وحرمان النفس من التنعم بالزوج والولد ولذات الطعام والزينة ، فهو من الرهبة بمعنى الخوف ، أو من رهب الإبل وهو هزالها وكلالها من طول السير ، والسقيسين جمع قسيس — ومثله قَس وجمعه قسوس — وهو رئيس ديني في عرف الكنيسة فوق الشماس ودون الاسقف . مأخوذ من قولهم : قس الابل يقسها (من باب نصر) قسا (بتثليث القاف) اذا أحسن رعيها وساقها . والاصل في القسيسين أن يكونوا من أهل العلم بدينهم وكتبهم . لأنهم رعاة ومفتون . فيكون ذكر الرهبان والقسيسين جمعا بين العباد والعلماء . وكون الرهبانية بدعة في النصرانية لاينافي تأثيرها في تقريب النصارى من مودة المسلمين

وروى أهل التفسير المأثور قولا بأن المراد بالقسيسين والرهبان من آمن بعيسى في عهده كالحواريين — وقولا آخر بأن المراد بهم جماعة النجاشي ؛ وسيأتي بعض ماورد في ذلك. ومن الناس من يجعل هذه الآية آخر الجزء السادس لان التجزئة لاتراعى فيها المعاني . ويبدأ الجزء السابع بقوله عز وجل :

﴿ واذا سمعوا ماأنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ أي واذا سمع اولئك الذين قالوا إنا نصارى ما انزل الى الرسول الكامل — محمد (ص) — الذي اكمل به الدين ، وبعث رحمة للعالمين . ترى ايها الناظر اليهم اعينهم تفيض من الدمع ، اي تمتلئ دمعا حتى يتدفق الدمع من جوانبها لكثرته ، أوحتى كأن الأعين ذابت وصارت دمعا جاريا . ذلك من اجل ماعرفوه من الحق الذي بينه لهم القرآن ؛ ولم يمنعهم من الإذعان والخشوع له مامنع غيرهم من العتوّ والاستكبار . فقوله « من الحق » بيان لقوله « مما عرفوا » وقيل ان من فيه للتبعيض . أي ان اعينهم فاضت عَبرة ودموعا ، عِبرة منهم وخشوعا ، لمعرفتهم بعض الحق . اذ سمعوا بعض الآيات دون بعض . فكيف لو عرفوا الحق كله بسماع جميع القرآن . ومعرفة ما جاءت به السنة من الاسوة الحسنة والبيان .

وهذا القول إنما يصح بتطبيقه على واقعة معينة كالذي تسمع في النجاشي وجماعته. واما ظاهر الجملة الشرطية فهو بيان مايكون من شأنهم عند سماع القرآن، وهو العبرة والاستعبار، والدموع الغزار

ثم بين تعالى مايكون من مقالهم، بعد بيان مايكون من حالهم، فقال ﴿يقولون : ربنا آمنا فا كتبنا مع الشاهدين﴾ أي يقولون هذ القول يريدون به إنشاء الايمان. والتضرع الى الله تعالى بأن يقبله منهم ويكتبهم مع أمة محمد عليه الصلاة والسلام، الذين جعلهم الله تعالى كالرسل شهداء على الناس . وانما يقولون ذلك لانهم كانوا يعلمون من كتبهم . أو مما يتناقلونه عن سلفهم . أن النبي الاخير الذي يكمل الله به الدين يكون متبعوه شهداء على الناس . أو المعنى انهم بدخولهم في هذه الأمة يكتبون من الشاهدين . فذكر الله الامة بأشرف اوصافها . قال ابن عباس (رض): ان الشاهدين هنا هم الشهداء في قوله تعالى (وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وروي عنه أنه قال : هم محمد (ص) وأمته، انهم شهدوا انه قد بلغ. وان الرسول قال: قد بلغت. كأنه يقول: ان الشهادة للرسل تستلزم الشهادة على من خالفهم . والا كان هذا التفسير غير ظاهر . لان الشهادة على المرء غير الشهادة له . والحق ان الشهادة هنا يراد بها ان هذه الامة تشهد على الامم يوم القيامة وتكون حجة على المشركين والمبطلين بكونها مظهرا لدين الله الحق الذي جحدوه أو ضلوا عنه . وقد حققنا القول في بيان معنى الشهداء في تفسير سورة النساء والسورتين قبلها؛ فليراجع تفسير (٤: ٦٨ ومن يطع الله والرسول) في (ص ٢٤٥ ج ٥ تفسير)

﴿ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ هذا تتمة قولهم، والمعنى أي مانع يمنعنا من الايمان بالله وحده وبما جاءنا من الحق على لسان هذا الرسول، بعد ان ظهر لنا انه البارقليط روح الحق الذي بشر به المسيح، والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة، والفضائل الكاملة . والعبادات الخالصة . والمعاملات المستقيمة. وهم اتباع هذا النبي الكريم الذين رأينا أثر صلاحهم باعيننا بعد ما كان من فسادهم في جاهليتهم ما كان؟

أي لامانع يمنعنا من هذا الايمان بعد تحقيق موجبه ، وقيام سببه . فسروا القوم الصالحين بأصحاب الرسول ، وهو متعين بالنسبة الى من آمن من نصارى الحبشة. وكل من سار على طريقتهم يعد منهم و يحشر معهم .

﴿ فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴾ أي فجزاهم الله تعالى وأعطاهم من الثواب بقولهم الذي عبروا به عن إيمانهم وإخلاصهم بساتين وحدائق في دار النعيم تجري من تحت أشجارها الانهار يخلدون فيها ، فلا هي تسلب منهم ولا هم يرغبون عنها و يتركونها . وذلك النوع من الثواب جزاء جميع المحسنين في سيرتهم وأعمالهم من أهل الايمان . وقد علم من الآيات الاخرى ان في تلك الجنات من الدور والقصور والنعيم الروحاني والرضوان الإلهي مالا يمكن ان يعبر عنه الكلام و يحيط به الوصف في هذا العالم المخالف لذلك العالم في حقيقته وخواصه (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)

وهاك ما ورد في أسباب نزول هذه الآيات عن أهل الأثر :

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) قال هم الوفد الذين جاؤا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء قال : ماذكر الله به النصارى قال: هم ناس من الحبشة آمنوا اذ جاءتهم مهاجرة المؤمنين فذلك لهم

وأخرج النسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع)

وأخرج بن أبي شيبة وبن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية و لواحدي من طريق ابن شهاب قال أخبرني سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعروة بن الزبير قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتابا الى النجاشي ، فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأرسل النجاشي الى

الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ عليهم سورة مريم؛ فآمنوا بالقرآن . وفاضت أعينهم من الدمع. وهم الذين أنزل فيهم (ولتجدن أقربهم مودة — الى قوله — من الشاهدين)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير في قوله (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) قال هم رسل النجاشي الذين أرسل باسلامه واسلام قومه، كانوا سبعين رجلا اختارهم من قومه الخير فالخير في الفقه والسن. وفي لفظ : بعث من خيار أصحابه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثين رجلا، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا انه الحق، فأنزل الله فيهم (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) الآية. ونزلت هذه الآية فيهم أيضا (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون — الى قوله — أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا)

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن عروة قال : كانوا يرون ان هذه الآية نزلت في النجاشي (واذا سمعوا ماأنزل الى الرسول) قال انهم كانوا برايين يعني ملاحين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبش فلما قرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اذا رجعتم الى أرضكم انتقلتم عن دينكم» فقالوا لن ننقلب عن ديننا. فأنزل الله ذلك من قولهم (واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول)

وأخرج ابو الشيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في الذين أقبلوا مع جعفر من أرض الحبشة وكان جعفر لحق بالحبشة هو وأربعون معه من قريش وخمسون من الاشعريين منهم أربعة من عك أكبرهم أبو عامر الاشعري وأصغرهم عامر. فذكر لنا أن قريشا بعثوا في طلبهم عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد، فأتوا النجاشي فقالوا ان هؤلاء قد أفسدوا دين قومهم فأرسل اليهم فجاءوا فسألهم. فقالوا: بعث الله فينا نبيا كما بعث في الامم قبلنا يدعونا الى الله وحده ويأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بالصلة وينهانا عن القطيعة، ويأمرنا بالوفاء وينهانا عن النكث؛ وان قومنا بغوا علينا وأخرجونا حين صدقناه وآمنا به. فلم نجد أحدا نلجأ اليه غيرك.

فقال معروفا. فقال عمرو وصاحبه انهم يقولون في عيسى غير الذي تقول. قال: وما تقولون في عيسى؟ قالوا: نشهد انه عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ولدته عذراء بتول. قال: ما أخطأتم. ثم قال لعمرو وصاحبه: لولا أنكما أقبلتما في جواري لفعلت بكما[1] وذكر لنا أن جعفر واصحابه اذ اقبلوا جاء اولئك معهم فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم. قال قائل: لو قد رجعوا الى ارضهم لحقوا بدينهم. فحدثنا انه قدم مع جعفر سبعون منهم فلما قرأ عليهم نبي الله صلى الله عليه وسلم (القرآن) فاضت اعينهم

وأخرج ابن جرير وابن ابي حاتم عن السدي قال: بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنا عشر رجلا سبعة قسيسين وخمسة رهبانا ينظرون اليه ويسألونه. فلما لقوه وقرأ عليهم ما انزل الله بكوا وآمنوا. وانزل الله فيهم (واذا سمعوا ما انزل الى الرسول) الآية

واخرج ابن جرير وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين فبعث جعفر بن ابي طالب وابن مسعود وعثمان بن مظعون في رهط من أصحابه الى النجاشي ملك الحبشة. فلما بلغ المشركين بعثوا عمرو بن العاصي في رهط منهم ذكروا انهم سبقوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشي. فقالوا انه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش وأحلامها زعم انه نبي. وانه بعث اليك رهطا ليفسدوا عليك قومك. فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم. قال: ان جاؤني نظرت فيما يقولون. فلما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا الى باب النجاشي فقالوا: استأذن لأولياء الله، فقال ائذن لهم فمرحبا بأولياء الله؟ فلما دخلوا عليه سلموا. فقال الرهط من المشركين: ألم تر أيها الملك انا صدقناك وانهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها. فقال لهم ما يمنعكم أن تحيوني بتحيتي؟ قالو انا حييناك بتحية أهل الجنة وتحية الملائكة. فقال لهم: ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه؟ قالوا يقول عبد الله ورسوله وكلمة من الله وروح منه ألقاها الى مريم ويقول في مريم إنها العذراء الطيبة البتول. قال فأخذ عودا من الارض فقال: ما زاد عيسى وأمه على ما قال صاحبكم هذا العود[2] فكره المشركون قوله وتغير له

(١) أي لعاقبتكما (٢) أي مثل هذا العود في صغره

وجوههم. فقال: هل تقرؤن شيئاً مما أنزل عليكم؟ قالوا نعم. قال: فاقرؤا فقرؤا — وحوله القسيسون والرهبان وسائر النصارى — فجعلت طائفة من القسيسين والرهبان كلما قرؤا آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق. قال الله (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون * واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق)

هذا وان المحدثين يجمعون بين امثال هذه الروايات بتعدد الوقائع فان لم يمكن الجمع اعتمدوا على ما كان اقوى سندا

ذكر هذه الروايات الحافظ السيوطي في الدر المنثور. وذكر رواية أخرى أخرجها الطبراني مختصرة والبيهقي في الدلائل مطولة عن سلمان الفارسي (رض) في سبب اسلامه. ملخصها انه كان مجوسيا وظفر ببعض عباد النصارى المنقطعين في بعض الجبال وسافر معهم من بلاده الى الموصل وهنالك اتصلوا بعباد مثلهم واتوا رجلا كان منقطعا للعبادة في كهف عظموه كثيرا ووعظهم هو وعظا بليغا ذكر فيه ان عيسى كان رسولا لله وعبدا أنعم عليه فذكر ذلك له. وكان الرجل لا يخرج من الكهف الا يوم الاحد. ثم سافر العابد وسافر معه سلمان الى بيت المقدس. وهنالك شفى الله على يده مقعدا. وقد وعظ سلمان قبل فراقه فذكر الجنة والنار وبعثة نبي من تهامة صفاته كيت وكيت، وأوصاه بالايمان به. ثم فارقه فلم يستطع ادراكه فلقي ركبا من الحجاز حملوه الى المدينة فباعوه فيها، ولما لقي النبي (ص) ورأى العلامات فيه آمن وكاتب. وان الآيات نزلت في اصحابه الذين صحبهم. والرواية ضعيفة وحمل الآيات عليها بعيد

فتاوى المنار

افتتحنا هذا الباب لاجابة اسئلة المشتركين خاصة اذ لا يسع عامة الناس ونشترط على السائل ان يبين اسمه ولقبه وبلده وعمله (وظيفته) وله بعد ذلك ان يرمز الى اسمه بالحروف ان شاء وانا نذكر الاسئلة بالتدريج غالبا وربما قدمنا متاخرا لسبب كحاجة الناس الى بيان موضوعه وربما اجبنا غير مشترك لمثل هذا ولمن مضى على سؤاله شهران او ثلاثة ان يذكر به مرة واحدة فان لم نذكره كان لنا عذر صحيح لاغفاله

(علم الله بصفاته . الرضاع من الجدة)

(س ٢٢) من صاحب الامضاء الجاوي بمصر

سيدي الاستاذ الاكبر السيد رشيد رضا زاده الله من مرضاته

أما بعد فاني ألقي الي مسئلتان من البلاد . إحداهما مسئلة علمه سبحانه بصفات كمالاته . فانها قد شوهت أفكار الاغلب من أهل بلادي في (سومترا) اذ لم يوجد منهم للآن من يفصل القول المحكوم بالدليل أو السنة فيتبعونه

يقولون . هل يعلم الله أعداد بقية صفاته التي هي صفات الكمالات خلاف العشرين مثل كذا أو كذا من العدد . أم لا ؟

فان أجبتم بنعم، فما المراد بقولهم ان صفات الكمالات من غير نهاية . فان المتبادر من معنى تلك الكلمة معلوم وظاهر . وان اجبتم بلا فما المراد أيضا بقول الآية (وأحصى كل شيء عددا) ثم ألا يعد عجزا عليه سبحانه وتعالى لو فرضنا أنه لا يعلم تلك الأعداد ؟ . فهاهي (ذي) المسئلة الاولى .

أما الثانية فهي مسئلة الرضاعة . يقول فيها السائل . هل عثرتم من مفهوم الكتاب او السنة أو من قول بعض العلماء على إن الطفل اذا رضع من جدته من جهة الأم يؤدي الى وقوع الطلاق بين والدي الطفل فيقع الطلاق واحدا اذا رضع الطفل مرة واثنتين اذا كان مرتين وثلاثا اذا كان ثلاث مرات

فتانكم المسئلتان احترت عليهما (١) اذ قلبت كثيرا من كتب الفقه ومن كتب

(١) الصواب ان يقول : حرت أو تحيرت فيهما .

التوحيد لعلي اعثر من عبارة تحل عقد تينك المسئلتين فلم أجد . وحقيقة انهما لغريبتان بجانب فهمي القصير ولذلك وجهت بهما الى بحر علومكم راجيا ان تحلوا وثاقهما وما ذلك على واسع علومكم بعظيم

ابراهيم بسنتوري سراج الجاوي

تحريرا في ٢١ شعبان سنة ١٣٣٢

(علم الله تعالى بصفاته)

الجواب عن المسألة الأولى : ان الله سبحانه وتعالى يعلم صفاته بلا شك ، سواء كان مراد العلماء بقولهم : ان صفات الله لانهاية لها ولا حصر - أنها كذلك بالنسبة الى علم الخلق ، أو في الواقع ونفس الأمر . ولا إشكال في ذلك فان الله تعالى يعلم ما لا نهاية له من الحوادث أيضا كالحوادث التي تكون في الجنة والنار وسائر العالم في المستقبل الذي لانهاية له

وههنا يحسن التذكير بأمرين هما أهم من تينك المسألتين : أحدهما أنه سبحانه وتعالى قد وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله (ص) بصفات من الكمال معروفة ، والألفاظ الدالة عليها هي أسماؤه الحسنى . وحكمته في ذلك ان نعرف بها كماله وعظمته وآثار فضله ورحمته فينا ونعمه علينا ، لنزداد بذكرها إيمانا وتزكية لانفسنا وحبا في الكمال وأفعال البر ، لا لأجل ان نعدها عدا ، ونبحث فيما زاد عنها ، ثم نشغل أنفسنا بالفكر والكلام في امكان إحصائها أو عدمه ، وفي كيفية علمه بها ، واحاطته بعددها ، فان أمثال هذه المباحث مما لم نكلفه ولا نرى لنا فائدة فيه ، بل ربما يضر البحث فيها ضعيف العلم أو الفهم وتحدث له شكوكا في الدين.

ولهذا قال العلماء في تفسير الاحصاء من حديث « ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » (١) : أي من احصاها حفظا لمعانيها وعلما بها وإيمانا - أو من استخرجها من كتاب الله تعالى وكلام رسوله (ص) لأجل ان يزداد بها ايمانا ومعرفة بربه عز وجل ويدعوه بها - أو من أطاق العمل بما تهدي اليه من الكمال والبر - أو من أخطرها بباله وتفكر في معانيها عند ذكرها بتلاوة القرآن والأذكار المأثورة خاشعا معتبرا متدبرا راغبا راهبا . هذا مجمل ماقالوه في معنى الاحصاء ولك ان تقول به كله . ولم يقل أحد يعتد بعلمه وفهمه ان المراد عدها بالأرقام أو إحصاؤها على السبح . ولم يثبت برواية صحيحة انه (ص) عدها لهم.

(١) رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن أبي هريرة

واستشكلوا روايات عدها من جهة المتن، كما تكلموا فيها من جهة السند . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : والذي عول عليه جماعة من الحفاظ ان سرد الاسماء مدرج في الحديث وانهم جمعوها من القرآن . واجابوا عن ذلك بما لا حاجة الى ذكره هنا .

وقد ورد في بعض روايات الحديث الضعيفة « وما من عبد يدعو بها الا وجبت له الجنة » رواه الديلمي من حديث علي كرم الله وجهه . وفي أخرى « من دعا بها استجاب الله له » رواه ابن ماجه عن أبي هريرة . وليس فيهما ذكر الاحصاء . وعندنا فوق ذلك كله قول الله عز وجل في سورة الاعراف (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه) وقوله في سورة الاسراء (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّاما تدعو فله الاسماء الحسنى) فهو تعالى يهدينا الى ان ندعوه ونتضرع اليه بهذه الاسماء الحسنى لاشتمالها على أحسن المعاني الدالة على منتهى الكمال والفضل

الامر الثاني - لا ينبغي لأحد ان يجعل ما لا يفهمه من كلام العلماء وما لا يتضح له انه صواب مشكلا من مشكلات الدين، بل يحسن ان يعده كأن لم يقل ، ولا سيما أقوال المتكلمين واصطلاحاتهم التي استنبطتها قرائحهم لتأييد مذاهبهم والرد على مخالفيهم ، فان فيما قالوه الخطأ والصواب ، وما اذا احتيج اليه للرد على خصم كان في زمنهم لا يحتاج اليه في زمن آخر . وكذلك ما صوروا به عقيدة الاسلام التي يدافعون عنها ، لا ينبغي ان يجعل هو الاسلام الذي يلقنه المسلمون في كل عصر ، ويجعلون حظهم من حماية الدين الدفاع عنه .

مثال ذلك ما كتبه السنوسي رحمه الله تعالى من العقائد ولا سيما العقيدة الصغرى التي انتشرت في المشرقين والمغربين، وحذا حذوه فيها معلمو المدارس الرسمية وغيرها حتى فيما يضعونه من العقائد للمبتدئين. وقاعدتها في الالهيات ان الواجب على كل مكلف شرعا انه يؤمن بانه يجب لله تعالى عشرون صفة ويستحيل عليه أضدادها . واصطلاحه في هذه الصفات مخالف لما كان يفهمه السلف وأهل اللغة من معنى كلمة صفة ومن اطلاقهم الايمان بصفات الله تعالى . فهو يعد الامور الاعتبارية والعدمية صفات، فالوجود والمخالفة للحوادث - أي عدم الاحتياج الى المكان والتخصص صفتان لله تعالى عنده، والقدرة وكونه تعالى قادرا صفتان متغايرتان . ولم ينقل مثل هذا عن أحد من الصحابة ولا التابعين، دع عدم ذكره في القرآن او في كلام الرسول (ص) فكيف نقتصر عليه ونجعله هو العمدة في تلقين عقيدة الاسلام ، ونجعل ما عداه مخالفه ولو في عدد الصفات محلا للاشكال ؟؟

(مسألة رضاع الطفل من جدته)

وأما الجواب عن المسألة الثانية فهو اننا لم نطلع في الكتاب ولا في السنة ولا في كتب الأئمة على كلام يدل بمنطوقه أو مفهومه على ان الطفل اذا رضع من جدته لأمه رضعة تطلق أمه من أبيه طلقة واحدة واذا رضع مرتين تطلق طلقتين واذا رضع ثلاثا تطلق ثلاثا . وانما الطلاق كلام يقوله الرجل يدل على حله لعقدة الزوجية، والله أعلم .

(كلمات الاستقلال والاعتماد على النفس والاجتهاد)

(س٢٣) من أحد المشتركين السوريين بمصر

سيدي الاستاذ الحكيم السيد محمد رشيد رضا دام نفعه

المعروض بعد التحية ان بعض الأفاضل منتقد استعمال كلمة : « الاعتماد على النفس » أو « الاستقلال الشخصي » بمعنى اجتهاد الانسان ، ودليله في ذلك عدم استعمال العرب له ، ولما لم يكن يقنع مني بأن ذلك الاستعمال محمول على اجتهاد المرء الذي هو ضد كسله وخموله فقال بأن المستعملين ذلك لايعنون منه سوى اجتهاده في كل حاجياته بحيث لايعتمد على غيره ألبتة كما هو ظاهر ذلك الاستعمال - جئتكم بهذه الكلمات راجيا منكم البيان الوافي المقنع لمثل ذلك المنتقد - في المنار الأغر ولكم الفضل

(ج) قال في القاموس المحيط : واستقله حمله ورفعه وأقله (أي أطاق حمله وهذا اصل المعنى) والطائر في طيرانه ارتفع . وقال غيره: استقل الطائر نهض للطيران وارتفع . وقال الزبيدي فيما استدركه على القاموس في هذه المادة من شرحه: والاستقلال الاستبداد يقال : هو مستقل بنفسه ، ضابط لامره . و : هو لايستقل بهذا ، أي لايطيقه اه

وأما الاعتماد على الشيء فأصله الاتكاء عليه والتورك عليه . ومنه العماد والعمود الذي يقام عليه البناء والاعتماد على المرء عبارة عن الاتكال عليه ونوط الامور به . ومنه عمدة القوم وعميدهم وعمودهم ، وهو سيدهم الذي يعتمدون عليه في مصالحهم . هذا مايؤخذ من جميع معاجم اللغة

وأما الاجتهاد فهو بذل الجهد والمشقة في تحصيل الشيء . سواء استقل الانسان بالسعي والعمل أو اعتمد على مساعدة غيره مع بذل جهده

فاذا تدبرت معاني هذه الالفاظ ترى أن المنتقد مخطئ ، وان استعمال كلمة الاستقلال فيما نستعملها فيه فصيح ولاتحل محلها كلمة الاجتهاد

شعر منثور
في
العربية والعرب

[من إنشاء فؤاد الخطيب أستاذ الآداب العربية في مدرسة غردون الكلية بالخرطوم]

لاجرم أن اللغة العربية . أجزل اللغات السامية . وأوسعها مجالا ، وأحكمها استعمالا ، لايذهب مرّ العشي بسلاستها ، ولا يعبث كرّ الغداة بطلاوتها .

ولقد طاحت دول ، وبادت ملل ، فاستسرّت لغاتها ، وعفت آيتها ؛ وتلك اللغة تدور مع الاحقاب ، في غلائل الآداب . وغلواء الشباب ، لايرهقها هرم ، ولا يخلقها قدم. فكأنها وهي ابنة القرون الخالية ، والامم الماضية، نشأت في اليوم الحاضر ، او أمس الدابر ، فجاءت دفعة واحدة مستوفية أقسام جمالها ، وصحة ابنية اسمائها وأفعالها ؛ تجول بها أسلات الالسنة واطراف اليراع ، في صدور المحافل وبطون الرقاع ، فتنتظم فرائدها ، وتعقل شوارِدها . فلا تشذ نادرة ، ولاتند بادرة .

أجل . ان السيف الباتر ، والجبروت القاهر ، والمكاتب المتاوجة بالزحام ، والمدارس المكتظة بالطلاب ، والصحف الذائعة في الآفاق ، والوفود الضاربة في الاصقاع - لم تحول لغة عن أصلها ، ولم تجذب أمة بحبلها . فأين ذلك مما وقع للعربية ، مع تلك الشراذم البدوية ؛ فانها لم تنهب الارض في قطار ، ولم تجزع (١) الفضاء في منطاد ، ولم تمخر البحار بالبخار ؛ بل جابت المسارح ، ورادت المكامن ، وطافت المجامع ؛ فولجت كل مصر ، وسكنت كل نفس ، وقالت لكل شيء : حسبك فانك عربي منذ اليوم .

فسقى الغيث ذلك العهد القديم ، ورعى الله ذلك العربيّ الصميم ؛ فلقد كان نورا في الظلمات ، وهدًى في الشبهات ؛ اذا جال في مضمار الفكر ، وراوح بين النظم والنثر ؛ صور على الطرس ، حقيقة النفس ، فناجتك بأسرارها ، وحدثتك بأخبارها ؛ فاذا الغيب تكاد تراه عيناك ، واذا الوهم تكاد تلمسه يداك .

(١) لعل أصلها : تزعج

فهكذا الأدب . وكذلك العرب ؛ فلقد سبروا غور العلم ، ومشوا الى اعماق الفهم ، فانتزعوا العقول من عقالها ، واستلوا الوجود من العدم ، واستخرجوا اليقين من الريب ، وتغلغلوا بين الذرة واجزائها ، وتسربوا بين العصا ولحائها ، فكانوا وكل سحر غير سحرهم باطل ، وكل بلد خيموا فيه بابل

اللهم سبحانك ! اينطق العربي بالحكمة الناصعة ، ويهتف بالقافية الرائعة ، فتكاد لحلاوة أبياتها ، تقبل أفواه رواتها — وهو في ذلك المنقطع من لارض . يهيم في ظلمات بعضها فوق بعض ، اذ مشت عيونه ففي صميم القفر . واذا وقفت به فعلى اديم الصخر .. ؟

فلا يزال في الوجود ، كالمثل الشرود . تتلقفه الاقطار ، وتتخطفه الاسفار . فمن هضاب يحوم فيها كالعقبان ، الى بطاح يعمل فيها كالسيدان . ومن مجالدة زعزع نكباء تنسف التلال ، الى مكابدة هاجرة سجراء تأكل الظلال .

فما ثم مرتع شائق فيستمد من جماله البيان . وما ثم مورد رائق فيمتح من عذبه اللسان . وانما هي ارجاء عابسة ، وبيداء طامسة . تجول فيها الافكار فتكل ، وتدور فيها الابصار فتضل .

فسلام على تلك الجزيرة الجرداء ، ومرحى لتلك المجاهل الخلاء ، فوالله ماتعوزها الرياض مبثوثة الزرابي والانماط ، ولا الحقول مبسوطة البرود والرياط ، ولا النمير يترقرق ، على حصباء تتألق ، فقد نبتت فيها حسنات الزمان ، وتفجرت منها ينابيع العرفان ، فغنيت بنضرة الآداب ، عن بهجة الاعشاب ، وبكمال السكان ، عن جمال المكان ، بل كانت مسبح الروح الامين ، وموئل الدنيا والدين . فتبارك الله احسن الخالقين .

فأي نياط لاينقطع ، وأي مهجة لاتتصدع ؟ وقد أودى اولئك الكرام ، وتنكرت تلك الايام ، حتى تبازى الرهام ، واستنسر الحمام ، ولم يبق غير أمة مكسال ، لاتتحرك الا بزلزال ، ولا تقطع من اشواط الدهر ، الا مسافة العمر من القبر .

فأين بنو قحطان ، وفتيان عدنان ؟ فيهبوا بالنفوس من غمرتها ، وينهضوا باللغة من كبوتها ، فتلك مفاخر بلادهم ، ومآثر أجدادهم ، ملء الانجاد والاغوار ، وطلاع

الدفاتر والاسفار، وانها لتطوي بالمرء مراحل العصور والاجيال، وتطل به على عالم الحقائق من ملكوت الخيال.

اما والله لولا تنطس بعض المتزمتين [1]. وسدهم على اللغة أبواب التعريب والاشتقاق، فحجروها في الحواشي، واقبعوها في المتون لما ازورّ الطلاب عنها، وامتلأوا نفورامنها. وكان العلم كل العلم ان يمضغ المرء كلام غيره، ويلوك أقوال سواه، فيتشدق بالمذاهب العقيمة، ويتبجح بالامثال السقيمة، وان قعد به العجز عن انشاء فقرة، وتصوير فكرة، ولم يغن عنه سواد الحدود والمصلحطات، وما افتنّ فيه من الشواهد والنكات.

ولا بدع فان الاصول وسيلة والانشاء غاية. ولشد ما بينهما من شاسع الفرق وواسع البون. وكم بين الماء والسراب، والقشور واللباب!

وأما من رزق قريحة وقادة، وبصيرة نقادة، واحاطة بما لامندوحة عنه من قواعد اللغة وأصول العربية، ثم راض نفسه على مزاولة أساليب العرب ومناحيهم، وتوفر على مطالعة تراكيبهم ومراميهم، فقد اكتسب من ملكتهم، ماأخرجه الى لهجتهم، فبات وما يعترضه عيّ ولا ترتهنه لكنة، ولا تحيف بيانه عجمة.

وهل البلاغة - لعمري الاّ بصقال الديباجة، ومتانة الاسلوب، وحلاوة الأداء. لتكون المعاني اعلق بالخاطر، وأسرى في السمع، وافعل في النفس؟ أرأيتك وقد ثقفتَ الالفاظ المتخيرة، وعرفت أين تضع يدك في سبكها وتأليفها - كيف تهز القلوب وتخلب الالباب، وتملك قياد الاهواء؟..

ولله در ابي هلال العسكري اذ قال في الصناعتين: «ان مدار البلاغة عليه تحسين اللفظ. وليس يطلب من المعنى الاّ ان يكون صوابا». وقال ابن الاثير: ان اللفظة الواحدة تنتقل من هيئة الى أخرى فتحسن أو تقبح. هذه لفظة الارض فانها لم ترد في القرآن الكريم الا مفردة سواء أفردت بالذكر عن السماء كما في قوله تعالى (والله أنبتكم

(١) المتزمّت من يظهر بمظهر الزميت وهو الكثير السكون والسكوت وقارا ورزانة، والتنطس التأنق والتدقيق والاستقصاء في الاشياء. يريد مبالغة بعض أهل العلم في المحافظة على القديم من استعمال اللغة

من الارض نَباتا) أو قرنت بالسماء مفردة كما في قوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الارض الا بإذنه) أومجموعة كما في قوله تعالى (الله الذي خلق السموات والارض) ؛ ولو كان استعمالها بلفظ الجمع مستحسنا لكان هذا الموضع أوشبهه أليق به. ولما أراد أن يأتي بها مجموعة قال(الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن) وكذلك قول أفصح الخلق لبعض النساء « ارجعن مأزورات غير مأجورات ». وحسبك ان المعاني المنقولة من لغة الى أخرى تفقد ماءها ، وتفارق صفاءها ، وما ذلك الا لانها انسلخت من برودها المُعلمة ، وانخلعت من قوالبها المحكمة . فكانت شبحا ناحلا، وخيالا ماثلا .

وليت شعري ماذا يضر المعاني ، اذا أجيدت لها المباني ، فكانت شرعاً في المتانة ، وسواء في الصياغة ؟ ولا سيما وقد جاشت غوارب العجمة ، وفشت لوثة اللحن ، ومست الحاجة الى شد أواصر اللغة ، وتقويم مناد اللسان .

الا وانه لمن البرّ بالادب ، والغيرة الصادقة على العرب ؛ أن ينسج المتأدب على منوال الفصحاء ، ويطبع على غِرار البلغاء . - فذلك تاريخ آبائنا . يصيح بنا من ورائنا ، وكله دموع تترى، لا ألفاظ تتلى ، (وما يذكر الا أولو الالباب) والله الموفق الى الصواب .

التعريف بكتاب الاعتصام

وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا * وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

العلماء المستقلون في هذه الامة ثلة من الاولين ، وقليل من الآخرين ، والامام الشاطبي من هؤلاء القليل . وما رأينا من آثاره الا القليل ، رأينا كتاب (الموافقات) من قبل ، ورأينا كتاب (الاعتصام) اليوم ، فأنشدنا قول الشاعر :

قليل منك يكفيني ولكن   قليلك لايقال له قليل

أدخل دار الكتب الخديوية وارم ببصرك الى الألوف من المصنفات في خزائنها ، تر أن كثرتها قلة ، وكثيرها قليل ، لأن القليل منها هو الذي تجد فيه علما صحيحاً لاتجده في غيره ، لأنه مما فتح الله به على صاحبه دون غيره . وقد كان كتاب (الاعتصام) من هذا القليل ، فأحسنت نظارة المعارف الى الامة الاسلامية كلها باجابة مجلس ادارة دار الكتب الخديوية الى طبعه

اتفق علماء الاجتماع والسياسة والمؤرخون من الامم المختلفة على أن العرب مانهضوا نهضتهم الاخيرة بالمدنية والعمران الا بتأثير الاسلام في جمع كلمتهم ، واصلاح شؤونهم النفسية والعملية ، ولكن اضطرب كثير من الناس في سبب ضعف المسلمين بعد قوتهم ، وذهاب ملكهم وحضارتهم ، فنسب بعضهم كل ذلك الى دينهم ، ومن يتكلم في ذلك على بصيرة يثبت ان الدين الذي كان سبب الصلاح والاصلاح . لايمكن أن يكون سبب الفساد والاختلال ، لان العلة الواحدة ، لايصدر عنها معلولات متناقضة ، فاذا كان لدين المسلمين تأثير في سوء حال خلفهم ، فلا بد أن يكون ذلك من جهة غير الجهة التي صلحت بها حال سلفهم ، وما هي الا البدع والمحدثات التي فرقت جماعتهم . وزحزحتهم عن الصراط المستقيم

من أجل ذلك كان تحرير مسائل البدع والابتداع مما ينفع المسلمين في أمر دينهم وأمر دنياهم ، ويكون أعظم عون لدعاة الاصلاح الاسلامي على سعيهم .

وقد كتب كثير من العلماء في البدع ، وكان أكثر ما كتبوا في الترهيب والتنفير ، والرد على المبتدعين . ولكن الفرق التي يرد بعضها على بعض ، يدعي كل منها أنه هو المحق ، وأن غيره الضال والمبتدع . إما بالاحداث في الدين . وإما بجهل مقاصده ، والجمود على ظواهره . وما رأينا أحداً منهم هُدي الى ماهدي اليه (أبو اسحاق الشاطبي) من البحث العلمي الاصولي في هذا الموضوع ، وتقسيمه الى أبواب يدخل في كل واحد منها فصول كثيرة

لولا أن هذا الكتاب ألف في عصر ضعف العلم والدين في المسلمين لكان مبدأ نهضة جديدة لإحياء السنة ، وإصلاح شؤون الأخلاق والاجتماع . ولكان المصنف بهذا الكتاب و بصنوه كتاب الموافقات — الذي لم يسبق الى مثله سابق أيضاً — من أعظم المجددين في الاسلام . فمثله كمثل الحكيم الاجتماعي عبد الرحمن ابن خلدون . كل منهما جاء بما لم يسبق الى مثله ، ولم تنتفع الامة ـ كما كان يجب ـ بعلمه

كتاب الموافقات لاند له في بابه (أصول الفقه وحكم الشريعة وأسرارها) وكتاب الاعتصام لاند له في بابه ، فهو ممتع مشبع ، ولم يتمه المصنف رحمه الله تعالى . وقد صدره بمقدمة في غربة الاسلام وحديث « بدأ الاسلام غريبا » المنبئ بذلك . ثم جعل مباحث ما كتبه في عشرة أبواب

(الباب الاول) في تعريف البدع ومعناها (الثاني) في ذم البدع وسوء منقلب أهلها (الثالث) في أن ذم البدع والمحدثات عام ، وفيه الكلام على شبه المبتدعة ، ومن جعل البدع حسنة وسيئة (الرابع) في مأخذ أهل البدع في الاستدلال (الخامس) في البدع الحقيقية والاضافية والفرق بينهما (السادس) في أحكام البدع وأنها ليست على رتبة واحدة (السابع) في الابتداع : يختص بالعبادات ، أم تدخل فيه العادات ؟ (الثامن) في الفرق بين البدع والمصالح المرسلة والاستحسان (التاسع) في السبب الذي لأجله افترقت فرق المبتدعة عن جماعة المسلمين (العاشر) في الصراط المستقيم الذي انحرفت عنه المبتدعة .

وفي هذه الابواب مباحث تشتبه فيها المسائل ، وتتعارض الدلائل ، وتتفج

الشبهات ، وتتراءى في معارض البينات . حتى يعز تحرير القول فيها ، والفصل بين قوادمها وخوافيها ، الاعلى من كان مثل المصنف في نور بصيرته ، وغزارة مادته ، وقوة عارضته ، وفصاحة عبارته

ومن أغمض هذه المسائل ما كان سنة أو مستحبا في نفسه وبدعة لوصف وهيئة عرضت له ، كالتزام المصلين المكث بعد الصلاة لاذكار وأدعية مأثورة يؤدونها بالاجتماع والاشتراك ، حتى صارت شعارا من شعائر الدين ، ينكر الناس على تاركيها دون فاعليها ، وقد أطال المصنف في اثبات كونها بدعة وأورد جميع الشبه التي دعمت بها ، وكر عليها بالنقض فهدمها كلها

ومالي لا أذكر لعلماء الشرع الاعلام ، ولأهل السياسة من علماء الحقوق والامراء والحكام ، أهم ماشرحه لهم هذا الكتاب من أصول الاسلام ، وهو بحث المصالح المرسلة والاستحسان ، من أصول مذهبي مالك وأبي حنيفة النعمان . وبهما يظهر اتساع الشرع لمصالح الناس في كل زمان ومكان ؟

بين المصنف وجه اشتباه ماسموه البدع المستحسنة ، بالاستحسان الفقهي والمصالح المرسلة . ثم كشف كل شبهة . وأزال كل غمة . فبين أن البدع ليست من هذين الاصلين في ورد ولا صدر . ولا تتفق معهما في علة ولا غرض ، فان البدعة كيفما كانت صفتها استدراك على الشرع وافتيات عليه ، وأما مسائل المصالح المرسلة والاستحسان فهي موافقة لحكمته ، وجارية على غير المعين من عموم بيناته وأدلته . وقد أورد المصنف ماقيل في تعريف ذينك الاصلين ووضح ذلك بالشواهد والامثلة ، فلو انك قرأت جميع ماتتداوله المدارس الاسلامية من كتب أصول الفقه وفروعه ، لانثنيت وانت لاتعرف حقيقة المصالح المرسلة والاستحسان ، كما تعرفها من هذا البحث الذي أوردها المصنف فيه تابعة لبيان حقيقة البدعة لامقصودة بالذات

من أراد أن يعرف فضل الاسلام وسماحته ، وسهولته ومرونته ، فليأخذه من ينبوعه ، وليستعن على فهمه بهؤلاء الحكماء الذين يشددون في انكار البدع ، ويدعون المسلمين الى السنة التي كان عليها السلف ، ويرون ضلال من يزيد في العبادات عليهم ، أشد وأضر من ضلال من ينقص في غير أصول الفرائض عنهم ،

ويوسعون على الناس في أمور العادات ، بناء على أصل الاباحة في الاشياء ، وان ظن كثير من الجاهلين ، ان هذا هو عين الجمود في الدين ، وجعله ديناً خاصا بأهل البداوة ، لا يطيق احتماله أهل المدنية والحضارة ؛ والامر بالضد ، ولله الامر من قبل ومن بعد

كان هذا الكتاب كنزا مخفيا لا توجد منه في هذه الاقطار الا نسخة بخط مغربي في كتب الشيخ محمد محمود الشنقيطي المحفوظة في دار الكتب الخديوية ، فاستخرجه مجلس ادارتها في العام الماضي واقترح طبعه ، فوافق ذلك رغبة صاحب السعادة أحمد حشمت باشا ناظر المعارف لذلك العهد ، وعهد الي بطبعه بشروط بينها في الكتاب الذي كتبه اليّ بذلك . وأرسلت اليّ دار الكتب الجزء الاول منه منسوخاً نسخاً جديدا على أوراق متفرقة لتجمع حروف الطبع عنها . فتصفحت بعضها فألفيت فيها غلطاً وتحريفاً كثيراً حتى في الاحاديث ، فكتبت في حاشية ماجمعت حروفه منها ليكون نموذجا للطبع تصحيحاً لما ظهر لي غلطه ، وتخريجاً لحديث « بدأ الاسلام غريباً » الذي بنى عليه المصنف مقدمة الكتاب وجعله الاصل في وجه الحاجة اليه . وفسرت فيها بعض الكلم الغامض وأطلعت على ذلك صديقي الاستاذ الفاضل السيد محمد الببلاوي وكيل دار الكتب الخديوية الذي يرجع اليه في تصحيح الكتب التي تطبع على نفقتها ، وقلت له يعز عليّ أن يطبع هذا الكتاب النفيس من غير أن يصحح أصله ويعلق عليه شيء . وأنا أتبرع بما أراه ضروريا من ذلك ، ومطبعتي تتبرع بتصحيح الطبع أيضاً . ولو كنت في سعة من وقتي لخرجت أحاديثه كلها ، وبذلت العناية بمراجعة كل نقوله من مظانها ، وبغير ذلك من تصحيحه فقال : نحن نرى من التوفيق أن يطبع هذا الكتاب تحت نظرك واشرافك ، ونرى انك أجدر وأحق بتصحيحه ....

ماتيسر لي قراءة شيء من الكتاب في وقت فراغ ، بل كانت المطبعة تعرض علي الاوراق عند ارادة الاشتغال بطبعها ،فكنت أرى الغلط فيه أنواعاً - (أحدها) ماأقطع بأن صوابه كذا كتحريف بعض الآيات ، أو الاحاديث المعزوة الى مخرجيها ، وتحريف أو تصحيف بعض الكلم ، فأنا أصحح هذا ولا أذكر في

الحاشية ما كان في الأصل الا قليلا (ثانيها) ما أظن ان صوابه كذا ، وهو ما ا كتب في الحاشية « لعل أصله كذا » أو ما يفيد هذا المعنى (ثالثها) ما أشتبه في أصله ماهو . فمنه ما أفهم المراد منه بالقرينة ، فإما ان أشير اليه في الحاشية ، وإما ان أتركه للقارئ . ويقل فيما تركته التحريف الذي لايفهم المراد منه مطلقا ، أو الا بعد تأمل طويل .

وقد يرى القارئ في بعض المواضع منه كلمات بين هذه العلامات ( ) التي يعبرون عنها بالاهلة أو الاقواس أو بدونها وقد تكون من حرف صغير ، ويرى ان المعنى لايلتئم الا بها ، ويجزم بأنها من الاصل ، وانما ميزناها بما ذكر ليعلم انها من المصحح ، ويرى في بعض المواضع علامة الاستفهام بين قوسين هكذا (؟) ويشار بها الى خفاء في تلك المواضع أو غلط لم نهتد الى أصله . ولكن لم نلتزم ذلك في كل مواضع الغلط المبهم

وقد تركت تصحيح بعض الاحاديث والآثار التي أحفظها من كتب الصحاح والسنن على غير ما وردت عليه في الكتاب ، لئلا يكون بعض المحدثين الذين لم نطلع على كتبهم رواها بسياق المصنف . وكتبت بازاء بعض ذلك علامة المراجعة على أوراق الطبع ، مريدا بذلك ان تعيده المطبعة الي للتأمل فيه أو مراجعته في مظانه . وعلمت بعد ذلك ان المطبعة كانت تراجع في بعض ذلك نسخة الكتاب المغربية فاذا رأت المعد للطبع موافقا لها طبعته ولم تعده الي ؛ فيفوتني ما أريد من تصحيحه

وجملة القول انني على ماأقاسي من العناء في تصحيح الكتاب لا أدعي انه قد تيسر لي تصحيحه كما أحب . وانما أقول انه يصحح تصحيحاً يمكن القارئ من فهمه ، فلا يكاد يخفى عليه منه الا النادر من المفردات أو الجمل التي لايخل خفاؤها بفهم المسألة التي عرضت له فيها . فهذا هو الطريق الذي سلكته في تصحيحه ، بينته قبل الاتمام . وعسى الله ان يوفقني بالخير الى زيادة العناية وحسن الختام ؟

وكتب في ١٥ شوال سنة ١٣٣٢　　محمد رشيد رضا

منشئ المنار، وناظر مدرسة دار الدعوة والارشاد

ترجمة الامام الشاطبي

من كتاب نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج ديباج ابن فرحون باختصار

هو ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي ابو اسحاق الشهير بالشاطبي الامام العلامة ، المحقق القدوة ، الحافظ الجليل المجتهد ، كان أصوليا مفسرا ، فقيها محدثا ، لغويا بيانيا ، نظارا ثبتا ، ورعا صالحا ، زاهدا سنيا ، اماما مطلقا ، بحاثا مدققا ، جدليا بارعا في العلوم ، من افراد العلماء المحققين الاثبات ، وأكابر الأئمة المتقنين الثقات ، له القدم الراسخ والامامة العظمى في الفنون ــ فقها وأصولا ، وتفسيرا وحديثا ، وعربية وغيرها ــ مع التحري والتحقيق ، له استنباطات جليلة ، ودقائق منيفة ، وفوائد لطيفة ، وابحاث شريفة ، وقواعد محررة محققة ، كان على قدم راسخ من الصلاح والعفة والتحري والورع ، حريصا على اتباع السنة ، مجانبا للبدع والشبهة ، ساعيا في ذلك مع تثبت تام ، منحرفا عن كل ما ينحو للبدع واهلها ، وقع له في ذلك أمور مع جماعة من شيوخه وغيرهم في مسائل

وله تآليف جليلة ، مشتملة على ابحاث نفيسة ، وانتقادات وتحقيقات شريفة ،

قال الامام الحفيد ابن مرزوق في حقه : انه الشيخ الاستاذ الفقيه ، الامام المحقق العلامة الصالح ، أبو اسحاق . انتهى ، وناهيك بهذه التحلية من مثل هذا الامام ، وانما يعرف الفضل لأهله أهله .

أخذ العربية وغيرها عن أئمة ، منهم الامام المفتوح عليه في فنها مالا مطمع فيه لسواه ، بحثا ، وحفظا ، وتوجيها ، ابن الفخار الألبيري . لازمه الى ان مات ، والامام الشريف رئيس العلوم اللسانية ، أبو القاسم السبتي ، شارح مقصورة حازم ، والامام المحقق أعلم أهل وقته ، الشريف أبو عبدالله التلمساني ، والامام علامة وقته باجماع ، ابو عبدالله المقري ، وقطب الدائرة شيخ الجلة ، الامير الشهير ، أبو سعيد ابن لب ، والامام الجليل ، الرحلة الخطيب ، ابن مرزوق الجد ، والعلامة المحقق المدرس الاصولي ، ابو علي منصور بن محمد الزواوي ، والعلامة المفسر المؤلف ابوعبد الله البلنسي ، والحاج العلامة الرحلة الخطيب ابو جعفر الشقوري . وممن اجتمع معه ، واستفاد منه ، العالم الحافظ الفقيه ، ابو عباس القباب ، والمفتي المحدث ابو عبدالله الحفار ، وغيرهم .

اجتهد وبرع ، وفاق الاكابر ، والتحق بكبار الأئمة في العلوم ، وبالغ في التحقيق ، وتكلم مع كثير من الأئمة في مشكلات المسائل من شيوخه وغيرهم ، كالقباب وقاضي

الجماعة الفشتالي ، والامام ابن عرفة ، والولي الكبير أبي عبدالله بن عباد . وجرى له معهم ابحاث ومراجعات ، اجلت عن ظهوره فيها ، وقوة عارضته وامامته ، منها مسئلة مراعاة الخلاف في المذهب (١) فيها له بحث عظيم مع الامامين القباب وابن عرفة . وله ابحاث جليلة في التصوف وغيره . وبالجملة فقدره في العلوم فوق ما يذكر ، وتحليته في التحقيق فوق مايشهر .

ألف تواليف نفيسة ، اشتملت على تحريرات للقواعد ، وتحقيقات لمهمات الفوائد . منها شرحه الجليل على الخلاصة في النحو . في أسفار أربعة كبار ، لم يؤلف عليها مثله بحثا وتحقيقا فيما أعلم . وكتاب (الموافقات) في أصول الفقه سماه «عنوان التعريف بأصول التكليف» كتاب جليل القدر جدا لا نظير له ، يدل على امامته ، وبعد شاؤه في العلوم ، سيما علم الاصول . قال الامام الحفيد بن مرزوق : كتاب الموافقات المذكور ، من انبل الكتب . وهو في سفرين . وتأليف كبير نفيس في الحوادث والبدع في سفر في غاية الاجادة ، سماه (الاعتصام) وكتاب (المجالس) شرح فيه كتاب البيوع من صحيح البخاري . فيه من الفوائد والتحقيقات ، مالا يعلمه الا الله . وكتاب (الافادات والانشادات) في كراسين فيه طرف وتحف . وملح ادبيات وانشادات . وله أيضا كتاب (عنوان الاتفاق . في علم الاشتقاق) وكتاب (أصول النحو) . وقد ذكرهما معاً في شرح الألفية . ورأيت في موضع آخر انه اتلف الاول في حياته وان الثاني اتلف ايضا . وله غيرها . وفتاوي كثيرة

ومن شعره لما ابتلي بالبدع :

بليت ياقوم والبلوى منوعة ... بمن اداريه حتى كاد يرديني
دفع المضرة لاجلبا لمصلحة ... فحسبي الله في عقلي وفي ديني

انشدهما تلميذه الامام ابو يحيى بن عاصم له مشافهة .

اخذ عنه جماعة من الائمة كالامامين العلامتين ابي يحيى بن عاصم الشهير وأخيه القاضي المؤلف ابي بكر بن عاصم . والشيخ ابي عبدالله البياني ، وغيرهم . وتوفي يوم الثلاثاء ثامن شعبان سنة تسعين وسبعمائة ولم أقف على مولده رحمه الله .

(فائدة) وكان صاحب الترجمة ممن يرى جواز ضرب الخراج على الناس ، عند ضعفهم وحاجتهم ، لضعف بيت المال عن القيام بمصالح الناس ، كما وقع للشيخ المالقي في كتاب الورع . قال : توظيف الخراج على المسلمين من المصالح المرسلة ، ولا شك عندنا في جوازه ، وظهور مصلحته في بلاد الاندلس في زماننا

(١) أشار الى هذه المسألة في المقدمة الثالثة عشرة من كتاب الموافقات

الآن . لكثرة الحاجة لما يأخذه العدو من المسلمين ، سوى ما يحتاج اليه الناس ، وضعف بيت المال الآن عنه ، فهذا يقطع بجوازه الآن في الأندلس ، وانما النظر في القدر المحتاج اليه من ذلك ؛ وذلك موكول الى الامام ، ثم قال اثناء كلامه : ولعلك تقول كما قال القائل ؛ لمن اجاز شرب العصير بعد كثرة طبخه وصار ربا : احللتها والله ياعمر . يعني هذا القائل احللت الخمر بالاستجرار الى نقص الطبخ . حتى تحل الخمر بمقالك ، فاني أقول - كما قال عمر رضي الله عنه : والله لا أحل شيئا حرمه الله ، ولا أحرم شيئا أحله ، وان الحق أحق ان يتبع (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)

وكان خراج بناء السور في بعض مواضع الاندلس في زمانه موظفا على أهل الموضع ، فسئل عنه امام الوقت في الفتيا بالاندلس الاستاذ الشهير ابو سعيد بن لب ، فأفتى انه لايجوز ولا يسوغ ، وافتى صاحب الترجمة بسوغه . مستندا فيه الى المصلحة المرسلة . معتمدا في ذلك الى قيام المصلحة ، التي ان لم يقم بها الناس فيعطونها من عندهم ضاعت . وقد تكلم على المسئلة الامام الغزالي في كتابه فاستوفى . ووقع لابن الفراء في ذلك مع سلطان وقته وفقهائه كلام مشهور ، لا نطيل به .

وكان لا يأخذ الفقه الا من كتب الاقدمين . ولا يرى لأحد ان ينظر في هذه الكتب المتأخرة ، كما قرره في مقدمة كتابه الموافقات . وترد عليه الكتب في ذلك من بعض أصحابه . فيوقع له : وأما ماذكرتم من عدم اعتمادي على التآليف المتأخرة . فليس ذلك مني محض رأي . ولكن اعتمدته بحسب الخبرة عند النظر في كتب المتقدمين مع المتاخرين كابن بشير . وابن شاس . وابن الحاجب . ومن بعدهم . ولان بعض من لقيته من العلماء بالفقه أوصاني بالتحامي عن كتب المتأخرين . وأتى بعبارة خشنة ولكنها محض النصيحة . والتساهل في النقل عن كل كتاب جاء لايحتمله دين الله ، ومثله ماذا عمل الناس بقول ضعيف . ونقل عن بعض الاصحاب : لاتجوز مخالفته . وذلك مشعر بالتساهل جدا . ونص ذلك القول لايوجد لاحد من العلماء فيما أعلم .

والعبارة الخشنة التي أشار اليها كان ينقلها عن صاحبه أبي العباس القباب انه كان يقول في ابن بشير وابن شاس : افسدوا الفقه ، وكان يقول : شأني عدم الاعتماد على التقاييد المتأخرة ؛ اما للهجل بمؤلفيها أو لتأخر أزمنتهم جدا . فلذلك لا أعرف كثيرا منها ولا اقتنيته . وعمدتي كتب الاقدمين المشاهير ولنقتصر على هذا القدر من بعض فوائده .

(دخول الابتداع في العاديات (*))

وأما تحليل الدماء والربا والحرير والغناء والخمر ، فخرج أبو داود وأحمد وغيرهما عن أبي مالك الاشعري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ليشربن ناس من امتي الخمر يسمونها بغير اسمها » — زاد ابن ماجه — « يعزف على رءوسهم بالمعازف والقينات ، يخسف الله بهم الارض ، ويجعل منهم القردة والخنازير » وخرجه البخاري عن أبي عامر وأبي مالك الاشعري قال فيه « ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخز (١) والحرير والخمر والمعازف ، ولينزلن اقوام الى جنب علم ، تروح عليهم سارحة لهم . يأتيهم رجل لحاجة فيقولون : ارجع الينا غدا ، فيبيتهم الله ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير الى يوم القيامة » . وفي سنن أبي داود « ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير — وقال في آخره — يمسخ منهم آخرين قردة وخنازير الى يوم القيامة » .

والخز هنا نوع من الحرير ليس الخز المأذون فيها المنسوج من حرير وغيره . وقوله في الحديث « لينزلن اقوام » يعني — والله أعلم — من هؤلاء المستحلين ، والمعنى ان هؤلاء المستحلين ينزل منهم أقوام الى جنب علم — وهو الجبل — ، فيواعدهم الى الغد ، فيبيتهم الله — وهو أخذ العذاب ليلا — ويمسخ منهم آخرين ، كما في حديث أبي داود كما في الحديث

*) تابع لما نشر من كتاب الاعتصام في ص ٦٧٣ ج ٩ وهو تتمة بحث النظر في أمثلة الوجه الثالث من أوجه دخول الابتداع في العاديات

(١) الرواية المشهورة بمهملتين ، وسيأتي ذكر هذا اللفظ وتفسيره في حديث آخر في ص ٧٥٥

قبل : يخسف الله بهم الارض ويمسخ منهم قردة وخنازير . وكأن الخسف هاهنا هو التبييت المذكور فى الآخر ؛

وهذا نص في ان هؤلاء الذين استحلوا هذه المحارم كانوا متأولين فيها حيث زعموا ان الشراب الذي شربوه ليس هو الخمر ، وانما له اسم آخر إما النبيذ أو غيره ، وانما الخمر عصير العنب النيء ، وهذا رأي طائفة من الكوفيين ، وقد ثبت ان كل مسكر خمر .

قال بعضهم: وانما أتى على هؤلاء حيث استحلوا المحرمات بما ظنوه من انتفاء الاسم، ولم يلتفتوا الى وجود المعنى المحرم وثبوته — قال — : وهذه بعينها شبهة اليهود في استحلالهم اخذ الحيتان يوم الاخذ بما اوقعوها به يوم السبت في الشباك والحفائر من فعلهم يوم الجمعة حيث قالوا : ليس هذا بصيد ، ولا عمل يوم السبت ؛ وليس هذا باستباحة الشح [1]

بل الذي يستحل الخمر زاعما (انه) ليس خمرا مع علمه بان معناه معنى الخمر ومقصوده مقصود الخمر ، أفسد تأويلا ، من جهة أن أهل الكوفة من اكثر الناس قياسا ؛ فلئن كان من القياس ماهو حق ،فان قياس الخمر المنبوذة على الخمر العصيرة من القياس في معنى الاصل ، وهو من القياس الجلي ؛ اذ ليس بينهما من الفرق ما يتوهم انه مؤثر في التحريم

فاذا كان هؤلاء المذكورون في الحديث إنما شربوا الخمر استحلالا لها لما ظنوا ان المحرم مجرد ماوقع عليه اللفظ ، وظنوا ان لفظ الخمر لايقع على غير عصير العنب النيء ، فشبهتهم فى استحلال الحرير والمعازف أظهر

(١) كذا ولعله «السبت». والعبارة كلها مضطربة ليست سالمة من التحريف

بانه ابيح الحرير (للنساء) مطلقا ؛ وللرجال في بعض الاحوال ؛ فكذلك الغناء والدف قد ابيح في العرس ونحوه ، وابيح منه الحداء وغيره ؛ وليس فى هـذا النوع من دلائل التحريم ما في الخمر ؛ فظهر ذم الذين يخسف بهم ويمسخون ، انما فعل ذلك بهم من جهة التأويل الفاسد الذي استحلوا به المحارم بطريق الحيلة، وأعرضوا عن مقصود الشارع وحكمته في تحريم هذه الاشياء .

وقد خرج ابن بطة عن الاوزاعي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « يأتي على الناس زمان يستحلون فيه الربا بالبيع » قال بعضهم : يعني العينة . وروي في استحلال الربا حديث رواه ابراهيم الحربي عن ابي ثعلبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اول دينكم نبوة ورحمة ، ثم ملك وجبرية ، ثم ملك عضوض يستحل فيه الحر والخز » يريد استحلال الفروج الحرام ، والحر بكسر الحاء المهملة والراء المخففة الفرج ، قالوا : ويشبه — والله اعلم — ان يراد بذلك ظهور استحلال نكاح المحلل ونحو ذلك بما يوجب استحلال الفروج المحرمة ؛ فان الامة لم يستحل احد منها الزنا الصريح ، ولم يرد بالاستحلال مجرد الفعل ، فان هذا لم يزل معمولا في الناس ؛ ثم لفظ الاستحلال انما يستعمل في الاصل فيمن اعتقد الشيء حلالا ، والواقع كذلك ؛ فان هذا الملك العضوض الذي كان بعد الملك والجبرية قد كان في اواخر عصر التابعين ، في تلك الازمان صار في اولي الامر من يفتي بنكاح المحلل ونحوه ، ولم يكن قبل ذلك من يفتي به اصلا .

ويؤيد ذلك انه في حديث ابن مسعود رضي الله عنه المشهور أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا وشاهديه وكاتبه والمحلل له . وروى احمد عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما ظهر في قوم الربا والزنا الا أحلوا بانفسهم عقاب الله » فهذا يشعر بان التحليل من الزنا كما يشعر ان العينة من الربا .

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا ومرفوعا قال « يأتي على الناس زمان يستحل فيه خمسة اشياء - : يستحلون الخمر باسماء يسمونها بها ، والسحت بالهدية ، والقتل بالريبة ، والزنا بالنكاح ، والربا بالبيع » فان الزيادة المذكورة اولا قد سنت ، واما السحت الذي هو العطية للوالي والحاكم ونحوهما باسم الهدية فهو ظاهر ، واستحلال القتل باسم الارهاب الذي يسميه ولاة الظلم سياسة وابهة الملك ونحو ذلك فظاهر ايضا ، وهو نوع من انواع شريعة القتل المخترعة . وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم الخوارج بهذا النوع من الخصال فقال « ان من ضئضئ هذا قوما يقرؤن القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، يقتلون اهل الاسلام ، ويدعون اهل الاوثان ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » ولعل هؤلاء المرادون بقوله عليه الصلاة والسلام في حديث ابي هريرة رضي الله عنه « يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا » الحديث . يدل عليه تفسير الحسن قال : يصبح محرما لدم اخيه وعرضه ويمسي مستحلا ، الى آخره .

وقد وضع القتل شرعا معمولا به على غير سنة الله وسنة رسوله المتسمى بالمهدي المغربي الذي زعم انه المبشر به فى الاحاديث ، فجعل القتل عقابا في ثمانية عشر صنفا ذكروا منها : الكذب ، والمداهنة ، واخذهم

ايضا بالقتل فى ترك امتثال امر من يستمع أمره ، وبايعوه على ذلك ؛ وكان يعظهم في كل وقت ويذكرهم ،ومن لم يحضر أدّب ، فان تمادى قتل ، وكل من لم يتأدب بما ادب به ضرب بالسوط المرة والمرتين ، فان ظهر منه عناد في ترك امتثال الاوامر قتل ؛ ومن داهن على اخيه او أبيه او من يكرم او المقدم عليه قتل . وكل من شك فى عصمته قتل او شك في انه المهدي المبشر به ، وكل من خالف امره امر اصحابه فعروه ، فكان اكثر تاديبه القتل — كما ترى — كما انه كان من رأيه ان لا يصلى خلف امام او خطيب ياخذ أجرا على الامامة او الخطابة ، وكذلك لبس الثياب الرفيعة - وان كانت حلالا - فقد حكوا عنه قبل ان يستفحل امره انه ترك الصلاة خلف خطيب اغمات بذلك السبب . فقدم خطيب آخر في ثياب حفيلة تباين التواضع — زعموا —[1] فترك الصلاة خلفه .

وكان من رأيه ترك الرأي واتباع مذاهب الظاهرية . قال العلماء : وهو بدعة ظهرت في الشريعة بعد المائتين . ومن رأيه ان التمادي على ذرة من الباطل كالتمادي على الباطل كله .

وذكر في كتاب الامامة انه هو الامام ، واصحابه هم الغرباء الذين قيل فيهم « بدئ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدئ ، فطوبى للغرباء » وقال في الكتاب المذكور : جاء الله بالمهدي وطاعته صافية نقية لم ير مثلها قبل ولا بعد ، وان به قامت السموات والارض ، وبه تقوم ، ولا

(١) كلمة « زعموا » جملة معترضة تؤذن بالبراءة مما يحكى عنهم . وأفصح منه ان يقال: بزعمهم . كما قال تعالى (فقالوا :هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا)

ضد له ولا مثل ولاندّ ، انتهى . وكذب . فالمهدي عيسى عليه السلام .

وكان يأمرهم بلزوم الحزب بعد صلاة الصبح ، وبعد المغرب ، فأمر المؤذنين اذا طلع الفجر ان ينادوا «اصبح ولله الحمد» إشعارا - زعموا - بان الفجر قد طلع لالزام الطاعة ، ولحضور الجماعة ، وللغد ، ولكل ما يؤمرون به .

وله اختراعات وابتداعات غير ما ذكرنا ، وجميع ذلك الى [1] انه قائل برأيه في العبادات والعادات ، مع زعمه انه غير قائل بالرأي . وهو التناقض بعينه ، فقد ظهر اذا جريان تلك الاشياء على الابتداع

*

وأما كون الزكاة مغرما ، فالمغرم (ما) يلزم اداؤه من الديون ، والغرامات كان الولاة يلزمونها الناس بشيء معلوم من غير نظر الى قلة مال الزكاة أو كثرته أو قصوره عن النصاب أو عدم قصوره ، بل يأخذونهم بها على كل حال الى الموت ، وكون هذا بدعة ظاهر .

*

وأما ارتفاع الاصوات في المساجد فناشئ عن بدعة الجدال في الدين ، فان من عادة قراءة العلم وإقرائه وسماعه وإسماعه أن يكون في المساجد ، ومن آدابه أن لا ترفع فيه الاصوات في غير المساجد ، فما ظنك به في المساجد ؟ فالجدال فيه زيادة الهوى ، فانه غير مشروع في الاصل ، فقد جعل العلماء من عقائد الاسلام ترك المراء والجدال في الدين ، وهو الكلام فيما لم يأذن في الكلام فيه ، كالكلام فى المتشابهات من

(١) كذا في الاصل والمعنى المراد ان جميع ذلك يدل على انه قائل برأيه

الصفات والافعال وغيرها ، وكمتشابهات القرآن ، ولاجل ذلك جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) الآية ، قال — « فاذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم » وفي الحديث « ماضل قوم بعد هدى الا أوتوا الجدل » وجاء عنه عليه السلام انه قال: « لاتماروا في القرآن فان المراء فيه كفر » وعنه عليه السلام انه قال « ان القرآن يصدّق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، ماعلمتم منه فاقبلوه ومالم تعلموا منه فكلوه الى عالمه » وقال عليه السلام « اقرؤا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فاذا اختلفتم فيه فقوموا عنه » وخرج ابن وهب عن معاوية بن قرة قال : اياكم والخصومات في الدين فانها تحبط الاعمال . وقال النخعي في قوله تعالى (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء) قال : الجدال والخصومات في الدين .

وقال معن بن عيسى : انصرف مالك يوماً الى المسجد وهو متكئ على يديّ ، فلحقه رجل يقال له ابو الجديرة يتهم بالإرجاء ، فقال يا أبا عبد الله ! اسمع مني شيئاً أكلمك به وأحاجّك وأخبرك برأيي . فقال له : احذر أن أشهد عليك . قال : والله ما أريد الا الحق . اسمع مني ، فان كان صواباً فقل به أو فتكلم ، قال : فان غلبتني ؟ قال : اتبعني . قال فان غلبتك ؟ قال اتبعتك ، قال : فان جاء رجل فكلمناه فغلبنا ؟ قال: اتبعناه . فقال له مالك : ياعبد الله ! بعث الله محمدا بدين واحد وأراك تنتقل . وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه عرضاً للخصومات اكثر التنقل . وقال مالك : ليس الجدال في الدين بشيء .

والكلام فى ذم الجدال كثير . فاذا كان مذموماً فمن جعله محمودا وعده من العلوم النافعة باطلاق فقد ابتدع في الدين. ولما كان اتباع الهوى أصل الابتداع لم يعدم صاحب الجدال أن يماري ويطلب الغلبة ، وذلك مظنة رفع الاصوات .

فان قيل : عددت رفع الاصوات من فروع الجدال وخواصه وليس كذلك ، فرفع الاصوات قد يكون في العلم ، ولذلك كره رفع الاصوات فى المسجد ، وان كان فى العلم أو في غير العلم . قال ابن القاسم فى المبسوط : رأيت مالكا يعيب على أصحابه رفع أصواتهم فى المسجد . وعلل ذلك محمد ابن مسلمة بعلتين : احداهما انه يجب أن ينزه المسجد عن مثل هذا لأنه مما امر بتعظيمه وتوقيره . والثانية انه مبني للصلاة ، وقد أُمرنا أن نأتيها وعلينا السكينة والوقار ، فأن يلزم ذلك فى موضعها المتخذ لها أولى. وروى مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنى رحبة بين ناحية المسجد تسمى البطحاء [1] وقال : من كان يريد أن يلغط أو ينشد شعراً أو يرفع صوته فليخرج الى هذه الرحبة . فاذا كان كذلك ، فمن أين يدل ذم رفع الصوت في المسجد على الجدل المنهي عنه ؟

فالجواب من وجهين : (أحدهما) أن رفع الصوت من خواص الجدل المذموم ، أعني في أكثر الامر دون الفلتات ،لان رفع الصوت والخروج عن الاعتدال فيه ناشئ عن الهوى فى الشيء المتكلم فيه . وأقرب الكلام الخاص بالمسجد الى رفع الصوت الكلام فيما لم يؤذن فيه ، وهو الجدال الذي نبه عليه الحديث المتقدم . وأيضاً لم يكثر الكلام جدا

(١) كذا في الاصل

فى نوع من أنواع العلم فى الزمان المتقدم الا في علم الكلام ، والى غرضه تصوبت سهام النقد والذم ؛ فهو اذاً هو . وقد روي عن عميرة ابن أبي ناجية المصري انه رأى قوماً يتمارّون في المسجد وقد علت أصواتهم فقال: هؤلاء قوم قد ملوا العبادة، وأقبلوا على الكلام ، اللهم أمت عميرة. فمات من عامه ذلك في الحج ؛ فرأى رجل فى النوم قائلا يقول : مات فى هذه الليلة نصف الناس فعرفت تلك الليلة ، فجاء موت عميرة هذا .

(والثاني) انا لو سلمنا أن مجرد رفع الاصوات يدل على ماقلنا لكان أيضاً من البدع اذا عدكأنه من الجائز فى جميع أنواع العلم فصار معمولا به لاهى [1] ولا يكف عنه مجرى البدع المحدثات [2] .

*

وأما تقديم الاحداث على غيرهم ؛ من [3] قبيل ما تقدم في كثرة الجهال وقلة العلم ، كان ذلك التقديم في رتب العلم او غيره ، لان الحدث ابدا او في غالب الامر غِرٌّ لم يتحنك ، ولم يرتض في صناعته رياضة تبلغه مبالغ الشيوخ الراسخين الاقدام في تلك الصناعة ؛ ولذلك قالوا في المثل :

وابن اللبون اذا ما لُزَّ في قرن   لم يستطع صولة البُزْل القناعيس

هذا ان حملنا الحدث على حداثة السن ، وهو نص في حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، فان حملناه على حدثان العهد بالصناعة — ويحتمله قوله « وكان زعيم القوم ارذلهم » وقوله « وساد القبيلة فاسقهم » وقوله

(١) الكلمة غير منقوطة في الاصل وتحتمل بالتصحيف والتحريف عدة احتمالات
(٢) كذا . ولعل أصله : فجرى مجرى البدع المحدثات (٣) لعل الاصل «فمن»

« اذا اسند الامر الى غير اهله » فالمعنى فيها واحد - فان الحديث العهد بالشيء لا يبلغ مبالغ القديم العهد فيه . ولذلك يحكى عن الشيخ ابي مدين انه سئل عن الاحداث الذين نهى شيوخ الصوفية عنهم ؛ فقال : الحدث الذي لم يستكمل الامر بعد ، وان كان ابن ثمانين سنة .

فاذاً تقديم الاحداث على غيرهم ، من باب تقديم الجهال على غيرهم . ولذلك قال فيهم « سفهاء الاحلام - وقال - يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم » الى آخره ؛ وهو منزل على الحديث الآخر في الخوارج « إن من ضئضئ هذا قوما يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم » الى آخر الحديث . يعني انهم لم يتفقهوا فيه ، فهو في ألسنتهم لا في قلوبهم .

*

واما لعن آخر هذه الامة اولها ؛ فظاهر مما ذكر العلماء عن بعض الفرق الضالة ؛ فان الكاملية من الشيعة كفرت الصحابة رضي الله عنهم حين لم يصرفوا الخلافة الى علي رضي الله عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكفرت عليا رضي الله عنه حين لم يأخذ بحقه فيها .

واما ما دون ذلك مما يوقف فيه عند السبب ، فنقول موجود في الكتب ، وانما فعلوا ذلك لمذاهب سوء لهم رأوها فبنوا عليها مايضاهيها من السوء والفحشاء ، فلذلك عدوا من فرق اهل البدع

قال مصعب الزبيري وابن نافع : دخل هارون (يعني الرشيد) المسجد فركع ، ثم اتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فسلم عليه ، ثم اتى مجلس مالك فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . ثم قال لمالك : هل لمن سب اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفيء حق ؟ قال لا !

ولا كرامة ولا مسرة . قال : من اين قلت ذلك ؟ قال : قال الله عز وجل (ليغيظ بهم الكفار) فمن عابهم فهو كافر ، ولا حق لكافر في الفيء .

واحتج مرة اخرى في ذلك بقوله تعالى (للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم) الى آخر الآيات الثلاث - قال - فهم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا معه وانصاره ، (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) فمن عدا هؤلاء فلا حق لهم فيه . وفي فعل خواص الفرق من هذا المعنى كثير .

*

واما بعث الدجالين ، فقد كان ذلك جملة ، منهم من تقدم في زمان بني العباس وغيرهم . ومنهم معدّ [1] من العبيدية الذين ملكوا افريقية ؛ فقد حكي عنه انه جعل المؤذن يقول : اشهد ان معدًّا رسول الله . عوضا من كلمة الحق « اشهد ان محمدا رسول الله » فهمّ المسلمون بقتله ثم رفعوه الى معد ليروا هل هذا عن امره ، فلما انتهى كلامهم اليه ، قال : أردُدْ عليهم اذانهم لعنهم الله .

ومن يدعي لنفسه العصمة ، فهو شبه من يدعي النبوة . ومن يزعم انه به قامت السموات والارض فقد جاوز دعوى النبوة ، وهو المغربي المتسمى بالمهدي .

وقد كان في الزمان القريب رجل يقال له الفازازي ادعى النبوة واستظهر عليها بامور موهمة للكرامات ، والاخبار بالمغيبات ، ومخيلة

(١) هو اسم أول خلفاء العبيديين الملقب بالمعز لدين الله

لخوارق العادات ، تبعه على ذلك من العوام جملة ؛ ولقد سمعت بعض طلبة ذلك البلد الذي اختله هذا الباس — وهو مالقة — آخذا ينظر فى قوله تعالى (وخاتم النبيين) وهل يمكن تأويله ؟ وجعل يطرق اليه الاحتمالات ، ليسوغ امكان بعث نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وكان مقتل هذا المفتري على يد شيخ شيوخنا ابي جعفر ابن الزبير رحمه الله .

ولقد حكى بعض مؤلفي الوقت قال : حدثني شيخنا ابو الحسن ابن الجياب ، قال : لما امر بالتأهب يوم قتله وهو في السجن الذي اخرج منه الى مصرعه جهر بتلاوة سورة يس ، فقال له احد الذعرة ممن جمع السجن بينهما : اقرأ قرآنك ، لاي شيء تتفضل على قرآننا اليوم ؟ او في معنى هذا . فتركها مثلا بلوذعيته .

واما مفارقة الجماعة ، فبدعتها ظاهرة ؛ ولذلك يجازى [1] بالميتة الجاهلية . وقد ظهر في الخوارج وغيرهم ممن سلك مسلكهم كالعبيدية واشباههم

فهذا ايضا من جملة ما اشتملت عليه تلك الاحاديث . وباقي الخصال المذكورة عائد الى نحو آخر ككثرة النساء وقلة الرجال ، وتطاول الناس فى البنيان ، وتقارب الزمان .

فالحاصل ان اكثر الحوادث التي اخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم من انها تقع وتظهر وتنتشر امور مبتدعة على مضاهاة التشريع ، لكن من جهة التعبد لا من جهة كونها عادية ؛ وهو الفرق بين المعصية التي

(١) أي يجازى مفارقها . ولعل الفاعل قد سقط من الاصل بسهو الناسخ

هي بدعة ، والمعصية التي هي ليست ببدعة . وان العاديات من حيث هي عادية لا بدعة فيها ، ومن حيث يتعبد بها او توضع وضع التعبد تدخلها البدعة ؛ وحصل بذلك اتفاق القولين ، وصار المذهبان مذهبا واحدا ، وبالله التوفيق

فصل

فان قيل : اما الابتداع بمعنى انه نوع من التشريع على وجه التعبد في العاديات من حيث (هو) توقيت معلوم معقول ؛ فايجابه او إجازته بالرأي ـ كما تقدم ـ من امثلة بدع الخوارج ومن داناهم من الفرق الخارجة عن الجادة ، فظاهر .[1] ومن ذلك القول بالتحسين والتقبيح العقلي ؛ والقول بترك العمل بخبر الواحد ، وما اشبه ذلك . فالقول بانه بدعة قد تبين وجهه واتضح مغزاه

وانما يبقى وجه آخر يشبهه وليس به ، وهو ان المعاصي والمنكرات والمكروهات قد تظهر وتفشو ويجري العمل بها بين الناس على وجه لا يقع لها انكار من خاص ولا عام ، فما كان منها هذا شأنه : هل يعدّ مثله بدعة أم لا ؟

فالجواب : ان مثل هذه المسئلة لها نظران (احدهما) نظر من حيث وقوعها عملا واعتقادا في الاصل ، فلا شك انها مخالفة لا بدعة ، اذ ليس من شرط كون الممنوع والمكروه غير بدعة أن لا ينشرها ولا يظهرها

(١) قوله « فظاهر » جواب « أما الابتداع » في اول الفصل . وما بينهما اعتراض ، وقوله فيه « فايجابه » مبتدأ خبره « من أمثلة بدع الخوارج » وفي الكلام تعقيد معنوي ظاهر

أنه ليس من شرط ان تنتشر ، بل لا تزول المخالفة ظهرت اولا ، واشتهرت ام لا ، وكذلك دوام العمل او عدم دوامه لا يؤثر في واحدة منهما ، والمبتدع قد يقام عن بدعة ، والمخالف قد يدوم على مخالفته الى الموت – عياذا بالله .

(والثاني) نظر من جهة ما يقترن من خارج ؛ فالقرائن قد تقترن ؛ فتكون سببا فى مفسدة حالية ، وفي مفسدة مالية كلاهما راجع الى اعتقاد البدعة .

اما الحالية فبأمرين : الاول ان يعمل بها الخواص من الناس عموما ، وخاصة العلماء خصوصا . وتظهر من جهتهم . وهذه مفسدة في الاسلام ينشأ عنها عادة من جهة العوام استسهالها واستجازتها ، لان العالم المنتصب مفتيا للناس بعمله كما هو مفت بقوله . فاذا نظر الناس اليه وهو يعمل بأمره هو مخالفة [1] حصل فى اعتقادهم جوازه ، ويقولون : لو كان ممنوعا أو مكروها لامتنع منه العالم . هذا وان نص على منعه أو كراهته ، فان عمله معارض لقوله ؛ فإما أن يقول العامي : ان العالم خالف بذلك ، ويجوز عليه مثل ذلك . وهم عقلاء الناس وهم الاقلون . وإما أن يقول : انه وجد فيه رخصة فانه لو كان كما قال لم (يات) به فيرجح بين قوله وفعله . والفعل أغلب من القول فى جهة التأسي – كما تبين في كتاب الموافقات – فيعمل العامي بعمل العالم تحسينا للظن به فيعتقده جائزا ؛ وهؤلاء هم الاكثرون . فقد صار عمل العالم عند العامي حجة ، كما كان قوله حجة على

(١) كذا فى الاصل ، وهو تحريف ظاهر ، والمعنى مفهوم من القرينة وهو : فاذا نظر اليه الناس يعمل ما يأمر هو بمخالفته أي بتركه حصل في اعتقادهم جوازه .

الاطلاق والعموم في الفتيا ، فاجتمع على العامي العمل مع اعتقاد الجواز بشبهة دليل ، وهذا عين البدعة

بل قد وقع مثل هذا في طائفة ممن تميز عن العامة بانتصاب في رتبة العلماء ، فجعلوا العمل ببدعة الدعاء بهيئة الاجتماع في آثار الصلوات ، وقراءة الحزب ، حجة في جواز العمل بالبدع فى الجملة ، وان منها ما هو حسن ؛ وكان منهم من ارتسم في طريقة التصوف فأجاز التعبد لله بالعبادات المبتدعة ، واحتج بالحزب والدعاء بعد الصلاة — كما تقدم —

ومنهم من اعتقد انه ما عمل به الا لمستند ، فوضعه فى كتاب وجعله فقهاً كبعض أماريد الرس ممن قيد على الامة ابن زيد .

وأصل جميع ذلك سكوت الخواص عن البيان ، والعمل به على الغفلة ، ومن هنا تستشنع زلة العالم ، فقد قالوا : ثلاث تهدم الدين ـ زلة العالم ، وجدال منافق بالقرآن ، وأئمة ضالون .

وكل ذلك عائد وباله على عالم (١) وزلله المذكور عند العلماء يحتمل وجهين : (أحدهما) زلله في النظر حتى يفتي بما خالف الكتاب والسنة فيتابع عليه ، وذلك الفتيا بالقول . والثاني زلله في العمل بالمخالفات ، فيتابع عليها أيضاً على التأويل المذكور ، وهو في الاعتبار قائم مقام الفتيا بالقول ، اذ قد علم أنه متبع ومنظور اليـه ، وهو مع ذلك يظهر بقوله ما ينهى عنه الشارع ، فكأنه مفتٍ به ـ على ما تقرر في الاصول ـ

والثاني من قسمي المفسدة الحالية أن يعمل بها العوام وتشيع فيهم وتظهر فلا ينكرها الخواص ولا يرفعون لها رؤسهم (٢) قادرون على

(١) كذا ولعل اصله « على العالم » بفتح اللام على حد قولهم :اذا زل العالم « بالكسر » زل العالم « بالفتح » (٢) سقط من هنا كلمة ربما كانت « وهم »

الانكار فلم يفعلوا ، فالعامي من شأنه اذا رأى أمراً يجهل حكمه يعمل العامل به فلا ينكر عليه، اعتقد أنه جائز وأنه حسن أو أنه مشروع؛ بخلاف ما اذا أنكر عليه فانه يعتقد انه عيب ، أو أنه غير مشروع (أو) أنه ليس من فعل المسلمين . هذا أمر يلزم من ليس بعالم بالشريعة ، لان مستنده الخواص والعلماء في الجائز مع غير الجائز .

فاذا عدم الانكار ممن شأنه الانكار ، مع ظهور العمل وانتشاره وعدم خوف المنكر ووجود القدرة عليه ، فلم يفعل؛ دل عند العوام أنه فعل جائز لا حرج فيه ؛ فنشأ فيه هذا الاعتقاد الفاسد بتأويل يقنع بمثله من العوام[1] فصارت المخالفة بدعة — كما في القسم الاول —

وقد ثبت في الاصول ان العالم في الناس قائم مقام النبي عليه الصلاة والسلام ؛ والعلماء ورثة الانبياء ؛ فكما ان النبي صلى الله عليه وسلم يدل على الاحكام بقوله وفعله واقراره ، كذلك وارثه يدل على الاحكام بقوله وفعله واقراره . واعتبر ذلك ببعض ما أحدث في المساجد من الامور المنهي عنها فلم ينظرها العلماء ، أو عملوا بها فصارت بعدُ سننا ومشروعات، كزيادتهم مع الاذان «أصبح ولله الحمد » والوضوء للصلاة ، « تأهبوا » ، ودعاء المؤذنين بالليل في الصوامع ؛ وربما احتجوا ذلك ببعض الناس بما وضع في نوازل ابن سهل غفلة عما عليه فيه[2] وقد قيدنا في ذلك جزءا مفردا فمن أراد الشفاء في المسئلة فعليه به ، وبالله التوفيق .

(١) كذا ولعل الاصل « من كان من العوام » (٢) لعل الاصل « وربما حتجوا على ذلك بما يفعله بعض الناس وبما وضع في نوازل ابن سهل غفلة عما أخذ عليه فيه » أو أن في الكلام حذفا غير ما ذكر تصح به العبارة

وخرج أبو داود قال: اهتم النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة كيف يجمع الناس لها، فقيل: انصب راية عند حضور الصلاة فاذا رأوها أذن بعضهم بعضاً. فلم يعجبه ذلك؛ — قال — فذكر له القمع، يعني الشبور، وفي رواية شبور اليهود فلم يعجبه؛ وقال «هو من أمر اليهود — قال: فذكر له الناقوس، فقال — هو من أمر النصارى» فانصرف عبد الله بن زيد بن عبد ربه وهو مهتم لهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأري الاذان في منامه ـ الى آخر الحديث.

وفي مسلم عن أنس بن مالك أنه قال: ذكروا أن يعلموا وقت الصلاة بشيء يعرفونه، فذكروا أن ينوروا نارا، أو يضربوا ناقوساً[1] فأمر بلال أن يشفع الاذان ويوتر الاقامة. والقمع والشبور — هو البوق — وهو القرن الذي وقع في حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فأنت ترى كيف كره النبي صلى الله عليه وسلم شأن الكفار فلم يعمل على موافقته. فكان ينبغي لمن اتسم بسمة العلم أن ينكر ما أحدث من ذلك في المساجد اعلاماً بالاوقات أو غير اعلام بها؛ أما الراية فقد وضعت إعلاماً بالاوقات، وذلك شائع في بلاد المغرب، حتى أن الاذان معها قد صار في حكم التبع[2]

(١) يظهر انه قد سقط من هذا الموضع كلام بمعنى ما تقدم من الاعراض عن هذه الاشياء لانها شعائر الملل السابقة، و بما كان من اختيار الاذان، ثم فرع عليه امر بلال بالتفرقة بين الاذان والاقامة بجعله شفعا وجعلها وترا (٢) في بعض بلاد الشام يرفعون علما من منارة الجامع الذي يكون فيه الموقت لاجل ان يراه المؤذنون من سائر المنارات فيؤذنون في وقت واحد، وانما يكون ذلك في وقت الظهر والعصر والمغرب

وأما البوق فهو العلم فى رمضان على غروب الشمس ودخول وقت الافطار، ثم هو علم أيضاً بالمغرب والاندلس على وقت السحور ابتداءا وانتهاءا [1] والحديث قد جعل علما لانتهاء نداء ابن أم مكتوم. قال ابن شهاب: وكان ابن أم مكتوم رجلا أعمى لا ينادي حتى يقال له أصبحت أصبحت.

وفي مسلم وابي داود « لا يمنعن احدكم نداء بلال من سحوره فانه يؤذن ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم » الحديث. فقد جعل اذان بلال لان ينتبه النائم لما يحتاج اليه من سحوره وغيره؛ فالبوق ما شأنه؟ وقد كرهه عليه السلام، ومثله النار التي ترفع دائما في اوقات الليل وبالعشاء والصبح فى رمضان ايضا، اعلاما بدخوله، فتوقد في داخل المسجد ثم في وقت السحور، ثم ترفع في المنار اعلاما بالوقت؛ والنار شعار المجوس في الاصل.

قال ابن العربي: اول من اتخذ البخور في المسجد بنو برمك يحيي بن خالد ومحمد بن خالد — ملكهما الوالي امر الدين فكان محمد بن خالد حاجبا ويحيي وزيرا، ثم ابنه جعفر بن يحيي — قال — وكانوا باطنية يعتقدون آراء الفلاسفة، فاحيوا المجوسية، واتخذوا البخور في المساجد — وانما تطيب بالخلوق — فزادوا التجمير [2] ويعمرونها بالنار منقولة حتى

(١) قد استبدلت المدافع في هذا العصر بالبوق (٢) قال بعض المؤرخين: ان البرامكة زينوا للرشيد وضع المجامر في الكعبة المشرفة ليأنس المسلمون بوضع النار في اعظم معابدهم، والنار معبود المجوس. والظاهر ان البرامكة كانوا من رؤساء جمعيات المجوس السرية التي تحاول هدم الاسلام وسلطة العرب واعادة الملك للمجوس. وانما فتك بهم هارون الرشيد لانه وقف على دخائلهم

يجعلوها عند الاندلس ببخورها ثابتة [1] انتهى.

وحاصله ان النار ليس ايقادها في المساجد من شأن السلف الصالح، ولا كانت مما تزين بها المساجد البتة، ثم احدث التزين بها حتى صارت من جملة ما يعظم به رمضان؛ واعتقد العامة هذا كما اعتقدوا طلب البوق فى رمضان في المساجد: حتى لقد سأل بعض عنه: اهو سنة ام لا؛ ولا يشك احد ان غالب العوام يعتقدون ان مثل هذه الامور مشروعة على الجملة في المساجد، وذلك بسبب ترك الخواص الانكار عليهم.

وكذلك ايضا لما لم يتخذ الناقوس للاعلام، حاول الشيطان فيه بمكيدة أخرى، فعلق بالمساجد واعتد به في جملة الآلات التي توقد عليها النيران وتزخرف بها المساجد، زيادة الى زخرفتها بغير ذلك، كما تزخرف الكنائس والبيع

ومثله ايقاد الشمع بعرفة ليلة الثامن، ذكر النواوي انها من البدع القبيحة، وانها ضلالة فاحشة جمع فيها انواع من القبائح — : منها اضاعة المال في غير وجهه، ومنها اظهار شعائر المجوس، ومنها اختلاط الرجال والنساء والشمع بينهم ووجوههم بارزة، ومنها تقديم دخول عرفة قبل وقتها المشروع اه.

وقد ذكر الطرطوشي فى ايقاد المساجد في رمضان بعض هذه الامور، وذكر ايضا قبائح سواها. فاين هذا كله من انكار مالك لتنحنح المؤذن او ضربه الباب ليعلم بالفجر، او وضع الرداء؛ وهو اقرب مراما وأيسر خطبا من ان تنشأ بدع محدثات، يعتقدها العوام سننا بسبب

(١) كذا في الاصل ولعله قد سقط من الكلام شيء

سكوت العلماء والخواص عن الانكار وسبب عملهم بها .

*
* *

واما المفسدة المالية فهي على فرض (١) ان يكون الناس عاملين بحكم المخالفة ، وانها قد ينشأ الصغير على رؤيتها وظهورها ، ويدخل في الاسلام احد ممن يراها شائعة ذائعة فيعتقدونهـا جائزة او مشروعة . لان المخالفة اذا فشا في الناس فعلهـا من غير انكار ، لم يكن عند الجاهل بها فرق بينها وبين سائر المباحات او الطاعات .

وعندنا كراهية العلماء ان يكون الكفار صيارفة في اسواق المسلمين لعلمهم بالربا (٢) فكل من يرهم من العامة صيارف وتجارا في اسواقنا من غير انكار يعتقد أن ذلك جائز كذلك ، وانت ترى مذهب مالك المعروف فى بلادنا ان الحلي الموضوع من الذهب والفضة لايجوز بيعه بجنسه الاوزنا بوزن ، ولا اعتبار بقيمة الصياغة اصلا (٣) والصاغة عندنا كلهم او غالبهم يتبايعون على ذلك ان يستفضلوا قيمة الصياغة او اجارتها ، ويعتقدون ان ذلك جائز لهم ، ولم يزل العلماء من السلف الصالح ومن بعدهم يتحفظون من أمثال هذه الاشياء ، حتى كانوا يتركون السنن خوفا من اعتقاد العوام أمرا هو اشد من ترك السنن ، وأولى أن يتركوا المباحات أن لا يعتقد فيها أمر ليس بمشروع - وقد مر بيان هذا في باب البيان من كتاب الموافقات . فقد ذكروا ان عثمان رضي الله عنه كان لايقصر في السفر

(١) قوله «على فرض» ظرف خبر قوله «فهي» والجملة من المبتدأ والخبر خبر قوله «وأما المفسدة المالية» (٢) لعل اصله : لعملهم أو لتعاملهم بالربا (٣) في كتاب أعلام الموقعين للمحقق ابن القيم بيان وتحقيق لاعتبار قيمة الصياغة وجواز بيع الحلي باكثر من زنته لاجل ذلك

فيقال له: أليس قد قصرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقول بلى ولكني إمام الناس فينظر اليَّ الاعراب وأهل البادية اصلي ركعتين فيقولون: هكذا فرضت.[1]

قال الطرطوشي: تأملوا رحمكم الله! فان في القصر قولين لاهل الاسلام — منهم من يقول: فريضة. ومن أتم فانما يتم ويعيد أبدا؛ ومنهم من يقول: سنة. يعيد من أتم في الوقت. ثم اقتحم عثمان ترك الفرض أو السنة لما خاف من سوء العاقبة أن يعتقد الناس ان الفرض ركعتان.

وكان الصحابة رضي الله عنهم لايضحون (يعني انهم لايلتزمون[2]) قال حذيفة بن أسد: شهدت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يضحيان مخافة ان يرى أنها واجبة. وقال بلال: لا ابالي ان أضحي بكبشين أو بديك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه كان يشتري لحما بدرهم يوم الاضحى، ويقول لعكرمة: من سألك فقل هذه أضحية ابن عباس. وقال ابن مسعود: اني لاترك أضحيتي — واني لمن ايسركم — مخافة ان يظن أنها واجبة. وقال طاوس: ما رأيت بيتا اكثر لحما وخبزا وعلما من بيت ابن عباس، يذبح وينحر كل يوم، ثم لا يذبح يوم العيد؛ وانما كان يفعل ذلك لئلا يظن الناس أنها واجبة. وكان اماما يقتدى به.

قال الطرطوشي: والقول في هذا كالذي قبله، وان لاهل الاسلام قولين في الاضحية أحدهما سنة والثاني واجبة. ثم اقتحمت الصحابة

(١) تقدم ذكر هذه المسألة مع تنبيه في الحاشية على ما اجابوا به عن عثمان فيها
(٢) لعل المفعول وهو «الاضحية» سقط من قلم الناسخ

ترك السنة حذرا من أن يضع الناس الامر على غير وجهه فيعتقدونها فريضة .

قال مالك في الموطإ في صيام ستة بعد الفطر من رمضان : انه لم ير أحدا من أهل العلم والفقه يصومها – قال – ولم يبلغني ذلك عن أحد من السلف ، وان أهل العلم يكرهون ذلك ويخافون بدعته ، وأن يلحق أهل الجهالة والجفاء برمضان ماليس منه لو رأوا في ذلك رخصة من أهل العلم ، ورأوهم يقولون ذلك . فكلام مالك هنا ليس فيه دليل على أنه لم يحفظ الحديث كما توهم بعضهم ، بل لعل كلامه مشعر بأنه يعلمه ، لكنه لم ير العمل عليه وان كان مستحبا في الاصل ؛ لئلا يكون ذريعة لما قال ، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في الأضحية ، وعثمان في الاتمام في السفر .

وحكى الماوردي ماهو أغرب من هذا وان كان هو الاصل ؛ فذكر ان الناس كانوا اذا صلوا في الصحن من جامع البصرة أو الطرقة ورفعوا من السجود مسحوا جباههم من التراب ، كأنه كان مفروشاً بالتراب ، فأمر زياد بإلقاء الحصا في صحن المسجد ؛ وقال : لست آمن من أن يطول الزمان فيظن الصغير اذا نشأ ان مسح الجبهة من أثر السجود سنة في الصلاة . وهذا في مباح ؛ فكيف به في المكروه أو الممنوع ؟ .

ولقد بلغني في هذا الزمان عن بعض من هو حديث عهد بالاسلام أنه قال في الخمر : ليست بحرام ولا عيب فيها ؛ وانما العيب أن يفعل بها ما لا يصلح كالقتل وشبهه . وهذا الاعتقاد لو كان ممن نشأ في الاسلام كان كفرا ، لانه انكار لما علم من دين الأمة ضرورة ؛ وبسبب ذلك ترك الانكار من الولاة على شاربها ، والتخلية بينهم وبين اقتنائها ، وشهرته

بحارة أهل الذمة فيها [1] وأشباه ذلك .

ولا معنى للبدعة الا أن يكون الفعل في اعتقاد المبتدع مشروعاً وليس بمشروع. وهذا الحال متوقع أو واقع. فقد حكى القرافي عن العجم ما يقتضي أن ستة الايام من شوال ملحقة عندهم برمضان ، لابقائهم حالة رمضان الخاصة به كما هي الى تمام الستة الايام . وكذلك وقع عندنا مثله ؛ — وقد مر في الباب الاول —

وجميع هذا منوط اثمه بمن يترك الانكار من العلماء أو غيرهم ، أو من يعمل ببعضها بمرأى من الناس أو في مواقعهم ؛ فانهم الاصل في انتشار هذه الاعتقادات فى المعاصي أو غيرها .

**

واذا تقرر هذا فالبدعة تنشأ عن أربعة أوجه (أحدها) — وهو أظهر الاقسام — أن يخترعها المبتدع . (والثاني) أن يعمل بها العالم على وجه المخالفة فيفهمها الجاهل مشروعة (والثالث) أن يعمل بها الجاهل مع سكوت العالم عن الانكار وهو قادر عليه ، فيفهم الجاهل أنها ليست بمخالفة . (والرابع) من باب الذرائع ، وهي أن يكون العمل في أصله معروفاً ، الا أنه يتبدل الاعتقاد فيه مع طول العهد بالذكرى .

الا أن هذه الاقسام ليست على وزان واحد ، ولا يقع اسم البدعة عليها بالتواطئ ، بل هي في القرب والبعد على تفاوت : فالاول هو الحقيق

(١) ينظر ما مراده بهذه الجملة . والظاهر أنه كان لاهل الذمة في الاندلس حارات يسكنونها وحدهم أو يكثرون فيها وان الخمر كانت تباع فيها . كما هي الحال في بعض بلاد المسلمين بالمشرق

باسم البدعة ، فانها تؤخذ علة بالنص عليها ،ويليه القسم الثاني ، فان العمل يشبهه التنصيص بالقول ، بل قد يكون أبلغ منه في مواضع — كما تبين في الاصول — غير أنه لا ينزل هاهنا من كل وجه منزلة الدليل أن العالم قد يعمل وينص على قبح عمله . ولذلك قالوا لا تنظر الى عمل العالم ولكن سله يصدقك . وقال الخليل بن أحمد أو غيره :

اعمــل بعلمي ولا تنظر الى عملي
ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

ويليه القسم الثالث، فان ترك الانكار ، ـ مع أن رتبة المنكر رتبة من يعد ذلك منه اقرار ، ـ يقتضي أن الفعل غير منكر ، ولكن يتنزل منزلة ما قبله ، لان الصوارف للقــدرة كثيرة ، قد يكون الترك لعذر بخلاف الفعل ، فانه لا عذر في فعل الانسان بالمخالفة ، مع علمه بكونها مخالفــة .

ويليه القسم الرابع ، لان المحظور الحالي فيما تقدم غــير واقع فيه بالعرض، فلا تبلغ المفسدة المتوقعة أن تساوي رتبة الواقعة أصلا ، فلذلك كانت من باب الذرائع ، فهي اذا لم تبلغ أن تكون في الحال بدعة ، فلا تدخل بهذا النظر تحت حقيقة البدعة .

وأما القسم الثاني والثالث فالمخالفة فيه بالذات ، والبدعة من خارج ، الا أنها لازمة لزوما عاديا ، ولزوم الثاني أقوى من لزوم الثالث . والله أعلم .

فصل (*)

ومن منازل « اياك نعبد واياك نستعين منزلة التعظيم »

وهذه المنزلة تابعة للمعرفة فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب ، وأعرف الناس به اشدهم له تعظيما واجلالا ، وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته ، ولا عرفه حق معرفته ، ولا وصفه حق صفته . واقوالهم تدور على هـذا . وقال تعالى « مالكم لا ترجون لله وقارا » قال ابن عباس ومجاهد : لاترجون لله عظمة ، وقال سعيد بن جبير : مالكم لاتعظمون الله حق عظمته ؟ وقال الكلبي : لا تخافون لله عظمة. قال البغوي : والرجاء بمعنى الخوف ، والوقار العظمة اسم من التوقير ، وهو التعظيم. وقال الحسن : لا تعرفون لله حقا ، ولا تشكرون له نعمة . وقال ابن كيسان . لا ترجون في عبادة الله ان يثيبكم على توقيركم اياه خيرا .

وروح العبادة هو الاجلال والمحبة ، فاذا خلى احدهما عن الآخر فسدت العبودية ، فاذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم فذلك حقيقة الحمد ، والله سبحانه اعلم

فصل

قال صاحب المنازل رحمه الله ﴿ التعظيم معرفة العظمة مع التذلل لها ، وهو على ثلاث درجات : الاولى تعظيم الامر والنهي ؟ وان لا يعارضا بترخص جاف ، ولا يعرضا لتشدد غال ، ولا يحملا على علة توهن الانقياد ﴾ هاهنا ثلاثة اشياء تنافي تعظيم الامر والنهي (احدها) الترخص الذي يجفو به صاحبه عن كمال الامتثال (والثاني) الغلو الذي يتجاوز به صاحبه حدود الامر والنهي ، فالاول تفريط والثاني افراط . وما امر الله بامر الا وللشيطان فيه نزغتان ، إما الى تفريط و إضاعة ، وإما الى افراط وغلو ، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه ، كالوادي بين الجبلين ،

*) منقول من الجزء الثاني من مدارج السالكين

والهدى بين ضلالتين ، والوسط بين طرفين ذميمين . وكما ان الجافي عن الامر مضيع له ، فالغالي فيه مضيع له ، هذا بتقصيره عن الحد ، وهذا بتجاوزه عن الحد

وقد نهى الله عن الغلو بقوله (قل : يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق)والغلو نوعان نوع يخرجه عن كونه مطيعا ، كمن زاد في الصلاة ركعة ، او صام الدهر مع ايام النهي ، او رمى الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمى بها في المنجنيق ، او سعى بين الصفا والمروة عشرا ، أو نحو ذلك عمدا . وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار ، كقيام الليل كله ، وسرد الصيام الدهر اجمع بدون صوم ايام النهي ، والجور على النفوس في العبادات والاوراد الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « ان الدين يسر ، ولن يشاد الدين احد الا غلبه ، فسددوا وقاربوا ويسروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة » يعني استعينوا على طاعة الله بالاعمال في هذه الاوقات الثلاثة فان المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها ، وقال « ليصل احدكم نشاطه فاذا فتر فليرقد » رواهما البخاري. وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « هلك المتنطعون » — قالها ثلاثا — وهم المتعمقون المشددون .وفي صحيح البخاري عنه « عليكم من الاعمال ما تطيقون ، فو الله لا يمل الله حتى تملوا » وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله » او كما قال

واما قوله « ولا يحملا على علة توهن الانقياد » يريد ان لا يتأول في الامر والنهي علة تعود عليه بالابطال ، كما تأول بعضهم تحريم الخمر بانه معلل بايقاع العداوة والبغضاء والتعرض للفساد ، فاذا أمن من هذا المحذور منه جاز شربه ، كما قيل :

أدرها فما التحريم فيها لذاتها ولكن لاسباب تضمنها السكر
اذا لم يكن سكر يضل عن الهدى فسيان ماء في الزجاجة أو خمر

وقد بلغ هذا بأقوام الى الانسلاخ من الدين جملة ، وقد حمل طائفة من العلماء أن جعلوا تحريم ماعدا شراب العنب معللا بالاسكار ، فله أن يشرب منه ما لم يسكر

ومن العلل التي توهن الانقياد أن يعلل الحكم بعلة ضعيفة لم تكن هي الباعثة

عليه في نفس الامر فيضعف انقياده اذا قام عنده ان هذه هي علة الحكم ، ولهذا طريقة القوم عدم التعرض لعلل التكاليف خشية هذا المحذور . وفي بعض الآثار القديمة « يابني اسرائيل لاتقولوا لم أمر ربنا ولكن قولوا بم أمر ربنا » وأيضا فانه اذا لم يمتثل الامر حتى تظهر له علته لم يكن منقادا للامر، وأقل درجاته أن يضعف انقياده له ، وأيضا فانه اذا نظر الى حكم العبادات والتكاليف مثلا(١) وجعل العلة فيها هي جمعية القلب والاقبال به على الله فقال : أنا اشتغل بالمقصود عن الوسيلة ، فاشتغل بجمعيته وخلوته عن أوراد العبادات فعطلها، وترك الانقياد بحمله الامر على العلة التي اذهبت انقياده ، وكل هذا من ترك تعظيم الامر والنهي ، وقد دخل من هذا الفساد على كثير من الطوائف مالا يعلمه الا الله ، فما يدري ما أوهنت العلل الفاسدة من الانقياد الا الله، وكم عطلت لله من أمر ، وأباحت من نهي ، وحرمت من مباح ! وهي التي اتفقت كلمة السلف على ذمها

فصل

قال «الدرجة الثانية تعظيم الحكم أن لايبغى له عوج ، أو يدافع بعلم ، أو يرضى بعوض » الدرجة الاولى تتضمن تعظيم الحكم الديني الشرعي ، وهذه الدرجة تتضمن تعظيم الحكم الكوني القدري ، وهو الذي يخصه المصنف باسم الحكم ، وكما يجب على العبد أن يرعى حكم الله الديني بالتعظيم فكذلك يرعي حكمه الكوني به ، فذكر من تعظيمه ثلاثة أشياء (أحدها) « أن لايبغى له عوج » أي يطلب له عوج أو يرى فيه عوج بل يرى كله مستقيما ، لانه صادر عن عين الحكمة فلا عوج فيه ، وهذا موضع أشكل على الناس جدا . فقالت نفاة القدر : مافي خلق الرحمن من تفاوت ولا عوج ، والكفر والمعاصي مشتملة على أعظم التفاوت والعوج ، فليست بخلقه ولا مشيئته ولا قدره . وقالت فرقة تقابلهم : بل هي من خلق الرحمن وقدره ، فلا عوج فيها وكل مافي الوجود مستقيم . والطائفتان ضالتان منحرفتان عن الهدى . وهذه الثانية أشد انحرافا ، لانها جعلت الكفر والمعاصي

(١) أنظر أين جواب هذا الشرط ؟

مستقيما لاعوج فيه، وعدم تفريق الطائفتين بين القضاء والمقضي والحكم والمحكوم به هو الذي أوقعهم فيما أوقعهم فيه

وقول سلف الامة وجمهورها ان القضاء غير المقضي ، فالقضاء فعله ومشيئته وما قام به ، والمقضي مفعوله المباين له المنفصل عنه ، وهو المشتمل على الخير والشر والعوج والاستقامة ، فقضاؤه كله حق ، والمقضي منه حق ومنه باطل . وقضاؤه كله عدل ، والمقضي منه عدل ومنه جور ، وقضاؤه كله مرضي ، والمقضي منه مرضي ومنه مسخوط . وقضاؤه كله مسالم ، والمقضي منه ما يسالم ومنه مايحارب

وهذا أصل عظيم تجب مراعاته ، وهو موضع مزلة أقدام كما رأيت ، والمنحرف عنه اما جاحد للحكمة أو القدرة أو للامر والشرع ولا بد ، وعلى هذا يحمل كلام صاحب المنازل رحمه الله ، اي لا يبتغى للحكم عوج .

وأما قوله « أو يدفع بعلم » فأشكل من الاول ، فان العلم مقدم على القدر وحاكم عليه ، ولا يجوز دفع العلم بالحكم . فأحسن مايحمل عليه كلامه أن يقال : قضاء الله وقدره وحكمه الكوني ، لا يناقض دينه وشرعه وحكمه الديني ، بحيث تقع المدافعة بينهما ، لان هذا مشيئته الكونية وهذا ارادته الدينية . وان كان المرادان قد يتدافعان ويتعارضان ، لكن من تعظيم كل منهما أن لا يدافع بالآخر ويعارض ، فانهما وصفان للرب تعالى ، وأوصافه لا يدفع بعضها ببعض ، وان استعيذ ببعضها من بعض . فالكل منه سبحانه وهو المعيذ من نفسه بنفسه ، كما قال أعلم الخلق به « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » فرضاؤه وان أعاذ من سخطه فانه لا يبطله و (لا) يدفعه ، وانما يدفع تعلقه بالمستعيذ ، وتعلقه باعدائه باق غير زائل ، فهكذا أمره وقدره سواء ، فان أمره لا يبطل قدره ، ولا قدره يبطل امره ، ولكن يدفع ماقضاه وقدره بما أمر به وأحبه ، وهو أيضا من قضائه ، فما دفع قضاؤه الا بقضائه وأمره ، فلم يدفع العلم الحكم بل المحكوم به ، والعلم والحكم دفعا المحكوم به الذي قدر دفعه وأمر به

فتأمل هذا فانه محض العبودية والمعرفة والايمان بالقدر والاستسلام له ، والقيام بالامر والتنفيذ له بالقدر ، فما نفذ المطيع أمر الله الا بقدر الله ، ولا دفع مقدور

الله الا بقدر الله وأمره

وأما قوله « ولا يرضى بعوض » أي ان صاحب مشهد الحكم قد وصل الى حد لا يطلب معه عوضا ولا يكون ممن يعبد الله بالعوض؛ فانه يشاهد جريان حكم الله عليه وعدم تصرفه في نفسه، وان المتصرف فيه حقا مالكه الحق، فهو الذي يقيمه ويقعده ويقلبه ذات اليمين وذات الشمال، وانما يطلب العوض من غاب عن الحكم وذهل عنه، وذلك مناف لتعظيمه، فمن تعظيمه ان لا يرضى العبد بعوض يطلبه بعمله، لان مشاهدة الحكم وتعظيمه يمنعه ان يرى لنفسه مايعاوض عليه. فهذا الذي يمكن حمل كلامه عليه من غير خروج عن حقيقة الامر. والله سبحانه أعلم

فصل

قال ﴿ الدرجة الثالثة تعظيم الحق سبحانه، وهو أن لا يجعل دونه سببا، ولا يرى عليه حقا، ولا ينازع له اختيارا ﴾ هذه الدرجة تتضمن تعظيم الحاكم سبحانه صاحب الخلق والامر، والتي قبلها تتضمن تعظيم قضائه لامقضيه، والاولى تتضمن تعظيم أمره. وذكر من تعظيمه ثلاثة اشياء (أحدها) « ان لا تجعل(١) دونه سببا » أي لاتجعل للوصلة اليه سببا غيره، بل هو الذي يوصل اليه عبده، فلا يوصل الى الله لاالله، ولا يقرب اليه سواه، ولا أدلى اليه غيره، ولا يتوصل الى رضاه إلا به، فمادل على الله الا الله، ولاهدى اليه سواه، ولاأدنى اليه غيره، فانه سبحانه هو الذي جعل السبب سببا، فالسبب وسببيته وايصاله، كله خلقه وفعله

(الثاني) أن لايرى عليه حقا، أي لاترى لاحد من الخلق لالك ولا لغيرك حقا على الله، بل الحق لله على خلقه. وفي أثر اسرائيلي ان داود عليه السلام قال: يارب بحق آبائي عليك. فأوحى الله تعالى اليه: ياداود! أي حق لآبائك علي؟ ألست أنا الذي هديتهم ومننت عليهم واصطفيتهم ولي الحق عليهم؟

---

١) الظاهر ان نسخة الشارح بالخطاب وأن ذكر عبارة المتن وما ياتي من حكايتا في الشرح بافعال الغائب من تصرف النساخ

وأما حقوق العبيد على الله تعالى من إثابته لمطيعهم وتوبته على تائبهم وإجابته سائلهم ، فتلك حقوق أحقها الله سبحانه على نفسه بحكم وعده واحسانه ، لانها حقوق أحقوها هم عليه ، فالحق في الحقيقة لله على عبده ، وحق العبد عليه هو ما اقتضاه جوده وبره واحسانه اليه بمحض جوده وكرمه . هذا قول أهل التوفيق والبصائر ، وهو وسط بين قولين منحرفين قد تقدم ذكرهما مرارا. والله أعلم

وأما قوله (١) «ولا ينازع له اختيارا» أي اذا رأيت الله عز وجل قد اختار لك أو لغيرك شيئا إما بأمره ودينه ، وإما بقضائه وقدره ، فلا تنازع اختياره ، بل ارض باختيار ما اختاره ، فان ذلك من تعظيمه سبحانه . ولا يرد عليه ما قدره عليه من المعاصي ، فانه سبحانه وان قدرها لكنه لم يخترها له ، فمنازعتها غير اختياره من عبده ، وذلك من تمام تعظيم العبد له سبحانه. والله أعلم اه

(المنار) هذا الكلام لا يسلم على إطلاقه بل له قيد لا بد منه . وقد سبق للمصنف تحقيقه فلهذا اكتفى هنا بالاجمال . وانما نحتاج الى القيد اذا أردنا بالاختيار متعلقه ، وهو ما اختاره الله لنا من الامور ، وهو المقضي والمقدر . كما هو المتبادر هنا . فهذا اذا كان شرا لنا كالامراض والمظالم والفتن فانه لا يشرع لنا ان نرضى به ، بل يجب ان نقاومه وندافع الاقدار بالاقدار ، كما قال عمر بن الخطاب باقرار جمهور من الصحابة (رض) عند ما فر من الشام ولم يدخلها لوباء فيها « نفر من قدر الله الى قدر الله » اما نفس اختيار الله تعالى الذي هو فعله فلا وجه لمنازعته فيه ، ولا تردد في الرضا به وعدم الاعتراض عليه فيه . ولا فرق بين الذي قلناه آنفا — وقد سبق تقرير المصنف له — و بين ما قاله هنا آنفا في المعاصي ، ومسألة الاختيار مبهمة هنا ، فاختياره تعالى بالمعنى المصدري لا ينازع ولا يعارض مطلقا . وهو يتناول كل ما قضاه وقدره لأنه فعله ، وكل افعاله اختيارية . فلا يمكن ان يقال أنه قدر المعاصي بغير اختيار منه . وأما الاختيار بالمعنى الحاصل بالمصدر أي ما اختاره سبحانه لعباده فهو قسمان أفعال وأحكام ، او خلق وأمر ، فأما أحكام دينه وأمره ونهيه فلا ينازع فيها بل تؤخذ بالرضاء والتسليم ، واما أفعاله التي تقع بقدره وحسب سننه في خلقه فقسمان ، أحدها ما يوافق مصالح الناس ومنافعهم فيجب الرضاء بها مع الشكر عليها ، وثانيها ما لا يوافق مصالحهم ومنافعهم كالامراض وتعدي بين الظالمين وطغيان المياه ، فهذه تنازع وتقاوم مع الصبر عليها .

(١) كان الظاهر أن يحكى هذا بالعدد فيقول : الثالث ان لا ينازع له اختيارا

أقوال علماء السلف الاثبات

في عقيدة السلف واثبات الصفات

٢

﴿ احمد بن محمد بن حنبل شيخ الاسلام ﴾

رحمه الله ثراه[1] وجعل الجنة مثواه

المنقول عن هذا الامام في هذا الباب طيب كثير مبارك فيه ، فهو حامل لواء السنة ، والصابر في المحنة ، والمشهود بأنه من اهل الجنة ، فقد تواتر عنه تكفير من قال بخلق القرآن العظيم جل منزله ، واثبات الرؤية والصفات والعلو والقدر ، وتقديم الشيخين ، وان الايمان يزيد وينقص — الى غير ذلك من عقود الديانة مما يطول شرحه ، فقال يوسف بن موسى القطان شيخ ابي بكر الخلال : قيل لأبي عبد الله : الله فوق السماء السابعة على عرشه بائن من خلقه ، وقدرته وعلمه بكل مكان ؟ قال نعم هو على عرشه ولا يخلو شيء من علمه .

وقال ابو طالب احمد بن حميد : سألت احمد بن حنبل عن رجل قال : الله معنا وتلا (ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم) فقال قد تجهم هذا ، يأخذون بآخر الآية ويدعون أولها ، قرأت عليه (ألم تر ان الله يعلم) فعلمه معهم . وقال في سورة ق (ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد) فعلمه معهم .

قال المروذي قلت لابي عبد الله : ان رجلا قال اقول كما قال الله

(١) كذا ولعل اصله طيب الله ثراه — أو — رحمه الله وطيب ثراه

(ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم) اقول هذا ولا اجاوزه الى غيره. فقال هذا كلام الجهمية بل علمه معهم ، فأول الآية يدل على انه علمه. رواه ابن بطة في كتاب الإبانة عن عمر بن محمد رجاء عن محمد بن داود عن المروذي

وقال حنبل بن اسحاق قيل لابي عبد الله ما معنى (وهو معكم)؟ قال: علمه محيط بالكل ، وربنا على العرش بلا حد ولا صفة .

قال ابن ابي حاتم في كتاب مناقب الامام احمد : ثنا محمد بن مسلم ثنا سلمة بن شديد قال كنت عند احمد بن حنبل ، فدخل عليه رجل عليه اثر السفر فقال: من فيكم احمد بن حنبل ؟ فأشاروا الى احمد بن حنبل ، فقال اني ضربت البر والبحر من أربع مائة فرسخ ، اتاني الخضر عليه السلام فقال ائت احمد بن حنبل فقل له ان ساكن السماء راض عنك لما بذلت نفسك في هذا الامر .

قال الاثرم قلت لابي عبد الله حدث محدث وانا عنده بحديث « يضع الرحمن فيها قدمه » وعنده غلام ، فأقبل على الغلام فقال ان لهذا تفسيرا. فقال ابو عبد الله : انظر اليه كما تقول الجهمية سواء .

قال ابن ابي حاتم ثنا صالح بن احمد بن حنبل قال : سمعت ابي يحتج بان القرآن غير مخلوق ، يقول قال تعالى (الرحمن علم القرآن) فأخبر تعالى ان القرآن من علمه، قال يعقوب الدورقي قال لي احمد: اللفظية انما يدورون على كلام جهم ، يزعمون ان جبريل انما جاء بشيء مخلوق

﴿ اسحاق بن راهويه عالم خراسان ﴾

قال حرب بن اسماعيل الكرماني قلت لاسحاق بن راهويه قوله

تعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم) كيف تقول فيه ؟ قال حيثما كنت فهو اقرب اليك من حبل الوريد ، وهو بائن من خلقه. ثم ذكر عن ابن المبارك قوله: هو على عرشه ، بائن من خلقه. ثم قال أعلى شيء في ذلك وابينه قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) رواها الخلال في السنة عن حرب

﴿ الحافظ أبو عوانة صاحب الصحيح ﴾

كان من كبار الحفاظ، حمل عن أصحاب سفيان بن عيينة ووكيع. قال الحاكم في ترجمته: سمعت يحيى بن منصور القاضي يقول: سمعت أبا عوانة رحمه الله يقول: دخلت على ابراهيم المزني في مرضه الذي مات فيه فقلت له: ما تقول في القرآن؟ فقال كلام الله غير مخلوق. فقلت هلا قلت قبل هذا؟ قال: لم يزل هذا قولي وكرهت الكلام فيه لان الشافعي كان ينهى عن الكلام فيه، يعني البحث والجدال في ذلك

﴿ أبو الحسن الاشعري صاحب التصانيف ﴾

قال الامام أبو الحسن علي بن اسماعيل بن أبي بشر الاشعري البصري المتكلم في كتابه الذي سماه (اختلاف المصلين ومقالات الاسلاميين) فذكر فرق الخوارج والروافض والجهمية وغيرهم الى أن قال (ذكر مقالة أهل السنة، وأصحاب الحديث جملة) قولهم الاقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبما جاء عن الله، وما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يردون من ذلك شيئاً، وان الله على عرشه كما قال (الرحمن على العرش استوى) وان له يدين بلا كيف كما قال «لما خلقت بيدي» وان

أسماء الله لا يقال انها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج ، وأقروا أن لله علما كما قال «أنزله بعلمه * وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه» وأثبتوا السمع والبصر ، ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة ، وقالوا : لا يكون في الارض من خير وشر الا ماشاء الله ، وان الاشياء تكون بمشيئته كما قال تعالى « وما تشاؤن الا أن يشاء الله » — الى أن قال : ويقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق . ويصدقون بالاحاديث التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله ينزل الى السماء الدنيا فيقول هل مستغفر» كما جاء الحديث ، ويقرون ان الله يجيء يوم القيامة كما قال (وجاء ربك والملك صفا صفا) وان الله يقرب من خلقه كيف يشاء قال (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) — الى أن قال : فهذا جملة مايأمرون به ويستعملونه ويرونه ، وبكل ماذكرنا من قولهم نقول ، واليه نذهب ، وما توفيقنا الا بالله

وذكر الاشعري في هذا الكتاب المذكور في باب (هل الباري تعالى في مكان دون مكان أم لا في مكان أم في كل مكان) فقال اختلفوا في ذلك على سبع عشرة مقالة: منها قال أهل السنة وأصحاب الحديث أنه ليس بجسم ولا يشبه الاشياء وانه على العرش كما قال (الرحمن على العرش استوى) ولا نتقدم بين يدي الله بالقول ، بل نقول استوى بلا كيف ، وان له يدين كما قال (خلقت بيدي) وانه ينزل الى سماء الدنيا كما جاء في الحديث

ثم قال : وقالت المعتزلة استوى على عرشه بمعنى استولى وتأولوا اليد بمعنى النعمة ، وقوله (تجري بأعيننا) أي بعلمنا

وقال أبو الحسن الاشعري في (كتاب جمل المقالات) له – رأيته

بخط المحدث أبي علي بن شاذان — فسرد نحوا من هذا الكلام في مقالة أصحاب الحديث تركت ايراد ألفاظه خوف الاطالة والمعنى واحد

وقال الاشعري في كتاب « الابانة في أصول الديانة » له في باب الاستواء : فان قال قائل: ماتقولون في الاستواء ؟ قيل نقول ان الله مستو على عرشه كما قال (الرحمن على العرش استوى — وقال -- اليه يصعد الكلم الطيب — وقال — بل رفعه الله اليه — وقال حكاية عن فرعون — وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السموات فأطلع الى إله موسى واني لأظنه كاذبا » كذب موسى في قوله ان الله فوق السموات . وقال عز وجل « ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض » فالسموات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السموات وكل ماعلا فهو سماء ، وليس اذا قال « ءأمنتم من في السماء » يعني جميع السموات ، وانما أراد العرش الذي هو أعلى السموات ، ألا ترى انه ذكر السموات فقال « وجعل القمر فيهن نورا » ولم يرد انه يملأ هن جميعاً

قال : ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم اذا دعوا نحو السماء ، لان الله مستو على العرش الذي هو فوق السموات ، فلولا ان الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش . وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية ان معنى استوى استولى وملك وقهر ، وانه تعالى في كل مكان ، وجحدوا أن يكون على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء الى القدرة . فلو كان كما قالوا كان لا فرق بين العرش وبين الارض السابعة لانه قادر على كل شيء ، والارض (شيء) فالله قادر عليها وعلى الحشوش ، وكذا لو كان مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء لجاز

أن يقال هو مستو على الاشياء كلها ، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول : ان الله مستو على الاخلية والحشوش. فبطل أن يكون الاستواء الاستيلاء. وذكر ادلة من الكتاب والسنة والعقل سوى ذلك

وكتاب الابانة من أشهر تصانيف أبي الحسن شهره الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه ، ونسخه بخطه الامام محيي الدين النواوي ، ونقل الامام أبو بكر بن فورك المقالة المذكورة عن أصحاب الحديث عن أبي الحسن الاشعري في كتاب (المقالات والخلاف ، بين الاشعري وبين أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري) تأليف ابن فورك فقال : الفصل الاول في ذكر ما حكى أبو الحسن رضي الله عنه في كتاب المقالات من جمل مذاهب أصحاب الحديث ، وما أبان في آخره انه يقول بجميع ذلك . ثم سرد ابن فورك المقالة بهيئتها ثم قال في آخرها : فهذا تحقيق لك من ألفاظه انه معتقد لهذه الاصول التي هي قواعد أصحاب الحديث وأساس توحيدهم

قال الحافظ أبو العباس أحمد بن ثابت الطرقي قرأت كتاب أبي الحسن الاشعري الموسومة بالابانة أدلة على اثبات الاستواء. قال في جملة ذلك : ومن دعاء أهل الاسلام اذا هم رغبوا الى الله يقولون : ياساكن العرش . ومن حلفهم : لا والذي احتجب بسبع

وقال الاستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله في شكاية أهل السنة : مانقموا من أبي الحسن الاشعري الا أنه قال باثبات القدر ، واثبات صفات الجلال لله من قدرته وعلمه وحياته وسمعه وبصره ووجهه ويده، وأن القرآن كلامه غير مخلوق

سمعت ابا علي الدقاق يقول سمعت زاهر بن احمد الفقيه يقول : مات الاشعرى رحمه الله ورأسه في حجرى فكان يقول شيئا في حال نزعه : لعن الله المعتزلة موهوا ومخرقوا .

قال الحافظ الحجة ابو القاسم ابن عساكر في كتاب (تبيين كذب المفتري . فيما نسب الى الاشعري) فاذا كان أبو الحسن رحمه الله كما ذكر عنه من حسن الاعتقاد ، مستصوب المذهب عند أهل المعرفة والانتقاد ، يوافقه في أكثر ما يذهب اليه أكابر العباد ، ولا يقدح في مذهبه غير أهل الجهل والعناد ، فلا بد أن يحكي عنه معتقده على وجهه بالامانة ، ليعلم حاله في صحة عقيدته في الديانة ، فاسمع ماذكره في كتاب الابانة ، فانه قال « الحمد لله الواحد ، العزيز الماجد ، المتفرد بالتوحيد ، المتمجد بالتمجيد ، الذي لا تبلغه صفات العبيد ، وليس له مثل ولا نديد » فرد في خطبته على المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة . فعرفونا قولكم [1] الذي تقولون وديانتكم التي بها تدينون ؟ قيل له : قولنا الذي به نقول ، وديانتنا التي بها ندين ، التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل نضر الله وجهه قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لانه الامام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح به المنهاج . وقمع به المبتدعين . فرحمه الله من امام مقدم . وكبير مفهم . وعلى جميع أئمة المسلمين . وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وماجاء من عند الله . ورواه الثقات عن

(١) وفي نسخة « ماقولكم »

رسول الله صلى الله عليه وسلم . لا نرد من ذلك شيئا · وأن الله إله واحد فرد صمد لا إله غيره، وان محمدا عبده ورسوله . وأن الجنة والنار حق . وأن الساعة آتيـة لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور . وأن الله تعـالى مستو على عرشه كما قال (الرحمن على العرش استوى) وان له وجهـا كما قال (ويبقى وجـه ربك) وأنه له يدين كما قال (بل يداه مبسوطتان) وأن له عينين بلا كيف كما قال (تجري بأعيننا) وان من زعم ان اسم الله غيره كان ضالا . وندين ان الله يرى بالابصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر . يراه المؤمنون — الى أن قال : وندين بأنه يقلب القلوب وان القلوب بين أصبعين من أصابعه . وأنه يضع السموات والارض على أصبع كما جاء في الحديث — الى أن قال : وانه يقرب من خلقه كيف شاء كما قال (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) وكما قال (ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أوأدنى) ونرى مفارقة كل داعية الى بدعة . ومجانبة أهل الاهواء . وسنحتج لما ذكرناه من قولنا ومابقي باباً باباً وشيئاً شيئاً .

ثم قال ابن عساكر : فتأملوا رحمكم الله هذا الاعتقاد ما أوضحه وأبينه! واعترفوا بفضل هذا الامام الذي شرحه وبينه. وقال الحافظ بن عساكر : وقال الامام أبو الحسن في كتابه الذي سماه « العمـد في الرؤية » : ألفنا كتاباً كبيرا في الصفات تكلمنا فيه على أصناف المعتزلة والجهمية، فيه فنون كثيرة من الصفات في اثبات الوجه واليدين وفي استوائه على العرش

كان أبو الحسن أولا معتزليا أخذ عن أبي علي الجبائي . ثم نابذه ورد عليه وصار متكلما للسنة . ووافق أئمة الحديث في جمهور مايقولونه، وهو

ما سقناه عنه من أنه نقل اجماعهم على ذلك وانه موافقهم . وكان يتوقد ذكاء . أخذ علم الأثر عن الحافظ زكريا الساجي. وتوفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وله أربع وستون سنة ، رحمه الله تعالى

فلو انتهى أصحابنا المتكلمون الى مقالة ابي الحسن هذه ولزموها لأحسنوا ولكنهم خاضوا كخوض حكماء الاوائل في الاشياء ومشوا خلف المنطق، فلا قوة الا بالله

﴿ ابن أبي زيد ﴾

قال الامام أبو محمد بن أبي زيد المغربي شيخ المالكية فى أول رسالته المشهورة فى مذهب مالك الامام : وانه تعالى فوق عرشه المجيد بذاته ، وانه في كل مكان بعلمه . وقد تقدم مثل هذه العبارة عن أبي جعفر بن أبي شيبة وعثمان بن سعيد الدارمي . وكذلك أطلقها يحيى بن عمار واعظ سجستان فى رسالته ، والحافظ أبو نصر الوائلي السجزي في كتاب الابانة له . فانه قال : وأئمتنا كالثورى ومالك والحمادان وابن عيينة وابن المبارك والفضيل وأحمد واسحاق متفقون على ان الله فوق العرش بذاته ، وان علمه بكل مكان . وكذلك أطلقها ابن عبد البر كما سيأتي . وكذا عبارة شيخ الاسلام ابي اسماعيل الانصاري ، فانه قال : وفي أخبار شتى أن الله فى السماء السابعة على العرش بنفسه ، وكذا قال أبو الحسن الكرجي الشافعي في تلك القصيدة :

عقائدهم أن الإله بذاته ... على عرشه مع علمه بالغوائب

وعلى هذه القصيدة مكتوب بخط العلامة تقيّ الدين ابن الصلاح : هذه عقيدة أهل السنة وأصحاب الحديث

وكذا أطلق هذه اللفظة أحمد بن ثابت الطرقي الحافظ والشيخ عبد القادر الجيلي ، والمفتي عبد العزيز القحيطي وطائفة . فالله تعالى خالق كل شيء بذاته ، ومدبر الخلائق بذاته ، بلامعين ولا موازر . وانما أراد ابن أبي زيد وغيره التفرقة بين كونه تعالى معنا وبين كونه تعالى فوق العرش، فهو كما قال ومعنا بالعلم وانه على العرش كما أعلمنا حيث يقول (الرحمن على العرش استوى) وقد تلفظ بالكلمة المذكورة جماعة من العلماء كما قدمناه. وبلا ريب ان فضول الكلام ، تركه من حسن الاسلام

وكان ابن أبي زيد من العلماء العاملين بالمغرب ، وكان يلقب بمالك الصغير ، وكان غاية في علم الاصول . وقد ذكره الحافظ ابن عساكر في كتاب « تبيين كذب المفتري . فيما نسب الى الاشعري » ولم يذكر له وفاة. توفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة ، وقيل سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، وقد نقموا عليه في قوله بذاته فليته تركها [1]

---

(١) لله در المؤلف ما الطف نقده وانكاره لهذه الكلمة . وانما تلطف هذا التلطف لان الهفوة من بعض علماء الاثر وأنصار مذهب السلف ؛ ولها قالها أحد المعتزلة لشنع عليه بأنه قال في أصول العقيدة ما لم يقله أحد من السلف ولا ورد به أثر ، ولا هو مما ثبت بالبرهان العقلي أيضاً . ولكثير من الاثريين مثل هذه الهفوات والشذوذ . يحشرون آراءهم في النصوص ويفسرونها بها مع ادعائهم اتباع مذهب السلف وانه التفويض والامساك عن تعيين المراد من آيات الصفات وأحاديثها . ونرى كثيرا من الناس يقبل منهم ذلك ويقول به ويعده اتباعا للسلف ولو بمعنى مخالفة الجهمية . ولا يستغرب مع هذا تسليمهم وقبولهم بعض الروايات المنكرة المخالفة للاحاديث الصحيحة كقول مجاهد ان الله تعالى يقعد النبي معه على العرش . كأن من قبله اكتفى بأن يخالف الجهمية في عدم قبول مثله وان صح الا بالتأويل . وقد تقدم بيان المصنف لنكارته ومخالفته للاحاديث الصحيحة مع ذكر من قبله، ونقل آنفاً عن الدارقطني انه لايجحده!! على ان العقائد يطلب فيها القطع . وهذا لم يصل الى مرتبة الظن . وهنالك مخالفة أخرى لطريقة السلف بينها الغزالي =

باب المراسلة والمناظرة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

من انصاري الى الله

يا إخواني المسلمين ! رحمكم الله وحماكم ، وحفظكم ونجاكم ، ان بعض سكان بلدانكم المحروسة قد سمع حالاتي وعرفها ، واني أرى ان أذكر لكم مما أنا عليه لازدياد المعرفة — اني جئت من الهند من مدة تزيد على سنة ونصف الى لندرة ، واطلعتُ على حالات أهلها في صولهم على ديننا الحق ، تكدّرت جداً لانهم يقدمونه بين يدي الناس بوجوه ردية لينفروهم عن القرب اليه ، وذلك بنقلهم الى الغث سمينه — والى الكدر معينه — والى الظلمات نوره — والى الاخربة قصوره . فهذه بلية عظمى على ديننا الاسلام ما سمع نظيرها من قبل . وما وجد مثلها في الاولين. فلما رأيت ذلك عزمت على أن اشمر الذيل لاشاعة التدين القويم ، واعلاء كلمة الحق، وما التوفيق الا بالله   فالحمد لله ثم الحمد لله . ما انصرمت سنة كاملة الا ورأيت التوجه الى ديننا الاسلام . وذلك فضل الله   ان الله على كل شيء قدير — فانكم قد سمعتم دخول لورد هيدلي في الاسلام ، وغيره أيضا من الرجال

=في « إلجام العوام عن علم الكلام » وهي جمع معاني الآيات والاحاديث الواردة في الصفات بترتيب لم يرد في الكتاب والسنة بحيث يفيد الجمع معنى غير معنى الاتيان بكل منها مع التنزيه عن الكيفية: كأن تلقن العامي عقيدته مثل قولك: يجب أن تؤمن بان لله تعالى وجها وعينين ويدين وقدمين وانه ينزل ويمشي ويهرول ويضحك . فان هذا يحدث في خيال العامي صورة حسية لعله لا يزيلها منه قولك وانه لا يشبه في ذلك البشر ولا غيرهم من الخلق. ومذهب السلف ان يذكر ماورد في السياق الذي ورد فيه، مع اعتقاد التنزيه ونفي التشبيه . وترك التأويل ، والقال وغيره

والنساء من الامراء المشهورين، مثل | وي كونت | وابن الامير الروسي (بوركويت) الذي تزوج ابنة الملك (اعني من أقارب خديو مصر) المسماة صالحة، فقد أسلم على يدي والحمد لله على ذلك ، فالآن عدد الذين هم دخلوا في الاسلام ثلاثون شخصاً؛ وذلك من فضل الله تعالى. وان شاء الله تعالى يدخلون في ديننا الاسلام جمٌّ كثير ، لانه دين الفطرة السليمة - وليس المقصود التام بدخول بعض النصارى في الاسلام ، بل المقصود التام قمع الشبهات ، ورفع الاغلوطات ، التي نحتوها اعداء الدين. ولذلك اجريتُ المجلة المسماة (إسلامك ريبويو) والحمد لله تعالى قد قبلت بأحسن وجه ، وسلمت طاقتها عند أولي البصائر

ولكن يسادتي إني وحيد فريد - وان تبليغ الاسلام؛ واشاعته بين الخواص والعوام ، فرض واجب على كل مسلم ومسلمة . قال الله تعالى (كنتم خيرَ أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فلا بد من أهل الهمم العالية السنية من اخواني المسلمين ان يوازروني ويمدوني بحصة من أموالهم لحصول الاجر والثواب في اشاعة ديننا الاسلام، وذلك ازدياد طبع مجلة (اسلامك ريبويو) واشاعتها مجانا في جميع الاطراف ، فتكون فائدة تامة ان شاء الله تعالى -

ثم ترجمنا القرآن الكريم بلسان الانكليزي بأحسن وجه ، ونريد طبعه واشاعته أيضاً ، وأما التراجم التي طبعت فانها محشوة من الاغلوطات[1] لانها ترجمة المخالفين، وقد فعلوا ما فعلوا - فيا إخواني لا بدَّ من طبع ترجمتنا واشاعتها مع الأصل وتلك لا تكون لا ببذل المال الجزيل - وانكم مسلمون وقد بايعتم الله على أنَّ لكم الجنة بأموالكم وأنفسكم . قال الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) وأيضا ان الاسلام قد شاع أولا في بلدانكم المحروسة فلها شرفية على سائر البلدان. ولذلك نرجو الاعانة منكم في ارسال حصة من اموالكم لأجل إشاعة القرآن الكريم . وإشاعة (إسلامك ريبويو) قال الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) وقال (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)

---

١) الاغلوطات المسائل التي يغلط فيها الناس أو يغالط بها بعضهم بعضاً . ولا ندري أيريد هذا أم يريد جمع الغلط

وقال سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم « من كان في عون اخيه كان الله في عونه »
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته خادم الاسلام والمسلمين
(خواجا كال الدين مدير اسلامك ريويو

[المنار]

نحض من بلغته هذه الدعوة على مساعدة اخينا صاحب هذه المجلة الاسلامية الانكليزية على إدامة اصدارها . وننصح له بأن لا يطبع ترجمة القرآن التي نوه بها الا بعد عرضها على جماعة من كبار العلماء في مصر أو الهند واجازتهم إياها . فان رسالته هذه تدل على ضعفه في اللغة العربية فيخشى ان تكون ترجمته كثيرة الغلط كغيرها. على ان ترجمة القرآن ترجمة تامة تؤدي من المعاني والتأثير ما تؤديه عبارته العربية ضرب من المحال. وحسب من يترجم القرآن للاجانب ان يأتيهم بتفسير مختصر سليم من الحشو وانما تقوم بذلك الجمعيات لا الافراد .

(بسم الله الهادي الى الحق)

الدين النصيحة

الى إخوتي المسلمين . إنني قد ولدت ونشأت مسلما ودرست القرآن وتفاسيره مع العلوم الاسلامية على اعظم علماء سورية ومصر ورأيت القرآن يشهد بأنه جاء مصدقا للتوراة والانجيل ومهيمنا عليهما اي حافظا لهما من التغيير والتحريف لكن لدى دراستي للتوراة والانجيل رأيت القرآن يخالفهما في حقائق كثيرة لاسيما مخالفته لهما في مسألة الكفارة والفداء التي هي خلاصة الكتاب المقدس. مع أن القرآن قد تكلم عن القربان منذ زمن آدم وقد أثبتت السنة القربان في عيد الاضحى مع أن جميع القرابين والذبائح التي كانت تقدم في العهد القديم كلها رمز واشارة الى الذبيحة الحقيقية (المسيح) الذي قدم نفسه قرباناً فدية عن الخاطئين الذين يؤمنون به والا فكيف يعقل أن حيواناً أبكم يكون فداء عن إنسان عاقل إذ لابد أن يكون الفداء على الأقل معادلا للمفتدي ان لم يكن الفداء أثمن منه يا أيها الاخوة تبصروا في هذا الامر المهم الذي يتوقف عليه خلاص نفوسكم من الهلاك الأبدي واعلموا

أن كاتب هذه الرسالة هو من سلالة نبيكم ونشأ مسلما ولكن الله قد أنار بصيرته حتى رأى الحق صريحا وذلك أن الكتاب المقدس هو كلمته وكتابه الوحيد لم يعتره تغيير ولا تحريف وأنه لايمكن لأحد من البشر أن يتخلص من الهلاك الأبدي الا بواسطة كلمة الله المتجسد في أحشاء مريم وقد اتبعته وآمنت به وعتمدت باسمه تاركا دين آبائي وأملاكي وأقاربي وأصدقائي لأجل أن أتخلص من الهلاك الأبدي والآن أدعوكم وأنصحكم بإخلاص ومحبة أخوية لتقرأوا كتاب الله تاركين كل تحزب وتعصب اذ الدين بالاستدلال لا بالارث عن الآباء وحينئذ فالله نفسه يهديكم الى الصراط المستقيم الذي تطلبونه منه كل يوم مرات عديدة واذا صعب فهم شيء من الكتاب المقدس على أحدكم فعليه بسؤال الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وهم يجيبونكم عن كل ماترومونه والله القادر يرشدكم الى طريق الحق والحياة بنعمته وهدايته آمين

[المنار]

جاءتنا هذه الرسالة في البريد بامضاء متنصر سمى نفسه باسمين ، أواسم جعل نفسه به عبدا لإلهين، وهو (عبد الله ، عبد الفادي) ونحن لاتناقشه فيما ادعاه من النسب . ولا من ترك النشب. فأما دعواه دراسة التفسير والعلوم الاسلامية فلايبعد ان يكون لها أصل . لأن كثيرا من الناس يزاول دراسة بعض الكتب عدة سنين ولا يفهم منها شيئا . ويجوز ان لايكون له أصل ، ويترجح اذا كان الرجل صحيح الفهم. لأن من يدرس التفاسير وعلوم الاسلام. لايمكن ان يثبت مسألة الفداء الاخروي التي صرح بنفيها القرآن. ويستدل عليها بالاضحية والقربان، فالقرآن انما شرع لنا الفدية في الدنيا فقط، كفدية الصيام لمن يطيقه بمشقة شديدة لهرم أو داء عضال وهي أن يطعم عن كل يوم مسكينا. وفدية محرمات الاحرام قال تعالى (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) وفداء الاسير ، ويفدى الاسير بمثله أو بمال كما هو لمتبع عند جميع الامم .

وأما النجاة في الآخرة فانما تكون بالايمان الصحيح والعمل الصالح كما هو منصوص في الآيات الكثيرة . ولا يمكن ان تكون بالفداء . قال الله تعالى (٥ : ٣٩ ان الذين كفروا لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم

القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب اليم) وقال تعالى في شأن يوم القيامة (٢: ٢٠: واتقوا يوماً لاتجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) والعدل هنا الفدية وهو بمعنى المعادل

وأما حكمة الاضحية وما في معناها من النسك فهي التوسعة على الفقراء ومساواتهم بالاغنياء في خير اطعمتهم والذها. قال تعالى (ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم)

فمن عرف هذه الضروريات من الاسلام يجزم بأن صاحب هذه النشرة إما كاذب في دعواه انه كان مسلما وأنه قرأ شيئا من علم الاسلام، وإما انه قرأ شيئا وهو يتعمد اليوم تحريفه وتبديله، ويريد ان يغش عوام المسلمين به كما يفعل امثاله واقتاله. فعليه ان ينصح نفسه قبل ان ينصح غيره وان يعلم ان الدنيا لاتغني عن الآخرة التي لاتنفعه فيها فدية فادولاشفاعة شافع. الاأن يؤمن بالله وحده، ويزكي نفسه بالعمل الصالح (فما تنفعهم شفاعة الشافعين، فما لهم عن التذكرة معرضين)

ان التحريف صار صنعة لدعاة النصرانية حتى ان من يلتصق بهم لأمر ما لايلبث ان يتقن صنعتهم، ولهذا نرى صاحب هذه الرسالة حرف ماورد من الفدية في القرآن عن موضعه، ووضعه لمعنى طالما صرح القرآن ببطلانه، كما حرف معنى قوله تعالى « ومهيمنا عليه » ومعناه ان القرآن رقيب على ماقبله من الكتب الالهية يظهر ماحرف منها ويفضح أصحابه، فجعله بمعنى منع الناس من تحريفه بالفعل لا باظهار تحريفهم، وكيف يكون مانعا من شيء وقع قبل نزوله ؟ ولا يبعد ان يدعي في رسالة أخرى ان القرآن يثبت التثليث. وينهى عن التوحيد !! ألم تر انه ادعى أن خلاصة الكتاب المقدس — أي مايعزى الى انبياء بني اسرائيل من وحي وغيره — لاتخرج عن معنى الكفارة والفداء؛ وهذه دعوى افتجرها القوم الذين التصق بهم ما أنزل الله بها من سلطان، ولا خطرت على بال أحد من الانبياء ولا ممن عاصرهم أو جاء بعدهم من الاحبار، وقد بينا من قبل أصلها ومأخذها فلا حاجة الى اعادته هنا.

وأعجب من هذا وذاك أن مثل هذا الرجل يذكر كلمة « الدين بالاستدلال» فيالله العجب من تهافت نوع الانسان !!

(جيوش الدول المتحاربة)

انشأ المقطم مقالا مطولا عنوانه (الجيوش المتحاربة تأليفها وعددها في زمن السلم والحرب) قال في الفصل الذي تكلم فيه عن الجيش الألماني (في عدد الجمعة ٧ أغسطس ١٥ رمضان) بعد تفصيل :

« فيكون مجموع الجيش الألماني كله في زمن الحرب خمسة ملايين ومئة وخمسين ألف جندي . ولكن الثقات الحربيين لايظنون أن ألمانية تستطيع رصد هذا العدد من الجنود للحرب ويرجحون انها لاتقوى على رصد اكثر من ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ... ٤٫٥٠٠٫٠٠٠ جندي على أكبر تقدير » وقال في آخرها :

« ويقول الثقات العسكريون الذين شهدوا مناورات الجيش الألماني ان الفنون الحربية والحركات العسكرية المتبعة فيه صارت قديمة (!) وان رجال المدفعية في الجيش الفرنسي أمهر في الرماية منهم في الجيش الألماني . ولكن كلا الجيشين متساويان في سرعة التعبئة . فان الجيش الألماني يعبأ كله في تسعة أيام ويوضع على حدود روسيا أو على حدود فرنسا »

وقال في آخر الفصل الذي عقده لجيش فرنسة (في عدد السبت ٨ أغسطس)

« ويبلغ عدد الجيش الفرنسوي في زمن الحرب نحو أربعة ملايين جندي وفيه نحو ثلاثة آلاف مدفع . والجندي الفرنسوي مشهور باقدامه وكره وحماسته وشجاعته ومقدرته على تحمل المشاق وقوة الابتكار الفائقة . ورجال المدفعية الفرنسيون احسن رجال المدفعيات في العالم في الرماية، وهم متمرنون عليها ولا سيما على اطلاق المدافع السريعة تمرنا لامثيل له في الجيوش الاوربية . وموضع الضعف في الجيش الفرنسوي هو في مدفعيته الكبيرة

« وتتم تعبئته الجيش الفرنسوي في ثمانية أيام و١٢ ساعة ، أي انه يعبأ اسرع من الجيش الألماني باثنتي عشرة ساعة

« وسلاح الجنود بندقية لبل من عيار ١٣ ، وهي طراز قديم قليلا ولكنها أحدث من بندقية موزر المستعملة في الجيش الألماني . اما مدافع الميدان فمن التي

قطر فوهتها ثلاث بوصات وهي احدث من مدافع الميدان في الجيش الألماني أيضا » (١)

وقال في أوخر الفصل الذي عقد للجيش الروسي « اما قوته في زمن الحرب فلا حد لها وانما يقال انها تبلغ سبعة ملايين ونصف مليون جندي ، فهو اضخم جيوش الارض وأكبرها كلها »

ثم ذكر ان تعبئته تستغرق نحو ثلاثة أسابيع وان هذا موضع الضعف فيه .

وقال في الفصل الذي عقد للجيش الانكليزي ان جملته في زمن السلم في الامبراطورية كلها ٨١٠٨٤٩ وكان في العام الماضي ٩٩١ ر ٧٢٩ » ثم ذكر انه سيزاد حتى يبلغ مليونا ونصف مليون

(برقيات الحرب ملخصة من المقطم)

(استعداد الدول الكبرى)

(من لندن ٣١ يوليو) طلبت الحكومة الالمانية من الحكومة الروسية ان تكف عن تعبئته الجيوش والا فانها تشرع في التعبئة مقابلة لها بالمثل

والظاهر ان روسية مصممة على التدرع بالحزم ووقوف موقف صحيح العزيمة في المشكلة الحالية

تظن دوائر برلين السياسية ان الحكومة الألمانية تشرع في التعبئة اليوم (الجمعة) والاستعداد في فرنسة وانكلترة قائم على ساق وقدم والهمة مبذولة لاعداد كل مايستطاع بأسرع مايستطاع

(١ أغسطس) أصدر قيصر روسية أمره بجعل تعبئته الجيوش عامة في جميع انحاء الامبراطورية الروسية ، وكانت (من قبل) مقتصرة على خمسين ولاية منها

وقد أجابت ألمانية على هذا الأمر باعلان الحكم العرفي في جميع انحاء الامبراطورية الألمانية . وينتظر ان يسري الحكم العرفي بعد التعبئة يوم السبت (اليوم)

وقد شرعت كل من ألمانية وفرنسة وروسية في إرسال الفيالق الى الحدود من قبيل الاستعداد والاحتياط أما الاحتياطات التي تتخذ في بريطانية العظمى فمن أعظم مايكون.

---

(١) في برقية من لندن للمقطم الذي صدر في ١٤ أغسطس ما نصه: اعلن ولاة الامور رسميا هنا ان مدافع الميدان الالمانية من طبقة واطئة جدا

(اعلان الحرب وبدءها)

(لندن ٢ أغسطس) جاءت وكالة تلغراف رسمية وصلت الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم وفيه ان الالمانيين غزوا فرنسة وجتازوا الحدود عند سيري (بلدة على الحدود قرب ستراسبورج)

(برلين ٢ منه) غزا جيش روسي بعد فمه وفرسانه من اقوزق بلاد ألمانية بقرب بيالا

(لندن ٢ أغسطس) رسمي: أعلنت ألمانية الحرب على روسية . وقد برح كل من سفير روسية في برلين وسفير ألمانية في بطرسبرج مقر وظيفته

وقد شرعت الحكومة الفرنسية في تعبئة جيشها استعدادا للحرب

وكانت ألمانية قبل ذلك قد أرسلت مساء (السبت) بلاغا نهائيا الى روسية وفرنسة وأعطتهما مهلة اثنتي عشرة ساعة للاجابة عليه. فكان جواب روسية وفرنسة عليه جوابا غير مرضي. وشاع بعد رسال ألمانية لبلاغها النهائي انها مددت هذه المهلة حتى ظهر يوم الاثنين

وتوسط ملك الانكليز في الامر فارسل تلغرافين لقيصر روسية وامبراطور ألمانية ولكن كل المساعي ذهبت ادراج الرياح فيما يظهر

(لندن ٤ منه) برح السفير الالماني باريس في الليلة البارحة فتم بذلك قطع العلاقات السياسية تماما بين الدولتين

استولى الالمانيون على ثلاث مدن وثلاث جزر روسية في بحر البلطيك

(لندن ٥ منه) رسمي: أعلنت انكلترة الحرب على ألمانية الساعة السابعة من امس. (بناء على عدم احترام ألمانية حياد بلجيكة)

(برلين ٥ منه) أعلنت ألمانية الحرب على انكلترة (و بدأت الحرب بينها و بين بلجيكه)

لندن ٧ منه أعلنت النمسة الحرب رسميا على روسية

لندن ١٣ منه اعلنت انكلترة الحرب في منتصف هذا الليل على النمسة والمجر

(منع المنار من السودان)

أمرت حكومة السودان بمصادرة مجلة المنار واحراق نسخها، وما أنذرتنا ولا أخبرتنا، بل علمنا ذلك من بعض المشتركين. وكان ذلك في غيبة الحاكم العام فلما عاد من أوربة بعد وقوع الحرب شكونا اليه ذلك، وطالبناه باسم الحرية الدينية التي امتاز بالعناية باحترامها انصافنا ولعله يفعل عن قريب

المنار

١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و« منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ ذي القعدة ١٣٣٢ هـ ق ٣٠ الخريف الثاني ١٢٩٣ هـ ش ١٩ اكتوبر ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٨٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ

بعد أن بين الله تعالى في آخر الآية السابقة ان ما أثاب به اولئك النصارى الذين آمنو بالرسول الاعظم ، صلى الله عليه وسلم ، هو جزاء جميع المحسنين عنده ، الذين آمنوا كإيمانهم وخشعوا للحق كخشوعهم ، عقب عليه بجزاء المسيئين الى انفسهم بالكفر والتكذيب ، على سنة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد ، فقال :

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على وحدانيتنا ، وصدق رسولنا فيما يبلغه عنا ، ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ أي اولئك دون غيرهم هم اصحاب تلك النار العظيمة الملازمون لها، الذين ليس لهم مثوى سواها، أعاذنا الله منها

(٩٠) يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين (٩١) وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون

بدأ الله تعالى هذه السورة بآيات من أحكام الحلال والحرام والنسك — ومنها حل طعام أهل الكتاب والتزوج منهم، وأحكام الطهارة، والعدل ولو في الأعداء والمبغضين — ثم جاء بهذا السياق الطويل في بيان أحوال أهل الكتاب ومحاجتهم، فكان أوفى وأتم ماورد في القرآن من ذلك، ولم يتخلله إلا قليل من آيات الاحكام والوعود والعظات، بينا مناسبتها له في مواضعها. وهذه الآيات عود الى أحكام الحلال والحرام والنسك التي بدئت بها السورة، ويتلوها العود الى محاجة أهل الكتاب كما علمت. فمجموع آيات السورة في هذين الموضوعين. وانما لم تجعل آيات الاحكام كلها في أول السورة، وتجعل الآيات في أهل الكتاب متصلا بعضها ببعض في باقيها، لما بيناه غير مرة من حكمة مزج المسائل والموضوعات في القرآن، من حيث هو مثاني تتلى دائما للاهتداء بها، لا كتابا فنيا ولا قانونا يتخذ لأجل مراجعة كل مسألة من كل طائفة من المعاني في باب معين

على ان في نظمه وترتيب آيه من المناسبة بين المسائل المختلفة مايدهش أصحاب الافهام الدقيقة بحسنه وتناسقه، كما ترى في مناسبة هذه الآيات لما قبلها مباشرة، زائدا على ماعلمت آنفا من مناسبتها لمجموع ماتقدمها من أول السورة الى هنا:

ذلك أنه تعالى ذكر ان النصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا، وذكر من سبب ذلك أن منهم قسيسين ورهبانا، فكان من مقتضى هذا ان يرغب المؤمنون في الرهبانية، ويظن الميالون للتقشف والزهد أنها مرتبة كمال تقربهم الى الله تعالى، وهي انما تتحقق بتحريم التمتع بالطيبات طبعا من اللحوم والأدهان والنساء، إما دائما كامتناع الرهبان من الزواج ألبتة، واما في أوقات معينة كأنواع الصيام التي ابتدعوها؛

وقد أزال الله تعالى هذا الظن ، وقطع طريق تلك الرغبة ، بقوله عز من قائل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ﴾ أي لاتحرموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات المستلذة بأن تتعمدوا ترك التمتع بها تنسكا وتقربا اليه تعالى . ولا تعتدوا فيها بتجاوز حد الاعتدال الى الاسراف الضارّ بالجسد كالزيادة على الشبع والريّ ، أو بالاخلاق والآداب كجعل التمتع بلذتها أكبر همكم ، أو شاغلا لكم عن معالي الامور من العلوم والاعمال النافعة لكم ولأمتكم ، وهذا معنى قوله (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) ولا تعتدوها هي - أي الطيبات المحللة بتجاوزها الى الخبائث المحرمة . فالاعتداء يشمل الامرين — الاعتداء في الشيء نفسه ، واعتداءه بتجاوزه الى غيره مما ليس من جنسه ، وقد حذف المفعول في الآية فلم يقل : فلا تعتدوا فيها — او فلا تعتدوها — كما قال (تلك حدود الله فلا تعتدوها) ليشمل الامرين — اعتداء الطيبات نفسها الى الخبائث ، والاعتداء فيها بالاسراف ، لأن حذف المعمول يفيد العموم . ثم علل النهي بما ينفر عنه فقال :

﴿ ان الله لايحب المعتدين ﴾ الذين يتجاوزون حدود شريعته ، وسنن فطرته ، ولو بقصد عبادته

وتحريم الطيبات المحللة قد يكون بالفعل . من غير التزام بيمين ولا نذر ، وقد يكون بالتزام ، وكلاهما غير جائز ؛ والالتزام قد يكون لاجل رياضة النفس وتهذيبها بالحرمان من الطيبات ، وقد يكون لإرضاء بادرة غضب ، باغاظة زوجة أو والد أو ولد . كمن يحلف بالله أو بالطلاق انه لا يأكل من هذا الطعام [ومثله ما في معناه من المباحات] أو يلتزم ذلك بغير الحلف والنذر من المؤكدات . ومن هذا الصنف من يقول : ان فعل كذا فهو بريء من الاسلام ، أو من الله ورسوله . وكل ذلك مذموم ، ولا يحرم على أحد شيء يحرمه على نفسه بهذه الاقوال . وفي الايمان وكفارتها خلاف بين العلماء سيأتي بيانه

وأما ترك الطيبات ألبتة كما تترك المحرمات - ولو بغير نذر ولا يمين — تنسكا وتعبداً لله تعالى بتعذيب النفس وحرمانها ، فهو محل شبهة فُتن بها كثير من العباد والمتصوفة ، فكان من بدعهم التركية ، التي تضاهي بدعهم العملية ؛ وقد اتبعوا فيها

سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، كعباد بني اسرائيل ورهبان النصارى . وهؤلاء أخذوها عن بعض الوثنيين كالبراهمة الذين يحرمون جميع اللحوم ، و يزعمون ان النفس لاتزكو ولا تكمل الا بحرمان الجسد من اللذات . وقهر الارادة بمشاق الرياضات . وكانوا يحرمون الزينة كما يحرمون النعمة . فيعيشون عراة الاجسام ، ولا يستعملون الأواني لأطعمتهم ، بل يستغنون عنها بورق الشجر . وقد أرجعهم انتشار الاسلام في الهند عن بعض ذلك . ولا يزال الجم الغفير منهم يمشون في الاسواق والشوارع عراة ليس على أبدانهم الا مايستر السوءتين فقط ، ويعبرون عن ذلك بكلمة «السبيلين» العربية التي يستعملها الفقهاء، لانهم أخذوها — كما يظهر — عن المسلمين الذين كانوا يجبرونهم على ستر عوراتهم . ومنهم من يشد في وسطه إزارا بكيفية يرى بها باطن فخذه ، والرجال والنساء في قلة الستر سواء ، فترى النساء في اسواق المدن مكشوفات البطون والظهور والسوق و لافخاذ ، ومنهن من تضع على عاتقها ملحفة تستر شطر بدنها الاعلى ويبقى الجانب الآخر مكشوفا

وجملة القول ان تحريم الطيبات والزينة وتعذيب النفس من العبادات المأثورة عن قدماء الهنود، وقلدهم فيها أهل الكتاب ولاسيما النصارى ، فانهم - على تفصيهم من شريعة التوراة الشديدة الوطأة ، وعلى إباحة مقدسهم وإمامهم بولس جميع مايؤكل و يشرب لهم، الا الدم المسفوح وماذبح للاصنام — قد شددوا على أنفسهم، وحرموا عليها مالم تحرمه الكتب المقدسة عندهم على مافيها من الشدة والمبالغة في الزهد

ثم أرسل الله تعالى خاتم النبيين والمرسلين بالاصلاح الاعظم . فأباح للبشر الزينة والطيبات . ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . وأرشدهم الى إعطاء البدن حقه والروح حقها . لأن الانسان مركب من روح وجسد . فيجب عليه العدل بينهما . وهذا هو الكمال البشري . فكانت الامة الاسلامية بذلك أمة وسطا صالحة للشهادة على جميع الامم وان تكون حجة لله عليها ، كما تقدم بيان ذلك في أول الجزء الثاني من هذا التفسير ، وبذلك كانت جديرة بالبحث عن اسرار الخلق ومنافعه ، وتسخير قوى الارض والجو للتمتع بنعم الله فيها، مع الشكر عليها. ولكنها قصرت في ذلك ثم انقطعت عن السير في طريقه بعد أن قطع سلفها شوطا واسعا فيه

ولما كان حب المبالغة والغلو من دأب البشر وشنشنتهم في كل شؤونهم ، ما من شيء الا ويوجد من يميل الى الافراط فيه ، كما يوجد من يميل إلى التفريط - استشار بعض الصحابة رضي الله عنهم نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم بتحريم الطيبات والنساء على أنفسهم ، وتركها بعضهم من غير استشارة ، اشتغالا عنها بصيام النهار وقيام الليل ، فنهاهم عن ذلك . وأنزل الله تعالى هذه الآية وما في معناها من الآيات في تحريم الخبائث ، والمنة بحل الطيبات ، وبين ذلك الرسول (ص) بقوله وفعله احسن البيان

وانا نذكر هنا بعض الاخبار والآثار المروية في ذلك لتكون حجة على أهل الغلو في هذا الدين ، الذين تركوا هدايته السمحة الى تشديد الغابرين ، وصاروا يعدون زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق خاصة بالكافرين ، حتى كأن المشارك لهم فيها خارج عن هدي المؤمنين ، وهاك ما ورد في هذه الآية من التفسير المأثور . وسيأتي في سورة الاعراف (١) وغيرها ما يزيدك نورا على نور :

أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله اني اذا أكلت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي ، واني حرمت عليّ اللحم . فنزلت (ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله (ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم) قال : نزلت هذه الآية في رهط من الصحابة قالوا : نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الارض كما تفعل الرهبان . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهم فذكر لهم ذلك فقالوا نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لكني أصوم وأفطر . وأصلي وأنام . وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني »

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في مراسيله وابن جرير عن أبي مالك في قوله

(١) أي عند تفسير قوله (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة)

(ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم) قال نزلت في عثمان بن مظعون وأصحابه كانوا حرموا على أنفسهم كثيرا من الشهوات والنساء وهمّ بعضهم أن يقطع ذكره فنزلت هذه الآية

وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة ان ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر[١] فقال بعضهم لا آكل اللحم، وقال بعضهم لاأتزوج النساء، وقال بعضهم لاأنام على فراش. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال «مابال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»

وأخرج البخاري ومسلم وابن ابي شيبة والنسائي وابن ابي حاتم وابن حبان والبيهقي في سننه وابو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس معنا نساء فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ورخص لنا ان ننكح المرأة بالثوب الى اجل[٢] ثم قرأ عبد الله (يا ايها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا، ان الله لايحب المعتدين)

واخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن ابي قلابة قال: اراد اناس من

(١) أي عن عبادته اذ لم يكتفوا بما كان يعمله على أعينهم من أداء الفرائض والسنن الرواتب، واعتقدوا ان الكمال ان يزيدوا على ذلك، وأنه لا بد أن يكون للرسول زيادات يخفيها عنهم رحمة بهم وتخفيفا عليهم. ومن ذلك نوم ابن عباس عند خالته ميمونة زوج النبي (ص) ليرى صلاته في الليل

(٢) هذا نكاح المتعة اجازه النبي (ص) في السفر ثم حرمه، ثم اجازه ثم حرمه على التأبيد. وكانت حكمة اجازته أنهم كانوا يزنون في الجاهلية فشق عليهم البعد عن النساء في الغزو حتى عزم أقوياء الايمان على الجب والخصاء، وخيف على الضعفاء الزنا وناهيك بما يتبعه من المفاسد. فكانت المتعة تربية للفريقين. وسيرا تدريجيا الى الحياة الزوجية الكاملة التي يتحقق بها احصان كل من الزوجين للآخر، ويتعاونان بها على مقصدها الفطري وهو النسل. والمتعة ليس فيها هذا المعنى، وانما أبيحت للضرورة ومنع مفاسد الزنا الكثيرة ومضار اختلاف عدة رجال الى امرأة واحدة

اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء و يترهبوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فغلظ فيهم المقالة ثم قال « انما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم؛ فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع، اعبدوا الله ولا تشركوا به، وحجوا واعتمروا، واستقيموا يستقم بكم» قال ونزلت فيهم (ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم) الآية

واخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة في قوله (لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم) قال نزلت في اناس من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ارادوا ان يتخلوا من الدنيا ويتركوا النساء وتزهدوا. منهم علي ابن ابي طالب وعثمان بن مظعون.

واخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله (ياايها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم) قال ذكر لنا ان رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه رفضوا النساء واللحم وارادو أن يتخذوا الصوامع. فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال ليس في ديني ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع » وخبرنا ان ثلاثة نفر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفقوا فقال احدهم : اما انا فأقوم الليل لا أنام. وقال أحدهم أما أنا فأصوم النهار فلا أفطر. وقال الآخر :أما انا فلا آتي النساء. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فقال: «ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا؟» قالوا بلى يارسول الله وما أردنا الا الخير. قال - لكني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآتي النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني » وكان في بعض القراءة في الحرف الاول: من رغب عن سنتك فليس من أمتك وقد ضل سواء السبيل

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي عبد الرحمن قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم « لاآمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا »

وأخرج ابن جرير عن السدي قال: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوما فذكر الناس، ثم قام ولم يزدهم على التخويف. فقال ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا عشرة. منهم علي بن أبي طالب وعثمان بن مظعون: ماحقنا ان لم نحدث عملا؟ فان النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم. فحرم بعضهم أكل اللحم والودك [1] وان يأكل البهار [2] . وحرم بعضهم النوم، وحرم بعضهم النساء. فكان

(١) الودك الدهن والدسم من اللحم والشحم (٢) معناه الحوت الابيض

عثمان بن مظعون ممن حرم النساء، وكان لا يدنو من أهله ولا يدنون منه، فأتت امرأته عائشة – وكان يقال لها الحولاء – فقالت لها عائشة ومن حولها من نساء النبي صلى الله عليه وسلم: ما بالك ياحولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين؟ فقالت وكيف أتطيب وأمتشط وما وقع علي زوجي ولا رفع عني ثوبا منذ كذا وكذا؟ فجعلن يضحكن من كلامها؛ فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن يضحكن فقال «ما يضحككن؟» — قالت يارسول الله الحولاء سألتها عن أمرها فقالت: مارفع عني زوجي ثوبا منذ كذا وكذا. فأرسل اليه فدعاه فقال: « مابالك ياعثمان؟» – قال اني تركته لله لكي أتخلى للعبادة. وقص عليه أمره — وكان عثمان قد أراد ان يجب نفسه – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أقسمت عليك الا رجعت فواقعت أهلك» فقال: يارسول الله اني صائم! قال: أفطر – قال فأفطر وأتى أهله. فرجعت الحولاء الى عائشة قد اكتحلت وامتشطت وتطيبت. فضحكت عائشة؛ فقالت مابالك ياحولاء؟ فقالت انه أتاها أمس. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مابال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم؟ ألا إني أنام وأقوم، وافطر واصوم، وانكح النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» فنزلت (يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا) يقول لعثمان «لاتجب نفسك فان هذا هو الاعتداء» وامرهم ان يكفروا ايمانهم فقال (لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم) الآية

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال: اراد رجال منهم عثمان ابن مظعون وعبدالله بن عمرو ان يتبتلوا ويخصوا انفسهم ويلبسوا المسوح، فنزلت (يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما احل الله لكم) والآية التي بعدها

واخرج ابن جرير وابن المنذر وابو الشيخ عن عكرمة ان عثمان بن مظعون وعلي بن ابي طالب وابن مسعود والمقداد بن الاسود وسالما مولى ابي حذيفة وقدامة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس الا ما يأكل ويلبس السياحة من بني اسرائيل، وهموا بالاختصاء، واجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت (ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما احل الله لكم) الآية، فلما نزلت بعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «ان لأنفسكم حقا ولأعينكم حقا ، وان لاهلكم حقا ، فصلوا وناموا وصوموا وافطروا فليس منا من ترك سنتنا »

فقالوا: اللهم صدقنا واتبعنا ماانزلت مع الرسول .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن عبدالله بن رواحة ضافه ضيف من أهله وهو عند النبي صلى الله عليه وسلم. ثم رجع الى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارا له ، فقال لامرأته : حبست ضيفي من أجلي؟ هو حرام علي. فقالت امرأته هو علي حرام ، قال الضيف هو علي حرام . فلما رأى ذلك وضع يده وقال : كلوا بسم الله . ثم ذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره. فقال النبي صلى الله عليه وسلم «قد أصبت» فأنزل الله (ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم)

وأخرج البخاري والترمذي والدارقطني عن أبي جحيفة قال: آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء. فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة. فقال لها ماشأنك؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال: كل فاني صائم. قال : ماأنا بآكل حتى تأكل. فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نم، فنام ، ثم ذهب يقوم فقال : نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا. فقال له سلمان: ان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا. فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال « صدق سلمان »

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألم أخبر انك تصوم النهار وتقوم الليل؟ - قلت بلى يارسول الله. قال - فلاتفعل. صم وأفطر، وقم ونم» فان لجسدك عليك حقاً، وان لعينك عليك حقاً ، وان لزوجك عليك حقاً ، وان لزورك [١] عليك حقاً، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام. فان لك بكل حسنة عشر أمثالها. فاذن ذلك صيام الدهر كله — قلت اني أجد قوة — قال: فصم صيام نبي الله داود ولاتزد عليه - قلت وما كان صيام نبي الله داود ؟ قال - نصف الدهر» [٢]

نقلنا هذه الأخبار والآثار من الدر المنثور وتركنا بعض الروايات في معناها .

(١) الزور بالفتح الزائرون (٢) أي يصوم يوماً و يفطر يوما كما في رواية أخرى

وفيما ذكرناه الموقوف والمرفوع والصحيح والضعيف . ومجموعها حجة لانزاع فيها

فان قيل: ان المأثور عن الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعلي (رض) وعن غيرهم من كبار الصحابة والتابعين انهم كانوا في غاية التقشف وتعمد ترك الطيبات من الطعام والشراب وكذا للباس الحسن ، فكيف تركوا مازعمت انه الأفضل من إعطاء البدن حقه كاعطاء الروح حقها ، وبالتمتع بالطيبات من غير اسراف ؟ فالجواب أن المأثور عن أهل اليسار من الصحابة انهم كانوا كما ذكرنا . وأهل الإقتار حالهم معلوم . والله تعالى يقول (لينفقْ ذو سَعة من سعته ومن قُدِر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) الآية. وأما الخلفاء الثلاثة فكانوا يتعمدون التقشف ليكونوا قدوة لعمالهم ولسائر الفقراء والضعفاء . وقد كان المفروض لابي بكر وعمر (رض) في بيت المال قدر المفروض لأوساط المهاجرين ، لا لأعلاهم كآل بيت الرسول (ع م) ولا لأدناهم كالموالي . ولا حجة فيمن بعدهم . فالصوفية والزهاد يتتبعون مانقل عن بعض الصحابة والتابعين من التقشف ويزعمون أن مقتضى الدين الاسلامي أن يكون الناس كلهم كذلك . كما أن أهل السعة والترف يجمعون مانقل عن موسري السلف من التوسع في المباحات ، ويجعلونه حجة لاسرافهم . وخير الامور الوسط، فراجع تفسير قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) والقاعدة العامة قوله تعالى في وصف خيار هذه الامة الوسط (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقترُوا، وكان بين ذلك قواما)

﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ﴾ هذا تصريح بالأمر بضد مقتضى النهي الذي قبله ، أي كلوا مما رزقكم الله تعالى إياه حال كونه حلالا في نفسه غير داخل فيما حرمه عليكم — من الميتة بأنواعها والدم المسفوح ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله ـ وحلالا في طريقة كسبه وتناوله، بأن لايكون رِباً أو سحتاً أو غصباً أو سرقة [ومن الناس من يقول ان الرزق في عرف الشرع ماملك ملكا صحيحاً ، لا كل ما انتفع به الانسان، فلايحتاج الى هذا القيد] وحال كونه مستلذا غير مستقذر في نفسه او لفساد طرأ عليه كالطعام المنتن

والمراد بالأكل التمتع فيدخل فيه الشرب مما كان حلالا غير مسكر ولاضار. طيبا غير مستقذر في نفسه او بفساده او نجاسة طرأت عليه . وانما عبر بالاكل لأنه

هو الغالب، كما عبر به في مثل قوله (لا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل) وهو يعم كل ماينتفع به من طعام وشراب ولباس ومتاع ومأوى . وكثيرا ماتطلق العرب الخاص فتريد به العام ، وما تطلق العام فتريد به الخاص ، ويعرف ذلك بالسياق والقرائن

الامر هنا للوجوب لا للإباحة ؛ فهو ليس من الامر بالشيء بعد النهي عنه المفيد للاباحة فقط كقوله (فاذا حللتم فاصطادوا) وإنما هو تصريح بأن امتثال النهي عن تحريم الطيبات لايتحقق الا بالانتفاع بها فعلا ، اذ ليس المراد بتحريمها المنهي عنه تحريمها بمجرد القول او بالاعتقاد ، بل المراد به أولا وبالذات الامتناع منها عمدا تقربا الى الله تعالى بتعذيب النفس وحرمانها ، أو إضعافا للجسد توهما أن إضعافه يقوي الروح ، أو لغير ذلك من الاسباب والعلل ، كمن يحرم على نفسه شيئا بنذر لجاج او يمين، وكل هـذا مما لا يزال يبتلى به كثير من المسلمين. دع ما كانت تحرمه الجاهلية على أنفسها من الانعام أو نسلها تكريما لها لكثرة نتاجها ، أو تعظيما لصنم تسيبها له . كما تراه مبينا في سورة الانعام التي بعد هذه السورة

وحكمة النهي عن ذلك ان الله تعالى يحب من عباده ان يقبلوا نعمه ويستعملوها فيما أنعم بها لأجله، و يشكروا له ذلك ، ويكره لهم ان يجنوا على الفطرة التي فطرهم عليها ، فيمنعوها حقوقها ، وان يجنوا على الشريعة التي شرعها لهم فيغلوا فيها بتحريم مالم يحرمه ، كما يكره لهم ان يفرطوا فيها باستباحة ماحرمه أو ترك مافرضه . ولاجل هذه الحكمة لم يكتف بالنهي عن تحريم الطيبات ، حتى صرح بالامر باستعمالها والتمتع بها . وقد بين تعالى غاية ذلك وحكمته التي أشرنا اليها بقوله (٢ : ١٧٢ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله ان كنتم إياه تعبدون) والشكر يكون بالقول والعمل ، ولذلك قارن النبي (ص) بين هذه الآية في خطاب المؤمنين، وما في معناها من خطاب المرسلين ، فقال « ان الله طيب لايقبل الا طيبا ، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم) وقال (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث أغبر يمد يديه الى السماء : يارب يارب — وملبسه حرام ومطعمه حرام وغذي بالحرام. فأنى يستجاب له» رواه أحمد ومسلم والترمذي

وغيرهم. وفي الحديث تعريض بالعباد وأهل السياحة من الامم السالفة الذين كانوا يرون ان روح لعبادة التقشف والشعوثة، حتى إنهم على تقشفهم ما كانوا يتحرون الحلال كأنهم يرون التقشف وتعذيب النفس يبيحان لهم ماعداهما، فيكونون أهلا لاستجابة دعائهم. واستدل بعضهم بالحديث على كون المراد بالطيبات الحلال، ميلا الى ذلك المذهب البرهمي. بل زعم بعضهم مثل ذلك في الآيات التي قرنت الحلال بالطيب فجعلوا الطيب تأكيدا للحلال؟!

فامتثال هذا الامر وذلك النهي معا لايتحقق الا بالتمتع بما يتيسر من الطيبات فعلا بلا تأثم ولاحرج. بل ينبغي للمؤمن ان يكون طيب النفس بذلك، ملاحظا انه من نعمة الله وفضله، ومن أسباب مرضاته ومثوبته. وأن مرضاته ومثوبته عليه تكون على حسب شهود المنتفع للنعم وشكره للمنعم، وأعني بالشهود ان يحضر قلبه انه عامل بشرع الله. ومقيم لسنة فطرته التي فطر الناس عليها. وأنه يجب ان يشكر له ذلك بالاعتراف والحمد والثناء. كما شكره بالاعتقاد والاستعمال، وبذلك يكون عاملا بالكتاب والحكمة

فعلم مما شرحناه ان امتناع امرئ من الطيبات التي رزقه الله إياها، مع الداعية الفطرية للاستمتاع بها، إثم يجنيه على نفسه في الدنيا. ويستحق به عقاب الله في الآخرة، بزيادته في دين الله قربات لم يأذن بها الله، وبما يترتب على ذلك من إضاعة بعض حقوق الله وحقوق عباد الله. كإضاعة حقوق امرأته أو عياله. وناهيك به اذا انتصب قدوة لغيره، فكان سبباً لغلوّ بعض الناس في الدين وتحريمهم على أنفسهم وعلى من يقتدي بهم ما أحله الله تعالى. والتحريم والتحليل تشريع. وهو حق من حقوق الربوبية. فمن انتحله لنفسه كان مدعيا للربوبية أو كالمدعي لها. ومن اتبعه في ذلك فقد اتخذ ربا. كما يؤخذ من تفسير النبي (ص) لقوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) وسيأتي في موضعه من التفسير

﴿ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ في الاكل وغيره فلا تفتاتوا عليه في تحريم ولا تحليل، ولا تعتدوا حدوده فيما أحل ولا فيما حرّم. فان اتقاء سخطه في ذلك من لوازم إيمانكم به. ومن اعتداء حدوده في الاكل والشرب الاسراف

فيهما، فانه قال(كلوا واشربوا ولا تسرفوا، انه لايحب المسرفين) فمن جعل شهوة بطنه أكبر همه فهو من المسرفين، ومن بالغ في الشبع وعرض معدته وامعاءه للتخم فهو من المسرفين، ومن أنفق في ذلك أكثر من طاقته، وعرض نفسه لذل الدين أو أكل أموال الناس بالباطل، فهو من المسرفين. وما كان المسرف من المتقين

الامر بالتقوى في هذا المقام أوسع معنى وأعم فائدة من النهي عن الاسراف في آية الاعراف التي أوردناها آنفا. فهو من باب الجمع بين حقوق الروح وحقوق الجسد. وبه يدفع إشكال من عساه يقول: ان الدين شرع لتزكية النفس، والتمتع بالشهوات واللذات ينافي هذه التزكية وان اقتصر فيه على المباحات. وكم افضى التوسع في المباحات الى المحرمات؟ وقد ذكر تعالى أنه يقال في الآخرة لأهل النار (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)فكيف يكون الاستمتاع بالطيبات مطلوبا شرعا؟ وكيف يحتاج فيه الى أمر الشرع، وهو مستغنى عنه باقتضاء الطبع؟

وبيان الدفع ان تزكية الانفس إنما تكون بإيقافها عند حد الاعتدال، واجتناب التفريط والإفراط. وقد خلق الله الانسان مركبا من روح ملكية وجسد حيواني، فلم يجعله ملكا محضا، ولا حيوانا محضا، وسخر له بهذه المزية جميع ما في عالمه الذي يعيش فيه من المواد والقوى والأحياء، وجعل من سنته في خلقه ان تكون سلامة البدن وصحته من اسباب سلامة العقل وسائر قوى النفس. ولذلك حرم عليه مايضر بجسده، كما حرم عليه مايضر بروحه وعقله. ومن ضعف جسده عجز عن القيام بالصلاة والصيام والحج والجهاد والكسب الواجب عليه للنفقة على نفسه وعلى من تجب عليه نفقتهم، وعلى مصالح امته العامة. فان لم يعجز عن القيام بها كلها، عجز عن بعضها، اوعن الكمال فيها. كما انه يقل نسله ويجيء قميئا ضعيفا او ينقطع البتة، ويكون بذلك مسيئا الى نفسه والى الامة. والتمتع بالطيبات من غير اسراف ولا اعتداء لحدود الله وسنن فطرته هو الذي يؤدى به حق الجسد وحق الروح، ويستعان به على اداء حقوق الله وحقوق خلقه. فان صحبته التقوى فيه وفي غيره تتم به التزكية المطلوبة

لاننكر مع هذا ان منع النفس من الشهوات المباحة احيانا مما يستعان به على

تزكية النفس وتربية الإرادة . وحسبنا منه ماشرعه الله لنا من الصيام . وهو مما يدخل في عموم التقوى في هذا المقام ، فانه سبحانه وتعالى بين لنا ان حكمة الصيام وسبب شرعه كونه مرجواً لتحصيل ملكة التقوى اذ قال(كُتب عليكم الصيامُ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) وقد بينا هذا بالتفصيل في تفسير هذه الآية من الجزء الثاني وفي مواضع اخرى . فالصيام رياضة بدنية نفسية ، وجمع بين حرمان النفس من لذاتها بقصد التربية ، وبين تمتيعها بها توسلا الى شكر النعمة والقيام بالخدمة

اما ماقيل من استغناء الناس بداعية الطبع عن امر الشرع بهذا التمتع، فهو مدفوع بما احدثه حب الغلو في كثير من الناس من الجناية على ابدانهم وعقولهم واممهم بترك طيبات الطعام والنساء. واماما يقال للكفار يوم القيامة (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا) فمعناه انهم جعلوا كل همهم من حياتهم الدنيا التمتع الجسدي ، فلم يعطوا انسانيتهم حقها بالجمع بينه وبين تقوى الله التي هي سبب النعيم الروحاني

فتبين مما شرحناه في تفسير الآيتين أن هدي القرآن في الطيبات أي المستلذات هو ماتقتضيه الفطرة السليمة المعتدلة من التمتع بها مع الاعتدال .والتزام الحلال ، كهديه في سائر الاشياء التي يسرف فيها بعض الناس ويقصر بعض. والاعتدال هو الصراط المستقيم الذي يقلّ سالكه، فأكثر الناس ينحرفون عنه في التمتع الى جانب الإفراط والإسراف ، فيكونون كالانعام بل أشد جناية على أنفسهم ، حتى قال بعض الحكماء : ان أكثر الناس يحفرون قبورهم بأسنانهم . يعني انهم لإسرافهم في الطعام يصابون بأمراض تكون سببا لقصر آجالهم ، وإسراع الهرم فيهم . والقليل من الناس ينحرفون عنه الى جانب التفريط والتقصير، إما اضطرارا كالمقترين البائسين، وإما اختيارا كالزهاد المتقشفين ؛ والتزامُ صراط الاعتدال المستقيم أعسر وأشق على النفس ، وأدلّ على الفضيلة والعقل ، وكل حزب بما لديهم فرحون

لايخطر على بال المسرف أن يدعي أنه متبع هدي الدين في إسرافه ؛ وقصارى ما يعتذر به عن نفسه اذا عذل وعيب عليه إسرافه شرعا أن يدعي انه لم يتجاوز

حد ما أباحه الله له . واذا قصد المعتدل اتباع الشرع باقامة سنة الفطرة وإعطاء كل ذي حق حقه من جسده ونفسه وأهله ، وشكر الله على نعمه باستعمالها كما ينبغي ، فقلما يفطن الناس لذلك منه . ولا يكاد أحد يعده به كامل الدين معتصما بالفضيلة ، فهي فضيلة لا رياء فيها ولا سمعة ، وإنما المفرطون بتعمد التقشف هم الذين كثيرا مايغترون بأنفسهم ويغتر الناس بهم . فهم على انحرافهم عن صراط الدين ، يدعون أو يدعى فيهم أنهم أكمل الناس في اتباع الدين

أعوز هؤلاء النص على دعوى كون الغلو في التقشف من الدين. فتعلقوا ببعض وقائع الاحوال من سيرة فقراء السلف الصالح على تصريحهم بأن وقائع الاحوال في السنة لا يستدل بها لإجمالها وتطرق الاحتمال اليها ، فكيف اذا كانت وقائع من لايحتج بقول أحد منهم ولا بفعله ؟

عقد أبو حامد الغزالي في احيائه كتابا سماه (كتاب كسر الشهوتين) — شهوة البطن وشهوة الفرج — وطريقته أن يبدأ في كل موضوع بما ورد فيه من الآيات فالاخبار النبوية فالآثار السلفية ، ونراه لم يجد آية يبدأ بها موضوع (بيان فضيلة الجوع وذم الشبع) فبدأه بأحاديث أكثرها لا يعرف المحدثون له أصلا قط ، وبعضها ضعيف أو موضوع . فمن هذه الاحاديث ما نذكره غير مسند الى النبي (ص) وهي :

(١) جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فان الاجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله ، وانه ليس من عمل أحب الى الله من جوع وعطش (٢) لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه (٣) قيل يارسول الله أي الناس أفضل ؟ قال : من قل مطعمه وضحكه ورضي بما يستر به عورته (٤) سيد الاعمال الجوع ، وذل النفس لبس الصوف (٥) البسوا واشربوا وكلوا في أنصاف البطون فانه جزء من النبوة (٦) الفكر نصف العبادة ، وقلة الطعام هي العبادة (٧) أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكرا ، وأبغضكم عند الله كل نؤوم وشروب (٨) لا تميتوا القلب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء

قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء عند كل حديث من هذه الاحاديث انه لم يجد له أصلا . وأقره المرتضى الزبيدي شارح الاحياء على ذلك

ومما أورده من المرويات في كتب المحدثين حديث أسامة بن زيد الطويل في وصف الزهاد الذي أوله عنده « إن أقرب الناس من الله عز وجل من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا ، الأحفياء الاتقياء (ومنه) أكلوا العُلق ، والبسوا الخرق ، شعثا غبرا ، يراهم الناس فيظنون ان بهم داء ، وما بهم داء ، ويقال انهم قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم (وفي آخره) وان استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فانك بذلك تدرك شرف المنازل وتحل مع النبيين » الخ فهذا رواه احمد في الزهد وابن الجوزي في الموضوعات وفي اسناده حبان بن عبدالله ابن جبلة أحد الكذابين وهو منقطع وأكثر رجاله مجهولون . وأسلوبه بعيد من أسلوب الرسول (ص) وهو في الكتب أطول منه في الاحياء ، وفي الاوصاف تقديم وتأخير

وجملة القول انه لم يورد في جملة تلك الاحاديث كلها من الصحاح الا حديث « المؤمن يأكل في معى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء » هو في البخاري بلفظ « يأكل المسلم في معى واحد والكافر في سبعة أمعاء » وفي مسلم والترمذي والنسائي بلفظ « المؤمن يشرب في معى واحد » الخ وله قصة حملت الطحاوي وابن عبدالبر على القول بأنه خاص بكافر واحد لا عام . ولغيرهما فيه بضعة أقوال منها انه مثل للمبالغة في هم الكافر بالتمتع . وحديث عائشة « ماشبع رسول الله (ص) ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا » وهو في الصحيحين

أما المعروف من سيرة الرسول (ص) فهو انه كان يأكل ماوجد، فتارة يأكل أطيب الطعام كلحوم الانعام والطير والدجاج. وتارة يأكل أخشنه كخبز الشعير بالملح أو الزيت أو الخل، وتارة يجوع وتارة يشبع ليكون قدوة للمعسر والموسر . ولكنه ما كان يهمه أمر الطعام. وانما كان يعنى بأمر الشراب . ففي حديث عائشة في الشمائل للترمذي « كان أحب الشراب الى رسول الله (ص) الحلو البارد » وفي سنن أبي داود انه كان يستعذب له الماء من بيوت السقيا (بضم السين عين أو قرية بينها وبين المدينة يومان) قال العلماء يدخل في ذلك الماء القراح والماء المحلى بالعسل أو نقيع التمر والزبيب ونحو ذلك. والتفصيل في كتب السنة

صفات البارىء تعالى

تحقيق الحق في مذاهب السلف واختلاف الخلف فيها

فتوى للامام الشوكاني رحمه الله تعالى

اعلم ان الكلام في الآيات والاحاديث الواردة في الصفات قد طالت ذيوله، وتشعبت أطرافه، وتباينت فيه المذاهب، وتفاوتت فيه الطرائق، وتخالفت النحل. وسبب هذا عدم وقوف المنتسبين الى العلم حيث أوقفهم الله، ودخولهم في أبواب لم يأذن الله لهم بدخولها، ومحاولتهم لعلم شيء استأثر الله بعلمه، حتى تفرقوا فرقا، وتشعبوا شعبا، وصاروا أحزابا، وكانوا في البداية ومحاولة الوصول الى ما يتصورونه من العامة مختلفي المقاصد، متبايني المطالب

فطائفة وهي أخف هذه الطوائف المتكلفة علم مالم يكلفها الله سبحانه بعلمه اثما، وأقلها عقوبة وجرما، وهي التي أرادت الوصول الى الحق والوقوف على الصواب، لكن سلكت في طلبه طريقة متوعرة، وصعدت في الكشف عنه الى عقبة كؤود، لا يرجع من سلكها سالما فضلا عن أن يظفر فيها بمطلوب صحيح. ومع هذا أصّلوا أصولا ظنوها حقا، فدفعوا بها آيات قرآنية، وأحاديث صحيحة نبوية، واعتلوا في ذلك الدفع بشبهة واهية، وخيالات مختلفة

وهؤلاء هم طائفتان الطائفة الاولى هي الطائفة التي غلت في التنزيه فوصلت الى حد يقشعر عنده الجلد، ويضطرب له القلب، من تعطيل الصفات الثابتة بالكتاب والسنة ثبوتا أوضح من شمس النهار، وأظهر من فلق الصباح، وظنوا هذا من صنيعهم موافقا للحق، مطابقا لما يريده الله سبحانه، فضلوا الطريق المستقيمة وأضلوا من رام سلوكها

والطائفة الاخرى هي الطائفة التي غلت في اثبات القدرة غلوا بلغ الى حدّ أنه لا تأثير لغيرها، ولا اعتبار بما سواها. وأفضى ذلك الى الجبر المحض، والقسر الخالص،

فلم يبق لبعثة الرسل وانزال الكتب كبير فائدة. ولا يعود ذلك على عباده بعائدة؛ وجاؤا بتأويلات للآيات البينات ، ومحاولات لحجج الله الواضحات . فكانوا كالطائفة الاولى في ضلال واضلال. مع ان كلا مقصدين صحيح ، ووجه كل منهما صبيح ، لولا ماشانه من الغلو القبيح ،

وطائفة توسطت [1] ورامت الجمع بين الضب والنون. وظنت انها قد وقفت بمكان بين الافراط والتفريط ، ثم أخذت كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث تجادل وتناضل وتحقق وتدقق في زعمها، وتجول على الاخرى وتصول بما ظفرت به مما يوافق ماذهبت اليه ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وعند الله تلتقي الخصوم

ومع هذا فهم متفقون فيما بينهم على أن طريق السلف أسلم ، ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم . فكان غاية ما ظفروا به من هذه الأعلمية بطريق الخلف ان تمنى محققوهم وأذكياؤهم في آخر أمرهم دين العجائز ، وقالوا هنيأ للعامة! فتدبر هذه الأعلمية التي كان حاصلها أن يهنأ من ظفر لاهل الجهل(؟) البسيط ، ويتمنى أنه في عدادهم ، وممن تدين بدينهم ، ويمشى على طريقتهم. فان هذا ينادي بأعلى صوت ويدل بأوضح دلالة ، على أن هذه الأعلمية التي طلبوها الجهل خير منها بكثير. فما ظنك بعلم يقر صاحبه على نفسه ان الجهل خير منه ، ويتمنى عند البلوغ الى غايته ، والوصول الى نهايته ، ان يكون جاهلا به عاطلا عنه؟ ففي هذا عبرة للمعتبرين ، وآية بينة للناظرين . فهلا عملوا على جهل هذا المعارف التي دخلوا فيها بادئ بدء ، وسلموا من تبعاتها ، وأراحوا أنفسهم من تعبها ، وقالوا كما قال القائل :

رأى الامر يفضي الى آخر فصير آخره أولا

وربحوا الخلوص من هذا التمني والسلامة من هذه التهنئة للعامة ! فان العاقل لايتمنى رتبة مثل رتبته أو دونها . ولا يهنئ لمن هو مثله أو دونه ، بل لا يكون ذلك الا لمن رتبته أرفع من رتبته. ومكانه أعلى من مكانه. فيالله العجب من علم يكون الجهل البسيط أعلى رتبة منه. وأفضل مقدارا بالنسبة اليه ! وهل سمع السامعون بمثل هذه الغريبة أو نقل الناقلون مايماثلها أو يشابهها

(١) هي فرقة الاشعرية التي توسطت بين المعتزلة والجبرية السابق ذكرها

واذا كان حال هذه الطائفة[1] التي قد عرفناك انها أخف الطوائف تكلفا. وأقلها تبعة فما ظنك بما عداها من الطوائف التي قد ظهر فساد مقاصدها . وتبين بطلان موارده ومصادرها ، كالطوائف التي أرادت بالمظاهر التي تظاهرت به كياد الاسلام وأهله ، والسعي في التشكيك فيه ، بايراد الشبه وتقرير الامور المفضية الى القدح في الدين وتنفير أهله عنه[2]

وعند هذا تعلم ان خير الامور السالفات على الهدى ، وشر الامور المحدثات البدائع[3] ، وان الحق الذي لا شك فيه ولا شبهة ، هو ما كان عليه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. وقد كانوا رحمهم الله تعالى وأرشدنا إلى الاقتداء بهم ، والاهتداء بهديهم ، يمرون آيات الصفات على ظاهرها ، ولا يتكلفون علم ما لا يعلمون ، ولا يحرفون ولا يأولون . وهذا المعلوم من أقوالهم وأفعالهم ، والمتقرر من مذاهبهم ، لايشك فيه شاك ، ولاينكره منكر. ولا يجادل فيه مجادل ، وان نزغ من بينهم نازغ ، أونجم في عصرهم ناجم. أوضحوا للناس أمره ، وبينوا لهم أنه على ضلالة ، وصرحوا بذلك في المجامع والمحافل ، وحذروا الناس من بدعته ، كما كان منهم لما ظهر معبد الجهني وأصحابه وقالوا « ان الامر أنف » [4] فتبرؤا منه ، وبينوا ضلالته وبطلان مقالته للناس فحذروه. الا من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة

وهكذا كان من بعدهم يوضح للناس بطلان أقوال أهل الضلال ويحذرهم منها ، كما فعله التابعون رحمهم الله بالجعد بن درهم ومن قال بقوله وانتحل نحلته الباطلة [5]

ثم ما زالوا هكذا لا يستطيع المبتدع في الصفات ان يتظاهر ببدعته ، بل

---

(١) الاشعرية (٢) هذا وصف طوائف الباطنية كالاسماعيلية والبابية
(٣) هذا بيت شعر أوله : وخير الامور الخ جعله نثرا
(٤) أنف بضمتين أي مستأنف جديد . يعني أن أفعال الباري تعالى ليست بقدر سابق ، ولا نظام اقتضته الحكمة ، وانما يبتدئ كل فعل ابتداء . وهم القدرية أي منكرو القدر
(٥) هم الجهمية منكرو الصفات الالهية

يتكتمون بها كما يتكتم الزنادقة بكفرهم. وهكذا سائر المبتدعين في الدين على اختلاف البدع وتفاوت المقالات الباطلة

ولكننا نقتصر ههنا على الكلام في هذه المسئلة التي ورد السؤال عنها وهي مسئلة الصفات . وما كان من المتكافين علم مالم يأذن الله بأن يعلموه، وبيان ان امرار آيات الصفات على ظاهرها هو مذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وان كل من اراد من نزاغ المتكافين، وشذاذ المحرفين المتأولين، أن يظهر ما يخالف المرور على ذلك الظاهر، قاموا عليه وحذروا الناس منه . وبينوا لهم انه على خلاف ماعليه اهل الاسلام

فصار المبتدعون في الصفات، القائلون بأقوال تخالف ماعليه السواد الاعظم من الصحابة والتابعين، وتابعيهم في خبايا وزوايا لا يتصل بهم الا مغرور، ولا ينخدع بزخارف اقوالهم الا مخدوع، وهم مع ذلك على تخوف من اهل الاسلام . وترقب لنزول مكروه بهم من حماة الدين، من العلماء الهادين، والرؤساء والسلاطين، حتى نجم ناجم المحنة، وبرق بأرق الشر من جهة الدولة، ومن لهم في الامر والنهي والاصدار والايراد أعظم صولة . وذلك في الدولة المأمونية بسبب قاضيها أحمد بن أبي دؤاد . فعند ذلك أطلع المنكمشون في تلك الزوايا رءوسهم، وانطلق ما كان قد خرس من ألسنتهم، وأعلنوا مذاهبهم الزائغة، وبدعهم المضلة، ودعوا الناس اليها، وجادلوا عنها، وناضلوا المخالفين لها . حتى اختلط المعروف بالمنكر، واشتبه على العامة الحق بالباطل، والسنة بالبدعة

ولما كان الله سبحانه قد تكفل باظهار دينه على الدين كله وحفظه عن التحريف والتغيير والتبديل . أوجد من علماء الكتاب والسنة لهم في كل عصر من العصور من يبين للناس دينهم، وينكر على أهل البدع بدعهم، فكان لهم — ولله الحمد — المقامات المحمودة، والمواقف المشهورة، في نصر الدين . وهتك المبتدعين

وبهذا الكلام القليل الذي ذكرناه تعرف أن مذهب السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم هو إمرار آيات الصفات على ظاهرها، من دون تحريف لها، ولا تأويل متعسف لشيء منها، ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل، يفضي اليه كثير من

التأويل. وكانوا اذا سأل سائل عن شيء من الصفات تلوا عليه الدليل، وأمسكوا عن القال والقيل، وقالوا قال الله هكذا ولا ندري بما سوى ذلك، ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه ولا أذن الله لنا بمجاوزته . فمن أراد السائل ان يظهر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه، ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول اليه، الا بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ما هم عليه . وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وحفظه التابعون عن الصحابة ، وحفظه من بعد التابعين عن التابعين .

وكان في هذه القرون الفاضلة الكلمة في الصفات متحدة، والطريقة لهم جميعا متفقة ، وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به ، وكلفهم القيام بفرائضه ، من الايمان بالله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة والصيام والحج والجهاد . وانفاق الاموال في أنواع البر، وطلب العلم النافع ، وارشاد الناس الى الخير على اختلاف أنواعه ، والمحافظة على موجبات الفوز بالجنة والنجاة من النار، والقيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة ، وبما تبلغ اليه القدرة ، ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعلمه ، ولا تعبدهم بالوقوف على حقيقته ؛ فكان الدين اذ ذاك صافيا عن كدر البدع ، خالصا عن شوب قذر التمذهب

فعلى هذا النمط كان الصحابة والتابعون وتابعوهم. وبهدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اهتدوا . وبافعاله وأقواله اقتدوا ، فمن قال انهم تلبسوا بشيء من هذه المذاهب الناشئة في الصفات أو غيرها ، فقد أعظم عليهم الفرية ، وليس بمقبول في ذلك ؛ فان نقول الائمة المطلعين على أحوالهم العارفين بها الآخذين لها عن الثقات الاثبات ، ترد عليه وعليهم وتدفع في وجهه

يعلم ذلك كل من له علم، ويعرفه كل عارف . فاشدد يديك على هذا . واعلم أنه مذهب خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . ودع عنك ماحدث من تلك التمذهبات في الصفات وأرح نفسك من تلك العبارات التي جاء بها المتكلمون واصطلحوا عليها، وجعلوها أصلا يرد اليه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فان وافقاها

فقد وافق الاصول المقررة في زعمهم . وان خالفاها فقد خالفا الاصول المقررة في زعمهم ، ويجعلون الموافق لها من قسم المقبول والمحكم ، والمخالف لها من قسم المردود والمتشابه؛ ولو جئت بألف آية واضحة الدلالة ظاهرة المعنى. أو ألف حديث مما ثبت في الصحيح . لم يبالوا به ولا رفعوا اليه رءوسهم . ولا عدوه شيئا . ومن كان منكرا لهذا فعليه بكتب هذه الطوائف المصنفة في علم الكلام . فانه سيقف على الحقيقة ويسلم هذه الجملة ولا يتردد فيها

ومن العجب العجيب . والنبأ الغريب . ان تلك العبارات الصادرة عن جماعة من أهل الكلام . التي جعلها من بعدهم أصولا . لا مستند لها الا مجرد الدعوى على العقل ، والفرية على الفطرة . وكل فرد من أفرادها تنازعت فيه عقولهم ، وتخالفت فيه ادراكاتهم ، فهذا يقول حكم العقل في هذا كذا . وهذا يقول حكم العقل في هذا كذا . ثم يأتي بعدهم من يجعل ذلك الذي يعقله من يقلده ويقتدي به أصلا يرجع اليه . ومعيارا لكلام الله وكلام رسوله ، يقبل منهما ما وافقه ويرد ما خالفه . فيالله ويا للمسلمين ! ويا للعلماء الدين ! من هذه الفواقر الموحشة التي لم يصب الاسلام وأهله بمثلها ؟

وأغرب من هذا وأعجب وأشنع وأفظع ، انهم بعد أن جعلوا هذه التعقلات التي تعقلوها — على اختلافهم فيها ، وتناقضهم في معقولاتها — أصولا ترد اليها أدلة الكتاب والسنة ، جعلوها أيضا معيارا لصفات الرب سبحانه ، فما تعقله هذا من صفات الله قال به جزما . وما تعقله خصمه منها قطع به . فأثبتوا لله الشيء ونقيضه . استدلالا بما حكمت به في صفات الله عقولهم الفاسدة وتناقضت في شأنه ، ولم يلتفتوا الى ما وصف الله به نفسه . ووصفه به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، بل ان وجدوا ذلك موافقا لما تعقلوه جعلوه مؤيدا له ومقويا . وقالوا قد ورد دليل السمع ، مطابقا لدليل العقل ؛ وان وجدوه مخالفا لما تعقلوه جعلوه واردا على خلاف الاصل . ومتشابها وغير معقول المعنى ، ولا ظاهر الدلالة ، ثم قابلهم المخالف لهم بنقيض قولهم . فافترى على عقله . بأنه قد تعقل خلاف ما تعقله خصمه ، وجعل ذلك أصلا يرد اليه أدلة الكتاب والسنة . وجعل المتشابه عند أولئك محكما عنده . والمخالف لدليل العقل عندهم موافقا له عنده

فكان حاصل كلام هؤلاء انهم يعلمون من صفات الله ما لا يعلمه ، وكفاك بهذا

وليس بعده شيء ؛ وعنده يتعثر القلم حياء من الله عز وجل

وربما استبعد هذا مستبعد. واستكبره مستكبر ، وقال ان في كلامي هذا مبالغة وتهويلا، وتشنيعا وتطويلا، وان الامر أيسر من ان يكون حاصله هذا الحاصل الذي ذكرت ، وثمرته مثل هذه الثمرة التي أشرت اليها. فأقول: * خذ جملة البلوى ودع تفصيلها * واسمع ما يصك سمعك. ولولا هذا لاخترت منك ما سمعته ولا جرى القلم بمثله

هذا أبو علي[1] وهو رأس من رءوسهم ، وركن من أركانهم . واسطوانة من أساطينهم ، قد حكى عنه الكبار منهم ، وآخر من حكى ذلك عنه صاحب شرح القلائد- يقول : والله لا يعلم الله من نفسه الا ما يعلم هو !! فخذ هذا التصريح ، حيث لم تكتف بذلك التلويح ، وانظر هذه الجرأة على الله التي ليس بعدها جرأة ، فيالأم أبي علي الويل! أينهق بمثل هذا النهيق ، ويدخل نفسه في هذا المضيق ؟ وهل سمع السامعون بيمين أفجر من هذا اليمين الملعونة؟ أو نقل الناقلون كلمة تقارب معنى هذه الكلمة المفتونة؟ أو بلغ مفتخر الى ما بلغ اليه هذا المختال الفخور ؟ أووصل من يفجر في ايمانه الى ماية رب هذا الفجور ؟ وكل عاقل يعلم أن أحدنا لو حلف ان ابنه أو أباه لا يعلم من نفسه لا ما يعلمه هو لكان كاذبا في يمينه فاجرا فيها. لأن كل فرد من أفراد الناس ينطوي على صفات وغرائز لا يحب أن يطلع عليها غيره. ويكره أن يقف على شيء منها سواه. ومن ذا الذي يدري بما يجول في خاطر غيره ويستكن في ضميره ؟ ومن ادعى علم ذلك وانه يعلم من غيره من بني آدم ما يعلمه ذلك الغير من نفسه ، ولا يعلم ذلك الغير من نفسه الا ما لا يعلمه هذا المدعي ؛ فهو اما مصاب العقل ، يهذي بما لا يدري. ويتكلم بما لا يفهم. أو كاذب شديد الكذب عظيم الافتراء ، فان هذا أمر لا يعلمه غير الله سبحانه. فهو الذي يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما توسوس به نفسه ، وما يسر عباده وما يعلنون ، وما يظهرون وما يكتمون ، كما أخبرنا بذلك في كتابه

(١) يعني الجبائي. وانما جاء بالشاهد من قول المعتزلة لانقطاعه ولأن أهل وطنه (اليمن) من الزيدية لا يزالون يأخذون بأقوالهم . وما من فرقة من الفرق الا ولها شذوذ في هذه المسائل ، حتى لم يسلم منه من سموا أنفسهم الأثرية أو الحنابلة ، فان منهم من بالغ في الرد على غيره ، حتى قال ما لم يقله سلفه ، وكذلك الاشعرية الذين حاولوا الجمع بين المأثور والمعقول

العزيز في غير موضع. فقد خاب وخسر من أثبت لنفسه من العلم ما لا يعلمه الا الله سبحانه من عباده، فما ظنك بمن تجاوز هذا وتعداه وأقسم بالله ان الله لا يعلم من نفسه الا ما يعلمه هو؛ ولا يصح لنا أن نحمله على اختلال العقل؛ فلو كان مجنونا لم يكن رأسا يقتدي بقوله جماعات من أهل عصره ومن جاء بعده . وينقلون كلامه في الدفاتر . ويحكون عنه في مقامات الاختلاف

ولعل أتباع هذا ومن يقتدي بمذهبه لو قال لهم قائل وأورد عليهم مورد قول الله عز وجل (ولا يحيطون به علما — وقوله — ولا يحيطون بشيء من علمه لا بما شاء) وقال لهم هذا يرد ما قاله صاحبهم ويدل على أن يمينه هذه فاجرة مفتراة لقالوا : هذا ونحوه مما يدل دلالته ويفيد مفاده من المتشابه الوارد على خلاف دليل العقل المدفوع بالاصول المقررة

وبالجملة فاطالة ذيول الكلام في مثل هذا المقام إضاعة للاوقات ، واشتغال بحكاية الخرافات المبكيات لا المضحكات ؛ وليس مقصودنا ههنا الا ارشاد السائل الى أن المذهب الحق في الصفات هو إمرارها على ظاهرها من دون تأويل ولا تحريف ، ولا تكلف ولا تعسف ؛ ولا جبر ولا تشبيه ولا تعطيل ، وان ذلك هو مذهب السلف الصالح الصحابة والتابعين وتابعيهم

فان قلت: وماذا تريد بالتعطيل في مثل هذه العبارات التي تكررها: فان أهل المذاهب الاسلامية يتنزهون عن ذلك ويتحاشون عنه، ولا يصدق معناه ويوجد مدلوله الا في طائفة من طوائف الكفار. وهم المنكرون للصانع (قلت) ياهذا ان كنت ممن له إلمام بعلم الكلام، الذي اصطلح عليه طوائف من أهل الاسلام فانه لا محالة قد رأيت ما يقوله كثير منهم، ويذكرونه في مؤلفاتهم، ويحكونه عن أكابرهم، ان الله سبحانه وتعالى وتقدس لا هو جسم ولا جوهر ولا عرض ولا داخل العالم ولا خارجه (١) فأنشدك الله أي عبارة تبلغ مبلغ هذه العبارة في النفي ؟ وأي مبالغة في [illegible] هذه المبالغة ؛ فكان هؤلاء في فرارهم من شبهة

(١) تقدم هذا له تتمة وهي: ولا هو متصل به ولا هو منفصل عنه. ولا مباين له ولا محايث له ، ولا هو فينا ولا خارج عنا

التشبيه الى هذا التعطيل كما قال القائل:

فكنت كالساعي الى مثعب　　موائلا من سبل الراعد (١)

أو كالمستجير من الرمضاء بالنار، والهارب من لسعة الزنبور الى لدغة الحية، أومن قرصة النملة الى قضمة الاسد

وقد كان يغني هؤلاء وأمثالهم من المتكلمين المتكلفين كلمتان من كتاب الله تعالى وصف بهما نفسه، وأنزلهما على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وهما (ولا يحيطون به علما — و — ليس كمثله شيء) فان هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب، وتضمنتا ما يغني أولي الالباب. السالكين في تلك الشعاب والهضاب. الصاعدين في متوعرات هاتيك العقاب

فالكلمة الاولى منهما دلت دلالة بينة على ان كل ماتكلم به البشر في ذات الله وصفاته على وجه التدقيق، ودعاوي التحقيق، فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل، مخلوط بخلوط هي منافية للعلم مباينة له، فان الله سبحانه قد أخبرنا انهم لا يحيطون به علما، فمن زعم ان ذاته كذا او صفته كذا؛ فلا شك ان صحة ذلك متوقفة على الاحاطة. وقد نفيت عن كل فرد، لأن هذه القضية هي في قوة: لايحيط به فرد من الافراد علما. فكل قول من اقوال المتكلفين صادر عن جهل، اما من كل وجه او من بعض الوجوه، وما صدر عن جهل فهو مضاف الى جهل، ولاسيما اذا كان في ذات الله وصفاته. فان في ذلك من المخاطرة بالدين ما لم يكن في غيره من المسائل، وهذا يعلمه كل ذي علم ويعرفه كل عارف، ولم يحظ بفائدة هذه الآية ويقف عندها ويقتطف من ثمارها، الا الممرون للصفات على ظاهرها، المريحون انفسهم عن التكلفات والتعسفات، والتأويلات والتحريفات، وهم السلف الصالح كما عرفت، فهم الذين اعترفوا بعدم الاحاطة واوقفوا انفسهم حيث اوقفها الله. وقالوا: الله اعلم بكيفية

(١) المثعب المكان الذي يتفجر منه الماء المجتمع في حوض ونحوه. والموائل اللاجئ الى مأمن يأمن به من ضر أو شر يخافه. والمعنى فكنت كالهارب من مطر يخافه الى سيل متفجر يجرفه. ولعل «سبل» محرفة عن «سيله»

ذاته، وماهية صفاته، بل العلم كله له: وقالوا كما قال من قال، ممن اشتغل بطلب هذا المحال. فلم يظفر بغير القيل والقال:

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهلاته يتغمغم
ماللتراب وللعلوم وانما يسعى ليعلم انه لايعلم

بل اعترف كثير من هؤلاء المتكلفين بأنه لم يستفد من تكلفه وعدم قنوعه بما قنع به السلف الصالح الا مجرد الحيرة التي وجد عليها غيره من المتكلفين فقال:

وقد طفت في تلك المعاهد كلها وسرحت طرفي بين تلك المعالم
فلم ار الا واضعا كف حائر على ذَقَن اوقارعا سنَّ نادم

**

وها أنا (ذا) اخبرك عن نفسي، واوضح لك ماوقعت فيه في امسي، فاني ايام الطلب وعنفوان الشباب، شغلت بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام، وتارة علم التوحيد، وتارة علم اصول الدين؛ واكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم، ورمت الرجوع بفائدة، والعود بعائدة. فلم اظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة؛ وكان ذلك من الاسباب التي حببت اليّ مذهب السلف. على اني كنت من قبل ذلك عليه. ولكن أردت أن ازداد فيه بصيرة وبه شغفا، وقلت عند النظر في تلك المذاهب:

وغاية ماحصلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبر
هو الوقف مابين الطريقين حيرة فما علم من لم يلق غير التحير
على انني قد خضت منه غماره وما قنعت نفسي بدون التبحر

**

وأما الكلمة الثانية وهي (ليس كمثله شيء) فبها يستفاد نفي المماثلة في كل شيء. فيدفع بهذه الآية في وجه المجسمة. ويعرف به الكلام عند وصفه سبحانه بالسميع والبصير، وعند ذكر السمع والبصر واليد والاستواء ونحو ذلك مما اشتمل عليه القرآن والسنة، فيتقرر بذلك الاثبات لتلك الصفات، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات. فيندفع به جانبي[1] الافراط والتفريط، وهما المبالغة في الاثبات المفضي الى التجسيم، والمبالغة

(١) كذا والصواب « جانبا » لانه فاعل يندفع، الا ان يكون في الكلام نقص سقط به فاعل يندفع

في النفي المفضية الى التعطيل، فيخرج من بين الجانبين، وغلو الطرفين، حقية مذهب السلف الصالح. وهو قولهم بإثبات ما أثبت لنفسه من الصفات على وجه لا يعلمه الا هو، فانه القائل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

ومن جملة الصفات التي أمرّها السلف على ظاهرها وأجروها على ماجاء به القرآن والسنة من دون تكلف ولا تأويل، صفة الاستواء التي ذكرها السائل فانهم يقولون نحن نثبت ما أثبته الله لنفسه. من استوائه على عرشه، على هيئة لا يعلمها الا هو، وفي كيفية لا يدري بها سواه[1] ولا نكلف أنفسنا غير هذا. فليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، ولا يحيط عباده به علما

وهكذا يقولون في مسئلة الجهة التي ذكرها السائل وأشار الى بعض ما فيه دليل عليها . والادلة في ذلك طويلة كثيرة في الكتاب والسنة، وقد جمع أهل العلم منها — لاسيما أهل الحديث — مباحث طوّلوها بذكر آيات قرآنية وأحاديث صحيحة، وقد وقفت من ذلك على مؤلف بسيط في مجلد جمعه مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي استوفى فيه كل ما فيه دلالة على الجهة من كتاب أو سنة أو قول صاحب[2] والمسئلة أوضح من أن تلتبس على عارف، وأبين من أن يحتاج فيها الى التطويل، ولكنها لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل الكائنة بين بعض الطوائف الاسلامية ، كثر الكلام فيها وفي مسئلة الاستواء وطال، خصوصا بين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب . فلهم في ذلك تلك الفتن الكبرى، والملاحم العظمى، وما زالوا هكذا في عصر بعد عصر

(١) انما يذكر لفظ الهيئة والكيفية في هذا المقام كما يذكر لفظ الصفة ، بناء على ان ما يستعمل في الكلام عن الباري تعالى من الالفاظ انما يشار بها اشارة الى المعنى الشريف الذي يعرفه الخلق من أنفسهم مع نفي التشبيه والتمثيل من كل وجه بناء على ماثبت من التنزيه عقلا ونقلا . ومن العلماء من يعبر عن مذهب السلف بنفي الكيف لا باثباته مع نفي العلم به ، وهو ماعبروا عنه بالبلكفة المنحوته من قولهم : بلا كيف

(٢) قد طبع هذا الكتاب في مطبعة المنار . وفيه أيضا ما نقل عن أشهر علماء السلف ومن بعدهم من كبار الفقهاء والمتكلمين في اثبات الصفات

والحق هو ما عرفناك من مذهب السلف الصالح : فالاستواء على العرش . والكون في تلك الجهة، قد صرح به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها ؛ ويطول نشرها. وكذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غير حديث، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد المسلمين في نفسه، ويحسه في فطرته، وتجذبه اليه طبيعته، كما تراه في كل من استغاث بالله سبحانه ، والتجأ اليه ووجه أدعيته الى جنابه الرفيع، وعزه المنيع. فانه يشير عند ذلك بكفه ، أو يرمي الى السماء بطرفه، ويستوي في ذلك عند عروض أسباب الدعاء، وحدوث بواعث الاستغاثة، ووجود مقتضيات الانزعاج، وظهور دواعي الالتجاء، عالم الناس وجاهلهم، والماشي على طريقة السلف ، والمقتدي بأهل التأويل ، القائلين بأن الاستواء هو الاستيلاء — كما قاله جمهور المتأولين — أو الاقبال — كما قاله أحمد بن يحيى ثعلب والزجاج والفراء وغيرهم — أو كناية عن الملك والسلطان[1] — كما قاله آخرون— فالسلامة والنجاة في امرار ذلك على الظاهر والاذعان بالاستواء والكون[2] على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف ولا تكلف ولا قيل ولا قال . ولا فضول في شيء من

---

(١) هذا القول لا ينافي إمرار اللفظ على ظاهره ، والتسليم باستواء يليق بالرب ويفوض اليه علم كنهه ، لان الكناية لا تنافي الحقيقة كما ينافيها المجاز عند الجمهور المانعين من جمعه معها . فذكر الاستواء في القرآن في سياق خلق السموات والارض يفيد معنى القيام بأمر الملك وتدبيره، وصرح به في سورة يونس فقال (١٠: ٣ ثم استوى على العرش يدبر الامر) وهذا المعنى هو الذي يتبادر الى فهم كل عربي قح من كلمة استوى فلان على عرش الروم أو الفرس مثلا . فهو لا يفكر عند سماع الكلمة في كيفية الكرسي الخاص بملك تلك البلاد، ولا في كيفية جلوس الملك عليه . وانما يفكر في المراد من هذا التعبير . ولو ان خادما من خدم قصر الملك جلس على عرشه عند تنظيف الحجرة التي هو فيها لا يقال فيه انه استوى على عرش تلك المملكة . فاذا قلنا انه ينبغي لنا في تدبر آيات الاستواء على العرش ان نفكر في لازم الاستواء وهو الانفراد بالملك والسلطان والتدبير لم نكن بذلك متأولين للآيات، ولا خارجين عن مذهب السلف في امرارها كما جاءت، من غير ان نجيز لأنفسنا البحث عن كيفية ذلك الاستواء من حيث معناه الحقيقي

(٢) لعله سقط من ههنا « في جهة العلو »

المقال ، فمن جاوز هذا المقدار بافراط أو تفريط فهو غير مقتد بالسلف ولا واقف في طريق النجاة . ولا معتصم عن الخطأ ، ولا سالك في طريق السلامة والاستقامة

وكما تقول هكذا في الاستواء والكون في تلك الجهة فكذا نقول في مثل قوله سبحانه (وهو معكم أينما كنتم — وقوله — ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم) وفي نحو (ان الله مع الصابرين — ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) الى مايشابه ذلك ويماثله ويقاربه ويضارعه ، فيقول في مثل هذه لآيات : هكذا جاء القرآن ان الله سبحانه مع هؤلاء ، ونتكلف بتأويل ذلك كما يتكلف غيرنا بأن المراد بهذا الكون وهذه المعية هو كون العلم ومعيته ، فان هذه شعبة من شعب التأويل تخالف مذاهب السلف ، وتباين ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم [1]

واذا انتهيت الى السلا   مة في مداك فلا تجاوز
وهذا الحق ليس به خفاء   فدعني من بُنيات الطريق

وقد هلك المتنطعون ، ولايهلك على الله الا هالك وعلى نفسها براقش تجني . وفي هذه الجملة وان كانت قليلة مايغني من يشح بدينه ويحرص عليه عن تطويل المقال وتكثير ذيوله ، وتوسيع دائرة فروعه وأصوله . والمهدي من هداه الله ، والله أعلم . انتهى

فتاوى المنار

(س ٢٣ و ٢٤) من صاحب الامضاء الرمزي في سمبس برنيو (جاوه)

حضرة العلامة الكبير ، والامام الجليل ، استاذنا السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار لاغر نفعني الله والمسلمين بوجوده الشريف آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فياسيدي الاستاذ نرجو من فضيلتكم التكرم علي بأن تجيبوني عن الاسئلة الآتي ذكرها جوابا مقنعا ولكم الفضل والشكر وهي :

(١) ورد عن الامام أحمد وغيره من علماء السلف جعل المعية بمعنى العلم فصار هذا التأويل مما يعترف به الحنابلة والأثريون ، وانما ألجأهم اليه رد قول الجهمية وغيرهم انه تعالى في كل مكان . وقد نقل الذهبي ذلك في كتابه المشار اليه آنفاً عن كثيرين

(١) ماتقولون في قول الفقهاء : _ لايجوز تحليف القاضي ولا الشهود وان كان ينفع الخصم تكذيبهما أنفسهما لأن منصبهما يأبى ذلك ولأن التحليف كالطعن في الشهادة أوفي الحكم . فاذا علم الشاهد أوالقاضي أنه يحلف امتنع الاول من الشهادة والثاني من الحكم فيؤدي ذلك الى ضياع حقوق الناس ، وهذا فساد عام . فهل هذا القول صحيح ؟ وقد جرت الحكومة الهولاندية بتحليف الشهود قبل أن يؤدوا الشهادة سواء كانوا صادقين أو كاذبين _ فرأى كثير من عمال الحكومة أن ذلك هو الاحسن والاحوط والاوفق لهذا العصر . والمرجو من فضيلة سيدي الاستاذ ابداء رأيه السديد في هذه المسألة بالحجة والبرهان .

(ب) هل من العقل والحكمة ومن مقاصد الشريعة الاسلامية ما اشترطه الفقهاء في الهبة من أنها لا تصح الا بايجاب وقبول ولا تلزم الا بقبض الموهوب له باذن الواهب ؟ قال في بداية المجتهد : وأما الهبة فلا بد من الايجاب فيها والقبول عند الجميع ..... وأما الشروط فأشهرها القبض . أعني أن العلماء اختلفوا : هل القبض شرط في صحة العقد أم لا ؟ فاتفق الثوري والشافعي وأبو حنيفة أن من شرط صحة الهبة القبض وأنه اذا لم يقبض لم يلزم الواهب ، وقال مالك ينعقد بالقول ويجبر على القبض كالبيع _ الى قوله : _ فمالك القبض عنده في الهبة من شروط التمام لا من شروط الصحة ، وهو عند الشافعي وأبي حنيفة من شروط الصحة . وقال أحمد وأبو ثور تصح الهبة بالعقد ، وليس القبض من شروطها أصلا ، لا من شروط تمام ولا من شروط صحة اه فأي الاصح من هذه الاقوال المختلف فيها ؟ آلقول باشتراط القبض أم القول بعدم اشتراطه ؟ وهل يصح أن يحتج من اشترط القبض في الهبة بحديث أبي بكر انه كان نحل عائشة جذاذ عشرين وسقا من مال الغابة فلما حضرته الوفاة قال : _ والله يابنية مامن الناس أحد أحب الي غنى بعدي منك . ولا أعز علي فقرا بعدي منك ، واني كنت نحلتك جذاذ عشرين وسقا فلو كنت جذذتيه واحتزتيه كان لك ، وإنما هو اليوم مال وارث ؟ وهل صح ما استدلوا به على أن القبض شرط في صحة الهبة من خبر أنه صلى الله عليه وسلم أهدى للنجاشي ثلاثين أوقية مسكا فمات قبل أن يصل اليه فقسمه (ص) بين نسائه ؟

هذا وأرجو فضيلتكم بيان هذه المسائل على قاعدة (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) (م . ب . ع)

(تحليف القاضي والشهود)

(ج) القول بأن تحليف القاضي والشهود لايجوز شرعا لما ذكر من العلل — لم يظهر لنا وجه صحته، فقولهم: ان ذلك مما يأباه منصبهم. — لانعرف له مستندا في الكتاب والسنة ، وما يليق بالمنصب وما لا يليق به ليس أمرا ثابتا مطردا دائما ، بل هو مما يختلف باختلاف العرف والعادة ويتغير آنا بعد آن ، كما يعهد من الناس في الامكنة المختلفة والازمان . مثال ذلك ان العرف والعادة في مصر والآستانة والشام ان لايخرج القاضي الشرعي والمفتي وكبار العلماء الى زيارة أحد بغير عمامة ، وهذه عادة قديمة حتى عد بعض العلماء من اعذار ترك الجمعة والجماعة فقد العمامة اللائقة بأمثال هؤلاء . ولكن هذه العادة لا تلتزم في الهند فقد يخرج كبار العلماء من بيوتهم الى زيارة بعض الاخوان بغير عمائم ، وانما يضعون على رؤسهم نوعا من الكمات الرقيقة (الكمة بالضم شيء مستدير يوضع على الرأس ومنه ما يسمى في مصر طاقية وفي غيرها عراقية) وقد ورد ان النبي (ص) خرج مع بعض أصحابه لزيارة وليس على رءوسهم شيء .

وقولهم ان التحليف كالطعن في الشهادة أو الحكم ممنوع، وقد يقال انه تأكيد لهما . وأما قولهم ان القاضي والشاهد يمتنعان من القضاء والشهادة اذا علما أنهما يحلفان، فهو من النظريات المنقوضة بماعليه عمل كثير من الامم الآن. فالحكومة العثمانية والحكومة المصرية قد جرتا على تحليف الشهود ولم يمتنعوا . وعلى تحليف من تسند ليهم المناصب الكبيرة يمين الاخلاص لرئيس الحكومة (السلطان) ولو قالوا ان التحليف لمن ذكر لايجب شرعا لما وجدنا الى مخالفتهم سبيلا ، ولكن نفي الجواز لايسلم الا بدليل شرعي

هذا وان لتأكيد الشهود شهادتهما بالقسم أصلا في القرآن كما ترى في شهادة الوصية (فيُقسمان بالله ان ارتبتم لانشتري به ثمناً — فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) وقد قال تعالى بعد بيان أحكام هذه الشهادة معللالها (ذلك أدنى

أن يأتوا بالشهادة على وجهها) الخ وسيأتي في التفسير قريباً ان شاء الله تعالى

(الهبة وما يشترط فيها)

معنى الهبة عند الجمهور تمليك بلا عوض ، ويرى بعضهم انه يدخل في عمومها الابراء من الدين والهدية والصدقة ، وانما يخص بعض الانواع باسم لافادة المعنى الخاص الذي انفرد به عن سائر الانواع ، فالصدقة هبة يراد بها ثواب الآخرة ، والاصل فيها ان تكون للمحتاج . والهدية هبة يراد التوددبها الى المهدَى اليه، وتكون بين الاغنياء والفقراء ، لان التودد يكون بين جميع أصناف الناس

والعمدة فيها العرف فما تعارف الناس عليه كان صحيحا شرعامالم يكن مخالفاً للشرع . وتحصل بالايجاب القولي من الواهب والقبول القولي من الموهوب له كما تحصل بالتعاطي وهو ايجاب وقبول بالفعل. وهي تتحقق بالقبض قطعا . وعدم القبض قد يكون ردا وقد يكون توانيا فهو جدير بأن يختلف فيه. وليس في الباب نصوص عن الشارع كلف الناس اتباعها في طرق التمليك والتملك . والحديث في هدية النبي (ص) للنجاشي جار على مسألة العرف وتحقق الهبة بالفعل أو عدم تحققها ، وهو في مسند احمد من حديث أم كلثوم بنت أبي سلمة . وفي اسناده مسلم بن خالد الزنجي اختلف في توثيقه وتضعيفه. وأم موسى بنت عقبة. قال في مجمع الزوائد : لا أعرفها

وأما أثر عائشة فقد رواه مالك في الموطإ من طريق ابن شهاب عن عروة عنها ، وروى البيهقي نحوه عن مالك وغيره. وظاهر الاثر ان عائشة لم تقبل نحلة أبيها فبقيت في يده الى ان أدركته الوفاة فذكر لها انه يتركها إرثا . وأن هذا ليس من باب الاعتصار ، وهو رجوع الوالد بما يهبه المولد في حياته . وهو جائز عند أكثر الفقهاء

وما قاله ابن رشد — من أن الهبة لابد فيها من الايجاب والقبول عند الجميع — فهو غير صحيح اذا أراد بهما الصيغة باللسان أو الكتابة . فقد نقل العلماء الخلاف في ذلك كالحافظ ابن حجر والامام الشوكاني وغيره . وتجد تحرير هذه المسألة بدلائلها في جميع العقود في المبحث النفيس الذي كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية في مسألة العقود ، فراجعه في المجلد الثالث من مجوعة فتواه المطبوعة بمصر ، وخص بالتأمل الوجه الثالث في ص ٢٧٢ — ٢٧٤

(الفرق بين البدع والمصالح المرسلة والاستحسان (*))

من مباحث كتاب الاعتصام للامام الشاطبي . وهو ما عقد له الباب الثامن منه . قال رحمه الله تعالى :

هذا الباب يُضطرُّ الى الكلام فيه عند النظر فيما هو بدعة وما ليس ببدعة ؛ فان كثيرا من الناس عدوا اكثر المصالح المرسلة بدعاً ، ونسبوها الى الصحابة والتابعين ، وجعلوها حجة فيما ذهبوا اليه من اختراع العبادات . وقوم جعلوا البدع تنقسم بأقسام أحكام الشريعة ، فقالوا: ان منها ماهو واجب ومندوب ، وعدوا من الواجب كَتْبَ المصحف وغيره، ومن المندوب الاجتماع فى قيام رمضان على قارئ واحد

وأيضاً فان المصالح المرسلة يرجع معناها الى اعتبار المناسب الذي لا يشهد له أصل معين ، فليس له على هذا شاهد شرعي على الخصوص ، ولا كونه قياساً بحيث اذا عرض على العقول تلقته بالقبول . وهذا بعينه موجود في البدع المستحسنة ، فانها راجعة الى أمور فى الدين مصلحية — في زعم واضعيها — في الشرع على الخصوص

واذا ثبت هذا ، فان كان اعتبار المصالح المرسلة حقا ، فاعتبار البدع المستحسنة حق ؛ لانهما يجريان من واد واحد .وان لم يكن اعتبار البدع حقا ، لم يصح اعتبار المصالح المرسلة .

وأيضاً فان القول بالمصالح المرسلة ليس متفقاً عليه ، بل قد اختلف

*) تابع لما نشر في ص ٧٥٣

فيه أهل الاصول على أربعة أقوال — فذهب القاضي وطائفة من الاصوليين الى رده ؛ وان المعنى لايعتبر مالم يستند الى أصل . وذهب مالك الى اعتبار ذلك ، وبنى الاحكام عليه على الاطلاق . وذهب الشافعي ومعظم الحنفية الى التمسك بالمعنى الذي لم يستند الى أصل صحيح ، لكن بشرط قربه من معاني الاصول الثابتة . هذا ماحكى الامام الجويني

وذهب الغزالي الى أن المناسب ان وقع في رتب التحسين والتزيين لم يعتبر حتى يشهد له أصل معين ، وان وقع في رتبة الضروري فميله الى قبوله ، لكن بشرط . قال : ولا يبعد أن يؤدي اليه اجتهاد مجتهد . واختلف قوله في الرتبة المتوسطة ، وهي رتبة الحاجي ، فرده في المستصفى وهو آخر قوليه ، وقبله في شفاء الغليل كما قبل ما قبله . واذا اعتبر من الغزالي اختلاف قوله ـ : فالاقوال خمسة ؛ فاذاً الراد لاعتبارها لا يبقى له في الواقع له [1] في الوقائع الصحابية مستند الا انها بدعة مستحسنة ـ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الاجتماع لقيام رمضان : نعمت البدعة هذه . — اذ لا يمكنهم ردها ، لاجماعهم عليها .

وكذلك القول فى الاستحسان فانه ـ على ما [2] المتقدمون ـ راجع الى الحكم بغير دليل ، والنافي له لا يعد الاستحسان سببا ، فلا يعتبر في الاحكام البتة ، فصار كالمصالح المرسلة اذا قيل بردها .

فلما كان هذا الموضع مزلة قدم لأهل البدع أن يستدلوا على بدعتهم من جهته — كان من الحق المتعين النظر فى مناط الغلط الواقع لهؤلاء ،

---

(١) قوله « في الواقع له » لامعنى له ولعله زائد (٢) بياض في الاصل ويصح المعنى بتقدير الساقط « قال » او « ذهب اليه »

حتى يتبين ان المصالح المرسلة ليست من البدع فى ورد ولا صدر ، بحول الله ، والله الموفق . فنقول :

* *

المعنى المناسب الذي يربط به الحكم لايخلو من ثلاثة اقسام

(احدها) ان يشهد الشرع بقوله ، فلا إشكال فى صحته ، ولا خلاف فى إعماله ؛ والا كان مناقضة للشريعة ، كشريعة القصاص حفظاً للنفوس والاطراف وغيرها

(والثاني) ما شهد الشرع بردّه ، فلا سبيل الى قبوله ؛ اذ المناسبة لا تقتضي الحكم لنفسها ؛ وانما ذلك مذهب أهل التحسين العقلي ، بل اذا ظهر المعنى وفهمنا من الشرع اعتباره في اقتضاء الاحكام ، فحينئذ نقبله ؛ فان المراد بالمصلحة عندنا ما فهم رعايته في حق الخلق من جلب المصالح ودرء المفاسد على وجه لايستقل العقل بدركه على حال ؛ فاذا لم يشهد الشرع باعتبار ذلك المعنى بل برده ، كان مردودا باتفاق المسلمين

ومثاله ماحكى الغزالي عن بعض اكابر العلماء انه دخل على بعض السلاطين فسأله عن الوقاع فى نهار رمضان ؛ فقال : عليك صيام شهرين متتابعين . فلما خرج راجعه بعض الفقهاء وقالوا له : القادر على إعتاق الرقبة كيف يعدل به الى الصوم والصوم وظيفة المعسرين ؛ وهذا الملك يملك عبيدا غير محصورين ؟ فقال لهم : لو قلت له عليك إعتاق رقبة لاَستحقر ذلك وأعتق عبيدا مرارا ؛ فلا يزجره اعتاق الرقبة ويزجره صوم شهرين متتابعين

فهذا المعني مناسب ، لان الكفارة مقصود الشرع منها الزجر ،

والملك لا يزجره الإعتاق ويزجره الصيام . وهذه الفتيا باطلة لان العلماء بين قائلين : قائل بالتخيير ، وقائل بالترتيب ، فيقدم العتق على الصيام ؛ فتقديم الصيام بالنسبة الى الغني لا قائل به. على انه قد جاء عن مالك شيء يشبه هذا ، لكنه على صريح الفقه .

قال يحيي بن بكير : حنث الرشيد في يمين فجمع العلماء فأجمعوا ان عليه عتق رقبة . فسأل مالكا ؛ فقال : صيام ثلاثة ايام . واتبعه على ذلك اسحاق بن ابراهيم من فقهاء قرطبة .

حكى ابن بشكوال ان الحكم أمير المؤمنين ارسل في الفقهاء وشاورهم فى مسئلة نزلت به ؛ فذكر لهم عن نفسه انه عمد الى احدى كرائمه [1] ووطئها في رمضان ، فأفتوا بالإطعام ، واسحاق بن ابراهيم ساكت . فقال له أمير المؤمنين : مايقول الشيخ في فتوى اصحابه ؟ فقال له : لا اقول بقولهم ، واقول بالصيام . فقيل له : أليس مذهب مالك الإطعام ؟ فقال لهم : تحفظون مذهب مالك ، إلا انكم تريدون مصانعة أمير المؤمنين . انما أمر مالك بالإطعام لمن له مال ، وأمير لا مال له ، انما هو بيت مال المسلمين . — فأخذ بقوله أمير المؤمنين وشكر له عليه اه وهذا صحيح .

نعم حكى ابن بشكوال انه اتفق لعبد الرحمن بن الحكم مثل هذا فى رمضان ، فسأل الفقهاء عن توبته من ذلك وكفارته. فقال يحيي بن يحيي : يكفر ذلك صيام شهرين متتابعين . فلما برز ذلك من يحيي سكت سائر الفقهاء حتى خرجوا من عنده ، فقالوا ليحيي : مالك لم تفته بمذهبنا عن

(١) المراد بكرائمه عقائل نسائه الحرائر لا بناته كما هو المستعمل في عرف زماننا

مالك من انه مخير بين العتق والطعام والصيام ؛ فقال لهم : لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه ان يطأ كل يوم ويعتق رقبة ؛ ولكن حملته على اصعب الامور لئلا يعود . فان صح هـذا عن يحيي بن يحيي رحمه الله وكان كلامه على ظاهره كان مخالفا للاجماع .

(الثالث) ما سكتت عنه الشواهد الخاصة ، فلم تشهد باعتباره ولا بإلغائه . فهذا على وجهين :

— احدهما — ان يرد نص على وفق ذلك المعنى ، كتعليل منع القتل للميراث ، فالمعاملة بنقيض المقصود تقدير ان لم يرد نص على وفقه [1] فان هذه العلة لا عهد بها في تصرفات الشرع بالفرض ولا بملائمها بحيث يوجد لها جنس معتبر ، فلا يصح التعليل بها ، ولا بناء الحكم عليها باتفاق . ومثل هذا تشريع من القائل به فلا يمكن قبوله

— والثاني — ان يلائم تصرفات الشرع ، وهو أن يوجد لذلك المعنى جنس اعتبره الشارع في الجملة بغير دليل معين ، وهو الاستدلال المرسل المسمى بالمصالح المرسلة ، ولا بد من بسطه بالامثلة حتى يتبين وجهه بحول الله

ولنقتصر على عشرة أمثلة

*
* *

(احدها) ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفقو على جمع المصحف ، وليس ثَمَّ نص على جمعه وكَتْبه أيضاً ، بل قد قال بعضهم : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فروي عن

(١) تامل العبارة من أولها

زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : ارسل اليّ ابو بكر رضي الله عنه مقتل (أهل) اليمامة ، واذا عنده عمر رضي الله عنه ، قال ابو بكر : (ان عمر اتاني فقال) ان القتل قد استحرّ بقراء القرآن يوم اليمامة [1] واني اخشى ان يستحر القتل بالقراء فى المواطن كلها فيذهب قرآن كثير ، واني ارى ان تأمر بجمع القرآن — قال — فقلت له : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لي : هو والله خير . فلم يزل عمر يراجعني فى ذلك حتى شرح الله صدري له ، ورأيت فيه الذي رأى عمر — قال زيد — فقال ابو بكر : انك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه — قال زيد — فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان اثقل عليّ من ذلك — فقلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال ابو بكر : هو والله خير . فلم يزل يراجعني في ذلك ابو بكر حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدورهما . فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف [2] ومن صدور الرجال . فهذا عمل لم ينقل فيه خلاف عن احد من الصحابة

ثم روي عن أنس بن مالك ان حذيفة بن اليمان كان يغازي أهل الشام وأهل العراق في فتح ارمينية واذربيجان ، فأفزعه اختلافهم في القرآن ، فقال لعثمان : يا أمير المؤمنين ! أدرك هذه الامة قبل ان يختلفوا فى الكتاب كما اختلفت اليهود والنصارى ، فارسل عثمان الى حفصة :

---

(١) استحر القتل اشتد وكثر . والقراء حفظة القرآن (٢) العسب جمع عسيب وهو جريد النخل . واللخاف كلحاف : حجارة بيض رقاق واحدتها لخفة كسمكة

ارسلي اليّ بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها عليك . فارسلت حفصة به الى عثمان ، فارسل عثمان الى زيد بن ثابت والى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاصي ، وعبدالرحمن ابن الحارث بن هشام ، فأمرهم ان ينسخوا الصحف في المصاحف . ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : ما اختلفتم فيه انتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش ، فانه نزل بلسانهم . قال ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف ، بعث عثمان في كل افق بمصحف من تلك المصاحف التي نسخوها . ثم أمر بما سوى ذلك من القراءة في كل صحيفة أو مصحف ان يحرق .

فهذا أيضاً اجماع آخر في كتبه وجمع الناس على قراءة لايحصل منها في الغالب اختلاف . لانهم لم يختلفوا الا في القرآآت — حسبما نقله العلماء المعتنون بهذا الشأن — . فلم يخالف في المسئلة الا عبد الله بن مسعود فانه امتنع من طرح ماعنده من القراءة المخالفة لمصاحف عثمان ، وقال : ياأهل العراق ! ويأهل الكوفة : اكتموا المصاحف التي عندكم وغلوها ، فان الله يقول (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) وألقوا اليه بالمصاحف. فتأمل كلامه فانه لم يخالف في جمعه . وانما خالف امراً آخر . ومع ذلك فقد قال ابن هشام : بلغني أنه كره ذلك من قول ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم يرد نص عن النبي صلى الله عليه وسلم بما صنعوا من ذلك، ولكنهم رأوه مصلحة تناسب تصرفات الشرع قطعاً ، فان ذلك راجع الى حفظ الشريعة ، والامر بحفظها معلوم ، والى منع الذريعة للاختلاف في أصلها الذي هو القرآن ، وقد علم النهي عن الاختلاف في ذلك بما

لا مزيد عليه [(١)] .

واذا استقام هذا الاصل فاحمل عليه كتب العلم من السنن وغيرها ، اذا خيف عليها الاندراس ، زيادة على ماجاء في الاحاديث من الامر بكتب العلم .

وأنا أرجو أن يكون كتب هذا الكتاب الذي وضعت يدي فيه من هذا القبيل ؛ لاني رأيت باب البدع في كلام العلماء مغفلا جدا الا من النقل الجلي كما نقل ابن وضاح ، أو يؤتى باطراف من الكلام لا يشفى الغليل بالتفقه فيه كما ينبغي ؛ ولم أجد على شدة بحثي عنه الا ماوضع فيه أبو بكر الطرطوشي ، وهو يسير فى جنب مايحتاج اليه فيه ، والا ماوضع الناس فى الفرق الثنتين والسبعين ، وهو فصل من فصول الباب وجزء من أجزائه ، فأخذت نفسي بالعناء فيه ، عسى أن ينتفع به واضعه ، وقارئه ، وناشره ، وكاتبه ، والمنتفع به ، وجميع المسلمين ، انه ولي ذلك ومسديه بسعة رحمته

(المثال الثاني)

اتفاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حد شارب الخمر ثمانين . وانما مستندهم فيه الرجوع الى المصالح والتمسك بالاستدلال المرسل ، قال العلماء لم يكن فيه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هذا القول يحتاج الى مزيد بيان ، وهو ان الله تعالى سمى القرآن كتابا فأفاد ذلك وجوب كتابته كله ، ولذلك اتخذ النبي (ص) كتابا للوحي . وتفريق الصحف المكتوبة لا يعقل ان يكون مطلوبا للشارع حتى يحتاج جمعها الى دليل خاص : ولم يأمر النبي (ص) بجمعها في حياته لاحتمال المزيد في كل سورة ما دام حيا ، كما قال العلماء .

حد مقدر ؛ وانما جرى الزجر فيه مجرى التعزير . ولما انتهى الامر الى أبي بكر رضي الله عنه قرّر على طريق النظر باربعين ، ثم انتهى الامر الى عثمان رضي الله عنه فتتابع الناس فجمع الصحابة رضي الله عنهم فاستشارهم ، فقال علي رضي الله عنه : من سكر هذى ومن هذى افترى ؟ فأرى عليه حد المفتري .

ووجه اجراء المسألة على الاستدلال المرسل أن الصحابة أو الشرع [1] يقيم الاسباب في بعض المواضع مقام المسببات ، والمظنة مقام الحكمة ، فقد جعل الايلاج في أحكام كثيرة يجري مجرى الانزال ، وجعل الحافر للبئر في محل العدوان وان لم يكن ثم مرد كالمردي نفسه ، وحرم الخلوة بالاجنبية حذرا من الذريعة الى الفساد ، الى غير من الفساد ؛ فرأوا الشرب ذريعة الى الافتراء الذي تقتضيه كثرة الهذيان ، فانه أول سابق الى السكران — قالوا — فهذا من أوضح الأدلة على إسناد الاحكام الى المعاني التي لا أصول لها (يعني على الخصوص به) وهو مقطوع من الصحابة رضي الله عنهم .

(المثال الثالث)

ان الخلفاء الراشدين قضوا بتضمين الصناع . قال علي رضي الله عنه « لا يصلح الناس الا ذاك » ووجه المصلحة فيه أن الناس لهم حاجة الى الصناع ، وهم يغيبون عين الامتعة في غالب الاحوال ، والاغلب عليهم التفريط وترك الحفظ ، فلو لم يثبت تضمينهم مع مسيس الحاجة

(١) في نسخة ثانية « الشريعة تقيم » كما يستفاد من هامش الاصل

الى استعمالهم لافضى ذلك الى أحد امرين : إما ترك الاستصناع بالكلية ، وذلك شاق على الخلق ؛ واما أن يعملوا ولا يضمنوا ذلك بدعواهم الهلاك والضياع ، فتضيع الاموال ، ويقل الاحتراز ، وتتطرق الخيانة ، فكانت المصلحة التضمين . هذا معنى قوله « لا يصلح الناس الا ذاك »

ولا يقال: ان هذا نوع من الفساد وهو تضمين البريء. اذ لعله ما أفسد ولا فرط ، فالتضمين مع ذلك كان نوعاً من الفساد . لانا نقول: اذا تقابلت المصلحة والمضرة فشأن العقلاء النظر الى التفاوت ، ووقوع التلف من الصناع من غير تسبب ولا تفريط بعيد . والغالب الفوت فوت الاموال ، وانها لاتستند الى التلف السماوي ، بل ترجع الى صنع العباد على المباشرة أو التفريط . وفي الحديث « لاضرر ولا ضرار » تشهد له الاصول من حيث الجملة ، فان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أن يبيع حاضر لبادٍ . وقال « دع الناس يرزق الله بعضهم من بعض » وقال « لاتلقوا الركبان بالبيع حتى يهبط بالسلع الى الاسواق » وهو من باب ترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، فتضمين الصناع من ذلك القبيل

(المثال الرابع)

ان العلماء اختلفوا في الضرب بالتهم . وذهب مالك الى جواز السجن فى التهم، وان كان السجن نوعاً من العذاب . ونص أصحابه على جواز الضرب ، وهو عند الشيوخ من قبيل تضمين الصناع ، فانه لو لم يكن الضرب والسجن بالتهم ، لتعذر استخلاص الاموال من أيدي السراق والغصاب ، اذ قد يتعذر اقامة البينة ، فكانت المصلحة في

التعذيب، وسيلة الى التحصيل بالتعيين والاقرار .

فان قيل : هـذا فتح باب تعذيب البريء [1] قيل : ففي الاعراض عنه ابطال استرجاع الاموال ؛ بل الاضراب عن التعذيب أشد ضررا ، اذ لا يعذب أحد لمجرد الدعوى ، بل مع اقتران قرينة تحيك في النفس ؛ وتؤثر في القلب نوعاً من الظن . فالتعذيب في الغالب لا يصادف البريء ، وان أمكن مصادفته ، فتغتفر ، كما اغتفر في تضمين الصناع [2]

فان قيل : لافائدة في الضرب ؛ وهو لو أقر لم يقبل اقراره في تلك الحال .

فالجواب : إن له فائدتين — احداهما — أن يعين المتاع فتشهد عليه البينة لربه ، وهي فائدة ظاهرة . — والثانية — أن غيره قد يزدجر حتى لا يكثر الاقدام ، فتقل أنواع هذا الفساد .

وقد عد له سحنون فائدة ثالثة وهو الاقرار حالة التعذيب ، فأنه يؤخذ عنده بما أقر في تلك الحال . قالوا وهو ضعيف ، فقد قال الله تعالى (لا إكراه في الدين) ولكن نزله سحنون على من اكره بطريق غير مشروع ، كما اذا أكره على طلاق زوجته ، أما اذا أكره بطريق صحيح فانه يؤخذ به ، كالكافر يسلم تحت ظلال السيوف فانه مأخوذ به . وقد تتفق له بهذه الفائدة على مذهب غير سحنون اذا أقر حالة التعذيب ثم تمادى على الاقرار بعد أمنه فيؤخذ به . قال الغزالي — بعد ماحكى عن

(١) لعل الاصل « لتعذيب البريء » (٢) ينظر اين يرجع الضمير الذي اسند اليه هذا الفعل ؟ فان كان المصادفة ، فالظاهر ان يؤنث بالتاء فيقال «اغتفرت» كما قال « فتغتفر » وان أرجع الى التعذيب رد بان تضمين الصناع ليس تعذيبا . ولعل الاصل تأنيث الفعل ، او حذف « في » وجعل « تضمين » هو الفاعل .

الشافعي أنه لا يقول بذلك: وعلى الجملة فالمسئلة في محل الاجتهاد . ـ قال ـ ولسنا نحكم بمذهب مالك على القطع، فاذا وقع النظر في تعارض المصالح، كان ذلك قريباً من النظر في تعارض الاقيسة المؤثرة.

(المثال الخامس)

انا اذا قررنا اماما مطاعاً مفتقرا الى تكثير الجنود لسد الثغور وحماية الملك المتسع الاقطار، وخلا بيت المال، وارتفعت حاجات الجند الى ما لا يكفيهم، فللإمام اذا كان عدلا أن يوظف على الاغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال، الى أن يظهر مال بيت المال؛ ثم اليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والثمار وغير ذلك، كيلا يؤدي تخصيص الناس به الى ايحاش القلوب . وذلك يقع قليلا من كثير بحيث لا يجحف بأحد ويحصل المقصود

وانما لم ينقل مثل هذا عن الاولين لاتساع مال بيت المال في زمانهم بخلاف زماننا، فان القضية فيه أحرى، ووجه المصلحة هنا ظاهر؛ فانه لو لم يفعل الامام ذلك النظام بطلت شوكة الامام، وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار

وانما نظام ذلك كله شوكة الامام بعدله . فالذين يحذرون من الدواهي لو تنقطع عنهم الشوكة، يستحقرون بالاضافة اليها أموالهم كلها، فضلا عن اليسير منها، فاذا عورض هذا الضرر العظيم بالضرر اللاحق لهم بأخذ البعض من أموالهم، فلا يتمارى في ترجيح الثاني عن الاول . وهو مما يعلم من مقصود الشرع قبل النظر في الشواهد

والملاءمة الاخرى — ان الاب في طفله، أو الوصي في يتيمه،

أو الكافل فيمن يكفله ، مأمور [١] برعاية الاصلح له ، وهو يصرف ماله الى وجوه من النفقات أو المؤن المحتاج اليها . وكلُّ ما يراه سبباً لزيادة ماله أو حراسته من التلف جاز له بذل المال في تحصيله . ومصلحة الاسلام عامة لا تتقاصر عن مصلحة طفل ، ولا نظر امام المسلمين يتقاعد عن نظر واحد من الآحاد في حق محجوره

ولو وطئ الكفار أرض الاسلام لوجب القيام بالنصرة ، واذا دعاهم الامام وجبت الاجابة ، وفيه اتعاب النفوس وتعريضها الى الهلكة ، زيادة الى انفاق المال . وليس ذلك الا لحماية الدين، ومصلحة المسلمين

فاذا قدرنا هجومهم [٢] واستشعر الامام في الشوكة ضعفاً وجب على الكافة امدادهم . كيف والجهاد في كل سنة واجب على الخلق ؟ وانما يسقط باشتغال المرتزقة، فلا يتمارى في بذل المال لمثل ذلك

واذا قدرنا انعدام الكفار الذين يخاف من جهتهم ، فلا يؤمن من انفتاح باب الفتن بين المسلمين. فالمسئلة على حالها كما كانت،وتوقع الفساد عتيد، فلا بد من الحراس

فهذه ملاءمة صحيحة ، الا أنها فى محل ضرورة ، فتقدر بقدرها ، فلا يصح هذا الحكم الا مع وجودها . والاستقراض فى الازمات انما يكون حيث يرجى لبيت المال دخل ينتظر أو يرتجى ، وأما اذا لم ينتظر شيء وضعفت وجوه [٣] الدخل بحيث لا يغني كبير شيء ، فلا بد من

---

(١) قوله « مأمور » خبر « ان الاب » باعتبار ما عطف عليه (٢) قوله « هجومهم » يعني المسلمين الذين وطىء الكفار أرضهم محار بين لهم (٣) في الاصل « وجوده » وهو غلط

جريان حكم التوظيف

وهذه المسألة نص عليها الغزالي في مواضع من كتبه ، وتلاه في تصحيحها ابن العربي في أحكام القرآن له ، وشرط جواز ذلك كله عندهم عدالة الامام ، وايقاع التصرف في أخذ المال واعطائه على الوجه المشروع

(المثال السادس)

إن الامام لو أراد أن يعاقب بأخذ المال على بعض الجنايات [1] فاختلف العلماء في ذلك - حسبما ذكره الغزالي - على أن الطحاوي حكى أن ذلك كان في أول الاسلام ثم نسخ فأجمع العلماء على منعه .

فأما الغزالي فزعم أن ذلك من قبيل الغريب الذي لا عهد به في الاسلام ، ولا يلائم تصرفات الشرع ؛ مع أن هذه العقوبة الخاصة لم تتعين ؛ لشرعية العقوبات البدنية بالسجن والضرب وغيرهما - قال - فان قيل : فقد روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاطر خالد بن الوليد في ماله ، حتى آخذ رسوله برد نعله وشطر عمامته . قلنا : المظنون من عمر أنه لم يبتدع العقاب باخذ المال على خلاف المألوف من الشرع ، وانما ذلك لعلم عمر باختلاط ماله بالمال المستفاد من الولاية واحاطته بتوسعته ، فلعله ضمن المال فرأى شطر ماله من فوائد الولاية ، فيكون استرجاعاً للحق لا عقوبة في المال ، لان هذا من الغريب الذي لا يلائم قواعد الشرع . هذا ما قال . ولما فعل عمر وجه آخر غير هذا ، ولكنه لا دليل فيه على العقوبة بالمال كما قال الغزالي

وأما مذهب مالك فان العقوبة في المال عنده ضربان (أحدهما) كما

(١) ينظر اين جواب لو ؟ وما موقع الفاء من قوله « فاختلف العلماء » ؟

صوره الغزالي ، فلا مرية في أنهُ غير صحيح ، على أن ابن العطار فى رقائقه صغى الى اجازة ذلك ، فقال فى اجازة أعوان القاضي اذا لم يكن بيت مال : انها على الطالب ، فان أدى المطلوب كانت الاجازة عليه . ومال اليهِ ابن رشد . ورده عليه ابن النجار القرطبي ، وقال: ان ذلك من باب العقوبة فى المال ، وذلك لايجوز على حال

(والثاني) أن تكون جناية الجاني في نفس ذلك المال أو في عوضه ، فالعقوبة فيهِ عنده ثابتة . فإنهُ قال في الزعفران المغشوش اذا وجد بيد الذي غشه : انه يتصدق به على المساكين قل أو كثر . وذهب ابن القاسم ومطرف وابن الماجشون الى أنه يتصدق بما قل منهُ دون ما كثر . وذلك محكي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ ، وانه أراق اللبن المغشوش بالماء ، ووجه ذلك التأديب للغاش . وهذا التأديب لا نص يشهد له ، لكن من باب الحكم على الخاصة لاجل العامة . وقد تقدم نظيره في مسألة تضمين الصناع

على أن أبا الحسن اللخمي قد وضع له أصلا شرعيا ، وذلك انهُ عليهِ السلام أمر باكفاء القدور التي أغليت بلحوم الحمر قبل أن تقسم . وحديث العتق بالمثلة أيضاً من ذلك .

ومن مسائل مالك في المسألة : اذا اشترى مسلم من نصراني خمراً فانه يكسر على المسلم ، ويتصدق بالثمن أدباً للنصراني ان كان النصراني لم يقبضه . وعلى هذا المعنى فرع أصحابه في مذهبه ، وهو كله من العقوبة في المال ، الا أن وجهه ما تقدم

(المثال السابع)

انه لو طبق الحرامُ الارضَ ، أو ناحيةً من الارض يعسر الانتقال منها ، وانسدت طرق المكاسب الطيبة ، ومست الحاجة الى الزيادة على سد الرمق ، فان ذلك سائغ أن يزيد على قدر الضرورة ، ويرتقي الى قدر الحاجة في القوت والملبس والمسكن ، اذ لو اقتصر على سد الرمق لتعطلت المكاسب والاشغال ، ولم يزل الناس في مقاساة ذلك الى أن يهلكوا ، وفي ذلك خراب الدين . لكنه لا ينتهي الى الترفه والتنعم ، كما لا يقتصر على مقدار الضرورة .

وهذا ملائم لتصرفات الشرع وان لم ينص على عينه ، فانه قد أجاز اكل الميتة للمضطر ، والدم ولحم الخنزير ، وغير ذلك من الخبائث المحرمات وحكى ابن العربي الاتفاق على جواز الشبع عند توالي المخمصة ، وانما اختلفوا اذا لم تتوال : هل يجوز له الشبع أم لا ؛ وأيضاً فقد أجازوا أخذ مال الغير عند الضرورة أيضاً . فما نحن فيه لا يقصر عن ذلك

وقد بسط الغزالي هذه المسألة في الاحياء بسطاً شافياً جداً ،[1] وذكرها في كتبه الاصولية كالمنخول وشفاء العليل

(المثال الثامن)

انه يجوز قتل الجماعة بالواحد . والمستند فيهِ المصلحة المرسلة ، اذ لا نص على عين المسألة ، ولكنه منقول عن عمر بن الخطاب رضي الله

(١) للغزالي كلمة في عدم تعدي الحرام اذا كثر وعم وهي « اذا حرم كله حل كله » أي لا يبحث المرء في هذه الحال عن أصل المال ، بل يتحرى ان يأخذه من وجه حلال .

عنه ؛ وهو مذهب مالك والشافعي . ووجه المصلحة أن القتيل معصوم ، وقد قتل عمدا ، فإهداره داع الى خرم أصل القصاص ، واتخاذ الاستعانة والاشتراك ذريعة الى السعي بالقتل اذا علم أنه لا قصاص فيه ، وليس أصله قتل المنفرد فانه قاتل تحقيقاً ، والمشترك ليس بقاتل تحقيقاً

فان قيل : هذا أمر بديع في الشرع [1] وهو قتل غير القاتل . قلنا : ليس كذلك ، بل لم يقتل الا القاتل ، وهم الجماعة من حيث الاجتماع عند مالك والشافعي ؛ فهو مضاف اليهم تحقيقاً اضافته الى الشخص الواحد ، وانما التعيين في تنزيل الاشخاص منزلة الشخص الواحد ، وقد دعت اليه المصلحة فلم يكن مبتدعاً مع ما فيه من حفظ مقاصد الشرع في حقن الدماء ، وعليه يجري عند مالك قطع الايدي باليد الواحدة ، وقطع الايدي في النصاب الواجب [2]

المثال التاسع

ان العلماء نقلوا الاتفاق على ان الامامة الكبرى لا تنعقد الا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علوم الشرع ، كما انهم اتفقوا أيضا — أو كادوا أن يتفقوا — على ان القضاء بين الناس لا يحصل الا لمن رقي في رتبة الاجتهاد . وهذا صحيح على الجملة ، ولكن اذا فرض خلو الزمان عن مجتهد يظهر بين الناس ، وافتقروا الى امام يقدمونه لجريان الاحكام وتسكين ثورة الثائرين ، والحياطة على دماء المسلمين وأموالهم ، فلا بد

(١) البديع المخترع على غير مثال سابق . والمعنى ليس له أصل من الشرع ، لا خاص فيكون قياسا عليه ، ولا عام فيكون من المصالح المرسلة (٢) أي اذا قطع جماعة يد أحد أو سرقوا نصابا بالتعاون والاشتراك تقطع أيديهم كلهم

من اقامة الامثل ممن ليس بمجتهد ، لانا بين أمرين : إما ان يترك الناس فوضى ، وهو عين الفساد والهرج . وإما ان يقدموه فيزول الفساد بتة ، ولا يبقى الاّ فوت الاجتهاد ، والتقليد كافٍ بحسبه

واذا ثبت هـذا فهو نظر مصلحي يشهد له وضع أصل الامامة ، وهو مقطوع به بحيث لايفتقر في صحته وملاءمته الى شاهد ، هذا — وان كان ظاهره مخالفا لما نقلوا من الاجماع في الحقيقة — إنما انعقد على فرض ان يخلو الزمان من مجتهد ، فصار مثل هذه المسئلة مما لم ينص عليه ، فصح الاعتماد فيه على المصلحة

المثال العاشر

ان الغزالي قال في بيعة المفضول مع وجود الافضل : ان رددنا في مبدإ التولية بين مجتهد في علوم الشرائع وبين متقاصر عنها ، فيتعين تديم المجتهد ، لان اتباع الناظر علم نفسه ، له مزية على اتباع علم غيره ، فالتقليد والمزايا لاسبيل الى اهمالها مع القدرة على مراعاتها

أما اذا انعقدت الامامة بالبيعة أو تولية العهد لمنفك عن رتبة الاجتهاد ، وقامت له الشوكة ، واذعنت له الرقاب ، بأن خلا الزمان عن قرشي مجتهد مستجمع جميع الشرائط ، وجب الاستمرار [1]

وإن قدر حضور قرشي مجتهد مستجمع للفروع والكفاية ، وجميع شرائط الامامة . واحتاج المسلمون في خلع الاول الى تعرضه لإثارة فتن واضطراب أمور ، لم يجز لهم [2] خلعه والاستبدال به ، بل تجب

---

(١) قوله « وجب » الخ جواب قوله « أما اذا انعقدت » (٢) قوله « لم يجز لهم » الخ جواب وجزاء قوله « وان قدر » الخ

عليهم الطاعة له ، والحكم بنفوذ ولايته وصحة إمامته ، لانا نعلم ان العلم مزية روعيت في الامامة تحصيلا لمزيد المصلحة في الاستقلال بالنظر والاستغناء عن التلقيد ، وان الثمرة المطلوبة من الامام تطفئة الفتن الثائرة، من تفرق الآراء المتنافرة : فكيف يستجيز العاقل تحريك الفتنة ، وتشويش النظام ، وتفويت اصل المصلحة في الحال ؛ تشوفا الى مزيد[1] دقيقة في الفرق بين النظر والتقليد — قال — وعند هذا ينبغي ان يقيس الانسان ما ينال الخلق من الضرر بسبب عدول الامام عن النظر الى التقليد ، بما ينالهم لو تعرضوا لخلعه والاستبدال به ، او حكموا بأن امامته غير منعقدة .

هذا ما قال[2] ، وهو متجه بحسب النظر المصلحي ، وهو ملائم لتصرفات الشرع — وان لم يعضده نص على التعيين

وما قرره هو أصل مذهب مالك . قيل ليحي بن يحي : البيعة مكروهة ؛ قال: لا ؛ قيل له : فان كانوا أئمة جور ؛ فقال: قد بايع ابن عمر لعبد الملك بن مروان ، وبالسيف أخذ الملك ، أخبرني بذلك مالك عنه أنه كتب اليه وأمرله بالسمع والطاعة على كتاب الله وسنة نبيه

قال يحي : والبيعة خير من الفرقة - قال - ولقد أتى مالكا العمريّ

---

(١) كذا ولعله « مزية » (٢) أي الغزالي . وقد فاته وفات أمثاله أن ينبهوا المسلمين على أن هذه الاقوال والفتاوى المبنية على الضرورة تتقدر بقدرها كسائر الضرورات ، وأن يسعى المسلمون لازالتها بوسائل تتقى فيها الفتنة أو يرتكب فيها أخف الضررين ، وقد يكون أخفهما خلع الامام الجائر الجاهل ؛ وكم من سلطان خلع ، ومن دولة دالت ، ولم يكن ضرر ذلك أرجح من الصبر عليه ، على أن ذلك لم يكن الا تنازعاً على الملك ، فكيف لو كان لاجل وضع الحق في نصابه

فقال له : يا أبا عبد الله بايعني أهل الحرمين ، وانت ترى سيرة أبي جعفر ، فما ترى ؟ فقال له مالك : أتدري ما الذي منع عمر بن عبد العزيز ان يولي رجلا صالحا ؟ فقال العمري : لا أدري . قال مالك : لكني انا أدري ، انما كانت البيعة ليزيد بعده ، فخاف عمر إن ولى رجلا صالحا ان لا يكون ليزيد بدٌّ من القيام ، فتقوم هجمة فيفسد ما لا يصلح . فصدر رأي هذا العمري على رأي مالك .

فظاهر هذه الرواية انه اذا خيف عند خلع غير المستحق واقامة المستحق ان تقع فتنة وما لا يصلح ، فالمصلحة في الترك

وروى البخاري عن نافع قال : لما خلع اهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمه وولده فقال : اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة » وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله ، واني لا اعلم احدا منكم خلعه ولا تابع في هذا الامر الا كانت الفيصل بيني وبينه

قال ابن العربي : وقد قال ابن الخياط : ان بيعة عبد الله ليزيد كانت كرها ، واين يزيد من ابن عمر ؟ ولكن رأى بدينه وعلمه التسليم لأمر الله والفرار عن التعرض لفتنة فيها من ذهاب الاموال والانفس مالا يخفى . فخلع يزيد — لو تحقق ان الامر يعود في نصابه . . [1] فكيف ولا يعلم ذلك ؟ وهذا أصل عظيم فتفهموه والزموه ترشدوا ان شاء الله.

(١) سقط من هنا خبر المبتدإ الذي هو قوله « فخلع يزيد » ولعل الساقط قوله « تعرض للفتنة » كما يفهم من سابق الكلام - أي ان خلع يزيد تعرض للفتنة لا يجوز مع العلم بأن الخلافة تعود الى مستحقها ، فكيف وذلك غير معلوم ، لجواز ان ينكل عن خلعوه و يبقى الامر بيده أو تعود الى مثله أو شر منه .

مدرسة دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية اسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

بسم الله الرحمن الرحيم

الغرض من هذه المحاضرات إيقافكم على أصول بعض أنواع العلوم الطبيعية والطبية خصوصا ما كان منها له مساس بعلم قانون الصحة ، فانه هو المقصد الأصلي الذي نرمي اليه في جميع هذه المحاضرات. لأن هذا العلم هو كثمرة شهية مما تنتجه شجرة العلوم العصرية، طبيعية كانت أو طبية، والغرض منه معرفة الاصول والقواعد الصحية التي بها يُحفظ الجسم من الضعف والانحلال بقدر الامكان، وكذا من الامراض المعدية وغير المعدية

وستسمعون مني في سياق هذه المحاضرات تعريب كثير من الألفاظ العلمية، وتطبيق حقائق هذه العلوم على نصوص الديانة الاسلامية الغراء

وها كم أسماء العلوم التي نريد أن نتكلم عليها بعون الله تعالى :

١ً الكيمياء ٢ً الطبيعة ٣ً التشريح ٤ً الفسيولوجيا (١) ٥ً الهستولوجيا (٢) ٦ً البكتيريولوجيا (٣) الامراض المعدية، وغير ذلك

(نبذة في علم الكيمياء) Chemistry

الكيمياء القديمة كان الغرض منها معرفة حجر الفلاسفة وهو الجوهر الذي اذا وضع على أي معدن يصيره ذهبا على زعمهم . ومعرفة اكسير الحياة، وهو الذي كانوا يظنون أنه يعيد الشيخ شابا أو أنه يشفي جميع الامراض .وأما الآن فالغرض من الكيمياء معرفة أصول المركبات وكيفية تركيبها وتحليلها . وهذه الاصول تسمى بالعناصر، والعناصر كثيرة. ولكنها الآن لا تتجاوز الثمانين؛ ومن أهمها الحديد

(١) وظائف الاعضاء (٢) التشريح الدقيق (٣) علم الميكروبات أو الجراثيم

والنحاس والاكسجين والكربون

وأما المركبات فمنها الخشب والسكر والماء وغير ذلك . والراجح عند العلماء الآن ان جميع العناصر هي أيضا مركبات وكلها ترجع الى أصل واحد، وهو الأثير الذي هو أبسط جميع الموجودات ومنه ركبت ؛ وأصغر أجزاء هذه العناصر تسمى بالجواهر الفردة، وهي التي لايمكن تقسيمها الى أقل منها ولو في الذهن

والعناصر جميعا تنقسم الى قسمين معادن وغير معادن، فالمعادن هي مثل النحاس والحديد ، وغيرها ماماثل الفحم والكبريت (المسمى بالعمود)

والمعادن تختلف عن غير المعادن في أربعة أشياء (١) ان المعادن لها لمعة خاصة بها، وغيرها ليس كذلك (٢) ان المعادن توصل الحرارة والكهرباء (٣) أن المعادن تقبل الانطراق والتمدد وغير المعادن لايقبل ذلك (٤) ان اكسيد المعادن يسمى القاعدة، وأكسيد غير المعادن يتركب منه الحمض . والأكسيد هو ماينشأ من اتحاد الاكسجين مع أي عنصر من العناصر، مثال ذلك صدأ الحديد فانه يسمى أكسيد الحديد لتركبه من الاكسجين مع الحديد . والقاعدة سميت بذلك لأنها كالأساس تبنى عليه الاملاح ، والحمض غير العضوي ينشأ من إذابة أكسيد غير المعادن في الماء ، واتحاد القواعد مع الحوامض يولد الاملاح

ثم ان اكسيد المعادن الذي يذوب في الماء يسمى (قَلَوِي) ولفظ قلوي نسبة الى قلي وهي كلمة فارسية معربة تطلق على نبات ينبت بشواطئ البحر يسمى الأشنان، اذا أُحرق تخلف منه رماد يشتمل على كثير من ملح يسمى (كربونات الصوديوم) ومنه يعمل الصابون. وكربونات الصوديوم تسمى بالعربية نطروناً، ولفظ النطرون أخذ منه اسم العنصر المسمى (صوديوم) فسموه نطريوم، ومن كلمة قلي أخذ لفظ قليوم وهو اسم لعنصر (البوتاسيوم)

وأشهر القلويات أكسيد الصوديوم أو النطريوم وأكسيد البوتاسيوم أو القليوم . واذا أذيب القلوي في الماء تكون منه مايسمى (هيدرات) أو إيدرات؛ ومعنى كل منهما (ماء) فاذا قيل هيدرات الصوديوم فمعناه ماء الصوديوم أو بالحري ماء أكسيد الصوديوم .

﴿ أشهر العناصر ﴾

واشهر العناصر ما يأتي ١ً الاكسجين ٢ً الهيدروجين ٣ً النيتروجين ٤ً الكلورين ٥ً الصوديوم ٦ً البوتاسيوم ٧ً الكلسيوم (وهو ما يتركب منه الجير)٨ً الفسفور ٩ً الكبريت ١٠ً الحديد ١١ً الكربون (الفحم) فالأربعة الاول كلها غازات طيارة كالهواء ، وهي لا لون لها، ما عدا الكلورين فانه اخضر اللون : وهو معنى اسمه باليونانية : واما الصوديوم والبوتاسيوم و و الخ فهي اجسام صلبة .

﴿ العناصر المركبة في الجسم ﴾

ويتركب من هذه العناصر اجسام اخرى مركبة تدخل في جسم الانسان وهي تنحصر في خمسة انوع -- ١ الماء ٢ المواد الزلالية ٣ المواد الدهنية ٤ المواد السكرية والنشوية ونحوها ٥ أملاح عديدة اهمها كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) وكربونات الكلسيوم (معدن الجير) وسلفات الصوديوم (كبريتات)

*

فأما الماء فهو مركب من الاكسجين والهيدروجين ويدخل في جميع أجزاء الجسم ومنه يتكون اكبر جزء فيه، وهو من اهم ما يلزم لحياة الجسم، بحيث ان الانسان واي حيوان آخر اذا امتنع عنه بضعة ايام يموت قطعا

*

واما المواد الزلالية فهي كزلال البيض (بياضه) وهي مركبة من الاكسيجين والهيدروجين والنيتروجين والكربون (الفحم) والكبريت . وبعضها يدخل فيه الحديد كالمادة المسماة (هيموجلوبين وهي الداخلة في كرات الدم الحمراء) ويتركب من المواد الزلالية العظام واللحم والمخ والنخاع وجميع الاحشاء

*

واما المواد الدهنية فهي مركبة من الكربون والهيدروجين والاكسجين، وتوجد في الغالب تحت الجلد وحول الاحشاء في البطن وغيره

ثم ان هذه العناصر الثلاثة الاخيرة يتركب منها الغلسرين واحماض عضوية . فالاحماض العضوية هي التي لا تتكون بنفسها الا في اعضاء النباتات والحيوانات .

وباجتماع الغلسرين مع الاحماض العضوية ينشأ الدهن والزيوت الثابتة (مثل زيت السمك وزيت الزيتون) أما الزيوت غير الثابتة فهي مثل زيوت الروائح العطرية، وتركيبها يختلف عن ذلك كثيرا

واما المواد النشوية والسكرية ونحوها فتسمى في علم الكيمياء (بالكربوهيدرات) لانها مركبة من الكربون والهيدروجين والاكسجين . والفرق بينها وبين المواد الدهنيـة هو في عدد الذرات وفي وضع بعضها بالنسبة الى البعض الآخر. والمواد السكرية والنشوية توجد بكثرة في الدم والكبد. فيوجد في الدم سكر العسل وفي الكبد نوع من النشأ يسمى النشأ الحيواني (الجليكوجين)

واعلم ان الياء والـكاف [يك] إذا أضيفتا الى آخر اسم الحامض دلتا على ان فيه اكسجين كثيرا ، والواو والزاي [وز] يدلان على أكسجين قليل. ولفظ [فوق] يدل على ان الاكسجين أكثر مما في الحمض المنتهي بالياء والـكاف ولفظ [تحت] يدل على أنه أقل الحوامض التي من نوعه في الاكسجين. مثال ذلك

١ً فوق حامض السكلوريك فيه ٤ ذرات من الاكسجين
٢ً وحامض السكلوريك فيه ٣ « « «
٣ً وحامض السكلوروز فيه ٢ « « «
٤ً وتحت حامض السكلوروز فيه ١ « « «

والملح الذي ينشأ من الاول يسمى « فوق كلورات » والذي ينشأ من الثاني « كلورات » والذي ينشأ من الثالث « كلوريت» والذي ينشأ من الرابع « تحت كلوريت »

وكل ياء ودال [يد] يدلان على ان الجسم مركب من عنصرين فقط مثل كلوريد الصوديوم فانه مركب من عنصرين فقط هما الكلورين والصوديوم

ولاجل تمييز الحوامض عن القلويات يستعمل ورق عباد الشمس Litmus فالحمض يصيره أحمر والقلوي يصيره أزرق والملح لايغير لونه ويسمى (متعادلا)

﴿ الاتحاد والمزج ﴾

بقيت مسألة واحدة تتعلق بموضوع الكيمياء وهي الفرق بين الاتحاد وبين الخلط أو المزج

فالاتحاد معناه الارتباط والانضمام ، والخلط والمزج معناهما ظاهر . وهناك في علم الكيمياء ثلاثة فروق كبيرة بين الاتحاد وبين الخلط أو المزج

(١) ففي حالة الاتحاد ينشأ مركب يخالف في صفاته وخواصه وطبائعه صفات أجزائه التي يتركب منها. وفي حالة الخلط أو المزج ليس الامر كذلك. مثال ذلك الخشب فان له صفات تغاير صفات عناصره كل المغايرة ، واذا خلطنا السكر مع الفحم بقي كل منهما حافظا لصفاته وخواصه، وهناك مثال آخر وهو الماء والهواء، فالماء مركب متحد، والهواء مركب ممزوج

(٢) ان الاتحاد الكيماوي يكون دائما بنسب ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، والنسب في الخلط ليست ملتزمة

(٣) ان الاتحاد الكيماوي قد يولد حرارة وكهرباء، والخلط لا يولد شيئا منهما

(النبذة الثانية في علم الطبيعة) Physics

علم الطبيعة هو علم ظواهر المادة يبحث فيه عن طباعها وخواصها وقواها فهو علم الظاهر والكيمياء علم الباطن

أما قوى المادة فمعناها حركات جواهرها (ذراتها) المختلفة، وتنشأ منها أعراض كثيرة أهمها ما نسميه بالكهرباء والحرارة والنور والمغناطيس فان الاشياء الاربعة ليست الا حركات مختلفة لذرات المادة

ثم ان المادة لها ثلاثة أحوال (١) اليبوسة (٢) السيولة (٣) البخارية أو الغازية، ويسمى الجسم في الحالة الاخيرة الساطع أو الريح أو البخار و بالافرنجية الغاز

واختلاف هذه الاحوال الثلاثة انما نشأ من اختلاف مقدار الحرارة الموجودة في كل منها . فذرات الغاز أشدها اضطرابا وا كثرها حركة وحرارة ، وذرات الجامد (اليابس) أقلها حركة وحرارة ، وذرات السائل متوسطة بين الحالتين في الحرارة

والحركة. فلا يمكننا تحويل الجسم من حالة اليبوسة الى حالة السيولة الا بالحرارة ولا يمكننا تحويله من حالة السيولة الى الحالة الغازية الا بالحرارة أيضاً. وكذلك الحالة في اذابة جميع الاجسام الجامدة في السوائل فانها تمتص الحرارة من الاجسام المجاورة لها فاذا أذبنا مثلا الملح الانكليزي في الماء أحسسنا ببرودة في الانا بسبب امتصاص حرارته لاجل الاذابة

والحرارة نوعان حرارة كامنة وهي منصرفة في تفريق ذرات المادة ولا يمكن الاحساس بها. وحرارة ظاهرة وهي التي يشعر بها الانسان

سنن التجاذب وأنواع الجذب

بين ذرات المادة تجاذب يظهر في أجرامها العظيمة كالكواكب وفي أجرامها الصغيرة كالحصى، ويشاهد هذا الجذب بين القمر والارض مثلا في ماء البحار فيحصل فيه ما يسمى بالمد

ويسمى هذا التجاذب باسماء مختلفة باختلاف الاحوال: فالتجاذب بين ذرات الجسم الواحد كالحصى يسمى قوة الانضمام وبالانكليزية Cohesion والتجاذب بين جسمين مختلفين كالجدار وطلائه يسمى قوة الالتصاق وبالانكليزية Adhesion وبين الارض وما عليها يسمى قوة الجذب Gravitation وكل ثقل لاي جسم انما هو ناشيء من هذا الجذب الارضي. واختلاف الاثقال هو ناشئ عن عدد اختلاف الذرات، فالجسم الثقيل هو ما كانت ذراته كثيرة والجسم الخفيف هو ما كانت ذراته قليلة. وكل ما نعرفه ونشاهده على الارض من الاجسام حتى الهواء له ثقل تسبب عن جذب الارض له

وثقل الهواء على الاجسام يسمى الضغط الجوي ولقياسه يستعمل البارومتر أما البارومتر فهي كلمة يونانية معناها (مقياس الثقل) أي ثقل الهواء وأبسط طريقة لصناعته أن تملأ أنبوبة زجاجية بالزئبق عادة طولها ٩٠ سنتي متراً وقطرها سنتي واحد ثم تسد بالاصبع وتغطس فتحتها في إناء مملوء بالزئبق ثم يرفع الاصبع فترى أن الزئبق ينزل في الانبوبة ويترك مسافة فرغة في أعلاها ويكون ارتفاع الزئبق في الانبوبة عن سطح الزئبق الذي في الاناء نحو ٧٦ سنتي متراً والذي رفعه الى

هذه المسافة هو ضغط الهواء على سطح الزئبق الذي في الاناء . ويمكن أيضا عمل البارومتر بأنبوبة على شكل حرف «ل» مسدودة من طرفها الأعلى ومفتوحة من الاسفل فيبقى الزئبق مرفوعا كما في الطريقة الاولى

ومن فوائد البارومتر معرفة ارتفاع الجبال وغيرها كالمناطيد لان الزئبق ينزل في الانبوبة كلما ارتفعنا لخفة الهواء في الاماكن العالية ، وكذلك نعرف منه قرب حصول المطر فان الهواء المشبع بالرطوبة أخف من الهواء الجاف فينخفض الزئبق اذا اقترب المطر

تمدد الاجسام ومقياس الحرارة

وجميع الاجسام تمدد بالحرارة في جميع جهاتها أي يكبر حجمها بسبب تفرق أجزائها فتتسع المسام التي بينها، وتنكمش أيضاً بالبرودة أي يصغر حجمها وتقل المسافات (المسام) التي بين ذراتها

وعلى هذه القاعدة بني مقياس الحرارة Thermometer وهو عبارة عن أنبوبة من الزجاج فارغة من الهواء يوضع في أسفلها الزئبق ثم يبرد بالثلج حين ذوبانه حتى يصل الى أصغر حجمه ثم توضع في بخار الماء الذي يغلي حتى يصل الزئبق في الانبوبة الى اكبر حجمه . وتسمى النقطة الاولى التي وصل اليها الزئبق بالتبريد (نقطة الصفر) — وهي درجة الجليد . أي التي يجمد بها الماء فيكون جليدا والنقطة الثانية التي وصل اليها بالتسخين (نقطة المئة) وهي درجة الغليان أي للماء — ثم تقسم المسافة التي بين هاتين النقطتين الى مائة قسم يسمى كل قسم منها درجة ويرمز للدرجة بدائرة صغيرة كرقم ٥ فاذا وضعت بجانب عدد كان المراد انه عدد الدرجات كما ترى قريباً وقد يوضع في هذه الانبوبة موادأخرى غير الزئبق كالكحول (روح الخمر أو السبرتو)

وفي بعض البلاد يقسمون المسافة التي بين النقطتين المذكورتين الى ٨٠ قسما أو درجة وفي هذا المقياس تكون الدرجة أكبر من درجة المقياس الاول وقد يقسمون هذه المسافة أيضا الى ١٨٠ قسما فتكون الدرجة أصغر . ويضعون في هذا المقياس الاخير بدل الصفر رقم ٣٢ وبدل ١٠٠ رقم ٢١٢

ويسمى القياس الاول بالمقياس المئيني Centigrade (سنتجراد)
ويسمى المقياس الثاني مقياس (ريومر والمقياس الثالث يسمى مقياس (فهرنهيت) وأكثر هذه المقاييس استعمالا في مصر وفرنسا هو الاول ويليه الثالث كما في بلاد الانكليز وأما الثاني فهو قليل الاستعمال . أما حرارة الجسم الانساني الطبيعية فهي بالمقياس الاول من ٣٦ صباحاً الى ٣٧ مساء و بالمقياس الثالث من ٩٨ الى ٩٩ تقريباً

وكل درجة من هذه الدرجات تقسم الى عشرة أقسام فالخمسة منها هي نصف الدرجة وهكذا . وطريقة معرفة حرارة الإنسان أن يوضع المقياس في أي جزء من الجسم بحيث يكون محاطا باللحم من جميع الجهات مدة ثلاث دقائق تقريبا. وأشهر هذه الاماكن تحت اللسان وتحت الابط وقد تؤخذ الحرارة أيضا من الشرج وذلك في الانعام والاطفال

والحيوانات تنقسم الى قسمين باعتبار الحرارة :

القسم الاول الحيوانات ذوات الدم الحار كالانسان والخيل والسباع والطيور وغيرها. والقسم الثاني ذوات الدم البارد كالضفادع والاسماك والزواحف

فحيوانات القسم الاول تبقى حرارتها على حالة واحدة تقريبا في الحر والبرد في أواسط الارض عند خط الاستواء وفي أعلاها عند المنجمد الشمالي مثلا

وحيوانات القسم الثاني تختلف حرارتها باختلاف البيئة (الوسط) فترتفع حرارتها اذا كان المكان ساخنا وتنخفض اذا كان باردا

أما الانسان فاذا قلت حرارته عن ٣٥ أو ارتفعت عن ٤٤ مات غالبا، وارتفاع الحرارة هو ما يسمى بالحمى ، وانخفاضها يسمى بالهمود (أو الهبوط) وهو الحالة التي يكون الانسان فيها عند الموت عادة

المادة وقواها

إن جميع الاجسام وقواها المشاهدة في هذا العالم لاتوجد الآن من العدم ولا تقبل العدم أو الزوال وذلك بحسب استقرائنا الحالي وعلى ذلك يجب علينا ان نبين مصادر أو منابع الحرارة في العالم حيث أنها لاتنبعث من العدم :

(مصادر الحرارة)

للحرارة مصدران : طبيعي وصناعي

(١) أما المصدر الطبيعي فهو الشمس وباقي الشموس الاخرى المسماة عندنا بالنجوم الثابتة. والحرارة التي فيها انما تنشأ من احتراق أجزائها. والاحتراق عبارة عن اتحاد الاجزاء بعضها مع بعض اتحادا كيماويا . وأهم أنواع الاحتراق المشاهد في هذه الارض مايحصل من اتحاد الفحم مع الاكسجين، والهيدروجين مع الاكسجين أيضا . والاحتراق لايعدم المادة وانما يحولها الى صور وأشكال أخرى

(٢) وأما المصدر الصناعي فهو ينشأ من الاسباب الآتية :

(أ) الاحتكاك

(ب) القرع . كقدح الزناد الحجرية أو زناد الآلات النارية (البنادق)

(ج) التفاعل الكيماوي أو الاتحاد الكيماوي (كاحتراق الخشب)

(د) التيار الكهربائي (كالأتون الكهربائي)

فالحرارة الحيوانية تتولد في الجسم من الاحتراق ومن الشمس ومن الحركات الجثمانية الظاهرة والباطنة . وأهم احتراق يحصل في الجسم هو اتحاد مايوجد فيه من الفحم أو الهيدروجين بأكسجين الهواء . والفرق بين اشتعال الجسم الانساني وبين اشتعال غيره أن اشتعال الجسم تدريجي بطيء واشتعال الآخر سريع شديد . ويتولد من اتحاد الفحم مع الاكسجين غاز يسمى (ثاني أكسيد الفحم) ويرمز اليه هكذا (ك أ٢) (١) ومن اتحاد الهيدروجين مع الاكسجين يتولد الماء ويرمز اليه هكذا (هـ٢ أ) وهذان الجسمان ينشآن أيضا من احتراق كثير من أجسام أخرى كالخشب والشمع وزيت البترول (٢)

ولخروج الحرارة من الجسم الانساني عدة طرق :

(١) طريق التوصيل وذلك بسريان الحرارة من الجسم الانساني الى جميع

(١) أي جوهر فرد من الكربون (الفحم) متحد مع جوهرين من الاكسجين في كل ذرة من ذرات الغاز (٢) البترول معناه زيت الصخر أو الحجر لانه ينبع منه وتسمية العامة بالجاز أو الكاز

الاجسام المحيطة به كالملابس والفرش والهواء (٢) الاشعاع أي خروج الحرارة من الجسم بشكل أشعة كأشعة النور منبعثة في جميع الجهات، وسريانها هذا يكون في الاثير (٣) طريقة الحمل وذلك يكون بحمل الهواء المحيط بالجسم للحرارة وارتفاعه بسبب خفته وحلول هواء آخر بارد محله فان الهواء الحار أخف من الهواء البارد (٤) طريقة الافرازات كالبول والبراز وغيرهما فانهما يحملان شيئا كثيرا من حرارة الجسم. ومثلهما الهواء الخارج من الرئتين في الشهيق (٥) التبخر وذلك يكون بتبخر عرق الجسم ولا يخفى أن تحول الماء الى بخار يحتاج الى حرارة كما قلنا سابقا فلذلك كان العرق في تبخره مخرجا لكثير من حرارة الجسم وهو من أهم الطرق المذكورة هنا

فاذا اشتدت حرارة الجو انبعث الدم من داخل الجسم الى خارجه وملأ الجلد كله وكثر إفراز العرق وقل الاحتراق الداخلي في الجسم حتى لا تزيد الحرارة عن الدرجة الطبيعية

واذا اشتدت برودة الهواء كثر الاحتراق الداخلي في الجسم وهرب الدم من ظاهره الى باطنه وامتنع العرق وبذلك تحفظ حرارة الجسم فيه وتبقى في الدرجة الطبيعية

وكل هذه الحركات التي تحصل في الجسم من هروب الدم الى الباطن وخروجه الى الظاهر ومن زيادة الاحتراق أو قلته مدبرة بالاعصاب ومركز هذا التدبير في الدماغ أو المخ

فاذا أصيبت مراكز التدبير بأي شيء اختلت وظيفتها فإما أن يبرد الجسم برودة شديدة أو يسخن سخونة شديدة. وذلك الاخير هو الحمى وقد يموت الشخص بسبب البرودة أو السخونة

والذي يفسد عمل هذه المراكز العصبية المدبرة في الغالب سموم تتولد في الجسم من الجراثيم المرضية (الميكروبات). وقد ينشأ اختلال هذه المراكز من اصابات أخرى للدماغ أو آلام شديدة في جزء من أجزاء الجسم كالمغص الكلوي. فأعظم أسباب ارتفاع الحرارة الجثمانية (أي الحمى) شيئان (١) سموم الميكروبات التي تدور في الدم و (٢) كل ما يؤثر في المراكز العصبية كالألم الشديد أو ضربة الشمس أو غيرهما

ومما تقدم يفهم أن الحمى تتولد في الجسم بثلاثة طرق (١) زيادة الاحتراق مع خروج الحرارة من الجسم كالمعتاد (٢) قلة خروج الحرارة عن المعتاد مع كون التولد كالمعتاد (٣) اجتماع الطريقتين السابقتين بأن يزيد الاحتراق ويقل خروج الحرارة. وهذا أشد طرق الحمى

ففي الامراض المختلفة المصحوبة بالحمى يحصل احد هذه الطرق وخصوصا الاول والثالث منها

فالحمى على ذلك ضرب من ضروب النار . وأفيد عمل لإطفائها بسرعة استعمال الماء البارد مصداقا للحديث الشريف (الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء) أي كأنها من حر جهنم أو مما انتشر منها الى الارض

ومن الغلط الشائع معالجة الحمى بكثرة التدفئة بالملابس وغيرها فان ذلك يزيد حرارة الجسم ويضر المريض كما لا يخفى

كلمة في الخمر

يظن كثير من جهلة الناس أن استعمال الخمور في البلاد الباردة ضروري للحياة وقد أثبت جميع أطباء العالم بلا خلاف بينهم نقيض هذه الدعوى وظهر لهم أن الخمر من أعظم ما يخفض الحرارة الجثمانية لاسباب (أحدها) أنها تقلل الاحتراق الداخلي في الجسم المسمى بالتفاعل الحيوي (ثانيها) أنها تمدد جميع أوعية الجلد وتكثر العرق وبذلك يخرج كثير من حرارة الجسم (ثالثها) أنها اذا تعوطيت بمقادير كبيرة انتهى الامر بها الى إضعاف جميع قوى الجسم فيضعف القلب والدورة الدموية، ولذلك شوهد في البلاد الباردة كثير من الناس الذين تقتلهم الخمر

نعم إن جزءاً منها يحترق في الجسم فيولد فيه حرارة ولكنها لا تعد شيئا في جانب تبريدها الشديد للجسم كما بينا

أما الاحساس بالحرارة عقب تعاطيها فذلك ناشئ من ورود الدم بكثرة الى الجلد لا للزيادة في الاحتراق فهو إحساس كاذب ضار بالجسم

ومما تقدم يعلم ان الخمر نافعة في تبريد حرارة الجسم اذا أصابته الحمى، وهي كذلك، فان خير استعمالها طبيا هو في الحميات بشرط عدم الاستمرار عليها طويلا

وعدم الاكثار منها ، والا لأحدثت سرعة في النبض وزادت في هذيان المحموم

وقد تستعمل أيضا بمقادير قليلة للتنبيه والانعاش فانها في أول أمرها وبمقادير قليلة تؤدي الى تنشيط حركة الجسم ولكن ذلك يعقبه غالبا (وخصوصا اذا أخذت بمقادير كبيرة) هبوط ضار في جميع القوى

أضف الى ذلك مضراتها الاخرى الكثيرة بجميع الاحشاء وغيرها من أجزاء الجسم ، فان الخمر هي من أعظم أسباب جميع الامراض العقلية والعصبية والجثمانية، وهي تضعف النسل وتورثه بعض ما أصابت به والديه كالصرع مثلا . ومن أكبر مضاراتها أيضا أنها تعوق حركة الكرات البيضاء التي في الدم وبذلك يتغلب كثير من الامراض على الجسم فتفتك به كما هو مشاهد كثيرا في السكيرين فقل أن ينجو منهم أحد أصيب بمرض شديد

وقد يتوهم بعض الناس مما ذكر أن الخمر اذا شربت بمقادير قليلة نفعت الجسم والحقيقة خلاف ذلك، فان الادمان والمواظبة على شرب الخمر ولو قليلا لمدة طويلة قد ينشأ عنه كثير من الامراض التي ذكرت والقليل يجر الى الكثير حتما والا لضاعت مزيتها عند الشارب

والمدمن على تعاطيها ولو باعتدال هو دائما ضعيف القوى بحيث لا يتحمل ما يتحمله غيره من المشاق، وهو أيضا معرض لكثير من الامراض المعدية كالسل والحمرة، لأن الخمر تقلل مقاومة الجسم لجميع الميكروبات كما قلنا وخصوصا ميكروب الالتهاب الرئوي ولذلك لوحظ ان الجنود الاسلامية أقوى الناس تحملا للمشاق وأقلهم تعرضا للامراض

والخلاصة : ان الخمر اذا أخذ منها قليل مرة أو مرتين قد تنفع ولكن الادمان على قليلها هو ضار جدا كالاكثار منها غير أن ضرر القليل بطيء وضرر الكثير سريع قد يقتل الشخص في أقرب وقت فهي كما أخبرنا الله تعالى في كتابه فيها منافع للناس وإثمها أكبر من نفعها

(الذوبان وما يتعلق به)

اذا وضع جزء من السكر أو نحوه في الماء وترك قليلا من الزمن مع تحريك

السائل أو السكر انحل السكر كأنه فقد، والحقيقة أنه لايزال باقيا في الماء فيعطيه خواصه وصفاته

وإذا مزج قليل من الدقيق بالماء شوهد أنه باق فيه بلا انحلال

فالحالة الاولى تسمى حالة الذوبان والحالة الثانية تسمى حالة التعليق، لان ذرات الجسم الصلب تكون معلقة أو محمولة على ذرات الجسم السائل

وكما يحصل الذوبان في الاجسام الصلبة كذلك يحصل في السوائل والغازات فاذا مزجنا بعض السوائل بالبعض الآخر يشاهد فيها هذا الانحلال (الذوبان) مثال ذلك اختلاط الخل بالماء والخمر به فانهما يذوبان فيه

وكذلك الغازات فان بعضها يذوب في السوائل أي تنحل وتمتزج بها امتزاجا تاما كالهواء مع الماء

وكما أن بعض الاجسام الصلبة لا يذوب في بعض السوائل كذلك توجد سوائل لا تذوب فيها كالزيت في الماء

وأحسن طريقة لتعليق الزيت في الماء أن يمزج الماء قبل اضافة الزيت اليه بقليل من الصمغ ويسمى المزيج الحاصل من هذه الاشياء الثلاثة (مستحلبا)

فمن امثلة التعليق في الاجسام الحيوانية الدم واللبن فان الدم مركب من بعض اجسام ذائبة وبعض اجسام غير ذائبة وكذلك اللبن فان الدهن معلق فيه كتعليق الزيت فيما سميناه هنا مستحلبا تشبيها له باللبن الجليب (المحلوب)

ويمتاز الجسم المعلق عن الجسم الذائب بما يأتي : —

(١) إن الجسم المعلق يشاهد بالعين المجردة او بالآلات المكبرة (الميكروسكوب)

(٢) اذا ترك الجسم المعلق زمنا ما شوهد انه ينفصل عن السائل الذي كان معلقا فيه فاما أن يصعد الى أعلا كالزيت أو يسقط الى أسفل كالدقيق

(٣) اذا وضع السائل المعلق عليه شيء في اناء ناضح نضح السائل وحده وبقي الجسم المعلق في داخله

(٤) توجد آلة تسمى (المبعدة عن المركز) اذا وضع فيها سائل عليه أشياء

معلقة وأديرت بسرعة شديدة طردَت الاشياء الثقيلة الى جهة دائر محيطها واقتربت الخفيفة نحو مركزها وبذلك يمكن فصل الاجسام المعلقة بعضها عن بعض وهذه الآلة تستعمل في فصل زبدة اللبن عنه فنجد فيها الزبدة بقرب المركز لخفتها وكذلك تستعمل في فصل كريات الدم عن بقيته فتوجد الكريات عند محيطها لثقلها

ولفصل الجسم الذائب في السائل عنه طريقة شهيرة وهي التبخير السريع أو البطيء. والسائل الذي يبخر اذا برد وجمع يسمى مقطرا، وهو يكون خاليا من جميع الاجسام التي كانت ذائبة فيه الا التي تتصاعد بالحرارة كالروائح الزكية وغيرها

وهذه سنة الله تعالى في استخراج ماء المطر من البحار كما قال الله تعالى (أخرج منها ماءها ومرعاها) ويستعملها الانسان لاستخراج الملح لطعامه ولاستخراج الماء العذب من الماء الملح اذا كان مسافرا في البحار (المحيطة)

وتختلف الاجسام في الذوبان باختلاف أنواعها فمنها ما يذوب كثيرا ومنها ما يذوب قليلا، ولها كلها في الذوبان نسب خاصة ثابتة، وكلها تحتاج لحرارة في ذوبانها فتختلف النسب حينئذ باختلاف درجة الحرارة، فاذا كانت الحرارة كثيرة ذاب كثير واذا كانت قليلة ذاب قليل، ولا يستثنى من ذلك الأجسام قليلة كملح الطعام الذي يذوب في الماء البارد كالساخن مع فرق طفيف

واذا أذيب في السائل في درجة مّا أكبر مقدار يمكن اذابته فيه في هذه الدرجة سمي السائل مشبعاً وهذه الطريقة تسمى سنة (الاشباع)

واذا أشبع السائل وهو حار بمقدار مّا من الملح ثم برد السائل رسب من الملح ماذاب في حالة السخونة وبقي مقدار قليل ذائبا يناسب الدرجة التي وصل اليها الماء في برودته

وهذه الاجسام الراسبة تتخذ أشكالا هندسية بديعة عجيبة في أثناء رسوبها تسمى (البلورات) وكما أن الرسوب يحصل اذا اختلفت الحرارة من عالية الى واطئة كذلك يحصل اذا قل مقدار السائل بالتبخر . ومما يساعد على رسوب الاجسام من السائل المتبخر وجود أي جسم غريب فيه فيكون كمبدء للرسوب، وكما أن الرواسب تحصل في الخارج اذا انخفضت حرارة السائل أو وضع فيه جسم غريب كذلك

يجوز أن تتكون الحصوات في الجسم الانساني (كالحصوات الكلوية والصفراوية) من انخفاض حرارته فجأة في بعض الحميات ومن وجود بعض أجسام غريبة في داخله كبويضات الديدان الطفيلية . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان أكثر الحصوات الكلوية هي من حامض البوليك وهو يكثر افرازه في الحميات ويرسب في البول اذا اشتدت حموضته فلذا أرى أن الحميات هي من أعظم أسباب الحصوات الكلوية لان البول يكثر فيه هذا الحامض ويكون شديد الحموضة فلذا يرسب فيه الحامض البوليك وأملاحه خصوصا اذا انخفضت الحرارة

أما ذوبان الغازات في السائل كالماء فانه يختلف في أحكامه عن الاجسام الصلبة فالغازات تذوب بكثرة كلما اشتدت برودة السائل وكلما زاد الضغط عليها، وهي في ذوبانها كباقي الاجسام الاخرى تختلف أيضا باختلاف طبيعتها، فمنها مايذوب كثيرا ومنها مايذوب قليلا

ولولا ذوبان الهواء في الماء لماتت الحيوانات البحرية، فانه ضروري لحياتها كالحيوانات البرية سواء بسواء . أما الاكسجين الموجود في الهواء الذائب فهو بنسبة خمسة وثلاثين في المائة من حجمه . وفي الهواء العادي ٢١ في ١٠٠ وهذه الحقيقة الاخيرة تثبت أن الاكسجين في الهواء ليس متحدا اتحادا كيماويا مع النيتروجين بل ممزوجا به فقط، ولذلك اختلفت النسبة في حالة الذوبان عنها في الجو

(يتبع)

الامتيازات والشريعة الاسلامية *)

الاسباب التي تحمل الدول الاوربية على صيانة الامتيازات الاجنبية في تركيا
— الشريعة الاسلامية قائمة على القرآن لاتساوي بين المسلم وغير المسلم

أعلنت الحكومة العثمانية انها ألغت امتيازات الاجانب في بلادها فاحتجت الدول الاوربية والولايات المتحدة على هذا العمل الذي خرقت به تركيا المعاهدات الدولية، وعلت الاصوات بالشكوى من الحالة السيئة التي يصير اليها الاجانب في تركيا فيما لو ألغيت الامتيازات المذكورة وصار الاجانب في تركيا مثل العثمانيين خاضعين للمحاكم الاهلية، ولم يبق لهم الحق على رجوعهم الى محاكم قنصلياتهم في دعاويهم المدنية والجنائية

وقد عثرنا على مقالة خطيرة في هذا الشأن لأخد الكتبة السياسيين في جريدة الصن النيويركية أردنا تلخيصها اتماما للفائدة قال :

لا الولايات المتحدة ولا دولة اخرى أجنبية نصرانية ترضى ان رعاياها الذين لهم مصالح في تركيا والذين لسبب من الاسباب اضطروا ان يسكنوا فيها موقتا أو دائما ان يكونوا خاضعين للمحاكم القضائية القائمة على تعاليم القرآن، فطرائق العدالة الاسلامية شرقية بلفظها ومعناها، وطرائق العقاب الاسلامية بلغت من القساوة مبلغا عظيما بحيث ان الحكومة الاجنبية التي تترك رعاياها تحت رحمة محاكم تركيا الوطنية تخسر ثقة شعبها

وفضلا عن ذلك ان الاجانب بعد إلغاء هذه الامتيازات لا يكونون تحت رحمة تلك المحاكم الجائرة فقط، بل يعرضون نفوسهم لضرائب فادحة،

---

*) هذه المقالة لكاتب أمريكي ترجمتها بالعربية جريدة الهدى العربية السورية التي تصدر في نيويرك فرأينا أن ننقلها عنها ونعلق عليها ما فيه العبرة

فان الحكومة العثمانية التي تنفق أموالا طائلة على جنديتها وبحريتها وعليها دين وطني واجنبي عظيم، وهي منكوبة بأشد أزمة مالية، لابد ان تضرب في المستقبل ضرائب فادحة على الاجانب في بلادها، بعد ان نضبت مواردها الوطنية بكثرة ما وضعته عليها من الضرائب الباهظة

ولا يقدر الباب العالي ان يمنح الحكومات الاجنبية شيئا يذكر في مقابل موافقتها على إلغاء الامتيازات الاجنبية في تركيا، فالحكومة الحاضرة في الآستانة غير قائمة على أساس ثابت، بل هي دائما تحت رحمة اناس مغامرين متهوسين نظير انور باشا ناظر الحربية السابق (؟) أو المسيطر الحقيقي على تركيا، الذي تلطخت يداه بدم ناظم باشا القائد العثماني الشجاع المقتول بخيانة وجبانة. ولذلك باتت الحكومة العثمانية تحت خطر دائم، ولا يبعد ان تقع ثورة في الغد تسقط هذه الحكومة وتلغي الدستور وتنقض كل الاتفاقات التي عقدتها الحكومة السابقة، وتعيد الحكم الاستبدادي بما يرافقه من جور وفظاعة

وما لابد من ذكره ان امتيازات الاجانب في تركيا لم تؤخذ منها بالقوة بل هي منحتها مختارة، ومنشأها احتقار المسلم الشديد لكل من هو غير مسلم، فالاسلام لا يقدر ان يتصور وجود مملكة مختلفة، فهو لا يحسب حسابا الا للبلاد التي كل سكانها مسلمون، ويعتقد ان العالم كله سيؤلف في آخر الامر مثل هذه المملكة

هذا من جهة النظريات، اما من الوجه العملي فالمسلم لا يكترث لوجود غير مسلم في بلاده، ولا يعترف بمساواة غير المسلم به. وبالتالي ان المسلمين لا يهمهم ما يفعله غير المسلمين ويتفكرون به ما زالوا خارجين عن دائرة الاسلام

والذي يستحق الذكر أيضا ان الاسلام انتشر بالفتح لا بمساع سلمية، وقد استعان المسلم الفاتح على ادارة شؤون البلدان التي فتحها بالطرائق الادارية التي وجدها مرعية فيها، وقد رأى في تلك البلدان دوائر روحية للنصارى واليهود ابقاها على حالها، وصار الاساقفة والحاخاميون رؤساؤهم المسؤولون واسطة بينهم وبين الحكام المسلمين

وعلى هذه القاعدة صار الاجانب الساكنون والمتاجرون في تركيا وبلاد فارس ومصر وبقية الممالك الاسلامية تحت سيطرة قناصلهم القضائية أولا باستمرار العادة وثانيا بعقد معاهدات. ولم ينالوا هذا الامر من باب الامتياز بل من وجه انهم احط من ان ينتفعوا بمنافع العدالة الاسلامية القائمة على القرآن

وقد فتحت عن هذه الطريقة شريعة الامتيازات الخارقة العادة التي اعفت السفير الاجنبي وبيته واملاكه من القضاء العثماني، وتناولت هذه الشريعة رعايا دولته الاصليين والمتجنسين بجنسيتها. ومع نقصان قوة المملكة الاسلامية وازدياد قوات الدول الاجنبية كانت امتيازات الاجانب تزداد قوة واهمية في البلدان الخاضعة للحكم الاسلامي حتى صارت المستعمرات الاجنبية في كل مملكة اسلامية اشبه بممالك صغيرة ضمن مملكة كبيرة

ومن الادلة على ان الامتيازات الاجنبية في الممالك الاسلامية لم تنل بالقوة ان سويسرا والبرتوغال والباجيك تتمتع في تركيا وبلاد فارس ومصر بنفس الامتيازات التي تتمتع بها الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا وغيرها من الدول العظمى

هذا وان كثيرين من رجال الحكومة العثمانية نظير احمد رستم بك

السفير العثماني في واشنطون المتعصب لاسلامه الجديد يقولون ان قوانين تركيا المدنية والجنائية لا تنقص بشيء عن القوانين الغربية بعد ان وضعها مشترعون عثمانيون وأوروبيون

انهم مصيبون في قولهم، فالقوانين العثمانية خليط بين نظام نابليون والشريعة الاسلامية وملتقى الابحر: ولكنها موجودة بالاسم فقط، فان نجم الدين بك ناظر العدلية في الحكومة العثمانية الجديدة أدرى الناس بهذا الامر، فقد رفع بالامس تقريرا عن الاصلاحات التي أدخلتها حكومته على دوائر الشريعة والقضاة وانفاذ النظام الجديد، ولما سئل عما اذا كان هذا النظام يساوي بين المسلم والنصراني واليهودي أجاب بكلام لا يحتمل الريب وقال «ان هذا الامر يستحيل على المسلم ان يتصوره فهو لا يفكر به أبدا»

وبناء على ماتقدم يظهر ان نظام العدل في تركيا ديني غير خاضع لناظر العدلية كما هو في بقية الحكومات، بل لشيخ الاسلام الذي ليس رئيس رجال الدين الاسلامي في المملكة العثمانية فقط بل قاضيها الاكبر، فلا مرد لحكمه ولا اعتراض على فتواه. وهو يرئس مرتين في الاسبوع محكمة العدل العليا المتصلة بقصره في استامبول

ولشيخ الاسلام سيطرة على الامة والعلماء والمتصوفة، وعلى رؤساء الكليات الدينية والمحاكم القضائية، فكل القضاة في محاكم تركيا العليا والبدائية ينالون مناصبهم منه وهم تحت نفوذ ديني شديد، بدليل ان مرتباتهم المالية تؤخذ من ريع الاوقاف الاسلامية التي هي ثلاثة أرباع العقارات المدنية في المملكة العثمانية، وقد رافقت اجارهامن الفلاحين شروط جائرة. منها ان الفلاح المستأجر بعضها اذا مات بدون عقب فأرضه تعاد الي

الأوقاف لانه لا يقدر ان يتركها لارملته أو أحد أنسابه

ولا يمكن حمل مفسري الشريعة الاسلامية على جعلها حديثة، أو اقناعهم بأن الاحكام تتغير بتغير الازمان، وبأن الازمنة قد تغيرت منذ أربعة عشر قرنا حين وضع النبي محمد الشريعة الاسلامية في بلاد العرب لتنطبق على حاجات أبناء البادية وسكان الوبر. فشيخ الاسلام في الآستانة والمفتي الاكبر في القاهرة وكل قاض مسلم كبيرا كان أم صغيرا يعتبرون الحيدان عن تعاليم النبي محمد خطيئة مميتة أو جريمة ضد الاشياء المقدسة

ومن الادلة على عدم امكان تطبيق أحوال النصارى على منطوق الشريعة الاسلامية ماجرى في القاهرة سنة ١٩١٠ حين رفض المفتي الاكبر الموافقة على اعدام الورداني قاتل بطرس باشا غالي رئيس الوزارة المصرية والاول مسلم والثاني نصراني قبطي، وكانت حجة المفتي في عدم الموافقة على اعدامه ان الشريعة الاسلامية لا تحكم باعدام المسلم لقتله نصرانيا، فالمسلم الذي يقتل نصرانيا لا يعتبر مجرما في نظر الشريعة الاسلامية

وقد استغربت الحكومة الانكليزية هذه الفتوى ولم تعمل بها، وشنقت الورداني غير مكترثة لفتوى المفتي الاكبر الذي ذكر سببا آخر لامتناعه عن الفتوى باعدام الورداني فقال انه لم يرد في القرآن ذكر للمسدسات، ولا في الشريعة القائمة على، الحديث، ولذلك لا يعتبر المسلم بالشريعة المقدسة مجرما اذا استعمل المسدس لجرح أو قتل

وزبدة القول ان فتوى مفتي الديار المصرية بعدم تجريم مسلم يقتل نصرانيا، وقول ناظر العدلية العثمانية باستحالة مساواة النصراني واليهودي بالمسلم امام الشريعة العثمانية، حجة قاطعة تحتج بها دول أوربا والولايات المتحدة في عدم تنازلها عن الامتيازات الاجنبية في تركيا والسماح للباب العالي بإلغائها

(تفنيد مزاعم السياسي الامريكاني في الشريعة الاسلامية)

يتوهم كثير من الشرقيين ولا سيما المتفرنجين منهم أن كتاب السياسة والتاريخ وعلماء القوانين والشرائع من الافرنج لا يكتبون في جرائدهم الشهيرة ومصنفاتهم إلا لحقائق الثابتة التي قتلوها بحثاً وتدقيقا وتمحيصاً . ويظن الذين يسيئون الظن بالافرنج ويتهمونهم بالتعصب وغمط حقوق الشرقيين كافة والمسلمين خاصة ، انه لا يكاد يوجد فيهم عارف منصف يقول الحق اذا كان لغير قومه لالهم ، ولا حظ لهم فيه ، والمحققون المعتدلون يعلمون ان المستقلين فيهم كثيرون ، ويظنون أن الامريكيين منهم أقرب الى الانصاف ، وأبعد عن الجور والاعتساف ، فيما يحكمون به على الشرق والاسلام ويصفونهما به ، لانه ليس بين الامريكيين والشرقيين من المنازعات والمطامع السياسية مثل ما بين الاوربيين والشرقيين . وهؤلاء يستغربون مثل هذه المقالة من سياسي أمريكي في جريدة أمريكية شهيرة

بل أقول قد يستغرب مثل هذه المقالة كل من قرأها من أبناء العربية في مصر وسورية بقدر احترامه للأمة الامريكية الجليلة ، لانه لا يستطيع أن يبرئ الكاتب من احدى الخلتين : الجهل أو التعصب الحامل على قول الزور ، فمن من لم يعلم من أهل هذه البلاد أن ما حكم به الكاتب على الاسلام زور وبهتان كتلقيه الاطلاع من النصارى يعلم أن ما نسبه الى مفتي مصر من القول بأن الشريعة الاسلامية لا تحكم بقتل المسلم الذي يقتل النصراني قول باطل لم يقله ولا يمكن أن يقوله مفتي مصر لان جميع الكتب التي يستمد منها نصوص الفتوى مصرحة بان المسلم يقتل بغير المسلم .

جعل الكاتب السياسي العلة الاولى لوجوب عدم رضاء الدول بالخضوع للمحاكم العثمانية هي كونها قائمة على تعاليم القرآن وكون المسلم يحتقر غير المسلم ولا يعترف بمساواته له

ماذا عرف هذا الكاتب من أحكام القرآن في العدل والمساواة ومن اين استنبط حكمه عليه ؟

قال الله تعالى في مسألة الحكم بين اليهود - وكانوا أشد الناس عداوة للنبي (ص) وللمؤمنين من جميع من ناصبوه - (٥:٤٥ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان

الله يحب المقسطين) والقسط هو العدل

وقال تعالى في مسألة الحكم الذي هو فصل الخصام بين الناس كافة من مسلم وغيره (٤ : ٥٧ ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) قال بين الناس ولم يقل بين المسلمين

وقال في العدل العام والشهادة التي هي ركن القضاء (٤: ١٣٤ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ، ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما . فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا) امر بالمبالغة في العدل وشهادة الحق ، ومنع أن يحابي أحد في ذلك نفسه أو والديه أو أحدا من أقاربه أو غنيا لغناه أو فقيرا لفقره ، وأن يتبع هوى نفسه في ترك شيء من العدل أو يحرف فيه أو يعرض عنه. وكل هذه الآيات في سورة واحدة

وقد نهى تعالى عن ترك العدل مع الاعداء ، سواء كان في الاحكام أو الشهادة كما نهى عن ترك العدل مع الاوداء ، فقال (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون) الشنآن البغض والعداوة أي ولا يكسبنكم ويحملنكم بغض قوم وعداوتهم لكم أو عداوتكم لهم على ترك العدل فيهم اذا حكمتم بينهم أو شهدتم في خصام لهم .

وليست هذه الآيات كل ما في القرآن من الامر بالعدل ، بل ثم آيات أخرى كقوله عز وجل « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » وقوله « قل أمر ربي بالقسط » ومثلها ما ورد في الميزان

فليأتنا ذلك السياسي الذي يفر هو وقومه من حكم القرآن بمثل هذا التشديد في الامر بالعدل المطلق والمقيد بالاعداء وتحريم المحاباة فيه – لعلة من العلل – من التوراة أو الانجيل أو كتب الاولين والآخرين . اما نحن فنستطيع أن نأتيه بالنصوص والشواهد على عدم مساواة الافرنج الافريقيين والآسيويين بأنفسهم

وأما المساواة فهي لم توجد على حقيقتها وإطلاقها وعمومها الا في الاسلام ، كما تدل على ذلك النصوص والاعمال ، وتشهد به تواريخ القرون والاجيال

أما النصوص فحسبك منها ماتقدم من الآيات آنفا فانها امرت بالتزام الحق والعدل في الحكم والشهادة والمعاملة مع الموافق في الدين والمخالف ، والغني والفقير ،

والقريب والبعيد ، والمحب الوديد ، والعدو البغيض . وانما يخرج الناس عن صراط المساواة بمحاباة من يمت اليهم بصلة الدين أو لحمة النسب ووشيجة الرحم ، أو رابطة الصداقة والمودة ، أو من يطمعون في غناه أو يرحمونه لفقره ، وحينئذ يظلمون خصم من يحابونه ، ومن الناس من يظلم كل من يخالفهم في دين أو جنس ، أو يبغضونه لسبب ما . وقد أتت الآيات على جميع ذلك

وأما العمل فقد اشتهر عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من أمراء المسلمين من العدل والمساواة مالم يؤثر عن غيرهم . وناهيك بقضية غضب علي المرتضى من عمر الفاروق لانه كناه وسمى خصمه اليهودي ولم يساو بينهما في التسمية كما ساوى بينهما في سائر الامور . واعترف عمر بذلك . ولا تنس مساواة عمر بين الغلام القبطي وولد عمرو بن العاص فاتح مصر وأميرها . فأمثال هذه القضايا لا يجرأ أمريكاني ولا أوربي أن يدعي مثلها لحكومته . كيف ومن قواعد حكومة الولايات المتحدة التي هي من أرقى حكومات الغرب ان المساواة بين الابيض والاسود غير جائزة . بل رأينا بعض محاكمهم في هذه الايام ـ ولا أقول في هذا القرن الذي يضربون المثل بارتقاء البشر فيه ـ تنكر على السوريين حق الجنسية الامريكانية والتشرف بمساواة البيض ، على عراقة السوريين في النسب السامي من الجنس الابيض وكونهم من وطن المسيح عليه السلام ، الذي يعبده الامريكيون ويتخذونه ربا وإلها .

فالشريعة الاسلامية وحدها هي التي ساوت بين جميع البشر في الحقوق ، حتى ان الرسول الاعظم ، صلى الله عليه وآله وسلم ، كان يعد نفسه مساويا لغيره في الحقوق ، وقصة اليهودي الذي جذبه من طوقه لدين له لم يحل أجله مشهورة . وقد طلب من الناس في مرض موته أن يقتص منه من كانت له قبله مظلمة ، فادعى عكاشة بن محصن (رض) أنه (ص) ضربه مرة على عاتقه مكشوفا فكشف له (ص) عاتقه ليضربه كما ضربه !!

وليس للخلفاء في الاسلام امتياز على أحد من الناس في الحقوق المدنية ولا الجزائية ، وكان الموالي والذميون والمعاهدون يتحاكمون مع الخليفة الى القاضي فيساوي بينهم . فان كان العثمانيون قد قالوا في قانونهم الاساسي « ان السلطان مقدس وغير مسؤل » وجعلوه من قبل ذلك لا يحاكم ولا يخاصم فهم إنما أخذوا ذلك عن الاجانب غير المسلمين

واننا نعد من استعلاء الافرنج بقوتهم على ضعفنا بحكمهم بذم كل شيء لنا أو

عندنا ، وان كانوا لم يعرفوا كنهه ولا وقفوا على حقيقته ، كأنهم يرون أن الحق والفضيلة والخير وكل ما يمدح لا يكون الا للاقوياء أصحاب المدافع الكبيرة والذهب الكثير ، بل هذا مذهب معروف صرح به كثير من فلاسفتهم وساستهم ، وهم يجرون عليه في مستعمراتهم .

ولولا اطلاعنا على أقوال العلماء المستقلين والحكماء الراسخين في وصف الاسلام والمسلمين كغوستاف لوبون وجبون واضرابهما لظننا أنه لا يوجد في الافرنج كلهم عارف منصف يقول الحق الذي يعتقده

يقول الكاتب الامريكي ان المسلمين أعطوا الأجانب ما أعطوهم من امتياز الحكم فيما بينهم طوعاً واختيارا لأن الاسلام لايقدر أن يتصور وجود اناس غير مسلمين يستحقون أن يتمتعوا بعدل الاسلام . فكأنه يقول ان المسلمين يريدون بذلك أن يتجاهلوا وجود أحد غير مسلم في الارض !

واننا المعروف من القرآن العظيم أن الله تعالى خير رسوله «ص» في الحكم بين اليهود في قضية عرضوها عليه ، وأمره بأن يحكم بالعدل اذا هو اختار الحكم بينهم في تلك القضية التي كان لهم فيها هوى بيناه في التفسير من عهد قريب. ثم قال (وأن احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع أهواءهم) فقيل هذا ناسخ للتخير وقيل غير ناسخ

فمن هنا أخذ المسلمون أن حكامنا مخيرون في غير المسلمين بين الحكم بينهم و بين السماح لهم بأن يحكموا بشريعتهم فيما بينهم . ولغلبة الحرية الدينية والتسامح في الاسلام واحترام عقائد الناس سمح الخلفاء والملوك لغير المسلمين بأن يتحاكموا الى رؤساء دينهم في الامور الشخصية. وكذا في غيرها احيانا اذا كان خاصا بهم .

فهذه المبالغة في الحرية والتسامح واحترام المخالفين ، كان يجب أن يطري به الأمريكي وغيره الاسلام والمسلمين ، فما كان منه الا أن قلب الحقيقة ، وعكس القضية ، فجعل ما يقتضي الاطراء في المدح ، موجبا للاسراف في الذم والقدح !!

ثم إن الكاتب أخطأ فيما نقله عن شيخ الاسلام في حكومة الاستانة كما أخطأ فيما نقله عن مفتي الديار المصرية ، فهل يوثق بعلمه بالشريعة الاسلامية نفسها و بأحكامها ، وهو لا يوثق بعلمه في الامور الرسمية التي تقع فى عصره وهو لا يحتاج فيها الى علم واسع ، بل يكفي فيها التثبت فى النقل ، واننا نحمل كلامه على الخطأ وسوء الفهم ، وعدم التثبت فى النقل ، ونربأ به عند تعمد الكذب ، لمحض الغلو فى التعصب

الجهل والخطأ أهون من الكذب ، وشر الكذب ما حمل عليه التعصب

واحتقار الامم ، وأقبحه ماصدر ممن يدعي الحرية والانصاف ، ويحتكر لنفسه وقومه فضيلة العدل والمساواة ، ولولا الادب مع الكاتب لاحترام أمته لقلنا انه كذب شر الكذب وأقبحه على الاسلام والمسلمين عامة ، وعلى ناظر العدلية العثماني اذ زعم أنه قال : أنه يستحيل على المسلم أن يتصور المساواة بين المسلم أو النصراني واليهودي ، وعلى مفتي الديار المصرية اذ زعم انه احتج على امتناعه من الافتاء بقتل قاتل بطرس باشا بأن الشريعة لا تحكم باعدام المسلم لقتله نصرانيا ولا تعده مجرما

وليس الخطأ في كلمات أو وقائع اسندت الى بعض الرجال ، بأقبح منه في الشرائع والنظام العام، ومنه قول الكاتب ان نظام العدل في تركية ديني غير خاضع لناظر العدلية ، وان شيخ الاسلام في الاستانة هو القاضي الأكبر الذي لامرد لحكمه ، وانه يرأس مرتين في كل أسبوع محكمة العدل العليا المتصلة بقصره في استانبول، وان له السيطرة على الامة وعلى العلماء والمتصوفة، وعلى رؤساء الكليات الدينية والمحاكم القضائية ، وان جميع القضاة في المحاكم التركية الابتدائية والعالية ينالون منه مناصبهم وهم تحت نفوذ ديني شديد

وليست هذه المزاعم بأغرب من الاستدلال عليها بكون مرتبات من ذكر من القضاة وغيرهم تؤخذ من الاوقاف الاسلامية ، ومن زعم الكاتب ان تلك الاوقاف هي ثلاثة أرباع العقارات المدنية في المملكة العثمانية

شيخ الاسلام ليس قاضيا لمحكمة تسمى محكمة العدل العليا . ولا سيطرة له على الامة ولا على محاكم العدلية المدنية والجنائية ، ولا هو يعين أحدا من قضاة هذه المحاكم ، بل يعين رؤساءها ناظر العدلية، وأعضاؤها ينتخبون انتخابا من الاهالي المسلمين وغير المسلمين، ويأخذون مرتباتهم من خزينة الحكومة لا من الاوقاف الاسلامية . والاوقاف الاسلامية ليست ثلاثة أرباع العقارات ولا ربعها ولا عشرها وليس شيخ الاسلام ناظرا للاوقاف ليكون مسيطرا على من يأخذ مرتبا منها

نعم ان شيخ الاسلام هو الذي يولي القضاة الشرعيين الذين يحكمون بين المسلمين في الامور الشخصية ، وهؤلاء تستأنف أحكامهم وتميز في باب المشيخة الاسلامية، في مجالس لها رؤساء غير شيخ الاسلام، ومرتباتهم كمرتبات قضاة المحاكم المدنية تؤخذ من خزينة الحكومة. وفي باب المشيخة رئيس للمدارس الدينية التي بناها السلاطين في الاستانة وغيرها يسمى وكيل الدرس ، وبالتركية «درس وكيلي» ولهذه المدارس أوقاف خاصة بها تديرها نظارة الاوقاف

ولا حاجة الى تفنيد كلامه في اجارة الاوقاف الاسلامية وعيبه إياها بأن المستأجرين لها لايتركونها إرثا لأولادهم . فإن أجهل الناس في كل أمة وملة يعلمون ان المستأجر لا يكون مالكا حتى يترك ما استأجره إرثا لأولاده

بقي مما يؤبه له كلامه في تعذر إقناع مفسري الشريعة الاسلامية بأن الاحكام تتغير بتغير الأزمان؛ وبان الازمنة تغيرت عما كانت عليه منذ اربعة عشر قرنا ؛ وأن الشريعة الاسلامية وضعت في بلاد العرب لتنطبق على حاجات أبناء البادية - فهذا الكلام لانلومه عليه لانه قلد فيه كثيرا من الاوربيين الذين لايخطر في بال مثله ان كلامهم لايؤخذ على علاته . وهذا التعليق لايتسع لاطالة الكلام في بيان الحق في هذه المسألة ، فنكتفي بكلمة وجيزة نقولها له ولأمثاله وهي:

ان مفسري الشريعة الاسلامية لايحتاجون الى الاقناع بأن الاحكام تتغير بتغير الازمنة فكلهم يعرفون ذلك وطالما قرروه في كتبهم؛ واقدم كلمة يروونها في التصريح بذلك عن إمام في العلم والحكم من اهل العصر الاول ماقاله عمر بن عبد العزيز الذي يعده المسلمون خامس الخلفاء الراشدين في علمه وعدله وهو « يحدث للناس اقضية بحسب ما أحدثوا من الفجور » ومثله ما يحدثونه من غير الفجور أيضا - ويعلمون أيضا أن هذا الزمن مخالف للزمان الذي وجدت فيه الشريعة الاسلامية، ويعلمون ان الشريعة الاسلامية وضعت لتنطبق على حاجات أبناء البادية كما يعلم الكاتب وامثاله -- ويعلمون أيضا مالا يعلمه هو وأمثاله وهو ان هذه الشريعة وضعت لتنطبق على حاجات أهل الحضر في ذلك الزمن وفي كل زمن ومكان أيضا، وكان ينبغي ان يعلم هو وأمثاله انه كان للمسلمين حضارة فاقت حضارة سائر الامم المجاورة لهم في الشرق وفي الغرب كحضارة بغداد والاندلس ، وأن الشريعة الاسلامية كانت منطبقة عليها ولم يكن عندهم شريعة غيرها ، وان عدلها هو الذي جعل الناس يخضعون لها مختارين ولولا ذلك لم يستطع أولئك الشراذم من العرب فتح الشرق والغرب في جيل واحد ؛ فالدين الاسلامي هو الذي أوجد الحضارة والفتوحات بطبيعته لا بقوة سيوف أهله ، ولم تكن الفتوحات الموجدة أو الناشرة له

وقد بين علماء الشريعة أن معنى سعتها وموافقتها لمصالح الناس من بدو وحضر في كل زمان ومكان هو كون قواعدها العامة مبنية على أساس الشورى والعدل والمساواة، واعتبار عرف الناس الحسن في معاملاتهم،ودرء المفاسد وجلب المصالح ودفع الضر والضرار ، وكون أولي الامر ورجال الشورى فيها يجب ان يكونوا من

أهل الاجتهاد القادرين على استنباط الاحكام التي تمس اليها حاجة الناس في سياستهم وأقضيتهم. ولم يقل أحد من أئمة هذه الشريعة مايدعيه هذا الكاتب وأمثاله من ان النبي (ص) وضع أحكاماً تفصيلية لجميع مانحتاج اليه أمته في زمنه — دع سائر الازمنة — وانه يحرم على سائر المسلمين ان يزيدوا فيها شيئا تقتضيه المصلحة. بل صرح بعض الأئمة بان مراعاة المصالح في كل زمان ومكان أصل من أصول هذه الشريعة يتفرع عنه مالا يحصى من الاحكام . وقد شرحنا هذه المسألة وفصلناها غير مرة في تفسير القرآن الحكيم وفي غيره من مباحث المنار

نعم إن حكام المسلمين والمشتغلين بالعلم منهم قصروا منذ قرون فيما يجب عليهم من الاجتهاد في هذه الشريعة ، وجمدوا على بعض الكتب التي ألفها من قبلهم فجنوا بذلك على انفسهم وعلى ملتهم ، وكان من آثار هذا الجمود والجهل ان الجأت بعض حكوماتهم الى الاستمداد من القوانين الاوربية — كما نقل الكاتب عن السفير العثماني في بلاده — بعد أن كان الاوربيون يستمدون من كتب شريعتنا كما فعل نابليون الاول . ولكن نابليون اقتبس من شريعتنا في قانونه ما رآه موافقا لمصلحة امته ، وان حكامنا فانهم صاروا يأخذون من قانونه ومن سائر القوانين الاوربية مايوافق مصالح أمتهم وما يخالفها ، ذلك أن نابليون اقتبس بعقل واجتهاد ، وحكامنا يقلدون الافرنج تقليدا . ومن هذا الجمود نهي بعض المتفقهة عن جعل القتل بالرصاص كالقتل بالسيف أو السكين ، ولولا هذا الجمود لما اضطروا الحكام الجاهلين بالشريعة الى الالتجاء الى قوانين الامم الاخرى ، فهذا شر عواقب جهل رؤسائنا بأصول شريعتنا وتركهم الاجتهاد الواجب فيها ، والأئمة متفقون على اشتراط الاجتهاد في الحكام والمفتين ، ولكن من ينفذ هذا الشرط ؟

ومن التناقض في كلام الكاتب أنه جعل العلة لنفور الاجانب من الخضوع للمحاكم الشرعيه هي كونها تستند في أحكامها الى القرآن المنافية للعدل والمساواة، ثم اعترف بأن العثمانيين أخذوا معظم قوانينهم عن الاوربيين . وليته يعلم انهم لو حكموا بين الاجانب بما يأمر به القرآن لكان خيرا لهم ، لانهم حينئذ يحكمون بعدل كامل يقيمون بالاخلاص سرا وجهرا ، وليست حالهم في القوانين كذلك .

هذا وان الحقائق التي اشرنا اليها يعرفها كثير من الأوربيين ، ويصرح بها بعض المستقلين. وقد نقلنا من عهد غير بعيد قول لورد كتشنر لعضو من أعضاء مجلس الامة العثماني ان هذه القوانين لاتوافق حال العثمانيين كما توافق حال من أخذوها عنهم ، وقوله

أن عندكم شريعة عادلة تنطبق على مصالحكم فخير لكم ان تعملوا بها •

وقد كان لورد كرومر كتب في آخر تقرير له عن مصر كلمة في الشريعة الاسلامية في معنى كلمة الكاتب الامريكي من حيث موافقته هذا الزمان وعدمه ، فكتبت اليه كتابا قلت له فيه اذا كان يعني بما كتبه الدين لاسلامي الذي هو القرآن والسنة فأنا مستعد لأن أبين له ان معظم ما جاء فيهما من الاحكام القضائية والسياسية قواعد عامة توافق مصلحة البشر في كل زمان ومكان لان اساسها درء المفاسد وجلب المصالح بحكم الشورى . وان كان يعني كتب الفقه الاسلامي فتلك من وضع الناس فيها كثير من آرائهم التي ينتقدها عليهم غيرهم

فأجابني عن ذلك بانه يعني بما كتبه مجموعة القوانين الاسلامية التي تسمى الفقه قال « ولم أعن الدين الاسلامي نفسه ، ولذلك قلت في هذا التقرير وفي غيره بوجوب مساعدة الحزب الاسلامي الذي يطلب الاصلاح ويسير مع المدنية من غير أن يمس اصول الدين »

ونص كتابي وكتابه في ذلك مطبوعان في ص ٢٣١ و ٢٣٢ من مجلد المنار العاشر

أكتفي بهذه العجالة في الرد على الكاتب الامريكي ، وكان لي ان اوجه كلمة عتاب الى رصيفنا صاحب جريدة الهدى الذي ترجم هذه المقالة وصدرها بمقدمة تدل على اقرار كاتبها على ما كتبه ، ولم يعقب عليه بكلمة انكار . ولكنني استبدل بالعتاب الرغبة الى انصافه بان ينشر هذا الرد في جريدته وينبه جريدة الصين الى ما يجب عليها من ترجمته ونشره لتنسخ ذلك الباطل بالحق اليقين ، وحيا الله الانصاف والمنصفين ؟

تاريخ اعلان الدول الحرب

ذكرنا من قبل اعلان اكثر الدول للحرب والآن نعيده مستوفى فنقول :
أعلنت النمسة الحرب على الصرب في ٢٨ يوليو سنة ١٩١٤ . وأعلنتها ألمانية على روسية في ١ أغسطس وفي ٤ أغسطس أعلنتها على البلجيك وفرنسة . وفي منتصف ليل ٥ أغسطس أعلنت انكلترة الحرب على ألمانية . وفي ٦ أغسطس أعلنتها النمسة على روسية . وفي ٧ أغسطس أعلنها الجبل الاسود على النمسة . وفي ١٠ منه أعلنتها فرنسة على النمسة . وفي ١٢ منه أعلنتها انكلترة على النمسة . وفي ١٧ منه أعلنها الجبل الاسود على ألمانية . وفي ٢٣ منه أعلنتها اليابان على ألمانية . وفي ٢٦ منه أعلنتها النمسة على اليابان

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب



يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

مصر سلخ ذي الحجة ١٣٣٢ هـ ق أنخريف الثالث ١٢٩٣ هـ ش ١٨ نوفمبر ١٩١٤

تفسير القرآن الحكيم

(على الطريقة التي كان يلقيها في الازهر شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه)

(٩٢) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَـٰنَ، فَكَفَّـٰرَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ، ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَـٰنَكُمْ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

وقرئ

وأقول التشديد قراءة الجمهور ... بن عباس قال لما نزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا عاصم . وقرأ ابن عامر ... » في القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم على أنفسهم في المصحف واحدة ...

قالوا: يارسول الله! كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فأنزل الله تعالى «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم» وأخرج أبو الشيخ عن يعلى بن مسلم قال سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية . . . قل اقرأ ما قبلها فقرأت «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم — الى قوله — لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم» قال: اللغو أن تحرم هذا الذي أحل الله لك وأشباهه، تكفر عن يمينك ولا تحرمه، فهذا اللغو الذي لا يؤاخذكم به، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان، فان مت عليه أوخذت به. وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير «لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم» قال هو الرجل يحلف على الحلال أن يحرمه فقال الله «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم» أن تتركه وتكفر عن يمينك، «ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان» قال: ما أقمت عليه. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم» قل هما الرجلان يتبايعان يقول أحدهما: والله لا أبيعك بكذا. — ويقول الآخر: والله لا أشتريه بكذا. وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن ابراهيم قال: اللغو أن يصل الرجل كلامه بالحلف: والله لتجيئن، والله لتأكلن، والله لتشربن — ونحو هذا، لا يريد به يمينا ولا يتعمد به حلفا، فهو لغو اليمين ليس له كفارة

أورد ذلك السيوطي في الدر المنثور. وأصح منه وأظهر في تفسيره ما أورده في تفسير هذه الجملة في سورة البقرة عن مالك في الموطإ والشافعي في الأم والبخاري ومسلم في صحيحيهما والبيهقي في سننه وأشهر مصنفي التفسير المأثور من حديث عائشة قالت أنزلت هذه الآية «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم» في قول الرجل · لا والله و—بلى والله و— كلاوالله . زاد ابن جرير: يصل بها كلامه. وفي رواية له عنها فرنسة: هو القوم يتدارءون في الامر يقول هذا: لا والله ة . وفي ١٧ منه أعلنها الجبل يتدارءون في الامر لا تعقد عليه قلوبهم . وفي هذا المعنى نة . وفي ٢٦ منه أعلنتها من علماء الصحابة كابن عباس وابن عمر

الصحيح الذي تشهد له اللغة في تفسير ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ هو قول عائشة وعليه جرينا في تفسير آية البقرة. ولتلخص الاقوال المأثورة في اللغو الحافظ ابن كثير وبدأ بالقول الراجح وهو قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله، وبلى والله. (قال) وهذا مذهب الشافعي ، وقيل هو في الهزل وقيل في المعصية ، وقيل على غلبة الظن — وهو قول أبي حنيفة وأحمد — وقيل اليمين في الغضب ، وقيل في النسيان ، وقيل هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك . واستدلوا بقوله (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم)

قال : والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان ﴾ أي بما صممتم عليه منها وقصدتموه .اه فهو قد صحح ما صححه بكونه هو الذي تدل عليه الفاظ الآية اذا تركت الروايات المختلفة ونظر الى المتبادر من العبارة ، وهو مما يجب التعويل عليه في كل ما اختلفوا فيه

فاللغو في الاقوال كالعبث في الافعال وهو ما لا يكون بقصد من القائل أو الفاعل الى غرض له منه . قال الراغب . اللغو من الكلام ما لا يعتد به ، وهو الذي يورد لاعن روية وفكر ، فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور — الى أن قال — ومنه اللغو في الايمان أي مالا عقد عليه ، وذلك ما يجري وصلا للكلام بضرب من العادة. ثم ذكر عبارة الآية وبيت الفرزدق الآتي

وقال في مادة [عقد] : العقد الجمع بين أطراف الشيء ، و يستعمل في الاجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء ، ثم يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما ، فيقال عاقدته وعقدته ، وتعاقدنا وعقدت يمينه . قال (عاقدت أيمانكم) وقرئ (عقدت أيمانكم) وقال (بما عقدتم الايمان) وقرئ (بما عقّدتم الايمان)اه وأقول التشديد قراءة الجمهور والتخفيف قراءة حمزة و الكسائي وابن عياش عن عاصم . وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان (عاقدتم) من المعاقدة ، وكتابة الكل في المصحف واحدة . . هكذا « عقدتم » بدون ألف .

وما في قوله « بما عقدتم » مصدرية ، قال الزمخشري : بتعقيدكم الايمان وهو توثيقها بالقصد والنية ، وروي أن الحسن رضي الله عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال: يا أبا سعيد دعني أجب عنك فقال :

ولست بمأخوذ بقول تقوله   اذا لم تعمّد عاقدات العزائم

ثم أقول ان مافسر به الراغب العقد لم يوضحه، فليس كل جمع بين طرفين عقدا ، وقد يكون العقد في غير الاطراف . فهو كما قال في لسان العرب نقيض الحل، فعقد الايمان توكيدها بالقصد والغرض الصحيح ، وتعقيدها المبالغة في توكيدها ، فهو كعقد الشيء لشده أو ما يعقد على الشيء من خيط أو حبل ليحفظه، وقد قال تعالى في سورة النحل (١٦ : ٩١ وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها — الى ان قال — ٩٢ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم)فاستعمل في الايمان النقض الذي هو ضد الإبرام، وهما في الاصل للخيوط والحبال ، وكذلك النكث الذي هو ضد الفتل فيها ، وكلاهما قريب من الحلّ الذي هو ضد العقد . فمجموع الآيات في المائدة والبقرة والنحل يدل على أن المؤاخذة في الايمان انما تكون في المؤكد الموثق منها بالقصد الصحيح والنية كما قال في سورة البقرة في مقابلة نفي المؤاخذة باللغو (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) وذلك بأن يحلّ اليمين و ينقضها بتعمد الحنث بعد توكيدها بما يشبه العقد والإبرام . وكثيرا ما سمعت العوام في بلدنا يقولون في الحلف « والله بكسر الهاء وعقد اليمين ... » للإعلام بأنها يمين متعمدة مقصودة وليست لغوا يجري على اللسان بمقتضى العادة، وهم لا يحركون به الهاء بل ينطقون بها ساكنة . فهذه هي اليمين التي يأثم من يحنث بها و يحتاج الى الكفارة وقد بين الله ذلك بقوله :

﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾ الكفارة صفة مبالغة من الكفر وهو الستر والتغطية. ثم صارت في اصطلاح الشرع اسما لاعمال تكفر بعض الذنوب والمؤاخذات أي تغطيها وتخفيها حتى

لا يكون لها أثر يؤاخذ به في الدنيا ولا في الآخرة، فالذي يكفر نكث اليمين ونقضه بالحنث به أحد هذه المبرات الثلاثة على التخيير. وأدناها إطعام عشرة مساكين وجبة واحدة لكل منهم من غالب الطعام الذي تطعمون به أهل بيوتكم لا من أدناه الذي تتقشفون به أحيانا، ولا من أعلاه الذي تتوسعون به أحيانا كطعام العيد وما تكرمون به من تدعون أو تضيفون من كرام الناس ككثرة الالوان وما يتبعها من العُقبة (الحلوى والفاكهة) فمن كان أكثر طعام أهله خبز البر وأكثر ادامه اللحم بالخضر أو دونه فلا يجزئه مادونه مما يأكونه قليلا في بعض الايام اذا طسيت أنفسهم (أي قرفت من كثرة أكل الدسم) ليعود اليها نشاطها. ولكن الأعلى يجزئ على كل حال لأنه من الوسط وزيادة، وربما كان هو المراد بالأوسط، أي من نوع يكون من أمثل طعام أهليكم . وقد روي مايدل على هذا عن عطاء فانه فسر الاوسط بالأمثل . وفسره ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة بالأعدل، وهو مابيناه أولا. وعن ابن عباس في رواية أخرى انه قال: من عسرهم ويسرهم. وعن ابن عمر انه قال في تفسيره : الخبز واللحم والخبز واللبن والخبز والزيت والخبز والخل. وفي رواية أخرى عنه نحو ما تقدم الا أنه ذكر بدل الخل التمر ثم قال: ومن أفضل ماتطعمون أهليكم الخبز واللحم. ومن الناس من جعل الاوسط بالنسبة الى طعام البلد لا طعام الافراد الذين تجب عليهم الكفارة ، ففي رواية عن ابن عباس قال : كان الرجل يقوت أهله قوت دون وبعضهم قوتا فيه سعة فقال الله تعالى « من أوسط ماتطعمون أهليكم » أي الخبز والزيت . وجعل بعضهم الاوسط في القلة والكثرة . والاول أظهر ، وعلى هذا يكون الثريد بالمرق وقليل من اللحم ، أو الخبز مع الملوخية أو الرز أو العدس من أوسط الطعام في مصر والشام لهذا العهد . وكان التمر أوسط طعام أهل المدينة في العصر الاول وقد روي ان النبي (ص) كفر بصاع من تمر وأمر الناس به، رواه ابن ماجه ولكنه ضعيف وجمهور السلف على ان العدد واجب، واجاز ابو حنيفة اطعام مسكين واحد عشرة أيام

وأما الكسوة فهي اللباس وهي فوق الاطعام ودون العتق ، ولم يقل فيها مما

تكسون أهليكم أو من أوسطه ، فيجزئ اذاً كل ما يسمى كسوة ، وأدناه ما يلبسه المساكين عادة وهو المتبادر من الآية . والظاهر المختار عندي أنه يختلف باختلاف البلاد والازمنة كالطعام، فيجزئ في مصر القميص السابغ الذي يسمونه (الجلابية) مع السراويل أو بدونه ، فهو كالازار والرداء أو العباءة في العصر الاول. وفي العباءة حديث مرفوع رواه الطبراني عن عائشة وابن مردويه عنها وعن حذيفة ولم يصح سندهما وانما معناه صحيح . ولا يجزئ ما يوضع على الرأس من قلنسوة أو كمة أو طربوش أو عمامة ، ولا ما يلبس في الرجلين من الاحذية والجوارب ، ولا نحو منديل أو منشفة. وذهب بعض الفقهاء الى إجزاء كل ما تقول العرب فيه كساه كذا ، أو ما يطلق عليه لفظ الكسوة، وهو مذهب الشافعي . وروى ابن ابي حاتم عن محمد بن الزبير عن أبيه قال: سألت عمران بن الحصين (رض) عن قوله (أو كسوتهم) قال : لو ان وفداً قدموا على أميركم وكساهم قلنسوة قلنسوة قلتم : قد كسوا . ولكن هذا أثر واه جداً لان محمد بن الزبير متروك ليس بشيء . وفيه بحث لفظي وهو أن إضافة الكسوة الى المساكين كاضافة الإطعام اليهم ، فان كان يكفي في الإطعام تمرة أو تفاحة لأنه يقال لغة : أطعمه تمرة أو تفاحة ـ يكفي ما ذكر من الكسوة، والاول باطل بالاجماع والثاني مثله وان اختلف فيه، وقد اختلف في لفظ الكسوة هل هو مصدر كالإطعام أو اسم لما يلبس، والمراد لا يختلف. ثم ان هذه الثلاثة التي خير الله الناس فيها مرتبة على طريقة الترقي ، فالاطعام أدناها والكسوة أوسطها والاعتاق أعلاها ـ كما قلنا ـ وهو معلوم بالبداهة. فلو أريد من الكسوة ما يشتمل القلنسوة والعمامة لم يكن ذلك من الترقي ولم يظهر لجعل الكسوة بعد الاطعام وقبل الاعتاق نكتة

وروي عن الحسن وابن سيرين ان الواجب ثوبان ثوبان . وروى الثاني عن أبي موسى أنه فعله . وعن سعيد بن المسيب عمامة يلف بها رأسه وعباءة يلتحف بها، وعن الامام أبي جعفر الباقر وعطاء وطاوس وابراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وأبي مالك والحسن في رواية عنه ثوب ثوب. والمراد به كما صرح به ابراهيم النخعي

ثوب جامع كالملحفة والرداء، وكان لا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوها جامعا. وعن مجاهد أعلاه ثوب وأدناه ما شئت . وروى العوفي عن ابن عباس : عباءة لكل مسكين أو شملة . وعن مالك وأحمد : يدفع لكل مسكين ما يصح أن يصلي فيه ان كان رجلا أو امرأة كل بحسبه . وهذا يوافق ما اخترناه لأن الناس يصلون عادة بثيابهم التي يلقون بها الناس ، وكذا ما قبله الا قول مجاهد

وأما تحرير الرقبة - وهو اعلى الثلاثة - فمعناه اعتاق الرقيق، فالتحرير جعل القنّ حرا. والرقبة في الاصل العضو الذي بين الرأس والبدن، ويعبر بها عن جملة الانسان، كما يعبر بلفظ الرأس عن الجملة - وغلب هذا في الانعام - وبلفظ الظهر عن المركوب. وغلب استعمال الرقبة في المملوك والاسير، ويستعمل في الشرع في مقام التحرير (العتق) وفك الاسرى ، كقوله تعالى (فك رقبة) والذي يسبق الى فهمي أن سبب التعبير عن المملوك والاسير بكلمة الرقبة هو ما فيها من الدلالة على معنى الخضوع ، فان المملوك يكون بين يدي السيد منكس الرأس عادة، وانما تنكيسه بحركة الرقبة ، وكذلك الاسير مع من يأسره، وكانوا يضعون الاغلال في أعناق الاسرى. واذا أمر السيد عبده بأمر يحني رقبته إذعانا لأمره . ويقال في مقابل ذلك : فلان لا يرفع بهذا الامر رأسا، أو لا يرفع زيد رأسه أمام عمرو . ولو أطلق لفظ الرقبة على الحر المطلق لقلت إن وجهه كون قطع الرقبة يزيل الحياة فعبر بها عن الانسان لانه يزول بقطعها . وعلل الاستعمال في لسان العرب بشرف الرقبة وهو غير ظاهر .

وقد اختلف الفقهاء في الرقبة المجزئة في كفارة اليمين هل يشترط أن تكون مؤمنة كما يشترط ذلك في كفارة القتل أم لا، فقال أبو حنيفة وأبو ثور وابن المنذر : لا يشترط، فيجزئ عتق الكافرة عملا باطلاق الآية. وقال الجمهور ومنهم الاوزاعي ومالك والشافعي وأحمد واسحق يشترط ذلك حملا للمطلق هنا على المقيد في كفارة القتل والظهار اذ قال «فتحرير رقبة مؤمنة» كما يحمل المطلق في قوله تعالى (وأشهدوا اذا تبايعتم) على المقيد في قوله (واشهدوا ذوي عدل منكم) واحتجوا أيضا بماورد

في فضل عتق الرقبة المؤمنة من الاحاديث الصحيحة ، و بأنها عبادة يتقرب الى الله بها، فوجب ان تكون خاصة بأهل عبادته من المؤمنين كال الزكاة وذبائح النسك ، ولهذا المعنى اشترط من اشترط ان يكون العشرة المساكين من المسلمين ومنهم مالك والشافعي . نعم ان الاسلام دين الرحمة العامة ، والصدقة فيه حتى على الكفار غير المحاربين مستحبة ، ولكن فرقا بين الصدقة المطلقة ، و بين العبادات المحدودة المقيدة. فتكفير الذنب انما يرجى بدفي العتق من اعانة العتيق على طاعته تعالى. ومن قال باجزاء عتق الكافرة لا ينكر الاحتياط بتقديم المجمع عليه المتيقن إجزاؤه على المظنون المختلف فيه ان وجدا ، ولكنه يرى ان لا يصوم اذا استطاع عتق رقبة كافرة

﴿ فمن لم يستطع فصيام ثلاثة أيام ﴾ أي فمن لم يستطع اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة فعليه صيام ثلاثة أيام ، وهي أدنى ما يكفر به عن يمينه، فان عجز عنها لمرض نوى الصيام عند القدرة ، فان لم يقدر رجي له عفو الله بحسن نيته ، وصحة عزيمته. والظاهر ان المستطيع من يجد ذلك فاضلا عن نفقته ونفقة من يعول. وعن قتادة انه من عنده خمسون درهما، وعن ابراهيم النخعي من عنده عشرون درهما ، وعن الحسن من عنده درهمان، واشترط الحنفية والحنابلة صوم الثلاثة الايام متتابعة لقراءة شاذة في الآية، وأجاز غيرهم التفرق لان القراءة الشاذة ليست قرآنا ، ولم تصح هنا حديثا فيقال انها كتفسير من النبي (ص) للآية

﴿ ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم ﴾ بالله أو بأحد أسمائه وصفاته فحنثتم أو أوأردتم الحنث. وقيل « اذا » هنا لمجرد الظرفية ليس فيها معنى الشرط فلا يقدر لها جواب. وتقديم الكفارة على الحنث جائز وسيأتي دليله من السنة

﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ فلا تبذلوها في كل أمر ، ولا تكثروا من الايمان الصادقة فضلا عن الايمان الكاذبة، وهو وجه في قوله تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) وتقدم تفسيره في سورة البقرة — واذا حلفتم فلا تنسوا ماحلفتم عليه، ولا تحنثوا فيه الا لضرورة عارضة أو مصلحة راجحة ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾

أي مثل هذا البيان البديع وعلى نحوه يبين الله لكم آياته واعلام دينه ليعدكم ويؤهلكم بذلك الى شكر نعمه المادية والمعنوية على الوجه الذي يحبه و يرضاه ، ويكون سببا للمزيد عنده

(مباحث في الأيمان)

﴿ ١ — لايجوز في الاسلام الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته ﴾

قال (ص) « من كان حالفا فلا يحلف الا بالله » رواه الشيخان في صحيحيهما من حديث ابن عمر . ورويا عنه أيضا أن النبي (ص) سمع عمر وهو يحلف بأبيه فقال « ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وروى أحمد والنسائي وصححه وابن ماجه عن قتيلة بنت صيفي أن يهوديا أتى النبي (ص) فقال انكم تندّدون (أي تتخذون لله أندادا) وانكم تشركون — تقولون : ماشاء الله وشئت ، وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي (ص) اذا ارادوا يحلفوا أن يقولوا ورب الكعبة ، و يقول أحدهم : ما شاء الله ثم شئت . أي لبيان أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب ، وكان ذلك من عادة بعض الناس في الخطاب ، وليس المراد انه كان مشروعا ثم نهي عنه لقول اليهودي

وروى أبو داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عمر مرفوعا « من حلف بغير الله فقد كفر » ورواه احمد بلفظ : فقد أشرك . وروي بهما . وروى احمد والبخاري وأصحاب السنن عن ابن عمر قال : كان أكثر مايحلف به النبي (ص) يحلف « لا ومقلب القلوب » وثبت في الصحيحين الحلف بعزة الله تعالى . فاذا لافرق بين صفات الذات وصفات الافعال .

وحكى الحافظ ابن عبد البر الاجماع على عدم جواز الحلف بغير الله تعالى . قالوا ومراده به مايشمل القول بالكراهة، اذ اختلف الفقهاء في حكمه فقيل حرام وقيل مكروه تحريما وقيل تنزيها . وفصل بعضهم ففرق بين من يحلف بالشيء معظما له كتعظيم الله تعالى أو دون تعظيمه ، و بين من يأتي بصيغة القسم لتأكيد الكلام على أسلوب العرب ، فالاول هو الذي يصح ان يحمل عليه حديث « فقد كفر »

كالذين يحلفون بمن يعتقدون عظمتهم من الصالحين ويلتزمون البر بقسمهم بهم ويخافون عاقبة الحنث . ومن الناس من يحلف بالله كاذبا ولا يحلف بالبدوي ولا بالمتبولي وأمثالهما كاذبا . والثاني حرام ، والثالث منه المكروه وهو مافيه شبهة تعظيم ديني ومنه المباح وهو ماليس فيه ذلك . وقد سئلنا عن حكم الحلف بغير الله فأفتينا بما نصه (ص ٨٥٨ من مجلد المنار السادس عشر)

صح في الاحاديث المتفق عليها ان النبي (ص) نهى عن الحلف بغير الله. ونقل الحافظ ابن عبد البر الاجماع على عدم جوازه قال بعضهم : أراد بعدم الجواز مايشمل التحريم والكراهة فان بعض العلماء قال ان النهي للتحريم وبعضهم قال انه للكراهة. وبعضهم فصل فقالوا: اذا تضمن الحلف تعظيم المحلوف به كما يعظم الله تعالى كان حراما والا كان مكروهاً . أقول وكان الاظهر أن يقال ان المحرم أن يحلف بغير الله تعالى حلفاً يلتزم به فعل ماحلف عليه والبر به ، لأن الشرع جعل هذا الالتزام خاصاً بالحلف به أي بأسمائه وصفاته ، فمن خالفه كان شارعا لشيء لم يأذن به الله . وبهذا يفرق بين اليمين الحقيقي وبين مايجئ بصيغة القسم من تأكيد الكلام وهو من أساليب اللغة . وقد قالوا بمثل هذه التفرقة في الجواب عن قول النبي (ص) للاعرابي « أفلح وأبيه ان صدق » فقد ذكروا له عدة أجوبة منها نحو ماذكرناه ، قال البيهقي ان ذلك كان يقع من العرب ويجري على ألسنتهم من دون قصد للقسم ، والنهي انما ورد في حق من قصد حقيقة الحلف . قال النووي في هذا الجواب: انه هو الجواب المرضي. وأجاب بعضهم بقوله ان القسم كان يجري في كلامهم على وجهين للتعظيم وللتأكيد والنهي انما وقع عن الاول. وأقول ان هذا عندي بمعنى قول البيهقي ، وقيل انه نسخ، وقيل انه خصوصية للنبي (ص) وقد ردوهما . والظاهر ان ما كان من حلف قريش بآبائها كان يقصد به التعظيم والتزام ما حلف عليه ، ولذلك كان من أسباب النهي ، والا فلأنهم مشركون غالبا

روى أحمد والشيخان في صحيحهما عن ابن عمر أن النبي (ص) سمع عمر وهو يحلف بأبيه فقال « ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » وفي لفظ « من كان حالفا فلا يحلف الا بالله — فكانت

قريش تحلف بآبائها فقال - لا تحلفوا بآبائكم » رواه مسلم والنسائي . وروى الشيخان عنه أيضا « من كان حالفا فلا يحلف الا بالله » رفعه الى النبي (ص) وهو حصر ، وفي معناه حديث أبي هريرة عند أبي داود والنسائي وابن حبان والبيهقي مرفوعا « لا تحلفوا الا بالله ولا تحلفوا الا وأنتم صادقون »

فهذه الاحاديث الصحيحة ولا سيما ما ورد بصيغة الحصر منها صريحة في حظر الحلف بغير الله تعالى ويدخل النبي صلى الله عليه وسلم في عموم « غير الله تعالى » والكعبة وسائر ما هو معظم شرعا تعظيما يليق به، ولا يجوز أن يعظم شيء كما يعظم الله عز وجل، ولا سيما التعظيم الذي يترتب عليه أحكام شرعية ، ولقد كان غلو الناس في أنبيائهم والصالحين منهم سببا لهدم الدين من أساسه واستبدال الوثنية به . ونسأل الله الاعتدال في جميع الاقوال والافعال اهـ

﴿ ٢ - جواز الحنث للمصلحة الراجحة والتكفير قبله ﴾

روى احمد والشيخان في صحيحيهما عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله (ص) « اذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك » - وفي لفظ - « فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير » وفي لفظ عند ابي داود والنسائي وصححه الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام « اذا حلفت على يمين فكفر عن يمينك ثم ائت الذي هو خير » وروى أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه عن عدي ابن حاتم ، واحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة ما هو بمعنى حديث عبد الرحمن بن سمرة ، وفي بعض رواياتهم تقديم الأمر بالكفارة وفي بعضها تأخيره ، فدل ذلك على جواز الامرين . ورواية أبي داود والنسائي « فكفر عن يمينك ثم ائت الذي هو خير » نص في جواز التأخير بل ظاهرها وجوبه ، قال بعضهم لولا الاجماع المنقول على جواز تأخير الكفارة لتعين القول بوجوبه عملا بظاهر هذا الحديث

ومن أراد الحنث اختيارا لما هو خير مما حلف عليه أو مطلقا وقدم الكفارة كان بشروعه في الحنث غير شارع في إثم لأنه بتقديم الكفارة عنه صار مباحا له . ومن قدم الحنث كان شارعا في معصية وقد يموت قبل ان يتمكن من الكفارة ،

ولعل هذه هي حكمة ارشاد الحديث الى تقديم الكفارة ، وبهذه الحكمة تبطل الفلسفة المتكلفة التي تعلل بها مانعو التقديم

وينقسم الحلف باعتبار المحلوف عليه الى أقسام (١) ان يحلف على فعل واجب أو ترك حرام ، فهذا تأكيد لما كلفه الله إياه فيحرم الحنث ويكون إثمه مضاعفا .

(٢) ان يحلف على ترك واجب أو فعل محرم، فهذا يجب عليه الحنث. لان يمينه معصية ، ومنه الحلف على ايذاء الوالدين وعقوقهما أو منع ذي حق حقه الواجب له

(٣) أن يحلف على فعل مندوب أو ترك مكروه ، فهذا طاعة فيندب له الوفاء ويكره الحنث. كذا قال بعضهم والظاهر وجوب الوفاء كما قالوا في النذر

(٤) ان يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه ، فيستحب له الحنث ويكره له التمادي والاستمرار

(٥) ان يحلف على ترك مباح وقد اختلفوا فيه. قال الشوكاني فان كان يتجاذبه رجحان الفعل أو الترك كما لو حلف لا يأكل طيبا ولا يلبس ناعما ففيه عند الشافعية خلاف ، وقال ابن الصباغ — ورجحه المتأخرون : ان ذلك يختلف باختلاف الاحوال. وان كان مستوي الطرفين فالاصح ان التمادي أولى (أي من الحنث) لانه قال أي في الحديث السابق « فليأت الذي هو خير » الخ اه

أقول وقد غفلوا عن نهي القرآن عن تحريم الطيبات مطلقا ، وان آية كفارة الايمان وردت في هذا السياق ، والظاهر أن الحنث واجب اذا حلف على ترك جنس من المباح كالطيب من الطعام ، دون ما اذا حلف على ترك طعام معين كالطعام الذي في هذه الصحفة مثلا، فان الاول من قبيل التشريع بتحريم ما أحل الله كما فعلت الجاهلية في تحريم بعض الطيبات، وكفر بنعم الله. والثاني أمر عارض لا يشبه التشريع فان كان في الحنث فائدة كمجاملة الضيف أو إدخال السرور على الاهل فالظاهر استحباب الحنث كما فعل عبدالله بن رواحة في تحريمه الطعام ثم أكله منه لأجل الضيف كما تقدم في تفسير الآية السابقة . وقد عاتب الله تعالى نبيه على تحريم ما أحل له في واقعة معلومة وامتن عليه وعلى المؤمنين بأنه فرض لهم تحلة أيمانهم كما هو مبين في أول سورة التحريم . وكل ما يدل على تحريم الحلال يسمى يمينا ومثله

النذر الذي يلتزم به فعل شيء أو تركه .

﴿ ٣ – أقسام الايمان بحسب صيغتها وأحكامها ﴾

راجعت بعد كتابة ماتقدم فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية فرأيت فيها مباحث وقواعد في الايمان مفصلة أحسن تفصيل في عدة مواضع . ومن أخصرها قوله ـ وهي المسألة الخامسة عشرة من الجزء الثاني (ص ٨٥) ـ :

« قال شيخ الاسلام: اذا حلف الرجل يميناً من الايمان فالايمان ثلاثة أقسام (أحدها) ماليس من أيمان المسلمين وهو الحلف بالمخلوقات كالكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء وتربتهم ونحو ذلك ، فهذه يمين غير منعقدة ولا كفارة فيها باتفاق العلماء بل هي منهي عنها باتفاق أهل العلم ، والنهي نهي تحريم في أصح قوليهم * ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» ـ وقال ـ ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . وفي السنن عنه أنه قال «من حلف بغير الله فقد أشرك »

(والثاني) اليمين بالله تعالى كقوله: والله لافعلن. فهذه يمين منعقدة فيها الكفارة اذا حنث فيها باتفاق المسلمين

وأيمان المسلمين التي هي في معنى الحلف بالله مقصود الحالف بها تعظيم الخالق لا الحلف بالمخلوقات كالحلف بالنذر والحرام والطلاق والعتاق كقوله: ان فعلت كذا فعليّ صيام شهر أو الحج الى بيت الله، أو : الحل عليّ حرام لاأفعل كذا، أو إن فعلت كذا فكل ما أملكه حرام، أو الطلاق يلزمني لأفعلن كذا أو لا أفعله، أو إن فعلته فنسائي طوالق وعبيدي أحرار وكل ما أملكه صدقة ونحو ذلك، فهذه الايمان للعلماء فيها ثلاثة أقوال – قيل اذا حنث لزمه ماعلقه وحلف به — وقيل لايلزمه شيء — وقيل يلزمه كفارة يمين . ومنهم من قال الحلف بالنذر يجزئه فيه الكفارة، والحلف بالطلاق والعتاق يلزمه ماحلف به

وأظهر الاقوال ـ وهو القول الموافق للاقوال الثابتة عن الصحابة وعليه يدل الكتاب والسنة والاعتبار ـ أنه يجزئه كفارة يمين في جميع أيمان المسلمين كما قال الله تعالى (ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم) وقال تعالى (قد فرض الله لكم تحلة

أيمانكم) وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه » فاذا قال: الحل علي حرام لا أفعل كذا، والطلاق يلزمني لا أفعل كذا، أو ان فعلت كذا فعلي الحج ومالي صدقة، أجزأه في ذلك كفارة يمين، فان كفر كفارة الظهار فهو أحسن،

وكفارة اليمين يخير فيها بين العتق أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم. واذا أطعمهم أطعم كل واحد جراية من الجرايات المعروفة في بلده مثل أن يطعم ثمان أواق أو تسع أواق بالشامي ويطعم مع ذلك إدامها كما جرت عادة أهل الشام في إعطاء الجرايات خبزا وإداما. واذا كفر يمينه لم يقع به الطلاق. وأما اذا قصد ايقاع الطلاق على الوجه الشرعي مثل أن ينجز الطلاق فيطلقها واحدة في طهر لم يصبها فيه فهذا يقع به الطلاق باتفاق العلماء، وكذلك اذا علق الطلاق بصفة يقصد ايقاع الطلاق عندها، مثل أن يكون مريدا للطلاق اذا فعلت أمرا من الأمور فيقول لها: ان فعلته فأنت طالق. وقصده أن يطلقها اذا فعلته، فهذا مطلق يقع به الطلاق عند السلف وجماهير الخلف، بخلاف من قصده أن ينهاها ويزجرها باليمين ولو فعلت ذلك الذي يكرهه لم يرد (لعله لم يرد) أن يطلقها بل هو مريد لها وان فعلته، لكنه قصد اليمين لمنعها من الفعل لا مريدا أن يقع الطلاق ان فعلته، فهذا حالف لا يقع به الطلاق في أظهر قولي العلماء من السلف والخلف بل يجزئه كفارة يمين كما تقدم اهـ

﴿ مدارك الفقهاء في مقدار الكفارة من الطعام ﴾

هذه المسألة مبسوطة في المسألة الثالثة عشرة من الجزء الثاني من فتاوى ابن تيمية. وملخصها أن بعض العلماء جعل مقدار ما يطعم كل مسكين مقدرا بالشرع وبعضهم جعله مقدرا بالعرف. واختلف الذين رأوا انه يقدر بالشرع فقال بعضهم، ومنهم أبو حنيفة: يطعم كل مسكين صاعا من تمر أو صاعا من شعير أو نصف صاع من بر. وقال بعضهم ومنهم أحمد يطعم كل واحد نصف صاع من تمر أو شعير أو ربع صاع من بر، وقال بعضهم ومنهم الشافعي يكفي لكل مسكين مد واحد من أي نوع من هذه الأنواع. قيل والصاع أربعة أمداد (والمد حفنة من كفي رجل معتدل) فهو على هذا يوجب نصف ما أوجبه أحمد وهذا يوجب نصف ما أوجبه

ابو حنيفة ، وسبب ذلك انه لم يرد نص شرعي في تحديد ذلك كما علمت ، وانما استنبط من الآثار والعمل المروي عن بعض الصحابة والتابعين

(قال) «والقول الثاني ان ذلك مقدر بالعرف لا بالشرع فيطعم أهل كل بلد من أوسط مايطعمون أهليهم قدرا ونوعا . وهذا معنى قول اسماعيل بن اسحق كان مالك يرى في كفارة اليمين ان المد يجزئ في المدينة . قال مالك : وأما البلدان فان لهم عيشا غير عيشنا فأرى أن يكفروا بالوسط من عيشهم لقوله تعالى (من أوسط ماتطعمون أهليكم) وهو مذهب داود وأصحابه مطلقا .

« والمنقول عن أكثر الصحابة والتابعين هذا القول ، ولهذا كانوا يقولون الاوسط : خبز ولبن ، خبز وسمن ، خبز وتمر ، والاعلى خبز ولحم . وقد بسطنا الآثار عنهم في غير هذا الموضع ، وبينا ان هذا القول هو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار ، وهو قياس مذهب أحمد وأصوله ، فان أصله ان مالم يقدره الشارع فانه يرجع فيه الى العرف. وهذا لم يقدره الشارع فيرجع فيه الى العرف، لاسيما مع قوله تعالى (من أوسط ماتطعمون أهليكم) فان أحمد لا يقدر طعام المرأة والولد ولا المملوك ، ولا يقدر أجرة الاجير المستخدم بطعامه وكسوته في ظاهر مذهبه، ولا يقدر الضيافة الواجبة عنده قولا واحدا ... ولا يقدر الجزية في أظهر القولين ولا الخراج الخ

ثم ذكر الخلاف في الادام وبين ان الصحيح وجوبه على من يطعمه أهله، وان العبرة بالعرف في كل حال من أحوال الرخص والغلاء والاعسار والايسار والصيف والشتاء وغير ذلك ، وذكر ان من جمع عشرة مساكين وعشاهم خبزا أو أدما من أوسط مايطعم أهله أجزأه ذلك عند أكثر السلف، وهو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في الروايتين، وهو أظهر القولين في الدليل فان الله أمر بالاطعام ولم يوجب التمليك . ورد ما احتج به على وجوب التمليك بأن الشرع أوجب الاطعام لا التمليك ولا التصرف، ولم يقدر للمسكين مقدارا معينا فيقال انه ربما لم يستوفه في عشائه ، وانما أوجب الله التمليك في صدقة الزكاة لانه ذكرها بلام الملك الا ما كان في الرقاب وفي سبيل الله. واذا ملك المسكين مدا من البر أو غيره فربما باعه واشترى بثمنه شيئا لايؤكل فلا يكون المكفر مطعما له كما أمره الله تعالى .اه بالمعنى .

﴿ ٥ - أمر الايمان يبنى على العرف والنية ﴾

أمر الايمان مبني على العرف العام بين الناس بالاجماع لا على مدلولات اللغة واصطلاحات الشرع فمن حلف لا يأكل لحما فأكل سمكا لا يحنث وان سماه الله لحما طريا الا ان نواه أو كان يدخل في عموم اللحم في عرف قومه. ومن حلف على شيء ونوى معنى مجازيا غير الظاهر فالعبرة بنيته لا بلفظه . واما من يحلفه غيره يمينا على شيء فالعبرة بنية المحلف لا الحالف، والا لم يكن للايمان في التقاضي فائدة

روى احمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) « يمينك على مايصدقك به صاحبك » وفي لفظ لمسلم وابن ماجه « اليمين على نية المستحلف » وقد خصه بعضهم بكون المحلف هو الحاكم، ولفظ « صاحبك » في الحديث يرد هذا التخصيص، وقال بعضهم الحاكم أو الغريم ، وقد حكى القاضي عياض الاجماع على ان الحالف من غير استحلاف ومن غير تعلق حق بيمينه له نيته ويقبل قوله . واما اذا كان لغيره حق عليه فلا خلاف انه يحكم عليه بظاهر يمينه ، سواء حلف متبرعا أو باستحلاف غيره له . وظاهر هذا انه لا فرق بين الحقوق الشخصية الخاصة والحقوق العامة المتعلقة بمصلحة الامة والملة ، وان المستحلف الظالم الذي لا حق له اذا أكره امرءا على الحلف بأنه ينصره ويعينه على ظلمه وورى الحالف ونوى غير الظاهر فله العمل بنيته. فاسم الله لا يجعل وسيلة للظلم والاجرام، ولا مانعا من البر والتقوى والإصلاح .

واليمين الغموس والصابرة التي يهضم بها الحق أو يقصد بها الخيانة والغش، لا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام، بل لابد من التوبة وأداء الحقوق والاستقامة . قال تعالى (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) وقال النبي (ص) « من حلف على يمين صبر - وفي رواية زيادة : وهو فيها فاجر - يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان » رواه الشيخان وغيرهما، قال شراح الحديث: أو مال ذمي ونحوه. وهذا مجمع عليه بين المسلمين . وفي الاطلاق حديث ابي هريرة مرفوعا عند احمد وأبي الشيخ « خمس ليس لهن كفارة : الشرك بالله وقتل النفس بغير حق وبهت مؤمن ويمين صابرة يقتطع بها مالا بغير حق »

مدرسة دار الدعوة والارشاد

دروس سنن الكائنات

محاضرات علمية طبية إسلامية للدكتور محمد توفيق صدقي

٢

(المطر)

(أَللهُ الَّذي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ في السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ)

المطر يتولد من تصاعد بخار مياه البحار وغيرها، والعمدة في تبخيرها حرارة الشمس

والفرق بين الغليان وبين هذا التبخر التدريجي هو أن التبخر يحصل من سطح السائل فقط وفي حالة الغليان ينبعث البخار من جميع أجزاء الماء

أما الحرارة اللازمة للتبخر في الحالتين فكميتها واحدة

وتتولد الحرارة أيضا في مياه البحار من احتكاك بعض ذراتها ببعض ومن احتكاك الهواء بسطح البحر . وعمل الريح ضروري جدا لتوليد السحاب من البحر ذلك (١) أنه باحتكاكه بسطح البحر يولد حرارة تساعد على التبخر (٢) وأنه يحمل معه كثيراً من ذرات الماء بمجرد هبوبه عليه حملا آليا (ميكانيكيا) (٣)وانه يسوق الهواء الذي شبع بالماء ويرفعه الى السماء ليحل محله هواء آخر خال من الماء، وبذلك يزداد تبخر البحر، ولولا ذلك لوقفت حركة التبخر لامتلاء الهواء الذي على سطح البحار بالماء

لذلك قال الله تعالى (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا) أي تهيجه وتحركه وترفعه عن سطح البحار كما ترفع التراب عن الارض

والماء يوجد في الهواء بصور مختلفة أشهرها الطل و الضباب و البرد و الصقيع

والمطر . ففي حالة البرد والصقيع يكون الماء متجمدا وفي حالة الضباب والطل والمطر يكون سائلا والفرق بين هذه الاحوال انما هو في درجة الحرارة فقط

واذا اجتمعت ذرات الضباب بعضها ببعض سقطت الى الارض بصورة طل أو مطر واذا اجتمعت ذرات البرد بعضها ببعض سقطت الى الارض بصورة قطع صغيرة من الثلج تسمى الصقيع

وعليه فلا فرق بين أنواع السحاب سواء أكانت قريبة من سطح الأرض أم بعيدة عنه فهي على كل حال عبارة عن ذرات صغيرة جدا من الماء السائل أو المتجمد

ويجب أن نفهم أن السحاب ليس بخار (غاز) الماء وانما هو بخار تكاثف أي قطرات صغيرة في حالة السيولة لا في الحالة الغازية والا لما أمكننا مشاهدته فان بخار الماء لا يرى لانه غاز كالهواء

وفي أثناء سقوط المطر يختلط بالهواء فيذوب فيه بالنسبة التي سبق بيانها، وكذلك يختلط بكل ما يوجد في الهواء من تراب أو أي غبار آخر أو جراثيم مرضية أو غير مرضية الخ

ولذلك يتلون المطر في بعض البلاد بألوان مختلفة كالاسود والاحمر بحسب ما يختلط به

فماء المطر وإن كان أنقى ماء في الكون الا انه ليس أنقى من الماء المقطر الذي نحصل عليه صناعيا

ومن هذه الاجزاء الذائبة في ماء المطر ما هو نافع للحيوانات والنباتات فان الهواء الذائب في الماء ضروري للحيوانات البحرية ونافع للحيوانات البرية كالانسان، فانه يجعل الماء خفيفا على معدته، بخلاف ما اذا كان خاليا من الهواء، وكذلك توجد بعض مواد ذائبة في ماء المطر كانت سابحة في الهواء، فاذا سقطت الى الأرض نفعت النباتات فتغذت منها، ولا تمتص النباتات شيئا من الارض ما لم يذب في الماء

ومن الاشياء المختلطة بالمطر ما هو ضار كالجراثيم المرضية

الانهار والعيون

إذا نزل المطر الى الارض سالت منه أودية على سطحها تسمى بالانهار وامتصت الارض جزءاً آخر منه يسيل في جوفها كالانهار وهو في الحقيقة أنهار باطنية وجميع هذه الانهار الظاهرة والباطنة تتجه شطر البحار ونحوها

ومن هذه الانهار الباطنية تتفجر الينابيع ويستخرج ماء الآبار

فجميع الماء العذب الذي يشرب به الحيوان سواء أكان أصله من الانهار أم من الآبار أو الينابيع هو كله من ماء المطر . قال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض) الآية

واذا امتصت الارض الماء أو سال على ظهرها اختلط بجميع ما يوجد فيها من الاملاح وغيرها ومن ذلك نشأ الاختلاف بين أنواع المياه لاختلاف تربتها ، فمنها العذب الفرات ومنها الملح الاجاج . وان كانت في الاصل كلها عذبة

أما سبب انفجار الينابيع[1] الطبيعية فهو اختلاف في مستويات طبقات الارض المتنوعة فاذا كنا في بقعة من الارض منخفضة عن باقي سطحها سهل انفجار الينابيع فيها بنفسها أو بمساعدتنا . فان من السنن الالهية ان السوائل تميل الى الموازنة فلذا يصعد ماء الينبوع المنفجر حتى يساوي ماء النهر الباطن الذي صدر منه

والآبار نوعان آبار قريبة وآبار عميقة : فالآبار القريبة هي التي يأتيها الماء من الطبقة الاسفنجية[2] الاولى وهي عرضة لان تتلوث بالمياه القذرة التي على سطح الارض أو بالمياه القريبة من هذه الآبار كالمراحيض؛ والآبار العميقة هي التي يأتي اليها الماء بثقب طبقة الارض البعيدة حتى نصل الى الطبقة الاسفنجية الثانية، وقد يرتفع الماء بنفسه في هذه الآبار بنوعيها اذا كان مصدره عاليا وقد نحتاج الى الآلات لجذبه الينا. والنوع الثاني من الآبار أبعد عن التلوث من النوع الاول ويسمى بالآبار الارتوازية نسبة الى إقليم ارتواز (Artois) بشمال فرنسة حيث حفرت أول بئر سنة ١١٢٦

ولاجل صيانة الآبار عن التلوث يجب أن تراعي الشروط الآتية في حفرها :

(١) من الينابيع ما ماؤه حار جدا الى درجة الغليان كما في الولايات المتحدة لصدوره من مكان غائر جدا في جوف الأرض الملتهب (٢) اعني ذات المسام الممتلئة بالماء

الشرط الاول أن تكون بعيدة عن جميع المنازل المسكونة بنحو ٣٠ مترا على الاقل.

الثاني أن لا تكون في الجهة البحرية للمنازل في بلاد مصر لأن المياه الباطنية في مصر تنحدر كمياه النيل من الجهة القبلية الى الجهة البحرية وعلى ذلك تكون الآبار المحفورة في الجهة البحرية في طريق المياه الملوثة من المنازل

الثالث أن تكون حيطان (جدران) هذه الآبار صقيلة وأن تكون الآبار دائما مغطاة

ولسهولة الحصول على مياه صحية نقية توجد طريقة أخرى سهلة وهي استعمال الطلمبات الحبشية لنرتون (Norton) وهي مؤلفة من أنابيب معدنية تدق في الارض الى بعد عميق جدا وتكون الاولى منها ذات طرف دقيق (مدبب) كالمسمار وجميع جوانبها مخرقة الى بعد نحو قدمين وفي نهاية هذه الانابيب من الجهة العليا يركب عليها طلمبة لجذب الماء

والمياه التي تخرج بهذه الطلمبة نقية جدا لانها صادرة من أعماق الارض البعيدة ولا تتلوث بشيء مما على سطح الارض أو في داخلها

والاشياء التي توجد في المياه هي كما سبق نوعان: أشياء معلقة وأشياء ذائبة أما الاشياء المعلقة فهي توجد في مياه الانهار بكثرة عظيمة. وأما مياه الآبار فانها تكاد تكون خالية الا من الاشياء الذائبة لانها تصفّى من خلال طبقات الارض

فالمياه الباطنية إذاً أقل ضررا للصحة من مياه الانهار الظاهرة كما لا يخفى. وللحصول على ماء نظيف من مياه الانهار الظاهرة يجب إما غليها أو تقطيرها أو تصفيتها بالآلات المسماة بالنواضح (المرشحات) وقد يستعمل (الشب) لتنقية الماء وهو لاضرر فيه والسبب في فعله هذا انه يتحد مع بعض أملاح الماء مثل (بي كربونات الجير) فيتكون مايسمى هيدرات الالومينيوم[1] وهي مادة غروية ترسب الى أسفل الاناء فتحمل معها كل ما كان معلقاً في الماء تقريباً و بذلك ينقى. و يوضع

(١) هو العنصر الذي يتركب منه الشب مع عناصر أخرى وتعمل منه الآن أدوات كثيرة منزلية وغيرها خفيفة جدا

الشب في الماء بنسبة جرام الى كل ١٤ لترا من الماء تقريبا

أما تنقيته بنوى المشمش المر فهي ضارة لانه قد يتولد منه حامض الهيدروسيانيك خصوصاً اذا كان مقداره عظيما وترك مدة طويلة ، وهذا الحمض هو سم زعاف سريع التأثير جدا

وعيب الماء المغلي انه يشتمل على المواد المعلقة ويكون خاليا من الهواء

وعيب الماء المقطر أنه يكون خالياً من جميع الاملاح التي كانت في الماء فيكون قليل التغذية للجسم فان هذه الاملاح ضرورية للحياة

وعيب الماء المنقى بالشب انه لايكون نقيا للغاية المطلوبة واذا زاد مقدار الشب أفسد طعم الماء وأحدث عند متعاطيه امساكا شديدا . أما الماء المصفى بالنواضح فهو خير المياه لانه يكون مشتملا على الهواء والاملاح اللازمة للجسم ونظيفاً من كل ما يضر تقريبا

وأنواع النواضح كثيرة فمنها الخابية (الزير) ومنها ما يكون مصنوعاً من الفخار أو الفحم (وهو اردؤها) وقد يستعمل الرمل لتنقية الماء بالنضح أيضاً

والنواضح عبارة عن أنبوبة من الفخار جوفاء يمر في مسامها الماء من ظاهرها الى جوفها الفارغ والدافع للماء على هذا المرور هو الضغط عليه

وفي البلاد التي فيها الشركات المائية يندفع الماء بسبب ارتفاع الخزانات التي تضعها هذه الشركات دائما في مكان أعلى من المدينة

ويجب تنظيف هذه النواضح كل ثلاثة أيام بغسلها جيدا بالماء والصابون مع شيء خشن كالمسفرة (الفرشه) أو الليف ثم تغلي في الماء لمدة عشر دقائق على الاقل لقتل جميع الجراثيم الساكنة فيها

وأسهل طريقة لتنظيف الخوابي (الازيار) هي غسلها أولا بالماء المغلي من الداخل والخارج غسلا جيدا ثم طرحها في الشمس مدة طويلة حتى تجف تماما وبذلك يمكن أن تموت جل أو كل ميكروباتها الضارة

أما مرور الماء أو خزنه في أنابيب أو خزانات من الرصاص ففيه ضرر وهذا الضرر يختلف باختلاف أنواع المياه والمواد الذائبة فيها: فالأملاح الكلوريد

والنيترات تساعد على اذابة شيء من الرصاص في الماء وكذلك الهواء والاحماض فاذا اشتمل الماء على شيء من هذه الاشياء المذكورة (وهو قل أن يخلو منها) ذاب من الرصاص ما يكفي لافساد صحة الانسان

أما الاملاح الاخرى الآتية وهي السلفات والفسفات والكربونات فانها تعوق ذوبان الرصاص في الماء ولذلك قلنا ان ضرر الرصاص يختلف باختلاف الاشياء الذائبة في الماء

واذا استمر الانسان على تعاطي الماء الملوث بالرصاص أدى الى أعراض مرضية كثيرة منها :

الضعف، والصفار ، والمغص الشديد، وزرقة تشاهد في اللثة، ومرض في الكلى، وضعف واضطراب في أعضاء التناسل ، وشلل في بعض أعضاء الجسم فيحصل في اليدين ارتخاء يسمى عند الاطباء « الرسغ الساقط »

ولتوقي هذه المضار يجب أن يوضع الماء في خزانات من الحجر أو الحديد ونحوهما وأن تكون المواسير مصنوعة من مثل الحديد المصبوب (الزهر) أو الفخار

(يتبع)

فصل (١)

ومن منازل اياك نعبد واياك نستعين « منزلة المحبة »

وهي المنزلة التي فيها يتنافس المتنافسون ، واليها شخص العاملون ، والى علمها شمر السابقون ، وعليها تفانى المحبون ، وبروح نسيمها تروّح العابدون ، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون ، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الاموات ، والنور الذي من فقده ففي بحار الظلمات ، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الاسقام ، واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام ، وهي روح الايمان والاعمال ، والمقامات والأحوال ، التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لاروح فيه ، تحمل أثقال السائرين الى بلاد لم يكونوا الا بشق الانفس بالغيها ، وتوصلهم الى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها ، وتبوّئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاهي داخليها ، وهي مطايا القوم التي مسراهم في ظهورها دائماً الى الحبيب ، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم الى منازلهم الأولى من قريب ، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة اذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب ، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب ، فيالها نعمة على المحبين سابغة! تالله لقد سبق القوم السعاةَ وهم علي ظهور الفرش نائمون . ولقد تقدموا الركب بمراحل ، وهم في سيرهم واقفون

من لي بمثل سيرك المدلل ... تمشي رويدا وتجي في الاول

أجابوا مؤذن الشوق اذ نادى بهم حي على الفلاح ! وبذلوا نفوسهم في طلب الوصول الى محبوبهم وكان بذلهم بالرضا والسماح ، وواصلوا اليه المسير بالإدلاج والغدو بالرواح ، تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم ، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم ، وانما يحمد القوم السرى عند الصباح

فحيهلا ان كنت ذا همة فقد ... حدا بك حادي الشوق فاطو المراحلا
وقل لمنادي حبهم ورضاهم ... اذا ما دعا « لبيك » ألفاً كواملا
ولا تنظر الاطلال من دونهم فان ... نظرت الى الاطلال عدن حوائلا

(١) من الجزء الثالث من مدارج السالكين

ولا تنتظر بالسير رفقة قاعد … ودعه فان الشوق يكفيك حاملا
وخذ منهم زادا اليهم وسر على … طريق الهدى والفقر تصبح واصلا
وأحي بذكراهم سراك اذا ونت … ركابك فالذكرى تعيدك عاملا
وإما تخافن الكلال فقل لها … امامك ورد الوصل فابغ المناهلا
وخذ قبساً من نورهم ثم سر به … فنورهم يهديك ليس المشاعلا[1]
وحي على وادي الأراك فقل به … عساك تراهم فيه ان كنت قائلا
وإلا ففي نعمان عند معرّف … [illegible]حبة فاطلبهم اذا كنت سائلا
والا ففي جمع[2] بليلته فان … تفت فمنى ؟ ياويح من كان غافلا
وحيّ على جنات عدن بقربهم … منازلك الاولى بها كنت نازلا
ولكن سباك الكاشحون لاجل ذا … وقفت على الاطلال تبكي المنازلا
فدعها رسوما دارسات فما بها … مقيل فجاوزها فليست منازلا
رسوم عفت تفنى بها الخلق كم بها … قتيل وكم فيها لذا الخلق قاتلا[3]
وخذ يمنة عنها على المنهج الذي … عليه سرى وفد المحبة آهلا
وقل ساعدي يا نفس بالصبر ساعة … فعند اللقا ذا الكد يصبح زائلا
فما هي الا ساعة ثم تنقضي … ويصبح ذو الاحزان فرحان جاذلا

أول نقدة من أثمان المحبة بذل الروح، فما للمفلس الجبان البخيل وسومها ؟

بدم المحب يباع وصلهم … فمن الذي يبتاع بالثمن

تالله ماهزلت فيستامها المفلسون، ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة[1] المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون، وقام المحبون ينظرون، أيهم يصلح أن يكون ثمناً، فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)

---

(١) كذا ولعله تحريف فظاهر الاعراب الرفع بالعطف، ولا يظهر الاستثناء، بل المراد ليس مايهديك هو المشاعل . ويمكن أن يقال: فاطف المشاعلا – أو – فارم المشاعلا (٢) جمع هي المزدلفة . ومعرف في البيت الذي قبله عرفات (٣) كذا والظاهر ان يقال « قاتل » بالرفع لان « كم » خبرية كالتي قبلها (٤) في غيرح – فينفقها بالنسيئة

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا باقامة البينة على صحة الدعوى ، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقة الشجي ، فتنوع المدعون في الشهود ، فقيل : لاتقبل هذه الدعوى الا ببينة (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه ، فطولبوا بعدالة البينة بتزكية (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون ، فقيل لهم : ان نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فهلموا الى بيعة (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) فلما عرفوا عظمة المشتري وفضل الثمن وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع عرفوا قدر السلعة وان لها شأناً ، فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس ، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي من غير ثبوت خيار ، وقالوا : والله لانقيلك ولا نستقيلك . فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم : مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معها (ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله)

اذا غرست شجرة المحبة في القلب وسقيت بماء الاخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار ، وآتت أكلها كل حين باذن ربها ، أصلها ثابت في قرار القلب ، وفرعها متصل بسدرة المنتهى ، لا يزال سعي المحب صاعدا الى حبيبه لا يحجبه دونه شيء (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)

فصل

لا تحد المحبة بحد أوضح منها . فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء ، فحدها وجودها ، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة ، وانما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها ، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة ، وتنوعت بهم العبارات وكثرت الاشارات بحسب ادراك الشخص ومقامه وحاله ، وملكه للعبارة . وهذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء : (أحدها) الصفاء والبياض . ومنه قولهم لصفاء بياض الاسنان ونضارتها حبب

الاسنان (الثاني) العلو والظهور، ومنه حَبَبُ الماء وحُبابه وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحبب الكاس منه (الثالث) اللزوم والثبات، ومنه حَبَّ البعير وأحب اذا برك ولم يقم[1] قال الشاعر:

حلت عليه بالفلاة ضربا ضرب بعير السوء اذ أحبا

(الرابع) اللب ومنه حبة القلب لبه ود خله، ومنه الحبة لواحدة الحبوب[2] اذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه (الخامس) الحفظ والامساك. ومنه حب الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه، وفيه معنى الثبوت أيضاً. ولا ريب ان هذه الخمسة من لوازم المحبة، فانها صفاء المودة وهيجان ارادات القلب المحبوب، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد، وثبوت ارادة القلب المحبوب ولزومها لزوماً لاتفارق[3] ولإعطاء المحب محبوبه لبه وأشرف ما عنده وهو قلبه، ولاجتماع عزماته واراداته وهمومه على محبوبه. فاجتمعت فيها المعاني الخمسة ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمى غاية المناسبة، الحاء التي هي من أقصى الحلق، والباء الشفهية التي هي نهايته، فللحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب فان ابتداءها منه وانتهاءها اليه. وقالوا في فعلها[4] حبه وأحبه. قال الشاعر:

أحب أبا ثروان من حب تمرة ولم تعلم أن الرفق بالجار أرفق[5]

فوالله لولا تمرة ما حببتـه ولا كان أدنى من عبيد ومشرق

ثم اقتصروا على اسم الفاعل من «أحب» فقالوا محب، ولم يقولوا حاب، واقتصروا على اسم المفعول من «حب» فقالوا محبوب، ولم يقولوا محَب، الا قليلا كما قال الشاعر:

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

وأعطوا الحب حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها مطابقة لشدة حركة

---

(١) في ب: فلم يقم (٢) وفي غيرها: ومنه لواحدة الحبوب (٣) لعلها «لا تفارقه» (٤) في غيرح: فعله (٥) هذا البيت من زيادة ب

مسماه وقوتها ،وأعطوا الحب — وهو المحبوب — حركة الكسر لخفتها عن الضمة وخفة المحبوب وذكره على قلوبهم وألسنتهم ، مع اعطائه حكم نظائره كنِهب بمعنى منهوب وذِبح بمعنى مذبوح وحِمل بمعنى المحمول — بخلاف الحَمل الذي هو مصدر — لخفته ، ثم ألحقوا به حملا لا يشق على حامله حمله كحمل الشجرة والولد، فتأمل هذا اللطف والمطابقة والمناسبة العجيبة بين الالفاظ والمعاني ، تطلعك على قدر هذه اللغة وان لها شأناً ليس لسائر اللغات

فصل

في ذكر رسوم وحدود قيلت في المحبة بحسب آثارها وشواهدها، والكلام على ما يحتاج اليه منها [1]

(الاول) قيل: المحبة الميل الدائم ، بالقلب الهائم. وهذا الحد لا تميز فيه بين المحبة الخاصة والمشتركة والصحيحة والمعلولة

(الثاني) ايثار المحبوب ، على جميع المصحوب . وهذا حكم من أحكام المحبة وأثر من آثارها

(الثالث) موافقة الحبيب ، في المشهد والمغيب. وهذا أيضاً موجبها ومقتضاها وهو أكمل من الحدين قبله ، فانه يتناول المحبة الصادقة الصحيحة خاصة ، بخلاف مجرد الميل والايثار بالارادة فانه ان لم تصحبه موافقة فمحبته معلولة

(الرابع) محو المحب لصفاته ، واثبات المحبوب لذاته. وهذا أيضاً من أحكام الفناء في المحبة — أن تمحي صفات المحب وتفنى في صفات محبوبه وذاته ، وهذا يستدعي بياناً أتم من هذا لا يدركه الا من أفناه وارد المحبة عنه ، وأخذه منه

(الخامس) مواطأة القلب لمرادات المحبوب. وهذا أيضاً من موجباتها وأحكامها، والمواطأة الموافقة لمرادات المحبوب وأوامره ومراضيه

(السادس) خوف ترك الحرمة ، مع اقامة الخدمة ، وهذا أيضاً من اعلامها وشواهدها وآثارها — أن يقوم بالخدمة كما ينبغي مع خوفه من ترك الحرمة والتعظيم

(١) في ب : الى الكلام فيها

(السابع) استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك. وهذا قول أبي يزيد ، وهو أيضاً من أحكامها وموجباتها وشواهدها، والمحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع مايقدر عليه لاستقله واستحيا منه ، ولو ناله من محبوبه أيسر شيء لاستكثره واستعظمه

(الثامن) استكثار القليل من جنايتك ، واستقلال الكثير من طاعتك. وهو قريب من الذي قبله لكنه مخصوص بما من المحب

(التاسع) معانقة الطاعة ، ومباينة المخالفة . وهو لسهل بن عبد الله ، وهو أيضاً حكم المحبة وموجبها

(العاشر) دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب . وهو للجنيد . وفيه غموض، ومراده استيلاء ذكر المحبوب وصفاته وأسمائه على قلب المحب حتى لا يكون الغالب عليه الا ذلك ، ولا يكون شعوره واحساسه في الغالب الا بها ، فيصير شعوره واحساسه بدلا من شعوره واحساسه بصفات نفسه، وقد يحتمل معنى أشرف من هذا ، وهو تبدل صفات المحب الذميمة التي لا توافق صفات المحبوب بالصفات الجميلة المحبوبة التي توافق صفاته. والله أعلم

(الحادي عشر) أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء . وهو لأبي عبد الله القرشي . وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها ، والمراد أن تهب ارادتك وعزماتك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه ، فلا تأخذ لنفسك منها الا ما أعطاك فتأخذه منه له

(الثاني عشر) أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب . وهو للشبلي ، وكمال المحبة يقتضي ذلك فانه مادامت في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره فالمحبة مدخولة

(الثالث عشر) اقامة العتاب على الدوام . وهو لابن عطاء . وفيه غموض ، ومراده أن لاتزال عاتباً على نفسك في مرضاة المحبوب ، وأن لاترضى له فيها [1] عملا ولا حالة

(١) في ب « منها »

(الرابع عشر) أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك . وهو للشبلي أيضاً ، وفيه كلام سنذكره إن شاء الله في منزلة الغيرة ، ومراده احتقارك لنفسك او استصغارها أن يكون مثلك من محبيه

(الخامس عشر) ارادة غرست أغصانها في القلب فأثمرت الموافقة والطاعة

(السادس عشر) أن ينسى المحب حظه في محبوبه ، وينسى حوائجه اليه . وهو لابي يعقوب السوسي ، ومراده أن استيلاء سلطانها على قلبه غيبه عن حظوظه وعن حوائجه ، واندرجت كلها في حكم المحبة

(السابع عشر) مجانبة السلو على كل حال . وهو للنصراباذي ، وهو أيضاً من لوازمها وثمراتها كما قيل :

مرت بارجاء الخيال طيوفه　　فبكت على رسم السلو الدارس

(الثامن عشر) توحيد المحبوب بخالص الارادة وصدق الطلب

(التاسع عشر) سقوط كل محبة من القلب الا محبة الحبيب . وهو لمحمد بن الفضل ، ومراده توحيد المحبوب بالمحبة

(العشرون) غض طرف القلب[1] عما سوى المحبوب غيرة ، وعن المحبوب هيبة . وهذا يحتاج الى تبيين : أما الاول فظاهر . وأما الثاني فان غض طرف القلب عن المحبوب مع كمال محبته كالمستحيل ، ولكن عند استيلاء الهيبة يقع مثل هذا ، وذلك من علامات المحبة المقارنة للهيبة والتعظيم ، وقد قيل : ان هذا تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم « حبك للشيء يعمي ويصم » أي يعمي عما سواه غيرة ، وعنه هيبة . وليس هذا مراد الحديث ، ولكن المراد به أن حبك للشيء يعمي ويصم عن تأمل قبائحه ومساويه ، فلا تراها ولا تسمعها وان كانت فيه ، وليس المراد به ذكر المحبة المطلوبة المعلقة بالرب ، ولا يقال في حب الرب تبارك وتعالى : حبك الشيء ، ولا يوصف صاحبها بالعمى والصمم . ونحن لا ننكر المرتبتين المذكورتين ، فان المحب قد يعمى ويصم عنه بالهيبة[2] والاجلال ولكن لا توصف

---

(١) في ب « غض طرفه » (٢) وفيها « فان المحب قد يعمى ويصم عن سوى محبوبه وقد يعمي ويصم عنه » الخ

محبة العبد لربه تعلق بذلك، وليس هذا من أهل العمى والصمم، بل هم أهل الاسماع والابصار على الحقيقة. ومن سواهم هم الصم البكم العمي الذين لا يعقلون

(الحادي والعشرون) ميلك للشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرا وجهرا، ثم علمك بتقصيرك في حبه. قال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي رحمهما الله يقول ذلك

(الثاني والعشرون) المحبة نار في القلب تحرق ماسوى مراد المحبوب، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: لمت بعض المباحية فقال لي ذلك، ثم قال: والكون كله مراده، فأي شيء أبغض منه؟ فقال الشيخ فقلت له: اذا كان المحبوب قد أبغض أفعالا وأقوالا وأقواما وعاداهم فطردهم ولعنهم فأحببتهم أنت أكنت مواليا للمحبوب أو معاديا له؟ قال: فكأنما ألقم حجرا، وافتضح بين أصحابه، وكان مقدما فيهم مشارا إليه. وهذا الحد صحيح، وقائله إنما أراد انها تحرق من القلب ماسوى مراد المحبوب الديني الامري الذي يحبه ويرضاه، لا المراد الذي قدره وقضاه، لكن قلة حظ المتأخرين منهم وغيرهم من العلم وقعوا فيما وقعوا فيه من الاباحة والحلول والاتحاد، والمعصوم من عصمه الله

(الثالث والعشرون) المحبة بذل المجهود، وترك الاعتراض على المحبوب. وهذا أيضا من حقوقها وثمراتها وموجباتها

(الرابع والعشرون) سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه. ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف، وأنشد:

فأسكر القوم دور الكأس بينهم ... لكن سكري نشا من رؤية الساقي

وينبغي صون المحبة والحبيب عن هذه الالفاظ التي غاية صاحبها أن يعذر بصدقه وغلبة الوارد عليه وقهره له، فمحبة الله أعلى وأجل من أن تضرب لها هذه الامثال، وتجعل عرضة للافواه المتلوثة، والالفاظ المبتدعة، ولكن الصادق في خفارة صدقه

(الخامس والعشرون) أن لا يؤثر على المحبوب غيره، وأن لا يتولى أمورك غيره

(السادس والعشرون) الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته ، والحرية من استرقاق ما سواه

(السابع والعشرون) المحبة سفر القلب في طلب المحبوب ، ولهج اللسان بذكره على الدوام. قلت: أما سفر القلب في طلب المحبوب فهو الشوق الى لقائه ، وأما لهج اللسان بذكره فلا ريب أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره

(الثامن والعشرون) ان المحبة هي ما لاتنقص بالجفاء ولا تزيد بالبر . وهي ليحيى بن معاذ ، بل الارادة والطلب والشوق الى المحبوب لذاته . فلا ينقص ذلك جفاؤه ولا يزيده بره ، وفي ذلك ما فيه ، فان المحبة الذاتية تزيد بالبر ولا تنقص زيادتها بالبر ، وليس ذلك بعلة ، ولكن مراد يحيى أن القلب قد امتلأ بالمحبة الذاتية ، فاذا جاء البر من محبوبه لم يجد في القلب مكانا خاليا من حبه تشغله محبة البر ، بل تلك المحبة قد استحقت عليه بالذات بلا سبب ، ومع هذا فلا يزيل الوهم ، فان المحبة لانهاية لها ، وكلما قويت المعرفة والبر قويت المحبة ، ولا نهاية لجمال المحبوب ولا بره ، فلا نهاية لمحبته ، بل لو اجتمعت محبة الخلق كلهم وكانت على قلب رجل واحد منهم كان ذلك دون ما يستحقه الرب جل جلاله. ولهذا لاتسمى محبة العبد لربه عشقاً — كما سيأتي - لانه افراط المحبة ، والعبد لا يصل في محبة الله الى حد الافراط البتة ، والله أعلم

(التاسع والعشرون) المحبة أن تكون كلك بالمحبوب مشغولا ، وذلك له مبذولا

(الثلاثون) — وهو من أجمع ما قيل فيها — قال أبو بكر الكتاني رحمه الله : جرت مسئلة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى أيام الموسم ، فتكلم الشيوخ فيها وكان[1] الجنيد أصغرهم سنا فقالوا : هات ماعندك ياعراقي ! فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال : عبد ذاهب[2] عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر اليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيبته ، وصفاء شربه من كأس وده ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فان تكلم فبالله ، وان نطق فعن الله ، وان تحرك فبأمر الله ،

(١) في ح « فكان » الخ (٢) في ب « ذهب »

وان سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله. فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جزاك[1] الله ياتاج العارفين

فصل

في الاسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها وهي عشرة (أحدها) قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه (الثاني) التقرب الى الله بالنوافل بعد الفرائض، فانها توصله الى درجة المحبوبية بعد المحبة (الثالث) دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر (الرابع) ايثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وان صعب المرتقى (الخامس) مطالعة القلب لاسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله باسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لامحالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب، بينها وبين الوصول الى المحبوب (السادس) مشاهدة بره واحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فانها داعية الى محبته (السابع) — وهو من أعجبها - انكسار القلب بكليته بين يديه تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الاسماء والعبارات (الثامن) الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة (التاسع) مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقي أطايب الثمر. ولا تتكلم الا اذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدا لحالك ومنفعة لغيرك (العاشر) مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل

فمن هذه الاسباب العشرة وصل المحبون الى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق

(١) في ب وح «جبرك الله»

فصل (*)

فهذه امثلة عشرة توضح لك الوجه العملي في المصالح المرسلة وتبين لك اعتبار أمور

(احدها) الملاءمة لمقاصد الشرع بحيث لا تنافي اصلا من اصوله ولا دليلا من دلائله

(والثاني) ان عامة النظر فيها انما هو فيما عقل منها وجرى على دون المناسبات المعقولة التي اذا عرضت على العقول تلقتها بالقبول ، فلا مدخل لها في التعبدات ولا ما جرى مجراها من الامور الشرعية ، لأن عامة التعبدات لا يعقل لها معنى على التفصيل ، كالوضوء والصلاة والصيام في زمان مخصوص دون غيره ، والحج ، ونحو ذلك

فليتأمل النـاظر الموفق كيف وضعت على التحكم المحض المنافي للمناسبات التفصيلية

ألا ترى ان الطهارات على اختلاف أنواعها قد اختص كل نوع منها بتعبد مخالف حدا لما يظهر لبادي الرأي ؟ فان البول والغائط خارجان نجسان يجب بهما تطهير اعضاء الوضوء دون المخرجين فقط، ودون جميع الجسد ، فاذا خرج المني أو دم الحيض وجب غسل جميع الجسد دون المخرج فقط ، ودون اعضاء الوضوء (1)

*) تابع لما نشر في ص ٨٣٣

(١) روي عن بعض علماء السلف مثل هذا وعد الطهارتين على خلاف القياس أو العقل . وأخذ الناس ذلك بالقبول . مع أن حكمة الطهارتين معقولة ، فان خروج المني ودم الحيض يحدث من الفتور والضعف في البدن كله ما لا يحدث =

ثم ان التطهير واجب مع نظافة الاعضاء ، وغير واجب في قذارتها بالاوساخ والادران اذا فرض انه لم يحدث

ثم التراب — ومن شأنه التلويث — يقوم مقام الماء الذي من شأنه التنظيف

ثم نظرنا في أوقات الصلوات فلم نجد فيها مناسبة لاقامة الصلوات فيها لاستواء الاوقات في ذلك

وشرع للإعلام بها أذكار مخصوصة لا يزاد فيها ولا ينقص منها ، فاذا أقيمت ابتدأت اقامتها باذكار أيضا ، ثم شرعت ركعاتها مختلفة باختلاف الاوقات ، وكل ركعة لها ركوع واحد وسجودان دون العكس ، الا صلاة خسوف الشمس فانها على غير ذلك ، ثم كانت خمس صلوات دون أربع أو ست وغير ذلك من الاعداد ؛ فاذا دخل المتطهر المسجد أمر بتحيته بركعتين دون واحدة كالوتر ، أو أربع كالظهر ؛ فاذا سها في صلاة سجد سجدتين دون سجدة واحدة ، واذا قرأ سجدة سجد واحدة دون اثنتين

ثم أمر بصلاة النوافل ونهي عن الصلاة في أوقات مخصوصة ، وعلل النهي بامر غير معقول المعنى

= مثله بخروج البول والغائط ، فشرع الغسل من الاولين ليعود به للبدن نشاطه وللعصب فيه تنبهه ، فيقوى على العبادة ، واكتفي بالوضوء من الاخرين لضعف تأثيرهما ، وثم حكمة أخرى وهي جعل الطهارة الخفيفة لما يتكرر كل يوم ، والطهارة الشاقة لما لا يتكرر الا في الاسابيع أو الشهور . وللامثلة الاخرى التي سيذكرها حكم أيضا بينا بعضها في مجلة المنار وفي (تفسير القرآن الحكيم) ولا ينكر مع ذلك ان في كل عبادة معنى التعبد الذي يؤخذ بالتسليم كعدد الركعات والركوع والسجود فيها

ثم شرعت الجماعة في بعض النوافل كالعيدين والخسوف والاستسقاء ، دون صلاة الليل ورواتب النوافل

فاذا صرنا الى غسل الميت وجدناه لا معنى له معقولا ، لأنه غير مكلف ، ثم أمرنا بالصلاة عليه بالتكبير دون ركوع أو سجود أو تشهد ، والتكبير أربع تكبيرات دون اثنتين أو ست أو سبع او غيرها من الاعداد

فاذا صرنا الي الصيام وجدنا فيه من التعبدات غير المعقولة كثيراً ، كإمساك النهار دون الليل ، والامساك عن المأكولات والمشروبات ، دون الملبوسات والمركوبات ، والنظر والمشي والكلام واشباه ذلك ؛ وكان الجماع — وهو راجع الى الاخراج — كالمأكول — وهو راجع الى الضد ، وكان شهرَ رمضان — وان كان قد انزل فيه القرآن — ولم يكن ايام الجمع ، وان كانت خير ايام طلعت عليها الشمس ، أو كان الصيام أكثر من شهر أو أقل . ثم الحج أكثر تعبدا من الجميع

وهكذا تجد عامة التعبدات في كل باب من أبواب الفقه ما عملوا (؟) ان في هذا الاستقراء معنى يعلم من مقاصد الشرع أنه قصد قصده ونحي نحوه واعتبرت جهته ، وهو ان ما كان من التكاليف من هذا القبيل فان قصد الشارع ان يوقف عنده ويعزل عنه النظر الاجتهادي جملة ، وأن يوكل الى واضعه ويسلم له فيه ، سواء علينا أقلنا : ان التكاليف معللة بمصالح العباد ، أم لم نقله . اللهم الا قليلا من مسائلها ظهر فيها معنى فهمناه من الشرع فاعتبرنا به أو شهدنا في بعضها بعدم الفرق بين المنصوص عليه والمسكوت عنه ، فلا حرج حينئذ فان اشكل الامر فلابد من الرجوع الى ذلك الاصل ، فهو العروة الوثقى للمتفقه في الشريعة والوزر الاحمي

ومن أجل ذلك قال حذيفة رضي الله عنه : كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تَعبَّدوها ، فان الأول لم يدع للآخر مقالا ، فاتقوا الله يامعشر القراء ، وخذوا بطريق من كان قبلكم . ونحوه لابن مسعود ايضا — وقد تقدم من ذلك كثير —

ولذلك التزم مالك في العبادات عدم الالتفات الى المعاني ، وان ظهرت لبادي الرأي ، وقوفا مع ما فهم من مقصود الشارع فيها من التسليم على ما هي عليه ، فلم يلتفت في ازالة الاخباث ، ورفع الاحداث ، الى مطلق النظافة التي اعتبرها غيره : حتى اشترط في رفع الاحداث النية ، ولم يقم غير الماء مقامه عنده — وان حصلت النظافة — حتى يكون بالماء المطلق ؛ وامتنع من اقامة غير التكبير والتسليم والقراءة بالعربية مقامها في التحريم والتحليل والإجزاء ؛ ومنع من اخراج القيم في الزكاة ، واختصر في الكفارات على مراعاة العدد ، وما أشبه ذلك

ودورانه في ذلك كله على الوقوف مع ما حده الشارع دون ما يقتضيه معنى مناسب ـ ان تصور ـ لقلة ذلك في التعبدات وندوره ، بخلاف قسم العادات الذي هو جارٍ على المعنى المناسب الظاهر للعقول ، فانه استرسل فيه استرسال المدل العريق في فهم المعاني المصلحية ، نعم مع مراعاة مقصود الشارع أن لا يخرج عنه ولا يناقض أصلا من أصوله ؛ حتى لقد استشنع العلماء كثيرا من وجوه استرساله ، زاعمين انه خلع الربقة ، وفتح باب التشريع . وهيهات ما أبعده من ذلك ! رحمه الله ؛ بل هو الذي رضي لنفسه فى فقهه بالاتباع ، بحيث يخيل لبعض أنه مقلد لمن قبله ، بل هو صاحب البصيرة فى دين الله ـ حسبما بين اصحابه في كتاب سيره ـ

بل حكي عن أحمد بن حنبل أنه قال : اذا رأيت الرجل يبغض مالكا فاعلم أنه مبتدع . وهذه غاية في الشهادة بالاتباع .وقال أبو داود : أخشى عليه البدعة . (يعني المبغض لمالك) .وقال ابن مهدي : اذا رأيت الحجازي يحب مالك بن أنس فاعلم أنه صاحب سنة ، واذا رأيت أحدا يتناوله فاعلم أنه على خلاف السنة . وقال ابراهيم بن يحيى بن هشام : ما سمعت أبا داود لعن أحداً قط الا رجلين ، أحدهما رجل ذكر له أنه لعن مالكا ، والآخر بشر المريسي

وعلى الجملة فغير مالك أيضا موافق له في أن أصل العبادات عدم معقولية المعنى ، وان اختلفوا في بعض التفاصيل ، فالاصل متفق عليه عند الامة ، ما عدا الظاهرية ، فانهم لا يفرقون بين العبادات والعادات ، بل الكل تعبد غير معقول المعنى ، فهم أحرى بان لا يقولوا باصل المصالح فضلا عن أن يعتقدوا المصالح المرسلة

(والثالث) ان حاصل المصالح المرسلة يرجع الى حفظ أمر ضروري ، ورفع حرج لازم في الدين ؛ وأيضا مرجعها الى حفظ الضروري ، من باب « ما لا يتم الواجب الا به . . . » فهي اذاً من الوسائل لا من المقاصد . ورجوعها الى رفع الحرج راجع الى باب التخفيف لا الى التشديد .

أما رجوعها الى ضروري فقد ظهر من الامثلة المذكورة

وكذلك رجوعها الى رفع حرج لازم ؛ وهو إما لاحق بالضروري ، واما من الحاجي ؛ وعلى كل تقدير فليس فيها ما يرجع الى التقبيح والتزيين البتة . فان جاء من ذلك شيء : فإما من باب آخر منها ، كقيام رمضان في المساجد جماعة — حسبما تقدم — واما معدود من قبيل البدع التي

انكرها السلف الصالح -- كزخرفة المساجد و التثويب بالصلاة — وهو من قبيل ما يلائم .

وأما كونها في الضروري من قبيل الوسائل، و « مالا يتم الواجب الا به . . . » إن نص على اشتراطه ، فهو شرط شرعي فلا مدخل له في هذا الباب ، لان نص الشارع فيه قد كفانا مؤنة النظر فيه

وان لم ينص على اشتراطه فهو إما عقلي أو عادي ، فلا يلزم ان يكون شرعيا ، كما أنه لا يلزم ان يكون على كيفية معلومة ، فانا لو فرضنا حفظ القرآن والعلم بغير كتب مطردا لصح ذلك ؛ وكذلك سائر المصالح الضرورية يصح لنا حفظها ، كما انا لو فرضنا حصول مصلحة الامامة الكبرى بغير امام على تقدير عدم النص بها لصح ذلك ، وكذلك سائر المصالح الضرورية ـ اذا ثبت هذا ـ لم يصح أن يستنبط من بابها شيء من المقاصد الدينية التي ليست بوسائل

وأما كونها في الحاجي من باب التخفيف فظاهر أيضاً ، وهو أقوى في الدليل الرافع للحرج ، فليس فيه ما يدل على تشديد ولا زيادة تكليف ؛ والامثلة مبينة لهذا الاصل أيضاً

اذا تقررت هذه الشروط علم أن البدع كالمضادة للمصالح المرسلة لان موضوع المصالح المرسلة ما عقل معناه على التفصيل ، والتعبدات من حقيقتها أن لا يعقل معناها على التفصيل . وقدم أن العادات اذا دخل فيها الابتداع فانما يدخلها من جهة مافيها من التعبد لا باطلاق

وأيضاً فان البدع في عامة أمرها لا تلائم مقاصد الشرع ، بل انما تتصور على أحد وجهين : إما مناقضة لمقصوده — كما تقدم في مسألة

المفتي للملك بصيام شهرين متتابعين — وإما مسكوتاً عنه فيه كحرمان القاتل ومعاملته بنقيض مقصوده على تقدير عدم النص به . وقد تقدم نقل الاجماع على اطراح القسمين ، وعـدم اعتبارهما . ولا يقال : ان المسكوت عنه يلحق بالمأذون فيهِ . اذ يلزم من ذلك خرق الاجماع لعدم الملاءمة ، ولان العبادات ليس حكمها حكم العادات في أن المسكوت عنه كالمأذون فيه - ان قيل بذلك ؛ فهي تفارقها ، اذ لا يقدم على استنباط عبادة لا أصل لها ، لانها مخصوصة بحكم الاذن المصرح به ؛ بخلاف العادات . والفرق بينهما ما تقدم من اهتداء العقول للعاديات في الجملة ، وعدم اهتدائها لوجوه التقربات الى الله تعالى . وقد أشير الى هذا المعنى في كتاب الموافقات والى هذا (؟)

فاذا ثبت أن المصالح المرسلة ترجع اما الى حفظ ضروري من باب الوسائل ، أو الى التخفيف ، فلا يمكن احداث البدع من جهتها ولا الزيادة في المندوبات ، لان البدع من باب الوسائل ، لانها متعبد بها بالفرض ، ولانها زيادة في التكليف ، وهو مضاد للتخفيف

فحصل من هذا كله أن لا تعلق للمبتدع بباب المصالح المرسلة الا القسم الملغى باتفاق العلماء ، وحسبك به متعلقاً ، والله الموفق .

وبذلك كله يعلم من قصد الشارع أنه لم يكل شيئاً من التعبدات الى آراء العباد ، فلم يبق الا الوقوف عند ماحدّه ، والزيادة عليه بدعة ، كما ان النقصان منه بدعة . وقد مر لهما أمثلة كثيرة ، وسيأتي آخراً في أثناء الكتاب بحول الله.

فصل

وأما الاستحسان ، فلان لأهل البدع أيضاً تعلقا به : فان الاستحسان لايكون الا بمستحسن ، وهو إما العقل أو الشرع

أما الشرع فاستحسانه واستقباحه قد فرغ منهما ، لان الادلة اقتضت ذلك فلا فائدة لتسميته استحسانا ، ولا لوضع ترجمة له زائدة على الكتاب والسنة والاجماع ، وما ينشأ عنهامن القياس والاستدلال. فلم يبق الا العقل هو المستحسن ، فان كان بدليل فلافائدةلهذه التسمية، لرجوعه الى الادلة لا الى غيرها ، وان كان بغير دليل فذلك هو البدعة التي تستحسن

ويشهد [1] قول من قال في الاستحسان انه يستحسنه [2] المجتهد بعقله ، ويميل اليه برأيه ـ قالوا ـ : وهو عندهؤلاء من جنس مايستحسن في العوائد ، وتميل اليه الطباع ، فيجوز الحكم بمقتضاه اذا لم يوجد في الشرع ما ينافي هذا الكلام ما بيّن (:) ان ثمّ من التعبدات ما لايكون عليه دليل ، وهو الذي يسمى بالبدعة ، فلا بد أن ينقسم الى حسن وقبيح ، اذ ليس كل استحسان حقا

وأيضاً فقد يجري على التأويل الثاني للاصوليين في الاستحسان ، وهو أن المراد به دليل ينقدح في نفس المجتهد لاتساعده العبارة عنه ولا يقدر على اظهاره . وهذا التأويل، فالاستحسان يساعده لبعده ، لانه يبعد في مجاري العادات أن يبتدع أحد بدعة من غير شبهة دليل ينقدح له ، بل عامة البدع لا بد لصاحبها من متعلق دليل شرعي ، لكن قد

(١) لعل أصله « ويشهد لذلك » اوله (٢) لعل اصله « ما يستحسنه »

يمكنه اظهاره وقد لا يمكنه - وهو الاغلب - فهذا مما يحتجون به

* * *

وربما ينقدح لهذا المعنى وجه بالادلة التي استدل بها أهل التأويل الأولون ، وقد اتوا بثلاثة ادلة

(احدها) قول الله سبحانه (واتبعوا احسن ما أنزل اليكم من ربكم) وقوله (الله نزّل احسنَ الحديث) وقوله (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه) هو ماتستحسنه عقولهم

(والثاني) قوله عليه السلام «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن» وانما يعني بذلك ما رأوه بعقولهم ، والا لو كان حسنه بالدليل الشرعي لم يكن من حسن ما يرون ، اذ لا مجال للعقول في التشريع على مازعمتم ، فلم يكن للحديث فائدة ، فدل على ان المراد ما رأوه برأيهم

(والثالث) ان الامة قد استحسنت دخول الحمام من غير تقدير أجرة ولا تقدير مدة اللبث ولا تقدير الماء المستعمل ، ولا سبب لذلك الا ان المشاحة في مثله قبيحة في العادة ، فاستحسن الناس تركه ، مع انا نقطع أن الاجارة المجهولة[1] أو مدة الاستئجار أو مقدار المشترى اذا جهل فانه ممنوع ؛ وقد استحسنت اجارته مع مخالفة الدليل ، فاولى ان يجوز اذا لم يخالف دليلا

فانت ترى ان هذا الموضع مزلة قدم أيضاً لمن اراد أن يبتدع ، فله ان يقول : ان استحسنت كذا وكذا فغيري من العلماء قد استحسن .

(١) لا بد أن يكون سقط من هنا شيء ولعله المنفعة

واذا كان كذلك فلا بد من فضل اعتناء بهذا الفصل، حتى لا يغتر به جاهل أو زاعم انه عالم، وبالله التوفيق؛ فنقول:

*

ان الاستحسان يراه معتبراً في الاحكام مالك وأبو حنيفة، بخلاف الشافعي فانه منكر له جدا حتى قال «من استحسن فقد شرع» والذي يستقرى من مذهبهما انه يرجع الى العمل باقوى الدليلين. هكذا قال ابن العربي — قال — فالعموم اذا استمرّ، والقياس اذا اطّرد، فإن مالكا وابا حنيفة يريان تخصيص العموم باي دليل كان من ظاهر أو معنى — قال — ويستحسن مالك ان يخص بالمصلحة؛ ويستحسن ابو حنيفة ان يخص بقول الواحد من الصحابة الوارد بخلاف القياس — قال — ويريان معاً تخصيص القياس ونقض العلة، ولا يرى الشافعي لعلة الشرع اذا ثبتت تخصيصاً

هذا ما قال ابن العربي. ويشعر بذلك تفسير الكرخي انه العدول عن الحكم في المسئلة بحكم نظائرها الى خلافه لوجه أقوى. وقال بعض الحنفية: انه القياس الذي يجب العمل به، لأن العلة كانت علة بأثرها: سموا الضعيف الأثر قياسا والقوي الأثر استحسانا، أي قياسا مستحسنا، وكانه نوع من العمل باقوى القياسين؛ وهو يظهر من استقراء مسائلهم في الاستحسان بحسب النوازل الفقهية

بل قد جاء عن مالك ان الاستحسان تسعة اعشار العلم. ورواه اصبغ عن ابن القاسم عن مالك، قال اصبغ في الاستحسان: قد يكون أغلب

من القياس . وجاء عن مالك ان المفرق في القياس يكاد يفارق السنة [1] .

وهذا الكلام لا يمكن ان يكون بالمعنى الذي تقدم قبلُ، وانه ما يستحسنه المجتهد بعقله، او أنه دليل ينقدح في نفس المجتهد تعسر عبارته عنه ؛ فان مثل هذا لا يكون تسعة اعشار العلم ، ولا اغلب من القياس الذي هو احد الأدلة

وقال ابن العربي في موضع آخر : الاستحسان إيثار ترك مقتضى الدليل، على طريق الاستثناء والترخص ، لمعارضة مايعارض به في بعض مقتضياته . وقسمه اقساما عدّ منها اربعة اقسام ، وهي ترك الدليل للعرف، وتركه للمصلحة ، وتركه لليسير ، لرفع المشقة ، وإيثار التوسعة [2]

وحدّه غير ابن العربي من أهل المذهب بانه عند مالك : استعمال مصلحة جزئية فى مقابلة قياس كلي . — قال — فهو تقديم الاستدلال المرسل على القياس .

وعرفه ابن رشد فقال : الاستحسان ـ الذي يكثر استعماله حتى يكون اعمّ من القياس ـ هو ان يكون طرحا لقياس يؤدي الى غلو في الحكم ومبالغة فيه ، فعدل عنه في بعض المواضع لمعنى يؤثر في الحكم يختص به ذلك الموضع .

وهذه تعريفات قريب بعضها من بعض

---

(١) كانت العبارة في صلب النسخة هكذا « ان المفرق في القياس يكاد يفرق الناس . ووضع فوق « يفرق الناس » خط وكتب بازائه في الحاشية « يفارق السنة » على ان معنى العبارة المصححة ظاهر . (٢) اذا كان قوله « لرفع المشقة » الخ تعليلا لتركه في « لليسير » (وهو القليل التافه) فاين القسم الرابع ؟ وان كان قسما برأسه فلماذا لم يقل « وتركه لرفع المشقة » ؟ وليراجع المثال السابع في ص ٩٢٧

واذا كان هذا معناه عن مالك وابي حنيفة فليس بخارج عن الادلة البتة ، لان الادلة يقيد بعضها ويخصص بعضها بعضاً ، كما فى الادلة السنية مع القرآنية . ولا يرد الشافعي مثل هذا اصلا . فلا حجة فى تسميته استحسانا لمبتدع [1] على حال

ولا بد من الاتيان بامثلة تبين المقصود بحول الله ، ونقتصر على عشرة أمثلة .

(احدها) ان يعدل بالمسئلة عن نظائرها بدليل الكتاب ، كقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فظاهر اللفظ العموم في جميع مايتمول به ، وهو مخصوص فى الشرع بالاموال الزكوية خاصة ؛ فلو قال قائل : مالي صدقة . فظاهر لفظه يعم كل مال ، ولكنا نحمله على مال الزكاة ، لكونه ثبت الحمل عليه في الكتاب . قال العلماء : وكأن هذا يرجع الى تخصيص العموم بعادة فهم خطاب القرآن . وهذا المثال أورده الكرخي تمثيلا لما قاله في الاستحسان

(والثاني) ان يقول الحنفي : سؤر سباع الطير نجس ، قياسا على سباع البهائم . وهذا ظاهر الأثر ، ولكنه ظاهر استحسانا ؛ لان السبع ليس بنجس العين ، ولكن لضرورة تحريم لحمه ، فثبتت نجاسته بمجاورة رطوبات لعابه . واذا كان كذلك فارقه الطير ، لأنه يشرب بمنقاره وهو طاهر بنفسه ؛ فوجب الحكم بطهارة سؤره ، لان هذا أثر قوي وان خفي ، فترجح على الاول ، وان كان أمره جليا ، والاخذ بأقوى القياسين متفق عليه

(والثالث) ان ابا حنيفة قال : اذا شهد اربعة على رجل بالزنا ولكن

---

(١) قوله « لمبتدع » خبر قوله « فلا حجة »

عين كل واحد غير الجهة التي عينها (الآخر) ، فالقياس ان لا يحد ، ولكن استحسن حده . ووجه ذلك انه لا يحد الا من شهد عليه اربعة . فاذا عين كل واحد دارا ، فلم يأت على كل مرتبة باربعة . لامتناع اجتماعهم على رتبة واحدة . فاذا عين كل واحد زاوية فالظاهر تعدد الفعل ، ويمكن التزاحف.

فاذا قال : القياس ان لا يحد . فمعناه ان الظاهر انه لم يجتمع الاربعة على زنا واحد ، ولكنه يقول [1] في المصير الى الامر الظاهر تفسيق العدول، فانه ان لم يكن محدودا صار الشهود فسقة، ولا سبيل الى [2] ماوجدنا الى العدول عنه سبيلا ، فيكون حمل الشهود على مقتضى العدالة عند الامكان يجر ذلك الامكان البعيد ، فليس هذا حكما بالقياس ، وانما [3] تمسك باحتمال تلقي الحكم من القرآن ، وهذا يرجع في الحقيقة الى تحقيق مناطه

(والرابع) ان مالك بن انس من مذهبه ان يترك الدليل للعرف ، فانه رد الأيمان الى العرف ، مع ان اللغة تقتضي في ألفاظها غير مايقتضيه العرف ، كقوله : والله لا دخلت مع فلان بيتا . فهو يحنث [4] بدخول كل موضع يسمى بيتا في اللغة ، والمسجد يسمى بيتا فيحنث على ذلك ، الا ان عرف الناس أن لا يطلقوا هذا اللفظ عليه ، نخرج بالعرف على [5] مقتضى اللفظ فلا يحنث

(١) لعل أصله « يؤل » فان الزنا اذا لم يثبت بشهادة من شهدوا به يؤل الأمر الى قذفهم للمشهود عليه وهو فسق. والعبارة كما ترى لاتفهم الا بتكلف (٢) لعله سقط من هنا لفظ « التفسيق » (٣) لعله سقط من هنا كلمة « هو » (٤) نص نسختنا « فلا يحنث » وهو غلط حتما (٥) لعله عن

(والخامس) ترك الدليل لمصلحة ، كما فى تضمين الاجير المشترك وان لم يكن صانعاً ، فان مذهب مالك في هذه المسئلة على قولين ، كتضمين صاحب الحمام الثياب ؛ وتضمين صاحب السفينة ؛ وتضمين السماسرة المشتركين ؛ وكذلك حمال الطعام — على رأي مالك — فانه ضامن ، ولاحقٌ عنده بالصناع . والسبب في ذلك بعد السبب في تضمين الصناع .

فان قيل : فهذا من باب المصالح المرسلة لا من باب الاستحسان . قلنا : نعم ! الا أنهم صوروا الاستحسان تصور الاستثناء(٢) من القواعد ، بخلاف المصالح المرسلة . ومثل ذلك يتصور فى مسئلة التضمين ، فان الاجراء مؤتمنون بالدليل لا بالبراءة الاصلية ، فصار تضمينهم في حيز المستثنى من ذلك الدليل ؛ فدخلت تحت معنى الاستحسان بذلك النظر

(والسادس) انهم يحكون الاجماع على ايجاب الغرم على من قطع ذنب بغلة القاضي ، يريدون غرم قيمة الدابة لا قيمة النقص الحاصل فيها . ووجه ذلك ظاهر ، فان بغلة القاضي لا يحتاج اليها الا للركوب ، وقد امتنع ركوبه لها بسبب فحش ذلك العيب ، حتى صارت بالنسبة الى ركوب مثله في حكم العدم ، فألزموا الفاعل غرم قيمة الجميع . وهو متجه بحسب الغرض الخاص ، وكان الاصل أن لا يغرم الا قيمة ما نقصها القطع خاصة ، لكن استحسنا ما تقدم

وهذا الاجماع مما ينظر فيه ، فان المسئلة ذات قولين فى المذهب

(٢) الظاهر ان يقول : صوروا الاستحسان بصورة الاستثناء . — أو — تصوروا الاستحسان تصور الاستثناء الخ

وغيره، ولكن الاشهر في المذهب المالكي ما تقدم حسبما نص عليه القاضي عبد الوهاب

(والسابع) ترك مقتضى الدليل في اليسير لتفاهته ونزارته لرفع المشقة، وايثار التوسعة على الخلق؛ فقد أجازوا التفاضل اليسير فى المراطلة الكثيرة، وأجازوا البيع بالصرف اذا كان أحدهما تابعاً للآخر، وأجازوا بدل الدرهم الناقص بالوازن[1] لنزارة ما بينهما. والاصل المنع في الجميع، لما في الحديث من أن الفضة بالفضة والذهب بالذهب مثلا بمثل سواء بسواء، وأن من زاد أو ازداد فقد أربى. ووجه ذلك ان التافه في حكم العدم، ولذلك لا تنصرف اليه الاغراض في الغالب، وان المشاحة في اليسير قد تؤدي الى الحرج والمشقة، وهما مرفوعان عن المكلف

(والثامن) أن فى العتبية من سماع اصبغ في الشريكين يطآن الامة في طهر واحد فتأتي بولد فينكر أحدهما الولد دون الآخر – انه يكشف منكر الولد عن وطئه الذي أقر به؛ فان كان في صفته ما يمكن معه الانزال لم يلتفت الى انكاره، وكان كما لو اشتركا فيه، وان كان يدعي العزل من الوطء الذي أقر به، فقال أصبغ: اني أستحسن هاهنا أن ألحقه بالآخر؛ والقياس أن يكونا سواء، فلعله غلب ولا يدري. وقد قال عمرو بن العاص في نحو هذا «ان الوكاء قد ينقلب» — قال — والاستحسان هاهنا ان ألحقه بالآخر، والقياس أن يكونا في العلم قد يكون أغلب من القياس (؟) — ثم حكى عن مالك ما تقدم

ووجه ذلك ابن رشد بأن الاصل: من وطئ أمته فعزل عنها وأتت

(١) الوازن ما وزن فعرف أنه تام. يقال: درهم وزن — ووازن — وموزون

الآخر الذي لم يعزل عنها أن يكون الحكم في ذلك بمنزلة ما اذا كانا جميعاً يعزلان أو ينزلان . والاستحسان – كما قال – أن يلحق الولد بالذي ادعاه وأقر أنه كان ينزل ، وتبرأ منه الذي أنكره وادعى انه كان يعزل؛ لان الولد يكون مع الانزال غالباً ولا يكون مع العزل الا نادرا، فيغلب على الظن ان الولد انما هو للذي ادعاه وكان ينزل، لا الذي انكره وهو يعزل ؛ والحكم بغلبة الظن أصل في الاحكام ، وله في هذا الحكم تأثير، فوجب أن يصار اليه استحساناً – كما قال أصبغ – وهو ظاهر فيما نحن فيه

(والتاسع) ماتقدم أولا من ان الامة استحسنت دخول الحمام من غير تقدير أجرة ولا تقدير مدة اللبث ولا تقدير الماء المستعمل . والاصل في هذا المنع ، الا أنهم أجازوا – لا كما قال المحتجون على البدع ، بل لامر آخر هو من هذا القبيل الذي ليس بخارج عن الادلة ؛ فأما تقدير العوض فالعرف هو الذي قدره ، فلا حاجة الى التقدير ، وأما مدة اللبث وقدر الماء المستعمل فان لم يكن ذلك مقدرا بالعرف أيضاً فانه يسقط للضرورة اليه . وذلك لقاعدة فقهية ، وهي أن نفي جميع الغَرر في العقود لا يقدر عليه ، وهو يضيق أبواب المعاملات ، وهو تحسيم ابواب المفاوضات(؛) ونفي الضرر انما يطلب تكميلاً ورفعاً لما عسى ان يقع من نزاع ، فهو من الامور المكملة ، والتكميلات اذا أفضى اعتبارها الى ابطال المكملات سقطت جملة ، تحصيلا للمهم – حسبما تبين في الاصول – فوجب أن يسامح في بعض أنواع الغرر التي لا ينفك عنها ، اذ يشق طلب الانفكاك عنها ، فسومح المكلف بيسير الغرر ، لضيق الاحتراز

مع تفاهة ما يحصل من الغرض [1] ويسامح في كثيره اذ ليس في محل الضرورة، ولعظيم ما يترتب عليه من الخطر، لكن الفرق بين القليل والكثير، غير منصوص عليه في جميع الامور، وانما نهي عن بعض أنواعه مما يعظم فيه الغرر، فجعلت اصولا يقاس عليها غير القليل اصلا فى عدم الاعتبار وفى الجواز، وصار الكثير في [2] المنع، ودار فى الاصلين فروع تتجاذب العلماء النظر فيها، فاذا قل الغرر وسهل الامر وقلّ النزاع ومست الحاجة الى المسامحة فلابد من القول بها، ومن هذا القبيل مسئلة التقدير في ماء الحمام ومدة اللبث

قال العلماء ولقد بالغ مالك في هذا الباب وامعن فيه، فجوز أن يستأجر الاجير بطعامه وان كان لا ينضبط مقدار أكله، ليسار أمره وخفة خطبه وعدم المشاحة، وفرق بين تطرق يسير الغرر الى الاجل فأجازه، وبين تطرقه للثمرة فمنعه، فقال: يجوز للانسان ان يشتري سلعة الى الحصاد أو الى الجذاذ، وان كان اليوم بعينه لاينضبط، ولو باع سلعة بدرهم أو مايقاربه لم يجز، والسبب في التفرقة المضايقة في تعيين الاثمان وتقديرها ليست في العرف، ولا مضايقة في الاجل، اذ قد يسامح البائع فى التقاضي الايام، ولا يسامح في مقدار الثمن على حال

ويعضده ما روى عمرو بن العاص رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بشراء الابل الى خروج المصدّق، وذلك لايضبط يومه ولا يعين ساعته. ولكنه على التقريب والتسهيل

(١) لعله الغرر أو الضرر (٢) لعل أصله « في حكم المنع ـ أو ـ في حيز المنع »

فتأملوا كيف وجه الاستثناء من الاصول الثابتة بالحرج والمشقة .
واين هذا من زعم الزاعم انه استحسان العقل بحسب العوائد فقط ؟
فتبين لك بون ما بين المنزلتين .

(العاشر) أنهم قالوا : ان من جملة انواع الاستحسان مراعاة خلاف العلماء . وهو أصل في مذهب مالك ينبني عليه مسائل كثيرة

(منها) ان الماء اليسير اذا حلت فيه النجاسة اليسيرة ولم تغير احد أوصافه انه لايتوضأ به بل يتيمم ويتركه ؛ فان توضأ به وصلى أعاد مادام في الوقت ، ولم يعد بعد الوقت ؛ وانما قال « يعيد في الوقت » مراعاة لقول من يقول : انه طاهر مطهر . ويروى جواز الوضوء به ابتداءا ، وكان قياس هذا القول ان يعيد ابداً ، اذ لم يتوضأ الا بماء يصح له تركه والانتقال عنه الى التيمم

(ومنها) قولهم في النكاح الفاسد الذي يجب فسخه : ان لم يتفق على فساده فيفسخ بطلاق ، ويكون فيه الميراث ، ويلزم فيه الطلاق على حده في النكاح الصحيح ؛ فان اتفق العلماء على فساده فسخ بغير طلاق ، ولا يكون فيه ميراث ولا يلزم فيه طلاق

(ومنها) مسئلة من نسي تكبيرة الاحرام وكبر للركوع وكان مع الامام [1] ان يتمادى ، لقول من قال : ان ذلك يجزئه . فاذا سلم الامام أعاد هذا المأموم . وهذا المعنى كثير جدا في المذهب ؛ ووجهه انه راعى دليل المخالف في بعض الاحوال ، لأنه ترجح عنده ، ولم يترجح عنده

(١) سقط من هنا مايكون به قوله « أن يتمادى » جملة مفيدة ، ولعل أصله : وجب ـ أو ـ فعليه أن يتمادى

في بعضها فلم يراعه .

ولقد كتبت في مسئلة مراعاة الخلاف الى بلاد المغرب والى بلاد افريقية لإشكال عرض فيها من وجهين : احدهما مما يخص هذا الموضع على فرض صحتها ، وهو ما أصلها من الشريعة وعليه تبنى من قواعد أصول الفقه ؛ فان الذي يظهر الآن ان الدليل هو المتبع فحيثما صار صير اليه ، ومتى رجح للمجتهد احد الدليلين على الآخر ولو بادنى وجوه الترجيح — وجب التعويل عليه وإلغاء ماسواه ، على ما هو مقرر في الاصول ؛ فاذاً رجوعه - اعني المجتهد - الى قول الغير إعمال لدليله المرجوح عنده ، واهمال للدليل الراجح عنده الواجب عليه اتباعه ؛ وذلك على خلاف القواعد .

فأجابني بعضهم باجوبة منها الأقرب والأبعد ؛ إلا أني راجعت بعضهم بالبحث ، وهو اخي ومفيدي ابو العباس ابن القباب رحمة الله عليه ، فكتب اليّ بما نصه :

« وتضمن الكتاب المذكور عودة السؤال في مسئلة مراعاة الخلاف ، وقلتم ان رجحان احدى الامارتين على الاخرى ان تقديمها على الاخرى [1] اقتضى ذلك عدم المرجوحة مطلقا ، واستشنعتم ان يقول المفتي «هذا لايجوز» ابتداء ، وبعد الوقوع يقول بجوازه . لانه يصير الممنوع اذا فعل جائزا . وقلتم انه انما يتصور الجمع في هذا النحو في منع التنزيه لامنع التحريم . — الى غير ذلك مما أوردتم في المسئلة .

« وكلها ايرادات شديدة صادرة عن قريحة قياسية منكرة

(١) ينظر

لطريقة الاستحسان؛ والى هذه الطريقة ميل فحول من الأئمة والنظار، حتى قال الامام ابو عبدالله الشافعي: من استحسن فقد شرع.

« ولقد ضاقت العبارة عن معنى أصل الاستحسان ـ كما في علمكم ـ حتى قالوا: أصح عبارة فيه انه معنى ينقدح في نفس المجتهد تعسر العبارة عنه. فاذا كان هذا أصله الذي ترجع فروعه اليه، فكيف ما يبني عليه؛ فلا بد ان تكون العبارة عنها أضيق.

« ولقد كنت أقول بمثل ما قال هؤلاء الاعلام في طرح الاستحسان وما بني عليه، لولا أنه اعتضد وتقوى بوجدانه كثيرا في فتاوى الخلفاء واعلام الصحابة وجمهورهم مع عدم النكير، فتقوى ذلك عندي غاية، وسكنت اليه النفس، وانشرح اليه الصدر، ووثق به القلب، للامر باتباعهم والاقتداء بهم، رضي الله عنهم.

« فمن ذلك المرأة يتزوجها رجلان ولا يعلم الآخر بتقدم نكاح غيره الا بعد البناء، فأباها عليه بذلك عمر ومعاوية والحسن رضي الله عنهم. وكل ما أوردتم في قضية السؤال وارد عليه، فانه اذا تحقق ان الذي لم يبن هو الاول فدخول الثاني بها دخول بزوج غيره، وكيف يكون غلطه على زوج غيره مبيحا على الدوام، ومصححا لعقده الذي لم يصادف محلا، ومبطلا لعقد نكاح مجمع على صحته، لوقوعه على وفق الكتاب والسنة ظاهرا وباطنا؛ وانما المناسب ان الغلط يرفع عن الغالط الاثم والعقوبة، لا إباحة زوج غيره دائما، ومنع زوجها منها

« ومثل ذلك ما قاله العلماء في مسئلة امرأة المفقود: انه ان قدم المفقود قبل نكاحها فهو احق بها، وان كان بعد نكاحها والدخول بها

بانت ، وان كانت بعد العقد وقبل البناء فقولان ، فانه يقال : الحكم لها بالعدة من الاول ان كان قطعا لعصمته فلاحق له فيها ولو قدم قبل تزوجها ، أو ليس بقاطع للعصمة ، فكيف تباح لغيره وهي في عصمة المفقود ؟

« وما روي عن عمر وعثمان في ذلك أغرب ، وهو أنهما قالا : اذا قدم المفقود يخير بين امرأته أو صداقها ، فان اختار صداقها بقيت للثاني. فأين هذا من القياس ؟ وقد صحح ابن عبد البر هذا النقل عن الخليفتين عمر وعثمان رضي الله عنهما ، ونقل عن علي رضي الله عنه انه قال بمثل ذلك ، أو أمضى الحكم به ، وان كان الأشهر عنه خلافه . ومثله في قضايا الصحابة كثير من ذلك

« قال ابن المعدل : لو ان رجلين حضرهما وقت الصلاة فقام أحدهما فأوقع الصلاة بثوب نجس مجانا (؟) وقعد الآخر حتى خرج الوقت ولا يغاربه (؟) [1] مع نقل غير واحد من الاشياخ الاجماع على وجوب النجاسة (؟) عامدا جمع الناس ان لا يساوي مؤخرها على وجوب النجاسة حال الصلاة [2] وممن نقله اللخمي والمازري ، وصححه الباجي ، وعليه مضى عبد الوهاب في تلقينه

« وعلى الطريقة التي أوردتم — ان المنهي عنه ابتداء غير معتبر — احرى بكون أمر هذين الرجلين بعكس ماقال ابن المعدل ، لأن الذي

(١) كذا في الاصل وفيه حذف وتحريف ظاهر وقد وضع فوق ألف « مجانا » ثلاث نقط ، وكلمة « يغاربه » يحتمل أن تكون « يقاربه » (٢) لاتزال العبارة مضطربة تدل على الحذف والبتر والتصحيف والتحريف .

صلى بعد الوقت قضى مافرط فيه ، والآخر لم يعمل كما أمر ، ولا قضى شيئا ؛ وليس كل منهي عنه ابتداء غير معتبر بعد وقوعه

وقد صحح الدارقطني حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها، فان الزانية هي التي تزوج نفسها » وأخرج أيضا من حديث عائشة رضي الله عنها « ايما امرأة نكحت بغير اذن مواليها فنكاحها باطل - ثلاث مرات - فان دخل بها فالمهر لها بما أصاب منها » . فحكم أولاً ببطلان العقد واكده بالتكرار ثلاثا ، وسماه زنا . واقلّ مقتضياته عدم اعتبار هذا العقد جملة. لكنه صلى الله عليه وسلم عقبه بما اقتضى اعتباره بعد الوقوع بقوله « ولها مهرها بما أصاب منها » ومهر البغيّ حرام

وقد قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) الآية . فعلل النهي عن استحلاله بابتغائهم فضل الله ورضوانه مع كفرهم بالله تعالى ، الذي لا يصح معه عبادة ، ولا يقبل عمل ؛ وان كان هذا الحكم الآن منسوخا ، فذلك لا يمنع الاستدلال به في هذا المعنى

« ومن ذلك قول الصديق رضي الله عنه : وستجد أقواما زعموا انهم حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما زعموا انهم حبسوا أنفسهم له . ولهذا لا يسبى الراهب ويترك له ماله أو ماقل منه ، على الخلاف في ذلك ؛ وغيره ممن لا يقاتل يسبى ويملك ، وإنما ذلك لما زعم انه حبس نفسه له ، وهي عبادة الله تعالى . وإن كانت عبادته أبطل الباطل . فكيف يستبعد اعتبار عبادة مسلم على وفق دليل شرعي لا يقطع بخطإ فيه ؛ وان كان يظن ذلك ظنا . وتتبع مثل هذا يطول

« وقد اختلف فيما تحقق فيه نهي من الشارع : هل يقتضي فساد المنهي عنه ؟ وفيه بين الفقهاء والاصوليين مالايخفى عليكم، فكيف بهذا ؟

« واذا خرجت المسئلة المختلف فيها الى أصل مختلف فيه، فقد خرجت عن حيز الاشكال ، ولم يبق الا الترجيح لبعض تلك المسائل ؛ ويرجح كل أحد ماظهر له بحسب ماوفق له. ولنكتف بهذا القدر في هذه المسئلة »

انتهى ما كتب لي به وهو بسط ادلة شاهدة لاصل الاستحسان، فلا يمكن مع هذا التقرير كله ان يتمسك به من أراد ان يستحسن بغير دليل أصلا

فصل

فاذا تقرر هذا فلنرجع الى ما احتجوا به أولا : فاما من حدّ الاستحسان بانه « مايستحسنه المجتهد بعقله ويميل اليه برأيه » — فكأن هؤلاء يرون هذا النوع من جملة أدلة الاحكام ، ولاشك ان العقل يجوز ان يرد الشرع بذلك ، بل يجوز أن يرد بأن ماسبق الى أوهام العوام — مثلا — فهو حكم الله عليهم ، فيلزمهم العمل بمقتضاه . ولكن لم يقع مثل هذا ولم يعرف التعبد به لا بضرورة ولا بنظر ولا بدليل من الشرع قاطع ولا مظنون، فلا يجوز اسناده لحكم الله ؛ لانه ابتداء تشريع من جهة العقل .

وايضا فانا نعلم ان الصحابة رضي الله عنهم حصروا نظرهم في الوقائع التي لانصوص فيها في الاستنباط [1] والرد الى مافهموه من الاصول الثابتة. ولم يقل أحد منهم : اني حكمت في هذا بكذا لأن طبعي مال اليه ، أو لانه

(١) قوله « في الوقائع » متعلق بنظرهم ، وقوله « في الاستنباط » متعلق بحصروا

يوافق محبتي ورضائي . ولو كان كذلك لاشتد عليه النكير ، وقيل له : من أين لك ان تحكم على عباد الله بمحض ميل النفس وهوى القلب ؛ هذا مقطوع ببطلانه

بل كانوا يتناظرون ويعترض بعضهم بعضاً على مأخذ بعض ، ويحصرون ضوابط الشرع

وأيضاً فلو رجع الحكم الى مجرد الاستحسان لم يكن للمناظرة فائدة ، لأن الناس تختلف اهواؤهم واغراضهم في الاطعمة والاشربة واللباس وغير ذلك ، ولايحتاجون الى مناظرة بعضهم بعضاً : لم كان هذا الماء اشهى عندك من الآخر ؛ والشريعة ليست كذلك

على ان أرباب البدع العملية اكثرهم لايحبون ان يناظروا احدا . ولا يفاتحون عالما ولا غيره فيما يبتغون ، خوفا من الفضيحة ان لايجدوا مستندا شرعيا . وانما شأنهم اذا وجدوا عالما أو لقوه ان يصانعوا ، واذا وجدوا جاهلا عاميا ألقوا عليه في الشريعة الطاهرة إشكالات ، حتى يزلزلوهم ويخلطوا عليهم ، ويلبسوا دينهم فاذا عرفوا منهم الحيرة والالتباس ، ألقوا اليهم من بدعهم على التدريج شيئاً فشيئا ، وذموا أهل العلم بأنهم أهل الدنيا المكبون عليها ، وان هذه الطائفة هم أهل الله وخاصته . وربما أوردوا عليهم من كلام غلاة الصوفية شواهد على ما يلقون اليهم ، حتى يهووا بهم في نار جهنم ؛ وأما ان يأتوا الامر من بابه ويناظروا عليه العلماء الراسخين فلا

وتأمل مانقله الغزالي في استدراج الباطنية غيرهم الى مذهبهم ، تجدهم لايعتمدون الا على خديعة الناس من غير تقرير علم ، والتحيل عليهم

بانواع الحيل ، حتى يخرجوهم من السنة ،أو من الدين جملة . ولولا الإطالة لأتيت بكلامه ، فطالعه فى كتابه (فضائح الباطنية)

***

وأما الحد الثاني فقد رد بانه لو فتح هذا الباب لبطلت الحجج وادعى كل من شاء ماشاء ، واكتفى بمجرد القول ،فألجأ الخصم الى الابطال . وهذا يجر فسادا لاخفاء له . وان سلم فذلك الدليل ان كان فاسدا فلا عبرة به ، وإن كان صحيحاً فهو راجع الى الادلة الشرعية فلا ضرر فيه

وأما الدليل الاول فلامتعلق به ، فان أحسن الاتباع الينا اتباع الادلة الشرعية، وخصوصا القرآن فان الله يقول (الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابهاً) الآية . وجاء فى صحيح الحديث — خرجه مسلم — ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته « أما بعد فاحسن الحديث كتاب الله » فيفتقر أصحاب الدليل ان يبينوا أن ميل الطباع او اهواء النفوس مما انزل الينا ، فضلاعن ان يكون من أحسنه .

وقوله (الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه)الآية يحتاج الى بيان ان ميل النفوس يسمى قولا . وحينئذ ينظر الى كونه أحسن القول كما تقدم . وهذا كله فاسد

ثم انا نعارض هذا الاستحسان بان عقولنا تميل الى ابطاله ، وانه ليس بحجة ، وانما الحجة الادلة الشرعية المتلقاة من الشرع

وأيضاً فيلزم عليه استحسان العوام ومن ليس من أهل النظر ،

اذا فرض ان الحكم يتبع مجرد ميل النفوس وهوى الطباع ، وذلك محال ؛ للعلم بان ذلك مضاد للشريعة ، فضلا عن ان يكون من ادلتها

وأما الدليل الثاني فلا حجة فيه من أوجه (احدها) ان ظاهره يدل على ان ما رآه المسلمون حسناً فهو حسن ، والامة لا تجتمع على باطل. فاجتماعهم على حسن شيء يدل على حسنه شرعا ، لان الاجماع يتضمن دليلا شرعياً ، فالحديث دليل عليكم لا لكم .

(والثاني) انه خبر واحد فى مسئلة قطعية فلا يسمع

(والثالث) انه اذا لم يرد به أهل الاجماع واريد بعضهم فيلزم عليه استحسان العوام ، وهو باطل باجماع . لا يقال : ان المراد استحسان أهل الاجتهاد ؛ لانا نقول : هذا ترك للظاهر ، فيبطل الاستدلال . ثم انه لا فائدة في اشتراط الاجتهاد ، لان المستحسن بالفرض لا ينحصر في الادلة ، فاي حاجة الى اشتراط الاجتهاد ؟

فان قيل : انما يشترط حذرا من مخالفة الادلة فان العامي لا يعرفها . قيل : بل المراد استحسان ينشأ عن الادلة ، بدليل ان الصحابة رضي الله عنهم قصروا احكامهم على اتباع الادلة وفهم مقاصد الشرع

فالحاصل ان تعلق المبتدعة بمثل هذه الامور تعلق بما لا يغنيهم ولا ينفعهم البتة ، لكن ربما يتعلقون فى آحاد بدعتهم بآحاد شبه ستذكر في مواضعها ان شاء الله . ومنها ماقد مضى.

فصل

فان قيل : أفليس في الاحاديث ما يدل على الرجوع الى مايقع في القلب ويجري في النفس ، وان لم يكن ثَمَّ دليل صريح على حكم من

أحكام الشرع ، ولا غير صريح ؟ فقد جاء في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول « دع ما يريبك الى ما لا يريبك ، فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة »

وخرّج مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والاثم فقال : « البر حسن الخلق ، والاثم ماحاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه » وعن أبي امامة رضي الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله ما الايمان ؟ قال « اذا سرتك حسناتك وساءتك سيئاتك فأنت مؤمن — قال : يارسول الله ! فما الاثم ؟ قال — اذا حاك شيء في صدرك فدعه » وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » وعن وابصة رضي الله عنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والاثم فقال : « ياوابصة ! استفت قلبك واستفت نفسك ، البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والاثم ماحاك في النفس وتردد في الصدر ، وان أفتاك الناس وأفتوك » وخرج البغوي في معجمه عن عبد الرحمن بن معاوية : أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! مايحل لي مما يحرم علي ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد عليه ثلاث مرات ، كل ذلك يسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال « أين السائل ؟ — فقال أنا ذا يا رسول الله . فقال ونقر بأصبعه — ما أنكر فوك فدعه »

وعن عبد الله قال : الاثم حواز القلوب ، فما حاك من شيء في قلبك فدعه ، وكل شيء فيه نظرة فان للشيطان فيه مطمعا . وقال أيضاً : الحلال

بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات ،فدع ما يريبك الى مالا يريبك .
وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: ان الخير طمأنينة ، وان الشر ريبة ؛ فدع ما يريبك الى مالا يريبك. وقال شريح : دع ما يريبك الى مالا يريبك ، فوالله ماوجدت فقد شيء تركته ابتغاء وجه الله .

فهذه ظهر من معناها الرجوع في جملة من الاحكام الشرعية لى ما يقع بالقلب ويهجس بالنفس ويعرض بالخاطر ، وانه اذا اطمأنت النفس اليه فالاقدام عليه صحيح ، واذا توقفت أو ارتابت فالاقدام عليه محظور ؛ وهو عين ماوقع انكاره من الرجوع الى الاستحسان الذي يقع بالقلب ويميل اليه الخاطر ، وان لم يكن ثم دليل شرعي ، فانه لو كان هنالك دليل شرعي أو كان هذا التقرير مقيدا بالأدلة الشرعية لم يُحل به على ما في النفوس ولا على مايقع بالقلوب ، مع انه عندكم عبث وغير مفيد ، كمن يحيل بالاحكام الشرعية على الامور الوفاقية ، أو الافعال التي لا ارتباط بينها وبين شرعية الاحكام . — فدل ذلك على ان لاستحسان العقول وميل النفوس أثراً في شرعية الاحكام، وهو المطلوب .

٭

والجواب : ان هذه الاحاديث وما كان في معناها قد زعم الطبري في تهذيب الآثار ان جماعة من السلف قالوا بتصحيحها، والعمل بما دل عليه ظاهرها. واتى بالآثار المتقدمة عن عمر وابن مسعود وغيرهما ؛ ثم ذكر عن آخرين القول بتوهينها وتضعيفها وإحالة معانيها .

وكلامه وترتيبه بالنسبة الى ما نحن فيه لائق ان يؤتى به على وجهه ، فاتيت به على تحري معناه دون لفظه لطوله ؛ فحكى عن جماعة انهم

قالوا : لا شيء من امر الدين الا وقد بينه الله تعالى بنص عليه أو بمعناه ؛ فان كان حلالا فعلى العامل به اذا كان عالما تحليله ، أو حراما فعليه تحريمه ، أو مكروها غير حرام فعليه اعتقاد التحليل أو الترك تنزيها

فاما العامل بحديث النفس والعارض في القلب فلا ، فان الله حظر ذلك على نبيه فقال (انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) فامره بالحكم بما اراه الله لا بما رآه وحدثته به نفسه ، فغيره من البشر أولى ان يكون ذلك محظورا عليه . وأما ان كان جاهلا فعليه مسئلة العلماء دون ما حدثته نفسه .

ونقل عن عمر رضي الله عنه انه خطب فقال : ايها الناس! قد سنت لكم السنن ، وفرضت لكم الفرائض ، وتركتم على الواضحة ، ان تضلوا بالناس يمينا وشمالا(١) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما كان في القرآن من حلال أو حرام فهو كذلك ، وما سكت عنه فهو مما عفي عنه .

وقال مالك : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تم هذا الامر واستكمل ؛ فينبغي ان تتبع آثار رسول الله صلى الله وسلم واصحابه ولا يتبع الرأي ؛ فانه من اتبع الرأي جاءه رجل آخر أقوى في الرأي منه فاتبعه ، فكلما غلبه رجل اتبعه ؛ ارى ان هذا بعدُ لم يتم . واعملوا من الآثار بما روي عن جابر رضي الله عنه : ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي اذا اعتصمتم به : كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض »(٢)

---

(١) اي كراهة ان تضلوا - أو اتقاء ان تضلوا . (٢) لا أعرف الحديث بهذا اللفظ عن جابر وهو مروي عنه بالفاظ أقربها الى ماهنا مارواه ابن ابي شيبة =

وروي عن عمرو بن . . . . . خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماوهم يجادلون في القرآن ، فخرج وجهه أحمر كالدم فقال[1] « يا قوم ! على هذا هلك من كان قبلكم ، جادلوا في القرآن وضربوا بعضه ببعض ؛ فما كان من حلال فاعملوا به ، وما كان من حرام فانتهوا عنه، وما كان من متشابه فآمنوا به »

وعن ابي الدرداء رضي الله عنه يرفعه قال : ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فيه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ؛ فاقبلوا من الله عافيته ، فان الله لم يكن لينسى شيئا (وما كان ربك نسيا)

قالوا : فهذه الاخبار وردت بالعمل بما في كتاب الله ، والإعلام بان العامل به لن يضل ، ولم يأذن لأحد فى العمل بمعنى ثالث غير مافي

= والخطيب في المتفق والمفترق عنه وهو « تركت فيكم مالن تضلوا ان اعتصمتم به ـ كتاب الله وعترتي اهل بيتي » ورواه الترمذي والنسائي عنه بلفظ « يا ايها الناس إني تركت فيكما ان اخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي اهل بيتي » والحديث مروي بلفظ العترة بدل السنة عن كثير من الصحابة منهم زيد بن ثابت وزيد بن أرقم وابو سعيد الخدري . وروي عن أبي هريرة بلفظ السنة بدل العترة . وفي كلا السياقين لفظ « لن يفترقا حتى يردا علي الحوض » والجمع بينهما في المعنى ان عترته أهل بيته يحافظون على سنته . أي لا يخلو الزمان عن قدوة منهم يقيمون سنته لا يثنيهم عنها التقليد ولا الابتداع ولا الفتن .

(١) كذا في الاصل والحديث اخرجه نصر المقدسي في الحجة عن ابن عمر قال : خرج رسول الله عليه وسلم ومن وراء حجرته قوم يتجادلون بالقرآن ، فخرج محمرة وجنتاه كأنما تقطران دما فقال : « ياقوم! لا تجادلوا بالقرآن ، فانما ضل من قبلكم بجدالهم ، ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، ولكن نزل يصدق بعضه بعضاً ، فما كان من محكمه فاعملوا به ، وما كان من متشابهه فآمنوا به »

الكتاب والسنة ، ولو كان ثم ثالث لم يدع بيانه ، فدل على ان لا ثالث ؛ ومن ادعاه فهو مبطل .

قالو — فان قيل: فانه عليه السلام قد سن لامته وجها ثالثا وهو قوله « استفت قلبك » وقوله « الاثم حواز القلوب » الى غير ذلك . قلنا : لو صحت هذه الاخبار لكان ذلك ابطالا لأمره بالعمل بالكتاب والسنة اذ صحا معا ، لان احكام الله ورسوله لم ترد بما استحسنته النفوس واستقبحته ، وانما كان يكون وجها ثالثا لو خرج شيء من الدين عنهما ، وليس بخارج ،فلا ثالث يجب العمل به .

فان قيل : قد يكون قوله «استفت قلبك » ونحوه امرا لمن ليس في مسئلته نص من كتاب ولا سنة ، واختلفت فيه الامة ، فيعد وجها ثالثا . قلنا : لا يجوز ذلك لامور

(احدها) ان كل ما لا نص فيه بعينه قد نصبت على حكمه دلالة ، فلو كان فتوى القلب ونحوه دليلا لم يكن لنصب الدلالة الشرعية عليه معنى ، فيكون عبثاً ، وهو باطل

(والثاني) ان الله تعالى قال (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) فامر المتنازعين بالرجوع الى الله والرسول دون حديث النفوس وفتيا القلوب

(والثالث) ان الله تعالى قال (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) فامرهم بمسئلة أهل الذكر ليخبروهم بالحق فيما اختلفوا فيه من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يأمرهم ان يستفتوا في ذلك انفسهم

(والرابع) ان الله تعالى قال لنبيه احتجاجا على من انكر وحدانيته

(افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ؟) الى آخرها . فامرهم بالاعتبار بعبرته ، والاستدلال بادلته ، على صحة ماجاءهم به ، ولم يأمرهم ان يستفتوا فيه نفوسهم ، ويصدروا عما اطمأنت اليه قلوبهم ؛ وقد وضع الاعلام والادلة ، فالواجب في كل ما وضع الله عليه الدلالة ان يستدل بأدلته على ما دلت ، دون فتوى النفوس وسكون القلوب من أهل الجهل باحكام الله

هذا ما حكاه الطبري عمن تقدم ، ثم اختار إعمال تلك الاحاديث ، إما لانها صحت عنده أو صح منها عنده ماتدل عليه معانيها ، كحديث «الحلال بين والحرام بين» الى آخر الحديث ، فانه صحيح خرجه الامامان. ولكنه لم يعملها في كل من ابواب الفقه ، اذ لا يمكن ذلك في تشريع الاعمال واحداث التعبدات ، فلا يقال بالنسبة الى احداث الاعمال : اذا اطمأنت نفسك الى هذا العمل فهو برّ ، أو : استفت قلبك في احداث هذا العمل ، فان اطمأنت اليه نفسك فاعمل به والا فلا .

وكذلك في النسبة الى التشريع التّركي ، لا يتأتّى تنزيل معاني الاحاديث عليه بان يقال : إن اطمأنت نفسك الى ترك العمل الفلاني فاتركه ، والا فدعه . أي فدع الترك واعمل به . وانما يستقيم إعمال الاحاديث المذكورة فيما أعمل فيه قوله عليه السلام «الحلال بين والحرام بين» الحديث

وما كان من قبيل العادات من استعمال الماء والطعام والشراب والنكاح واللباس ، وغير ذلك مما فى هذا المعنى ، فمنه ما هو بين الحلّية ، وما هو بيّن التحريم ، وما فيه اشكال - وهو الامر المشتبه الذي لا يدرى أحلال هو أم حرام - فان ترك الاقدام اولى من الاقدام مع جهله بحاله ، نظير قوله عليه السلام « اني لأجد التمرة ساقطة على فراشي ، فلولا

اني اخشى ان تكون من الصدقة لأكلتها »[١] فهذه التمرة لا شك انها لم تخرج من احدى الحالين : إما من الصدقة وهي حرام عليه ، وإما من غيرها وهي حلال له ، فترك اكلها حذرا من ان تكون من الصدقة في نفس الامر

قال الطبري — فكذلك حق الله على العبد فيما اشتبه عليه مما هو في سعة من تركه والعمل به ، أو مما هو غير واجب — ان يدع ما يريبه فيه الى ما لا يريبه ، اذ يزول بذلك عن نفسه الشك ، كمن يريد خطبة امرأة فتخبره امرأة انها قد ارضعته واياها ولا يعلم صدقها من كذبها ، فان تركها ازال عن نفسه الريبة اللاحقة له بسبب اخبار المرأة ، وليس تزوجه اياها بواجب ، بخلاف مالو أقدم ، فان النفس لا تطمئن الى حلية تلك الزوجة.

وكذلك قول عمر انما هو فيما شكل امره في البيوع فلم يدر حلال هو أم حرام ؟ ففي تركه سكون النفس وطمأنينة القلب ، كما في الاقدام شك : هل هو أثم أم لا ؟ وهو معنى قوله عليه السلام للنواس ووابصة رضي الله عنهما. ودل على ذلك حديث المشتبهات ، لا ما ظن اولئك من انه امر للجهال ان يعملوا بما رأته انفسهم ، ويتركوا ما استقبحوه دون ان يسألوا علماءهم

قال الطبري - فان قيل : اذا قال الرجل لامرأته : أنت عليّ حرام . فسأل العلماء فاختلفوا عليه ، فقال بعضهم : قد بانت منك بالثلاث . وقال بعضهم : انها حلال غير ان عليك كفارة يمين . وقال بعضهم : ذلك الى نيته ان اراد الطلاق فهو طلاق ، أو الظهار فهو ظهار ، أو يمينا

(١) كان الحديث محرفا تحريفا مغيرا للمعنى

فهو يمين ، وان لم ينو شيئا فليس بشيء : أيكون هذا اختلافا في الحكم كاخبار المرأة بالرضاع فيؤمر هنا بالفراق ، كما يؤمر هناك ان لا يتزوجها خوفا من الوقوع في المحظور؛ او لا ؟ قيل: حكمه في مسئلة العلماء ان يبحث عن احوالهم واماناتهم ونصيحتهم ثم يقلد الارجح . فهذا ممكن ؛ والحزازة مرتفعة بهذا البحث ؛ بخلاف ما اذا بحث مثلا عن احوال المرأة فان الحزازة لا تزول ، وان اظهر البحث ان احوالها غير حميدة ؛ فهما على هذا مختلفان . وقد يتفقان في الحكم اذا بحث عن العلماء فاستوت أحوالهم عنده ، لم يثبت له ترجيح لاحدهم ؛ فيكون العمل المأمور به من الاجتناب كالمعمول به في مسألة المخبرة بالرضاع سواء ، اذ لا فرق بينهما على هذا التقدير . انتهى معنى كلام الطبري .

وقد أثبت في مسألة اختلاف العلماء على المستفتي أنه غير مخير ، بل حكمه حكم من التبس عليه الامر فلم يدر أحلال هو أم حرام ، فلا خلاص له من الشبهة الا باتباع أفضلهم والعمل بما أفتى به ، والا فالترك ، اذ لا تطمئن النفس الا بذلك ، حسبما اقتضته الادلة المتقدمة .

فصل

ثم يبقى في هذا الفصل الذي فرغنا منه اشكال على كل من اختار استفتاء القلب مطلقا أو بقيد ، وهو الذي رآه الطبري . وذلك أن حاصل الامر يقتضي أن فتاوى القلوب وما اطمأنت اليه النفوس معتبر في الاحكام الشرعية ، وهو التشريع بعينه ؛ فان طمأنينة النفس وسكون القلب مجردا عن الدليل — إما أن تكون معتبرة أو غير معتبرة شرعا ؛ فان لم تكن معتبرة فهو خلاف مادلت عليه تلك الاخبار ، وقد تقدم

أنها معتبرة بتلك الادلة . وان كانت معتبرة فقد صار ثمّ قسم ثالث غير الكتاب والسنة ، وهو غير ما نفاه الطبري وغيره

وان قيل: انها تعتبر في الإحجام دون الإقدام لم تخرج تلك عن الاشكال الاول، لان كل واحد من الإقدام والإحجام فعل لابد أن يتعلق به حكم شرعي، وهو الجواز وعدمه، وقد علق ذلك بطمأنينة النفس أو عدم طمأنينتها . فان كان ذلك عن دليل، فهو ذلك الاول بعينه باق على كل تقدير

والجواب ان الكلام الاول صحيح ، وانما النظر في تحقيقه :

فاعلم أن كل مسألة تفتقر الى نظرين : نظر في دليل الحكم ونظر في مناطه. فأما النظر في دليل الحكم فلايمكن أن يكون الا من الكتاب والسنة، أو ما يرجع اليهما من اجماع أو قياس او غيرهما ، ولا يعتبر فيه طمأنينة النفس ، ولا نفي ريب القلب ، لا من جهة اعتقاد كون الدليل دليلا أو غير دليل [1] ولا يقول أحد الا أهل البدع الذين يستحسنون الامر بأشياء لا دليل عليها ، أو يستقبحون كذلك من غير دليل الا طمأنينة النفس (؟) ان الامر كما زعموا ، وهو مخالف لاجماع المسلمين

وأما النظر في مناط الحكم ، فان المناط لا يلزم منه أن يكون ثابتاً بدليل شرعي فقط، بل يثبت بدليل غير شرعي أو بغير دليل، فلايشترط فيه بلوغ درجة الاجتهاد، بل لايشترط فيه العلم فضلاعن درجة الاجتهاد. ألاترى ان العامي اذا سأل [2] عن الفعل الذي ليس من جنس الصلاة اذا

(١) يظهر أنه سقط من هذا الموضع مقابل « لا » فان اعتقاد كون الدليل دليلا أو غير دليل أمر واحد أو جهة واحدة. وليتأمل قوله « ولا يقول أحد » الخ ولعله قد سقط منه شيء ايضا (٢) لعله « سئل »

فعله المصلي: هل تبطل به الصلاة أم لا؟ فقال العامي: ان كان يسيرا فمغتفر، وان كان كثيرا فمبطل ـ لم يفتقر في اليسير الى أن يحققه له العالم. بل العاقل يفرق بين الفعل اليسير والكثير. فقد انبنى هاهنا الحكم وهو البطلان أوعدمه على ما يقع بنفس العامي؛ وليس واحدا من الكتاب أو السنة، لانه ليس ما وقع بقلبه دليلا على حكم، وانما هو مناط الحكم، فاذا تحقق له المناط بأي وجه تحقق فهو المطلوب، فيقع عليه الحكم بدليله الشرعي

وكذلك اذا قلنا بوجوب الفور في الطهارة، وفرقنا بين اليسير والكثير في التفريق الحاصل أثناء الطهارة، فقد يكتفي العامي بذلك حسبما يشهد قلبه في اليسير أو الكثير، فتبطل طهارته او تصح بناء على ذلك الواقع في القلب، لانه نظر في مناط الحكم

فاذا ثبت هذا فمن ملك لحم شاة ذكية حل له اكله، لان حليّته ظاهرة عنده اذا حصل له شرط الحلية لتحقق مناطها بالنسبة اليه. او ملك لحم شاة ميتة لم يحل له اكله لان تحريمه ظاهر من جهة فقده شرط الحلية، فتحقق مناطها بالنسبة اليه. وكل واحد من المناطين راجع الى ما وقع بقلبه، واطمأنت اليه نفسه، لا بحسب الامر في نفسه؛ ألا ترى ان اللحم قد يكون واحدا بعينه فيعتقد واحد حليته بناء على ما تحقق له من مناطها بحسبه، ويعتقد آخر تحريمه بناء على ما تحقق له من مناطه بحسبه، فيأكل أحدهما حلالا ويجب على الآخر الاجتناب لانه حرام؟ ولو كان ما يقع بالقلب يشترط فيه ان يدل عليه دليل شرعي لم يصح هذا المثال وكان محالا، لأن ادلة الشرع لا تتناقض ابدا. فاذا فرضنا لحما أشكل على

المالك تحقيق مناطه لم[1] ينصرف الى احدى الجهتين ، كاختلاط الميتة بالذكية ، واختلاف الزوجة بالاجنبية

فهاهنا قد وقع الريب والشك والاشكال والشبهة . وهذا المناط محتاج الى دليل شرعي يبين حكمه، وهي تلك الاحاديث المتقدمة ، كقوله «دع ما يريبك الى مالا يريبك» وقوله «البر ما اطمأنت اليه النفس، والاثم ماحاك في صدرك» كأنه يقول اذا اعتبرنا[2] باصطلاحنا: ماتحققت مناطه في الحلية أو الحرمة فالحكم فيه من الشرع بيّن ، وما أشكل عليك تحقيقه فاتركه واياك والتلبس به ، وهو معنى قوله – ان صح – « استفت قلبك وان أفتوك » فان تحقيقك لمناط مسألتك أخص بك من تحقيق غيرك له اذا كان مثلك. ويظهر ذلك فيما اذا أشكل عليك المناط ولم يشكل على غيرك ، لانه لم يعرض له ما عرض لك. وليس المراد بقوله «وان أفتوك» أي ان نقلوا لك الحكم الشرعي فاتركه وانظر ما يفتيك به قلبك، فان هذا باطل ، وتقوّل على التشريع الحق . وانما المراد مايرجع الى تحقيق المناط

نعم قد لا يكون ذلك درية[3] أو انسا بتحقيقه فيحققه لك غيرك ، وتقلده فيه، وهذه الصورة خارجة عن الحديث ، كما انه قد يكون تحقيق المناط أيضاً موقوفاً على تعريف الشارع ، كحد الغنى الموجب للزكاة، فانه يختلف باختلاف الاحوال ، فحققه الشارع بعشرين دينارا ومائتي درهم

---

(١) هذا جواب «فاذا» وكان في الاصل مقرونا بالفاء (٢) لعل أصله «عبرنا» من التعبير

(٣) في الاصل «ذريعة» وقد جعل فوقها علامة الترميج وأصلحت فصارت «درية» والدرّية اصلها دريئة وهي الحلقة التي يتعلم بها الطعن وما يختل الصائد به الصيد والاظهر ان يكون اصله : قد لا يكون لك دراية او أنس بتحقيقه

وأشباه ذلك ، وانما النظر هنا فيما وكل تحقيقه الى المكلف .

فقد ظهر معنى المسألة وان الاحاديث لم تتعرض لاقتناص الاحكام الشرعية من طمأنينة النفس أو ميل القلب كما أورده السائل المستشكل ، وهو تحقيق بالغ . والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الحرب المدنية الكبرى

بلغ العالم المدني في العلوم والصناعات وشؤون الاجتماع شأوا لم تعرف له الارض نظيرا ، فرماها بقاصمة من الحرب المدنية لم تر لها نظيرا ، فهذه الحرب تشغل اليوم عقول أعرق الامم في العلم والمدنية وجميع قواهم وجوارحهم وما كسبته في الايام الخالية من علم ومال ، وما أنشأته من الآلات وعُدد القتال ، في انتقام عدة أمم ودول من أمم ودول أخرى ، وكل دولة مقاتلة تتوسل الى من بقي على الحياد من الدول لتجذبها اليها وتجعلها من أحزابها ، فلو نال كل فريق من المقاتلين مايتمناه من مساعدة غيره له لاحترقت الأرض كلها بنار هذه الحرب ، وكان البشر كلهم حولها كالفراش يتهافتون فيها

لو فكر كل امرئ من الناس بكنه هذه الحرب ونكباتها وشرورها ، وما تصبه في كل ساعة بل في كل دقيقة بل في كل ثانية من أصوات العذاب وصواعق النكال على الألوف من اخوانه البشر ، وما يخسره العالم بفقد من تصعقهم من العلماء والحكماء والصناع والزراع ، وأرباب البيوت الذين خلفوا وراءهم نساءً وأطفالا لا عائل لهم من دونهم — لو فكر كل امرئ في ذلك وأعطاه حقه من التصور والتدبر لاضطرب قلبه ، وحار لبه ، وسالت عبرته ، وعظمت عبرته ، ولكن

شغل كل امرئ ما أصابه أو يتوقع أن يصيبه من شر هذه الحرب عما أصاب غيره، وقلما يوجد أحد في الأرض آمن من مصائبها ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه

إن أبعد الناس عن مواقع القتال وأقربهم الى الامن على أنفسهم من نيران مدافعها و بنادقها وأسنة حرابها ، لهم فيها شواغل أخرى بما نقصته من مكاسبهم ، وما قطعته من موارد أرزاقهم . فقد اضطربت المعاملات المالية في العالم كله منذ بدأت ، لان هذه الدول التي أشعلت نارها هي القائمة بمعظم تجارة العالم ، والصانعة لا كثر ماعونه ولباسه وسائر أدوات عمله ، وما هذا الشاغل عند الا كثرين الا دون ما لكل منهم من الضلع والميل الى أحد الفريقين المتحاربين على الآخر ، فترى أمثال هؤلاء أكثر تفكيرا في عاقبة الاحلاف المحاربة من التفكير في عاقبة أمر أنفسهم في معاشهم وموارد رزقهم ورزق من يعولونه ، لهوًى لهم في ذلك يرضونه ، أو نفع من ورائه يرجونه

هذا وان الناس يزنون أخبار الحرب بموازين أهوائهم ، ويحكمون في عواقبها بأمانيهم لا بآرائهم ، فحكمهم هذا لايتوقف على معرفة أخبارها الصادقة ، ولا على كنه قوات الدول المحتربة . على ان من هذه القوات ماهو معلوم بالتواتر أو الاستفاضة لايماري فيه أحد من عوام الناس — دع خواصهم — ومنه ان دولة انكلترة أقوى دول الارض في البحر ، وان دولة ألمانية أقواهن في البر ، وثانيتهن في البحر ، واختلف الناس في المفاضلة بين الدول في الاساطيل الجوية ، فذهبت الصحف عندنا الى أن فرنسة صاحبة السبق في هذا المضمار وان لها القدح المعلى فيه ، ثم ظهر أن ألمانية هي المبرّزة فيه ، كما كنا نظن وفاقا لكثير من الناس . بل المعلوم بالاجمال عند جماهير الناس في الغرب وأكثر المتعلمين في الشرق أن ألمانية أشد الدول استعدادا للحرب واتقانا لنظامها وعُددها وكراعها ، وانه لولا أن انكلترة تكثرها في أساطيل البحر . لما لها في ذلك من السبق ، لسهل عليها ان تسود الامم كلها بقوتها

هذا وان جميع الدول الاوربية متقاربة في الاستعداد للقتال ، وقلما تسبق واحدة الى اختراع شيء أو احداث عدة أو انشاء حصن وتستطيع إخفاءه زمنا طويلا عن غيرها ، فإن لكل منهن عيونا احد ابصارا من زرقاء اليمامة ، وأشد استراقا للسمع من الشياطين ، ولكل من فنون العلم ودور الصنعات ما يمكنه من مباراة الآخرين في الاستعداد الذي يحتاج اليه لحماية حقيقته ، وحفظ مكانته ، ولم يكد يبقى للسابقين من مزية على اللاحقين في شيء بل صار الاول آخرا وعاد البدء ثنيانا في كثير من الشؤون، حتى خيف بعد تلك المساواة أو المقاربة في العلم والعمل ان يستعلي شعب واحد على شعوب أوربة كلها فيسود بذلك العالم كله

الفرنسيس اذكى الاوربيين أذهانا ، وأشدهم إقداما ، وأسبقهم الى المجد يدًا ولسانا ، والانكليز أرجح الشعوب أحلاما ، وأشدهم حصافة وإحكاما ، وأمثلهم سياسة وأعدلهم أحكاما . فلهذا سبق هذان الشعبان جميع الشعوب الى استعمار الممالك ، والاستمتاع بثروة الامم في المغارب والمشارق ، وقد تنافسا وتناظرا ، وتنازلا وتصاولا ، فكان الفلج والظفر لأهل الأناة والروية ، على أهل الذكاء والاريحية ، وبذلك كان الانكليز المقدم الأعلى في العالم منذ عدة أجيال ، ويليهم الفرنسيس في الثروة والاستعمار

ثم نبغ الألمان وبرعوا في جميع العلوم والاعمال والصناعات والتجارة حتى بذّوا الفرنسيس والانكليز في ذلك فصار النماء النسبي في ثروتهم اعلى من مثله في ثروة أولئك وخيف ان يصير اللاحق سابقا ، والثنيان بدءا . واشتدت المناظرة ، حتى أفضت الى هذه الحرب الحاضرة

وأما سائر الدول والامم المحاربة مع هؤلاء فهي انما حاربت بالتبع لها ، واقواهن الروسية ، فهي شديدة الاسر ، راسخة الأصل ، نامية الفرع ، غزيرة العدد ، وافرة المدد ، ولو كان شعبها كالألمان في العلوم والفنون ، لسادت الناس اجمعين ، ولكنها دون النمسة وإيطالية في العلم والصناعة ، وفوق الدولة العثمانية التي قنعت من المدنية الاوربية بتقليد الاوربيين في ظواهر النظام والزي وأساليب المعيشة ،

دون العلوم والفنون التي ترقي الصناعة والزراعة والتجارة ، وتنمي الثروة، وتغنيها عن الاجانب فيما تحتاج اليه من أسباب القوة ، وأقله معامل السلاح والذخيرة

ولولا ان الامة العثمانية حربية بالطبع، ولولا موقع عاصمتها الذي تنافسَ فيه وتحاسدَ عليه أقوى دول الارض ، فلم يسمح به بعضهن لبعض ، ولولا مكانتها من نفوس الشعوب الاسلامية ، التي كانت تو ادها لاجله الدولة البريطانية — لولا ذلك كله لاسرعت الدول الكبرى في الاجهاز عليها ، بدلا من هذه المطاولة بنقصها من أطرافها ، والاكتفاء بفتح النفوذ الاقتصادي والسياسي في أحشائها

ولا يسع الباحث ان يغفل عن سائر الدول الصغرى التي اشتعلت نار الحرب في بلادها أولا ، وهي الصرب والجبل الاسود وبلجيكة ، فجيشهن لاتفضله جيوش الدول الكبرى في الشجاعة ، والبلجيكيون من أرقى الشعوب في العلم والصناعة والتجارة

فجملة القول في المجموعين المتقاتلين أن انكلترة وفرنسة وروسية وبلجيكة والصرب والجبل الاسود أكثر من ألمانية والنمسة والعثمانية رجالا ومالا وأساطيل بحرية وهوائية، ولكن ألمانية وحدها أعلى منهن استعدادا ونظاما ، ولولا الاسطول الانكليزي ارجحت على الجميع رجحانا ظاهرا ، بل لأمكنها أن تحارب أوربة كلها وتنتصر عليها

بيد أن هذا السبق في الاستعداد ، ليس مما ينتظم في سلك الخوارق والآيات ، بل يمكن لدول الاحلاف أن يلحقوها به ، اذا عجزت في أول العهد عن بطشة فاصلة في فرنسة . أما اذا وقف مدها عند تدويخ بلجيكة والاستيلاء عليها وعلى بضع ولايات من شمال فرنسة وجانب من بولاندة الروسية، فما بعد المدّ الا الجزر ، فاذا أمكن للحلفاء أن يزيدوا عدد جندهم ويمدوه بما لم تستطع هي مثله عاد لهم الرجحان عليها في البر ، كما سبق لهم الرجحان عليها من قبل في البحر

فمحل الرجاء للحلفاء انما هو التغلب بالكثرة بقاعدة قول الشاعر العربي :

ولست بالاكثر منهم حصى وانمـــا العزة للكاثر

أما هذا المدد الذي يكون به الرجحان البري فلا يرجى الا من قبل بريطانية

العظمى لان الفرنسيس قد بذلوا كل ما في وسعهم، والروس — وان كانوا أكثر عددا — لا يجدون من الذخائر والسلاح ولا من الضباط ما يمكنهم من تجنيد العدد الذي تسمح لهم به كثرتهم، فالانكليز وحدهم هم القادرون على مضاعفة جنودهم، وعلى ايجاد ما يحتاجون اليه من السلاح والذخيرة لكثرة معاملهم وعمالهم وما لهم، وليس عندهم جندية اجبارية تستغرق العمال، وتوقف حركة الاعمال، وانما يعز عليهم التعجيل بايجاد ضباط اكفاء لجيش كبير يجددون تنظيمه تجديدا، ولكن الانكليز أهل صبر وأناة، فما لا يدركونه في سنة يرضون بأن يدركوه في سنين، وتاريخهم مرآة أخلاقهم في ذلك. وقد قدر لورد كتشنر ناظر الحربية القائم بتجهيز الجيوش الانكليزية مدة هذه الحرب بثلاث سنين

بين لنا ما تقدم مايراه كل الواقفين على الحقائق من أن هذه الحرب ليست الا المظهر الاجلى للتنازع على السيادة والنفوذ والاستعلاء في الارض بين الانكليز وأبناء عمهم الألمان، وسائر الدول تبع لهما في عللها ومعلولاتها، ومقدماتها ونتيجتها

دع البحث في المقدمات فقد انتهى أمرها، وسيحكم التاريخ حكمه العادل فيها، وأما النتيجة فهي ان السيادة العليا في الغرب والشرق ستكون لانكلترة أو لالمانية لامحالة، ويكون احلافهما تبعا لها. فتكون لانكلترة اذا فازت هي وأحلافها بالنصر التام، لانهم لن ينالوا ذلك الا بها، ولا تنتهي الحرب الا وقد انتهكت قواهن من دونها، واستحدثت هي من القوة فوق ما كان لها، اذ شرعت بتأليف قوة برية لم يكن لها مثلها في وقت من الاوقات، كما انها تزيد الاسطول قوة على قوة. وحينئذ تكون أعظم الدول ربحا وأقلهن خسارة، واذا كان من بواكر هذا الربح مصر وقبرص والبصرة ومعظم مستعمرات ألمانية في أفريقية أو جميعها كما هو المنتظر فكيف تكون أواخره؟

واما اذا كان النصر التام لألمانية وأحلافها فقد طالما لهجت الجرائد الانكليزية والفرنسية وغيرها بأن ألمانية حينئذ تجعل أوربة كلها تحت سيطرتها، وتنتزع منها جميع مستعمراتها، وأنها بذلك تسود العالم كله، ولعلنا نعود الى تفصيل القول في نتيجة الحرب على كل تقدير، بقدر ماتسمح به المراقبة الرسمية على الصحف، ونلم في ذلك بأماني الشرقيين عامة والمسلمين خاصة؟

﴿ إلغاء الامتيازات الاجنبية والحذر من الفتن الاهلية ﴾

أخذت الدولة العلية تعبئ جيشها وتستعد للقتال عقب اعلان الحرب في أوربة، وتضافرت الروايات والآراء على انها تحارب مع ألمانية والنمسة ، وقد كان مقدمات ذلك إلغاؤها الامتيازات الاجنبية ، وهي قد آذنت الدول بذلك في شهر سبتمبر، وقد خشي كثير من نصارى السوريين أن يفضي إلغاء امتيازات الدول الى فتن أهلية في سورية، فكيف اذا حاربت الدولة روسية وفرنسة وانكلترة الحامية للنصارى في بلاد الدولة، وقد تحدث اخواننا السوريون هنا بذلك، وكثر خوض الجرائد السورية الامريكية في المسألة واشتد تشاؤمها ونقلت عن سفير الدولة في واشنطون كلاما يؤيد هذا التشاؤم ، حتى انه ليخيل لمن قرأ ما كتبت ، أن الفتنة وقعت أو كربت

أما نحن فاننا نعلم ان هداية الاسلام التي حفظت لغير المسلمين حريتهم في القرون التي كانت دول الاسلام فيها أقوى دول الارض لا تزال ذات السلطان الأعلى على نفوس المسلمين ، فاذا كانت السياسة قد غلبتها اواستخدمتها في بعض الاوقات في العدوان الذي تنهى عنه فلن تستطيع ان تنال ذلك منها في كل وقت، بل نعلم فوق ذلك ان مسلمي سورية صاروا يعلمون ان مصلحتهم القومية والوطنية لن تقوم الا بتعاونهم مع سائر أبناء وطنهم المشاركين لهم في تلك المصلحة — فالنتيجة اذا ان دين المسلمين ودنياهم متفقان على نهيهم عن الاعتداء ، وحثهم على التعاون والاتفاق ، وقد كان للنهضة العربية الحديثة أعظم التأثير في ذلك .

واننا على ثقتنا بما بينا قد كتبنا مكتوبات خاصة الى من نثق بحسن سعيهم في البلاد السورية نذكرهم فيها بما يجب عليهم العناية به الآن ، ونشرنا في جريدة الاهرام اليومية التي صدرت في ٦ ذي القعدة الماضي (و ٢٦ سبتمبر سنة ٩١٤) خطابا عاما في ذلك نثبته هنا ليكون أثرا تاريخيا ، اذ تأخر صدور هذا الجزء من [illegible] دخول البلاد العثمانية وهذا نصه :

الى اخوانى الكرام

مسلمي سورية

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله . ان الله شديد العقاب »

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فانني أحمد اليكم الله عز وجل . وأصلي وأسلم على رسوله محمد نبي الرحمة . ثم أشكر لكم ما أظهرتموه من النجدة والهمة ، في الاخلاص والطاعة للدولة ، وبذل الانفس والاموال والثمرات لها ، والكف الموقت عن طلب الاصلاح منها ، وتقديركم الحال الحاضرة قدرها ، حتى انكم ساهمتم في هذا أرقى أمم الارض التي سكتت عن جميع مطالبها ومنازعاتها الداخلية ، عند مارأت حكوماتها بازاء الاخطار الخارجية ، مضطرة لتقلد السلاح ، والاصطلاء بنار القتال، فحيا كم الله أيها الاخوان، وزادكم نجدة وأريحة، واستمسا كا بعروة الدولة العلية ، بحسب ما تهدي اليه الشريعة الاسلامية ، وتقتضيه الوراثة العربية . ولا يتم لكم هذا الا بالالفة والاتفاق مع أبناء جنسكم ووطنكم من غير أبناء دينكم ، الذين ساوت الشريعة بينكم وبينهم في الحقوق العامة ، وأوجبت عليكم مالم توجبه شريعة من العدل والاحسان ، وتأكيد الوصية بالجيران

أيها الاخوان الكرام ! بلغنا ان الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، قد أخذ ينفث في عقد المودة الجنسية والوطنية ليحلها ، وليفصم عروتها وينقض غزلها ، ويزين وسوسته هذه باسم الجامعة الاسلامية ، والقيام بالنهضة الدينية ، فلا يفتننكم الشيطان، ولايخدعنكم باسم الاسلام وتحريف آيات القرآن ، فان بعض الذين يطلبون المال والجاه بهذه الاسماء لايفهمون مسمياتها ، ويستدلون بالآيات ولا يعقلون مدلولاتها، ألستم تعرفون بينكم ممن يلغط بالدعوة الى الجامعة الاسلامية ، من لا يعرف عقيدة الاسلام كما يجب ، ولا يصلي ولا يصوم ؟ ولا نبحث في زكاة أمثال هؤلاء وحجهم فانما وجوب الزكاة والحج على مالك النصاب والمستطيع، وربما يدعون عدم الاستطاعة

إنكم تعرفون هذا بينكم، وإن لن تعرفون من هذا الصنف أعوانا في غير بلادكم، هم أشد منهم نفاقا وأبرع في فن التجارة بالدين، فلا تغتروا بما يقولون ولا بما يكتبون، ورب كلمة حق أريد بها باطل، ومن المسائل المعلومة من الدين بالضرورة ان الله تعالى حرم البغي والعدوان. حتى انه قال فيمن يقاتلون المسلمين (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين) وانني أستحي أن أطيل عليكم في سرد الدلائل على تحريم البغي والتعدي لأن هذا مما تعرفه العامة كما تعرفه الخاصة، فالإطالة فيه تتضمن نسبة الجهل اليكم (وحاشاكم)

نعم ان العامة عرضة للغش والخداع ولا سيما اذ جاءها الخادع من باب الدين، فيجب على خاصتكم ان تحذر عامتكم من وسوسة المنافقين الذين يبغونكم الفتنة « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها »

وأذكركم بباب آخر من أبواب الخداع. وهو تحريضكم على النصارى بذنب ميلهم الى الاجانب من أبناء دينهم كراهة لكم وللدولة العلية لاجل الدين، وربما ينقل اليكم أو تسمعون ما يدل على ذلك، الا فاعلموا ان هذا ان صح وفرضنا انه عام فيهم فانه لايبيح لكم الاعتداء على أنفسهم ولا على أموالهم، لان الشريعة الاسلامية لم تضع عقوبة دنيوية على الميل والحب والبغض ونحو ذلك من أعمال القلوب، على ان الحكام هم المطالبون بتنفيذ العقوبات لا أفراد الامة. ولا نبحث هنا في عذر من يحب الاجانب لاحسانهم اليه والى أهل ملته. ومن يبغض الوطني لظنه انه لاينجيه من شره واذاه الا حماية الاجانب له

اذا وقع أقل عدوان منكم على غيركم في هذه الايام، تكونون قد أثبتم بالفعل ان ترك العدوان قبل اليوم انما كان خوفاً من الاجانب لا عملا بهداية الاسلام، ولا قياماً بحقوق تكافل أهل الاوطان، هذه هي التهمة التي يرمينا بها من يجهل حقيقة ديننا وتاريخنا، اذ كانت دولنا أقوى دول الارض كلها، وكان المخالفون لنا في الدين يفضلون حكم خلفاء المسلمين، على حكم أبناء دينهم من الرومانيين

ان لنا في هذه الايام أفضل فرصة لاقناع أبناء جنسنا ووطننا، بما نتحدث به دائما فيما بيننا من حسن نيتنا، ورغبتنا في الاتفاق معهم، على كل ما فيه مصلحتنا المشتركة بيننا

و بينهم على قاعدة المنار الذهبية: (نتعاون فيما نشترك فيه. و يعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه) ونحن متفقون في اللغة وفي مصالح البلاد الزراعيــة والصناعية والتجارية والاجتماعية فنتعاون على ذلك بغاية الاخلاص · ويعذر بعضنا بعضا في أمر الدين

ثم انني أختم الـكلام بما بدأته به من حمدكم وشكركم على بذل الجهد في طاعة الدولة العلية، واثبات كون النهضة العربية نهضة علم وعمران ترتقي بها الدولة العلية، لانهضة مقاومة ومشاكسة للتركية، ولكنني اذكركم بأن الطاعة الواجبة للدولة أنما هي طاعة اوامرها الرسمية الشرعية، فلا تدعوا العامة تنخدع بدعوى الأوامر السرية أو الشفوية. فضلا عن أوامر الجمعيات والاحزاب وغيرها، ولا سيما اذا كانت مخالفة لهداية الشرع ومصلحة الامة والوطن «لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق» والسلام على من أتبع الهدى . ورجح الحق على الهوى.

أخوكم

محمد رشيد رضا

منشئ المنار

﴿ كيف دخلت الدولة العثمانية في الحرب ﴾

لم تلبث الدولة بعد إضرام نار الحرب في أوربة أن أمرت بتعبئة جيشها تعبئة عامة، وان كانت قد «أعلنت الحياد» ثم بثت الالغام في زقاقي الدردنيل والبسفور ومنعت المرور منهما بعدان آوت الى الاستانة البارجتان الألمانيتان اللتان كان يطاردهما الاسطولان الانكليزي والفرنسي - وهما الدردنوط غوبن والطراد برسلو - وكانت دور الصناعة الانكليزية قد صنعت للدولة بارجتين من أحسن نوع الدردنوط وقرب موعد ارسالهما الى الاستانة فلما أعلنت انكلترة الحرب على ألمانية آذنت الدولة العثمانية بالحاق المدرعتين باسطولها، فساء ذلك الدولة العثمانية وطفقت جرائد الاستانة وغيرها من الجرائد العثمانية تطعن في انكلترة أشد الطعن، ثم شاع أن الدولة تعد جيشا في سورية للزحف على مصر وإزالة سيطرة انكلترة عنها، ثم أعلنت الدولة إلغاء الامتيازات الاجنبية فخيف ان يكون ذلك سببا للاعتداء على رعايا دول الاتفاق الثلاثي اللواتي أنكرن هذا الالغاء وحفظن لأنفسهن الحق في العمل الذي يقتضيه مايترتب على ذلك، وان يكون ذلك مقدمة الحرب وسببها، ولكن الدولة لم تسيء معاملة أحد من الاجانب بعد إلغاء امتيازاتهم

أما الجرائد في أوربة ومصر فكانت تصور لقرائها أن في الدولة حزبين أحدهما يميل الى الحرب مع ألمانية ورئيسه أنور باشا ناظر الحربية، وثانيهما يميل الى انكلترة وفرنسة ويرى إجابة رغبتهما الى المحافظة على الحياد التام، وان من أعضاء هذا الحزب الصدر الاعظم سعيد حليم باشا وجمال باشا ناظر البحرية وجاويد بك ناظر المالية، بل قال بعضهم إن من أعضائه طلعت بك ناظر الداخلية أيضا!

كانت انكلترة أشد دول الاحلاف حرصا على محافظة العثمانية على الحياد، واتفقت معهن على ان يضمن لها استقلالها اذا هي حافظت على ذلك، ولكن الدولة سئمت ذلك الاستقلال الصوري الذي لايمنع دول الاجانب أن ينفذن فيها كل مايتفقن عليه وكثيرا مما يختلفن فيه، وان يجعلن بلادها مناطق نفوذ اقتصادي وسياسي، وقد ضمنت لها ألمانية أيضا الاستقلال، وان تعاملها معاملة الامثال، اذا هي انضمت اليها في هذه الحرب، وتقدم اليها ماتحتاج اليه من المال والرجال والذخيرة، فوثق رجال الاتحاد والترقي بذلك وان كان يرتاب فيه غيرهم من العثمانيين

وكانت ألمانية قبل هذه الحرب وبعد حرب البلقان أرسلت الى الاستانة بعثة عسكرية لاصلاح الجيش العثماني، فقامت لذلك دولة الروس وقعدت، وأرغت وأزبدت، ثم انها باعتها البارجتين غوبن وبرسلو وأرسلت اليها كثيرا من ضباط البحرية ومهندسيها خلوا محل البعثة الانكليزية التي كانت الدولة استحضرتها لاصلاح البحرية اثر مغادرتها الآستانة بعد الحرب. وبذلك اشتد الجفاء بين الدولة وبين انكلترة وأحلافها. ووقف اسطول انكليزي فرنسي أمام زقاق الدردنيل مرابطا مراقبا للبارجتين الألمانيتين اللتين لم تعتد دول الأحلاف ببيعهما للعثمانية.

وبذلك قوي نفوذ الألمان في الجيش العثماني وفي البحرية، حتى قطع دول الاحلاف الصلات السياسية معها (في ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٤) على اثر مصادمة بين الاسطولين العثماني والروسي بلغ الروس أحلافهم أن الاسطول العثماني في البحر الاسود كان هو المعتدي فيها وأنه ضرب بعض المواني الروسية أيضا. وبلغ العثمانيون الدول ان الاسطول الروسي هو الذي بدأ بالعدوان. وان الدولة مستعدة لتلافي الحادثة بالطرق السياسية. وقد طلبت انكلترة من سفيرها في الآستانة ان يطالب الدولة العثمانية بالتنصل من تبعة العدوان على روسية وعزل البعثتين الألمانيتين البرية والبحرية، واخراج بحارة غوبن وبرسلو الألمانيتين منهما، وان يمهلها ١٢ ساعة فان لم تفعل فليطلب جواز السفر وليغادر الاستانة، وكذلك فعل هو وسفيرا فرنسة وروسية، وعلى إثر ذلك اطلق الاسطولان الانكليزي والفرنسي قنابلهما على مدخل الدردنيل، وصارت الدولة حربا لدول الاحلاف، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

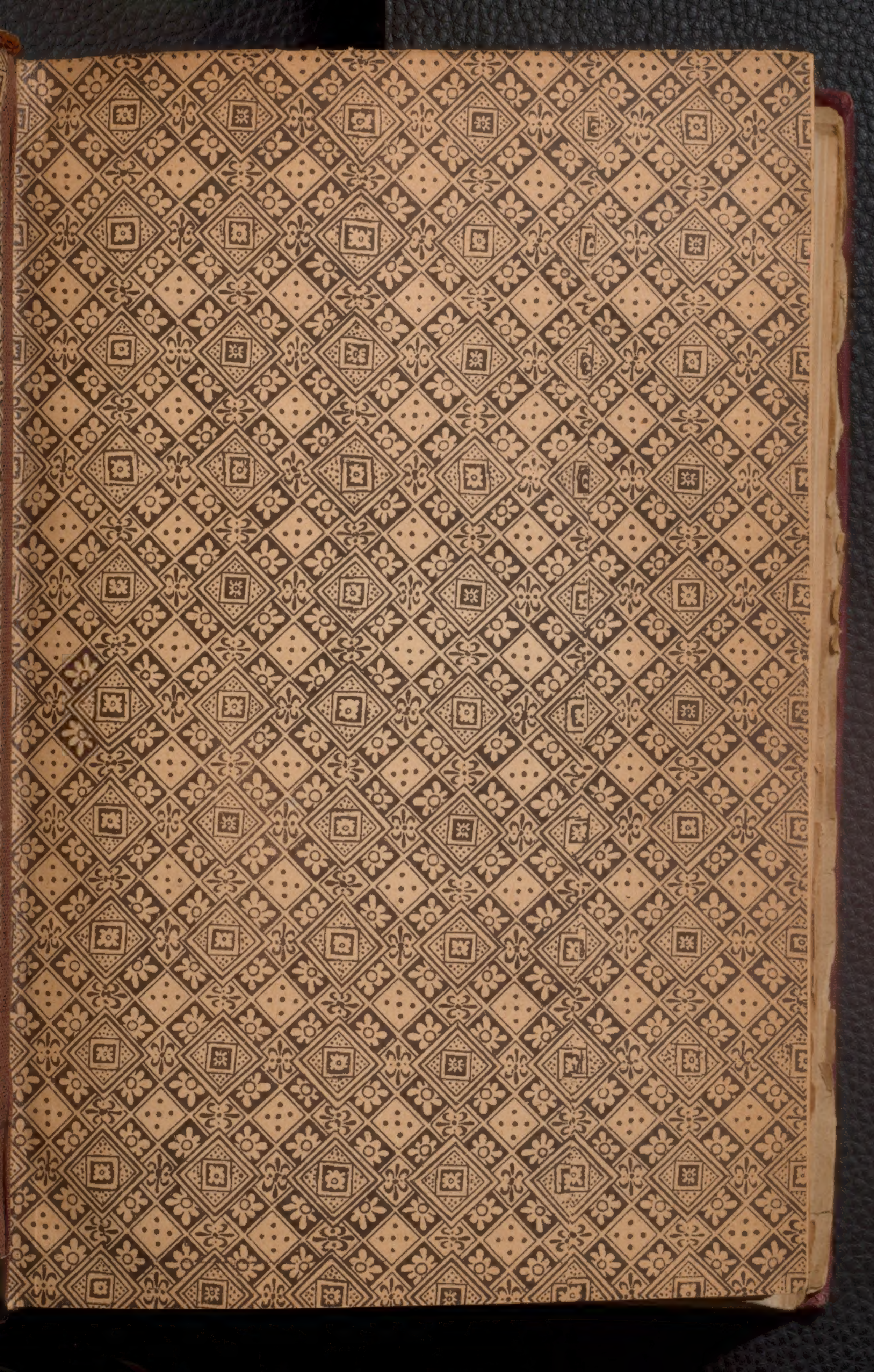
خاتمة السنة السابعة عشرة

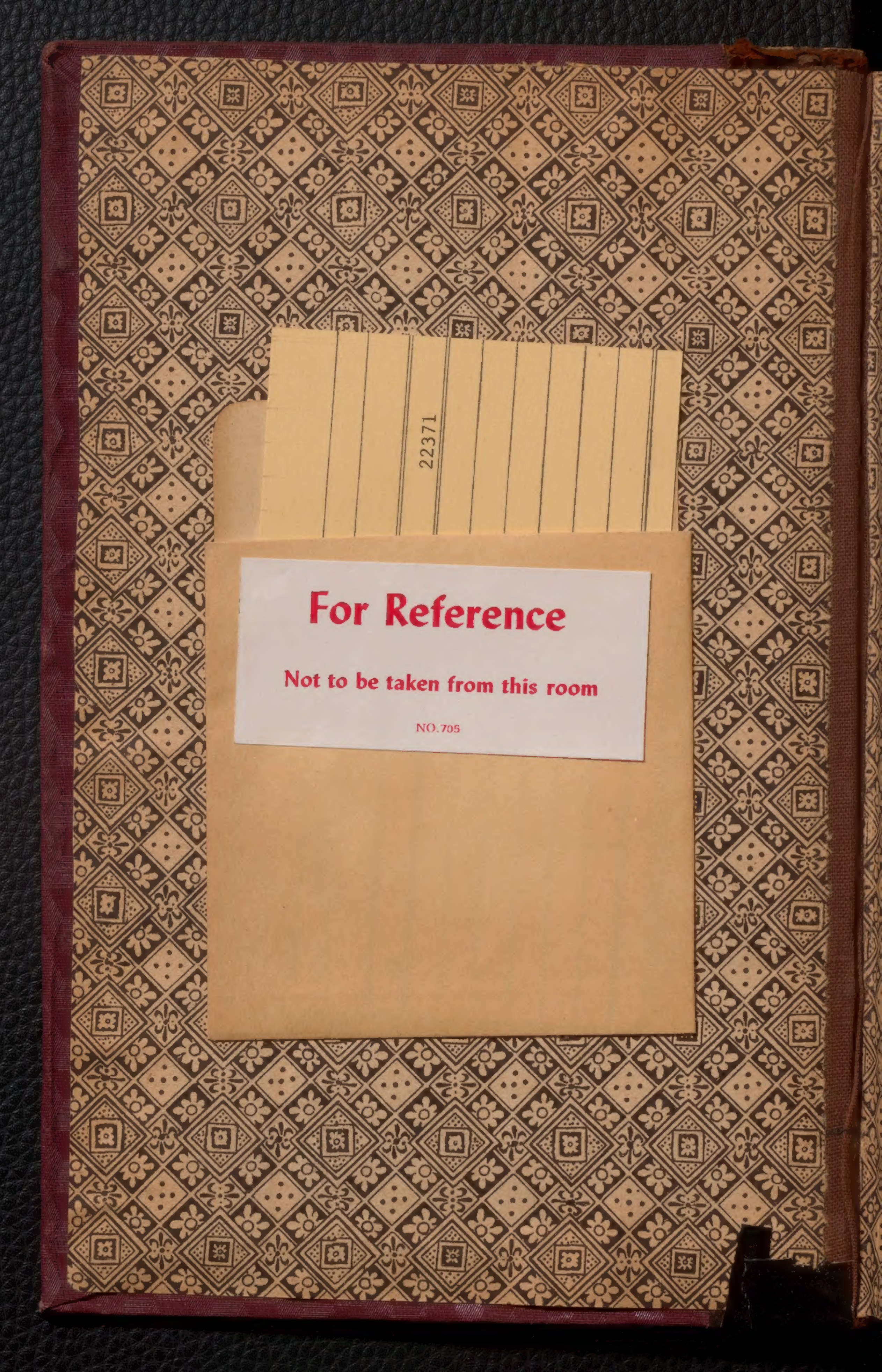
نختم السنة السابعة عشرة بمثل ما افتتحناها به من حمدالله الذي لايحمد على السراء والضراء سواه ؛ واليه يرجع الامر كله ولا حول ولا قوة الا بالله ، واياه نسأل ان يقينا شر هذه الحرب الاوربية ، التي عمت رزاياها جميع البرية ، فكأنها عقاب من الله تعالى للبشر كافة ؛ لا من أوقدوا نارها خاصة ، فكسدت التجارات، وتعسرت جميع المعاملات ، وراقبت الحكومات جميع المطبوعات ، وانقطعت المواصلات والمكاتبات بين بعض الامم والاقطار ، وقلت حتى في البلاد التابعة لحكومة واحدة ، أو حكومات متحالفة متآلفة ·

فكان مما أصاب المنار ان انقطع في أثناء السنة عن المملكة العثمانية ، وبطلت الثقة بوصوله الى كثير من البلاد المشرقية والمغربية ، وانقطعت عنه الحولات المالية من خارج هذا القطر، وقل من يوفيه حقه أو بعض حقه من أهله، لان الناس اتخذوا هذه الحرب عذرا لايستحي من الاعتذار به الاغنياء وكثير من أصحاب الرواتب التي مازلوا يتقاضونها في أوائل الشهور لم تنقصهم الحرب منها شيئا. ولا أخرتها عن أوقاتها قل ما يرد الى المنار من المشتركين حتى لم يعد يكفي لعشر نفقاته ، ولم يتجدد في أيام هذا الضيق عمل جديد للمطبعة ، وغلا ثمن الورق وغيره ، وأما نحن فما غيرنا — ولن نغير ان شاء الله — ماجرينا عليه من الوفاء لعمالنا ومعاملينا ، فعمالنا يوفون أجورهم في كل أسبوع ، ولا نشتري شيئا الا ونؤدي ثمنه دفعة واحدة ، أو أو أقساطا مطردة ، وقد اجازت الحكومة المصرية عند بدء الحرب ما تجيزه سائر الحكومات من تأجيل أداء الديون فلم يحملنا ذلك على تغيير معاملتنا مع أحد

لأجل هذا حسبنا لطول أمد الحرب كل حساب، وخفنا ان نعجز عن الاستمرار على سيرنا هذا عدة سنين ، كما يقدر لهذه الحرب بعض العارفين ، فارتأينا أولا أن نصدر أجزاء السنة في سنتين، ونتقاضى الاشتراك بحسب الاجزاء لابحسب الزمن الذي صدرت فيه، وأشار علينا بعض الاصدقاء الاوفياء بأن ننقص من الاجزاء نصف ونبقي الاشتراك على حاله، ثم نعيده الى ما كان عليه بعد الحرب ،فعز علينا العمل بهذا الرأي. ولكننا عزمنا الآن على جعل سنة المنار عشرة أشهر كأكثر المجلات المصرية، وهي سنة سنها منشئ مجلة الهلال، ودعاني اليها عقب إنشاء المنار فرغبت عنها حرصا على كثرة الفائدة. وايثارا لها على حب الراحة. وانما ألجأت اليها الضرورة

أما الانتقاد على المنار فما ورد علينا منه شيء لم ننشره، فان كان أحد كتب الينا نقدا لشيء ولم ننشره أو ننشر ما كان أجمع منه معاني في موضوعه فليذكرنا بذلك، مبينا مايراه لايزال منتقدا الى الوقت الذي يكتب فيه ، فان نقد الكلام ، من أسباب تحري الكمال ، والله الموفق وله الحمد على كل حال .





22371
For Reference
Not to be taken from this room
NO.705

